سلسلة أركان الإيمان ١

الإِيمَانُ بِاللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ

د. عليّ محمّد محمّد الصَّلَّابي



بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ *﴾ **[التغابن: 11]**

الإِيْمَانُ بِاللهِ جلَّ جَلاَلُهُ

تأليف

د. علي محمد الصلابي

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى كل إنسان في الوجود يبحث عن الطريق لمعرفة الله؛ والإيمان به؛ وتحقيق عبوديته الشاملة على المنهج الصحيح؛ أهدي هذا الكتاب، سائلاً المولى عز وجلّ بأسمائه الحسنى وصفاته العُلا أن يكون خالصاً لوجه الكريم.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا *﴾ [الكهف :110].

د. علي محمد محمد الصلابي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ *﴾ [آل عمران: 102] ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا*﴾ [النساء: 1] ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا *يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا *﴾ [الاحزاب 70 . 71].

يا ربِّ لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيتَ، ولك الحمد بعد الرضى.

أما بعدُ: فهذا الكتاب يتحدّث عن الخالق العظيم، والرازق الكريم، الفعّال لما يريد، الكريم المنّان، الواسع العليم، الذي رأيتُ من خلال مسيرتي في عالم التاريخ عظمتَه في الحياة، وفي قيامِ الدول وزوالها، وانتشارِ الحضارات واندثارِها، وعزِّ الحكومات وإذلالها، وقصص الناس، وفي مخلوقاته العجيبة الغريبة، وفي هذا الكون الفسيح، وحركة التاريخ.

هذا الكتابُ إنّما كان نتاجَ هذه المسيرة، بل إحدى ثمارِها، حيثُ وجدتُ أنَّ الذين آمنوا بالله العظيم، واتبعوا رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، هدى الله قلوبهم، بل زادها إيماناً، لقد عرفوا ربهم، وعلموا أنّ الله هو التواب الرحيم، ذو الفضل العظيم، العزيز الحكيم، الذي ابتلى إبراهيمَ بكلمات، وسمع نداءَ يونسَ في الظُّلمات، واستجابَ لزكريا، فوهبه على الكِبَرِ يحيى هادياً مهدياً، وحناناً من لدنه وكان تقياً.

الله جلّ وعلا الذي أزال الكرب عن أيوب، وألان الحديد لداود، وسخَّر الريح لسليمان، وفلق البحر لموسى، ورفع إليه عيسى، ونجّى هوداً، وأهلك قومه، ونجّى صالحاً من الظالمين، فأصبح قومُه في دارهم جاثمين، وجعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم، وفدى إسماعيل بذبحٍ عظيمٍ، وجعل عيسى وأمَّه ايةً للعالمين.

الله جلّ وعلا الذي أغرق فرعون وقومه، ونجّاه ببدنه، ليكون لمن خلفَه اية، وخسفَ بقارون ودارِه الأرض، ونجّى يوسف من غيابة الجُبِّ، وجعلَه على خزائن الأرض، ونصرَ نوحاً على القوم الكافرين، ونجّاه وأهلَه من الكرب العظيم. الله جلّ وعلا الذي أضحك وأبكى، وأمات وأحيا، وأسعد وأشقى، وأجدَّ وأبلى، ورفع وخفض، وأعزَّ وأذلَّ، وأعطى ومنع. الله جلّ وعلا الذي هدى نوحاً، وأضلَّ ابنَه، واختار إبراهيمَ، وأبعد أباه، وأنقذَ لوطاً، وأهلك امرأته، ولعن فرعونَ، وهدى زوجتَه، واصطفى محمّداً، ومقت عمَّه، وجعل من أنصار دعوته أبناءَ ألدِّ خصومه، كخالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل، فسبحانه عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته[1].

---

[1] الله أهل الثناء والمجد ، د. ناصر الزهراني ص: (41).

الله جلّ وعلا الذي جمع في هذا الوجود بين الكمال والجمال، وعنصرُ الجمال في هذا الكون مقصودٌ قصداً، جمالٌ مقصودٌ، وكمالٌ بلا حدودٍ، فرؤيةُ الجمال على حقيقته لا تكونُ إلا حينما ينظرُ القلبُ بنور الله، فتتكشفُ له الأشياءُ عن جواهرها الجميلة وروائعها البديعة، ويتذكّر اللهَ كلّما وقعت عينُه أو حِسُّه على شيءٍ بديع، أو منظرٍ حَسَنٍ، فيُحِسُّ بالصلةِ، ويشعرُ بالترابط بين المبدعِ وما أبدعَ، والجميلِ وما جمّل، والمحسنِ وما أحسنَ، ويرى مِنْ وراء هذا الجمال جمالَ الله وجلالَه وكمالَه، والقرآن الكريم يوقظُ القلوبَ لتتبُّعِ مواضعِ الحسنِ وآياتِ الجمالِ في هذا الكون البديع ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ *﴾ [المؤمنون :14] ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة :7] وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ *﴾ [ق :6].

وتأمّلْ كلمةَ ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا﴾ إنّه استفهامٌ استنكاري لأولئك الذين لهم أعينٌ يبصرونَ بها، وقلوبٌ لا يفقهون بها، ولا يرونَ ذلك الجمالَ الساحرَ، والإبداعَ الأخّاذ، والحُسْنَ الجذّابَ، الذي يدلُّ على ربِّ العبادِ، ولذلك يكثرُ في القرآن الكريم الأمرُ بالنظرِ لأخذِ العبرةِ، وللإحساسِ بالجمال.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الاعراف :185] .

وقال تعالى: ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *﴾ [الروم :50] .

وقال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِىءُ النَّشْأَةَ الآخرة إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *﴾ [العنكبوت :20] .

وقال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ *أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا *ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا *فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا *وَعِنَبًا وَقَضْبًا *وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً *وَحَدَائِقَ غُلْبًا *وَفَاكِهَةً وَأَبًّا *مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ *﴾ [عبس :24. 32] .

وقال تعالى: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [يونس: 101].

فأينَ الأعينُ الناظرةُ، والقلوبُ المبصرةُ، والأذهانُ المتوقدةُ، والفطرةُ السليمةُ، والمشاعِرُ الحيةُ، والأحاسيسُ المرهَفَةُ؟!

يا الله، ما أروعَ هذا الكون! وما أجملَ هذا الوجود! إنَّ المتأمِّلَ فيه يُبْهَرُ بجماله، وروعةِ نظامه، وعظمةِ إحكامِهِ، كلُّ شيءٍ فيه جميلٌ، ليلُه ونهارُه، صبحُه ومساؤه، أرضُه وسماؤه، بدرُه وشمسُه، حرُّه وبردُه، غيمُه وصحوه،

أخضرُه وأغبرُه، جبالُه وتلالُه[1]، سهولُه ووديانه، بَرُّه وبحرُه، كلُّ شيءٍ جميلٌ، وكلُّ شيءٍ بديعٌ، وكلُّ شيءٍ متقَنٌ، وكلُّ شيءٍ متناسِقٌ، وكلُّ شيءٍ منتَظِمٌ، وكلُّ شيءٍ بقدرٍ، وكُلُّ شيءٍ بإحكامٍ، مِنَ الذرّةِ الصغيرةِ، إلى الجِرْمِ الكبير، ومنَ الخليّةِ الساذجةِ إلى أعقدِ الأجسام.

انظر إلى الإنسان وروعة خَلْقه، وتباينِ أجناسِه، وتعدُّدِ لغاتِه، واختلافِ نغماتِه، فهو جلَّ وعلا قد أحسنَ كُلَّ شيءٍ خلقه، ومنْ أحسنِ مخلوقاتهِ وأجملِها الإنسانُ

[1] الله أهل الثناء والمجد ، ص: (66 ، 67).

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ *﴾ [التغابن: 3] ﴿يَاأَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ *فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ *﴾ [الإنفطار: 6 . 8]

قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ *﴾ [التين: 4] .

انظر إلى السماء وهيبتِها، والنجومِ وفتنتِها، والشَّمسِ وحُسنِها، والكواكبِ وروعتِها، والبدرِ وإشراقِه، والفضاءِ ورحابتِه، تأمّلْ السماء في ليلةٍ حالكةٍ؛ وقد انتشرت فيها الكواكبُ، وبُثَّتْ فيها النجوم.

انظر إلى الأرض كيفَ دحاها، وأخرجَ منها ماءها ومرعاها، والجبالَ أرساها، هذه البحارُ، هذه الأنهارُ، هذا الليلُ، هذا الصبحُ، هذا الضياءُ، هذه الظلالُ، هذه السُّحبُ، هذا التناغُمُ الساري في الوجودِ كلّه، هذا التناسقُ، هذه الزهرةُ، هذه الوردةُ، هذه الثمرةُ اليانعةُ، هذا اللَّبنُ السائغُ، هذا الشَّهْدُ المذابُ، هذه النخلةُ، هذه النحلةُ، هذه النملةُ، هذه الدُّويبةُ الصغيرةُ المجهّزةُ بالأرجلِ والشُّعيراتِ، لتشقَّ طريقَها، وتتعاملَ مع واقعَها، هذه السمكةُ، هذا الطائرُ المغرّدُ، والبلبلُ الشادي، هذه الزاحفةُ، هذا الحيوانُ جمالٌ لا ينفد، وحُسْنٌ لا ينتهي، وقُرَّةُ عينٍ لا تنقطعُ[1] ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ *وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ *يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ *﴾ [الروم: 17 . 19] .

---

[1] الله أهل الثناء والمجد ، ص: (68 ، 69).

الله سبحانه إلهٌ واحدٌ، ليس له شريكٌ، وليسَ له مثيلٌ في ذاته وصفاته وأفعاله، كلُّ ما في الكون من إبداعٍ ونظامٍ وانسجامٍ يدلُّ على أنَّ مبدعَه ومدبَّره واحدٌ، ولو كان وراءَ هذا الكون أكثرُ من مدبِّرٍ؛ وأكثرُ من منظِّمٍ؛ لاختلَّ نظامُه، واضطربَتْ سنَنُهُ ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ *﴾ [الانبياء :22]

وليس التوحيدُ مجرَّد إقرارِ العبد بأنّه لا خالقَ إلا الله، وأنَّ اللهَ ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكُه، كما كان عُبّادُ الأصنامِ مقرّين بذلكَ، وهم مشركون، بل التوحيدُ يتضمّن محبَّةَ اللهِ، والخضوعَ له، والذلَّ له، وكمالَ الانقيادِ لطاعتهِ، وإخلاصَ العبادةِ له، وإرادةَ وجههِ الأعلى بجميعِ الأقوالِ والأعمالِ، والمنعِ والعطاءِ، والحُبِّ والبغض، وهو واحدٌ سبحانه في ألوهيته، فلا يستحقُّ العبادةَ إلا هو، ولا يجوزُ التوجُّه بخوفٍ أو رجاءٍ إلا إليه، لا خشيةَ إلا منه، ولا ذلَّ إلا إليه، ولا طمعَ إلا في رحمته، ولا اعتمادَ إلا عليه، ولا انقيادَ إلا لحكمه[1].

الله جلّ وعلا كلُّ الخلقِ مفتقرونَ إليه، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ *﴾ [فاطر :15] .

قد يُعْطَى الإنسانُ أموالاً، وقد يُمْنَحُ عقاراً، وقد يُرْزَقُ عيالاً، وقد يُوْهَبُ جاهاً، وقد يَنَالُ منصباً عظيماً، أو مركزاً كريماً، أو زعامةً عريضةً، أو رياسةً مكينةً، قد يحفُّ به

---

[1] الله أهل الثناء والمجد ، ص: (85).

الخدمُ، ويحيطُ به الجندُ، وتحرسُه الجيوشُ، ويرضَخُ له الناسُ، وتذلُّ له الرؤوسُ، وتدينُ له الشعوبُ، ولكنّه مع ذلك فقيرٌ إلى الله، محتاجٌ إلى مولاه[1].

الله تعالى أسعدَ عبادَه بكتابه، وأبهجَ قلوبَهم بكلامه، وأنارَ بصائِرَهم بقراءته، أكثرُهم قراءةً له أشدُّهم تعظيماً له، وأقربُهم منزلةً منه أقربُهم من كلامه، وأقرؤهم لوحيه.

كلامٌ معجزٌ، وقرآن مبهجٌ، وحبلٌ متينٌ، ونورٌ مبينٌ، ينطِقُ بالعظمةِ، ويهتِفُ بالإبداعِ، ويصدَحُ بالألوهيةِ، ويشهدُ بالربوبية[2].

قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ *﴾ [الزمر :23] .

وجودُ الله جلّ وعلا أمرٌ ثابتٌ في النفوس، متمكّنٌ في الفِطَرِ، مزروعٌ في الأذهانِ، مغروسٌ في الأفئدةِ، لا يحتاجُ إلى دليلٍ، ولا يتطلّب إثباتٍ، ولا يفتِقرُ إلى توكيدٍ.

قال الشاعر (من الوافر):

ولـيسَ يصـحُّ في الأذهـانِ شـيءٌ   إذا احتــاجَ النهــارُ إلى دَلِيْــلِ[3]

ولكنَّ بعضَ ذوي الفِطَرِ المنكوسةِ، والأنْفُسِ المريضةِ، والعقليّات المتعنّتَةِ، قد يجادلون في ذلك، مع أنّه مغروسٌ في حقيقة ضمائرهم ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ [النمل :14] .

---

(1) المصدر نفسه ص: (126 ، 127).

(2) المصدر نفسه ص: (490).

(3) المصدر نفسه ص: (565).

وجاء القرآن الكريمُ مزدهراً بآيات تنطِقُ بالعظمةِ، وتشهدُ بالربوبيَّةِ، تَسُرُّ نفوسَ الواثقين، وتدحَضُ مزاعمَ المارقين ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ *﴾ [الطور: 35] .

وقد تعرّضَ أنبياءُ اللهِ وأمناءُ الوحي؛ وحملةُ الدعوةِ؛ ومصابيحُ الدجى؛ وأنصارُ التوحيدِ؛ لعددٍ من المتعنتين على مرِّ العصورِ، مع اختلافٍ في طبقاتهم، وتبايُنٍ في تفنُّناتِهم، إلاّ أنّ بعضَهم وصلَ به الأمرُ إلى أنِ ادّعى أنَّه ربُّ العالمين، فأيَّد اللهُ أولياءَه بحججٍ قاهرةٍ، ودلائلَ باهرةٍ، وأدلةٍ قاصمةٍ، وصواعقَ مرسلةٍ، تدمِّرُ أباطيلَهم، وتنسِفُ افتراءاتِهم، وتزلزِلُ كياناتِهم، وتُظْهِرُ سُخْفَ عقولِهم، وقلّة فهمهم، وانحطاطَ أمانيهم.

فهذا إبراهيمُ عليه السلام يحاوِرُ النمرود، الذي طغى وتجبّر، وعتا وتكبّر، وادّعى الربوبيةَ من دون المولى عزّ وجل، قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ *﴾ [البقرة :258] .

فحينما أدلى إبراهيمُ بالدليلِ الأوّلِ على وجودِ الله تعالى وربوبيتِهِ فقال: قال النمرود: وأنا أحيي وأميتُ (فأتى برجلين قد تحتّمَ ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، فأمرَ بقتلِ أحدِهما، وعفا عن الآخر، فكأنّه قد أحياه، وأماتَ الآخر) وهذه حجةٌ واهيةٌ، وردٌّ سخيفٌ، ولكنَّ إبراهيمَ عليه السلام تدرّجَ معه في المحاجَّةِ، فأتاه بالضربةِ القاضيةِ، والحجَّةِ الدامغةِ، فقال:: أي هذه الشمسُ مسخرةٌ كلَّ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ

الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾، تطْلعُ من المشرقِ، كما سخّرها خالقُها ومسيّرُها وقاهِرُها اللهُ، الذي لا إله إلا هو، خالقُ كلِّ شيءٍ، فإنْ كنتَ كما زعمتَ أنَّك تحيي وتميتُ، فأتِ بهذهِ الشمسِ مِنَ المغربِ، فإنَّ الذي يحيي ويميت هو الذي يفعلُ ما يشاءُ، ولا يمانَعُ، ولا يغالَبُ، بل قد قهرَ كلَّ شيءٍ، ودانَ له كُلُّ شيءٍ، فإنْ كنتَ كما تزعمُ فافعل هذا، فإنْ لم تفعلْه، فلستَ كما زعمتَ، وأنتَ تعلمُ وكلُّ أحدٍ يعلمُ أنك لا تَقْدِرُ على هذا، ولم يبقَ للنمرود كلامٌ يجيبُ فيه الخليلَ عليه السلام[1]، ولهذا قال تعالى: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ *﴾ [البقرة :258] .

وقال الشاعر (من المتقارب):

فيا عجباً كيفَ يُعْصَى الإلهُ ... أمْ كيفَ يجحَدُهُ الجاحِدُ
ولله في كلِّ تحريكةٍ ... وفي كلِّ تسكينةٍ شاهِدُ
وفي كُلِّ شيءٍ له ايةٌ ... تَدُلُّ على أنَّه واحِدٌ

وما أجمل هذه الأبياتِ الرائعةِ التي قالها الشاعِرُ إبراهيمُ بريول رحمه الله! (من الكامل):

إنّي أويتُ لكلِّ مأوًى في الحيا ... ةِ فما رأيتُ أعزَّ مِنْ مأواكا
وتَلَمَّسَتْ نفسي السبيلَ إلى النجا ... ةِ فلمْ تجِدْ منجًى سوى مَنْجَاكا
وبحثتُ عَنْ سِرِّ السعادةِ جاهِداً ... فوجدتُ هذا السِّرَ في تَقْوَاكا
فليرضَ عنّي الناسُ أو فليسخطوا ... أنا لم أعدْ أسعَى لغيرِ رِضَاكا
أدعوكَ يا ربِّي لتغفِرَ حوبتي ... وتعينَني وتمدَّني بهُدَاكا
فاقبلْ دعائي، واسْتَجَبْ لرجائيا ... ما خابَ يوماً مَنْ دَعا ورَجَاكا

---

[1] أهل الثناء والمجد ص: (567).

إلى أن قال:

يا أيُّهـا الإنسـانُ مَهْـلاً مـا الـذي ... باللهِ جَـلَّ جلالُـه أَغْرَاكـا

فاسـجدْ لمـولاكَ القـديرَ فإنَّمـا ... لا بـدَّ يومـاً تَنْتَهِـي دُنياكـا

وتكـونُ في يـومِ القيامـةِ مـاثلاً ... تُجْـزَى بمـا قَـدْ قدّمَتْـهُ يَـدَاكا[1]

إنَّ حقائقَ الإسلام ثابتةٌ لا تتغير، منذ أُنزلتْ على رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قيام الساعة، المرجعُ فيها كتابُ اللهِ وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ولكنّ علماءَ الأُمّة في كلِّ جيلٍ. وطلاّبَ العلمِ فيها. يتناولونها بالشرح والتفسيرِ، من خلالِ الواقعِ الذي يعيشُه كلُّ جيلٍ، وما جدَّ فيه من نوازلَ، وما حدثَ فيه من انحرافٍ في الفهمِ أو السلوكِ، وإنَّ جيلنا الذي نعيشُ فيه لهو مِنْ أحوجِ الأجيالِ إلى التعرُّفِ على حقائق دينه، وخصوصاً أركانِ الإيمان الستّةِ، وهذا الكتابُ الذي بين يدي القارئ يتناول الركن الأول (الإيمان بالله عز وجل) وستلحقه بإذن الله تعالى دراساتٌ أخرى في أركانِ الإيمان الستة، والأخلاقِ، والتربيةِ الروحيةِ، والسُّننِ الإلهية، ومقاصدِ الشريعةِ، والسياسةِ الشرعيةِ، وعلمِ المصالحِ والمفاسدِ، وغيرها من الدراساتِ المنهجيّةِ الهادفةِ إلى المساهمة في نهضة الأمة، وانطلاقتها الحضارية الجديدة المرتقبة.

هذا وقد قسّمتُ هذا الكتابَ إلى سبعة مباحثَ:

المبحث الأول: معنى (لا إله إلا الله محمَّدٌ رسول الله)، وبيّنتُ فضلَ (لا إله إلا الله)، وأنَّها أفضلُ الذكر، وتحدّثتُ عن شروطها: كالعلمِ، واليقينِ، والقبولِ، والانقيادِ،

---

[1] المصدر نفسه ص: (550).

والصدقِ، والإخلاصِ، والمحبَّةِ، وارتباطِها بالولاءِ والبراءِ، واثارِ الإقرارِ بهذه الكلمةِ في حياتنا.

وفي المبحثِ الثاني والثالث: تكلّمتُ عن إثباتِ وجود الخالق، وتوحيدِ الربوبيّةِ، وأشرتُ لدليلِ الخَلْقِ، ودليلِ الفِطْرةِ والعَهْدِ، ودليلِ الافاقِ، ودليلِ الأَنْفُسِ، ودليلِ الهدايةِ، ودليلِ انتظامِ الكونِ وعدمِ فسادِهِ، ودليلِ التقدير، ودليلِ التسويةِ، التي جاءت في القرآن الكريم.

ووضحّت في المبحثِ الرابع والخامس: توحيدَ الأسماءِ والصفاتِ، وتوحيدَ العبادة، وتكلّمت عن علاقةِ تحكيم الشريعة بالتوحيدِ، والاثارِ الحسنةِ للحُكْمِ بما أنزل الله: كالاستخلافِ، والتمكينِ، والأمنِ، والاستقرارِ، والنَّصرِ، والفتحِ، والعزِّ، والشَّرفِ، وبركةِ العيشِ، ورَغَدَهِ، والهدايةِ، والتثبيتِ، والفلاحِ، والفوزِ، والمغفرةِ، وتكفيرِ السيئاتِ، ومرافقةِ النبيّينَ والصدّيقين.

كما وقفتُ مع الاثارِ السيئةِ للحكم بغير ما أنزلَ الله: كقسوةِ القلبِ، والضَّلالِ عن الحقِّ، والوقوعِ في النفاقِ، والحرمانِ من التوبةِ، والصدِّ عن سبيل اللهِ، وغيابِ الأمنِ، وانتشارِ الفوضى، وانتشارِ العداوةِ والبغضاء، والحرمان من النَّصْرِ والتمكينِ، وهول العقابِ الذي يَنْتَظِرُ المبدّلين لشرعهِ، والإهانةِ عند قَبْضِ الأرواح، والأكلِ من النار، وغضبِ الجبارِ، والعذابِ المهين.

وتكلّمتُ عن جهودِ النبيّ صلى الله عليه وسلم في حمايةِ توحيدِ العبادة: كالنهي عن الغلوّ والإطراء لشخصه الكريم، وكيفيّةِ التعامل مع الرُّقى والتمائم، ونهيه عن الكهانة... إلخ.

أما في المبحثِ السادسِ: فكان الحديثُ عن الإيمان بالله عز وجل، واخترتُ كلمةَ الإيمان بدلاً من العقيدةِ، واستخدمتُها في كتابي تماشياً مع العَرْضِ القرآني، الذي عرضَ مقرَّرات الإيمانِ، وخصائصَه ضمنَ المصطلح اللطيف، والكلمة الحبيبة (الإيمان) ولا شكَّ أنَّ العودةَ إلى تعبيرِ القرآن الكريم والرسولِ صلى الله عليه وسلم أنفعُ وأولى مع استعمال المصطلحات الأخرى، فكلمةُ الإيمانِ أرقى معنًى، وأشفُّ ظِلاًّ، وأدلُّ على المقصودِ من الكلمات الأُخرى، فهي تُشيعُ في الأجواءِ ـ عندما تُكْتَبُ أو تُنْطَقُ ـ معانيَ الأمنِ والثقةِ، وتلقِي ظلالَ الطمأنينةِ واليقينِ، وتوحي بمعاني الإلزامِ والتصديقِ والخضوع، وتُطْلِقُ إيحاءاتِ الثباتِ والدوامِ، والمتانةِ والحيويةِ، وكلمةُ العقيدةِ لا تتضمَّنُ كلَّ هذا.

كما أني بيّنتُ الفرقَ بين الإسلامِ والإيمانِ والإحسانِ، والأسسَ التي يقومُ عليها الإيمانُ بالله عز وجل، وشرحتُ بعضَ الآيات القرآنية التي تحدّثتْ عن الإيمانِ، كزينةِ الإيمانِ، ونورِ الإيمانِ، وروحِ الإيمانِ، ولخّصتُ في هذا الكتاب أهمَّ أسبابِ قوةِ الإيمان مثل:

1 ـ معرفة أسماء الله الحسنى.

2 ـ تدبر القرآن على وجه العموم.

3 ـ معرفة النبيّ صلى الله عليه وسلم.

4 . التفكير في الكون، والنظر في الأنفس.

5 . الإكثار من ذكر الله في كلِّ وقت.

6. معرفة محاسن الدين.

7 . الاجتهاد في التحقق من مقام الإحسان.

8 . الدعوة إلى الله.

9 . توطين النفس على مقاومة ما ينافي الإيمان.

10 . معرفة حقيقة الدنيا، واعتبارها مزرعةً للآخرة.

وعرضتُ بعضَ صفات المؤمنين التي جاءت في القرآن الكريم، وشرحتُها، وبيّنْتُ أهميتَها، وركّزتُ على أهمِّ فوائد الإيمان وثمراته، كالاغتباطِ بولايةِ الله الخاصّة، ودفاع اللهِ عن المؤمنين، والفوزِ برضا الله، وحصولِ البشارةِ بكرامةِ الله، وحصول الفلاحِ والهدى، والانتفاعِ بالمواعظِ والتذكيرِ، والشكرِ، والصبرِ، وتأثيرِه على الأعمالِ والأقوالِ، وهدايةِ الله إلى الصراط المستقيم، ومحبةِ الله وللمؤمنين مِنْ خلقه، ورفع الله لمكانتهم.

وفي المبحثِ السابع والأخير: كان الحديثُ عن الشركِ، والكُفْرِ، والنفاق، والردة، والفسق، والمعاصي.

أيها القارئُ الكريم، أضعُ بين يديكَ هذا الكتابَ، راجياً من اللهِ أن يحيا قلبُك، وتزدادَ هدايةً مع كلِّ معرفةٍ جديدةٍ عن ربِّكَ، فالهدفُ من كتابتِهِ هو زيادةُ إيمانِكَ بربِّ العالمين، بعيداً عن العوائق التي وُضعتْ في طريق الإيمانِ، الذي بيّنه رسولُنا محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، وسار عليه الصحابةُ الكرامُ، سهلاً ميسّراً، دونَ عناءٍ ولا شقاءٍ، فآمنوا

بربهم، فهدى الله قلوبَهم، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ *﴾ [التغابن :11] .

هذا وقد انتهيتُ من هذا الكتاب يوم الأحد في الساعة الثالثة إلا ربع ظهراً بتاريخ 1430/5/8 هـ يوافقه 2009/3/3 م بالدَّوحة، والفضلُ للهِ منْ قبلُ ومِنْ بعدُ، وأسأله سبحانه بأسمائه الحسنى وصفاته العُلا أنْ يجعلَ عملي لوجهه خالصاً، ولعبادِه نافعاً، ويشرحَ صدورَ العبادِ للانتفاعِ به، ويبارِكَ فيه بمنّه وكرمِهِ وجودِه، وأن يثيبَ إخواني الذين أعانوني من أجلِ إتمام هذا الجهد المتواضِع، ونرجو من كلِّ مسلمٍ يصلُه هذا الكتاب أنْ لا ينسى العبدَ الفقير إلى عفو ربِّه ومغفرته ورحمته ورضوانه من دعائه ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ *﴾ [النمل :19] .

وقال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *﴾ [فاطر :2] .

وقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ *وَسَلاَمٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ *وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *﴾ [الصافات :180 . 183] .

سبحانك اللهمَّ وبحمدك، أشهدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ أنتَ، أستغفرُكَ وأتوبُ إليك، وآخر دعوانا أنِ الحمدُ لله رب العالمين

علي محمد محمد الصلابي

المبحث الأول

معنى لا إله إلا الله محمد رسول الله
وفضلُها وشروطُها

أولاً ـ معنى (لا إله إلا الله محمد رسول الله).

ثانياً ـ فضل كلمة (لا إله إلا الله).

ثالثاً ـ أفضل الذكر (لا إله إلا الله).

رابعاً ـ أشعة (لا إله إلا الله) تبدِّدُ ظلماتِ القلوب.

خامساً ـ التوافق بين (لا إله إلا الله) و(إياك نعبد).

سادساً ـ شروط (لا إله إلا ا لله).

سابعاً ـ ارتباط (لا إله إلا الله) بالولاء والبراء.

ثامناً ـ اثار الإقرار (بلا إله إلا الله).

المبحث الأول : معنى لا إله إلا الله محمد رسول الله وفضلُها وشروطُها

أوَّلُ كلمةٍ يدخلُ بها الإنسانُ بوّابةَ الإسلامِ، ويصلُ إلى مدارجِ التوحيد، ويرتقي في مراقي العبودية، هي كمةُ (لا إله إلا الله محمد رسول الله) التي بموجبها يعترفُ العبدُ للهِ عزّ وجلّ وحدَه بالربوبية والألوهية، ولمحمَّدٍ صلى الله عليه وسلم بالرسالةِ.

أنْ يشهدَ العبدُ أنَّ الله هوَ المستحقُّ للعبادةِ، وأنْ تنصَرفَ قواه ـ قوى عقلِهِ وقلبِهِ وبدنهِ وجوارحِه ـ في التسبيح، والتهليلِ، والتمجيد، والعبودية لهذا الإلهِ العظيم، الذي أنتَ أيُّها الإنسانُ من بعضِ فضلِه، ومن بعضِ خلقِه، فكلُّ ذرَّاتِ كيانك الداخلية تعترِفُ به، وتمجِّده، وتسبِّحه، شئتَ أم أبيتَ، غفلتَ أم انتبهت، حَيِيْتَ أم مِتَّ، آمنتَ أم كفرتَ، فيبقى اختيارُ الإنسانِ أن يعبدَ ربَّه سبحانه وتعالى طَوْعاً بما أمره الله تعالى، وبما جاء على ألسنةِ رسلِهِ المكرّمين عليهم الصلاة والسلام[1].

وأن يشهدَ أنَّ محمَّداً صلى الله عليه وسلم الخاتمَ للرسل هو عبدُ اللهِ ورسولُه، أرسلَه ربُّنا إلى الخَلْقِ أجمعين، من الإنس والجن، وذلك إقراراً باللسانِ، وإيماناً بالقلب، بأنَّه رحمةٌ مهداةٌ للعالمين.

أولاً ـ معنى (لا إله إلا الله محمد رسول الله):

إن معنى كلمة: (لا إله إلا الله) أنَّه لا معبودَ بحقٍّ إلا الله، فهو وحدَه سبحانه المستحقُّ بأنْ تصرفَ له جميعُ العباداتِ، وتكونَ خالصةً له دون سواه، قال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَانُ الرَّحِيمُ *﴾ [البقرة: 163] وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ *

(1) مع الله ، د. سليمان العودة ، ص: (39).

وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الزخرف: 26 . 28] وقال تعالى: ﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ [آل عمران: 2] .

ومعنى شهادةِ (أنَّ محمد رسول الله) الإقرارُ باللسانِ، والإيمان بالقلبِ، بأنَّ محمَّدَ بنَ عبد الله القرشيَّ الهاشميَّ رسولُ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ إلى جميعِ الخلقِ من الجنِّ والإنسِ، قال تعالى: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمنوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الاعراف: 158] وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: 1] .

فكلمة لا إله إلا الله تشمل جزأين، النفي والإثبات:

1 . أما (لا إله): فنافيةٌ جميعَ ما يُعْبَدُ مِنْ دونِ الله تعالى، فلا يستحقُّ أنْ يُعْبَدَ أحدٌ سواه، و«النكرةُ في سياق النفي تفيدُ العمومُ» فهي تشملُ كلَّ ما يمكِنُ أنْ يُتوجَّه إليه بالعبادةِ، وكلَّ مَنْ تُصْرَفُ إليه غير الله تعالى[1].

2 . أما (إلا الله): فَمُثْبِتَةٌ العبادةَ للهِ تعالى، فهو الإله الحقُّ، المستحقُّ للعبادة، فإنَّ خبر (لا) المحذوفَ (بحق) هو الذي جاءت به نصوصُ الكتاب المبين، فمعنى (لا إله بحق إلا الله) أي: لا معبودَ بحقٍّ إلا الله، فكما تفرَّد سبحانه وتعالى بالخَلْقِ، والرزق، والإحياءِ، والإماتةِ، والإيجادِ، والإعدامِ، والنفعِ، والضّرِ، وغير ذلك من معاني ربوبيته، ولم يشارِكْه أحدٌ في خلقِ المخلوقات، ولا في التصرّفِ في شيءٍ منها، فكذلك تفرُّدُه سبحانه بالأُلوهيةِ حقٌّ لا شريكَ له، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ [لقمان: 30] .

---

[1] العقيدة الصافية ، سيد سعيد عبد الغني ، ص: (260).

3 . أما لفظ الجلالة في كلمة الشهادة (الله) عزَّ وجلَّ فهو اسمٌ من أسمائه جلَّ وعلا، بل هو اسمه الأعظم عندَ قومٍ، وهذا أكثرُ الأسماءِ تردُّداً في القرآن والسنة.

و(الله) هو أكثرُ الأسماءِ اشتهاراً وترديداً على ألسنةِ المخلوقين كلّهم بمختلف لغاتهم وألسنتهم.

و(الله) هو الاسم الدالُّ على الذاتِ العظيمةِ الجامعةِ لصفاتِ الألوهية والربوبية، وهو اسمٌ له وحدَه، لا يتعلّق به أحدٌ سواه، ولا يُطْلَقُ على غيره، ولا يدّعيه أحدٌ مِنْ خلقه.

و(الله) اسمٌ للربِّ المعبودِ المحمودِ، الذي يمجّدهُ الخلقُ، ويسبّحونه، ويحمَدونه، وتسبّحُ له السماواتُ السبع، والأرضونَ السبعُ، ومن فيهنّ، والليل والنهار، والإنس والجن، والبَرُّ والبحر ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا *﴾ [الإسراء :44] .

و(الله) هو الربُّ الذي تألَهُهُ القلوبُ، وتحنُّ إليه النفوسُ، وتتطلَّعُ إليه الأشواقُ، وتحِبُّ وتأنَسُ بذكرِهِ وقربِهِ؛ وتشتاقُ إليه؛ وتفتقر إليه: المخلوقاتُ كلُّها في كلِّ لحظةٍ وومضةٍ، وخطرةٍ وفكرةٍ، في أمورِها الخاصّةِ والعامّةِ، والكبيرةِ والصغيرةِ، والحاضرةِ والمستقبلةِ، فهو مبديها ومعيدُها، ومُنْشِئُها وباريها، وهي تدينُ له سبحانه وتُقِرُّ، وتفتقِرُ إليه في كلِّ شؤونها وأمورِها، فما مِنْ مخلوق إلا ويشعرُ بأنَّ الله تعالى طوّقه مِنَناً ونعماً، وأفاضَ عليه من الائه وكرمه وإفضاله وإنعامه بالشيء الكثير، فجديرٌ إذًا أنْ يتوجَّه قلبُ الإنسان إلى الله تبارك وتعالى بالحبِّ والتعظيم والحنين.

و(الله): عظيمٌ في ذاته، وصفاته، وأسمائه، وجلاله، ومجده، لا تحيطُ به العقولُ، ولا تدركُه الأفهام، ولا تَصِلُ إلى عظمته الظنون، فالعقولُ تحارُ في عظمته، وإن كانت

تستطيع بما مُنِحَتْ من الطّوْقِ والقدرةِ على أن تدرِكَ جانباً من هذه العظمةِ، يمنحُها محبةَ اللهِ، والخوفَ منه، والرجاءَ فيه، والتعبُّدَ له، بكلِّ ما تستطيع[1].

قال الشاعر (من الكامل):

للهِ في الآفـــــاقِ آيات لعـــــــلْ	لَ أقلَّهـــا هـــو مـــا إليـــه هَـــدَاكَا
ولعـــلَّ مـــا في الـــنَّفْسِ مِـــنْ آياتـــهِ	عَجَـبٌ عُجَـابٌ لـو تَـرَى عَيْنَاكـا
والكـــونُ مشـــحونٌ بأســـرارٍ إذا	حاولـــتَ تفســـيراً لهـــا أعياكـــا[2]

و(الله) هو الإله المعبود، الذي يُخْلِصُ له المؤمنون قلوبَهم، وعبادتهم، وصلاتَهم، وحَجَّهم، وأنساكَهم، وحياتَهم، وآخرتَهم ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ *﴾ [الانعام: 162-163] .

وروحُ (لا إله إلا الله) وسرُّها: إفرادُ الربِّ جلّ ثناؤه، وتقدّست أسماؤه، وتباركَ اسمُه، وتعالى جَدُّه، ولا إله غيرُه بالمحبةِ، والإجلالِ، والتعظيمِ، والخوفِ، والرجاءِ، وتوابعِ ذلك من التوكلِ، والإنابةِ، والرغبةِ، والرهبةِ، فلا يُحَبُّ سواه، بل كلُّ من كان يحِبُّ غيره فإنّما يحبُّه تبعاً لمحبته، ولأنّه وسيلةٌ إلى زيادةِ محبته، ولا يُخَاف سواه، ولا يُرْجَى سواه، ولا يُتَوَكَّلُ إلاَّ عليه، ولا يُرْغَبُ إلاَّ إليه، ولا يُرْهَبُ إلاَّ منه، ولا يُحْلَفُ إلاَّ باسمِهِ، ولا يُنْذَرُ إلاَّ له، ولا يُتَابُ إلاَّ إليه، ولا يُطَاعُ إلاَّ بأمرِهِ، ولا يُحْتَسَبُ إلاّ له، ولا يُسْتَعَانُ في الشدائِد إلاّ به، ولا يُلْتَجَأُ إلاّ إليه، ولا يُسْجَدُ إلاّ له، ولا يُذْبَحُ إلا له وباسمِهِ، يجتمع ذلك في حرفٍ واحدٍ، هو أنْ لا يُعْبَدَ بجميع أنواعِ العباداتِ إلاّ هو.

---

[1] مع الله ، د. سليمان العودة ، ص: (36 ، 37).

[2] المصدر نفسه ، ص: (39).

فهذا هو تحقيقُ شهادةِ أنْ لا إله إلا الله، ولهذا حرَّمَ الله على النارِ مَنْ شهدَ أنْ لا إله إلا الله حقيقةً، ومحالٌ أن يدخلَ النارَ مَنْ تحقَّقَ بحقيقةِ هذه الشهادة، وقامَ بها كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ *﴾ [المعارج: 13] فيكونُ قائماً بشهادتهِ في باطنهِ وظاهره، وفي قلبه وقالبه[1].

ومقتضى هذه الشهادة أنْ تصدِّقَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أخبرَ، وأن تمتثلَ أمرَه فيما أمر، وأنْ تتَجَنَّبَ ما عنه نهى وزجر، وأنْ لا تعبدَ الله إلا بما شرع، وأنْ لا تعتقدَ أنَّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم حقّاً في الربوبية، وتصريفِ الكون، أو حقّاً في العبادةِ، بل هو صلى الله عليه وسلم عبدٌ لا يُعْبَدُ، ورسولٌ لا يكذَّبُ، ولا يملِكُ لنفسِهِ ولا لغيرهِ شيئاً منَ النفع أو الضرِّ إلا ما شاء الله[2].

لقد عُرِفَتْ (لا إله إلا الله) لدى المسلمين (بكلمة التوحيد) و(كلمة الإخلاص) و(كلمة التقوى)، وكانت (لا إله إلا الله) إعلانَ ثورةٍ على جبابرةِ الأرض وطواغيتِ الجاهلية، ثورةٍ على كل الأصنام والالهة المزعومة من دون الله، سواء كانت شجراً أم حجراً أم بشراً.

وكانت (لا إله إلا الله) نداءً عالمياً لتحريرِ الإنسان من عبوديةِ الإنسان والطبيعة وكلّ مَنْ خُلِقَ، وكانت (لا إله إلا الله) عنوانَ منهجِ اللهِ الذي لا تعنو الوجوهُ إلاّ له، ولا تنقادُ القلوبُ إلاّ لحكمه، ولا تخضعُ إلاّ لسلطانه[3].

---

[1] الجواب الكافي لابن القيم ، ص: (139).
[2] الأمثال في القران ، د. عبد الله جربوع (1؛233).
[3] الإيمان والحياة للقرضاوي ، ص: (31).

ثانياً ـ فضل كلمة (لا إله إلا الله):

لقد ورد في كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم من الفضائل الجمّة لهذه الكلمة، والخصالِ العديدة، والأوصافِ الحميدةِ، ما يَصْعبُ استقصاؤه في هذا الموضع، فهي كلمةٌ قامت بها الأرضُ والسماوات، وخُلِقَتْ لأجلها جميعُ المخلوقاتِ، وبها أَرسلَ الله تعالى رسلَه، وأنزلَ كتبَه، وشرعَ شرائعَه، ولأجلِها نُصِبَتْ الموازينُ، ووضعت الدواوينُ، وقام سوقُ الجنّة والنار، وبها انقسمتِ الخليقةُ إلى المؤمنين والكفار، والأبرار والفجّار، فهي منشأُ الخلقِ والأمر، والثوابِ والعقابِ، وهي الحقُّ الذي خُلِقَتْ له الخليقةُ، وعنها وعن حقوقها السؤالُ والحسابُ، وعليها يقعُ الثوابُ والعقابُ، وعليها نُصِبَتِ القبلةُ، وعليها أُسِّسَتِ الملّةُ، ولأجلِها جُرِّدَتِ سيوفُ الجهادِ، وهي حقُّ اللهِ على جميعِ العبادِ، فهي كلمةُ الإسلام، ومفتاحُ دارٍ السلامِ، وعنها يُسْأَلُ الأولون والآخرون، فلا تزولُ قدما العبدِ بين يدي الله حتى يُسْأَلَ عن مسألتين: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟.

فجوابُ الأولى: بتحقيق (لا إله إلا الله) معرفةً، وإقراراً، وعملاً.

وجواب الثاني: بتحقيق (أن محمداً رسول الله) معرفةً، وإقراراً، وانقياداً، وطاعةً[1].

ومما ورد في فضل هذه الكلمة في القرآن الكريم أنّها وُصِفَتْ بالكلمة الطيبة، والقولِ الثابتِ، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ *تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ *﴾ [ابراهيم :24 ـ 25] وأنها العروة الوثقى، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انْفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة :256] .

---

[1] زاد المعاد (34/1).

ومن فضائلها أنّ الرسل جميعَهم أُرسلوا بها مبشرين ومنذرين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ *﴾ [الانبياء :25] إلى غير ذلك من الفضائل التي ذُكِرتْ في القرآن الكريم.

وأما ما ورد في فضلها في السنة المشرفة فكثيرٌ جدّاً، نذكرُ منه بعضُها:

فمن ذلك أنها أفضل شعب الإيمان، فقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنّه قال: «الإيمانُ بِضْعٌ وسبعونَ، أو بِضْعٌ وستون، شُعْبَةً، أفضلُها قولُ لا إله إلاّ الله، وأَدْناها إمَاطَةُ الأذى عن الطريق»[1].

ومن فضائلها أن الجهاد أُقِيْمَ من أجل إعلائها، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «أُمِرْتُ أنْ أقاتِلَ النَّاسَ حتّى يَشْهَدوا أنْ لا إلهَ إلا الله، وأنَّ محمَّداً رسولُ اللهِ، ويقيموا الصلاةَ، ويؤتوا الزكاةَ، فإذا فعلوا ذلك، عَصَمُوا منّي دماءَهم وأموالَهم، إلاّ بحقِّ الإسلامِ، وحسابُهم على اللهِ»[2].

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: بيان عدد شعب الإيمان ، وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء ، وكونه من الإيمان (35) وأخرجه بلفظ مختصر البخاري في صحيحه في كتاب: الإيمان ، باب أمور الإيمان (9) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: بيان عدد شعب الإيمان . (35).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب:[التوبة: 5] ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، ويؤمنوا بجميع ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن من فعل ذلك عصم نفسه وماله إلا بحقها ، ووكلت سريرته إلى الله تعالى ، وقتال من منع الزكاة أو غيرها من حقوق الإسلام ، واهتمام الإمام بشعائر الإسلام (22).

ومن فضائلها أنّها ترجُحُ بصحائفِ الذنوب، كما في حديث البطاقة،، فعن عبد الله بن عَمْرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رجلاً مِنْ أُمَّتي على رؤوس الخلائق يومَ القيامةِ، فَيَنْشُرُ عليه تسعةً وتسعينَ سِجِلاًّ، كُلُّ سِجِلّ مِثْلُ مَدِّ البَصَرِ، ثُمَّ يقولُ: أتُنْكِرُ مِنْ هذا شيئاً، أظلمَكَ كَتَبتي الحافظونَ؟.

فيقولُ: لا يا ربِّ.

فيقولُ: أفلك عُذْرٌ؟.

فيقولُ: لا يا ربِّ.

فيقولُ: بلى إنَّ لكَ عِنْدَنا حسنةً، فإنه لا ظُلمَ عليكَ اليومَ، فتُخْرَجُ بطاقةٌ، فيها: أشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ، وأشهدُ أنَّ محمّداً عبدُه ورسولُه، فيقول: احْضُرْ وزنَكَ.

فيقول: يا ربِّ ما هذهِ البطاقةُ مَعَ هذهِ السجّلاتِ؟

فقال: إنّك لا تُظْلَمُ.

قال: فتوضع السجلاّتُ في كِفّةٍ، والبطاقةُ في كِفّةٍ، فطاشتِ السجلاّتُ، وَثَقُلَتِ البطاقةُ، فلا يَثْقُلُ مَعَ اسمِ اللهِ شيءٌ»[1].

ثالثاً ـ أفضلُ الذكرِ (لا إله إلا الله):

إنّ ذكرَ اللهِ من أفضل العباداتِ المقرّبةِ إلى اللهِ تعالى وأجلِّها، وأعظمِها أجراً، مع سهولته ويُسْرِهِ على مَنْ يسرّهُ اللهُ عليه.

---

[1] أخرجه الترمذي في جامعه ، كتاب: الإيمان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، باب: ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله (2639). وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. وبلفظ قريب أخرجه ابن ماجه في سننه ، كتاب: الزهد ، باب: ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة (4300).

هذا وإنّ أفضلَ أنواعِ الذكر بعدَ القرآن العظيم هو قولُ المرء: (لا إله إلا الله).

وهي كلمةُ التوحيدِ، كما ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنَّه قال: «أفضلُ الذكرِ لا إله إلا الله»[1].

وهذه الكلمةُ الجليلةُ واجبٌ على كلِّ مسلمٍ أنْ يتعلَّمَها، ويعلمَ مضمونَها ومعناها، وشروطها وأركانها، وكلَّ ما يتعلّق بها، لأنّها الكلمةُ التي يصيرُ بها المرءُ مسلماً، فهي الفيصلُ بين الكفر والإسلام، ولأنَّ الله جلّ جلاله أمر أفضلَ خلقِهِ وخاتمَ رسلِهِ صلى الله عليه وسلم أنْ يَعْلمَ كلَّ ما يتعلَّقَ بها ويعتقدَه في قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [محمد: 19] .

وقد ذمَّ الله سبحانه من استكبرَ عنها، وأعرضَ عنها، وتركَ العمل بها في قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ *وَيَقُولُونَ أَإِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ *﴾ [الصافات: 35، 36] .

ووصف الله سبحانه نفسَه بما تضمنته هذه الكلمةُ في غير موضع من كتابه فقال: ﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: 255] وقال سبحانه: ﴿هُوَ الْحَيُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ [غافر: 65] .

وحققها إبراهيمُ عليه السلام كما حكى الله عنه بقوله: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ *وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ *﴾ [الزخرف: 26، 28] .

---

[1] أخرجه الترمذي في جامعه ، كتاب: الدعوات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، باب: ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة (3383) ، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. وأخرجه ابن ماجه في سننه ، كتاب: الأدب ، باب: فضل الحامدين (3800).

رابعاً ـ أشعةُ كلمةِ (لا إله إلا الله) تبدِّدُ ظلماتِ القلوبِ:

اعلمْ أنَّ أشعة (لا إله إلا الله) تبدّدُ مِنْ ضبابِ الذنوبِ وغيومِهَا بقدر قوّةِ ذلك الشعاع وضعفه، فلها نورٌ، وتفاوتُ أهلِها في ذلك النور قوةً وضعفاً لا يحصيه إلا الله تعالى، فمن الناس مَنْ نورُ هذه الكلمةِ في قلبه كالشمس، ومنهم مَنْ نورُها في قلبه كالكوكب الدرِّي، ومنهم مَنْ نورُها في قلبه كالمشعل العظيم، وآخر كالسراج المضيء، وآخر كالسراجِ الضعيف، ولهذا تظهرُ الأنوارُ يومَ القيامةِ بأيمانهم، وبينَ أيديهم، على هذا المقدار، بحسب ما في قلوبهم من نور هذه الكلمة علماً وعملاً، ومعرفة وحالاً، وكلّما عَظُمَ نورُ هذه الكلمة واشتدّ أحرقَ مِنَ الشبهاتِ والشهواتِ بحسب قوته وشدته، حتى إنّه ربما وصلَ إلى حالٍ لا يصادِفُ معها شبهةً ولا شهوةً ولا ذنباً إلا أحرقه، وهذا حالُ الصادقِ في توحيدِه، الذي لم يشركْ باللهِ شيئاً، فأيُّ ذنبٍ أو شهوةٍ أو شبهةٍ دنت من هذا النور أحرقَها، فسماءُ إيمانه قد حُرِستْ بالنجوم من كلِّ سارقٍ لحسناته، فلا يَنَالُ منها السارقُ إلا على غرّةٍ وغفلةٍ، لا بدّ منها للبشر، فإذا استيقظَ وعلمَ ما سُرِقَ منه استنقذه من سارقه، أو حصّل أضعافه بكسبه، فهو هكذا أبداً مع لصوص الجنِّ والإنسِ، ليسَ كمَنْ فتحَ لهم خزانتَه، وولّى البابَ ظهره[1].

خامساً ـ التوافق بين (لا إله إلا الله) و(إياك نعبد):

إنّ معنى (لا إله إلا الله) تضمّنه قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ *﴾ [الفاتحة: 5] وهذه الآية متضمّنةٌ لأجلِّ الغايات، ففيها يُسْرُ الخلق والأمر، والدنيا والآخرة، وهي متضمِّنةٌ لأجلِّ الغايات، وأفضل الوسائل، فأجلُّ الغايات عبوديتُه، وأفضل الوسائل

---

[1] مدارج السالكين (369/1).

إعانتُه، فلا معبودَ يستحقُّ العبادة إلا هو، ولا معينَ على عبادته غيره، فعبادتُه أعلى الغايات، وإعانتُهُ أجلُّ الوسائلِ.

وقد اشتملت هذه الكلمةُ على نوعي التوحيد، وهما: توحيد الربوبية، وتوحيد العبادة، وتضمّنت التعبُّدَ باسم الرب واسم الله، فهو يُعْبَدُ بألوهيته، ويُستعانُ بربوبيته، ويُهْدَى إلى الصراط المستقيم برحمته، فكان أولُ السورةِ ذكر اسمه: (الله) و(الرب) و(الرحمن) تطابقاً لأجل الطالبِ من عبادته وإعانته وهدايته، وهو المنفرد بإعطاء ذلك كله، لا يعينُ على عبادته سواه، ولا يهدي سواه[1].

سادساً ـ شروط (لا إله إلا الله):

لما كان معنى (لا إله إلا الله) هو أنّه لا معبودَ بحقٍ إلا الله، ولما كان كثيرٌ من الناس لا يدرِكُ معنى وأهمية (لا إله إلا الله) كان لا بدَّ لنا أن نتحدّث عن شروطِ هذه الكلمة.

ورحم الله وهب بن منبه حين سُئِلَ: أليستْ (لا إله إلا الله) مفتاح الجنّة؟.

قال: بلى، ولكنْ ليس مفتاحٌ إلا له أسنان، فإن جئتَ بمفتاحٍ له أسنانٌ فتَحَ لك، وإلاّ لم يفتحْ لكَ[2]، وهذه الأسنانُ هي شروطُ هذه الكلمة العظيمة، والتي عددُها سبعة عند العلماء، وليس المرادُ مِنْ هذا عدَّ ألفاظِها، وحفظَها، فكم مِنْ عامّيٍ اجتمعت فيه والتزمَها، ولو قيل له عددها لم يُحْسِنْ ذلك. وكم حافظ لألفاظِها يجري فيها كالسهمِ، وتراهُ يقعُ كثيراً في ما يناقِضُها. والتوفيق بيد الله[3].

---

[1] الإيمان بالله د. عمر الأشقر ص: (96) نقلاً عن ابن القيم في الصلاة.

[2] أخرجه البخاري في صحيحه تعليقاً ، كتاب: الجنائز ، باب: في الجنائز ، ومن كان اخر كلامه: لا إله إلا الله (417/1). ووصله البخاري في تاريخه الكبير (95/1) رقم (261) ، وأبو نُعيم في حلية الأولياء (66/4). [27]. مسائل هامة في توحيد العبادة ، محمد القحطاني ص: (21).

[3] معارج القبول للحكمي (377/1).

إليك هذه الشروط مع أدلّتها من كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم مع الاختصار:

1 . العلم بمعناها . نفياً وإثباتاً . علماً ينافي الجهل بها:

قال الله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [محمد: 19] وقال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *﴾ [آل عمران: 18] .

وفي «الصحيح» قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ ماتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أنّه لا إله إلا الله دَخَلَ الجنّةَ»[1].

2 . اليقين المنافي للشك:

وذلك بأن يكونَ قائِلُها مستيقناً بمدلولِ هذه الكلمة يقيناً جازماً. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ *﴾ [الحجرات: 15] .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أشهدُ أنْ لا إلهَ إلاّ اللهُ، وأنّي رسولُ اللهِ، لا يَلْقَى الله بهما عبدٌ غيرَ شاكٍّ فيهما إلاّ دخلَ الجنَّة»[2].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي هريرةَ رضي الله عنه: «اذْهَبْ بِنَعْلَيَّ هاتَيْنِ فَمَنْ لقيتَ من وراءِ هذا الحائطِ يَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ مستيقناً بها قلبُه، فبشِّرْهُ بالجنّةِ»[3].

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: الدليل على أنَّ مَنْ مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً (26).

[2] أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً (27).

[3] أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً (31).

3. القبول لما اقتضته هذه الكلمة بالقلب واللسان:

وقد قصّ الله علينا من أنباء ما قد سَبق مِنْ إنجاءِ مَنْ قَبلَها، وانتقامه ممّن ردّها وأباها.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ *﴾ [يونس :47] .

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ *﴾ [يونس :102] .

وقال تعالى عن الذين كذبوا بهذه الكلمة ورفضوها ولم يقبلوها: ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ *﴾ [الزخرف :25] .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَثَلُ ما بَعَثَني اللّهُ بهِ مِنَ الهُدى والعِلْمِ كَمَثَلِ الغَيْثِ الكثيرِ أصابَ أرضاً، فكانَ مِنْها نقيةٌ، قَبلتِ الماءَ، فَأَنْبَتَتِ الكلأَ والعُشْبَ الكثيرَ، وكانتْ منها أجادِبُ أمسكتِ الماء، فنفعَ اللّهُ بها الناسَ، فشربوا وسَقَوا وزَرَعُوْا، وأصابتْ منها طائفةً أُخرى، إنّما هيَ قِيعانٌ، لا تمسِكُ ماءً، ولا تُنْبِتُ كلأً، فذلك مَثَلُ مَنْ فَقُهَ في دينِ اللهِ، ونَفَعَهُ ما بعثني اللّهُ بهِ، فَعَلِمَ وعَمِلَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بذلكَ رَأْساً، ولم يَقْبَلْ هَدْيَ اللهِ الذي أُرْسِلتُ به»[1].

4. الانقياد لما دلّت عليه، المُنافي لترك ذلك:

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لاَ تُنْصَرُونَ *﴾ [الزمر :54] .

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: العلم ، باب: فضل من عَلِم وعَلَّم (79) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الفضائل ، باب: بيان مثل ما بُعث به النبي صلى الله عليه وسلم من الهدى والعلم (2282).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: 125] .

5 . الصدق المنافي للكذب:

وذلك بأنْ يقولَها صدقاً من قلبه، يواطِئُ قلبُه لسانَه. قال تعالى: ﴿الم *أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ *وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ *﴾ [العنكبوت: 1 . 3] .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما مِنْ أحدٍ يَشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلاّ اللهُ، وأنَّ محمَّداً رسول الله صِدْقاً مِنْ قلبِهِ إلاَّ حَرَّمَهُ اللهُ على النَّارِ»[1].

6 . الإخلاص:

وهو تصفيةُ العملِ الصالحِ النيةِ عن جميعِ شوائبِ الشرك، قال تعالى: ﴿أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: 3] .

وقال تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ *﴾ [الزمر: 2] .

وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ *﴾ [البينة: 5] .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أسْعَدُ النَّاسِ بشفاعتي مَنْ قالَ لا إلهَ إلاّ اللهُ خالِصاً مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ»[2].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنَّ اللهَ حَرّمَ على النَّارِ مَنْ قالَ: لا إلهَ إلاَّ اللّهَ يبتغي بذلكَ وَجْهَ الله»[3].

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: العلم ، باب: من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا (128) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب: الدليل على أنَّ من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً (32).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: العلم ، باب: الحرص على الحديث (99).

[3] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الصلاة ، باب: المساجد في البيوت (415) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب:

7 . المحبةُ لهذه الكلمة ولما اقتضته ودلّت عليه، ولأهلها العاملين بها الملتزمين بشروطها، وبغض ما ناقض ذلك:

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة :165] .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وَجَدَ بهنَّ حلاوةَ الإيمان: مَنْ كانَ اللهُ ورسولُهُ أحبَّ إليهِ ممّا سواهما، وأنْ يحبَّ المرءَ لا يحبُّهُ إلا للهِ، وأنْ يكرَهَ أنْ يَعُودَ في الكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أنقذَهُ اللهُ مِنْهُ، كما يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ في النَّارِ»[1].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمنُ أحدُكُم حتّى أكونَ أحبَّ إليهِ مِنْ ولدِهِ ووالدِهِ والناسِ أجمعين»[2].

ومحبةُ اللهِ سبحانه وتعالى لا تتمَّ إلا بمحبَّةِ ما يحبُّه، وكره ما يكرهه، وطريقُ معرفةِ ذلك هو اتباعُ الرسول صلى الله عليه وسلم ومحبتُه، فمحبةُ اللهِ تستلزمُ محبَّة الرسولِ صلى الله عليه وسلم واتباعَه وطاعتَه[3]، فهذه الشروطُ مَنْ حقَّقها، وعَمِلَ بها، وابتعدَ عمّا يناقِضُها، أوجبَ له مغفرةَ الذنوبِ بإذن الله تعالى[4].

المساجد ومواضع الصلاة ، باب: الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر (33).

[1] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب حلاوة الإيمان (16) ، (21) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب: بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان (43).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: حب الرسول من الإيمان (15) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: وجوب محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين ، وإطلاق عدم الإيمان على من لم يحبه هذه المحبة (44).

[3] المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار ، (623/2).

[4] المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار ، (623/2).

سابعاً . ارتباط (لا إله إلا الله) بالولاء والبراء:

ولما كان أصلُ الموالاة: الحبُّ، وأصلُ المعاداةِ: البغضَ، وينشأُ عنهما من أعمالِ القلوبِ والجوارحِ ما يدخلُ في حقيقةِ الموالاةِ والمعاداةِ كالنُّفْرَةِ، والأُنْسِ، والمعاونة، وكالجهادِ، والهجرة، ونحو ذلك[1]، فإنَّ الولاءَ والبراءَ

مِنْ لوازمِ (لا إله إلا الله) قال الله تعالى: ﴿لاَ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ *﴾ [آل عمران: 28] .

وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ *﴾ [المائدة: 51]

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أوثقُ عُرى الإيمانِ الحبُّ في الله والبغضُ في الله»[2].

ولقد ضربَ نبيُّ الله إبراهيم عليه السلام نموذجَ الأسوة الحسنة في ولائه لربِّ العالمين، حيثُ كان عليه السلام أسوةً حسنةً، وقدوةً طيبةً في ولائه لربه ودينه وعباد الله المؤمنين، وبرائه ومعاداته لأعداءِ الله، ومنهم أبوه.

لقد كانت سيرةُ نبيِّ الله إبراهيم عليه السلام مع قومه، كأيِّ نبيٍّ رسولٍ، حيث دعاهم بالتي هي أحسن إلى عبادة الله وتوحيده، وإفرادِه بالعبادة، والكفرِ بكلِّ طاغوتٍ يُعْبَدُ من دون الله[1].

---

[1] الرسائل المفيدة ، عبد اللطيف بن عبد الرحمن ص: (296).

[2] أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ، كتاب: الإيمان والرؤيا ، باب (80/7) رقم (34338) ، والطيالسي في مسنده (101/1) رقم (747) عن البراء بن عازب. قال الألباني في تخريج أحاديث كتاب الإيمان لابن تيمية ص (119):صحيح.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا *إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا *يَاأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا *يَاأَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَانِ عَصِيًّا *يَاأَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَانِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا *قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَاإِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا *قَالَ سَلاَمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا *وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا *فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا *﴾ [مريم :41 ـ 49] .

تلك هي نقطةُ البَدْءِ في دعوة خليل الرحمن، دعوةٍ بالحسنى، مبتدئاً بأقرب الناسِ إليه، فإنْ لم يكن هناك تجاوبٌ مع هذه الدعوة فالاعتزالُ لهذا الباطل وأصحابه، علّ في ذلك ردعاً وزجراً وتفكراً في هذا الأمر الجديد، ونجاة للداعي من مشاركة أهل الباطل في باطلهم، إذا كان لا بدّ له من مخالطتهم ومعاشرتهم، وعدم تمكّنه من الهجرة في أرضهم.

ثم يمضي القرآن في بيان دعوة إبراهيم عليه السلام، مبيّناً أنّه استخدمَ مع قومه كلَّ حجة ودليل، قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ *إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ *قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ *قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ *أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ *قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ *قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ *أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ *فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ *﴾ [الشعراء :70 ـ 77] .

---

[1] الولاء والبراء في الإسلام ، د. القحطاني ، ص: (145).

ولما لم يجدوا حجةً، وإنّما هو التقليدُ الأعمى لفعل الاباء والأجداد، قال لهم إبراهيم عليه السلام: أنا عدو الهتكم هذه، قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة :4] .

وعقيدة إبراهيم عليه السلام هذه هي التي عبّر عنها علماؤنا الأجلاء بقولهم: «لا موالاة إلا بالمعاداة، ولا تصحُّ الموالاةُ إلا بالمعاداة»[1] كما قال تعالى عن إمام الحنفاء المحبين، أنه قال لقومه: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ *﴾ [الشعراء :77]، فلم تصحَّ لخليل الله هذه الموالاةُ والخُلّةُ إلا بتحقيق هذه المعادلة، فإنّه لا ولاءَ إلا لله، ولا ولاءَ إلا بالبراءِ مِنْ كلِّ معبودٍ سواه، قال تعالى: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ *وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ *﴾ [الزخرف :26 -28]، أي جعلَ هذه الموالاة للهِ، والبراءةَ مِنْ كلِّ معبودٍ سواه، كلمةً باقيةً في عقبه، يتوارثها الأنبياءُ بعضُهم عن بعضٍ، وهي كلمةُ (لا إله إلا الله)، وهي التي ورَّثها إمام الحنفاء لأتباعه إلى يوم القيامة.

وقد كان من نتيجة هذه المعاداةِ وهذا البراء القويّ أَنْ أجمعَ الطغاةُ على قتل إبراهيم .كما هو حال كل طاغية على مر عصور التاريخ في إبادة الدعاة إلى الله لا لشيء إلا لأنهم يدعونهم إلى عبادة الله وحده . وجمعوا له ناراً عظيمة، فكانت رعايةُ اللهِ وحفظُهُ تحوطان خليله الصادق عليه الصلاة والسلام، فصارت النارُ برداً وسلاماً عليه، قال تعالى: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ *فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ الأَسْفَلِينَ * فَجَعَلْنَاهُمْ الأَسْفَلِينَ *﴾ [الصافات: 97 . 98] لقد عدلوا عن الجدال والمناظرة لما انقطعوا

[1] الولاء والبراء في الإسلام ، ص: (146 ، 147).

وغُلِبوا، ولم تبقَ لهم حجةٌ ولا شبهةٌ إلى استعمال قوتهم وسلطانهم لينصروا ما هم عليه من سفههم وطغيانهم، فكادهم الربُّ جلّ جلاله، وأعلى كلمته ودينه وبرهانه، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ *قُلْنَا يانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ *وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ *﴾ [الأنبياء: 68-70].

وجاءت التوجيهاتُ الربانيّة لخاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم باتباع ملّة إبراهيم عليه السلام.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ *﴾ [النحل :123] .

وقال تعالى: ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ *﴾ [آل عمران: 95] .

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ *﴾ [البقرة :135] .

وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ *﴾ [آل عمران: 68] .

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً *﴾ [النساء :125] .

وقال تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الحج :78] .

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: 130] .

فهذه الأخبار مِنَ اللهِ لأمّة محمد صلى الله عليه وسلم عَنْ فعلِ إبراهيم عليه السلام من أجلِ الاقتداءِ به في الإخلاص والتوكل على الله وحده، وعبادةِ الله وحدَه، والبراءِ من الشركِ وأهلهِ، ومعاداةِ الباطلِ وحزبه[1].

والأمثلةُ على أنّ مِنْ لوازمِ (لا إله إلا الله) الولاءَ والبراءَ كثيرةٌ، كقصة نوح عليه السلام مع زوجه، وغيرها من القصص[2].

لقد جمعت (لا إله إلا الله) صُهيباً الرومي، وبلالاً الحبشي، وسلمانَ الفارسي، وأبا بكر العربي القرشي، وتوارت عصبيةُ القبيلةِ والجنسِ والأرض، وقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «دعوها فإنّها منتنةٌ»[3]، وقال: «ليسَ مِنّا مَنْ دعا إلى عصبيةٍ، وليسَ منّا مَنْ قاتلَ على عصبيةٍ، وليس مِنّا مَنْ ماتَ على عصبيةٍ»[4].

وتبقى سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم وسيرة صحابته الأخيار رضوان الله عليهم منارَ هدًى وإصلاحٍ لمن سلكَ ذلك السبيل، ورضي بذلك النهجِ القويم[5].

---

(1) الولاء والبراء في الإسلام ، ص: (148 ، 149).

(2) المصدر السابق ، ص: (150).

(3) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: تفسير القران ، باب: قوله: {} [المنافقون: 6] {سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ *} ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: البر والصلة والاداب ، باب: نصرُ الأخِ ظالماً أو مظلوماً (2584).

(4) أخرجه أبو داود في سننه ، كتاب: الأدب ، باب: في العصبية (5121). قال السندي: قال أبو داود: في رواية ابن العبد: هذا مرسل ، عبد الله بن أبي سليمان لم يسمع من جبير. هذا اخر كلامه. وفي إسناده: محمد بن عبد الرحمن المكي ، وقيل فيه: العكي. قال أبو حاتم الرازي: هو مجهول ، وقد أخرج مسلم في صحيحه ، والنسائي في سننه من حديث أبي هريرة بمعناه أتم منه ، ومن حديث جندب بن عبد الله البجلي مختصراً. عون المعبود (19/14).

(5) الولاء والبراء في الإسلام ، ص: (158).

ثامناً ـ آثار الإقرار بـ (لا إله إلا الله):

إنَّ لكلمة (لا إله إلا الله) آثاراً عظيمةً في حياةِ المؤمنِ، منها:

1 ـ أنَّ المؤمن بهذه الكلمة لا يكون ضيّقَ النظر، بخلاف من يقول بآلهةٍ متعددةٍ، أو من يجحدُها.

2 ـ أن الإيمان بهذه الكلمة ينشئ في النفس من الأَنفة وعزّة النفس ما لا يقوم دونه شيءٌ، لأنّه لا نافعَ إلا الله، ولا ضارَّ إلا الله، وهو المحيي المميت، وهو الحكيم القوي، مالك الملك، ومِنْ ثَمَّ يُنْزَعُ من القلبِ كلُّ خوفٍ إلا منه سبحانه، فلا يطأطِئ الرأسَ أمامَ أحدٍ من الخلق، ولا يتضرّعُ إلا إليه، ولا يتكفّف إلا له، ولا يرهب إلاّ من كبريائه وعظمته، لأن لله وحده الكبرياء والعظمة والقدرة، وهذا بخلاف المشرك والكافر والملحد.

3 ـ ينشأ من هذه الكلمة، تواضعٌ من غير ذلٍّ، وترفُّعٍ من غير كِبْرٍ.

4 ـ المؤمن بهذه الكلمة، يعلم علم اليقين أنَّه لا سبيل إلى النجاة والفلاح إلا بتزكية النفس والعمل الصالح.

أما المشركون والكفار، فإنَّهم يقضون حياتهم في أماني كاذبة:

فمنهم من يقول: إنَّ ابنَ الله قُتِلَ وصُلِبَ كفارةً لذنوبنا عند أبيه.

ومنهم من يقول: نحن أبناءُ اللهِ وأحباؤه فلن يعذبنا بذنوبنا.

ومنهم من يقول: إنّا سنتشفع عند الله بكبرائنا وأتقيائنا.

ومنهم من يقدّمُ النذورَ والقرابينَ إلى آلهته، زاعماً أنّه قد نالَ بذلك رخصةً في العمل بما يشاء.

أما الملحدُ الذي لا يؤمِنُ بالله، فيعتقِدُ أنّه حرٌّ في هذه الدنيا، غيرُ مقيَّدٍ بشرعِ اللهِ، وإنّما إلهه هواه وشهوته، وهو عبدهما.

5 . قائل هذه الكلمة لا يتسرب إليه اليأس، ولا يقعد به القنوط، لأنَّه يؤمِنُ أنَّ الله له خزائنُ السماوات والأرض، ومِنْ ثَمَّ فهو على طمأنينةٍ وسكينةٍ وأملٍ، حتى لو طُرِدَ وأهينَ، وضاقت عليه سُبُل العيش.

6 . الإيمان بهذه الكلمة يربي الإنسان على قوة عظيمة من العزم والإقدام، والصبر والثبات والتوكل، حينما يضطلع بمعالي الأمور ابتغاءَ مرضاة الله، إنَّه يشعر أنَّ وراءه قوة مالك السماء والأرض، فيكونُ ثباتُهُ ورسوخهُ وصلابتُه التي يستمدّها من هذا التصور، كالجبال الراسية، وأنّى للشرك والكفر بمثل هذه القوة والثبات؟

7 . هذه الكلمة تشجِّعُ الإنسان، وتملأ قلبه جرأةً، لأن الذي يجبِّنُ الإنسانَ ويوهّنُ عزمه شيئان:

1 . حبه للنفس والمال والأهل.

2 . واعتقاده أنَّ أحداً غيرَ الله يميتُ الإنسان.

فإيمانُ المرءِ بـ (لا إله إلا الله) ينزعُ عن قلبه الأولَ (وهو حبّه للنفس والمال والأهل)، فيجعله موقناً أنَّ الله هو المالك الوحيد لنفسه وماله، فعندئذٍ يضحّي في سبيل مرضاة ربه بكلِّ غالٍ ونفيسٍ عنده. وينزع الثاني (وهو اعتقادُه أنَّ أحداً غير الله يميت الإنسان) بأن يلقِي في روعِهِ أنّه لا يقدِرُ على سلبِ الحياة منه إنسانٌ ولا حيوانٌ ولا غيرُه إلا إذا جاء أجله، منْ أجلِ ذلك لا يكونُ في الدنيا أشجعُ ولا أجرأُ ممّنْ يؤمِنُ بالله تعالى، فلا يكادُ يخيفه أو يثبتُ في وجهه زحَفُ الجيوش، ولا السيوف المسلولة، ولا مطرُ الرصاص، ولا وابلُ القنابل.

8 ـ الإيمان بـ (لا إله إلا الله) يرفع قدر الإنسان، وينشىء فيه الترفُّعَ والقناعةَ والاستغناء، ويطهِّرُ قلبَه من أوساخ الطمع، والشره، والحسد، والدناءة، واللؤم، وغيرها من الصفات القبيحة.

9 ـ والإيمان بـ (لا إله إلا الله) يجعل الإنسان متقيداً بشرع الله، ومحافظاً عليه، فإنَّ المؤمنَ يعتقِدُ بيقينٍ أنَّ الله خبيرٌ بكلِّ شيءٍ، وهو أقربُ إليه مِنْ حبلِ الوريد، وأنَّه إنْ كان يستطيعُ أن يفلتَ مِنْ بطشٍ أيّ كانَ، فإنَّه لا يستطيعُ أن يفلتَ مِنْ اللهِ عزّ وجلّ، وعلى قَدْرِ ما يكونُ هذا الإيمانُ راسخاً في ذهن الإنسان يكونُ متّبعاً لأحكام الله، قائماً عند حدودِه، لا يجرؤ على اقترافِ ما حَرَّمَ الله، ويسارِعُ إلى الخيراتِ والعملِ بما أمر الله.

لذا فالعبدُ الذي ملأ اللهُ قلبه إيماناً بـ (لا إله إلا الله) هو في الحقيقة عبدٌ مطيعٌ منقادٌ لربه سبحانه وتعالى، وهذا هو أصلُ الإسلام، وهو مصدرُ قوته، وكلُّ ما عداه من معتقداتِ الإسلامِ وأحكامِه إنّما هي مبنيّةٌ عليه، ولا تستمدّ قوتها إلا منه، والإسلامُ لا يبقى منه شيءٌ لو زال هذا الأساس[1].

* * *

[1] مبادأى الإسلام للمودودي ، ص: (87).

المبحث الثاني

إثبات وجود الخالق جل جلاله

أولاً . دليل الخلق

ثانياً . دليل الفطرة والعهد.

ثالثاً . دليل الافاق.

رابعاً . دليل الأنفس

خامساً . دليل الهداية.

سادساً . دليل انتظام الكون وعدم فساده.

سابعاً . دليل التقدير

ثامناً . دليل التسوية

المبحث الثاني : إثبات وجود الخالق

رغم أنّه لا توجَدُ في القرآن الكريم مناقشةٌ صريحةٌ لمنكري الخالق إلاّ أنَّ الإيمانَ بوجودِ خالقٍ لهذا الكونِ قضيةٌ ضروريةٌ لا مساغَ للعقلِ في إنكارِها، فهي ليستْ قضيةً نظريةً تحتاجُ إلى دليلٍ وبُرهانٍ، ذلك لأنَّ دلالةَ الأثرِ على المؤثّرِ يدرِكُها العقلُ بداهةً، والعقلُ لا يمكنُ أن يتصوّر أثراً من غيرِ مؤثّرٍ، أيَّ أثرٍ، ولو كانَ أثراً تافهاً، فكيف بهذا الكون العظيم؟!.

ولذلك لم يناقشِ القرآن الكريم هذه القضية حتى حينما أوردَ إنكارَ فرعونَ لربِّ العالمين، يوم أن قال: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ *﴾ [الشعراء: 23] ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: 38] ﴿يَاهَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ [القصص: 36. 37] فكان موسى عليه السلام لا يعيرُ اهتماماً لهذه الإنكارات، وتعاملَ مع فرعونَ على أساسِ أنَّه مؤمنٌ بوجودِ الخالقِ، فتراه يقولُ له مثلاً: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلاَءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّك يافِرْعَوْنُ مَثْبُورًا *﴾ [الإسراء: 102] .

وقد عزا القرآن الكريم هذا الإنكارَ والتكبُّرَ والعِنادَ، فقال: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآياتنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ *إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ *فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ *﴾ [المؤمنون: 45. 47] .

وأوضحَ ذلك أكثرفقال: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:14] .

إنّ البيئةَ التي أُنزل فيها القرآن الكريمُ كانت وثنيةً في الغالب، وكتابيةً في بعض القرى، أو بعض الأشخاص، والكتابيون لا ينكرون الخالق، وأمّا الوثنيون فمع عبادتهم للأوثان إلاّ أنّهم كانوا يؤمنون بالخالق سبحانه، وسجّل القرآن هذا لهم في أكثر من موضع[1]، قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: 25] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [لقمان: 32] ولهذا لم يَحْتَجِ القرآن الكريم أن يفتحَ الموضوع مع هؤلاء الناس.

بل حتّى خارجَ هذه البيئة لم يُعْرَفْ هناك منكِرٌ للخالق، يقول الشهرستاني: أمّا تعطيلُ العالم عن الصانعِ العليمِ القادرِ الحكيم فلستُ أراها مقالةً لأحدٍ، ولا أعرفُ عليها صاحبَ مقالةٍ، إلا ما نُقِلَ عن شرذمة قليلةٍ من الدهريّةِ، ولستُ أرى صاحبَ هذه المقالة ممّن ينكِرُ الصانع، بل هو معترِفٌ بالصانع، فما عُدَّتْ هذه المسألةُ من النظريات التي قام عليها دليل[2]. ومع خلوِّ القرآن الكريم من مناقشةٍ صريحةٍ لمنكري الخالق، إلا أنّه تضمّن أدلةً كثيرةً لإثبات وجوده، غير أنها جاءت في الغالبِ لإثبات مسائلَ أخرى: كالوحدانية، والنبوة، والبعث[3].

ومن هذه الأدلة التي ذكرت في القرآن الكريم:

أولاً ـ دليل الخلق:

وخلاصةُ هذا الدليل: أنَّ هذا الخلقَ بكلِّ ما فيه شاهدٌ على وجودِ خالقه العليِّ القدير سبحانه، قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ *أَمْ خَلَقُوا

---

(1) المحكم في العقيدة ، د. محمد الكبيسي ، ص: (65 ـ 66).
(2) نهاية الإقدام للشهرستاني ، ص: (123 ـ 124).
(3) المحكم في العقيدة ، ص: (66).

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ *﴾ [الطور :35 . 36] يقول لهم: أنتم موجودون، هذه حقيقةٌ لا تنكرونها، وكذلك السماواتُ والأرضُ موجودتان، وقد تقرّر في بداهةِ العقول أنَّ الموجودَ لا بدَّ من سببٍ لوجودِهِ.

وهذا يدركُه راعي الإبل، فيقول: البعرةُ تدلُّ على البعيرِ، والأثرُ يدلُّ على المسير، فسماءٌ ذاتُ أبراجٍ، وأرضٌ ذاتُ فِجاجٍ، أفلا يدلُّ ذلك على العليمِ الخبيرِ.

ويدركه كبارُ العلماء الباحثين في الحياة والأحياء، يقول أحدهم: إنَّ الله الأزلي الكبير، العالم بكل شيء، والمقتدر على كل شيء، قد تجلّى لي ببدائع صنعه، حتى صرتُ دَهشاً متحيراً، فأيُّ قدرةٍ، وأيُّ حكمةٍ، وأيُّ إبداعٍ أودعه مصنوعاتِ يده صغيرِها وكبيرِها[1]؟!.

وهذا الذي أشارتْ إليه الآية هو الذي يُعْرَفُ عندَ العلماء باسم: قانون السببية، هذا القانونُ يقول: إنَّ شيئاً من «الممكنات» لا يحدُثُ بنفسِه من غيرِ شيءٍ، لأنّه لا يحمِلُ في طبيعته السببَ الكافي لوجودِه، ولا يستقلُّ بإحداثِ شيءٍ، لأنَّه لا يستطيعُ أن يمنحَ غيرَه شيئاً لا يملكه هو[2].

وبهذا الدليل كان علماءُ الإسلام ولا يزالون يواجِهون الجاحدين.

فهذا الإمام أبو حنيفة رحمه الله يعرِضُ له بعضُ الزنادقة المنكرين للخالق، فيقول لهم: ما تقولون في رجلٍ يقولُ لكم: رأيتُ سفينةً مشحونةً بالأحمالِ، مملوءةً من الأنفال، قد احتوشتها في لُجَّةِ البحرِ أمواجٌ متلاطمة، ورياحٌ مختلفة، وهي مِنْ بينها تجري مستويةً، ليس لها ملاّحٌ يجريها، ولا متعهِّدٌ يدفعُها، هل يجوزُ ذلك في العقل؟.

---

[1] مع الله ، للشيخ حسن أيوب ص: (76).

[2] العقيدة في الله ، د. عمر الأشقر ص: (69).

قالوا: هذا شيءٌ لا يقبلُه العقلُ.

فقال أبو حنيفة: يا سبحان الله! إذا لم يجزْ في العقلِ سفينةٌ تجري في البحرِ مستويةً من غيرِ متعهِّدٍ ولا مُجْرٍ، فكيف يجوزُ قيامُ هذه الدنيا على اختلافِ أحوالها، وتغيُّرِ أعمالها، وسَعَةِ أطرافها، وتباين أكنافها، من غير صانعٍ ولا حافظٍ؟!.

فبكوا جميعاً، وقالوا: صدقتَ وتابوا[1].

هذا القانون الذي سلّمت به العقول، وانقادت له، هو الذي تشير إليه الآية الكريمة: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ *﴾ وهو دليلٌ يرغمُ العقلاءَ على التسليم بأنَّ هناك خالقاً معبوداً، إلاّ أنَّ الآية صاغته صياغةً بليغةً مؤثّرةً، فلا

تكادُ الآية تمسُّ السمعَ حتى تزلزلَ النفسَ وتهزَّها[2].

قال أبو العتاهية (من المتقارب):

فواعجباً كيفَ يُعْصَى الإلـ ـهُ أَمْ كيفَ يَجْحَدُهُ الجَاحِدُ
وفي كلِّ شيءٍ لَهُ ايةٌ تدلُّ على أنَّهُ وَاحِدُ

لقد تناولَ القرآن الكريمُ قضيةَ الخَلْقِ والتدبير تناولاً فريداً، وعُني بتوجيه العقولِ إلى النظرِ في افاقِ الكونِ وآيات اللهِ الكثيرة، وأهابَ بالعقلِ أنْ يستيقظَ من سُباته، ليتفكَّرَ في ملكوتِ السماواتِ والأرضِ، وما أودعَ فيها من الآيات.

ويكرّرُ القرآن الكريم ذلك في أساليب متنوّعة، ليرى هذا الإنسانُ ويسمعَ في افاقِ الكونِ ما يقودُهُ إلى الإيمانِ بخالقه سبحانه وتعالى، ويعلمَ أنَّ هذا الكونَ هو مِنْ صُنعِ اللهِ الخالق المدبر، المستحقّ للعبادة وحدَه لا شريكَ له[3].

---

[1] مع الله ، حسن أيوب ص: (68) ، العقيدة في الله ص: (70).

[2] العقيدة في الله ، للأشقر ص: (71).

[3] حماية الرسول صلى الله عليه وسلم حمى التوحيد للغامدي ص: (216).

ثانياً ـ دليل الفطرة والعهد:

إنّ معرفةَ الخالق، والإقرارَ بوجودِه تبارك وتعالى وربوبيته أمرٌ بدهي مغروسٌ في نفوس الناس وفطرهم، إذ لو تُرِكَ الإنسانُ في مكانٍ خالٍ لا يوجدُ فيه أحدٌ، بعيداً عن كل المؤثّرات الخارجية، وعن كلِّ الشوائب العقدية، لاستطاعَ بفطرته أن يعرفَ أنَّ لهذا الكونِ خالقاً مدبّراً ومتصرّفاً، ثم بفطرته يتوجَّه لمحبةِ خالقِهِ.

ومن هنا نعلمُ أنَّ مَنْ أنكرَ وجودَ الخالقَ جلَّ جلاله من الملحدين، إنّما أُتوا من انحرافِ فطرهم، ومن تأثيرِ الشياطين عليهم، وتلاعبهم بهم.

ودليلُ الفطرة هذا دلَّ عليه القرآن الكريمُ والسنةُ النبويّةُ المطهرة، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ *﴾ [الروم: 30] . فالمقصود بالفطرة هنا الإسلام، فالله جل جلاله فطر الناسَ على دين الإسلامِ والتوحيد[1].قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما مِنْ مولودٍ إلا يولدُ على الفِطْرَةِ، فأبواه يهوّدانِهِ، أو ينصّرانِهِ أو يمجّسانِهِ، كما تُنْتِجُ البهيمةُ بهيمةً جمعاء، هل تحسّون فيها مِنْ جَدْعاء»[2]؟، وفي الحديث القدسي: «يقول تبارك وتعالى: إنِّي خَلَقْتُ عبادِي حنفاء كلَّهم، وإنّهم أتتهم الشياطينُ فاجْتالَتْهُم عن دينهم»[3]. ومعنى (حنفاء) أي: مائلينَ عن الأديانِ كلِّهم

---

[1] المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار (368/1).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الجنائز ، باب: إذا أسلم الصبيُّ فمات هل يصلى عليه؟ وهل يعرض على الصبي الإسلام؟ (1292) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: القدر ، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة ، وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين (2658). .[60] أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (2865).

[3] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (2865).

إلى دين الإسلام[1]. ومعنى (اجتالتهم) استخفتهم، فجالوا معهم في الضلال[2].

ومن أجل أهميّةِ الفطرةِ في دلالةِ الناسِ على ربّهم، وتعريفهم به، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أصبحَ أو أمسى يقرِّرُ أنه يُصْبِحُ ويُمْسِي على هذه الفطرةِ فطرةِ الإسلامِ، وأنّها لم تتأثَّرْ بالمؤثِّرات والعوارض الخارجية، من نزعات الشياطينِ ووساوسهم، فقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنّه كان يقولُ إذا أصبحَ وإذا أمسى: «أصبحنا (أو أمسينا) على فطرةِ الإسلامِ، وعلى كلمةِ الإخلاصِ، وعلى دينِ نبيّنا محمّدٍ صلى الله عليه وسلم، وعلى ملّةِ أبينا إبراهيم، حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين»[3]. فقد أكّد على سلامة الفطرة من الانحراف بقوله: «وعلى كلمَةِ الإخلاص» وهي شهادة أن لا إله إلا الله. وبقوله: «وعلى دينِ نبيِّنا محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم» وهو الدين الإسلامي، وبقوله: «وعلى مِلّةِ أبينا إبراهيمَ حنيفاً مسلماً» أي مائلاً عن كلِّ ما يخالِفُ هذه الفطرة من الأديان والعقائد الفاسدة، التي تنكِرُ الربَّ سبحانه وتعالى، أو تزعمُ أنَّ معه شريكاً في مُلْكِهِ أو عبوديتِهِ إلى الإسلام الخالص، فإذا حقَّقَ توحيدَ الألوهية (توحيد العبادة) كان توحيدُ الربوبية محقّقاً، لأنَّ توحيدَ الألوهية (توحيد العبادة) يتضمَّنُ توحيدَ الربوبية، وبذلك تكونُ الفطرةُ قد دلّت على توحيدِ الربوبية[4].

---

[1] تفسير القرطبي (144/20).

[2] النهاية في غريب الحديث ، لابن الأثير (جول).

[3] أخرجه أحمد في مسنده (406/3 ، 407) مسند المكيين ، حديث عبد الرحمن بن أبزي الخزاعي. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (116/10): رواه أحمد والطبراني ، ورجالهما رجال الصحيح.

[4] المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار (370/1).

وهذه الفطرةُ التي فطرَ الله عليها عبادَه لها صلةٌ وارتباطٌ وثيقُ بالعهدِ الذي أخذه سبحانه وتعالى على بني آدم، وهم في عالم الذَّرِّ، كما أشار الله بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدم مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ *أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ *﴾ [الاعراف :172 . 173].

فهذا العهدُ والميثاقُ الذي أخذه الله جل جلاله على الناس، مضمونُه الاعترافُ والإقرارُ بربوبيته، وأشهدَهم على أنفسِهم فشهدوا.

فمنَ الناس مَنْ حافظ على ذلك العهد، وقام بمقتضاه ولازِمه، من عبادة ربه وحده لا شريك له، وتوحيده. وصَدّقَ رسلَ اللهِ، وآمن بهم، وبما جاؤوا به.

ومن الناس من تغيَّرتْ فطرتُه وانحرفت، واجتالته الشياطين ـ والعياذ بالله ـ فنسيَ ما شهدَ عليه، وما جُبِلَ عليه، من الإقرار بربوبية الله عز وجل، فوقع في الكفر والإلحاد، مع أنَّ الله سبحانه لم يتركْ عبادَه سدًى، بل أرسل لهم الرسلَ، وأنزل معهم الكتبَ، ليذكّروا الناس بهذا الإشهاد. وهذا العهد والميثاق.

ولكي يبقى المسلمُ متذكِّراً هذا العهد الذي أخذه الله عليه في عالم الذَّرِ، فقد علّم رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه ذِكْراً يقولونه في الصباحِ والمساءِ، ففي الحديث الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم قال: «سيّدُ الاستغفارِ أنْ يقولَ العبدُ: اللهمَّ أنتَ ربي لا إلهَ إلاَّ أنتَ، خلقتَني وأنا عبدُكَ، وأنا على عهدِكَ ووعدِكَ ما استطعتُ، أعوذُ بكَ مِنْ شَرِّ ما صنعتُ، أبوءُ لك بنعمتِكَ عليَّ، وأبوءُ بذنبي، فاغفر لي، إنَّه لا يغفرُ

الذنوبَ إلا أنتَ»[1]. فقوله: «وأنا على عهدِكَ»: أي ما عاهدتُكَ عليه من الإيمان بِكَ، والإقرارِ بوحدانيّتِكَ، لا أزولُ عنه[2]، قال ابن حجر: وقال ابن بطال: قوله: «وأنا على عهدِكَ ووعدِكَ» يريدُ العهدَ الذي أخذَه الله على عبادِه حيثُ أخرجَهم أمثالَ الذَّرِّ، وأشهدهم على أنفسِهم: ألستُ بربِّكُم؟ فأقرّوا له بالربوبية، وأذعنوا له بالوحدانية، و(بالوعدِ) ما قاله على لسان نبيه[3]، فهذا الذكرُ العظيمُ مَنْ داومَ عليه يومياً ولازمَه؛ حفِظَ نفسه ـ بإذن الله ـ من انحرافِ فطرتِهِ، وتغيّرِها، ووفّى بعهدِهِ الذي بينه وبين ربه[4].

ثالثاً ـ دليل الآفاق:

قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آياتنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ *﴾ [فصلت: 53] .

فقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ آياتنَا فِي الآفَاقِ﴾ أي: علامات وحدانيتنا وقدرتنا[5]، وقوله (في الآفاق) يعني أقطار السماوات والأرض: من الشمس، والقمر، والنجوم، والليل، والنهار، والرياح، والأمطار، والرعد، والبرق، والصواعق، والنبات[6]، وغير ذلك مما فيها من عجائب خلق الله.

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الدعوات ، باب: أفضل الاستغفار (5947).

[2] نتائج الأفكار في شرح حديث الاستغفار للسفاريني ص: (240).

[3] فتح الباري (99/11).

[4] المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار (373/1).

[5] تفسير القرطبي (374/15).

[6] تفسير القرطبي (374/15).

وفي حديثِ العلماء عن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم ما يدلُّ على آيات الله في الافاق، والتي منها:

1 . نقص الأوكسجين في الارتفاعات:

قال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ *﴾ [الانعام: 125] تنصُّ هذه الآية الكريمة على الإنسان عندما يصّعّد في السماء . أي يرتفع في أعالي الجو . يضيقُ صدرُهُ، ويشعر بالاختناق، وهذه حقيقةٌ علميةٌ سببها أنَّ نسبة الأوكسجين تقلُّ كلَّما ارتفعنا إلى أعلى، كما يقلُّ الضغطُ الجويُّ، وهذان السببان يجعلانِ الإنسانَ يشعر بضيق النفس.

2 . حركة النجوم والكواكب في مداراتها:

كان الناسُ يرونَ أنَّ الأرضَ مركزُ الكون، ويدور حولها الشمسُ والقمرُ والنجومُ السيّارة، ويرونَ نجوماً ثابتة طوال السنة، فيصفونها بالثبات، ثم حدث في عصر (غاليلو) رأيٌ يعتبِرُ أنَّ الأرض هي التي تدورُ حولَ الشمس، وأنَّ الشمسَ هي مركزُ الكونِ.

أمّا القرآن الكريمُ فقد رفضَ قبلَ ذلك جميعَ الاراءِ التي تزعمُ أنَّ للكونِ مركزاً ثابتاً، قال تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ *﴾ [يس: 40] وكانَ ذلكَ في عصره سَبْقٌ علميٌّ[1]. وقال تعالى: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ *وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ *﴾ [الواقعة: 75 . 76] .

---

[1] البراهين العلمية ، عبد المجيد العرجاوي ص: (105).

فقد وجدَ العلماءُ أنَّ مواقعَ النجومِ ومساراتها ليست اعتباطيةً، فالكوكبُ وُضعَ في مسارٍ بحيثُ لا تؤدّي قوى التجاذبِ الكونيّةِ الكثيرةِ والقوى النابذةِ الناشئةِ عن الدوران إلى اضطرابٍ كوني، ولقد اختِيْرَ له المسارُ الذي يحقّق له التوازنَ بين تلك القوى الكثيرة.

ووجد العلماء أيضاً أنَّ أبعادَ المجموعة الشمسية تتبعُ سلسلةً حسابيةً، وأنّى للعربيّ الجاهلي الذي كان يرى النجومَ مبعثرةً في صفحةِ السماءِ أن يعرفَ من تِلقاءِ نفسه أنَّ لمواقعِها شأنٌ عظيمٌ[1].

3 . دوران الأرض والجبال:

قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل :88] لقدكان الناس قديماً يرون أنّ الأرضَ وجبالَها ثابتةٌ، بل يضربون المثلَ بثباتها، فجاء القرآن الكريم ليخالفَ ما ألفه الناسُ، واستقرّ في أذهانهم، وتحدَّثَ عن ظاهرةٍ كونية، فقال عن الجبال: إنّها تمرُّ مرَّ السحاب، أي إنَّ الجبال كالسحاب، فكما أنَّ السحابَ لا يتحرّكُ ذاتياً إلا إذا كان هناك شيءٌ يدفعه إلى التحرك، والذي يحرّكُ السحابَ ويدفعُه هي الرياح، فكذلك الجبالُ لا تتحرَّكُ بنفسِها، لأنها أوتادُ الأرضِ، ولكن تتحرك، وحركتُها تابعةٌ لحركة الأرض، فالأرضُ تتحرّكُ وتدورُ، وإلا فكيفَ تتحرَّكُ الجبالُ، وتمرُّ مرَّ السحاب، وهذا من صنع الله الذي أتقن كل شيء، حينئذٍ يكون هناك يقينٌ ثابتٌ[2]

---

[1] البراهين العلمية ، عبد المجيد العرجاوي ص: (106).

[2] تأملات في العلم والإيمان ص: (178).

4 . حاجز بين بحرين مالحين:

قال تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ فَبِأَيِّ آلاَء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ *﴾ [الرحمن: 19 . 22]. تتحدّثُ الآيات الكريمةُ عن بحرين يتلاقيان، وفي مكان تلاقيهما يوجدُ حاجزٌ، والظاهر أنها تتحدّث عن بحرين حقيقيين مالحين، وليس عن بحرٍ ونهرٍ، لأنّه قال: والمرجان ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ *﴾ وهو الخرز الأحمر . لا يخرجُ إلا من المياه المالحة، فالآية الكريمةُ إذاً تتحدَّثُ عن حاجزٍ حقيقي بين بحرين مالحين في مكان تلاقيهما، والبحرانِ يتلاقيانِ في المضايق، لأنه، إن لم يكن هناك مضيقٌ، فليس من مسوّغٍ لاعتبارهما بحرين، بل يكونان بحراً واحداً، إنَّ هذا الذي أثبتته الآية الكريمةُ مستغربٌ جداً في عرف الناس، إذ الانطباع السائد أنَّ المياه المتلاقية لا حواجز بينها، وما كان أحد يعرف هذه الحقيقة، ولا تخطرُ له على بالٍ، إلى أن اكتُشِفَتْ عام 1962 م، وثبت أنّ ما قاله القرآن الكريم حقيقةٌ مدهشَةٌ[1].

5 . اهتزاز الأرض وزيادتها بالمطر:

قال تعالى: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ *﴾ [الحج: 5] إن العلمَ يؤكّد أنَّ الأرضَ تهتزُّ فعلاً بنزول الغيثِ عليها، فالحبوبُ والبُصَيلاتُ والدّرناتُ والحُوَيصلاتُ والبكتيرية والجراثيمُ كلُّها تبدأُ بالحركة والانقسامات الخلوية، وامتصاص الماء، وتحليل الغذاء المعقّد إلى وحدات أقل ارتباطاً، وأكثر عدداً، وأكبر حجماً، وبامتلاء مسامّ الأرضِ بالماء تتحرّك جُزيئات الطينِ، وتبدأُ عمليةُ تأيُّنٍ عجيبةٍ في جُزَيئات التربةِ، وتنشطُ الديدانُ الأرضيّةُ في شَقّ الأنفاقِ

---

[1] البراهين العلمية ، عبد المجيد العرجاوي ص: (111).

الأرضيةِ، وابتلاع كمياتٍ كبيرةٍ من التربة المتلاصقة، وإخراجها بعدَ ذلك مفككةً، كلُّ هذه النشاطات تؤدي إلى زيادةِ حجم التربة، ويمكنُنا رؤية صورةٍ مصغّرةٍ لهذه العمليات بتخمير العجين، وزيادة حجمه، نتيجة نشاط خلايا الخمائر، وفي التربة تحدثُ ضروبٌ كثيرةٌ لمثل هذا النشاط، مِنْ كلّ ما سبق نجدُ التوافقَ بين ما عرفه العلم وما وصفه القرآن الكريم[1].

6 . أوهن البيوت:

قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ *﴾ [العنكبوت: 41] إنَّ قوله سبحانه: وقوله بعد ذلك: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ *﴾ [العنكبوت: 43] يشيرانِ إلى أنَّ وَهْنَ بيت العنكبوتِ المتحدَّث عنه وَهْنٌ غيرُ ظاهرٍ ولا معروف لدى عامة الناس، وقد ضُرِبَ هذا الوهنُ مثلاً لموالاة الكافرين بعضهم لبعض، فماذا وجد العلماءُ عند دراسة العنكبوت؟ وجدوا أنَّ الروابطَ بين أفراد العنكبوت في غاية التفكّك، فالأُنثى كثيراً ما تأكل الذكرَ بعد الإلقاح، وقد تأكلُ أبناءها، والأبناءُ يأكُل بعضُهم بعضاً، فهو بيتٌ متفكّكٌ متداعٍ، وذلك مثلُ موالاةِ الكافرين بعضهم بعضاً[2].

---

[1] المصدر نفسه ص: (127).

[2] البراهين العلمية ، عبد المجيد العرجاوي ص: (128). والأمثلة في البراهين العلمية على صحة العقيدة الإسلامية كثيرة ، ذكرت في كتب بحثت هذا الموضوع منها. «رحلة الإيمان في جسم الإنسان» د.«حامد أحمد حامد» ، و«وحدانية الله تتجلى في وحدة خلقه» للأستاذ عمر أحمد الهواري وغير ذلك كثير لمن أراد التوسع.

رابعاً . دليل الأنفس:

قال تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ *﴾ [الذاريات :21] ولما كان أقربُ الأشياء إلى الإنسان نفسَه، دعاه خالقُه وبارئُه ومصوّرُهُ وفاطرُه مِنْ قطرةِ ماءٍ إلى التبصُّرِ والتفكُّرِ في نفسِه، فإذا تفكّرَ الإنسانُ في نفسِه، استنارت له آيات الربوبيّةِ، وسطعتْ له أنوارُ اليقينِ، واضمحلّتْ عنه غمراتُ الشكِّ والريب، وانقشعتْ عنه ظلماتُ الجهلِ، فإنّه إذا نظر في نفسِهِ وجدَ اثارَ التدبيرِ فيه قائماتٍ، وأدلّةَ التوحيدِ على ربِّه ناطقاتٍ، شاهدةً لمدبّره، دالةً عليه، مرشدةً إليه[1].

وإليك بعضُ البراهين العلمية المتعلّقة بالإنسان وخلقه:

1 . الإحساس والجلد:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء :56] وهذه حقيقةٌ كونيةٌ، وهي أنَّ موطنَ الإحساس والألم في الإنسان هو الجلدُ، فالكافرون يعذَّبون عن طريق تبديل الجلد أو تغييره، وذلك ليذوقوا العذابَ، فالإذاقةُ حسب القرآن الكريم محلُّها الجلدُ، وقد بيّنَ التشريح المجهري للجلدِ أنّه عضوٌ غنيٌّ بالأليافِ العصبيّةِ، التي تقوم باستقبالِ ونقلِ جميعِ أنواعِ الحسِّ من المحيط الخارجي، وذلك عن طريق طبقاتٍ الجلدِ (البشرة، الآدمة، النسيج تحت الآدمة) وهي تنقلُ حِسَّ الألم، والحرارةَ والبرودةَ، والضغطَ، وحِسَّ اللمس، فالقرآن ينبّهنا إلى هذه الحقيقة، ويقول: إن الله سبحانه كلّما أرادَ أن يذيقَ الكفارَ مزيداً من العذاب بدّلَ جلودَهم التي احترقت وماتت فيها الأليافُ العصبيّةُ بجلودٍ سليمة لم تحترقْ، ليذوقوا العذابَ مرّةً أُخرى، وعندما يأتي التشريحُ

[1] التبيان في أقسام القران لابن القيم (190/1).

المجهري، ليقول: إنَّ الألياف العصبيَّة تكمنُ في الجلدِ نقول: إنَّ الله سبحانه وتعالى قد أخبرنا بهذه الحقيقة في القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرناً[1].

2 ـ البصمات وتحديدها لهوية الإنسان:

قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ *بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ *﴾ [القيامة: 3 ـ 4] لقد توصَّل العلمُ إلى سرِّ البصمةِ في القرن التاسع عشر، وبيّنَ أنَّ البصمةَ تتكوَّن من خطوطٍ بارزةٍ في بَشْرَةِ الجلدِ، تجاورها منخفضاتٌ، وتعلو الخطوطَ البارزةَ فتحاتُ المسامِّ العرقية، تتمادى هذه الخطوطُ وتتلوّى، وتتفرّعُ عنها تَغَضُّناتٍ وفروع، لتأخذَ في النهاية وفي كلِّ شخص شكلاً مميّزاً، وقد ثبتَ أنّه لا يمكِنُ للبصمة أن تتطابقَ وتتماثَل في شخصين في العالم، حتّى في التوائمِ المتماثلةِ التي أصلُها مِنْ بويضةٍ واحدةٍ، يتمُّ تكوّن البنان في الجنين في الشهر الرابع، وتظلُّ ثابتةً ومميّزةً له طوالَ حياته، ويمكن أن تتقاربَ بصمتان في الشكل تقارباً شديداً، ولكنّهما لا تتطابقان البتةَ، ولذلك فإنَّ البصمةَ تعدُّ دليلاً قاطعاً ومميزاً لشخصية الإنسان، معمول بها في كلِّ بلاد العالم، ويعتمَدُ عليها في تحقيق القضايا الجنائية، لكشف المجرمين واللصوص، وقد يكونُ هذا هو السرُّ في أنَّ الله سبحانه وتعالى خَصَّ البنانَ بالذكر، ليبيّنَ للإنسان هذين الأمرين:

1 ـ السرَّ المختفي في البنان، الذي لم يُعْلَمْ أمرُه إلا في عصر الكشوف العلمية.

2 ـ القدرةَ الفائقةَ على إعادةِ خلق الإنسان بصورته وخِلقته التي كان عليها[2].

---

[1] تأملات في العلم والإيمان ص: (180).

[2] تأملات في العلم والإيمان.

والدعوة مفتوحةٌ للإنسان إلى التفكر في أجهزته العضوية، كالجهاز الهضمي، والتنفسي، والدموي، وغيرها في جسمه، وفي التأمل في عالم المشاعر والأحاسيس والأفكار والعقائد.

خامساً . دليل الهداية:

قال تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى *الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى *وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى *﴾ [الأعلى :1 . 3] وقال تعالى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى *﴾ [طه:50]، والمقصودُ بالهداية المرادةِ في هذه الآيات إعطاءُ كلِّ مخلوقٍ من الخلق والتصوير ما يصلحُ به لما خُلِقَ له، وإرشادُه إلى ما يُصْلِحُه في معيشته ومطعمه، ومشربه، ومنكحه، وتقلبه، وتصرفه[1].

ومن أسماء الله الحسنى (الهادي) سبحانه وتعالى، الذي يُبصِّرُ عبادَه ويعرّفهم طريقَ الإيمان به، والإقرارَ بألوهيته، ومعرفة طريق بناء الحياة، ومعرفة نواميسها وسننها، حتى هدى الطيورَ والحيواناتِ والهوّام والوحوش إلى ما فيه مصالحها وعيشها، ومحاذرة ما يضرُّها أو يُعْطِبُها.

وقد جاء اسم (الهادي) في القرآن الكريم في قوله سبحانه: ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا *﴾ [الفرقان :31] وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ *﴾ [الحج: 54] .

إنّها أولاً: هدايةُ المعارِفِ الفطريةِ الضروريةِ لكلِّ مخلوق ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى *﴾ [طه :50] .

---

[1] مفتاح دار السعادة (109/1) ، شفاء العليل ص: (78) كلاهما لابن قيم الجوزية.

وهي ثانياً: هداية الإرشاد والبيان التي بَعَثَ بها أنبياءه، وأنزل بها كتبه ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [السجدة :24] .

وهي ثالثاً: الأخذُ بالقلوب والعقول إلى مواضع رضاه بالتوفيق والإلهام والحفظ، كما وعد سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ [يونس :9] ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت :69].

وهو منزل الكتاب، الذي مَنْ تركه ضاعَ في بيداءِ الحياةِ، ومن ابتغى الهُدى في غيره أضلّه الله[1].

وقد نبّه العلماء على كثيرٍ من هداية الله لمخلوقاته، وكتبوا في ذلك كُتباً نافعاً، فتحدّثوا عن هداية الله للنملِ وللهدهدِ والنحلِ وغيرِها من مخلوقات الله الكثيرة، وهذا بابٌ واسعٌ يكفي فيه قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ *﴾ [الانعام :38] وهذه الأمم تعبدُ الله وتسبّحه وتحمده، قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء :44] وقال أيضاً: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَآفَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور :41] .

وتأمل معي في كل من:

1 . النحل: قال تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ *ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ *﴾ [النحل :68 . 69] فانظر إليها وإلى اجتهادِها في صنع العسل، وبنائها البيوت المسدّسة، التي

---

[1] مع الله ، الاسم الأعظم ص: (280).

هي من أتمّ الأشكالِ، وأحسنِها استدارةً، وأحكمِها صنعاً، وتلك مِنْ أثرِ صنع الله وإلهامه إياها، وإيحائه إليها.

ثم انظر إلى حسنِ الامتثال، اتخذتِ البيوتَ أولاً، فإذا استقرّ لها بيتٌ خرجت منه، فرعت وأكلت من الثمار، ثم اوت إلى بيوتها، لأنَّ ربها سبحانه أمرها باتخاذ البيوت أولاً، ثم بالأكل بعد ذلك، ثم إذا سلكتْ سُبُلَ ربها مذلّلةً، لا يستوعِرُ عليها شيءٌ، ثم ترعى، ثم تعود.

ومن عجيبِ شأنها: أنَّ لها أميراً يسمّى «اليعسوب» لا يتمُّ لها رواحٌ ولا إيابٌ، ولا عملٌ ولا مرعًى إلا به، فهي مؤتمِرةٌ لأمره، سامعةٌ له مطيعةٌ، وله عليها تكليفٌ وأمرٌ ونهيٌ، وهي منقادةٌ لأمره، متبعةٌ لرأيه، يدبّرها كما يدبّرُ المَلِكُ أمرَ رعيتهِ، حتى إنّها إذا أوت إلى بيوتها، وقف على بابِ البيتِ، فلا يدعُ واحدةً تزحم الأُخرى، لا تتقدّم عليها في العبور، بل تعبرُ بيوتها واحدةً بعدَ واحدةٍ بغير تزاحمٍ، ولا تصآدم ولا تراكمٍ، كما يفعلُ الأميرُ إذا انتهى بعسكره إلى معبرٍ ضيّقٍ، لا يجوز إلا واحدٌ واحدٌ.

ومن تدبر أحوالها وسياساتها وهدايتها، واجتماعَ شملها، وانتظامَ أمرِها، وتدبيرَ مُلكها، وتفويضَ كلِّ عملٍ إلى واحدٍ منها: يتعجَّب منها كلَّ العجب، ويعلمُ أنّ هذا ليسَ في مقدورِها، ولا هو من ذاتها، فإنَّ هذه أعمالٌ محكمةٌ متقنةٌ في غايةِ الإحكام والإتقان، فمنِ الذي أوحى إليها أمرَها، وجعل ما جعل في طباعها؟! ومن الذي هداها لشأنها؟! ومَنِ الذي أنزلَ لها من الطَّلِّ ما إذا جنتْهُ ردّتْهُ عسلاً صافياً، مختلفاً

ألوانُه، في غايةِ الحلاوة واللذاذة والمنفعة[1]؟! إنه ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى *﴾ [طه: 50] .

2 . الهدهد: ومن هدايته ما حكاه الله عنه في كتابه أنْ قال لنبيّ الله سليمان عليه السلام، وقد فقده وتوعده، فلمّا جاء بدره بالعذر قبل أن ينذره سليمان بالعقوبة، وخاطبه خطاباً هيّجه به على الإصغاء إليه، والقبول منه: وفي ضمن هذا: إنّي أتيتُك بأمرٍ قد عرفتُه حقّ ﴿فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾، بحيث أحطتُ به، وهو خبر عظيم له شأن، فلذلك قال: ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ *﴾ [النمل: 22] .

و(النبأُ) هو الخبر الذي له شأن، والنفوس متطلعة إلى معرفته، ثم وصفه بأنه (نبأ يقين) لا شكّ فيه ولا ريب، فهذه مقدّمةٌ بين يدي إخباره لنبيّ الله سليمان بذلك النبأ، استفرغتْ قلب المخبَر لتلقّي الخبر، وأوجبتْ له التشويقَ التامَّ إلى سماعهِ ومعرفتهِ، وهذا نوعٌ من براعةِ الاستهلالِ، وخطابِ التهييجِ.

ثم كشفَ عن حقيقةِ الخبرِ كشفاً مؤكداً بأدلّةِ التأكيد فقال: ثم أخبر عن شأنِ تلك ﴿إِنِّي وَجَدْتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾، وأنها من أجلّ الملوكِ، بحيث أوتيت من كل شيء يَصْلُحُ أن يُؤتاه الملوك، ثم زادَ في تعظيم شأنها بذكر عرشها التي تجلس عليه، وأنه عرش عظيم.

ثم أخبرَه بما يدعوه إلى قصدِهم وغزوهم في عُقرِ دارهم بعد دعوتهم إلى الله فقال: ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [النمل: 24]، وحذفَ أداةَ العطفِ من هذه الجملةِ، وأتى بها مستقلّةً غيرَ معطوفةٍ على ما قبلَها، إيذاناً بأنّها المقصودةُ، وما قبلَها توطئةٌ لها.

---

[1] مفتاح دار السعادة (1/309 . 310).

ثم أخبر عن المغوي لهم، الحامل لهم على ذلك، ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ [النمل: 24] المستقيم، وهو السجود لله وحده.

ثم أخبر أنّ ذلك الصدَّ حالَ بينهم وبين الهداية والسجود لله الذي لا ينبغي السجود إلا له ﴿فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ *﴾ [النمل: 24] ثم ذكرَ مِنْ أفعاله سبحانه إخراجَ الخِبْءِ في السماواتِ والأرض، وهو المخبوءُ فيهما من المطر، والنبات، والمعادن، وأنواع ما ينزل من السماء، وما يخرجُ من الأرض.

وفي ذكر الهدهدِ هذا الشأنَ من أفعال الربِّ تعالى بخصوصهِ إشعارٌ بما خصّه اللهُ به من إخراجِ الماءِ المخبوءِ تحتَ الأرضِ، قال صاحب «الكشاف»: وفي إخراجِ الخِبْءِ إمارةٌ على أنّه من كلامِ الهدهدِ لهندسته، ومعرفته الماء تحت الأرض، وذلك بإلهام ﴿الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النمل: 25]، جلّت قدرتُ، ولطفَ علمُه، ولا يكادُ يخفى على ذي الفراسة، الناظرِ بنورِ الله مخايلَ كلِّ شخصٍ بصناعةٍ أو فَنٍّ منَ العلم في روائه ومنطقه وشمائله، فما عَمِلَ آدميٌّ عملاً إلا ألقى الله عليه رداءَ عمله[1].

سادساً: دليل انتظام الكون وعدم فساده:

وانتظامُ أمرِ العالم، العلوي والسفلي، وارتباطُ بعضِه ببعضٍ، وجريانُه على نظام مُحْكَمٍ، لا يختلف؛ ولا يفسد: أدلُّ دليلٍ على أنَّ مدبّره واحدٌ لا إله غيره[2].

قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ *﴾ [الانبياء: 22] لو كان في السماواتِ والأرض آلهةٌ تصلحُ لها العبادةُ سوى الله

---

[1] العقيدة في الله ص: (116).

[2] الصواعق المرسلة لابن القيم (464/3).

الذي هو خالقُ الأشياءِ، وله العبادةُ والألوهيّةُ التي لا تصلحُ إلا له أي: لفسدَ أهلُ السماواتِ والأرضِ.

وقال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ *﴾ [المؤمنون: 91] يقول تعالى ذكره: مااللهِ مِنْ ولدٍ، ولا كانَ معه في القديم؛ أو عندَ خلقِهِ الأشياءَ مَنْ تصلحُ عبادتُه، إذاً لاعتزلَ كلُّ إلهٍ منهم بما خلقَ مِنْ شيءٍ، فانفردَ به، ولتغالبوا، ولعلا بعضهم على بعض، وغلبَ القويُّ منهم الضعيفَ، لأنَّ القويَ لا يرضى أن يعلوه الضعيفُ، والضعيفُ لا يصلحُ أن يكون إلهاً، فسبحان اللهِ ما أبلغها مِنْ حُجّةٍ، وما أوجزها لمن عقلَ وتدبّر[1]؟!

وهكذا، فإنَّ دليلَ انتظامِ الكونِ، وعدم فسادِهِ دليلٌ عقلي قويٌ على وحدانيةِ الله، لا تملكُ العقولُ السويّةُ ردَّه، وهي ترى انتظامَ أمرِ السماواتِ والأرض وما فيهنّ، ممّا يدلُّ على وجودِ إلهٍ واحدٍ متفرّدٍ بالخلقِ والتدبيرِ، مما يستوجِبُ صرفَ العبادةِ له دونَ سواه[2].

سابعاً . دليل التقدير:

قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا *﴾ [الفرقان: 2] وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ *﴾ [القمر: 49] وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ *﴾ [الرعد: 8] وظاهرةُ التقديرِ تبدو في كلّ ما خلقَ اللهُ عزّ وجلّ في الأرض والسماءِ والإنسان

---

(1) تفسير الطبري (13/17).

(2) تفسير الطبري (49/18).

والنبات، والحيوان، فقد نظّم اللهُ أجزاءَ هذا الوجودِ على أحسنِ نظامٍ، وأدلّه على كمالِ قدرةِ خالقِهِ، وكمالِ عملِهِ، وكمال حكمتِهِ، وكمالِ لطفِهِ[1].

ثامناً ـ دليل التسوية:

قال تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا *رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا *﴾ [النازعات :27، 28] وقال تعالى: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل :88] وقال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ *﴾ [السجدة :7] .

والتسوية: إحسانُ الخَلْقِ، وإكمالُ الصنعةِ، بحيث يكونُ المخلوقُ مهيّئاً لأداءِ وظيفته، وبلوغِ كماله، المقدَّر عنه، وجعله مستوياً معتدلاً متناسبَ الأجزاء، بحيث لا يحصلُ تفاوتٌ يخلُّ بالمقصودِ منها[2].

وإذا تأمّلنا مظاهرَ التسوية في الإنسان رأيناها تبدو في كل عضو من أعضائه، فقد أحسنَ اللهُ خلقَه، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ *﴾ [التين :4] منتصبَ القامة، سويَّ الأعضاءَ حسنَها[3]، كما قال سبحانه في موضع آخر ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ *فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ *﴾ [الانفطار :7-8] وإنَّ الجمالَ والسواءَ والاعتدالَ ليبدو في تكوين الإنسان الجسدي والعقلي والروحي، وكلُّ ذلك يتناسَقُ في كيانه في جمالٍ واستواءٍ، والأجهزةُ العامّةُ لتكوين الإنسان الجسدي، كالجهاز العظمي، والجهاز العضلي، والجهاز الهضمي، والجهاز التنفّسي.. إلى غير ذلك من أجهزة الجسم المتعدّدة كلٌّ منها عجيبةٌ، لا تقاسُ إليها كلُّ العجائب

---

[1] الدلالة العقلية في القران ص: (314).
[2] مفتاح دار السعادة (259/1).
[3] المدخل إلى الثقافة الإسلامية ، أحمد جلي ص: (75).

الصناعية التي يقفُ الإنسانُ مدهوشاً أمامها، وينسى عجائب ذاته، وهي أضخمُ وأعمقُ وأدقُّ بما لا يقاس[1]، وخلقُ الإنسانِ على هذه الصورة السويّة المعتدلة أمرٌ يستحقُّ التدبَر الطويلَ، لأنَّه خلقٌ لا يملك العقل حياله إلا الإقرار بعظمة الله، والشكر له، بأنْ أكرمه بهذه الخِلْقة، وقد كان قادراً أن يركّبه في أيِّ صورةٍ أخرى يشاؤها[2].

* * *

[1] تفسير ابن كثير (396/4).

[2] الدلالة العقلية في القران ص: (294).

المبحث الثالث

توحيد الربوبية

1 . معنى توحيد الربوبية

2 . توحيد الألوهية (توحيد العبادة) من لوازم توحيد الربوبية

3 . السنن العامة

4 . السنن الخاصة

5 . سمات السنن الإلهية.

6 . توحيد الربوبية أعظم برهان على توحيد الألوهية (توحيد العبادة).

المبحث الثالث : توحيد الربوبية

1 . معنى توحيد الربوبية:

معنى توحيدُ الربوبية هو الاعتقادُ الجازِمُ بأنّ اللهَ جلَّ جلاله ربُّ كلِّ شيءٍ ومالكُه وخالقُه، ومدبِّرُ أمرِهِ ورازقُه، وأنّه وحدَه الذي ينفعُ ويضرُّ، ويحيي ويميت، وأنّه سبحانه وحدَه المتصرِّفُ بهذا الكون، وما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، لا مانعَ لما أعطى، ولا معطيَ لما منعَ، بيده الخير، وإليه ترجع الأمور، وهو على كلِّ شيءٍ قدير[1].

2 . توحيد الألوهية من لوازم توحيد الربوبية:

توحيد الربوبية لا يكفي وحده في حصولِ الإسلام، بل لا بدَّ أن يأتيَ العبدُ مع ذلك بلازمه من توحيد العبادة، لأنّ الله تعالى حكى عن المشركين أنّهم مقرّون بتوحيد الربوبية لله وحده، قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُون *﴾ [الزمر: 38] وقال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُون سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلاَ تَذَكَّرُون قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيم سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلاَ تَتَّقُون قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُون سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُون بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُون مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ *﴾ [المؤمنون: 84 . 92]

---

[1] المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار (348/1).

وقال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ *﴾ [يوسف: 106] وغير ذلك من الآيات في القرآن الكريم، مما يدلُّ على اعتراف الكفّار بخالقهم، وإقرارهم به[1]، وإنّما عبدوا من دون الله ما عبدوا ليجعلوهم وسائط وشفعاء بينهم وبين الله، ومع ذلك يتخلَّون عنهم إذا نزلت بهم الشدائد، ووقت الاضطرار، وهذا الإقرار لم يغنِ عنهم شيئاً، ولم ينتفعوا به، إذ لم يصبحوا به مسلمين، ولم يَعْصِمْ أموالهم، ولا دماؤهم، ولا أعراضهم، لأنَّهم أنكروا توحيد الألوهية (توحيد العبادة)، وأشركوا بربهم، ولم يلتزموا بلازمِ ما أقرّوا به، إذ إنَّ توحيد الربوبية يلزم منه توحيد الألوهية[2]. وهو إفراد اللهِ عزّ وجلّ بجميع أنواع العبادات.

إنَّ المؤمنَ يشعرُ بطمأنينةٍ كبيرةٍ وهو يتأمَّلُ في ملكوتِ الله تبارك وتعالى، فيرى عظمةَ اللهِ في خلقه، وحكمتَه البالغةَ في تدبيره ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ *﴾ [الملك: 22] .

والحديثُ عن عظمةِ الله يملأُ القلبَ سكينةً، والتدبّرُ في ملكوته يملؤه إيماناً، فَحَقَّ للشاعِرِ أن يتساءل بعد جولةِ تأمُّلٍ في مخلوقاتِ الله سبحانه، فيقول (من الكامل):

قُلْ للوليـدِ بكـى وأجْهَـشَ بالبكـا ... ءِ لـدى الـولادةِ مـا الـذي أبكاكـا
وإذا تــرى الثعبــانَ يَنْفُــثُ سُمَّــه ... فاسـألْه مَـنْ ذا بالسُّـموم حَشَـاكا
واسـألْه كيـفَ تعيـشُ يا ثعبـانُ أو ... تحيــا وهــذا السُّــمُّ يمــلأُ فاكــا
واسألْ بطونَ النَّحْلِ كيف تَقَاطَرَتْ ... شَـهْداً، وقُـلْ للشـهدِ مَـنْ حَلاَّكـا
بــل ســائلِ اللَّــبنَ المصَــفَّى كــا ... نَ بَيْنَ دمٍ وَفَرْثٍ ما الّذي صَفَّاكا

[1] المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار (353/1).
[2] اقتضاء الصراط المستقيم ص: (460).

واسألْ شُعاعَ الشَّمْسِ يدنو وهي أبـ عـدُ كـلِّ شـيْءٍ مـا الَّـذي أدناكـا
يا أيُّهـا الإنسـانُ مهـلاً مـا الـذي باللهِ جـلَّ جلالُـه أغراكـا؟

إن التأمُّل في خلق الله عز وجل وملكوته يقودُ إلى رسوخ الإيمان بالله سبحانه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيات لِأُولِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ *﴾ [آل عمران: 190 . 191] فتأمَّلْ وسبح وتعبّدْ لمن خلقَك وذرأك وإليه المصير[1].

إنَّ من أبرز صفاتِ الله عزّ وجلّ الدّالةِ على ربوبيته صفة الخلق، وما تميّزتْ به من إتقانٍ، وبديعِ صُنعٍ، لا يكونُ إلاَّ من ربِّ العالمين[2]، فاللهُ عزَّ وجلَّ هو الذي خلقَ المخلوقاتِ، ومن عظيم إتقانه أنْ سنَّ لها قوانين وسنناً ثابتةً، منها العام، ومنها الخاص، عليها مدارُ انضباطها، وهذه السنن لا يمكنُ إضافتها لغير الله سبحانه وتعالى، لأنَّه هو المتفرّدُ بالربوبية وحدَه لا شريكَ له[3].

3 . السنن العامة:

فالسنن العامة تخضَعُ لها جميعُ الكائناتِ في وجودِها المادي، وما يمرُّ بها مِنْ حوادثَ مادية، كنموِّ الإنسان، وحركتِهِ، ومرضِهِ، وما شابه ذلك، وما تقعُ مِنْ حوادثَ كونية، كنزول المطر، وتعاقبِ الليل والنهارِ وغيرها من متعلّقات الوجود المادي لمخلوقات الله عز وجل.

---

(1) مع الله الاسم الأعظم ص: (79).
(2) المصدر نفسه ص: (79).
(3) منهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القراني ص: (29).

ولقد وجّه الأنبياءُ والرسلُ أقوامَهم إلى المشاهدةِ والنظرِ، والتأمّل والتفكّر: في مثل هذه السنن التي تتضمّن دلالاتٍ كبيرةٍ على عظمةِ الخالق، وحُسن تدبيره، وبديع خلقه لأمره، وتدبيره عز وجل، وفق سننه ونظامه وقوانينه، التي وضعها بقدرته وحده لا شريك له، ومن ذلك قول نوح عليه السلام لقومه، قال تعالى: [1]﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا *وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا *وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتًا *ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا *وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا *لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا *﴾ [نوح :15. 20] .

4 . السنن الخاصة:

وأما السنن الخاصة، فهي تتعلّق بخضوع البشر لها باعتبارهم أفراداً وأمماً وجماعات خضوعاً يتعلّق بتصرفاتهم وأفعالهم وسلوكهم في الحياة، وما يكونون عليه من أحوالٍ، وما يترتّب على ذلك من نتائج كالسعادة والشقاء، والعزّ والذل، والقوّة والضعف، والنصر والهزيمة، ونحوِ ذلك من الأمور الاجتماعية في الدنيا، وما يترتّب عليها من جزاءٍ في الآخرة، سواء كان عذاباً أو نعيماً، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ*﴾ [الاعراف :128] أي الخاتمة المحمودةُ، أو النهاية في الدنيا والآخرة لمن أتقى[2]، وكذلك ما ورد في القرآن الكريم حول غزوة أحد مثل قوله تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: 160] .

---

[1] المصدر نفسه ص: (29).

[2] منهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القرآني ص: (30).

5. سمات السنن الإلهية:

من سماتِ هذه السنن بنوعيها: الثباتِ والاطرادِ والعمومِ، قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ [الاحزاب :62]، أي لن تجدَ لها تحويلاً وتغييراً، بل هي ثابتةٌ دائمةٌ[1]، فما من نبيٍّ إلا أرشدَ قومه إلى هذه السنن، بُغيةَ توحيدِ الخالق، وخاصّةً النوع الثاني منها، التي تتعلّق بالأحوال الاجتماعية، ففي الاعتبار والاتعاظ بها تتحقّق الاستقامة المطلوبةُ في سلوكِ البشر، وتتحقق الضوابطُ المرجوّة في سبيل تحقيق العبودية الخالصة لله عزّ وجلّ، لذا كان من أهداف إيراد القصص في القرآن الكريم الاتعاظُ بما جاء فيها من ذكر لهذه السنن، كسنّة الأخذ بالأسباب، وسنّة التدافع، وسنّة في نصر المؤمنين، وسنّة الله في الفتنة والابتلاء، وسنة الله في الظلم والطغيان[2]وغيرها.

6. توحيد الربوبية أعظم برهان على توحيد الألوهية:

إنّ توحيدَ الربوبيةِ هو أعظمُ برهانٍ ودليلٍ على توحيدِ الألوهية، وهو بالنسبة له كالمقدّمة بالنسبة للنتيجة، فمن اعتقدَ أنّ لهذا الكونِ العظيم الواسعِ خالقاً، ومدبراً، وقاهراً، ومتصرفاً فيه، يفعلُ ما يشاء، وله القدرةُ الكاملُة على تبديله وتغييره، وأنّه الرازقُ لجميع المخلوقاتِ بيدِه النفعُ والضرُّ، ويمنع ويعطي، ويميت ويحيي، وينجّي عند الشدائد والكربات، ويجيبُ المضطر عند اضطراره، من اعتقدَ ذلك صِدْقاً تولّدَ في قلبه حُبُّ ذلك الخالق العظيم.

---

[1] زبدة التفسير ، محمد سليمان الأشقر ص: (560).

[2] منهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القراني ص: (30 إلى 36).

وهذه المحبةُ لابدَّ أن تثمِرَ خضوعاً وانكسِاراً وتذللاً، وانقياداً وطاعةً وعبوديةً ورِقاً لمالك هذا الكون.

وكثيراً ما يذكِّرُ الله سبحانه في كتابه الناسَ جميعَهم بأنّه هو المنعم عليهم، والمتفضل عليهم بالخلق والرزق وجميع النعم، فيرشدهم بذلك لعبادته وحده لا شريك له[1]، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ *﴾ [فاطر:3] .

* * *

[1] المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار (431/1 إلى 435).

المبحث الرابع

توحيد الأسماء والصفات

أولاً . الأسس التي يقوم عليها توحيد الأسماء والصفات

ثانياً . أدلة هذا النوع من التوحيد

ثالثاً . أسماء الله الحسنى

رابعاً . الصفات الإلهية.

خامساً . أثر الصفات الإلهية على الأخلاق

سادساً . وصف الله تعالى نفسه بالمغفرة لا يعني الإغراء بالمعاصي

ومعناه: الإيمانُ بما أثبته الله تعالى لنفسِه في كتابه، وأثبته له رسولُه صلى الله عليه وسلم في سنّته من الأسماء الحسنى، والصفات العُلى، من غيرِ تحريفِ ألفاظها أو معانيها، ولا تعطيلها بنفيها، أو نفي بعضِها عن اللهِ عزّ وجلّ، ولا تكييفها بتحديدِ كُنهها، وإثبات كيفيّةٍ معينةٍ لها، ولا تشبيهها بصفات المخلوقين[1].

أولاً ـ الأسس التي يقوم عليها توحيد الأسماء والصفات:

إنّ توحيدَ الله سبحانه وتعالى في أسمائه وصفاته يتطلّبُ التقيُّدَ في ذلك بكتاب ربنا وبسنّة رسولنا صلى الله عليه وسلم، فلا نصنعُ له اسماً أو صفةً ليست واردةً في الوحيين، ولا نشبّهه بأحدٍ من خلقه، فهو سبحانه متّصفٌ بكلِّ كمالٍ، منزَّهٌ عن كلِّ نقصٍ. ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ *﴾ [الشورى :11] .

وعلى ذلك فيمكِنُ أن نذكرُ هذه الأسس:

1 ـ إنّ أسماءَ الله تعالى وصفاته توقيفيةٌ، فلا نُثْبِتُ للهِ تعالى ولا ننفي عنه إلا بدليلٍ من الكتاب أو السنة، إذ لا سبيلَ إلى ذلك إلا من هذا الطريق.

2 ـ إنَّ الإيمان بأن الله تعالى لا يشبهُ أحداً من خلقِهِ لا في أسمائه ولا صفاته، كما لا يشبهه أحد من خلقه، وإنْ سمّى أو وصفَ أحداً من المخلوقين بتلك الأسماء والصفات فذلك اشتراك في اللفظ، لا يوجِبُ مماثلَة المخلوقين له فيما دلت عليه هذه الأسماء والصفات.

---

[1] الإيمان د. محمد نعيم ياسين ص: (27).

فأسماءُ الله تعالى وصفاتُه على ما يليقُ به سبحانه وتعالى، وما يسمّى به من المخلوقين أو يوصف من ذلك فعلى ما يليق بالمخلوق نفسه، فكلٌّ بما يليقُ به، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ *﴾ [الشورى: 11] .

3 ـ إنَّ صفاتِ الله كلَّها صفاتُ كمالٍ، فله سبحانه الكمالُ المطلقُ، وهو المنزّهُ عن كلِّ نقص.

ومما ينبغي معرفته في الإيمان بأسماءِ الله وصفاتِه أن يقطعَ الإنسان الطمعَ في معرفة كيفيتها، وألاّ يسأل عن ذلك، إذ لا يُسْأل عن صفاتِ الله تعالى بكيفٍ.

وأن يعلمَ مع ذلك ويعتقدَ أنَّ هذه الصفات معلومةُ المعنى، فلم يخاطِبِ الله تعالى عبادَه ويتعبّدهم بأمورٍ لا يعلمون معناها، ولهذا قال الإمام مالك وغيرُه من علماء لأمة لمن سأله عن كيفية استواء الله تعالى على عرشه: الاستواءُ معلومٌ، والكيفُ مجهولٌ، والإيمان به واجبٌ، والسؤالُ عنه بدعةٌ[1].

وقال ربيعةُ الرأي شيخُ مالك قبله: «الاستواء معلومٌ، والكيفُ مجهولٌ، ومِنَ اللهِ البيانُ، وعلى الرسولِ البلاغُ، وعلينا الإيمان»[2].

ثانياً ـ أدلّةُ هذا النوعِ من التوحيد:

لا تخلو سورةٌ من سور القرآن الكريم من ذكرِ اسمٍ من أسماء الله تعالى، أو صفةٍ من صفاته، ومن ذلك سورةُ الإخلاص فهي بكاملها أسماء الله وصفاته قال تعالى: ﴿قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد﴾ ففي هذه السورة وصف الله سبحانه وتعالى نفسَه بأنّه (أحدٌ صمدٌ) فهذان الوصفان يدلاّن

[1] فتاوى ابن تيمية (58/3).

[2] المصدر نفسه (58/3) ، حماية الرسول حمى التوحيد ص: (255).

على اتصافِ الله بغايةِ الكمال المطلق ومعنى (الصمد): المستغني عن كلِّ أحدٍ، والمحتاجُ إليه كُلُّ أحدٍ، وهذا المعنى يدلُّ على الإثباتِ والتنزيه.

فالإثباتُ: وصفهِ سبحانه بأنه هو الذي يُصْمَدُ إليه، أي يُرْجَعُ إليه في كلِّ أمرٍ، وذلك لأنّه هو المتصفُ بجميع صفاتِ الكمالِ، فهو القادِرُ على كلِّ شيءٍ، والفعّال لما يريدُ، بيدِهِ الخَلْقُ والأمرُ والجزاءُ، وما من قوّةٍ لغيره تعالى إلا بهيمنةٍ منه، إذا شاءَ أبقاها، ومتى شاء سلبها، فالمرجِعُ والمرادُ إليه سبحانه[1].

وأما التنزيه: فبوصفِهِ تعالى بأنّه غنيٌّ عن كلِّ شيءٍ، فلا افتقارَ فيه بوجهٍ من الوجوه: لا في وجودِهِ، فإنَّه الأوّلُ الذي ليس قبلَه شيءٌ، وهو الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ *﴾ [الإخلاص :3] ولا في بقاءه، فإنه الذي يُطعِمُ ولا يُطعَمُ. ولا في أفعاله، فلا شريكَ له ولا ظهير[2].

كما أنَّ وصفه سبحانه بأنّه (أحد صمد) يدلُّ على اتصافه بالكمالِ المطلق، فكذلك يدلان على معنًى آخر، وهونفي الولادة والتوليد عن الله سبحانه.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ *﴾ [الانعام :14] .

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ *مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ *إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ *﴾ [الذاريات :56 ـ 58] .

فإنَّ الأحدَ هو الذي لا كفؤَ له ولا نظيرَ، فيمتنعُ أن تكونَ له صاحبةٌ ولا ولدٌ، قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ

---

[1] علو الله على خلقه بتصرف ص: (28).

[2] المصدر نفسه ص: (28 ـ 29).

شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ *﴾ [الانعام :101] وفي هذا نفيٌ عن المخلوقاتِ مكافأتِها أو مماثلتَها للخالق.

ومثل ذلك قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ *﴾ [الانعام :1] أي: يعدلون به غيره، فيجعلون له من خلقه عِدْلاً ونظيراً[1].

ومثل هذا قوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا *﴾ [مريم :65] أي لا شيءَ يساميه، لا ندَّ، ولا عِدلَ، ولا نظيرَ له يساويه، فأنكر التشبيه والتمثيل.

وبهذا يتبيّن لنا أنّ تنزيهه سبحانه عن العيوبِ والنقائصِ واجبٌ لذاته، كما دلّت على ذلك سورةُ الإخلاص[2].

ثالثاً ـ أسماء الله الحسنى:

لربنا تبارك وتعالى أسماءٌ سمّى بها نفسه، منها ما أنزله في كتابه، كالأسماء الموجودةِ في القرآن الكريم، ومنها ما علّمه الله تعالى بعضَ خلقه من الأنبياء والمرسلين، أو الملائكة المقربين، أو مَنْ شاءَ الله تبارك وتعالى. ومن أسمائه سبحانه ما استأثر به في علم الغيب عنده، فلا يعلمه أحد.

وذلك أنَّ لله تعالى من معاني العظمة ما لا تستطيعُ المخلوقاتُ إدراكه، لأنّه الإلهُ الحقُّ المبين، له الجمالُ المطلقُ، والكمالُ المطلقُ، والجلالُ المطلقُ، والعظمةُ التامّةُ، والقدرةُ الكامِلَةُ، فلله تعالى أسماءٌ وصفاتٌ لا يحيطُ بها إلا هو سبحانه وتعالى.

---

[1] المصدر نفسه ص: (28 ـ 29).

[2] من عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين للصلابي ص: (62).

1 . أسماء الله تبارك وتعالى كثيرة: بل كما قال ربنا عز وجل: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا *﴾ [الكهف :109] وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ *﴾ [لقمان :27] فلله عزّ وجل من معاني الحَمدِ والمجدِ، والكمالِ والعظمةِ، والقوةِ والقدرةِ والسلطانِ، ما لا يحيطُ به بشرٌ، ولا يدركُهُ عقلٌ، ولا يقف عند منتهى كُنهِهِ إدراكٌ، وحديث التسعة والتسعين[1] لا يعني قصر الأسماء الحسنى عليها، بل إنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال في الحديث الصحيح . الذي رواه ابن مسعود رضي الله عنه . مناجياً وداعياً ربّه تبارك وتعالى: «أسألُكَ بكلِّ اسمٍ هوَ لكَ، سمَّيْتَ بهِ نفسَكَ، أو أنزلتَهُ في كتابِكَ، أو علّمتَهُ أحداً منْ خَلْقِكَ، أو استأثرتَ بهِ في عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَك»[2]. وذكر في حديث الشفاعة أنّه يسجدُ صلى الله عليه وسلم تحت العرش، فيفتَحُ اللّهُ عليه بمحامدَ يعلّمُها له، لم يكن يَعْلَمُها مِنْ قبلُ[3].

2 . أسماء الله تبارك وتعالى توقيفية: فلا يحقُّ لأحدٍ مِنَ الناس أن يخترعَ لله تعالى اسماً، وإنّما أسماؤه سبحانه هي ما جاء في القرآن الكريم أو السنة بصفة الاسم، مثل:

---

[1] سيأتي تخريجه ص (47).

[2] أخرجه أحمد في مسنده (391/1). والحاكم في مستدركه ، كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر (69/1) رقم (1877) ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (136/10): رواه أحمد ، وأبو يعلى ، والبزار ، والطبراني ، ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني ، وقد وثقه ابن حبان.

[3] حديث الشفاعة أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: تفسير القران، باب: {} [الإسراء: 3] (4435)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: أدنى أهل الجنة منزلة فيها (194) من حديث أبي هريرة وسيأتي الحديث ص {ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا *}

الخالق، البارئ، المصوِّر، الملك، القدّوس، السّلام، العزيز، الحكيم، العليّ، العظيم، المؤمن، المهيمن... إلخ

3 . من أسماء الله الحسنى ما يختصُّ به سبحانه: فلا يجوزُ أن يُسمَّى بها غيرُه، وهي: (الله) و(الرَّحمنَ)، ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَانَ﴾ [الإسراء: 110] ولهذا لا يتسمّى أحدٌ بهذين الاسمين من المخلوقين قطّ إلا قصمه الله تعالى، فالله والرَّحْمَنُ من الأسماء التي لا يُسمَّى بها أحدٌ إلا الله عز وجل[1].

4 . من أسماء الله عز وجل ما يجوزُ أن يُذْكَرَ وحدَه منفرداً: كالعزيزِ، والحميدِ، والحكيم، والرحيمِ، والعليمِ، والخبيرِ، والبصيرِ.. وما أشبه ذلك، فتناديه بها، وتدعوه بها، وتعرفُه سبحانه.

5 . من أسماء الله عزّ وجلّ ما لا يُذكر إلا مع نظيره:

وذلك بأن تصفَ الله تبارك وتعالى بأنّه هو (الضار النافع) و (القابض الباسط) وما أشبه ذلك من الأسماء التي تكونُ متقابلةً، فلو وصفت ربَّك تبارك وتعالى بأنه الضار فحسب، أو القابض فحسب لكان هذا مُوهِماً لمعنًى لا يليقُ بمجدِ اللهِ وكرمِهِ، وعظمتِهِ وكمالِهِ وقدسيته، لهذا لا تُذْكَرُ هذه الأسماءُ منفردةً، وإنّما تذكَرُ مع نظيرها ومقابلها.

6 . معنى الإحصاء في قوله صلى الله عليه وسلم: «إنَّ للهِ تسعةً وتسعينَ اسماً، مئة إلا واحداً، مَنْ أحصاها دخلَ الجنَّة»[2] يشمل أموراً منها:

---

[1] مع الله ص: (24).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الشروط ، باب: ما يجوز من الاشتراط والثنا في الإقرار والشروط التي يتعارفها الناس بينهم ، وإذا قال: مئة إلا واحدة أو ثنتين (2585) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: في أسماء الله تعالى ، وفضل من أحصاها (2677).

أ ـ معرفة هذه الأسماء وحفظها: بحيث يستطيعُ الإنسانُ أن يعدّها عداً، وقد اعتنى جماعةٌ من أهل العلم بعدِّ هذه الأسماء، كالزَّجَّاج، وابن مِنْدَة، وابنِ حزم، وأبي حامد الغزالي، وابن العربي، والقرطبي، وغيرِهم من المصنّفين والعلماء، الذين اعتنوا بذكر هذه الأسماء وتعدادها، واستخراجها من القرآن والسنة النبوية الصحيحة، وهذا داخلٌ في معنى إحصاء أسماء الله الحسنى.

وفضلٌ عظيم للإنسان أن يكونَ عندَه إلمامٌ ومعرفةٌ بأسماء الله عز وجل، وأن يتلوها، وأن يدعوَ الله بها[1].

ب ـ من معاني إحصائها معرفة معانيها: فإنَّ هذه الأسماء ليست أسماءً رمزيةً، ولا وهميةً، ولا جامدةً، ولا غامضةَ المعنى، وإنّما هي بلسانٍ عربي مبينٍ، أُريدَ من الإنسان أن يتفهّم معانيها، حتى تكونَ تلاوتُنا لها ذاتَ معنًى، وليس مجرّدَ ترديدٍ لألفاظٍ لا نفقه ما وراءها، وهذا بحدِّ ذاته مكسبٌ عظيمٌ، يبارِكُ النفسَ ويزكّيها، ويرتقي بالقلب والعقل والروح.

ج ـ الإلحاح بالدعاء لله عز وجل بهذه الأسماء، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىَ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الاعراف :180] .

إنَّ الله تبارك يحبُّ أن يُدعَى بها، ولهذا قيل (من الكامل):

لا تسألنَّ بُنيَّ آدم حاجةً وسَلِ الذي أبوابُهُ لا تُحْجَبُ
اللهُ يَغْضَبُ إنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ وبُنيُّ آدم حِيْن يُسْأَل يَغْضَبُ

فادعو الله بأسمائه الحسنى باعتدالٍ، وذلك بأن تدعوه وتسأله وترجوه فيما ألَمَّ بكَ مِنْ أمرِ دنياك وآخرتِكَ مما تحبُّ وترجو، أو ممّا تخافُ وتكره، أو تدعوه بهذه الأسماء

[1] مع الله ص : (26).

باستحضار معانيها، وتأمُّلها وتدبُّرِها، والتعبد بمقتضياتها، والتسبيح، والتحميد، والتهليل، والتكبير، والصلاة، والذكر، والاستحضار[1].

ح ـ استحضار معاني تلك الأسماء: فإنّ شرَّ ما يُبتلى به الناسُ الغفلة، والاستغراق في ماديات الحياة، والانسياق وراء صوارفها، وخيرُ دواءٍ للقلوب هو استحضارُ عظمةِ علاَّم الغيوب، والتدرّجُ بالنفس في مراقي معرفته، والإيمان به سبحانه، حتَّى تصلَ درجةَ: «أن تعبدَ الله كأنَّكَ تراه»[2]، فهذا يزيدُ المرءُ إقبالاً على الطاعة، وحفاوةً ونشاطاً، كما قال سبحانه: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ *وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ *﴾ [الشعراء: 218 . 219] .

كما أنَّ استشعارَ معاني هذه الأسماء يزيدُ المؤمنَ إعراضاً عن المعصية، وزهداً فيها، وإسراعاً في الإقلاع عنها، وقوة في التوبة والأوبة، لما يحسُّ به من وحشة القلب، والبعد عن الربِّ، ولما يحاذره ويستشعره من غضبه أو عتبه أو مؤاخذته سبحانه للعبد على إقامته على الذنب[3].

إنَّ مِنْ خيرِ ما تورثه هذه الأسماءِ الصفاءَ والسكينةَ والوئامَ، والإحجامَ عن الناس، والتواضعَ لذي الجلال، إلى سعةِ العقلِ والفهمِ والإدراكِ، ولعلَّ من إحصائها ألا

---

[1] المصدر السابق ص: (27).

[2] وهذه الجملة هي جزء من حديث طويل أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الإيمان باب: سؤال جبريل النبي عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة (50)، ومسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: بيان الإيمان والإسلام والإحسان (8).

[3] مع الله ص: (28).

تتحوّل إلى مادةٍ للخصام أو الجدل العقيم، الذي لا يثمِرُ معرفةً قلبية، على أنَّ البحث العلمي الهادِئ مطلبٌ لا بدَّ منه لمن أراد سلوكَ الطريق[1].

رابعاً. الصفات الإلهية:

تنقسمُ الصفاتُ الإلهيّةُ إلى عقليةٍ وخبريةٍ، وإلى ذاتيةٍ وفعليةٍ اختياريةٍ، فالصفاتُ العقليةُ والخبريةُ جاء بها القرآن الكريم وتحدّثت بها السنة.

1 . **الصفات العقلية:** وهي التي يمكِنُ أن يُسْتَدَلَّ عليها بالعقل: كالعلم، والقدرة، والإرادة، والحياة، والسمع، والبصر، والكلام، والرحمة، والحكمة، والعلوّ، ونحوها[2].

2 . **الصفات الخبرية:** وهي التي لا يستطيعُ العقلُ إدراكَها مِنْ غير طريق النصوص، فطريقُ إثباتها ورودُ خبرِ الصادقِ بها فقط، وذلك كالوجه، واليدين، والعين، والاستواء على العرش، ونحو ذلك[3]، فهذه الصفاتُ يجب الإيمانُ بها كالصفات العقلية من غير تمثيلٍ، ولا تعطيل، ولا تحريفٍ، ولا تكييف[4]، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ *﴾ [الشورى :11] .

كما تقسم إلى:

1 . **الصفات الذاتية:** وهي التي لا تنفكُّ عنها الذاتُ، بل هي لازمةٌ لها أزلاً وأبداً، وذلك كالحياةِ، والعلمِ، والقدرةِ، والقُوّة، والمِلْك، والعظمة، والكبرياء، والمجد، والعلو، والجلال، والوجه، وغيرها[5].

---

[1] المصدر السابق ص: (28).
[2] علو الله على خلقه ص: (59، 60، 61).
[3] المصدر السابق ص: (60).
[4] المصدر نفسه ص: (61).
[5] المصدر نفسه ص: (65).

- **بعضُ الصفاتِ الذاتيّة:**

أ . صفةُ الحياةِ: إنّ الله تعالى له الحياةُ الدائمةُ التامّةُ، التي لا يعتريها نقصٌ بوجهٍ من الوجوه، ولهذا قال: ﴿لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ﴾ [البقرة :255] .

وصفةُ الحياة ثابتةٌ بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية:

فالآيات منها قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة :255] وقوله تعالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ [غافر :65] وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ﴾ [الفرقان :58] .

أما الأحاديث، فمنها حديثُ ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما قال: إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقولُ: «اللهمَّ لكَ أسلمتُ، وبِكَ آمنتُ، وعليكَ توكّلتُ، وإليكَ أنبتُ، وبكَ خاصمتُ، اللهم إني أعوذ بعزّتِك لا إلهَ إلاَّ أنتَ أنْ تُضِلَّني، أنتَ الحيُّ الذي لا يموتُ، والجنُّ والإنسُ يموتون»[1].

ومن معاني (الحي) أنَّ حياته صفةٌ ذاتيةٌ، بخلاف المخلوقين، فإنَّ حياتهم من فضلِ الله عزّ وجلّ عليهم، ومعيشتُهم من عطائه وجودِهِ وكرمِهِ، فاللهُ تعالى متّصفٌ بالحياةِ، وهي صفةٌ لذاته جلّ وعلا.

ومن معانيها أيضاً أنّه يمنحُ الحياةَ للأحياء في الدنيا، ويمنحُ أهلَ الجنّةِ حياتهم الأبدية الأزلية السرمدية التي لا زوال لها، بل هي خلودٌ أبديٌّ بلا موتٍ ولا فناءٍ[2].

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: التعوّذ من شرّ ما عمل ، ومن شر ما لم يعمل (2717) ، وانظر صحيح البخاري ، كتاب: الجمعة ، باب: التهجد بالليل (1069).

[2] مع الله ص: (216).

ب ـ صفةُ العلمِ: والعلمُ يقتضي نفيَ الجهلِ، وعلمُه سبحانه علمٌ شاملٌ كاملٌ، محيطٌ بالماضي والحاضر والمستقبل، وعلمٌ مطابِقٌ للواقع، قال تعالى: ﴿أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ *﴾[الملك: 14] قال تعالى: ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾[البقرة: 255] وقال تعالى: ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾[النساء: 166] .

فالله سبحانه وتعالى أحاطَ بكلِّ شيءٍ علماً، ووسعَ كلَّ شيْءٍ رحمةً وحكمةً ﴿لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ *﴾ [آل عمران: 5] ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ *﴾ [الانعام:59].

كما أنَّ علمه لا يسبقُه جهل، فلا يلحقه أيضاً نسيان ﴿لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنْسَى *﴾ [طه: 52] وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ *﴾ [الاعراف: 7] .

هو يعلمُ دقائقَ التفاصيل، والظواهر، والبواطن، والكليات، والجزئيات، والمعنويات، والماديات، ولقد كتبَ مقاديرَ كلِّ شيءٍ في كتابٍ عنده، ولذا يقول سبحانه: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً *﴾ [الإسراء: 85] .

فهذا العلمُ:

يوجِبُ الخشيةَ منه وتعظيمه، ولذا قيل: مَنْ كانَ باللهِ أعرفَ كان منه أخوفَ.

ويوجبُ مراقبته، لأنَّ كلَّ شيءٍ بعلمه، وسمعه، وبصره، وتحت سلطانه.

ويوجبُ محبته، لأنَّ كمالَ العلمِ محبوبٌ للنفوس الشريفةِ التّواقة.

ويوجبُ محبَّةَ العلم والسعيَ فيه، وتحصيله، والتلذذ به، لأنَّ الله يحبُّ العلمَ والعلماءَ، ويكرهُ الجهلَ والجُهلاءَ، ويوجِبُ الصبرَ على التعلّم وذلِّه، لأنه عبادةٌ.

وكذلك علمُ الدنيا والكونِ والإنسانِ وألوانِ المعارف الإنسانية محبوبةٌ، وعلمُ الشريعةِ والوحيِ والآخرة محبوبٌ، لأنّه يثمِرُ معرفةَ اللهِ، والقربَ منه، ومعرفةَ ما يريدُ وما يحبُّ، وما يكره سبحانه وتعالى.

وكذلك علمُ الدنيا والكون والإنسان وألوان المعارف الإنسانية هي محبوبةٌ، لأنّها تزيدُ العبدَ بصيرةً بِخَلْقِ اللهِ وقدرتِهِ وحكمتِهِ وعظمتِهِ، وتيسّرُ الانتفاعِ بهذا الكونِ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجاثية :13] .

إنَّ صفة العلم مستمدّةٌ من اسمه العليم، وهذا الاسمُ الشريفُ العظيمُ يولّدُ في النفس تسليماً لما يفعله الله في كونه، وأن ذلك حاصل بعلمِهِ وإرادتِهِ وحكمتِهِ، فالحكمةُ هي العلم، والقدرةُ هي قرينُ العلم ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ *﴾ [التحريم :2] ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ *﴾ [الروم :54] فكلُّ شيءٍ بقدرٍ، وكلُّ قَدَرٍ بحكمةٍ ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ *﴾ [التغابن:11] .

إنّ الإيمانَ بالربِّ (العليم) ليجعلُ العبدَ أقربَ إلى ربِّه، وأكثرَ استشعاراً لمعيّته.

قال الشاعر (من الكامل):

وهُـوَ العلـيمُ أحـاطَ عِلْـماً بالّـذي ... في الكـونِ مِـنْ سَـرٍّ ومِـنْ إعـلانِ
وبكــلِّ شــيءٍ علمُــه ســبحانَهُ ... قاصـي الأمـورِ لديـه قبـلَ الـدَّاني
لا جَهْــلَ يَسْـبِقُ عِلْمَـهُ كــلا ولا ... يُنْسَـى كَمَـا الإنسـانُ ذو نِسْـيانِ[1]

ج . صفةُ القدرة: القديرُ سبحانه هو كاملُ القدرةِ، فبقدرته أوجدَ الموجودات، وبقدرته دبّرَها، وبقدرته سوَّاها وأحكمَها، وبقدرته يحيي ويميتُ، ويبعثُ العبادَ للجزاءِ،

[1] مع الله ص (121) والأبيات من نونية ابن القيم المشهورة.

وبقدرته سبحانه يقلِّبُ القلوب على ما يشاءُ ويريد[1]. قال تعالى: ﴿بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ *﴾ [القيامة :4] وقال: ﴿وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ *﴾ [المؤمنون :95] .

ومن السنة المطهرة حديثُ جابرٍ بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يعلّمنا الاستخارةَ في الأمور كلِّها، كما يعلِّمُنا السورةَ من القرآن، يقول: «إذا هَمَّ أحدُكُم بالأمرِ فليركعْ ركعتينِ مِنْ غيرِ الفريضة، ثم لِيَقُلْ: اللهمَّ إنِّي أستخيرُكَ بعلمِكَ، وأسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ...»[2].

د ـ صفةُ الإرادةِ: الإرادةُ والمشيئةُ بمعنًى واحد، فالإرادةُ التي تعني المشيئةَ هي الإرادةُ الكونية، وأمّا الإرادةُ الشرعية فتختلِفُ عن الإرادةِ الكونية، وسيأتي الحديث عنها مفصّلاً بإذن الله.

والآيات والأحاديث في بيان الإرادة الكونية كثيرةٌ جداً، منها قوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ*﴾ [المائدة :6] وقوله سبحانه وتعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة :185] .

وأما الأحاديث فمنها حديثُ معاويةَ بن أبي سفيان رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْراً يُفَقِّهْهُ في الدِّيْنِ»[3].

---

[1] المصدر السابق ص (235).

[2] البخاري في صحيحه ، كتاب الجمعة ، باب: ما جاء في التطوع مثنى مثنى (1113).

[3] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: العلم ، باب: من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين (71) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الزكاة ، باب: النهي عن المسألة (1037).

هـ إثباتُ صفةِ السمع والبصر: والمعلومُ والمقدّرُ عند أهلِ السنَّةِ أنَّ السميعَ لا يكونُ إلا بسمعٍ، والبصير لا يكونُ إلا ببصرٍ، كما لا يكونُ القديرُ والحكيمُ إلا بقدرةٍ وحكمةٍ[1].

والآيات في إثبات صفتي السمع والبصر كثيرةٌ، وكذلك الأحاديثُ أيضاً، ولذلك سنستدل ببعض الآيات قال تعالى: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ *﴾ [غافر:56] وقال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا *﴾ [النساء :134] .

و ـ إثباتُ صفة الكلام: أهلُ السنّةِ متّفقون على أنَّ اللهَ يتكلّم بمشيئته، وأنَّه لم يزل متكلّماً إذا شاء، وكيف شاء[2]، قال تعالى: ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ [البقرة :253] وقال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا *﴾ [النساء :164] .

فالله عزّ وجلّ من صفاته صفةُ الكلامِ، وهي صفةٌ قائمةٌ به، غيرُ بائنةٍ عنه، لا ابتداءَ لاتّصافه بها ولا انتهاء، يتكلَّم بها بمشيئته واختياره، وكلامُه تعالى أحسنُ الكلام، ولا يشابِهُ كلامَ المخلوقين، إذ الخالقُ لا يقاسُ بالمخلوق، ويكلِّم به مَنْ شاء، ويسمِعُه على الحقيقةِ مَنْ شاء من ملائكته ورسله، ويسمِعُه عبادَه في الدار الآخرة بصوتِ نفسِه، كما كلّم موسى وناداه حين أتى الشجرةَ بصوتِ نفسِه، فسمعَه موسى، كما أنَّ كلامه تعالى لا يشبِهُهُ كلامُ المخلوقين، فإنَّ صوته لا يشبِهُ أصواتهم، وكلماتُهُ تعالى لا نهايةَ لها، ومن كلامِهِ: القرآن والتوراةُ والإنجيلُ، فالقرآن كلامُه، سورهُ، وآياتهُ، وكلماتهُ[3].

---

[1] من عقيدة المسلمين ص (72) .

[2] المصدر نفسه ص (73).

[3] من كتاب العقيدة السلفية في كلامه رب البرية ص (63).

والقرآن الكريم كلام الله، منه بدأ، وإليه يعود، فهو كلامُ الله، حروفهُ: ومعانيه، والدليل أنّه مِنْ كلام الله قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة :6] .

والقرآن منزلٌ من عند الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الفرقان:1].

والقرآن غيرُ مخلوقٍ، والدليل قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الاعراف :54] فجعل الأمرَ غيرَ الخلقِ، والقرآن من الأمرِ، لقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى :52] وقوله: ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ [الطلاق :5] .

ز ـ علو الله على خلقه: إنّ الله تعالى وصفَ نفسَه بالعلوِّ في السماء، ووصفه بذلك محمَّدٌ خاتمُ الأنبياء، وأجمعَ على ذلك جميعُ العلماء من الصحابة الأتقياء، والأئمة الفقهاء، وتواترت الأخبار بذلك على وجه حصل به اليقين، وجمعَ اللهُ عليه قلوبَ المسلمين، وجعله مغروزاً في طِباع الخلقِ أجمعين، فتراهم عندَ نزولِ الكربِ بهم يلحظون السماءَ بأعينِهم، ويرفعونَ نحوَها للدعاءِ أيديهم، وينتظرونَ مجيءَ الفرجِ مِنْ ربِّهم، وينطقون ذلك بألسنتهم، لا ينكِرُ ذلك إلا مبتدعُ غالٍ في بدعته، أو مفتونٍ بتقليدِهِ واتباعه على ضلالته[1]، قال تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج:4] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الانعام :18] ومعاني العلوّ جميعُها ثابتةٌ له سبحانه: علوُّ الذاتِ، وعلوُّ القدرةِ، وعلوُّ القهرِ والغلبةِ، وعلوّ الحُجَّةِ.

فهو علوُّ ذاتٍ، وعلوُّ صفاتٍ، ولذا وصفَ نفسَه بأنه ﴿الرَّحْمَانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى *﴾ [طه :5] فالعلوُّ الكامِلُ له وحدَه سبحانه، والعلوُّ الدائم له وحده سبحانه،

---

[1] إثبات صفة العلو للمقدسي ص (63).

ولهذا قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «حَقٌّ على اللهِ أنْ لا يرتفِعَ شيءٌ مِنَ الدُّنيا إلا وَضَعَهُ»[1].

ومن علوّهِ أنْ جعلَ الرفعةَ لكتابِهِ ولدينِهِ ولأوليائِهِ الصادقين، كما قال تعالى: ﴿قُلْنَا لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى *﴾ [طه :68] وقال: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ *﴾ [الزخرف :4] وقال صلى الله عليه وسلم: «إنَّ اللهَ يرفَعُ بهذا الكتابِ أقواماً، ويضعُ به آخرين»[2].

ومع علوّهِ سبحانَه، فهو قريبٌ مجيبٌ سميعٌ، ولذا يناديه العبدُ نداءً خفياً ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا *﴾ [مريم :3] .

ويخبِرُ عن نفسِه أنَّه يسمعُ السِّرَّ وأخفى، والسرُّ ضدُّ الجهرِ، وما هو أخفى من السرِّ هو الخطراتُ التي لا يعيها صاحبُها، ولا يدرِكُها، والمعاني المكنونة التي لا يحيطُ المرءُ بها حتى عن نفسِه وذاته، فهناك عالَمُ الأسرار، وهناك عالَمُ اللاشعور واللاوعي، وهناك الخفايا الخَلْقية، التي لم يصل إليها العلمُ، وهناك الخفايا المستقبلية، فهو مع علوِّهِ واستوائه على عرشِهِ محيطٌ بذلك كله، لا تخفى عليه خافيةٌ، ولذا سمَّى نفسَه بذي المعارج ﴿مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ *﴾ [المعارج :3] وفسَّره بقوله: ﴿تَعْرُجُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج :4] .

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الجهاد والسير ، باب: ناقة النبي (2717).

[2] أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها ، باب: فضل من يقوم بالقران ويعلِّمه ، وفضل من تعلم حكمةً من فقهٍ أو غيره فعمل بها وعلّمها (817).

وذكر نزولَ الملائكةِ والروحِ ونزولَ الوحيِ، كما ذكر ارتفاعَ الأشياءِ وصعودَها إليه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: 10] ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: 158] .

قال الشاعر: (من الوافر):

إذا ضاقتْ بكَ الأحوالُ يوماً ... فَثِقْ بالواحِدِ الصَّمَدِ العَلِيِّ[1]

ح - إثباتُ صفةِ الوَجْهِ: نثبتُ للهِ صفةَ الوجهِ دونَ تحريفٍ، ولا تعطيلٍ، ولا تكييفٍ، ولا تمثيلٍ، وهو وجهٌ يليقُ به سبحانه، قال تعالى: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ *﴾ [الرحمن: 27] وقال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ *﴾ [القصص: 88] وقول النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نفقةً تبتغي بها وَجْهَ اللهِ إلاّ أُجِرْتَ عليها»[2].

ط - إثباتُ صفةِ اليدين: قال تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: 64] وقال تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: 75] .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنَّ المقسطينَ عند الله على منابرَ مِنْ نورٍ، عن يمينِ الرحمنِ عزّ وجلّ، وكلتا يديهِ يمينٌ، الذين يَعْدِلُون في حُكْمِهِم وأهليهم وما ولوا»[3].

---

[1] مع الله ص (150).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: ما جاء أن الأعمال بالنية الحسنة ولكل امرىء ما نوى (56) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الوصية ، باب: الوصية بالثلث (1628).

[3] أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الإمارة ، باب: فضيلة الإمام العادل ، وعقوبة الجائر ، والحث على الرفق بالرعية ، والنهي عن إدخال المشقة عليهم (1827).

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى صفة اليدِ بالإفرادِ والتثنيةِ والجمعِ: فبالإفرادِ مثل قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك: 1] وبالتثنية كقوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: 64] وبالجمع كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ [يس: 71] .

والتوفيقُ بين هذه الوجوهِ أن نقولَ:

الوجهُ الأوّلُ مفرَدٌ مضافٌ، فيشمَلُ كلَّ ما ثبتَ للهِ من يدٍ، ولا ينافي التثنية.

وأمّا الجمعُ فهو للتعظيمِ، لا لحقيقةِ العددِ الذي هو ثلاثةٌ فأكثر، وحينئذٍ لا ينافي التثنية، على أنّه قد قيل: إنّ الجمعَ اثنان، فإذا حُمِلَ الجمعُ على أقلّه فلا معارضةَ بينه وبين التثنية أصلاً[1].

ي . إثباتُ صفةِ العينِ: وإثباتُ صفة العينِ على ما يليقُ باللهِ تعالى، ولا يُفْهَمُ منها أنَّ لله عينٌ جارحةٌ كأعيننا، بل له سبحانه وتعالى عينٌ حقيقيةٌ تليقُ بعظمتِهِ وجلالِهِ، وللمخلوقِ عينٌ حقيقةٌ تناسِبُ حالَه وحدوثَه وضعفَه، وهذا شأنُ جميعِ الصفاتِ التي فيها المشاركةُ اللفظيةُ مع صفاتِ المخلوق[2].

والعينُ صفةٌ لله تعالى بلا كيفٍ، وهي من الصفاتِ الخبريةِ الذاتية، قال تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي *﴾ [طه: 39] وذكرُ العينِ مفردةً لا يدلُّ على أنّها عينٌ واحدةٌ فقط، لأنَّ المفردَ المضاف يرادُ بِهِ أكثر من واحدٍ، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ

---

(1) لمعة الاعتقاد ص(50).

(2) الصفات الإلهية ص (319).

اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ [ابراهيم :34] وقال تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر :14]، وهنا ذكرت بصيغةِ الجمع مضافةً إلى ضمير الجمع[1].

ك ـ إثباتُ صفةِ النفس: قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:54] وقال تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة:116] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يقولُ الله تعالى: أنا عندَ ظنّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإنْ ذكرني في نفسِهِ ذكرتُهُ في نفسِي، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرتهُ في ملأٍ خيرٍ منهم»[2].

فالله جلّ وعلا أثبتَ في كتابه أنَّ له نفساً، وكذلك قد بيّنَ على لسانِ نبيّه صلى الله عليه وسلم أنّ له نفساً، كما أثبتَ النفسَ في كتابه، ونثبِتُها له على الوجه اللائق به[3].

2. الصفات الفعلية: وهي التي تتعلّق بها مشيئته وقدرتُه كلَّ وقتٍ وان، وتحتَ مشيئتِهِ وقدرتِهِ احادُ تلك الصفات من الأفعال، وإنْ كانَ هو سبحانه لم يزلْ موصوفاً بالفعل بمعنى أنَّ نوعَ الأفعالِ قديمٌ، وأفرادها حادثةٌ، فهو سبحانه لم يزلْ فعّالاً لما يريدُ، ولم يزلْ ولا يزالُ يقولُ ويتكلّم، ويخلقُ، ويدبّر الأمور، وأفعالُه تقعُ شيئاً فشيئاً تبعاً لحكمتِهِ وإرادتهِ.

ومثلُ هذا الاستواءُ على العرش، والمجيءُ، والإتيانُ، والنزولُ إلى السماء الدنيا، والضحكُ، والرضا، والغضب، والكراهية، والمحبة، والخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة، وأنواعُ التدبير[1].

---

[1] من عقيدة المسلمين ص (82).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: التوحيد ، باب: قول الله تعالى: { } [ال عمران: 28] {نَفْسَهُ} ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: الحث على ذكر الله تعالى (2675).

[3] لمعة الاعتقاد لابن قدامة ص (51).

وأفعالهُ سبحانه وتعالى منها اللازمُ، ومنها المتعدي.

فالاستواءُ والمجيءُ والنزولُ ونحو ذلك أفعالٌ لازمةٌ لا تتعدّى إلى مفعولٍ، بل هي قائمةٌ بالفاعلِ.

والخلقُ، والرزقُ، والإماتةُ، والإحياء، والإعطاء، والمنع، ونحو ذلك، تتعدّى إلى مفعولٍ[2].

وقد جمع الله بينهما في قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَانُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا *﴾ [الفرقان: 59] فذكر الفعلينِ المتعدّي واللازم وكلاهما حاصلٌ بمشيئته وقدرته، وهو متّصفٌ بهما سبحانه، كما يجب التنبيه أيضاً إلى أنَّ من صفاته سبحانه وتعالى ما يأتي صفةَ ذاتٍ، وصفةَ فعلٍ،وذلك مثل صفة الكلام، والخلق، والرحمة[3].

وقد دلّتِ الآيات والأحاديث على اتّصاف اللهِ بالصفات الذاتية والفعلية، قال تعالى: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ *﴾ [الرحمن: 27] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدم فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ *﴾ [الاعراف: 11] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدم خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ *﴾ [آل عمران: 59] وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ *﴾ [محمد: 28] وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *﴾ [آل عمران: 31]

---

[1] شرح العقيدة الواسطية ص: (105 ـ 106).
[2] علو الله على خلقه ص: (66).
[3] المصدر نفسه ص: (66).

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: أُتِيَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بِلَحْمٍ، فرفعَ إليه الذراعَ، وكانتْ تُعْجِبُه، فنهسَ منها نهسةً، ثم قال: «أنا سيّدُ الناسِ يومَ القيامةِ.. إلى أن قال: فيأتونَ آدم عليه السلام، فيقولونَ له: أنتَ أبو البشرِ، خلقَكَ اللهُ بيدِهِ، ونفخَ فيكَ مِنْ روحِهِ، وأمَرَ الملائكةَ فسجدوا لكَ، اشفعْ لنا إلى ربِّكَ، ألا ترى إلى ما نحنُ فيه؟! ألا ترى إلى ما قدْ بلغنا؟! فيقولُ آدم: إنَّ ربِّي غضبَ اليوم غضباً لم يَغْضَبْ قبلَه مثله، ولن يغضَب بعدَه مثلَه...»[1].

وعلينا إثباتُ جميع ما وردَ بالكتاب والسنة من الصفاتِ بلا تحريفٍ، ولا تعطيلٍ، وبلا تشبيهٍ، ولا تمثيلٍ[2].

- **بعض الصفات الفعلية:**

أ . إثباتُ استواءِ الله على عرشه: قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ*﴾ [الاعراف :54] وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا *الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَانُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا *﴾ [الفرقان :58. 59] .

ويجب إثباتُ استواءِ الله على عرشه من غيرِ تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ولا تكييفٍ ولا تمثيلٍ، وهو استواءٌ حقيقيٌّ، معناه العلو والاستقرار على وجهٍ يليقُ بالله تعالى[3].

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: تفسير القران ، باب: {} [الإسراء: 3] {ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا *} ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: أدنى أهل الجنة منزلة فيها (194).

[2] علو الله على خلقه ص: (69).

[3] لمعة الاعتقاد ص (62).

ولما سُئِل مالكُ بنُ أنس عن قوله: ﴿الرَّحْمَانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى *﴾ [طه: 5] قال: «الاستواءُ غيرُ مجهولٍ، والكيفُ غيرُ معقولٍ، والإيمانُ به واجبٌ، والسؤالُ عنه بدعةٌ، وما أراكَ إلاّ ضالاًّ» وأمرَ أن يُخْرَجَ السائلُ من المجلس[1].وأكثرُ مَنْ صرّح بأنّ الله مستوٍ بذاته على عرشه أئمةُ المالكية، فصرّح أبو محمد بن أبي زيد القيرواني في ثلاثةِ مواضع من كتبه وأشهرها «الرسالة» وفي كتاب «جامع النوادر» وفي كتاب «الاداب»، وصرّح بذلك القاضي أبو بكر الباقلاني، وكان مالكياً، وصرّح به أبو عبد الله القرطبي المفسّر في كتاب «الأسماء الحسنى» وكذلك أبو عمر بن عبد البر، والطلمنكي، وغيرهما من الأندلسيين، وغير ذلك من السادّة المالكية[2].

إنّ كتابَ الله عزّ وجلّ من أوله إلى آخره، وسنةَ رسولِهِ صلى الله عليه وسلم وكلام عامة الصحابة والتابعين، وكلام سائر الأئمة، مملوءٌ بما هو نصٌّ أو ظاهِرٌ في أنَّ الله سبحانه وتعالى فوقَ كلِّ شيءٍ، وأنّه فوقَ العرشِ، وفوقَ السماواتِ مستوٍ على عرشه[3].

ب ـ صفة المجيء: قال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا *﴾ [الفجر: 22] قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: 210] .

ويجبُ إثباتُ المجيء من غيرِ تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ولا تكييفٍ ولا تمثيلٍ، وهو مجيءٌ حقيقةً، يليقُ بالله تعالى[4].

ج ـ صفة الرضا: قال تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: 119] .

---

(1) شرح حديث النزول لابن تيمية ، عقيدة المسلمين ص (86).

(2) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (2 / 134).

(3) اجتماع الجيوش الإسلامية ص (96).

(4) لمعة الاعتقاد ص (52).

د ـ صفة المحبة: قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: 54] .

هـ صفة الغضب: قال تعالى: ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾ [النساء: 93] .

و ـ صفة السخط: قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ﴾ [محمد: 28].

ز ـ صفة الكراهة: قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾ [التوبة: 46] .

فصفةُ الرضا، والمحبةِ، والغضبِ، والسخطِ، والكراهةِ: صفاتٌ ثابتةٌ لله عزّ وجلّ، من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ولا تكييف ولا تمثيلٍ، فهي على ما يليقُ به عزّ وجلّ، وكذلك صفةُ الغيرةِ، والفرحِ، والضحكِ، فقد جاء ذكرُها في أحاديثَ نبويةٍ صحيحةٍ.

3 ـ بعضُ الصفاتِ التي تُطْلَقُ من بابِ المقابلةِ:

وردَتَ في القرآن الكريمِ أفعالٌ أطلقها الله عزّ وجلّ على نفسِه على سبيلِ الجزاءِ والعدلِ والمقابلةِ، وهي فيما سيقت فيه مدحٌ وكمالٌ، ولكن لا يجوزُ أن يشتقَّ للهِ تعالى منها أسماءٌ، ولا تطلقُ عليه في غيرِ ما سيقتْ فيه من الآيات، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: 142] وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ [آل عمران: 54] وقوله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: 67] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: 14 ـ 15] .

فلا يطلَقُ على اللهِ لفظُ (مخادعٍ، ماكرٍ، ناسٍ، مستهزىءٍ)، ونحو ذلك ـ تعالى الله عنه علواً كبيراً ـ ولا يقال: (اللهُ يستهزِىءٌ، ويخادِعُ، ويمكرُ، وينسى)، على سبيل الإطلاقِ، وقد أخطأَ الذين عدُّوا ذلك من أسمائه الحسنى خطأً كبيراً، لأنَّ الخداعَ

والمكرَ يكونُ مدحاً ويكون ذمّاً، فلا يجوزُ أن يطلقَ على الله إلا مقيّداً بما يزيلُ الاحتمالَ المذمومَ منه، كما ورد مقيّداً في الآيات[1].

4. الله منزهٌ عن كلِّ صفة نقص:

- يُنَزَّهُ اللهُ عزَّ وجلَّ عن الغفلةِ والنسيانِ بأي وجهٍ من الوجوه، لأنّه عالمُ الغيبِ والشهادةِ، وعلمُه محيطٌ بكلِّ شيءٍ، فلا يعرضُ له ما يعرِضُ لعلم المخلوقِ من خطأٍ بعضِ المعلومات، أو نسيانها، أو الذهول عنها، قال تعالى: ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنْسَى *﴾ [طه: 52] .
- ومنَّزهٌ عن الاحتياج إلى الرزق والطعام، لأنه هو الرزاقُ لجميع الخلقِ، الغنيُّ عنهم، وكلُّهم فقراءُ إليه، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ *مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ *إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ *﴾ [الذاريات:56-58] وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ﴾ [الانعام: 14] .
- والله مُنَزَّهٌ عن ظُلْمِ العبادِ، بأن يزيدَ في سيئاتهم، أو ينقصَ من حسناتهم، أو يعاقبهم على ما لم يفعلوا، فإنَّ الظلمَ لا يفعله إلا مَنْ هو محتاجٌ إليه، أو مَنْ هو موصوفٌ بالجَوْرِ، أمّا الله فهو الغنيُّ عن خلقه من جميعِ الوجوهِ، الحكمُ العدلُ الحميدُ، فما له وظلم العباد؟ قال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ *﴾ [فصلت: 46] .
- والله منزَّهٌ عن العبث في الخلق والأمر، فلم يخلق سبحانه وتعالى شيئاً عبثاً ولا باطلاً، ولا شرعَ إلا حكمةً عظيمةً، لأنه حكيمٌ حميدٌ، من تمام حكمته وحمده إتقانُ المصنوعاتِ وإحكامُها، وإحكامُ الشرائع على أكملِ وجهٍ وأتمّه[2].

---

[1] معارج القبول (1 / 76).

[2] الحق الواضح المبين لابن سعدي ص (10).

5 . صفاتُ الله كلُّها صفاتُ كمالٍ: لا نقصَ فيها بوجهٍ من الوجوه، كالحياة، والعلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والرحمة، والعزة، والحكمة، والعلو، والعظمة، وغير ذلك، ولله عزَّ وجلَّ المثل الأعلى قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لاَ يؤْمِنُونَ بِالآخرة مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *﴾ [النحل: 60] وقال تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *﴾ [الروم: 27] والمثل الأعلى هو الوصفُ الأعلى، إنّ الخلقَ مضطرون إلى العلم بأنَّ الخالقَ سبحانه وتعالى أجلُّ وأكبرُ وأعلى وأعلمُ وأعظمُ وأكملُ من كلِّ شيء، فهذا مستقرٌّ في فطر الناس، وهو علم ضروري في حقِّ من سَلِمَتْ فطرته، فدلالةُ الفطرةِ على الصفات واضحةٌ وبينةٌ، فإنَّ كلَّ حادثٍ لابدَّ له من محدث، وهذا المحدِثُ لابدَّ أن يكونَ قادراً، عالماً، مريداً، حكيماً، فالفعل يستلزمُ القدرةَ، والإحكامُ يستلزم العلم، والتخصيصُ يستلزِم الإرادةَ، وحُسْنُ العاقبةِ يستلزم الحكمةَ.

وفي الفطرةِ الإقرارُ لله تعالى بالكمال المطلق، الذي لا نقص فيه بوجهٍ من الوجوه. وكذلك في الفطرة تنزيه الله عن النقائص والعيوب، ومن القضايا البدهية المستقرة في الفطرة أنّ الذي يعلمُ، والذي قدّر، والذي يتكلَّم ويبصر: أكملُ من الفاقد لذلك، ولهذا يذكر الله تعالى هذه المسألة بخطابِ الاستفهام الإنكاري، ليبيِّن أنها مستقِرَّةٌ في الفطرةِ، وأنّ النافي لها قال قولاً منكراً في الفطرة، قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاَ يَخْلُقُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ *﴾ [النحل: 17] . فالتسويةُ منكرَةٌ في الفطرة، ويُنْكَرُ ذلك على مَنْ سوَّى بينهما، فالذي ليست لديه صفاتُ كمالٍ، لا يمكِنُ أن يكون ربّاً، ولا معبوداً،

وأنَّ العلم بذلك فطري[1]، كما قال الخليل قال تعالى ﴿يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا *﴾ [مريم :42] وقال تعالى عَنْ عجلِ بني إسرائيل: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ *﴾ [الاعراف :148] .

6 . من لوازم استحقاقِ الله تعالى لصفاتِ الكمال تفرُّدُه بالحُكْمِ: فمن الآيات القرآنية التي أوضحَ تعالى بها صفاتِ مَنْ له الحُكم والتشريع قوله: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى :10] ثم قال مبيّناً صفاتِ مَنْ له الحُكم: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ * فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ *لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ*﴾ [الشورى :10 . 12] ذكر سبحانه وتعالى صفاتِ الربِّ الذي تفوّضُ إليه الأمور، ويُتَوَكَّلُ عليه، وإنّه فاطر السماوات والأرض وخالقها، على غير مثالٍ سابقٍ، وأنّه هو الذي خلقَ للبشر أزواجاً، وخلقَ لهم أزواج الأنعام الثمانية المذكورة[2]. وأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ *﴾ [الشورى :11] وأنه: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الشورى :12] وأنه سبحانه وتعالى: ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الشورى :12] و(يَقْدِر) أي يضيقه على مَنْ يشاء، وهو بكلِّ شيءٍ عليم، فعلى المسلمِ أن يتفقَّه صفاتِ مَنْ يستحقُّ أن يشرّعَ ويحلّل ويحرّمَ[3].

---

[1] عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين ص (102).
[2] أضواء البيان بتصرف (7 / 163).
[3] من عقيدة المسلمين ص (141).

7 . نفيُ معاني أسمائه الحسنى مِنْ أعظمِ الإلحاد فيها: قال تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *﴾ [الاعراف: 180] لأنّها لو لم تكن تدلُّ على معانيَ وأوصاف لم يَجُزْ أن يُخْبَرَ عنها بمصادرِها، ويُوْصَفَ بها، ولكنّ الله أخبرَ عن نفسِه بمصادرها، وأثبتها لنفسه، وأثبتها له رسوله صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ *﴾ [الذاريات: 58] فعُلِمَ أنَّ القوي من أسمائه، ومعناه الموصوفُ بالقوة. وكذلك قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: 10] فالعزيزُ مَنْ له العزّةُ، فلولا ثبوتُ القوة والعزةِ لم يسمَّ قوياً ولا عزيزاً، وهكذا في سائر أسمائه.

وحقيقةُ الإلحادِ فيها . أي في أسمائه تعالى . العدولُ عن الصوابِ فيها، وإدخالُ ما ليس من معانيها فيها:

أ . كأن تسمّى بعضُ المعبوداتِ باسمٍ من أسماء الله تعالى، أو يقتبَسَ لها اسمٌ من بعض أسمائه تعالى: كتسمية المشركين بعضَ أصنامهم «اللات» أخذاً من «الإله» و«العُزّى» أخذاً من «العزيز» وتسميتهم الأصنامَ أحياناً «الهة» وهذا إلحادٌ واضحٌ كما ترى، لأنّهم عدلوا بأسمائه تعالى إلى معبوداتهم الباطلة.

ب . وكتسمية تعالى بما لا يليق به، كتسمية النصارى له «أب»، وإطلاقِ الفلاسفةِ عليه «موجباً لذاته» أو «علّة فاعلةً بالطبع» ونحو ذلك.

ج . وكوصف الله تعالى بما يُنَزَّهُ عنه سبحانه، كقولِ اليهود (ولعنوا بما قالوا): إنّه فقيرٌ، وقولهم: إنَّه استراحَ بعدَ أن خلقَ خلقه، وقولهم: أيضاً (غلت أيديهم): يدُ اللهِ مغلولةٌ، وغير ذلك من الألفاظ التي يطلقها أعداءُ الله قديماً وحديثاً.

د . وكتعطيل أسمائه تعالى عن معانيها، وهي الصفاتُ، وجحدِ حقائقها، كما فعل بعضُ الفرق المبتدعةِ، حيث جعلوا أسماءَ اللهِ ألفاظاً مجرّدةً، لا تدل على الصفات، كقولهم: سميعٌ بلا سمعٍ، وعليمٌ بلا علمٍ.

هـ وكتشبيه الله تعالى بصفات خلقه[1].

8 . آثار الصفات الإلهية في النفس والكون والحياة: ومشهدُ الأسماء والصفات من أجلِّ المشاهدِ، والمطَّلِعُ على هذا المشهدِ يعرِفُ أنَّ الوجودَ متعلِّقٌ خلقاً وأمراً بالأسماء الحسنى، والصفات العلى، ومرتبِطٌ بها، وإنَّ العالمَ بما فيه من بعض اثارِها ومقتضياتها. فاسمه «الحميد، المجيد» يمنعُ تركَ الإنسان سدًى مهمَلاً معطَّلاً، لا يؤمَرُ ولا يُنْهَى، ولا يُثاب ولا يُعاقب. وكذلك اسمه «الحكيم» يأبى ذلك، فكلُّ اسمٍ من أسمائه له موجباتٌ، وله صفاتٌ، فلا ينبغي تعطيلُها عن كمالها ومقتضياتها.

والربُّ تعالى يُحِبُّ ذاتَه وأوصافَه وأسماءه، فهو عفوٌّ يحبُّ العفوَ، ويحبُّ المغفرةَ، ويحبُّ التوبةَ، ويفرحُ بتوبةِ عبدِهِ حينَ يتوبُ إليه فرحاً لا يخطرُ بالبال، وكان تقدير ما يغفره، ويعفو عن فاعله، ويحلمُ عنه، ويتوبُ عليه، ويسامحه بموجب أسمائه وصفاته، وحصولِ ما يحبُّه ويرضاه من ذلك.

وما يحمد به نفسَه، ويحمده به أهلُ سماواته وأهل أرضه، وما هو من موجباتِ كماله، ومقتضى حمده، وهو سبحانه الحميد المجيد، وحمدهُ ومجدُه يقتضيان اثارهما:

ومن آثارهما: مغفرةُ الزلات، وإقالةُ العثراتِ، والعفو عن السيئاتِ، والمسامحةُ على الجنآيات، مع كمالِ القدرةِ على استيفاءِ الحق، والعلم منه سبحانه بالجناية، ومقدار

---

[1] بدائع الفوائد لابن القيم (1 / 169).

عقوبتها، فحلمه بعد علمه، وعفوه بعد قوته، ومغفرته عن كمال عزته وحكمته[1].

كما قال الله على لسان عيسى عليه السلام في القرآن: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *﴾ [النساء: 118] أي: فمغفرتُك عن كمالِ قدرتك، وحكمتُك ليست كمن يغفرُ عَجْزاً، ويسامِحُ جهلاً بقدر الحق، بل أنتَ عليمٌ بحقك، قادِرٌ على استيفائه، حكيمٌ في الأخذِ منه.

فمن تأمّلَ سريانَ اثار الأسماء والصفات في العالم وفي الأمر، تبيّنَ له أنّ مصدرَ قضاء هذه الجنآيات من العبيد، وتقديرها: هو مِنْ كمالِ الأسماء والصفات والأفعال، وغايتها أيضاً مقتضى حمده ومجده، كما هو مقتضى ربوبيته وإلهيته، فلله في كلِّ ما قضاه وقدّره الحكمةُ البالغةُ والآيات الباهرةُ.

والله سبحانه دعا عبادَه إلى معرفته بأسمائه وصفاته، وأمرهم بشكره ومحبته وذكره، وتعبّدهم بأسمائه الحسنى، وصفاته العلى، لأنّ كلَّ اسمٍ له تعبُّدٌ مختصٌّ به، علماً، ومعرفة، وحالاً.

وأكملُ الناسِ عبوديةً المتعبِّدُ بجميع الأسماءِ والصفاتِ، التي يطّلعُ عليها البشرُ، فلا تحجبُه عبوديةُ اسمٍ عن اسمٍ آخر، كما لا يحجبُه التعبُّدُ باسمه «القدير» عن التعبُّدِ باسمه «الحليم الرحيم»، أو تحجبُه عبوديةُ اسمه «المعطي» عن عبودية اسمه «المانع»، أو عبودية اسمه «الرحيم والعفو والغفور» عن اسم «المنتقم»، أو التعبد بأسماءِ «البر والإحسان واللطف» عن أسماء «العدل والجبروت والعظمة والكبرياء» وهذه طريقةُ الكمال من السائرينَ إلى الله، وهي طريقةٌ مشتقةٌ من قلب القرآن الكريم قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الاعراف: 180] والدعاء بها يتناولُ دعاءَ المسألةِ،

---

[1] مدارج السالكين ص (417، 418).

ودعاءَ الثناء، ودعاءَ التعبُّدِ[1]. وهو سبحانه يدعو عباده إلى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته، ويثنوا عليه بها، ويأخذوا بحظّهم من عبوديتها.

فالله سبحانه وتعالى يُحبُّ موجِبَ أسمائه وصفاته، فهو «عليمٌ» يحبُّ العلمٍ، وهو «جَوَادٌ» يحبُّ الجود، «وترٌ» يحبُّ الوتر، «جميل» يحبُّ الجمال، «عفوٌّ» يحب العفوَ وأهلَه، «حييٌّ» يحبُّ الحياءَ وأهلَه، «بَرٌّ» يحبُّ الأبرار، «شكور» يحبُّ الشاكرين، «صبورٌ» يحبُّ الصابرين، «حليمٌ» يحبُّ الحلمِ.

فلمحبته سبحانه للتوبةِ والمغفرةِ، والعفوِ، والصفحِ: خلقَ مَنْ يغفِرُ لهم، ويتوبُ عليهم، ويعفو عنهم، وقدّر عليهم ما يقتضي وقوع المكروه والمبغوض له، ليترتّب عليه المحبوبُ له، المرضي له[2].

وظهور أسماء الله وصفاته في هذه الحياة، وفي النفس البشرية، وفي الكون كله: واضحٌ، لايحتاجَ إلى دليل، إلا أنّ الاهتداء إلى تلك الاثار، أو الانتباه لها، يتوقّفُ على توفيق الله تعالى، بل إنّ التوفيقَ نفسَه من اثارِ رحمته التي وسعتْ كلَّ شيءٍ.

فلو فكّر الإنسانُ في هذا الكونِ الفسيحِ وفي نفسِه لرجعَ من هذه الجولة الفكرية بعجائب، واستفاد منها فوائد، ما كان يحلُمُ بها، ولو تأملنا هذه الآية الكريمة لرأينا أموراً يعجز الإنسان عن التعبير عنها، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ *فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ *﴾ [طه:115. 116] .

---

[1] مدارج السالكين (2 / 419).

[2] المصدر نفسه (2 / 420).

ومما يؤكد أهمية هذا التوحيد هو ما تثمره أسماءُ الله وصفاتُه في قلب المؤمن من زيادةٍ في الإيمانِ، ورسوخٍ في اليقين، وما تجلبه له من النورِ والبصيرةِ التي تحصّنه من الشبهاتِ المضلّة والشهواتِ المحرّمة[1].

فهذا العلم إذا رسخَ في القلب أوجبَ خشيةَ الله لا محالةَ، فكلُّ اسمٍ من أسماء الله له تأثيرٌ في القلبِ والسلوكِ، فإذا أدركَ القلبُ معنى الاسم، وما يتضمنه، واستشعر ذلك، تجاوبَ مع هذه المعاني، وانعكست هذه المعرفةُ على تفكيره وسلوكه.

ولكلِّ صفة عبوديةٌ خاصّةٌ، هي من موجباتها ومقتضياتها، فالأسماء الحسنى والصفات العلى مقتضاها بثمارها من العبودية، وهذا مطرِّدٌ في جميع أنواع العبودية التي على القلب والجوارح، فمثلاً:

عِلْمُ العبد بتفرّد الربِّ تعالى بالضرّ والنفع، والعطاء والمنع، والخلق والرزق، والإحياء والإماتة، يثمِرُ له عبوديةَ التوكّل عليه باطناً، ولوازم التوكل وثمراته ظاهراً.

وعلمُه بسمعه وبصره، وعلمه أنّه لا يخفى عليه مثقالُ ذرّةٍ في السماوات ولا في الأرض، وأنّه يعلم السر وأخفى، ويعلم خائنةَ الأعين وما تخفي الصدور، يثمِرُ له حفظَ لسانِهِ وجوارحِهِ، وخطراتِ قلبه عن كلِّ ما لا يرضي الله، وأن يجعلَ تعلّق هذه الأعضاء بما يحبُّه الله ويرضاه، فيثمر له ذلك الحياءَ باطناً، ويثمِرُ له الحياءُ اجتنابَ المحرّمات والقبائح.

---

[1] انظر: دراسات في مباحث الأسماء والصفات ص (14 ، 15).

ومعرفته بغناه وجوده وكرمه وبره، وإحسانه ورحمته توجب له سعةَ الرجاء، ويثمر له ذلك من أنواعِ العبودية[1] الظاهرةِ والباطنةِ بحسب معرفته وعلمه.

وكذلك معرفته بجلال الله وعزّه تثمر له الخضوعَ والاستكانةَ والمحبةَ، وتثمر له تلك الأحوال الباطنة أنواعاً من العبودية الظاهرة هي موجباتها.

وكذلك علمه بكماله وجماله وصفاته العلى يوجب له محبَّةً خاصةً بمنزلة أنواع العبودية، فرجعت تلك العبوديةُ كلُّها إلى مقتضى الأسماء والصفات وارتبطت بها[2].

وهذه الأحوال التي تتّصف بها القلوب هي أكمل الأحوال، وأجلّ وصف يتصف به القلب وينصبغ به، ولا يزالُ العبدُ يمرّن نفسَه عليها، حتى تنجذبَ نفسُه وروحُه بدواعيه منقادةً راغبةً، وبهذه الأعمال القلبية تَكْمُلُ الأعمالُ البدنيةُ، فنسألُ الله أن يملأ قلوبنا من معرفته ومحبته، والإنابة إليه، فإنّه أكرم الأكرمين، وأجود الأجودين[3].

خامساً ـ أثر الصفات الإلهية على الأخلاق:

تحدّث الشيخ عز الدين بن عبد السلام في كتابه «شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال» على صفات الله، وكيفية توحيده وتنزيهه، والوجه الأسلم في ذلك، وكيفية التخلّق بصفات الله عز وجل، فقال:

1 ـ التخلّق بالقدوس:

القدُّوس هو الطاهر من كل عيب ونقصان، وثمرة معرفته: التعظيمُ، والإجلالُ.

---

[1] مفتاح دار السعادة (2 / 90).
[2] مفتاح دار السعادة (2 / 90).
[3] القواعد الحسان لتفسير القران للسعدي ص (130).

والتخلق به: بالتطهر من كلّ حرامٍ ومكروهٍ وشبهةٍ، وفضلِ مباحٍ شاغلٍ عن مولاك.

2 . التخلّق بالسلام:

إنْ أُخذَ من تسليمه على عبادِهِ فعليك بإفشاء السلام، فإنّه من أفضل خصالِ الإسلامِ.

وإنْ أُخِذَ من السلامة من العيوبِ، فهو كالقدُّوس.

وإن أُخِذَ من الذي سَلِمَ عبادُه من ظلمه، فليسلمِ الناسُ من غِشّك وظُلْمِكَ وضرّك وشرِّكَ، فإنَّ «المسلمَ مَنْ سلمَ المسلمونَ مِنْ لسانِهِ ويدِه»[1].

3 . التخلّق بالإيمان: «المؤمن»:

إن أُخِذَ من تصديقِ الله نفسَه، فعليك بالإيمانِ بكلِّ ما أنزله الرحمن.

وإن أُخِذَ من أمنِ العبادَ من ظلمِهِ، فأظهرْ مِنْ برِّك وخيرك ما يُؤمِّنْ الناسَ من شرِّكَ وضَيْرِكَ.

وإن أُخِذَ من خالقِ كلّ أَمْنٍ، فاسعَ لعبادِ اللهِ مِنْ كلِّ أمنٍ[2].

4 . التخلّق بالهيمنة:

«المهيمن»، هو الشهيدُ، فإنْ أُخِذَ من مشاهدته لعباده واطلاعه عليهم في القيامة.

فثمرة معرفته خوفك وحياؤك من شهادته عليك إنْ عصيتَه، ورجاؤك شهادته لكَ إنْ أطعتَه.

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب: المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده (10) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: بيان تفاضل الإسلام ، وأيُّ أموره أفضل (41).

[2] شجرة المعارف ص (39).

والتخلّق به أن تقوم بالشهادةِ في كلِّ ما نفعِ وضرّ، وظاهر وسرّ، ولو على نفسِكَ أو الوالدين والأقربين.

5 . التخلّق بالعزة:

«العزيز»، إنْ أُخِذَ من الغلبة، فهو كالقهّار، وثمرة معرفته: الخوفُ.

وإنْ أُخِذَ من الامتناع من الضيّم، فلا تخلّقَ به إلا في بعض الضُيوم، كضيم الكفّار الفجّار.

وإن أُخِذَ من الذي يعزُّ وجودهُ مثلِه، فهو سالبٌ للنظير، فلا تخلُّقَ به إلا بالتوحُّدِ بالطاعة والعرفان على حسب الإمكان، بالنسبة إلى أبناء الزمان[1].

6 . التخلّق بالجبر «الجبار»:

إنْ أُخِذَ من جبروت العَظْمِ والفقير إذ أصلحتهما، فثمرت معرفته رجاء جبره وإصلاحه. والتخّلق به بأن تعامل عباده بكل خير وإصلاح تقدرُ عليه، أو تصلُ إليه.

وإن أخِذَ من العلو فهو كالعلي، وثمرة معرفته كثمرات معارف جميع الصفات.

وإن أخذ من الإجبار، فهو كالقهار[2].

7 . التخلّق بالتكبر عن الرذائل:

«المتكبر»:

إنْ أُخِذَ من تكبره عن النقائص فهو كالقدُّوس، فتكبَّر عن كلِّ خلق دنيءٍ.

وإنْ جُعِلَ شاملاً لجميع الأوصاف، فثمرة معرفته الإجلالُ والمهابةُ في جميع الأحوال الحادثاتِ مِنْ سائر الصفاتِ، وكذلك العظيم والجليل والعلي والأعلى[1].

---

(1) المصدر نفسه ص (39).

(2) شجرة المعارف ص (39).

8 . التخلّق بالحلم: «الحليم»: هو الذي لا يعجِّلُ بعقوبةِ المذنبين، فاحلمْ عن كلِّ مَنْ اذاك وظلمك وسبّك، وشتمك، فإنَّ مولاك صبورٌ حليمٌ، بَرٌّ كريمٌ، ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ *﴾ [الشورى: 25] .

9 . التخلّق بالصبر: «الصبور»: هو الذي يعامِلُ عبادهَ معاملةَ الصابرين، فعليك بالصبر على أذية المؤذين، وإساءة المسيئين، فإنّ الله يحبُّ الصابرين[2].

10 . التخلّق بالإعزاز: «المعز»: خالق العِزِّ، وثمرةُ معرفته الطمَعُ في إعزازه بالمعارف والطاعات، والتخلق به بإعزاز الدين، ومن تبعه من عباد الله المؤمنين.

11 . التخلّق بالإذلال: «المذل» خالِقُ الذُّل، وثمرة معرفته خوفُ الإذلالِ بالمعاصي والمخالفات، والمعاملة به بإذلالِ الباطلِ وأشياعِهِ، وإخمالِ العُدوان وأتباعه[3].

12 . التخّق بالانتقام: «المنتقم»: هو المعذِّبُ لما يشاء من عباده عَدْلاً، وثمرة معرفته: الخوفُ من انتقامه. والتخلق به لمن ابتُلي بشيءٍ من الولآيات بالانتقامِ من الجنَاةِ بالحدود والتعزيزات والعقوبات المشروعات[4].

13 . التخلّق باللطف: «اللطيف» إن أُخِذَ من معرفة الدقائق، فثمرة معرفته خوفك ومهابتك وحياؤك من معرفته بدقائق أحوالك، وخفايا أقوالك وأعمالك، إذ لا يعزُبُ عن خالق الأشياء مثقالُ ذرّةٍ في الأرض ولا في السماء ﴿أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ *﴾ [الملك: 14] .

---

(1) المصدر نفسه ص (39).

(2) المصدر نفسه ص (39).

(3) المصدر نفسه ص (41).

(4) المصدر نفسه ص (43).

14 . الخلّق بالشكر: «الشكور»: إن أُخِذَ من ثنائه على عباده، فثمرة معرفته رجاؤك الدخولَ في مدحته بطاعته ومعرفته، والتخلق به بشكر مولاك، وشكر أبويك، وشكر كلِّ مَنْ أحسنَ إليك[1]، «من لا يشكرِ الناسَ لا يشكرِ الله»[2].

15 . التخلّق بالحفظ: «الحفيظ»:

إن أُخِذَ من العلم، فقد سبق. وإن أخذ من ضبط الأشياء وحفظها، فثمرة معرفته: رجاؤك حفظه في أُولاك وأُخراك.

والتخلّق به بحفظ ما أمرتَ به من الطاعات والأمانات، فإنَّ الله قد مدح الحافظين لحدوده، وبشَّرَهُم بإنجاز وعودِه، فقال: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ *﴾ [ق:32] .

16 . التخَلُّق بالتقديم والتأخير: «المقِّدم والمؤخِّر»، ثمرة معرفتها المهابة والإجلال، والاعتماد عليه في تقديمه وتأخيره، ورجاء أن يُقدِّمَك بطاعته، وخوف أن يؤخِّرك بمعصيته، والتخلق بهما: بتقديم ما أُمِرَتَ بتقديمه، وتأخير ما أُمِرَت بتأخيره، بأن تقدم الأماثل على الأراذل، وأن تقدِّم أوجبَ الطاعاتِ على واجبها، وأفضلها على فاضلها، ومضيَّقَها على موسَّعها، وبأنْ تقدِّمَ القُربات والطاعات إلى أوائل الأوقات، فإنَّ الله مدح الذين يسارعون في الخيرات[3].

---

[1] شجرة المعارف والأحوال ص (45).

[2] أخرجه الترمذي في جامعه ، كتاب: البر والصلة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، باب: ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك ، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح ، وأخرجه أبو داود بلفظ «لا يشكر الله من لا يشكر الناس» ، كتاب: الأدب ، باب في شكر المعروف (4811).

[3] شجرة المعارف ص (45).

17 . التخلّق بالبَرّ: (البَّر): هو المنعم، وثمرة معرفته رجاءُ أنواع برّه، والتخلق به بأنْ تبَرَّ كُلَّ مَنْ تقدِرُ على بِرِّهِ بأحبِّ أموالك إليك، وأنفسِها لديك، فإنَّ مولاك يقول: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: 92] .

18 . التخلّق بالتوبة: «التّواب»:

إن جُعِلَ بمعنى الموفِّق للتوبة، فثمرة معرفته: رجاءُ توبته عليك، والتخلق به: بأن تَحُثَّ المسيءَ على التوبة، وتحرِّضهُ على الأَوْبَة.

وإن جُعِلَ بمعنى قابل التوبة، فاقبل عذر مَنْ أساءَ إليك، ونَدِمَ على جرأته عليك[1].

19 . التخلّق بمعنى المغني: والتخلّقُ به بأن تُغني كلَّ محتاجٍ بما تقدر عليه من عِلْمٍ وغيره، فتذكِّرَ الغافل، وتُعلِّمَ الجاهل، وتُقيمَ المائل، وتُغنيَ العائلَ.

20 . التخلّق بالضُّر والنَّفع: «الضار والنافع» ثمرة معرفتهما: خوفُ الضَّرر، ورجاءُ النفع، والتخلق بهما:

بنفعِ كلِّ مَنْ أُمرتَ بنفعِهِ، وضرِّ كلِّ مَنْ أُمرت بضّره بحدٍّ أو قتلٍ أو غيره، والخَلقُ عيالُ الله، فأحبّهم إليه أنفعُهم لعياله، فعليكَ ببذل المنافع لكلِّ دانٍ وشاسعٍ[2].

21 . التخلّق بهداية الضال: «النورُ» الهادي، ثمرة معرفته: رجاؤك أن ينوِّر جَنَانك بمعرفته، ويزيّنَ أركانك باثار هدايته، والتخلّق به: بأن تكون نوراً من أنوار الله، هادياً

---

[1] شجرة المعارف ص (47).

[2] المصدر نفسه ص (48).

إلى صراطِ الله. «فوالله لأن يهدي الله بكَ رجلاً واحداً خيْرٌ لك مِنْ أن يكونَ لكَ حُمْرُ النَّعم»[1].

22 . التخلّق بالقبض والبسط: «القابض الباسط»: ثمرة معرفتهما: الخوفُ من قبضِ منافع الدنيا والآخرة، ورجاءُ بسطِ الخيرات العاجلة والآجلة.

والتخلّقُ بالبسط: بأنْ تسبطَ برّك، ومعروفك على كلِّ محتاجٍ، حتى على الدواب والكلاب والذرِّ، إذ «في كلِّ كبدٍ رطبةٍ أجرٌ»[2].

والتخلق بالقبض بأن تقبِضَ عن كلّ أحدٍ ما ليس له أهلاً، من مالٍ، وولايةٍ، وعلمٍ، وحكمةٍ، فلا تؤتوا السفهاء أموالكم فيتلفوها[3].

23 . التخلّق ببذل الهبات: «الوهّاب»: ثمرة معرفته: رجاءُ أنواع هباته وصِلاته، والتخلّق به: بكثرة الهباتِ والصلاتِ، مقدِّماً للاباء والأمهات، والبنين والبنات.

24 . التخلّق بالجود والكرم: «الجواد الكريم» ثمرةُ معرفتهما: الطمعُ في اثار جوده وكرمه، والتخلق بهما: لمن أرادَ الوصولَ إليه بأن يجودَ بكلِّ ما يقدِرُ عليه مِنْ مالٍ، وجاهٍ، وعلمٍ، وحكمةٍ، وبرٍّ، ومساعدةٍ.

25 . التخلّق بالإجابة: «المجيب» ثمرةُ معرفته: رجاءُ إجابةِ دعائك، لعلمه بافتقارك إليه، واعتمادك عليه، وأنّه سامعٌ لدعائك، عالمٌ ببلائك، خابرٌ لسرّائِك

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: المناقب ، باب: مناقب علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي (3498). ومسلم في صحيحه كتاب: فضائل الصحابة ، باب: من فضائل علي بن أبي طالب (2406).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: المساقاة ، باب: فضل سقي الماء (2234) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: السلام ، باب: فضل سقي البهائم المحترمة وإطعامها (2244).

[3] شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال ص (49).

وضرّائِك، والتخلّق به: بإجابة مولاك فيما دعاك إليه من قُرُباته، وبإجابة كلِّ داعٍ إلى ما يُرضي مولاك في طاعاته وعباداته[1].

26 ـ التخلّق بالمجد: «المجيد» الذي كثر شرفُه، وتمّ كمالهُ وجلالُه في ذاته وصفاته، وثمرة معرفته: المهابة والإجلال. والتخلق به: يمكن التخلّقُ به مما سبق ذكره، فإنه شاملٌ لجميعِ الصفات، كما شملها ذو الجلال والإكرام.

فهذه إشاراتٌ إلى كيفية التخلّق بالصّفات، ولا يحصل التخلّق بالصفات إلا لِمَنْ واظبَ على التحديق إليها، والإقبال عليها، ولذلك أمرنا الله تعالى بإكثار ذكره لنُلابس ما يثمره ذكره من الأحوال والأقوال والأعمال[2].

سادساً ـ وصف الله نفسه بالمغفرة لا يعني الإغراء بالمعاصي:

وصف الله سبحانه نفسَه بأنه غفّار وغفور للذنوب والخطايا والسيئات لصغيرها وكبيرها، وحتى الشرك إذا تاب منه الإنسان، واستغفر ربه، قِبل الله توبته، وغفر له ذنبه، قال تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ *﴾ [الإسراء: 53] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا *﴾ [النساء: 110] ومهما كبرتْ ذنوبُ هذا الإنسان فإنَّ مغفرة اللهِ ورحمتَه أعظمُ من ذنوبه التي ارتكبها، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: 32] .

---

[1] المصدر نفسه.

[2] المصدر نفسه ص (50).

وقد تكفّل الله سبحانه بالمغفرة لمن تاب وآمن، قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى *﴾ [طه :82] ومن فضله وجوده وكرمه تعهده أن يبدِّلَ سيئاتِ المذنبين حسناتٍ ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا *﴾ [النساء :96] .

ولكن لا يجوزُ للمسلمِ أن يُسْرِفَ في الخطايا والمعاصي والفواحش بحجّة أنّ الله غفور رحيم، فالمغفرةُ إنّما تكون للتائبين الأوابين، قال تعالى: ﴿إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا *﴾ [الإسراء :25] وقال سبحانه تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ *﴾ [النمل :11] فاشترط تبدُّلَ الحال من عمل المعاصي والسيئات إلى الصالحات والحسنات، لكي تتحقّقَ المغفرةُ والرحمةُ، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء :48] يبين الله أنَّ المقيمَ على الشرك حتى الوفاة لا غفرانَ لذنوبه، لأنّه لم يبدّل حسناً بعد سوءٍ، وكذلك قوله تعالى عن المنافقين: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [المنافقون:6] لأنهم لم يخلصوا دينهم لله، ولم يصلحوا من أحوالهم.

وأمّا إذا حصل ذلك فإنَّ المغفرةَ تحصلُ لهم مع المؤمنين، قال تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا *﴾ [النساء :146] فلابدَّ من الأخذِ بالأسبابِ المؤدية إلى المغفرة، وأمّا إنْ مات وهو مقيمٌ على الكبائر مِنْ غيرِ أن يتوبَ، فإنّه ليسَ له عهدٌ عند الله بالمغفرة والرحمة، بل إنْ شاءَ غفر له وعفا عنه لفضله، وإن شاء عذبه في النار لعدله، ثم يخرجه برحمته وشفاعة الشافعين من أهل طاعته، ثم يدخله الجنَّة، وذلك للموحّدين خاصّةً[1].

* * *

---

[1] النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى ص (150 ، 151) شرح الطحاوية ص (416 . 421).

المبحث الخامس

توحيد العبادة

أولاً . تعريفه ومكانته الخاصة.

ثانياً . الطريقة القرآنية في الدعوة إلى توحيد العبادة.

ثالثاً . معنى العبادة وشروط قبولها.

رابعاً . حقيقة العبادة.

خامساً . أنواع العبادة.

سادساً . أقسام العبادات.

سابعاً . أفضل العبادات.

ثامناً . تحكيم الشريعة، وارتباطها بالتوحيد.

تاسعاً . الاثار الحسنة للحكم بما أنزل الله.

عاشراً . الاثار السيئة للحكم بغير ما أنزل الله.

حادي عشر . حماية الرسول صلى الله عليه وسلم لتوحيد العبادة.

المبحث الخامس : توحيد العبادة

أولاً . تعريفه ومكانته خاصة[1]:

هو إفرادُ الله عزّ وجل بجميع أنواع العبادات، وإخلاصُهَا له وحده لا شريك له، ظاهراً وباطناً، وهو توحيدُ الله تعالى بأفعال العباد، ويسمّى ايضاً توحيد الألوهية، لأنّ العبودية والألوهية بمعنًى واحداً، إذ معنى الإله: المعبود[2]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين[3].

وهذا التوحيدُ أعظمُ أنواعِ التوحيدِ وأهمُّها، والمتضمّنُ لها جميعاً، ولا يصيرُ العبدُ مؤمناً إلا بتحقيقه، وهو الذي لأجله خلقَ الله عبادَه، وأنزلَ كتبه، وبعثَ أنبياءه ورسله عليهم الصلاة والسلام[4]، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ *﴾ [الذاريات :56] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ﴾ [النحل :36] وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة :5] .

وهذا التوحيدُ هو معنى قول: (لا إله إلا الله) والتي معناها: لا معبود بحقٍ إلا الله[5].

---

[1] المنهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى ص (150 ، 151) ، شرح الطحاوية ص (416 . 421).

[2] حماية الرسول حمى التوحيد ص (234).

[3] دعوة التوحيد ، خليل الهراس ص (37) ، وتفسير الطبري (1/ 123) وقال أحمد شاكر: إسناده ضعيف.

[4] حماية الرسول حمى التوحيد ص (234).

[5] منهج السلف والمتكلمين في موافقة العقل للنقل (1 / 261).

ومما يدلُّ على أهمية توحيد العبادة أنّه هو التوحيدُ الذي أَرْسَلَ الله به الرُّسلَ من أولهم إلى آخرهم، واتفقتْ دعوةُ الرسلِ من أوّل رسولٍ بعثه الله إلى خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم، اتفقتْ دعوتهم إلى البَدْءِ بدعوة أقوامهم إلى إخلاص العبادةِ لله، ونبذ الشرك بكل صوره وأسبابه ووسائله المؤدية إليه، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ *﴾[الأنبياء: 25] .

وقال تعالى عن نبيّه نوح عليه السلام أنّه قال لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ *﴾ [الاعراف: 59] .

وقال عن خليله إبراهيم عليه السلام أنّه قال لقومه: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ *﴾ [العنكبوت: 16] .

وقال تعالى عن كليمه موسى عليه السلام أنّه قال لقومه: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا *﴾ [طه: 98] .

وقال تعالى عن المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام أنّه قال لقومه: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ *﴾ [الزخرف: 63. 64] .

وأول ما بدأَ به خاتمهم محمّد صلى الله عليه وسلم دعوتَه إلى الله عز وجل دعوة الناس إلى إخلاص العبادة لله، ونبذ الشرك بأنواعه ووسائله وأسبابه بالقول والفعل، فحمى رسول الله صلى الله عليه وسلم حمى التوحيد، ودعا إليه، وأنذر الشركَ غايةَ الإنذار، واستمرّ على هذا المنهج حتى لحقَ بالرفيق الأعلى صلى الله عليه وسلم.

واقتدى به أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين، وكلُّ مَنْ اتّبع طريقته، واستنّ بسنته، فطريقتُه في الدعوة هي: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي

وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ *﴾ [يوسف :108] وفي هذه الآية أمرَ اللهُ رسولَه صلى الله عليه وسلم أن يخبِرَ الناسَ أنّ هذه سبيلُه أي: طريقتُه ومسلكُه وسنّته، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا اله وحدَه لا شريكَ له، يدعو بها على بصيرةٍ من ذلك ويقين وبرهان، وكلُّ من اتبعه يدعو إلى ما دعا إليه رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم على بصيرةٍ وبرهانٍ عقلي وشرعي[1].

وقد بيّنَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أنَّ توحيد العبادة أساسُ الإسلام، وأنّه أول ما يبدأ به في الدعوة إلى الله، ويدل على ذلك رسائِلُه صلى الله عليه وسلم، ومبايعته، وجهاده، ووصاياه لقواده، وغير ذلك من الأمور.

ومن الأمثلة الدالة على هذا:

1 ـ إرساله صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن لدعوة قوم من أهل الكتاب إلى توحيد الله عز وجل، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم لما بعثَ معاذاً إلى اليمن قال له: «إنّكَ تأتي قوماً مِنْ أهلِ الكتابِ، فليكنْ أوّلُ ما تدعوهم إليه شهادةَ أنْ لا إلهَ إلا الله»، وفي رواية: «إلى أن يوحِّدوا الله، فإنْ هُمْ أطاعوكَ على ذلك، فأَعْلِمْهم أنَّ الله افترضَ عليهم خمس صلواتٍ في كلِّ يومٍ وليلةٍ»[2].

فبيّن له رسول الله صلى الله عليه وسلم أنَّ أولَ ما يَبْدَأُ به في الدعوة إلى الله تعالى شهادةُ أن لا إله إلا الله، وإخلاصُ العبادةِ له جلا وعلا[3].

---

[1] تفسير ابن كثير (2 / 513 ـ 514).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: المغازي ، باب: بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع (4090) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام (19).

[3] منهج السلف والمتكلمين (1 / 267).

2 . وكذلك أمره صلى الله عليه وسلم عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه يوم خيبر بدعوة اليهود إلى التوحيد أولاً: حيث أعطاه صلى الله عليه وسلم الراية، وقال: «انفذْ على رِسْلِكَ، حتّى تنزلَ بساحتِهم، ثم ادعُهم إلى الإسلامِ، وأخبِرْهُم بما يجبُ عليهم مِنْ حقّ الله تعالى فيه، فواللهِ لأنْ يهدِيَ اللهُ بكَ رَجُلاً واحداً خيرٌ لكَ من أن يكون لك حُمْرُ النّعم»[1]

وفي رواية أخرى: فسار عليٌّ رضي الله عنه، ثم وقفَ، ولم يلتفت، فصرخ: يا رسول الله! على ماذا أقاتل الناس؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «قاتلهم حتّى يشهدوا أنْ لا إلهَ إلا الله، وأنَّ محمَّداً رسولُ اللهِ، فإذا فعلوا ذلك، فقد منعوا مِنْكَ دماءَهم وأموالَهم إلا بحقِّها وحسابُهم على الله»[2].

3 . وكذلك مبايعاته صلى الله عليه وسلم تدلُّ على أنَّ أولَ ما يُبْدَأُ به في الدعوة إلى الله إخلاصُ العبادةِ لله الذي هو التوحيدُ:

ومن الأمثلة على ذلك حديثُ عبادةَ بن الصامت رضي الله عنه قال: قال لنا رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ونحنُ في مجلسٍ: «تبايعوني على أَنْ لا تشركوا باللهِ شيئاً»[3]: وحديثُ أم عطية رضي الله عنها قالت: بايعنا رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فقرأ علينا: ﴿أَنْ لاَ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ [الممتحنة :12][4].

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه ،كتاب: المناقب ، باب: مناقب علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي أبي الحسن رضي الله عنه (3701) ، ومسلم في صحيحه ،كتاب: فضائل الصحابة ، باب من فضائل علي بن أبي طالب (2406).

(2) أخرجه مسلم في صحيحه ،كتاب: فضائل الصحابة ، باب: من فضائل علي بن أبي طالب (2045).

(3) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الأحكام ، باب: بيعة النساء (6787) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الحدود: باب: الحدود كفارات لأهلها (1709).

(4) أخرجه البخاري في صحيحه ،كتاب: تفسير القران ، باب: {} [الممتحنة: 12] {إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ}

4 ـ وكذلك جهادُ النبيّ صلى الله عليه وسلم وقتالُه، إنّما كان مِنْ أجلِ دعوةِ الناسِ إلى إخلاصِ العبادةِ لله عز ودجل، والبراءةِ من الشركِ وأهلِه، والدفاعِ عن رايةِ التوحيدِ: فعن ابنِ عمرَ رضي الله عنهما أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أُمِرْتُ أن أقاتلَ الناسَ حتّى يشهدوا أنْ لا إلهَ إلا الله، وأنَّ محمداً رسولُ اللهِ، ويقيموا الصلاةَ، ويؤتوا الزكاةَ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم، إلا بحقّ الإسلامِ، وحسابهم على الله عز وجل»[1].

ثانياً: الطريقةُ القرآنيّة في الدعوةِ إلى توحيد العبادة:

تعددت الأساليب القرآنية في الدعوة إلى توحيد العبادة:

1 ـ منها بيان آيات ربوبيته سبحانه التي يراها الناس ويقرون بها، وأنّه سبحانه هو خالقها، ثم يختمها بالدعوة إلى إفراده سبحانه بالعبادة، فكما أنّه المتفرّد بهذا الخلق، فيجب أن يكونَ وحدَه سبحانه المتفرّد بالعبادة، لا شريك له، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ *الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ *﴾ [البقرة: 21 . 22] وقوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلاَمٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ *أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ *أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: {} [التوبة: 5] {فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ} ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله… (22).

خِلاَلَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ *أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ *أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ *أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ *﴾ [النمل: 59 . 64]، يقول الله تعالى في آخر كلِّ اية أي أإله مع الله فعل هذا؟ وهذا استفهامُ ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ *﴾، يتضمَّن نفيَ ذلك، وهم كانوا مقّرين بأنّه لم يفعل ذلك غيرُ الله(1).

2 . ومنها شهادةُ الله سبحانه على توحيدِ العبادة: فقد شهد الله لنفسهِ بهذا التوحيدِ، وشهدتْ له به ملائكته وأنبياؤه ورسلُه، قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ *﴾ [آل عمران: 18 . 19] .

3 . ومنها بيانُ عجزِ الآلهة التي يدعونها من دونِ الله تعالى: وأنّها لا تملكُ لنفسِها كما لا تملك لغيرها نفعاً ولا ضراً من دون الله، وجاء ذلك في آيات كثيرة من كتابِ الله، فعلى سبيل المثال، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَ يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ

(1) المنحة الإلهية في تهذيب شرح الطحاوية ص (55 ، 56).

وَالْمَطْلُوبُ *﴾ [الحج :73] . والآيات في هذا كثيرة تبيّن عجزَ هذه الالهة التي اتخذوها من دون الله تعالى، وأنها لا تملِكُ لنفسِها ولا لغيرِها نفعاً ولا ضراً.

4 . ومنها بيان ضلال عبّاد هذه الآلهة والتنديد بهم، والتشنيع عليهم، ووصفهم بالغي والعمى، والبعد عن الهدى والرشاد: قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لاَ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ *وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ *﴾ [الاحقاف :5 . 6] وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ *﴾ [العنكبوت :41] وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلاَ يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلاَ حَيَاةً وَلاَ نُشُورًا *﴾ [الفرقان :3] والآيات في هذا البابِ كثيرةٌ.

5 . ومنها بيان ما يقع يوم القيامة بين هؤلاء المشركين وآلهتهم من براءة بعضهم من بعض، وتخليهم عن عابديهم، وتنكرهم لاتباعهم، في حالٍ هُمْ أحوجُ ما يكونون إلى من يشفع لهم، ويدافع عنهم: ومن ذلك قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ * فَكَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ [يونس: 28 -29] .

6 . ومنها ما جاء في قصص الأنبياء والرسل صلى الله عليه وسلم في دعوتهم أممهم إلى توحيدِ اللهِ، وإفرادِهِ وحدَه بالعبادة، وكان ذلك مفتاحَ دعوة كلّ نبي ورسولٍ، وما جرى بينهم وبين أقوامهم لأجله من خصومة، وما دارت بسببه من معارك عظيمة بالبيان والسنان، وما كان مِنْ ذلّةٍ وهلاكٍ لأعداء الله وأعداءِ رسلِهِ، ونصرٍ ومنعةٍ وغلبةٍ

للرسل وأتباعهم، وتلك سنةُ اللهِ في خلقه: وهو الذي يقول بعد ما قصَّ دعوةَ عددٍ من الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ *﴾ [هود :83] والآيات عن قصص الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام مع أممهم كثيرةٌ جداً، نكتفي بمثالٍ واحدٍ لذلك وهو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللّهُ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُواْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ *قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ *وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ *وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ *وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ *﴾ [ابراهيم :9. 14] .

والحديثُ عن قصص الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام مع أممهم في دعوتهم يوضّحُ أنَّ توحيدَ الله وإفرادَه بالعبادةِ وحدَه، لا شريكَ له، هو المهمّةُ الأولى للرسل عليهم الصلاة والسلام.

ومما تقدّم يتبيّن أهمية توحيد العبادة المتضمِّنَ لأنواع التوحيد جميعاً، والمطلوبِ من الناس كافة[1].

ثالثاً ـ معنى العبادة وشروط قبولها:

أ ـ معنى العبادة:

مدارُ العبادةِ في اللغة والشرع على التذلّلِ والخضوعِ والانقيادِ.

والعبادةُ في اللغة من الذلة، يقال: طريقٌ معبّدٌ، وبعيرٌ معبَّد، أي: مذّلل.

وفي الشرع عبارةٌ عمّا يجمعُ كمالَ المحبّةِ، والخضوعِ، والخوفِ[2].

والعبادة في تعريفها الشامل هي: اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يحبُّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمالِ الباطنةِ والظاهرةِ، فالصلاةُ، والزكاةُ، والصيامُ، والحج، وصدقُ الحديث، وأداءُ الأمانة، وبرُّ الوالدين، وصلةُ الأرحام، والوفاءُ بالعهود، والأمرُ بالمعروف، والنهيُ عن المنكر، وجهادُ الكفّارِ والمنافقينِ، والإحسانُ إلى الجار واليتيمِ والمسكينِ وابنِ السبيل والمملوكِ من الآدميين والبهائمِ، والدعاءِ، والذكرِ، وقراءةِ القرآن الكريم، وأمثال ذلك هي من العبادة، وكذلك حبُّ اللهِ ورسوله صلى الله عليه وسلم، وخشية الله، والإنابة إليه، وإخلاصُ الدين له، والصبرُ لحكمه، والشكرُ لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكلُ عليه، والرجاءُ لرحمته، والخوفُ من عذابه، وأمثال ذلك هي من العبادة لله.

---

[1] حماية الرسول حمى التوحيد ص (249).

[2] تفسير ابن كثير (1 / 26) ، تفسير الطبري (1 /160).

وذلك أنَّ العبادةَ هي الغايةُ المحبوبةُ له، والمرضيةُ له، التي خَلقَ الخلقَ لها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ *﴾ [الذاريات: 56] وبها أرسل جميع الرسل[1].

والعبادةُ تتضمّنُ كمالَ الحُبِّ ونهايته، وكمالَ الذُّلِّ ونهايته، فالمحبوبُ الذي لا يعظَّمُ، ولا يُذَلُّ له، لا يكون معبوداً، والمعظَّم الذي لا يُحَبُّ لا يكون معبوداً[2].

ب . شروط قبول العبادة:

الشرط الأول . الإخلاص: وهذا الشرطُ متعلِّقٌ بالإرادةِ والقصدِ والنيّة، والمقصود به إفرادُ الحقِّ سبحانه وتعالى بالقصد والطاعة[3].

والنيةُ تقع في كلام العلماء بمعنيين: أحداهما: تمييزُ العبادات بعضِها عن بعضٍ، كتمييز صلاةِ الظهرِ عن صلاة العصر مثلاً. إلى أنْ قال: والمعنى الثاني: بمعنى تمييز المقصود بالعملِ: هل هو لله وحده لا شريك له، أم لله وغيره؟ وهذه النيةُ هي التي يتكلّم فيها العارفون في كتبهم في كلامهم على الإخلاص وتوابعه[4].

والأدلةُ على هذا الأصل في القرآن والسنة وكلام علماءِ الأمة ومن سارَ على نهجهم كثيرةٌ، فمن القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ *أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي

---

[1] مجموع الفتاوى (10 / 149 . 150).
[2] التحفة العراقية ص (63) ، مجموع الفتاوى (20 / 6).
[3] مدارج السالكين (2 / 91).
[4] جامع العلوم والحكم لابن رجب ص(8).

مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزمر :2 . 3] أي لا يقبلُ الله من العملِ إلا ما أخلصَ فيه العاملُ للهِ وحده، لا شريك له[1].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [الاعراف :29] .

ومن الأحاديث النبوية قوله صلى الله عليه وسلم: «إنمّا الأعمالُ بالنيّاتِ، وإنمّا لكلِّ امرىءٍ ما نوى، فمن كانتْ هجرتهُ إلى اللهِ ورسولِهِ، فهجرتُه إلى اللهِ ورسولهِ، ومَنْ كانتْ هجرتُه لدنيا يصيبها، أو امرأةٍ ينكحُها فهجرتُه إلى ما هاجرَ إليه»[2].

وفي حديث أبي هريرة قال: سمعتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقولُ: «إنَّ أوَّل الناسِ يُقضى يوم القيامة عليه رجلٌ استشهد، فأتي به، فعرّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيكَ حتى استشهدتُ، قال: كذبتَ، ولكنّكَ قاتلتَ لأن يقال جريءُ فقد قيل. ثم أُمِرَ به فسُحِبَ على وجهه حتى أُلقي في النار.

ورجلُ تعلّمَ العلمَ، وعلّمه، وقرأ القرآن، فأتي به، فعرّفه نعمَه فعرفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: تعلّمتُ العلمَ وعلَّمتُه، وقرأتُ فيكَ القرآن، قال: كذبتَ، ولكنّك تعلّمتَ العلمَ ليقالَ: عالمٌ، وقرأتَ القرآن ليقالَ: هو قارئ، فقد قيل. ثم أُمِرَ به، فسُحِبَ على وجهه، حتى أُلقي في النار.

---

[1] تفسير ابن كثير (3 / 158).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه ، باب بدء الوحي (1). وأخرجه أيضاً في كتاب: الإيمان ، باب: ما جاء أن الأعمال بالنية الحسنة ، وأن لكل امرىء ما نوى (54) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الإمارة ، باب: قوله: إنما الأعمال بالنية ، وأنه يدخل فيه الغزو وغيره (1907) ولفظه (بالنية) بدل (بالنيات). .[210] أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الإمارة ، باب: من قال للرياء والسمعة استحق النار (1905).

ورجلٌ وسّعَ الله عليه، وأعطاه من أصنافِ المالِ كله، فأُتِيَ به، فعرّفه نعمَه فعرفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: ما تركتُ مِنْ سبيلٍ تحبُّ أن ينفقَ فيها إلا أنفقتُ فيها لك، قال: كذبتَ، ولكنّك فعلتَ ليقالَ: هو جوادٌ، وقد قيل، ثم أُمِرَ به فسُحِبَ على وجهه، حتى ألقي في النار[1].

الشرط الثاني الموافقة للشرع:

وأما الأدلة من القرآن فكثيرة منها:

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن ﴿سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ *﴾ [الانعام :153] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء :125].

أما الأدلة بين السنة النبوية فكثيرة منها:

وقوله صلى الله عليه وسلم: «تركتُ فيكم أمرينِ لن تضلّوا ما تمسّكتُم بهما، كتابَ الله وسنّةَ رسولِهِ»[2]. وقوله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ أحدثَ في أمرِنا هذا ما ليسَ مِنْهُ فهو رَدٌّ»[3].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لقد تركتُكم على مِثْلِ البيضاءِ، ليلِها كنهارِها، لا يزيغُ عنها إلاّ هالكٌ»[4].

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإمارة، باب: من قال للرياء والسمعة استحق النار (1905).

(2) أخرجه مالك في موطئه بلاغاً ، كتاب: الجامع ، باب: النهي عن القول بالقدر (1661). قال الألباني في مشكاة المصابيح (186): حسن.

(3) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الأقضية ، باب: نقض الأحكام الباطلة ، ورد محدثات الأمور (1718). وأخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الصلح ، باب: إذا اصطلحوا على صلح جور. فالصلح مردود (2550) بلفظ: «ما ليس فيه».

(4) أخرجه ابن أبي عاصم في كتاب السنة (48) باب: ذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم تركتكم على مثل البيضاء. قال

وعن مطرّف بن عبد الله يقول: سمعتُ مالكَ بنَ أنسٍ إذا ذُكِرَ عنده الزائغين في الدين يقول: قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: سَنَّ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وولاةُ الأمر بعدَه سُنناً، الأخذُ بها اتّباعٌ لكتابِ اللهِ عزّ وجلّ، واستكمالٌ لطاعةِ اللهِ عزّ وجلّ، وقوةٌ على دينِ الله تبارك وتعالى، ليسَ لأحدٍ مِنَ الخَلْقِ تغييرُها ولا تبديلُها، ولا النظرُ في شيءٍ خلافها، مَنِ اهتدى بها فهو مهتدٍ، ومن استنصرَ بها فهو منصورٌ، ومن تركَها واتّبعَ غيرَ سبيلِ المؤمنين ولاّه اللهُ تعالى ما تولَّى، وأصلاه جهنّم، وساءت مصيراً[1].

ومما روي عن الفُضيل بن عياض أنّه تلا قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك: 2] فقال: أخلصه وأصوبه. قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إذا كان العملُ خالصاً ولم يكن صواباً، لم يُقْبَلْ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقْبَلْ، حتى يكونَ خالصاً صواباً، والخالصُ إذا كان لله عزّ وجلّ، والصوابُ إذا كان على السنّة[2].

وبعد ذكر شَرْطَي العبادةِ المقبولةِ عند الله سبحانه وتعالى يتبيّنُ أنَّ دينَ الإسلام مبنيٌّ على أصلين:

الأصل الأول: أن نعبد الله وحده لا شريك له.

الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (59): إسناد حسن. وأخرجه ابن ماجه في سننه ، كتاب: المقدمة ، باب: اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين (44) بلفظ: «قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها بعدي لا هالك». وأخرجه ابن ماجه في سننه (5) بلفظ: «لقد تركتكم على مثل البيضاء ، ليلها ونهارها سواء» قال الألباني في السلسلة الصحيحة (628): حسن.

[1] الشريعة للآجري ص (48).

[2] مدارج السالكين (2 / 89).

والأصل الثاني: أن نعبده بما شرع من الدين، وهو ما أمرت به الرسل[1].

إنّ الغاية من خلق الإنسانِ وكتابةِ الموتِ والحياةِ عليه واضحٌ في قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك: 2] والأحسنُ عملاً يتضمّن أمرين: كما فسر ذلك الفضيل بن عياض ـ رحمه الله ـ: عندما قال: أحسنه أي: أخلصَه وأصوبَه[2]. فأخلصه: هو «لا إله إلا الله»، وأصوبه: هو «محمد رسول الله»، وهو الذي أشارت إليه سورةُ الفاتحة ـ أم القرآن الكريم ـ ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ *﴾ [الفاتحة: 6 ـ 7] .

والذين أنعمَ اللهُ عليهم هم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون، ومنهم الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وصحابته ـ رضوان الله عليهم ـ والذين ساروا على هذا الصِّرَاطَ المستَقِيم أي: الصوابِ الموصلِ للغاية، وهذا الطريقُ وسطٌ بين طرفين[3].

رابعاً ـ حقيقة العبادة:

إنّ دائرةَ العبادةَ التي خلق الله لها الإنسان، وجعلها غايته في الحياة، ومهمته في الأرض دائرةٌ رحبةٌ واسعةٌ، إنها تشمل شؤون الإنسان كلها، وتستوعبُ حياته جميعاً، وتستغرقُ مناشطه، وأعماله كافة[4]، ومن التعريف السابق للعبادة عندما ذكرنا بأنّه: اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يحبُّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة ـ لا يمكنُ أن يخرجَ شيءٌ من نشاطات الإنسان وأعماله، سواء أكان ذلك في العباداتِ المحضة،

---

[1] مجموع الفتاوى (1 / 189).

[2] تفسير البغوي ، معالم التنزيل (4 / 269).

[3] الوسطية في القران الكريم ص (389).

[4] العبادة في الإسلام للقرضاوي ص (53).

أو في المعاملاتِ المشروعة، أو في العاداتِ التي طُبِعَ الإنسانُ على فعلها من دائرة العبادة.

وهنا ينبغي لنا الإشارةُ إلى أنَّ الأصلَ في العباداتِ المحضةِ المنعُ، حتى يردَ ما يدلُّ على مشروعيتها، وأنّ الأصلَ في العاداتِ العفوُ، حتى يردَ ما يدلُّ على منعها، وذلك مبني على أنّ تصرّفات العباد من الأقوال والأفعال نوعان: عباداتٌ يَصْلُحُ بها دينه، وعاداتٌ يحتاجون إليها في دنياهم، فباستقراء أصولِ الشريعة نعلمُ أنَّ العباداتِ التي أوجبها الله أو أحبَّها لا يثبتُ الأمرُ بها إلاّ بالشرع وحده.

وأمّا العاداتُ: فهي ما اعتاده الناس في دنياهم مما يحتاجون إليه، والأصلُ فيها عدم الحظر، فلا يحظر منها إلاّ ما حظره الله سبحانه وتعالى، وذلك لأنّ الأمرَ والنهيَ هنا شرعُ الله.

والعبادةُ لا بدَّ أن يكونَ مأموراً بها[1]، فما لم يثبتْ من العباداتِ أنّه مأمور به، كيف يحكم عليه بأنه عبادة؟ وما لم يثبت من العبادات أنّه منهيٌّ عنه كيف يحكم عليه أنه محظور؟

والعادات الأصلُ فيها العفوُ، ولا يُحْظرُ منها إلاّ ما حرّم الله[2].

وهذا التقسيم في الحظر والإباحة لا يخرِجُ شيئاً من أفعال الإنسان العادية من دائرةِ العبادةِ لله، ولكنّ ذلك يختلِفُ في درجته ما بينَ عبادةٍ محضةٍ، وعادةٍ مَشُوْبَةٍ بالعبادة،

---

[1] الوسطية في القران الكريم ص (38).

[2] مجموع الفتاوى (29 / 116 ، 117).

وعادةٍ تتحوَّل بالنيةِ والقصدِ إلى عبادةٍ، لأنَّ المباحاتِ يؤجَرُ عليها بالنيّةِ والقصدِ الحسنِ، إذا صارت وسائلَ للمقاصد الواجبة، أو المندوبة، أو تكميلاً لشيءٍ منها[1].

قال النووي في شرحه لحديث «وفي بِضعِ أحَدِكُم صدقةٌ»[2]: وفي هذا دليلٌ على أنَّ المباحاتِ تصيرُ طاعاتٍ بالنّيةِ الصادقة[3].

ومن ذلك يتّضح: أنَّ الدِّينَ كلَّه داخلٌ في العبادةِ، والدِّينُ منهجُ الله، جاءَ ليسعَ الحياةَ كلَّها، وينظِّمَ جميعَ أمورِها من أدبِ الأكلِ والشربِ وقضاءِ الحاجةِ إلى بناءِ الدولةِ، وسياسةِ المالِ، وشؤونِ المعاملاتِ والعقوباتِ، وأصولِ العلاقاتِ الدوليةِ في السلم والحرب.

إنَّ الشعائرَ التعبّدية من صلاةٍ، وصومٍ، وزكاةٍ، لها أهميتُها ومكانتُها، ولكنَّها ليست العبادةَ كلَّها، بل هي جزءٌ من العبادةِ التي يريدُها الله تعالى.

إنّ مقتضى العبادةِ المطالبِ بها الإنسانُ أن يجعل المسلمُ أقوالَه وأفعالَه وتصرفاتِه وسلوكَه وعلاقاتِه مع الناس وفقَ المناهج والأوضاعِ التي جاءتْ بها الشريعةُ الإسلاميةُ، يفعلُ ذلك طاعةً لله، واستسلاماً لأمره[4].

والدليل على المفهومِ الشاملِ للعبادةِ الكتابُ والسنةُ وفعلُ الصحابةِ رضوان الله عليهم.

فأمّا القرآن الكريمُ فقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ *﴾ [الانعام: 162 . 163] .

---

(1) حقيقة البدعة وأحكامها للغامدي (1/ 19).

(2) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الزكاة ، باب: بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف (1006).

(3) شرح النووي (7/ 92).

(4) مقاصد المكلفين د. عمر الأشقر ص (460 . 47).

وأمّا السنةُ: فقوله صلى الله عليه وسلم: «إنّ المسلمَ إذا أنفقَ على أهلِهِ نفقةً، وهو يَحْتَسِبُها كانتْ له صدقةً»[1]. وقوله صلى الله عليه وسلم: «دخلتِ امرأةٌ النارَ في هِرَّةٍ ربطَتْها، فلم تُطْعِمْهَا، ولم تَدَعْهَا تأكلُ مِنْ خِشَاشِ الأرضِ حتّى ماتت»[2].

وأما الاستدال على عموم العبادة وشمولها لحياة الإنسان بفعل الصحابة ففي قصة بعثِ أبي موسى ومعاذ إلى اليمن، وفي آخره قال أبو موسى لمعاذٍ: فكيفَ تقرأُ أنتَ يا معاذ؟ قال: أنامُ أوَّل الليل فأقومُ، وقد قضيتُ جزئي من النوم، فأقرأُ ما كَتَبَ اللهُ لي، فَأَحْتَسِبُ نومتي، كما أَحْتَسِبُ قومتي[3]، وفي كلام معاذ رضي الله عنه دليلٌ على أنّ المباحاتِ يؤجَرُ عليها بالقصدِ والنيّةِ.

خامساً ـ أنواع العبادات:

إنَّ أنواعَ العباداتِ كثيرةٌ، نذكر منها:

النوع الأول ـ الدعاء:

وهو لغةً: الرغبةُ إلى الله، وجاء في نصوص القرآن والسنة بمعنى العبادة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ *﴾ [غافر: 60] وقال تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ *﴾ [غافر: 54] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الزكاة ، باب: فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج والأولاد والوالدين ولو كانوا مشركين (1002) وأخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: ما جاء أن الأعمال بالنية الحسنة ، ولكل امرىء ما نوى (55) بلفظ «إذا أنفق الرجل على أهله يحتسبها فهو له صدقة».

[2] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: بدء الخلق ، باب: خمس من الدواب فواسق يقتلن في الحرم (3318).

[3] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب المغازي ، باب: بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع (4342).

الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ *﴾ [البقرة :186] وقال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ *وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ *﴾ [الاعراف :55 . 56] وقال تعالى: ﴿فَلاَ تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ *﴾ [الشعراء :213] .

ومن أسباب قَبولِ الدّعاءِ: المطعمُ الحلالُ، وألاّ يستبطىءَ الإجابةَ، وألاّ يدعو بإثمٍ ولا قطيعةِ رحمٍ، والأمرُ بالمعروفِ، والنهيُ عن المنكر، والجَزْمُ في الدّعاء، وحضورُ القلبِ وسلامتُه من الغفلةِ والخشوعِ، والابتعاد عن المعاصي، والإخلاص في الدعاء لله عز وجل[1].

ويمكن أن يقترنَ الدعاءُ بتوسُّلٍ مشروعٍ، كالتوسّلِ بأسماء الله الحسنى، أو بصفةٍ من صفاته العُلى، أو أنْ يتوسّل العبدُ إلى اللهِ بأعماله الصالحة التي يرجو قبولها عند الله، أو يطلبَ الدعاءَ ممّن يظنُّ صلاحهم، أو بالتوسّل بهم بشرط أن يكونوا أحياء أي: يُتَوَسَّل بدعائهم.

وقد تحدّث العلماءُ عن أنواع التوسل المشروعة ومنها:

أ ـ التوسُّل إلى الله بأسمائه الحسنى، أو بصفةٍ من صفاته العُلَى:

والدليلُ على هذا النوع من أنواع التوسُّلِ قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *﴾ [الاعراف:180]

.

كأنْ يقولَ المسلمُ في دعائه: اللهمَّ إِنِّي أسألُكَ بأنَّكَ أنتَ الرحمنُ الرحيمُ، اللطيفُ الخبيرُ، أن تعافيني.

---

[1] الدعاء والعلاج بالرقى من الكتاب والسنة ، للقحطاني ص (122).

أو يقول: أسألُكَ برحمتِكَ التي وَسِعَتْ كلَّ شيءٍ أنْ ترحَمَني، وتغفرَ لي[1].

ولقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الاعراف: 180]، أي: ادعوا الله تعالى متوسّلين إليه بأسمائه الحسنى، ولا شكَّ أنَّ صفاته العُلى داخلةٌ في هذا الطلب، لأنّ أسماءَ الله عزّ وجلّ الحسنى صفاتٌ له، خُصَّتْ به تبارك وتعالى[2].

ومن الأدلةِ كذلك دعاءُ سليمان عليه السلام حيث قال: ﴿أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ *﴾ [النمل: 19] .

ب . التوسل إلى الله تعالى بالأعمال الصالحة التي يقومُ بهاالعبد:

كأنْ يتوسَّلَ إلى الله تعالى بالإيمانِ به وطاعتهِ، واتباع رسولِهِ صلى الله عليه وسلم ومحبَّته.

ومن هذا النوع قولُ الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ *﴾ [آل عمران: 16] فيمكِنُ للعبدِ أن يقولَ: اللهمَّ بإيماني بكَ، أو محبّتي لكَ، أو اتبّاعي لرسولكَ صلى الله عليه وسلم اغفر لي، أو يقول:اللهمّ إنّي أسألُكَ بمحبَّتي لمحمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، وإيماني به أنْ تفرِّجَ عنّي.

ومن ذلك أنْ يذكرَ الداعي عملاً صالحاً ذا بالٍ، فيه خوفُه مِنَ اللهِ سبحانه وتقواه إياه، وإيثارُه رضاه على كلِّ شيءٍ، وطاعتُه له جلَّ شأنه، ثم يتوسَّلُ به إلى الله في دعائه، ليكونَ أرجى لقبوله وإجابته[3].

[1] المصدر السابق ص (99).

[2] الذكر والدعاء والعلاج بالرقى ص (99) انظر: منهج القران في الدعوة إلى الله ص (165 . 166).

[3] الذكر والدعاء والعلاج بالرقى ص (100).

ج. التوسُّل إلى الله تعالى بدعاءِ الصالحين الأحياء:

بأنْ يَطْلُبَ المسلمُ من أخيه الحيِّ الحاضرِ أن يدعوَ الله له، فهذا النوعُ من التوسُّلِ مشروعٌ، لثبوته عن بعض الصحابةِ مع النبيِّ صلى الله عليه وسلم، حيثُ كان بعضُهم يأتي النبي صلى الله عليه وسلم، فيطلب منه الدعاءَ له أو لعموم المسلمين، ومن ذلك ما ثبت في «الصحيحين» عن أنسِ بنِ مالك رضي الله عنه أنَّ أعرابياً قامَ يومَ الجمعة والنبيُّ صلى الله عليه وسلم يخطبُ فقال: يا رسول الله: هلكَ المالُ، وجاعَ العيالُ، فادعُ اللهَ لنا.

فرفع صلى الله عليه وسلم يديه - وما نرى في السماءِ قزعةً - فوالذي نفسي بيدِهِ ما وضعَها حتى ثارَ السحابُ أمثالَ الجبالِ، ثم لم ينزلْ عن منبرِهِ حتّى رأيتُ المطرَ يتحادرُ على لحيتِهِ صلى الله عليه وسلم[1] إلى آخر الحديث.

ومثله كذلك توسُّلِ الصحابةِ رضي الله عنهم بدعاءِ العبّاس رضي الله عنه، وهو في «صحيح البخاري» من حديثِ أنسٍ رضي الله عنه: أنَّ عمرَ بنَ الخطاب رضي الله عنه كان إذا قحَطُوا استسقى بالعباسِ بنِ عبدِ المطلب، فقال: اللهمَّ إنّا كنّا نتوسُّل إليكَ بنبيّنا صلى الله عليه وسلم فتسقِيَنا، وإنَّا نتوسَّلُ إليك بعمِّ نبيّنا فاسْقِنا، قال: فيُسْقَون[2] والمراد بقوله: إنّا نتوسَّل إليك بعمِّ نبِّينا، أي: بدعائه.

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الجمعة ، باب: الاستسقاء في الخطبة يوم الجمعة (1933) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: صلاة الاستسقاء ، باب: الدعاء في الاستسقاء (897).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الجمعة ، باب: سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا (1010).

فهذه الأنواعُ الثلاثةُ من التوسُّلِ كلُّها مشروعةٌ، لدلالةِ نصوصِ الشرعِ عليها، وأمّا ما سوى ذلك ممّا لا أصلَ له، ولا دليلَ على مشروعيته فينبغي على المسلم أن يجتنبه[1].

النوع الثاني ـ النذر:

تعريفه: هو التزامُ قربةٍ غيرِ لازمةٍ في أصلِ الشرعِ بلفظٍ يُشْعِرُ بذلك، مثل أَنْ يقولَ: للهِ عليَّ أنْ أصومَ ثلاثةَ أيام[2].

حكمه: حكمُ النذرِ الكراهةُ، بل حرّمه بعضُ العلماء، لعدم تحمُّل المسلم ما قَدْ يعجزُ عن الوفاءِ به، ولكنْ إذا نذرَ المسلمُ وجبَ عليه الوفاءُ بهذا النذر، وذلك ما لم يكنْ في معصيةِ الله، فأصبحَ هذا النذرُ معلَّقاً في رقبته، ودَيْناً عليه، حتى يوفّيه[3]. قال تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا *﴾ [الإنسان: 7] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ *﴾ [البقرة: 270] وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ *﴾ [الحج: 29] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ نذَرَ أَنْ يطيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ، ومَنْ نَذَرَ أَنْ يعصيَ اللهَ فلا يَعْصِه»[4].

شروطه:

---

[1] فقه الأدعية والأذكار ص (341).

[2] اللباب في شرح العقيدة على ضوء السنة والكتاب ص (54).

[3] العقيدة الصافية ص (274).

[4] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الأيمان والنذور ، باب: النذور في الطاعة (6696).

أ ـ أن يكونَ طاعةً لله: لقوله صلى الله عليه وسلم: «لا نذرَ في معصيةِ الربِّ، أو في قطيعةِ رَحِمٍ، وفيما لا يملك»[1].

ب ـ أن يكون مما يطيقه العبد: فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينا النبيُّ صلى الله عليه وسلم يخطُبُ، إذ هو برجلٍ قائمٍ، فسأل عنه، فقالوا: أبو إسرائيل، نذرَ أَنْ يقومَ ولا يقعدَ، ولا يستظلَّ، ولا يتكّلمَ، ويصومَ. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «مره فليتكلّمْ، وليستظلَّ، وليقعدْ، وليتمَّ صومَه»[2].

ج ـ أن يكونَ فيما يملكُ: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا وفاءَ لنذرٍ في معصية اللهِ، ولا فيما لا يَمْلِكُ ابنُ آدم»[3].

د ـ ألاّ يعتقدَ الناذِرُ تأثيرَ النذر في حصولِ الشيءِ وعدمِهِ: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنَّ النذرَ لا يقدِّمُ شيئاً، ولا يؤخِّرُهُ، وإنَّما يُسْتَخْرَجُ بالنذرِ مِنَ البخيلِ»[4].

وإذا كان النذرُ للهِ تعالى عبادةً ونوعاً من أنواعِ التقرّب إلى الله، فإنَّ صرفه لغير اللهِ تعالى شِرْكٌ أكبرُ، يخرجُ من الملّة، ويوجِبُ لصاحبه النار، لأنَّ كلَّ ما شأنُه عبادةً لا يجوزُ بحالٍ من الأحوالِ أن يُصرَفَ لغير الله تعالى.

---

[1] أخرجه أبو داود في سننه ، كتاب: الأيمان والنذور ، باب: اليمين في قطيعة الرحم (3272). (3274). قال الألباني صحيح. انظر حديث رقم (7793) في صحيح الجامع.

[2] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الأيمان والنذور ، باب: النذر فيما لا يملك وفي معصيته (6704).

[3] أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: النذر ، باب: لا وفاء لنذر في معصية الله ، ولا فيما لا يملك العبد (1641) بلفظ: «... العبد». وأخرجه بلفظه أبو داود في سننه ، كتاب: الأيمان والنذور ، باب: ما يؤمر به من الوفاء بالنذر (3313).

[4] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الأيمان والنذور ، باب الوفاء بالنذر لقوله: {} [الإنسان: 7] {يُوفُونَ بِالنَّذْرِ} ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: النذر ، باب: النهي عن النذر ، وأنه لا يرد شيئاً (1639).

ومن المؤسفِ حقّاً أن نرى مثلَ هذه العباداتِ تُصْرَفُ لغيرِ الله تعالى[1]، وهذا جهلٌ عظيمٌ بالإسلام، ولا علاجَ له إلا نشرُ العلمِ وإحياءُ الإيمانِ بالله عزّ وجلّ في القلوب.

النوع الثالث . الذبح:

معنى الذبح هنا: هو كُلُّ ما ذُبِحَ هَدْياً أو عقيقةً وغيرها لله تعالى، بقصدِ التعبّدِ لله والتقرّبِ إليه[2]، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ *فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ *﴾ [الكوثر :1-2]، أي: أخلص له صلاتَك وذبْحَك[3]، وقال تعالى: (قل إن صلاتي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ﴾ [الانعام: 162 . 163]، والنسك: الذبح[4].

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: حدّثني رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بأربع كلماتٍ: «لعنَ اللهُ مَنْ ذبحَ لغيرِ اللهِ، ولعنَ اللهُ مَنْ لعنَ والديه، ولَعَنَ اللهُ مَنْ اوى مُحْدِثاً، ولعنَ اللهُ مَنْ غيَّرَ منارَ الأرضِ»[5].

أمّا لعنُ الوالدِ والوالدةِ فهو من الكبائر، وأمّا الذبحُ لغير الله، فالمرادُ به أن يذبحَ باسمٍ غيرِ اسم الله تعالى، كمن ذبحَ للصنم، أو الصليبِ، أو لموسى، أو لعيسى عليه

---

(1) العقيدة الصافية ص (278).

(2) العقيدة الصافية ص (280).

(3) المصدر نفسه ص (281) ، نقلاً عن تفسير ابن كثير.

(4) المصدر نفسه ص (281).

(5) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الأضاحي ، باب: تحريم الذبح لغير الله تعالى ولعن فاعله (1978) بلفظ: حدثني بكلمات أربع قال: «لعن الله من لعن والديه ، ولعن الله من ذبح لغير الله ، ولعن الله من اوى محدثاً ، ولعن الله من غير منار الأرض».مسلم (3 / 1567).

السلام، أو للكعبة، ونحو ذلك، فكلُّ هذا حرامٌ، ولا تحلُّ هذه الذبيحةُ سواءٌ كان الذابحُ مسلماً أو نصرانياً أو يهودياً[1].

إنَّ الذَّبحَ قربةٌ وعبادةٌ يُتقرَّبُ بها إلى اللهِ تعالى، ويتعبّد بها، ولذلك وجبَ صرفُها لله تعالى.

النوع الرابع ـ التوكل:

وهو الثقةُ بما عندَ اللهِ، واليأسُ عمّا في أيدي الناس، وقيل: هو اعتمادُ القلبِ على اللهِ، وثقتُه به، وأنّه كفايةٌ[2].

والتوكّلُ عبادةٌ، ويجبُ صرفُها لله تعالى، حتّى يتمَّ توحيدُ العبدِ، ويخلو مِنْ شوائبِ الشركِ وأدرانِ الجاهليةِ، والله سبحانه وتعالى يأمرُنا بالتوكّل عليه وحدَه لا على غيره. قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا *﴾ [الفرقان: 58] وقال تعالى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ *﴾ [هود: 56] وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ *وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ *إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ *﴾ [الشعراء: 217 ـ 220] وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً *﴾ [الاحزاب: 48] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لو أنَّكُم تتوكّلونَ على اللهِ حَقَّ توكُّلِهِ لرزقَكُم كما يَرْزُقُ الطيرَ، تغدو خِمَاصاً، وتروحُ بِطاناً»[3].

---

[1] شرح النووي على صحيح مسلم (4 / 656).

[2] اللباب ص (57).

[3] أخرجه بهذا اللفظ أحمد في مسنده ، (1 / 30). وأخرجه بلفظ قريب الترمذي في جامعه ، كتاب: الزهد ، باب: في التوكل على الله (2344) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وابن ماجه في سننه ، كتاب: الزهد ، باب: التوكل واليقين (4164).

النوع الخامس . الاستعانة:

وهي طلبُ العونِ من الله تعالى على سبيلِ التعبُّد للهِ، وهي من أنواع العبادة، ولذلك يجبُ الاستعانة بالله وحدَه. قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ *﴾ [الفاتحة :5] أي: لا نعبدُ إلاّ إيّاك، ولا نستعينُ إلاّ بكَ، ونبرأُ مِنْ كلِّ معبودٍ دونك ومن عابديه، ونبرأُ مِنَ الحولِ والقوّةِ إلا بك، فلا حولَ لأحدٍ عن معصيتك، ولا قوَّة على طاعتِكَ إلا بتوفيقك ومعونتك[1]. وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَانُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ *﴾ [الانبياء :112] .

وفي حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كنتُ خلفَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم يوماً فقالَ: «يا غلامُ، إنِّي أعلِّمُكَ كلماتٍ، احفظِ اللهَ يحفظْكَ، احفظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجاهَكَ، إذا سألتَ فاسألِ اللهَ، وإذا استعنتَ فاستعنْ باللهِ، واعلمْ أنَّ الأمةَ لو اجتمعتْ على أنْ ينفعوكَ بشيءٍ، لم ينفعوكَ إلاّ بشيءٍ قد كتبهَ اللهُ لكَ، وإنِ اجتمعوا على أنْ يضرّوكَ بشيءٍ لم يضروك إلاّ بشيءٍ قد كتَبَه الله عليكَ، رُفِعَتِ الأقلامُ، وجَفَّتِ الصحفُ[2].

النوع السادس . الاستغاثة:

وهي طلبُ الغوثِ، وهو إزالةُ الشدّةِ، كالاستنصار طلب النصرة، والاستغاثة، طلب الغوث.

---

[1] معارج القبول (2 / 452).

[2] أخرجه الترمذي في جامعه ، كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، باب: منه (2516) وقال: هذا حديث حسن صحيح ، وأخرجه أحمد (1/ 293) بلفظ قريب منه.

والفرق بين الاستغاثة والدعاء أنّ الاستغاثة لا تكونُ إلاّ من المكروبِ، والدعاءُ أعمُّ، فيكونُ من المكروبِ وغيرِه[1].

فالاستغاثةُ نوعٌ من العبادةِ يجبُ صرفُها لله تعالى، فلا يُستغاثُ إلاّ بالله عز وجل، ولقد ذكر الله تعالى الاستغاثة في كتابه العزيز، فلم تصرفْ إلا له سبحانه قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ *﴾ [الانفال:9] وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: 62] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ [الشورى: 28] .

وكان من دعاءِ النبيّ صلى الله عليه وسلم: «يا حيُّ يا قيومُ برحمتِكَ أستغيثُ»[2].

وعن ثابتِ بن الضحّاك: أنّه كان في زمنِ النبيّ صلى الله عليه وسلم منافِقٌ يُؤذي المؤمنين، فقال بعضُهم: قوموا بنا نستغيثُ برسولِ اللهِ من هذا المنافق. فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: «إنّه لا يستغاثُ بي، وإنّما يستغاثُ بالله»[3].

النوع السابع ـ الخشية:

الخشية التعبُّد، وهي خضوعُ القلبِ والجوارحِ لله تعالى طاعةً وخشوعاً وخوفاً من مقامه ووعيده، على سبيل التعبُّد لله تعالى[4] قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ

---

[1] اللباب ص (57).

[2] أخرجه الترمذي في جامعه ، كتاب: الدعوات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، باب: منه (3524) بلفظ «يا حي يا قيوم ، برحمتك أستغيث». قال الحافظ ابن حجر نتائج الأفكار (2 ؛ 386): في سنده يزيد بن أبان الرقاشي وهو ضعيف.

[3] قال الهيثمي في مجمع الزوائد (10/ 159): رواه الطبراني [عن عبادة بن الصامت] ورجاله رجال الصحيح ، غير ابن لهيعة ، وهو حسن الحديث. .[256] العقيدة الصافية ص (309).

[4] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: النكاح ، باب: الترغيب في النكاح (4776).

النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ *﴾ [آل عمران: 173] وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا *﴾ [الاحزاب: 39] وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ *﴾ [المؤمنون: 57] .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «... أَمَا واللهِ، إِنِّي لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكنِّي أصومُ وأفطِرُ، وأصلِّي وأرقدُ، وأتزوُّج النساءَ، فَمَنْ رغَب عَنْ سُنَّتي فليسَ مِنِّي».

والخشيةُ نوع من أنواعِ العبادةِ التي يجبُ ألاّ تصرفَ إلا للهِ تعالى، وصرفُها لغير الله يُعدُّ شركاً ينقضُ ويهدِمُ الإيمان، وكلّما زادَ إيمانُ العبدِ بربّه وخلصَ، كلّما زادتْ خشيتهُ منه[1].

النوع الثامن ـ الخوف:

وهو اضطراب القلبِ وحركتُه من تذكُّر المخوف[2]، وهو أفضلُ مقاماتِ الدين وأجلُّها، وأجمعُ أنواعِ العبادة التي يجبُ إخلاصُها لله تعالى[3] قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *﴾ [آل عمران: 175] وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ *وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ *﴾ [ابراهيم: 13 ـ 14] وقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ *﴾

---

[1] العقيدة الصافية ص (312).

[2] مدارج السالكين (1 ؛ 512).

[3] اللباب ص (65).

[الرحمن :46] وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى *فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى *﴾ [النازعات :40. 41] .

وعن عديّ بن حاتم رضي الله عنه أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «اتقّوا النارَ ولو بشِقّ تمرةٍ»[1]. فالنافعُ والضارُّ هو الله، فلا خوفَ إلاّ منه وحدَه سبحانه وتعالى.

النوع التاسع ـ المحبة:

يعدُّ خُلُقُ المحبّةِ من أجلِّ الأخلاق الإيمانية، لأنّها أصلُ كلِّ فعلٍ ومبدؤه، فلا يكونُ الفعلُ إلاّ عن محبةٍ وإرادةٍ، وكذلك التَّرْكُ، لا يكونُ إلا عنها، ولهذا كانَ رأسُ الإيمانِ الحبُّ في الله والبغضُ في الله، وكانَ مِنْ أحبَّ للهِ، ومَنْ أبغضَ للهِ، وأعطى لله، ومنعَ لله، قد استكمل الإيمان[2]. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ *﴾ [التوبة :24] . فإنّ هذه الآية تحمِلُ وعيداً شديداً على تقديم محبّةِ أيِّ شيءٍ من أمورِ الدنيا على محبّةِ الله تعالى ورسولِهِ صلى الله عليه وسلم، وأنّه يجبُ إيثارُهما في المحبّةِ على مَنْ سواهما، وهذه المحبّةُ تقتضي إيثارَ طاعتهما واتّباع أمرِهما على إيثارِ مَنْ ذَكَرَ اللهُ مِنَ الأقاربِ والأموالِ وغيرِهما ممّا قد تريدُ النفسُ تقديمها[3].

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الزكاة ، باب: اتقوا النار ولو بشق تمرة ، والقليل من الصدقة (1351) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الزكاة ، باب: الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار (1016).

[2] أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم في القران والسنة د. أحمد الحداد (1 / 204).

[3] المصدر نفسه (1/ 205).

وهذه المحبةُ يقتضيها الإيمانُ، فمَنْ كان مؤمناً أوجبَ عليه إيمانُهُ أن يتحلّى بها كما يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: 165] .

وقد بيّنَ القرآن الكريمُ علامات المحبّة لله تعالى، فجعلَ من ذلك اتباعَ نبيّه صلى الله عليه وسلم، والذِّلةِ للمؤمنين، والعزّةِ على الكافرين، والجهادِ في سبيله، وعدم الخوفِ مِنْ لَوْمِ لائمٍ، ومعاداةِ أعدائه.

وأمّا الاتباعُ لنبيه صلى الله عليه وسلم، فقد دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: 31] فإنّ هذه الآية تسمّى اية المحبّة[1]، فهذه الآية الكريمةُ حاكمةٌ على كلِّ مَنِ ادّعى محبّةَ الله، وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنّه كاذبٌ في دعواه في نفس الأمر، حتّى يتبعَ الشرعَ المحمدي والدينَ النبويَّ في جميع أقواله وأفعاله، كما ثبت في «الصحيح» عن رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «مَنْ عَمِلَ عملاً ليسَ عليه أمرُنا فهو رَدٌّ»[2].

وأمّا العلامات الأخرى فقد دلّ عليها قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ *﴾ [المائدة: 54] .

---

[1] المصدر نفسه (1/ 207).

[2] أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الأقضية ، باب: نقض الأحكام الباطلة ، ورد محدثات الأمور (1718). وأخرجه البخاري في صحيحه معلقاً ، كتاب: البيوع ، باب: النجش ومن قال: لا يجوز ذلك البيع.

سادساً ـ أقسام العباداتِ:

قسّم العلماءُ العبادات التي لا يجوزُ أن يقصدَ بها غيرُ الله إلى الأقسام التالية:

1 ـ عبادات اعتقادية: وهذه أساسُ العباداتِ كلِّها، وهي أن يعتقدَ العبدُ أنَّ الله هو الربُّ الواحدُ الأحدُ، الذي له الخلقُ والأمرُ، وبيدِهِ النفعُ والضرُّ، الذي لا شريكَ له، ولا يَشْفَعُ عنده أحدٌ إلاّ بإذنه، وأنه لا معبودَ بحقٍّ غيرهُ.

2 ـ عبادات قلبية: والعبادتُ القلبيّة التي لا يجوزُ أن يُقْصَدَ بها إلا الله وحده وصرفُها لغيرِ اللهِ شركٌ كثيرةٌ: كالخوفِ، والرجاءِ، والرغبةِ، والرهبةِ، والخشوعِ، والخشيةِ، والحُبِّ، والإنابةِ، والتوكُّلِ، والخضوع، والاستغاثة... إلخ.

3 ـ عبادات قولية: كالنطق بكلمةِ التوحيد، إذ لا يكفي اعتقادُ معناها، بل لابدَّ من النطقِ بها، وكالاستعاذةِ بالله، والاستعانةِ به، والدعاءِ له، وتسبيحهِ، وتمجيدهِ، وتلاوةِ القرآن الكريم.

4 ـ عبادات بدنية: كالصلاة، والصوم، والحج، والذبح، والنذر[1]، وغير ذلك.

5 ـ عبادات مالية: كالزكاة، وأنواع الصدقات، والكفارات، والأضحية، والنفقة[2].

---

(1) الحجُّ والذبحُ والنذرُ عبادات بدنية مالية معاً.

(2) العقيدة في الله ص (236).

سابعاً ـ أفضل العبادات:

إنّ أفضلَ العبادة العملُ على مرضاة الرب في كلِّ وقت، وبما هو مقتضى ذلك الوقت. ووظيفته.

فأفضلُ العباداتِ في وقتِ الجهادِ الجهادُ، وإنْ آلَ إلى تركِ الأورادِ من صلاةِ الليلِ وصيامِ النهارِ.

والأفضلُ في وقتِ حضور الضيفِ مثلاً القيامُ بحقه، والاشتغالُ به عن الوردِ المستحبِّ، وكذلك في أداء حقِّ الزوجة والأهل.

والأفضلُ في أوقاتِ السَّحرِ. الاشتغالُ بالصلاةِ، والقرآن، والدعاءِ، والذكرِ، والاستغفار.

والأفضل في وقت استرشاد الطالب، وتعليم الجاهل الإقبالُ على تعليمه، والاشتغال به.

والأفضلُ في أوقات الأذان، تركُ ما هو فيه من وردِهِ، والاشتغالُ بإجابةِ المؤذِّن.

والأفضل في أوقات الصلوات الخمس الجدُّ والنُّصحُ في إيقاعها على أكملِ الوجوهِ، والمبادرةِ إليها في أول الوقت، والخروجِ إلى المسجدِ، وإنْ بَعُدَ كان أفضلَ.

والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاه أو البدن أو المال الاشتغالُ بمساعدته، وإغاثةُ لهفته، وإيثارُ ذلك على أورادِك وخلوتِكَ.

الأفضل في وقت قراءة القرآن جمعُ القلبِ والهمّةِ على تدبّره وتفهّمه، حتّى كأنَّ الله تعالى يُخاطِبُكَ به، فتجمعُ قلبَك على فهمِهِ وتدبُّرِهِ، والعزمِ على تنفيذِ أوامرِهِ، أعظمَ مِنْ جمعيّةِ قلبِ مَنْ جاءَه كتابٌ من السلطانِ على ذلك.

والأفضل في وقت الوقوف بعرفة الاجتهادُ في التضرّع، والدعاءِ، والذكرِ، دون الصومِ، المضعِفِ عن ذلك.

والأفضل في أيام عشر ذي الحجة الإكثارُ من التعبد، لا سيَّما التكبيرُ والتهليلُ والتحميدُ، فهو أفضل من الجهادِ غير المتعيَّن.

والأفضل في العشر الأخير من رمضان لزومُ المسجدِ فيه، والخلوةِ، والاعتكافِ، دون التصدّي لمخالطةِ الناس، والاشتغالِ بهم، حتى إنَّه أفضلُ من الإقبال على تعليمهم العلم، وإقرائهم القرآن عندَ كثيرٍ من العلماء[1].

والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته عيادتُهُ، وحضورُ جنازتِهِ وتشييع.

والأفضل في وقت نزول النوازل وأذاةِ الناسِ لك: أداءُ واجب الصبر مع خلطتك بهم، دونَ الهربِ منهم، فإنَّ المؤمنَ الذي يخالِطُ الناسَ، ويصبرَ على أذاهم أفضلُ من الذي لا يخالِطُهم ولا يُؤذونه. والأفضلُ خلطتُهم في الخيرِ، فهي خيرٌ من اعتزالهم فيه، واعتزالهم في الشرِّ، فهو أفضلُ من خلطتهم فيه، فإنْ علمَ أنّه إذا خالطهم أزاله أو قلله، فخلطتُهم حينئذٍ أفضل من اعتزالهم.

فالأفضل في كل وقت وحال إيثارُ مرضاةِ الله في ذلك الوقتِ والحالِ، والاشتغالُ بواجبِ ذلك الوقتِ ووظيفتِهِ ومقتضاه[2].

---

[1] تهذيب مدارج السالكين (1 / 103).

[2] تهذيب مدارج السالكين (1 / 103 . 104).

ثامناً ـ تحكيمُ الشريعة وارتباطُها بالتوحيد:

1 ـ ربطها بتوحيد العبادة:

قال تعالى في قصة يوسف ودعوته إلى الله في السجن: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُم مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ *﴾ [يوسف :40] .

وقال تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ *﴾ [البقرة:256] .

وقال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ *﴾ [التوبة :31] .

2 ـ ربطها بتوحيد الربوبية:

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ *﴾ [الاعراف :54] .

3 ـ ربطها بتوحيد الأسماء والصفات:

قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ *﴾ [الأنعام: 114] وقال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ *﴾ [الممتحنة: 10] وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ *﴾ [الرعد: 41] وقال تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ *﴾ [الأنعام: 57] .

إنّ مِنْ أسماءِ ربنا جل جلاله التي عرّف بها نفسَه إلى عباده، وذكرها في كتابه، وعلى ألسنة رسله وأنبيائه «الحكيم»، وقد وردَ هذا الاسمُ أربعاً وتسعينَ مرّةً في القرآن الكريم، كما في قوله عز وجل: ﴿الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ *﴾ [البقرة: 32] ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *﴾ [البقرة: 129] ﴿الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ *﴾ [الانعام: 18] ﴿وَاسِعًا حَكِيمًا *﴾ [النساء: 130] ويقول تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً﴾ [الانعام: 114] فهذا دليل على أنَّ اسمه أيضاً «الحكم». وبمعناه «الحاكم» وقد جاءَ في خمسة مواضعَ بصيغة الجمع منها ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ *﴾ [الاعراف: 87] ﴿وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ *﴾ [هود: 45] ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ *﴾ [التين: 8] .

والحكيمُ هو الذي يُحْكِمُ الأشياء ويتقِنُها، ويضعُها في موضِعها، كما قال سبحانه: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: 88] فالحكيم هو الذي يضع الشيءَ في موضعه بقدره، فلا يتقدّمُ الحِكَمَ البالغةَ العظيمةَ، التي لا يأتي عليها الوصفُ، ولا يدركُها الوَهْمُ.

- ومن معاني الحكمة حكمتُه في خلقه: ومِنْ ذلكَ ما تراه في جسدِ الإنسانِ وعقلِهِ وروحِهِ من حكمته عزّ وجلّ، حيثُ خَلَقَ الإنسانَ في أحسن تقويم، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ *﴾ [التين: 4] ولو نظرتَ للإنسانِ في هيئته وصورته، أو نظرتَ في قُدراتِهِ وإمكاناته، أو نظرتَ في عقلِهِ وروحِه، لوجدتَ الحكمةَ البالغةَ العظيمةَ[1].
- ومن معاني حكمة الله تبارك وتعالى الشرعُ الذي أنزله في كتابه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، ولهذا وصف الله تعالى القرآن بأنّه حكيمٌ، كما في قوله:

---

[1] مع الله ص (184).

﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيات وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ *﴾[آل عمران: 58] وقوله: ﴿وَالْقرآن الْحَكِيمِ *﴾[يس: 2] فتشريعاته حكمةٌ في مقاصدِها وأسرارِها ومالاتها، فشريعته حكمةٌ، وخَلْقُه وقَدَرُهُ حكمةٌ، حتّى وإن عجزتْ بعضُ العقولِ في فَهْمِ أبعادها، فإنَّ مِنَ الحوادثِ والشرائعِ مالا يُتَبَيّنُ مداه إلا بعدَ أجيالٍ وعصورٍ، ولا زال العلمُ البشريُّ يكتشِفُ الشيءَ بعدَ الشيءِ، وليس يصحُّ أنْ يكونَ الجهلُ أو عدمُ الإدراكِ في وقتٍ أو مكانٍ أو بالنسبة لفردٍ أو جماعة سبباً في عدم القناعة بما جاءَ عن الله، لأنَّه أحكمُ الحاكمين، وأعلمُ العالمين، وخيرُ الرازقين، وأحسنُ الخالقين، فالحكيمُ الذي لا يدخلُ في تدبيره ولا شرعه خللٌ ولا زللٌ، وأفعالهُ وأقوالهُ تقعُ في مواضِعها بحكمةٍ وعدلٍ وسدادٍ، فلا يفعلُ إلا السداد، ولا يقولُ إلا الصوابَ[1].

والقرآن الحكيم فيه الحلولُ الصادقةُ، والمناسبةُ الملائمةُ، والأحكامُ الصحيحةُ التي بها قوام حياة الناس، وحَلُّ مشكلاتهم التي يواجهونها اليوم، سواء على صعيد الفكر، أو الاقتصاد، أو السياسة، أو المجتمع، وقد وضعَ الأطُرَ العامّةَ التي تهدي الناسَ إليها[2].

ولا شكَّ أنّ أصولَ الهدايةِ الكليّةِ موجودةٌ في القرآن الكريم، فإنّه تضمَّن الأصولَ العامّةَ التي تصلح بها حياةُ الناسِ، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آياتهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ *﴾ [الجمعة :2] وهذا دليلٌ على أنَّ الحكمةَ تعني السُّنَّةَ، فمن حكمته عزَّ وجلّ أن يرسلَ الرسلَ الذين يختارُهم مِنَ البشر، كما قال الله عز وجل: ﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ

---

(1) مع الله ص (186).

(2) المصدر نفسه ص (186).

رَحِيمٌ *﴾ [التوبة :128] فيختار سبحانه من الرسل أفضلَ البشرِ ممّن لهم الكمالُ البشريُّ في علومهم وعقولهم وأفهامهم ومداركهم وقدراتهم، ليتمَّ بذلك البلاغُ، وتقومَ الحجةُ على الناس، ولهذا كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم بالمنزلةِ العظيمةِ التي يعرفُها كلُّ مَنْ قرأَ سيرته، وقد امتنَّ الله سبحانه على الناسِ ببعثته لهذا الرسول صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آياتهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ *﴾ [آل عمران: 164] فمن حكمة الله عزّ وجلّ أنْ بعثَ الرسلَ، وأنزلَ الكتبَ هدايةً للناس، وإقامةً للحجة[1].

- ومن معاني حكمةِ اللهِ عزّ وجلّ أنْ يلهِمَ بعضَ العبادِ الحكمةَ: كما قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ *﴾ [البقرة :269] فالله تعالى يؤتي الحكمةَ بعضَ عباده، فيعرفون كيفَ يحلّون المشكلاتِ، وكيف يخرجون من الملِمّات والأزمات، وكيفَ يتعاملون مع المواقف الصعبة، وكيف يضعون الأمورَ في مواضعها، والعالمُ الإسلاميُّ في أشدِّ الحاجةِ لمجلسِ حكماءٍ من الذين حنّكتهم التجاربُ، كي تستفيدَ الأمةُ من خبرتهم ومعرفتهم وتوقعاتهم، حتّى لا يخبطَ المسلمون خبطَ عشواء، ولا يقعوا ضحيةَ المفاجات والأزمات وهم لا يشعرون[2].

وأمّا «الحَكَمُ» فهو مَنْ له الحكمُ والسلطانُ والقَدَرُ، فلا يقعُ شيءٌ إلاّ بإذنه، وهوالمدبِّر المتصرِّفُ ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ *﴾ [الرحمن :29] .

---

[1] مع الله ص (187).

[2] المصدر نفسه ص (187).

«والحكم» أيضاً من له التشريعُ والتحليلُ والتحريمُ، فالحكْمُ ما شرعَ، والدِّينُ ما أمرَ ونهى، لا معقّبَ لحُكمِهِ، ولا رادَّ لقضائِهِ، فاجتمع القَدَرُ والشَّرْعُ ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ [الاعراف :54] .

وحين نقولُ: اللهُ أحكمُ الحاكمين، واللهُ خيرُ الحاكمين، فإنّ ذلك تأكيدٌ على عدلهِ ورحمتهِ، ووضعِهِ الأشياءَ في مواضِعها، فليسَ في قَدَرِهِ ظلمٌ ولا تعسّفٌ، وليس في شرعِهِ مُحاباةٌ ولا تحيُّزٌ، بل هو حِفْظٌ لحقوقِ الحاكمِ والمحكومِ، والرَّجُلِ والمرأةِ، والبَرِّ والفاجرِ، والمسلمِ والكافرِ، والقويِّ والضعيف، وفي كلِّ الأحوال حَرباً وسِلْماً، وعلى كلِّ أحدٍ دون استثناء، ولذا وجبَ على كلِّ مسلمٍ تحكيمُ كتابهُ، وسنّةُ نبيه صلى الله عليه وسلم، في دقيقِ أمورِهِ وجلِّها، على الصعيد الفردي، والجماعي، والأُسري، والخاصّ، والعام، والسياسة، والاقتصاد، والاجتماع، والإعلام، وكلِّ شيء[1].

4 . ربطها بالإيمان:

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً *﴾ [النساء :59] وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا *﴾ [النساء :60] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *﴾ [النور :51] .

5 . ربطها بالإسلام:

---

[1] المصدر نفسه ص (188).

والإسلامُ أساسُه الاستسلامُ لله، والانقيادُ له بالطاعةِ والخلوصِ من الشرك[1]. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: 125] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخرة مِنَ الْخَاسِرِينَ *﴾ [آل عمران: 85] وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ *﴾ [النحل: 89] .

6 . ربطها بالشهادتين:

أمّا شهادةُ (أن لا إله إلا الله)، فقد سبقَ في أدلّةِ توحيد العبادة ما يبيّنُ ذلك.

وأما شهادة (أن محمداً رسول الله) فقال تعالى: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا*﴾ [النساء: 65] وقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: 7] وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ *﴾ [آل عمران: 31 . 32] .

7 . طاعةُ غيرِ اللهِ والإعراضُ عنه كفرٌ وشركٌ:

قال تعالى: ﴿وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا *﴾[الكهف: 26] وقال تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ *﴾[الأنعام: 121] وقال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ *﴾[المائدة: 50] فهذه الأدلة جاءت كنماذج، وإلاّ فهي كثيرةٌ جدّاً، تبيّنُ مدى ارتباطِ تحكيمِ الشريعة بالإيمانِ بالله عزَّ وجلّ.

---

[1] الحكم بغير ما أنزل الله د. عبد الرحمن المحمود ص (22 . 27).

تاسعاً: الآثارُ الحسنةُ للحُكْمِ بما أنزل الله تعالى:

1 . الاستخلافُ والتمكين:

إذا أقامَ العبادُ دينَ الله تعالى، وخلصَ لله تحاكمُهم في السرِّ والعلانية، فإنّ الله سبحانه يقوّيهم، ويشدُّ مِنْ أزرِهم، حتى يستخلفَهم في الأرضِ كما استخلفَ الذين من قبلهم، ومكّن لهم، وهي سنةٌ إلهيةٌ ماضيةٌ، نجدُها في قصصٍ شتّى في كتاب الله تعالى.

فهذا يوسف عليه السلام صار من أهلِ الاستخلاف والتمكين، بعدَ أن ابتُلي فأبلى بلاءً حسناً، وظهرَ أنّه كان من المحسنين، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ*﴾ [يوسف: 56] .

وهذا موسى عليه السلام كان حريصاً على أن يُظهِرَ لقومه هذه السنة الماضية، عندما خافوا بطشَ فرعون وقومه، فقال له: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ *﴾ [الاعراف: 128] أي: العاقبةُ الحسنةُ ستكونُ لكم بإرثِ الأرضِ شريطةَ أن تكونوا مِنَ المتقين بإقامةِ شرعِ اللهِ في الأرض[1].

ولما استبطؤوا العاقبة، واستأخروا النصر، نبّههم موسى عليه السلام إلى سُنّةِ الاستخلافِ ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ *﴾ [الاعراف: 129] .

ثم أنجزَ الله عزّ وجل لهم ما وعد، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي

[1] تفسير المنار (9 / 81).

إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ *﴾ [الاعراف:137] .

وبعد وراثةِ الأرضِ، والاستخلافِ فيها، منَّ اللهُ عليهم بالتمكين، فقال سبحانه: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ *وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ *﴾ [القصص :5 . 6] .

وعد الله تعالى المؤمنين من هذه الأمة بما وعد به المؤمنين من قبلهم:

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ *﴾ [النور :55] فإذا حقّقَ الناسُ الإيمان، وتحاكموا إلى شريعة الرحمن، فستأتيهم ثمرةُ ذلك، وأثرهُ الباقي فهي مقدّماتٌ ونتائجُ أعمالٍ ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾، فتحقيقُ التحاكمِ إلى اللهِ يتحقّقُ به الاستخلافُ، وتحقيقُ الحكم به يوصِلُ إلى التمكين[1].

إنَّ وقائع التاريخ الإسلامي تصدّقُ هذا الوعد الإلهي للأمة بالنصر والتمكين إذا أقامت شرعه، فليست هناك مِنْ جولاتٍ للمسلمين انتصروا فيها على أعدائهم، وتقدّموا في شؤون دنياهم، إلا وكانَ واقعُهم شاهداً على تمكينِ القرآن الكريم منهم اعتقاداً وعملاً[2].

---

[1] الحكم والتحاكم في خطاب الوحي د. عبد العزيز مصطفى (1 / 673).

[2] هجر القران العظيم أنواعه وأحكامه د. محمود الدوسري ص (627).

2. الأمن والاستقرار:

ضَمِنَ الله عزّ وجلّ لأهل الإيمان والعمل بشرعه وحكمه أنْ يُحقّقَ لهم الأمنَ الذي ينشدون إذا استقاموا على التوحيد، ونبذوا الشرك بأنواعه، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ *﴾ [الانعام: 82] ولا يُتَصَوَّرُ تحقيقُ أمةٍ الإخلاصَ في العبودية، والخلوصَ من الشرك، وبالتالي الشعور بالأمنِ والاستقرار إلاّ بإقامةِ شرع الله كاملاً غيرَ منقوص، وإلاّ فإنَّ الأممَ المنحرفةَ عن شرعِ اللهِ، يُحيطُ بها الخوف والقلق من جميع جوانبها، لأنّ الأمنَ والأمانَ قد سُلِبَ، قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ *أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحىً وَهُمْ يَلْعَبُونَ *أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ *أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ *﴾ [الاعراف: 79 . 100] في حين أنّ الله امتنَّ على المؤمنين بالأمن في مظنَّة الخوف لما انقادوا لحكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا *﴾ [الفتح: 4] والسكينةُ هي الطمأنينةُ، والذين أَنْزَلَ عليهم السكينةَ هم الصحابةُ رضي الله عنهم يومَ الحديبيّةِ، الذين استجابوا لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وانقادوا لحكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم[1].

---

[1] هجر القران العظيم ص(628).

وإذا امتثل الناسُ شرعَ الله، وطبّقوا أحكامه، ضَمِنوا الأمنَ التام في أموالهم وأعراضهم ودمائهم، فما مِنْ حَدٍّ من الحدودِ، ولا شِرْعَةٍ من الشرائع إلا وتُحْفَظُ بسببها ضرورةٌ من الضروراتِ الخمس: الدين، والنفس، والعقل، والعرض، والمال[1].

وقوانينُ البشرِ الوضعيةِ لا تُحرِزُ أمناً، ولا توفّر استقراراً، إذا ما قورنت بالتشريعات الإسلامية، فالدولُ قديماً وحديثاً تنفِقُ الأموالَ الطائلةَ، وترصُدُ الميزانيات الهائلة لتأمينِ الداخلِ، ومع ذلك لا يحصلُ للناس مِنَ الأمانِ عُشْرُ معشارِ ما يُمْكِنُهم تحصيله لو أنّهم أقاموا حَدًّا من حدودِ الله تعالى كحدِّ السرقة مثلاً[2].

3 ـ النصر والفتح:

قال تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ *﴾ [الحج: 40 ـ 41] والمعنى: لينصرَّنَّ الله عزّ وجلّ مَنْ ينصرُ دينه، ومَنْ ينصرُ أولياءَه، وينتصِرُ لشرعِهِ في الأولين والآخرين، كما نصرَ المهاجرينَ والأنصارَ على صناديد العرب، وأكاسرة العجم، وقياصرة الرُّوم، وأورثهم أرضَهم وديارَهم[3].

وسنة الله تعالى ماضيةٌ في نَصْرِ مَنْ ينصرُ دينه، كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ *﴾[محمد: 7] وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ *﴾ [الروم: 47] ولهذا فإنّ حالَ الأمةِ من النَّصر والعزَّة أو عدمِها يُعْتَبَرُ مقياساً دقيقاً، وميزاناً للحُكم على مقدار امتثالها ـ رُعاة ورعيَّة ـ لشريعة الله ظاهِراً وباطِناً، فبالاستجابةُ

---

(1) المصدر السابق ص (628).

(2) المصدر السابق ص (629).

(3) روح المعاني للألوسي (17 / 164).

للشريعةِ يُسْتَجْلَبُ الفتحُ، ويُسْتَنْزَلُ النصرُ، وتُسْتَفْتَحُ الأرضُ[1].

4 . العزُّ والشَّرفُ:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ *﴾ [الانبياء :10] أي فيه شرفُكم وصِيْتُكم، وقال تعالى في آخر الآية: ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ *﴾ والاستفهامُ للتوبيخِ، والمعنى أفلا تعقلونَ ما فُضِّلتم به على غيركم[2].

فهذه الأمةُ لا تستمِّدُ الشرفَ والعزّةَ إلا منِ استمساكها بدينها، وتطبيقها لأحكام الشريعة في جميع نواحي الحياة، كما قال عمر رضي الله عنه إنّا كُنّا أذلَّ قومٍ، ما أعزَّنا اللهُ إلاّ بالإسلامِ، فمهما نطلبُ العزَّ بغيرِ ما أعزَّنا اللهُ به أذَّلنا اللهُ[3].

فهناك ارتباطٌ وثيقٌ بين حالِ الأمةِ الإسلاميةِ عزًّا وذلاًّ مع موقفها من تطبيق الشريعة إقبالاً وإدباراً، فما عزّتْ في يومٍ بغير دينِ اللهِ، وما ذلّت في يومٍ إلا بالانحراف عنه[4].

ومَنْ أراد العزَّةَ فليتعزّزْ بطاعةِ الله تعالى، لأنَّ مصدَرها مِنَ الله تعالى، فليطلبْها مِنْ مصدرِها، كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر :10] وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ *﴾ [المنافقون :8] وهذه العزّةُ كما كانت للمؤمنين السابقين فهي كذلك للاحقين، شريطةَ أن يقتفوا أثرهم في

---

[1] هجر القران العظيم (630).

[2] زاد المسير لابن الجوزي (5 / 3419).

[3] أخرجه الحاكم في مستدركه ، كتاب: الإيمان ، (1 / 130) رقم (207). وقال: صحيح على شرطهما ، ووافقه الذهبي.

[4] هجر القران العظيم ص (631).

تعظيم حرماتِ اللهِ، وتطبيقِ شرعه، والاعتزازِ بدينه[1].

5 . بركةُ العيش ورغدُه:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ *﴾ [الاعراف :96] فالآية الكريمةُ تَعِدُ المؤمنين المستجيبين لشرع الله بالبركاتِ متى ما حقّقوا معنى الإيمانِ والتقوى، والطريقُ إلى بركات السماء والأرض الاستجابةُ للهِ ورسولِه صلى الله عليه وسلم، وإقامةُ شريعته، حتى ينالوا هذا المطلب النفسي[2].

6 . الهدايةُ والتثبيتُ:

قال تعالى: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا *وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا *وَإِذًا لآَتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا *وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا *﴾ [النساء :65 . 68] والأمر الذي وُعظوا به، ووُعدوا الخيرَ لأجله، هو تحكيمُ الشريعةِ، والانقيادُ التامُّ للرسولِ صلى الله عليه وسلم، فلو أنّهم امتثلوا ما أُمِروا به، لثبّتَ الله تعالى أقدامهم على الحق، فلا يضطربون في أمر دينهم[3].

7 . الفلاحُ والفوزُ:

---

[1] المصدر السابق ص (631).

[2] هجر القران العظيم ص (632).

[3] فتح القدير للشوكاني (1 / 732).

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ ورَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ *﴾ [النور: 51. 52] فقد جمعت هذه الآية الكريمةُ أسبابَ الفوزِ في الدنيا والآخرة، وهي: طاعةُ اللهِ ورسولِهِ صلى الله عليه وسلم، وخشيةُ اللهِ وتقواه[1].

8. المغفرةُ وتكفيرُ السيئاتِ:

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لاَ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلاَ يَسْرِقْنَ وَلاَ يَزْنِينَ وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلاَدَهُنَّ وَلاَ يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *﴾ [الممتحنة: 12] فقد أمرَ الله تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم أن يستغفرَ للمؤمناتِ إذا هنَّ بايعنَه على السمعِ والطاعةِ، والرّضى بحكمِ اللهِ ورسولِهِ صلى الله عليه وسلم، وقد جاء الحديثُ على أنّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ للمبايعات إذا هُنَّ وفينَ ببيعتهنَّ[2].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال وحولَه عِصَابةٌ من أصحابه: «بايعوني على ألاّ تشركوا باللهِ شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادَكم، ولا تأتوا ببهتانٍ تفترونه بينَ أيديكم وأرجلكم، ولا تَعْصُوا في معروفٍ، فمن وفّي مِنْكُم فأجرُهُ على الله، .ومَنْ أصابَ مِنْ ذلكَ شيئاً فعُوقِبَ في الدنيا، فهو كفارةٌ له، ومَنْ أصابَ مِنْ ذلكَ شيئاً، ثم ستره فهو إلى اللهِ، إنْ شاءَ عفا عنه، وإن شاءَ عاقبه»[3].

---

(1) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (18 / 221).

(2) هجر القران العظيم ص (637).

(3) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب ، الحديث (18) ومسلم في صحيحه ، كتاب: الحدود ، باب الحدود كفارات لأهلها (1709).

فقد كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يبايعُ المؤمنين والمؤمنات على أمورٍ هي في مضمونها إثباتٌ لموقف التحاكم إلى الشريعة، والخضوعِ لها، وهذه البيعةُ كانت على الامتثال لسائرِ شرائعِ الإسلام، وما لم يذكر في هذه المبايعةِ كالصلاة، والزكاةِ، وسائرِ أركان الدين وشعائرِ الإسلام لوضوحِ أمرِه واشتهارِه.

إنّ تحكيمَ الشريعة مظنةُ توبةِ التائبين في الدنيا، وقبولُ هذه التوبة في الآخرة بالمغفرة ومحو السيئات.

9. مرافقةُ النبيينَ والصّدّيقينَ في الجنة:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا *ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا *﴾ [النساء: 69 . 70]. سمّى الله تبارك وتعالى التحاكُمَ إلى الله والرسول صلى الله عليه وسلم طاعة، وجعل عاقبتهما معيةً كريمةً ومُقاماً كريماً في صحبةٍ كريمةٍ في جوارِ اللهِ الكريمِ، وحَقٌّ لمن أقام هذا التحاكُمَ على ما يريدُ الله تعالى، أن يرقى صُعُداً مع هذه الصحبة المباركة في الفردوس الأعلَى، لأنَّ النبيين والصّدّيقين والشهداءَ والصالحين هم خيرُ من أطاعَ الله تعالى ظاهراً وباطناً وأقامَ شريعته ووحّده، فمَنْ حذا حذوهم حُشِرَ معهم، وصحبهم في الفردوس الأعلى من الجنة، وهو طريقٌ مفتوحٌ لكلِّ منِ اقتدى بهم ظاهراً وباطناً[1].

عاشراً: الآثار السيئة للحكم بغير ما أنزل الله تعالى:

إنَّ للحكمِ بغيرِ ما أنزلَ اللهُ اثاراً دنيويةً وأخرويةً سيئةً، تبدو على الحياةِ في وجهتها الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، تصيبُ بشررِها محاسنَها، وتشوّه معالمها،

[1] هجر القران العظيم ص (636 . 639).

وبذلك تتحوّل الحياةُ إلى فتنةٍ في الدنيا والآخرة، فالله عزَّ وجلَّ حذّرنا من مخالفة الأوامرِ الشرعيّة في قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ *﴾ [النور: 63] أي: فليحذرْ وليخشَ من خالفَ شريعةَ الرسولِ صلى الله عليه وسلم باطناً أو ظاهراً أي: في قلوبهم من كفرٍ أو نفاقٍ أو بدعةٍ أي: في الدنيا ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ *﴾، أو حَدٍّ، أو حبسٍ، أو نحو ذلك[1].

إن المجتمعاتِ والشعوبَ التي تُسلِمُ قيادتها للحكام الذي يحكمونها بغير شريعةِ اللهِ تدفعُ ضريبةَ التخلّي عن الحكم بما أنزل الله من أموالِها وأعراضِها وعقولِ أبنائها، وغير ذلك من ثرواتها الأدبيّةِ والماديّةِ، ذلك إلى جانب ما يجرُّه التَّخلّي عن الحكمِ بما أنزل الله من الجوعِ والخوفِ وضنكِ العيش، وغضبِ اللهِ في الدنيا والآخرة[2].

وإليك بعض الاثار المترتبة على الحكم بغير ما أنزل الله في الدارين:

1 . قسوة القلب:

قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: 13] فهم لما نقضوا ميثاقَ اللهِ على السّمعِ والطاعةِ، وساءَ تصرُّفهم في آيات اللهِ، وتأوّلوا كتابَ الله على غيرِ ما أنزله، وحملوه على غيرِ مراده، وقالوا عليه ما لم يقل، ثم تركوا العملَ بهِ رغبةً عنه، جعلَ الله قلوبهم قاسيةً، فلا يتّعظون بمواعظه لغلظِ قلوبهم وقساوتها، وهذا من أعظم العقوباتِ التي

(1) المصدر السابق ص (642).

(2) الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (2 / 705 . 710).

يُخْذَلُ بها القلب، ويُمنعُ الألطاف الربانية، ولا يزيدُه الهدى والخيرُ إلا شرّاً[1]. وهكذا الشأنُ في كلِّ من عدلَ عن شرعِ اللهِ، مُحكِّماً عقله وهواه، فجزاؤه أن يُطبعَ على قلبه قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ *﴾ [الجاثية: 23] ..

2. الضلالُ عنِ الحقِّ:

قال تعالى: ﴿يَادَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ *﴾ [ص: 26] ومعلومٌ أنَّ نبيَّ الله داود عليه السلام[2] لا يحكمُ بغيرِ الحقِّ، ولا يتّبع الهوى فيضله عن سبيل الله، ولكنَّ الله تعالى يأمُرُ أنبياءَه عليهم السلام، وينهاهم، ليُشرّعِوا لأممهم[3].

وقد جاء التحذيرُ الصريحُ من خطورةِ اتّباع الأهواء، وتقديمها على أحكام الله تعالى، وأنّه ليس لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ أن يكونُ له اختيارٌ عند حكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فما أمرَ الله هو المتّبعُ، وما أرادَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم هو الحقُّ، ومن خالفهما في شيءٍ فقد ضلَّ ضلالاً مبيناً، لأنَّ الله تعالى هو المقصد، والنبيَّ صلى الله عليه وسلم هو الهادي الموصل، فمن ترك المقصِد، ولم يسمع قول الهادي، فهو ضالٌّ قطعاً[4]، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُبِيناً *﴾ [الاحزاب: 36]

---

[1] هجر القران العظيم ص (643).
[2] المصدر نفسه ص (643).
[3] أضواء البيان (7 / 28).
[4] التفسير الكبير (25 / 183).

3. الوقوع في النفاق:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا *فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَاناً وَتَوْفِيقًا *﴾ [النساء :61 . 62] يُبتلَى بالنفاقِ مَنْ يضمِرون الكراهيةَ لشرعِ الله تعالى، حتى تصيرَ قلوبُهم مريضةً بهذا النفاقِ، فيحاولون جهدَهم أن يُخفوا نفاقَهم، ظانّين أنَّ ذلك أمرٌ ممكن، ولكنْ يأبَى اللهُ تعالى إلاّ أن يفضحَ المنافقين بفلتات ألسنتهم، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ * وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ *﴾[محمد: 29 . 30] و(الأضغانُ): جمعُ ضِغنٍ، وهو ما في النفوسِ من الحَسَدِ، والحِقْدِ، والعداوةِ للإسلامِ وأهلِهِ، القائمين بنصرِهِ[1]و(لحن القول): ما يبدو من كلامهم الدّالِّ على مقاصِدهم بالتعريض أو التورية.

إنّ شأنَ المنافقين الدائم هو الاستهزاءُ بالشريعة وحملتِها، والإعراضُ عمّا أنزل الله تعالى، والصدُّ عن سبيله، وقد كانوا يُشفقون من افتضاح نفاقهم بهذا الاستهزاء والإعراض، حتّى قال قائلهم: واللهِ لوددتُ أنِّي قُدِّمتُ فجُلدتُ مئةً، ولا ينزل فينا شيءٌ يفضحنا، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِم قُلِ اسْتَهْزِؤُواْ إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لاَ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ *﴾ [التوبة: 64 . 66] .

---

[1] هجر القران العظيم ص (645).

4 . الحرمان من التوبة:

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخرة عَذَابٌ عَظِيمٌ *﴾ [المائدة: 41] نزلت هذه الآية الكريمةُ في المسارعين في الكفر، الخارجين عن طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم المقدِّمين آراءَهم وأهواءَهم على شرائع الله عز وجل أي: أظهروا الإيمان ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾، وقلوبُهم خرابٌ، خاويةٌ منه، وهؤلاء المنافقون أعداء الإسلام وأهله والجريمة التي اقترفها هؤلاء هي انحرافهم عن شريعة الإسلام بتبعيضها تارة، وأخرى بتحريفها حسب أهوائهم وشهواتهم، ومصالحهم الدنيئة، فجاءت عقوبتهم متلائمة مع فظاعة جرمهم، الحرمان من التوبة (أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم) أي: إن الله تعالى حتم عليهم ألا يتوبوا من ضلالهم وكفرهم، فلم يرد الله أن يطهر من دنس الكفر ووسخ الشرك قلوبهم بطهارة الإسلام فيتوبوا[1].

ودلّت الآية الكريمةُ على أنّ مَنْ كان مقصودُه بالتحاكم إلى الحُكم الشرعي اتّباعَ هواه، وأنّه إنْ حُكِمَ له رضيَ، وإن لم يُحْكَمْ له سَخِطَ، فإنَّ ذلك مِنْ عدمِ طهارةِ قلبه، كما أنَّ مَنْ حاكمَ أو تحاكمَ إلى الشرعِ، ورضيَ به، وافقَ هواه أو خالفَه، فإنّه من طهارةِ القلبِ.

---

[1] تفسير الطبري (209/4) هجر القرآن العظيم ص (647).

ودلَّت أيضاً: على أنَّ طهارةَ القلبِ سببٌ لكلِّ خيرٍ، وهي أكبرُ داعٍ إلى كلِّ قولٍ رشيدٍ، وعملٍ سديدٍ[1].

كما دلّت على الخزي لليهود والمنافقين، فبالإضافة لعدم طهارةِ قلوبهم فإنَّ هناك خزياً يلاحِقُهم، ويحيطُ بهم من جميع الجهات، قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ اليهودِ: فضيحتُهم بظهورِ كذبهم في كتمان نصِّ الله تعالى في إيجابِ الرجم، وأخذ الجزية منهم، وخزي المنافقين: هتكُ أستارِهم باطّلاع الرسول صلى الله عليه وسلم على كذبهم وخوفهم من القتل[2].

5 . الصَّدُّ عن سبيلِ اللهِ:

قال تعالى: ﴿اشْتَرَوْا بِآيات اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *﴾ [التوبة :9] فهذا حديثُ القرآن الكريم عن مشركي العرب الذين اعتاضوا عن اتّباع شرع الله، بما اهتموا به من أمور الدنيا الخسيسة، صادّين الناسَ عن الإسلام.

وهناك صنفان متقابلان من أهل الكتاب، تحدّث القرآن الكريم عنهم في قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا *وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا *لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُولَئِكَ

---

[1] تفسير السعدي (1 / 485).

[2] الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (2 / 718).

سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا *﴾ [النساء: 160 . 162] فريقٌ توعّدهم الله تعالى بالعذابِ الأليم، لتعاطيهم الرّشوة على الحكم، فصدّوا الناسَ عن الدِّين، إضافةً إلى أكلهم الرِّبا، وأموال الناس بالباطل، وفي مقابلهم فريقٌ استحقّوا الاجرَ العظيم، لإيمانهم بالشريعة المنزَّلة، ثم إيمانهم بالشريعة الحقّة الناسخة، فكانوا مثلاً يُقتدى بهم[1].

ولهذا الارتباط الوثيق بين الانحراف عن شرع الله والصَّدِّ عن دينه، استحقَّ الصَّادون عن سبيلِهِ اللعنةَ والطردَ من رحمته، قال تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ* الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: 44–45]

6 . غيابُ الأمن وانتشارُ الفوضى:

قال تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى *أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى *﴾ [العلق: 6 . 7] والطغيانُ هو الصفةُ السائدةُ في الإنسانِ عندما يكونُ في معزلٍ عن شرح الرحمن، ولو تأمّلنا وصفَ القرآن الكريم للإنسان بمعزلٍ عن الإيمان، لوجدناه عجباً، فهو ضعيفٌ أمام المغريات، ونسيٌّ للإحسان، وظلومٌ في الحقوق، وكَفَّارٌ للنعم، ومجادِلٌ بالحق أو الباطل، وعجولٌ متسرّعٌ، وناكرٌ للفضلِ، وبخيلٌ بما عنده، وشديدٌ في الخصومةِ، وشَرِهٌ في جلبِ الخير لنفسِه،وقنوطٌ إذا عجزَ عن جلبِ هذا الخير، وهَلِعٌ جَزِعٌ إذا أصيبَ بضُرٍّ، أو أَلَمَّ به شَرٌّ، وهو ضانٌّ بالخيرِ إذا تحصّل عليه، ولا يمكن أن تواجه وتعالج وتهذّب طباعُ هذا المخلوقِ إلا بشريعةٍ مِنْ عندِ خالقِهِ:

---

[1] هجر القران العظيم ص (649).

﴿أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ *﴾ [الملك :14] وكيف نتخيَّلُ مجتمعنا يُتْرَكُ فيه الإنسانُ كالوحش الضاري، أو السَّبعِ الكاسر، دونما شريعةٍ تطهِّر قلبه وجوارحه[1].

إنَّ تحقيقَ الأمنِ في المجتمعاتِ مرتبطٌ بتطبيق شرع الله، فقد خَصَّ اللهُ عزَّ وجلَّ مَنْ طبّق شرعَهُ، وحقَّقَ شريعتَه بالأمن، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ *﴾ [الانعام :82] والمتأمِّلُ في حالِ المجتمعاتِ غير المحكومة بحكمة الشريعة، وضبطها للأمور يرى كثرةَ القتلِ والاغتصابِ، واستباحةَ الأموالِ بكلِّ الطرق والأشكالِ، وانتشارَ الفواحشِ والزنا والفجورِ والخَنا، والآدمانِ، واللصوصيةِ، والجاسوسيّةِ، والتحاسدِ، والشُّحِّ، والبخلِ، والجهلِ، والظُّلمِ، وهذا كلُّه من مظاهر غياب الأمن المرتبط بتحكيم شرع الله.

7. انتشارُ العداوةِ والبغضاءِ:

قال تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [المائدة :64] .

فاليهودُ لما خالفوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وكذَّبوه، ولم ينقادوا لشريعته، أخبر الله عزّ وجلّ أنَّ قلوبهم لا تجتمع، بل العداوةُ واقعةٌ بينهم دائماً، لأنهم خالفوا شريعة الحقّ[2].

---

[1] المصدر نفسه ص (650).

[2] هجر القران العظيم ص (653).

والنصارى بتركهم بعضَ ما ذُكِّروا به من شريعتهم، ثم تكبُّرِهم عن اتّباع النبيِّ صلى الله عليه وسلم كانت عاقبتُهم كعاقبةِ إخوانهم اليهود، قال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ *﴾ [المائدة :14] .

والأمةُ الإسلامية وعظها الله تعالى بالعداوةِ الملقاةِ فميا بين طوائف اليهود والنصارى، حتّى لا تقعَ فيما وقعوا فيه، فالرعيةُ تُلقى بينهم العداوات إذا رغبتْ عن شرعِ اللهِ، فمتى تركَ الناسُ بعضَ ما أمرهم الله به، وقعتْ بينهم العداوةُ والبغضاءُ، وإذا تفرّقَ القومُ فسدوا وهلكوا، وإذا اجتمعوا صلحوا وملكوا[1].

وإذا خرجَ ولاةُ الأمورِ عن الحكمِ بين الناس بالكتاب والسنة، فقد حكموا بغير ما أنزلَ الله، ووقع بأسهم بينهم، وهذا مِنْ أعظمِ أسباب تغيير الدول[2].

وقد تعوّذَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم من مغبةِ تركِ الحكم ما أنزل الله، وعدَّ ذلك من أعظم أسبابِ وقوعِ العداوةِ والبغضاءِ بين المسلمين[3]، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أقبل علينا رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فقال: «يا معشرَ المهاجرين، خمسٌ إذا ابتليتُم بهنَّ وأعوذُ بالله أن تُدركوهنَّ ... وما لم تحكم أئمتُهم بكتابِ الله ويتخيّروا مِما أنزلَ الله، إلا جعلَ الله بأسهم بينهم»[4].

---

(1) مجموع الفتاوى (3 / 421).

(2) المصدر نفسه (35 / 388).

(3) هجر القران العظيم ص (656).

(4) أخرجه ابن ماجه في سننه ، كتاب: الفتن ، باب: العقوبات (4019) ، وأبو نعيم في الحلية 3/ 220 و8/ 333 . 334 والحاكم 4/ 540 وإسناده حسن.

8. الحرمانُ من النصر والتمكين:

قال تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ *﴾ [آل عمران: 160] وليس شيءٌ أدعى للخذلانِ والحرمانِ من النصر والتمكين مثل هجر التحاكم إلى شريعة الله تعالى، وعدم نصرِها في الأرض، ويُعتبر ذلك إخلالاً بشرط النصر المنصوص عليه في آيات كثيرة من كتاب الله، كما قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ *﴾ [محمد: 7] والمعنى: إنْ تنصروا دينَ اللهِ وشريعتهَ بالعملِ بها وتعظيمِها ينصرْكُمُ الله على أنفسكم، وعلى أعدائكم من شياطين الجنّ والإنس، فإنَّ الجزاءَ من جنس العمل[1].

وقد نصَّ القرآن الكريم على كيفية نصر الدين والشريعة في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ *﴾ [الحج: 41] والآية الكريمةُ تدلُّ على أنَّ الذين لا يقيمون الصلاة، ولا يؤتون الزكاة، ولا يأمرون بالمعروف، ولا ينهون عن المنكر، ليس لهم وعدٌ مِنَ اللهِ بالنصرِ البتةَ... فالذين يرتكبون جميع المعاصي ممّن يتسمّون باسم المسلمين، ثم يقولون: (إن الله سينصرنا) مغرورون، لأنّهم ليسوا من حزبِ اللهِ، الموعودين بنصره، كما لا يخفى.

ومعنى نصرُ المؤمنين لله، نصرُهم لدينه ولكتابه، وسعيهم وجهادُهم في أن تكونَ كلمتُه هي العليا، وأن تقامَ حدودُه في أرضه، وتُمْتَثَلَ أوامرُه، وتُجْتَنَبَ نواهيه، ويُحْكَمَ في عبادِه بما أنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم[2].

---

[1] تفسير ابن كثير (4/ 175) ، هجر القران العظيم ص (656).

[2] المصدر السابق ص (657).

9. هولُ العقابِ الذي ينتظرُ المبدّلين لشرعِهِ:

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَا أَنْزَلَ اللهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلاَلاً قُلْ آَللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ * وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ *﴾ [النساء: 59 ـ 60]

ففي هذه الآيات الكريمة أنكرَ الله تعالى على مَنْ حرّمَ ما أحلَّ الله، أو أحلَّ ما حرَّم الله، بمجرّد الاراءِ والأهواء، التي لا مستندَ لها، ولا دليلَ عليها، ثم توعّدهم على ذلك يومَ القيامة فقال: أي: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ظنُّهم أنْ يُصنعَ بهم يومَ مرجعهم إلينا يومَ القيامة[1]؟ فهذا استفهامٌ يرادُ منه تهويلُ وتفظيعُ العقابِ الأليم، الذي ينتظِرُ المفترين المتقوّلين على الله، المبدّلين لشرعه، ولذا نُكّرَ وأُبهم، فمصيرُهم هو أسوأُ المصير، وعقابُهم أوخمُ العقاب[2]. وصيغة الغائب تشمل جنسَ الذين يفترون على الله الكذبَ، وتنتظمهم جميعاً، فما ظنُّهم يا تُرى؟ ما الذي يتصوّرون أن يكونَ في شأنهم يومَ القيامة؟ وهو سؤالٌ تذوبُ أمامَه حتى الجبالَ الصلدةَ الجاسية[3].

10. الإهانة عند قبض الأرواح:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ *ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ *فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ

---

[1] تفسير ابن كثير (4/ 290) ، هجر القران العظيم ص (658).
[2] تفسير أبي السعود (4/ 157) ، هجر القران العظيم ص (658).
[3] في ظلال القران (3 / 1802).

*ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ *﴾ [محمد :25 . 28]

هذه الآيات الكريماتُ تهدِّدُ وتتوعّدُ نوعاً من المنحرفين عمَّا أنزل الله تعالى، وهم الذين يطيعون أعداءَ الله ـ كاليهود والنصارى ـ في بعضِ ما يأمرون به، والآيات تصفهم بالردّة بسبب ذلك الفعل، وتتوعّدهم بمصيرٍ مظلمٍ، وعذابٍ مؤلمٍ، يبدأ معهم منذ اللحظات الأولى من مفارقة الدنيا[1]. أي: كيف حالهم إذا جاءتهم الملائكةُ لقبض أرواحهم، وتعصّت الأرواحُ في أجسادهم، واستخرجها الملائكةُ بالعنفِ والقهرِ والضربِ[2].

وقال سبحانه في نوعٍ آخر من المنحرفين عن شرعه المنزل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ *﴾ [الانعام :93] فالآية تحكي أحوالَ هؤلاءِ عندَ معاينةِ الموتِ، والخروجِ من الدنيا أي: شدائده وسكراته بالعذابِ ومطارقِ الحديد لقبض أرواحهم أي: أخرجوا أرواحكم من ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، أي هاتوا أرواحكم، والأمرُ للإهانةِ والإرهاقِ، إغلاظاً في قبضِ أرواحِهم، ولا يتركون لهم راحةً، ولا يعاملونهم بلينٍ، وفيه إشارةٌ إلى أنّهم يجزعون، فلا يلفظون أرواحهم، وهو على هذا الوجه وعيدٌ بالالام عند النزع، جزاءً في الدنيا على

---

[1] تفسير القاسمي (6 / 259) ، تفسير الطبري (26 / 60).

[2] تفسير ابن كثير (7 / 323).

شركهم[1]. أي: الهوَان أي: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آياتهِ تَسْتَكْبِرُونَ *﴾، وتأنفون عن قبول ما أنزله الله في آياته[2].

11. الأكلُ من النار، وغضبُ الجبار:

قال العليم الخبير: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ *أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ *ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ *﴾ [البقرة: 174. 176].

بعد أن تحدّثتِ الآيات عن بعض أحكام الشريعة مثل تحريم أكلِ الميتةِ، والدمِ، ولحمِ الخنزيرِ، وما أُهلَّ لغيرِ الله به، توعّدت من يكتمون أحكامَ الشريعةِ مقابلَ ثمنٍ قليلٍ يأكلونه، لأنّ كتمانَ الشريعة يسلتزمُ أنواعاً من الانحراف عنها[3]، فهؤلاء الذين يكتمون الحقَّ المنزل، لقاءَ ثمنٍ رخيصٍ، إنّما يأتون حراماً، يعذّبهم الله عليه بنار جهنم، يأكلونها في بطونهم الجشعة، فهي نارٌ على الحقيقةِ، يأكلونها يومَ القيامة، جزاءَ ما اقترفوا من أكلِ الرشوةِ على الدين[4]، والذي هو أعظم من عذاب النار، غضبُ الله عليهم، وإعراضهُ عنهم أي: ﴿وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ﴾ يطهّرهم من الأخلاق الرَّديئةِ، إذ ليسَ لهم أعمالٌ تصلحُ للمدح والرِّضا والجزاء عليها، بل يعذّبهم

---

[1] التحرير والتنوير (6 / 223).
[2] تفسير القرطبي (7 / 43. 44).
[3] الحكم والتحكم في خطاب الوحي (2 / 764).
[4] تفسير القرطبي (2 / 239) ، تفسير السعدي (1 / 134).

عذاباً أليماً، لأنهم تركوا كتابَ الله، وأعرضوا عنه، وعن التحاكم إليه في الدنيا، واختاروا الضلالة على الهدى، والعذابَ على المغفرة[1].

12 . العذابُ المهينُ:

ذكر العزيزُ الحكيمُ جوانبَ من أحكامِ الشريعة في صدرِ سورةِ النساء، والمتمثّلة في بيان أموال اليتامى، وأحكامِ الأنكحةِ، وأحوالِ المواريثِ والوصايا، ثم ذكر بعدَ ذلك الوعد والوعيد، ترغيباً في الطاعة، وترهيباً من المعصية، فقال سبحانه: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *﴾ [النساء: 13] فهذا هو الوعدُ.

أما الوعيد فهو قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ *﴾[النساء: 14] فكلُّ من اعتدى على حدود اللهِ تعالى، مُكذِّباً أو جاحداً، أو مُبدِّلاً أو مبغضاً، فهو متوعَّدٌ بهذا العذاب المهين، لأنّه غيَّرَ ما حكمَ الله به، وضادَّ الله في حُكمِه، وهذا إنّما يصدر عن عدمِ الرّضا بما قسمَ الله، وحكمَ به، ولهذا يُجازيه الله بالإهانةِ في العذاب الأليم[2].

هذه هي أهم الآثار السيئة للحكم بغير ما أنزل الله، قال الشاعر (من الكامل):

والله ما خوفي الذنوبَ فإنّها ... لعلى طريقِ العفوِ والغفرانِ
لكنّما أخشى انسلاخَ القلبِ عن ... تحكيمِ هذا الوحيِ والقرآنِ

[1] هجر القران العظيم ص (662).
[2] المصدر نفسه ص (664).

حادي عشر ـ حماية الرسول صلى الله عليه وسلم لتوحيد العبادة:

بين رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا التوحيد أتمَّ بيانٍ، ودعا إليه أعظمَ دعوةٍ، وجُلُّ القرآن الكريم نزلَ ليقرِّرَ هذا النوعَ من التوحيد، ويدعو إليه، وجاهد رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم في ذلك أعظمَ جهادٍ، وقام على حمايتِهِ وصيانةِ حماه حتّى أتاهُ اليقين، بل إنّه وهو في الرمقِ الأخيرِ، وهو يعالِجُ نزعَ الروحِ يبيّنُ لأمته أهميةَ هذا التوحيد.

كما ربَّى أصحابه رضي الله عنهم على ذلك، ليكونوا جنوداً وحماةً لهذا التوحيد، ويسلّموا هذه الأمانة إلى مَنْ بعدهم صافيةً نقيةً، وقد كانوا كذلك رضي الله عنهم وأرضاهم.

وفيما يلي بعضُ الأمثلةِ على حماية رسول الله صلى الله عليه وسلم لهذا النوع من التوحيد، وبيانه، والنهي عن كل ما يضاده من شرك، أو بدعة، أو يكون وسيلة وذريعة إلى ذلك، وإن لم يكن في نفسِه شراً[1].

1 ـ النهي عن الغلو والإطراء:

حذَّر الرسولُ صلى الله عليه وسلم أُمّتَهُ من الغلوِّ، ونهاهم عن ذلك، وحذَّرهم منه، ومن إطرائه، أو تجاوز الحد في مدحه والثناء عليه، حمايةً لجانب التوحيد، فقال صلى الله عليه وسلم: «إيّاكُمْ والغلوَّ، فإنّه أهلكَ مَنْ كانَ قبلَكُم الغلوُّ»[2]، وسدَّ الذرائعَ

---

[1] حماية الرسول حمى التوحيد ص (287).

[2] أخرجه النسائي في سننه ، كتاب: مناسك الحج ، باب: التقاط الحصى (3057) ، وابن ماجه في سننه ، كتاب المناسك ، باب: قدر حصى الرمي (3029) بلفظ «إياكم والغلو في الدين ، فإنه أهلك من كان قبلكم الغلوُّ في الدين». قال الألباني في السلسلة الصحيحة (1283): صحيح.

الموصلة إليه، فنهى عن الإطراءِ، وقال صلى الله عليه وسلم: «لا تطروني كما أطرتِ النصارى ابنَ مريم، فإنما أنا عبدُه، فقولوا: عبدُ اللهِ ورسولُه»[1].

2 . زيارةُ القبورِ والنهيُ عن اتخاذِها مساجدَ:

بيّن رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم الغايةَ من زيارةِ القبورِ، والحكمةَ التي مِنْ أجلها شُرِعتْ زيارتُها، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فزوروا القبورَ، فإنَّها تذكّر الموتَ»[2].

ووضّحَ أيضاً أنَّ من الحكمةِ في زيارة القبور الدعاءَ للميّتِ، والاستغفارَ له، والترحُّمَ عليه[3].

وبين رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم كيفيةَ الزيارةِ الشرعيةِ للقبورِ بقوله وعمله، وعلّمها أصحابه، فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: أنّ جبريلَ عليه السلام أتى رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فقال: إنّ ربَّكَ يأمُرُكَ أن تأتِيَ أهلَ البقيعِ، فتستغفرَ لهم، قالتْ: قلتُ: كيف أقولُ لهم يا رسول الله؟ قال قولي: «السلامُ على أهلِ الديارِ من المؤمنينَ والمسلمينَ، ويرحمُ اللهُ المستقدِمينَ مِنَا والمستأخِرينَ، وإنّ شاءَ اللهُ بكم لاحقون»[4].

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: أحاديث الأنبياء ، باب: قول الله: {} [مريم: 16] {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيًّا *}

(2) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الجنائز ، باب: استئذان النبيّ ربَّه عزّ وجلّ في زياة قبر أمه (976).

(3) حماية الرسول حمى التوحيد ص (295).

(4) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الجنائز ، باب: ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها (974).

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نهى عن زيارة القبور أولَ الأمرِ، سدّاً للذريعة، ثم أذنَ فيها، حين تمكّن التوحيدُ في القلوب، وبيّنَ الزيارةَ المشروعة، وأمرَ بها، ونهى عن كلِّ ما يخالفها، وحذّر منها أشدَّ التحذير[1].

وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم قوله: «اللهمَّ لا تجعلْ قبرِي وثناً يُعْبَدُ»[2].

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحذِّرُ وينهَى أمته عن اتخاذِ قبرِه مسجداً؛ أو القبورِ مساجدَ، فعن أمِّ سلمة رضي الله عنها وأمِّ حبيبة رضي الله عنها ذكرتا لرسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم كنيسةً رأتها بأرضِ الحبشة، وما فيها من الصور، فقال: «أولئكَ قومٌ إذا ماتَ فيهم الرجلُ الصالحُ، أو العبدُ الصالحُ، بنوا على قبرِهِ مسجداً، وصوّروا فيه تلكَ الصورَ، أولئكَ شِرارُ الخَلْقِ عندَ الله»[3].

وكان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يقولُ في مرضِ موته: «لعنةُ اللهِ على اليهودِ والنصارى اتخذوا قبورَ أنبيائهم مساجدَ» يحذِّر ما صنعوا، ولولا ذلك لأبرزَ قبرُه[4].

وقد نهى رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أن يُبنى على القبورِ أو يُقْعَدَ عليها، أو يُصَلَّى عليها[5].

---

[1] حماية الرسول حمى التوحيد ص 296.

[2] أخرجه بهذا اللفظ مالك في موطئه ، كتاب: النداء للصلاة ، باب: جامع الصلاة ، (416) مرسلاً. وأخرجه أحمد في مسنده ، (2/ 246) بلفظ: «اللهم لا تجعل قبري وثناً».

[3] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الصلاة ، باب: الصلاة: في البيعة (424) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة ، باب: النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور (528).

[4] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الصلاة ، باب: الصلاة في البيعة (425) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة ، باب: النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور (529).

[5] رواه أبو يعلى في مسنده (2 / 66) ورجاله ثقات.

3 . الرُّقى والتمائم:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنّ الرُّقى والتمائمَ والتِوَلةَ شركٌ»[1].

والمقصودُ بالرقى غيرُ المشروعِ منها، وهي التي تسمّى العزائم، التي يعتقدون فيها دفعَ الافاتِ، والحفظَ من المكروهاتِ، وأمّا ما كان منها مِنَ المشروعِ والمأثورِ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يدخلُ في ذلك، لما جاء في الحديث عن عوف بن مالك رضي الله عنه قال: كنّا نرقي في الجاهلية، فقلنا: يا رسول الله! كيف ترى في ذلك؟ فقال: «اعرضوا عليَّ رقاكم، لا بأسَ بالرُّقى ما لم يكن فيه شرك»[2].

والرُّقى المشروعة هي التي توفّرت فيها شروط ثلاثةٌ:

1 . أن تكون بكلام الله، أو بأسمائه وصفاته.

2 . أن تكونَ باللّسان العربي [3]، وبمعانٍ معروفة.

3 . أن يعتقد أنَّ الرقية لا تؤثِّرُ بذاتها، بل بتقديرِ اللهِ عزّ وجلَّ.

أما التمائم: فهي جمعُ تميمةٍ، وهي: ما يعلَّقُ عادةً على الصبيان مِنْ خرزٍ أو عظامٍ أو جلدٍ، أو نحو ذلك، لاعتقادِ دفعِ العين عنهم، وقد نهى عنها رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم لما فيها من شركٍ، أو ذريعةٍ إليه[4].

---

[1] أخرجه أبو داود في سننه ، كتاب: الطب ، باب: في تعليق التمائم (3883) ، وابن ماجه في سننه ، كتاب: الطب ، باب: تعليق التمائم (3530). وهو صحيح. انظر السلسلة الصحيحة (331).

[2] أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: السلام ، باب: لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك (2200).

[3] لما جاز لغير العربي أن يدعو بلسانه جاز له أن يرقي به فالرقية دعاء (ن).

[4] حماية الرسول حمى التوحيد ص (316).

وأما التِوَلَةُ: بكسر التاء، وفتح الواو، فهي ما يوضع بزعم أنّه يحبِّب المرأةَ إلى زوجها، كما فسّر ذلك ابنُ مسعود رضي الله عنه قالوا: يا أبا عبد الرحمن هذه الرُّقى والتمائم قد عرفناها، فما التِوَلة؟ قال: شيءٌ تضعه النساءُ يتحبَّبْنَ إلى أزواجهنَّ[1].

وكانت المرأة تجلِبُ به محبةَ زوجها، وهو ضربٌ من السحر[2].

وهذه الأحاديثُ وغيرُها تنهَى عن هذه الأمور، التي فيها توكلٌ على غيرِ الله تعالى، واعتقادُ جلبِ نفعٍ، أو دفعِ ضُرٍّ، من دونه عزّ وجلّ، والله تعالى يقول: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ *﴾ [يونس: 107] .

فقد حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على حمايةِ التوحيد من مثل هذه الأمور، التي قد يتساهل فيها المرءُ مع خطورتها، فمنْ تعلّق وأنزل حوائجَه به، والتجأ إليه، وفوَّض أمره إليه، كفاه، وقرَّب إليه كلَّ بعيد، ويسّر له كلَّ عسير، ومن تعلّقَ بغيره، أو سكنَ إلى رأيه وعقله ودوائه وتمائمه ونحو ذلك: وكله لله إلى ذلك، وخَذَلَهُ، وهذا معروفٌ بالنصوص والتجارب، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: 3][3]

4 . الاستسقاءُ بالأنواء:

ومعناه نسبةُ السقيا ونزولِ المطرِ إلى الأنواءِ، والأنواءُ: جمعُ نوءٍ، وهي منازلُ القمرِ[4].

---

[1] المصدر نفسه ص (317).

[2] المصدر نفسه ص (317).

[3] فتح المجيد ص (105).

[4] حماية الرسول ص (32).

وقد حرص الرسولُ صلى الله عليه وسلم أن يبيّنَ لأمته ما كانَ عليه أهلُ الجاهلية من شركٍ وضلالٍ، وأمرهم بالحذرِ من ذلك، والبعدِ عنه، وأهمُّ ذلك وأعظمُه ما كان متعلِّقاَ بأمورِ الاعتقاد، ومن ذلك ما كان شائعاً في الجاهليةِ من نسبة نزول المطر إلى النجوم ومطالعها ومغاربها، وبيّنَ عليه الصلاة والسلام ما في ذلك من الشركِ المنافي للتوحيد، كما جاء في حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أربعٌ في أمتي مِنْ أمرِ الجاهليةِ لا يتركونهنّ: الفخرُ في الأحسابِ، والطعنُ في الأنسابِ، والاستسقاءُ بالنجومِ، والنياحةُ»[1].

وعن زيد بن خالد رضي الله عنه قال: صلّى بنا رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم صلاةَ الصبحِ بالحديبيّة على إثرِ سماءٍ كانتْ من الليلِ، فلمّا انصرفَ، أقبلَ على الناسِ، فقال «هل تدرونَ ماذا قالَ ربُّكم»؟

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: «أصبحَ مِنْ عبادِي مؤمنٌ بي وكافِرٌ، فأمّا مَنْ قالَ: مُطِرْنا بفضلِ اللهِ ورحمتِهِ فذلك مؤمنٌ بي، كافرٌ بالكواكبِ، وأمّا مَنْ قال: مُطِرْنا بنَوْءِ كذا وكذا، فذلكَ كافرٌ بي مؤمنٌ بالكواكب»[2].

وهذا الحديثُ القدسيُّ العظيمُ يخبر به رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عن ربِّه عزَّ وجل أنَّ مِنَ الناسِ من ينسِبُ نعمَهُ سبحانه وتعالى إلى غيرِهِ، ويضيفُ أفعالَه إلى سواه، وهو تعالى المنعِمُ وحدَه، الذي يجبُ أن تنسبَ إليه وحدَه جميعُ النعم، جلّ

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه ،كتاب الجنائز ، باب: التشديد في النياحة (934).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه ،كتاب: الأذان ، باب: يستقبل الإمام الناس إذا سلم (1810) ، ومسلم في صحيحه ،كتاب: الإيمان ، باب: بيان كفر من قال: مطرنا بالنَوْءِ (71).

شأنه، فهو المتفرّدُ بالرزق، المستحقُّ أن تُنْسَبَ إليه النعمُ، ويفرَدَ بالشكرِ عليها وحدَه، لا شريك له[1]. وهذا البيان من رسولِ الله صلى الله عليه وسلم حمايةٌ منه لجانب التوحيدِ، حرصاً على أمته من الشركِ.

لقد نزل القرآن الكريم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبيّنَ أنَّ الله سبحانه هو الذي ينزل الأمطار في آيات محكماتٍ قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ *وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ *فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *﴾ [الروم :48 . 50] قال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ *هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ *﴾ [لقمان :10 . 11] .

وقد نزل القرآن الكريم على رسول الله صلى الله عليه وسلم يبيّنُ الحكمةَ من خلق النجوم قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام :97] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ *﴾ [الملك :5] فهذه ثلاثُ حكمٍ جعلها الله سبحانه وتعالى في خلق النجوم، فهي زينةٌ للسماء، ورجومٌ تُرْجَمُ بها الشياطينُ عند استراقهم السمع، ووسيلةٌ للاهتداء في ظلمات البر والبحر[2].

---

[1] حماية حمى التوحيد ص (323).

[2] حماية الرسول حمى التوحيد ص (326).

5. السحر:

وهي رقًى وعزائمُ وعُقَدٌ يفعلها السحرةُ، تؤثّر في القلوبِ والأبدانِ بمرضٍ، أو قتلٍ، أو تفريقٍ بينَ المرءِ وزوجه، وغيرِ ذلك، كما أخبر الله عن ذلك في كتابه الكريم، فقال: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ [البقرة :102]، ويقع ضرره بمشيئة الله عز وجل ﴿وَمَا هُمْ بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة :102] .

والسحر حقيقة، وقد أمر الله بالاستعاذة من أهلِه إذ يقول عز وجل في سورة الفلق: (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ *﴾ و(النفاثات): هنَّ السواحر.

وبيّنَ سبحانه أنَّ السحرَ كفرٌ بالله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ﴾ [البقرة :102] قال أبو بكر بن العربي: وما كفرَ سليمان قطُّ، ولا سحرَ، ولكنّ الشياطين كفروا بسحرِهم، وأنّهم يعلّمونه الناس، ومعتقِدُ السحرِ كافرٌ، وفاعله كافِرُ، ومعلِّمه كافر، ويعلّمون الناسَ ما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت، وما كانَ الملكانِ يعلمان أحداً حتى يقولا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ﴾ [البقرة :102] .

وقد ذَمَّ الله عز وجل السحرَ وأهلَه في كتابه الكريم، وبيّنَ بطلانَ عملِهم، وأنَّهم لا خلاقَ لهم في الآخرة، وجاء ذلك في آيات كثيرة من كتابه، منها قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخرة مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ *﴾ [البقرة :102] وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ

إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ *﴾ [يونس :81] وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى *﴾ [طه :69] .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اجتنبوا السبع الموبقاتِ» قالوا: يا رسول الله وما هُنّ؟ قال: «الشركُ باللهِ، والسِّحْرُ، وقتلُ النَّفْسِ التي حرّم الله إلا بالحق، وأكلُ مالِ اليتيمِ، وأكلُ الربا، والتولِّي يومَ الزحف، وقذفُ المحصناتِ المؤمناتِ الغافلات»[1].

6 . الكهانة:

تضافرتِ الآيات والأحاديثُ الصحيحة بالنهي عن إتيانِ الكُهّان وتصديقهم فيما يقولون، وتحريمِ ما يُعْطَوْن من حلوان[2]. قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ *تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ *يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ *﴾ [الشعراء :221-223] .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ أتى عرَّافاً، فسأله عَنْ شيءٍ، لم تُقبلْ له صلاةٌ أربعينَ ليلةً»[3].

وعن أبي مسعود قال: نهى رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عن ثمنِ الكَلْبِ، ومَهْرِ البَغِيِّ، وحُلوانِ الكاهنِ[4].

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الوصايا ، باب: قول الله تعال: {} [النساء: 10] {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا *} ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: بيان الكبائر وأكبرها (89).

[2] موقف الإسلام من السحر ، حياة سعيد (1 / 237) حلوانُ الكاهن ما يعطاه من مالٍ على كهانته.

[3] أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: السلام ، باب: تحريم الكهانة واتيان الكهان (2230).

[4] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: البيوع ، باب: ثمن الكلب (2122) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: المساقاة ، باب: تحريم ثمن الكلب ، وحلوان الكاهن ، ومهر البغي (1567). وحلوان الكاهن ما يعطاه من مال على كهانته.

7 . الشفاعة:

بيّن الرسولُ صلى الله عليه وسلم للناس الصراطَ المستقيمَ الذي يصلُهم بربّهم دون شفعاء ولا وسائط، وهو طريقُ التوحيدِ الخالصِ للهِ عزّ وجلّ، وإفرادهِ سبحانه بالعبادةِ دون ما سواه.

أمّا الشفاعةُ المثبتةُ التي أثبتها القرآن الكريم وبينها رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فلها شرطان:

الأول ـ الإذنُ مِنَ اللهِ تعالى للشافع، قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة :255] .

والثاني ـ الرضا عن المشفوعِ له، قال تعالى: ﴿وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الانبياء :28] . .

وهذه الشفاعةُ خَصَّ الله تعالى بها أهلَ توحيدهِ وعبادتهِ تفضُّلاً منه وكرماً، فهذه خاصّةٌ بهم، لأنّهم لم يتّخذوا من دونِ الله ولياً ولا شفيعاً، وقد رضي الله قولَهم وعملَهم، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله!

مَنْ أسعدُ النّاسِ بشفاعتك يوم القيامة؟ قال عليه الصلاةُ والسلامُ: «أسعدُ الناسِ بشفاعتي يوم القيامةِ مَنْ قالَ لا إلَه إلا الله خالِصاً مِنْ قلبِهِ أو نفسه»[1].

وأول الشافعين رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أمامُ الموحّدين، وخاتمُ المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، والذي اختصّه الله تعالى وأكرمه بشفاعات عظيمة في ذلك اليوم، تفضُّلاً وتكريماً منه سبحانه لرسوله محمّد صلى الله عليه وسلم، ورحمةً بأمته صلى الله عليه وسلم.

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: العلم ، باب: الحرص على الحديث (99).

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لكلِّ نبيٍّ دعوةٌ مستجابةٌ، فتعجَّلَ كلُّ نبيٍّ دعوتَه، وإنِّي اختبأتُ دعوتي شفاعةً لأمتي يومَ القيامةِ، فهي نائلةٌ إنْ شاءَ الله مَنْ ماتَ من أمتي لا يشرِكُ باللهِ شيئاً»[1].

فله صلى الله عليه وسلم الشفاعةُ العظمى يومَ القيامةِ، والتي يتخلّى عنها أولو العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام، وهي ـ كما بيّنَ ـ لأهلِ التوحيدِ من أمته، وهو الذي يشفع في دخول المؤمنينَ الجنة، وفي إخراجِ عصاة الموحّدين من النارِ.

والشفاعةُ إنّما تكون وتنفع أهلَ التوحيد، أمّا غيرهم فهم كما قال عز وجل ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ *﴾ [المدثر: 48] [2]

وقال تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لاَ يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلاَ يَعْقِلُونَ *﴾ [الزمر: 43] وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ *﴾ [يونس: 18] .

* * *

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه ،كتاب: الإيمان ، باب: اختباء النبيّ دعوة الشفاعة لأمته (199).

[2] حماية الرسول حمى التوحيد ص 348 والنهاية في الفتن والملاحم ص (388).

المبحث السادس

الإيمان بالله جلّ جلاله

أولاً ـ الإيمان لغة وشرعاً، وزيادة ونقصاناً.

ثانياً ـ الإسلام والإيمان والإحسان.

ثالثاً ـ أصل الإيمان بالله عز وجل.

رابعاً ـ الأسس التي يقوم عليها الإيمان بالله جل جلاله.

خامساً ـ شرح بعض الآيات التي تتحدّث عن الإيمان بالله جل جلاله.

سادساً ـ أسباب قوة الإيمان بالله جل جلاله.

سابعاً ـ صفات المؤمنين.

ثامناً ـ من فوائد الإيمان بالله تعالى وثمراته.

المبحث السادس : الإيمان بالله جلّ جلاله

أولاً . الإيمان لغة وشرعاً وزيادة ونقصاناً:

الإيمان لغة: التصديق، قال تعالى حكايةً عن إخوة يوسف مع أبيهم: ﴿قَالُوا ياأَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ *﴾ [يوسف :17] أي: بمصدِّقٍ لنا.

وشرعاً: هو نطقٌ باللسانِ، واعتقادٌ بالقلبِ، وعملٌ بالجوارحِ، ويزيدُ بالطاعةِ، وينقُصُ بالمعصيةِ[1].

ومن الأدّلة من الكتاب والسنة على زيادة الإيمان ونقصانه: قوله تعالى: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً﴾ [المدثر :31] وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ *﴾ [الانفال :2] وقال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا *﴾ [مريم :76] وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيمًا *﴾ [الاحزاب :22] .

وعن جندب بن عبد الله قال: كنّا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم ونحن فتيان حِزاورة، فتعلَّمنا الإيمانَ قبل أنْ نتعلّمَ القرآن، ثم تعلّمنا القرآن فازددنا به إيماناً[2].

---

[1] فتح الباري (1 / 45 . 48) ، شرح أصول اعتقاد وأهل السنة (1 / 151).

[2] أخرجه ابن ماجه في سننه ، كتاب: المقدمة ، باب: في الإيمان (61). قال الهيثمي (1/ 12): إسناده صحيح. والحزاورة: الغلمان الأشداء.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الإيمانُ بضعٌ وسبعون أو بضع وستون شعبةً، فأفضلُها قولُ: لا إلهِ إلا الله، وأدناها إماطةُ الأذى عن الطريقِ، والحياءُ شعبةٌ من الإيمان»[1].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمنٌ، ولا يشربُ الخمرَ حين يشربُ وهو مؤمنٌ، ولا يسرقُ حين يسرقُ وهو مؤمنٌ، ولا يَنْتَهِبُ[2] نهبةً يرفع الناسَ إليه فيها أبصارُهم حين ينتَهِبَها وهو مؤمنٌ»[3]. والقول الصحيح الذي قاله المحققون في شرح هذا الحديث: إنّ معناه لا يفعلُ هذه المعاصي وهو كامِلُ الإيمان[4].

والطاعات والأعمال الصالحة داخلة في الإيمان، ومن الأدلة على ذلك: قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ *﴾ [التوبة: 71].

وقد أطلق القرآن الكريم لفظَ الإيمانِ على العمل في بعض الآيات ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء ، وكونه من الإيمان (35).

(2) أي: لا يختلس شيئاً له قيمة عالية.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: المظالم والغصب ، باب: النهبى بغير إذن صاحبه (2475) وأخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: بيان نقصان الإيمان بالمعاصي ونفيه عن المتلبس بالمعصية ، على إرادة نفي كماله (75).

(4) شرح النووي على صحيح مسلم (1 / 142).

بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ *﴾ [البقرة: 143] والإيمان هنا يراد به الصلاة، وقد ذهبَ جمهورُ المفسّرين إلى هذا، بل إنَّ الصحابة فهموا هذا، وتضافرت الروآيات عنهم في سبب نزول الآية[1].

ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ *﴾ [البقرة: 177] فالآية اعتبرتْ هذه الخصالَ تصديقاً وإيماناً، وجعلتْ أعمال البِرّ هذه من الإيمانِ، ووجهُ الدلالةِ مِنَ الآية ما فسّره رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم حيث روى عبد الرزاق في «مصنفه» وغيره عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان، فتلى عليه هذه الآية ﴿الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ *﴾ [البقرة: 177] فالآية اعتبرتْ هذه الخصالَ تصديقاً وإيماناً، وجعلتْ أعمال البِرّ هذه من الإيمانِ، ووجهُ الدلالةِ مِنَ الآية ما فسّره رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم حيث روى عبد الرزاق في «مصنفه» وغيره عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان، فتلى عليه هذه الآية ... والحديثُ رجالُه ثقات .

---

[1] فقه النصر والتمكين ص (163).

ثانياً ـ الإسلام والإيمان والإحسان:

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: بينما نحنُ عندَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ذاتَ يومٍ، إذْ طلعَ علينا رجلٌ، شديدُ بياضِ الثيابِ، شديدُ سوادِ الشعرِ، لا يُرَى عليه أثرُ السفرِ، ولا يعرفُه منّا أحدٌ، حتى جلسَ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم، فأسندَ ركبتيه إلى ركبتيه، ووضعَ كفّيه على فَخِذيه وقال: يا محمّدُ، أخبرني عن الإسلامِ.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الإسلامُ أنْ تشهدَ أنْ لا إلهَ إلاّ اللهُ، وأنَّ محمّداً رسولُ اللهِ، وتقيمَ الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصومَ رمضان، وتحجَّ البيتَ إنِ استطعتَ إليه سبيلاً»

قال: صدقت، قال: فعجبنا له يسألُه ويصَدِّقُه. قال: فأخبرني عن الإيمان؟

قال: «أن تؤمن باللهِ، وملائكتِهِ، وكتبِهِ، ورسلِه، واليوم الآخر، وتؤمِنَ بالقدرِ خير وشرِه».

قال: صدقتَ، قال: فأخبرني عن الإحسان؟

قال: «أنْ تعبدَ اللهَ كأنّكَ تراه، فإنْ لم تكنْ تراه فإنّه يراك».

إلى أن قال: «يا عمر أتدري مَنِ السائل؟»

قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: «إنّه جبريلُ، أتاكُم يعلّمكم دينكم»[1]. فجعل الدِّينَ هوالإسلامَ والإيمانَ والإحسانَ.

فتبيّن أنَّ ديننا يجمعُ الثلاثةَ، لكن هو درجاتٌ ثلاثٌ: مسلمٌ، ثم مؤمنٌ، ثم مُحْسِنٌ، والمراد بالإيمان ما ذُكِرَ مع الإسلام قطعاً، كما أنّه يريدُ بالإحسان مع الإيمان

---

[1] فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب الإيمان باب أمور الإيمان (1 / 51).

والإسلام، لا أنَّ الإحسانَ يكون مجرداً عن الإيمان[1]. وهذا كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ *﴾ [فاطر: 32] والمقتصد والسابق كلاهما يدخلُ الجنة بلا عقوبة، بخلاف الظالم لنفسه، فإنّه مُعَرَّضٌ للوعيد، وهكذا مَنْ أتى بالإسلام الظاهر مع التصديق بالقلب، لكن لم يَقُمْ بما يجب عليه من الإيمان الباطن، فإنّه معرَّضٌ للوعيد.

فأما الإحسان وهو أعم من جهة نفسه، وأخص من جهة أهله، والإيمانُ أعم من جهة نفسه، وأخص من جهة أهله من الإسلام، فالإحسانُ يدخل فيه الإيمانُ، والإيمانُ يدخل فيه الإسلامُ، والمحسنون أخصُّ من المؤمنين، والمؤمنون أخصُّ من المسلمين[2].

ثالثاً ـ أصل الإيمان بالله جلَّ جلاله:

بأصل الإيمانِ يدخلُ العبدُ في الإسلام، وبه يكونُ اعتبارُ سائرِ الأعمال، وبصلاحِ ما في القلبِ أو فسادِهِ يكونُ صلاحُ الأعمالِ أو فسادُها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا إنَّ في الجسدِ مضغةٌ إذا صَلَحتْ صلحَ الجسدُ كلُّه، وإذا فَسَدَتْ فسدَ الجسدُ كلُّه، ألا وهيَ القلبُ»[3].

فأصل الإيمان في القلبِ، وهو قولُ القلبِ وعملُه، وهو إقرارٌ بالتصديقِ والحُبِّ والانقيادِ.

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: بيان الإيمان ، والإسلام ، والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى (8).

(2) المنحة الإلهية في تهذيب الطحاوية ص (146).

(3) المصدر نفسه ص (147).

فالتصديقُ: هو قولُ القلبِ، وهوالمعرفةُ والإثباتُ لما دلّت عليه الشهادتان.

والحبُّ: عملُ القلبِ نحو المشهودِ لهما، وهو الله تبارك وتعالى في شهادة (أن لا إلهَ إلاّ الله)، ومحمّدٌ بنُ عبدِ الله في شهادةِ (أنَّ محمّداً رسولُ اللهِ)، فيحبُّ اللهَ ورسولَه صلى الله عليه وسلم ودينَه.

والانقيادُ: عملُ القلبِ أيضاً، وهو القبولُ، وعقدُ العزمِ على الامتثال لما دلّتْ عليه الشهادتان[1].

وينعقد أصل الإيمان بالله عزّ وجلّ بثلاثةِ أمورٍ:

الأول ـ النطق بالشهادتين.

والثاني ـ قول القلب، وهوالعلم والتصديق بمعناهما، وأنّ الرسول صلى الله عليه وسلم صادقٌ في كلِّ ما أخبرَ به عن الله.

والثالث ـ عمل القلب، وهو قبولُ التوحيدِ، والبراءةُ من ضدّه، والمحبةُ للهِ ولرسوله صلى الله عليه وسلم ولدينِه، والعزمُ على الانقيادِ لهما.

فإذا جاءَ العبدُ بأصلِ الإيمانِ، فهو مأمورٌ مكلَّفٌ بتكميلِ إيمانِهِ، ليس له أمنٌ في الحياة الدنيا ولا في الآخرة إلاّ بذلك، فإذا عملَ العبدُ الطاعاتِ، واجتنبَ المحرّماتِ، فقد استكملَ عُرَى الإيمانِ الواجبِ، وأصبحَ في مرتبةِ المقتصد[2].

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: فضل من استبرأ لدينه (52) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: المساقاة ، باب: أخذ الحلال وترك الشبهات (1599).

[2] أثر الإيمان في تحصين الأمة (1 / 191).

وقد كتب عمرُ بنُ عبد العزيز إلى عَدِيّ بن عَدِيّ أنّ للإيمانِ فرائضَ وشرائعَ وحدوداً وسنناً، فمنِ استكملَها استكملَ الإيمان، ومن لم يستكمِلْها لم يستكملِ الإيمانَ[1].

رابعاً. الأسس التي يقوم عليها الإيمان بالله جلّ جلاله:

يقوم الإيمانُ بالله عز وجل على أسسٍ من أهمها:

1 . الكفر بالطاغوت: فُسِّرَ الطاغوتُ بالشيطانِ، والساحرِ، والكاهنِ، والأصنام[2]، وهذا تفسيرٌ له ببعض أفرادِهِ، وإلاّ فالطاغوتُ يطلَقُ على كلِّ مَنْ طغى وتجاوزَ حَدَّه، وادّعى حقاً من حقوقِ اللهِ التي تفرّدَ بها[3]. قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ*﴾ [البقرة: 256] وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ *﴾ [الزمر: 17] وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ التطهيرَ مقدَّمٌ على التزكيةِ، وأنَّ تخليصَ القلبِ من أدرانه ونجاستهِ المتمثّلةِ بالمعتقداتِ الباطلةِ وما يترتّبُ عليها من محبّةِ الطواغيتِ أو التعلُّق بهم واجبٌ، لحلول الإيمانِ بالقلبِ[4].

---

[1] المصدر نفسه (1 / 193).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: بني الإسلام على خمس معلقاً 1/ 11) ووصله ابن أبي شيبة في مصنفه كتاب: الإيمان والرؤيا ، باب (30444).

[3] جامع البيان لابن جرير (3 / 218 ، 19).

[4] أثر الإيمان (1 / 47).

2 . الإيمانُ بالغيب:

قال تعالى: ﴿الم *ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدَىً لِلْمُتَّقِينَ *الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ *﴾ [البقرة: 1 . 3].

والغيب: هو كلُّ ما غابَ عنك، وفي قوله: أي: آمنوا ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾، وملائكته، ورسله، واليومِ الآخر، وجنته، وناره، ولقائه، وآمنوا بالحياة بعد الموت[1]، وقد جمعَ الرسولُ صلى الله عليه وسلم أصولَ الأمور الغيبيّة بتعريفه للإيمانِ في حديث جبريل عليه السلام . حيث قال: «أنْ تؤمنَ باللهِ، وملائكتهِ، وكتبِهِ، ورسلِهِ، واليومِ الآخر، وتؤمنَ بالقدرِ خيرِهِ وشرِّهِ»[2].

3 . امتثالُ الأوامرِ واجتنابُ النواهي:

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ *﴾ [الذاريات: 56] ففي هذه الآية بيانٌ للحكمةِ التي خلق الله الناسَ من أجلِها، وهي أنْ يكلِّفَهم بعبادته، بالامتثال لأوامره، والانتهاء عن نواهيه، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ *﴾ [البقرة: 208] والسلم: هو الإسلام، والمراد: بكافة: أي جميع شرائع الإسلام، ففي الآية يدعو الله المؤمنينَ إلى الأخذِ بجميع شرائع الإسلام، وإقامةِ جميع شرائع الإسلام، وإقامةِ جميعِ أحكامهِ وحدودهِ، دون تضييعِ بعضِه، والعملِ ببعضه[3].

---

[1] أثر الإيمان (1/ 44).

[2] جامع البيان (1 / 101).

[3] أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى(8).

4. الإخلاص لله في العبادة:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُورًا *﴾ [الإنسان: 9] .

وقال تعالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[غافر: 65].

وقال تعالى: ﴿أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: 3] فالإخلاصُ شرطٌ في صحّةِ العبادةِ، وأساسٌ مهّمٌ من أُسس الإيمان، ومن دونه لا يدخلُ العبد في ولايةِ اللهِ، ولا يُقْبَلُ منه عمل، ولا يَتحَصَّلُ على ثمراتِ الإيمان وكراماتِهِ التي وعدَ بها عبادَه المؤمنين[1].

5. صدق المتابعة للنبيّ صلى الله عليه وسلم:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا *﴾ [الاحزاب: 21] هذه الآية الكريمةُ أصلٌ كبيرٌ في التأسّي برسول الله صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله وأحواله[2]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا *﴾ [الكهف: 110] . وهذان ركنا العمل المتقبَّل لابدّ أن يكون صواباً خالصاً. فالصواب: أن يكون على السنّةِ، وإليه الإشارةُ بقوله: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا﴾ والخالص: أن يخلصَ مِنَ الشركِ الجليّ والخفي، وإليه الإشارةُ بقوله: (وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً).

[1] جامع البيان (2 / 324).

[2] أثر الإيمان (1 / 65).

6 ـ العلم:

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ *﴾ [الانعام: 55] فالعلمُ أساسٌ هامٌّ في الإيمان بالله، وركنٌ بارزٌ في دعوة النبيِّ صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ *﴾ [يوسف: 108] فدلّتْ هذه الآية على أنَّ طريقَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم يقوم على ثلاثةِ أمورٍ:

الأول ـ التوحيدُ الخالِصُ، القائم على فعل الطاعات، واجتناب المحرمات، مع الإخلاص لله في ذلك.

والثاني ـ الدعوة إلى التوحيد.

والثالث ـ العلمُ والبصيرةُ في ذلك كله[1].

وقد بين سبحانه أنّ التعليم من أخصِّ وظائفِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، وأنّه أخرج به المسلمين من الضلال المبين، فقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ *﴾ [الجمعة: 2] . فيجب علينا أن نعلم أهم المسائل هي:

الأولى ـ العلم، وهو معرفةُ الله، ومعرفةُ نبيه صلى الله عليه وسلم، ومعرفةُ دين الإسلام بالأدلّةِ.

والثانية ـ العمل به.

والثالثة ـ الدعوة إليه.

والرابعة ـ الصبر على الأذى فيه.

---

[1] تفسير القران العظيم لابن كثير (6 / 392).

والدليل قول الله تعالى في سورة العصر: ﴿وَالْعَصْرِ *إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ *إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ إنّ العمل الصالح يقومُ على الإيمان، والإيمانُ يقوم على التوحيدِ، والإيمانُ الذي يريده الله هو الإيمانُ الحيُّ الفاعِلُ، هو الإيمانُ المؤثّر النامي، هو الإيمانُ القائِدُ الموجِّه... الإيمانُ الذي ينفعُ صاحبَه، هو الإيمان الذي ينغرِسُ في قلبه، فينمو ويزدهر، وينير ويضيء، ويزين هذا القلب بزينته، ويملؤه في كل جوانبه وزواياه، الإيمان الذي يمدُّ أغصانَه وفروعه على كيان هذا المؤمن ووجوده، ويلقي ظلالَه على حياتِهِ وواقعِهِ، ويعطي ثمارَه له في ليلِه ونهارِه، الإيمانُ الذي عاشه المؤمنون الصادقون العاملون من الأنبياء والأولياء الصالحين، هو الذي تَنْتُجُ عنه الأعمالُ، ويُضْبَطُ به السلوكُ، ويَصْلُحُ به الواقعُ، وتستقيمُ به الحياةُ، الإيمانُ المعبّرُ هو الذي يبعثُ على الهمّةِ، والنشاطِ، والسعي، والجهد، والمجاهدة، والجهاد، والتربية، والاستعلاء، والعزة، والثبات، واليقين[1].

خامساً. شرح بعض الآيات التي تحدثت عن الإيمان:

الأولى. زينة الإيمان:

قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ *﴾ [الحجرات: 7] لما كانتِ المعاصي بعضُها كفرٌ، وبعضُها ليس بكفرٍ، فَرَّقَ بينها فجعلها ثلاثةَ أنواعٍ: نوعٌ منها كفرٌ، ونوعٌ منها فسقٌ ليس بكفر، ونوعٌ عصيان ليس بكفر ولا فسق. وأخبر أنّه كرهها كلَّها للمؤمنين.

[1] تيسير العزيز الحميد ص (525).

ولما كانتِ الطاعاتُ كلُّها داخلةٌ في الإيمان، وليس فيها شيءٌ خارجٌ عنه لم يفرِّقْ بينها، فيقول: حبب إليكم الإيمان والفرائض وسائر الطاعات، بل أجمل ذلك فقال: فدخل في ذلك جميعُ الطاعات .

الثانية . نور الإيمان:

قال تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ *﴾ [النور: 35] وقد فُسِّرَ قولُه تعالى: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بكونه منوِّرٌ السماوات، وهادي أهلِ السماواتِ والأرض، فبنوره اهتدى أهلُ السماواتِ والأرض، وهذا إنّما هو فعلُه، وإلاّ فالنورُ من أوصافه، قائمٌ به، ومنه اشتق اسم النور الذي هو أحدُ الأسماءِ الحسنى، والنورُ يضافُ إليه سبحانه على أحدِ وجهين: إضافة صفة إلى موصوفها، وإضافة مفعول إلى فاعله[1]. وفي قوله تعالى: وهو أنّ ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ الإيمان يكونُ من الله، عندما يشرحُ صدر عبدِه المؤمنِ للإسلام، ويجعل له نوراً، فيبدأ به النور والحياة.

وقد شبّه العلمَ المستفاد من الوحي الواصلِ للقلب بالزيت الجيّدِ، فاستدامةُ النورِ وقوتُه وسلامتُه، وتنامي حياة القلب، إنّما تكونُ بالعلم بالكتاب والسنة والعمل به، فهي غذاؤه ومادّةُ حياته[2].

---

[1] جامع البيان (13 / 79 ، 80) ، أثر الإيمان (1 / 71).
[2] في ظلال الإيمان ص (63).

إنّ ضياءَ النار يحتاجُ في دوامه إلى مادّةٍ تحمله، وتلك المادة للضياء بمنزلةِ غذاء الحيوانِ، كذلك نورُ الإيمان يحتاجُ إلى مادّةٍ من العلم النافع، والعمل الصالح يقومُ بها، ويدوم بدوامها، فإذا ذهبتْ مادّةُ الإيمان طفىء كما تُطْفَأُ النارُ بفراغ مادتها[1].

إنّ المثلَ دلَّ على أنَّ الإيمانَ يزيدُ وينقصُ، يزيدُ بزيادةِ العلمِ الواصلِ للقلبِ المستفادِ من نورِ الكتابِ والسنةِ، كما ينقصُ بنقصِهِ. ومأخذُ ذلك من المثل هو تشبيهُ العلمِ الذي يمدُّ القلبَ بالمعارِف والحقائقِ الإيمانيةِ بالزيتِ الذي يمدُّ المصباحَ بالوقودِ، وأنَّ المصباحَ يزيدُ ضوؤه، ويصفو بزيادةِ الزيتِ وجودتِهِ، والمؤمنون يتفاوتون بقوّة النورِ الكائن في قلوبهم بحسب ما عندهم من العلم والإيمان، وأكملُ المؤمنينِ نوراً هو النبيُّ صلى الله عليه وسلم لكمالِ علمِهِ وإيمانِهِ.

إنّ المثلَ دلّ على أنَّ النور الذي يجعله الله في قلوب المؤمنين نور حقيقي، ومأخذُ ذلكَ هو تشبيه ذلك النورِ الذي يُعلمُ معناه، ولا تُعقل كيفيته بنورِ المصباح المحسوس، فالتشبيه بالمحسوس يؤَكِّدُ وجودَه وحقيقته[2].

هناك تشابه بين الفطرة والفتيلة، من حيثُ إنّ كلاًّ منهما في أصلِ خَلْقِهِ وصنعه مهيّأٌ لاستدعاء وتشرُّب ما يناسبه، فالفتيلةُ تتشرَّبُ الوقودَ المناسِبَ، وتمتصُّه، وتتبلَّلُ به، وتصبِحُ مهيأةً به للاشتعال إذا أُوقدت. وكذلك الفطرة على الدين الحنيف التي فطر الله قلوبَ العبادِ عليها مهيأةٌ لاستدعاء ما يناسِبُ ما فُطِرَتْ عليه من التوحيد والدين والحق، فإذا تشّربتْ ما يَرِدُ إليها من ذلك مِنَ العلمِ بالكتابِ والسنّةِ، فإنّها تكونُ مهيأةً لإيقادِ مصباحِ القلبِ، وقذفِ نورِ الإيمانِ بهِ، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ

---

[1] الأمثال القرانية (1 / 194) مجموع الفتاوى (7 / 42).

[2] اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم ص (6).

لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم :30] فالله عزّ وجلّ فطر كلَّ الناسِ على معرفته وتوحيده ومحبته، وجبل نفوسَهم على استدعاء وقبول ما يناسب ذلك من الدين والإسلام. والفطرةُ تزكو بالعلمِ المستمدِّ من الكتابِ والسنةِ، وتطهيرها من مكايد شياطين الإنس والجن، الذين يجتهدون في إفسادِها[1].

إنَّ المثلَ دلّ على أثرِ نورِ العلمِ والإيمان على العقلِ، حيث أكسبه سلامةَ التعقُّل، وسدادَ النظرِ، وصِحّةَ الاستنتاج، وأنّ الطريق إلى الحقِّ في كلِّ المطالب الدينية إنّما يكونُ بإعمالِ العقلِ المستنيرِ بالوحي النازل على الرسول صلى الله عليه وسلم لاستخلاص الحقائق والمعارف اليقينية وغيرها، وأنّ العقلَ المجرّدَ عن العلم لا سبيلَ له إلى تلك الحقائق.

كما دلَّ المثلُ على أنّ النورَ سطع وأشرق على كلِّ أعمال القلب ووظائفه الأخرى من العقائد، والعواطف، والإرادات، والانفعالات، فأخصبَها بالخيرِ والسلامةِ والصلاحِ[2].

في قوله دلَّ على ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ نور القرآن والسنة والعلم المستفاد منهما يغذي نور الإيمان، ويزيدُه ويقوّيه. وفي قوله: دليلٌ على أن ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ *﴾ من الله، نور الإيمان الذي يُقْذَفُ في القلبِ، ونور العلمِ الذي طريقُه الوحي، فمن هُدِيَ إلى الأول، واهتدى بالثاني، فقد أعطاه الله نوراً تاماً، ومن أضلّه الله فليسَ له من نورٍ، بل هو في طريقٍ من طُرِقِ الضلال، سائرٌ في الظلّماتِ[3].

---

(1) المصدر نفسه ص (20) ، الأمثال القرانية (1 / 360).
(2) اجتماع الجيوش الإسلامية ص (20).
(3) الأمثال القرانية (1 / 370 . 375).

الثالثة ـ روح الإيمان:

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ *﴾ [الشورى :52] . فسمّى وحيَه روحاً لِمَا يحصلُ به مِنْ حياةِ القلوبِ والأرواح التي هي الحياةُ في الحقيقة، ومن عَدِمَها فهو ميتٌ لا حيٌّ ... وسمّاه نوراً لما يحصل به من استنارةِ القلوبِ وإضاءتها، وكمال الروح بهاتين الصفتين بالحياة والنور، ولا سبيلَ إليهما إلا على أيدي الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، والاهتداء بما بعثوا به، وتلقّي العلم النافع والعمل الصالح من مشكاتهم، وإلا فالروحُ ميّتةٌ مظلمةٌ، وإن كان العبدُ مشاراً إليه بالزهد والفقه والفضيلة والكلام في البحوث، فإنّ الحياةَ والاستنارةَ بالروح الذي أوحاه الله تعالى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم، وجعله نوراً يهدي به مَنْ يشاء من عباده، فليس العلم كثرةَ النقل والبحث والكلام ولكنّه نورٌ يميّزُ به صحيحَ الأقوالِ من سقيمِها، وحقَّها مِنْ باطِلها، وما هو من مشكاةِ النبوّةِ مما هو من اراء الرجال[1].

سادساً ـ أسباب قوة الإيمان:

هذا الفصلُ عظيمُ النفعِ والحاجةِ، بل الضرورةُ ماسّةٌ إلى معرفته والعناية به معرفةً واتصافاً، وذلك أنّ الإيمانَ هو كمالُ العبدِ، وبه ترتفعُ درجاته في الدنيا والآخرة، وهو السببُ والطريقُ لكلِّ خيرٍ عاجلٍ وآجل، ولا يحصلُ، ولا يقوى، ولا يتمُّ إلا بمعرفةِ ما منه يُسْتَمَدُّ، وإلى ينبوعه وأسبابه وطُرُقه، والله تعالى قد جعلَ لكلِّ مطلوبٍ سبباً

---

[1] المصدر نفسه (1 / 390 . 412).

وطريقاً يوصِلُ إليه، والإيمانُ أعظمُ المطالِبِ وأهمُّها وأعمُّها، وقد جعل الله له مواد كثيرةً تجلبه وتقوّيه، كما كانت له أسبابٌ تضعفه وتوهّيه.

ومواده التي تجلبه وتقوِّيه أمران: مجملٌ ومفصّلٌ:

أما المجمل فهو: التدّبُر لآيات الله المتلوّةِ من الكتاب والسنة، والتأمل لآياته الكونية على اختلاف أنواعها، والحرص على معرفة الحق الذي خُلِقَ له العبد، والعمل بالحق، فجميعُ الأسبابِ مرجعُها إلى هذا الأصل العظيم[1].

وأما التفصيل: فالإيمان يحصل ويقوى بأمورٍ كثيرةٍ، منها:

1 . معرفة أسماء الله الحسنى الواردة في الكتاب والسنة، والحرص على فهم معانيها، والتعبّد لله بها:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنّ للهِ تسعةً وتسعين اسماً، مئةً إلاّ واحداً، مَنْ أحصاها دخلَ الجنّة»[2] أيْ مَنْ حفظَها، وفهمَ معانيها، واعتقدها، وتعبَّدَ اللهَ بها دخل الجنّةَ، والجنّةُ لا يدخلُها إلا المؤمنون، فعَلِمَ أنَّ ذلك أعظمُ ينبوعٍ ومادّةٍ لحصولِ الإيمان وقوّته وثباته. ومعرفةُ الأسماءالحسنى هي أصلُ الإيمانِ، والإيمانُ يرجِعُ إليها، فكلّما ازداد العبدُ معرفةً بأسماءِ الله وصفاته ازدادَ إيمانه، وقويَ يقينُه، فينبغي للمؤمن أن يبذلَ مقدروه ومستطاعه في معرفة الأسماء والصفات، وتكونَ هذه المعرفة متلقّاةً من الكتاب والسنة، وما روي عن الصحابة والتابعين لهم بإحسانٍ، فهذه المعرفةُ النافعةُ تجعلُ المؤمنَ في زيادةٍ في إيمانه، وقوّةٍ في يقينه، وطمأنيةٍ في أحواله[3].

---

[1] الأمثال القرانية (1 / 418).

[2] المصدر السابق (1 420).

[3] اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ص (24).

2. تدبّر القرآن الكريم على وَجْهِ العموم:

إنَّ المتدبّرَ لا يزالُ يستفيدُ من علوم القرآن ومعارفه ما يزدادُ به إيماناً، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ *﴾ [الانفال :2] وهو العلاجُ الناجعُ لأمراضِ القلوبِ، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ *﴾ [يونس :57] إنّه موعظةٌ من الله، وهل هناك أبلغُ من الموعظةِ الربانية؟! وأيسرُ منها؟! وأكثرُ نفاذاً إلى القلبِ والضميرِ؟! ففيه الشفاءُ لأمراضِ الشبهاتِ والشهواتِ، وأمراض الهوى والانحراف، وأمراض الشكِّ والشرك، وأمراضِ القلوبِ والنفوسِ، والجوارحِ، والحواسِ، وأمراض السياسة والاقتصاد والأخلاق والاجتماع والحياة والحضارة[1]، قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقرآن مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء :82] فهو غذاءٌ للروح، وعلاجٌ يشفي النفوسَ من عللِّها، ويكسبُها المناعةَ القويّةَ[2].

ومن ثمراتِ تدبُّرِ القرآن: أنّه وسيلةٌ لمعرفة ما يريدُ الله منا، وكيفيّةُ عبادَته تبارك وتعالى، ومعرفة ما أنزل الله إلينا، لأنّ القرآن الكريم منهجُ حياةٍ أنزله الله عز وجل، وهو أساسُ التشريع الذي يجبُ على العبادِ أن يتدبّروه، ويلتزموا بأوامره، ويجتنبوا نواهيه ليحقّقوا عبادةَ الله تعالى[3].

وإذا نُظِرَ إلى انتظامِ القرآن الكريمِ وإحكامِهِ، وأنَّه يصدِّقُ بعضُه بعضاً، ويوافِقُ بعضُه بعضاً، ليس فيه تناقضٌ ولا اختلافٌ: تيقّنَ أنه ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ

---

[1] شجرة الإيمان للسعدي ص (39).

[2] تقدم تخريجه.

[3] شجرة الإيمان للسعدي ص (41).

وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ *﴾ [فصلت :42] وأنّه لو كان مِنْ عندِ غيرِ الله لوُجِدَ فيه من التناقضِ والاختلافِ أمورٌ كثيرة، قال تعالى: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقرآن وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا *﴾ [النساء :82] وهذا مِنْ أعظمِ مقوّيات الإيمان، ويقوّيه من وجوهٍ كثيرةٍ، فالمؤمنُ بمجرَّد ما يتلو آيات الله، ويعرف ما اشتمل عليه من الأخبار الصادقة والأحكام الحسنة، يحصل له من أمورِ الإيمانِ خيرٌ كبيرٌ، فكيف إذا أحسنَ تأمُّله، وفهمَ مقاصده وأسراره؟ ولهذا كان المؤمنون الكُمَّلُ يقولون: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ [آل عمران: 193] .

3 . معرفةُ سيرة النبيِّ صلى الله عليه وسلم وشمائله:

فإنَّ مَنْ عرفه حقَّ المعرفةِ لم يَرْتَبْ في صدقه، وصدقِ ما جاء به، قال تعالى: أي: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ *﴾ صلى الله عليه وسلم توجِبُ للعبدِ المبادرةَ إلى الإيمانِ ممّن لم يؤمنْ، وزيادةَ الإيمانِ ممّن آمن به، وقال تعالى مشجّعاً لهم على تدبّر أحوال الرسول صلى الله عليه وسلم الداعية للإيمان: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ *﴾ [سبأ :46] وأقسمَ تعالى بكمال هذا الرسولِ، وعظمةِ أخلاقه، وأنّه أكملُ مخلوقٍ قال تعالى: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ *مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ *وَإِنَّ لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ *وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ *﴾ [القلم :1 . 4] فهو صلى الله عليه وسلم أكبرُ داعٍ للإيمان في أوصافه الحميدة، وشمائِله الجميلةِ، وأقوالِه الصادقةِ النافعةِ، وأفعالِه الرشيدةِ، فهو الإمامُ الأعظمُ، والقدوةُ الأكملُ، وقد ذكرَ اللهُ عن أولي الألبابِ الذين هم خواصُّ الخَلْقِ أنّهم قالوا: وهو هذا الرسول الكريم بقوله ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا

مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ﴾، وعملِه ودينِه وجميعِ أحوالِه ﴿أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ [آل عمران: 193] أي: إيماناً لا يدخلُه ريبٌ، ولما كانَ هذا الإيمانُ مِنْ أعظمِ ما يقرِّبُ العبدَ إلى اللهِ، ومن أعظمِ الوسائلِ التي يحبُّها الله. توسُّلوا بإيمانهم أنْ يكفِّرَ عنهم السيئاتِ، وينيلهم المطالبِ العالياتِ قالوا: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ *﴾ [آل عمران: 193] ولهذا كان الرجلُ المنصِفُ الذي ليسَ له إرادةٌ إلاّ اتباع الحقِّ مجرّد ما يراه ويسمع كلامه يبادر إلى الإيمان به صلى الله عليه وسلم، ولا يرتابُ في رسالته، بل كثيرٌ منهم مجرَّد ما يرى وجهه الكريم صلى الله عليه وسلم يعرف أنّه ليس وجه كذاب[1].

4 ـ التفكّرُ في الكونِ والنظرُ في الأنفسِ:

إنَّ التفكُّرَ في الكونِ، وفي خَلْقِ السماواتِ والأرضِ وما فيهنَّ من المخلوقاتِ المتنوّعةِ، والنظرَ في الإنسان، وما هو عليه من الصفات: يقوّي الإيمانَ، لما في هذه الموجوداتِ من عظمةِ الخَلْق الدّالِ على قدرة خالِقها وعظمته، وما فيها مِنَ الحُسْنِ والانتظام والإحكام الذي يحيِّرُ الألبابَ، الدالَّ على سَعَةِ علم الله، وشمول حكمته، وما فيها من أصنافِ المنافع والنعمِ الكثيرة التي لا تعدُّ ولا تحصى، الدالة على سَعَةِ رحمة الله وجودِه وبره، وذلك كلُّه يدعو إلى تعظيم مبدعها وبارئها وشكره، واللهج بذكره، وإخلاص الدِّين له، وهذا هو روحُ الإيمان وسرُّه[2].

---

[1] الإيمان أولاً فكيف نبدأ به ، د. الهدلي ص (119).

[2] هجر القران العظيم د. محمود الدوسري ص (567).

وكذلك النظر إلى فقرِ المخلوقاتِ كلّها، واضطرارِها إلى ربها من كلِّ الوجوه، وأنها لا تستغني عنه طرفةَ عينٍ، خصوصاً ما تشاهِدُه في نفسِك، من أدلّةِ الافتقار، وقوّة الاضطرار، وذلك يوجِبُ للعبدِ كمالَ الخضوعِ، وكثرةَ الدعاءِ، والتضرّع إلى ربه، وكمالَ الثقةِ بوعده، وشدّةَ الطمع في برّه وإحسانه، وبهذا يتحقَّقُ الإيمانُ، ويقوى التعبّد، فإنَّ الدعاءَ مخُّ العبادةِ وخالصُها[1].

وكذلك الفكُّر في كثرةِ نِعَمِ الله والائه العامّة والخاصة، التي لا يخلو منها مخلوقٌ طرفةَ عينٍ، فإنَّ هذا يدعو إلى الإيمان[2]، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيات لأُولِي الأَلْبَابِ *الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ *﴾ [آل عمران: 190 . 191] .

5 . الإكثارُ مِنْ ذكرِ الله ومن الدُّعاء الذي هو مُخُّ العبادة في كلِّ وقتٍ:

فإنَّ الذكرَ للهِ يغرسُ شجرةَ الإيمانِ في القلب، ويغذّيها وينمّيها، وكلّما ازدادَ العبدُ ذكراً للهِ، قوي إيمانُه، كما أنَّ الإيمانَ يدعو إلى كثرةِ الذكر، فمن أحبَّ الله أكثرَ مِنْ ذكرِه، ومحبّةُ اللهِ هي الإيمانُ، بل هي روحُه.

وللذكرِ آثارٌ نافعةٌ في حياة المسلمين الدنيوية والأخروية منها:

أ . الحياة الطيبة الحقيقية:

---

[1] المصدر نفسه ص (566).

[2] شجرة الإيمان ص (48).

فالحياة هي حياةُ الروحِ المتغذّية بالوحي الإلهي، المتعلِّق قلبُ صاحبها بذكر الله، وهي التي وصفَها الله بالحياةِ الطيبة بقوله سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *﴾ [النحل: 97] وبقوله أيضاً: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [يونس: 3] فذِكْرُ اللهِ تعالى ومحبّتُه وطاعتُه، والإقبالُ عليه ضامِنٌ لأطيَبِ الحياةِ في الدنيا والآخرة، والإعراضُ عنه ومعصيتُه كفيلٌ بالحياة المنغّصة، والمعيشة الضنك في الدنيا والآخرة[1]، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى *﴾ [طه: 124] وعلى هذا فحياةُ الروح والقلبِ هذه لا يحياها ولا يذوقُ طعمَها إلا الذاكِرُ لله سبحانه وتعالى، كما قال المصطفى صلى الله عليه وسلم: «مَثَلُ الذي يَذْكُرُ ربَّهُ، والّذِي لا يَذْكُرُ ربَّه، مثلُ الحيِّ والميّتِ»[2]، فما بين الذاكِرِ والغافلِ هو ما بين الحيِّ والميّتِ، وشتّان ما بينهما[3]، فسبحان مَنْ أشهدَ عباده جنّته قبلَ لقائه، وفتحَ لهم أبوابها في دارِ العملِ، فاتاهم مِنْ روحِها ونسيمِها وطِيْبِها حتّى قال قائلهم: مساكينُ أهلُ الدنيا، خرجوا منها، ولم يذوقوا أطيبَ ما فيها؟!

قيل: ما أطيبُ ما فيها؟

قال: محبّةُ الله تعالى ومعرفتُه وذكره[4].

---

(1) المصدر نفسه ص (50).

(2) شجرة الإيمان ص (500).

(3) المصدر نفسه ص (50).

(4) المصدر السابق ص (171).

فالذاكر بين الغافلين هو كالحيِّ بين الموتى حياةً متكاملةً في البدن والروح والشعور، قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *﴾ [الانعام: 122] .

ب . القوّةُ في الأبدانِ وإحياءَ المعاش والجهاد:

إنّ الذكرَ يعطي الذاكرَ قوّةً حتى إنّه ليفعلُ مع الذكر ما لم يكن يظنُّ فعلَه بدونه[1]، وشاهِدُ ذلك موقفُ النبيّ صلى الله عليه وسلم مع ابنته فاطمة وعلي رضي الله عنهما، لما سألته خادماً، وشكت إليه ما تقاسيه من الطحن والسعي والخدمة، فعلمَّهما أنْ يسبّحَا كلَّ ليلةٍ إذا أخذا مضاجعهما ثلاثاً وثلاثين، ويحمدا ثلاثاً وثلاثين، ويكبّرا أربعاً وثلاثين، وقال لهما: «فهذا خيرٌ لكما من خادم»[2]، فقيل: إنَّ مَنْ داومَ على ذلك وجدَ قوّة في يومه مغنيةٌ عن خادم.

ج . رقَّةُ القلبِ وخشوعُه:

إنَّ ذكرَ اللهِ يوجِبُ خشوعَ القلب وصلاحَه ورِقَّتَه، ويذهِبُ الغفلةَ عنه، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ *﴾ [الرعد: 28] وقال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: 23] .

---

(1) المصدر السابق ص (172).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المناقب، باب: مناقب علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي أبي الحسن رضي الله عنه (13705)، ومسلم في صحيحه، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: التسبيح أول النهار وعند النوم (2727).

د . النجاة من عذاب الله تعالى:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما عَمِلَ آدميٌّ عملاً قط أنجى له مِنْ عذابِ اللهِ مِنْ ذكرِ اللهِ»[1]، وهذه نهايةُ الغايات، وأعظمُ المطالبِ، وهي أُوْلى اثارِ الذكر وثمارُه، وأجلُّ فوائِده في المعاد[2].

هـ الذاكر من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم القيامة:

ذكرَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من السبعةِ الذين يظلُّهم اللهُ في ظلِّه يومَ لا ظلَّ إلاّ ظلِّه: «ورجلٌ ذكرَ الله خالياً ففاضتْ عيناه»[3].

و . تكثيرُ الشهودِ يومَ القيامة:

فكلُ معالمِ الأرضِ تأتي شاهدةً للذاكرين يومَ تحدِّثُ الأرض أخبارها، فالجبالُ والقِفارُ تتباهى وتستبشِرُ بمن يذكرُ الله عزّ وجلّ عليها، قال ابن مسعود:

---

(1) أخرجه أحمد في مسنده (5 / 239). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (10 / 173): رجاله رجال الصحيح ، إلا أن زياد بن أبي زياد مولى ابن عياش لم يدرك معاذاً ، وبلفظ قريب أخرجه ابن ماجه في سننه ، كتاب الأدب ، باب: فضل الذكر (3790).

(2) ذكر الله تعالى ص (175).

(3) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الجماعة والإمامة ، باب: من جلس في المسجد ينتظر الصلاة ، وفضل المساجد (629) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الزكاة ، باب: فضل إخفاء الصدقة (1031).

إنَّ الجبلَ لينادِي الجبلَ باسمه، يا فلان!هل مرَ بكَ اليومَ أحدٌ يذكرُ اللهَ عزّ وجلّ؟ فإذا قال: نعم استبشرَ[1].

6. معرفة محاسن الدين:

من الأسبابِ المقوّية للإيمانِ معرفةُ محاسنِ الدين، فإنَّ الدينَ الإسلاميَّ كلُّه محاسنُ، عقائدُه أصحُّ العقائدِ وأصدقُها وأنفعُها، وأخلاقهُ أحمدُ الأخلاقِ وأجملُها، وأعمالُه وأحكامُه أحسنُ الأحكامِ وأعدلُها، وبهذا النظرِ الجليلِ يزيّنُ اللهُ الإيمانَ في قلبِ العبدِ، ويحبّبه إليه، كما امتنّ به على خيار خلقه بقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: 7] فيكونُ الإيمانُ في القلبِ أعظمَ المحبوباتِ، وأجملَ الأشياءِ، وبهذا يذوقُ العبدُ حلاوةَ الإيمانِ، ويجدُها في قلبه، فيتجمَّلُ الباطنُ بأصولِ الإيمانِ وحقائقه، وتتجمّل الجوارحُ بأعمالِ الإيمانِ، وفي الدعاء المأثور: «اللهمّ زيّنا بزينةِ الإيمانِ، واجعلنا هداةً مهتدين»[2].

ومن النماذجِ الرفيعة في القدرة على عرض محاسن الإسلام على الآخرين ما قام به جعفرُ بنُ أبي طالب رضي الله عنه في عرض محاسن الإسلام على النجاشي ملك الحبشة، وكان ذلك سبباً في إسلامه وهدايته، فقد قال جعفر رضي الله عنه، وكان هو المتكلِّم عن المسلمين: أيُّها الملِكُ، كنّا قوماً أهلَ جاهليةٍ، نعبدُ الأصنامَ، ونأكلُ الميتةَ، ونأتي الفواحشَ، ونقطعُ الأرحامَ، ونُسِيْءُ الجوارَ، ويأكلُ القويُّ منّا الضعيفَ، فكنّا على ذلك، حتى بعثَ الله إلينا رسولاً منا، نعرفُ نسبَه وصدقَه وأمانتَه وعفافَه، فدعانا

---

[1] أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (9 / 103) ، والبيهقي في شعب الإيمان (538) ، وأبو نعيم في حلية الأولياء (4/ 242).

[2] أخرجه النسائي في سننه ، كتاب: السهو: باب: نوع اخر (1305) ، وأحمد في مسنده (264/4) قال الألباني في مشكاة المصابيح (2497):

إلى الله لنوحّدَه ونعبدَه، ونخلعَ ما كنّا نعبدُ نحن واباؤنا من دونه من الحجارةِ والأوثانِ، وأمرنا بصدقِ الحديثِ، وأداءِ الأمانةِ، وصلةِ الرحمِ، وحُسنِ الجوارِ، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكلِ مالِ اليتيمِ، وقذف المحصنات.

وأمرنا أن نعبدَ الله وحدَه لا نشركُ به شيئاً، وأمرنا بالصلاةِ والزكاةِ والصيامِ، (قال: فعدّدَ عليه أمورَ الإسلامِ) فصدّقناه، وآمنا به، واتّبعناه على ما جاء به من دينِ اللهِ، فعبدنا الله وحدَه فلم نشركْ به شيئاً، وحرّمنا ما حرّم علينا، وأحللنا ما أحلّ لنا، فعدا علينا قومُنا، فعذّبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردّونا إلى عبادةِ الأوثانِ من عبادة الله تعالى، وأنْ نستحلَّ ما كنا نستحلُّ من الخبائثِ، فلمّا قهرونا وظلمونا، وضيّقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادِكَ، واخترناكَ على مَنْ سواكَ، ورَغِبْنا في جوارِك، ورجونا أنْ لا نظلمَ عندَك أيُّها الملك.

فقال له النجاشي: وهل معكَ ممّا جاء به عن اللهِ مِنْ شيءٍ؟

فقال له جعفر: نعم.

فقال له النجاشي: فاقرأه عليَّ.

فقرأ عليه صدراً من ﴿كهيعص *﴾ [مريم] . فبكى ـ والله ـ النجاشي حتى اخضلَّتْ لحيتُه، وبكت أساقفتُه، حتى أَخْضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال لهم النجاشي: إنَّ هذا (يقصد القرآن الكريم) والذي جاء به عيسى (يقصِدُ الإنجيل) والذي جاء به موسى (يقصد التوراة) ليخرجُ من مشكاةٍ واحدةٍ (أي من مصدر واحد أي من عند الله تعالى) انطلقا، فلا واللهِ لا أسلِّمهم إليكم أبداً، ولا يُكادون (يخاطب عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة ـ مندوبي قريش إلى النجاشي) قالت أمُّ سلمة رضي الله عنها: فخرجا من عنده مقبوحينِ، مردوداً عليهما ما جاءوا به،

وأقمنا عنده بخيرِ دارٍ مع خير جارٍ[1]، ثم أسلم بعد ذلك النجاشي، وحَسُنَ إسلامه، وأسلم معه أساقفه وبطارقه وكثيرٌ من النصارى في تلك الديار[2].

كان ردُّ جعفر على أسئلة النجاشي في غاية الذَّكاءِ وقمّةِ المهارة السياسية والإعلامية والدعوية والعقدية فقد قام بالتالي:

- عدّد عيوبَ الجاهلية، وعرضها بصورةٍ تنفِّرُ السامعَ، وقصد بذلك تشويه صورةِ قريشٍ في عَيْنِ الملك، وركّز على الصفاتِ الذميمة التي لا تُنْتَزَعُ إلا بنبوَّةٍ.
- عرضَ شخصيةَ الرسولِ صلى الله عليه وسلم في هذا المجتمع الاسن، المليء بالرّذائل، وكيف كان بعيداً عن النّقائص كلها، ومعروفاً بنسبه وصدقه، وأمانته، وعفافه فهو المؤهّلُ للرسّالة.
- أبرزَ جعفرُ محاسنَ الإسلام وأخلاقَه التي تتفق مع أخلاق دعوات الأنبياء، كنبذِ عبادة الأوثان، وصدقِ الحديث، وأداءِ الأمانة، وصلةِ الرحم، وحُسنِ الجوار، والكفِّ عن المحارم والدِّماء، وإقام الصلاةِ، وإيتاءِ الزّكاة، لأنّ النجاشي وبطارقتَه موغلون في النصرانيةِ، فهم يدركون أنّ هذه رسالاتُ الأنبياء، التي بعثوا بها من لدن موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام[3].
- لقد نجحَ جعفرُ رضي الله عنه بتوفيقِ اللهِ في عَرْضِ محاسنِ الإسلام، فأسلمَ الملكُ، وكسبَه إلى جانبه.

---

(1) أخرجه أحمد في مسنده (1 / 202) ، (5 / 290) ، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (6 / 27): رجاله رجال الصحيح غير إسحاق ، وقد صرح بالسماع.

(2) حقيقة الولاء والبراء ، سيد سعيد ص (1560).

(3) السيرة النبوية للصَّلابي (1 / 361).

7. الاجتهادُ في التحقُّق من مقامِ الإحسان في عبادة الله، والإحسانُ إلى خلقه:

فيجتهدُ أن يعبدَ الله كأنّه يشاهده ويراه، فيجتهدُ في إكمالِ العملِ وإتقانه، ولا يزالُ العبد يجاهِدُ نفسه ليتحقّق بهذا المقام العالي، حتى يقوّمَ إيمانَه ويقينَه ويصلُ في ذلك إلى حقِّ اليقين الذي هو أعلى مراتبِ اليقين، فيذوقَ حلاوةَ الطاعاتِ، ويجدَ ثمرةَ المعاملاتِ، وهذا هو الإيمانُ الكامِلُ.

وكذلك الإحسانُ إلى الخلقِ بالقول والفعل والمال والجاه وأنواع المنافع هو من الإيمان، ومن دواعي الإيمان، والجزاء من جنس العمل، فكما أحسنَ إلى عبادِ اللهِ، وأوصلَ إليهم من برّه، أحسنَ الله إليه أنواعاً من الإحسانِ، ومن أفضلها: أن يقوّيَ إيمانه ورغبتَه في فعل الخير، والتقرّب إلى ربه، وإخلاص العمل له، وبذلك يتحقّق العبدُ بالنصح لله ولعباده، فإنّ الدّينَ النصيحةُ، ومن وُفّقَ للإحسان في عبادة ربه، والإحسانِ في معاملةِ الخلق، فقد تحقّق نصحُه[1]، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ [النحل: 90] وقال تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ *﴾ [آل عمران: 134]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ *﴾ [الاعراف: 56] وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ *﴾ [هود: 115] وقال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ *﴾ [الرحمن: 60] وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ *﴾ [النحل: 128] فالمحسنون يشعرون بمعيّةِ الله، فيا له من شعورٍ عظيمٍ يستحقّه المحسنون![2].

---

[1] شجرة الإيمان ص (53).

[2] أخلاق المؤمن عمرو خالد ص (38).

8. الدعوة إلى الله:

ومن دواعي الإيمان وأسبابه الدعوةُ إلى اللهِ وإلى دينه، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، والدعوة إلى أصل الدين، والدعوة إلى التزام شرائعه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنّ طريقَ الدعوة إلى الله والنصيحة لعباده من أكبر مقوّمات الإيمان، وصاحبُ الدعوة لابدَّ أن يسعى لنشر هذه الدعوة، ويقيمَ الأدلّة والبراهينَ على تحقيقها، ويأتيَ الأمور من أبوابها، ويتوسّلَ إلى الأمورِ من طرقها، وهذه الأمورُ من طرق الإيمان وأبوابه، وإنّ الجزاءَ من جنسِ العمل، فكما سعى إلى تكميلِ العبادِ ونصحِهم وتوصيتهم بالحق، وصبر على ذلك لا بّد أن يجازيه الله من جنس عمله، ويؤيّده بنورٍ منه وروحٍ وقوةٍ وإيمانٍ وحُسنِ التوكُّل عليه، فإنَّ الإيمانَ وحُسْنَ التوكل على الله يحصلُ به النصرُ على الأعداء، وعلى شياطينِ الإنس وشياطين الجن[1]، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ *﴾ [النحل: 99] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ *وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ *وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ *﴾ [فصلت: 33 ـ 35] .

9. توطينُ النفس على مقاومة ما ينافي الإيمان:

ومن أهمِّ موادّ الإيمان ومقوياته توطينُ النفس على مقاومة ما ينافي الإيمان من شُعَبِ الكفر والفسوق والعصيان، فكما أنّه لا بدّ في الإيمان من فعلِ جميعِ الأسباب

---

[1] شجرة الإيمان ص (53).

المقوّيةِ المنمّية له، فلا بدَّ مع ذلك من دفعِ الموانعِ والعوائق، وهي الإقلاعُ عن المعاصي، والتوبةُ ممّا يقع منها، وحفظُ الجوارح كلِّها من المحرّمات، ومقاومةُ فتن الشبهاتِ القادحةِ في علوم الإيمان، والمضعفة له، والشهواتِ المضعفةِ لإرادات الإيمان[1]، فإنّ الإرادات ـ التي أصلُها الرغبةُ في الخير ومحبته، والسعي فيه ـ لا تترك إلا بترك إراداتِ ما ينافيها من رغبةِ النفس في الشرِّ، ومقاومةِ النفس الأمارة بالسوء، فمتى حُفِظَ العبدُ من الوقوع في فتن الشبهات وفتن الشهوات تمَّ إيمانه، وقوي يقينه، وصار بستان إيمانه ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ *﴾ [البقرة: 265] ومتى كان الأمر بالعكس، بأن استولت عليه النفس الإمارةُ بالسوء، ووقع في فتن الشبهات أو الشهوات أو كليهما، انطبق عليه هذا المثل، وهو قوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيات لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ *﴾[البقرة: 266].

فالعبدُ المؤمنُ الموفَّقُ لا يزالُ يسعى في أمرين:

أحدهما: تحقيقُ أصولِ الإيمان وفروعه، والتحقّق بها علماً وحالاً.

والثاني: السعيُ في دفع ما ينافيها وينقضها أو ينقصُها من الفتن الظاهرة والباطنة، ويداوي ما قصّر فيه من الأول، وما تجرأ عليه من الثاني، بالتوبة النصوح، وتدارك الأمر قبل فواته، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ *﴾ [الاعراف: 201] أي: مبصرون الخلل الذي وقعوا فيه، والنقص

[1] المصدر السابق ص (60).

الذي أصابهم من طائفِ الشيطان، الذي هو أعدى الأعداء للإنسان، فإذا أبصروا، تداركوا هذا الخلل بسدّه، وهذا الفتق برتقه[1]، فعادوا إلى حالهم الكاملة، وعاد عدُّوهم حسيراً ذليلاً، وإخوانُ الشيطان، ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ *﴾ [الاعراف: 202] فالشياطينُ لا تُقَصِّرُ عن إغوائهم وإيقاعهم في أشراك الهلاك، والمستجيبين لهم لا يقصّرون عن طاعة أعدائهم، والاستجابة لدعوتهم حتى يقعوا في الهلاك، ويحقُّ عليهم الخسار، ولذلك نكثِرُ من الدعاء: اللهمَّ حَبِّبْ إلينا الإيمانَ وزّينُه في قلوبِنا، وكرّهِ إلينا الكُفْرَ والفُسوقَ والعِصيانَ، واجعلنا مِنَ الرّاشدينَ بفضلِكَ ومنَّتِكَ إنّكَ أنتَ العليمُ الحكيمُ[2].

10 . معرفة حقيقةِ الدُّنيا واعتبارُها ممراً للآخرة:

ومن مقوّيات الإيمانِ معرفةُ حقيقةِ الدنيا، وأنّها مهما طالتْ فهي إلى زوالٍ، وأنّ متاعَها مهما عَظُمَ، فإنّه قليلٌ حقيرٌ، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ *﴾ [يونس: 24] إنّ الآيةَ الكريمةَ السابقة فيها عشرُ جملٍ وقعَ التركيبُ من مجموعها، بحيثُ لو سقطَ منها شيءٌ اختلّ التشبيه، إذ المقصودُ تشبيهُ حالِ الدنيا بسرعةِ تقضّيها، وانقراضِ نعيمها، واغترارِ الناس بها، بحالِ ماءٍ نزلَ من السماء، وأنبتَ أنواعَ العشب، وزيّنَ بزخرفه وجهَ

---

[1] شجرة الإيمان ص (61).
[2] المصدر السابق ص (62).

الأرضِ، كالعروس إذا أخذتْ الثيابَ الفاخرة، حتى إذا طمع أهلُها فيها، وظنّوا أنّها مسلمّةٌ من الجوائح، أتاها بأسُ اللهِ فجأةً، فكأنها لم تكن بالأمسِ[1].

وأخبرنا رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بقول الله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا *﴾ [الكهف: 45] .

أي: واضرب يا محمَّد للناسِ في زوالها وفنائها وانقضائها أي: ﴿مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ﴾ فيها من الحَبِّ، فشبَّ، ونما، وحَسُنَ، وعلاه الزهرُ والنضرةُ، ثم بعد هذا كله أي: يابساً أي: تفرّقه وتطرحه ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشمالِ أي: هو قادرٌ على الإنشاء والإفناء.

وقال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخرة عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ *﴾ [الحديد: 20] يقول تعالى مُوهِّناً أمرَ الحياة الدنيا، ومحقّراً لها أي: تفريجُ نفسٍ أي: باطِلٌ أي: منظرٌ جميلٌ أي: بالحسبِ والنّسبِ أي: مطرٍ أي: يُعْجِبُ الزرّاع ذلك ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ﴾، فإنّهم أحرصُ الناس عليه، وأميلُ الناس إليه أي: ثم يجفُّ بعد خضرته ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾، وتراه مصفرّاً، أي: من اليبس أي: ثمّ يكونُ بعد ذلك كلّه ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾، أي: هشيماً منكسراً، وكذلك الدنيا لا تبقى، كما لا يبقى النباتُ الذي وصفناه، ولما كان هذا المثلُ دالاً على زوال

[1] مباحث في إعجاز القران ص (216).

الدنيا، وانقضائها لا محالةَ، وأنَّ الآخرة كائنةٌ واتيةٌ لا محالةَ، حذّرنا الله تعالى من أمرها، ورغّبنا فيما فيها من الخيرِ، فقال تعالى: أي: وليس في الآخرة الاتيةِ إلا: إمّا هذا وإمّا ﴿وَفِي الآخرة عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾، أي: إمّا عذابٌ شديد، وإمّا مغفرة من الله ورضوان، وقوله تعالى: أي: هي متاعٌ زائلٌ يغرُّ ويخدعُ مَنْ يركنُ إليها وإلى ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ *﴾، فيغترّ بها، وتعجّبَ ممن يعتقدُ أنّه لا دارَ سواها، ولا معادَ ورائها، مع أنها حقيرةٌ قليلةُ المتاعِ بالنسبة إلى الدّار الآخرة[1].

إنّ هذه الحقيقةَ التي أشارت إليها الآيات الكريمة، هي حقيقةُ الدنيا بكلِّ متاعها وزينتِها، وما تشتهيه النفسُ منها، وإنَّ كلَّ ذلك بالنسبة لنعيم الآخرة شيءٌ تافه، وقليلٌ وزائلٌ، هكذا فهم المسلمون حقيقةَ الدنيا، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبصّرهم، ويذكّرهم بدورهم ورسالتِهم في الأرض، ومكانتِهم عند الله، وظلَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم على هذه الحال من التبصير والتذكير حتّى انقدحَ في ذهنهم ما لهم عند الله، وما دورُهم وما رسالتُهم في الأرض، وتأثراً بتربيته الحميدة تولّد الحماسُ والعزيمةُ في نفوس أصحابه، فانطلقوا عاملين بالليل والنهار بكلِّ ما في وسعهم وما في طاقتهم دون فتور أو توانٍ، ودون كسل أو ملل، ودون خوفٍ من أحدٍ إلا الله، ودونَ طمعٍ في مغنم أو جاه، إلا أداء هذا الدور وهذه الرسالة لتحقيق هذه الغاية في الدنيا، والفوز والنجاة في الآخرة[2]..

---

[1] تفسير القاسمي (11 / 49).

[2] منهج الرسول صلى الله عليه وسلم في غرس الروح الجهادية ص (19-24).

سابعاً ـ صفات المؤمنين:

عرض القرآن الكريم كثيراً من صفاتِ أهلِ الإيمان، وتحدّثت آياته الكريمةُ عن أهمّها وأشهرِها، ودعت المؤمنينَ إلى أنْ يتّصفوا بها حتى يعيشوا حياةً إيمانيةً مباركةً سعيدةً، وحتى ينالوا جنةَ الله وثوابه ونعيمه، ولقد كان حديثُ القرآن الكريم عن صفاتِ المؤمنين شاملاً ومتنوعاً، وقد توزّعت سور القرآن في الحديثِ عن صفات المؤمنين في الفترة المكية والمدنية، وهذا يعطي أهميةً لتذكير المسلمين بها، حتى لا تُنسى ولا تُهملَ، ولكي يتربّى على هذه الصفاتِ والأخلاق عموم المسلمين[1]، ولا يمكننا حصرُ صفاتِ المؤمنين في القرآن الكريم، ولكن نقدّم مجموعةً من الآيات الواردة في بعض السور، والتي تضمّنت مجموعةً من الصفات اللازمة لأهل الإيمان.

1 ـ قال تعالى في سورة المؤمنين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ *الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ *وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ *وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ *وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ *إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ *فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ *وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ *وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ *أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ *الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ *﴾

فمن صفات هؤلاء المؤمنين في هذه الآيات الكريمة:

أ ـ الخشوع في الصلاة:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما مِنْ امرىءٍ مسلم تحضرُهُ صلاةٌ مكتوبةٌ، فيُحْسِنُ وضوءَها وخشوعَها وركوعَها إلاّ كانتْ كفّارةً لما قبلَها مِنَ الذّنوبِ ما لم يأتِ

[1] في ظلال الإيمان ص (79 ـ 80).

كبيرةً، وذلك الدهرُ كلَّه»[1]. والخشوع مطلوبٌ من المرءِ في الصلاة لوجوه منها الوجه الأول: لتذكّرِ اللهِ، والخوفِ من وعيده، كما قال عز وجل: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي *﴾ [طه :14] والوجه الثاني: أنّ للصلاة أركاناً وواجباتٍ وسنناً، وروحُها النيةُ، والإخلاصُ، والخشوعُ، وحضورُ القلب، فإنّ الصلاة تشتمل على أذكارٍ ومناجاةٍ وأفعالٍ، ومع عدم حضورِ القلبِ لا يحصلُ المقصودُ بالأذكارِ والمناجاةِ، لأنَّ النطقَ إذا لم يعرِبْ عمّا في الضميرِ كان بمنزلة الهذيان، وكذلك لا يحصلُ المقصودُ من الأفعالِ، لأنَّه إذا كان المقصودُ من القيام الخدمةَ، ومن الركوعِ والسجودِ الذلَّ والتعظيمَ، ولو لم يكن القلبُ حاضراً لم يحصل المقصودُ، فإنَّ الفعلَ متى خرجَ عن مقصودِه بقي صورةً لا اعتبارَ بها، قال تعال: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ [الحج :37] والمقصود أنَّ الواصلَ إلى الله سبحانه وتعالى هو الوصفُ الذي استولى على القلب حتّى حملَ على امتثالِ الأوامرِ المطلوبة، فلابدّ من حضور القلبِ في الصلاةِ، ولكن سامحَ الشارعُ في غفلةٍ تطرأ، لأنَّ حضورَ القلبِ في أولها ينسحبُ حكمُه على باقيها[2].

ب . الإعراض عن اللغو واللغو:

كلُّ كلامٍ ساقطٍ حقُّه أن يُلغى، كالكذب والشتم، والهزل، يعني أنّ لهم من الجدِّ ما شغلهم عن الهزل، ولما وصفهم بالخشوع في الصلاة أتبعه الوصفَ بالإعراضِ عن اللغو، ليجمع لهم الفعلَ والتركَ الشاقّين على الأنفس، اللذين هما قاعدتا بناء

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الطهارة ، باب: فضل الوضوء والصلاة عقبه (228).

[2] مختصر منهاج القاصدين ص (26) تفسير المراغي 5/ 6.

التكليف[1]. قال تعالى: أي: عن ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ*﴾ ، وهو يشتمل على الشرك، كما قاله بعضهم، وعلى المعاصي كما قاله آخرون ـ وما لافائدة فيه من الأقوال والأفعال، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا *﴾ [الفرقان :72] .

ج ـ تطهيرهم لأنفسهم بأداء الزكاة:

قال تعالى وقال ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ *﴾ الله صلى الله عليه وسلم: «الطُّهُوْرُ شطرُ الإيمانِ، والحَمْدُ للهِ تملأُ الميزانَ، وسُبْحَانَ اللهِ والحَمْدُ للهِ تملان ـ أو تملأ ـ ما بين السماواتِ والأرضِ، والصلاةُ نورٌ، والصدقةُ برهانٌ، والصبرُ ضياءٌ، والقرآن حُجَّةٌ لكَ أو عليكَ، كلُّ الناسِ يغدو فبائعٌ نفسَه، فمعتقُها أو موبقُها»[2] قوله: «الصدقة برهان» معناه: الصدقةُ حجةٌ على إيمان فاعِلها، فإنَّ المنافقَ يمتنعُ منها، لكونه لا يعتقده، فمن تصدّقَ استُدلَّ بصدقته على صدق إيمانه، فالمؤمنون في حياتهم الدنيا يصونون بالزكاة المجتمعَ من الخلل الذي ينشِئُه الفقرُ في جانب، والترف في جانب، فهي تأمينٌ اجتماعي للأفراد جميعاً، وهي ضمانٌ اجتماعي للعاجزين، وهي وقايةٌ للجماعة كلِّها من التفكك والانحلال[3].

د ـ حفظ الفروج:

قال تعالى: فالمؤمنون قومٌ يحبّون ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ *إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ *فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ*﴾

---

[1] تفسير النسفي ، وتفسير الكشاف (3 ؛ 26).
[2] أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الطهارة ، باب: فضل الوضوء (223).
[3] الحياة في القران الكريم ، حزمي جزولي.

ويحافظون على طهارتهم بمعناها الشامل، وهذه طهارةُ الروح، ووقايةُ النفس والأسرة والمجتمع بحفظ الفروج من دنس المباشرة في غير حلالٍ، وحفظِ القلوبِ من التطلُّع في غير حلالٍ، وحفظِ المجتمع من انطلاق الشهوات فيه بغير حساب، ومن فساد البيوت فيها والأنساب[1].

وحفظُ الفَرْجِ يشمل تجنُّبَ إتيان الزوجة في الدبر، وفي أثناء الحيض، وفي أثناء الصيام، والإحرام.

وحفظ الفرج يقتضي سَدَّ الذرائع، أي تجنُّبَ السُبُل التي تفضي إليه، ولهذا أمر القرآن الكريم المؤمنين والمؤمنات بغضِّ البصر، وعدمِ إبداء الزينة، فذلك أزكى لهنّ وأطهر[2]، قال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ *وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ولاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ *﴾ [النور :30. 31]

---

(1) في ظلال القران (4/ 2445).

(2) الفضائل الخلقية في الإسلام ، لأحمد عبد الرحمن ص (244).

ولكي يمكّن الإسلام المسلمَ من الممارسة الفعلية لحفظ الفرج والعفّة، فإنّه يراعي الأمور التالية:

الأمر الأول: إنّ الإسلامَ لم يجعلْ الزواجَ أبدياً كالمسيحية مثلاً، فأباحَ الطلاق إذاوقعَ النفورُ بين الزوجين، وعند عجزِ الزوجِ، أو مرضه، أو إعساره، أو غيبته.

الأمر الثاني: أباحَ للزوجِ الطلاقَ، والتزوّجَ بأكثر من واحدة على أن يعدلَ بينهنَّ فيما يملك.

الأمرَ الثالث: أمرَ الذي لا يستطيعُ مؤنَ النكاحِ بالصومِ، ليدفعَ شهوته، ويحفظَ فرجه وعفته، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا معشرَ الشبابِ، مَنِ استطاعَ مِنْكُم الباءةَ فليتزوّجْ، فإنّه أغضُّ للبصرِ، وأحصنُ للفرجِ، وَمَنْ لم يستطعْ فعليه بالصّوْمِ فإنَّه له وجاءُ»[1]. وبهذا فتحت الشريعةُ للمُحْصَنُ كلَّ أبوابَ الحلالِ، وأغلقتْ دونه بابَ الحرام[2].

وفضلاً عن هذا فإنَّ المجتمعَ الإسلاميَّ الحقيقيَّ يخالِفُ المجتمعاتِ القائمةِ جذرياً لصالح العفّة، فنظمُه وقوانينُه تعاونُ الرجالَ والنساءَ على التعفّف[3].

هـ رعاية الأمانة والعهد:

قال تعالى: أي: إذا اؤتمنوا لم ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ *﴾، بل يؤدّون الأمانة إلى أهلها، وإذا عاهدوا أو أو عاقدوا أوفوا بذلك، لا كالمنافقين الذين

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: النكاح ، باب: من لم يستطع الباءة فليصم (5066) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: النكاح ، باب: استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤونة (1400).

[2] التشريع الجنائي الإسلامي (642/1).

[3] الفضائل الخلقية في الإسلام ، ص (245).

وصفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: «ايةُ المنافِقِ ثلاثٌ: إذا حدّثَ كذبَ، وإذا وعدَ أخلفَ، وإذا أؤتمنَ خان»[1]. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا *﴾ [النساء : 58] .

وعن أبي ذر قال: قلتُ: يا رسول الله! ألا تستعملني؟ فضربَ بيدِهِ على منكبي، ثم قال: «يا أبا ذر! إنك ضعيفٌ، وإنها أمانةٌ، وإنها يومَ القيامةِ خزيٌ وندامةٌ، إلا مَنْ أخذها بحقِّها، وأدّى الذي عليه فيها»[2]. فسمّى الرسولُ صلى الله عليه وسلم الولايةَ في هذا الحديثِ أمانةً، لأنّ تأديةَ حقِّها بالعدلِ، وعدم الاستغلال الشخصيّ فيها، واليقظة على مصالح الناس: كلُّ ذلك لا يكون إلاَّ بخلق الأمانة[3].

وعن أبي هريرة قال: بينما كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يحدّثُ إذا جاء إعرابيٌّ فقال: «متى الساعة؟ قال: «إذ ضيعت الأمانةُ فانتظرِ الساعةَ».

قال: كيف إضاعتها؟.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا وُسِدَ الأمرُ إلى غيرِ أهلِهِ فانتظرِ الساعة»[4].

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: علامة النفاق (33) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: بيان خصال المنافق (59).

(2) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الإمارة ، باب: كراهة الإمارة بغير ضرورة (1825).

(3) الأخلاق الإسلامية وأسسها (605/1).

(4) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: العلم ، باب: من سئل علماً وهو مشتغل في حديثه فأتمَّ الحديث ، ثم أجاب السائل (59).

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلاَ تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ *﴾[البقرة: 283] .

و ـ المحافظة على الصلوات:

قال تعالى: أي الذين على أوقاتِ صلاتهم ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ*﴾، فلا يضيعونها، ولا يشتغلون عنها حتى تفوتهم، ولكنّهم يراعونها حتّى يؤدونها فيها[1].

روي عن عبد الله بن مسعود قال: سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم: أيُّ العملِ أفضلُ؟ قال: «الصلاةُ على وقتِها» قال: قلتُ: ثُمَّ أيْ؟ قال: «برُّ الوالدينِ» قال: قلتُ: ثمَّ أيْ؟ قال: «الجهادُ في سبيلِ اللهِ» فما تركت استزيدُه إلا إرعاءً عليه[2].

2 ـ وقال تعالى في سورة الفرقان: هذه هي صفاتُ عبادِ الله المؤمنين في الحياة ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَانِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا *وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيامًا *وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا *إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا *وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا *وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا *يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً *إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ

---

[1] تفسير الطبري (9/ 200).

[2] أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال (85). وأخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الجهاد والسير ، باب فضل الجهاد والسير بلفظ قريب (2872).

حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا *وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا *وَالَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا *وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَات رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَاناً *وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا *أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاَمًا *خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا *﴾، الذين استوجبوا المثوبةَ منه، وجزاهم على ذلك الجزاءَ العظيم.

فمن هذه الصفات:

أ ـ السكينة والوقار: قال تعالى: أي: بالسكينةِ والوقار غير ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَانِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً﴾، ولا متجبّرين، ولا ساعينَ فيها بالفسادِ ومعاصي الله[1].

فالمؤمنون قومٌ لا يريدون في الأرض علوّاً، ولا يبغون فيها كذلك فساداً، قال تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخرة نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ *﴾ [القصص: 83] وفي بيان المعنى الصحيح للسكينة والوقار، ليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تصنُّعاً ورياءً، فقد كان سيّدُ ولد آدم صلى الله عليه وسلم إذا مشى كأنّما ينحطُّ من صببٍ، وكأنّما الأرضُ تطوى له، وقد كره بعضُ السلف المشيَ بتضعُّفٍ وتصنُّعٍ[2].

وتبيّنُ الآية أنَّ المؤمنين في الحياة الدنيا يتميّزون عن غيرهم بالسكينة والوقار والتواضع، وهم لا يستكبرون، ولا يسعَوْن في الأرض بالفساد، ذلك لأنّ الكِبْرَ له

---

(1) تفسير القرطبي (407/9).

(2) تفسير ابن كثير (279/3).

خطورته البالغة على الحياةِ البشريّة، فلا يبقى في حالةِ وجودِ الكِبْر احترامٌ لأحدٍ، ولا هيبةٌ لأحدٍ، ولا حرمةٌ لأحدٍ، ولا أدبٌ لأحدٍ[1].

ب . الحلم: قال تعالى: فهم حلماءُ ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا *﴾ يجهلون، وإن جُهِلَ عليهم حلموا ولا يَسْفَهون.

هذا نهارهم، فكيف ليلهم؟خير ليل، صفُّوا أقدامهم، وأجروا دموعهم على خدودهم، يطلبونَ مِنَ اللهِ جلَّ ثناؤه فِكاك رقابهم[2].

والحلمُ من الخصالِ المحمودةِ التي يحبُّها الله عزَّ وجلَّ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لأشجِّ عبدِ القيس: «إنَّ فيكَ خصلتينِ يحبُّهما اللهُ: الحلمُ والأناةُ»[3].

ج . إحياءُ الليل بالصلاة: من صفاتِ عبادِ الله المؤمنين في الحياة الدنيا إحياؤهم الليلَ أو أكثرَه بالصلاةِ والطاعةِ، وقد ذكر الله سبحانه هذه الصفة للمؤمنين في آيات كثيرةٍ، منها قوله تعالى: وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيامًا * إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآياتنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ *تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ *﴾ [السجدة:15-16] وقوله سبحانه: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ *وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ*﴾ [الذاريات: 17 . 18] .

وهم في صلاتهم وعبادتهم تمتلأئُ قلوبُهم بالتقوى والخوف من عذاب جهنم، فهم يتوجّهون إلى ربِّهم تضرُّعاً وخُفية، ليصرفَ عنهم عذابها، قال تعالى: وقال تعالى:

---

[1] الحياة في القران الكريم (443/2).

[2] تفسير الطبري (409/9).

[3] أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب: الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله وشرائع الدين ، والدعاء إليه ، والسؤال عنه ، وحفظه ، وتبليغه من لم يبلغه (17).

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا *إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْءًا وَأَقْوَمُ قِيلاً *﴾ [الفرقان: 6] فإنَّ مغالبةَ هتافِ النوم وجاذبيةِ الفراش، بعد كدِّ النهار، أشدُّ وطأً، وأجهدُ للبدن، ولكنَّها إعلانٌ لسيطرة الروح، واستجابةٌ لدعوة الله، وإيثارٌ للإنس به، ومن ثَمَّ فإنَّها أقومُ قيلاً، لأنَّ للذكر فيها حلاوتُه، وللصلاة فيها خشوعُها، وللمناجاةِ فيها شفافيتُها، وإنها لتسكبُ في القلبِ أُنساً وراحَةً وشفافيةً ونوراً، قد لا يجدُها في صلاةِ النهار وذكره، والله الذي خلقَ هذا القلبَ يعلمُ مداخلَه وأوتارَه، ويعلمَ ما يتسرّبُ إليه وما يوقع عليه، وأيُّ الأوقاتِ يكونُ فيها أكثرَ تفتُّحاً واستعداداً وتهيُّؤاً، وأيُّ الأسباب أعلقُ به، وأشدُّ تأثيراً فيه[1].

د . القصدُ والاعتدالُ في الإنفاق: ومن صفات المؤمنين في الحياة الدنيا القصدُ والاعتدالُ، والتوازنُ في الإنفاق، وهم ليسوا بمبذّرين في إنفاقهم، فلا ينفقون فوق الحاجةِ، ولا بخلاء على أهليهم، فيقصّرون في حقهم، ولا يكفونهم، بل عدلاً خياراً، وخيرُ الأمور أوسطها، لا هذا ولا هذا، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا *﴾

هـ عدم الشركِ بالله، والتحرّجِ عن قتل النفس والزنا: ومن صفات عباد الله المؤمنين في الحياة الدنيا أنَّهم لا يشركون بالله، بل يخلِصون العبادةَ له، ويفردونه بالطاعةِ، ولا يقتلون النفس إلاّ بالحقّ الذي يزيلُ حرمتها وعصمتها، كالكفر بالله بعد إسلامها، أو الزنا بعد إحصانها، أو قتل النفس، وتقتل بها[2].

---

[1] في ظلال القران (3746/6).
[2] الحياة في القران الكريم (450/2).

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا * وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: 68-71] .

و ـ عدمُ شهادةِ الزور: قال تعالى: ﴿وَالَّذينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا *﴾، وشهادةُ الزورِ من أكبر الكبائر، فقد صرّح بذلك رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم حيثُ قال لأصحابه: «ألا أنبّئكم بأكبرِ الكبائرِ ـ ثلاثاً ـ: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور ـ أو قول الزور» ـ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم متكئاً فجلس، فما زال يكرّرُها حتى قلنا: ليتَه سكت[1].

ز ـ الانتفاع بموعظة القرآن: قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَاناً *﴾ .

ح ـ الرغبة في مضاعفة السالكين في الدرب إلى الله: قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا *﴾

سُئل الحسن البصريُّ عن هذه الآية، فقال: أن يري اللهَ العبدُ المسلمُ من زوجتِهِ ومن أخيه ومن حميه، طاعةَ الله، لا واللهِ لا شيءَ أقرُّ لعينِ المسلمِ مِنْ أن يرى ولداً أو ولد ولدٍ أو أخاً أو حميماً مطيعاً لله عزَّ وجلَّ[2].

[1] أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: بيان الكبائر وأكبرها (87). وأخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الشهادات، باب: ما قيل في شهادة الزور (2654) بلفظ قريب.

[2] الحياة في القران الكريم (457/2).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: أئمة ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا *﴾ يهتدى بنا، ولا تجعلنا أئمة ضلالة، لأنّه قال لأهل السعادة: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاَةِ﴾ [الانبياء: 73] ولأهل الشقاوة: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ يُنْصَرُونَ *﴾ [القصص: 41] .

وقال آخرون: هداة مهتدين، دعاة إلى الخير، فأحبّوا أن تكونَ عبادتهم متصلةً بعبادةِ أولادِهم وذرياتهم، وأن يكونَ هداهم متعدّياً إلى غيرهم بالنفع، وذلك أكثرُ ثواباً، وأحسن مآباً، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا ماتَ ابنُ آدم انقطعَ عملُه إلاّ من ثلاثٍ، ولدٍ صالحٍ يدعو له، أو علمٍ يُنْتَفَعُ به من بعدِهِ، أو صدقةٍ جاريةٍ»[1].

ونكتفي بهذا القدر في ذكر صفاتِ المؤمنين في الحياة الدنيا، فلا نتوسّعُ خشيةَ الإطالةِ، وإلاّ فصفاتُ المؤمنين كثيرةٌ كما وردت في القرآن الكريم، فمنها: الإخلاصُ والصدقُ، والتوكلُ، ومحبةُ اللهِ، والخوفُ والرجاءُ، والشكرُ، والصبرُ، والرضا، والشجاعةُ، وغيرها من الصفاتِ الحميدةِ[2].

ثامناً: فوائد الإيمان وثمراته:

إنَّ للإيمانِ الصحيحِ فوائدَ وثمراتٍ عاجلةً وآجلةً في القلبِ والبدنِ والراحةِ والحياةِ الطيّبةِ في الدنيا والآخرة، كما أنَّ لهذه الشجرة الإيمانية من الثمارِ اليانعةِ، والجنى

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الوصية، باب: ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته (1631) ولفظه: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة إلا من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له».

[2] الحياة في القران الكريم (459/2).

اللذيذ، والأُكل الدائم، والخير المستمر، وأمور لا تحصى، وفوائد لا تستقصى، ومجملها: أن خيراتِ الدنيا والآخرة ودفعَ الشرورِ كلِّها من ثمراتِ الإيمانِ الصحيح، وذلك أنَّ شجرةَ الإيمانِ الصحيح إذا ثبتتْ وقويتْ أصولُها، وتفرّعتْ فروعُها، وزهت أغصانُها، وأينعتْ أفنانُها، عادت على صاحِبها وعلى غيرِه، بكل خيرٍ عاجلٍ وآجلٍ.

ومن أعظم ثمار الإيمان وفوائده:

1 . الاغتباطُ بولايةِ الله الخاصّة:

الاغتباط بولاية الله هي أعظمُ ما يتنافس فيه المتنافسون، وأجلُّ ما حصّله الموَّفقون، قال تعالى: ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ *الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ *﴾ [البقرة: 62 . 63] فكلُّ مؤمنٍ تقيٍّ فهو للهِ وليٌّ خاصّةً.

ومن ثمراتها ما قاله الله عنهم: ﴿اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ﴾ [النور: 257] أي: يخرجُهم من ظلماتِ الكفرِ إلى نورِ الإيمانِ، ومن ظلماتِ الجهل إلى نورِ العلمِ، ومن ظلماتِ المعاصي إلى نورِ الطاعاتِ، ومن ظلماتِ الغفلةِ إلى نورِ اليقظةِ الذكرِ، وحاصلُ ذلك أنّهُ يخرجُهم من ظلماتِ الشرور المتنوّعة إلى ما يدفعُها من أنوارِ الخيرِ العاجلِ والآجل، وإنّما حازوا هذا العطاءَ الجزيلَ بإيمانهم الصحيح، وتحقيقهم هذا الإيمان بالتقوى، فإنَّ التقوى من تمام الإيمان[1].

والتقوى من شروط ولاية الله الخاصة، ومن شروط التمكين لهذه الأمة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ *﴾ [الأعراف: 96] إنَّ تقوى الله تجعلُ بينَ العبدِ وبينَ ما يخشاه من ربه ومن غضبه وسخطه وعقابه وقايةً تقيهِ مِنْ ذلكَ، وهي أنْ تعملَ

---

[1] شجرة الإيمان ص(63 . 64).

بطاعةِ اللهِ على نورٍ من اللهِ، ترجو ثوابَ اللهِ، وأن تتركَ معصيةَ اللهِ، على نورٍ من اللهِ، تخافُ عقابَ اللهِ[1].

وللتقوى ثمرات عاجلة وآجلة منها:

الثمرة الأولى ـ المخرج من كل ضيق، والرزق من حيث لا يحتسبه العبد: قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق :2 ـ 3] .

الثمرة الثانية ـ السهولةُ واليسرُ في كلِّ أمرٍ: قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا *﴾ [الطلاق :4] .

الثمرة الثالثة ـ تيسيرُ العلمِ النافعِ: قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ *﴾ [البقرة :282] .

الثمرة الرابعة ـ إطلاقُ نورِ البصيرة: قال تعالى: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً﴾ [الانفال :29] .

الثمرة الخامسة: محبَّةُ اللهِ ومحبَّةُ الملائكةِ والقبولُ في الأرض:

قال تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ *﴾ [آل عمران :76] .

وقال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «إذا أحبَّ اللهُ العبدَ قال لجبريلُ: قد أحببتُ فلاناً فأحبّه، فيحبُّه جبريلُ عليه السلام، ثم ينادي في أهلِ السماءِ: إنَّ الله قد أحبَّ فلاناً فأحبُّوه، فيحبُّه أهلُ السماء، ثم يوضَعُ له القبولُ في الأرض»[2].

---

[1] فقه النصر والتمكين للصلاّبي (204).

[2] أخرجه بهذا اللفظ مالك في الموطأ ، كتاب الجامع ، باب: ما جاء في المتحابين في الله (1502). وأخرجه بنحوه البخاري في صحيحه ، كتاب: بدء الخلق ، باب: ذكر الملائكة (3209) ، وكذلك مسلم في صحيحه ، كتاب: البر والصلة والاداب ، باب: إذا أحب الله عبداً حببه إلى عباده (2637).

الثمرة السادسة: نصرة الله عزَّ وجلَّ وتأييده وتسديده: وهي المعية المقصودة بقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ *﴾ [البقرة :194] . فهذه المعيةُ هي معيةُ التأييد والنصرة والتسديد، وهي معيةُ الله عزَّ وجلَّ لأنبيائه وأوليائه، ومعيته للمتقين والصابرين، وهي تقتضي التأييدَ والحفظَ والإعانةَ، كما قال تعالى لموسى وهارون: ﴿قَالَ لاَ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى *﴾ [طه :46] .

أما المعية العامة، مثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد :4]، وقوله: ﴿وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾ [النساء :108] . فهي تستوجِبُ من العبدِ الحذَرَ والخوفَ ومراقبةَ الله عزَّ وجلَّ.

الثمرة السابعة . الحفظ من كيد الأعداء ومكرهم: قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ *﴾ [آل عمران :120] .

الثمرة الثامنة . حفظ الذرية الضعاف بعناية الله تعالى: قال تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا*﴾ [النساء :9] ففي الآية إشارةٌ إلى إرشادِ المسلمين الذين يخشون تركَ ذريةٍ ضعافاً إلى التقوى في سائر شؤونهم، حتى يحفظَ أبناءَهم، ويدخلوا تحت حفظِ اللهِ وعنايته، والآية تشعِرُ بالتهديدِ بضياعِ أولادِهم إن فقدوا تقوى الله، وإشارةٌ إلى أنَّ تقوى الأصولِ تحفظُ الفروعَ، وأنَّ الرجالَ الصالحين يُحْفَظُوْنَ في ذريتهم الضعاف، كما في آية: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلاَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف :82] . فإنَّ الغلامين حُفِظا ببركة أبيهما في أنفسهما ومالِهما[1].

---

[1] محاسن التأويل للقاسمي (47/5).

الثمرة التاسعة - سببٌ لقبولِ الأعمال التي بها سعادةُ العبادِ في الدنيا والآخرة: قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ *﴾ [المائدة :27] .

الثمرة العاشرة - سببُ النجاةِ من عذاب الدنيا: قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ *وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ *﴾ [فصلت :17 ـ 18] .

الثمرة الحادية عشرة - تكفيرُ السيئات: قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا *﴾ [الطلاق :5] .

الثمرة الثانية عشرة - ميراث الجنة: قال تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا *﴾ [مريم :63] فهم الورثة الشرعيون لجنّة الله عزَّ وجلَّ، وهم لا يذهبون إلى الجنة سيراً على أقدامهم، بل يحشرون إليها ركباناً، مع أنَّ الله عزَّ وجلَّ يقرِّبُ إليهم الجنة تحيةً لهم، ودفعاً لمشقتهم، كما قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ *﴾ [ق :31] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَانِ وَفْدًا *﴾ [مريم :85] .

الثمرة الثالثة عشرة - تجمعُ بين المتحابّينِ مِنْ أهلِهَا: قال تعالى: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ *﴾ [الزخرف :67] ومن بركة التقوى أنَّ الله عزَّ وجلَّ ينزع ما قد يعلقُ بقلوبهم من الضغائن والغل، فتزدادُ مودَّتهم، وتتمُّ محبتُهم وصحبتُهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ *ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ آمِنِينَ *وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ *﴾ [الحجر :45 ـ 47] .

إنَّ هذه الثمار العظيمة عندما تمسُّ شغافَ قلوبِ المسلمين تضفي على الأمةِ فيضاً ربانياً موصولاً بالله، يصِلُ حلقةَ الدنيا بالآخرة، كما أنَّ الحرص على تقوى الله تعالى

يكسِبُ الأمة صفاتٍ رفيعةٍ، وأخلاقاً حميدةً، ومكارمَ نفيسةً تجعل هذه الأمة مؤهَّلة لقيادة البشرية نحو سعادتها.

2 ـ الفوز برضا الله تعالى:

ومن ثمرات الإيمان الفوز برضا الله تعالى، ودار كرامته، قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ *وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *﴾ [التوبة: 71 ـ 72] فنالوا رضا ربهم ورحمتَه، وفازوا بهذه المساكن الطيبة، بإيمانهم الذي كمَّلوا به أنفسهم، وكملوا غيرَهم بقيامهم بطاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، والأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكر، فاستولوا على أجلِّ الوسائل، وأفضلِ الغايات، وذلك فضل الله[1].

3 ـ دفاع الله عن المؤمنين:

ومن ثمرات الإيمان أنَّ الله يدفعُ عن المؤمنين جميعَ المكاره، وينجيهم من الشدائد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: 38]، أي: يدافِعُ عنهم كلَّ مكروه، ويدافعُ عنهم شرَّ شياطينِ الإنسِ وشياطينِ الجنِّ، ويدافعُ عنهم الأعداء، ويدافع عنهم المكاره قبل نزولها، ويرفعها أو يخفضها بعد نزولها، ولما ذكر تعالى ما وقعَ فيه يونُس ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ *﴾ [الأنبياء: 87 ـ 88] إذا وقعوا في الشدائدِ، كما أنجينا يونس عليه السلام. قال

---

[1] شجرة الإيمان ص(65).

النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «دعوةُ أخي يونس، ما دعا بها مكروبٌ إلا فرّجَ الله عنه كربتَه: لا إلهَ إلاّ أنتَ سبحانَكَ إنِّي كنتُ من الظالمين»[1].

4 . الحياة الطيبة:

ومن ثمرات الإيمان الحياة الطيبة في هذه الدار، وفي دار القرار، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *﴾ [النحل: 97] وهذا وعدٌ ربانيٌّ لمن جمعَ بين الإيمانِ والعملِ الصالح، بأنْ يتفضَّلَ الله عزَّ وجل عليه بالحياة الطيبة، كما أنَّ الله سبحانه قد شيَّدَ في موضع آخر صرحَ الحياةِ الناجحةِ على أساسِ الإيمانِ الصحيح والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ *إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ *﴾ [العصر: 1 . 2] إنَّ الإيمانَ أساسُ الحياة الطيبة، ذلك لأنَّه يجعلُ صاحبَه ثابتاً عالياً مثمراً في حياته، ثابتاً لا تزعزعه الأعاصيرُ، ولا تعصفُ به رياحُ الباطل، ولا تقوى عليه معاولُ الطغيان[2].

5 . حصولُ البشارةِ بكرامةِ اللهِ والأمنِ التامّ من جميع الوجوه:

كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ *﴾ [البقرة: 223] فأطلقَها ليعمَّ الخيرُ العاجلُ والآجل، وقيّدها في مثل قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾[البقرة: 25]، فلهم البشارةُ المطلقةُ والمقيّدةُ، ولهم الأمنُ المطلقُ في مثل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ

---

[1] أخرج الترمذي في جامعه ، كتاب: الدعوات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، باب: ما جاء في عقد التسبيح باليد (3505) عن سعد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت ، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، فإنه لم يَدْعُ بها رجلٌ مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له». قال الألباني: صحيح. انظر المشكاة (2292).

[2] الحياة في القران الكريم ص(493).

مُهْتَدُونَ *﴾[الأنعام: 82] ولهم الأمن المقيّدُ في مثل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ *﴾[الأنعام: 48] فنفى عنهم الخوفَ لما يستقبلونه، والحُزْنَ ممّا مضى عليهم، وبذلك يتمُّ الأمن، فالمؤمن له الأمنُ التام في الدنيا والآخرة، أَمِنَ مِنْ سخطِ الله وعقابه، وأَمِنَ مِنْ جميعِ المكاره والشرور.

وللمؤمن البشارةُ الكاملةُ بكلِّ خيرٍ كما قال تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخرة﴾ [يونس: 64] ويوضح هذه البشارة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً *أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا *﴾ [الكهف: 30 . 31] وقال تعالى:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *﴾ [الحديد: 28] فرتَّب على الإيمانِ حصولَ الثوابِ المضاعفِ، وكمالَ النورِ الذي يمشي به العبدُ في حياته، ويمشي به يومَ القيامةِ، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ [الحديد: 12] فالمؤمنُ من يمشي في الدنيا بنورِ علمِهِ وإيمانِهِ، وإذا أطفئت الأنوارُ يومَ القيامة، مشى بنورِهِ على الصراط، حتى يجوزَ به إلى دار الكرامة والنعيم.

وكذلك رتب المغفرةَ على الإيمان، ومَنْ غُفِرَتْ سيئاتُه، سَلِمَ من العقاب، ونال أعظمَ الثواب[1].

---

[1] شجرة الإيمان ص(79).

6. حصول الفلاح والهدى:

ومن ثمراتِ الإيمانِ حصولُ الفلاح الذي هو إدراكُ غايةِ الغايات، فإنّه إدراكُ كلِّ مطلوبٍ، والسلامةُ من كلِّ مرهوبٍ، والهُدى الذي هو أشرفُ الوسائل، كما قال تعالى بعدما ذكّر المؤمنين بما أَنْزَلَ على محمّدٍ صلى الله عليه وسلم وما أَنْزَلَ على مَنْ قبله، والإيمان بالغيب، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة: اللتين هما من أعظم اثار الإيمان، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *﴾ [البقرة: 5] فلا سبيلَ إلى الهُدى والفلاح، اللذين لا صلاحَ ولا سعادةَ إلاَّ بهما، إلا بالإيمانِ التامِّ بكلِّ كتابٍ أنزله، وبكلِّ رسولٍ أرسله، فالهُدَى أجلُّ الوسائل، والفلاحُ أكملُ الغايات[1].

7. الانتفاعُ بالمواعظ والتذكير:

ومن ثمراتِ الإيمان الانتفاعُ بالمواعظ، والتذكير والآيات، قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ *﴾ [الذاريات: 55] لأنَّ الإيمانَ يحمِلُ صاحبه على التزام الحقِّ واتباعه، علماً وعملاً، وكذلك معه الالةُ العظيمة والاستعدادُ لتلقّي المواعظ النافعة، والآيات الدالة على الحق، وليس عنده مانعٌ يمنعه من قبول الحق، ولا مِنَ العمل به، كما أنَّ الإيمان يوجِبُ سلامةَ الفطرة، وحُسْنَ القصد، ومن كان كذلك انتفعَ بالآيات[2].

---

[1] شجرة الإيمان ص(80).

[2] المصدر نفسه ص (80).

8. قطعُ الشكوكِ التي تضرُّ بالدين:

ومنها أنَّ الإيمانَ يقطعُ الشكوكَ التي تعرِضُ لكثيرٍ من الناس، فتضرُّ بدينهم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ [الحجرات: 15] أي: دفعَ الإيمانُ الصحيحُ الذي معهم الرَّيْبَ والشكَّ الموجود، وأزاله بالكلية، وقاومَ الشكوكَ التي تُلْقِيها شياطينُ الإنس والجن، والنفوسُ الأمّارةِ بالسوء، فليس لهذه العلل المهلِكَةِ دواءٌ إلاَّ تحقيقُ الإيمانِ، ولهذا ثبت في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة: أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «لا يزالُ الناسُ يتساءلون، حتى يُقَالَ: هذا اللهُ خلقَ الخلقَ، فَمَنْ خَلَقَ اللهَ؟ فمن وجدَ ذلك، فليقلْ آمنتُ باللهِ، وَلْيَنْتَهِ، وليتعوَّذْ باللهِ مِنَ الشيطانِ»[1]، فذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الدواءَ النافعَ لهذا الداءِ المهلكِ، وهو ثلاثة أشياء:

الأول: الانتهاء عن هذه الوساوس الشيطانية.

والثاني: الاستعاذة من شرِّ من ألقاها وشبّه بها، ليضل بها العباد.

الثالث: الاعتصام بعصمة الإيمان الصحيح، الذي مَنِ اعتصمَ به كان من الآمنين.

وذلك لأنَّ الباطلَ يتّضحُ بطلانه بأمورٍ كثيرة، أعظمُها العلمُ بأنَّه منافٍ للحق، وكلُّ ما ناقضَ الحق فهو باطلٌ: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ﴾ [يونس: 32][2].

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: بدء الخلق ، باب: صفة إبليس وجنوده (3276) ومسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان ، باب: بيان الوسوسة في الإيمان ، وما يقوله من وجدها (132)ٌٌٌٌ.

[2] شجرة الإيمان ص(84).

9 . ملجأ المؤمنين:

ومن ثمراتِ الإيمان وفوائدِه أنَّ الإيمانَ ملجأُ المؤمنين في كلِّ ما يلمُّ بهم، من سرورٍ، وحزنٍ، وخوفٍ، وأمنٍ، وطاعةٍ، ومعصيةٍ، وغيرِ ذلك من الأمور التي لا بدَّ لكلِّ أحدٍ منها.

- فهم يلجؤون إلى الإيمان عند المحابِّ والسرورِ، فيحمَدون الله، ويثنون عليه، ويستعملون النِّعَم فيما يحبُّ المنعم.
- ويلجؤون إلبالإيمان عند المكارِه والأحزانِ، فيتسلّون بإيمانهم وحلاوته، ويتسلّون بما يترتّب على ذلك من الثوابِ، ويقابِلونَ الأحزان والقلق براحة القلب والرجوع إلى الحياة الطيبة المقاومة للأحزان والأتراح.
- ويلجؤون إلى الإيمانِ عند الخوف، فيطمئنون إليه، ويزيدهم إيماناً وثباتاً، وقوة وشجاعة، ويضمحِلُّ الخوفُ الذي أصابهم، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ *فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ*﴾ [آل عمران: 173 . 174] لقد اضمحلَّ الخوفُ من قلوبِ هؤلاء الأخيار، وخلفَه قوةُ الإيمان وحلاوته، وقوة التوكل على الله، والثقة بوعده.
- ويلجؤون إلى الإيمان عند الأمن، فلا يُبْطِرُهم، ولا يُحْدِثُ لهم الكبرياء، بل يتواضعون، ويعلمون أنّه من الله، ومن فضلِه، وتيسيره، فيشكرون الذي أنعمَ بالسبب والمسبب، الأمنِ وأسبابه، ويعلمون أنّه إذا حصلَ لهم ظفرٌ بالأعداء وعِزٌّ، أنه بحولِ اللهِ وقوتِهِ وفضله، لا بحولهم ولا بقوتهم.

- ويلجؤون إلى الإيمان عند الطاعة، والتوفيق للأعمال الصالحة، فيتعرّضون بنعمة الله عليهم بها، وأنَّ نعمته فيها أعظمُ من نعمةِ العافية والرزقِ، ويحرصون على تكميلها، وعمل كل سبب لقبولها، وعدم ردها أو نقصها، ويسألونَ الذي تفضّلَ عليهم بالتوفيق لها، أن يتمَّ عليهم نعمته بقبولها، والذي تفضَّلَ عليهم بحصولِ أصلها، أن يتمِّمَ لهم منها ما انتقصوه منها.

- ويلجؤون إلى الإيمان إذا ابتلوا بشيء من المعاصي بالمبادرة إلى التوبة منها، وعمل ما يقدرون عليه من الحسنات، لجبر نقصها، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ *﴾ [الاعراف :201] .

فالمؤمنُ يجولُ ما يجولُ في الغفلةِ والتجرؤ على بعض الاثام، ثم يعودُ سريعاً إلى الإيمان، الذي بنى عليه أمورَه كلها، فالمؤمنون في جميع تقلّباتهم وتصرّفاتهم ملجؤهم إلى الإيمانِ، ومفزُعهم إلى تحقيقه، ودفعِ ما ينافيه ويضاده، وذلك مِنْ فضل الله عليهم ومَنّه[1].

10 . المنع من الوقوع في الموبقات المهلكة:

ومنها أنَّ الإيمانَ الصحيحَ يمنعُ العبدَ من الوقوع في الموبقات المهلكةِ، قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «لا يزني الزَّاني حين يَزني وهو مؤمنٌ، ولا يسرقُ السارقُ حين يسرقُ وهو مؤمنٌ، ولا يشربُ الخمرَ حين يشربُها وهو مؤمنٌ»[2]. ومن وقعت

---

[1] شجرة الإيمان ص(87).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الأشربة ، باب: قول الله تعالى: {} [المائدة: 90] {إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ} ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: بيان نقصان الإيمان بالمعاصي ، ونفيه عن المتلبس بالمعصية ، على إرادة نفي كماله (57).

منه، فإنَّه لضعفِ إيمانه، وذهابِ نورِه، وزوالِ الحياء ممّن يراهُ حيثُ نهاه، وهذا معروفٌ مشاهدٌ.

والإيمانُ الصادقُ الصحيحُ، يصحبُهُ الحياءُ مِنَ اللهِ، والحبَّ له، والرجاء القويّ لثوابه، والخوف من عقابه، والنور الذي ينافي الظلمة، وهذه الأمورُ التي هي من مكمّلات الإيمانِ لا ريبَ أنها تأمرُ صاحبَها بكلِّ خير، وتزجره عن كلِّ قبيحٍ، فأخبر أنَّ الإيمانَ إذا صحبَه عند وجود أسباب هذه الفواحش، فإنَّ نورَ إيمانه يمنعه من الوقوع فيها، فإنَّ النورَ الذي يصحب الإيمانَ الصادقَ، ووجودَ حلاوةِ الإيمانِ، والحياءَ مِنَ اللهِ، الذي هو من أعظم شعب الإيمان، بلا شك، يمنعُ من مواقعةِ هذه الفواحش[1].

11 . الشكر والصبر:

ومن فوائد وثمرات الإيمانِ أنَّه يحمِلُ صاحبه على الشكرِ في حالة السرّاءِ، والصبرِ في حالةِ الضّراء، وكسب الخيرِ في كلِّ أوقاته، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «عجباً لأمر المؤمن إنَّ أمرَه كلَّه خيرٌ وليس ذلكَ لأحدٍ إلا للمؤمن، إنْ أصابتْه سرّاءُ شَكَرَ، فكان خيراً له، وإنْ أصابتْه ضرّاءُ صبرَ، فكانَ خيراً له»[2].

والشكرُ والصبرُ هما جِماعُ كلِّ خيرٍ، فالمؤمنُ مغتَنِمٌ للخيرات في كلِّ أوقاته، رابحٌ في كلِّ حالاته.

فيجتمع للمؤمن عند السرّاء نعمتان: نعمةُ حصولِ ذلك المحبوب، ونعمةُ التوفيق للشكر الذي هو أعلى من ذلك، وبذلك تتمُّ عليه النعمة.

---

(1) شجرة الإيمان ص(88).

(2) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الزهد والرقائق ، باب: المؤمن أمره كله خير (2999).

ويجتمعُ له عند الضّراء ثلاثُ نعم: نعمةُ تكفيرِ السيئات، ونعمةُ حصولِ مرتبة الصبر، التي هي أعلى من ذلك، ونعمةُ سهولةِ الضرّاء عليه، لأنّه متى عرفَ حصولَ الأجرِ والثوابِ والتمرن على الصبر هانت عليه وطأةُ المصيبةِ، وخفّ عليه حملها[1].

12 . تأثيرُه على الأعمال والأقوال:

ومن فوائد وثمرات الإيمان أنَّ جميعَ الأعمال والأقوالِ إنّما تصحُّ وتكمُلُ بحسب ما يقومُ بقلبِ صاحبها من الإيمانِ والإخلاصِ، ولهذا ذكر الله هذا الشرطَ الذي هو أساسُ كلِّ عمل، مثل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ [الانبياء: 94] أي لا يُجْحَدُ سعيُه، ولا يضيعُ عملُه، بل يُضاعفُ بحسب قوّة إيمانِه، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخرة وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا *﴾ [الإسراء: 19]. والسعيُّ للآخرةِ هو العملُ بكلِّ ما يقرِّبُ إليها، ويدني منها، من الأعمال التي شرعها الله على لسان نبيّه محمّدٍ صلى الله عليه وسلم، فإذا تأسَّستْ على الإيمان، ونبتتْ عليه، كان السعيُ مشكوراً مقبولاً مضاعفاً، لا يضيع منه مثقال ذرة.

وأما إذا فقَدَ العملُ الإيمانَ، فلو استغرق العاملُ ليلَه ونهارَه، فإنّه غيرُ مقبولٍ، قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا *﴾ [الفرقان: 23] وذلك لأنها أُسِّست على غيرِ الإيمانِ بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم، الذي روحه الإخلاصُ للمعبود، والمتابعة للرسول صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً *الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا *أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيات رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ

---

[1] شجرة الإيمان ص(82).

يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً *﴾ [الكهف: 103 . 105] فهم لما فقدوا الإيمانَ، وحلَّ محله الكفرُ باللهِ وآياته، حبطتْ أعمالُهم، وقال تعالى: (لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: 65] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *﴾ [الانعام: 88] ولهذا كانت الردةُ عن الإيمان تحبِطُ جميعَ الأعمال الصالحة، كما أنَّ الدخولَ في الإسلامِ والإيمانِ يجبُّ ما قبله من السيئات وإن عظمتْ، والتوبةُ من الذنوبِ المنافية والقادحةِ فيه، والمنقصةِ له، تجبُّ ما قبلها[1].

13 . هداية الله إلى الصراط المستقيم:

ومن فوائد وثمرات الإيمان أنّه يهدي صاحبه إلى الصراط المستقيم، يهديه إلى علم الحق، وإلى العمل به، وإلى تلّقي المحابِّ والمسارّ بالشكرِ، وتلقّي المكارهِ والمصائبِ بالرضا والصبر، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ [يونس: 9] وقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: 11] هو الرجلُ تصيبُه المصيبةُ، فيعلمْ أنّها من عند اللهِ، فيرضى ويسلّمُ.

ومن ثمرات الإيمان أنّه يسلّي صاحبه عن المصائب والمكاره، التي كلُّ أحدٍ عُرضةٌ لها في كلِّ وقتٍ، ومصاحبةُ الإيمانِ واليقينِ أعظمُ مسلٍّ عنها، ومُهَوّنٍ لها، وذلك لقوّة إيمانه، وقوّة توكله، وقوّة رجائه بثواب الله ربه، وطمعه في فضله، فحلاوةُ الأجرِ تخفّفُ مرارةَ الصبر، قال تعالى: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ﴾ [النساء: 104] ولهذا تجد اثنين تصيبهم مصيبةٌ واحدةٌ، أو متقاربةٌ،

---

[1] شجرة الإيمان ص(69 . 70).

وأحدهما عنده إيمانٌ، والآخر فاقدُ له، تجدُ الفرقَ العظيمَ بين حاليهما، وتأثيرُها في ظاهرهما وباطنهما، وهذا الفرقُ راجعٌ إلى الإيمان، والعمل بمقتضاه[1].

14 . محبة الله والمؤمنين من خلقه:

ومن ثمراتِ الإيمان ولوازمه من الأعمال الصالحة ما ذكره الله بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَانُ وُدًّا *﴾ [مريم: 96] أي: بسببِ إيمانهم وأعمالِ الإيمانِ يحبُّهم الله، ويجعلُ لهم المحبّةَ في قلوب المؤمنين، ومن أحبّه الله، وأحبّه المؤمنون من عباده، حصلتْ له السعادةُ والفلاحُ، والفوائد الكثيرة من محبة المؤمنين، من الثناء والدعاء له حياً وميتاً، والاقتداء به، وحصول الإمامةِ في الدين، وهذه أيضاً من أجلّ ثمراتِ الإيمان، أن يجعلَ الله للمؤمنين ـ الذين كمّلوا إيمانهم بالعلم والعمل ـ لسانَ صدقٍ، ويجعلهم أئمةً يهدون بأمرِه، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ *﴾ [السجدة: 24] فبالصبر واليقين اللذين هما رأسُ الإيمان وكماله نالوا الإمامةَ في الدِّين[2].

15 . رَفْعُ اللهِ مكانتهم:

ومن فوائد وثمرات الإيمان رفع مكانة أهله عند الله عزَّ وجلَّ وعند خلقه قال: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: 11] فهم أعلى الخلق درجةً عند الله وعند عباده في الدنيا والآخرة، وإنّما نالوا هذه الرفعة، بإيمانهم الصحيحِ، وعلمهم، ويقينهم، والعلم واليقين من أصولِ الإيمانِ[3].

---

[1] شجرة الإيمان ص(76).
[2] المصدر نفسه ص(80).
[3] المصدر نفسه ص(76).

هذه بعضُ الفوائدِ والثمرات من الإيمان الصحيح، وممّا تقدّم يتبيَّنُ لنا أنَّ شجرة الإيمان من أبركِ الأشجارِ وأنفعِها، وأدومها، وأنَّ عروقها وأصولها وقواعدها: الإيمانُ وعلومُه ومعارفُه، وساقُها وأفنانُها: شرائعُ الإسلام، والأعمالُ الصالحةُ، والأخلاقُ الفاضلةُ المؤيَّدةُ والمقرونةُ بالإخلاص لله، والمتابعةُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم: وأنَّ ثمارها وجناها الدائم المستمر: السمتُ الحسنُ، والهدي الصالح، والخلقُ الجميلُ، واللهجُ بذكر اللهِ وشكره، والثناءُ عليه، والنفعُ لعباد الله بحسب القدرة، نفعُ العلم والنصح، ونفعُ الجاه والبدن، ونفع المال، وجميعُ طرق النفع، وحقيقةُ ذلك كلّه: القيامُ بحقوق الله، وحقوق خَلْقِهِ، وأنَّ الفضلَ في ذلك كلّه لله وحدَه، والمنّة كلُّها له سبحانه: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ *﴾ [الحجرات :17] .

وقال أهل الجنة بعد ما دخلوها، وتبوّؤوا منازلهم، معترفين بفضل ربهم العظيم: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا اللهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ *﴾ [الاعراف :43] فجمعَ في هذه الآية بين الإخبارِ باعترافهم وثناءهم على الله بنعمته وفضله، حيث وصلوا إلى المنازل العالية، وبَيْنَ ذكر السبب الذي أوصلهم إلى ذلك بمنّة الله عليهم به، وهو العمل الصالح الذي هو الإيمان وأعماله[1].

إنَّ مِنْ شروطِ التمكين لهذه الأمة تحقيقُ الإيمانِ بكافّة معانيه، وبكافّة أركانه، وممارسة العمل الصالح بكلِّ أنواعه، والحرصُ على كلِّ أنواع الخير وصنوف البِرِّ، وتحقيقُ العبودية الشاملة، ومحاربةُ الشرك بكل أشكاله وأنواعه وخفاياه[2].

---

[1] شجرة الإيمان ص(94).

[2] فقه النصر والتمكين في القران الكريم ص(161).

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ *وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ *﴾ **[النور :55 . 56]**

* * *

المبحث السابع

نواقض التوحيد والإيمان

أولاً ـ الشرك: حقيقته، وأقسامه، وما يتعلق بكل قسم من أحكام.

ثانياً ـ الكفر: حقيقته، وأقسامه وما يتعلق بكل قسم من أحكام.

ثالثاً ـ النفاق: حقيقته، وأقسامه، وأبرز صفات المنافقين.

رابعاً ـ الردة: تعريفها، وأنواعها، وأحكامها.

خامساً ـ الفسق: تعريفه، وأقسامه.

سادساً ـ المعاصي: تعريفها، وأقسامها، وحكم مرتكب الكبيرة.

المبحث السابع : نواقض التوحيد والإيمان

أولاً ـ الشرك حقيقته وأنواعه وما يتعلق بكل نوع من أحكام:

- **تعريف الشرك وبيان حقيقته:**

إنَّ الحديثَ عن التوحيد يستلزِمُ الحديثَ عمّا يناقضه من الشرك، لأنّه كما قيل (من الكامل):

....   وبضدها تتميّز الأشياءُ

والشرك: هو أن تجعلَ للهِ نداً أو شريكاً في ربوبيته، أو ألوهيته، أو أسمائه، أوصفاته، وهو المبطلُ للأعمال، والمانعُ لقبولها قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *﴾ [الانعام: 88] .

وحدُّه: أن يصرفَ العبدُ نوعاً من أنواع العبادةِ لغير الله، فكلُّ اعتقادٍ، أو قولٍ، أو عملٍ ثبتَ أنَّه مأمورٌ بهِ مِنَ الشارع، فَصَرْفُه للهِ وحدَه توحيدٌ وإيمانٌ وإخلاصٌ، وصرفُه لغيره شركٌ وكفرٌ[1].

فحقيقة الشرك بالله: أن يُعْبَدَ المخلوقُ كما يُعْبَدُ الله، أو يعظَّمَ كما يُعَظَّمَ الله، أو يُصْرَفَ له نوعٌ من خصائص الربوبية والألوهية.

ولقد وردت النصوصُ الكثيرةُ من الكتاب والسنة في التحذير من الشرك، وبيان خطره، وأنَّه أعظمُ ذنبٍ عُصِيَ اللهُ بِهِ، وأنَّه لا أضلَّ مِنْ فاعله، وأنَّه مخلَّدٌ في النار أبداً، لا نصيرَ له ولا حميم، ولا شفيعَ يطاع، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا *﴾

[1] القول السديد في مقاصد التوحيد للسعدي ص(31).

[النساء: 48] وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا *﴾[النساء: 116] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ *﴾ [الحج: 31] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ *﴾[الزمر: 65] .

إنَّ الشركَ هو الذنبُ الوحيدُ المتميِّز عن بقيةِ الذنوب بعدم المغفرةِ لصاحبه إذا ماتَ ولم يَتُبْ منه، وأمّا بقيةُ الذنوبِ فإنَّ صاحبَها إن ماتَ ولم يتبْ منها، فإنَّه تحتَ مشيئةِ الله، إنْ شاءَ عذّبه، وإنْ شاءَ غفرَ له.

إنَّ الذنوب التي هي دونَ الشرك جعلَ الله لمغفرتها أسباباً كثيرة، كالحسنات الماحية، والمصائبِ المكفّرة في الدنيا، والبرزخ، ويوم القيامة، وكدعاء المؤمنين بعضِهم لبعضٍ، وشفاعة الشافعين، ومِنْ دون ذلك كلِّه رحمتُه التي خَصَّ بها أهلَ الإيمانِ والتوحيد، وهذا بخلاف الشركِ، فإنَّ المشرك سدَّ على نفسِهِ أبوابَ المغفرة، وأغلقَ دونه أبوابَ الرحمة، فلا تنفعه الطاعاتُ دونَ التوحيد، ولا تفيدُه الشدائدُ والمحنُ شيئاً.

إنَّ الشرك باللهِ تمجُّه الفِطَرُ السليمة، ولقد بقي البشرُ بعد آدم قروناً طويلةً وهم أمةٌ واحدةٌ على التوحيد والهُدى، ثم أدخلتْ عليهم الشياطينُ الشرورَ المتنوّعة بطرق كثيرة، فكان قومُ نوحٍ لما مات منهم أناسٌ صالحون، وحزنوا عليهم، جاءهم إبليسُ، وأمرهم أن يصوّروا تماثيلهم ليتذكّروا أحوالهم، فكان هذا بابُ الشرِّ العظيم، فلمّا ماتَ الذين صوروهم لهذا المعنى خلفَ مِنْ بعدِهم خَلْفٌ قلّ فيهم العلمُ، واستفزّهم الشيطانُ وأغواهم، حتى أوقعهم في الشرك.

ثم بعث الله فيهم نوحاً عليه السلام يعرفونه ويعرفون صدقه وأمانته وكمال أخلاقه، فقال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ *﴾ [الاعراف :59] إلا أنهم عصوه، وما آمن معه إلا قليل.

إنَّ الله تعالى خلق الناسَ على فطرةِ التوحيدِ، ثم استطاعتِ الشياطينُ أن تميلَ بالناسِ، وتنحَرِفَ بهم نحو الوثنيةِ المظلمةِ والشركِ العظيم، قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [البقرة :213] أي إنَّ الناس كانوا على ملّةِ آدم عليه السلام حتى عبدوا الأصنام، فبعث الله إليهم نوحاً عليه السلام، فكان أوّل رسولٍ بعثه الله إلى أهل الأرض[1].

إنَّ الأمة الإسلامية التي رضيْت باللهِ رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمدٍ صلى الله عليه وسلم رسولاً، عليها أن تحرصَ على تحقيق التوحيد، ومحاربةِ الشرك، لأنها تعلمُ علمَ اليقين أنَّ مِنْ شروطِ التمكين لها تحقيقَ التوحيد وتهذيبَه، وتصفيتَه من الشرك الأكبر والأصغر، ومن البدعِ القوليةِ والاعتقاديةِ، والبدع الفعلية والعملية، ومن المعاصي، وذلك بكمالِ الإخلاص للهِ في الأقوال والأفعال والإرادات، وبالسلامةِ مِنَ الشركِ الأكبرَ المناقض لأصلِ التوحيد، ومن الشركِ الأصغرِ المنافي لكمالِهِ، وبالسلامة من البدع[2]، وعليها أن تحاربَ شرك القبور، ووكذلك شركَ القوانين الوضعية المخالفة للشريعة الإسلامية، وعليها أن تدعوَ إلى إفراد العبودية لله وحده في جميع شؤون الحياة الإنسانية، ولسانُ حالها ومقالها قولُ الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ

---

(1) تفسير ابن كثير (250/1).

(2) الشيخ عبد الرحمن السعدي وجهوده.

وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ *﴾ [الانعام: 162-163] .

- **أقسام الشرك:**

ينقسمُ الشركُ إلى قسمين:

القسم الأول ـ الشرك الأكبر: هو الذي يخرِجُ صاحبَه من ملّةِ الإسلام، ويوجبُ له الخلودَ في جهنم، ويحرّمُ عليه الجنةَ، هذا إذا ماتَ على الشرك.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ *﴾ [المائدة: 72] .

والشركُ الأكبرُ أنواعٍ منها:

أ ـ شِرْكُ الدعاء: وهو اللجوءُ إلى غيرِ اللهِ ودعائه وقصدِه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ *﴾ [العنكبوت: 65]. فهم يوحّدون الله في حالِ الضيق والشدّة، وإذا نجّاهم أشركوا، ودعوا غيره.

ب ـ شِرْكُ النّيةِ والإرادةِ والقصدِ: وهو أن يعملَ العملَ ممّا يرادُ به وجهَ اللهِ عزَّ وجلَّ يعملُه لغيرِ اللهِ، ويقصدُ به مراداً آخر، فهذا شركٌ أكبر، قال عزَّ وجلَّ: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ *أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخرة إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخرة إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *﴾ [هود: 15 -16] قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ

جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاَهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا *وَمَنْ أَرَادَ الآخرة وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا *كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا *﴾[الإسراء: 18. 20] .

ج . شِرْكُ الطاعةِ: وهو طاعةُ الأحبار والرهبانِ وغيرِهم من البشرِ والعلماءِ والسلاطينِ والأمراءِ في تحريم ما أحلَّ الله، أو إباحة ما حرَّم الله، قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة :31] .

عن عَدِيّ بن حاتم رضي الله عنه أنَّه لما بلغته دعوةُ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فرَّ إلى الشام، وكان تنصَّر في الجاهلية، فأُسِرَتْ أختُه وجماعةٌ من قومه، ثم مَنَّ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم على أخته، وأعطاها، فرجعتْ إلى أخيها، فرغَّبته في الإسلامِ، وفي القدوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقدم عديٌّ المدينةِ، وكان رئيساً في قومه طيء، وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم، فتحدّث الناسُ بقدومه، فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي عُنِقِ عَدِيّ صليبٌ من فضّة، وهو يقرأ هذه الآية: قال: فقلت: إنّهم لم يعبدوهم. فقال: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، إنّهم حرَّموا عليهم الحلالَ، وأحلُّوا لهم الحرامَ، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم».

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا عدي ما تقول؟ أيفرّكُ أن يقال: الله أكبر؟ فهل تعلمُ شيئاً أكبرَ من الله؟ ما يفرُّك؟ أيفرّك أن يقال: لا إله إلا الله؟ فهل تعلمُ من إلهٍ إلاَّ الله؟» ثم دعاه إلى الإسلام فأسلمَ، وشهدَ شهادةَ الحقِ. فلقد رأيتُ وجهه استبشر ثم قال: «إنَّ اليهودَ مغضوبٌ عليهم، والنصارى ضالون»[1].

---

[1] أخرجه الترمذي في جامعه في كتاب: القراءات ، باب: ومن سورة فاتحة الكتاب (2953) وباب: ومن سورة التوبة (3095) وأخرجه أحمد في المسند (4/ 379) وفيه أنّ الأسيرة هي عمّةُ عدي لا أخته ، وقوله: (أيفرُّك) أي

د ـ شِرْكُ المحبّة: بأن يصرفَ المحبَّة لغيرِ الله تعالى مما يجب أن يكونَ لله، ومن أدلته قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة :165] وقوله صلى الله عليه وسلم: «ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وجدَ حلاوةَ الإيمانِ: أنْ يكونَ اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه ممَّا سواهما، وأنْ يُحِبَّ المرءَ لا يحبُّه إلاَّ لله، وأنْ يكرَهَ أن يعودَ إلى الكفرِ بعدَ أن أنقذَهُ اللهُ مِنْهُ كما يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ في النارِ»[1].

- أمثلة للمشرك للتنفير من حاله:

وقد اهتمَّ القرآن الكريم بضربِ الأمثال للتنفيرِ من حال المشرك وهذه بعض الأمثال:

المثال الأول ـ مَثَّلَ المشرِكَ بالساقط من السماء: قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ *﴾ [الحج:31]

يحثُّ الله سبحانه عبادَه على إخلاصِ التوحيد، وإفرادِه بالطاعةِ والعبادةِ دون الأوثان، ويذكرُ قبحَ الشركِ وبطلانَه بأوضح الأمثلة، لأنَّ مَنْ يشركُ باللهِ شيئاً من دونه فمثله في بعدِهِ عن الهُدى وإصابةِ الحقِّ، وهلاكِهِ وذهابِهِ عن ربّه مثل مَنْ خرَّ من السماءِ، فتخطّفه الطيرُ، فهلك، أو هوت به العواصفُ في مكانٍ بعيدٍ، فهذا مثلٌ ضربه الله لمن أشركَ باللهِ في بعدِهِ من الهدى وهلاكه[2].

المثال الثاني ـ مثَّل المشرك بالحيران في الأرض: قال تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنْفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ

يحملك على الفرار.

[1] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب حلاوة الإيمان (16) ومسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: بيان خصالٍ من اتصفّ بهن وجد حلاوة الإيمان (43).

[2] تفسير الطبري (155/17) ، الشرك في القديم والحديث لأبي بكر محمد زكريا (1370/2).

الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ *﴾ [الانعام: 71] هذا مثلٌ ضربه الله للالهة، ومن يدعو إليها، وللدعاة الذين يدعون إلى الله، كمثل رجلٍ ضلَّ الطريق، إذ ناداه منادٍ: يا فلان ابن فلان، هلمَّ إلى الطريقِ، وله أصحابٌ يدعونه:يا فلان، هلمَّ إلى الطريق، فإنِ اتبعَ الداعيَ الأول انطلقَ به، حتى يلقيه في الهلكة، وإنْ أجاب من يدعوه إلى الهدى اهتدى إلى الطريق[1].

المثال الثالث . مثَّل المشرك بالعبد المملوك لجماعة كثيرين: قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ *﴾[الزمر: 29] هذا مثلٌ ضربه الله سبحانه وتعالى للمشرك والموحّد، فالمشركُ بمنزلةِ عبدٍ يملكه جماعةٌ متنازعون، مختلفون متشاحنون، والرجلُ المشاكِسُ: الضيّقُ الخلق، فالمشرِكُ لما كان يعبد الهةً شتّى شُبّهَ بعبدٍ يملكه جماعةٌ متنافسون في خدمته، لا يمكنه أن يبلغَ رضاهم أجمعين. والموحّدُ لما كان يعبدُ الله وحدَه، فمثله كمثلِ عبدٍ لرجلٍ واحدٍ، قد سَلِمَ له، وعَلِمَ مقاصدَه، وعرفَ الطريقَ إلى رضاه، فهو في راحةٍ من تشاحُنِ الخلطاء فيه، بل هو سالِمٌ لمالِكِه من غيرِ تنازعٍ فيه، مع رأفةِ مالِكِه به، ورحمتِهِ له، وشفقتِهِ عليه، وإحسانِهِ إليه، وتولّيه لمصالحِهِ، فهل يستوي هذان العبدان؟ وهذا من أبلغِ الأمثالِ، فإنَّ الخالصَ لمالكٍ واحدٍ يستحقُّ مِنْ معونته وإحسانِهِ والتفاتِهِ إليه وقيامِهِ بمصالِحِه ما لا يستحقُّه صاحبُ الشركاءِ المتشاكسين، الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون[2].

---

[1] تفسير الطبري (236/7).

[2] أعلام الموقعين (187/1).

القسم الثاني ـ الشرك الأصغر: وهذا النوعُ لا يخرِجُ صاحبه من الملة، ولكنّه يُنْقِصُ من توحيده، وهو وسيلةٌ للشرك الأكبر، وهو ينقسِمُ إلى نوعين: ظاهر وخفي.

أ ـ فالظاهِرُ من الشرك الأصغر: مكوَّنٌ من ألفاظ، وأفعال.

فمنَ الألفاظِ: الحَلفُ بغير الله، وقولُ الإنسانِ: لولا الله وأنتَ، أو هذا مِنَ الله ومِنْكَ، ما شاء الله وشئتَ، فإنَّ هذا يقتضي المساواةَ بين الله وبين العبد، وهذا محالٌ، ولكنّ الصحيح ألاّ يحلف إلا بالله عزَّ وجلَّ، وأن يقول: لولا الله ثم أنت، أو هذا من الله ثم منك، وما شاء الله ثم شئت.

ومن الأفعال: لبس الحلقةِ والخيطِ، وتعليقِ التمائم خشيةَ العين أو الجن، فمن فعل ذلك معتقداً أنها سببٌ يستدفع بها البلاء، وأن الدافع للبلاء هو الله وحده، فقد أشركَ شركاً أصغر، وإذا فعل ذلك معتقِداً أنَّ هذه الأشياء تدفعُ البلاءَ بعد نزولِهِ، أو تمنعه قبلَ حلوله، فقد أشركَ شركاً أكبر، حيث اعتقدَ شريكاً مع الله في الخلق والتدبير[1].

ب ـ وأما الخفي من الشرك الأصغر: فهو شِركُ الإراداتِ والمقاصدِ والنيّاتِ، وذلك مثل الرياء، والسمعة، ومثال ذلك أن يعملَ المسلمُ عملاً، الأصلُ فيه أنَّه لله تعالى، ثم بعدَ ذلك يدخِلُ فيه شيئاً من الرياء أو السمعة، فيريدُ مِنَ الناس الثناءَ عليه، كأنْ يقرأَ مسلمٌ القرآن لله تعالى تقرُّباً له، وعندما يرى الناسَ تنصِتُ له، يُلحِّن في صوته ابتغاءَ الثناءِ عليه، أو يتصدَّقُ إنسانٌ بمالٍ ثم يحبُّ أن يُمدَحَ ويُثْنَى عليه، أو يُحَسِّنُ الرجلُ صلاته التي يتقرَّبُ بها إلى الله لما يرى من نظر الناس إليه، وغير ذلك من الأعمالِ والعباداتِ التي تُصْرَفُ لله تعالى ابتداءً. وإلاّ لو صرف ابتداءً لغير الله لأصبحَ ذلك

[1] عقيدة أهل السنة والجماعة للقحطاني ص(142).

شركاً أكبرَ يخرجُ من الملة، ولكن بعدَ البَدْءِ فيها يدخلُ عليه حُبُّ المدحِ والثناءِ على فعلِهِ وعبادتِهِ.

وعاقبةِ الرياءِ الذي يخالِطُ العملَ هو إبطالُ أجرٍ وثوابِ هذا العمل، قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا *﴾ [الكهف :110] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن أخوفُ ما أخافُ عليكم الشركَ الأصغرَ» فسئل عنه فقال: «الرياء»[1].

إنَّ الشركَ في الإراداتِ والنيَّاتِ بحرٌ لا ساحلَ له، وقلَّ مَنْ ينجو منه، فمن أرادَ بعملِهِ غيرَ وجه الله، ونوى به شيئاً غيرَ التقرّب إليه، وطلب الجزاءَ منه، فقد أشركَ في نيته وإرادته.

والإخلاصُ: أن يخلصَ العبد للهِ في أفعاله وأقوالِهِ وإرادتِهِ ونيّته، وهذه هي الحنيفيَّةُ ملةُ إبراهيم، التي أمرَ الله بها عبادَه كلَّهم، ولا يَقْبَلُ من أحدٍ غيرَها، وهي حقيقةُ الإسلام، وهي ملَّةُ إبراهيم عليه السلام[2].

والعبدُ المؤمن يخشى على نفسه مِنَ الرياء، وأن تصيرَ أعمالُه هباءً منثوراً، فقد قال الله تعالى عن أقوام: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا *﴾ [الفرقان :23] .

وقال الفُضيل في هذه الآية: قال: عملوا ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ *﴾ ، وحسبوا أنّها حسناتٍ، فإذا هي سيئاتٌ[3].

---

[1] أخرجه أحمد في مسنده (428/5) ، (429/5). قال الهيثمي في (مجمع الزوائد) (102/1): رجاله رجال الصحيح

[2] العقيدة الصافية ص(406).

[3] المحجة في سير الدُّلجة ، لابن رجب الحنبلي ص(90).

وقريبٌ من هذا أن يعملَ الإنسانُ ذنباً يحتقِرُه، ويستهين به، فيكونُ هو سببَ هلاكه، كما قال تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ *﴾ [النور: 15] .

وقال بعض الصحابة: إنَّكم لتعملون أعمالاً هي أدقُّ في أعينكم من الشعرِ، كنا نعدها على عهدِ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الموبقاتِ[1].

وأصعب من هذا مَنْ زُيِّنَ له سوءُ عمله فراه حسناً، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً *الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا *﴾ [الكهف:104 . 105] قال سفيان بن عُيينة: لما حضرتْ محمّد بن المنكدر الوفاةُ جزعَ، فَدَعوا له أبا حازم، فجاء فقال له ابن المنكدر: إنَّ الله يقول: ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ *﴾ [الزمر: 47] وأخافُ أن يبدو لي مِنَ الله ما لم أكنْ احتسبُ، فجعلا يبكيان جميعاً، فقال له أهله: دعوناك لتخفِّفَ عليه فزدته، فأخبرهم بما قال[2].

وقال الفضيل بن عياض: أُخبرت عن سليمان التَّيمي أنه قيل له: أنتَ أنتَ ومَنْ مِثْلُك؟ فقال: مه، لا تقولوا هذا، لا أدري ما يبدو لي من الله، سمعت الله يقول: ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ *﴾ [الزمر: 47][3]. وكان سفيان الثوري يقول عند هذه الآية: ويلٌ لأهلِ الرياءِ من هذه الآية، وهذا كما في حديث الثلاثة الذين هم أوَّلَ مَنْ تُسَعَّرُ بهم النارُ؛ العالِمُ، والمتصَدِّقُ، والمجاهِدُ[4].

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الرقاق ، باب: ما يتقى من محقرات الذنوب (6492) عن أنس رضي الله عنه.

[2] صفوة الصفوة (2/ 167) ابن الجوزي.

[3] المحجة في سيرة الدلجة لابن رجب ص(92).

[4] سبق تخريجه ص(105).

وكذلك من عمل أعمالاً صالحة، وكانت عليه مظالم، فهو يَظُنُّ أنَّ أعماله تنجيه، فيبدو له ما لم يكن يحتسب، فيقتسمُ الغرماءُ أعماله كلَّها، ثم يفضُلُ لهم فضلٌ، فيطرح من سيئاتهم عليه، ثم يُطرَح في النار[1].

وقد يناقَشُ الحسابَ فيُطْلَبُ منه شُكْرُ النعم، فتقوم أصغرُ النعم فتستوعِبُ أعماله كلَّها، وتبقى بقيةُ النعم، فيُطالَبُ بشكرِها فيعذَّبُ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: «مَنْ نُوْقِشَ الحسابَ عُذِّبَ» وفي روايةٍ: «هَلَكَ»[2].

وقد تكون له سيئاتٌ تحبِطُ بعضَ أعماله أو أعمالَ جوارحه سوى التوحيد، فيدخلُ النارَ. وقد يحبطُ العملُ بافةٍ من رياءٍ خفيٍّ، أو عُجُبٍ به، ونحو ذلك، ولا يشعر به صاحبُه[3].

قال ضيغم العابد: إنْ لم تأتِ الآخرة المؤمنَ بالسرورِ لقد اجتمع عليه الأمرّان، هَمُّ الدنيا وشقاءُ الآخرة.

فقيل له: كيف لا تأتيه الآخرة بالسرورِ، وهو يتعبُ في دار الدنيا ويدأبُ؟.

فقال: كيف بالقبولِ، كيف بالسلامةِ؟ ثم قال: كم مِنْ رجلٍ يرى أنَّه قد أصلحَ عملَه، يُجمَعُ ذلك كلُّه يومَ القيامة، ثم يضربُ به وجهُهُ.

ومن هنا كان بعضُ الصالحين يقلقون من هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ*﴾ [المائدة :27] .

---

(1) هو حديث المفلس وقد سبق تخريجه.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه ،كتاب: الرقاق ، باب: من نوقش الحساب عذب (6536) بلفظ «عُذب» ، وكذلك مسلم في صحيحه ، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب: إثبات الحساب (2876). وأخرجه البخاري في صحيحه ،كتاب: تفسير القران ، باب: {} [الانشقاق: 8]. {فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا *} بلفظ «هلك». وكذلك مسلم في صحيحه. كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب: إثبات الحساب (2876).

(3) المحجة في سير الدلجة ص(96).

ولذلك فالمسلمُ لا يثقُ بكثرةِ العمل، لأنَّه لا يدري أيقبل منه أم لا؟ ولا يأمنُ ذنوبه، فإنه لا يدري هل كفَّرت عنه أم لا؟ لأنَّ الأعمالَ مُغَيَّبةٌ عن العبيدِ، لا يدرون ما اللهُ صانعٌ بهم[1].

ومن تأمَّلَ هذا حقَّ التأمل أوجبَ له الخوفَ والخشيةَ والقلقَ، فإنَّ ابنَ آدم معرَّضٌ لأهوالٍ عظيمةٍ من الموتِ، والقبرِ، وأهوالِ البرزخِ، وأهوالِ الموقفِ، كالصراطِ، والميزانِ، وأعظمُ من ذلك الوقوفُ بَيْنَ يدي الله عزَّ وجلَّ، ودخولُ النار، ويخشى على نفسه الخلود فيها، بأن يُسلَبَ إيمانُه عندَ الموت، ولم يأمن المؤمنُ شيئاً من هذه الأمور، قال تعالى: ﴿فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ *﴾ [الاعراف: 99] .

قال الشاعر (من الوافر):

أمـــا واللهِ لـــو عَلِـــمَ الأنامُ ... لِمَـا خُلِقُـوا لما غَفلُـوا ونامُـوْا
لقـد خُلِقُـوا لِمَـا لَـوْ أَبْصَـرَتْهُ ... عيـونُ قلـوبهم تاهُـوا وهـامُوا
ممـــاتٌ ثم قـــبرٌ ثم حَشْـــرٌ ... وتـــوبيخٌ وأهـــوالٌ عِظَـــامُ
ليـومِ الحشـرِ قَـدْ عَمِلَـتْ رجـالٌ ... فَصَـلُّوا مِـنْ مخافتِـهِ وَصَـامُوا
ونحـــنُ إذا نُهينـــا أو أُمِـــرْنَا ... كأهـلِ الكَهْـفِ أيقـاظٌ نِيَـامُ[2]

• الفرقُ بين الشركِ الأكبرِ والأصغرِ:

الشركُ الأكبر يخرجُ صاحبه من الإسلام، بخلافِ الشرك الأصغر.

الشرك الأكبرُ يحبِطُ جميعَ الأعمال، أمّا الشركُ الأصغرُ فإنَّه يحبطُ العملَ الذي خالطَه فقط.

---

[1] المصدر نفسه ص(98).

[2] المحجة في سير الدلجة ص(101).

الشركُ الأكبرُ يبيحُ الدمَ والمالَ، والشِّرْكُ الأصغرُ ليس كذلك.

الشركُ الأكبرُ يخلِّد صاحبَهُ في النار، أمّا الشرك الأصغر فلا يخلّد صاحبَه في النار،وإن دخلها.

الشركُ الأكبر يوجِبُ المعاداةَ، وقطعَ الموالاة، فلا يجوزُ موالاة المشرك مهما كانت قرابته. أمَّا الشركُ الأصغرُ فلا يقطعُ الموالاةَ على الإطلاق، وإنّما يُوَالى بقدر ما لديه من التوحيدِ، ويُعادى بحسب ما فيه مِنَ الشرك[1].

- **آثارُ الشرك:**

إنَّ الشركَ الذي يقعُ فيه الإنسانُ له اثاره الوبيلةُ في دنياه وآخرته، سواءٌ أكان الواقع فيه فردٌ أم جماعةٌ، فمن تلك الآثار: إطفار نور الفطرة، والقضاء على منازع النفس الرفيعة، والقضاءُ على عزَّةِ النفس، ووقوعُ صاحبه في العبوديّةِ الذليلةِ، وتمزيقُ وحدةِ النفس البشرية، وإحباطُ العمل[2].

ثانياً ـ الكفر حقيقته وأنواعه وما يتعلق بكل نوع من أحكام:

- **تعريف الكفر وحقيقته:**

الكفرُ لغةً تغطيةُ الشيء، وسُمِّي الليلُ كافراً لتغطيته كلَّ شيءٍ[3]، وذكرَ أهلُ التفسير أنَّ الكفر في القرآن على خمسةِ أوجهٍ:

أحدهما: الكفر بالتوحيد، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ *﴾[البقرة: 6] .

(1) عقيدة أهل السنة والجماعة ص(143).

(2) فقه النصر والتمكين ص(302).

(3) التبيان لعلاقة العمل بمسمى الإيمان ، علي سوف ص(249).

والثاني: كفر نعمةٍ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ *﴾ [البقرة :152] .

والثالث: التبرؤ، ومنه قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [العنكبوت :25]، أي يتبرّأ بعضُكم من بعضٍ.

والرابع: الجحود، ومنه قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة :89] .

والخامس: التغطية: ومنه قولُه تعالى: ﴿أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ [الحديد :20] يريدُ الزرّاع الذين يغطّون الحبَّ[1].

وأما الكفر اصطلاحاً: فهو الإنكارُ المتعمَّدُ لما جاء به محمّد صلى الله عليه وسلم، أو بعضَ ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ممّا عُلِمَ من دينه بالضرورة[2].

والكفر والإيمان ضدّان، متى ثبتَ أحدُهما ثبوتاً كاملاً انتفى الآخر[3].

والكفرُ ليس حقيقةً واحدةً، ولا هو شعبةٌ واحدةٌ، فلا ينحصِرُ في التكذيبِ أو الاعتقادِ القلبي، بل هو شُعَبٌ متعدِّدةٌ، ومراتبُ متفاوتةٌ، كما أنَّ ما يقابِلُه ـ وهو الإيمان ـ شعبٌ متعدِّدةٌ كما سبق ذكره.

ويقعُ الكفرُ بالتكذيبِ والجحودِ، والإعراضِ، والتكبّر عن أوامرِ اللهِ[4].

وكما أنَّ الإيمان ذو شعب دلَّ عليها حديثُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم المتفق عليه في قوله صلى الله عليه وسلم: «الإيمانُ بضعٌ وسبعونَ أو بضع وستون شعبةً: فأفضلها

---

[1] نزهة الأعين النواظر لابن الجوزي (119/2 ـ 021).

[2] عقيدة أهل السنة والجماعة ص(49).

[3] الإرشاد إلى معرفة الأحكام للسعدي ص(203 ـ 204).

[4] التبيان لعلاقة العمل بمسمى الإيمان ص(256).

قول شهادةُ أنَّ لا إله إلا الله، وأدناها إماطةُ الأذى عن الطريقِ، والحياءُ شعبةٌ من الإيمان»[1]. فكذلك الكفرُ له شعبٌ أيضاً.

- . أقسام الكفر:

ينقسم الكفر إلى قسمين:

القسم الأول: كفرٌ أكبر يناقِضُ الإيمان، ويوجب الخروج من الملة، والخلودَ في النار، وهو على خمسة أنواع:

النوع الأول . كفر التكذيب: وهو اعتقادُ كذب الرسل، وهذا قليلٌ جداً، لأنَّ الله أيَّدَ رسلَه بالآيات، وأعطاهم من المعجزات ما يقومُ به دليلاً على صدقهم، وقيامِ الحجّةِ على أممهم، قال تعالى عن فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: 14] وقال لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ *﴾ [الانعام: 33] وإنَّما يلجأ بعضُ الكفَّار إلى تكذيبِ الرسلِ بألسنتهم فقط، وليس من قلوبهم.

النوع الثاني . كفر الإباء والاستكبار: وهو المسمّى بالكفر الإبليسي، فإنَّ إبليسَ إنَّما جحدَ أمرَ الله وأنكره عناداً واستكباراً، وهذا النوع يقعُ من معظم الكفار، حيث يقولون: ﴿مَا أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَانُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ *﴾ [يس: 15] وكما يقول قوم فرعون: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ *﴾ [المؤمنون: 47][2].

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها (35). وأخرجه البخاري في صحيحه مختصراً ، كتاب: الإيمان ، باب: أمور الإيمان (9).

[2] مدارج السالكين (346/1).

النوع الثالث ـ كفر الإعراض: وذلك بأنْ يُعْرِضَ بسمعه وقلبِهِ عن الرسول صلى الله عليه وسلم، لا يصدّقه، ولا يكذّبه، ولا يواليه، ولا يعاديه، ولا يصغي له، ولا إلى ما جاء به البتَّةَ، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ *﴾ [الاحقاف: 3] .

النوع الرابع ـ كفرُ الشكِّ: بأنْ لا يجزِمَ بصدقِ النبيّ صلى الله عليه وسلم، ولا يكذّبه، وإنما يشكُّ في ذلك، أو يشك في القيامة، ومِنْ هذا الكفرِ كفرُ صاحِبِ الجنّة والبستانِ الذي غرّه ما عنده من الرزق، وفقدَ الإيمانَ باللهِ واليومِ الآخر، قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا *وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا *قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً *لَكِنَّ هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا *﴾ [الكهف: 35 ـ 38] فلقد عبّر عن عقيدته في اليوم الآخر بقوله: هكذا على سبيل الشك وعدم ﴿وَلَئِنْ رُدِدْتُّ إِلَى رَبِّي﴾، فوقع في الكفر، كما قال له صاحبه وهذا هو مصيرُ أصحاب القلوبِ المريضة والعياذ ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ﴾

النوع الخامس ـ كفر النفاق: وهو إظهارُ الإيمانِ باللسان، وإخفاءُ الكفرِ والتكذيب في القلبِ، وهو النفاق الأكبر، وهذا النوع من أشدِّ أنواعِ الكفرِ خطراً على الإسلام والمسلمين، وأصحابُ هذا النفاق يتغلغون في صفوف المسلمين، ويحاولون تفريقَ الكلمة وتمزيقَ الأمة، ودليله قوله تعالى:(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ *﴾ [البقرة: 8 ـ 9][1].

[1] العقيدة الصافية ص(397).

القسم الثاني: كفر أصغر: وهذا لا ينافي أصلَ الإيمان، ولا يذهب به بالكلية، وإنّما ينقص كماله، ويصبح الموصوف به مذموماً شرعاً، وإن بقيتْ أحكامُ الإسلام تجري عليه، لبقاء أصل الإيمان به[1]، وهو كلُّ ذنب ورَدَت تسميتُه في الكتاب والسنّةِ كفراً، وهو لا يصلُ إلى حَدِّ الكفر الأكبر، وهذا النوع يوجبُ استحقاقَ الوعيد دونَ الخلودِ في النار، ومثال ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «سبابُ المسلمِ فسوقٌ وقتالُه كفرٌ»[2]. فإنَّ الكفرَ هنا معناه الكفرُ الأصغرُ الذي لا يخرجُ من الملّة، بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ *﴾[الحجرات: 9] فقد سمّاهم الله مؤمنين مع اقتتالهم[3].

- **إطلاق حكم الكفر، وشروط التكفير، وموانعه، والتوبة منه:**

1 . إطلاقُ حكم الكفر: ليس كلُّ مَنْ عملَ عملاً أو قال قولاً كفرياً يكون كافراً، إلا إذا وُجِدَت الشروطُ في حقِّ ذلك المعيَّن، وانتفت الموانعُ التي تمنع استحقاقه لذلك الحكم، فقد يقولُ الإنسان الكفرَ أو يعملُه باجتهادٍ أو خطأً ولا يكفُرُ به، وذلك لما يترتَّب على ذلك من الأحكام الشرعية، كإهدارِ دمه، وزوالِ عصمة ماله، وقطع الميراث بينه وبين أولاده، وتحريمِ زوجته عليه، وعدمِ حلِّ ذبيحته، وعدمِ جوازِ تغسيلِه والصلاةِ عليه ودفنِهِ في مقابر المسلمين، وعدم جوازِ الاستغفارِ له بعد موته، ولورودِ

---

[1] عقيدة أهل السنة والجماعة ص(51).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر (48) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: بيان قول النبي صلى الله عليه وسلم: «سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر» (64).

[3] عقيدة أهل السنة والجماعة ص(51).

الوعيد الشديد على مَنْ أطلقَ كلمة الكفر على مُسلمٍ، ولم يكن كذلك، ففي الحديث: «أيما رجلٍ قالَ لأخيه يا كافرُ فقد باءَ بها أحدُهما»[1].

2 . شروط التكفير:

بيّن علماءُ المسلمين بأنَّ الشخص المعيّن لا يكونُ كافراً حلالَ الدمِ والمالِ إلا إذا تحققت فيه شروطٌ عدة، وانتفت عنه موانعُ، حينئذٍ يجوزُ الحكم عليه بالكفر، أما إذا انتفى أيُّ شرطٍ، أو وُجِد أيُّ مانع، فلا يجوزُ أن يحكمَ عليه بالكفر، وليس معنى هذا إعفاءَه من العقوبة تماماً، بل يُعاقَبُ على حسب حاله، إنّما الممنوعُ الحكمُ عليه بالكفر، لا مطلقُ العقوبةِ.

هناك شروطٌ ثلاثةٌ لا بدَّ من اجتماعها في من عمل عملاً يستحقُّ عليه الوعيد واللعن والكفر، وإذا سقطَ شرطٌ منها فيمتنع لعنُ الشخصِ أو تكفيرُه، وهذه الشروط هي:

الشرط الأول . العلم: فالله سبحانه وتعالى لم يشرع العقوبةَ قبل إقامةِ الحجّة، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً *﴾ [الإسراء: 15] وقال تعالى: ﴿رُسُلاً وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا *﴾ [النساء: 165] وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ [القصص: 59] وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الملك: 8 . 9] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الأدب ، باب: من كفَّر أخاه بغير تأويل فهو كما قال (6104) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم يا كافر (60).

آياتكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى *﴾[طه: 134] وهذه النصوصُ الربانية تفيدُ أنَّ الله تعالى لا يؤاخِذُ عبادَه إلاّ بعدَ قيام الحجة عليهم، وعِلمهم بالحقِّ والصواب[1]، وقد ثبت في نصوصٍ أخرى أنّ الله لا يؤاخِذُ جاهلاً، ولو كان جهلُه بمسائلَ في العقيدة، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كانَ رجلٌ يُسْرِفُ على نفسِهِ، ولما حضره الموتُ قال لبنيه: إذا أنا مِتُّ فأحرقوني، ثم اطحنوني، ثم ذُرُّوني في الريحِ، فو اللهِ لئن قدرَ عليَّ ربي ليعذِّبني عذاباً ما عذَّبه أحداً، فلمّا ماتَ، فُعِلَ به ذلك، فأمرَ الله الأرضَ فقال: اجمعي ما فيكِ منه، ففعلتْ، فإذا هو قائمٌ، فقال: ما حملكَ على ما صنعتَ؟قال: يا ربِّ خَشْيَتُك، فَغُفِرَ له» وفي رواية: «مخافُتَك يا ربِّ»[2]، فهذا الرجلُ كان قد وقعَ له الشكُّ والجهلُ في قدرة الله تعالى على إعادةِ ابنِ آدم، بعدما أُحْرِقَ وذُرّي، وعلى أنّه يعيدُ الميتَ ويحشرَه إذا فعلَ ذلك، وهذان أصلان عظيمان، أحدهما: متعلِّقٌ بالله تعالى، وهو الإيمانُ بأنَّ الله على كلِّ شيءٍ قديرٌ. والثاني: متعلّقٌ: باليوم الآخر، وهو الإيمانُ بأنَّ الله يعيدُ هذا الميّتَ، ويجزيه على أعماله، ومع هذا فلمَّا كان مؤمناً باللهِ في الجملةِ، ومؤمناً باليوم الآخر في الجملةِ، وهو أنَّ الله يثيبُ ويعاقِبُ بعدَ الموت وقد عمل صالحاً، وهو خوفه من الله أن يعاقبه على ذنوبه، غفرَ الله له بما كانَ منه من الإيمان بالله، واليوم الآخر، والعمل الصالح[3].

[1] ظاهرة الغلو في الدين ، محمد عبد الحكيم حامد ص(267).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: أحاديث الأنبياء ، باب: حديث الغار (3481). وأخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: التوبة ، باب: في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (2756) بلفظ قريب.

[3] الفتاوى (491/12).

وكذلك بلال بن رباح رضي الله عنه، لما باع الصاع بالصاعين أمره النبيُّ صلى الله عليه وسلم بردّه، لم يرتّبْ على ذلك حكمَ اكلِ الربا من التفسيقِ واللعنِ والتغليظِ لعدم علمه بالتحريم[1].

الشرط الثاني ـ العمدُ: لا بدَّ مِنْ توفّر شرطِ العمد، لأنَّ الله تعالى قد رفعَ الإثمَ والمؤاخذةَ عن المخطئ والمتأوِّل، قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الاحزاب :5] وقال سبحانه وتعالى: ﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِيْنَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة :286]، وقد ثبتَ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم: «أنَّ الله تعالى قال: قد فعلتُ» لما دعا النبيُّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنون بهذا الدعاء[2]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنَّ اللهَ تجاوزَ لي عن أُمَّتي الخطأَ والنسيانَ وما استُكْرِهُوا عليه...»[3] وذلك يعمُّ الخطأَ في المسائلِ الخبريةِ القوليةِ، والمسائلِ العمليةِ، وما زالَ السلفُ يتنازعون في كثير من هذه المسائل، ولم يشهد أحدٌ منهم على أحد لا بكفرٍ ولا بفسقٍ ولا بمعصيةٍ[4]. تلك أدلة رفعِ الإثمِ والمؤاخذةِ عن المخطئ والمتأول[5].

وإذا كان المسلم متأوِّلاً في القتال أو التكفير لم يكفرْ بذلك، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لحاطب بن أبي بلتعة: يا رسول الله دعني أضربُ عنقَ هذا المنافق، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «إنَّه شهدَ بدراً، وما يدريكَ لعلَّ الله أن

---

(1) الفتاوى (253/20).

(2) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: بيان تجاوز الله تعالى عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر ، وبيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف إلا ما يطاق ، وبيان حكم الهم بالحسنة والسيئة (125).

(3) أخرجه ابن حبان في صحيحه (7219) والحاكم في المستدرك 2/ 198 وصححه ووافقه الذهبي ، انظر شرح الحديث في كتاب جامع العلوم والحكم ، لابن رجب الحنبلي (350 ـ 356).

(4) الفتاوى (229/3).

(5) ظاهرة الغلو في الدين في العصر الحديث ص(271).

يكون قد اطّلعَ على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتُم فقد غفرتُ لكم»[1]، وكذلك ثبت في «الصحيحين» عن أسامة بن زيد أنَّه قتلَ رجلاً بعد ما قال: لا إله إلا الله، وعظّم النبيُّ صلى الله عليه وسلم ذلك لما أخبروه وقال: «يا أسامةُ أقتلته بعدما قال: لا إله إلا الله»؟ كرَّر ذلك عليه حتى قال أسامةُ: تمنّيتُ أني لم أكنْ أسلمتُ قبل ذلك اليوم[2]، ولم يوجب عليه قَوَداً ولا دِيةً ولا كفّارةً، لأنّه كان متأوِّلاً، وظنَّ جوازَ قتلِ ذلك القائل لظنّه أنّه قالها تعوُّذاً.

الشرط الثالث ـ الاختيار والقدرة: قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل :106] ففي قوله تعالى: استثناءٌ ممّن كفرَ بلسانه، ووافق المشركينَ بلفظهم مُكرَهاً لما ناله من ضربٍ وأذًى، وقلبُه يأبى ﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾ يقولُ، وهو مطمئنٌ بالإيمانِ باللهِ ورسوله صلى الله عليه وسلم، وقد نزلت هذه الآية في عمّار بن ياسر، فقد أخذه المشركون، فعذّبوه حتى قاربهم في بعضٍ ما أرادوا، فشكا ذلك إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «كيفَ تجدُ قلبك؟» قال: مطمئناً بالإيمان، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إنْ عادوا فَعُدْ»[3].

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الجهاد والسير ، باب: الجاسوس (3007) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: فضائل الصحابة ، باب: من فضائل أهل بدر ، وقصة حاطب بن أبي بلتعة (2494).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: المغازي ، باب: بعث النبي أسامة بن زيد إلى الحرقات من جهينة (4269) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان. باب: تحريم قتل الكافر بعد أن قال: لا إله إلا الله (96 ظاهرة الغلو في الدين في العصر الحديث ص(272).).

(3) أخرجه الحاكم في المستدرك ، كتاب: التفسير ، باب: تفسير سورة النحل (389/2) رقم (3362) ، وقال: صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه. والبيهقي في السنن ، كتاب: المرتد ، باب: المكره على الردة (208/8) ، قال

ولهذا اتفق العلماءُ على أنَّ المكرَهَ على الكفرِ يجوزُ له أن يوالي إبقاءً لمهجته، ويجوزُ له أن يأبى كما كان بلالٌ رضي الله عنه يأبى عليهم ذلك، والأفضلُ والأولى أنْ يَثْبُتَ المسلمُ على دينه، ولو أفضى إلى قتله[1]. وقد أخبر الله سبحانه وتعالى في غيرِ موضعٍ أنَّه لا يكلِّفُ نفساً إلاَّ وسعها، كقوله تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [البقرة:286] وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [الاعراف :42] وأمربتقواه بقدر الاستطاعةِ فقال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن :16] .

3 . موانع التكفير:

إنَّ الحكمَ على الشخص المعيَّن يتوقَّفُ على وجودِ شروطٍ، وانتفاء موانعٍ، ومن موانع التكفير: الخطأُ، الجهلُ، العجزُ، والإكراهُ.

أ . فالخطأ: لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة :286] وقال تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾ [الاحزاب :5] فوجودُ الخطأ من المسلمِ أحدُ موانعِ تكفيرِ المعيَّن، كما أنَّ الله أمرَ الناسَ أن يطلبوا الحقَّ على قدر وسعهم وإمكانهم، فإن لم يصيبوا الحقَّ في اجتهادهم، فلا يكلِّفُ الله نفساً إلا وسعها، والواجبُ في حقّ المسلم أن يعبدَ الله بحسب ما توصّلَ إليه اجتهادُه، إن كان مؤهّلاً للاجتهاد، وبذل وسعه في طلب الحقّ.

إنَّ الأدلةَ من الكتاب والسنة متضافرةٌ على أنَّ المجتهد المخطأئَ معذورٌ، كما دلَّ الإجماعُ والقياسُ على ذلك[2].

ابن حجر في فتح الباري (312/12): مرسل ورجاله ثقات.

(1) تفسير ابن كثير (587/2 . 588).

(2) منهج ابن تيمية في مسألة التكفير (249/1 . 257).

ب ـ الجهل: قال تعالى: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا *﴾ [النساء: 165] وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً *﴾ [الإسراء: 15] فالجهلُ أحدُ موانعِ تكفيرِ المعيَّنِ، لأنَّ الإيمانَ متعلِّقٌ بالعلم، ووجودُ العلم بالمؤمن به شرطٌ من شروطِ الإيمانِ به[1].

ج ـ العجز: قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا *﴾ [النساء: 75] فأولئك كانوا عاجزينَ عن إقامةِ دينهم، فقد سقط ما عجزوا عنه[2]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا *إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً *فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا *﴾ [النساء: 97 ـ 99] فهذه الآيات في جماعةٍ من المؤمنين كانوا يستخفون بإيمانهم، وهم عاجزونَ عن الهجرة، فعذَرَهم اللهُ تعالى[3].

ومثالٌ آخر على العجز كمانع من موانع التكفير، أنَّ النجاشيَّ ملك النصارى في الحبشة، لم يطعه قومه في الدخول في الإسلام، ولم يدخل معه سوى نفرٍ يسيرٍ منهم، فلمّا مات، صلّى عليه النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة، خرجَ بالمسلمين إلى

---

[1] المصدر نفسه (261/1).
[2] الفتاوى (220/19 ـ 221).
[3] المصدر السابق (220/19).

المصلى، فصفّهم صفوفاً، وصلّى عليه، وأخبرهم بموته يوم مات، فقال صلى الله عليه وسلم: «قد توفّي اليومَ رجلٌ صالحٌ من الحبش، فهلمّوا فصلّوا عليه»[1]. وكثيرٌ من شرائع الإسلام لم يكن دخلَ فيها لعجزِه عن ذلك، فلم يهاجِرْ، ولم يجاهِدْ، بل قد روي أنَّه لم يصلِّ الصواتِ الخمسَ، ولم يصمْ رمضانَ، ولم يؤدِ الزكاةَ الشرعية، لأنَّ ذلك يظهر عند قومه فينكِرون عليه، وهو لا يمكنه مخالفتهم، ويعلم قطعاً أنَّه لم يكن يمكنه أن يحكمَ بينهم بحكم القرآن، لأنَّ قومه لا يقرّونه على ذلك، ولهذا جعل الله هؤلاء من أهل الكتاب الذين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لاَ يَشْتَرُونَ بِآيات اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ *﴾ [آل عمران: 199] وقال بعضُ العلماء: هذه الآية نزلت في النجاشي، ومنهم من قال: فيه وفي أصحابه[2].

وكذلك ما أخبر الله به عن حال مؤمن ال فرعون مع قوم فرعون، وعن حالِ امرأة فرعون.

وكذلك كان يوسف الصديق ـ عليه السلام ـ مع أهل مصر، فإنهم كانوا كفّاراً، ولم يمكنه أن يفعلَ معهم كلَّ ما يعرفه من دين الإسلام، لأنَّه دعاهم إلى التوحيد والإيمان فلم يجيبوه[3].

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الجنائز ، باب: الصفوف على الجنازة (1320) ، وأخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الجنائز بابٌ: في التكبير على الجنازة (953).

[2] الفتاوى (19/217 ـ 219).

[3] تفسير الطبري (4/218 ـ 219).

إنَّ مَنْ عجز عن أداءِ ما شرع الله عليه، واتّقى الله ما استطاعَ، فإنَّه معذور غيرُ مؤاخَذٍ على ما تركه.

د . الإكراه: قال تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ *﴾ [النحل: 106] وهو كلُّ ما أدَّى بشخصٍ لو لم يفعل المأمورَ به إلى ضربٍ أو حبسٍ، أو أخذِ مالٍ، أو قطعِ رزقٍ يستحقّه، أو نحو ذلك[1].

وشروط الإكراه أربعةٌ:

الشرط الأول: أن يكونَ فاعِلُه قادراً على إيقاع ما يهدِّد به، والمأمورُ عاجزاً عن الدفعِ، ولو بالفرار.

الشرط الثاني: أن يغلبَ على ظنِّ المكرَه أنَّه إذا امتنعَ أوقع به المكرِهُ ما هدّده به.

الشرط الثالث: أن يكونَ ما هُدِّدَ به فورياً، أو بعدَ زمنٍ قريبٍ جداً، أو جرتِ العادةُ أنّ المهدِّد لا يخلف ما هدده به.

الشرط الرابع: أن لا يظهرَ من المأمورِ ما يدلُّ على اختياره[2].

4 . التوبة من الكفر بعد ثبوته على المعيَّن:

التوبة: هي رجوعُ العبدِ إلى الله، ومفارقته لصراط المغضوب عليهم والضالين[3].

والله سبحانه وتعالى يقبلُ توبة العبدِ من جميع الذنوب، الشرك فما دونه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ

---

[1] مناهج ابن تيمية في مسألة التكفير (266/1).
[2] فتح الباري (311/12).
[3] مدارج السالكين (199/2).

الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ *﴾ [الزمر :53] وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ *أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *﴾ [المائدة :73 . 74] وقال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال :38] .

والتوبة تمحو جميع السيئاتِ، وليس شيءٌ يغفِرُ جميعَ الذنوب إلا التوبة، ومعلومٌ أنَّ من سبَّ الرسول صلى الله عليه وسلم من الكفّار المحاربين، وقال: هو ساحر، أو شاعر، أو مجنون، أو معلَّم، أو مفتر، وتاب: تابَ الله عليه. وقد كان طائفةٌ يسبّون النبيَّ صلى الله عليه وسلم مِنْ أهلِ الحرب، ثم أسلموا، وحسن إسلامهم، وقبل النبيُّ صلى الله عليه وسلم منهم، منهم أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم، وعبد الله بن أبي السرح، وكان قد ارتدَّ، وكان يَكْذِبُ على النبي صلى الله عليه وسلم، ويقول: أنا كنتُ أعلّمه القرآن، ثم تابَ، وأسلمَ، وبايعه النبيُّ صلى الله عليه وسلم على ذلك[1]، فالتوبةُ هي الأمرُ الوحيدُ الذي يمحو الله به الكفر بعد ثبوته، وقد انعقد الإجماع على ذلك[2].

- **الأمثال القرآنية للكافرين:**

1 . السرابُ وأعمال الكفار: قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ *﴾ [النور :39] بيَّنَ الله سبحانه وتعالى أنَّ مثلَ أعمالِ الذين كفروا باللهِ

---

[1] مجموع الفتاوى (291/13).
[2] منهج ابن تيمية في مسألة التكفير (273/1).

مِثْلَ سرابٍ بأرضٍ منبسطةٍ، يرى وَسْطَ النهارِ، وحين اشتدادِ الحرِّ، فيظنُّه العطشانُ ماءً، فإذا أتاه ملتمِساً الشرابَ لإزالةِ عطشه، لم يجدِ السرابَ شيئاً، فكذلك الكافرون في غرورٍ من أعمالهم التي عملوها، وهم يحسبون أنها تنجّيهم عند الله من الهلاك، كما حَسِبَ العطشانُ السرابَ ماءً، فإذا صار الكافِرُ إلى اللهِ، واحتاجَ لعمله، لم ينفعه، وجازاه الله الجزاء الذي يستحّقه[1].

ونلاحظ خلال المثل صورةَ السرّاب، ثم صورةَ الظامأىءِ الذي ظنّه ماء، ثم خيبتُه عند وصولِه إليه، وحذفَ ما عدا ذلك، لأنَّ الخيالَ يتمُّ رسمَها، وفي المثل له لم يُذكَر إلا عملُ الذين كفروا، وطُوِي ما عدا ذلك، لأنَّ الفكرَ قادِرٌ على أن يستدعيه، وهذا من بلاغة القرآن[2].

2 . ظلماتُ الكفر: قال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ *﴾ [النور: 40] هذه الآية مثلٌ آخر لأعمالِ الكفّار، إلاّ أنَّ المثلَ في انخداعِ الكافرِ بعمله في الدنيا، وغروره به، وهذا المثلُ لأعمالِ الكفّارِ في أنَّها عملتْ على خطأ وفساد وضلال وحيرة وعلى غيرِ هدًى، فهي في ذلك كمثل ظلمات في بحرٍ عميقٍ جدّاً، كثيرِ الماء، وفوقَ هذا الموج موجٌ آخر، وفوقها سحابٌ متراكم، فاجتمعت عِدّةُ ظلماتٍ، وهكذا عمل الكافر ظلماتٌ في ظلماتٍ[3].

---

(1) الشرك في القديم والحديث (1382/2).

(2) أمثال القران وصور من أدبه الرفيع عبد الرحمن حبنكة ص(133).

(3) الشرك في القديم والحديث (1383/2).

فهذا المثلُ يصوّرُ الحالةَ النفسيةَ والفكريةَ والقلبيةَ للذين كفروا بعد أن تركوا نورَ الهدايةِ الربانيّة، إنّهم يطلبون سعادتهم في الظلمات، فقلوبُهم مظلمةٌ بالكفر، ونفوسُهم تائهةٌ في بحرٍ من ظلماتِ الأهواء والشهوات، وأفكارُهم تسبحُ في ظلماتِ أسباب لذّات الدنيا، وإرادتهم تحت كلِّ هذه الظلمات، فمثلُهم كمَنْ في ظلماتِ قاعِ بحرٍ عميقٍ، فوقه أمواجٌ، في العمق الظلمة، فوقها أمواجٌ، في السطح تتضاعفُ الظلمة، فوقها سحابٌ يزيدُ الظلامُ ظلاماً، ظلماتٌ بعضُها فوقَ بعض[1].

إنَّ مثلَ الظلماتِ في (سورة النور) دلَّ على حقائقَ علميةٍ تتَّصل بالعلوم الدنيوية المادية التطبيقية أو النظرية، وإنَّ هذه الحقائق تنقسم ثلاثةَ أقسامٍ:

القسم الأول: دلالةُ المثلِ على معجزةٍ علميةٍ للنبيّ صلى الله عليه وسلم تتمثّل في الإخبارِ بوجودِ أمواجٍ في باطنِ البحارِ العميقة اللُّجّية (المحيطات) والتي لم تكن معلومةً في ذلك الوقت، بل لم يكن بمقدور البشر اكتشافها، لكونها على عمق لا تصله إلا الغواصاتُ أو الغواصون المزوّدون بالأكسجين.

القسم الثاني: الإخبارُ عن حقائق علميةٍ في العلوم الدنيوية بما يطابِقُ ما ثبتَ عند المتخصصين فيها، وقد اشتملَ المثل على فائدتين من هذا القسم:

الأولى: إفادةُ المثل أنَّ أعماقَ البحار العميقةِ مظلمةٌ ظلمةً شديدةً، مع بيان سبب ذلك، وهو وجودُ حُجُبٍ حجبت الضوءَ، هي عبارةٌ عن أوساط شفّافة متعدّدة أسهمت مجتمعةً في حجب الضوءِ عن تلك الأماكن، وتسبّبت في ظلمتها، واتفاق ذلك مع ما تقرر في علم البحار، وعلم الضوء.

---

[1] أمثال القران وصور من أدبه الرفيع ص(133).

الثانية: دلالةُ المثلِ على التفسير العلمي للرؤية، وأنَّه يشترَطُ له وصولُ الضوءِ من مصدر مضيءٍ إلى الجسم المرئي، وإذا انعدمَ الضوءُ، ولم يصلْ منه شيءٌ إلى الجسمِ، فإنَّه يُظْلِمُ ولا يُرى، واتفاقه مع التفسير الصحيح المتقرر عند المتخصصين في ذلك الشأن، كما تضمّن المثل ـ أيضاً ـ إبطالَ التفسير القديم القائم على أنَّ سببَ الرؤيةِ خروج أشعةٍ من العين تسقطُ على الأجسامِ فتحدث رؤيتها.

القسم الثالث: إفادةُ المثل حقائقَ علميةٍ ثابتةٍ في نفسها، وإن لم تكنْ مسلّمة عند كل المشتغلين بتلك العلوم، وذلك في الأمورِ العقلية التي تبحثُ عادةً فيما يسمّى بعلم النفس والسلوك والاجتماع. وقد دلَّ المثلُ على حقيقتين من هذا القسم، هما:

الحقيقة الأولى: أنَّ الكفَّارَ يتقلّبون في ظلماتٍ حالكةٍ، وضلالاتٍ لا ينفكُّون عنها.

الحقيقة الثانية: حقيقةُ أنَّ الكفَّار في خوفٍ وقلقٍ وحَيْرةٍ دائمةٍ[1].

3 ـ الرماد وأعمال الكفار: قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيْحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ *﴾ [ابراهيم: 18] شبّه اللهُ تعالى أعمالَ الكفّارِ في بطلانها، وعدمِ الانتفاع بها، برمادٍ مرّت عليه ريحٌ شديدةٌ في يومٍ عاصفٍ، فشبّه سبحانه أعمالَهم في حبوطها وذهابها باطلاً كالهباءِ المنثور، لأنها على غيرِ أساسٍ من الإيمانِ والإحسانِ، ولأنها لغيرِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وعلى غيرِ أمرِه: برماد طيرته الريح العاصفُ، فلا يقدرُ صاحبُه على شيءٍ منه وقتَ شدّةٍ حاجته إليه، فلذلك قال تعالى: ﴿لاَ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى

[1] الأمثال القرانية (755/2) د. عبد الله جربوع.

شَيْءٍ﴾ يقدرون يومَ القيامةِ ممَّا كسبوا من أعمالهم على شيء، فلا يرون له أثراً من ثواب، ولا فائدة نافعة.

فإنَّ الله لا يقبلُ إلا ما كان خالصاً لوجهه، موافقاً لشرعه... وفي تشبيهه بالرماد سِرٌّ بديعٌ، وذلك للتشابه الذي بين أعمالهم وبين الرماد في إحراق النار وإذهابها لأصل هذا وهذا، فكانت الأعمالُ التي لغيرِ اللهِ وعلى غيرِ مراده طعمةٌ للنار، وبها تسعّرُ النار على أصحابها، وينشأئُ الله سبحانه لهم مِنْ أعمالهم الباطلةِ ناراً وعذاباً، كما يُنْشِأئُ لأهلِ الأعمالِ الموافقةِ لأمره ونهيه التي هي خالصةٌ لوجهه من أعمالهم نعيماً وروحاً، فأثّرت النارُ في أعمالِ أولئك حتى جعلتها رماداً، فهم وأعمالُهم وما يعبدون من دون الله وقودُ النارِ[1].

4 . نفقةُ الكفّار والريحُ الشديدة: قال تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ *﴾ [آل عمران: 117] شبَّه الله سبحانه ما ينفقه الكافرُ ويتصدّقُ به على وَجْهِ القربة إلى الله وهو مشركٌ باللهِ، وجاحِدٌ به، ومكذِّبٌ لرسلِهِ، أنَّ ذلك غيرُ نافعٍ، وأنَّه مضمحَّلٌ عند حاجته إليه. ذاهبٌ بعد ما كان يرجو نفعه: بريحٍ فيها بردٌ شديدٌ، وتحمِلُ النارَ، فأصابت زرعَ قومٍ أَمِلوا إدراكه، ورَجَوْا رَيْعَهُ، لكنّهم كفرة، فأهلكتِ الريحُ التي فيها الصِّرُّ الزرعَ، ولم يُنْتَفعْ بِشَيءٌ منه، وكذلك يفعلُ اللهُ بنفقةِ الكافرِ وصدقته، يبطِلُ ثوابها، والمراد بالمثل صنيعُ الله بالنفقةِ[2].

---

[1] أعلام الموقعين (170/1).

[2] الشرك في القديم والحديث (1386/2).

وهذا مثل ـ أيضاً ـ ضربه الله تعالى لمن أنفقَ في غير طاعته ومرضاته، فشبَّه سبحانه ما ينفقه هؤلاء من أموالهم في المكارم والمفاخر، وكسبِ الثناء، وحُسْنِ الذكر، ولا يبتغون به وجه الله، وما ينفقونه ليصدُّوا به عن سبيل الله واتباع رسله: بالزرع الذي زرعه صاحبه، يرجو نفعه وخيره، فأصابته ريحٌ شديدةُ البردِ جدّاً، يحرِقُ بردُها ما يمرُّ عليه من الزرع والثمار، فأهلكتْ ذلك الزرعَ وأيبسته[1].

5 ـ قلبُ الموحِّدِ وقلبُ الكافرِ: قال تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيات لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ *﴾ [الاعراف: 58] بيّن سبحانه وتعالى في هذا المثل أنَّ البلدَ الطيبةُ تربتُه، العذبةُ مشاربُه، يخرُج نباته ـ إذا أنزل الله الغيثَ ـ طيباً ثمرُه في حينه ووقته.

والبلدُ الذي خَبُثَ فتربته رديئةٌ، ومشاربه مالحةٌ، ويخرجُ نباته بعسرٍ وشدةٍ، فهذا مثلٌ ضربه الله للمؤمن والكافر، لأنَّ قلبَ المؤمن لما دخله القرآن وآمن به، وثبتَ الإيمان فيه، فاض بالخير، وقلبُ الكافر لما دخله القرآن لم يتعلّق منه بشيءٍ ينفعه، ولم يثبت فيه الإيمان، فاض بالنكد والشر والفساد[2].

وقد سمّى الله في كتابه المؤمنَ بالطيّبِ، والكافر بالخبيثِ، فقال تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ *﴾ [الانفال: 37] فالخبيثُ في هذه الآية هم الكفار، والطيّبُ هم المؤمنون[3].

---

[1] أعلام الموقعين (186/1).

[2] تفسير الطبري (211/8) ، تفسير ابن كثير (222/2).

[3] تفسير القرطبي (401/7) ، الشرك في القديم والحديث (1375/2).

هذه بعض الأمثلة القرآنية التي ضُرِبَتْ للكفّار، وهذا على سبيل المثال لا الحصر.

ثالثاً ـ النفاق: حقيقته وأقسامه، وأبرز صفات المنافقين

1 ـ تعريف النفاق:

النفاقُ: لفظٌ إسلاميٌّ، لم تكنِ العربُ تعرفه قبل الإسلام بهذا المعنى المخصوص، وحاصِلُ عباراتِ العلماء في تعريفه يمكِنُ إرجاعُها إلى أنَّ النفاق هو: إظهارُ الإيمانِ، وإبطانُ الكفرِ[1].

2 ـ أقسام النفاق: ينقسِمُ النفاق إلى قسمين:

القسم الأول ـ نفاق الاعتقاد: وهذا النوعُ من النفاق يسمّى النفاق الأكبر، الذي يخرجُ صاحبه من ملة الإسلامِ، ويوجِبُ له الخلودَ في النار، ويُحرِّمُ عليه دخولَ الجنة، وذلك لأنَّه أظهرَ الإسلامَ والخيرَ، وأبطنَ الكفرَ والشرَّ، وهؤلاء هم أشدُّ خطراً وبلاءً على الإسلام والمسلمين، لأنَّه يؤمَنُ جانبُهم لما ظهر من أمورٍ تدلُّ على إيمانهم، ويأتي الخطرُ كلُّ الخطرِ من جانبهم، فهم الذين يُشيعونَ الفاحشة في الذين آمنوا، وهم الذين يذبذبون الصفَّ المسلم، وغير ذلك، ولكنّ الله كاشِفٌ أمرهم، وهو على إذلالهم قديرٌ، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ *يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ *فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ *﴾ [البقرة:8 ـ 10] .

القسم الثاني ـ نفاق العمل: وهو النفاقُ الذي لا ينقلُ صاحبه عن الملّة، بل يظلُّ معه مسلماً، ويبقى معه إيمانُه، وهذا النفاقُ العمليُّ هو الاتصاف ببعض أعمال

---

[1] النفاق وأثره في حياة الأمة د. عادل الشدي ص(20).

المنافقين التي لا تنقض الإيمان، بل هي في المعاملات، وذلك مثل الكذب في الحديث، وإخلاف الوعد، والغدر عند الخصام، والخيانة عند الائتمان، فإنَّه قد يجتمعُ في العبدِ بعضُ خصالِ الخيرِ، وبعضِ خصالِ الشرِّ، ويستحقُّ من الثواب على قدر ما عنده من خصالِ الخيرِ، ويستحقُّ من العذابِ على قدر ما عنده من خصال الشرِّ والنفاقِ، وكان الصحابةُ رضوان الله عليهم يخافون النفاق، ويحذرون من الوقوع فيه، والاقتراب منه[1]، قال ابن أبي مُليكة رحمه الله: أدركتُ ثلاثينَ من أصحابِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم كلُّهم يخافُ النفاقَ على نفسه[2].

إنَّ اتهامِ بعضِ الصحابةِ أنفسَهم بالنفاقِ والخوفِ من الوقوعِ فيه يدلُّ على أشياء كثيرةٍ، ومعانٍ رفيعةٍ منها:

- مدى حرص الصحابة رضوان الله عليهم على إيمانهم وتوحيدهم، وحفظ إيمانهم من أن تشوبه شائبةٌ تعكّر صفوه، أو تنقص كماله.
- تواضع الصحابة رضوان الله عليهم، وعدمِ اغترارِهم بأعمالهم.
- ما يجبُ أن يكونَ عليه العبدُ من الخوفِ والرجاء، فإنَّه يخاف ربَّه أن يقعَ فيما يغضبه، وفي الوقت نفسه يرجو رحمته[3].

3. أبرز صفات المنافقين:

أ. الإفساد في الأرض بتهديم شريعة الله، واتهام المؤمنين بالسفه: قال تعالى في وصف المنافقين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ *أَلاَ

---

(1) العقيدة الصافية ص(412).

(2) المصدر نفسه ص(413).

(3) المصدر نفسه ص(413).

إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لاَ يَشْعُرُونَ *وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لاَ يَعْلَمُونَ *﴾ [البقرة :11 . 13] .

ب . خداع المؤمنين: قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ *﴾ [البقرة :14].

ج . الإعراض عن التحاكم إلى شرع الله: قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا *وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا *﴾ [النساء :60 . 61] .

د . الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف: قال تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ *﴾ [التوبة :67] .

هـ اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين: قال الله تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا *الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا *﴾ [النساء :138 . 139][1].

هذه أبرزُ صفاتِ المنافقين، أما التي ذكرت في القرآن الكريم فكثيرة.

---

[1] الإيمان للزنداني ومجموعة من العلماء ص(153 . 154).

رابعاً ـ الرِّدَّة: تعريفها وأقسامها، وأحكامها:

1 ـ تعريف الردة:

الردة: هي رجوعُ المسلم العاقلِ البالغِ عن الإسلام إلى الكفر، مختاراً غير مكره، ويستوي فيه الذكر والأنثى[1].

2 ـ أنواع الردة:

النوع الأول ـ الارتداد بالقول: كسبِّ الله تعالى، والنطقِ بقولٍ يكفُر به.

النوع الثاني ـ الارتدادُ بالفعل: كالسجودِ للأصنامِ والكواكبِ ونحوها، أو إذا أتى بفعلٍ صريحٍ، كالاستهزاءِ بالدين، أو امتهانِ القرآن، أو وضعه في القاذورات.

النوع الثالث ـ الارتداد بالاعتقاد: كاعتقادِ الشريك لله سبحانه وتعالى، أو اعتقادِ حِلّ شيءٍ من المحرّمات المجمَعِ عليها إجماعاً قطعياً.

النوع الرابع ـ الارتداد بالشك: كما لو شكّ في شيءٍ من واجبات الدين، كالصلاة أو الصيام، أو الزكاة، أو يشك في تحريم الشرك، أو شيء من المحرمات المعلومة من الدين بالضرورة، مثل الزنا، والخمر، أو شك في رسالة النبي صلى الله عليه وسلم أو غيره من الأنبياء أو في صدقه، أو في دين الإسلام، أو في صلاحيته لهذا الزمان أو غيره من الأزمنة[2].

3 ـ الأحكام التي تترتب على الارتداد:

أ ـ استتابةُ المرتد، فإنْ تابَ ورجعَ إلى الإسلام في خلال ثلاثةِ أيامٍ قُبِلَ منه ذلك.

---

[1] العقيدة الصافية ص(418).

[2] العقيدة الصافية ص(418).

ب ـ إذا أبى أن يتوب وجب على القاضي أن يأمرَ بقتله، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ بَدَّلَ دينَهُ فاقتلوه»[1].

ج ـ يُمْنَعُ من التصرُّف في ماله في مدَّة استتابه، فإن أسلم فهو له، وإلاّ صار فيئاً لبيتِ المالِ مِنْ حين قتله أو موته على الردة، وقيل: من حينِ ارتدادِهِ، يُصْرَفُ في مصالح المسلمين.

د ـ انقطاعُ التوارثِ بينَه وبين أقاربه، فلا يرثُهم، ولا يرثونه.

هـ إذا مات أو قتل على ردته، فإنه لا يُغسَّل، ولا يُصلعليه، ولا يُدفن في مقابر المسلمين، وإنَّما يدفن في مقابر الكفار، أو يُوارَى في التراب في أماكن غير مقابر المسلمين، هذا في الدنيا.

وأما في الآخرة فإنها تستوجِبُ العذابَ الشديد، والخلودَ في النار[2]، وذلك لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخرة وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ *﴾ [البقرة :217] .

4 ـ الأشياء التي يصيرُ بها المسلم مرتداً (والعياذ بالله):

أ ـ الشرك بالله تعالى: وهو أن يجعلَ لله نداً من مخلوقاته، يُدعى كما يُدعى الله، ويُخاف كما يُخاف الله، ويُتوكل عليه كما يُتوكل على الله، أو يُصرف له شيءٌ من العبادات، فإذا فعل ذلك فقد كفر، وخرجَ من ملّة الإسلام، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه ،كتاب: الجهاد والسير ، لا يعذب بعذاب الله (3017).

[2] العقيدة الصافية ص(419).

وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ *﴾ [الزمر :8] .

ب . إظهار الطاعة والموافقة للمشركين على دينهم: قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ *ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ *فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ *ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ *﴾ [محمد :25 .28] .

ج . موالاة المشركين والكافرين: قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ *﴾ [المائدة :51] وقال تعالى: ﴿لاَ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ [آل عمران: 28] .

د . الجلوس عند المشركين في مجالس شركهم من غير إنكار: قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَىءُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا *﴾[النساء: 140] .

هـ الاستهزاء بالله أو بكتابة أو برسوله صلى الله عليه وسلم: قال تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لاَ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ *﴾ [التوبة :65 .66] .

و . ظهور الكراهية والغضب عند الدعوة إلى الله، وتلاوة كتابه، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر: قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي

وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آياتنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ *﴾ [الحج :72] .

ز . كراهية ما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم من الكتاب والحكمة:

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ *﴾ [محمد :9] .

ح . جحود شيءٍ من كتابِ الله ولو اية، أو بعضِها، أو شيءٍ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم: قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً *أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِيناً *﴾ [النساء :150. 151] .

ط . عدم الإقرار بما دلت عليه آيات القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة:

قال تعالى: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيات اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلاَ يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلاَدِ *﴾ [غافر :4].

ى . الإعراض عن تعلم دين الله، والغفلة عن ذلك: قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ *﴾ [الاحقاف :3] .

ك . كراهية إقامة الدين، والاجتماع عليه: قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ *﴾ [الشورى :13] .

ل . تعلُّم السحرَ، وتعليمه، والعمل بموجبه: قال تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ﴾ [البقرة :102] .

م ـ إنكار البعث: قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ *﴾ [الرعد :5] .

ن ـ التحاكم إلى غير حكم الله عزَّ وجلَّ: قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ *﴾ [المائدة :50] .

خامساً ـ الفسق: تعريفه وأقسامه:

1 ـ تعريف الفسق:

الفِسْقُ: هو الخروجُ عن طاعةِ اللهِ سواءٌ كان خروجاً كليّاً أو جزئياً.

2 ـ أقسام الفسق: ينقسم الفسق إلى قسمين:

القسم الأول ـ فسق ينقل عن الملة وهو الكفر: فهو فسقٌ كلي، يخرجَ صاحبه عن طاعة الله وعبوديته، ولقد سمَّى الله تعالى الكفرَ المخرِجَ عن الملة الموجبَ لصاحبه النار، سمَّاه فسقاً، كما قال تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف :50] وسمَّى الله تعالى أصحاب النارُ فُساقاً، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ [السجدة :20] .

القسم الثاني ـ فسقٌ لا ينقل من الملة، وهو فسق جزئي، وهو يطلَقُ على بعض المعاصي، وعلى بعض العصاة، وصاحبه ما زال في حظيرة الإسلام، ولقد سمَّى الله المؤمنين الذين يرمون المحصناتِ، ثم لم يأتوا بالشهداء، بأنهم فاسقون، وهم ما زالوا في حظيرة الإسلام، يتمتّعون بعقيدة المسلمين، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلاَ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ *﴾ [النور :4] .

سادساً ـ المعاصي: تعريفها وأنواعها وحكم مرتكب الكبيرة

1 ـ تعريف المعاصي:

المعاصي: هي تركُ المأموراتِ، وفِعْلُ المحظوراتِ، أو ترك ما أوجب وفرض في كتابه، أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، وارتكاب ما نهى الله عنه أو رسوله صلى الله عليه وسلم من الأقوالِ والأعمالِ الظاهرةِ أو الباطنةِ[1].

ولفظُ المعصيةِ والفسوقِ والكفرِ إذا أطلقت دخل فيها الكفرُ والفسوقُ، كقوله: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا *﴾ [الجن :23] وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ *﴾ [هود :59] فهذه معصيةُ لجنس الرسل[2].

وقد جاء معنى العصيان بألفاظ كثيرة في القرآن الكريم:

أ ـ الذنب: قال تعالى: ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ﴾ [العنكبوت :40] .

ب ـ الخطيئة: قال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ *﴾ [يوسف :97] .

ج ـ السيئة: قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود :114] .

د ـ الحُوب: قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا *﴾ [النساء :2] .

هـ الإثم: قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ﴾ [الاعراف :33].

و ـ الفسوق والعصيان: قال تعالى: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات :7] .

---

[1] الكبائر والصغائر ، حامد محمد المصلح ص(19).

[2] المصدر نفسه ص(20).

ز ـ الفساد: قال جلَّ وعلا: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا﴾ [المائدة: 33] .

ح ـ العتو: قال تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ *﴾ [المائدة: 166] .

2 ـ أقسام المعاصي: تنقسم المعاصي إلى قسمين: كبائر وصغائر حسب تقسيمها في الكتاب والسنة للأدلة الاتية.

أما في الكتاب فمنها قوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: 31] ففي هذه الآية بيانُ أنَّ الذنوب تنقسم إلى كبائر وصغائر[1]، وقوله جلَّ جلاله: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ [النجم: 32] في الآية استثناءٌ منقطع، لأنَّ اللمم من صغائر الذنوب ومحقّرات الأعمال، فهو استثناءٌ من عامَّةِ الكبائر، وقوله تعالى: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: 7] فجعلها مراتبَ ثلاثاً، وسمّى أولها: كفراً، وثانيها: فسقاً، وثالثها: عصياناً[2]. وقوله تعالى: ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: 49] وهذا نصٌّ صريحٌ في أنَّ ما يعمل الإنسان يدوَّن عليه صغيراً كان أو كبيراً[3].

وأما في السنة فقد جاءت أحاديث كثيرة منها:

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سألتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم: أيُّ الذنبِ أعظمُ عند الله؟

---

[1] الكبائر والصغائر ص(23).

[2] المصدر نفسه ص(23).

[3] الكبائر والصغائر ص(23).

قال: «أَنْ تجعلَ للهِ نداً وهو خلقَكَ».

قال: قلتُ له: إنَّ ذلك لعظيمٌ. قال قلت: ثم أيْ؟

قال: «أن تقتلَ ولدَكَ مخافةَ أن يطعمَ معك».

قلت: ثم أي؟.

قال: «أن تزاني حليلة جارك»[1].

وعن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا أنبئّكم بأكبرِ الكبائر؟» ثلاثاً: «الإشراكُ باللهِ، وعقوقُ الوالدين، وشهادةُ الزور، أو قول الزور» وكان رسولُ اللهِ متكئاً فجلسَ، فما زل يكرّرُها حتَّى قلنا ليتَه سكت[2].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الصلواتُ الخمسُ، والجمعةُ إلى الجمعةِ، ورمضانُ إلى رمضانَ: مكفِّراتٌ ما بينهنَّ إذا اجتنبتِ الكبائرُ»[3].

فهذه الأدلةُ ـ وغيرُها كثيرٌ ـ تدلُّ دلالةً صريحةً على أنَّ المعاصي منها ما هو كبائر، بل وأكبر الكبائر، كما جاء في الأحاديث السابقة.

القسم الأول الكبيرة:

تعريف الكبيرة: كل ذنب ختمه الله تعالى بنارٍ أو غضبٍ، لأو لعنةٍ أو عذابٍ[1]، وقيل: كلُّ ما أُوْجِبَ فيه حدٌّ، أو وَرَدَ فيه توعُّدٌ بالنار، أو جاءت فيه لعنةٌ[2]. وقال

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: تفسير القران ، باب: قوله تعالى: {} [البقرة: 22] {فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ *} ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: كون الشرك أقبح الذنوب ، وبيان أعظمها بعده (86).

(2) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: بيان الكبائر وأكبرها (87). وأخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الشهادات ، باب: ما قيل في شهادة الزور (2654) بلفظ قريب.

(3) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الطهارة ، باب: الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان ، مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر (233).

بعض أهل العلم وغيرهم: إنّه يمكن أن تعرَّف الكبائرُ بالعدِّ بدلاً من الحدِّ، ومنهم مَنْ قال عن الكبائر: هي إلى السبعين أقربُ منها إلى السبع[3]. وذكر الهيتمي عن العلائي أنَّه صنَّفَ جزءاً جمع فيه ما نصَّ عليه النبيُّ صلى الله عليه وسلم أنَّه كبيرة وهي: الشركُ، والقتلُ، والزنا، وأفحشُه بحليلةِ الجارِ، والفرارُ من الزحفِ، وأكلُ الربا، وأكلُ مال اليتيم، وقذفُ المحصنات، والسحرُ، وشهادةُ الزور، اليمينُ الغموس، والنميمةُ، والسرقةُ، وشربُ الخمرِ، واستحلالُ بيت الله الحرام، ونكثُ الصفقة، وتركُ السنةِ، والتعرَّبُ بعدَ الهجرةِ، واليأسُ من روحِ اللهِ، والأمنُ من مكر اللهِ، ومنعُ ابن السبيل من فضلِ الماءِ، وعدمُ التنزُّه من البولِ، وعقوقُ الوالدين، والتسبُّبُ إلى شتمهما، والإضرارُ في الوصية، فهذه الخمس والعشرون هي مجموعٌ ما جاء في الأحاديث منصوصاً عليه أنَّه كبيرة[4].

إنَّ ما ذكره صحيحٌ من حيث كونها كبيرةً منصوصاً عليها، والأدلةُ عليها في مظانِّها، ولكن ليس هذا مجموعُ ما جاء في الأحاديث الصحيحة المنصوصِ عليها، بل قد ورد غيرُها، ونذكر منها ـ على سبيلِ المثالِ لا الحصر ـ الاتي: الكذب، وقاتل نفسه، والمكثر من اللعن بغير حق، وتشبُّه الرجال بالنساء والعكس، وسوءُ الجوار، والخيانة، والرشوة، وتغييرُ منار الأرض...الخ.

الخلاصة؛ إنَّ الكبائر غيرُ منحصرةٍ بعدِّ ولا حدِّ منضبط، بل إنها كلُّ معصيةٍ دلَّ الدليل على توكيد التحريم وتغليظه، سواء تُوَعِّدَ عليها بلعنٍ، أو غضبٍ، أو نارٍ، أو

---

(1) الزواجر لابن حجر (9/1).

(2) الكبائر والصغائر ص(27).

(3) تفسير الطبري (41/1).

(4) الكبائر والصغائر ص(28).

عذابٍ، أو حدٍّ، أو غير ذلك، ممّا عظمَ ضررُها في الوجود، أو اقترن بارتكابها ما تعظمُ به[1].

القسم الثاني الصغيرة:

تعريف الصغيرة: ما ليس فيها حدٌّ في الدنيا، ولا وعيدٌ في الآخرة[2]، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ [النجم: 32]، واللمم: ما كان بين الحدين، لم يبلغ حدَّ الدنيا ولا حدَّ الآخرة: موجبة قد أوجَب الله لأهلها النار، أو فاحشة يقام عليها الحدُّ في الدنيا[3].

والصغيرة مع الإصرار تشكّلُ خطراً على صاحبها، وربما تهلكه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إيَّاكُمْ ومحقَّراتِ الذنوب، فإنَّما مثل محقّراتِ الذنوب، كمثلِ قومٍ نزلوا بطنَ وادٍ، فجاءَ ذا بعودٍ، وجاء ذا بعودٍ، حتى حَمَلوا ما أنضجوا به خُبْزاً، وإنَّ محقّرات الذنوبِ متى يُؤْخَذُ بها صاحبُهَا تُهْلِكُه»[4]. ولأنَّ السيئةَ وإنْ صغرتْ تجرُّ أختها، حتى توقع فاعلَها في ما هو أكبرُ من الكبائر، ولهذا دفعُ السيئةِ بالحسنةِ لا بالسيئةِ، قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون: 96] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اتّقِ اللهَ حيثُما كنتَ، وأتبعِ السيئةَ الحسنةَ تمحُهَا»[5]. فإنَّ

---

(1) المصدر نفسه ص(29 ـ 33).

(2) أقوال التابعين في مسائل التوحيد والإيمان (1307/3).

(3) المصدر نفسه (1307/3).

(4) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (165/6) بهذا اللفظ. وأخرجه أحمد في مسنده (5/ 331) ، بلفظ قريب ، من حديث أبي مالك سهل بن سعد الساعدي. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (190/10): رجاله رجال الصحيح ، ورواه الطبراني في الثلاثة من طريقين ، ورجال إحداهما رجال الصحيح ، غير عبد الوهاب بن عبد الحكم ، وهو ثقة.

(5) أخرجه الترمذي في جامعه ، كتاب: البر والصلة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، باب: ما جاء في معاشرة الناس (1987) وقال: حسن صحيح.

العبد إذا وقعَ في سيئةٍ عليه أن يعملَ حسنةً تمحو تلك السيئة التي عملها، فيبدّل مكان السوءِ إحساناً، ومكان السيئةِ طاعةً، فإنَّه إذا وُفِّقَ لفعلِ الحسناتِ ألفها وأحبَّها، واطمئنَّ قلبُه لها، فلا يفارِقُها أبداً، حتى لو أجبرَ على سيئةٍ لم يأنسْ بها، وقلبُه يؤنِّبُهُ، وإيمانُه ينهاه عنها، فهو يزدادُ كلَّ يوم خيراً، وعن الشرِّ بُعداً[1].

3. حكم مرتكب الكبيرة:

سلك الصحابةُ والتابعون لهم بإحسان منهجاً وسطاً في شأنِ مرتكبِ الكبيرة، فلم يكفّروه، ولم يقولوا بأنّه كاملُ الإيمان، بل إنّه مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته، أو هو مؤمن ناقصُ الإيمان، أو مؤمنٌ عاصٍ، وهذا الحكم عليه إنَّما هو في الدنيا، أما في الآخرة فهو تحت مشيئة الله تعالى، إن شاء عذّبه، وإن شاء غفر له، وبهذا الحكم عليه جمعوا بين النصوص الشرعية التي تصف أهل الإيمان، والنصوص التي لم تخرج الفاسقَ من دائرةِ الإسلام[2].

إنَّ فساق الملة ليسوا مخلَّدين في النار، وليسوا كاملين في الدين والإيمان والطاعة، بل لهم حسنات وسيئات، يستحقّون بهذا العقاب، وبهذا الثواب[3].

وقد اتفق الصحابةُ والتابعون لهم بإحسانٍ وسائر أئمة المسلمين على أنّه لا يخلدُ في النار من كان في قلبه مثقالُ ذرةٍ من إيمانٍ، واتفقوا أيضاً على أنَّ نبينا صلى الله عليه وسلم يشفعُ فيمن يأذن الله له بالشفاعة فيه من أهل الكبائر من أمته[4].

---

[1] الكبائر والصغائر ص(35).

[2] أقوال التابعين في مسائل التوحيد والإيمان ، عبد العزيز عبد الله (1315/3).

[3] المصدر نفسه (1315/3) ، الفتاوى (679/7).

[4] الإيمان ، لابن تيمية ص (209).

وقد استدلَّ علماءُ الأمة الإسلامية على قولهم في مرتكب الكبيرة بالعديدِ من الأدلة من الكتاب والسنة:

أما الأدلة من القرآن الكريم فمنها:

أ ـ قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: 48] وقد أبانت هذه الآية أنَّ كلَّ صاحبِ كبيرةٍ ففي مشيئة الله، إنْ شاءَ عفا عنه، وإن شاءَ عاقبه، ما لم تكن كبيرتُهُ شِرْكاً بالله[1].

ب ـ قال تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ *إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ *﴾ [الحجرات: 9 ـ 10] رغم أنَّ القتالَ بين المسلمين من الكبائر لم ينتفِ عن المتقاتلين اسمُ الإيمان، ولم يخرجوا به عن أهله[2]، وقد استدلَّ كثيرٌ من العلماء بهذه الآية على أنَّ المعصيةَ وإنْ عظمتْ لا تُخْرِجُ من الإيمان[3].

ج ـ قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنْثَى بِالأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: 178] مع أنَّ الله عزَّ وجلَّ أوعدَ القاتلَ بالخلودِ في النار عقوبةً له على جريمته، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا *﴾ [النساء: 93] ومع ذلك لم ينفِ عن هذا القتل

---

[1] تفسير الطبري (129/4).

[2] دراسة عن الفرق وتاريخ المسلمين د. أحمد جلي ص(127).

[3] علي بن أبي طالب للصلاَّبي ص(383).

العاصي صفةَ الإيمانِ، فهو أخٌ لأولياء المقتول، وهم مؤمنون: (فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ) والمرادُ بالأخوّة إخوةُ الدين، والقاتل جزاؤه جهنم، فإن شاء الله أن يغفر له غفر له.

د ـ ولم ينف القرآن الكريم صفة الإيمان عن اكل أموال الناس بالباطل، أو اكل الربا، ما دام غيرَ مستحلٍّ لذلك، فيقول تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء :29] وقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *﴾ [البقرة :278] .

وورد أيضاً من الأحاديث الصحيحة التي تنصُّ على أنَّ المعاصي لا تُخْرِجُ عن الملة، ومن ذلك:

أ ـ عن أبي ذر رضي الله عنه قال: أتيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم وعليه ثوبٌ أبيضُ، وهو نائمٌ، ثم أتيتُه وقد استيقظَ، فقال: «ما مِنْ عبدٍ قال: لا إله إلا الله، ثم ماتَ على ذلك إلا دخلَ الجنَّةَ».

قلتُ: وإن زنى وإن سرق؟.

قال: «وإن زنى وإن سرق».

قلت: وإن زنى وإن سرق؟ ثلاثاً.

ثم قال في الرابعة: «وإنْ زنى، وإنْ سرق، على رَغْمِ أنفِ أبي ذر»[1].

ففي قوله: «وإن زنى وإن سرق» دليلٌ على أنَّ أصحابَ الكبائر لا يُقْطَعُ لهم بالنار، وأنَّهم إنْ دخلوها أُخْرِجوا منها، وخُتِمَ لهم بالخلود في الجنة[2].

---

[1] سنن البيهقي (16/8).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: اللباس ، الثياب البيض (5827) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ،

ب ـ عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: كنّا مع رسولِ اللهِ في مجلسٍ، فقال: «بايعوني على ألاّ تشركوا باللهِ شيئاً، ولا تزنوا، ولا تسرقوا، ولا تقتلوا النفسَ التي حرّمَ الله إلا بالحق، فمن وفّى منكم فأجرُهُ على اللهِ، ومَنْ أصابَ شيئاً من ذلكَ فعوقبَ به، فهو كفارةٌ له، ومن أصابَ شيئاً مِنْ ذلكَ فستره الله عليه، فأمرُهُ إلى الله، وإنْ شاءَ عفا عنه، وإن شاء عذّبه»[1].

ومما يستدل به إجماعُ الصحابة رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان على أنَّ صاحب الكبيرة مؤمن بإيمانه، فاسقٌ بكبيرته، وهو تحت مشيئة الله تعالى في الآخرة[2].

باب: الدليل على من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ، ومن مات مشركاً دخل النار (94).

[1] شرح صحيح مسلم (97/2).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: الحديث (18) ومسلم في صحيحه ، كتاب: الحدود ، باب: الحدود كفارات لأهلها (1709). [585] أقوال التابعين في مسائل التوحيد والإيمان (1318/3).

الخاتمة

وبعد: فهذا ما يسّره الله لي من الحديث عن الإيمان بالله عزَّ وجلَّ في هذا الكتاب، وقد سميتُه «الإيمان بالله جلَّ جلاله»، فما كان فيه من صوابٍ فهو محضُ فضلِ اللهِ عليَّ، فله الحمد، وله المنة، وما كان فيه من خطأ، فاستغفرُ الله تعالى، وأتوبُ إليه، والله ورسوله صلى الله عليه وسلم بريءٌ منه، وحسبي أني كنتُ حريصاً ألاَّ أقع في الخطأ، وعسى ألاّ أُحْرَمَ من الأجر.

وأدعو الله أن ينفع بهذا الكتاب بني الإنسان أينما وُجدوا، وأن يكون سبباً في زيادة إيمانهم وهدايتهم أو تعليمهم أو تذكيرهم، وأن يذكرني من يقرؤه من إخواني المسلمين في دعائه، فإنَّ دعوة الأخ لأخيه بظهر الغيب مستجابةٌ إن شاء الله تعالى.

وأختم هذا الكتاب بقول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ *﴾ [الحشر: 10].

وبقول الشاعر (من الوافر):

إلهــــي لا تعــــذّبني فــــإنّي ... مقــرٌّ بالــذي قــدْ كــانَ مــنّي
ومــــالي حيلــــةٌ إلاّ رجــــائي ... وعفــوُك إنْ عفــوتَ وحُسْــنُ ظــنّي
فَكَــمْ مِــنْ زلّــةٍ لي في الــبرايا ... وأنــتَ علــيَّ ذو فَضْــلٍ وَمَــنِّ
إذا فكّــرتُ في نَــدَمِي عليهــا ... عَضَضْــتُ أنامِلِــي وَقَرَعْــتُ سِــنِّي
يظــنُّ النــاسُ بي خــيراً وإنّي ... لشــرُّ النــاسِ إنْ لم تعــفُ عَــنِّي

سبحانك اللهمَّ وبحمدك، أشهدُ أن لا إله إلا أنت، أستغفرُك وأتوبُ إليك.

* * *

فهرس الموضوعات

كتب صدرت للمؤلف:

1.السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث.

2.سيرة الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه: شخصيته وعصره.

3.سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.

4.سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: شخصيته وعصره.

5.سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.

6.سيرة أمير المؤمنين الحسن بن علي بن أبي طالب: شخصيته وعصره.

7.الدولة العثمانية: عوامل النهوض والسقوط.

8.فقه النصر والتمكين في القران الكريم.

9.تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا.

10.تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي.

11.عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين.

12.الوسطية في القران الكريم.

13.الدولة الأموية، عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار.

14.معاوية بن أبي سفيان، شخصيته وعصره.

15.عمر بن عبد العزيز، شخصيته وعصره.

16.خلافة عبد الله بن الزبير.

17. عصر الدولة الزنكية.
18. عماد الدين زنكي.
19. نور الدين زنكي.
20. دولة السلاجقة.
21. الإمام الغزالي وجهوده في الإصلاح والتجديد.
22. الشيخ عبد القادر الجيلاني.
23. الشيخ عمر المختار.
24. عبد الملك بن مروان وبنوه.
25. فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة.
26. حقيقة الخلاف بين الصحابة.
27. وسطية القران في العقائد.
28. فتنة مقتل عثمان.
29. السلطان عبد الحميد الثاني.
30. دولة المرابطين.
31. دولة الموحدين.
32. عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج.
33. الدولة الفاطمية.
34. حركة الفتح الإسلامي في الشمال الأفريقي.

35.صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير البيت المقدس.

36.استراتيجية شاملة لمناصرة الرسول (ﷺ)، دروس مستفادة من الحروب الصليبية.

37.الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء.

38.الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة) والأيوبيون بعد صلاح الدين.

39.المشروع المغولي عوامل الانتشار وتداعيات الانكسار.

40.سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك.

41.الشورى في الإسلام.

42.الإيمان بالله جل جلاله.

43.الإيمان باليوم الآخر.

44.الإيمان بالقدر.

45.الإيمان بالرسل والرسالات.

46.الإيمان بالملائكة.

47.الإيمان بالقران والكتب السماوية.

48.السلطان محمد الفاتح.

49.المعجزة الخالدة.

50.الدولة الحديثة المسلمة، دعائمها ووظائفها.

51.البرلمان في الدولة الحديثة المسلمة.

52. التداول على السلطة التنفيذية.

53. الشورى فريضة إسلامية.

54. الحريات من القرآن الكريم، حرية التفكير وحرية التعبير، والاعتقاد والحريات الشخصية.

55. العدالة والمصالحة الوطنية ضرورة دينية وإنسانية.

56. المواطنة والوطن في الدولة الحديثة.

57. العدل في التصور الإسلامي.

58. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي.

59. الأمير عبد القادر الجزائري.

60. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، سيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس، الجزء الثاني.

61. سُنة الله في الأخذ بالأسباب.

62. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، وسيرة الإمام محمد البشير الإبراهيمي.

63. أعلام التصوف السُني "ثمانية أجزاء".

64. المشروع الوطني للسلام والمصالحة

65. الجمهورية الطرابلسية (1918 – 1922) أول جمهورية في تاريخ المسلمين المعاصر

66. الإباضية: مدرسة إسلامية بعيدة عن الخوارج.

* * *



د. علي محمد محمد الصلابي

مفكر ومؤرخ وفقيه

- ولد في مدينة بنغازي بليبيا عام 1383 هـ/ 1963م

- نال درجة الإجازة العالمية (الليسانس) من كلية الدعوة وأصول الدين من جامعة المدينة المنورة عام 1993م، وبالترتيب الأول.

- حصل على درجة الماجستير من كلية أصول الدين في جامعة أم درمان الإسلامية عام 1996م.

- نال درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية بأطروحته فقه التمكين في القرآن الكريم من جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان عام 1999م.

- اشتهر بمؤلفاته واهتماماته في علوم القرآن الكريم والفقه والتاريخ والفكر الإسلامي.

- زادت مؤلفات الدكتور الصلابي عن ستين مؤلفًا أبرزها:

السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث

سير الخلفاء الراشدين

الدولة الحديثة المسلمة

وسطية القرآن الكريم في العقائد.

صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي.

تاريخ كفاح الشعب الجزائري

العدالة والمصالحة الوطنية

وآخر مؤلفاته "الإباضية. مدرسة إسلامية بعيدة عن الخوارج".

سلسلة أركان الإيمان ٢

الإِيمَانُ بِالمَلَائِكَةِ

د. عليّ محمّد محمّد الصَّلَّابي



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: 1]

المقدمة

إنّ الحمدَ للهِ نحمدهُ ونستعينُه ونستهديه ونستغفره ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضلّ له ومن يضللْ فلا هاديَ له وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلاّ الله وحدهُ لا شريكَ له وأشهدُ أنَّ محمّداً عبدُه ورسولهُ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 70-71]

يا ربِّ لكَ الحمدُ حتّى ترضى ولك الحمدُ إذا رضيتَ ولك الحمدُ بعدَ الرضى أما بعدُ فإنّه مع أهميةِ الإيمانِ بالملائكة عليهم السلام إلا أنك تجدُ الكثيرَ من المسلمين، لا يهتمّون بتفاصيلِ الإيمان بهم، وإنّما يكتفون بكلماتٍ عامّةٍ يطلقونها وإذا ذهبنا في الاتجاه المعاكس نرى اهتمامَ الناسِ بالكتُبِ التي تتحدّثُ عن الشياطينِ والجنّ والسّحرِ والعينِ والحسدِ... الخ

ولا يمكننا المقارنةُ مِنْ حيثُ الكمُّ بين المؤلفاتِ التي تتحدّثُ عن الملائكة وغيرِها من الأمور التي ذكرتُها فإنَّ الكُتُبَ التي أُفردتْ للحديثِ عن الملائكة لدى الكتّاب المعاصرين قليلةٌ جدّاً على حسب علمي واطلاعي كما أنّ حديثَ العلماءِ والدعاةِ والفقهاءِ وطلاّب العلمِ وأهلِ الفكر والثقافة في وسائل الإعلام كالفضائيات وغيرِها عن الملائكةِ نادرٌ من حيثُ التفصيل والتوضيح والبيان مع أنّ لهم صلةً قويةً بالإنسان قبل مولده وأثناء حياته وعند مماته وفي داره البرزخية وعند البعث والحياة الاخرة ولهم في كلِّ المراحل أعمالٌ يقومون بها

والملائكةُ المقرّبون هم أصحابُ الدعاء العظيم لأهلِ الإيمانِ الذي ذكره الله لنا في كتابه قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ **[غافر: 7-9]**

فهذا الدعاءُ من الملائكة المقرّبين لأهل الإيمان من بني الإنسان والذي تقشعرُّ منه الأبدان يحتاجُ لتأملٍ وتفكرٍ وتدبرٍ وعلى المسلمين أن يجِّدُدوا علاقتَهم الإيمانيةَ بالملائكةِ فالكثيرُ منّا أصابَه ضعفٌ وفتورٌ وربّما النسيان في علاقته بالملائكة وهذا مِنْ وساوسِ إبليسِ وطرقهِ الخبيثةِ لكي يجعلَ الناسَ يلهثون خلفَ الشياطين

والسحرة الخ ويتركوا مَنْ جعلهم الله سبباً في حمايتهم من المخلوقات الشريرة وغير المنظورة قال تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد: 11]

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: 61] أي وهو الذي قهرَ كلَّ ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ وخضعَ لجلاله وعظمته وكبريائه كلُّ شيء أي من الملائكةِ يحفظون بدنَ الإنسان[1] ﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ تعالى ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: 4] أي حافظٌ يحرسُها من الآفات.[2]

وهذا الكتابُ يهتمُّ بالمعرفةِ التفصيليةِ بالملائكة لأنّها ترسّخُ الإيمانَ به تعمّقه وتجدّدُ المحبةَ والمودةَ والصُّحبةَ مع عبادِ الله الأبرار الذين لا يَعْصُوْنَ الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون والذين يربطنا بهم تحقيقُ العبودية الخالصة لخالقنا العظيم جلّ في علاه.

---

[1] صحيح تفسير ابن كثير للعدوي (27/2).

[2] المصدر نفسه (625/4).

هذا وقد قمتُ بتقسيم هذا الكتاب إلى فصول:

الفصل الأول يتحدّث عن تعريف الملائكة وحقيقتهم ومادّة خلقهم ومنزلة الإيمان بهم وهل كان إبليسُ من الملائكة؟

وفي **الفصل الثاني** تكلّمتُ فيه عن صفاتهم الخَلقية والخُلقية والتي من أهمها عِظَمُ خلقهم وضخامة أجسامهم وقوتهم وعظم سرعتهم ووصف أجنحتهم وعدم حاجتهم للأكل والشرب وكونهم لا يوصفون بالذكورة والأنوثة وكلامُهم وجمالهُم وقدراتهم الخارقة وكونهم لا يملّون ولا يتعبون من عبادة الله وطاعته وتنفيذ أوامره وكان الحديثُ عن قدرتهم على التمثّل والتشكّل وأخلاقهم الكريمة كالبر والتواضع وعدم التكبر والحياء والنظام ويحبون من أحبَّه الله ويبغضون من أبغضه الله.

وفي **الفصل الثالث** أشرت إلى عددهم وأسمائهم فبيّنتُ الأسماءَ العامة لهم كالأشهاد والملأ الأعلى والجنود والسفرة والرسل والأسماء الخاصة كجبريل والروح الأمين وروح القدس وميكائيل وإسرافيل ومالك خازن النار وملك الموت ومنكر ونكير وهاروت وماروت ووضّحتُ الأسماء المنسوبة للملائكة التي لم تصحَّ تسميةُ الملائكة بها كعزرائيل ووقفتُ مع موت الملائكة؛ هل تموتُ أم لا؟ وهل يمكن رؤيتهم أم أنها مستحيلة؟

و**الفصل الرابع** أفردتُه لبيان عبادة الملائكةِ فكان الحديثُ عن إيمانهم بالله

عز وجل وشهادتهم بالتوحيد وتسبيحُهم الله عز وجل ودعاءهم للمؤمنين وعن ولاءِ الملائكة للمؤمنين وبراءتهم من أهل الكبائر والمعاصي وبغضِهم لأئمة الكفر وخوفِهم من الله وخشيتهم له وحضورِ مجالسِ الذكر وخطبة يوم الجمعة و حضورهم الصلوات في المساجد وقولهم ما يقول المأمومُ وصلاة الملائكة وقيامهم وركوعهم وسجودهم وسلامهم كقوله تعالى : ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۝ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: 23-24]

وفي **الفصل الخامس** فصّلتُ فيه أعمال الملائكة المتعلقة ببني الإنسان من نفخ الأرواح في الأجنة، ومراقبة الإنسان وكتابة أعماله وإحصاؤه عليه قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:10-12] وقال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: 80]

ومن أعمال الملائكة كتابة كِّل ما يصدرُ عن الإنسان من أقوال وأعمال ظاهرة وباطنة كتابةً تفصيليةً لا إجمالية قال تعالى:﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ۝ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾ [القمر: 52-53]

ومن أعمالهم حفظُ بني الإنسان وملازمته ودعوته للخير والسفارة بين الله وبين عباده وتثبيت المؤمنين وقتالهم معهم وقبض الأرواح عند الموت وسؤال الميت في قبره ثم تنعيمه أو تعذيبه بعد إعادة الروح إلى الجسد ونفخهم في الصور وقيامهم

برعاية أهل الجنة ونعيمهم وخزنة النار.

وأما أعمال الملائكة المتعلّقة بالكون فمنهم حملةُ العرش والموكلون بالسحاب والقطر وملك الجبال وغيرها من الأعمال كإهلاك الأمم المكذبة وتبليغ النبيّ (ﷺ) بسلام أمته.

وفي **الفصل السادس** كان الحديثُ عن مكايد الشيطان في مسائل الإيمان بالملائكة كإنكارهم وعبادتهم وتقديسهم.

وفي **الفصل السابع** تكلّمتُ عن المفاضلة بين الملائكة والبشر وحقوقِ الملائكةِ على بني آدم.

وفي **الفصل الثامن** تحدثت عن وأثرِ الإيمانِ بالملائكة في حياة الإنسان والتي من أهمها.

تقويةُ شعورِ المسلم بعظمة الله عز وجل:

فالملائكة كما يتّضح من صفاتهم ووظائفهم خلقٌ عظيم في القدرة عظيمُ في السرعة عظيمُ في الطاعة وهذه العظمةُ تعكِسُ عظمةَ الباري سبحانه فهو الله الواحد الأحد بديعُ السماوات والأرض فالتدبّر في صفاتهم التي أخبرنا الله بها في القرآن وثبتت في السنة يجعلُ القلبَ مضطراً إلى تعظيمِ خالقِه وهيبتهِ وخوفِه ورجائهِ فإنَّ خالقَ هذه المخلوقات العظيمة عظيمٌ ولا شك فاستحق أن يُعْبَدَ وحدَه

سبحانه وتعالى وأن يُتَّقى بأنْ يُذْكَرَ فلا يُنْسَى ويُطاع فلا يُعْصَى[1]

قال تعالى: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [الحج: 74-77]

وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: 67]

ومن ثمار الإيمان بالملائكة أنّ الحصولَ على الأمن والطمأنينة والحياة الطيبة في الدنيا والاخرة متوقفةٌ على تحقيق الإيمان ومن ذلك الإيمان بالملائكة عليهم السلام قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: 82]

وهناك أمنٌ اخر وطمأنينة حسية في الدنيا تحصل لمن حقق الإيمان بالملائكة فهم يحفظونه من أمر الله وبأمر الله ويحفظونه من أعدائه فتطمئنُّ نفسُه ويسكنُ قلبُه ويعلمُ أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه وعلمَ أنّه إنْ ذكرَ الله ببعضِ الأذكار المشروعة كآية الكرسي وسورة الإخلاص والمعوّذتين ونحو ذلك أرسل الله ملائكةً يحفظونه من أعدائه فلا يضرّه جانٌّ ولا دوابُ ولا سِحْرٌ فإذا عرف ذلك ركن إلى الله وتوكل عليه وابتعدَ عمّا لا ينفعه من الذهاب إلى الكهان والسحرة ونحوهم لأنّهم لا يزيدونه إلا خوفاً كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: 6]

([1]) في الملائكة المقربين، د. محمد عبدالوهاب، ص(229).

وأينما كنتَ وأينما توجهتُ في برٍ وبحرٍ وأرضٍ وسماءٍ فإنَّ معكَ ملائكةٌ لا يفارقونك أبداً فليحرصِ العبدُ على تحقيق العبودية الخالصة لله تعالى حتّى يحصلَ له الأمنُ والطمأنينةُ والحمآيةُ الربانيةُ التي لا تعادلها حمآيةٌ قال تعالى: ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: 64]

هذا وقد انتهيتُ من هذا الكتاب يوم الخميس الساعة الثانية إلاّ ربع ظهراً بتاريخ 1431/6/6 هـ الموافق 2010/5/20 م بمدينة الدَّوحة والفضل لله من قبلُ ومن بعدُ وأسأله سبحانه وتعالى أن يتقبّلَ هذا العملَ ويشرح صدورَ العبادِ للانتفاع به ويبارك فيه بمنّه وكرمه وجوده قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: 2].

ولا يسعني في نهآية هذا الكتاب إلا أن أقفَ بقلبٍ خاشعٍ منيبٍ أمام خالقي العظيم وإلهي الكريم معترِفاً بفضله وكرمه وجوده متبرّئاً من حَوْلي وقوتي ملتجئاً إليه في كلِّ حركاتي وسكناتي وحياتي ومماتي فاللّهُ خالقي هو المتفضّلُ وربّي الكريمُ هو المعينُ وإلهي العظيمُ هو الموفّقُ فلو تخلّى عني ووكلني إلى عقلي ونفسي لتبلّد مني العقلُ ولغابة الذاكرةُ وليبست الأصابعُ ولجفّتِ العواطفُ ولتحجّرتِ المشاعرُ ولعجزَ القلم عن البيان.

اللهم بصّرني بما يرضيك واشرح له صدري وجنبني اللهم ما لا يرضيك واصرفه عن قلبي وتفكيري وأسألك بأسمائك الحُسنى وصفاتك العلا أن تجعلَ

عملي لوجهك خالصاً ولعبادِكَ نافعاً وأن تثيبني على كلِّ حرفٍ كتبتُه وتجعله في ميزان حسناتي وأن تثيبَ إخواني الذين أعانوني على إتمام هذا الجهد الذي ولاك ما كان له وجودٌ ولا انتشارٌ بين الناس.

ونرجو من كلِّ مسلمٍ يطّلع على هذا الكتاب ألا ينسى العبدَ الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه من دعائه ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: 19]

وأختم هذا الكتاب بقوله الله تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: 10]

سبحانك اللهم بحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت استغفرك وأتوب إليك.

كتبه

علي محمد محمد الصلابي

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

الفصل الأول

تعريف الملائكة

وحقيقتهم ومادة خلقهم

أولاً: تعريف الملائكة لغة وشرعاً

ثانياً: حقيقة الملائكة كما وردت في الكتاب والسنة

ثالثاً: منزلة الإيمان بالملائكة

رابعاً: خلقهم

خامساً: هل كان إبليس من الملائكة؟

الفصل الأول

تعريف الملائكة وحقيقتهم ومادة خلقهم

أولاً – تعريف الملائكة لغة وشرعاً

1 – الملائكة لغة جَمْعُ مَلَكٍ وأصله «مألك» وقيل «ملأك» على وزن مَفْعَل فنُقِلَتْ حركةُ الهمزةِ إلى اللام وأُسقطت فوزن «ملك» فعل وقيل مأخوذٌ من «لأَكَ» إذا أرسل «فملأك» مَفْعَل ثم نُقِلَتْ الحركةُ وسقطتِ الهمزةُ فوزن «ملك» مَفَلْ وقيل غير ذلك[1].

والهاءُ في «الملائكة» مزيدةٌ لتأنيثِ الجمعِ أو للمبالغة[2] وقيل مقلوبٌ «مألك» من الألوكة وهي الرسالة قال الشاعر:

فَلَسْتُ لأَنْسَى وَلكن لَمِلأْكٍ   تَنَزَّلَ مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ يُصَوِّبُ[3]

وملأك مفعل من لأَكَ إذا أرسل والألوكة والمألك والمألكة والملأكة الرسالةُ.

وقال لبيدُ:

وغـلامٌ أرســــلَـتْـهُ أُمُّـهُ   بألوكٍ فَبَـذَلْنـا مَـا سَــــأَلْ

[1] المصباح المنير (18/1) القاموس المحيط (327/3). وانظر (رسالة الملائكة) لأبي العلاء المعري بتحقيق العلامة محمد سليم الجندي، وهو من منشورات مجمع اللغة العربية بدمشق.

[2] لسان العرب (496/10).

[3] الواسطة بين الله وخلقه، د. المرابط الشنقيطي ط (105).

يقــال ألكني أي أرســـلني[1].

فعلى هذا يكونُ أصلُ الاشتقاقِ من (الألوكة) وهي الرسالة فالملائكةُ عليهم السلام هم رسلُ اللهِ بما يريدُ إلى خلقهِ وقد سمّاهم الله عزّ وجل بذلك في آيات كثيرةٍ منها قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ **[هود: 77]** وقال تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ **[الذاريات: 31]**.

وهذا الذي عليه عامَّة أهل اللغة والمفسرين[2].

وقيل أصله الملك هو الأخذ بقوة وقيل مخفّف من (مالك) وقيل سُمّوا بذلك لتولّيهم تدبيرَ ما أمرهم الله به في السماواتِ كما يسمَّى مَنْ يتولَّى تدبير شؤون الناس في الأرض مَلِكاً والقولُ بأنَّ اشتقاقَ الاسمِ من (الألوكة) – وهي الرسالة – أقربُ وأصوبُ من جهة اللغةِ والمعنى أمّا المعنيان الآخران فهما من صفاتهم عليهم السلام[3].

2 – الملائكة شرعاً هم أجسامٌ علويةٌ قائمةٌ بأنفسها قادرةٌ بالقدرة الإلهية على التشكل ذوو قدرات خارقة لا حصرَ لها لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون مقرّبون طائعون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يأمرون وليس لهم من خصائص الربوبية والألوهيةِ شيءٌ[4].

---

[1] في الملائكة المقربين، د. محمد عقيل ط (14).

[2] في الملائكة المقربين ص (14).

[3] المصدر نفسه ص (15).

[4] الواسطة بين الله وخلقه ص (105).

ثانياً – حقيقة الملائكة كما وردت في الكتاب والسنة:

الذي دلّت عليه نصوصُ الكتابِ والسنةِ وإجماعُ المسلمين أنَّ الملائكة خَلْقٌ من خلق الله سبحانه وتعالى خلقهم لعبادته كما خلقَ الجنَّ والإنسَ وهم أحياءٌ عقلاءٌ ناطقون.

وعالم الملائكة غير عالم الجن والإنسان وإن كان الجميعُ خلقَ اللهِ لكنّه عالم كريم طاهر اصطفاه الله في الدنيا لقربه ولتنفيذ أوامره الكونية والشرعية وجعل الله الملائكةَ رسلَه وسفراءَه إلى خلقه لإبلاغِ وحيه فأكرمهم الله بهذا ووصفهم بذلك فقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ۝ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ۝ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ۝ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: 26-29]

فأبانَ اللهُ بهذه الآيات حقيقةَ الملائكةِ وأنَّهم خَلْقٌ كريمٌ خلقهم الله لعبادته ورفع مقامهم وأكرمهم لكنّهم مع هذا الإكرامِ لم يخرجوا عن مقام العبودية ولا يستطيعون ولو ادّعى أحدُهم ذلك مع علوِّ مقامه لعاقبه الله بالنار[1].

ثالثاً – منزلةُ الإيمان بالملائكة :

الإيمانُ بالملائكة هو الركن الثاني من أركانِ الإيمان الستة التي لا يصحُّ إيمانُ عبدٍ ولا يقبلُ إلا بتحقيقه والقرآن مملوءٌ بذكر الملائكة وأصنافهم ومراتبهم والأمرِ

---

[1] في الملائكة المقربين ص (15).

بالإيمان بهم والتحذيرِ من الكُفْرِ بهم وبيان أحوالهم مع الله ومع الناس وبيانِ مراتبهم وأعمالهم فتارةً يقرِنُ اسمه باسمهم ويجعل الإيمانَ به مستلزِمٌ الإيمانَ بهم وأنَّ البِرَّ لا يُنالُ إلا بالإيمان بهم[1]، قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: 177] وقال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: 285] وقال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: 18] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: 136] وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 98] وقال تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: 172] وقال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: 17] وقال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۝ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: 23-24] وغير ذلك من الآيات الكريمات.

---

[1] المصدر نفسه ص (16).

وقال رسولُ اللهِ (ﷺ) «الإيمانُ أن تؤمنَ باللهِ وملائكتِهِ وكتبِهِ ورسلِهِ، واليوم الاخرِ وتؤمنَ بالقدرِ خيرهِ وشرّهِ» والأحاديثُ في ذكر الملائكة كثيرةٌ سيأتي ذكرُها في هذا الكتاب بإذن الله تعالى.

إنَّ الإيمانَ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر وبالقدر خيره وشره[1] واجبٌ إجمالاً لا يصحُّ إيمانُ عبدٍ إلا بذلك[2].

وكلّما ازدادَ الإنسانُ علماً بتفاصيل هذه الأمور لزمه مِنَ الإيمانِ بحسب ما بلغه من ذلك وهو بذلك يزدادُ إيماناً[3] قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: 124] وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ [المدثر: 31].

والإيمان الواجبُ يُنَالُ بالعلم فتعلُّمُ هذه الأمور على وجه الإجمال فرضُ عينٍ على كلِّ مسلم ومسلمة[4].

والإيمانُ المجملِ بالملائكةِ يتضمَّن عِدَّة أمورٍ منها:

1 - الإقرارُ بوجودهم وأنهم خلق من خلق الله خلقهم الله لعبادته وهم

---

(1) مسلم (8).

(2) في الملائكة المقربين ص (19)، مسلم (8/1).

(3) في الملائكة المقربين ص (19).

(4) المصدر نفسه (19).

رسلُ اللهِ إلى خلقه بما شاء من وحي وغيره وأن وجودهم حقيقي وعدم رؤيتنا لهم لا يدل على عدم وجودهم فقد رأى النبيُّ (ﷺ) بعضَهم بصورته الحقيقية وراهم الأنبياءُ والصالحون والصحابةُ وهم متشكّلون بصورة البشر.

2 - إنزالهم منازلهم التي أنزلهم الله وإثبات أنّهم عبادٌ للهِ مأمورون مكلفون لا يقدرون إلاّ على ما أقدرهم عليه وأنّ الله أكرمهم ورفع مقامهم عنده وفضّل بعضَهم على بعضٍ وهم مع هذا لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم شيئاً من دون الله وإذا كانوا كذلك فلا يجوزُ أن يُصْرَفَ لهم شيءٌ من أنواع العبادة فضلاً أن يوصفوا بصفات الربوبية.

3 - الإيمان بما ورد في حقهم من الكتاب والسنة

4 - الإيمان بمن سَمَّى الله لنا منهم فنقر بهذه الأسماء وأنّ لله ملائكةً منهم جبريلُ وميكائيلُ فكلُّ مَنْ سمّى الله لنا وجَب علينا الإيمان باسمه ومَنْ لم يسمِّ لنا نؤمن به إجمالاً[1].

فهذا هو الإيمان المجمل بهم عليهم السلام وهو فرضُ عينٍ على كلِّ مسلمٍ ويجبُ عليهم أن يتعلّموا هذا ويعتقدوه[2].

- لطيفة:

نلحظ في جميع النصوص الواردة في القرآن الكريم والسنة المطهرة التي تخبر عن وجوب الإيمان بالملائكة أن الإيمان بالملائكة مقدّمٌ في كلِّ هذه النصوص

[1] المصدر نفسه ص (20).

[2] في الملائكة المقربين ص (21).

على الإيمان بالكتب السماوية والرسل صلوات الله عليهم وسلامه فليس معنى هذا التقدم أنّه نوعٌ من التفضيل فليس هناك من الملائكة على الإطلاق – بمن فيهم جبريل عليه السلام – مَنْ هو أفضل من سيدنا محمد (ﷺ) وهو من الرسل ولكنّ التقديم في هذه النصوص للملائكة على الكتب السماوية والرسل لأنه لا يَحْدُث ولا يقعُ إيمانٌ بالكتب السماوية إلا بعدَ الإيمانِ بالملائكة لأنَّ الكتبَ تنزِلُ عن طريقهم فكانَ الإيمانُ بهم من البديهي قبل الإيمان بما يأتون به من عند الله تعالى وكذلك الرسل فلا يؤمن أحدٌ من البشر برسولٍ إلاّ وهو يعلم أنَّ الله بعثَ هذا الرسول وكلّفه عن طريق الملائكة فكان الإيمانُ بالرسل يستلزِمُ الإيمان بالملائكة الذين هم الواسطةُ بين الرسل وبين الله تعالى ولهذا كان تقديمهم وتقديمُ الإيمان بهم على الكتب والرسل[1].

رابعاً خلقهم

قال رسول الله (ﷺ) «خُلِقَتْ الملائكةُ من نورٍ وخُلِقَ الجانُّ من مارجٍ وخُلق آدمُ ممّا وُصِفَ لكم»[2].

وأما متى خُلقوا؟ فالله تعالى لم يخبرنا بذلك ولكننا نعلمُ أنَّ خلقهَم سابِقٌ على خلق آدم أبي البشر عليه السلام فقد أخبرنا الله أنه أعلمَ الملائكة بأنّه سيجعل في الأرض خليفة قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي

---

[1] العقيدة الصافية، سيد سعيد ص (73).

[2] مسلم (2294/4).

الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30]. والمراد بالخليفةِ آدمُ عليه السلام وذريتُه وأمرهم بالسجود له حين خلقه ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: 29][1].

خامساً هل كان إبليس من الملائكة؟

اختلف العلماء في جنس إبليس؛ هل هو من الملائكة أم من الجن؟ وذلك لورود الآيات القرآنية باستثنائه من الملائكة في مواضع من القرآن عند التعرض لسجود الملائكة لآدم عليه السلام قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الأعراف: 11] وقال تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [ص: 73-74] وغير ذلك من الآيات وهي تدل على استثنائه من الملائكة.

وقد جاءت آية سورة الكهف مصرحةً بأنَّ إبليس من الجن قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: 50].

وإزاءَ هذه الآيات فقد انقسم العلماء في هذه المسألة إلى فريقين:

الفريق الأول ويرى أنَّ إبليسَ من الملائكة والاستثناء الواردُ في الآيات إنّما

---

[1] دراسات في التفسير الموضوعي د. زاهر الألمعي ص (222).

هو استثناءٌ متصل.

والفريق الثاني ويرى أنّ إبليس لم يكن من الملائكة وإنّما هو من الجن والاستثناء في الآيات إنّما هو استثناء منقطع[1].

ولقد اخترت القول القائل بأن إبليس لم يكن من الملائكة وذلك لقوّةِ الأدلة والتي منها:

1 – قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: 50] فإنّ الله صرّح في هذه الآية الكريمة بأنَّ إبليَس كان من الجن والجِنُّ غيرُ الملائكة فلا يجوزُ أن ينسَبَ إلى غير ما نسبه الله إليه[2].

وقد علل سبحانه فِسْقَ إبليس عن أمر ربه بكونه من الجن ففرق سبحانه بينه وبين الملائكة وهذا ظاهِرٌ في أنه ليس منهم[3].

قال الألوسي: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ كلامٌ مستأنفٌ سيقَ مساق التعليل لما يفيده استثناء اللعين من ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ فكأنه قيل ما له لم يسجد؟ فقيل كان أصله جنيّاً وهذا ظاهرٌ في أنه ليس من الملائكة[4].

وقال الشنقيطي وقولُه في هذه الآية الكريمة: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ ظاهر في أنَّ سببَ فسقه عن أمر ربه كونه من الجنّ وقد تقرر في

---

[1] عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة عبد الرحمن البراك ص (476).
[2] عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة ص (479).
[3] آيات العقيدة، خالد عبد الله الدميجي (524/1).
[4] روح المعاني (421/15 . 422).

الأصول في مسلك النص وفي مسلك الإيماء والتنبيه أنّ الفاءَ من الحروف الدالّة على التعليل كقولهم سُرَقَ فَقُطِعَتْ يده أي لأجل سرقته وسها فسجدَ أي لأجلِ سهوه ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: 38] أي لعلة كينونته من الجن لأنّ هذا الوصفَ فَرْقٌ بينه وبين الملائكة لأنهم امتثلوا الأمر وعصا[1].

2 – أن إبليس لو كان من الملائكة لما عصى الله عندما توجَّه إليه بالأمر بالسجود لآدم لقوله تعالى عن الملائكة ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: 6].

3 – أنّ الله أخبر أن إبليس له نسلٌ وذرية قال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ [الكهف: 50]. فإبليسُ وذريته يتوالدون كما يتوالد بنو آدم كما قال الحسن[2] ويأكلون ويشربون والملائكة لا يتوالدون ولا يأكلون و لا يشربون، فدلَّ هذا على أن إبليس من الجن وليس من الملائكة[3].

4 – أن الله أخبر أنَّه خلقَ إبليسَ من النار ولم يخبر أنَّه خلقَ الملائكة من شيء من ذلك بل ورد في الحديث قوله عليه الصلاة والسلام «خُلِقَتْ الملائكةُ من نورٍ وخُلِقَ الجانَّ من مارجٍ من نار وخُلِقَ آدمُ ممّا وُصِفَ لكم»[4].

---

(1) أضواء البيان (119/4).

(2) تفسير الطبري (526/1).

(3) عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة ص (481).

(4) مسلم (2294/4).

وقد ورد التصريح في القرآن على لسان إبليس بأنّ الذي دعاه إلى عدم السجود لآدم هو أنَّه مخلوق من النارِ وآدم مخلوقٌ من الطين قال تعالى:

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: 12] فالذي دعا إبليس لعدم السجود هو ظنُّه الفاسد أنَّ النارَ أشرفُ من الطين[1]، وأنَّ المخلوقَ منها أشرفُ من المخلوق من الطين[2].

5 – قوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ۝ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ۝ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ۝ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ۝ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ [الشعراء: 91-95] قالوا دلّتْ هذه الآيات على أنّ لإبليس جنوداً وأنّهم جميعاً سوفَ يساقون إلى النار وإبليسُ على رأسِهم في حين أنَّ الملائكة لا جنودَ لهم بل هم أنفسُهم جنود لله تعالى[3].

6 – قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ: 40] قالوا هذه الآية صريحةٌ في الفرق بين الجن والملائكة وأنَّ الجنّ عالم اخر غير الملائكة وإذا كانوا غير الملائكة لم يكن إبليسُ من الملائكةِ مع ما صّرح به القرآن أنه كان من الجن[4].

---

(1) تفسير روح المعاني (120/1).

(2) عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة ص (480).

(3) آيات العقيدة (526/1).

(4) المصدر نفسه (525/1).

7 – إبليس لم يكن رسولاً من الله لعباده أبداً وكان الملائكةُ رُسلَ الله لعباده دائماً[1]، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: 75].

[1] الإنسان وعالم الملائكة د. أحمد شوقي ط (117).

الفصل الثاني

صفات الملائكة

الخَلقية والخُلقية

أولاً – صفاتهم الخَلْقية

1 - عظم خلقهم

2 - أجنحة الملائكة

3 - عظم سرعتهم

4 - عدم حاجتهم للأكل والشرب

5 - لا يوصفون بالذكورة والأنوثة

6 - كلام الملائكة

7 - جمال الملائكة

8 - قدراتهم الخارقة

9 - لا يملون ولا يتعبون

10 - قدرتهم على التمثل والتشكل

ثانياً – صفاتهم الخُلُقية

1 - كرام بررة

2 – البر

3 - التواضع وعدم التكبر

4 – الحياء

5 - النظام

6 - يحبون ويبغضون

7 - يتأذون مما يتأذى من ابن آدم

8 - لا يعلمون الغيب

9 - دائمو الطاعة والخوف من الله

الفصل الثاني

صفاتُ الملائكة الخلقية والخُلقية

أولاً – صفاتهم الخَلقية

دلّت نصوصُ الكتاب والسنة بأنّ الملائكةَ لهم صفاتٌ خَلقية منها

1 – عظم خلقهم وضخامة أجسامهم وقوتهم:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: 6] جاء في تفسير هذه الآية أنّهم غلاظُ القلوبِ شدادُ الأبدانِ وهم مِنَ القوّةِ بحيث لا تضرّهم النارُ التي تذيبُ الحديدَ والحجارة[1].

وقال تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ۝ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى﴾ [النجم: 5-6].

وصفٌ لجبريل عليه السلام ذو مرة أي ذو قوة وقيل ذو منظر حسن ولا منافاةَ بين القولين فإنّه ذو منظر حسن وقوة شديدة[2].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: 19-21] أي إنّ هذا القرآن لتبليغُ أي مَلَكٍ

﴿رَسُولٍ كَرِيمٍ *﴾ حَسَنِ الخَلْقِ بَهِيِّ المنظر وهو جبريل عليه السلام

---

(1) تفسير ابن كثير (309/4).

(2) صحيح تفسير ابن كثير (309/4).

﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ تعالى

﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ۝ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى﴾ [النجم: 5-6] أي شديد الخَلْقِ شديدُ البطشِ والفعلِ أي له مكانةٌ عند الله

﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ وجل ومنزلةٌ رفيعةٌ أيّ له

﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ وهو مسموع القول مطاع في الملأ الأعلى صفة لجبريل

﴿ثَمَّ أَمِينٍ﴾ وعظيم جداً أن يزكي الربُّ عزّ وجل عبده ورسوله الملكي جبريل كما زكّى عبدَه ورسولَه البشري محمداً (ﷺ)[1].

ومن السنّةِ حديثُ عائشةَ رضي الله عنها أنها قالت لرسول الله (ﷺ) يا رسولَ اللهِ هل أتى عليكَ يومٌ كان أشدَّ عليكَ من يوم أُحدٍ؟

فقال «لقد لقيتُ من قومِكِ وكان أشدُ ما لقيتُ منهم يومَ العقبةِ[2]، إذ عرضتُ نفسي على ابنِ عبدِ يا ليل بن عبدِ كِلال فلم يجْبني إلى ما أردتُ فانطلقتُ – وأنا مهمومٌ – على وجهي فلم استفقْ إلاّ بِقَرْنِ الثعالب[3]، فرفعتُ رأسِي فإذا أنا بسحابةٍ قد أظلّتني فنظرتُ فإذا فيها جبريلُ فناداني فقال إنّ الله عزّ وجلّ قد سمعَ قولَ قومِكَ لك وما رَدُّوا عليك وقد بعثَ إليك مَلَكَ الجبالِ لتأمرَه بما شئتَ فيهم قال فناداني مَلَكُ الجبالِ فسلم عليَّ ثم قال يا محمّدُ إنَّ اللهَ قد سمعَ قولَ قومِكَ لكَ وأنا مَلَكُ الجبالِ وقد بعثني ربُّكَ إليكَ لتأمرني بأمرِكِ فما شئتَ؟ إنْ

(1) المصدر نفسه (3 .6/4).

(2) السيرة النبوية، للمؤلف (375/1).

(3) قرن الثعالب: هو قرن المنازل، ميقات أهل نجد، ويسمى الان السيل الكبير.

شئتَ أَنْ أُطْبِقَ عليهمُ الأخشبينِ فقال رسول الله (ﷺ) بل أرجو أن يخرجَ اللهُ مِنْ أصلابِهِم مَنْ يَعْبُدُ الله وحدَه لا يُشْرِكُ به شيئاً»[1]

كان مقترح ملك الجبال أن يطبق عليهم الأخشبين وهو يدخل تحت أسلوبِ الاستئصالِ وقد نُفِّذَ في قوم نوحٍ وعادٍ وثمودَ وقومِ لوطٍ قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: 40] .

ولكنّ النبيَّ (ﷺ) رفض منهج الاستئصال ونظر إلى المستقبلِ بنورِ الإيمان وقرّرَ الدخولَ إلى مكة ليواصِلَ جهادَه الميمون.

فالنبي (ﷺ) أراد أن يتّخذَ من أصلاب الكافرين مصانعَ بشرية تخرّجُ أجيالا من المسلمين المقاتلين في سبيل الله فنظره (ﷺ) كان مصوَّباً نحو المستقبل بصورة جلية ولم يكن ذلك يعني الانسحابُ من الحاضر[2].

ومما يدلُّ على ضخامة أجسام الملائكة وقوتهم حديثُ جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنّ رسولَ اللهِ (ﷺ) قال: «أُذِنَ لي أن أحدِّثَ عن مَلَكٍ مِنْ ملائكةِ اللهِ مِنْ حملةِ العَرْشِ إنَّ ما بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إلى عاتِقِهِ مسيرةُ سبعمئةِ عامٍ»[3].

---

[1] البخاري رقم (32321)، مسلم رقم (1795). والأخشبان هما الجبلان المكتنفان للمسجد الحرام أبو قُبَيْس وقُعَيْقِعَان.

[2] السيرة النبوية، للمؤلف (376/1).

[3] سلسلة الأحاديث الصحيحة، للألباني (151/1).

2 – أجنحة الملائكة:

قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: 1] أي منهم من له جناحانِ ومنهم من له ثلاثة ومنهم من له أربعة ومنهم من له أكثر[1].

وقال رسول الله (ﷺ) «إنّ للهِ ملائكةً يطوفون في الطريق يلتمسونَ أهْلَ الذكرِ فإذا وَجَدُوْا قوماً يذكرون الله تنادوا هَلمُّوا إلى حاجتكم قال فيحفّونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا»[2].

وقال رسول الله (ﷺ) «إن الملائكةَ لتضعُ أجنحتها لطالبِ العلمِ رضاً بما يطلب»[3].

3 – عظم سرعتهم:

أعظمُ سرعةٍ يعرفها البشر هي سرعةُ الضوء وهو ينطلق بسرعة (186) ألف ميل في الثانية الواحدة أمّا سرعةُ الملائكة فهي فوق ذلك وهي سرعةٌ لا تقاس بمقاييس البشر كان السائلُ يأتي إلى الرسولَ (ﷺ) فلا يكادُ يفرغُ من سؤاله

(1) تفسير ابن كثير (546/3).

(2) البخاري رقم (6045).

(3) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان رقم (1319)، إسناده صحيح.

حتى يأتيه جبريلُ بالجواب من ربِّ العزة سبحانه وتعالى واليوم لو وُجِدَتْ المراكبُ التي تسير بسرعة الضوء فإنّها تحتاجُ إلى (مليار) سنة ضوئية حتى تبلغَ بعض الكواكب الموجودة في آفاق هذا الكون الواسع الشاسع[1].

4 – عدم حاجة الملائكة للأكل والشرب:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ۝ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: 69-70] وذلك أنّ الملائكة لا همّةَ لهم في الطعام ولا يشتهونه ولا يأكلونه فلهذا رأى حالهم معرضين عما جاءهم به وفي آيات أخرى قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ۝ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ۝ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۝ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: 24-28].

وكون الملائكة لا يأكلون الطعام أمرٌ أطبقَ عليه العلماءُ قال القرطبي قال علماؤنا ولم يأكلوا لأنّ الملائكة لا تأكل[2].

5 – لا يوصفون بالذكورة والأنوثة:

ميّزَ الله عز وجل الملائكة بأنّهم جنسٌ يُخْلَقُ كلُّ واحدٍ منهم بذاته ولا

[1] عالم الملائكة الأبرار، عمر الأشقر ص (22)

[2] تفسير القرطبي (68/9).

يوصفون بذكورة ولا أنوثة وهم باقون على أصل خلقتهم التي خلقهم الله عليها هذا ما دلّت عليه النصوص من الكتاب والسنة[1]. قال تعالى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ۝ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ۝ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۝ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ۝ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [الصافات: 149-154] .

ذكر الله تعالى عن المشركين ثلاثة أقوال في الملائكة هي غاية في الكفر والكذب:

أ – جعلوا لله ولداً تعالى الله عن ذلك وتقدس.

ب – وجعلوا ذلك الولد أنثى.

ج – ثم عبدوهم من دون الله تعالى لله وتقدس.

وكلٌّ منها كافٍ في التخليد في نار جهنم[2].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ۝ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ ۝ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ۝ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ۝ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: 15-20] والمقصود إيضاحه كذبهم وبيان جعلهم في

---

(1) في الملائكة المقربين، د. محمد عبد الوهاب عقيل ص (72).

(2) تفسير ابن كثير (22/4).

نسبة الأولاد إلى الله سبحانه ثم تحكمهم بأنَّ الملائكة إناثاً من غير دليلٍ والجعل هنا بمعنى القول والحكم تقول جعلتُ زيداً أعلمَ الناس أي حكمتُ له بذلك؟ أي أحضروا حالة خلقهم حتى حكموا بأنهم إناث[1].

وقد جمعوا بين أنواع كثيرة من الخطأ:

أ – جعلوا لله تعالى ولداً تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علواً كبيراً

ب – دعواهم أنّه اصطفى البناتِ على البنين فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً.

ج – عبادتهم لهم مع ذلك كله بلا دليل ولا برهان ولا إذن من الله عز وجل بل بمجرد الآراء والأهواء والتقليد للأسلاف والكبراء والاباء والخبط في الجاهلية الجهلاء.

د – احتجاجهم بتقديرهم على ذلك قدراً وقد جهلوا في هذا الاحتجاجِ جهلاً كبيراً فإنه تعالى قد أنكر عليهم أشدَّ الإنكار فإنه منذُ بعث الرسل وأنزل الكتب يأمر بعبادته وحدَه لا شريك له وينهي عن عباده ما سواه[2].

6 – كلام الملائكة:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا

---

(1) تفسير القرطبي (72/16).

(2) تفسير ابن كثير (125/4).

أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 30].

قال رسول الله (ﷺ): «خلقَ اللهُ آدمَ على صورتِهِ وطول ستون ذراعاً فلّما خلقَه قال اذهبْ فَسلِّمْ على أولئكَ النفر – وهم نفرٌ من الملائكةِ جلوس – فاستمع ما يحيُّونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك فقال فذهبَ فقالَ السلامُ عليكُم فقالوا السلامُ عليكَ ورحمة الله فزادوه ورحمة الله»[1].

والملائكة يكلّم بعضُهم بعضاً كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: 23] في هذه الآية إثباتُ أنّ الملائكة يتكلّمون ويفهمون ويعقلون لأنهم يسألون ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ ويجابون ﴿قَالُوا الْحَقَّ﴾ ودلّت الآية كذلك أنَّ لهم قلوباً يصيبها الخوف والوجل من الله[2] والملائكة تكلّم الناس بحسب لغاتهم ولا يحتاجون إلى ترجمان كما حصل مع الأنبياء من بني إسرائيل وغيرهم وكما حصل مع نبينا محمد (ﷺ) وهم يكلّمون الناس في قبورهم كما هو معلوم في فتنة القبر ويكلّمون الناس يوم القيامة بالبشارة والنذارة ويكلّمون أهل الجنة ويسلّمون عليهم ويكلّمون أهل النار ويبشّروهم بالعذاب والنصوص في هذه المعاني كثيرة مشهورة والحاصل أن من صفات الملائكة الجسدية الكلام وهي صفةُ كمالٍ ولا

---

(1) البخاري رقم (3148)، مسلم رقم (2841).

(2) القول المفيد، لابن عثيمين (395/1).

شك فيجب اعتقاد ذلك والإيمانُ به ووصفهم عليه السلام بذلك[1].

7 – جمال الملائكة

خلقهم الله على صورٍ جميلةٍ كريمةٍ قال تعالى في جبريل ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ۝ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى﴾ [النجم: 5-6] قال ابن عباس ذو منظر حسن وقال قتادة ذو خلق طويل حسن وقيل ذو قوة ولا منافاة بين القولين فهو قوي وحَسنُ المنظرِ وقد تقرّرَ عند الناس وصفُ الملائكةِ بالجمال كما تقرر عندهم وصف الشياطين بالقبح ولذلك تراهم يشبّهون الجميل من البشر بالمَلَك انظر ما قالته النسوة في حق يوسف الصديق عندما رأيته ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: 31][2].

8 – للملائكة قدرات خارقة

للملائكةِ قدراتٌ خارقةٌ بما وضع الله فيهم من القدرات العجيبة فمنهم من يحمِلُ عرشَ الرحمن كما قال تعالى: ﴿وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: 16-17]

---

[1] في الملائكة المقربين، د. محمد عبد الوهاب عقيل ص (75).

[2] دراسات في التفسير الموضوعي، زاهر الألمعي ص (224).

ومنهم من ينفخ نفخة يصعق لها من في السموات والأرض إلا من شاء الله قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: 68] [1].

9 – لا يملّون ولا يتعبون

فالملائكة الكرام يقومون بعبادة الله وطاعته وتنفيذ أوامره بلا كلل ولا يدركهم ما يدرك البشر من ذلك قال تعالى في وصف الملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: 20] ومعنى لا يفترون لا يضعفون[2].

10 – قدرة الملائكة على التمثل والتشكل

مكّنَ الله الملائكة من التصوّر بغير صورهم التي خُلِقوا عليها وقد دلّتِ النصوصُ الكثيرة على ظهور الملائكة عليهم السلام للأنبياء وغيرهم بصورة البشر ومن ذلك قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ۝ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ [الذاريات: 24-25].

وهؤلاء الضيوف أنفسهم ذهبوا إلى لوط عليه السلام فلّما رآهم خافَ وضاقَ صدرُه لما يعرف من فحش قومه وسوؤهم كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ

---

[1] دراسات في التفسير الموضوعي، زاهر الإلمعي، ص (223).

[2] المصدر نفسه، ص (227).

رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ [هود: 77-78]

فقد بدلهم الملائكة في صورة شباب حسان امتحاناً واختباراً حتى قامتْ على قومِ لوطٍ الحجةُ وأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر[1].

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [مريم: 16-19] وهذا المرسَلُ في هذه الآية هو جبريل عليه السلام كما سبق أنَّ الروحَ من أسمائه عليه السلام والشاهِدُ هنا تمثُّله وتشكُّله في صورة البشر قال ابن كثير رحمه الله أي على صورة إنسان تام كامل[2].

وقد سبق نزول جبريل عليه السلام بروح عيسى عليه السلام إلى مريم ونفخه هذه الروح في جيبها سبق هذا بشارة الملائكة لمريم في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: 45-47] وهذه البشارةُ

---

[1] في الملائكة المقربين ص (76).

[2] تفسير ابن كثير (115/3).

كانت مشافهةً لمريم من الملائكة ولكنّ النصوص لم تدل على كيفية هذه المشافهة وكيف كانت صورهم لما بشروها ومنْ مِنَ الملائكة بشرّ مريم بذلك ولكنّ النصوص أيضاً تدل على أنَّ الذي نزل بروح عيسى هو جبريل عليه السلام وأنه تمثّلَ لها رجلاً سوياً ونفخَ روح عيسى في جيبها[1].

وجاء في السنة وقائعٌ كثيرة لتمثل الملائكة بشراً أشهرُها حديثُ جبريل عليه السلام وفيه بينما نحنُ عندَ رسول الله (ﷺ) ذاتَ يومٍ إذ طلعَ علينا رجلٌ شديدُ بياضِ الثيابِ شديدُ سوادِ الشعرِ لا يُرَى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد وقال في اخره «يا عمر أتدري مَنِ السائل؟» قلت الله ورسوله أعلم فقال «فإنه جبريلُ أتاكم يعلمكم دينكم»[2].

فتمثل جبريلُ بصورةِ رجلٍ شابٍ أسود الشعرِ بثيابٍ بيضاءَ نظيفةٍ وقد رآه الصحابة رضي الله عنهم بهذه الصورة فتعجبوا من نظافته ممّا يدل على أنه لم يقدم من سفر ومن عدم معرفتهم له لو كان من أهل المدينة وزال تعجبهم لما أخبرهم رسول الله (ﷺ) أنّه جبريل.

وربّما تمثل عليه السلام بصورة دحية الكلبي[3] - كما في حديث ابن عمر رضي الله عنه - وفيه وكان جبريلُ عليه السلام يأتي النبيَّ (ﷺ) في صورة دِحْيَة[4].

---

[1] في الملائكة المقربين ص (77).

[2] البخاري رقم (50) ومسلم (8).

[3] دحية الكلبي صحابي مشهور، وأول مشاهده الخندق.

[4] في الملائكة المقربين ص (78) مسند أحمد (107/2).

ودحيةٌ مشهور بجماله وتشبُّهُ جبريل به دليلٌ على جمال جبريل عليه السلام[1].

وتمثل الملائكةِ بصورة البشر قد يحدثُ مع غير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

فمن ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ (ﷺ) «أنَّ رجلاً زار أخاً له في قرية أخرى فأرصدَ الله له على مدرجته ملكاً فلمّا أتى عليه قال أينَ تريدُ؟ قال أريدُ أخاً لي في هذه القرية قال هل لك عليه مِنْ نعمةٍ تربُّها؟ قال لا غيرَ أني أحببتُه في الله عز وجل قال فإنِّي رسولُ اللهِ إليكَ بأنَّ اللهَ قد أحبَّكَ كما أحببتهَ فيه»[2].

وقد يكون هذا التمثّلُ بصورةٍ غيرِ جميلةٍ ابتلاءً وامتحاناً مِنَ الله لمن تمثلوا له كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع النبي (ﷺ) يقول «إنّ ثلاثةً في بني إسرائيل أبرصَ وأقرعَ وأعمى فأراد الله أن يبتليَهم فبعث إليهم ملكاً

فأتى الأبرصَ فقال أيُّ شيءٍ أحبُ إليكَ؟

قال لونٌ حسنٌ وجلدٌ حسن ويَذْهَبُ عني الذي قد قذّرني الناس

قال فمسحه فذهب عنه قذره وأعطي لوناً حسناً وجلداً حسناً

قال فأيُّ المالِ أحبُّ إليكَ؟

قال الإبل (أو قال البقر شك إسحاق إلا أنّ الأبرص أو الأقرع قال أحدُهما

---

[1] في الملائكة المقربين ص (79).

[2] مسلم رقم (2567).

الإبل وقال الآخر البقر) قال فأُعطِيَ ناقةً عشراء فقال بارك الله لك فيها

قال فأتى الأقرعَ فقال أيُّ شيءٍ أحبُّ إليكَ؟

قال شعرٌ حسنٌ ويَذْهبُ عَنّي هذا الذي قذّرني الناسُ

قال فمسحه فذهب عنه وأعطيَ شعراً حسناً

قال فأيُّ المالِ أحبُّ إليك؟

قال البقر.

فأعطي بقرةً حاملاً

قال فأتى الأعمى فقال أيُّ شيءٍ أحبُّ إليك

قال أنْ يردَّ الله إليَّ بصري فأبصرَ به الناسَ

قال فمسحه فردَّ الله إليه بصره

قال فأيُّ المالِ أحبُّ إليك؟

قال الغنم

فأعطي شاةً والداً؟

فأنتجَ هذا وولد هذا قال فكان لهذا وادٍ من الإبل ولهذا وادٍ من البقر ولهذا وادٍ من الغنم.

قال ثم إنّه أتى الأبرصَ في صورته وهيئته فقال رجلٌ مسكينٌ قد انقطعتْ بي الحبالُ في سفري فلا بلاغَ لي اليومَ إلاّ بالله ثم بك أسألكَ بالذي أعطاكَ اللونَ الحسنَ، والجلدَ الحسنَ، والمالَ؛ بعيراً أتبلّغُ عليه في سفري، فقال الحقوقُ

كثيرةٌ؟

فقال له كأنيّ أعرفُكَ؛ ألم تكنْ أبرصَ يقذّرُكَ الناسُ فقيراً فأعطاك الله؟

فقال إنما ورثتُ هذا المالَ كابراً عن كابر.

فقال إنْ كنتَ كاذِباً فصيرّكَ الله إلى ما كنتَ.

قال وأتى الأقرعَ في صورته فقال له مثل ما قال لهذا وردَّ عليه مثل ما ردَّ على هذا فقال إنْ كنتَ كاذباً فصيّركَ الله إلى ما كنتَ.

قال وأتى الأعمى في صورته وهيئته فقال رجلٌ مسكينٌ وابنُ سبيلٍ انقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك أسألك بالذي ردَّ عليك بصركَ شاةً أتبلّغ بها في سفري.

فقال قد كنتُ أعمى فردَّ الله إليّ بصري فخذ ما شئتَ ودعْ ما شئتَ فواللهِ لا أجهدك اليومَ شيئاً أخذته للهِ فقال أمسكْ مالك فإنما ابتليتم فقد رضي الله عنك وسخطَ على صاحبيك»[1].

ففي هذا الحديث دليلٌ على تمثُّلِ الملائكة بصورة البشر وقد تكون هذه الصورةُ على صور شتى جميلة وقبيحة وعلى قدرتهم مخاطبة الناس بلغاتهم.

وفيه أنَّ الملائكة قد تكلِّمُ غيرُ الأنبياء وليس كلُّ من كلمته الملائكةُ يُعَدُّ نبياً[2].

[1] البخاري رقم (3277)، مسلم رقم (2964).

[2] في الملائكة المقربين ص (81).

ثانياً صفاتهم الخُلُقية:

1 - كرام بررة:

وصفَ الله الملائكةَ بأنّهم كرامٌ بررةٌ قال تعالى: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: 15-16] أي خَلقهم كريم حسن شريف وأخلاقهم طاهرة كاملة ومن هاهنا ينبغي لحامل القرآن أن يكونَ في أفعاله وأقواله على السدادِ والرشادِ[1].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله (ﷺ): «الذي يقرأُ القرآن وهو ماهرٌ به مع السفرةِ الكرامِ البررةِ والذي يقرأهُ وهو عليه شاقٌّ له أجرانِ»[2].

والكريمُ الجامعُ لأنواعِ الخيرِ والشرفِ والفضائلِ والله عز وجل قد جعلَ ملائكته كذلك ورزقهم هذا الشرف العظيم لقربهم منه سبحانه وتعالى ولأنّهم يقومون بمهام عظيمة لا يقومُ بها إلاّ منِ اتصفَ بهذه الصفات قال تعالى: ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: 26] [3].

2 - البر:

بالكسر الخير والفضل والبارّ الصادق التقي وهو خلافُ الفاجر وجمعهُ بَرَرة[4]، والبر التوسع في الخير وجمع بارٍّ أبرارٌ وبررة قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي

---

(1) عالم الملائكة الأبرار د. عمر الأشقر ص (19).

(2) البخاري (1822/4).

(3) في الملائكة المقربين ص (95).

(4) المصباح المنير للفيومي ص (43).

نَعِيمٍ﴾ [الانفطار: 13].

وقال في صفة الملائكة فبررة خُصَّ بها الملائكةُ في القرآن من حيث إنّه أبلغُ من ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ فإنّه جمعَ برٍّ وأبرار جمع بار وبرُّ أبلغ من بار كما أنَّ عدلاً أبلغ من عادل[1].

والبِرُّ يطَلَقُ على معنيين

أحدهما معاملةُ الخلقِ والإحسانُ إليهم

الثاني يرادُ به فعلُ جميعِ الطاعات الظاهرة والباطنة[2].

والظاهِرُ أنّ كلا المعنيين موجودٌ في الملائكة عليهم السلام فهم محسنون في عبادتهم مطيعون لله لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وهم محسنون لخلق الله محبون للمؤمنين وإحسانهم لبني آدم عظيم فجزاهم عنا أفضل الجزاء وأحسنه.

ومن صور إحسانهم لنا [3]:

أ – دعاؤهم واستغفارُهم لنا:

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ

(1) المفردات ص (41).

(2) جامع العلوم والحكم لابن رجب ص (238).

(3) في الملائكة المقربين ص (96).

إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: 43]. وهذا من أعظم الإحسان لنا ودعاؤهم واستغفارهم سيكون له أثر عظيم في هدايتنا وثباتنا على الحق إن شاء الله.

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [غافر: 7-9].

ب – ومن إحسانهم لنا شفاعتهم لأهل التوحيد يوم القيامة

قال تعالى : ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: 28].

3 – التواضع وعدم التكبر:

قال تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: 172]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ [الأعراف: 206] وقال تعالى: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: 19].

والنصوص في هذا المعنى كثيرة[1].

4 – الحياء:

الحياء خلة شريفة وخلق عظيم يمنع صاحبه من ارتكابِ القبائحِ ودناءةِ الأخلاق ويحثُّ على استعمال مكارم الأخلاق ومعاليها[2]، وهو مِنْ خصالِ الإيمان كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي (ﷺ) قال «الإيمانُ بضعٌ وستون شعبةً والحياءُ شعبةُ من الإيمان»[3].

ومما يدلُّ على اتصاف الملائكة بهذا الخلق الشريف ما روي عن عائشة رضي الله عنها قالت كان رسول الله (ﷺ) مُضَّجِعاً في بيتي كاشفاً عن فخذيه أو ساقيه فاستأذن أبو بكر فَأَذِنَ له وهو على تلك الحال فتحدّث ثم استأذنَ عمرُ فأذن له وهو كذلك فتحدّثَ ثم استأذنَ عثمانُ فجلسَ رسولُ اللهِ وسوّى ثيابه فدخل فتحدَّث فلما خرجَ قالت عائشة دخل أبو بكر فلم تهَّش له ولم تباله ثم دخل عمر فلم تهَّش له ولم تباله ثم دخل عثمان فجلستَ وسوّيتَ ثيابك فقال «ألا استحي من رجلٍ تستحي منه الملائكةُ»[4].

5 – النظام:

---

(1) المصدر السابق ص (98).

(2) في الملائكة المقربين ص (99).

(3) البخاري رقم (9)، مسلم رقم (35).

(4) مسلم رقم (2401).

الملائكةُ منظّمون في عبادتهم وقد حثنا الرسولُ (ﷺ) على الاقتداءِ بهم في ذلك فقال «ألا تصفّون كما تصفّ الملائكةُ»؟ قالوا وكيف يصفّون عند ربهم؟ قال «يكمّلون الصفَّ الأول فالأول يتراصّون في الصفِّ»[1]. وقد فضّلنا اللهُ على بقيةِ الأُمم بأنْ جُعِلْت صفوفنا كصفوفِ الملائكةِ»[2].

وفي يوم القيامةِ يأتون صفوفاً منتظمة قال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: 22].

ويقفون صفوفاً بين يدي الله تعالى ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: 38]. والروحُ جبريلُ[3].

6 – يحبّون ويبغضون

فيحبّون منّ أحبّه الله تعالى ويبغضون مَنْ أبغضه الله كما دلَّ على ذلك صحيحُ السنة فقد قال رسول الله (ﷺ) «إنّ اللهَ إذا أحبَّ عَبْداً دعا جبريلَ فقال يا جبريلُ إِنّي أحبُّ فلاناً فأحبّه قال فيحبُّه جبريلُ قال ثم ينادِي في أهلِ السماءِ إنّ اللهَ يحبُّ فلاناً فأحبُّوه قال فيحبُّه أهلُ السماءِ ثم يوضَعُ له القبولُ في الأرضِ. وإنَّ الله إذا أبغضَ عبداً دعا جبريلَ فقال يا جبريلُ إِنّي أبغضُ فلاناً فأبغضْه

[1] رواه الجماعة إلا البخاري نقلاً عن عالم الملائكة ص (24).

[2] صحيح مسلم، علم الملائكة الأبرار للأشقر ص (24).

[3] عالم الملائكة الأبرار ص (24).

قال فيُبْغِضهُ جبريلُ ثم ينادِي في أهلِ السماءِ إنَّ الله يُبْغِضُ فلاناً فأبغضوه فَيُبْغِضُه أهلُ السماءِ ثم يوضعُ له البغضاءُ في الأرضِ»[1].

7 – إنّهم يتأذّون مما يتأذّى منه ابنُ آدم:

كالروائح الكريهة كما ورد في حديث جابر رضي الله عنه قال نهى رسولُ اللهِ (ﷺ) عن أكلِ البصلِ والكرّاثِ فغلبتنا الحاجة فأكلنا منها فقال «مَنْ أكَلِ مِنْ هذِهِ الشجرةِ المنتنةِ فلا يقربنَّ مسجدنا فإنَّ الملائكةَ تتأذّى مما يتأذّى منه الإنس»[2].

8 – إنّهم لا يعلمون الغيب:

إنهم لا يعلمون إلاّ ما أعلمهم الله تعالى حيثُ كان جوابُهم لربّهم اعترافَهم بعدم علمهم شيئاً لم يعلمهم الله تعالى إياه قال تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: 32] .

9 – إنهم عباد الله دائمو الطاعة والخوفِ منه:

إنهم لا يعصونه فيما أمر كما أنّهم لا يفعلون شيئاً إلا بأمره ومن بعد إذنه قال تعالى مبيناً ذلك ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ

---

(1) البخاري رقم (6040)، مسلم رقم (2637).

(2) مسلم رقم (564).

عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: 19-20].

فالملائكةُ ليسوا كالإنسِ فليس لهم إرادةٌ حرّةٌ أو مشيئةٌ كما أنهم لم يخلقوا للابتلاء بل الحكمة من خلقهم أنهم يعبدون الله ويسبحونه وله يسجدون.

ولكنّهم مع ذلك هم مأمورون بالعبادة والطاعة قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل: 50]. فهم إذن مكلّفون ولكن تكليفهم يختلِفُ عن تكليف الإنس والجن فبينما الإنسُ والجنُّ لهم خيار وتكليفهم ابتلاء وقد يطيعون ويعصون ويغالبون أهواءهم وشهواتهم أو يتبعونها ومن ثَمَّ يثابون على طاعتهم ويعاقبون على معصيتهم فإنَّ الملائكةَ لا خيارَ لها لأنها جُبِلَتْ على الطاعة ولا استطاعة لها للمعصية ومن ثَمَّ فإنَّ عملهم وطاعتهم كالتنفس والأكل والشرب بالنسبة للإنسان فلا مثوبة لهم عليه فهم يؤمرون فيطيعون قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 34] [1].

الفصل الثالث

---

[1] العقيدة الإسلامية د. أحمد محمد جلي ص (172).

عدد الملائكة وأسماؤهم ورؤيتهم

وهل يموتون؟

أولاً – عدد الملائكة

ثانياً – أسماء الملائكة

ثالثاً – رؤية الملائكة

رابعاً – موت الملائكة

الفصل الثالث

عدد الملائكة وأسماؤهم وهل يموتون؟

أولاً عدد الملائكة

الملائكةُ الكِرامُ من مخلوقاتِ الله تعالى العظام التي لا يُحْصَى عددُها ولا يحيطُ بأوصافِها إلاّ خالقها عز وجل حيث قال تعالى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر: 31].

وقد ورد في كثرتهم ما يبهرُ العقلَ ويفوقُ الحصرَ ومنه حديثُ المعراجِ المتّفقِ على صحته «إنّ البيتَ المعمورَ يُصلِّي فيه كلُّ يومٍ سبعونَ ألفَ ملكٍ إذا خرجوا لم يعودوا إليه اخرَ ما عليهم»[1].

وقال رسولُ اللهِ (ﷺ) «يُؤْتَى بجهنّمَ يؤمئذٍ لها سبعونَ ألفَ زمامٍ مع كلِّ زمامٍ سبعونَ ألفَ مَلَكٍ يجرُّونها»[2].

فعلى ذلك فإنّ الذين يأتون بجهنم يوم القيامة أربعة آلاف وتسعمئة مليونَ مَلَك[3]، وقد اتفقت كلمةُ أهلِ العلم على كثرتهم وأنّ عددهم لا يحصيه إلا خالقهم[4].

---

(1) البخاري رقم (3207).

(2) مسلم رقم (2824).

(3) عالم الملائكة الأبرار ص (16).

(4) مجموع الفتاوى (332/17).

وقد سمع النبي (ﷺ) أطيطَ[1] السماءِ من ثقل الملائكة وكثرتهم فقال (ﷺ): «إنيّ أرى ما لا ترَوْنَ وأسمعُ ما لا تسمعونَ أَطَّتِ السماءُ وحُقَّ لها أَنْ تَئِطَّ ما فيها مَوْضعُ أربعِ أصابعَ إلا وَمَلَكٌ واضِعٌ جبهته ساجداً للهِ تعالى واللهِ لو تعلمونَ ما أَعْلَمُ لَضَحِكْتُم قليلاً ولَبَكَيْتُم كثيراً»[2].

فإذا علمنا أنّ السماوات السبع قد مُلأت بحيثُ لا نجدُ موضعَ أربعِ أصابعَ إلا وعليها مَلَكٌ يعبدُ الله فهل يتخيل العقلُ بعد هذا عددَهم[3]؟ فسبحان من خلقهم وصرفهم وأحصاهم قال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۝ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: 93-95].

ثانياً أسماء الملائكة:

وردت تسمية الملائكة عليهم السلام في القرآن والسنة بعدة أسماء، عامة وخاصة:

1 – الأسماء العامة

أ – الأشهاد

(1) الأطيط: صوت الأقتاب أي: كثرة ما في السماء من الملائكة قد أثقلها حتى سمع صوت يشبه صوت الرحل إذا حمل عليه الحمل الثقيل.

(2) سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني رقم (1060).

(3) في الملائكة المقربين ص (29).

قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: 51] قال ابن كثير الأشهادُ الملائكةُ[1].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: 18] قال القرطبي الأشهادُ الملائكةُ؟[2]

ب – الملأ الأعلى:

قال تعالى: ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ [الصافات: 8].

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [ص: 69]. الملأُ الأعلى لا تطلَقُ إلا على الملائكة[3].

ج – الجنود:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: 26].

وقال تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ

---

(1) تفسير ابن كثير (84/4).

(2) تفسير القرطبي (18/9).

(3) في الملائكة المقربين ص (32).

إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: 40]. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: 9]. والآيات في هذا المعنى كثيرةٌ وقد ذكر المفسرون رحمهم الله أنَّ الجنود أنزلهم الله على المؤمنين وعلى رسوله (ﷺ) همُ الملائكة[1]. والأحاديثُ الكثيرةُ تدلُّ على أنَّ الجنودَ التي لم يروها هي الملائكة كما في حديث حُذيفة قال فذهبتُ فدخلتُ في القومِ والريحُ وجنودُ اللهِ تفعلُ ما تفعلُ[2].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت فلّما رجعَ رسولُ اللهِ (ﷺ) من الخندقِ وضَع السلاحَ فاغتسلَ فأتاه جبريلُ وهو ينفضُ رأسَه من الغبارِ فقال وضعتَ السلاحَ واللهِ ما وضعناه[3].

د – السفرة:

قال تعالى: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: 15-16]. قال ابن جرير الطبري والصحيحُ أنَّ السفرةَ الملائكةُ والسفرة يعني بين الله تعالى وبين خلقه ومنه يقال السفير الذي يسعى بين الناس في الصلح والخيرِ كما قال الشاعر:

---

(1) تفسير ابن كثير (346/2).

(2) رواه الإمام أحمد في مسنده (392/5) إسناده صحيح.

(3) مسلم (1389/3).

ومـا أدعُ السـفـارةَ بينَ قومي وَمَا أَمْشـي بِغِشٍّ إنْ مَشَـيْتُ[1]

هـ – الرسل:

قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: 75]. وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: 1].

وقال تعالى﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ [الذاريات: 31-33]. فقد سمّى اللهُ الملائكةَ رسلاً في آيات كثيرة[2].

2 – الأسماء الخاصة

أ – جبريل

قد جاء في النصوص الشرعية أنّ الملائكة أصنافٌ كما ثبتَ أنَّ لكلٍّ منهم وظائفَ وأعمالاً.

فوظيفةُ الملائكة الأولى التي يقومُون بها في الجملةِ تسبيحُ الله تعالى والتعبّدُ له ليلاً

---

[1] تفسير ابن جرير (54/30)، في الملائكة المقربين ص (31).

[2] في الملائكة المقربين ص (30).

ونهاراً من غير مللٍ ولا فتورٍ.

ومن أشهر الملائكةِ جبريل عليه السلام وهو الموكل بالوحي وغير ذلك من الأعمال وقد ورد ذكره في القرآن الكريم في عِدّةِ مواضَع.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 97].

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التحريم: 4]. وجاء اسمُه في السنة كثيراً فهو الذي يجيءُ بالوحي إلى النبيّ (ﷺ) من أوّلِ يومٍ في غار حراء حتى اخرِ عمره صلوات الله وسلامه عليه وهو الذي صحبه في إسرائه ومعراجه وربّما تمثل له بصورةِ رجلٍ فيكلّمُ النبيَّ (ﷺ) والصحابة ينظرون ويسمعون ولا يعرفونه حتى يخبرهم النبيُّ (ﷺ) بذلك[1].

❖ وقد سمّاه الله بغير هذا الاسم في القرآن الكريم فمن اسمائه الشريفة:

الروح:

قال تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: 4]. وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: 38]. وقال تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر: 4]. قال القرطبيُّ والروح جبريل عليه

[1] المصدر نفسه ص (35).

السلام قاله ابنُ عبّاس[1].

وممّا يدلُّ على أنَّ المرادَ بالروحِ هنا جبريلُ أنّ الله عزّ وجلّ أضافه إلى نفسِه في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: 17].

الروح الأمين:

قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ۝ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: 193-195]. قال ابنُ كثير هو جبريلُ عليه السلام قاله غيرُ واحدٍ من السلف وهذا مما لا نزاع فيه[2].

روح القدس:

قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: 253] وقال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: 102] .

وهذا الاسمُ اسمٌ مشهورٌ في السنة حيث ذكره النبيّ (ﷺ) في دعائه لحسّان رضي الله عنه عندما كان يرد عن النبيّ (ﷺ) فعن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف أنّه سمعَ حسّانَ بنَ ثابتٍ الأنصاري يستشهد أبا هريرة أنشِدُك الله هل سمعتَ النبيَّ (ﷺ) يقول «يا حسّانُ أَجِبْ عَنْ رسولِ اللهِ (ﷺ) اللهمَّ أيده بروحٍ

---

(1) تفسير القرطبي (281/18).

(2) تفسير ابن كثير (347/3).

القُدس» قال أبو هريرة نعم[1].

وعن أبي أمامةَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله (ﷺ): «إنَّ روحَ القدسِ نفثَ في رَوْعي[2] أنَّ نفساً لن تموتَ حتّى تستكمِلَ أجلَها وتستوعبَ رزقَها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ولا يحملنَّ أحدَكم استبطاءُ الرزقِ أن يطلبَه بمعصيةِ اللهِ فإنّ الله تعالى لا يُنالُ ما عندهَ إلا بطاعته»[3] ومعنى القدس أي الطاهر[4].

وقال الراغب: وقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ [الشعراء: 193-194] [5] يعني به: جبريل، من حيث إنه ينزل بالقدس من الله، أي: مما يطهر به نفوسنا، من القرآن والحكمة والفيض الإلهي[6].

وقال الطحاوي: وقوله : ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء: 193] هو جبريلُ، عليه السلام، سُمِّي روحاً لأنّه حامِلُ الوحي الذي به حياةُ القلوب إلى الرسل من البشر صلوات الله عليهم أجمعين وهو أمينٌ حقُّ أمينٍ صلوات الله عليه[7].

وقد كان لجبريلُ عليه السلام مع النبيّ (ﷺ) شأنٌ عظيمٌ فهو صاحبه في غار حراء في أوّل يوم من أيام نبوته وتمثّل له رجلاً وكلّمه وراه في صورته التي خلقه عليها وكان النبيُّ (ﷺ) يتشوّقُ للقاء جبريل عليه السلام ويطلبُ منه عدمَ التأخُّرِ

---

(1) مسلم (1932/3) رقم (152).

(2) الروّع: نفسي وخلدي.

(3) صحيح الجامع رقم (2081).

(4) في الملائكة المقربين ص (37).

(5) المصدر نفسه ص (37).

(6) المفردات ص (396).

(7) شرح العقيدة الطحاوية ص (337).

في الزيارة ومدارسةِ القرآن في كل رمضان وفي العام الذي مات فيه رسول (ﷺ) دارسه القرآن مرّتين إلى غير ذلك من الأعمال الشريفة العظيمة مما يدلُّ على مكانته عند الله حتى قال غيرُ واحدٍ من العلماء إنّه عليه السلام أفضلُ الملائكةِ وأعظمُهم عندَ اللهِ عزّ وجلّ[1].

ب – ميكائيل

من أعيان الملائكة ميكائيلُ عليه السلام ثبت هذا الاسمُ في القرآن والسنة كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 98].

ومعي ميكائيلُ مُعَبّدُ لله أي عبدُ الله أو عبيدُ الله[2].

ج – إسرافيل

لم يرد اسم إسرافيل عليه السلام في القرآن الكريم وإنّما وردَ في السنة في أحاديثَ صحيحةٍ منها حديثُ عائشة رضي الله عنها أنَّ رسولَ اللهِ (ﷺ) كان إذا قامَ من الليلِ يصلّي يقول «اللهمَّ ربَّ جبريلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ فاطرَ السماواتِ والأرضِ عالمَ الغيبِ والشهادةِ أنتَ تحكمُ بين عبادِكَ فيما كانوا فيه

---

[1] في الملائكة المقربين ص (39، 40).

[2] المصدر نفسه ص (41).

يختلفون اهدني لما اختُلِفَ فيه مَنِ الحقِّ بإذنك إنّك تهدي مَنْ تشاءُ إلى صراطٍ مستقيم»[1].

والمشهور عند المفسرين أنَّ إسرافيلَ عليه السلام مُوَكَلٌ بالنفخ في الصور والصورُ القرنُ يَنْفُخُ فيه إسرافيلُ.

وقد وردَ الصورِ في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: 101]. وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ [النمل: 87]. وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ [ق: 20].

والنفخ في الصور ثلاث نفخات نفخة الفزع ونفخة الصعق والموت لمن لم يمت ونفخة القيام لرب العالمين ورجح بعضُ العلماءِ أنّهما نفختان فقط[2].

ولا يوجَدُ حديثٌ واحدٌ صحيحٌ ينصُّ على أنَّ الذي ينفخُ في الصور هو إسرافيلُ عليه السلام مع كثرةِ الأحاديثِ التي تحدّثت عن النفخِ وعددِ النفخات وصفةِ الصور وصفةِ الملك الذي ينفخُ فيه.

ولقد صحَّ ولكن بدون ذكرِ إسرافيل من حديث أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ (ﷺ): «وكيف أنعمُ وصاحِبُ القرنِ قد التقمَ القرنَ واستمعَ الإذن متى يُؤْمَرُ بالنفخِ فينفخ»[3].

---

(1) في الملائكة المقربين ص (44).

(2) في الملائكة المقربين.

(3) مسند أحمد رقم (1103).

وقد جمع النبيُّ (ﷺ) في دعائه المتقدّم بين جبريلُ وميكائيلَ وإسرافيلَ ممَّا يدلُّ على عِظَمَ هؤلاء الثلاثة عليهم السلام، ومكانتهم عند الله، وضخامةِ ما وكلهم اللهُ به[1].

3 – مالكٌ خازنُ النار:

قال تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾ [الزخرف: 77]. ونادى هؤلاء المجرمون مالكاً خازن جهنم بعدما أدخلهمَ الله جهنم فنالهم فيها من البلاء ما نالهم ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾ ونادى هؤلاء المجرمون مالكاً خازن جهنم بعدما أدخلهمَ الله جهنم فنالهم فيها من البلاء ما نالهم ﴿ يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ أي ليمتنا ربك[2].

4 – ملك الموت:

قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: 11].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: 61].

---

(1) في الملائكة المقربين ص (46).

(2) تفسير ابن جرير (98/25).

5 – منكر ونكير:

جاء هذان الاسمان في أحاديث فتنة القبر – نعوذ بالله منها – فمن ذلك ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ (ﷺ): «إذا قُبِرَ الميتُ أو قال أحدكم أتاهُ ملكانِ أسودانِ أزرقانِ يقال لأحدِهما المنكر وللأخر النكير فيقولان ما كنتَ تقول في هذا الرجل» الحديث[1].

6 – هاروت وماروت:

اسمان لملكينِ كريمينِ نُسِجَتْ حولهما قصصٌ وأساطير أكثرُها أُخِذت من أهل الكتاب وقد ورد ذكرهما في القرآن في قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 102]

فهاروت وماروت ملكانِ أُنزلا إلى الأرض فتنةً للناس وكانا يحذّران مَنْ

[1] جامع الترمذي (267/2)، وقال الألباني في تخريج المشكاة: وسنده حسن، وهو على شرط مسلم.

جاءهما ليتعلّم منهما ما نزلا به[1].

وقد نُسِجَتْ حولهما في كتب التفسيرِ أساطيرُ كثيرةٌ لم يثبْت شيءٌ منها في الكتابِ والسنّةِ فيكتُفَى في معرفة أمرِهما بما دلّت عليه الآية الكريمة[2].

7 – الأسماء المنسوبة للملائكة ولم تصحّ تسمية الملائكة بها:

أ – عزرائيل:

وقد جاء في بعضِ الاثارِ تسميةُ ملك الموت باسم عزرائيل ولا يوجدُ في القرآن ولا في الأحاديث الصحيحة تسمية بهذا الاسم[3].

ب – رقيب وعتيد:

يذكرُ بعضُ العلماء أنَّ مِنَ الملائكةِ من اسمه رقيبٌ وعتيدٌ استدلالاً بقوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: 17-18].

وما ذكروه غيرُ صحيحٍ فالرقيبُ والعتيدُ هنا وصفٌ للملكين اللذين يسجّلان أعمال العباد ومعنى رقيبٌ وعتيدٌ أي ملكانِ حاضرانِ شاهدانِ لا يغيبانِ

(1) في الملائكة المقربين ص (50).

(2) عالم الملائكة الأبرار ص (88).

(3) عالم الملائكة الأبرار ص (18).

عن العبدِ وليسَ المرادُ أنّهما اسمان للملكين[1].

ثالثاً – رؤية الملائكة:

دلّتِ النصوصُ على أنَّ النبيَّ (ﷺ) رأى جبريلَ بصورته التي خلقه الله عليها مرّتين وكان يراه كثيراً متمثّلاً بصورةِ رجلٍ وكان كثيراً ما يتمثّل بصورةٍ دحْيَةَ الكلبي وربما راه النبيُّ (ﷺ) وكلّمه وعنده بعضُ أصحابه وزوجاته ولا يرونه كما ثبتَ ذلك في حديثِ عائشةَ رضي الله عنها أنَّ النبيَّ (ﷺ) قال لها «يا عائشةُ هذا جبريلُ يقرأُ عليكِ السلامُ» فقالت وعليه السلامُ ورحمةُ الله وبركاته ترى ما لا أرى[2].

وربّما راه أصحابهُ رضي الله عنهم كما صحَّ أنهم رأوه بصورةِ رجلٍ شديدِ بياضِ الثيابِ شديدِ سوادِ الشعرِ كما هو ثابتٌ في حديث جبريلَ المشهور[3] وغيره، ولكن ينبغي أن يحذرَ الإنسانُ فربّما لبّس عليه شيطانٌ وظنَّ أنه مَلَكٌ[4].

أما رؤيتهم على صورتهم التي خلقَهم الله عليها فظاهِرُ النصوص تدلُّ على أنّهم لا يُرون وإذا كان النبيُّ (ﷺ) لم يرَ جبريلَ على صورته إلاّ مرتينِ وهاله عِظَمُ

---

[1] المصدر نفسه ص (18).

[2] مسلم رقم (2474) ، في الملائكة المقربين ص (19).

[3] مسلم رقم (8).

[4] المصدر نفسه ص (86).

خلقِه فلأنْ لا يراهم غيرهُ من بابٍ أولى[1].

وقد تدنو الملائكةُ من الإنسانِ في حالاتٍ وقد يشعرُ بوجودِها ولكنَّه لا يراها ولا يبصِرُها وإن كان يرى أثرَ وجودِها كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ۝ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ ۝ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: 83-85] .

فمَلكُ الموتِ وأعوانُه يحضرون الميتَ والناسُ كذلك يحضرون والمؤمنُ يعلمُ قطعاً أنَّ ملكَ الموتِ يقبضُ روحَ الميتِ لكنّه لا يراه وإنْ رأى أثرَه وهو موتُ الرجلِ[2].

ومن ذلك حديثُ أُسيدِ بن حُضيرٍ رضي الله عنه قال بينما هو يقرأُ من الليلِ سورةَ البقرةِ وفرسُه مربوطٌ عندَه إذْ جالتِ الفرسُ فسكتَ فسكنتْ فقرأ فجالتِ الفرسُ فسكتَ وسكنتْ الفرسُ ثم قرأَ فجالتْ الفرسُ فانصرفَ وكان ابنُه يحيى قريباً منها فأشفقَ أن تصيبَه فلّما اجترّه رفعَ رأسَه إلى السماء فإذا مثلُ الظُّلَّةِ فيها أمثال المصابيح فخرج حتى ما يراها فلمّا أصبحَ حدّث النبيَّ (ﷺ) فقال له «اقرأ يا بنَ حُضَيْر اقرأ يا بنَ حُضير» قال فأشفقتُ يا رسولَ اللهِ أنْ تطأَ يحيى وكان منها قريباً فرفعتُ رأسي فانصرفتُ إليه فرفعتُ رأسي إلى السماءِ فإذا مثلُ الظُّلَّةِ فيها أمثالُ المصابيح فخرجتُ حتّى لا أراها قال «وتدري ما ذاك؟» قال لا قال «تلك الملائكةُ دَنَتْ لِصَوْتِكَ ولو قرأتَ لأصبحتْ ينظرُ الناسُ إليها لا

---

(1) المصدر نفسه ص (86).

(2) في الملائكة المقربين ص (87).

تتوارى منهم»[1]، فالاختفاء إذاً هو عادةُ الملائكةِ لكنّهم قد يظهرون ولكن بغير صورتهم التي خلقهم الله عليها كما ظهروا هنا لأسيدِ بن حُضير رضي الله عنه في الظلّة لكنّه لم يرهم.

وأمّا قولُ النبيِّ (ﷺ) «ولو قرأتَ لأصبحتْ ينظرُ الناسُ إليها لا تتوارى عنهم» ففيه جوازُ رؤيتهم لكنّ الله عزّ وجلّ لم يأذن بها ولذلك جالتِ الفرسُ وقطعتْ قراءةَ أُسيدٍ.

وحضورُ الملائكةِ مجالسَ الذكرِ وشهودُها صلاةَ العصرِ وصلاةَ الفجرِ وغير ذلك أمرٌ معلومٌ لكنّ أُسيد بنُ حُضير رأى هنا ما لا يراهُ الناسُ في صلاةِ الفجرِ والعصرِ ومجالسِ الذكر وهو مع ذلك لم يعلمْ أنّها ملائكةٌ إلا بخبر النبيِّ (ﷺ) لأنّه لم ير صورَها وإنما رأى مصابيحَ في ظُلَّةٍ[2].

ومنها حديثُ حنظلة الأسدي رضي الله عنه قال كُنّا عندَ رسولِ اللهِ(ﷺ) فوعظنا فذكر النار قال «ثم جئتُ إلى البيتِ فضاحكتُ الصبيانَ ولاعبتُ المرأةَ قال فخرجتُ فلقيتُ أبا بكر فذكرتُ ذلك له فقال وأنا قد فعلتُ مثلَ ما تذكُرُ فلقيتُ رسولَ اللهِ (ﷺ) فقلتُ يا رسولَ اللهِ نافقَ حنظلةُ فقال «مَهْ» فحدّثته بحديثٍ فقال أبو بكر وأنا قد فعلتُ مثلَ ما فعلَ فقال «يا حنظلةُ ساعةً وساعةً ولو كانت تكونُ قلوبُكم كما تكونُ عندَ الذكرِ لصافحتكم الملائكةُ حتّى تسلِّمَ

---

[1] مسلم رقم (796).

[2] في الملائكة المقربين ص (88).

عليكم في الطرقِ»[1].

والذي نفهمُه مِنْ هذا الحديثِ أنَّ رؤية الناسِ للملائكةِ ممكنةٌ بشرطِ أن تكونَ قلوبُهم كقلوبِ الصحابة رضي الله عنهم حالَ استماعهم لموعظةِ النبيِّ (ﷺ) وإذا كان الصحابة رضي الله عنم - وهم في الإيمان في المحل الأعلى - لا يستطيعونَ الاستمرارَ على هذه الحالةَ فغيرُهم ممّن هو دونَهم من بابٍ أولى وعند ذهابِ الشرطِ يذهبُ المشروط فعُلِمَ أنَّ رؤيةَ الملائكةِ على صورتهم التي خلقهم الله عليها مستحيلةٌ للناس في الدنيا ولم تقع في هذه الأمة إلا لنبينا محمد (ﷺ) مرتين[2].

وقال رسول الله (ﷺ) «إذا سمعتُم صياحَ الديكةِ فاسألوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ فإنَّها رأتْ مَلَكاً وإذا سمعتُم نهيقَ الحمارِ فتعوّذوا باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ فإنّه رأى شيطاناً»[3]، وفيه أنَّ الديكةَ ترى الملائكةَ ولا نعلمُ كيف تراها وبأيِّ صورةٍ تراها فنحنُ نقولُ كما جاءَ في الحديث والله أعلم[4].

ولقد طلبَ الكفّارُ من النبيِّ (ﷺ) آيةً على صدقه وهي رؤيةُ الملائكةِ أو رؤيةُ اللهِ فأجابهم الله بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ۝ يَوْمَ يَرَوْنَ

(1) مسلم رقم (2750).
(2) في الملائكة المقربين ص (89).
(3) فتح الباري على البخاري (350/6).
(4) في الملائكة المقربين ص (90).

الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا﴾ [الفرقان: 21-22].

وأمّا رؤيةُ الملائكةِ عليهم السلام في المنام فهي ممكنةٌ وقد وقعتْ للنبيّ (ﷺ) ورؤيا الأنبياء حق وقد عدّها العلماءُ مرتبةً من مراتب الوحي[1].

فمن حديث سَمُرَةَ بنِ جُندب رضي الله عنه وفيه قال رسولُ اللهِ (ﷺ) «إنّه أتاني الليلةَ اتيانِ وإنّهما ابتعثاني وإنّهما قال لي انطلقْ وفيه انطلقنا فأتينا على رجلٍ كريهِ المرآة كأكرهِ ما أنتَ راءٍ رجلاً مراةً فإذا عندَه نارٌ يحشُّها ويسعى حولَها قال في اخره وأمّا الرجلُ الكريهُ المرأة الذي عندَ النارِ يحشّها ويسعى حولها فإنّه مالكٌ خازنُ جهنّم»[2].

وقد رأى النبيَّ (ﷺ) الملائكةَ هذه المرة بصورةِ الرجال أيضاً كما جاءَ ذلك مصرَّحاً به عند البخاريِّ في باب بَدْءِ الخلق وأنّه رأى جبريلَ وميكائيلَ ومالكاً بصورةِ رجالٍ[3].

ومن ذلك حديثُ عائشةَ رضي الله عنها قال قال رسولُ اللهِ (ﷺ) «رأيتُكِ قبل أنْ أتزوّجكِ مرتينِ رأيتُ المَلَكَ يحمِلُكِ في سرْقةِ حريرٍ فقلتُ له اكشفْ فكشفَ فإذا هِيَ أنتِ فقلتْ إنْ يَكُنْ هذا مِنْ عِنْدِ اللهِ يُمْضِهِ ثم رأيتُكِ يحمِلُكِ في سرْقةِ حريرٍ، فقلتُ اكشفْ فكشفَ فإذا هِيَ أنتِ، فقلتُ إنْ يكنْ هذا مِنْ

(1) فتح الباري (23/1)، زاد المسير لابن الجوزي (297/7).
(2) البخاري رقم (7047).
(3) البخاري رقم (3064).

عِندِ اللهِ يُمْضِهِ»[1].

وقد وقعتْ رؤيةُ الملائكةِ في المنام لغيرِ النبيّ (ﷺ) كما في حديثِ عبدِ الله بنِ عمرَ رضي الله عنهما فرأيتُ في النومِ كأنَّ مَلَكيْنِ أخذاني فذهبا بي إلى النّارِ فإذا هي مطويةٌ كطيّ البئرِ وإذا لها قرنانِ وإذا فيها أناسٌ قد عرفتُهم فجعلتُ أقول أعوذُ باللهِ مِنَ النّارِ قال فلقينا مَلَكٌ اخرَ فقال لي لَمْ تُرَعْ فقصصتُها على حَفْصَةَ فقصّتها حفصةُ على رسولِ اللهِ (ﷺ) فقال «نِعْم الرَّجُلُ عَبْدُ اللهِ لَوْ كانَ يُصَلّي مِنَ الليلِ» فكان بعدُ لا ينامُ من الليل إلاّ قليلاً[2].

وهذا الحديثُ يدلُّ على إمكانية رؤية الملائكة في حال النومِ لغيرِ النبيّ(ﷺ) ولكنْ ينبغي أن يُعْلَمَ أنَّ هذه الرؤية ليستْ مصدرَ تشريعٍ، وإنّما هي كغيرِها إمّا مبشّرات أو محذّرات أو مِنْ وساوسِ النفس أمّا أَنْ تتخذَ مصدرَ تشريعٍ فهذا خطأٌ واضحٌ[3].

رابعاً موت الملائكة:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: 88] وقال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: 26-27].

---

(1) مسلم رقم (2438).

(2) البخاري (1070/1).

(3) في الملائكة المقربين ص (92).

يخبِرُ تعالى أنَّ جميعَ أهلِ الأرضِ جميعاً سيذهبون ويموتون وكذلك أهلُ السماواتِ إلا ما شاء الله ولا يبقى أحدٌ سوى وجهه الكريم فإنّ الربَّ تعالى وتقدَّس لا يموتُ بل هو الحيُّ الذي لا يموتُ أبداً[1].

وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: 68].

فالملائكةُ تشملُهم الآيةُ لأنّهم في السماءِ يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية هذه هي النفخةُ الثانيةُ وهي نفخةُ الصعقِ وهي التي يموتُ بها الأحياءَ من أهل السماوات والأرض إلاّ مَنْ شاء الله كما جاء مصرَّحاً به مفسّراً في حديث الصور المشهور ثم يقْبِضُ أرواحَ الباقين حتّى يكونَ آخرُ مَنْ يموتُ ملكَ الموتِ وينفرد الحيُّ القيوم – الذي كان أولاً وهو الباقي آخراً – بالديمومةِ والبقاءِ ويقول لِمَن الملكُ اليوم؟ ثلاث مرّاتٍ ثم يجيبُ نفسَه بنفسِه فيقول للهِ الواحدِ القهار[2]، فالملائكةُ مثلُ الإنسِ والجنِّ يموتون ويبعثون.

وهل يموتون قبل النفخ في الصور مثل الإنس والجن؟! أم أنَّ موتهم يبدأ بالنفخِ في الصور؟

لم يردْ دليلٌ في هذا والأولى عدم الخوض فيه والله أعلم.

* * *

---

(1) تفسير ابن كثير (272/3).

(2) عالم الملائكة الأبرار ص (19).

الفصل الرابع

عبادة الملائكة

تمهيد

أولاً : إيمانهم بالله عزّ وجلّ وشهادتهم بالتوحيد

ثانياً : تسبيح الملائكة لله تعالى

ثالثاً : دعاء الملائكة للمؤمنين

رابعاً : دعاء الملائكة على الكفار وعلى أقوام بسبب أعمالهم السيئة

خامساً : ولاء الملائكة للمؤمنين

سادساً : براءة الملائكة من أهل الكبائر وبغضهم لأئمة الكفر

سابعاً : الملائكة يقومون بامتهان الكفار

ثامناً : الملائكة يتحدّثون إلى عصاة المسلمين وإلى الكفار

تاسعاً : خوفهم من الله وخشيتُهم له

عاشراً : حضورهم مجاس الذكر وخطبة يوم الجمعة

حادي عشر : حضورهم الصلوات في المساجد، وقولهم ما يقول المأموم

ثاني عشر : صلاة الملائكة

ثالث عشر : سلام الملائكة

الفصل الرابع

عبادة الملائكة

تمهيد:

الملائكة مطبوعون على طاعة الله ليس لهم القدرةُ على العصيان قال تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: 6]. فتركُهم للمعصيةِ وفعلُهم للطاعةِ جبلةٌ لا يكلّفهم أدنى مجاهدةٍ لأنّه لا شهوةَ لهم وهم مأمورونَ بالعبادةِ والطاعةِ قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: 50] وفي الآية والخوف نوعٌ من التكاليف ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ﴾ بل هو أعلى أنواعِ العبودية كما قال تعالى فيهم ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: 28][1].

وقد دلّتِ النصوصُ الشرعيةُ على عصمة الملائكة من الذنوب فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: 26-29].

---

[1] عالم الملائكة الأبرار ص (29).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: 6].

فالملائكةُ عبادٌ يتّصفون بكلِّ صفاتِ العبوديةِ قائمونَ بالخدمة منفّذون للتعاليم وعلمُ الله بهم محيطٌ لا يستطيعون أن يتجاوزوا الأوامر ولا أن يخالفوا التعليمات الملقاة إليهم خائفون وجلون وهم لا يفعلون إلا ما يؤمرون به فالأمرُ يحرّكهم والأمر يوقفهم وهم مكلّفون بالطاعة وهم يقومون بالعبادة والتكاليف بيسر وسهولة.

ومن بعض هذه العبادات[1]:

أولاً إيمانهم بالله عز وجل وشهادتهم بالتوحيد:

فالملائكةُ يؤمنون باللهِ عزّ وجلّ إيماناً كاملاً ويشهدون أنّه لا إله إلا هو سبحانه ويخضعون لأوامره تعالى كما يؤمنون به سبحانه وبأسمائه وصفاته وأنّه تعالى له الأسماء الحسنى والصفات العُلى:

1 - قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: 18].

2 - وقال تعالى: ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ

---

[1] عالم الملائكة والأبرار ص (30).

يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: 166]. فقد شهدوا على صدقِ الوحي وأنّه منزّلٌ من عند الله العزيز الحكيم.

3 – وعن إيمانهم بأسماء الله تعالى وصفاته يقول الله تبارك وتعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: 32].

4 – وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: 7] [1].

ثانياً تسبيح الملائكة لله تعالى:

تكرّر في الكتابِ والسنةِ ذكرُ تسبيحِ الملائكة في صور متنوعة وبعبارات مختلفة منها:

1 – تسبيحُهم على الدوام بلا انقطاع:

أ – قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ [الأعراف: 206].

يعني بهم الملائكة وهذه العبوديةُ تعني قربهم من الله تعالى ورفعة منزلتهم على غيرهم من المخلوقات.

ثم وصفهم الله تعالى في هذه الآية بثلاثةِ أوصافٍ:

أنّهم لا يستكبرون عن عبادة الله تعالى وأنّهم يسبحونه وأنّهم يسجدون له وهذه

---

[1] عبودية الكائنات لرب العالمين فريد اسماعيل التوني ص (356).

الأوصافُ دالّةٌ على كمال عبوديتهم لله تعالى حيث قد اجتمعت لهم العبادة القلبية والقولية والبدنية:

فعدم الاستكبارِ عبادةٌ قلبيةٌ تنشأ عنها العبادة القولية والبدنية[1].

والتسبيحُ هو ذكرهم لله تعالى وتنزيههم إياه عن كلِّ ما لا يليقُ بجلاله وعظمته وهو عبادة كائنةٌ بالقلب وهي اعتقادُ التنزيه وباللسان وهي قول (سبحان الله) ونحوه من الذكر، وبالجوارح، كالصلاة مثلاً.

والسجود عبادةٌ بدنية تتضمن الخضوعَ والذلَّ لله العلي العظيم وتقديم الجار والمجرور في قوله إيذان باختصاص سجودهم لله تعالى وحده دون غيره[2].

ب – قال تعالى: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: 19-20].

فقوله هنا: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ﴾ يعني الملائكة[3]، كما في الآية السابقة، وقد تضمنت هذه الآية بيان أن الملائكة زيادة على عدم استكبارهم عن عبادة الله ﴿وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أي: لا يتعبون ولا يملون[4]، ولهذا فهم ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ﴾ وهذا كالبيان لقوله: ﴿وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ﴾ لأن من يحب أمرا، لا يتعب منه، ولا يتركه، ولا يمل منه، بل يواظب عليه[5] ليلاً ونهاراً، لا يلحقهم

---

[1] البحر المحيط لأبي حيان. (450/4).

[2] المصدر نفسه (450/4).

[3] تفسير القران العظيم لابن كثير (184/3).

[4] التسبيح في الكتاب والسنة د. محمد كندو. (274/1).

[5] تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور (36/17).

كلال ولا إعياء، ولا يشغلهم التسبيحُ عن تدبير ما وكلوا به من أمور الخلق[1].

ج - قوله تعالى: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ [فصلت: 38]. وهذه الآية في معنى الآيتين السابقتين فقوله تعالى ﴿لاَ يَسْأَمُونَ *﴾ كقوله تعالى: ﴿لاَ يَفْتُرُونَ﴾[2].

وجميع هذه الآيات دالّةٌ على قوة الملائكة وكمال حياتهم وشدة الداعي منهم إلى تسبيح الله تعالى وملازمته فلا يلحقهم فيه فتورٌ ولا سامةٌ ولا يشغلهم عنه شاغل[3].

2 - تسبيح حملة العرش والحافين من حوله من الملائكة:

أ - قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: 7]. ذكرَ اللهُ تعالى في هذه الآية صنفينِ من ملائكتهِ المسبحين بحمده وهما الملائكة الذين يحملون العرش والملائكة الذين يطوفون حول العرش ثم أخبرَ تعالى عنهم جميعاً بثلاثةِ أمورٍ:

الأول أنهم وهذا مدحٌ لهم بكثرة عبادتهم لله ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ وخصوصاً التسبيح والتحميد وسائر العبادات تدخلُ في تسبيح الله وتحميده لأنّها

(1) التسبيح في الكتاب والسنة (274/1).

(2) المصدر نفسه (275/1).

(3) مدارج السالكين لابن القيم (245/3).

تنزيهٌ له عن كون العبد يصرفها لغيره وحمد له بل الحمدُ هو العبادةُ لله تعالى[1].

الثاني أنهم أي يقرّون ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ وأنّه لا إله لهم سواه ويشهدون بذلك ولا يستكبرون عن عبادته[2].

الثالث أنهم أي يستغفرون للمؤمنين ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ ممّن آمنَ بالغيب وأقرّ بمثل إقرار الملائكة من توحيد الله تعالى والبراءة من كل معبود سواه[3]، وهذا من جملةِ فوائد الإيمان وفضائله الكثيرة أنّ الله تعالى قيّضَ ملائكته المقرّبين الذين لا ذنوبَ عليهم ليستغفروا لأهل الإيمان من البشر ويدعوا لهم بظهر الغيب فالمؤمنُ بإيمانه تسبّب بهذا الفضل العظيم[4].

وقوله تعالى هو بيانٌ لصفة دعائهم ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ وكذا الآيتان المذكورتان بعدهما وتخصيصُ هذين الصنفين من الملائكة بالذكر في الموضعين السابقين دليلٌ على ما لهما من شأن عظيم إذ اختارهم الله تعالى لحمل عرشه العظيم والطواف من حوله فلا شكَّ أنّهم من أكبر الملائكة وأعظمهم وأقواهم وأقربهم منه سبحانه وتعالى[5].

ب – قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: 75].

---

(1) التسبيح في الكتاب والسنة (279/1).

(2) تفسير الطبري (41/11)، التسبيح في الكتاب (279/1).

(3) تفسير ابن كثير (78/4).

(4) تيسير الكريم المنان للسعدي ص (732).

(5) التسبيح في الكتاب والسنة (280/1)، تفسير البغوي (139/7).

هذه الآية ذكرت بعد ذكر أحداث يوم القيامة وما يقع فيه من القضاء بين العباد وتوفية كل نفس ما عملت وإدخال أهل الجنة وأهل النار كُلاًّ في المحل الذي يستحقه ويليق به فقوله تعالى ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ﴾ أي في ذلك اليوم العظيم ﴿حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ أي محدقين محيطين بالعرش[1]﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي يمجدونه، ويعظمونه، ويقدسوه، وينزهونه عن الجور، وعن كل ما لا يليق بجلاله[2]، ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وهذا إخبار عن حمد الكون أجمعه ناطقه وبهيمه لله رب العالمين، عقيب قضائه بالحق بين الخلائق، ولهذا حذف فاعل الحمد في قوله: ﴿وَقِيلَ﴾ لإفادة العموم والإطلاق حتى لا يسمع إلا حامد لله تعالى من أوليائه ومن أعدائه، ومن جميع مخلوقاته[3]، كما قال الإمام الحسن البصري لقد دخلوا النار وإنَّ حمده لفي قلوبهم ما وجدوا عليه حجة ولا سبيلاً[4].

3 – تمدح الملائكة بتسبيحهم لله تعالى:

أ – قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 30] يتضمّنُ تمدحهم بتسبيحهم وتقديسهم لله

---

(1) تفسير القران العظيم لابن كثير (75/4).

(2) المصدر السابق (75/4).

(3) التسبيح في الكتاب والسنة (279/1).

(4) المصدر نفسه (279/1).

تعالى[1].

ب – وقال تعالى حكآيةً لقول الملائكة ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ۝ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: 165-166]. وفي هذا تمدّح بوقوفهم صفوفاً في السماء لعبادة الله تعالى وبتسبيحهم الله تعالى وقد أقسمَ الله تعالى بهم في قوله سبحانه ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ [الصافات: 1] فأمّا الصافاتُ فإنّها الملائكةُ الصافّات لربها في السماء[2]، وقولهم وقال ابن كثير في تفسير الآيتين أي نصطفُّ فنسبّحُ ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ ونمجدّه ونقدسه وننزهه عن النقائص فنحن عبيدٌ له فقراء إليه خاضعون لديه[3].

4 – تسبيح الملائكة لكلام الله تعالى وقضائه:

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال أخبرني رجلٌ من أصحاب النبي (ﷺ) من الأنصار أنّهم بينما هم جلوسٌ ليلةً مع رسول الله (ﷺ) رُمِيَ بنجمٍ فاستنار فقال لهم رسولُ اللهِ (ﷺ) «ماذا كنتم تقولون في الجاهلية إذا رُمِيَ بمثلِ هذا؟» قالوا الله ورسوله أعلم كنا نقولُ ولِدَ الليلةَ رجلٌ عظيمٌ وماتَ رجلٌ عظيمٌ فقال رسول الله (ﷺ) «فإنّها لا يُرْمَى بها لموتِ أحدٍ ولا لحياتِهِ ولكنَّ ربّنا تباركَ وتعالى اسمُه إذا قضى أمراً سبّح حملةُ العرشِ ثم سبّحَ أهلُ السماءِ الذين يلونهم حتّى يبلغَ التسبيحُ أهلَ هذه السماء الدنيا ثم قال لحملة العرش:

---

(1) التسبيح في الكتاب والسنة (277/1).

(2) التسبيح في الكتاب والسنة (277/1).

(3) تفسير القران العظيم (26/4).

ماذا قال ربُّكم؟ فيخبرونهم ماذا قال: قال فيستخبرُ بعضُ أهلِ السماوات بعضاً حتّى يبلغَ الخبرُ هذه السماء الدنيا فتخطفُ الجنُّ السمعَ فيقذفون إلى أوليائهم ويرمونَ به فما جاؤوا به على وجهه فهو حقٌّ ولكنّهم يقرفون فيه ويزيدون»[1].

فهذا الحديثُ يبيّن أنَّ الملائكةَ يسبّحون لله تعالى إذا قضى أمراً أي إذا تكلّم بأمره الذي قضاه مما يكون وفي ذلك إشارةٌ إلى أنّ هذا التسبيحَ للتنزيه والتعظيم والخضوع لكلام الله تعالى وقضائه بما شاء أن يكون من الأمور فإنّه سبحانه لا يقولُ إلا الحقّ ولا يقضي إلا بالحق[2].

وقد جاء تأكيدُ هذا المعنى في حديثٍ آخرَ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال إنّ نبيَّ الله (ﷺ) قال: «إذا قضى اللهُ الأمرَ في السماءِ ضَرَبَتْ الملائكةُ بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنّه سلسلةٌ على صفوان[3]، فإذا فُزِّعَ عن قلوبهم[4]، قالوا ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال الحقّ وهو العلي الكبير»[5]. وهذا كلُّه يبيّن أنّ لكلامِ الله تعالى بالقضاءِ أو الوحي وقعاً عظيماً على الملائكة يخرّون لذلك سجداً لله تعالى ويسبّحون تنزيهاً وتعظيماً وخضوعاً له سبحانه[6].

---

(1) مسلم رقم (2229) يقرفون: يخلطون فيه الكذب.

(2) التسبيح في الكتاب والسنة (282/1).

(3) الصفوان: الحجر الأملس.

(4) فزع عن قلوبهم: أي: أزيل عن قلوبهم الخوف.

(5) البخاري رقم (2229).

(6) التسبيح في الكتاب والسنة (282/1).

5 – افتتاح الملائكة في كلامها مع الله بالتسبيح:

ومن تسبيحِ الملائكةِ لله تعالى أيضاً أنّهم إذا تكلّموا معه سبحانه افتتحوا كلامهم بالتسبيح له وذلك في مقاماتٍ دلَّ عليها كتابُ الله تعالى ومن هذه المقامات:

أ – قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: 31-32]. هذا مقامُ بيّن الله تعالى فيه شرف آدمَ للملائكة بما فضّله به من علم أسماء كلِّ شيء من أصناف المخلوقات[1]، ثم عرض تعالى تلكَ الأشياء على الملائكة قائلاً وقد علم تعالى أنّه ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ علمَ لهم بذلك وإنّما سألهم ليريَهم عجزهم وأنّه قد خلق من خلقه مَنْ هُوَ أعلم منهم بتعليمه إياه[2]، فأجاب الملائكة قائلين أي تنزيهاً لك أن نعلمَ شيئاً إلا ﴿سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ علّمتنا إياه فإنّكَ أنتَ العليم بكلِّ شيءٍ من غير تعليم وأنتَ الحكيمُ في خلقك وأمرِك وفي تعليمك ما تشاء لمن تشاء، لكَ الحكمةُ العليا والعدلُ التام في ذلك[3].

والشاهِدُ أنهم بدأوا كلامَهم مع الله تعالى في هذا المقام بالتسبيح وهذا أدبٌ

---

(1) تفسير ابن كثير (76/1).

(2) التسبيح في الكتاب والسنة (283/1).

(3) المصدر نفسه (283/1).

منهم وتعظيمٌ لذي الجلال والإكرام والعظمة المطلقة[1].

ب – قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: 40-41].

وهذا تقريعٌ للمشركين يومَ القيامةِ على رؤوس الخلائق حين يحشرُهم الله تعالى جميعاً ثم يسألُ الملائكةَ الذين كان هؤلاء المشركون يتّخذونهم الهة من دون الله فيقول تعالى للملائكة ﴿أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ أي أنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم[2]، فيجيب الملائكة متبرئين من عبادة المشركين: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ﴾ [سبأ: 41] افتتحوا جوابهم بالتسبيح لله تعالى، أي : تنزيها لك أن يكون معك شريك في العبادة، فنحن عبيدك، مفتقرون إلى ولايتك، فلا نتخذ وليا من دونك، ونبرأُ إليك من هؤلاء المشركين[3].

وهذا يعني أنّ الملائكة لم يأمروهم بذلك وحاشاهم وإنّما أمرَهمُ بذلك الشياطينُ من الجن[4]، ولهذا قالوا ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [5].

---

(1) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور (413/1).

(2) تفسير القران العظيم (550/3).

(3) تفسير الطبري (382/10).

(4) التسبيح في الكتاب والسنة (284/1).

(5) المصدر نفسه (284/1).

6 – حال الملائكة في تسبيحهم لله تعالى:

وممّا يبيّن حالَ الملائكة في تسبيحهم لله تعالى قوله عز وجل ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الشورى: 5] ، ومعنى ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾ أي : قاربتِ السماواتُ على عِظَمِها وكونها جماداً أن يتشققن ويتصدّعن[1]، ومعنى ﴿فوقهن﴾ أي: كلّ سماءٍ تتفطر فوقَ التي تليها[2].

وللعلماء في سبب مقاربة السماوات للتفطر في هذه الآية وجهان كلاهما يدلُّ له قرآنٌ: الوجه الأول: أنّ المعنى خوفاً من الله تعالى وهيبة ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾ ويدلُّ لهذا الوجه قوله تعالى قبله ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ *﴾ لأنّ علوَّه عزّ وجل وعظمته سَبَّبَ للسماواتِ ذلك الخوف والهيبة والإجلال حتّى كادتْ تتفطّر وعلى هذا الوجه فقوله بعده مناسبتُه لما قبله ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ لأنّ المعنى أنّ السماواتِ في غاية الخوفِ منه تعالى والهيبةِ والإجلال له وكذلك سكّانها من الملائكةِ فهم يسبّحون بحمد ربهم أي ينزّهونه عن كلِّ ما لا يليقُ بكماله وجلاله مع إثباتهم له كُلَّ كمالٍ وجلالٍ خوفاً منه وهيبةً وإجلالاً.

الوجه الثاني: أن المعنى من شدّةِ عِظَمِ الفريةِ التي افتراها الكفّار على خالق السماوات والأرض جلا ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾ من كونه اتّخذَ ولداً سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً وهذا الوجهُ جاءَ موضَّحاً في قوله تعالى:

---

[1] أضواء البيان للشنقيطي (413/4).

[2] أضواء البيان (414/4)، التسبيح في الكتاب والسنة (287/1).

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۝ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۝ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۝ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۝ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: 88-93].

وغاية ما في هذا الوجه أنَّ آيةَ الشورى هذه فيها إجمالٌ في سبب تفطّر السماوات وقد جاءَ ذلك موضَّحاً في آية مريمَ المذكورة وعليه فمناسبة قوله تعالى لما قبله أنّ الكفار وإن قالوا أعظمَ الكفرِ ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ فإنَّ الملائكة بخلافهم فإنّهم يداومون على ذكرِ الله وطاعته كما قال تعالى: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ [فصلت: 38].

وكلا الوجهينِ المذكورينِ حقٌّ غير أنَّ الوجه الأول هو المقصودُ هنا فمنه يتبيّن حالُ الملائكةِ في تسبيحهم لله تعالى أنّهم لشدة خوفهم من الله وهيبتهم وإجلالهم له يسبّحون بحمده على الدوام بلا انقطاع وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة لخصوصِ الذين امنوا ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾[الشورى: 5] كما أوضحه الله بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: 7] وقوله تعالى في ختام الآية أكّدَ فيه أنّه هو وحدَه المختصّ بغفران ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الشورى: 5] وإيجادِ الرحمات، وذلك بذكرِ حرف الاستفتاح (ألا) وحرف التوكيد (إن) المقتفين للتوكيد

وضمير الفصل (هو) المقتفي للحصر[1]، وبجميع ما سبقَ ذِكْرُه في هذا المطلبِ من الآيات والأحاديث والاثار يتجلّى مقامُ الملائكة في التسبيحِ، وأنّهم في هذه العبادة العظيمة متميّزون عن غيرهم من العالمين[2].

ثالثاً دعاء الملائكة للمؤمنين:

دلّتِ النصوصُ من الكتاب والسنة على دعاءِ الملائكة للمؤمنين وهو إمّا دعاءٌ عام أو دعاءٌ خاصٌّ بسبب أفعالٍ صالحةِ مخصوصةٍ.

فمن دعائهم العام قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: 43]. قال ابن كثير وأمّا الصلاةُ من الملائكةِ فبمعنى الدعاءِ للناس والاستغفار[3].

وأمّا دعاؤهم الخاص فقد وردت نصوصٌ تدلُّ على دعائهم بالخير لمن عَمِلَ بعضَ الأعمال الخاصة فمن ذلك:

1 – دعاؤهم لطالب العلم ومعلمه:

قال رسول الله (ﷺ) «مَنْ سلكَ طريقاً يطلبُ فيه عِلْماً سلكَ اللهُ بِهِ طريقاً مِنْ طُرُقِ الجنّةِ وإنَّ الملائكةَ لتضعُ أجنحتَها لطالِب العلمِ رِضاً بما يصنعُ وإنَّ فضلَ

(1) التسبيح في الكتاب والسنة (289/1).
(2) المصدر نفسه (289/1).
(3) تفسير ابن كثير (496/3).

العالِمِ على العابدِ كفضلِ القمرِ ليلةَ البدرِ على سائرِ الكواكبِ وإنَّ العالِمَ ليستغفِرُ له مَنْ في السماواتِ ومَنْ في الأرضِ حتّى الحيتانُ في جوفِ البحر وإنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياءِ وإنَّ الأنبياءَ لم يورّثوا ديناراً ولا درهماً وورّثوا العلمَ فَمَنْ أخذَه فقد أخذَه بحظٍّ وافرٍ»[1].

وقال رسول الله (ﷺ) «إنّ اللهَ وملائكتَه وأهلَ السماواتِ والأرضِ حتَّى النملة في جحرِها وحتّى الحوت ليصلّون على مُعلِّم الناسِ الخَير»[2].

2 – الدعاء لمنتظر الصلاة ولمن جلس في المسجد بعد الصلاة:

قال رسولُ اللهِ (ﷺ) «لا يزالُ العبدُ في صلاةٍ ما كانَ في مُصَلاّه ينتظِرُ الصلاة وتقولُ الملائكةُ اللهمَّ اغفرْ له اللهمَّ ارحَمْهُ حتّى ينصرفَ أو يحدثَ»[3].

3 – دعاؤهم للذين يَصِلُوْنَ الصفوفَ ويسدّون الفُرَجَ:

قال رسول الله (ﷺ) «إن اللهَ وملائكتَه يصلّون على الّذين يصلونَ الصفوفَ ومَنْ سدَّ فرجةً رفعه الله بها درجةً»[4].

4 – دعاؤهم لأهل الصفوف المتقدمة في الصلاة:

قال رسولُ اللهِ (ﷺ) «ألا تصفّون كما تصفّ الملائكةُ عندَ ربِّها؟»

قالوا يا رسول الله وكيفَ تصفُّ الملائكةُ عند ربها؟

[1] صحيح جامع بيان العلم لأبي الأشبال الزهيري رقم (61) وانظر الترغيب والترهيب (106).

[2] صحيح جامع بيان العلم لأبي الأشبال الزهيري رقم (65).

[3] مسلم (449/1 . 450).

[4] صحيح الجامع للألباني رقم (1839).

قال «يتمُّونَ الصفوفَ ويتراصُّون في الصفِّ»[1].

5 – دعاؤهم للمنفق مالَه في سبيل الله:

قال رسولُ اللهِ (ﷺ) «ما مِنْ يومٍ يُصْبِحُ العبادُ فيه إلاّ ملكانِ ينزلانِ فيقولُ أحدُهما اللهمَّ أعطِ مُنْفِقاً خَلَفاً ويقولُ الاخَرُ اللهمَّ أعطِ مُمْسِكاً تلفاً»[2].

6 – دعاؤهم لمن صلّى على النبي (ﷺ):

قال رسولُ اللهِ (ﷺ) «ما مِنْ مسلمٍ يصلِّي عليَّ إلاّ صَلَّتْ عليه الملائكةُ ما صَلَّى عليّ فَلْيُقَلِّلْ العبدُ مِنْ ذلكَ أو يُكْثِرْ»[3].

7 – دعاؤهم للمتسحرين:

قال رسولُ اللهِ (ﷺ) «إنّ اللهَ وملائكتَه يصلّون على المتسحّرينَ»[4].

8 – دعاؤهم للصائم إذا أكل عنده المفطرون:

عن أُمّ عمارةَ ابنة كعبٍ الأنصارية أنَّ النبيَّ (ﷺ) دخلَ عليها فقدّمتْ إليه طعاماً فقال «كلي» فقالت إِنِّي صائمةٌ فقال رسولُ اللهِ (ﷺ): «إنّ الصائمَ تُصَلِّي عليه الملائكةُ إذا أُكِلَ عندَه حتّى يَفْرَغُوا وربما حتّى يَشْبَعُوا»[5].

9 – تأمينُهم على دعاءِ مَنْ حضرَ عند المريض أو الميت:

فعن أُمّ سلمةَ رضي الله عنها قالت: قال رسول الله (ﷺ): «إذا حضرتُمُ

(1) مسلم رقم (430).

(2) البخاري رقم (1442).

(3) صحيح الجامع رقم (5620).

(4) سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (1654).

(5) جامع الترمذي رقم (782).

المريضَ أو الميّتَ فقولوا خيراً فإنَّ الملائكةَ يؤمّنونَ على ما تقولون»[1].

10 – تأمينُهم على دعاء مَنْ يدعو لأخيه المسلم:

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): «ما مِنْ مُسْلِمٍ يدعو لأخيه بظهرِ الغَيْبِ إلاّ قالَ الملَكُ ولَكَ مِثْلُه»[2].

11 – دعاؤهم بالسلام على جنبتي الصراط:

عن أبي سعيدٍ الخُدري رضي الله عنه قال ذكرَ رسولُ اللهِ (ﷺ) الشفاعةَ فقال «إنَّ الناسَ يُعْرَضُوْنَ على جِسْرِ جهنَّم وعليه حَسَكٌ وكلاليبُ يخطفُ الناسَ ويجنبتيه الملائكةُ يقولون الهمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ»[3].

رابعاً دعاءُ الملائكةِ على الكفّار وعلى أقوامٍ بسبب أعمالٍ سيئةٍ:

وكما يدعو الملائكةُ للمؤمنين ويصلِّون عليهم ويستغفرُون لهم فإنّهم يبغضون الكفّار ويلعنُونهم وينْزِلُون من السماءِ لعقابهم ويكونُون عوناً للمؤمنين عليهم كما وقع في غزواتِ النبيِّ (ﷺ) والنصوصُ من الكتابِ والسنةِ كثيرةٌ في هذا الموضوع[4].

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ

---

(1) مسلم رقم (919).

(2) مسلم رقم (2732).

(3) رواه الإمام أحمد في مسنده (26/3) إسناده صحيح.

(4) في الملائكة المقربين ص (114).

وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: 161] ، وقال تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [آل عمران: 86-87] وهذا اللعنُ من الملائكةِ – والعياذ بالله – يصحبُ صاحبَه إلى يومِ القيامةِ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ۝ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [هود: 18-19]. والأَشْهَادُ هنا همُ الملائكة وقيل همُ الملائكةُ والأنبياءُ والرسلُ وسائرُ البشر والجان والشاهِدُ أنَّ الملائكة يلعنون الكفرةَ يومَ القيامةِ والعياذ بالله[1].

قال القرطبي الأشهادُ الملائكةُ الحفظةُ وذكر ذلك عن مجاهدٍ والأعمشَ وغيرهما[2].

وهم كذلك يلعنون أهلَ النارِ يومَ القيامة بعد تقريعِ أهلِ الجنّة لهم كما قال تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: 44]. قال القرطبي أي نادى مؤذن من الملائكة[3].

---

(1) في الملائكة المقربين ص (114).

(2) تفسير القرطبي ص (18/9).

(3) المصدر نفسه (209/7).

وقد ورد كذلك أنّ الملائكة يدعون بالعذابِ والغضبِ على أقوامٍ بسبب أعمال سيئة فمن ذلك:

1 – دعاؤهم على المُحْدِثِ في المدينة:

عن أنس رضي الله عنه عن النبيِّ (ﷺ) قال «المدينةُ حَرَمٌ من كذا إلى كذا لا يُقْطَعُ شجرُها ولا يُحدَثُ فيها حدثٌ ومَنْ أَحْدَثَ فيها حَدَثاً فعليه لعنةُ اللهِ والملائكةِ والناسِ أجمعينَ»[1].

وقال رسول الله (ﷺ) «المدينةُ حرمٌ فمن أحدثَ فيها حدثاً أو اوى مُحْدِثاً فعليه لعنةُ اللهِ والملائكةِ والناسِ أجمعين لا يقبلُ منه يومَ القيامةِ عدلٌ[2] ولا صَرْفٌ»[3].

والحدث الأمرُ المنكر الذي ليس بمعتادٍ ولا معروفٍ في السنة، والمحدث يروى بكسر الدال وفتحها على الفاعل والمفعول فمعنى الكسر مَنْ نصره أو اواه وأجاره من خصمه وحال بينه وبين أن يُقْتَصَّ منه والفتح هو الأمرُ المبتدَعُ نفسُه ويكونُ معى الإيواء فيه الرضا والصبر عليه فإنّه من رضيَ بالبدعةِ وأقرّ فاعِلَها ولم ينكر عليه فقد اواه وفيه الحديثُ «إيّاكُمْ وَمُحْدَثاتُ الأمورِ» جمع مُحْدَثَةٌ بالفتح وهي ما لم يكنْ معروفاً في كتابٍ ولا سنةٍ ولا إجماعٍ[4].

---

(1) البخاري رقم (1768) مسلم رقم (1366).

(2) العدل: القربة وقيل الفريضة، والصرف: التوبة أو النافلة.

(3) مسلم رقم (1366).

(4) النهاية لابن الأثير (351/1).

2 – لعنهم من سَبَّ أصحاب النبي (ﷺ):

قال رسول الله (ﷺ) «مَنْ سبَّ أصحابي فعليه لعنةُ اللهِ والملائكةِ والناسِ أجمعين»[1].

3 – لعنُهم من أشارَ بالسلاحِ على مسلمٍ:

قال رسول الله (ﷺ) «من أشارَ إلى أخيهِ بحديدةٍ فإنّ الملائكةَ تلعنُهُ حتّى وإنْ كانَ أخاه لأبيه وأُمْه»[2].

وقال رسول الله (ﷺ) «لا يُشِرُ أحدُكم إلى أخيه بالسّلاحِ فإنّه لا يدري أحدُكم لعلَّ الشيطانَ ينزعُ في يدهِ فيقعُ في حفرةٍ من النارِ»[3].

4 – لعنهم من انتسبَ إلى غير أبيه أو تولّى غيرَ مواليه

قال رسول الله (ﷺ) «من انتسبَ إلى غيرِ أبيه أو تولّى غيرَ مواليه فعليه لعنةُ اللهِ والملائكةِ والناسِ أجمعين»[4] وقال رسول الله (ﷺ) «مَنْ تولّى قوماً بغيرِ إذنِ مواليه فعليه لعنةُ اللهِ والملائكةِ والناسِ أجمعينَ لا يقبلُ منه يومَ القيامةِ عدلٌ ولا صرفٌ»[5].

5 – لعنهم مَنْ حال بين ولي المقتول وبين القاتل أو الدية:

قال رسول الله (ﷺ) «مَنْ قُتِلَ في عميةٍ أو عصبيةٍ أو سوطٍ أو عصاً فعليه

[1] المعجم الكبير للطبراني رقم (12709) إسناده حسن.
[2] مسلم رقم (2161).
[3] مسلم رقم (2617).
[4] سنن ابن ماجه، رقم (2609) صححه الألباني.
[5] مسلم رقم (1508).

عَقْلُ الخطأ ومَنْ قتلَ عمداً فهو قَوَدٌ ومن حالَ بينه وبينه فعليه لعنةُ اللهِ والملائكةِ والناسِ أجمعينَ؛ لا يقبلُ اللهُ منه صَرْفاً ولا عَدْلاً»[1].

6 – لعنُهم المرأةَ التي تهجرُ فراشَ زوجها:

قال رسول الله (ﷺ) «إذا دَعَا الرجلُ امرأتَهُ إلى فراشِهِ فأبتْ أن تجيءَ لعنتْها الملائكةُ حتّى تصبحَ»[2].

7 – تركهم الصلاةَ على النائحةِ:

قال رسول الله (ﷺ) «لا تصلّي الملائكةُ على النائحةِ ولا على مُرِنّةِ»[3].

خامساً ولاءُ الملائكةِ للمؤمنين:

1. فمن ذلك استغفارُ الملائكةِ ودعاؤهم للمؤمنين قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [غافر: 7-9].

2 – وتقوم بتبشير المؤمنينَ بالجنّةِ في الدنيا عند موتهم والسلام عليهم في الاخرة

---

(1) صحيح الجامع رقم (6326).

(2) البخاري رقم (4897).

(3) مرنة: الصائحة على الميت، نقلاً عن الإمام أحمد في مسنده (362/2) إسناده حسن.

عند دخولهم الجنة.

فأمّا في الدنيا فكما قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾[فصلت: 30]. فيخبر الله تعالى بأنّ الملائكة تنزلُ على المؤمنين الصادقين عند الموت تقول لا تخافوا مما تُقدموا عليه من أمرِ الاخرة ولا تحزنوا على ما خلّفتموه من أمر الدنيا من ولدٍ وأهلٍ ومالٍ أو دَيْنٍ فإنا نخلفكم فيه كما يبشّرونهم بالجنة التي وعدوا بها[1].

وأما في الاخرة فكما قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: 73].

3. ومن مظاهر ولاء الملائكة لأهل طاعة الله تعالى نصرتُهم وتأييدُهم للمؤمنين في القتال وقد حدثَ ذلك في بعضِ غزوات النبيّ (ﷺ) فقال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: 12].

سادساً براءةُ الملائكةِ من أهلِ الكبائرِ والمعاصي وبغضهمُ لأئمةِ الكفر:

وأمّا عن براءتهم من أهل الكبائر والمعاصي فيظهرُ ذلك كثيراً في آيات

---

(1) عبودية الكائنات لرب العالمين ص (360).

القرآن الكريم والأحاديث الشريفة وأوّل هؤلاء هم أهل الكفر والشرك لأنّه أكبر الكبائر قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: 161]. ففرعون عليه لعنة الله لما تجرَّأ على مقام الألوهية واستكبر على مقام العبودية وقال أنا ربكم الأعلى كان جبريلُ عليه السلام يسارِعُ في إهلاكه وهو يغرقُ حتّى لا تدركه رحمة الله تعالى حيث قال امنتُ بالذي امنتْ به بنو إسرائيل فظنَّ جبريل عليه السلام أنّ هذا سينفعُه فكان يسارعُ في إدخال حمأ البحر إلى فم فرعونَ ليعجّل بهلاكه وذلك لأنّ فرعونَ قد تجرّأَ على الله ففي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنه أنّ جبريلَ عليه السلام قال للنبيِّ (ﷺ) «لو رأيتَني وأنا اخذُ مِنْ حمأَ البحرِ فأدسُّه في فرعون مخافةَ أَنْ تدرِكَه الرحمةُ»[1].

وكذا موقفهم عليهم السلام مع النبيِّ (ﷺ) لما أرادَ أبو جهل أن يقتربَ من النبيِّ (ﷺ) كي يقتلَه فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال أبو جهلٍ هل يعفّرُ محمَّدٌ وجهه بين أظهركم؟ فقيل نعم، فقال واللاتِ والعُزّى لئن رأيتُه يفعلُ ذلك لأطأنَّ على رقبته، فأتى رسولَ الله (ﷺ) وهو يصلّي زعمَ ليطأ على رقبته فما فاجأهم مِنْهُ إلا وهو يركضُ على عقبيه، ويتّقي بيديه، وقيل له مالك؟ فقال إنّ بيني وبينه لخندقاً من نارٍ، وهولاً وأجنحةً، وقال رسول الله (ﷺ) «لو دنا مني لاختطفته الملائكةُ عضواً عضواً»[2].

---

(1) صحيح الجامع رقم (4229).

(2) مسلم رقم (1539).

سابعاً : الملائكة يقومون بامتهان الكفار وذلك بضرب وجوههم وأدبارهم عند موتهم[1]:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: 50].

ثامناً : الملائكة يتحدّثون إلى عصاة المسلمين وإلى الكفار:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ [النساء: 97].

وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[الزمر: 71].

وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۞ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ [الملك: 8-9].

تاسعاً : خوفهم من الله له وخشيتهم له:

[1] عبودية الكائنات برب العالمين ص (364).

وعن وجلهم وخوفهم من الله تعالى يقول عز وجل عنهم: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: 49-50].

وفي «معجم الطبراني الأوسط» بإسنادٍ حسنٍ عن جابرٍ رضي الله عنه أنّ رسول الله (ﷺ) قال «مررتُ ليلةَ أسريَ بي بالملأ الأعلى وجبريلُ كالحِلْسِ[1] البالي مِنْ خشيةِ الله تعالى»[2].

عاشراً : حضورهم مجالس الذكر وخطبة يوم الجمعة:

قال رسول الله (ﷺ) «إن للهِ تبارك وتعالى ملائكةٌ سيارةٌ يتبعون مجالسَ الذكر فإذا وجدوا مجلساً فيه ذكرٌ قعدوا معهم وحَفَّ بعضُهم بعضاً بأجنحتهم حتى يملأوا ما بينهم وبين السماء الدنيا فإذا تفرّقوا عرجوا وصعدوا إلى السماء قال فيسألهم الله عزّ وجلّ وهو أعلمُ بهم من أين جئتم؟ فيقولون جئنا من عندِ عبادٍ لك في الأرضِ يسبّحونك ويكبّرونك ويهللونك ويَحْمدونك ويسألونك قال وماذا يسألوني؟ قالوا يسألونك جنّتكَ قال وهل رأَوْا جنّتي قالوا لا ياربِّ فقال فكيفَ لو رأَوْا جنّتي؟ قالوا يستجيرونك؟ قال ومِمَّ يستجيرونني؟ قالوا مِنْ نارِكَ يا ربِّ قال وهل رأوا ناري؟ قالوا لا قال فكيفَ لو رأَوْا ناري؟ قالوا يستغفرونك قال فيقول قد غفرتُ لهم فأعطيتُهم ما سألوا وأجرتهم مما استجاروا قال فيقولون ربِّ

---

[1] الحلس: كساء يبسط في أرض البيت.

[2] صحيح الجامع (206/5).

فيهم فلانٌ عبدٌ خطّاءٌ إنّما مرَّ فجلسَ معهم قال فيقول وَلَهُ غفرتُ همُ القومُ لا يشقى بهم جليسُهم»[1].

وقال رسولُ اللهِ (ﷺ) «إذا كانَ يومُ الجمعةِ كان على كلِّ بابٍ من أبوابِ المسجدِ ملائكةٌ يكتبون الأوّلَ فالأوّلَ فإذا جلسَ الإمامُ طووا الصحفَ وجاءوا يستمعون الذكر»[2].

حادي عشر: حضورهم الصلوات في المساجد وقولُهم ما يقولُ المأموم:

قال رسول الله (ﷺ) «يتعاقبونَ فيكم ملائكةٌ بالليلِ وملائكةٌ بالنهارِ ويجتمعون في صلاةِ الفجرِ وصلاةِ العصرِ، ثم يعرجُ الذين باتوا فيكم، فيسألُهم ربُّهم – وهو أعلمُ بهم – كيف تركتُم عبادي؟ فيقولون تركناهم وَهُمْ يصلّون، وأتيناهم وهم يصلون»[3].

وقال رسول الله (ﷺ): «إذا أمَّن الإمامُ فأَمِّنوا فإنّه مَنْ وافقَ تأمينُه تأمينَ الملائكةِ غُفِرَ له ما تقدّم من ذنبه» قال ابنُ شهابٍ وكان رسول الله (ﷺ) يقول «آمين»[4]. وقال رسول الله (ﷺ): «إذا قالَ الإمامُ سمعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَه فقولوا اللهمَّ ربّنا لكَ الحمدُ فإنَّه مَنْ وافقَ قولُه قولَ الملائكةِ غُفِرَ له ما تقدّم من ذنبه»[5].

---

[1] البخاري رقم (6045).
[2] فتح الباري على صحيح البخاري (207/2).
[3] مسلم رقم (633).
[4] مسلم (307/1).
[5] مسلم رقم (409).

ثاني عشر: صلاة الملائكة:

الصلاةُ من الملائكةِ منها ما هي متعلّقةٌ بالأذكار وهي بمعنى الدعاءِ كصلاتهم على النبي (ﷺ) قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 56]. وكصلاتهم علينا بمعنى الدعاء للناس والاستغفار لهم.

ومنها صلاةٌ خاصّةٌ بهم عند البيت المعمور كما ورد ذلك في حديثِ رسولِ الله (ﷺ) حيثُ قال «فَرُفِعَ لِيَ البيتُ المعمورُ فسألتُ جبريلَ فقال هذا البيتُ المعمورُ يصلِّي فيه كلَّ يومٍ سبعون ألفَ مَلَكٍ إذا خرجوا لم يعودوا اخر ما عليهم»[1]. وعباداتُ الملائكةِ كثيرةٌ لعلّنا لم نعرفْ منها إلا القليل وقد وردَ في النصوصِ أنَّ للملائكة عباداتٌ تشبه بعض أجزاء صلاتنا المشروعة لنا ومن هيئاتِ هذه العبادات.

1 – القيام والاصطفاف:

قال تعالى: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ۝ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ [الصافات: 164-165].

وعن حُذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ) «فُضِّلْنا على الناسِ بثلاثٍ جُعِلَتْ صفوفنا كصفوفِ الملائكةِ وجُعِلَتْ لنا الأرضُ مسجداً وطهوراً

---

(1) مسلم رقم (162).

وجُعِلَتْ تربتُنا لنا طهوراً إذا لم نجدْ الماءَ» وذكر خصلةً أخرى[1].

2 – الركوع والسجود:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: 206].

وقد جاء في السنة كذلك وصفُ الملائكةِ بالركوع والسجود فمن ذلك حديثُ أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ) «أَطَّتِ السماءُ وحُقَّ لها أَنْ تَئِطَّ ما فيها موضعُ أربعِ أصابعَ إلاّ ومَلَكٌ واضعٌ جبهته ساجداً لله واللهِ لو تعلمونَ ما أعلمُ لضحكتُم قليلاً ولبكيتُم كثيراً»[2].

ثالث عشر: سلام الملائكة:

دّلتِ النصوصُ على تسليمِ الملائكةِ على بني آدم ومن ذلك تسليمُهم على المؤمنينَ في سكراتِ الموتِ كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 32]. أخبر تعالى عن حال المؤمنين عند الاحتضارِ أنّهم طيبون أي مُخْلَصُون من الشركِ والدنسِ وكلِّ سوءٍ وأنَّ الملائكةَ تسلِّم عليهم وتبشّرُهم بالجنة[3].

والملائكة كذلك تسلِّم على أهلِ الجنةِ بعد فتح أبوابها.

---

(1) مسلم رقم (522).

(2) سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (1060).

(3) تفسير ابن كثير (568/2).

قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: 73].

والملائكةُ تدخلُ على أهلِ الجنّةِ من كلّ بابٍ وتسلِّمُ عليهم قال تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: 23-24][1].

* * *

---

(1) في الملائكة المقربين د. محمد عقيل ص (134).

الفصل الخامس

أعمال الملائكة

أولاً – أعمال الملائكة المتعلقة ببني آدم

ثانياً – أعمال الملائكة المتعلقة بالكون

ثالثاً – قيامهم بأعمال أخرى

الفصل الخامس :

أعمال الملائكة

للملائكةِ أعمالٌ مكلّفون بها بعضُها يتعلّق بالإنسانِ بَدْءاً بمولده وحتى اخر مراحل حياته الأخروية وأُخرى تتّصلُ بالكونِ وما فيه من أحداثٍ ووقائعَ.

أولاً – أعمال الملائكة المتعلقة ببني آدم:

للملائكةِ صلةٌ بالإنسانِ قبل مولده وأثناء حياته الدنيا وفي حياته البرزخية وفي الحياة الاخرة ولهم في كلٍّ من تلك المراحل أعمالٌ يقومون بها.

ومن تلك الأعمال مايلي[1]:

1 – نفخ الأرواح في الأجنة وكتابةُ مستقبل تلك الأجنة من حيث أعمالها واجالها وأرزاقها وسعادتها وشقاوتها كلُّ ذلك والأجنةُ في بطون أمهاتها[2]

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً

---

[1] العقيدة الإسلامية د. أحمد محمد جلي ص (173).

[2] المصدر نفسه ص (173).

فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: 5].

هذه هي أطوار الإنسان التي مرّ بها في حياته منذُ خُلْقَ أبيه آدم من ترابٍ إلى خَلْقِهِ هو من ماءٍ مهين ومنذ أن نزلَ في رحمِ أُمه نطفةً إلى أن تطور فصار علقةً ثم مضغةً وهو في هذا كلِّه ضعيفٌ جداً لولا حفظ الله له لهلك مُنذُ كان نطفةً، ولكنّ الله عزّ وجلَ رحِمَه وحماه ووكّلَ به ملكاً يحوطه ويرعاه وهو لا يقدِرُ على شيءٍ من أمر نفسه ولا يدري أحيٌّ هو أم ميت أذكر هو أم أنثى أشقي أم سعيد[1].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال حدّثنا رسول الله (ﷺ) وهو الصادقُ المصدوقُ قال «إنَّ أحدَكم يُجْمَعُ في بطنِ أمهِ أربعينَ يوماً نطفةً ثم علقةً مثل ذلك ثم يكونُ مضغةً مثل ذلك ثم يبعثُ الله ملَكاً فيؤمرُ بأربعةٍ برزقِهِ وأجلهِ وعملهِ وشقيّ أم سعيد ثم ينفخُ فيه الروحَ فواللهِ إنَّ أحدَكم أو الرجلَ ليعملُ بعملِ أهلِ النّار حتّى ما يكونَ بينه وبينها غيرُ ذارعٍ أو باعٍ فيسبقُ عليه الكتابُ فيعملُ بعملِ أهلِ الجنّةِ فيدخلَها وإنَّ الرجلَ ليعملُ بعملِ أهلِ الجنةِ حتّى ما يكونَ بينه وبينها غيرُ ذراعٍ أو ذراعين فيسبقُ عليه الكتابُ فيعملُ بعملِ أهلِ النارِ فيدخلَها»[2].

2 – مراقبتهم الإنسان وكتابة أعماله وإحصاؤهم عليه:

قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ

---

(1) في الملائكة المقربين ص (186).

(2) البخاري، رقم (6594).

يَكْتُبُونَ﴾[الزخرف: 80] وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: 10-12].

وقد أجمع السلفُ الصالحُ على أنّ الذي عن يمينه يكتبُ الحسناتِ والذي عن شماله يكتبُ السيئاتِ[1]، قال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: 17-18]. إذ يتلقّى ويأخذ الملكان الموكلان بالإنسان عمله ومنطقه يحفظانه ويكتبانه ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ ﴾ أي أحدهما عن يمينه والاخر عن شماله فالذي عن يمينه يكتبُ الحسناتِ والذي عن شماله يكتبُ السيئاتِ[2].

قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس: 21]. وقال تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ [الجاثية: 29-30].

وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ۝ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: 13-14].

فهذه النصوصُ وغيرُها تدل على أنَّ الكرامَ الكاتبين من الملائكةِ ملازمونَ للإنسانِ ليله ونهاره وأنّهم يكتبون أقواله وأعماله القلبية والظاهرة كتابةً حقيقيةً في

---

(1) جامع العلوم والحكم لابن رجب (336/1).

(2) معالم التنزيل للبغوي (222/4).

كتب حقيقية[1].

والحكمةُ من كتابة الأعمال مع علم الله بكلِّ ما يقع؛ إظهارُ عدلِ اللهِ عزّ وجلّ وإقامةٌ للحجة القاطعة لكلِّ شبهةٍ قد يتذرعُ بها العاصي يوم القيامة.

وقد جاء في الحديث الصحيح عن سعدِ بن عُبادة رضي الله عنه قال لو رأيتُ رجلاً مع امرأتي لضربتُه بالسيفِ غيرَ مصفحٍ فبلغَ ذلك رسول الله (ﷺ) فقال «أتعجبونَ مِنْ غيرةِ سعدٍ والله لأنا أغيرُ منه والله أغيرُ منّي ومن أجلِ غَيرةِ اللهِ حرّمَ الفواحشَ ما ظهرَ منها وما بطنَ ولا أحدَ أحبُّ إليه العذرُ من اللهِ ومن أجلِ ذلك بعثَ المبشّرين والمنذرين ولا أحدَ أحبُّ إليه المدحةُ من اللهِ ومن أجلِ ذلكَ وعدَ الله الجنة»[2].

ولذلك يؤمر الإنسان بقراءة كتابه ومحاسبة نفسه يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: 14].

قال الحسن البصري يا بنَ آدم بُسِطَتْ لك صحيفتك ووُكِّلَ بك ملكانِ كريمانِ أحدُهما عن يمينكَ والآخرُ عن شِمالك فأمّا الذي عن يمينك فيحفظُ حسناتك وأمّا الذي عن شِمالك فيحفظُ سيئاتك فاعملْ ما شئتَ أَقْلِلْ أو أَكْثِرْ حتّى إذا مِتَّ طُويتْ صحيفتُك فجُعِلتْ في عنقِكَ معك في قبرِكَ حتى تخرجَ يومَ القيامة كتاباً تلقاه منشوراً اقرأ كتابك فقد عدل واللهِ من جعلك حسيبَ

---

[1] في الملائكة المقربين ص(167).

[2] مسلم رقم (1499).



نفسِكَ[1].

وفي حديثِ صاحبِ البطاقة المشهور قال رسول الله (ﷺ) «إنّ الله يستخلِصُ رجلاً من أُمتي على رؤوسِ الخلائقِ يومَ القيامةِ فينشرُ عليه تسعةً وتسعينَ سجلاً لكلِّ سجلٍ مدّ البصرِ ثم يقول له أتنكِرُ مِنْ هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ قال لا يا رب؟ فيقول ألكَ عذرٌ أو حسنةٌ؟ فيبهتُ الرجلُ فيقول لا يا رب؟ فيقول بلى إنَّ لك عندنا حسنةً واحدةً لا ظلمَ اليومَ عليكَ فتخرجُ بطاقةٌ فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله فيقول أحضروه فيقول يا ربِّ ما هذه البطاقة مع هذه السجّلات؟ فيقال إنّكَ لا تُظلم قال فتوضعُ السجلاّت في كِفّةٍ قال فطاشتِ السجلاّتُ وثقلتِ البطاقةُ ولا يثقل شيءٌ بسم الله الرحمن الرحيم»[2].

أ – ماذا تكتب الملائكة؟

الذي دلّت عليه النصوصُ أنّ الملائكةَ تكتبُ كلَّ ما صدر عن الإنسانِ من أقوالٍ وأعمالٍ ظاهرةٍ وباطنةٍ كتابةً تفصيليةً لا إجماليةً:

قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ۝ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾

[القمر: 52-53].

وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا

---

[1] تفسير ابن جرير (159/26) في الملائكة المقربين ص 168.

[2] الترمذي (2641) وقال: حديث حسن غريب.

وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: 49].

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: 120-121].

وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: 7-8].

وقال رسول الله (ﷺ) «من توضّأَ فأحسنَ الوُضوءَ ثم خرجَ عامداً إلى الصلاةِ فإنّه في صلاةٍ ما كان يعمَدُ إلى الصلاةِ وإنّهُ يُكْتَبُ له بإحدى خطوتيه حسنةٌ ويمحى عنه بالأُخرى سيئةٌ فإذا سمعَ أحدُكم الإقامةَ فلا يُسْرِعْ فإنَّ أعظمَكم أجراً أبعدُكم داراً» قالوا لم يا أبا هريرة؟ قال من أجل كثرةِ الخطأ[1].

وعن جابر بن عبد الله قال خَلَتِ البقاعُ حول المسجد فأرادَ بنو سَلِمة أن ينتقلوا قربَ المسجدِ فبلغ ذلك النبيَّ (ﷺ) فقال لهم «بلغني أنّم تريدونَ أن تنتقلوا قربَ المسجدِ»؟

(1) مسلم (656).

قالوا نعم يا رسول الله قد أردنا ذلك.

فقال «يا بني سَلِمَة ديارُكم تكتبُ اثاركم ديارُكم تكتب اثاركم» فقالوا ما يسرُّنا أنّا كنا تحوّلنا[1].

والنصوصُ في هذا المعنى كثيرةٌ وهي تفيدُ أنّ الأعمالَ صغيرَها وكبيرَها تكتب في صحائف يلقاها ابنُ آدم يوم القيامة[2].

وعن بلال بن الحارث المزني رضي الله عنه أنّ رسول الله (ﷺ) قال «إنّ الرجلَ ليتكّلمُ بالكلمةِ من سخطِ اللهِ ما كانَ يظنُّ أنْ تبلغَ ما بلغتْ يكتبُ الله بها سخطه إلى يوم يلقاه»[3].

وثبت أنَّ أعمالَ القلوب تُكْتَبُ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: 10-12]. ولفظ ﴿يَعْلَمُونَ﴾ يشعر أنّ الله وجل قد أعطى الملائكةَ قدرةً على العلمِ بما في قلبِ العبدِ ورُوي عن الحسن رحمه الله أنّه قال ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ يخفى عليهم شيءٌ من أعمالكم[4].

وقال ابن أبي العز الحنفي قد ثبت بالنصوص أنَّ الملائكةَ تكتبُ القولَ والفعلَ وكذلك النيةَ لأنّها فعل القلب فدخلت في عموم ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾[5].

---

(1) مسلم رقم (656).

(2) في الملائكة المقربين ص 174.

(3) صحيح الجامع رقم (1615).

(4) تفسير القرطبي (248/19).

(5) شرح العقيدة الطحاوية ص (442).




وقد ورد في السنة ما يدلُّ على علم الملائكة بفعل القلب بها وبهمّه وإرادته فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ) «قال الله عزّ وجلّ إذا همّ عبدي بسيئةٍ فلا تكتبوها عليه فإنْ عَمِلَها فاكتبوها سيئةً وإذا همّ بحسنةٍ فلم يعملْها فاكتبوها حسنةً فإنْ عَمِلها فاكتبوها عشراً»(1).

والخلاصةُ أنَّ الكرامَ الكاتبين قد هيأهم الله وأعدّهم لكتابةِ كلّ ما صدر عن الإنسانِ من قولٍ وفعلٍ ظاهرٍ وباطنٍ.

ودلّتِ النصوصُ كذلك على أنَّ الملائكةَ تكتب للإنسانِ بعد وفاته الأعمالَ التي تَسَبَّبَ بها في حياته من خير وشر(2)، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [يس: 12]. وهذا يدلُّ على أنَّ الملائكةَ تكتب أعمال الإنسان الذي عملها في حياته والأعمالَ التي تسبب بها في حياته بعد موته سواء كانت من عمله أو من عمل غيره ما دام تسبّب بها أو دعا إليها ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: 32].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): «لا تُقْتَلُ نفسٌ ظلماً إلا كان على ابنِ آدمَ الأولِ كِفْلٌ من دمها لأنّه أول من سَنَّ القتلَ

(1) فتح الباري على صحيح البخاري (1264/13).

(2) في الملائكة المقربين ص (175).

أولاً»[1].

وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال جاءَ ناسٌ من الأعرابِ إلى رسول الله(ﷺ) عليهم الصوفُ فرأى سوءَ حالهم قد أصابتهم حاجةٌ فحثَّ الناسَ على الصدقةِ فأبطؤوا عنه حتى رؤي ذلك في وجهه قال ثُمّ إنَّ رجلاً من الأنصارِ جاءَ بصرّةٍ وَرِق ثم جاءَ اخرُ ثم تتابعوا حتى عُرِفَ السرورُ في وجهه (ﷺ) فقال رسول الله (ﷺ) «مَنْ سَنَّ في الإسلامِ سُنةً حسنةً فعُمِلَ بها بعدَه كُتِبَ له مثلُ أجرِ مَنْ عملَ بها ولا ينقصُ من أجورِهم شيءٌ ومن سنَّ في الإسلامِ سنةً سيئةً فعمِلَ بها بعدَه كُتِبَ عليه ورزُ مَنْ عَمِلَ بها ولا ينقصُ من أوزارِهم شيءٌ»[2].

وقال رسول الله (ﷺ) «إذا ماتَ ابنُ آدمَ انقطعَ عملُه إلاّ مِنْ ثلاثٍ مِنْ علمٍ يُنتفعُ به من بعدِه أو ولدٍ صالحٍ يدعو له أو صدقةٍ جاريةٍ من بعده»[3].

ب – الملائكةُ لا تدخلُ بيتاً فيه كلبٌ ولا صورةٌ ونحوها:

قال رسول الله (ﷺ) «لا تدخلُ الملائكةُ بيتاً فيه كلبٌ ولا صورةٌ»[4]. وقد أجابَ عن ذلك الخطابيُّ بقوله يريدُ الملائكةَ الذين ينزلون بالبركة والرحمة دون الملائكةِ الذين هم الحفظةُ فإنهم لا يفارقونه[5].

---

(1) البخاري رقم (6890)، مسلم رقم (1677).

(2) مسلم رقم (1017).

(3) مسلم رقم (1631).

(4) البخاري رقم (2053).

(5) معالم السنن للخطابي (75/1).

والمقصود أنّ الحديثَ محمولٌ على أنّهم لا يدخلون بيتاً فيه شيءٌ من ذلك دخولَ إكرامٍ لصاحبه ودعاءٍ له وتبريكٍ عليه ولا يمنعُ ذلك من دخولهم لكتابةِ الأعمالِ وقبضِ الأرواحِ ومثلُ هذا غيرُ مستنكَرٍ بيننا فإنّ فساد صاحب المنزل يمنع من دخول صلحاءِ الناس منزله دخولَ إكرامٍ ولا يمنعهم أن يدخلوه دخولَ إنكارٍ[1].

والخلاصة أنّ الملائكةَ الكتبةَ عليهم السلام ملازمون للإنسان يكتبون ما صدر عنه وقد أعدّهمُ الله لذلك وأعطاهم من الوسائل والصفاتِ ما يستطيعون به تنفيذَ أمرِ الله لهم من دون أدنى عناء ومشقة[2].

3 – حفظ بني آدم:

قال تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد: 11]. أي للعبدِ ملائكةٌ يتعاقبون عليه حرسٌ بالليل وحرسٌ بالنهار يحفظونه من الأسواءِ والحادثاتِ كما يتعاقب ملائكةٌ اخرون لحفظِ الأعمالِ من خيرٍ أو شرٍّ ملائكة بالليل وملائكة بالنهار فاثنان عن اليمين والشِمال يكتبان الأعمال صاحبُ اليمين يكتبُ الحسنات وصاحبُ الشِمال يكتبُ السيئات وملكان اخران يحفظانه ويحرسانه واحدٌ من ورائه واخرُ من قدّامه

---

[1] فتح الباري (380/10 ـ 382)، في الملائكة المقربين ص (178).

[2] المصدر نفسه ص (179).

فهو بين أربعة أملاكٍ بالنهار وأربعةٍ بالليل بدلاً حافظان وكاتبان كما جاء في الصحيح «يتعاقبون فيكم ملائكةٌ بالليلِ وملائكةٌ بالنهار ويجتمعون في صلاةِ الصبحِ وصلاةِ العصرِ فيصعدُ إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم – وهو أعلم بكم – كيفَ تركتُم عبادي؟ فيقولون أتيناهم وهم يصلّون وتركناهم وهم يصلون»[1].

وروى عن بعض أهل العلم في تفسير قوله تعالى: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ يحفظونه من بين يديه ومن خلفه فإذا جاء قدر الله خلّوا عنه[2].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: 61]. أي وهو الذي قهر كلَّ ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ وخضعَ لجلاله وعظمتهِ وكبريائه كلُّ شيءٍ أي من الملائكةِ يحفظون بدن الإنسان[3].

وقال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: 4] أي حافظ يحرسها من الآفات[4].

---

[1] صحيح تفسير ابن كثير (493/2)، البخاري رقم (555).

[2] صحيح تفسير ابن كثير (493/2).

[3] المصدر نفسه (27/2).

[4] المصدر نفسه (625/4).

وقد بيّنَ النبيُّ (ﷺ) بعضَ الأذكارِ التي تحفظُ الملائكةُ مَنْ قالها في يومه ذاك أو في موضعه الذي قالها فيه فمن ذلك:

أ – آية الكرسي:

فقد صحَّ عن النبيِّ (ﷺ) أنَّ مَنْ قرأها وكّل الله به مَلَكاً يحوطه كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال وكلني رسول الله (ﷺ) بحفظِ زكاةِ رمضانَ فأتاني آتٍ فجعلُ يحثو من الطعامِ فأخذتهُ فقلتُ لأرفعنَّك إلى رسولِ اللهِ (ﷺ) فقصَّ الحديث وفيه فقال إذا أويتَ إلى فراشِكَ فاقرأ آيةَ الكرسي فإنّك لنْ يزالَ عليكَ من اللهِ حافظٌ ولا يقربنّكَ شيطانٌ حتّى تصبحَ وكانوا أحرصَ شيءٍ على الخير فقال النبيُّ (ﷺ) «أَما إنَّه قَدْ صدقكَ وهو كذوبٌ تعلمُ مَنْ تخاطِبُ منذُ ثلاثِ ليالٍ يا أبا هريرة؟» قال لا قال «ذاكَ شيطانٌ»[1].

ب – قراءة أواخر سورة البقرة:

عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: قال النبيُّ (ﷺ): «مَنْ قرأ بالآيتينِ من آخرِ سورةِ البقرةِ في ليلةٍ كفتاه»[2].

قال النوويُّ اختلفَ العلماءُ في معنى «كفتاه» فقيل من الآفاتِ في ليلته وقيل كفتاه مِنْ قيامِ ليلته فقلتُ (أيّ النووي) ويجوزُ أن يراد الأمران[3].

---

(1) البخاري رقم (2187).

(2) فتح الباري على صحيح البخاري (55/9).

(3) المصدر نفسه (56/9).

ج – قراءة قل هو الله أحد والمعوذتين ثلاث مرات:

عن عبد الله بن خبيب رضي الله عنه قال خرجنا في ليلةِ مطرٍ وظلمةٍ شديدةٍ نطلبُ النبيَّ (ﷺ) ليصلّي لنا فأدركناه فقال «قل» فلم أقلْ شيئاً ثم قال «قُلْ»، فلم أقل شيئاً ثم قال: «قل»، فقلت يا رسول الله ما أقول؟ قال «قل هُوَ الله أحد والمعوّذتين حين تمسي وحين تصبحَ ثلاثَ مرّاتٍ يكفيك من كلِّ شيء»[1].

د – قول (لا إله إلا الله وحده لا شريك له):

قال رسولُ اللهِ (ﷺ) «مَنْ قالَ لا إله إلاّ الله وحدَه لا شريكَ له ، له الملكُ وله الحمدُ وهو على كلِّ شيءٍ قدير في يوم مئةَ مرّةٍ كانتْ له عدلُ عشرِ رقابٍ وكُتِبَتْ له مئةُ حسنةٍ ومُحيتْ عنه مئةُ سيئةٍ وكانت له حِرزاً من الشيطانِ يومه ذلك حتّى يمسي ولم يأتِ أحدٌ بأفضل مما جاء به إلاّ أحدٌ عمل أكثر منه»[2].

4 – ملازمته ودعوته للخير:

وممن هو ملازم للإنسان من الملائكة القرينُ وهذا من أعظم نِعَمِ الله على الإنسان ولله الحمد والمنة فقد يسّرَ الله لكلِّ إنسانٍ مَلَكٌ يدعوه إلى الخير ويحثّه

---

(1) صحيح الجامع رقم (4282).

(2) البخاري رقم (6040).

عليه ويخوّفه من الشرّ ويحذّره قال تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾[ق: 23].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال قال رسولُ اللهِ (ﷺ) «ما مِنْكُم مِنْ أحدٍ إلاّ وَقَدْ وكل به قرينُه من الجنّ وقرينُه من الملائكةِ» قالوا وإيّاك يا رسول الله قال «وإيّايَ إلا أنَّ الله أعانني عليه فأسلمُ فلا يأمرُني إلاّ بخيرٍ»[1].

وقد وضّح النبيُّ (ﷺ) عملَ هذين القرينينِ للإنسان وطريقةَ السلامةِ من الشيطان في حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله(ﷺ)، «إذا أوى الرجلُ إلى فراشِهِ ابتدره مَلَكٌ وشيطانٌ فيقول المَلَكُ اختم بخيرٍ ويقول الشيطانُ اختمْ بشرٍّ فإنْ ذكرَ الله ثم نامَ باتَ الملكُ يكلؤه فإذا استيقظَ قال الملك افتحْ بخيرٍ وقال الشيطانُ افتح بشرٍّ فإن قال الحمدُ للهِ الذي يُمسِكُ السماواتِ والأرضَ أن تزولا إلى اخر الآية الحمدُ للهِ الذي يُمْسِكُ السماءَ أن تقعَ على الأرضِ إلاّ بإذنه، فإنْ وقع من سريره فماتَ دخلَ الجنّة»[2].

وقد رُوي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً ما يوضّحُ هذا الأمرَ وفيه «إنَّ للشيطانِ لمةً وللَمَلكِ لمةً فأمّا لمةُ الشيطانِ فإيعادٌ بالشرِّ وتكذيبٌ بالحقِ وأمَّا لمةُ المَلَكِ فإيعادٌ بالخيرِ وتصديقٌ بالحقّ فمن وجدَ ذلك فليحمدِ الله ومَنْ وجدَ الأُخرى فليتعوّذ مِنَ الشيطانِ» ثم قرأ ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ [البقرة: 268][3].

---

[1] مسلم رقم (2814).

[2] مسند أبو يعلى الموصلي (326/3) رجاله رجال الصحيح عدا ابراهيم بن الحجاج السامي وهو ثقة.

[3] مسند أبو يعلى الموصلي رقم (4999)، في الملائكة المقربين ص (184)، تفسير الطبري (572/5 . 575) تحقيق محمود شاكر ومراجعة أحمد شاكر.

يقول ابنُ القيّم وإذا تأملتَ حالَ القلبِ مع المَلَكِ والشيطانِ رأيتَ أعجبَ العجائبِ فهذا يلمُّ به مرةً وهذا يلمُّ به مرةً فإذا ألَمَّ به المَلَكُ حدثَ مِنْ لمتِهِ الانفساخ والانشراحُ والنورُ والرحمةُ والإخلاصُ والإنابةُ ومحبةُ الله وإيثارُهُ على ما سواه وقِصَرُ الأملِ والتجافي عن دارِ البلاءِ والامتحانُ والغرورُ فلو دامتْ له تلك الحالة لكان في أهنأ عيشٍ وألزه وأطيبه ولكن تأتيه لمةٌ الشيطانِ فتحدِثُ له من الضيقِ والظلمةِ والهمِّ والغمِّ والخوفِ والسخطِ بالمقدورِ والشك في الحق والحرصِ على الدنيا وعاجلها والغفلةِ عن الله ...

ثم للناس مراتبُ في هذه المحنة لا يحصيها إلا الله فمنهم مَنْ تكون لمةُ المَلَكَ به أغلبُ من لمة الشيطان وأقوى فإذا ألَمَّ به الشيطانُ وجدَ من الألمِ والضيقِ والحصرِ وسوءِ الحال بحسب ما عنده من حياةِ القلب فيبادِرُ إلى طردِ تلك اللمّةِ ولا يدعُها تستحكِمُ فيصعب تداركُها فهو دائماً في حربٍ بين اللمتين يدالُّ له مرة ويدالُ عليه مرةً أُخرى والعاقبة للتقوى(1).

وليس شيءٌ أنفعُ للعبدِ من صحبة الملك له وهو وليه في يقظته ومنامه وحياته وعند موته وفي قبره ومؤنسه في وحشته وصاحبه في خلوته ومحدّثه في سرّه ويحارب عنه عدوه ويدافع عنه ويعينه عليه ويَعِدُه بالخير ويبشّره به ويحثّه على التصديق بالحق وإذا اشتدّ قربُ الملك من العبدِ تكلّم على لسانه وألقى على لسانه القولَ السديدَ وإذا بعدُ منه وقرب الشيطانُ من العبدِ تكلّم على لسانه

---

(1) الإيمان بالملائكة الأطهار للأشقر من ابن القيم ص (59).

قول الزور والفحش حتى يُرى الرجلُ يتكلّم على لسانِ الملَكِ والرجلُ يتكلّم على لسانِ الشيطان[1].

وذكر ابن القيم أنّ العبدَ يصحبُ الملك ويدنيه منه إنْ هو اشتغلَ بالإيمان والعبادةِ للرحمن ويطردهُ منه ويقصيه إن اشتغلَ بالذنوبِ والمعاصي وفي ذلك يقول مِنْ عقوبةِ المعاصي أنّها تباعِدُ عن العبد وليَّه وأنصحَ الخلق له وأنفعَهم له ومن سعادته في قربه منه وهو الملَكُ الموكل به وتدني منه عدوَّه وأخسِّ الخلق وأعظمهم ضرراً له وهو الشيطان فإنّ العبدَ إذا عصى الله تباعد منه الملك بقدر تلك المعصية حتى إنّه يتباعد منه بالكذبة الواحدة مسافةً بعيدةً فإذا كان هذا تباعدُ الملكِ منه من كذبة واحدة فماذا يكون قدر تباعده منه مما هو أكبر من ذلك وأفحش منه[2]...

5 – السفارة بين الله وبين عباده من بني آدم:

من أهم الوظائف المنوطة بالملائكة قيامهم بتبليغ الوحي إلى أنبياء الله ورسله فالملائكةُ واسطةٌ بين الله تعالى وبين الرسل في تبليغ الوحي والشرائع ويكونُ الملكُ واسطةً بين الرسول وبين ربه والرسولُ واسطةٌ بين الملك وقومه وما يؤديه الملك إلى الرسول ليؤديه الرسول إلى قومه ضربان قرانٌ ووحي[3]، فقد اصطفى الله سبحانه وتعالى من بني آدم أفراداً شرّفهم بنبوته ورسالته وأرسل إليهم ملائكة منه

---

(1) المصدر نفسه ص (56).

(2) المصدر نفسه ص (58).

(3) معارج القبول للحكمي (78/2)، الرسل والرسالات للأشقر ص 63.

يبلغونهم أوامر الله سبحانه وتعالى ودينه وهؤلاء المصطَفْون هم الأنبياءُ والرسل عليهم الصلاة والسلام قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ۝ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ۝ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 163-165] وقد ذكر الله عزّ وجلّ المقامات التي يوحي بها إلى عباده فقال سبحانه : ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: 51-53].

قال ابنُ كثير هذه مقاماتُ الوحي إلى جناب الله عز وجل وهو أنه تبارك وتعالى تارةً يقذِفُ في رَوْعِ النبيّ (ﷺ) شيئاً لا يتمارى أنّه من الله عز وجل أو مِنْ وراءِ حجابٍ كما كلّم موسى عليه الصلاة والسلام - أو يرسل رسولاً كما ينزل جبريل عليه الصلاة والسلام وغيرُه من الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والذي يهمّنا في هذا المبحث المقام الثالث وهو الوحي بواسطة الملَكِ[1].

[1] في الملائكة المقربين ص (162) تفسير ابن كثير (122/4).

فقد أثبتت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية أنّ جبريلَ عليه السلام هو الذي ينزِلُ بالوحي من الله تعالى على الأنبياء والرسل فكان الوساطةَ بين الله تعالى ورسلهِ[1].

الأدلة من الكتاب العزيز:

قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ [الشعراء: 193-194]

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 97]

وقال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: 102]

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ۝ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ۝ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ۝ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ۝ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ۝ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم: 3-10].

وأخرج الشيخان عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنه قال كان رسول الله(ﷺ) إذا نزلَ جبريلُ عليه بالوحي يحرِّكُ لسانه وشفتيه فيشتدّ عليه فكان ذلك يُعْرَفُ منه أنزل الله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۝ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: 16-19].

---

[1] الواسطة بين الله وخلقه ص (112).

فكان إذا أتاه جبريل أطرق، فإذا ذهبَ قرأه كما وعده الله[1].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ۝ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ [التكوير: 19-23].

وقد كان نزول جبريل عليه السلام على النبي (ﷺ) على أشكال:

أ - فمن تلك الأشكال أنّه كان يأتيه على صورة غير مرئية ويقع كلامهُ على قلبِ النبي (ﷺ) فيعي ما يقول ولا يرى الصحابةُ جبريلَ عليه السلام والحالةُ هذه ولكن تظهر لهم علاماتٌ تدلُّ على أنَّ النبيَّ (ﷺ) يُوْحَى إليه ومن هذه العلامات:

خروج العرق من جسمه الشريف (ﷺ) في اليوم البارد ففي «الصحيحين» عن عائشة رضي الله عنها قالت إنْ كانَ ليُنزلُ على رسولِ اللهِ (ﷺ) في الغداةِ الباردةِ ثم تفيضُ جبهتهُ عرقاً[2].

تغير وجهه الشريف ففي «صحيح مسلم» عن عُبادةَ بن الصامتِ رضي الله عنه قال «كان نبيُّ اللهِ (ﷺ) إذا أُنزلَ عليه الوحيُ كَرُبَ[3] لذلك وتربَّد[4]

---

(1) البخاري (29/1).

(2) شرح النووي على صحيح مسلم (86/15).

(3) كرب: أصابه الكرب من شدة الوحي.

(4) تربّد وجهه: تغير إلى الغبرة.

وجهُه»[1].

ثقل جسمه الشريف (ﷺ) فعن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها قالت: إِنِّي لاخذةٌ بزمام العضباء ناقة رسول الله (ﷺ) إذا أُنزلتْ عليه المائدةُ كُلُّها فكادت مِنْ ثقلِها تدقُّ عضدَ الناقةِ[2].

وروى البخاري في «صحيحه» عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه قال «أُنزل على رسولِ اللهِ (ﷺ) وفخذُه على فخِذي فثقلتْ عليَّ حتى خِفْت أن ترضَّ[3] فخذي[4].

ب – وقد يراه على صورته التي خُلِق عليها:

وقد ثبت أنه (ﷺ) رأى جبريلَ على صورته التي خُلِقَ عليها مرتين فقد روى مسلمٌ بسنده عن عائشةَ رضي الله عنها قالت إنّ النبيَّ (ﷺ) لم يرَ جبريلَ في صورته التي خُلِقَ عليها إلا مرتين مرةً عند سِدْرةِ المنتهى ومرّةً في جياد[5]، له ستمئة جناح قد سدَّ الأفقَ[6].

---

[1] شرح النووي على صحيح مسلم (88/15).

[2] فتح الباري (21/1).

[3] الرضُّ: الكسر، مختار الصحاح ص (245).

[4] البخاري رقم (12).

[5] جياد: يقال له أجياد شِعْبٌ بمكة.

[6] فتح الباري (3/1).

جـ – وقد يتمثل جبريل للنبي (ﷺ) في صورة رجلٍ فيكلّمه بالوحي ومن ذلك:

تمثل جبريل عليه السلام بصورة الصحابي دِحْيةَ بنِ خليفةَ الكلبي رضي الله عنه وكان معروفاً بجماله فقد روى الإمام أحمد عن ابنِ عمرَ رضي الله عنهما قال كان جبريلُ عليه السلام يأتي النبيَّ (ﷺ) في صورة دحية[1].

وقد يأتيه على صورة رجلٍ غير معروفٍ ومن ذلك ما ثبت في «صحيح مسلم» من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال بينما نحن جلوسٌ عند النبي (ﷺ) ذاتَ يوم إذ طلعَ علينا رجلٌ شديدُ بياضِ الثيابِ شديدُ سوادِ الشعرِ لا يُرى عليه أثرُ السفر ولا يعرفه منا أحدٌ حتى جلسَ إلى النبي (ﷺ) فأسندَ ركبتيه إلى ركبتيه ووضعَ كفيه على فخذيه وساق عمرُ الحديث إلى أن قال في اخره ثم انطلق فلبثتُ مليَّاً ثم قال لي «يا عمرُ أتدريَ مَنِ السائلُ؟» قلت: الله ورسوله أعلم قال «فإن جبريلُ أتاكم يعلمكم دينكم» [2].

وقد جمع النبيُّ (ﷺ) بين الشكلين «أ ج»[3]، في قوله «أحياناً يأتيني مثلَ صلصلةِ[4] الجرسِ وهو أشدُّه عليَّ فيفصمُ[5] عني وقد وعيتُ ما قال وأحياناً

---

(1) مسند أحمد (132/8) صححه محقق المسند.

(2) مسلم (8)

(3) وهما مجيء جبريل في صورة غير مرئية، ومعينة في صورة رجل.

(4) الصلصلة: الصوت.

(5)

يتمثّلُ لي الملكُ رجلاً فيكلّمني فأعي ما يقول»(1).

وأخبرنا القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى أرسل بعضَ الملائكة المقربين واسطةً منه تعالى إلى أشخاص من البشر ليسوا بأنبياء تشريفاً لهم وتكريماً وأنَّ أولئك الملائكة عليهم السلام جاءت وساطتهم بالبشارة والنذارة والإبتلاء لهؤلاء الأشخاص ونريدُ أن نبيّن تلك الوساطات في النقاط الآتية:

أ – سارة زوجة إبراهيم عليهما السلام:

لما ذكر الله تعالى قصّةَ ملائكته الذين أرسلهم إلى إبراهيم عليه السلام ذكر في أثنائها أنهم خاطبوا زوجه سارة وبشّروها بولدها إسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب عليهما السلام وذلك في ايتين من كتاب الله العزيز قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ۝ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ۝ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ۝ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ [هود: 70-73]. وقال تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ۝ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ۝ قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: 28-30].

فتبيّنَ من هاتين الآيتين أنّ الله تعالى أوحى إلى سارة بواسطةِ هؤلاء الملائكة

---

(1) فتح الباري (18/1).

الذين بشّروها بأنها ستلدُ إسحاق رغمَ كبرِ سنّها وشيخوخةِ بعلها وأنّ إسحاقَ سيولد له ولدٌ يسمّى يعقوب[1].

ب – مريم ابنة عمران عليها السلام:

اقتضت حكمةُ الله سبحانه وتعالى أن يولد عيسى بنُ مريم عليه السلام من أمٍ دونَ أبٍ ليكون ذلك دليلاً مشاهَداً على عظم قدرة الله عز وجل ولما كانت مريمُ عليها السلام هي الأم التي قدّر الله ولادتها لهذا النبي الوجيه أرسل إليها الملائكةَ مراراً وقد بيّنت آيات القرآن الكريم ذلك في عِدّة مواضع فمن تلك الآيات قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ۝ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: 42-43].

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۝ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ۝ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: 45-47].

وقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝ قَالَتْ إِنِّي

[1] الواسطة بين الله وخلقه ص (127).

أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ۝ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ۝ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۝ قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾ [مريم: 17-21].

فثبت من هذه الآيات أنّ الملائكة أوحت إلى مريم ثلاث مرّاتٍ واسطة بينها وبين الله تعالى وفي بعض هذه المرات كانت الواسطةُ جمعاً من الملائكة بصيغة العموم وفي المرة الثالثة – في سورة مريم – كان الواسطةُ هو جبريلَ عليه السلام حيث تمثّل لمريمَ على صورة رجل تامّ الخلقة وأخبرَها أنّه رسولٌ من عندِ الله تعالى ليهبَ لها غلاماً زكياً[1].

ولا يفهم من وحي الله إلى كلٍّ من سارة ومريم بواسطة الملائكة أنه توجد نبيةٌ من النساء لأنَّ النبوة لا تثبتُ لأحدٍ من البشر إلا بدليلٍ ولا يوجد دليلٌ على نبوة واحدة من النساء بل القرآن الكريم قصر الرسالةَ على الرجال دون النساء. قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ [يوسف: 109]، [النحل: 43] ، [الأنبياء: 7] وهذا قولُ جمهورِ أهل العلم وهو الراجح[2].

ج – الملك الذي أرسله الله إلى الرجل الذي زار أخاه في الله:

---

[1] الواسطة بين الله وخلقه ص (128).

[2] شرح النووي لصحيح مسلم (198/15).

روى مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ (ﷺ): «أنّ رجلاً زار أخاً له في قريةٍ أخرى فأرصدَ الله على مدرجتِهِ[1] ملكاً فلمّا أتى عليه قال أين تريدُ؟ قال أريدُ أخاً لي في هذه القرية قال هل لكَ عليه من نعمةٍ تُربُّها[2]، قال: لا غيرَ أنِّي أحببتُه في اللهِ عز وجل، قال: فإنِّي رسولُ اللهِ إليكَ بأنَّ الله قد أحبَّك كما أحببتَه»[3].

فثبت بهذا الحديث أنّ الله تعالى قد أرسلَ ملكاً من ملائكته واسطةً بينه وبين هذا الرجل الصالح ليعلمه فضلَ الحُبِّ في الله تعالى ومنزلةَ المتحابيّن فيه.

د – الملك الذي بعثه الله إلى الأبرص والأقرع والأعمى في بني إسرائيل لابتلاهم:

وقد مرّ الحديث معنا مفصلاً فقد دلّ هذا الحديثُ على أنّ الله تعالى قد بعث ملكاً من ملائكته واسطةً بينه وبين هؤلاء الثلاثة نفر من بني إسرائيل لابتلائهم وامتحانهم وأنّه أتاهم على صورة رجلٍ من البشر[4].

6 – تثبيت المؤمنين وقتالهم معهم:

كما حصل في عددٍ من الغزوات فقد شاركوا في قتالِ المشركين في بدر والأحزاب وقُريظة وغيرها وقد سجّل القرآن الكريم بعض تلك المشاركات ليبين

---

(1) المدرجة: الطريق.

(2) تربها: تقوم بإصلاحها وتنهض إليه بسبب ذلك.

(3) شرح النووي لصحيح مسلم (124/16).

(4) الواسطة بين الله وخلقه ص (130).

لهم عظيمَ نعمته على عباده المؤمنين من نصرتهم وتأييده سبحانه وتعالى لهم[1]

أ – في غزوة بدر

ثبت في نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ومرويات عددٍ من الصحابة البدريين أنّ الله تعالى ألقى في قلوبِ الذين كفروا الرُّعب قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: 12].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ ۝ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ۝ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: 123-126].

وقد أشارت الأحاديث الصحيحة إلى مشاركة الملائكة في معركة بدر وقيامهم بضرب المشركين وقتلهم[2]، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول أقدم حيزوم[3]، فنظر إلى المشرك أمامه فخرّ مستلقياً فنظر إليه فإذا هو خُطِم أنفُه وشق وجهه كضربة السَّوط فاخضرّ ذلك

---

(1) العقيدة الإسلامية، د. أحمد جلي ص (174).

(2) السيرة النبوية للمؤلف (711/1).

(3) المصدر نفسه (712/1) حيزوم: اسم الفرس الذي يركبه الملك.

أجمع فجاء الأنصاري فحدَّث بذلك رسول الله (ﷺ) فقال صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة[1]، ومن حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أيضاً قال إن النبي (ﷺ) قال يوم بدر هذا جبريل اخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب[2]، ومن حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال فجاء رجل من الأنصار قصير بالعباس بن عبد المطلب أسيراً فقال العباس يا رسول الله إن هذا والله ما أسرني لقد أسرني رجل أجْلحُ[3]، من أحسن الناس وجهاً على فرس أبلق[4]، وما أراه في القوم فقال الأنصاري أنا أسرته يا رسول الله، فقال: اسكت فقد أيدك الله بملك كريم[5]، ومن حديث أبي داود المازني قال إني لأتبع رجلاً من المشركين لأضربه إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي فعرفت أنه قتله غيري[6].

وقد بوّبَ البخاريُّ بابَ شهودِ الملائكة بدراً وساق بسنده حديثَ رُفاعة بن رافع قال جاء جبريلُ إلى النبيِّ (ﷺ) فقال ما تعدّون أهلَ بدرٍ فيكم؟ قال «مِنْ أفضلِ المسلمين أو كلمة نحوها» قال «وكذلك من شهدَ بدراً من الملائكةِ»[7].

إنّ إمداد الله تعالى للمؤمنين بالملائكة أمرٌ قطعيٌّ ثابتٌ لا شك فيه وإنّ

---

(1) السيرة النبوية للمؤلف (712/1).

(2) البخاري رقم (3995).

(3) أجلح: الذي انحسر شعره من جانبيه.

(4) الأبلق: الذي ارتفع التحجيل إلى فخذيه.

(5) مسند أحمد (117/1).

(6) مسند أحمد (450/5) سيرة ابن هشام (286/2).

(7) فتح الباري (311/7 . 312).

الحكمة من هذا الإمدادِ تحصيلُ ما يكون سبباً لانتصار المسلمين وهذا ما حصل بنزول الملائكةِ فقد قاموا بكلِّ ما يمكن أن يكون سبباً لنصر المسلمين من تبشيرهم بالنصر ومن تثبيتهم بما ألقوه في قلوبهم من بواعث الأمل في نصرهم والنشاط في قتالهم وبما أظهروه لهم من أنّهم معانون من الله تعالى وأيضاً بما قام به بعضُهم من الاشتراك الفعلي في القتال ولا شكَّ أنَّ هذا الاشتراكَ الفعلي في القتال قوّى قلوبهم وثبَّتهم في القتال وهذا ما دلّتْ عليه الآيات وصرّحت به الأحاديث النبوية[1].

وقد يسأل سائل ما الحكمةُ في إمدادِ المسلمين بالملائكة مع أنَّ واحداً من الملائكة كجبريل عليه السلام قادرٌ بتوفيق الله على إبادة الكفار وقد أجاب الدكتور عبد الكريم زيدان على ذلك فقال لقد مضتْ سنةُ اللهِ بتدافع الحق وأهله مع الباطل وأهله وأنَّ الغلبة تكونُ وفقاً لسنن الله في الغلبة والانتصار وأنَّ هذا التدافعَ يقعُ في الأصل بين أهل الجانبين الحق والباطل ومن ثمراتِ التمسُّكِ بالحق والقيامُ بمتطلباته أن يحصلوا على عونٍ وتأييدٍ من الله تعالى بأشكالٍ وأنواعٍ متعددة في التأييد والعون ولكنْ تبقى المدافعةُ والتدافعُ يجريان وفقاً لسنن الله فيهما وفي نتيجة التدافع فالجهة الأقوى بكلِّ معاني القوة اللازمة للغلبة هي التي تغلبُ فالإمداد بالملائكة هو بعضُ ثمرات إيمان تلك العصبة المجاهدة ذلك الإمداد الذي تحقق به ما يستلزِمُ الغلبة على العدو ولكنْ بقيتِ الغلبةُ موقوفةً على ما قدمه

---

(1) المستفاد من قصص القران د. عبد الكريم زيدان (2/131 . 132).

أولئك المؤمنون في القتال ومباشرتهم لأعمال القتال وتعرّضهم للقتل وصمودهم وثباتهم في الحرب واستدامة توكلهم على الله واعتمادِهم عليه وثقتهم به وهذه معانٍ جعلها الله حسبَ سننه في الحياة أسباباً للغلبة والنصر مع الأسباب الأخرى المادية مثل العدة والعدد والاستعداد للحرب وتعلم فنونها... الخ.

ولهذا فإنّ الإسلامَ يدعو المسلمين إلى أن يباشروا بأنفسهم إزهاقَ الباطل وقتالَ المبطلين ويهيئوا الأسباب المادية والإيمانيةَ للغلبة والانتصار وبأيديهم إن شاء الله تعالى ينال المبطلون ما يستحقّون من العقاب[1]، قال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ۝ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 14-15].

إن نزول الملائكة عليهم السلام من السماوات العُلا إلى الأرض لنصر المؤمنين حدثٌ عظيم إنه قوة عظمى وثباتٌ راسخٌ للمؤمنين حينما يؤمنون بأنهم ليسوا وحدَهم في الميدان وأنهم إذا حققوا أسباب النصر واجتنبوا موانعه فإنهم أهلٌ لمدد السماء وهذا الشعورُ يعطيهم جرأةً في مقاتلة الأعداء وإنْ كان ذلك على سبيل المغامرةِ لِبُعْدِ التكافؤ المادي بين جيشِ الكفار الكبير عدداً القوي إعداداً وجيش المؤمنين القليل عدداً الضعيفِ إعداداً وهو في الوقتِ نفسهِ عاملٌ قوي في تحطيم معنوية الكفار وزعزعةِ يقينهم وذلك حينما يشيع في صفوفهم احتمال تكرار نزول الملائكة الذين شاهدهم بعضُ الكفار عياناً إنهم مهما قدّروا قوة

---

(1) المستفاد من قصص القران (131/2 . 132).

المسلمين وعددهم فإنّه سيبقى في وجدانهم رعبٌ مزلزلٌ من احتمالِ مشاركة قوةَ غير منظورة لا يعلمون عددها ولا يقدّرون مدى قوتها وقد رافق هذا الشعورُ المؤمنينَ في كلِّ حروبهم التي خاضها الصحابة رضي الله عنهم في العهد النبوي وفي عهد الخلافة الراشدة كما رافق المؤمنين بعد ذلك فكان عاملاً قوياً في انتصاراتهم المتكررة الحاسمة مع أعدائهم[1].

ب – في غزوة أحُد

قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه رأيتُ عن يمين رسول الله (ﷺ) وعن شماله يوم أُحد رجلين عليهما ثيابٌ بياضٌ يقاتلانِ عنه كأشد القتال ما رأيتُهما قبلُ ولا بعدُ يعني جبريل وميكائيل[2].

وهذا خاصٌّ بالدفاع عن النبي (ﷺ) لأنّ الله تكفّل بعصمته من الناس ولم يصحَّ أنَّ الملائكةَ قاتلت في أُحد سوى هذا القتال وإنْ وعدهم الله أن يمدّهم لأنه جعل وعده معلقاً على ثلاث أمور الصبر التقوى وإتيان الأعداء من فورهم ولم تتحقق هذه الأمور فلم يحصل الإمداد[3]. قال تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ ۝ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: 124-125].

---

(1) التاريخ الإسلامي، للحميدي (145/4).

(2) البخاري رقم (4045).

(3) السيرة النبوية، للمؤلف (149/2).

ج – في غزوة الخندق

جاء في «الصحيحين» من حديث عبد الله بن أبي أوفى قال دعا رسولُ اللهِ(ﷺ) على الأحزاب فقال «اللهمَّ منزل الكتاب سريع الحساب أهزمِ الأحزابَ اللهم أهزمهم وزلزلهم»[1] فاستجاب الله سبحانه دعاء نبيه (ﷺ) فأقبلتْ بشائرُ الفرج فقد صرفهم الله بحوله وقوته وزلزل أبدانهم وقلوبهم وشتّت جمعهم بالخلاف ثم أرسلَ عليهم الريحَ الباردة الشديدة وألقى الرعبَ في قلوبهم وأنزل جنوداً من عنده سبحانه قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾[الأحزاب: 9].

فكانت هذه الريحُ معجزةً للنبي (ﷺ) لأنَّ النبيَّ (ﷺ) والمسلمين كانوا قريباً منها ولم يكن بينهم وبينها إلا عَرْض الخندق وكانوا في عافيةٍ منها ولا خبرَ عندهم بها وبعثَ الله عليهم الملائكة فخلعت الأوتادَ وقطعت أطناب الفساطيط[2] وأطفأتِ النيرانَ وأكفأتِ القدورَ وجالت الخيول بعضُها في بعضٍ وأرسل الله عليهم الرعبَ وكثر تكبير الملائكة في جوانب المعسكر حتى كان سيّدُ كلِّ خباء يقول يا بني فلان هلم إلي فإذا اجتمعوا قال لهم النجاءَ النجاءَ لما بعث الله عليهم الرعب[3].

وبعد انتصار المسلمين وعودة النبيِّ (ﷺ) من الخندق ووضعه السلاحَ أمرَ

---

[1] البخاري رقم (2933).

[2] الفساطيط: نوع من الأبنية في السفر دون السرادق.

[3] تفسير القرطبي (144/14).

الله تعالى نبيَّه (ﷺ) بقتال بني قريظة فأمرَ الحبيبُ (ﷺ) أصحابه بالتوجه إليهم وقد أعلمهم بأنّ الله تعالى قد أرسل جبريل ليزلزلَ حصونهم ويقذفَ في قلوبهم الرعب وأوصاهم بأن «لا يصلينَّ أحدٌ العصرَ إلا في بني قريظةَ»[1].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت لما رجعَ النبيَّ (ﷺ) من الخندقِ ووضعَ السلاحَ واغتسلَ أتاه جبريلُ عليه السلام وقال قد وضعتَ السلاحَ والله ما وضعناه فاخرجْ إليهم قال «فإلى أين؟» قال هاهنا وأشارَ إلى بني قُريظة فخرجَ النبيُّ (ﷺ)[2].

وقد سجّل القرآن الكريمُ غزوتي الأحزاب وبني قريظة والقرآن كعهدنا به يسجّل الخالدات التي تسع الزمان والمكان فالمسلمون معرضون دائماً لأن يغزو في عقر دارهم وفي عواصم بلدانهم ومعرضون لأن يتكالب عليهم الأعداء جميعاً فإذا كان القرآن قد سجل حادثتي الأحزاب وبني قريظة فذلك من سمة التكرار على مدى العصور[3]، لكي يستفيدَ المسلمون من الدروس والعبر من الحوادث السابقة التي ذُكِرَتْ في القرآن الكريم على وجه الخصوص والذي يتدّبر حديثَ القرآن عن غزوة الأحزاب يراه قد اهتمّ ببيانِ أمورٍ من أهمها ما يلي:

1 – تذكير المؤمنين بنعم الله عليهم:

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ

---

[1] البخاري رقم (4119) مسلم (1770).

[2] البخاري مع الفتح (407/7).

[3] الأساس في السنة، سعيد حوى (662/2).

جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: 9].

2 – التصوير البديع لما أصاب المسلمين من هم بسبب إحاطة الأحزاب بالمدينة:

قال تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ [الأحزاب: 10] .

3 – الكشف عن نوايا المنافقين السيئة وأخلاقهم الذميمة وجبنهم الخالع ومعاذيرهم الباطلة ونقضهم للعهود:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: 12].

4 – حض المؤمنين في كل زمان ومكان على التأسي برسول الله (ﷺ) في أقواله وأفعاله وجهاده وكل أحواله:

استجابة لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21].

5 – مدح المؤمنين على مواقفهم النبيلة وهم يواجهون جيوش الأحزاب بإيمان صادقٍ ووفاءٍ بعهد الله تعالى :

قال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: 23].

6 – بيانُ سنّةٍ من سنن الله التي لا تتخلّف وهي جعل العاقبة للمؤمنين:

قال تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: 25] .

7 – امتنانه سبحانه على عباده المؤمنين حيث نصرهم على بني قريظة وهم في حصونهم المنيعة من دون قتال يذكر:

حيث ألقى – سبحانه – الرعبَ في قلوبهم فنزلوا على حكم الله ورسوله (ﷺ)[1]، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ۝ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: 26-27].

د – في غزوة حنين

قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ۝ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ۝ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: 25-27].

---

(1) حديث القران الكريم (602/2 ، 603).

إنّ غزوةَ حُنينٍ سُجّلت في القرآن الكريم، لكي تبقى درساً للأُمة في كل زمان ومكان، ولقد عُرضت في القرآن الكريم على منهجية ربانية كان من أهم معالمها التي:

1 – بين القرآن الكريم أنّ المسلمين أصابهم الإعجاب بكثرة عددهم.

قال تعالى ثم بين القرآن أنّ هذه الكثرة ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾[التوبة: 25] تفيد ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾[التوبة: 25].

2 – بين القرآن الكريم أن المسلمين انهزموا وهربوا ما عدا النبي (ﷺ) ونفر يسير من أصحابه.

قال تعالى: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾[التوبة: 25]

3 – بين القرآن الكريم أنّ الله نصرَ رسولَه (ﷺ) في هذه المعركة وأكرمه بإنزال السّكينةِ عليه وعلى المؤمنين

فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾[التوبة: 26].

4 – بين القرآن الكريم أن الله أمدّ نبيّه محمداً (ﷺ) بالملائكة في حنين.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ۝ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: 26-27][1].

---

[1] حديث القران الكريم عن غزوات الرسول (ﷺ)، د. محمد بدر ال عابد (490/2 . 491).

7 – قبض الأرواح عند الموت:

ثبت في الكتاب والسنة أنّ اللهَ وكلّ بالروحِ ملائكةً يقبضونها عند الموت في آيات كثيرة:

أ – كيفية نزع الروح

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ۝ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ ۝ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: 83-85]

أي ﴿فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ﴾ أي: الروح، والحلقوم هو الحلق وذلك حين الاحتضار، ﴿وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ﴾ أي: إلى المحتِضرِ وما يكابده من سكرات الموت، ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾ أي: بملائكتنا، ﴿وَلَكِنْ لاَ تُبْصِرُونَ﴾ أي: ولكن تروهم[1].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ۝ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام: 61-62].

وقال تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ۝ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ۝ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ۝ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ۝ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾[القيامة: 26-30]

أي ﴿إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ والتراقي جمع تُرقُوة وهي العظام المكتنِفَةُ لنُقرةِ النّحر وهو مقدّم الحلق من أعلى الصدر موضع الحشرجة ويكنى ببلوغ النفس التراقي

---

[1] اليوم الاخر، د. محسن المطيري ص (55).

عن الإشفاء على الموت مثله قوله وقيل معناه أي حقاً أن المساق إلى الله أي إذا ارتفعت الروح إلى ﴿فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ۝ كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِي﴾ والمقصود تذكيرهم شدة الحال عند نزول الموت[1].

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: 11]. وقد توهّم بعضُ الناس أنَّ الملك الموكل بالموت وقبض الأرواح هو عزرائيل والحقيقة أنّ لملك الموت أعوانٌ على هذه المهمة فهناك النازعات والناشطات الوارد ذكرها في قوله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ [النازعات: 1-2]. وقد ورد عن جمعٍ من الصحابة والتابعين أن ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ يعنون حين تنزع أرواح بني آدم فمنهم من تأخذُ روحه بعسرٍ فتغرق في نزعها ومنهم من تأخذُ روحه بسهولة وكأنّما حلتّه من نشاط[2]، فيقبضون أرواحَ المؤمنين بيسر وسهولة ويبشروهم بالجنة بينما يقومون بضرب وجوه الكفرة وأدبارهم كما يوبّخون الظالمين لأنفسهم الممتنعين عن الهجرة إلى الله ورسوله (ﷺ)[3].

إنَّ الإنسان إذا اقترب أجله فإنَّ الروح ترتقي إلى أعلى الجسم عند النحر حتى تخرجَ من جسده وهذا الخروج للروح ليس بالأمر الهين حتى للمؤمن بل له سكرات وغمرات ومشّقات ثم تنتزع الملائكة الروح وهذا النزع يختلف شدةً ويُسراً

---

(1) الإيمان باليوم الاخر، للمؤلف ص (25).

(2) العقيدة الإسلامية، أحمد جلي ص (175).

(3) العقيدة الإسلامية ص (175).

بحسب إيمان الرجل[1].

ب – خروج روح المؤمن واحتضاره:

قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۝ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: 62-64] وفي قوله تعالى ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ قولين:

الأول الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرى له[2].

والثاني المراد بذلك بشرى الملائكة للمؤمن عند احتضاره بالجنة والمغفرة ويدلّ على هذا حديثُ البراء رضي الله عنه عن رسول الله (ﷺ) «إن المؤمنَ إذا حضره الموتُ جاءه الملائكةُ بيضُ الوجوهِ بيضُ الثياب فقالوا اخرجي أيتها الروحُ الطيبةُ إلى رَوْحٍ وريحانٍ وربٍّ غيرِ غضبانٍ فتخرجُ تسيلُ كما تسيلُ القطرةُ من في السقاءِ»[3]. وكلا المعنيين صحيحٌ ولا تعارض بين هذين التفسيرين[4].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ۝ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: 30-31].

---

(1) اليوم الاخر في القران العظيم، والسنة المطهرة، للمطيري ص 58.

(2) سنن ابن ماجه رقم (2898) وسنده صحيح.

(3) مسند أحمد رقم (18534) صحيح الإسناد.

(4) اليوم الاخر في القران العظيم للمطيري ص (59).

وفي قوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ أي أخلصوا ، وقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ أي على طريقة رسول الله(ﷺ) باتباعه[1]، وفي قوله: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي عند الموت وفي القبر ويوم خروجهم من قبورهم[2].

وقال تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: 103]. وقوله: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ﴾ أي مما تقدمون عليه من أمر الاخرة على ﴿وَلاَ تَحْزَنُوا﴾ على ما خلفتموه من أمر الدنيا من ولدٍ وأهل ومالٍ أو دَيْنٍ فإنا نخلفنكم فيه ﴿الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فيبشرونهم بذهاب وحصول الخير[3].

وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ۝ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 31-32].

يخبر الله تعالى عن حالهم عند الاحتضار أنّهم طيبون أي مخلصون من الشرك والدنس وكل سوء وأنّ الملائكة تسلّم عليهم وتبشّرهم بالجنة[4].

وأنَّ وفاتهم تكون طيبةً سهلةً لا صعوبةَ فيها ولا ألم بخلاف ما تقبض به روح الكافر والمخلّط[5].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً

---

(1) تفسير القران العظيم لابن كثير (98/4).

(2) اليوم الاخر في القران العظيم ص 61.

(3) تفسير البغوي (173/7) بتصرف.

(4) اليوم الاخر في القران العظيم ص (62).

(5) تفسير القرطبي (67/10).

مَرْضِيَّةً﴾ [الفجر: 27-28]. وهذا يقال له عند الاحتضار وفي يوم القيامة أيضاً كما أنَّ الملائكةَ يبشرون المؤمن عند احتضاره وعند قيامه من قبره فكذلك هاهنا[1].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۝ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۝ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ۝ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة: 88-91].

هذه الأحوال الثلاثة هي أحوالُ الناسِ عند احتضارهم؛ إمّا أن يكونوا من المقربين أو يكونوا ممّن دونهم من أصحاب اليمين وإمّا أن يكونَوا من المكذّبين بالحق الضالين عن الهدى الجاهلين بأمر الله ولهذا قال تعالى أي المحتضر وهم من فعل الواجبات ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ وترك المحرّمات والمكروهات وبعض المباحات أي فله روح ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ وتبشره الملائكة بذلك عند الموت ﴿فَرَوْحٌ﴾ أو الراحة من الدنيا (والروح) الفرح جنة ورخاء فرحمة رزق وكلُّ هذه الأقوال متقاربةٌ ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ فإنَّ مَنْ ماتَ مقرّباً حصل له جميع ذلك من الرحمة والراحة والاستراحة والفرح والسرور والرزق الحسن[2]، أي: ﴿وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ يموتُ أحدٌ من الناسِ حتى يعلمَ من أهل الجنّةِ هو أم من أهل النار[3]؟

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أي: وأمّا إنْ كان المحتضر من أصحاب اليمين ﴿فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أي تبشّره الملائكة

---

[1] تفسير ابن كثير (510/4).

[2] اليوم الاخر في القران العظيم ص (64).

[3] تفسير ابن كثير (300/4).

بذلك وتقول لأحدهم سلام لك، أي لا بأسَ عليك، أنت إلى سلامة، أنت من أصحاب اليمين[1].

ويكون السلام على المؤمنين عند ثلاثة مواضع عند قبضِ روحه في الدنيا يسلِّم عليه ملك الدنيا وعند مساءلته في القبر يسلّم عليه منكر ونكير وعند بعثه في القيامة تسلّمُ عليه الملائكة قبل وصوله إلى الجنة ويكون ذلك إكراماً بعد إكرام[2].

ج - خروج روح الكافر واحتضاره:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: 93].

قوله: ﴿فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ أي كرباته وقوله ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ جوابه محذوف تقديره لرأيت أمراً وهذه عبارةٌ عن التعنيف في السياق والشدة وفي قبض الأرواح[3]. وقوله: ﴿بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ﴾ أي بالضرب حتى تخرجَ أنفسُهم من أجسادِهم، ولهذا يقولون لهم: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ وذلك أنَّ الكافر إذا احتضر بشرّته الملائكة بالنَّكالِ والأغلالِ والسلاسلِ والجحيم والحميم وغضبِ القهار العظيم فتفرق روحه في جسده وتتعصّى وتأبى الخروج فتضربهم الملائكةُ حتى تخرَج

---

(1) محاسن التأويل للقاسمي (22/7).

(2) تفسير القرطبي (151/17).

(3) التسهيل لابن جزي (279/1).

أرواحهم من أجسادهم قائلين لهم ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ أي كنتم تهانون غاية الإهانةِ كما كنتم تكذبون على وتستكبرون عن اتباع آياته والانقياد لرسله[1]، ثم يبشرون بالعذاب ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾.

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا﴾ [الفرقان: 22] ، أي حرام ومحرّم عليكم دخول الجنة[2].

وفي حديث البراء الطويل قال رسول الله (ﷺ) «وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع عن الدنيا وإقبال من الاخرة نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح فيجلسون منه مد البصر ثم يجيءُ ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول أيتها النفس الخبيثة أخرجي إلى سخط من الله وغضب قال فتفرق في جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول»[3].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: 28-29].

وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾[محمد: 27] . هذه الآية فيها التصريحُ بضربِ وجوهِ الكافرين وأدبارِهم

---

(1) المصدر نفسه (279/1).

(2) اليوم الاخر في القران العظيم ص (106).

(3) مسند أحمد رقم (18013) صحيح الإسناد.

عندَ النزع[1].

د – ملائكة الرحمة وملائكة العذاب:

وقد جاء أنَّ ملائكة الرحمة وملائكةَ العذاب يختصمون في مَنْ لم تتضح حاله من بني آدم كلٌّ يقول أنا أقبضُ روحَه حتى يفصلَ الله بينهما كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنَّ نبي الله (ﷺ) قال «كان فيمن كان قبلكم رجلٌ قتل تسعةً وتسعين نفساً فسأل عن أَعْلَمِ أهلِ الأرضِ فَدُلَّ على راهبٍ فأتاه فقال إنّه قتلَ تسعةً وتسعينَ نفساً فهل له من توبةٍ؟ فقال لا فقتله فكم به مئةً ثم سألَ عن أعلمِ أهلِ الأرضِ فدلَّ على رجلٍ عالمٍ فقال إنّه قتلَ مئةَ نَفسٍ فهل مِنْ توبةٍ؟ فقال نعم ومَنْ يحولُ بينه وبين التوبة؟ انطلقْ إلى أرضِ كذا وكذا فإنّ بها أناسٌ يعبدون الله فاعبدِ اللهَ معهم ولا ترجعْ إلى أرضِكَ فإنّها أرضُ سوءٍ.

فانطلق حتّى إذا نصف الطريقُ أتاه الموتُ فاختصمتْ فيه ملائكةُ الرحمةِ وملائكةُ العذاب فقالت ملائكة الرحمة جاءَ تائباً مقبِلاً بقلبه على الله وقالت ملائكةُ العذابِ إنّه لم يعملْ خيراً قط فأتاهم مَلَكٌ في صورةِ آدمى فجعلوه بينهم فقال قِيْسُوا ما بينَ الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرضِ التي أرادَ فقبضته ملائكةُ الرحمةِ» وفي روايةٍ «فأوحى الله إلى هذه أن تباعدي وإلى هذه أن تقرّبي»[2].

---

[1] اليوم الاخر في القران العظيم ص 70.

[2] مسلم رقم (2766).

والقصدُ أنّ ملائكةَ الموتِ نوعان ملائكةُ رحمةٍ وملائكةُ عذابٍ ينزلون لقبضِ أرواحِ بني آدم كلٌّ حسبَ عمله فأهلُ الإيمانِ تقبضُ أرواحهم ملائكةُ الرحمة وأهلُ الكفرِ تقبضُ أرواحهمُ ملائكةُ العذابِ[1].

8 – سؤالهم الميت في قبره ثم تنعيمه أو تعذيبه بعد إعادة الروح إلى الجسد:

البرزخ اسمُ ما بينَ الدنيا والاخرة من وقت الموت إلى البعث.

وممّا ينبغي أن يُعلمَ أنَّ عذابَ القبر ونعيمه هو بين الدنيا والاخرة[2]، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۝ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّا ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ۖ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: 99-100].

ومن الآيات القرآنية الدالّة على عذاب القبر:

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: 93]. ففي قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ فالآية تبيّنُ حالَ المحتضر وأنّه تأتيه الملائكة وتخبره أنه سوف يعذّب اليوم يعني يوم موته وهذا يدلُّ على أنّ العذابَ يكون قبل يوم القيامة ففي الآية دليلٌ واضح على عذاب القبر ولو تأخّرَ عنهم العذابُ إلى انقضاء الدنيا لما صحَّ

---

(1) في الملائكة المقربين ص (192).

(2) تفسير القرطبي (150/12).

أن يقال لهم: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: 101]. فقوله تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ المرة الأولى في الدنيا من المصائب في النفس أو المال أو الولد أو غير ذلك، وأمّا المرة الثانية ففي القبرِ وأمّا عذابُ الآخرةِ فذكره بقوله: ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ *﴾[2].

وقال تعالى: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ۝ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: 45-46]. وهذا النصُّ من النصوص الصريحة في عذاب القبر فإنَّ هذا العذابَ الذي حصل لآل فرعون إنّما كان بعد موتهم وأمّا عذابُ الاخرةِ فهو المذكور بعده بقوله تعالى: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾[3].

ولقد جاءت الأحاديثُ بفتنة القبر وسؤال الملكين ومما يُستدل به من القرآن على سؤال الملكين قول الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: 27] [4].

وفي «الصحيحين» عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسولُ

[1] الروح، لابن القيم ص (132).
[2] تفسير الطبري (441/14).
[3] الإيمان باليوم الاخر ، للمؤلف ص (48).
[4] البخاري رقم (4699) مسلم رقم (2871).

اللهِ(ﷺ): «إنّ العبدَ إذا وُضِعَ في قبرِه وتولّى عنه أصحابُه إنّه يسمعُ قرعَ نعالهم قال يأتيه ملكانِ فيُقْعِدَانه فيقولانِ له ما كنتَ تقولُ في هذا الرجل قال فأمّا المؤمنُ فيقول أشهدُ أنّه عبدُ اللهِ ورسولُه قال فيقال له انظرْ إلى مقعدِكَ مِنَ النّارِ قَدْ أبدلَكَ اللهُ بهِ مقعداً من الجنّةِ.

وأمّا المنافِقُ والكافِرُ فيقال له ما كنتَ تقولُ في هذا الرجلِ؟ فيقول لا أدري كنتُ أقولُ ما يقولُ الناسُ فيقال لا دريتَ ولا تليتَ ويُضْرَبُ بمطارقَ من حديدٍ ضربةً فيصيحُ صيحةً يسمعُها مَنْ يليه غيرَ الثقلينِ»[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ (ﷺ): «إذا قُبرَ الميتُ أتاه ملكانِ أسودانِ أزرقانِ يقالُ لأحدِهما المنكر وللأخر النكير ويقولانِ ما كنتَ تقولُ في هذا الرجلِ؟ فيقول ما كانَ يقولُ هو عبدُه ورسولُه أشهدُ أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً عبدُه ورسولهُ فيقولان قد كُنّا نعلمُ أنّكَ تقولُ هذا ثم يُفْسَحُ له في قبرِه سبعونَ ذراعاً في سبعينَ ثم ينوَّرُ له فيه ثم يقال له نَمْ فيقول أرجعُ إلى أهلي فأخبِرُهم فيقولان نم كنومةِ العروسِ الذي لا يوقظه إلا أحبُّ أهلِهِ إليه حتّى يبعثه الله مِنَ مضجعِه ذلك.

وإنْ كان منافقاً قال سمعتُ الناسَ يقولون فقلتُ مثلهم لا أدري فيقولانِ قد كُنّا نعلمُ أنك تقول ذلك فيقالُ للأرض ألتئمي عليه فتلتئمُ عليه فتختلفُ فيها أضلاعُه فلا يزالُ فيها معذَّباً حتى يبعثَه الله من مضجعه»[2].

---

[1] البخاري رقم (1374) مسلم رقم (2870).

[2] الترمذي رقم (1071) سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (1391).

9 – نفخهم في الصور:

عرَّف النبيُّ (ﷺ) الصور كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال جاءَ أعرابيٌّ إلى النبيّ (ﷺ) قال ما الصور؟ قال «الصورُ قرنٌ يُنْفخ فيه»[1].

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ [النمل: 87].

وقد سمّاه الله تعالى أيضاً الناقور كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ [المدثر: 8]. الناقور هو الصور[2]، فالصور والناقور اسمان لمسمًّى واحد.

وقد سمى الله تعالى الصوتَ الذي يخرِجُه إسرافيل من الصور بأسماء هي النفخة ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [الحاقة: 13]. الراجفة ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: 6-7]. الزجرة ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾[النازعات: 13].

والمشهور أن النافخ هو إسرافيل[3].

واخْتَلَفَ العلماء في عدد النفخات على أقوال:

القول الأول أنّها ثلاثُ نفخاتٍ وذلك أنَّ الله نصَّ على هذه الثلاثة في كتابه:

نفخة الفزع قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ [النمل: 87]. نفخة الصعق قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾

---

(1) أبو داود رقم (4742).

(2) فتح الباري (376/11).

(3) في الملائكة المقربين ص (156).

[الزمر: 68]. نفخة البعث ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: 68].

وقالوا: إنّ الفزعَ مغايرٌ للصعق واستدلوا بحديث الصور الطويل وفيه أنَّ النفخاتِ ثلاثٌ[1].

القول الثاني: أنهما نفختان نفخة الصعق ونفخة البعث وقال هذا هو ظاهر النصوص كقوله تعالى: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ۝ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ۝ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ۝ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: 49-52].

وقوله: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ﴾ هذه هي الأولى، وقوله ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ هذه هي الثانية كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: 6-7]. هما النفختان الأولى والثانية.

ويمكن الجمع بين الفزع والصعق وجعلها نفخة واحدة ولكنّها تبدأ بالفزع وتنتهي بالصعق مع وجود مسافة زمنية تفصل بين بدايتها ونهايتها أي إن الله يأمر إسرافيل بالنفخ فينفخ نفخة إفزاع يطوّلها ويمدها لا يفتر (وهو ما يعني استمرار النفخ بلا انقطاع) فيما الناس في العذاب يشاهدون أحداث الزلزلة إلى أن يأمر الله بنفخة الصعق الأشد قوة وهولاً فيموت لشدتها كلُّ من في السماوات والأرض

[1] حديث الصور أخرجه البيهقي في البعث والنشور ص (325) وهو ضعيف.

إلا من شاء الله[1].

وقد ذكر النبي (ﷺ) صاحب الصور من دون أن يسميه وأنه التقم الصور بانتظار أن يُؤْمَرَ كما في حديث أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله(ﷺ): «كيف أنعم وصاحب الصور قد التقمَ الصور وأصغى سمعه وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ؟» قالوا يا رسول الله كيف نقول؟ قال قولوا «حسبنا الله ونعم الوكيل وعلى الله توكلنا»[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): «ما طرف[3] صاحب الصور منذ وكل به مستعد ينظر نحو العرش مخافة أن يؤمر قبل أن يرتد إليه طرفه كأن عينيه كوكبان دريّان»[4].

10 – قيامهم برعاية أهل الجنة ونعيمهم:

وكل الله سبحانه وتعالى بالجنة ملائكة يعمرونها ويغرسونها ويعملون أنهارها ويعدون لأهلها ما أمرهم الله به وهؤلاء هم خزنتها.

والخزنة جمع خازن مثل حفظة وحافظ وهو المؤتمن على الشيء الذي قد استحفظه[5]، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى هؤلاء الخزنة في كتابه فقال سبحانه:

---

[1] الإيمان باليوم الاخر للمؤلف ص (88).

[2] الترمذي رقم (2548) ، السلسلة الصحيحة (67/3).

[3] الطرف: إطباق الجفن على الجفن.

[4] الفتح (368/11) ، السلسلة الصحيحة (65/3).

[5] حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، لابن القيم ص (87).

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: 73]. فهم يتلقَّوْنَ المؤمنين بالتحية الأولى التي حيوا بها أباهم آدم عليه السلام وهي السلام وهؤلاء الخزنةُ يدخلون على المؤمنين الجنة ويسلّمون عليهم كما قال تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۝ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: 23-24].

وأول من يفتح له الخزنة باب الجنة نبيُّنا محمد (ﷺ) كما جاء في الأحاديث الصحيحة منها حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ (ﷺ) «اتي بابَ الجنّةِ يومَ القيامةِ فأستفتحُ فيقولُ الخازِنُ مَنْ أنتَ؟ فأقول محمّدٌ فيقول بِكَ أُمرتُ ألاّ أفتحَ لأحدٍ قبلَك»[1]. قال ابن كثير: وتدخلُ الملائكة عليهم من هاهنا ومن هاهنا بالتهنئة بدخول الجنة فعند دخولهم إياها تَفِدُ عليهم الملائكة مسلّمين مهنئين لهم بما حصل لهم من الله من التقريب والإنعام والإقامة في دار السلام في جوار الصادقين والأنبياء والرسل الكرام[2].

11 – خزنة النار:

قال تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ۝ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۝ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ ۝ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: 26-30].

---

[1] مسلم (188/1. 97).

[2] تفسير ابن كثير (510/2).

فهؤلاء التسعة عشر هم خزنةُ جهنم العظام ومعهم من الملائكة خَلْقٌ لا يحصيهم إلا الله ولذلك عقّب بقوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: 31]. وأعظم هؤلاء الخزنة مالكٌ عليه السلام.

وقد تقدّم وقد وصف الله عزّ وجل هؤلاء الملائكة بصفات عظيمة تملأ النفوسَ خوفاً ومهابةً قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: 6][1].

﴿غِلاَظٌ﴾ أي طباعهم قد نزعت من قلوبهم الرحمةُ أي تركيبهم في غاية الشدة والكثافة والمنظر المزعج[2] كما أنَّ خزنةَ النارِ يتلقون الكفار ويبشّرونهم ﴿شِدَادٌ﴾ ويلومونهم على عدم طاعة الله ورسوله (ﷺ) كما قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: 71-72].

وقال تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ [الملك: 8-9].

---

[1] في الملائكة المقربين ص 151.

[2] المصدر نفسه ص (151)، تفسير ابن كثير (391/4).

وأهلُ النارِ – والعياذ بالله – ينادون الخزنةَ أنْ يشفعوا لهم عند الله لتخفيف ما هم فيه من العذاب فيجيبونهم بلومهم على ما فرّطوا في الحياة كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: 49-50] وقال تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [الزخرف: 77-78].

وهؤلاء الملائكة بهم من القوةِ والعظمةِ ما يجعلهم يدخلون النار ويخرجون منها ويعذّبون أهلها وهم سالمون من هذا العذاب العظيم بل ثبت أنّهم يجرّونها يومَ القيامة بسبعينَ ألفَ زمامٍ مع كلِّ زمامٍ سبعون ألف ملكٍ فعن ابن مسعود قال: قال رسول الله (ﷺ) «يؤتى بجهنَّم يومَ القيامةِ لها سبعونَ ألفَ زمامٍ مع كلِّ زمامٍ سبعونَ ألف مَلَكٍ يجرونها»[1].

ثانياً – أعمال الملائكة المتعلقة بالكون:

إنّ أعمال الملائكة ووظائفهم لا تقتصر على تلك الأعمال المتعلقة بالإنسان بل إنّهم يقومون بأعمال كثيرة تتصل بالكون وما فيه من أشياء وأحداث.

فمنهم من يحمل عرش الرحمن ومنهم الموكل بسوق السحاب إلى حيث

---

(1) في الملائكة المقربين ص (152).

يشاء الله ومنهم الموكل بالجبال إلى غير ذلك من الأعمال التي يقومون بها تنفيذاً لأقدار الله تعالى في الخلق.

يقول ابن القيم فكلُّ حركةٍ في السماوات والأرض من حركات الأفلاك والنجوم والشمس والقمر والرياح والسحاب والنبات والحيوان فهي ناشئةٌ عن الملائكة الموكلين بالسماوات والأرض كما قال تعالى: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ وقال تعالى: ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ وهي الملائكةُ عند أهل الإيمان وأتباع الرسل عليهم السلام وأمّا المكذّبون بالرسل المنكرون للصانع فيقولون هي النجوم[1].

ولا يعني هذا أنَّ للملائكة فعلاً مستقلاً عن الله تعالى بل إنَّ الفعل فعل الله، والخلق خلقه وليس الملائكة شركاء لله في فعله وما يقومون به إنّما هو بعلم الله تعالى وإرادته عز وجل وقدرته فالقرآن يخبرنا بأنَّ الملائكةَ يتوفون الناس ولكنَّ الله عز وجل منه الإحياء والإماتة والفعل كله.

ووفقاً لهذا ينبغي أن نعلمَ ونؤمنَ أنَّ الملائكةَ لا تملكُ للإنسانِ نفعاً ولا ضراً ومن ثَمَّ لا يجوزُ للإنسان أن يطلبَ منها ذلك أو يدعوها لجلب نفعٍ أو دفع ضر بل الدعاءُ والتوجّه والطلب لا يكون إلا لله وحده وقد أخبرنا القرآن الكريم بأنَّ الملائكةَ لا شفاعة لها إلا بإذن الله ورضاه إذ إنّ الخلقَ كله والفعل كله والأمر كله لله وحده قال تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: 26].

---

(1) إغاثة اللهفان لابن القيم ص (125).

وقد يثار السؤال لماذا عَهِدَ الله إلى الملائكة بهذه المهمّات الجسيمة المتعددة مع أنَّ الله لا يعجز شيءٌ في الأرض ولا في السماء؟

وللإجابة على ذلك نقول إن ذلك ليس إلا مظهراً لسلطانِ اللهِ وعظيمِ ملكه وإظهاراً لقدرته المعنوية في مظهر حسي يتلائم مع تصور الإنسان والمألوف في حياته[1].

ومعلوم أنّ الله عز وجل الذي خلق هؤلاء الملائكة وأولاهم هذه الطاقة غيرُ محتاج إلى وساطتهم وسببيتهم في شيء ولكنْ شاء الله عزّ وجلّ أن يُظْهِرَ سلطانه وقوته لعباده بالشكل الذي ألفوه في حياتهم وتعودته أخيلتهم وأفكارهم[2] كما يظهر هذا الخَلْق من خلال الأسباب التي ربط الله بينها وبين المسببات.

وقد يقال أيضاً أليسَ في الإيمانِ بهذا الدور الذي تقومُ به الملائكةُ منافاةً لما يقوله العلم الحديث من وجود قوانين ونواميسَ كونيةٍ تضبِطُ هذا الوجود؟

وللإجابة على ذلك نقول إنّ هذه القوانين والأسباب هي من مخلوقاتِ الله تعالى والملائكةُ موكلةٌ بها أيضاً وموكلةٌ برعايتها كما ترى المخلوقات الأخرى[3].

ومن أعمال الملائكة في الكون:

1 – حملة العرش:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ

---

(1) كبرى اليقينيات، للبوطي ص (278).

(2) المرجع نفسه ص 292.

(3) الإيمان، محمد نعيم ياسين ص (46).

وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: 7].

وقال تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: 17]. ودلّتِ الآيات الكريمة على أنَّ الملائكةَ من جملةِ خلقه يحملون عرشه واخرون يكونون حوله وعلى أنّه يوم القيامة يحمله ثمانية إمّا ثمانية أملاك وإمّا ثمانية أصناف وصفوف[1].

2 – الموكلون بالسحاب والمطر:

قال تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ [الصافات: 1-3]. ورد في تفسير هذه الآيات الكريماتِ أنَّ هذه الصفاتِ من صفات الملائكة عليهم السلام وأنّ الله أقسم بالملائكة الصافّات بين يديه سبحانه وتعالى وبالملائكة التي تزجُرُ السحابَ وتسوقه إلى حيث أمرها الله وبالملائكة التي تنزل بالقرآن والكتب من عند الله سبحانه[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال أقبلتْ يهودٌ إلى النبي (ﷺ) فقالوا يا أبا القاسم أخبرنا عن الرعد ما هو؟ قال: «مَلَكٌ مِنَ الملائكةِ مُوَكَلٌ بالسحابِ معه مخاريقُ من نارٍ يسوقُ بها السحابَ حيثُ شاءَ الله» فقالوا فما هذا الصوتُ الذي يُسْمَعُ؟ قال «زجرُهُ السحابَ إذا زجرَهُ حيثُ ينتهي إلى حيثُ أُمِرَ» قالوا:

---

(1) في الملائكة المقربين ص (144).

(2) تفسير ابن كثير (2/4).

صدقت الحديث[1].

وهذا الحديث إنما يفيدُ أنَّ للسحابِ ملائكةٌ يسوقونه وأنَّ هذا الصوتَ الذي يُسْمَع قد يكونُ صوتَ هذه الملائكة وقد يكونُ اصطكاك السحاب ولا يدلُّ والله أعلم على تسميةِ الملك الموكل بالسحاب باسم الرعد وقد صحَّ أنَّ الملك الموكلَ بالقَطْرِ هو ميكائيل عليه السلام ومعه أعوانٌ يعملون ما يأمرهم به[2].

قال ابن كثير ميكائيلُ مُوَكَّلٌ بالقطر والنبات اللذين يخلق الله منهما الأرزاق في هذه الدار وله أعوان يفعلون ما يأمرهم به بأمر ربه يصرّفون الرياحَ والسحابَ كما يشاء الربُّ جل وعلا[3]، وحديثُ ميكائيل وأنّه موكلٌ بالسحابِ أقوى من حديث ابن عباس في تسمية الموكل بالسحاب رعداً[4]، فقد احتجَّ ابنُ كثيرٍ على إثبات عمل ميكائيل عليه السلام بحديث ابن عباس رضي الله عنهما وفيه أنَّ النبيَّ (ﷺ) سأل جبريلَ عليه السلام على أي شيءٍ ميكائيلُ فقال على النباتِ والقطرِ[5] فميكائيلُ عليه السلام هو الموكل بذلك والله أعلم ومعه أعوانٌ من الملائكة ينفّذون أمره[6].

---

(1) سنن الترمذي (257/4) ، رقم (5121) ، السلسلة ، للألباني رقم (1872).

(2) في الملائكة المقربين ص (54).

(3) البداية والنهاية (41/1).

(4) في الملائكة المقربين ص (54).

(5) رواه ابن أبي شيبة رقم (75) إسناده صحيحٌ بشواهد.

(6) مسلم (2288/4) رقم (2984).

ومن أعجبِ ما يُروى في ذلك حديثُ أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ(ﷺ) قال «بينا رجلٌ بفلاةٍ من الأرضِ فسمعَ صوتاً في سحابةٍ اسقِ حديقةَ فلانٍ فتنحّى ذلك السحابُ فأفرغَ ماءَه في حَرّةٍ فإذا شَرْجَةٌ[1] من تلك الشِراجِ قد استوعبت ذلك الماءَ كلَّه فتتبع الماء فإذا رجلٌ في حديقته يحوّلُ الماءَ بمسحاته فقال له يا عبدَ اللهِ ما اسمك؟ قال فلان – للاسم الذي سمعَ في السحابة – فقال له يا عبدَ اللهِ لِمَ تسألني عن اسمي؟ فقال إِنّي سمعتُ صوتاً في السحاب الذي هذا ماؤه يقول اسقِ حديقةَ فلانٍ لاسمك فما تصنعُ فيها؟ قال أما إذْ قلتَ هذا فإِنّي أنظرُ إلى ما يخرجُ منها فأتصدَّقُ بثلثه واكلُ أنا وعيالي ثلثاً واردُّ فيها ثلثه»[2]

وفي هذا الحديث إثباتُ الملائكة الموكلين بالسحاب وأنّهم يسوقونه ويأمرونه ويكلمونه وربمّا كان الكلامُ الذي سمعه الرجل كلامَ الملائكة بعضهم لبعضٍ ثم ساقه الملك الموكل بهذه السحابة وفيه فضلُ الصدقةِ عن المساكين والمحتاجين حيث عوّضَ الله المتصدِّقَ وأرسلَ ملائكته يسوقون السحاب ليسقيَ أرضه جزاءً على صدقته وإحسانه إلى الفقير وإلى أهل بيته[3].

3 – ملك الجبال:

تقدّم الحديثُ في صفاتِ الملائكةِ أنَّ الله سبحانه وتعالى أرسلَ ملك الجبال

---

[1] في الملائكة المقربين ص (154 ، 155).

[2] مسلم (2984).

[3] المصدر نفسه ص (154 . 155).

ليطبقَ على أهل مكة الأخشبينِ إذا أمره النبي (ﷺ) بذلك[1]، وفي هذا دليلٌ على أنَّ للجبالِ ملائكةً موكلون بها وفيه كذلك دليلٌ على ضخامةِ خلقِ هؤلاء الملائكة الموكلين بالجبال فكونُ ملكٍ واحدٍ يستطيعُ أن يُطْبِقَ جبلين على أهلِ مكة يعني أنه من الضخامةِ والقوّةِ بحيث أصبحَ إطباقُ الجبلينِ عندَه أمرٌ هيّنٌ ينفّذه فورَ موافقة النبي (ﷺ) على ذلك ومن فضلِ اللهِ على هذه الأمة أنْ بعثَ لها نبينا (ﷺ) وهو الرحمةُ المهداةُ[2]، وقد ذكر الله ذلك في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: 128].

4 – الملائكة الحافون بمكة والمدينة:

عن أنس رضي الله عنه عن النبيِّ (ﷺ) قال « ليس من بلدٍ إلا سيطؤُه الدَّجَّالُ، إلا مكةَ والمدينةَ، ليس له من نقابِها نَقبٌ إلا عليه الملائكةُ صافّين يحرسونَها، ثم ترجفُ المدينةُ بأهلِها ثلاثَ رجفاتٍ، فيُخرِجُ اللهُ كلَّ كافرٍ ومنافقٍ.»[3]

وفي حديث تميم الداري رضي الله عنه وهو حديثُ الجسّاسة المشهور قال «إنني أنا المسيحُ وأنا أوشِكُ أن يأذنَ لي في الخروج فأخرجُ فأسيرُ في الأرض فلا

---

(1) البخاري رقم (3059) مسلم رقم (1795)، والأخشبان هما جبل أبي قبيس وجبل قعيقعان (جبل هندي).

(2) في الملائكة المقربين ص (155).

(3) البخاري رقم (1782).

أدعُ قريةً إلا هبطتها في أربعينَ ليلةً غير مكة وطيبة فهما محرّمتان عليّ كلتاهما كلّما أردتُ أن أدخلَ واحدةً أو واحدةً منها – استقبلني مَلَكُ بيده السيفُ صلتاً يصدُّني عنها وإنّ على كُلِّ نقْبٍ منها ملائكةٌ يحرسونها»[1].

5 – الملائكة الموكلون بالشام:

الشامُ بلاد مباركة كما قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: 1] فإلى مسجدِها الأقصى أُسريَ بالنبي (ﷺ) فاجتمعَ بالأنبياء عليهم السلام وأمّهم ومنه عرج مع جبريل إلى السماء وقِصّةُ الإسراء والمعراج معروفة والقصد التنبيه على فضل المكان.

ممّا يدل على فضلها أنّ مسجدَها أحد المساجد الثلاثة التي تُشَدُّ إليها الرحال كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال سمعتُ رسول الله (ﷺ) يقول «لا تُشَدُّ الرحالُ إلاّ إلى ثلاثةِ مساجدَ المسجدِ الحرام والمسجدِ الأقصى ومسجدي هذا»[2].

وممّا يدل على فضل الشام أنَّ الملائكةَ باسطةٌ أجنحتها عليه كما جاء ذلك في حديثِ زيدِ بنِ ثابتٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ (ﷺ) «طوبى

---

[1] رواه مسلم رقم (2942).

[2] مسلم رقم (827).

للشامِ إنَّ ملائكةَ الرحمنِ باسطةٌ أجنحتَها عليه»[1].

ثالثاً – قيامُهم بأعمالٍ أُخرى وبعض الفوائد:

قد لخّص ابنُ القيم أهمَّ أعمال الملائكة فقال فإنّهم موكّلون بتخليقه – أي الإنسان – ونقلِه من طورٍ إلى طورٍ وتطويره وحفظه في أطباق الظلماتِ الثلاث وكتابةِ رزقهِ وعملهِ وأجلهِ وسعادتهِ وشقاوته وملازمته في جميع أحواله وإحصاء أقواله وأفعاله وحفظه في حياته وقبضِ روحه عندَ وفاته وعرضِها على خالقِهِ وفاطرِه.

وهم الموكّلون بعذابه ونعيمه في البرزخ وبعد البعث وهم الموكّلون بعمل الاتِ النعيم والعذاب.

وهم المثّبتون للعبد المؤمنِ بإذن الله والمعلّمون له ما ينفعه والمقاتلون الذابّون عنه وهم أولياؤه في الدنيا والاخرة وهم الذين يَعِدُونه بالخير ويدعونه إليه وينهونه عن الشر ويحذرونه منه فهم أولياؤه وأنصاره وحفظته ومعلّموه وناصحوه والدّاعون إليه والمستغفرون له.

وهم الذين يصلّون عليه ما دام في طاعة ربه ويصلّون عليه ما دام يعلّم الناسَ الخير ويبشرونه بكرامةِ الله تعالى في منامه وعندَ موته ويوم بعثه.

وهم الذين يزهّدونه في الدنيا ويرغّبونه في الاخرة.

---

[1] السلسلة الصحيحة (5/2) أطال الألباني البحث فيه، وخلص إلى صحيحه.

وهم الذين يُذكّرونه إذا نسي ويُنشطونه إذا كسل ويثّبتونه إذا جزع.

وهم الذين يَسْعَوْن في مصالح دنياه واخرته فهم رسلُ اللهِ في خلقه وأمره وسفراؤه بينه وبين عباده تتنزّلُ عندَه بالأمر من عنده في أقطار العالم وتصعدُ إليه بالأمر[1].

ومن وظائف الملائكة القيام بأعمال أخرى يأمرهم الله بها ورد ذكرها في القرآن الكريم دونَ بيانٍ تفصيلي عنها كقوله تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ [الصافات: 1-3]. وقال تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۝ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۝ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات: 1-4]. وقال تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ۝ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ۝ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ۝ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ۝ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ۝ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ [المرسلات: 1-6][2].

ومن الأعمال الأخرى:

1 – إهلاك الأمم المكذبة:

ومن المهام المنوطة بالملائكة إنزالهم العذابَ الشديد وإهلاكَ الأمم المكذّبة للرسل بأمر الله تعالى وقد ورد في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ

---

(1) إغاثة اللهفان (125/2 . 126).

(2) على قول أنّها من الملائكة.

الْمُجْرِمِينَ﴾ [يونس: 13]. وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [يونس: 73]. وقال تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: 90].

روى ابنُ جرير عن ابنِ عبّاسٍ عن النبيّ (ﷺ) قال: «لما قال فرعونُ لا إله إلا الله جعلَ جبريلُ يحشو في فيه الطينَ والترابَ» وفي رواية أخرى «لما أغرقَ اللهُ فرعونَ قال جبريل يا محمد لو رأيتَني وأنا اخذ من حمأةِ البحرِ وأدسُّه في فيه مخافةَ أن تدرِكَهُ الرحمةُ»[1].

وفي إهلاك قوم لوط يقول جل ذكره: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۝ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ۝ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ۝ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ۝ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ۝ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا

---

[1] الترمذي رقم (3106) حديث حسن غريب صحيح، وهذا الحديث رواته ثقات، ليس فيهم مَنْ هو سيء الحفظ.

عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ۝ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: 77-83][1].

2 – تبليغ النبي (ﷺ) صلاة أمته وسلامها عليه:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 56].

وقال (ﷺ) «مَن صلى عليّ صلاةً واحدةً صلى الله عليه بها عشراً»[2].

وقد حذّر رسول الله (ﷺ) مَنْ تركَ الصلاةَ عليه فقال: «إنّ البخيلَ مَنْ ذُكِرْتُ عندَه ولم يصلِّ عليَّ»[3].

ومن شرف النبي (ﷺ) فقد وكّل الله عز وجل بالصلاةِ عليه ملائكةً سياحةً يطوفون في الأرض يبلّغون النبيَّ (ﷺ) صلاة أمته عليه كما جاء في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله (ﷺ) «إنّ للهِ ملائكةٌ سيّاحين في الأرضِ يبلّغوني من أمتي السلام»[4].

وقال رسول الله (ﷺ): «لا تجعلوا بيوتَكم قبوراً ولا تجعلوا قبري عِيْداً وصلّوا عليَّ فإنَّ صلاتَكم تبلُغني حيثُ كنتم»[5]. إنّ الله عزّ وجلّ قد وكّل بالصلاة على

(1) أصول الاعتقاد في سورة يونس، قذلة القحطاني ص (199).
(2) مسلم رقم (70).
(3) الترمذي رقم (3614) حسن غريب صحيح.
(4) صحيح الجامع (234/2) ، جلاء الأفهام لابن القيم ص (24).
(5) صحيح الجامع رقم (7103).

النبي(ﷺ) ملائكةً يبلغونه إيّاه في البرزخ فينبغي على المسلم أن يحرصَ على الصلاة على النبيّ (ﷺ) بالصيغ الشرعية الصحيحة ويعلم أنهّا معروضةٌ على النبيِّ(ﷺ)[1].

3 – حملُهم التابوتَ لبني إسرائيل:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 248].

يخبر تعالى أنّه قد ملّك طالوت على بني إسرائيل لكنّهم لم يرضوا ملكه كعادتهم في معصيتهم أوامر الله والتكبّر عليها بحجة أنّه لم يكن من بيت المِلْك وليس من أهل الأموالِ وقد جعل الله من الآيات على صدق هذا الملك أَنْ يأتيَهم التابوتُ – وفيه بقية مما ترك أل موسى وهارون – تحمله الملائكة بين السماء والأرض حتى وضعوه بين يدي طالوت والناسُ ينظرون[2]، وكان هذا تطميناً لهم وتثبيتاً كي يعلموا أن طالوتَ مختارٌ من الله تعالى فيتابعونه ويطيعونه[3].

---

[1] الملائكة المقربين ص (199).

[2] مسلم على شرح النووي (63/18).

[3] البخاري رقم (1244).

4 – نزول عيسى عليه السلام بصحبة ملكين:

إنّ نزول عيسى عليه السلام اخرَ الزمان من آيات الساعة العظمى التي يؤمن بها المسلمون وقد دلَّ ذلك الكتاب والسنة:

قال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ۝ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: 157-159]. فهذه الآيات كما أنّها تدلُّ على أنَّ اليهودَ لم يقتلوا عيسى عليه السلام ولم يصلبوه بل رفعه الله إلى السماء كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: 55]، فإنّها تدل على أنّ مِنْ أهلِ الكتاب من سيؤمن بعيسى عليه السلام اخرَ الزمان وذلك عند نزوله وقبل موته كما جاءت بذلك الأحاديثُ المتواترة الصحيحة[1].

وعيسى عليه السلام ينزلُ اخرَ الزمان واضعاً يده على ملكين كريمين كما جاء ذلك في الحديث الطويل الذي رواه النواس بن سمعان وفيه «فبينما هو كذلك إذ بعثَ الله المسيحَ ابن مريم فينزلُ عند المنارةِ البيضاء شرقيِّ دمشقَ بين مَهْرُوَدتين[2]، واضعاً كفيه على أجنحة ملكين»[3].

---

[1] مسلم رقم (183).

[2] مهرودتين: ثوبين مصبوغين بورس.

[3] مسلم رقم (2700).

5 – تظليل الملائكةِ على الشهيدِ:

ومنها إظلالُهم لجنازةِ الصحابي الجليل عبد الله بن حرام الأنصاري رضي الله عنه قال البخاري رحمه الله بابُ ظلِّ الملائكةِ على الشهيد وساقَ بسنده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال جِيْءَ بأبي إلى النبيِّ (ﷺ) وقد مُثِّلَ به ووُضِعَ بين يديه، فذهبتُ أكشِفُ عن وجهه فنهاني قومي وسمعتُ صوتَ نائحةٍ فقيل ابنة عمرٍو، أو أختَ عمرٍو فقال (ﷺ) «لِمَ تبكِ أو لا تبكي ما زالتِ الملائكةُ تظلّله بأجنحتها»[1].

6 – شفاعتهم لأهل الإيمان:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ (ﷺ): «فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَ شفعتِ الملائكةُ وشفعَ النبيون وشفعَ المؤمنون ولم يبقَ إلا أرحمُ الراحمين»[2].

7 – نزولهم عند تلاوة القرآن:

ليستمعوا له كما حصل مع الصحابي الجليل أُسيد بن حُضير رضي الله عنه[3].

---

[1] سيرة ابن هشام (264/3)، الألباني في الصحيحة رقم (1158).

[2] سير أعلام النبلاء (95/1)، إسناده صحيح.

[3] واحة الإيمان عند ابن القيم للأشقر (68/2).

8- حضورهم مجالس الذكر:

وحفهم الذاكرين الله تعالى قال رسول الله (ﷺ) «لا يقعدنَّ قومٌ يذكرونَ الله عز وجل إلا حفّتهم الملائكةُ وغشيتهم الرحمةُ ونزلت عليهم السكينةُ وذَكَرَهمُ اللهُ فيمن عنده»[1].

9 – شهود الملائكة لجنازة الصالحين:

استشهد سعد بن معاذ الأنصاري في غزوة الخندق بعد ما انفجر جرحُه ونقله قومه فاحتملوه إلى بني عبد الأشهل إلى منازلهم وجاء رسولُ اللهِ (ﷺ) فقال «انطلقوا» فخرج معه الصحابة وأسرعَ حتى تقطّعت شسوعُ نعالِهم وسقطت أرديتُهم فشكا إليه أصحابه ذلك فقال النبيُّ (ﷺ) «إني أخافُ أَنْ تسبقني الملائكةُ فتغسِلَه كما غَسلتْ حنظلة» فانتهى إلى البيتِ وهو يغسَّلُ وأمُه تبكي وتقول:

ويلُ أم سعدٍ سعداً حزامةً وَجَدَا

فقال رسول الله (ﷺ) «كلُّ نائحةٍ تكذِبُ إلا أُمّ سعدٍ» ثم خرج به قال يقول له القوم ما حملنا – يا رسول الله – ميتاً أخفَّ علينا منه قال «وما يمنعه أنْ يخفَّ وقد هبط من الملائكةِ كذا وكذا ولم يهبطوا قطُّ قبلَ يومهم قد حملوه معكم»[2].

---

(1) المصدر نفسه (82/2).

(2) مكايد الشيطان، د. قذلة القحطاني ص (526) إغاثة اللهفان (172/2 . 173).

وقد جاء في النَّسائي عن ابن عمر رضي الله عنهما عددُ الملائكةِ الذين شاركوا في تشييع جنازة سعد فقد قال رسول الله (ﷺ) «هذا العبدُ الصالحُ الذي تحرّكَ له العرشُ وفُتِحَتْ له أبوابُ السماء وشهده سبعون ألفاً من الملائكة لم ينزلوا إلى الأرض قبل ذلك لقد ضُمَّ ضمةً ثم أفرجَ عنه»[1]، يعني: سعداً.

10 – أسماء الملائكة وحكم التسمي بها:

أخبرنا الله تبارك وتعالى عن بعض أسماء ملائكته في قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 98]. وعرض ابنُ القيم لحُكْمِ تسمِّي بني آدم بأسماء الملائكة فقال يكره تسميةُ الآدميينَ بأسماءِ الملائكة كجبريل وميكائيل وإسرافيل قال أشهب سئل مالك عن التسمِّي بأسماءِ الملائكة وهو قول الحارث بن مسكين قال وكره مالكٌ التسمّي بجبريل وياسين وأباحَ ذلك غيره قال عبد الرزاق في «الجامع» عن معمر قال قلتُ لحمّاد بن أبي سليمان كيف تقولُ في رجلٍ تسمَّى جبريل وميكائيل؟ فقال لا بأس به[2].

11 – عداوة اليهود لبعض الملائكة:

تحدّث ابنُ القيمِ عن عداوة اليهود لجبريل عليه السلام فقال وقالت اليهودُ

---

(1) الجواب الصحيح، لابن تيمية (3/198 ـ 199).

(2) الجواب الصحيح (3/198).

للنبيّ(ﷺ) مَنْ صاحبُك الذي يأتيك مِنَ الملائكةِ؟ فإنّه ليسَ مِنْ نبي إلا يأتيه مَلَكٌ بالخبر؟ قال (ﷺ) هو جبريلُ.

قالوا ذاكَ الذي ينزل بالحربِ والقتالِ ذاك عدوُّنا لو قلتَ ميكائيل الذي ينزِلُ بالنباتِ والقَطْرِ والرحمةِ؟ فأنزل الله تعالى:﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 97-98] [1].

* * *

[1] مكايد الشيطان د. قذلة ص (527).

الفصل السادس

من مكايدِ الشيطان

في مسائل الإيمان بالملائكة

أولاً – إنكار وجودهم

ثانياً – عبادتهم وتقديسهم

الفصل السادس

من مكايد الشيطان في مسائل الإيمان بالملائكة

كلُّ حركة في السماوات والأرض من حركات الأفلاك والنجوم والشمس والقمر والرياح والسحاب والنبات والحيوان فهي ناشئةٌ عن الملائكة الموكلين بالسماوات والأرض كما قال تعالى: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: 5]. وهي الملائكةُ عندَ أهل الإيمان وأتباع الرسل عليهم السلام.

وأما المكذّبون للرسل المنكرون للصانع فيقولون هي النجومُ[1].

ولإبليس مكايدُ عظيمةٌ في مسائل الإيمان بالملائكة منها:

أولاً: إنكار وجودهم:

يسعى إبليس جاهداً إلى إبطال الإيمان بالملائكة وهو هدف عظيم له لأنّ ذلك يؤدّي إلى إنكار الرسالات والكتب بل إنكار الخالق جلّ وعلا فلا تتمّ معرفته والإيمان به تعالى إلاّ بما أخبرتنا به الرسلُ عن طريقِ الوحي الذي تلقّته عن ملائكةِ الله تعالى.

ومن وسائله في ذلك :

1 – تفسير اللفظ بما لم يستعمل له:

[1] المصدر نفسه، ص (528).

كقول النصارى إنَّ روحَ القدس هو حياة الله[1]. فالذي فسر النصارى به ظاهر كلام المسيح هو تفسيرٌ لا تدلُّ عليه لغةُ المسيحِ وعادته في كلامه ولا لغة غيره من الأنبياء والأمم، بل المعروفُ في لغته وكلامه وكلام سائر الأنبياء تفسيره بما فسرناه، وبذلك فسّره أكابر علماء النصارى وأما ضُلّال النصارى المحرّفون لمعاني كتاب الله عز وجل فسروه بما يخالِفُ معناه الظاهر، وينكره العقل والشرع[2].

2 – قول الفلاسفة بأنّهم عقولٌ فعالةٌ متولِّدةٌ عن نفس الله تعالى تولُّدَ العلةِ من المعلول، لا ينفكّ عنه، وجعلوه كالابن والبنت، فالعقولُ بنوه والنفوسُ بناته[3].

3 – ومنهم من يزعم بأن العقل الفعال هو جبريل ويزعمون أنّ كلامَ اللهِ يفيضُ على قلوب العباد بالعلوم والمعارف وأنّ الملائكةَ تتشكل في النفس بصورة أشكال نورانية وهذا الفيضُ يكون بحسب تلقي النفس بهذا الفيض الذي يمكن اكتسابه بنوعٍ معيّنٍ من الرياضات وقوة التخيل والحس الباطن[4].

وهؤلاء أعظم ضلالاً من اليهود والنصارى ومشركي العرب فإنّهم في الحقيقة لا يجعلون الربَّ تعالى خالقاً لشيء ولا يفعل فعلاً بمشيئته واختياره ولا يجعلون

---

(1) بغية المرتاد، لابن تيمية (219/1).

(2) مكايد الشيطان ص (529).

(3) إغاثة اللهفان، لابن القيم (374/2).

(4) بغية المرتاد (251/1).

الملائكة عباده بل يجعلون العقل الأول هو ربُّ كلِّ ما سوى الله.

ويقال لهم إنّ العقلَ في لغة المسلمين كلِّهم من أولهم إلى اخرهم ليس مَلَكاً من الملائكة ولا جوهراً قائماً بنفسه بل هو العقل الذي في الإنسان ولم يسمِّ أحدٌ من المسلمين قط أحداً من الملائكة عقلاً ولا نفسُ الإنسانِ الناطقةُ عقلاً بل هذه من لغة اليونان.

ولهذا يؤول بهم الأمرُ أن يجعلوا الملائكةَ والشياطينَ أعراضاً تقوم بالنفس ليس أعياناً قائمةً بنفسها حيةً ناطقةً ومعلومٌ بالاضطرار أنّ هذا خلافُ ما أخبرت به الرسلُ واتفق عليه المسلمون[1].

4 – قول من يدعي أنّ الملائكةَ هي القوى الخيرة التي في الإنسان والتي تحثه وتدفعه لعمل الخير بعكس قوى الشر الرديئة وهي الشياطين[2].

وهذا القول ينافي ما اتفق عليه المسلمون ودل عليه الكتاب والسنة[3]، كما أنّه يؤدي إلى جعل الملائكة والشياطين أعراضاً قائمةً بالنفس لا وجودَ لها في الواقع[4].

ثانياً عبادتهم وتقديسهم:

وهي طريقةٌ أخرى للشيطان – أعاذنا الله منه – فزين لأناسٍ عبادةَ الملائكة

---

(1) مكايد الشيطان ص (530).

(2) الجواب الكافي، لابن القيم (99/1).

(3) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (135/4).

(4) المصدر نفسه (17 /271 ـ 272)، مصايد الشيطان ص (531).

وتقديسهم لإيقاعهم في الشرك والكفر[1].

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: 40-41] فالشيطانُ يدعو المشركينَ إلى عبادته ويوهمهم أنه مَلَكٌ[2]، وتعليقاً على هذه الآية يعني أن الملائكة لم تأمرهم بذلك وإنّما أمرتهم بذلك الجِنُّ ليكونوا عابدين للشياطين التي تتمثّل لهم كما يكون للأصنامِ شياطين وكما تنزِلُ الشياطين على بعضِ من يعبدُ الكواكبَ ويرصدُها حتى تنزلَ عليه صورةٌ فتخاطبه وهو شيطان من الشياطين[3].

وقد عبد الملائكةَ طوائفٌ منهم مشركي العرب الذين قالوا إنّ الملائكة بنات الله[4]، كما ذكر الله تعالى في القرآن في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ۝ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: 19-20]

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ: 40] **جمعوا بين أنواع كثيرة من الخطأ:**

أحدها: جعلهم لله تعالى ولداً تعالى وتقدس وتنزّه عن ذلك علواً كبيراً

---

(1) تفسير ابن كثير (222/6) مصايد الشيطان ص (532).

(2) مسلم رقم (770).

(3) زاد المعاد (43/1).

(4) شفاء العليل لابن القيم (620/2).

والثاني: دعواهم أنه اصطفى البنات على البنين فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً.

الثالث: عبادتهم لهم مع ذلك كله بلا دليل ولا برهان ولا إذن من الله عز وجل بل مجرّد الأراء والتقليد للأسلاف والكبراء والاباء والخبط في الجاهلية الجهلاء.

والرابع: احتجاجهم بتقديرهم على ذلك قدراً وقد جهلوا في هذا الاحتجاج جهلاً كبيراً فإنّه تعالى قد أنكرَ ذلك عليهم أشدَّ الإنكار فإنّه منذُ بعث الرسلَ وأنزلَ الكتبَ يأمر عباده بعبادتِه وحدَه لا شريكَ له وينهى عن عبادة ما سِوَاه[1].

* * *

[1] واحة الإيمان عند ابن القيم للأشقر (38/2).

الفصل السابع

المفاضلة بين الملائكة والبشر

أولاً – المفاضلة بين الملائكة وحقوقهم على بني البشر وأثر الإيمان بهم

ثانياً – جبريل عليه السلام أفضل الملائكة وأهمُّ صفاته

ثالثاً – المفاضلة بين الملائكة وصالحي البشر

رابعاً – حقوق الملائكة على بني آدم

1 – الإيمان بهم

2 – البعد عن الذنوب والمعاصي لأن ذلك يؤذيهم

3 – البعد عما تكرهه الملائكة

4 – محبتهم وذكر فضائلهم

5 – عدم سبهم أو تنقصهم أو الاستهزاء بهم

الفصل السابع

المفاضلة بين الملائكة والبشر

أولاً المفاضلة بين الملائكة:

الملائكة متفاوتون في الفضل يفضل بعضهم بعضاً شأنهم في ذلك شأن سائر المخلوقات فأفضل الملائكة المقّربون منهم.

يقول الحافظ ابن كثير في سياقه لأصناف الملائكة.

ومنهم الكروبيون الذين هم حول العرش وهم أشرفُ الملائكةِ مع حملةِ العرشِ وهم الملائكةُ المقرّبون كما قال تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: 172].

وأفضل المقربين رؤساءُ الملائكةِ الثلاثة الذين كان النبي (ﷺ) يذكرهم في دعائه الذي يفتتح به صلاته إذا قام من الليلِ حيث يقول: «اللهمَّ ربَّ جبريلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ فاطرَ السماواتِ والأرضَ» الحديث[1].

يقول ابن القيم ذكرَ هؤلاءِ الثلاثة من الملائكة لكمالِ اختصاصهم واصطفائهم وقربهم من الله وكم من مَلَكٍ غيرَهم في السماوات فلم يسمِّ إلا هؤلاء الثلاثة[2].

---

(1) المصدر نفسه ص (28/2).

(2) واحة الإيمان عند ابن القيم (30/2).

وقد اختُلِفَ في المفاضلة بين هؤلاء الثلاثة وقد اخترتُ أنَّ أفضلهم جبريل ثم ميكائيل ثم إسرافيل على حسب الترتيب في الحديث السابق.

ثانياً جبريل أفضل الملائكة وأهم صفاته:

وجبريلُ أطيبُ الأرواحِ العلوية؛ وأزكاها وأطهرها[1] وأشرفها، وهو السفير في كل خير وهدًى وإيمان وصلاح وقد أثنى الله سبحانه على عبده جبريل في القرآن أحسنَ الثناء ووصفه بأجمل الصفات فقال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ۝ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: 15-21].

فهذا جبريلُ وصفه ربُّه بأنه رسوله وأنه كريم عنده وأنه ذو قوة ومكانة عنده وأنّه مطاعٌ في السماوات وأنّه أمينٌ على الوحي فمن كَرَمِهِ على ربّه أنه أقربُ الملائكةِ إليه.

ومن قوته أنّه رفع مدائنَ قومِ لوطٍ على جناحه ثم قلبها عليهم فهو قويّ على تنفيذ ما يؤمر به غيرُ عاجزٍ عنه إذ تطيعُه أملاكُ السماوات فيما يأمرهم به عن الله تعالى[2].

وقد وصف الله تبارك وتعالى رسولَه جبريل عليه السلام بصفاتٍ في سورة التكوير

---

[1] رواه الحاكم في المستدرك (368/5) وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

[2] الترغيب والترهيب، للمنذري (200/2).

بأنّه كريم قوي مكين عند الرب تعالى مطاع في السماوات أمين فهذه خمسُ صفاتٍ تتضمّن تزكية سند القرآن وأنّه سماع محمد من جبريل وسماع جبريل من رب العالمين فناهيك بهذا السند علواً وجلالةً قولُ الله سبحانه بنفسه وتزكيته[1].

الصفة الأولى:

أنّ الرسول الذي جاء به إلى محمد (ﷺ) كريمٌ وليس كما يقول أعداؤه إن الذي جاء به شيطان فإنّ الشيطان خبيثٌ مخبَّثٌ لئيم قبيحُ المنظر عديمُ الخير باطنه أقبحُ من ظاهره وظاهره أشنعُ من باطنه ليس فيه ولا عنده خير فهو أبعد شيءٍ عن الكرم.

والرسول الذي ألقَىَ القرآن إلى محمد (ﷺ) كريمٌ جميل المنظر بهيُّ الصورة كثير الخير طيب مطيَّب معلم الطيبين وكل خير في الأرض من هدًى وعلم ومعرفة وإيمان وبر فهو مما أجراه ربه على يده وهذا غاية الكرم الصوري والمعنوي.

الوصف الثاني:

أنه ذو قوة كما قال تعالى في موضع آخر ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم: 5].

وفي ذلك تنبيه على أمور:

أ – أنه بقوته يمنع الشياطين أن تدنو منه وأن ينالوا منه شيئاً وأن يزيدوا فيه أو ينقصوا منه بل إذا راه الشيطان هرب منه ولم يقربه.

ب – أنه موالٍ لهذا الرسول الذي كذبتموه ومعاضد له وناصر كما قال

---

(1) في الملائكة المقربين ص (208).

تعالى: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: 4]. ومن كان هذا القويُّ وليَه ومن أنصارِه وأعوانه ومعلّمه فهو المهدي المنصور والله هاديه وناصره.

ج- أن من عادى هذا الرسول فقد عادى صاحبه ووليه جبريل ومن عادى ذا القوة والشدة تعرّض للهلاك.

د - أنه قادر على تنفيذ ما أمر به لقوته فلا يعجز عن ذلك مؤدٍ له كما أمر به لأمانته وهو القوي الأمين وأحدكم إذا انتدبَ غيرَه في أمر من الأمور لرسالة أو ولآية أو وكالة أو غيرها فإنّما ينتدِبُ لها القويَّ عليه الأمينَ على فعله وإن كان ذلك الأمر من أهم الأمور عنده انتدب له قوياً أميناً معظّماً ذا مكانةٍ عنده مطاعاً في الناس كما وصف الله عبده جبريل بهذه الصفات وهذا يدلُّ على عظمة شأن المرسِل والرسولِ والرسالةِ والمرسَل إليه حيث انتدب له الكريم القوي المكين عنده المطاع في الملأ الأعلى الأمين حق الأمين فإن الملوك لا ترسل في مهماتها إلا الأشراف ذوي الأقدار والرتب العالية.

الوصف الثالث:

مكين عند ذي العرش وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: 20]. أي له مكانةٌ ووجاهة عنده وهو أقربُ الملائكة إليه وفي قوله تعالى إشارة إلى علوِّ منزلة ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ﴾ إذ كان قريباً من ذي

العرش سبحانه.

الوصف الرابع:

مطاع وقد أشار بهذا الوصف إلى أنَّ جنوده وأعوانه يطيعونه إذا ندبهم لنصر صاحبه وخليله محمد (ﷺ) وفيه إشارةٌ أيضاً إلى أنَّ هذا الذي يكذّبونه وتعادونه سيصيرُ مطاعاً في الأرض كما أنَّ جبريلَ مطاعٌ في السماء وأن كلا من الرسولين مطاع في محله وقومه وفيه تعظيم له بأنه بمنزلة الملوك المطاعين في قومهم فلم ينتدب لهذا الأمرَ العظيمَ الأمثل هذا الملك المطاع.

الوصف الخامس:

الأمانة وفي وصفه بالأمانة إشارةٌ إلى حفظه ما حمّله وأدائه له على وجهه[1].

الوصف السادس:

جمال جبريل وبهاؤه قال تعالى واصفاً جبريل عليه السلام الذي يأتي بالوحي من عند الله: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ۝ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ۝ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ۝ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ۝ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ۝ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ۝ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ۝ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ۝ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ۝ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ۝ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ۝ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: 5-17]

---

[1] طريق الهجرتين، لابن القيم (95/11).

ثالثاً المفاضلة بين الملائكة وصالحي البشر:

هذه المسألةُ - وهي المفاضلةُ بين الملائكة وبين صالحي البشر - محلُّ خلافٍ بين أهل العلم وكلٌّ منهم أدلى بدلوه فيما يحتجُّ به من النصوص ولكنَّ القولَ الراجحَ هو تفضيلُ صالحي البشر على الملائكة وذلك للأدلة الآتية:

1 - روى أبو يعلى الموصلي في كتابه «التفسير» بسنده عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال ما خلقَ الله خلقاً أكرمَ عليه من محمّدٍ (ﷺ)[1].

2 - قوله تعالى قصاً عن إبليس فإنَّ هذا نصٌّ في تكريم آدم على إبليس إذ أمر بالسجود ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ [الإسراء: 62] وأنَّ السجودَ لآدم دليلٌ على تكريم الله له على من أمرهم بالسجود له.

3 - أن الله خلقه بيده والملائكة لم يخلقهم بيده بل بكلمته.

4 - قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30] وفيها دليلٌ على الخليفة من وجهين:

أولها: أن الخليفة يفضل على من هو خليفة عليه وقد كان في الأرض ملائكة.

وثانيها: أن الملائكة طلبتْ منَ اللهِ تعالى أن يكونَ الاستخلافُ فيهم والخليفةُ منهم فلولا أنَّ الخلافة درجة عالية أعلى من درجاتهم لما طلبوها وغبطوا صاحبها.

---

[1] في الملائكة المقربين ص (209).

5 – تفضيل آدم عليهم بالعلم حين سألهم الله عزّ وجلّ عن علم الأسماء فلم يجيبوه واعترفوا أنهم لا يعلمونها فأنبأهم آدم بذلك.

6 – قصة سجود الملائكة كلهم لآدم ولعن الممتنع عن السجود وهذا تشريفٌ وتكريم له.

7 – الآثار الكثيرة المروية عن السلف التي تفيدُ تفضيلَ صالحي البشر على الملائكة من غير نكيرٍ منهم لذلك ولم يخالِفْ أحدٌ منهم في ذلك إنّما ظهر الخلاف بعد تشتّتِ الأهواء بأهلها وتفرّقِ الآراء فقد كان ذلك كالمستقر عندهم.

8 – أحاديث المباهاة فإنّ الله يباهي ملائكته بعباده المؤمنين المتلبّسين بالطاعة كمباهته بأهل عرفة[1]، ونحو ذلك.

9 – ما أعدّه الله لصالحي البشر يوم القيامة من خير عميم وفضل عظيم ونعيم مقيم وقرة عين لا تنقطع وتلذذ بالنظر إلى وجهه الكريم نسأل الله أن يجعلنا منهم[2].

ولهذا كان أكثرُ الناسِ على تفضيلهم – أي صالحي البشر على الملائكة – لأن الملائكة عبادتهم بريئةٌ عن شوائب دواعي النفس والشهوات البشرية فهي صادرةٌ عن غيرِ معارضة ولا مانعٍ ولا عائقٍ وهي كالنّفَس للحي وأما عبادات البشر فمع منازعاتِ النفوسِ وقمعِ الشهواتِ ومخالفةِ دواعي الطبع فكانت

---

[1] المجموع الثمين، لابن عثيمين (138/1).

[2] في الملائكة المقربين ص (209).

أكملَ[1].

وخلاصةُ القول في هذه المسألة أن يقال إنَّ صالحي البشر أفضل من الملائكة باعتبار النهاية فإنَّ الله سبحانه وتعالى قد أعدَّ لهم من الثواب والنعيم في دار الكرامة الشيءَ الكثير ممّا لم يذكره للملائكة الأبرار عليهم السلام وقد انقطع عملُهم ولم يبقَ لهم إلا التمتع بما أنعم الله به عليهم وعمل الملائكة دائم لا ينقطع ولذلك يدخلون على المؤمنين ويسلمون عليهم.

وأما باعتبار البداية فإنَّ الملائكةَ أفضلُ لأنّهم جبلوا على طاعة الله قبل بني آدم وأطاعوا الله ولم يعصوه طرفةَ عينٍ وعبادتُهم أكثر بالجملة من عباداتِ البشرِ[2].

وبعدُ فإنَّ الخوضَ في هذه المسألة وطلبَ المفاضلة بين صالحي البشر والملائكة من فضول العلم الذي لا يضطر الإنسانُ إلى فهمه والعلم به والله المستعان[3].

رابعاً حقوق الملائكة على بني آدم:

1 – الإيمان بهم

الإيمان بالملائكة هو الركن الثاني من أركان الإيمان لا يتمُّ إيمانُ عبدٍ إلا بالإيمان بهم والقصدُ هو أنَّ الله عز وجل قد أوجبَ على بني إسرائيل الإقرار بوجود الملائكة وجعل هذا الإقرارَ ديناً يُسْأَل عنه الإنسانُ يوم القيامة وكلّما ازداد

---

(1) عالم الملائكة الأبرار ص (68).

(2) مسلم رقم (564).

(3) في الملائكة المقربين ص 219.

الإنسان معرفةً بأحوالهم ازداد إيماناً لأنه يتضمّن التصديقَ بالأخبار الواردة عن الله ورسله (ﷺ) فيهم ولولا أهميةُ معرفة أحوالهم وصفاتهم وأعمالهم لما جعل الله سبحانه وتعالى الإيمانَ بهم الركن الثاني من أركان الإيمان[1].

2 – البعد عن الذنوب والمعاصي:

أعظم ما يؤذي الملائكة الذنوب والمعاصي والكفر والشرك ولذا فإنَّ أعظم ما يهدى للملائكة ويرضيهم أن يُخْلِصَ المرءُ دينهَ لربه ويتجنّبَ كلَّ ما يغضبه[2].

3 – البعد عما تكرهه الملائكة

جاءت أحاديثُ تنهى عن بعض ما يؤذي الملائكة ودلت أحاديثُ أخرى على أنَّ الملائكة لا تدخلُ البيوتَ التي فيها ما تكرهه فمن هذه الأمور التي تكرهها الملائكة والتي يجب علينا الابتعاد عنها حتى لا يفوتنا الخير بابتعاد الملائكة عنا:

أ – الصور والتماثيل

ب – تربية الكلاب في البيوت

ج– تعليق الجرس على الدواب

د – ترك الاغتسال عن الجنابة حتى يصبح ذلك عادة عند الإنسان

هـ– التطيب بالخلوق وهو طيب مركب من زعفران وغيره وهو من الأطياب

---

[1] فتح الباري على صحيح البخاري (512/2).

[2] عالم الملائكة الأبرار ص (69).

الخاصّة بالنساء وقد تقدّمتِ الأحاديثُ التي تنهى عن ذلك.

و - ومن ذلك أكل الثوم أو البصل والكراث أو ما شابهها من البقول ذات الرائحة الكريهة كما جاء في حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال نهى رسولُ اللهِ (ﷺ) عن أكلِ البصلِ والكّراث فبلغتنا الحاجةُ فأكلنا منها فقال: «مَنْ أكلَ مِنْ هذِهِ الشجرةِ المنتنةِ فلا يقرَبنَّ مسجدَنا فإنَّ الملائكةَ تتأذّى مما يتأذّى منه الإنس»[1].

ز - ومما نهينا عنه من أجل الملائكة البصاقُ عن اليمينِ في الصلاة[2]، وقد جاء في علة النهي عن البصاق عن اليمين أنَّ على يمينَ المصلي ملكاً فلأجل إكرامه وعدم أذيته عن البصاق عن اليمين في أثناء الصلاة كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي (ﷺ) قال: «إذا قامَ أحدُكم فلا يبصقْ أمامَه فإنّما يناجِي اللهَ ما دامَ في مصلاّه ولا عن يمينه فإنَّ عن يمينهِ مَلَكاً وليبصقْ عن يسارِهِ أو تحَت قدميه فيدفِنْها»[3].

4 - محبتهم وذكر فضائلهم:

وعلى المسلم أن يحبَّ جميعَ الملائكة فلا يفرق في ذلك بين ملك وملك لأنهم جميعاً عباد الله عاملين بأمره تاركين لنهيه وهم في هذا وحدة واحدة لا

(1) في الملائكة المقربين ص (210).

(2) مسند أحمد (138/3) إسناده صحيح.

(3) في الملائكة المقربين ص (212).

يختلفون ولا يفترقون(1).

فنحن نحبُّهم لأنهم عبيد لله لا يعصون ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

ونحبّهم لأعمالهم العظيمة التي يقومون بها في السماوات والأرض.

ونحبهم لدعائهم لنا عند الله سبحانه وتعالى كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [غافر: 7-9].

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: 43].

وقال تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[الشورى: 5].

فهذه الأدعيةُ العظيمةُ من هؤلاء الملائكة الأخيار في ذاك المكان الشريف عند الرحمن الرحيم سبحانه وتعالى وذلك مما يوجب علينا أن نكافئهم على فضلهم ودعائهم لنا بحبهم ودعاء الله أن يجزيهم عنا خير الجزاء(2).

وقد كان النبيّ (ﷺ) يكافِىء مَنْ دعاه إلى طعامٍ بالدعاءِ له أن تصلي عليه

---

(1) تفسير القرطبي (36/2).

(2) البخاري رقم (6137).

الملائكةُ كما جاء في حديث أنس رضي الله عنه في قصةٍ زيارة النبي (ﷺ) فلّما فرغ قال: «أكلَ طعامَكم الأبرارُ وصلّتْ عليكم الملائكةُ وأفطرَ عندَكم الصائمون»[1].

وكّلما تدبّر الإنسان أعمالهم التي يقومون بها ازداد حباً لهم وتعظيماً ولو لم يكن بهم إلا الإيمان بالله لوجبَ حبهم لإيمانهم فكيف وفيهم من الخصال العظيمةِ والخلالِ الشريفة ما تكفي كلُّ واحدةٍ منها لمحبتهم وذكر فضلهم.

فالواجبُ على المسلم أن يحبَّ أولياء الله ومنهم الملائكة الكرام وأن يعظّمهم وأن يتدبّر ما جاء في صفاتهم العظيمة في الكتاب والسنة وأن يعتقدَ فضلهم وأن يذكرهم بما هم أهله وأن يثني عليهم بما أثنى الله به عليهم في كتابه وعلى لسان رسوله (ﷺ) وأن يتشوّق إلى لقائهم في دار كرامته[2].

5 – عدم سبهم أو تنقصهم أو الاستهزاء بهم:

من حقوق الملائكة عليهم السلام علينا ذكرهم بالخير دائماً والبعد عن أيّ كلامٍ فيه تنقُّصٌ لهم أو سبٌّ أو شتمٌ أو إظهار لعداوتهم فإنّ بُغْضَهم وعداوتهم كفرٌ بهم والكفر بهم كفر بالله عز وجل كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ

---

(1) العقيدة الإسلامية، د. أحمد جلي ص (178).

(2) في الملائكة المقربين ص (229).

لِلْكَافِرِينَ﴾[البقرة: 97-98]. وهذا وعيدٌ وذم لمعادي جبريل عليه السلام وإعلانٌ أنَّ عداوةَ البعض تقتضي عداوة الله لهم[1].

ولا شك أنّ ملائكة الله سبحانه وتعالى هم من أوليائه المقربين كما قال تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: 172] .

وعداوةُ أوليائه من أعظم الذنوب التي توجب غضب الله وعداوته كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ) «قال الله تعالى مَنْ عادَى لي ولياً فقد اذنتهُ بالحربِ»[2].

* * *

(1) في الملائكة المقربين ص (230).

(2) مسلم رقم (93).

الفصل الثامن

أثر الإيمان بالملائكة

في حياة الإنسان

1 – تقوية الشعور لدى المسلم بعظمة الله عز وجل

2 – تحقيق الإيمان

3 – معرفة الكثير من أسرار الكون والخلق مما يزيد الإيمان في القلب

4 – الحصول على الأمن والطمأنينة

5 – الإيمان بالملائكة يعكس مركز الإنسان الكبير في الكون

6 – الإيمان بالملائكة يدفع الإنسان إلى التشبه بهم في العبادة

7 – الإيمان بالملائكة يدفع الإنسان إلى الاستحياء من الله تعالى

8 – الإيمان بالملائكة يولّد الأنس ويبعد عنه اليأس

9 – الانتباه إلى أن هذه الحياة الدنيا لا تدوم

10 – عمل الحساب للآخرة

الفصل الثامن

أثر الإيمان بالملائكة في حياة الإنسان

للإيمانِ بالملائكة أثرٌ في حياة المسلم يتمثّل فيما يلي:

1 – إن الإيمان بالملائكة يقوي الشعور لدى المسلم بعظمة الله عز وجل

فالملائكةُ كما اتضح من صفاتهم ووظائفهم خلقٌ عظيمٌ في القدرةِ عظيمٌ في السرعةِ عظيمٌ في الطاعةِ وهذه العظمةُ تعكِسُ عظمةَ الباري سبحانه فهو الله الواحد الأحد بديعُ السماوات والأرض ولا يعدو الملائكة أن يكونوا جنداً من جنود لتنفيذ أمره وعبادةً له سبحانه[1].

والمقصود أنّ العلم بهذه المخلوقات العظيمة – وهي ملائكة الرحمن عليهم السلام – والتدبر في صفاتهم التي أخبرنا الله بها في القرآن وثبتت في السنة يجعل القلبَ مضطراً إلى تعظيم خالقه وهيبته وخوفه ورجائه فإنَّ خالق هذه المخلوقات العظيمة ولا شكَّ يستحقُّ أن يُعْبَدَ وحدَه سبحانه وتعالى وأن يُتّقى بأن يذكر فلا ينسى ويطاع فلا يعصى[2]. قال تعالى: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [الحج: 74-76] وقال

---

(1) في الملائكة المقربين ص (232).

(2) في الملائكة المقربين ص (233).

تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: 67].

وقد احتجّ العلماءُ بأحوالِ الملائكةِ مع الله عز وجل على وجوب إفرادِ الله سبحانه وتعالى بالعبادةِ وتعظيمه قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: 23].

وهذه الآية قيل: إنّها تَقْطَعُ عروقَ شَجْرِ الشّرْكِ وهذه الآية تبّينُ حالَ الملائكةِ الذين هم أقوى وأعظم من عُبِدَ من دون الله فإذا كان هذا حالُهم مع الله تعالى وهيبتهم منه وخشيتهم له فكيف يدعوهم أحدٌ من دون الله وإذا كانوا لا يُدْعَوْنَ مع الله لا استقلالاً ولا واسطةً فغيرُهم ممّن لا يقدر على شيء من الأموات والأصنام أولى أن لا يدعى ولا يعبد ففيه الردُّ على المشركين جميعاً الذين يدعون مع الله مَنْ لا يداني الملائكة ولا يساويهم في صفة من صفاتهم[1].

2 – تحقيق الإيمان:

قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: 285].

وقال رسول الله (ﷺ): «الإيمانُ أن تؤمنَ باللهِ وملائكتهِ وكتبه ورسله واليوم

---

[1] في إحياء علوم الدين (236/1).

الاخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»[1].

فمن آمنَ بالملائكةِ فقد حقّق ركناً واجباً من أركان الإيمان ويلزمه أن يأتيَ ببقية الأركان والكفر بهم ولا شك كفر باللهِ يوجِبُ زوالَ بقية الأركان كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: 136].

3 – معرفة الكثير من أسرار الكون والخلق مما يزيد الإيمان في قلب المؤمن:

يتعرّفُ الإنسان على كثيرٍ من أسرار الكون إذا تدبر الآيات التي ذكر الله فيها الملائكة وما وكلوا به من أعمال فينشرح صدره ويزداد إيمانه فإذا رأى السحابَ عرف أنّ له ملائكة تسوقه وهذه الجبال لها ملائكة تتولاها كذلك والنطفة في الرحم والميت في قبره ستأتيه ملائكة ويوم القيامة سيرى الملائكة فيحبُّ الملائكة ويزداد لله خشية وتعظيماً[2]، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: 27-28].

---

[1] المصدر نفسه (269/1).

[2] العقيدة الإسلامية، د. جلي ص (179).

4 – الحصول على الأمن والطمأنينة

فالأمنُ في الدنيا والطمأنينةُ والحياةُ الطيبة في الدنيا والآخرة متوقّفةٌ على تحقيق الإيمان ومن ذلك الإيمان بالملائكة عليهم السلام قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: 82]. وقال تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ۝ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ۝ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ۝ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ [طه: 123-126].

وهناك أمن اخر وطمأنينة حسية في الدنيا تحصل لمن حقق الإيمان بالملائكة وذلك أنّ الإنسانَ إذا عرف أنّ الله تعالى قد وكّل به ملائكةً يحفظونه من أمر الله وبأمر الله ويحفظونه من أعدائه أطمأنّت نفسُه وسكن قلبه وعلم أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه وعلم أنّه إنْ ذكرَ الله ببعض الأذكارِ المشروعة كآية الكرسي وقل هو الله أحد والمعوذتين ونحو ذلك أرسل الله تعالى ملائكةً يحفظونه من أعدائه فلا يضرّه جني ولا دواب ولا سحر إذا عرف ذلك ركنَ إلى اللهِ تعالى وتوكّل عليه وابتعدَ عمّا لا ينفعه من الذهاب إلى الكهان والسحرة ونحوهم لأنهم لا يزيدونه إلا خوفاً كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: 6].

وأينما كنتَ وأينما توجّهتَ في برٍ أو بحرٍ وأرضٍ أو سماءٍ وليلٍ أو نهارٍ فإنّ

معك ملائكة لا يفارقونك أبداً فاحرص على الأذكار المشروعة حتى تحصل على الأمن والطمأنينة ولذلك أرسل الله الملائكة إلى النبي (ﷺ) وأصحابه في الغزو لتثبيتهم كما قال سبحانه: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ۝ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: 9-12] [1].

5 – الإيمان بالملائكة يعكس مركز الإنسان الكبير في الكون:

فالملائكة الذين هم أشدُّ منّا قوةً وأقوى سريرة قد أُمروا بالسجود لآدم عليه السلام وسُخِّروا لتدبير أمور حياتنا في الدنيا والقيام بشؤوننا في الاخرة وفي هذا تنبيهٌ للإنسان الذي جعله الله خليفةً في الأرض أن يعرف قيمته وقدره وأن يتصرّف بناء على ذلك فيسلك الصراط المستقيم ويتجنّب طريق الغواية والضلال.

قال الشاعر:

قد رشـــحّوك لأمرٍ لو فطنتَ له ... فاربأْ بنفسِك أنْ ترعى مع الهَمَلِ

[1] ركائز الإيمان، محمد قطب ص (188).

6 – الإيمان بالملائكة يدفع الإنسان إلى التشبه بهم في الإقدام على الطاعات والابتعاد عن المعاصي:

فحينما يعلم الإنسان أنّ الملائكةَ يسبحون الليل والنهار لا يفترون وهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون يحمله ذلك التشبه بهم والسير على نهجهم فتقوى بذلك روحه المعنوية ويتدّرجُ في مدارج الكمال وقد نبّه الإمام الغزالي إلى هذا المعنى في بيانه لأسرارِ العبادات ففي بيانه لأسرارِ الصوم قال إنّ المقصودَ به الاقتداء بالملائكة في الكفِّ عن الشهوات بحسب الإمكان فإنّهم منزهون عن الشهوات وكلّما قمعَ الإنسان الشهوات ارتفع إلى أعلى عليين والتحقَ بأُفق الملائكة والملائكة مقرّبون من الله عز وجل والذي يقتدي بهم ويتشبّه بأخلاقهم يَقْرُبُ من الله عز وجل كقربهم فإنَّ الشبيه من الشبيه قريبُ[1]، وفي بيانه لأسرار الحج يقول واعلم أنكَ بالطوافِ متشبِّهٌ بالملائكة الحافّين حول العرش الطائفين حوله[2].

7 – إن الإيمان بالملائكة يدفع الإنسان إلى الاستحياء من الله تعالى والبعد عن معصيته في السر والعلن:

فإذا امن الإنسانُ بأنّ الملائكة تغشاه في مجالسه وتتولى كتابة أعماله وأنّهم يتعقبونه في صحوه وغفلته وفي سفره وحضره فلن يستسهلَ الإقدام على المعصية

---

(1) إحياء علوم الدين (236/1).

(2) المصدر نفسه (269/1).

أو اقتراف الخطيئة.

8 – إن الإيمان بالملائكة يولد لدى المرء الإنس ويبعد عنه اليأس:

فحينما يصاب المؤمنُ بالضيق أو يتعرّض للأذى أو يقابَلُ بالعداء والسخرية من أعداء دينه يجد من الملائكة الأنيسَ والرفيقَ الذي يواسيه ويصبّره ويشجعه على مواصلة السير والثبات على الحق فيقدم مَنْ ثَمَّ على مواجهة الأعداء إذ يعلم أنَّ الله تعالى معه يؤيده بجنود من عنده يكونون عوناً له وناصراً[1].

9 – الانتباه إلى أنّ هذه الحياة الدنيا فانية لا تدوم:

حين يتذكر الإنسان ملك الموت المأمور بقبض الأرواح حين يتوفاها ومن ثَمّ فلا تستحق هذه الحياةُ الدنيا أن ينشغل بها الإنسان عن الاخرة ويكفيه منها المتاع الطيب الحلال الذي أباحه الله.

10 – عمل الحساب للأخرة:

حين يتذكر الإنسان ترحيبَ الملائكة بالمؤمنين في الجنة وتعذيبهم للكفار في النار فيجب أن يكون ممن أنعم الله عليهم بجنته ورضوانه ووقاهم عذاب السّموم[2].

---

[1] العقيدة الإسلامية، د. جلي ص (179).

[2] ركائز الإيمان، محمد قطب ص (188).

الخاتمة

فهذا ما يسّره الله لي من حديثٍ في سلسلة أركان الإيمان عن (الإيمان بالملائكة) وقد سميت هذا الكتاب «الإيمان بالملائكة» فما كان فيه من صوابٍ فهو محضُ فضلِ الله عليَّ فله الحمد والمنَّة وما كان فيه من خطأ فأستغفر الله تعالى وأتوب إليه والله ورسوله (ﷺ) بريئان منه وحسبي أني كنتُ حريصاً ألا أقع في الخطأ وعسى ألا أُحرمَ من الأجر.

وأدعو الله أن ينفع بهذا الكتاب بني الإنسان وأن يذكرني من يقرؤه من إخواني المسلمين في دعائه فإن دعوة الأخ لأخيه بظهر الغيب مستجابة إن شاء الله تعالى وأختم هذا الكتاب بقول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: 10].

- وبقول الشاعر:

كُنْ فـاعـلاً لـلخيرِ قـوّالاً لـه	فـالقولُ مِثْـلُ الفِعْـلِ مُقْتَرِنانِ
مِنْ غوثِ ملهوفِ وشـبْعَةِ جائع	وَدِثَارِ عُـريانٍ وفِـدْيَـةِ عـانِ
فـإذا عَمِلـتَ الخيرَ لا تمْنُنْ بـهِ	لا خَـيْرَ في مُـتَـمَـدّحٍ مَـنَّـانِ
اشْكُرْ عَلى النَّعماءِ واصبِرْ للبلاء	فَكلاهُمـا خُلُقـان مَمْـدُوْحَـانِ
باللهِ ثِقْ ولَـهُ أَنِبْ وبِـهِ اسْـتَعِنْ	فـإذا فَعَلْـتَ فـأنـتَ خَيْرُ مُعَانِ
وإذا عَصَـيْتَ فَتُبْ لِرَبّكَ مُسْـرِعاً	حَـذَرَ الممـاتِ ولا تَقُـلْ لِمَ يَانِ

وإذا ابتُليتَ بِعُسْـــرَةٍ فاصْـــبِرْ لها   فـالعَسْـــرُ فَرْدٌ بَعْـدَ يُسْـــرَانِ

- وبقول الشاعر:

دِنْ بالشـريعةِ والكتابِ كِلَيْهِمَا   فكلاهُمـا للـدّين وَاسِــــطَتَـان
وكذا الشـريعةُ والكتابُ كلاهما   بجـميع مــا تأتيــهِ مُحتَـفِـظ
ولكلِ عبدٍ حافظانِ لكلِ ما   يقعُ الجزاءُ عليــه مخلوقــانِ
أُمِرَا بِكَتْـبِ كلامِــهِ وفِعــالِـهِ   وَهُمَــا لأمــرِ اللهِ مــؤتمــران[1]

سبحانك اللهمَّ وبحمدِك أشهدُ أن لا إله إلا أنتَ أستغفرُكَ وأتوبُ إليك

* * *

فهرس الموضوعات

كتب صدرت للمؤلف

1 . السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث

2 . سيرة الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه شخصيته وعصره

3 . سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه شخصيته وعصره

4 . سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه شخصيته وعصره

5 . سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه شخصيته وعصره

6 . سيرة أمير المؤمنين الحسن بن علي بن أبي طالب شخصيته وعصره

7 . الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط

8 . فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم

9 . تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا

10 . تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي

11 . عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين

12 . الوسطية في القرآن الكريم

13 . الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار

14 . معاوية بن أبي سفيان شخصيته وعصره

15 . عمر بن عبد العزيز شخصيته وعصره

16 . خلافة عبد الله بن الزبير

17 . عصر الدولة الزنكية

18 . عماد الدين زنكي

19 . نور الدين محمود

20 . دولة السلاجقة

21 . الإمام الغزالي وجهوده في الإصلاح والتجديد

22 . الشيخ عبد القادر الجيلاني

23 . الشيخ عمر المختار

24 . عبد الملك بن مروان بنوه

25 . فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة

26 . حقيقة الخلاف بين الصحابة

27 . وسطية القرآن في العقائد

28 . فتنة مقتل عثمان

29 . السلطان عبد الحميد الثاني

30 . دولة المرابطين

31 . دولة الموحدين

32 . عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج

33 . الدولة الفاطمية

34 . حركة الفتح الإسلامي في الشمال الإفريقي

35 . صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس

36 . استراتيجية شاملة لمناصرة الرسول (ﷺ) دروس مستفادة من الحروب الصليبية

37 . الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء

38 . الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة) والأيوبيون بعد صلاح الدين

39 . المشروع المغولي عوامل الانتشار وتداعيات الانكسار

40 . سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك

41 . الإيمان بالله جل جلاله (1)

42 . الإيمان باليوم الاخر (5)

43 . الشورى في الإسلام

44 . السلطان محمد الفاتح

45 . الإيمان بالقدر (6)

46 . الإيمان بالملائكة (2)

47 . الإيمان بالقرآن الكريم والكتب السماوية (3)



د. علي محمد محمد الصلابي

مفكر ومؤرخ وفقيه

- ولد في مدينة بنغازي بليبيا عام 1383 هـ/ 1963م

- نال درجة الإجازة العالمية (الليسانس) من كلية الدعوة وأصول الدين من جامعة المدينة المنورة عام 1993م، وبالترتيب الأول.

- حصل على درجة الماجستير من كلية أصول الدين في جامعة أم درمان الإسلامية عام 1996م.

- نال درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية بأطروحته فقه التمكين في القرآن الكريم من جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان عام 1999م.

- اشتهر بمؤلفاته واهتماماته في علوم القرآن الكريم والفقه والتاريخ والفكر الإسلامي.

- زادت مؤلفات الدكتور الصلابي عن ستين مؤلفًا أبرزها:

السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث

سير الخلفاء الراشدين

الدولة الحديثة المسلمة

وسطية القرآن الكريم في العقائد.

صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي.

تاريخ كفاح الشعب الجزائري

العدالة والمصالحة الوطنية

وآخر مؤلفاته "الإباضية. مدرسة إسلامية بعيدة عن الخوارج".

سلسلة أركان الإيمان ٣

الإيمان بالقرآن الكريم

والكتب السماوية

د. علي محمد محمد الصلابي



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقرآن عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ **[الحشر: 21]**.





سلسلة أركان الإيمان (5)

الإيمان بالقرآن الكريم

والكتب السماوية

تأليف

الدكتور علي محمد محمد الصّلاّبي

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

الإهداء

إلى كل إنسان يبحث عن منهج الله في الوجود

أهدي هذا الكتاب..

قال تعالى:

﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾

[الكهف: 110].

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ﴾

مقدمة

إنّ الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستهديه، ونستغفره، ونعوذُ باللهِ من شرور أنفسنا، ومن سيّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهدُ أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله.

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[آل عمران: 102].

وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1].

وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب: 70-71].

يا ربِّ لك الحمدُ حتى ترضى، ولك الحمدُ إذا رضيتَ، ولك الحمدُ بعد الرضا.

أمّا بعدُ: فهذا الكتابُ يتحدّث عن الإيمان بالقرآن الكريم والكتب السماوية، وهو من ضمن سلسلة أركان الإيمان، وقد قمت بتقسيمه إلى بابين؛ أما الباب الأول: فقد خصص للإيمان بالقرآن الكريم، وهو ينقسم إلى ثلاثة فصول:

الفصل الأول: تحدّثت فيه عن القرآن الكريم، تعريفه وعظمته وأسماؤه، ثم صفاته، ومنها: الحكيم، والعزيز، والكريم، والمجيد، والعظيم، والبشير، والنذير.

وفي الفصل الثاني: أشرت إلى خصائص القرآن الكريم، والتي من أهمها كونه كتاب إلهي، ومحفوظ ومعجز، ومبيَّن وميسَّر، وكتاب هداية، وكتاب الإنسانية كلها والزمن كله، ونزل بأرقى اللغات وأجمعِها، ومهيمنٌ على الكتب السماوية السابقة.

وفي الفصل الثالث: تكلمت عن مقاصد القرآن الكريم، والتي من أهمها، تصحيح العقائد والتصورات، وتزكية النفس البشرية، وعبادة الله وتقواه، وإقامة العدل بين الناس، والشورى، والحرية، ورفع الحرج، وتقرير كرامة الإنسان بالأخلاق والفضائل، وتقرير حقوق الإنسان، كحق الحياة والحرية والمساواة والعدالة، وحق الفرد في محاكمة عادلة، وحق الحماية من تعسف السلطة، وحق الفرد في حماية عرضه وسمعته، وحق اللجوء، وحقوق الأقليات، وحق المشاركة في الحياة العامة، وحق الدعوة والبلاغ والحقوق الاقتصادية، وحق المِلْكية، وحق العامل، وحق الفرد في كفايته من مقومات الحياة، وتأكيد حقوق الضعفاء.

ومن مقاصد القرآن الكريم: تكوين الأسرة الصالحة، وإنصاف المرأة وتحريرها من ظلم الجاهلية، وبناء الأمة الشهيدة على الناس، والسماحة والرحمة، والوفاء بالعهود والعقود.

وفي الفصل الرابع: تكلّمت عن جمع القرآن وكتابته، وقد بيّنت المراحل التي مرَّ بها المشروع الحضاري في جمع القرآن الكريم، وكتابته من عهد النبي صلى الله عليه وسلم إلى عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه.

أما الباب الثاني: فقد تحدّث عن الكتب السماوية، وقد تضمن خمسة فصول:

الفصل الأول: في وجوب الإيمان بالكتب السماوية .

والفصل الثاني: في الكتب التي ورد ذكرها في القرآن الكريم.

والفصل الثالث: في تحريف الكتب السابقة .

والفصل الرابع: في أهمية الإيمان بالكتب السماوية.

أما الفصل الخامس: ففي بيان أن القرآن الكريم نسخ الكتب السابقة كلها.

هذا وقد انتهيتُ من هذا الكتاب يوم الخميس في الساعة السادسة إلا ربع مساءً بتاريخ 24 شعبان 1431هـ الموافق 2010/8/5م، والفضل للهِ من قبلُ ومن بعدُ، وأسأله سبحانه وتعالى أن يتقبّل هذا العمل، ويشرح صدورَ العباد للانتفاع به، ويبارك فيه بمنه وكرمه وجُوْده، قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [فاطر: 2].

ولا يسعني في نهاية هذا الكتاب إلا أن أقفَ بقلب خاشعٍ منيبٍ أمام خالقي العظيم، وإلهي الكريم، معترفاً بفضله وكرمه وجُوده، متبرئاً من حولي وقوتي، ملتجئاً إليه في كل حركاتي وسكناتي، وحياتي ومماتي، فالله خالقي هو المتفضل، وربي الكريم هو المعين، وإلهي العظيم هو الموفق، فلو تخلّى عني ووكلني إلى عقلي ونفسي لتبلّد مني العقل، ولغابت الذاكرة، وليبست الأصابع، وجفّتِ العواطف، ولتحجّرت المشاعر، ولعجز القلم عن البيان، اللهم بصرني بما يرضيك، واشرح له صدري، وجنبني اللهم ما لا يرضيك، واصرفه عن قلبي وتفكيري، وأسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلى أن تجعل عملي لوجهك خالصاً، ولعبادك نافعاً، وأن تثيبني على كلِّ حرف كتبته، وتجعله في ميزان حسناتي، وأن تثيب إخواني الذين أعانوني على إتمام هذا الجهد الذي لولاك ما كان له وجودٌ ولا انتشارٌ بين الناس، ونرجو من كل مسلم

يطلع على هذا الكتاب ألا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه من دعائه.

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: 19].

وأختم هذا الكتاب بقول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: 10].

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

علي محمد الصَّلاّبي

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

Website.www.alsallab.com

Mail: info@alsallab.com

الباب الأول : الإيمان بالقرآن الكريم

الفصل الأول : القرآن الكريم

تعريفه، عظمته، وأسماؤه، صفاته

المبحث الأول: تعريف القرآن الكريم

المبحث الثاني: عظمة القرآن الكريم

المبحث الثالث: أسماء القرآن الكريم

المبحث الرابع: صفات القرآن الكريم

المبحث الأول : تعريف القرآن الكريم

أولاً . القرآن لغة:

اتفق أهلُ العلمِ رحمهم الله على أنَّ لفظَ «قرآن» اسمٌ وليس بفعلٍ ولا حرفٍ، لكنّهم اختلفوا فيه من جهة الاشتقاق أو عدمه، ومن جهة كونه مهموزاً أو غير مهموزٍ، ومِنْ جهة كونه مصدراً أو وصفاً على أقوال عدة تجمل فيما يأتي[1]:

القول الأول: إنه اسم علم غير منقول، وضع من أوّل الأمر علماً على الكلام المنزَّل على محمد صلى الله عليه وسلم، وهو اسمٌ جامدٌ غيرُ مهموز، مثل التوراة والإنجيل، وهذا القولُ مرويٌّ عن جماعةٍ من العلماء منهم: الشافعي، وابن كثير، وغيرهما رحمهم الله جميعاً، وقد نقل ابن منظور أنَّ الشافعي رحمه الله كان يقول: القرآن اسمٌ، وليس بمهموزٍ، ولم يؤخذ من قرأتُ، ولكنّه اسمٌ لكتابِ اللهِ مثل التوراة والإنجيل[2].

القول الثاني والثالث: هما قولان للقائلين بأن لفظ القرآن مهموز[3]:

الأول: أنّ القرآن مصدر «قرأ» بمعنى «تلا» كالرجحان والغفران، ثم نُقِلَ من المصدر، وجُعِلَ اسماً للكلام المنزَّل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ويشهد له قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قرأناهُ فَاتَّبِعْ قرآنهُ ﴾ [القيامة: 18] أي: قراءته.

وقول حسان بن ثابت يرثي عثمان رضي الله عنه:

ضَحَّوا بِأَشْمَطَ عُنْوَانُ السُّجُودِ بِهِ ... يُقَطِّعُ الليلَ تَسْبِيْحاً وقرآنا

أي: قراءةً[1].

---

(1) معجم مقاييس اللغة، (396/2)، المصباح المنير، ص (259)، لسان العرب، (128/1 . 131).

(2) لسان العرب (1/ 128) مادة ((قرأ)).

(3) معنى مهموز: أنّ الهمزة في لفظ «القران» أصلية، من «قرأ».

الثاني: أنّ القرآن وصفٌ على وزن فعلان، مشتقٌّ من «القَرْءِ» بمعنى الجمع، ومنه: قرأ الماءَ في الحوض؛ إذا جمعه، وقرأتُ الشيءَ قرآناً: جمعته وضممت بعضَه إلى بعض[2]. وسمي القرآن قرآناً، لأنّه جمعَ القِصَصَ، والأمرَ والنهيَ، والوعدَ والوعيدَ، والآيات والسور بعضها إلى بعضٍ، وهو مصدرٌ كالغفران والكفران[3].

القولان الرابع والخامس: هما قولان للقائلين بأنّ لفظ القرآن غيرُ مهموزٍ، لكنّهم اختلفوا في أصل اشتقاقه على قولين أيضاً:

الأول: أنّه مشتقٌّ من القرآن، تقول: «قَرنْتُ الشيء بالشيء» إذا ضَممتُ أحدُهما إلى الآخر.

قالوا: فسُميّ القرآن به: لِقران السُّور والآيات والحروفِ فيه، ومنه سُمّيَ الجمعُ بين الحجِّ والعمرة في إحرامٍ واحدٍ قراناً[4].

الثاني: أنّه مشتقٌّ من «القرائن» جمعُ قرينة، لأنّ آياته يُصدِّقُ بعضُها بعضاً، ويُشبه بعضُها بعضاً[5].

ويظهر ـ والله أعلم ـ أنّ أرجحَ هذه الأقوالِ هو القولُ الثاني، لِقُربِ اشتقاقه من كلمة القرآن لفظاً ومعنى. وأصبح لفظ القرآن ـ بعد ذلك ـ علماً على الكتابِ المنزل[6].

---

(1) عظمة القران الكريم، محمود الدوسري ص (47).
(2) لسان العرب (128/1).
(3) عظمة القران الكريم ص (47)، ومن القائلين بهذا القول الزجاج.
(4) البرهان في علوم القران، للزركشي (278/1).
(5) الإتقان في علوم القران، للسيوطي ص (137).
(6) عظمة القران الكريم ص (49).

ثانياً ـ القرآن اصطلاحاً:

وقد ذكر العلماء رحمهم الله للقرآن الكريم تعريفاً اصطلاحياً يُقرِّبُ معناه، ويميزه عن غيره، فعرّفوه بأنه: كلامُ اللهِ المنزلُ على نبيّه محمد صلى الله عليه وسلم، المعْجِزُ بلفظه، المتعبَّدُ بتلاوته، المكتوبُ في المصاحفِ، المنقولُ بالتواتر[1].

* * *

[1] المصدر نفسه ص (49).

المبحث الثاني : عظمة القرآن الكريم

تحدّث المولى عزّ وجلّ في كتابه عن عظمة القرآن الكريم، ومن خلال آياته الحكيمة نبيّن هذه العظمة، وإليك التفصيل:

1. ثناء الله على كتابه:

أثنى الله تعالى على كتابه العزيز في آيات كثيرة، ممّا يدلُّ على عظمته؛ فقد وصفه «بالعظيم» في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقرآن الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: 87].

ووصفه «بالإحكام» في قوله تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آياتهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: 1].

وذكر هيمنته على الكتب السابقة في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾ [المائدة: 48]. وهذا الكتاب هو المهيمن الحافظ لمقاصدِ الكتب المنزلةِ قبله، الشاهد المؤتمن على ما جاء فيها، يُقِرُّ الصحيحَ فيها، ويُصحّحُ الخطأ.

ووصفه في أم الكتاب بأنه «عليٌّ حكيم» في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: 4]. فهذه شهادةٌ من الله تعالى بعلوِّ شأن القرآن وحكمته، ولا ريبَ أنَّ من عظمة القرآن أنه «عليٌّ» في محلّه، وشرفه، وقدره، فهو عالٍ على جميع كتب الله تعالى، بسبب كونه معجزاً باقياً على وجه الدهر[1]. ومعنى الحكيم: المنظومُ نظماً متقناً، لا يعتريه أيُّ خللٍ في أي وجهٍ من الوجوه، فهو حكيمٌ في ذاته،

---

[1] التفسير الكبير (27 / 167).

حاكمٌ على غيره، والقرآن «حكيم» كذلك فيما يشتمل من الأوامرِ، والنواهي، والأخبار، وليس فيه حكمٌ مخالِفٌ للحكمة والعدل والميزان.

ومن ثناء الله تعالى على القرآن أن وصفه في ثلاث سور بأنه «كتاب مبارك». قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخرةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [الأنعام: 92]. وقال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: 155]. وقال تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ [الأنبياء: 50].

وبركة هذا الكتاب تمتدّ إلى يوم القيامة، وعطاؤه نامٍ لا ينفد .. يواكِبُ الحياة بهذا العطاء، ثم يأتي شفيعاً لأصحابه[1].

2. عظمة مُنَزِّلِهِ سبحانه وتعالى:

العظيم: ذو العظمة والجلال في ملكه وسلطانه عزّ وجلّ، والعظمةُ صفةٌ من صفاتِ الله، لا يقومُ لها خلق، والله تعالى خلق بين الخلق عظمةً يعظم بها بعضُهم بعضاً، فمن الناس من يعظَّم لمال، ومنهم من يُعَظَّم لفضلٍ، ومنهم يعظَّمُ لعلمٍ، ومنهم من يعظَّم لسلطانٍ، ومنهم من يعظَّم لجاهٍ، وكل واحد من الخلق إنما يعظم بمعنى دون معنى، والله عزّ وجلّ يعظّم في الأحوال كلها، فينبغي لمن عرفَ حقّ عظمة الله ألا يتكلّم بكلمةٍ يكرهها الله، ولا يرتكب معصية لا يرضاها الله، إذ هو القائمُ على كلّ نفسٍ بما كسبت[2].

فالله تعالى هو العظيمُ المطلق؛ لأنّه عظيمٌ في ذاته وأسمائه وصفاته كلها، فلا يجوزُ

---

[1] عظمة القران الكريم ص(59).

[2] النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى، محمد بن حمد (1 / 265).

قَصْرُ عظمته على شيءٍ دون شيءٍ منها، لأنَّ ذلك تحكم لم يأذن به الله[1].

فمن عظمته تعالى: أنّه لا يَشُقُّ عليه أنّ يحفظ السماواتِ السبع والأرضين السبع، ومن فيها، وما فيها، كما قال تعالى: ﴿وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: 255].

وتتجلّى عظمةُ القرآن العظيمِ في عظمة مُنزِّله جلّ جلاله، ويتّضحُ ذلك جلياً في عِدّة آيات، منها:

قوله تعالى: ﴿الم ۝ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [السجدة: 1 . 3].

وقوله تعالى:﴿حم ۝ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الجاثية،الأحقاف:1-2].

3 . فضلُ جبريل الذي نزل بالقرآن:

نوّه الله تعالى بشأن من نزل بالقرآن على رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهو جبريلُ عليه السلام، أمينُ الوحي الإلهي، وذكر فضله في عدة آيات، منها:

قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: 102].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ۝ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ [الشعراء: 192 . 194]. وقد وصف الله تعالى جبريل عليه السلام بخمس صفات في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير:19-21].

(1) عظمة القران الكريم ص (60).

وهذه الصفاتُ الخمسُ تتضمّن تزكيةَ سندِ القرآن العظيم، وأنّه سماعُ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من جبريل عليه السلام، وسماع جبريل الأمين من رب العالمين، فناهيك بهذا السند علواً وجلالة[1].

4. القرآن تنزيل رب العالمين:

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء: 192-193].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: 1].

وفيه ضميرُ العظمةِ، وإسنادُ الإنزال إليه تشريفٌ عظيم للقرآن[2].

فمن عظمة القرآن أنّه نزل من الله تعالى وحده لا من غيره، لنفع الناس وهدايتهم، فاجتمعت في القرآن العظيم فضائل، منها:

- أنه أفضل الكتب السماوية.
- نزل به أفضل الرسل وأقواهم، جبريل الأمين على وحي الله تعالى.
- نزل على أفضل الخلق محمد صلى الله عليه وسلم.
- نزل لأفضل أمة أخرجت للناس.
- نزل بأفضل الألسنة وأفصحها، وأوسعها، وهو اللسان العربي المبين[3].

5. القرآن مستقيم ليس فيه عوج:

قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۝ قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَناً﴾ [الكهف: 1. 2].

---

[1] عظمة القران الكريم ص (93).
[2] التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور (402/30).
[3] تفسير السعدي (485/3).

ونفي العوج عن القرآن له عدة أوجه، منها:

الأول: **نفي التناقض عن آياته**، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ **[النساء: 82]**.

الثاني: إن كل ما ذكر الله تعالى في القرآن من التوحيد والنبوة والأحكام والتكاليف، وهو حق وصدق، ولا خلل في شيء منه البتة[1].

وأخبر تعالى كذلك عن القرآن أنّه ليس فيه تضاد، ولا اختلاف، ولا عيب من العيوب التي في كلام البشر، فقال تعالى: ﴿قرآناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ **[الزمر: 28]**، أي: ليس فيه خلل ولا نقص بوجه من الوجوه، لا في ألفاظه، ولا في معانيه، وهذا يستلزمُ كمال اعتداله واستقامته[2].

فقد وصف الله تعالى كتابه العزيز بأوصاف عظيمة تدلُّ على أنه كامل من جميع الوجوه، وعظيم بكل ما تعبر عنه الكلمات، منها:

- **نفيُ العوج عنه:** وهذا يقتضي أنّه ليس في أخباره كذب، ولا في أوامره ونواهيه ظلمٌ ولا عبثٌ.

- **إثبات أنه مستقيم مقيم:** فالقرآن العظيم مستقيم في ذاته، مقيم للنفوس على جادّة الصوّاب، وإثبات الاستقامة يقتضي أنه لا يُخبرُ ولا يأمر إلا بأجلّ الأخبار، وهي الأخبار التي تملأ القلوب معرفةً، وإيماناً، وعقلاً، كالإخبار بأسماء الله وصفاته وأفعاله، والإخبار بالغيوب المتقدّمة والمتأخرة، وأن أوامره ونواهيه،تزكي النفوسَ وتطهرها وتنمّيها وتكمّلها لاشتمالها على كمال العدل، والقسط،

---

(1) التفسير الكبير، للرازي (64/21).

(2) تفسير ابن كثير (53/4)، تفسير السعدي (723/1 . 724).

والإخلاص، والعبودية لله رب العالمين، وحده لا شريك له، فحقيق بكتاب موصوف بما ذُكر، أن يَحمد الله تعالى نفسه على إنزاله[1]، وينفي العوج عن القرآن الكريم، وإثبات استقامته فتتجلّى عظمته، وعلوّ شأنه، ومنزلته عند الله[2].

6. خشوع الجبال وتصدُّعها:

قال تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقرآن عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: 21] أي: لاتّعظ الجبلُ، وتصدّعَ صخرُه، من شدّة تأثره من خشية الله، ففي هذا: بيانُ حقيقة تأثير القرآن وفعاليته في المخلوقات، ولو كانت جبلاً أشمَّ، وحجراً أصمّ[3]، وضُرب التصدّعُ مثلاً لشدة الانفعال والتأثر؛ لأن منتهى تأثر الأجسام الصلبة أن تنشق وتتصدّع، ولا يحصل ذلك بسهولة.

والخشوعُ: هو التّطأطؤ والرّكوع، أي: لرأيته ينزل أعلاه إلى الأرض.

والتصدّع: التشقق، أي: لتزلزل وتشقق من خوف الله تعالى[4].

ولا شك أنَّ هذا تعظيمٌ لشأن القرآن، وتمثيلٌ لعلوّ قدره، وشدّة تأثيره في النفوس، لما فيه من بالغِ المواعظ والزواجر، ولما اشتمل عليه من الوعد الحقّ، والوعيد الأكيد، فإذا كان الجبلُ في غلظته وقساوته لو فهم هذا القرآن كما فهمتموه . لخشع وتصدّع من خوف الله تعالى، فكيف يليقُ بكم أيُّها البشر ألاّ تلينَ قلوبكم وتخشعَ وتتصدّعَ من خشية الله، وقد فهمتم عن الله أمره، وتدبّرتم كتابه[5]، والمقصود من إيراد الاية: إبرازُ عظمةِ القرآن الكريم، والحثُّ على تأمل مواعظه الجليلة، إذ لا عذر لأحد في

---

(1) عظمة القران الكريم ص (70).
(2) المصدر نفسه ص (70).
(3) أضواء البيان (76/8).
(4) التحرير والتنوير (104/28).
(5) تفسير ابن كثير (343/4 . 344).

ذلك، وأداء حق الله تعالى في تعظيم كتابه، وتوبيخ من لا يحترمُ هذا القرآن العظيم، وفيه كذلك تمثيل وتخييل لعلوِّ شأن القرآن وقوة تأثير ما فيه من المواعظ[1].

7. انقياد الجمادات لعظمة القرآن:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قرآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾ **[الرعد: 31]**.

فهذا شرطٌ جوابُه محذوف، والمرادُ منه: تعظيمُ شأن القرآن العظيم.

والمعنى: ولو أنَّ قرآناً سُيرت به الجبال عن مقارّها، وزُعزعت عن مضاجعها، أو قُطّعت به الأرض حتى تتصدّع وتتزايل قِطَعاً، أو كُلم به الموتى، فتسمع وتجيب، لكان هذا القرآن، لكونه غاية في التذكير، ونهاية في التخويف[2].

والمقصود: بيانُ عظم شأن القرآن العظيم، وفساد رأي الكفرة، حيث لم يقدّروا قدره العلي، ولم يعدّوه من قبيل الآيات فاقترحوا غيره، مما أُوتي موسى وعيسى عليهما السلام . فالمعنى: أي: بإنزاله أو بتلاوته ﴿وَلَوْ أَنَّ قرآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾، وزعزعت عن مقارها كما فُعل ذلك بالطور لموسى عليه الصلاة والسلام أي: شققت وجُعِلت أنهاراً ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ﴾، كما فعل بالحجر حين ضربه موسى عليه السلام بعصاه، أو جعلت قِطَعاً متصدّعة أي: بعد ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾ أحييت بقراءته عليها، كما أُحييت لعيسى عليه السلام، لكان هذا القرآن، لكونه الغاية القصوى في الانطواء على عجائب آثار قدرة الله تعالى وهيبته[3].

---

(1) تفسير أبي السعود (233/8) زاد المسير (224/8).

(2) الكشاف، للزمخشري (498/2)، عظمة القران الكريم ص (72).

(3) تفسير أبي السعود (21/5 . 22).

8. تحدي الإنس والجن بالقرآن:

من مظاهر عظمة القرآن وعلوِّ شأنه، أنّ الله تعالى تحدّى الإنسَ والجنَّ أن يأتوا بمثله، أو بعشرِ سورٍ من مثله أو بسورةٍ مثله[1].

قال تعالى: ﴿قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقرآن لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: 88].

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [هود: 13 ـ 14].

ومع ذلك كله، ما ثابوا إلى رشدهم، وما وجدوا ما يتكلّمون به، فعادوا لما نهوا عنه، وقالوا: «اختلقه محمد عمداً»، فاستدرجهم الله تعالى من حيث لا يعلمون، ووصل بهم إلى غايةِ التّبكيت والخذلان، وتحدّاهم أن يأتوا بسورةٍ مثلَ القرآن فعجزوا.

قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [يونس: 38].

ولما بُهِتَ الذين كفروا؛ ولم يستسلموا؛ صاروا كالذي يتخبّطه الشيطانُ من المسّ، مرةً يقولون استهزاء: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ [الأنفال: 31] وأخرى يقولون عابثين: ﴿ائْتِ بِقرآن غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: 15].

وصار أمرُهم على ما يقول الله العظيم: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

---

[1] عظمة القران الكريم ص (73).

الظَّالِمِينَ﴾[يونس: 39][1].

فهذا القرآن العظيمُ ليس ألفاظاً وعباراتٍ يحاول الإنس والجن أن يحاكوها، كلا وربّي، إنّه كلام الله تعالى، الذي تحدّى به الخلق كلهم، فقال عزّ من قائل حكيم: ﴿قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقرآن لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: 88].

فهذا تنويهُ بشرفِ القرآن وعظمتِه، وهذه الاية ونحوها تُسمّى آيات التحدي، وهو تعجيزُ الخلق أن يأتوا بمثل هذا القرآن الكريم، أو سورة منه[2].

وكيف يقدرُ المخلوقُ من ترابٍ أن يكون كلامُه ككلام ربّ العالمين؟! أم كيف يقدِرُ الناقصُ الفقيرُ من كل الوجوه أن يأتيَ بكلام ككلام الكامل، الذي له الكمال المطلق، والغنى الواسع من جميع الوجوه؟ هذا ليس في الإمكان؛ ولا في قدرة الإنسان، وكل مَنْ له أدنى ذوق ومعرفة بأنواع الكلام، إذا وزن هذا القرآن العظيم بغيره من كلام البلغاء؛ ظهرَ له الفرق العظيم[3].

فعظمةُ القرآن، وعلوُّ شأنه، لا تجعل للخَلْق من إنسٍ وجِنٍّ مطمعاً في الإتيان بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً[4].

---

(1) عظمة القران الكريم ص (75).

(2) المصدر نفسه ص (76).

(3) عظمة القران الكريم ص (77).

(4) المصدر نفسه ص (77).

المبحث الثالث : أسماء القرآن الكريم

للقرآن الكريم أسماء عظيمة، من أهمها:

1 . الفرقان:

سمّى الله تعالى القرآن فرقاناً في أربع آيات في كتابه المبارك، وهي:

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾[الفرقان: 1].

وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: 4].

وقال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقرآن هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة 185].

وقال تعالى: ﴿وَقرآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً ﴾ [الإسراء: 106].

وذكر المفسّرون في سببِ تسمية القرآن بالفرقان أقوالاً، منها:

- سُمي بذلك، **لأنّ نزوله كان متفرّقاً**، أنزله تعالى في نيف وعشرين سنة، في حين أنَّ سائرَ الكتبِ نزلت جملةً واحدةً[1].
- سُمي بذلك، **لأنه يفرّق بين الحق والباطل**، والحلال والحرام، والمجمل والمبين، والخير والشر، والهدى والضلال، والغي والرشاد، والسعادة والشقاوة، والمؤمنين والكافرين، والصادقين والكاذبين، والعادلين والظالمين، وبه سُمي عمر بن الخطاب رضي الله عنه الفاروق.

وقد بيّن ابنُ عاشور رحمه الله سببَ تسمية القرآن بالفرقان بقوله: ووجه تسميته

---

[1] عظمة القران الكريم ص (152).

الفرقان أنّه امتازَ عن بقية الكتب السماوية بكثرةِ ما فيه من بيان التفرقة بين الحق والباطل، فإنّ القرآن يَعْضُدُ هديه بالدلائل والأمثال ونحوها، وحسبُك ما اشتمل عليه من بيان التوحيد وصفات الله مما لا تجدُ مثله في التوراة والإنجيل، كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: 11][1].

- وقيل: الفرقانُ: هو **النجاةُ**، سُمي بذلك لأنَّ الخلقَ في ظلمات الضلالات، وبالقرآن وجدوا النجاة، وعليه حمل المفسرون قوله تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: 53][2].

وسواء كانت تسميةُ القرآن العظيم بالفرقان؛ لأنّ نزوله كان متفرّقاً في نيف وعشرين سنة، بينما سائر كتب الله تعالى نزلت جملةً واحدةً، أو سُمي بذلك لأنّه يفرّق بين الحق والباطل، أو لأنّ فيه نجاة من ظلمات الضلالات، فهذا الاختلافُ في التنوع يدلُّ دلالةً صريحةً على عظمة القرآن، ورِفْعةِ منزلته عند الله تعالى، وعلوّ شأنه[3].

2 . البرهان:

سمّى الله القرآن برهاناً في اية واحدة في كتابه العزيز، وهي قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [النساء: 174]. فهذا خطابٌ لكلّ أصحاب المللِ، اليهود والنصارى والمشركين وغيرهم، أنَّ الله تعالى أقامَ بهذا القرآن الحجة عليهم، تُبرهن لهم بطلانَ ما هم عليه من الدين المنسوخ، وهذه الحجةُ تشمل الأدلة العقلية والنقلية والآيات الافاقية، كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: 53].

---

(1) عظمة القران الكريم ص (153).
(2) المصدر نفسه ص (154).
(3) المصدر نفسه.

بل كفى بالقرآن العظيم وحده برهاناً على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم في دعوى الرسالة[1].

فالقرآن برهانٌ من الله لعباده، أقام به الحجةَ عليهم، وأظهر من خلاله أوضحَ الدلالات، وأقواها على موضوعاته ومعانيه وحقائقه في العقيدة والحياة، وكلُّ من تعامل مع أدلة القرآن في يُسرها ووضوحها، وتأثر قلبه وعقله بها، وقارنها بالأدلة والبراهين والأقيسة التي أوجدتها العقول البشرية، وقررتها وبينتها، كل من فعل ذلك يُدركُ طرفاً من البرهان القرآني، ويسره، ووضوحه[2].

وتتجلّى عظمة القرآن الكريم ومنزلتُه العالية من خلال تسميته بالبرهان، ذلك لأن الله تعالى أقامَ به الحُجة على عباده، تُبرهن لهم بطلان ما هم فيه من الدين المنسوخ، وهي حُجة متنوعة في الاستدلال لتستوعبها عقولُ البشرِ على اختلاف فهومهم وثقافاتهم، وهذا من رحمة الله تعالى وحكمته[3].

3 . الحق:

سمّى الله تعالى القرآن حقاً في مواضعَ عِدّة من كتابه، نأخذُ منها ما له صلة بموضوعنا، وهي: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴾ **[الحاقة: 51]**. أي: وإنّ القرآن لكونه من عند الله حقٌّ لا ريبَ فيه، ولا يتطرّقُ إليه شك[4].

وقال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ **[الأنبياء: 18]**. والقذف: الرّمي، أي: نرمي بالحقِ على الباطل أي: يقهره ﴿فَيَدْمَغُهُ﴾

---

(1) فتح القدير (542/1)، أضواء البيان (79/7 . 80).
{قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ *}
(2) مفاتيح للتعامل مع القران ص (34).
(3) عظمة القران الكريم ص (156).
(4) فتح القدير، للشوكاني (401/5).

وأصلُ الدمغ: شجُّ الرأس حتى يبلغَ الدماغ، ومنه الدّامغة، والحق هنا: القرآن، والباطل: الشيطان في قول مجاهد[1].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ [الأنعام: 66].

والضمير في قوله عائدٌ على القرآن؛ الذي فيه تصريفُ الآيات

وقوله تعالى: جملةٌ ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾، جملة اعتراضية، تتضمّن شهادةَ الله بأنّ هذا القرآن المنزَّل على هذا النبيّ الكريم صلى الله عليه وسلم هو الحقُّ من اللهِ[2]، والمعنى ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ﴾، أي بالقرآن الذي جئتم به، والهدى، والبيان، ﴿قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾، يعني: قريشاً، ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾، أي: الذي ليس وراءه حق، ﴿قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾، أي: لستُ عليكم بحفيظ، ولستُ بموكل بكم[3].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [هود: 17]. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾ أي بالقرآن، ولم يُصدق بتلك الشواهد الحقة. وقوله تعالى: ﴿فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ في شك من أمر القرآن، وكونه من عند الله عز وجل[4]، وفيه تعريضٌ بغيره صلى الله عليه وسلم، لأنّه معصومٌ عن الشك في القرآن[5].

وقوله تعالى ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ : أي: القرآن حق من الله تعالى لا مرية ولا شك فيه. وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾، أي: إمّا جهلاً منهم وإمّا ظلماً وعناداً وبغياً، وإلا فمن قصده حسناً، وفهمه مستقيماً، فلابدّ أن يؤمن به،

---

[1] تفسير القرطبي (295/11).
[2] تفسير الثعالبي (529/1).
[3] تفسير ابن كثير (315/3
[4] تفسير أبي السعود (195/4).).
[5] فتح القدير، للشوكاني (288/2).

لأنه يرى ما يدعوه إلى الإيمان من كلِّ وجهٍ[1].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ۝ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِىءُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ [سبأ: 48 . 49]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ ﴾ أي: وهو الإسلام والقرآن[2]، فهذا القرآن العظيم الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم هو الحق: الحق القوي الذي يقذف به الله تعالى، فمن ذا يقف للحق الذي يقذف به الله تعالى؟

وكأنَّما الحق قذيفةٌ تصدعُ وتخرقُ وتنفذ، ولا يقفُ لها أحدٌ في طريق، يقذف بها الله تعالى علاّم الغيوب، فهو يقذف بها عن علم، ويوجهها على علم، ولا يخفى عليه هدفٌ، ولا تغيب عنه غاية، فالطريقُ أمامه تعالى مكشوف ليس فيه ستور[3].

ومن خلال تسمية القرآن الكريم باسم الحق تبرزُ عظمتهُ ومنزلتُه العالية، فلا بدّ أن يؤمنَ الناسُ بهذا الحق الأوحد، ويستجيبوا له؛ لأنّ مصدره هو الإله الأوحد جلّ جلاله[4].

4 . النبأ العظيم:

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ۝ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ [ص: 67 . 68] أي: خبر عظيم، وشأن بليغ، وهو إرسالُ الله إياي إليكم أي: غافلون. في ﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ أي: غافلون . في قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴾ يعني:

---

(1) تفسير السعدي (359/2).
(2) زاد المسير (466/6).
(3) في ظلال القرآن (2915/5).
(4) عظمة القران الكريم ص (161).

القرآن[1]

وقال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴾ [النبأ: 1 . 2].

ولاشك بأنّ القرآن نبأ عظيم، فمنذ إيجاد البشرية، وتكوينها، ما رأتْ ولا سمعتْ بمثل هذا القرآن العظيم، فهو عظيمٌ في أسلوبه، وعظيمٌ في روعته، وعظيمٌ في معناه، وعظيمٌ في جمال تركيبه، وعظيمٌ في وعده ووعيده، وعظيم في أحكامه، وعظيمٌ في أمره ونهيه، وعظيمٌ في أخباره وقصصه وأمثاله[2].

5 . البلاغ:

قال تعالى: ﴿هَذَا بَلاَغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ﴾ [إبراهيم: 52].

فلمّا بين البيان المبين في هذا القرآن قال في مدحه: ﴿هَذَا بَلاَغٌ لِلنَّاسِ﴾، أي: يتبلّغون ويتزودون إلى الوصول إلى أعلى المقامات، وأفضل الكرامات ما اشتمل عليه من الأصول والفروع، وجميع العلوم التي يحتاجها العباد ﴿وَلِيُنْذَرُوا بِهِ﴾، لما فيه من الترهيبِ من أعمال وما أعد الله لأهلها من العقاب[3].

6 . الروح:

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: 52].

والمعنى: ﴿وَكَذَلِكَ ﴾ حين أوحينا إلى الرسل قبلك ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾، وهو: هذا القرآن سمّاه روحاً، لأنّ الروح يحيا به الجسد، والقرآن تحيا به القلوب والأرواح، وتحيا به مصالح الدنيا والدين، لما فيه من الخير الكثير، وهو محض

---

(1) تفسير ابن كثير (43/4).

(2) عظمة القرآن الكريم ص (162).

(3) تفسير السعدي (428/1).

منة الله على رسوله صلى الله عليه وسلم وعباده المؤمنين، من غير سبب منهم؛ ولهذا قال تعالى ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي﴾ أي: قبل نزوله عليك ﴿مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ﴾ : أي: ليس عندك علمٌ بأخبار الكتب السابقة، ولا إيمان وعمل بالشرائع الإلهية، بل كنت أمياً لا تخطُّ ولا تقرأ، فجاءك هذا الروحُ الذي ﴿جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ يستضيئون به في ظلمات الكفر والبدع، والأهواء المردية، ويعرفون به الحقائق، ويهتدون به إلى الصراط المستقيم[1].

7 . الموعظة:

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [يونس: 57] يعني: القرآن يتعظ به من قرأه وعرف معناه.

يا أيها الناس قد جاءكم كتاب جامع للحكمة العملية، الكاشفة عن محاسن الأعمال ومقابحها، المرغبة في المحاسن، والزاجرة عن المقابح.

قد جاءكم كتابٌ جامعٌ لكلّ المواعظ أو الوصايا الحسنة؛ التي تُصلح الأخلاق والأعمال، وتزجر عن الفواحش، وتشفي الصدور من الشكوك وسوء الاعتقاد، وتهدي إلى الحق واليقين والصراط المستقيم الموصل إلى سعادة الدنيا والآخرة[2].

فكفى بالقرآن واعظاً، وكفى بالقرآن زاجراً، وكفى بالقرآن هادياً ومُذَكّراً[3].

8 . الشفاء:

سمّى الله عزّ وجلّ القرآن العظيم شفاءً في ثلاثة مواضع من كتابه، وهي:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي

---

[1] تفسير السعدي (434/4-435).

[2] التفسير المنير في العقيدة والشريعة، وهبة الزحيلي (213/6).

[3] عظمة القرآن الكريم ص (173).

الصُّدُورِ﴾[يونس: 57]. أي: دواء للقلوب من أمراضها التي هي أشدُّ من أمراض الأبدان، كالشك، والنفاق، والحسد، والحقد، وأمثال ذلك[1].

وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقرآن مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: 82] فالقرآن كله شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين[2].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت: 44].

فالقرآن الكريم شفاءٌ من أمراض القلوب والنفوس والجوارح، وأمراض السياسة والاقتصاد والحياة والحضارة، وغيرها من أمراض العصر، فمن عظمة القرآن الكريم، وعلوِّ شأنه، وعظمةِ تأثيره: أنَّ فيه الشفاء الكامل لأمراض الاعتقادات الباطلة، والأخلاق المذمومة، والأمراض الجسدية، وشفاؤه يمتدّ كذلك إلى الأمراض المعاصرة المزمنة؛ لو أخذ الناسُ بتعاليمه وأدويته النافعة فعملوا بها[3].

9. أحسن الحديث:

قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ [الزمر: 23]. يعني: أحكم الحديث، وهو القرآن[4]، وأحسن الكتب المنزلة من كلام الله، هذا القرآن، وإذا كان هو الأحسن، عُلِمَ أنَّ ألفاظَه أفصحُ الألفاظ وأوضحُها، وأن معانيه أجلُّ المعاني، لأنه أحسنُ الحديث في لفظه ومعناه، متشابه في الحسن والائتلاف، وعدم الاختلاف بوجه من الوجوه، حتى إنّه كلّما تدبّره المتدبر، وتفكّر فيه المتفكر، رأى من اتفاقه، حتى في

---

(1) روح المعاني (176/1).

(2) عظمة القرآن الكريم ص (175).

(3) عظمة القران الكريم ص (176).

(4) المصدر نفسه ص (177).

معانيه الغامضة ما يبهرُ الناظرين، ويجزم بأنّه لا يصدر إلا من حكيم عليم[1].

وقد سُمّي القرآن حديثاً في مواضع كثيرة من كتاب الله تعالى، منها: قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: 185]. وقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف: 6]. وقوله تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴾ [النجم: 59]. وقوله تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ [القلم: 44].

وكون القرآن العظيم أحسن الحديث على الإطلاق، وأحسن الكتب المنزلة من كلام الله تعالى، من حيث فصاحة ألفاظه ووضوحها، وجلالة معانيه وكثرتها ونفعها؛ دلّ ذلك على عظمته، وعلوّ شأنه ورفعته[2].

* * *

---

[1] المصدر نفسه ص (178).
[2] المصدر نفسه ص (179).

المبحث الرابع : صفاتُ القرآن الكريم

ذكر المولى عز وجل أوصافاً عديدة للقرآن الكريم، منها:

1 . الحكيم:

وصف الله تبارك وتعالى كتابه بأنّه حكيمٌ في عدة آيات، منها: قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيات الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾ [يونس: 1]. وقال تعالى: ﴿يس ۝ وَالْقرآن الْحَكِيمِ ﴾ [يس: 1 . 2]. فهذا قَسَمٌ من الله تعالى بالقرآن الحكيم، وقد وصفه بالحكمة، وهي وضعُ كلِّ شيء في موضعه اللائق به.

والقرآن الحكيمُ يخاطبُ كلَّ أحدٍ بما يناسبه ويؤثر فيه كائناً مَنْ كان، وهذا من مقتضيات أنْ يكونَ حكيماً.

والقرآن الحكيم يُربي أيضاً بحكمة، وفق منهج عقلي ونفسي مستقيم، منهج يوجه طاقات البشر إلى الوجه الصالح القويم، ويقرر للحياة كذلك نظاماً يسمحُ بكلّ نشاطٍ بشري في حدود ذلك المنهج الحكيم[1].

ومن إحكام آيات القرآن الحكيم:

- أنها جاءت بأجلِّ الألفاظ وأوضحها، وأبينها، الدّالةِ على أجلّ المعاني وأحسنها.
- أنها محفوظةٌ من التّغيير والتبديل، والزيادة والنقص والتحريف.
- أنّ جميعَ ما فيها من الأخبار السابقة واللاحقة، والأمور الغيبية كلّها مطابقة للواقع، مطابق لها الواقع، لم يخالفها كتاب من الكتب الإلهية، ولم يخبر بخلافها نبي

[1] في ظلال القرآن (2958/5).

من الأنبياء، ولم يأت ولن يأتي علم محسوس ولا معقول صحيح يناقض ما دلت عليه.

- أنها ما أمرت بشيء، إلا هو خالص المصلحة، أو راجحها، ولا نهت عن شيء، إلا وهو خالص المفسدة، أو راجحها، وكثيرا ما يجمع بين الأمر بالشيء، مع ذكر حكمته وفائدته، والنهي عن الشيء مع ذكر مضرته.
- أنها جمعت بين الترغيب والترهيب، والوعظ البليغ، الذي تعتدل به النفوس الخيرة، وتحتكم فتعمل بالجزم.
- أنك تجد آياتها المتكررة كالقصص والأحكام ونحوها، قد اتفقت كلها وتواطأت فليس فيها تناقض ولا اختلاف.

وأنى للباطل أن يدخل على هذا الكتاب الحكيم، وهو تنزيل من حكيم حميد، والحكمة ظاهرة في بنائه، وتوجيهه، وطريقة نزوله، وفي علاجه للقلب البشري من أقصر طريق[1].

2- العزيز:

قال الله تعالى في وصف القرآن : ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾[فُصِّلَت:41] أي يصعب مناله ووجود مثله[2].

والعزيز: النفيس، وأصله من العزة، وهي المنعة؛ لأن الشيء النفيس يدافع عنه ويحمى عن النبذ، ومثل ذلك يكون عزيزا، والعزيز أيضا: الذي يغلب ولا يغلب، وكذلك

---

(1) تفسير السعدي (227/4).

(2) المفردات في غريب القرآن ص (235-236).

حجج القرآن[1].

ووصف تعالى الكتاب بالعزة؛ لأنه بصحة معانيه ممتنع الطعن فيه، والإزراء عليه، وهو محفوظ من الله تعالى[2]، وجميع أقوال المفسرين بأنه (عزيز) ما يلي:

- منيع من الشيطان لا يجدُ إليه سبيلاً، ولا يستطيع أن يغيره، أو يزيد فيه أو ينقص منه.
- كريم على الله، وعزيز على الله، وعزيز من عند الله.
- عديمُ النظير، منيعٌ من الباطل، ومن كل من أراده بتحريف أو سوء.
- يمتنع على الناس أن يقولوا مثله فهو غالبٌ وقاهرٌ، والمتأمل في هذه الأقوال يجدها جميعاً تنطبق على وصفاً ﴿عَزِيزٌ ﴾، وهي من اختلاف التنوع لا التضاد، تدل على عظمة القرآن، وعزته، وعلو شأنه، ورفعته.

فنحمد الله العزيز الذي أنزل كتاباً عزيزاً: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴾ **[فصلت: 41]** على نبي عزيز ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ **[التوبة: 128]**. لأمة عزيزة ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ **[المنافقون: 8]**[3].

3 . الكريم:

قال تعالى: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۝ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝ إِنَّهُ لَقرآن كَرِيمٌ﴾ **[الواقعة: 75 . 77]**.

والكريم: اسمٌ جامع لما يحمد، وذلك أنّ فيه البيان والهدى والحكمة، وهو مُعظّم عند

---

[1] عظمة القرآن الكريم ص (179).
[2] التحرير والتنوير (71/25).
[3] نفسير ابن عطية (19/5).

الله عز وجل[1].

4 ـ المجيد:

قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قرآن مَجِيدٌ *فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴾ [البروج: 21 ـ 22].

وقال تعالى: ﴿ق وَالْقرآن الْمَجِيدِ ﴾ [ق: 1].

والمعنى: إن هذا القرآن ـ الذي كذّبوا به ـ شريفُ الرّتبةِ في نظمه وأسلوبه حتى بلغ حدّ الإعجاز، متناه في الشرف والكرم والبركة، وليس هو كما يقولون: إنّه شِعْرٌ وكهانة وسِحْرٌ، وإنما هو كلام الله المصون عن التغيير والتحريف، المكتوب في اللوح المحفوظ[2].

5 ـ العظيم:

لقد نوّه الله تبارك وتعالى بعظمة القرآن، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقرآن الْعَظِيمَ *لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر: 87 ـ 88].

يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: كما اتيناك القرآن العظيم فلا تنظرنَّ إلى الدنيا وزينتها وما متعنا به أهلها، استغنِ بما آتاك الله من القرآن العظيم، عمّا فيه من المتاع والزهرة الفانية[3]، فالقرآن هو النعمة العُظمى التي كل نعمة، وإن عظمت، فهي بالنسبة إليها حقيرةٌ ضئيلةٌ، فعليك أن تستغني به[4].

---

[1] زاد المسير (151/8).

[2] التفسير المنير (545/15).

[3] عظمة القران الكريم ص (196).

[4] الكشاف، للزمخشري (549/2).

6 . البشير والنذير:

قال الله تعالى في وصف القرآن العظيم: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قرآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ [فصلت: 3 . 4]. فهذا وصف للقرآن العظيم أنه: يبشر من امن بالجنة، وينذر من كفر بالنار[1].

7 . لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه:

قال تعالى: ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: 42].

فالله عز وجل لم يجعل للباطل مدخلاً على هذا الكتاب العزيز، وأنّى له أن يدخل عليه وهو صادر من الله الحق العظيم؟!

قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: 82].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقرآن أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [يونس: 37][2].

* * *

---

[1] تفسير ابن عطية (4/5).

[2] عظمة القرآن الكريم ص (199).

الفصل الثاني : خصائص القرآن الكريم

أولاً. القرآن الكريم كتاب إلهي

ثانياً. القرآن الكريم كتاب محفوظ

ثالثاً. القرآن الكريم كتاب معجز

رابعاً. القرآن الكريم كتاب مبين وميسَّر

خامساً. القرآن الكريم كتاب هداية

سادساً. القرآن الكريم كتاب الإنسانية كلها

سابعاً. القرآن الكريم كتاب الزمن كله

ثامناً. القرآن الكريم نزل بأرقى اللغات وأجمعها

تاسعاً. القرآن الكريم مصدّق لكتب الله السابقة ومهيمنٌ عليها





الفصل الثاني : خصائص القرآن الكريم

خصائصُ القرآن الكريم كثيرةٌ، منها:

أولاً . القرآن الكريم كتاب إلهي:

أولى خصائص القرآن الكريم، أنّه كتابُ الله تعالى؛ الذي يتضمّنُ كلماته إلى خاتم رسله وأنبيائه محمد صلى الله عليه وسلم، فهو إلهيُّ المصدر: لفظاً ومعنًى، أوحاه الله إلى رسوله ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم عن طريق الوحي الجلي، وهو نزول «الرسول الملكي» جبريل عليه السلام على «الرسول البشري» محمد صلى الله عليه وسلم، وليس عن طرق الوحي الآخرى من الإلهام أو النفث في الرّوع، ومن الرؤيا الصادقة أو غيرها.

قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: 1].

وقال سبحانه يخاطب رسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقرآن مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: 6].

وقال تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الإسراء:105].

وقد اقتضت حكمةُ الله تعالى أنْ ينزّله منجماً وفقاً للحوادث؛ ليكونَ أرسخَ في مواجهة المحن والشدائد التي تنزل به وبأصحابه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقرآن جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ۝ وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: 32-33].

وحكمة أخرى، وهي أنْ يقرأه الرسول الكريم على المؤمنين به على مهل، وحيث يستوعبونه حفظاً وفهماً وعملاً، كما قال الله عز وجل:﴿ وقرآنا قرأناه لتقرأه عَلَى

النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً ﴾[الإسراء: 106].

ولكن القرآن عند الله تعالى كتاب معلوم أوله وآخره، مسجَّلٌ في أم الكتاب، أو اللوح المحفوظ، أو الكتاب المكنون، كما صرّحَ بذلك القرآن نفسه: ﴿حم ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قرآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: 1 ـ 4].

وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قرآن مَجِيدٌ ۝ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴾ [البروج: 21 ـ 22].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقرآن كَرِيمٌ ۝ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ۝ لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ۝ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الواقعة: 77 ـ 80].

وأيُّ قارئ للقرآن ـ له عقلٌ وحِسٌّ ـ يستيقن أنّه ليس كلام بشر، وأنّه متميز عن كلام الرسول صلى الله عليه وسلم؛ الذي يتمثّل في الحديث النبوي، وإن كان في ذروة البلاغة البشرية، وإنّ وجودَ آية قرآنية ضمن حديث نبوي، يجعل لها نوراً خاصاً يحسّ به مَنْ يقرؤها أو يسمعها، ويشعر أنّها ليست من جنس ما قبلها وما بعدها[1].

ومن روائع ما قال الإمام ابن القيم عن «الخطاب القرآني» قوله في كتابه «التبيان في أقسام القرآن»: تأمّل في خطاب القرآن تجد ملكاً له الملك كله، وله الحَمْدُ كله، أزمّةُ الأمور كلّها بيده، ومصدرُها منه، وموردُها إليه، مستوياً على العرش، لا تخفى عليه خافيةٌ من أقطار مملكته، عالماً بما في نفوس عبيده، مطّلعاً على أسرارهم وعلانيتهم، منفرداً بتدبير المملكة، يسمع ويرى، يعطي ويمنع، ويثيب ويعاقب، ويكرم ويهين، ويخلق ويرزق، ويميت ويحيي، ويقدر ويقضي ويدبر، الأمور نازلة من

---

[1] كيف نتعامل مع القرآن الكريم؟ ، د. يوسف القرضاوي ص (21).

عنده دقيقها وجليلها، وصاعدة إليه، لا تتحرك ذرةٌ إلا بإذنه، ولا تسقط ورقةٌ إلاّ بعلمه، فتأمل كيف تجده يثني على نفسه، ويمجّد نفسه، ويحمد نفسه، وينصحُ عباده، ويدلّهم على ما فيه سعادتهم وفلاحهم، ويرغّبهم فيه، ويحذّرهم ممّا فيه هلاكُهم، ويتعرّف إليهم بأسمائه وصفاته، ويتحبّب إليهم بنعمه والائه، يذكرهم بنعمه عليهم، ويأمرهم بما يستوجبون به تمامها، ويحذّرهم من نقمه، ويذكرهم بما أعدّ لهم من الكرامة إن أطاعوه، وما أعدّ لهم من العقوبةِ إن عصوه، ويخبرهم بصنعه في أوليائه وأعدائه، وكيف كانت عاقبةُ هؤلاء وهؤلاء، ويثني على أوليائه لصالح أعمالهم وأحسن أوصافهم، ويذمّ أعداءه بسيّئ أعمالهم، وقبيحِ صفاتهم، ويضرب الأمثال، وينوع الأدلة والبراهين، ويجيبُ على شبه أعدائه أحسن الأجوبة، ويصدق الصادق، ويكذب الكاذب، ويقول الحق ويهدي السبيل، ويدعو إلى دار السلام، ويذكر أوصافهم وحسنها ونعيمها، ويحذّر من دار البوار، ويذكر عذابها وقبحها والامها، ويذكّر عباده بفقرهم إليه، وشدّة حاجتهم إليه من كل وجه، وأنهم لا غنى لهم عنه طرفة عين، ويذكرهم بغناه عنهم وعن جميع الموجودات، وأنه الغني بنفسه عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه[1].

ثانياً ـ القرآن الكريم كتاب محفوظ:

ومن خصائص القرآن أنّه كتابٌ محفوظ، تولّى الله تعالى حفظه بنفسِه، ولم يكل حفظه إلى أحدٍ، كما فعل مع الكتب المقدسة الآخرى[2].

وقد نوّه الله سبحانه بعظمة القرآن بذكر حفظه قبل نزوله في آيات، منها:

---

[1] المصدر نفسه د.يوسف القرضاوي ص (21)، نقلاً عن التبيان في أقسام القران، لابن قيم الجوزية.

[2] كيف نتعامل مع القران؟ ص(22).

قوله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ۝ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ۝ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ۝ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ [عبس: 11 ـ 16].

وأمّا حفظ الله تعالى للقرآن أثناء نزوله؛ فيدل عليه قوله تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: 105].

وأمّا حفظ الله تعالى للقرآن بعد نزوله؛ فيدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: 9].

والصيغةُ تدلُّ على التأكيد من عِدّة أوجهٍ يعرفها دارسو العربية، منها: اسمية الجملة، وتأكيدها بحرف إن، ودخول اللام المؤكدة على الخبر (لحافظون)[1] ولحفظ الله إياه فقد بقي كما هو: طودا أشم، عزيزا لا يقتحم حِماه، وكل محاولة لتغيير حرف منه مقضيٌّ عليها بالفشل، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۝ لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: 41–42].

وقد هيأ الله تبارك وتعالى للقرآن العظيم ظروفاً تختلِفُ عن الكتب السابقة فحفظه دونها، ومن ذلك:

1. هيّأ أمة قوية في ذاكرتها وحافظتها، ذلك أنَّ العربَ الأوائل في جاهليتهم كانوا متمكنين من ذلك، حيث يَرْوُون ألوفاً من أبيات الشعر من غير تدوين، إنما يعتمدون في ذلك على الحفظ.

2. هيّأ للقرآن العظيم سهولةَ الحفظِ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقرآن لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ [القمر: 17].

---

[1] المصدر نفسه (24).

3. هيّأ له أمة مستقرة ممكنة في الحفظ والفهم، والأمانة، فكان الحفاظ يحفظونه على يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يُتقِنُوا الحفظ، ثم يُدوّنونه بعد ذلك، ويقف عليهم بنفسه في مراجعة ذلك.

4. هيّأ له مراجعة النبيِّ صلى الله عليه وسلم له في الملأ الأعلى، حيث كان يحفظُ ما يوحي إليه، ثم يُراجعه على جبريل عليه السلام مرةً كل سنة، وفي السنة الأخيرة من حياته المباركة راجع جبريلُ القرآن كله على رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين.

5. بعد الفراغ من تدوينه لم يَعُدْ هناك مجالٌ لعبثِ عابثٍ، وظلّ الحفّاظُ المتقنون يُراجعون كلّ نسخةٍ تكتب من المصحف مراجعةً فاحصةً، ولما أصبح للمصحف مطابع خاصة، كُونت لجان متخصصة ومتأهلة من كبار حُفاظ العالم الإسلامي، تُراجع وتُدقق كلّ حرف منه قبل أن تأذن بطبعه.

وبهذه الوسائل تحقّق للقرآن العظيم ذلك الحفظُ الذي قدّره الله له منذ الأزل، وهو اللوح المحفوظ، وأنجز وعده الصادق: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: 9][1].

وفي سبك الجملتين من الدلالة على كمال الكبرياء والجلالة، وعلى فخامة شأن التنزيل ما لا يخفى[2].

ثالثاً ـ القرآن الكريم كتاب معجز:

ومن خصائص القرآن الكريم: الإعجازُ، فهو المعجزةُ الكبرى لمحمّد صلى الله عليه وسلم؛ التي لم يتحدّ العربَ بغيرها، برغم ما ظهر على يديه من معجزات لا

---

(1) عظمة القرآن الكريم ص (109).

(2) المصدر نفسه ص (107).

تحصى[1].

1. تعريف المعجزة:

أمرٌ خارقٌ للعادة، مقرونٌ بالتحدّي، سالمٌ من المعارضة، يظهِرُه اللهُ على يد رسله[2].

2. شروط المعجزة:

ومن خلال التعريف السابق للمعجزة نستطيعُ أن نتلمس شروطها:

أ ـ أن تكون من الأمور الخارقة للعادة: مثل عدم إحراق النار لسيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وعدم إغراق الماء لموسى عليه السلام وقومه، وعدم سيلانه عليهم، ومثل القرآن الكريم.

ب ـ أن يكون الخارقُ من صنع الله وإنجازه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ **[غافر: 78]**.

ج ـ سلامتها من المعارضة.

د ـ أن تقع على مقتضى قول من يدّعيها.

هـ التحدي بها.

و ـ أن يستشهد بها مدّعي الرسالة على الله عز وجل.

ز ـ تأخر الأمر المعجز عن دعوى الرسالة[3].

---

(1) كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟ ص (32).

(2) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي (3/4)، مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم ص (14).

(3) مباحث في إعجاز القرآن ص (18).

وقد توافرت هذه الشروط في إعجاز القرآن.

3. القرآن الكريم هو المعجزة العظمى:

لما زعم المشركون أنّ محمداً صلى الله عليه وسلم هو الذي ألّف القرآن، قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لاَ يُؤْمِنُونَ ۝ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ۝ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ [الطور: 33 ـ 35].

ثم تحداهم بعشر سور: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [هود: 13 ـ 14].

ثم تحدّاهم بسورة واحدة: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: 23 ـ 24].

وقال تعالى أيضاً: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [يونس: 38].

فعجزَ جميعُ الخلق أن يعارضوا ما جاء به، ثم سجَّل على الخلق جميعاً العجزَ إلى يوم القيامة بقوله تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقرآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: 88].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**ما من الأنبياءِ نبيٌّ إلا أُعطِيَ من الآيات ما مِثْلُه امنَ عليه البَشَرُ، وإنّما كان الذي أوتيتُه وحياً**

أوحاه اللهُ إليَّ، فأرجو أَنْ أكونَ أكثرَهم تابعاً يوم القيامة»[1].

إنَّ معجزاتِ الأنبياء تتماثلُ من حيث إنّها حسية ومخصوصة بزمنها، أو بمن حضرها، أو منقرضة بانقراض من شاهدها.

أمّا معجزةُ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فهي القرآن الكريمُ، الذي لم يعطَ أحدٌ مثله، وهو أفيدُها وأدومُها، لاشتماله على الدعوة والحجة، واستمرار تحديه في أسلوبه وبلاغته ومعانيه وأخباره، وعجز الجنُّ والإنس عَنْ أن يأتوا بسورةٍ مثله مجتمعين أو متفرّقين في جميع الأعصار، مع اعتناء معارضيه بمعارضته فلم ولن يقدروا، فعمَّ نفعه مَنْ حضرَ ومَنْ غاب، ومن وُجِدَ ومن سيوجَدُ إلى اخر الدهر، ولذلك فإنَّ محمّداً صلى الله عليه وسلم أكثرُ الأنبياء أتباعاً[2].

هذا شرحٌ للحديث على وجه الإجمال، وأمّا أسباب اختصاص نبينا محمد صلى الله عليه وسلم عن سائر الأنبياء بهذه المعجزة الظاهرة، فيبيّنها محمود الألوسي فيقول: لثلاثة أسباب صار بها من أخصِّ إعجازه، وأظهر آياته:

1. إنّ معجِزَ كل رسولٍ موافِقٌ للأغلب من أحوال عصره، والشائع المنتشر من ناس دهره، فلمّا بُعِثَ نبينا محمّد صلى الله عليه وسلم في عصر الفصاحةِ والبلاغة خُصَّ بالقرآن في إيجازه وإعجازه، بما عَجَزَ عنه الفصحاءُ، وأذعن له البلغاءُ، وتبلّد فيه الشعراء، ليكونَ العجزُ عنه أقهر، والتقصيرُ فيه أظهر، فصارت معجزاته ـ وإن اختلفت ـ متشاكلة المعاني، مختلفة العلل.

2. إنّ المعجزةَ في كلِّ يوم بحسب أفهامهم، وعلى قدر عقولهم وأذهانهم.. والعربُ

---

[1] رواه الشيخان، اللؤلؤ والمرجان ص (93).

[2] رسالة خاتم النبيين محمد، د. ثامر بن ناصر ص (155).

أصحُّ الناس أفهاماً، وأحدّهم أذهاناً، فخصّوا من معجزات القرآن بما تجول فيه أفهامهم، وتصل إليه أذهانهم[1].

3. وهذه المعجزةُ جمعت بين الدليل لما فيه من الإعجاز وغيره من وجوه الدلالة، وبين المدلول بما فيه من بيان الإيمان وأدلته، وبيان الأحكام الشرعية والقصص والأمثال، والوعد والوعيد، وغير ذلك من علومه التي لا تَنْحَصِرُ، ثم جعل مع حفظه وتلاوته من أفضل الأعمال التي يُتقرّب بها إلى الله تعالى .. ولهذا توفّرت الدواعي على حفظه على مرّ الدهور والأعصار، ففي كل قرن ترى مِنْ حفظتِهِ ما يفوتُ العدَّ والإحصاء، ويستنفد نجوم السماء، ومثل ذلك لم يتفق لغيره من الكتب الإلهية المقدسة[2].

وفي قوله صلى الله عليه وسلم: «فأرجو أنْ أكونَ أكثرَهم تابعاً» آيةٌ من آيات نبوته، كما قال النووي: فإنّه أخبر صلى الله عليه وسلم بهذا في زمن قلة من المسلمين، ثم منَّ الله تعالى وفتح على المسلمين البلاد، وبارك فيهم، حتى انتهى الأمر، واتسع الإسلام في المسلمين إلى هذه الغاية المعروفة، ولله الحمدُ على هذه النعمة وسائر نعمه التي لا تحصى[3].

توضيح هذا الإعجاز:

. بيان حال محمد صلى الله عليه وسلم:

إن وضعه صلى الله عليه وسلم من الناحية العلمية معروفٌ عند المشركين، فهو:

أ . بشر مثلهم، وليس من جنس اخر.

---

(1) رسالة خاتم النبيين محمد، د. ثامر بن ناصر ص (155).

(2) المصدر نفسه ص (155).

(3) شرح مسلم، للنزري (188/2).

ب ـ أميٌّ، لا يقرأ ولا يكتب.

ج ـ تجاوزَ الأربعين، ولم يكن معروفاً قبلَ ذلك بالخطابة، ولا بالشعر، ولا بالرئاسة في مجالِ الكلام، بل كان يعملُ بمجالٍ بعيدٍ عن الكلمة، وهو التجارة، ولم يُحفظ عنه قبلَ البعثةِ أثرٌ يدل على إنشائه لقصيدة، أو حتى خطبة نثرية.

د ـ أنّه صلى الله عليه وسلم أتى بكتابٍ نسبه إلى الله، أجمعَ العربُ على فصاحته وبلاغته وحسن نظمه، واشتماله على علوم شتى، واداب تترى.

- **وقوع التحدي بهذا الكتاب:**

أ ـ إن هذا التحدي قائم في وجه كلِّ معارض للرسول صلى الله عليه وسلم.

ب ـ التحدي بأن يأتوا بسورةٍ من مثله.

ج ـ وللمعارض أن يستعينَ بمن شاء من أعوانٍ وشهداءَ سواء كانوا من الجن، أو من الإنس، أو من الجن والإنس مجتمعين معاً.

- **وجود دواعي التحدي:**

أ ـ العرب أهل فصاحةٍ وبلاغةٍ وبيانٍ.

ب ـ إن معارضي الرسول صلى الله عليه وسلم أهلُ عداوةٍ عظيمةٍ له.

ج ـ وهم حريصون أشدَّ الحرص على إبطال دعوته بأيِّ وسيلة، ومن أيِّ طريق.

- **نتيجةُ التحدّي صدقُ نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم،** لأنهم: عجزوا غاية العجز عن الإتيانِ بسورة من مثله، ولو كان عندهم أدنى تأهل وتمكن لفعلوا، ولكنّهم لم يقدروا، إذ كلامُ الفقير الناقص الجاهل لا يكون أبداً مثل كلام الذي له الكمالُ المطلق، والغنى المطلق، والقدرة المطلقة، والعلم المطلق، فكما أنّ الله ليسَ كمثله شيءٌ في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فبالضرورة ليس لكلامه مثيلٌ ولا شبيهٌ،

ولا يشتبه كلامه بكلام المخلوقين إلا على من اختلّ عقله، وغابَ فؤاده، وهذا برهانٌ ساطعٌ ودليل قاطعٌ على صحة ما جاء به صلى الله عليه وسلم، ويبقى على مَنْ عجزَ عن هذا التحدي قراران لا مفرَّ من اتخاذ أحدهما:

1. إمّا أن يؤمن بأنّ محمّداً صلى الله عليه وسلم رسولٌ من الله، وأنَّ القرآن حقٌّ كلامُ اللهِ، وهذا هو مقتضى العقل، وسبيلُ الفطرة السليمة، وطريقُ الناجين في الدنيا والآخرة.

2. وإمّا أن يعانِدَ، وهو يعلمُ من نفسه أنَّ القرآن حقٌّ، وهذا سبيلُ الجاحدين، ومقتضى الجهل والعناد، وأصحاب النفوس المريضة؛ والقلوب السقيمة؛ وطريق الخاسرين في الدنيا والآخرة.

وقد كان هذا التحدي سبباً في إسلام الكثيرين؛ لأنَّ القرآن بهذه الاستثارة للعقول والألباب والقلوب يدعو للتفكر في القرآن بشكل أكبر، ويجعل الإنسان الشاك يتدبَّر أكثر وأكثر، حتى يصلَ إلى النهاية المحمودة إذا كان ممن يبحث عن الحق متجرّداً من الهوى[1].

4. وجوه إعجاز القرآن:

قد كتب العلماءُ البلغاءُ قديماً وحديثاً حول «إعجاز القرآن» ووجوهِ هذا الإعجاز، وألّفت في ذلك كتب شتى، فمنهم من عُنِيَ بإخباره بالغيوب، ومنهم من عُنِيَ بالنظم والعبارة والأسلوب، أو ما يسمى «الإعجاز البياني»، وقد كتب فيه القدماء مثل الباقلاّني، والرُّماني، والخطّابي، والجُرجاني، والفخر الرّازي، وغيرهم، وكتب فيه المحدثون، مثل: مصطفى صادق الرافعي، وسيد قطب في كتابه «التصوير الفني في

---

[1] رسالة خاتم النبيين محمد، د. ثامر بن ناصر ص (155).

القرآن» ومثله «مشاهد القيامة في القرآن» وطبقه في تفسيره «في ظلال القرآن»، وكتاب الدكتور بدوي طبانة «بلاغة القرآن»، والدكتور محمد عبد الله دراز «النبأ العظيم»، ومنهم من عُنِيَ بالإعجاز التشريعي أو الإصلاحي الذي جاء به القرآن، كما فعل الشيخ محمد رشيد رضا في كتابه «الوحي المحمدي» حيث جدّد التحدي بالقرآن، وبيّن المقاصدَ التي جاء القرآن ليحققها في الحياة، وأنّه يستحيلُ أن يأتيَ بها رجلٌ أمي في أمة أمية، وقد فاقت كل ما جاء به الفلاسفة والمصلحون، ومثل ذلك: المقالات التي كتبها العلامة محمد أبو زهرة في مجلة «المسلمون» الشهرية المصرية، تحت عنوان: «شريعةُ القرآن دليلٌ على أنّه من الله»[1].

وفي عصرنا ظهر نوعٌ جديدٌ أطلق عليه الإعجاز العلمي، ويقصد به: ما تضمنه القرآن من إشارات ودلالات على حقائق علمية كانت مجهولةً للناس في وقت نزول القرآن، وتعتبر سابقة لعصرها، ولا تتصوّر أن تصدرَ من رسول أمي في بيئة أمية، وفي عالَمٍ لا يعرف عن هذه الحقائق شيئاً[2]، واشتهر في هذا الميدان كل من الشيخ عبد المجيد الزنداني والدكتور زغلول راغب محمد النجار.

وقد لخّص الدكتور زغلول النجار جوانبَ الإعجاز القرآني فقال: وتتعدّد جوانبُ الإعجاز القرآني: بمعنى عجز البشر عن الإتيان بشيء مثله بتعدد الزوايا؛ التي ينظر منها إنسان محايد إلى كتاب الله، ومن هذه الجوانب:

. الإعجاز اللغوي، الأدبي، البياني، البلاغي، النظمي، اللفظي، والدلالي.

. الإعجاز العقدي «الاعتقادي».

---

(1) ثم أصدر رحمه الله قبل وفاته كتابا بعنوان "المعجزة الكبرى للقرآن".

(2) كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟ ص (34).

ـ الإعجاز التعبدي «العبادي».

ـ الإعجاز الأخلاقي.

ـ الإعجاز التشريعي.

ـ الإعجاز التاريخي.

ـ الإعجاز التربوي.

ـ الإعجاز النفسي.

ـ الإعجاز الاقتصادي.

ـ الإعجاز الإداري.

ـ الإعجاز التنبؤي.

ـ الإعجاز العلمي.

ـ إعجاز التحدي للإنس والجن مجتمعين أن يأتوا بشيء من مثله في أسلوبه، أو مضمونه أو محتواه، دون أن يتمكن أحد من ذلك[1].

رابعاً ـ القرآن كتابٌ مبيَّنٌ وميسَّرٌ:

ومن خصائص القرآن: أنّه «كتابٌ مبيَّنٌ» ميسَّرُ الفهم والذكر، ومع السمو البلاغي والبياني للقرآن الكريم، فإنه سلسلٌ كالماء العذب الزُّلاَل، ميسَّرٌ لكل من يريدُ أن يعقل ويذكر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقرآن لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ [القمر: 17]. وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا [مريم: 97]. لقد نوّه الله تعالى بشأن القرآن العظيم، وأخبر أنّه يسّره وسهله ليتذكّر الخلقُ ما يحتاجونه من التذكير، ممّا هو هدًى لهم، وإرشادٌ لمصالحهم الشرعية.

---

[1] من آيات الإعجاز العلمي، السماء في القرآن ص (12، 13).

وسبب تيسيره: أنّه نزل بأفصحِ اللغاتِ وأبينها، وجاءَ على لسانِ أفضل الرسل صلى الله عليه وسلم.

ومعنى تيسيره: يرجعُ إلى تيسير ما يُرادُ منه، وهو فهم السامع المعانيَ التي عناها المتكلّم به، من دون كلفة على هذا السامع ولا إغلاق[1].

وهذا الكتاب مبينٌ لأنَّ الله أنزله لتُعْقَلَ معانيه، وتُفْقَهَ أحكامُه، وتدرَك أسرارُه، وتتدبر آياته، فهو مبين لا غامض ولا مغلق ولا ملغز ولا معقد. قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قرآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: 2]. قال تعالى: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قرآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت: 3].

وقد وصف الله هذا القرآن بأنه: ﴿نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾ [المائدة: 15]. وقال تعالى: ﴿هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: 185]. وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [النحل: 64]. إلى غير ذلك من الآيات التي استفاضت في هذا المعنى[2].

خامساً . القرآن الكريم كتاب هداية:

ومن خصائص القرآن الكريم أنّه كتابُ هدايةٍ للعالمين، أنزله الله ليُخْرِجَ الناسَ من الظلمات إلى النور.

1 . قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: 257].

---

[1] عظمة القرآن الكريم ص (103).

[2] كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟ ص (40).

2 ـ وقال تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: 1].

وقد تحقق هذا حينما اهتدى العربُ بهداه، فخرجوا من الظلمات إلى النور، ومن التخلّف إلى قمة الحضارة والمدنية، ومن الذل والتبعية إلى السيادة والعالمية، ثم أوصلوا هدايته إلى العالم مِنْ حولهم بأمانةٍ وتضحيةٍ وإخلاصٍ، فإذا بالعالم يُكسَى بحلّة العزة والرِّفعة والبهاءِ والجمال، وأثبتَ واقعُ المسلمينَ عبرَ الزمن أنهم أصبحوا بتمسّكهم بالقرآن أرقى الأمم، وبتخلّفهم عنه، وأخذهم بما عند الأمم من ضلال أخس الأمم[1].

3 ـ وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقرآن يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: 9].

يؤكّد الله أنّ هذا القرآن أقومُ من أيّ هدايةٍ يراها البشر، ولم يستطع أيُّ باحث موضوعي أن يجدَ خللاً في تشريع القرآن، أو أن يجدَ في التشريع الوضعي ما يصل إلى تشريع القرآن فضلاً عن أن يتفوّق عليه، وهذا يوجِبُ على العاقل استدامة القرآن، وملازمة العمل به.

إنّ ما في القرآن من هداية وتشريع صالحٌ لكلّ زمان ومكان لا تَبْطُلُ قيمه، بل لا يَصْلُحُ إلا هو، مهما اختلفت العصور، وتنوعت الحضارات، إنّه تسامى على كل قانون عرفته الأممُ قديماً وحديثاً، حتى أقرت المجامع القانونية الدولية الفقه الإسلامي مصدراً أساسياً تُقْتَبَسُ منه القوانين، وإنّ القوانين الحديثة في تطورها تتسامى لتقترب

---

[1] إعجاز القران الكريم، د. محمد صادق درويش ص (46).

من تشريع القرآن[1].

وكيف لا يكونُ كذلك، وهو تشريعٌ ربانيٌّ شاملٌ لجميع النواحي، وكافلٌ لإحقاق الحق، وصيانة مصالح الناس في جميع شؤونهم: المالية والاجتماعية والأسرية والدولية، في حين أنه لم يوجدْ إلى الان تشريع شامل أو عادل مع ما مرّ على الإنسانية من تجارب وخبراتٍ، حتى إن الله تحدّى العالمَ أن يأتوا بمثل القرآن، والمثلية تشمل جميعَ جوانب القرآن سواء الألفاظ والمعاني، وإذا عجزوا عما هو من جنس ما يستطيعونه، ويتفوقون فيه، وهو نظم القرآن، فهم أشدُّ عجزاً عن تشريع القرآن وهدايته، لما يحتاجه إلى علم محيط بكل شيء، وليس هذا إلا الله عز وجل[2].

4 . وقال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ **[المائدة: 50]**.

استنكر الله تعالى على من أعرض عن تشريعه، ولجأ إلى تشريع الناس، وما هذا إلا لأنه لا تشريع أحسن منه، ولا هداية مثله، فكيف يترك إلى ما دونه[3]؟

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾، ينكر الله تعالى على مَنْ خرجَ عن حكم الله المشتمل على كل خير، الناهي عن كلِّ شرّ، وعدل إلى ما سواه من الاراء والأهواء والاصطلاحات؛ التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهلُ الجاهلية يحكمون به الضلالات والجهالات بما يضعونها بارائهم وأهوائهم. ﴿وَمَنْ﴾ أي: ومَنْ أعدلُ من الله في ﴿أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾، لمن عقل عن الله شرعه، وامن به وأيقن، وعلم أنَّ الله أحكمُ الحاكمين، وأرحمُ بخلقه من الوالدة

---

(1) إعجاز القران الكريم، د. محمد صادق درويش ص (47).

(2) المصدر نفسه ص (48).

(3) إعجاز القران الكريم، د. محمد صادق درويش ص (48).

بولدها، فإنه تعالى هو العالم بكل شيء، القادر على كل شيء، العادل في كل شيء[1].

5 . قال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾ [المائدة: 3]. يحثّنا الله تعالى في هذه الاية على التمسّك بهديه من خلال مدحه دينه بالكمال والتمام، والنفوس تتطلّع إلى ما كان كذلك[2].

هذه أكبرُ نعم الله تعالى عن هذه الأمة، حيث أكملَ تعالى لهم دينَهم، فلا يحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى نبيّ غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا جعله الله تعالى خاتم الأنبياء، وبعثه إلى الإنس والجن، فلا حلالَ إلاّ ما أحله، ولا حرام إلاّ ما حرّمه، ولا دينَ إلاّ ما شرعه، وكلّ شيءٍ أخبرَ به فهو حقٌّ وصدقٌ لا كذب فيه ولا خلف... فلمّا أكملَ لهم الدينَ، تمّت عليهم النعمة، ولهذا قال تعالى: أي: فأرضوه أنتم ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾، فإنّه الدين الذي أحبه الله ورضيه، وبعث به أفضل الرسل الكرام، وأنزل به أشرفَ كتبه[3].

وكمالُ دينه سبحانه وتمامه بكمال مصدره الأصل القرآن الكريم؛ ولهذا لا يملك من يتلو القرآن، ويتدبر معانيه إلا أن يخرّ ساجداً لعظمة منزله. قال تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا﴾ ﴿هَذَا الْقرآن عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الحشر: 21].

---

[1] المصدر نفسه ص (48)، تفسير ابن كثير (68/2).
[2] تفسير ابن كثير (13/2).
[3] إعجاز القران الكريم، د. محمد صادق درويش ص (49).

سادساً . القرآن الكريم كتاب الإنسانية كلها:

ومن خصائص القرآن الكريم أنّه كتابُ الإنسانيةِ كلِّها؛ الذي خاطب الله تعالى به جميعَ البشر إلى يوم القيامة، فلم يُقيّد بزمان، ولا بمكان، ولا جنس ولا طبقة، بل هو موجَّهٌ إلى الثقلين، خاطبهم جميعاً بما يسعدهم في الدنيا والآخرة من العقائد الصحيحة، والعبادات الحكيمة، والأحكام الرفيعة، والأخلاق الفاضلة؛ التي تستقيم بها حياتهم.

ولقد تضافرت نصوصُ الكتاب والسنة وإجماعُ الأمة على عالمية القرآن[1].

ومن الآيات التي صرحت بعالمية القرآن العظيم قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: 1]. وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: 107]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقرآن مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا ﴾ [الإسراء: 89]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقرآن مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الزمر: 27]. وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ [الزمر: 41].

فالقرآن لا يخاطِبُ صنفاً واحداً من البشر له تجاه عقلي أو نفسي معين، مغفلاً عن عداه من الأصناف ذوي الاتجاهات المتعددة، كلا، إنه يخاطِبُ كل الأصناف، ويشبعُ كلَّ الاتجاهات الإنسانية السوية، في توازنٍ لا يقدر عليه إلا منزل القرآن، وخالق الإنسان[2].

---

[1] عظمة القرآن الكريم ص (110).

[2] كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟ ص (60).

1 . إن طالب **الحقيقة العقلية** يجدُ في القرآن ما يرضِي منطقه، ويأخذ بلبه إذا سمعه يصيح بالعقل أن ينظر ويفكر في ملكوتِ السماواتِ والأرض، وما خلق الله من شيء.

- **وأن يعتمد على البرهان وحدَه في العقليات. قال تعالى:** ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ **[البقرة:111]**.
- **وعلى المشاهدة والتجربة في الحسيات،** قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ **[الأعراف: 185]**.
- **وعلى الصدق وتوثيق الرواية في النقليات،** قال تعالى: ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ **[الأحقاف 4]**.

ويكفي أنَّ مشتقات العقل مثل ﴿يَعْقِلُونَ و تَعْقِلُونَ﴾، ذكرت في القرآن ثمانياً وخمسين وذكرت مشتقات الفكر سبع عشرة مرة، وذكرت كلمة﴿الْأَلْبَابِ﴾، أي: العقول ستّ عشرةَ وهذا غير الآيات التي اشتملت على كلمات ومشتقات أخرَ مثل: «النظر»، و«الاعتبار» و«التدبر» و«الحجة» و«البرهان» و«النهى» و«الحكمة» و«العلم» ونحو ذلك مما يبحث عنه طلاّب الحقائق العقلية، فلا يجدونه في كتاب ديني غير القرآن.

2. والباحث عن **الحقيقة الروحية** يجدُ في القرآن ما يرضي ذوقه، ويغذي وجدانه، ويشبعُ نهمه وتطلعاته في افاق الروح، في مثل قصة موسى والعبد الصالح، الذي قال الله فيه: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ **[الكهف: 65]**.

يجد الباحثُ عن «الإيمان» في الخطاب القرآني ما ينشئ الإيمان البصيرَ بالله

ورسالاته ولقائه وجزائه، ويطارِدُ الجحود والشك والنفاق، ويقيم الأدلة الناصعة على وجود الله تعالى، وعلى وحدانيته، وعظيم قدرته، وبالغ حكمته، وواسعِ رحمته، وعلى بعثه رسله ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: 165]. وعلى عدالة الجزاء في الآخرة: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ [النجم: 31].

ويجلي له القرآن مصيرَ المؤمنين نجاةً وحياةً طيبةً في الدنيا، وفلاحاً في الآخرة، ومصيرَ المكذّبين: شقاء في الدنيا، وعذاباً في العقبى.

الإيمان في القرآن يبني ولا يهدم، ويجمع ولا يفرق، ويسامح ولا يتعصب، فهو يوجب الإيمانَ بكلِّ كتاب أنزل، وبكلِّ نبي أرسل، قال تعالى: ﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: 285].

3. والحريص على القيم الأخلاقية يجدُ في القرآن ضالته وطلبته، وإذا كان موضوع الأخلاق هو «الخير» فالقرآن قد دلَّ على «الخير» كما هدى إلى «الحق» وقد جعلَ فعلَ الخيرِ إحدى شعب ثلاثة لمهمة المجتمع المسلم، قال تعالى: ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الحج 77].

ولكنّه لم يكتفِ من المسلم بفعل الخير، بل طلبَ منه أن يدعو إلى الخير، ويدلّ عليه، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنكُمْ أُمَةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ [آل عمران: 104].

4. وعاشق القيم الجمالية يجد في القرآن ما ينمّي حاسته الجمالية، ويغذّي شعورَه الفنّي، وذلك بما لفتَ إليه القرآن الأنظارَ من الاستمتاع بجمال الطبيعة في السماء، ﴿وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴾ [الحجر: 16]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ [الملك: 5]. وجمال الطبيعة في الأرض ابتداء من جمال النبات، قال تعالى:

﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج: 5]. وقال تعالى: ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾[النمل: 60]. وجمال الحيوانات ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾[النحل: 6]. وجمال الإنسان ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾[التغابن: 3]. وجمال المخلوقات كلّها ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[النمل: 88].

ووراء ذلك كلّه ما احتواه أسلوب القرآن ذاته من جمال بياني معجز في نظمه ومعناه، وفي شكله ومضمونه، وصفه المشركون أنفسهم فقالوا: إنّ له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر، وإنَّ أسفله لمغدِقٌ، وإنّه يعلو ولا يعلى عليه[1].

سابعاً ـ القرآن الكريم كتاب الزمن كله:

من خصائص القرآن: أنّه كتابُ الزّمن كله، وكتاب الإنسانية كلّها، وكتاب الدِّين كله، وكتاب الحقيقة كلها، ومعنى أنَّ القرآن كتابُ الزمن كله: أنّه كتابُ الخلود، ليس كتاب عصر معين، أو كتاب جيل أو أجيال، ثم ينتهي أمده، بل القرآن هو الكتاب الباقي إلى أن يرثَ اللهُ الأرضَ ومن عليها، وهو الكتاب الصالح والمصلح لكلِّ زمان ومكان[2]، مهما اختلفتِ العصورُ، وتنوّعتِ الحضارات، لا تبطل قيمته، بل لا يصلح إلا هو.

إنّ تعاليمَ القرآن موجهة للعالم بأسره، فهي للناس كافة في شتى أرجاء العالم، بغضّ النظر عن أصلهم، أنزلت إليهم لتدخل السرور والبهجة إلى قلوبهم، وتطهر نفوسهم، وتهذب أخلاقهم، وتوجّه مجتمعهم، وتستبدل سطوة القوي بالعدل والأخوة. وقد أكدّ الله عز وجل أن في القرآن حلولاً لجميع قضايا البشر ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ

---

[1] كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟ ص (62).
[2] المصدر نفسه ص (56).

تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: 89]. فالقرآن له أعلى حظوة لدى المسلمين، وهو ليس مجرد كتاب صلوات، أو أدعية نبوية، أو غذاء للروح أو تسابيح روحانية فحسب، بل إنّه أيضاً القانون السياسي، وكنز العلوم، ومراة الأجيال، إنّه سلوى الحاضر، وأمل المستقبل[1].

ثامناً ـ القرآن الكريم نزل بأرقى اللغات وأجمعها:

لقد اختار الله عزّ وجلّ اللغة العربية لينزل بها اخر كتبه، وهذا الاختيارُ من الحق عزّ وجلّ لهذه اللغة العظيمة إنما يعود إلى ما تمتاز به من مرونة، واتساع، وقدرة على الاشتقاق، والنحت، والتصريف، وغنًى في المفردات والصيّغ والأوزان[2].

فكل دارس للغات العالم يُصرُّ على أنَّ اللغة العربية هي أرقى اللغات، وأجمعها للمعاني الكثيرة تحت الألفاظ القليلة، وأحسنها تهذيباً، وأكثرها إيضاحاً وبياناً للمطلوب، ولذلك أشاد القرآن الكريم بها في عِدّة آيات، منها: قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قرآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف: 3]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قرآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: 2].

لقد أراد الله تعالى أن يكونَ القرآن كتاباً مخاطباً به كل الأمم في جميع العصور؛ لذلك أنزله بلغةٍ هي أفصحُ كلام بين لغات البشر، وهي اللغة العربية، لأسبابٍ يلوح لي منها: أنَّ تلك اللغة أوفر اللغات مادة، وأقلها حروفاً، وأفصحها لهجة، وأكثرها تصرّفاً في الدلالة على أغراض المتكلّم، وأوفرها ألفاظاً، وجعله جامعاً لأكثر ما يمكن أن تتحمله اللغة العربية في نظم تراكيبها من المعاني، في أقل ما يسمح به نظم تلك

---

(1) دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية، د. محمد عبد الله دراز ص (18).

(2) لغة القرآن مكانتها والأخطار التي تهددها، إبراهيم محمد أبو عباء ص (11، 12).

اللغة، فكان قوام أساليبه جارياً على أسلوب الإيجاز، فلذلك كثر فيه ما لم يكثر مثله في كلام بلغاء العرب[1].

تاسعاً ـ القرآن الكريم مصدِّقٌ لكتب الله السابقة ومُهيمنٌ عليها:

قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾[المائدة: 48]. ومعنى قوله: أنّ القرآن العظيم رقيبٌ على الكتب السابقة؛ لأنه يشهد بصحتها﴿وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾، ويقرر أصولها، وما يتأبّد من فروعها، ويُبيّنُ أحكامها المنسوخة بتعين وقت انتهاء مشروعيتها.

أو على معنى أنّه أمينٌ عليها، فما أخبر عن صدقه مما ورد فيها صُدّق، وما أخبر بزيفه فهو باطلٌ.

أو على معنى أنه الحافظ لها، فهو الذي حفظ ما جاء فيها من التوحيد، وكليات الدين إلى يوم القيامة.

أو على معنى أنه دالّ على صدقها، أي: هو دليل على أنها من عند الله، لأنه جاء كما نعتته هذه الكتب[2].

وهذه الأقوال كلّها متقاربة المعنى، فإنّ اسمَ «المهيمن» يتضمّن هذا كله، فهو أمينٌ وشاهدٌ، وحاكم على كل كتاب قبله، جعل الله هذا الكتاب العظيم؛ الذي أنزله اخر الكتب وخاتمها وأشملها وأعظمها وأحكمها، حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره؛ فلهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها، وتكفل تعالى بحفظه بنفسه الكريمة.

---

(1) عظمة القرآن الكريم ص (98).

(2) تفسير الطبري (6/266-267).

فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: 9].

1 . علاقة الهيمنة بالتصديق:

ولاشك أنّ مفهوم الهيمنة أتمُّ وأشمل من مفهوم التصديق؛ لأنّ الهيمنة لا تقتصر على مجرّد الشهادة لهذه الكتب بصحة إنزال أصولها، وتقرير أصولها وشرائعها، بل تتعدّى ذلك، فتُبين ما اعتراها من نسخ أو تحريف، وما عرض لها من زيف وفساد، فالقرآن بذلك مهيمن على المعاني الصحيحة التي كانت في تلك الكتب، وشاهد بكونها من عند الله، وبذلك تتلاقى الهيمنة مع التصديق، ولكنّه كذلك يشهد على هذه الكتب بما أصابها من تحريف، وتسرّب إليها من باطل، وبه تنفرد الهيمنةُ عن التصديق، فمفهومُها إذاً أتمّ، وأشمل من مفهوم التصديق[1].

2 . مظاهر هيمنة القرآن على الكتب السابقة:

لهيمنة القرآن العظيم على كتب الله المنزلة قبله . فوق ما تقدّم من تصديقه لها . مظاهر متعددة، من أهمها ما يلي:

أ . إخباره بتحريف الكتب السابقة وتبديلها:

قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيدِيهِمْ وَوَيلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾[البقرة: 79].

ب . بيان المسائل الكبرى التي خالفوا فيها الحق:

ففي جانب العقائد على سبيل المثال نفى القرآن العظيم ما صرّحت به الأناجيل

---

[1] دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية، د. محمد عبد الله دراز ص (18).

المحرفة من قتل عيسى عليه السلام، وصلبه، قال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: 157]. وحكم على النصارى بالكفر لقولهم بالتثليث، وألوهية المسيح، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَار لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة: 72 . 73].

أمّا التوراة المحرّفة فإنها تَنْسِبُ إلى الله تعالى كثيراً من النقائص، والتي جاء القرآن العظيم بدحضها وإبطالها، فلقد أخبر القرآن العظيمُ أنّ اليهود نسبوا إلى الله عزّ وجلّ الولد، كما وصف اليهود الله بالفقر، والبخل، وغل اليد، فبين القرآن الكريم كذبهم، وزورهم، وبهتانهم. قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة: 30]. وقال تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ [آل عمران: 181]. وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾[المائدة: 64][1].

ج ـ بين القرآن كثيراً من المسائل التي أخفوها:

فمن ذلك: أنّ الدّارسَ لأسفار العهد القديم يرى أنّها: قد خلت من ذكر اليوم

[1] عظمة القرآن الكريم ص (126) تعالى الله عما يقولون علوا عظيما.

الآخر ونعيمه وجحيمه . وإذا كانت اليهوديةُ في أصلها تقرر البعث، والنشور، والحساب، والجنة والنار، كما يُنبأئُ بذلك القرآن . ذلك يدلُّ على أنّ اليوم الآخر وما فيه وما يتصل به، من المسائل التي أخفاها أهل الكتاب[1]. قال تعالى: ﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: 15][2].

* * *

[1] عظمة القران الكريم ص (126).

[2] المصدر نفسه ص (126).

الفصل الثالث : مقاصد القرآن الكريم

أولاً . تصحيح العقائد والتصورات

ثانياً . تزكية النفس الإنسانية

ثالثاً . عبادة الله وتقواه

رابعاً . إقامة العدل بين الناس

خامساً . الشورى

سادساً . الحرية

سابعاً . رفع الحرج

ثامناً . تقرير كرامة الإنسان

تاسعاً . تقرير حقوق الإنسان

عاشراً . تكوين الأسرة الصالحة

الحادي عشر . إنصاف المرأة وتحريرها من ظلم الجاهلية

الثاني عشر . بناء الأمة الشهيدة على الناس

الثالث عشر . السماحة

الرابع عشر . الرحمة

الخامس عشر . الوفاء بالعهود والعقود

دعا القرآن الكريم إلى الكثير من المبادئ والمقاصد التي لا تصلحُ الإنسانية بغيرها، والتي مِنْ أهمها:

أولاً . تصحيح العقائد والتصورات:

أ . القرآن العظيم من أوّله إلى اخره دعوةٌ إلى التوحيد، وإنكارٌ للشرك، وبيانٌ لسوء عاقبة المشركين في الدّارين، وقد اعتبر القرآن الشركَ أعظمَ جريمةٍ يقترفُها مخلوق. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: 48]. وإنّ حقيقة الشرك انحطاطٌ بالإنسان من مرتبة السيادة على الكون . كما أراد الله له . إلى مرتبة العبودية والخضوع للمخلوقات، سواء كانت جماداً، أو نباتاً، أو حيواناً، أو إنساناً، إلى غير ذلك. قال الله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ۝ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج: 30-31].

والدعوة إلى التوحيد هي المبدأ الأوّل المشترك بين رسالات النبيين جميعاً، فكل نبيٍّ نادى قومه أن ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: 59]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:36].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: 25].

فلا مكان للوسطاء بين الله عزّ وجلّ وبين خلقه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: 186].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60].

وقد أصلح القرآن هنا ما أفسدته الديانات الوثنية والكتابية المحرّفة من عقيدة

التوحيد، حتى اليهود جعلت الربَّ أشبه بالمخلوقين، فهو يتعب ويندم ويخاف، ويصارعُ إسرائيل، فيصرعه إسرائيلُ، فلا يتمكن من الإفلات منه إلا بوعدٍ منه بمباركة نسله، فأطلق سراحه!!

والنصرانيةُ تأثرت بوثنية روما، وطغت عليها الوثنيةُ حتى امتلأت الكنائسُ بالصور والتماثيل، وأخذت عقيدةُ التثليث والفداء من عقيدة الهنود في «كرشنة»، كل ما فعلوه أنهم حذفوا اسم كرشنة، ووضعوا اسم «يسوع»[1].

ب . تصحيح العقيدة في النبوة والرسالة:

وذلك بعدة أساليب:

- **بيان الحاجة إلى النبوة والرسالة:**

قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة 213]. وقال تعالى: ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: 165]. وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [النحل: 64].

- **بيان وظائف الرسل في التبشير والإنذار:**

قال تعالى: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [النساء: 165]. فليس الرسل الهةً، ولا أبناءَ الهةٍ، إنّما هم بشرٌ يوحى إليهم ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [الكهف: 110].

يملكون أن يدعوا إلى توحيد الله، ولكن لا يملكون هدايةَ القلوب، ولا السيطرةَ عليها

---

[1] كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟ ص (66).

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: 21 . 22].

- **تفنيد الشبهات التي أثارها الناس من قديم في وجه الرسل:**

كقولهم: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [إبراهيم: 10]. وقولهم: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنْزَلَ مَلائِكَةً﴾ [المؤمنون: 24]. فقد ردّ عليهم القرآن بمثل قوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: 11]. ومثل قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولاً ﴾ [الإسراء: 95][1].

- **بيان عاقبة الذين صدقوا المرسلين وعاقبة الذين كذبوا المرسلين:**

وفي القرآن الكريم ثروة طائلة من قصص الرسل مع أممهم، تنتهي دائماً بهلاك المكذبين، ونجاة المؤمنين. قال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ۝ وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾ [الفرقان: 37 . 39]. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 103].

ج ـ تثبيت عقيدة الإيمان بالآخرة:

ومما عني به القرآن، وكرّره في سوره المكية والمدنية الإيمان بالآخرة، وما فيها من جزاء وحساب وجنة ونار، وقد اتخذ القرآن في تثبيت هذه العقيدة وتصحيحها أساليب شتى؛ منها:

- **إقامة الأدلة على إمكان البعث** ببيان قدرة الله على إعادة الخلق كما

---

(1) المصدر نفسه ص (67).

بدأهم أول مرة. قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: 27].

- **التنبيه على خلق الأجرام العظيمة؛** التي يُعْتَبَرُ خَلْقُ الإنسان بجوارها شيئاً هيناً، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف: 33].
- **بيان حكمة الله تعالى في الجزاء،** حتى لا يستوي المحسن والمسيء، والبر والفاجر، في النهاية تكون الحياة عبثاً وباطلاً يتنزه الله تعالى عنه، قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ [ص: 28]. وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: 115]. وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً ﴾ [القيامة: 36].
- **إبطال الأوهام التي أشاعها الشرك والمشركون** من أنّ الهتهم المزعومة تشفع لهم عند الله يوم القيامة، وكذلك ما زعمه أهلُ الكتاب من شفاعة القديسين وغيرهم، وهذا ما كذّبه القرآن، وأبطله أشد الإبطال، فلا شفاعة إلا بإذن الله، ولا شفاعة إلا لمؤمن موحّدٍ، قال تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر: 18]. وقال تعالى: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ [المدثر: 48]. وقال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: 255]. ولا ينفع الإنسانَ إلا سعيُه، ولا يحمل وزر غيره ﴿أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ۝ وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾ [النجم: 38-39]. وقال تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: 49].

- **بيان ما ينتظر المؤمنين الأبرار في الآخرة من المثوبة والرضوان**، وما أعد للكفرة الفجار من العقاب والخسران، ولهذا كثر حديثُ القرآن عن القيامة وأهوالها، والكتابِ الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وعن الميزانِ الذي تُوْزَنُ به الحسنات والسيئات حتى لا يضيعَ على الإنسان مثقال حبة من خردل، وعن الحساب الدقيق الذي لا يظلم نفساً شيئاً، ولا يحمّل وازرة وزر أخرى، وعن الجنة وما فيها من ألوان النعيم المادي والروحي، وعن النار وما فيها من صنوف العذاب الأليم الحسي والمعنوي، ذلك لأن إنسان الآخرة هو امتدادٌ لإنسان الدنيا روحاً وجسماً، فلابدَّ أن يشمل الثواب أو العقاب كليهما[1].

ثانياً ـ تزكية النفس البشرية:

ومن مقاصد القرآن: الدعوةُ إلى تزكية النفس البشرية، فلا فلاحَ في الأولى والآخرة إلا بالتزكية، كما قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ **[الشمس: 7 ـ 10]**. فالنفسُ بفطرتها مستعدةٌ للفجور الذي يدنّسها ويدسّيها، استعدادها للتقوى التي تطهرها وتزكيها، وعلى الإنسان بعقله وإرادته أن يختارَ أيَّ الطريقين: طريق التزكية، أو طريق التدسية، ولا ريبَ أنّه إذا اختار طريق التزكية فقد اختار طريقَ الفلاح، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾ **[الأعلى: 14]**.

وقال سبحانه فيمن يأتي ربه يوم القيامة: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ۝ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا

---

[1] كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟ ص (68).

وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴾ [طه: 75 . 76].

ورسالاتُ الأنبياء جميعاً كان من مقاصدها: الدعوةُ إلى التزكية، ولهذا رأينا موسى عليه السلام يقول لفرعون حين أُرْسِلَ إليه من ربه: ﴿هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ۝ وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴾ [النازعات: 18 . 19].

وكان من الشُّعَبِ الأساسية لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم: التزكيةُ، كما جاء ذلك في أربع آيات من كتاب الله، منها ما جاء في دعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام للأمة المسلمة الموعودة قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: 129]. ومنها قوله عز وجل: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: 151]. وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ ﴾[آل عمران: 164]. وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ ﴾[الجمعة: 2].

ولا تتم هذه التزكية إلا بفضل من الله وتوفيقه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النور: 21].

كما لا بدَّ من جهد الإنسان وجهاده، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ [فاطر: 18].

وقد بين القرآن الكريم أثر العبادات في هذه التزكية، كقوله تعالى في أثر الزكاة: ﴿خُذْ

مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: 103].

كما بيّن أثرَ الاداب التي حَثَّ عليها القرآن في هذه التزكية المنشودة للأنفس، قال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [النور: 30].

وقال في أدب الاستئذان: ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ [النور: 28].

إنّ الأمر الذي لا ريبَ فيه أنّ صلاح الأمم والمجتمعات إنما هو بصلاح أفرادها، وصلاحُ الأفراد إنما هو بصلاح أنفسهم التي بين جنوبهم، وبعبارة أخرى بتزكية هذه الأنفس، حتى تنتقل من «النفس الأمارة بالسوء» إلى «النفس اللوامة»، ثم «النفس المطمئنة»، وهذا يحتاج إلى جهاد، لكنه جهاد غير ضائع، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: 69][1].

ثالثاً ـ عبادة الله وتقواه:

1 ـ لقد بين القرآن أن المهمة الأولى للإنسان أن يقوم بعبادة الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: 56]. فالله تعالى هو خالق الإنسان ورازقه، ومدبر أمره، والمنعم عليه بنعم وفيرة لا يمكن للإنسان إحصاؤها، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: 34].

ومن هذه النعم نعمةُ الإيجاد، ونعمةُ الرزق، ونعمةُ العقل، ونعمةُ الإرادة، ونعمةُ القدرة، ونعمةُ البيان «النطقي» و«الخطي»، ونعمةُ تسخير الكون للإنسان.

وعدّد القرآن جملاً من هذه النعم الوفيرة السابقة في عددٍ من سور القرآن، أظهرُها في

---

(1) كيف نتعامل مع القرآن الكريم؟ ص (85).

سورة النحل، التي تسمّى «سورة النعم»، ومن حق الخالق الرازق المنعم أنْ يُشْكَرَ فلا يُكْفَرُ، وأن يُذْكَرَ فلا يُنْسَى، وأن يُطاعَ فلا يُعْصَى، ولا يتأتّى ذلك إلا بالعبادةِ الخالصةِ له، فالعبادةُ من حقه وحدَه جل وعلا؛ ولذا قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ **[البقرة: 21 . 22]**.

وعند تأمُّل القرآن الكريم والسنة النبوية، وما تحويه من أخبار، وأوامر ونواهٍ، ووعد ووعيد، نجدها كلها تدور حول تقرير ألوهية الله سبحانه وتعالى، وعبودية الإنسان له.

فإذا كان خلقُ الإنسان؛ وتسخيرُ الكون له؛ وإيجاد العقل والقلب والإرادة فيه، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وخلق الجنة والنار، وقبل ذلك وبعده ما تقتضيه صفات الباري جلّ وعلا من كونه في ذاته وصفاته وأفعاله حكيماً عليماً، خلق كلَّ شيءٍ وقدره تقديراً، ولم يخلق شيئاً عبثاً، ولم يوجد شيئاً لغير حكمة. وإذا كان القرآن المجيدُ وما فيه من أخبار وأوامر ووعد ووعيد جاء لأجل هذه المهمة العظيمة، ألا وهي تعبيد الخلق كلهم لله سبحانه، ولذلك جعل اللهُ دائرةَ العبادةِ التي خلق الله لها الإنسان، وجعلها غايته في الحياة، ومهمته في الأرض، دائرةً رحبةً واسعةً: أن تشمل شؤون الإنسان كلها، وتستوعب حياته جميعاً، وتستغرق جميع مناشطه وأعماله[1].

1. عبادة الله تعالى:

---

(1) العبادة في الإسلام، للقرضاوي ص (53).

فالعبادةُ في مفهوم الإسلام: اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يحبّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، وأداءُ الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وجهاد الكفّار والمنافقين، والإحسان إلى الجار واليتامى والمساكين وابن السبيل والمملوك من الادميين، والبهائم، والدعاء والذكر والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة، وكذلك حبُّ الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وخشية الله، والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه، وأمثال ذلك هي من العبادة [1].

وبهذا التعريف الجامع لا يمكن أن يخرجَ أي شيء من نشاطات الإنسان وأعماله، سواء إن كان ذلك في العبادة المحضة، أو في المعاملات المشروعة، أو في العادات التي طُبِعَ الإنسان على فعلها[2]، ولذلك يحرص المسلمُ أن تكونَ حياتُه كلّها عبادةً من لحظة التكليف إلى الموت، امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ **[الأنعام: 162]**.

وهذه العبادات كلها تُعِدُّ المسلمَ لتقوى الله، كما جاء في الاية التي ذكرناها: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ **[البقرة: 21]**[3].

2 . تقوى الله تعالى:

وهي أن يجعلَ العبدُ بينه وبين ربه وقايةً من غضبه وسخطه وعذابه، وهي أن يعملَ

---

(1) مجموع الفتاوى لابن تيمية (150/10).

(2) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، للمؤلف ص (185).

(3) كيف تتعامل مع القران الكريم؟ ص (79).

بطاعة الله على نور من الله، يرجو ثواب الله، وأن يتركَ معصيةَ اللهِ على نورٍ من اللهِ، يخافُ عقابَ الله [1].

وأساسُ تقوى الله خشية الله، وذلك من عمل القلب، ولذا أضافها القرآن إليه وقال: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ [الحج: 32].

ويأمر الله تعالى المؤمنين بالتقوى قبل أوامره سبحانه، لتكون حافزاً له على امتثال ما يأمر به، كما في قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: 35]. وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: 70 . 71]. وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة: 119]. وقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: 1].

ويذكر الله في القرآن التقوى أحياناً قبل النواهي، لتكونَ دافعاً للانتهاء عنها، كما في قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: 278 . 279].

بل يقصُّ علينا القرآن أنّ الرسل جميعاً دعوا أقوامهم إلى تقوى الله، كما نجد في سورة الشعراء نوحاً [108]، وهوداً [126]، وصالحاً [150]، ولوطاً [163]، وشعيباً [179] يقول كل منهم لقومه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾

ولهذا جعل القرآن وصية الله للأولين والآخرين هي التقوى، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ

---

[1] فقه النصر والتمكين، للمؤلف ص (204).





وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: 131].

ولم يكتف القرآن من المؤمنين بمجرّد التقوى، بل قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: 102]، ومعناه: بذل الجهد، واستفراغ الوسع في تقواه عزّ وجلّ، في حدود الطاقة والاستطاعة،

كما قال تعالى في الاية الآخرى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: 16]، وليست هذه الايةُ ناسخةً للاية الآخرى، بل مبينةً لها: أنّ تقوى الله حق تقواه إنّما تُطْلَبُ في إطار المقدور للمكلّف، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

والتقوى لا تعني العصمةَ من الذنوب، فالمتّقون ليسوا ملائكةً أطهاراً، ولا أنبياء، بل هم بشر يصيبون ويخطئون، ومزيتهم هي رهافةُ حسهم، ويقظةُ ضمائرهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: 201].

فإذا زلّت قدمُ أحدهم إلى المعصية، فسرعان ما يثوبُ إلى رشده، ويتوب إلى ربه، ويقرع بابَه مستغفراً، كما قال تعالى في وصف المتقين من عباده: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: 135].

ومن تدبر القرآن وجده قد ربط خيرات الدنيا والآخرة كلها بالتقوى، فمن ثمار التقوى العاجلة والاجلة:

- **المخرجُ من كلِّ ضيقٍ، والرزق من حيث لا يَحْتَسِبُ العبد:**

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: 2 . 3].

- السهولة واليسرُ في كلِّ أمر:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: 4].

- تيسير العلم النافع:

قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: 282].

- إطلاقُ نور البصيرة:

قال تعالى: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً﴾ [الأنفال: 29].

- محبة الله ومحبة ملائكته والقبول في الأرض:

قال تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: 76].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا أحبَّ الله العبد قال لجبريل: قد أحببتُ فلاناً فأحبّه، فيحبُّه جبريلُ عليه السلام، ثم ينادي في أهل السماء: إنَّ الله قد أحبَّ فلاناً فأحبوه، فيحبّه أهلُ السماءِ، ثم يوضعُ له القبولُ في الأرضِ»[1].

- نصرة الله عز وجل وتأييده وتسديده:

وهي المعية المقصودة بقول الله عز وجل: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: 194].

- البركاتُ من السماء والأرض:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [الأعراف: 96].

- البشرى وهي الرؤيا الصالحة وثناء الخلق ومحبتهم:

---

[1] مسلم رقم (2637).

قال تعالى: ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۝ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخرة﴾ [يونس:62-64]. والبشرى في الحياة الدنيا هي ما بشر الله به المؤمنين المتقين في غير مكانٍ في كتابه، وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم: «الرؤيا الصالحةُ من الله»[1]، وعن أبي ذر قال: قلتُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم: الرجلُ يَعْمَلُ للهِ ويحبُّه الناس، فقال: «تلك عاجِلُ بشرى المؤمن»[2].

- **الحفظ من كيد الأعداء ومكرهم:**

قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [آل عمران: 120].

- **حفظ الذرية الضعاف بعناية الله تعالى:**

قال تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴾ [النساء: 9]. وفي الاية إشارةٌ إلى إرشاد المسلمين الذين يخشون ترك ذرية ضعافٍ، إلى التقوى في سائر شؤونهم، حتى يحفظَ أبناءَهم، ويدخلوا تحت حفظ الله وعنايته، والاية تشعرُ بالتهديد بضياع أولادهم إن فقدوا تقوى الله، وإشارة إلى أنَّ تقوى الأصول تحفظ الفروع، وأنّ الرجال الصالحين يُحْفَظون في ذريتهم الضعاف كما في آية: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلاَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف: 82]. فإن الغلامين حُفِظا ببركة أبيهما في أنفسهما وماله‍ما[3].

---

(1) البخاري، رقم 6986
(2) مسلم، (2642).
(3) فقه النصر والتمكين، للمؤلف ص (204).





- **سبب لقبول الأعمال التي بها سعادة العباد في الدنيا والآخرة:**

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: 27].

- **سبب النجاة من عذاب الدنيا:**

قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: 17-18].

- **تكفير السيئات، وهو سبب النجاة من النار، وعظم الأجر هو سبب الفوز بالجنة:**

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ [الطلاق: 5].

- **هم الورثة لجنة الله:**

قال تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: 63].

- **يسيرون إلى الجنة ركباناً:**

مع أنّ الله عز وجل يقرّبُ إليهم الجنة تحيةً لهم، ودفعاً لمشقتهم. قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: 31]. وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَانِ وَفْدًا﴾ [مريم: 85].

- **تجمعُ بين المتحابين من أهلها حين تنقلب كل صدقة ومحبة إلى عداوة ومشقة:**

قال تعالى: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: 67].

ومن بركة التقوى أنّ الله عزّ وجلّ ينزع ما قد يعلق بقلوبهم من الضغائن والغل، فتزداد مودتهم وتتم محبتهم وصحبتهم. قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ

﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ آمِنِينَ ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾[الحجر: 45 . 47][1].

تتخذُ دعوة القرآن إلى التقوى أساليبَ شتى من الأمر بها، وبيان اثارها، والثناء على أهلها، والترغيب في محاسنهم، وتجلية فضائلهم، والترهيب من تركها، والإعراض عنها، والاتصاف بأضدادها، حتى يظهرَ الفرق بين المتقين والفجار، أو بين أهل البر والتقوى، وأهل الإثم والعدوان[2].

رابعاً . إقامة العدل بين الناس:

العدل من الأسس والقيم التي جاءت بها جميع الشرائع السماوية، فأنزل الله به كتبه، وأرسل به رسله. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: 25]: أي: العدل، فما من كتاب أنزل ولا رسول أُرسل إلا أمر أمته بالعدل، وأوجبه عليها، والأممُ بين طائع اخذ منه بنصيب، وحائدٍ مائلٍ عن العدلِ والقسط بجهلٍ أو هوى، والرسلُ ما تزال تجدّدُ ما نسيته الأجيال، وتذكر الناسَ بما نسوا إلى أن ختمت الرسالاتُ بخاتمِ الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم.

ولما كانت هذه الرسالةُ المحمدية خاتمةَ الرسالات، والنبيُّ محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والرسل، وهذه الأمةُ . التي جعلها الله شاهدةً على الناس وقيّمة على البشرية، تبلّغها دين الله، وتشهد لها بالإيمان أو عليها بالكفر والعصيان . هي خاتمة

---

[1] فقه النصر والتمكين ص (209).

[2] كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟ ص (82).

الأمم قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: 143]: فقد كان العدلُ من أهم ما يجب على هذه الأمة، بل هو من أعظم ما يميّزها عن الأمم، ولم يكتف الحقُّ تبارك وتعالى بإيجابِ العدل على هذه الأمة، بل أراد منها أن تجعلَه خُلقاً من أخلاقها، وصفةً من صفاتها، وصبغةً تصطبغ بها من دون الناس، فأمرها أن تكونَ قائمةً بالعدل، بل قوامةً به بين الناس، لله عز وجل، لا لأي شيءٍ آخر، فلا تحابي فيه قريباً لقرابته، ولا تضارّ عدواً لعداوته. قال تعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[المائدة: 8].

فالعدل الذي أمر به الله عز وجل في القرآن الكريم حقٌّ لكل الناس جميع الناس، لا عدلاً بين المسلمين فحسب، ولا عدلاً مع أهل الكتاب دون سائر الناس، وإنما هو لكل إنسان بوصفه إنسان، فهذه الصفة ـ صفة الناس ـ هي التي يترتب عليها حق العدل في المنهج الرباني، وهذه الصفة هي التي يلتقي عليها البشر جميعاً مؤمنين وكفاراً، أصدقاء وأعداءً، سوداً وبيضاً، عرباً وعجماً، والأمة المسلمة قيمة على الحكم بين الناس بالعدل متى حكمت أمرهم[1].

فالعدل من مقاصد القرآن الكريم، وقد أوجبه الله على المؤمنين به، ولو كان مراغمةً لعواطف البغض والعداوة، ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾، وهو كذلك واجبٌ، ولو كان فيه مراغمة لكافة عواطف الحب والمودة والقرابة ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: 135].

---

[1] انظر: في ظلال القرآن (414/2).

والأمة مأمورة بأن تقوم بالعدل والقسط والشهادة لله، وليس لأحد سواه، وأن يكون ذلك منهم بدافع التقوى والخوف من الله عز وجل؛ حتى يصبح الجميع أمام العدل سواء، من دون اعتبار لدوافع الحب والولاء والقرابة، أو البغضاء والشنان والعداوة؛ لأنها إنما تقوم بالعدل والقسط بين الناس لله وبأمر الله، والعدل بهذه الصورة الشاملة لم تعرفه البشرية قط إلا على يد هذه الأمة، ولم تنعم به البشرية قط إلا تحت حكم الأمة المسلمة[1].

خامساً . الشورى:

من مقاصد القرآن الكريم: تحقيق ممارسة الشورى بين الناس.

1 . قال تعالى: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ۝ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾[الشورى: 36 . 38].

وهناك دلالات لطيفة لقيمة الشورى في الإسلام، في ضوء تفسير هذه الاية، فالاية وردت في سورة تحمِلُ اسم الشورى، وهي سورة الشورى، وتسمية إحدى سور القرآن الكريم باسم الشورى هو في حدِّ ذاته تشريفٌ لأمر الشورى، وتنويه بأهميتها ومنزلتها، وجاءت الشورى في هذه الاية وصفاً تقريرياً، ضمن صفات أساسية لجماعة المؤمنين المسلمين، فهم بعد إيمانهم متوكلون على ربهم، مجتنبون لكبائر الإثم والفواحش، مستجيبون لأمر ربهم، مقيمون لصلاتهم، وأمرهم شورى بينهم، ويزكون

---

[1] الوسطية في القرآن الكريم، للمؤلف (94).

أموالهم، وينفقون منها في سبيل الله[1].

وهي اية مكية، مما يدل على أنّ الشورى في الإسلام ممارسةٌ اجتماعية قبل أن تكون من الأحكام السلطانية، وهي تصفُ حال المسلمين في كلِّ زمان ومكان، فهي ليست طارئةً ولا مرحليةً، ولقد جعل الله سبحانه احترامَ الشورى من أثمن خصال المؤمنين وصفاتهم.

وهي تجعل جميع المسلمين فيما لم ينزل فيه وحي، شورى بينهم، فهي حق لهم جميعاً، إلا ما كان من شأن أهل العلم والتخصص، فإنّ المؤمنين يحملهم إيمانهم أن يردوا ما أشكل عليهم إلى مَنْ يعلمُ كيف يستنبطُ الأحكام من النصوص[2].

وقد انتبه عدد من العلماء إلى وقوع هذه الاية الكريمة كصفة من ضمن صفات تعدّ من المقومات والأركان الاساسية في ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾، وهو ما يعني أنها واحدةٌ من تلك الفرائض والأركان. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ﴾ يدل على جلالة موقع ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾، لذكره لها مع الإيمان وإقامة الصلاة، ويدل على أنهم مأمورون بها.

2 . وقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾**[ال عمران: 159]**.

وهذه الاية جاءت خطاباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم بصفته داعياً وهادياً، ومرشداً ومربياً، وأميراً وقائداً، وهذا ما يقتضيه أن يكون رفيقاً بالناس، متلطفاً معهم،

---

[1] الشورى في معركة البناء، أحمد الريسوني ص (21).

[2] الشورى مراجعات في الفقه والسياسة، د أحمد الإمام ص (15).

رحيماً لهم، عفواً عنهم، متسامحاً معهم، بل مستغفراً لهم في أخطائهم وذنوبهم، ومستشيراً لهم، ومراعياً لارائهم، وهذا الأمرُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الله بمشاورة أصحابه أمرٌ لكل من يقوم مقامه من الدعاة والقادة والأمراء، بل إنَّ العلماءَ والمفسرين يعتبرون أنَّ هؤلاء مأمورون من باب أولى وأحرى، فهم الأحوجُ إلى هذا الأمر، وبفارق كبير جداً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن هنا عُدت هذه الايةُ قاعدةً كبرى في الحكم والإمارة، وعلاقة الحاكم بالمحكوم، فالشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، ومن لا يستشير أهل العلم والدين ـ وأهل التخصص في فنون العلوم ـ فعزله واجب، وهذا ما لا خلاف فيه[1].

إن الشورى مقصد من المقاصد الإسلامية، وجزء من الشريعة الإسلامية.

سادساً ـ الحرية:

من مقاصد القرآن الكريم: إبطالُ عبودية البشر للبشر، وتعميم الحرية لكل الناس، ومن قواعد الفقه قول الفقهاء: الشارعُ متشوِّفٌ للحرية، فذلك استقراؤهم من تصرفات الشريعة؛ التي دلت على أنّ من أهم مقاصدها إبطال العبودية وتعميم الحرية، ولكن دأبُ الشريعةِ في رعي المصالح المشتركة، وحفظ النظام العام، وقفَ بها عن إبطال العبودية بوجه عام، وتعويضها بالحرية، وإطلاق العبيد من ربقة العبودية، وإبطال أسباب تجدّد العبودية، مع أنّ ذلك يخدم مقصدَها، كان ذلك التوقف من أجل أنَّ نظامَ المجتمعات في كل قطر قائمٌ على نظام الرق، فكان العبيدُ عمّال في الحقول، وخدم في المنازل والغروس، ورعاة للأنعام، وكانت الإماء حلائل لسادتهن، وخادمات في منازلهم، وحاضنات لأبنائهم، فكان الرقيقُ لذلك من أكبر الجماعات

---

[1] انظر: في ظلال القران (2/ 414).

التي أقيمَ عليها النظام العائلي والاقتصادي والاجتماعي لدى الأمم حين طرقتهم دعوة الإسلام، فلو جاء الإسلام بقلب ذلك النظام رأساً على عقب؛ لانفرط عقدُ نظام المدينة انفراطاً تعسر معه عودة انتظامه، فهذا موجب إحجام الشريعة عن إبطال الرق الموجود، وأما إحجامها عن إبطال تجدد سبب الاسترقاق الذي هو الأسر في الحروب، فلأن الأمم التي سبقت ظهور الإسلام قد تمتعت باسترقاق من وقع في أسرها، وخضع إلى قوتها، وكان من أكبر مقاصد سياسة الإسلام إيقاف غلواء تلك الأمم، والانتصاف للضعفاء من الأقوياء، وذلك ببسط جناح سلطة الإسلام على العالم، وبانتشار اتباعه في الأقطار، فلو أن الأمم التي استقرت لها سيادة العالم من قبلُ أمنت عواقب الحروب الإسلامية . وأخطر تلك العواقب في نفوس الأمم السائدة الأسر والاستعباد والسبيُ . لما ترددت الأمم من العرب وغيرهم في التصميم على رفض إجابة الدعوة الإسلامية اتكالاً على الكثرة والقوة، وأمناً من وصمة الأسر والاستعباد[1]، كما قال صفوان بن أمية في مثله: لأن تربُّني قريشٌ خيرٌ من أن تربُّني هوازن.

وكما قال النابغة:

حذاراً على أن لا تُنالَ مقادتي ... ولا نسوتي حتى يَمُتْنَ حرائرا[2]

فنظر الإسلامُ إلى طريقٍ بين مقصدي: نشر الحرية وحفظ نظام العالم، بأن سلَّط عوامل الحرية على عوامل العبودية مقاومة لها لتقليلها، وعلاجاً للباقي منها، وذلك بإبطال أسباب كثيرة من أسباب الاسترقاق، وقصره على سبب الأسر خاصة،

---

(1) مقاصد الشريعة الإسلامية، الطاهر بن عاشور ص (393).
(2) المصدر نفسه ص (392).

فأبطل الاسترقاق الاختياري، وهو بيع المرء نفسه، أو بيع كبير العائلة بعضَ أبنائها، وقد كان ذلك شائعاً في الشرائع، وأبطل الاسترقاق لأجل الجناية، بأن يُحْكَمَ على الجاني ببقائه عبداً للمجني عليه، وقد حكى القرآن عن حالة مصر: ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ [يوسف: 75]. وقال: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ [يوسف: 76].

وأبطل الاسترقاقَ في الدَّين الذي كان شرعاً للرومان، وكان أيضاً من شريعة سولون في اليونان من قبلُ، وأبطل الاسترقاقَ في الفتن والحروب الداخلية الواقعة بين المسلمين، وأبطل استرقاق السائبة، كما استرقت السيارةُ يوسف عليه السلام إذ وجدوه.

ثم إن الإسلام التفت إلى علاج الرق الموجود، والذي سيوجد، بروافع ترفعُ ضرر الرق، وذلك بتقليله عن طريق تكثير أسباب رفعه، وبتخفيف اثار حالته، وذلك بتعديل تصرف المالكين في عبيدهم الذي كان مالكه معنتاً[1].

ومن منافذ الحرية للأرقاء التي فتحها الإسلام:

1 ـ جعل الإسلام تحرير الأرقاء قربة إلى الله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴾ [البلد: 12].

2 ـ كفارة يمين الحانث: إطعام عشرة مساكين، أو تحرير رقبة.

3 ـ كفارة الظهار لمن أراد أن يرجع زوجته بدايتُه تحرير رقبة، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَآسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [المجادلة: 3].

4 ـ من أفطر في نهار رمضان: فعليه كفارة، منها تحرير رقبة.

---

[1] مقاصد الشريعة ص (393).

5 . ملك اليمين إذا أنجبت من سيدها، تسمّى «أم ولد»، فإذا مات سيدها قبلَها صارتْ حرةً.

6 . المكاتبة: أن يتفق العبدُ مع سيده على مبلغٍ من المال يدفعه، أو يقوم بعمل يصيرُ بعده حراً، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: 33].

7 . العبد الذي يملكه اثنان أو جماعة، فإذا حرَّرَ واحدٌ منهم نصيبه، امتنع أن يباع العبد.

8 . تحرير الأرقاء مصرف من مصارف الزكاة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 60].

لقد انقرض الرق أمام أبواب الحرية التي فتحها الإسلام، ولم يكن الإسلام أول من أباح الرق، بل كان أول من حرر الأرقاء بأسلوب منطقي، بأسلوب الترغيب تارة وبأسلوب الترهيب تارة أخرى عن طريق الكفارات، كما رأينا[1].

لقد قتل الإسلام مشاعر الإحساس بالعبودية، بأن ترفّع عن نداء العبد بكلمة عبدي، وإنّما بأسلوبٍ أرقى، وهو كلمة: غلامي وجاريتي، وفتاي وفتاتي، قال صلى الله عليه وسلم: «لا يقولنّ أحدُكم عبدي وأمتي، وليقل فتاي وفتاتي، ولا يقل أحدكم: ربّي، وليقل سيدي»[2].

---

(1) حقوق الإنسان في الإسلام، د. مبارك سيف الهاجري وعبد المنعم حسين العمري ص (107).
(2) البخاري رقم (2552) مسلم رقم (2249).

وقد نهى النبيَّ صلى الله عليه وسلم عن التشديد في الخدمة، ففي الحديث: «لا يكلفه من العمل ما يغلبه، فإن كلفه فليعنه»، والأمر بكفاية مؤنتهم وكسوتهم، ففي حديث أبي ذر رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عبيدكم خَوَلكم، إنما هم إخوانكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن جُعِلَ أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس»[1] ونهى عن ضربهم الضرب الخارج عن الحد اللازم، فإذا مثّل الرجل بعبده عتق عليه[2].

فمن استقراء هذه التصرّفات ونحوها حصل لنا بأنَّ الشريعةَ قاصدةٌ بثَّ الحرية، والقضاءَ على العبودية للمخلوق.

والقرآن الكريم من مقاصده تركُ الخيار للناس كافة في اختيار المعتقَدِ بعد تبيّن الرشد من الغي، وتترك لهم كذلك حرية التفكير، وحرية التعبير. وإليك الشرح:

1 . حرية الاعتقاد:

أسس الإسلام حرية الاعتقاد لإبطال المعتقدات الضالّة التي أَكْرَهَ دعاةُ الضلالة أتباعهم ومريديهم على اعتقادها من دون فهم ولا هدًى، ولا كتاب منير،

وبالدعاء إلى إقامة البراهين على العقيدة الحقة، ثم بالأمر بحسن مجادلة المخالفين وردّهم إلى الحق بالكلمة والموعظة، وأحسن الجدل، ثم بنفي الإكراه في الدين[3]، قال تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ **[البقرة: 256]**.

ولو أراد الخالقُ جلّت قدرتُه لدخلَ جميعُ مَنْ على الأرض من الناس في دينِ

---

[1] مقاصد الشريعة، محمد الطاهر بن عاشور ص (395).
[2] المصدر نفسه ص (395).

[3] مقاصد الشريعة ص (396).

الإسلام، ولكنْ له حكمةٌ في إعطاء الناس الحرية فيما يختارون وما يسلكون من طريق، حيث قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 99].

ولا شك أنَّ الإنسان بما وهبه الله من عقل وسمع وبصر قادرٌ على التمييز بين الحق والباطل، حتى يستطيعَ اختيارَ الطريق الصحيح، قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[الإنسان: 2 . 3].

وتتكرّرُ الآيات القرآنية في أكثر من سورةٍ حول حريةِ الاعتقاد، وعدم إجبار مَنْ لم يقتنع بالإسلام على اعتناقه، فيخاطِبُ الله تبارك وتعالى نبيَّه محمداً صلى الله عليه وسلم قائلاً: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: 29]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: 107]. وقال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: 48]. وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: 21 . 22]. وقال تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: 80].

والدين الإسلامي الحنيف ليس دينَ قمعٍ وإكراهٍ، بل دينُ يسرٍ، يقوم على مبدأ وسائل الإقناع، والتزام جادّة العقل من خلال منهج الحوار البنَّاء، والتعبير الحر، والجدال الموضوعي المنطقي في النقاش، البعيد عن المهاترات وإثارة الفتن، والشريعةُ الإسلامية تشدّد وتؤكد على قدسية هذا المنهج؛ لذا نجد أنّ الخالق يأمرُ رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بأن يدعوَ الناس إلى دين الإسلام بالحكمة، ويخاطبه

قائلاً: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125].

وفي مجادلة أهل الكتاب يقول تعالى مخاطباً المؤمنين: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: 46][1].

2 . حرية التعبير «الأقوال»:

فهي التصريحُ بالرأي والاعتقادِ في منطقةِ الإذن الشرعي، وقد أمر الله ببعضها في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 104]. وقال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: 110]. وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: 71]. وقال تعالى: ﴿يَابُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاَةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [لقمان: 17].

وقد جاء التوجيه القرآني الكريم بالتزام القول الحسن، وترك ما عداه ممّا لا فائدةَ منه، أو ممّا فيه مضرةٌ في الدين، أو في العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع المسلم.

وقد حدد القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ضوابط الكلام وادابه تحديداً دقيقاً وواضحاً، نجمل شيئاً منه فيما يلي:

1 . الضوابط المتعلقة باللفظ في مثل قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: 104].

---

(1) حقوق الإنسان وحرياته الأساسية، د. صالح عبد الله الراجحي ص (111).

2 ـ الضوابط المتعلقة بالمضمون في مثل قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: 33].

3 ـ الضوابط المتعلقة بالهدف والأسلوب في مثل قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: 70].

4 ـ الضوابط المتعلقة بالتوقف والتثبت من المصدر في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [النساء: 83]. والآية الأخيرة: إنكارٌ على من يبادرُ إلى الأمور قبل تحقُّقها، فيخبر بها ويفشيها وينشرها، وقد لا تكونُ لها صحةٌ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع»[1]، وعن المغيرة بن شعبة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نهى عن قيل وقال»[2]، أي: الذي يكثر من الحديثِ عمّا يقول الناس من غير تثبت، ولا تدبر، ولا تبين[3].

5 ـ كما حرّم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم الكذب والغيبة والنميمة وشهادة الزور والسب والشتم والقذف في أدلة ظاهرة معلومة من الكتاب، والسنة، وإجماع الأمة[4].

---

(1) مسلم رقم (7).
(2) مسلم رقم (4485).
(3) تفسير ابن كثير (529/1)، حرية التعبير، محمد بن محمد الخزعان ص (45).
(4) حرية التعبير، د. محمد الخزعان ص (46).

3. حرية الفكر:

لم يترك القرآن الكريمُ أسلوباً نفسياً أو واقعياً إلا واتبعه من أجل حثّ الإنسان على التفكير، واستعمال عقله بصورةٍ واضحةٍ جلية، وإليك أخي القارئ الكريم البيان:

أ ـ طلب القرآن الكريمُ من الناس أن يستعملوا عقولهم، ويفكروا، ولنستمع لهذه الآيات في الإيمان ورسوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ [سبأ: 46].

وفي تفسير طبيعة الرسالة وشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم يقول تعالى: ﴿قُلْ لاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: 50].

وفي لفت النظر إلى أسرار التشريعات المختلفة عبادية أو اجتماعية، يقول تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيات لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾[البقرة: 219].

وفي إشعار الإنسان بأنّ هذا الكونَ كلَّه خُلِقَ لارتفاقه، ويُسّرَ برُّه وبحرُه وعلوُّه وسفلُه له[1]، يقول تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: 13].

ب ـ طلب القرآن الكريم من البشر أن يستعملوا عقولهم فيما تراه عيونهم ببساطة من ظواهر يومية، ويفكروا فيها، وفي سبب وكيفية وجودها، وذلك حتى يعرفوا أنّ هنالك

---

(1) حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة، محمد الغزالي ص (80-81)، حقوق الإنسان، د. هاني الطعيمات ص (154).

سبباً، وهناك علاقة بين كل ما يتضمنه هذا الكون؛ الذي تمَّ ترتيبه بإحكام ودقة، وفي النظر في السماوات وما حوته، وفي الأرض وما عليها، يقول تعالى: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: 101].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمّىً﴾ [الروم: 8].

وقال تعالى: ﴿أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[الغاشية: 17 . 20].

وفي النظر في أصل نشأة الإنسان وخَلْقِه يقول تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الطارق: 5 . 7]. وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ [يس: 77].

ج . وحتى يحفّز القرآن الكريم العقلَ الإنسانيَّ للتفكر هاجمَ الذين يلغون عقولهم وتفكيرهم، ونعى عليهم هذه الطريقة في الحياة التي تجعلُهم كالدواب، ذلك أنَّ العقل الإنساني وملكة التفكير هي التي تميّزُ الإنسان من الحيوان، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّيُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: 179].

د . نبه القرآن الكريم إلى العوائق الواقعية التي تعطّل التفكير، وطلب إزالتها حتى لا تقفَ بوجه العقل الإنساني، والتفكير الصحيح، فرفض التبعية الفكرية، والإيحاء الفكري المتوارث عائلياً واجتماعياً، فأكد بذلك شخصية كل فرد، واستقلاليته الفكرية. قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ

آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: 170]. وقال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ۝ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: 22. 23].

فالمترفون عادةً لا يريدون التفكير في الأسس الاجتماعية والاقتصادية والعقائدية، لأنّهم طبقة مستفيدة من الوضع القائم، فهي لا تريدُ حتى التفكير في وضع جديد[1].

كما نبّه القرآن الكريم إلى عائق اخر ذي تأثير عملي، ألا وهو الطاعة العمياء بلا فكر لأصحاب الجاه والسلطان، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ ﴾ [الأحزاب: 67].

هـ واستعمل القرآن الكريم أسلوب المقارنة الفكرية بين الشيء وضده لينشِّطَ العملية الفكرية، وليخلق ملكةَ المقارنةِ، ويطوّر المقدرة على التفكير بشكل صحيح[2]، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ [الرعد: 16].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۝ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: 24. 26].

---

(1) حقوق الإنسان وحرياته الأساسية ص (155).

(2) حقوق الإنسان وحرياته الأساسية ص (155).

و . وأفرد القرآن الكريم مكانةً خاصةً للذين يفكّرون ويتعمّقون في التفكير، ويصبح تفكيرُهم علماً نافعاً للإنسان في هذه الحياة، وميّزهم، عن غيرهم وما ذلك إلا مرحلة أخرى متقدّمة من كيفية طلب التفكير وضرورته، واحترام العقل الإنساني، ودفعه نحو أرقى مراحل العلم، قال سبحانه وتعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ **[المجادلة: 11]**.

وبهذا يكون المنهجُ القرآنيُّ وضع حرية التفكير في الاتجاه السليم والمنطق الصحيح، فليس فيها أوهام وخرافات، وليس فيها جمودٌ ولا تقليد، وإنما هي دعوة لتكريم العقل الإنساني، وتحريره من ربقة البلادة والخمول، وتنبيهه إلى أداء مهمته في البحث والتفكير[1].

ولقد ظهرت حرية العلم والتعليم والتأليف والتفكير في أجمل مظهرٍ في القرون الثلاث الأولى من تاريخ الإسلام، إذ نشر العلماءُ فتاواهم ومذاهبهم وعلمهم، واحتجَّ كل فريق لرأيه، ولم يكن ذلك موجباً للمناوأة ولا للحزازات، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نضَّر الله امرأً سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها، فرب حامل فقه إلى ما هو أفقه منه، ورب حامل فقه إلى ما ليس بفقيه»[2].

وهذا هو المقامُ الذي تحقق فيه مالك بن أنس حين قال له الخليفة أبو جعفر المنصور: إني عزمتُ أن أكتب من كتابك «يعني الموطأ» نسخاً، ثم أبعثُ إلى كلِّ مصرٍ من الأمصار نسخةً، وامرهم أن يعملوا بما فيها، ولا يتعدوها إلى غيرها.

فقال الإمام: لا تفعل يا أمير المؤمنين، فإنَّ الناسَ قد سبقت لهم أقاويلُ، وسمعوا

---

(1) حقوق الإنسان وحرياته الأساسية ص (156).

(2) مقاصد الشريعة، محمد الطاهر بن عاشور ص (397).

أحاديث، وأخذ كلُّ قوم بما سبق إليهم من اختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيرهم وأن ردهم عن ذلك شديد، فدع الناسَ وما هم عليه[1].

4 . حرية التنقل:

كفل الإسلام حرّيةَ التنقل لكلِّ فردٍ حسبما يريدُ، سواء كان ذلك داخلَ حدودِ الدولة الإسلامية أم خارجها، ويمكن إجمالُ صور التنقل فيما يلي:

أ . التنقل لتحقيق نفع ديني ودنيوي:

وذلك مثل التنقل طلباً للرزق بالطرق المشروعة، من تجارةٍ وغيرها، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: 15].

ومثل التنقل طلباً للعلم، قال تعالى: ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: 122].

ومثل السفر بقصد زيارة الأرحام والإخوان في الله، وبقصد زيارة البقاع الشريفة كمكة والمدينة، ومثل السفر بقصد الترويح عن النفس على الوجه المشروع، فالسياحةُ مباحة، لأنها تفتح العينَ والقلبَ على المشاهدة الجديدة التي لم تألفها العينُ، ولا يملّها القلبُ، بل قد تكون السياحةُ مندوباً إليها، إذا كانت على سبيل التدبر والاعتبار، ومعرفة سنن الله تعالى في الأمم السالفة، قال الله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [الأنعام: 11].

ب . التنقل لأداء واجب ديني:

كالسفر لأداء فريضة الحج، أو الجهاد في سبيل الله، قال تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ

---

[1] المصدر نفسه ص (397).

بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [الحج: 27]. وقال تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: 41].

وهذا خطاب للمؤمنين، وعقب ذلك أنزل الله تعالى في شأن المنافقين قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاَتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [التوبة: 42]، أي: لو كان ما دعوتهم إليه من الخروج في سبيل الله سفراً وسطاً، ومتاعاً من الدنيا سَهْلَ المأخذ، لاتّبعوك، وخرجوا معك طلباً للغنيمة[1].

جـ الهجرة حفاظاً على سلامة العقيدة:

أوجب الإسلام الهجرة على كل مسلم تعرّضَ للذل أو المهانة، أو خاف أن يفتن في دينه، ووصف الذين يتقاعسون عن الهجرة، مع استطاعتهم لها؛ بأنهم من الظالمين لأنفسهم، ولم يستثن من ذلك إلا الفئة العاجزة فعلاً عن الهجرة من كبار السن والنساء والولدان، وقد قال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝ إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً ﴾ [النساء: 97 . 98][2].

إنَّ الإسلام اعتنى بالحرية بأنواعها، وقدّرها حقّ قدرها، سواء حرية الاعتقاد، أو

---

(1) حقوق الإنسان وحرياته الأساسية ص(140).

(2) حقوق الإنسان وحرياته الأساسية ص (140).

حرية التعبير، أو حرية الفكر، أو حرية التنقل، وجعل الحرية مقصداً من مقاصده.

سابعاً . رفع الحرج:

إنّ من مقاصد القرآن الكريم رفع الحرج عن المكلفين، ووردت آيات كثيرة جداً تبيّن أن هذا الدين دين يسر، وأنّ الله قد رفع الحرج عن هذه الأمة فيما يشق عليها، حيث لم يكلّفها إلا وسعها، وسأبيّن أدلةَ التيسيرِ، ثم أدلة رفع الحرج، ثم أدلّة عدم التكليف بغير الوسع والطاقة.

1 . أدلة التيسير والتخفيف:

قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185]. وقال سبحانه: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: 28]. وقال عز وجل: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى ﴾ [الأعلى: 8]. وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح: 5 . 6]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: 4]. وقال تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: 7]. هذه بعض الآيات التي تفيد التيسير على هذه الأمة، وقد ذكر المفسرون في تفسيرهم هذه الآيات؛ أنّ الله أراد لهذه الأمة اليسر، ولم يرد لها العسر[1].

2 . أدلة رفع الحرج:

من أقوى الأدلة على رفع الحرج قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: 78]، أي: ما كلفكم ما لا تطيقون، وما ألزمكم بشيء يشق عليكم إلا جعل الله لكم فرجاً ومخرجاً[2]. وقال سبحانه: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ

---

(1) تفسير الطبري (156/2)، تفسير ابن كثير (217/1).

(2) تفسير الطبري (207/17).

يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة: 6]. وقال سبحانه: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: 91].

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ [الأحزاب: 38]. وقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [النور: 61].

وفي هذه الآيات دلالةٌ ظاهرةٌ على رفع الحرج عن هذه الأمة، وأنَّ الله لم يجعل في التشريع حرجاً، وبعض هذه الآيات وإن كانت خاصّةً في أحكام معينة، ولكننا نجدُ التعليل عاماً، فكأنَّ التخفيفَ ورفعَ الحرج في هذه الأحكام والفروض بإعادة الشيء إلى أصله، وهو رفع الحرج عن هذه الأمة، فكل شيء يؤدي إلى الحرج لسبب خاص أو عام فهو معفو عنه، رجوعاً إلى الأصل والقاعدة[1].

3 . أدلة عدم التكليف بما يضاد الوسع والطاقة:

قال سبحانه: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 286].

وقال الله تعالى كما في الحديث الصحيح: «قد فعلت»[2].

وكذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ [البقرة: 286].

والوسع: ما يسعُ الإنسانَ فلا يعجزُ عنه، ولا يضيقُ عليه، ولا يحرج فيه، قال تعالى: أي: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ يحملها إلا ما تسعه وتطيقه ولا تعجز عنه،

---

[1] الوسطية في ضوء القرآن، د ناصر العمر ص (106).

[2] مسلم رقم (126).

أو يحرجها دون مدى غاية الطاقة، فلا يكلّفها بما يتوقف حصوله على تمام صرف القدرة، فإنّ عامة أحكام الإسلام تقعُ في هذه الحدود، ففي طاقة الإنسان وقدرته الإتيان بأكثر من خمس صلوات، وصيام أكثر من شهر، ولكنَّ الله جلّت قدرتُه، ووسعت رحمتُه، أراد بهذه الأمة اليسرَ، ولم يرد بها العُسْرَ[1].

ومن الأدلّة على أنَّ التكليف بحدود الوسع والطاقة قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [الأعراف: 42].

ويقولُ سبحانه: ﴿وَلاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [المؤمنون: 62]. فسنة الله جارية على أنه لا يكلف النفوس إلاّ وسعها، وجاء التأكيد على هذه القاعدة عند ذكر بعض الأحكام الفرعية، فقال سبحانه: ﴿وَعَلَى الْمَولُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 232].

وكذلك قوله تعالى: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق: 7].

وكذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: 152].

هذه هي الآيات التي وردت مبيّنةً أنَّ التكليف بحسب الوسع والطاقة، وتبيّن أن رفع الحرج من مقاصد القرآن الكريم.

ثامناً ـ تقرير كرامة الإنسان:

يظهر التكريمُ الإلهيُّ للإنسان في عِدّةِ أمورٍ، منها:

---

[1] رفع الحرج في الشريعة الإسلامية، صالح بن حميد ص (73).

1 . الإنسان خليفة في الأرض:

أكد القرآن الكريم أن الإنسان مخلوق كريم على الله، فقد خلق ادم بيديه، ونفخ فيه من روحه، وجعله في الأرض خليفة، تكريماً للإنسان، وجاء ذلك في حوار بديع، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: 30].

2 . الإنسان محور الرسالات السماوية:

إنّ الإنسان هو المقصودُ غايةً وهدفاً في ابتعاث الرسل، واختيار الأنبياء، وإنزال الكتب والصُّحف، وإنّ الله سبحانه وتعالى الذي جعل ادمَ خليفةً في الأرض، اقتضت حكمته ومشيئته ورحمته بالإنسان ألاّ يخلقه عبثاً، وألاّ يتركه سدًى، وإنّما تكفّل بهدايته وإرشاده، وأخذ بيده إلى الطريق الأقوم، والمنهج الأمثل، وطمأنه منذ استقراره في الأرض أنه لن يدعه طعاماً سائغاً لوساوس الشيطان، ولن يتركه نهباً للوهم، والخبط، والضلال، والشهوات، ولن يسلمه للجهالة والحيرة والضياع، وإنما أكرمه بالهداية والرشاد بالتي هي أقوم[1]، قال تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: 38].

وقال تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى ۝ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ ﴿مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ [طه: 123 . 124].

---

[1] حقوق الإنسان، د. محمد الزحيلي ص (21).

وهكذا توالت الرسلُ، وتتابع الأنبياء، وأُنزلت الكتب، وكلّها تدور على محور واحدٍ، هو الإنسان، بما يحقق له السعادة في الدنيا والآخرة، وجاءت الشرائع لتأمينِ مصالح الناس بجلب النفع لهم، ودفع المضارّ عنهم، فترشدهم إلى الخير، وتهديهم إلى سواء السبيل، وتدلّهم على البر، وتأخذ بيدهم إلى الهدى القويم، وتكشِفُ لهم طريق الخير، وتحذّرهم من الغواية والشرّ[1].

وجاءت الشريعة لتحصيل المصالح وتكميلها، وتقليل المفاسد وتعطيلها[2]، فإنّ الأحكام الشرعية إنما شرعت لجلب المصالح، أو لدرء المفاسد[3].

3 . تكليف الملائكة بالسجود لآدم:

لم يقتصر الأمر الإلهي باختيار الإنسان خليفة في الأرض، بل تأكد ذلك في السماء والجنات العلا، واقترن بالفعل والتطبيق، وأعلن الله تعالى ذلك في الملأ الأعلى بإرادته عن خلق ادم، واتخاذه خليفة، وسجل ذلك في اللوح المحفوظ، وأنزله وحياً يتلى على البشر، ثم أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لادم تعظيماً، واحتراماً له؛ لأنّ الإرادة الإلهية تعلقت باختياره، فقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۝ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝ إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ **[ص: 71 . 74]**.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۝ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۝ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى

---

[1] حقوق الإنسان، د. محمد الزحيلي ص (22).
[2] مجموع الفتاوى (48/20).
[3] الموافقات للشاطبي (195/1).

أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾[الحجر: 28 . 31].

وكرّر القرآن الكريم هذا الأمر، وهذه القصة في عدة سور قرآنية لتذكير الإنسان بفضل الله تعالى أولاً، وليعرف مكانته من الوجود والكون ثانياً، وليحذره من غواية إبليس ثالثاً[1].

4 . تفضيل الإنسان عن سائر المخلوقات:

صرّح القرآن الكريم بهذا التفضيل والتكريم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء: 70].

5 . تسخير ما في الكون للإنسان:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: 20].

وصرّح القرآن الكريم بأنّ الله تعالى خلق الأنعام، وملّكها للإنسان، ثم ذلّلها له للركوب، والأكل، والمنافع، والمشارب، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ۝ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ ﴾ [يس: 71 . 73].

ووجّه القرآن الكريم الإنسان إلى البحث في الكون، والتعرف على خواصّه وأسراره، والانتفاع به في الحياة.

فقال تعالى عن الثروة المائية: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [النحل: 14]. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ

---

[1] حقوق الإنسان، د. محمد الزحيلي ص (28).

مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: 141].

وقال تعالى عن الثروة الحيوانية: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ ۝ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: 5 ـ 8].

وقال تعالى عن الثروة الصناعية: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحديد: 25]. وقال تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ۝ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [سبأ: 10 ـ 11].

6 ـ تكريم الإنسان بالعقل:

فالعقل هو الأداة الكبرى للمعرفة، ويتفرّع عنه التفكير، والإرادة، والاختيار، وكسب العلوم؛ لذلك كان الإنسانُ مسؤولاً عمّا يصدر عنه، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء: 36].

وعدّ القرآن الكريم الإنسانَ الذي يعطل حواسه وعقله أضلّ من الأنعام والحيوان؛ لأن لديه وسائل المعرفة، لكنه عطلها عما خلقت له. قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَآبِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ [الأنفال: 22].

وقد تعدّدت الآيات القرآنية صراحةً وإشارةً في مخاطبة العقل، ودعوته للتفكير،

والنظر والبحث في الكون، وجعل التفكير فريضة إسلامية. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ ۝ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: 190 . 191]. وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[الروم: 24] وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[البقرة: 164] وقال تعالى: ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[الرعد: 4].

وآيات كثيرة تثيرُ العقلَ وتحثّه، وتؤدي بالعقل إلى الإيمان بالله تعالى، واليقين بأنّه الخالق المدبر.

وبالمقابل إذا فشل العقل في أداء هذه الوظيفة فقد وجوده، وسلب الإنسان إنسانيته، وهذا ما أكّده القرآن الكريم بنفي العقل عن الكفار، وحكم عليهم بأنّهم لا يعقلون، وذلك لعدم الاستفادة من السمع والبصر للانتفاع من آيات الكون التي تنطِقُ بوجود الله تعالى، وتوجب طاعته، وعندئذٍ ينسلخ الكافر من إنسانيته، ويتساوى بالحيوان ثم ينحدر عنه[1]، قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ

---

[1] حقوق الإنسان، للزحيلي ص (54).

تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ۝ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾[الفرقان: 43 . 44].

7. تكريم الإنسان بالأخلاق والفضائل:

تظهر كرامة الإنسان والدعوة إلى تكريمه بدعوة الإسلام إلى الأخلاق الفاضلة، وترغيب الفرد والمجتمع بمعالي الأمور، والتسامي عن المادة،

والحض على الخير والفضيلة بين الناس[1]؛ لذلك وصف القرآن الكريم نبيَّه محمداً صلى الله عليه وسلم بأعلى أوسمةِ الفخار والثناء، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: 4]. وبين ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «إنما بُعثتُ لأتمِّمَ مكارمَ الأخلاق»[2].

فدعا الإسلامُ الناسَ جميعاً إلى البِرِّ، والرحمة، والإخاء، والمودة، والتعاون، والوفاق، والصدق، والإحسان، ووفاء الوعد، وأداء الأمانة، وتطهير القلب، وتخليصه من الشوائب، كما دعا إلى العدل والمسامحة والعفو، والمغفرة والصبر والثبات، ودعا إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحَثَّ على النصيحة وغير ذلك من مكارم الأخلاق والفضائل[3]، والأخلاق الفاضلة تزين الإنسانيةَ، وتُعلي شأنها، وتُنسق بين أفرادها، وتصون العلاقات الجماعية، وتوجيهها إلى الخير والكمال، لتصوّر الحياة البشرية في أجمل صورها، وأحسن أحوالها، وتتجنّب الرذيلة، والفساد الخُلُقي والاجتماعي[4].

---

[1] مجموع الفتاوى (48/20).
[2] الموافقات للشاطبي (195/1).
[3] حقوق الإنسان، للزحيلي ص (28).
[4] حقوق الإنسان في الإسلام، للزحيلي ص (54).

8. تكريم الإنسان في تشريع الأحكام:

وهذا بابٌ واسعٌ يُغطي جميعَ الأحكام الشرعية، ويدفع لمعرفة العلة فيها والحكمة من تشريعها، ولذلك نضربُ بعض الأمثلة فقط كنماذج:

أ. وجود الإنسان:

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: 21]. أي: تأنسوا ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾، أي: جنسكم ﴿ لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾أي تأنسوا بها، فإنَّ المجانسة من دواعي التضامن والتعاون ، ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾، أي: تواداً وتراحماً بعصمة الزواج بعد أن لم يكن لقاء ولا سبب يوجب التعاطف من قرابة أو رحم، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

أي: في بدائع هذه الأفاعيل المتينة المبنية على الحكم البالغة[1]

ب. حقوق الأولاد:

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: 6] أمر الله عزّ وجلّ في هذه الاية بأن يقي المؤمنون أنفسَهم النار بأفعالهم، وأهليهم بالنصح، والوعظ، والإرشاد، وهذا يتطلّب الالتزام التام بأحكام الشرع أمراً ونهياً، وترك المعاصي، وفعل الطاعات، ومتابعة القيام بالأعمال الصالحة، وحث الزوجة والأولاد على أداء الفرائض، واجتناب النواهي، ومراقبتهم المستمرة في ذلك[2].

---

(1) محاسن التأويل، للقاسمي (4772/13).

(2) التفسير المنير للزحيلي (316/28-320).

ج ـ احترام إرادة الإنسان في العقود والتصرفات:

ومن ذلك: إرشاد القرآن الكريم إلى كتابة المداينة بين الأطراف، ثم أمر بالإشهاد عليها، وبيّن الحكمة والغاية من ذلك: قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ [البقرة: 282]. ثم قال تعالى: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ [البقرة: 282]. ثم بين تعالى الحكمة والغاية، فقال: ﴿ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُوا إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا﴾ [البقرة: 282].

كما أنّ الله حرّم الغشّ والاعتداء على أموال الآخرين، واغتصاب حقوقهم؛ لأن ذلك يخلّ بالكرامة السامية للطرفين، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: 188]. وقال تعالى: ﴿لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ [النساء: 29].

لقد احترم الإسلام الإنسان، واعتبر إرادته أساساً في التعاقد، والتعامل حتى سبق تشريعات العالم في سلطان الإرادة العقدية، ثم اعتدّ بالإرادة الإنسانية في سائر التصرفات، وأبطل التصرفات التي تقع بالإكراه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رُفِعَ عن أمتي الخَطَأُ والنسيانُ وما استُكْرِهُوا عليه»[1]، وجمع الحديث بين الخطأ والنسيان، والإكراه؛ لأنّ الإرادةَ مفقودةٌ حقيقةً في هذه الحالات، كما حرّم

---

[1] البخاري (564)، سنن البيهقي (10/ 192).

الإسلام أكل مال الإنسان إلا عن طيب نفسه[1].

د . العقوبات:

قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاأُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: 179].

لقد حرص المشرِّعُ الحكيم على التكريم الإنساني حتى في باب العقوبات، فقصد حفظ الدماء، والأنفس، والحياة عامة، وراعى الكرامة الإنسانية، فنصّ على الأشياء الممنوعة والمحرمة، وحذّر منها، ورهب من ارتكابها، فإن حصل الخلل، ووقع الخطأ، أو العدوان والإثم، شرع العقاب المناسبَ للجريمة بما لا يمسُّ كرامة الإنسان، فشرع القصاصَ، ومنع المثلة والعدوان، واعتبر العقوبة تأديباً، وإصلاحاً وزجراً وردعاً[2].

وقد ورد في النصوص الشرعية أدلةً كثيرةً في رعاية الجانب الإنساني مع المتهم، والمجرم، والجاني، سواء في معاملته، والتحقيق معه، أم في محاكمته، وتأمين حقوقه الإنسانية، ومنحه الحق في الدفاع عن نفسه، أم في معاقبته، وتنفيذ الحكم عليه بالسجن وغيره[3].

وبعد: فإنَّ جميع الأحكام الشرعية مُراعًى فيها الناحية الإنسانية؛ لأنَّها ما شرعت أصلاً إلا لمصلحته، وإن الشريعة الغرّاء راعت إنسانيةَ الإنسان بالأحكام الحكيمة العادلة المناسبة له قبل الولادة وبعدها، وسمت برعاية اليتيم والأطفال خاصة، ثم الإنسان عامة، طوال فترة الحياة، ثم رعت شؤونه عند الموت، والتجهيز، والغسيل، والتكفين، والصلاة عليه، ومواراته التراب، وعدم الاعتداء على الميت، أو إيذائه بكلمة، أو غيبة، أو بالجلوس على قبره، وهي أحكام إنسانية بكل ما في الكلمة من

---

[1] حقوق الإنسان، للزحيلي ص (64).
[2] المصدر نفسه ص (66).
[3] محاسن التأويل، للقاسمي (13/ 4772).

معنًى، مما يدركه الباحث في العلوم الشرعية والمتفقه في الفقه وأحكام الإسلام، كما يتجلّى لنا التكريم الإلهي للإنسان في كل صغيرة وكبيرة، وفي جميع شؤون الحياة وأطوار الإنسان؛ ليكون المكرَّم، والمفضَّل، والمقدَّم عند الله، والخليفة في الأرض[1].

تاسعاً . تقرير حقوق الإنسان:

من مقاصد القرآن الكريم تقرير حقوق الإنسان، فحقوق الإنسان في الإسلام ليستْ منحةً من ملك أو حاكم، أو قرار صادر عن سلطة محلية أو منظمة دولية، وإنّما هي حقوقٌ ملزمة بحكم مصدرها الإلهي لا تقبل الحذف ولا النسخ ولا التعطيل، ولا يسمحُ بالاعتداء عليها، ولا يجوزُ التنازل عنها[2]، ومن هذه الحقوق:

1 . حق الحياة:

حياة الإنسان مقدّسةٌ، لا يجوز لأحدٍ أن يعتدي عليها، قال تعالى: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: 32].

ولا تُسْلَبُ هذه القدسية إلا بسلطانِ الشريعةِ، وبالإجراءات التي تقرّها، وكيان الإنسان المادي والمعنوي حِمًى تحميه الشريعة في حياته وبعد مماته، ومن حقه الترفق والتكريم في التعامل مع جثمانه[3].

2 . حق الحرية:

حرية الإنسان مقدسةٌ . كحياته سواء . وهي الصفةُ الطبيعيةُ الأولى التي بها يولد الإنسان، وقد بينا أنّ من مقاصد الشريعة الحرية، وتحدثنا عن أنواعها، كحرية المعتقدات، وحرية التعبير، وحرية الفكر، وحرية التنقل.

---

[1] حقوق الإنسان، للزحيلي (78).

[2] حقوق الإنسان لمحمد الغزالي ص (174).

[3] المصدر نفسه ص (174).

ويجب توفير الضمانات الكافية لحماية حرية الأفراد، ولا يجوزُ تقييدها أو الحد منها إلا بسلطان الشريعة، وبالإجراءات التي تقرّها، ولا يجوزُ لشعب أن يعتدي على حرية شعب اخر، وللشعب المعتدى عليه أن يرد العدوان، ويسترد حريته بكل السبل الممكنة، قال تعالى: ﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ [الشورى: 41].

وعلى المجتمع الدولي مساندة كلِّ شعب يجاهد من أجل حريته، ويتحمل المسلمون في هذا واجباً، ولا ترخّص فيه، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الحج: 41].

3 . حق المساواة:

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: 13]. فالناسُ جميعاً سواسية أمام الشريعة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا فضلَ لعربيٍّ على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى»[1]، ولا تمايز بين الأفراد في تطبيقها عليهم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لو أنَّ فاطمةَ بنتَ محمّدٍ سرقت لقطعتُ يدها»[2].

والناس كلهم في القيمة الإنسانية سواءٌ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كلكم لادم، وادم من تراب»[3]، وإنما يتفاضلون بحسب عملهم، قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ [الأحقاف: 19].

---

(1) مسند الإمام أحمد (411/5).

(2) مسلم، (1315/3).

(3) من خطبة الوداع نقلا عن حقوق الإنسان، للغزالي ص (175).

وكل فكر، وكل تشريع، وكل وضع يسوّغُ التفرقةَ بين الأفراد على أساس الجنس، أو العرق، أو اللون، أو اللغة، أو الدين، هو مصادرةٌ مباشرةٌ لهذا المبدأ الإسلامي العام[1].

ولكل فرد حق في الانتفاع بالموارد المادية للمجتمع من خلال فرصة عمل متكافئة لفرص غيره، قال تعالى: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ [الملك: 15]، ولا يجوز التفرقة بين الأفراد كماً وكيفاً، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: 7 . 8].

4 . حق العدالة:

من حق كلِّ فردٍ أن يتحاكم إلى الشريعة، وأن يتحاكم إليها دون سواها، قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: 59].

وقال تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [المائدة: 49].

ومن حق الفرد أن يدفع عن نفسه ما يلحقه من ظلم، قال تعالى: ﴿لاَ يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَنْ ظُلِمَ﴾ [النساء: 148]، ومن واجبه أن يدفع الظلم عن غيره بما يملك.

ومن حق الفرد أن يلجأَ إلى سلطةٍ شرعيةٍ تحميه وتنصفه وتدفع عنه، ما لحقه من ضرر أو ظلم، وعلى الحاكم المسلم أن يقيمَ هذه السلطة، ويوفّر لها الضمانات الكفيلة بحيدتها واستقلالها[2].

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ

---

(1) حقوق الإنسان، لمحمد الغزالي ص (175).

(2) احقوق الإنسان، للغزالي (175).

تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [النساء: 58]. وقال تعالى: ﴿يَادَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾[ص: 26].

5 . حق الفرد في محاكمة عادلة:

البراءةُ هي الأصل، وهو مستصحَبٌ ومستمرٌّ حتى مع اتّهام الشخص ما لم تثبتْ إدانتُه أمامَ محكمةٍ عادلةٍ إدانةً نهائيةً، ولا تجريمَ إلا بنصٍّ، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء: 15].

ولا يحكم بتجريم شخص، ولا يعاقب على جرم إلاّ بعد ثبوت ارتكابه له بأدلة لا تقبل المراجعة أمام محكمة ذات طبيعة قضائية كاملة، قال تعالى: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: 6]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ [النجم: 28].

ولا يجوز بحال تجاوزُ العقوبةِ التي قدرتها الشريعةُ للجريمةِ، قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: 229].

ولا يؤخذُ إنسانٌ بجريرةِ غيره، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الإسراء: 15]، وكل إنسان مستقل بمسؤوليته عن أفعاله، قال تعالى: ﴿كُلُّ امْرِىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: 21]. ولا يجوزُ بحال أن تمتدَّ المسألةُ إلى ذويه من أهل وأقارب أو أتباع وأصدقاء، قال تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلاَّ مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ ﴾ [يوسف: 79][1].

---

[1] حقوق الإنسان، للغزالي ص (176).

6. حق الحماية من تعسف السلطة:

لكل فردٍ الحق في حمايته من تعسف السلطات معه، ولا يجوزُ مطالبته بتقديم تفسيرٍ لعمل من أعماله، أو وضعٍ من أوضاعه، ولا توجيه إتهام له إلا بناء على قرائن قوية تدل على تورطه فيما يوجه إليه، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً﴾ [الأحزاب: 58].

7. حق الفرد في حماية عرضه وسمعته:

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ﴾ [الحجرات: 11].

عِرضُ الفرد وسمعته حرمةٌ لا يجوزُ انتهاكها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرامٌ كحرمةِ يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا»[1].

ويحرم تتبع عوراته، ومحاولة النيل من شخصيته، وكيانه الأدبي. قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: 12].

8. حق اللجوء:

من حقِّ كلِّ مسلم مضطهَدٍ أو مظلومٍ أن يلجأ إلى حيث يأمن، في نطاق دار الإسلام، وهو حقٌّ يكفُلُه الإسلامُ لكلِّ مضطهَدٍ، أيّاً كانت جنسيته، أو عقيدته،

---

(1) مسلم، (889).

أو لونه، ويتحمل المسلمون واجب توفير الأمن له متى لجأ إليهم.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة: 6].

وبيت الله الحرام ـ بمكة المشرفة ـ هو مثابةٌ وأمنٌ للناس جميعاً، لا يُصَدُّ عنه مسلم، قال تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً﴾ [آل عمران: 97]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً﴾ [البقرة: 125][1].

9 ـ حقوق الأقليات:

الأوضاع الدينية للأقليات يحكمُها المبدأُ القرآني العام، قال تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: 256]. والأوضاع المدنيةُ والأحوال الشخصية للأقليات، تحكمُها شريعةُ الإسلام إن هم تحاكموا إلينا، قال تعالى: ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة: 42]، فإن لم يتحاكموا إلينا كان عليهم أن يتحاكموا إلى شرائعهم ما دامت تنتمي ـ عندهم ـ لأصل إلهي: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾[المائدة: 43]. وقال تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾[المائدة: 47].

10 ـ حق المشاركة في الحياة العامة:

من حق كل فرد في الأمة أن يعلمَ بما يجري في حياتها، من شؤون تتصل بالمصلحة العامة للجماعة، وعليه أن يُسْهِمَ فيها بقدر ما تتبع له قدرته ومواهبه إعمالاً لمبدأ الشورى، قال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: 28]، وكل فرد في الأمة أهلٌ

---

[1] حقوق الإنسان، محمد الغزالي ص (177).

لتولي المناصب، والوظائف العامة، متى توافرت فيه شرائطها الشرعية، ولا تسقط هذه الأهليةُ أو تنقصُ تحت أيِّ اعتبار عنصري أو طبقي، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المسلمونَ تتكافأ دماؤهم، وهم يدٌ على من سواهم، ويسعى بذمتهم أدناهم»[1].

والشورى أساسُ العلاقة بين الحاكم والأمة، ومن حق الأمة أن تختار حكّامها بإرادتها الحرة، تطبيقاً لهذا المبدأ، ولها الحقُّ في محاسبتهم وفي عزلهم إذا حادوا عن الشريعة، قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «إنّي وليتُ عليكم، ولستُ بخيركم، فإن أحسنتُ فأعينوني، وإنْ أسأتُ فقوّموني، الصدقُ أمانةٌ، والكذبُ خيانةٌ... أطيعوني ما أطعتُ اللهَ ورسولَه، فإذا عصيتُ اللهَ ورسولَه، فلا طاعة لي عليكم»[2].

11 . حق الدعوة والبلاغ:

لكلِّ فردٍ الحقُّ في أن يشاركَ مع غيره أو منفرداً في حياة المجتمع دينياً، واجتماعياً، وثقافياً، وسياسياً... إلخ وأن ينشِأئَ من المؤسسات، ويصنعَ من الوسائل ما هو ضروري لممارسة هذا الحق، قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: 108].

ومن حق كلِّ فرد بل ومن واجبه أن يأمرَ بالمعروف، وينهى عن المنكر، وأن يطالِبَ المجتمعَ بإقامة المؤسسات التي تهيئ للأفراد الوفاء بهذه المسؤولية، تعاوناً على البر والتقوى، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ

---

(1) صحيح سنن أبي داود، الألباني (525/2).

(2) التاريخ الإسلامي، عبد العزيز الحميدي (28/9) الشورى فريضة إسلامية للمؤلف ص (56).

وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾[آل عمران: 104] [1] ، وحق الإنسان في إنكار المنكر، ورفض الفساد، ومقاومة الظلم البين، والكفر البواح، قرره القرآن بقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لاَ تُنْصَرُونَ ﴾ [هود: 13]. وقال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ۝ كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة: 78 . 79]، كيف لا وقد قيّدَ الله الطاعة للرسول صلى الله عليه وسلم نفسه بالمعروف، فقال في بيعة النساء: ﴿وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ [الممتحنة: 12]. وقال على لسان نبيّ الله صالح: ﴿وَلاَ تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ۝ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ ﴾ [الشعراء: 151 . 152].

بل إنّ الإسلام قد ارتقى بهذه الأمور من مرتبة الحقوق إلى مرتبة الفرائض والواجبات، لأنّ ما كان من الحقوق يمكِنُ لصاحبه أن يتنازل عنه، أمّا الواجبات المفروضة فلا يجوز التنازلُ عنها[2].

12 . الحقوق الاقتصادية:

الطبيعة ـ بثرواتها جميعاً ـ ملكٌ لله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة: 120]، وهي عطاء منه للبشر، منحهم حق الانتفاع بها، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجاثية: 13].

وحرم عليهم إفسادها وتدميرها، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾

---

[1] حقوق الإنسان، للغزالي ص (179).
[2] كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟ ص (74).

[الشعراء: 183].

ولا يجوزُ لأحدٍ أن يحرِمَ اخر أو يعتدي على حقه في الانتفاع بما في الطبيعة من مصادر الرزق: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء: 20].

فلكل إنسان الحق في العمل، والمشي في مناكب الأرض سعياً لكسب رزقه، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ [الملك: 15].

حتى في يوم الجمعة قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: 10].

وفي الحج قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: 198].

ولكل إنسان الحق في أن يتمتّع بثمرة ما كسب من حلال عن طريق التملك، رجلاً كان أو امرأة: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ [النساء: 32][1].

13 . حق حماية الملكية:

لا يجوزُ انتزاعُ ملكيةٍ نشأت عن كسب حلال إلا للمصلحة العامة، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: 188]. ومع تعويض عادل لصاحبها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ أخذَ من الأرضِ شيئاً بغيرِ حقِّه خُسِفَ به يوم القيامة إلى سبع أرضين»[2]. وحرمة الملكية العامة أعظم، وعقوبة الاعتداء عليها أشد، لأنّه عدوان على المجتمع كله، وخيانة للأمة بأسرها، قال رسول الله

---

(1) كيف نتعامل مع القران العظيم؟ ص (74).
(2) صحيح البخاري، (115/2).

صلى الله عليه وسلم: «مَنِ استعملناه على عملٍ فرزقناه رِزقاً، فما أخذَ بعدَ ذلكَ فهو غلولٌ»[1].

14 . حق العامل:

العملُ شعارٌ رفعه الإسلام لمجتمعه، قال تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا﴾ [التوبة: 105]. وإذا كان حَقُّ العمل الاتقانُ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنّ اللهَ يحبُّ إذا عملَ أحدُكم عملاً أن يتقنه»[2].

حق العامل:

أ . أن يوفّى أجره المكافئ لجهده دون حيف عليه، أو مماطلة له، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أعطوا الأجير أجره قبل أن يجفَّ عرقه»[3].

ب . أن توفر له حياة كريمة تتناسب مع ما يبذله من جهد وعرق.

ج . أن يُمْنَحَ ما هو جديرٌ به من تكريم المجتمع له، قال تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: 105].

د . أن يجد الحماية؛ التي تحول دون غبنه، واستغلال ظروفه[4].

15 . حق الفرد في كفايته من مقومات الحياة:

من حق الفرد أن ينال كفايته من ضرورات الحياة، من طعام، وشراب، وملبس، ومسكن.. ومما يلزم لصحة بدنه من رعاية، وما يلزم لصحة روحه، وعقله من علمٍ،

(1) صحيح سنن أبي داود (230/2).
(2) صحيح الجامع الصغير وزيادته، للألباني رقم (1880).
(3) صحيح سنن ابن ماجه، للألباني (59/2).
(4) حقوق الإنسان، للغزالي ص (181).

ومعرفةٍ، وثقافةٍ، في نطاق ما تسمح به موارد الأمة، ويمتد واجبُ الأمة ليشمل ما لا يستطيع الفرد أن يستقلَّ هو بتوفيره لنفسه من ذلك[1]. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: 10]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ولا يخذله»[2].

قال ابن حزم تعليقاً على هذا الحديث: مَنْ تركه يجوع ويعري وهو قادر على إطعامه وكسوته فقد أسلمه[3]. إنَّ الأخوة ليست مجرّد عاطفة، ولكنّها عقد تكافل وتعاون وتازر، وهو عقد طرفه الأساسي الأمة ممثلة في مستويات متراتبة تبدأ بالأسرةِ، حيث أوجب على أفرادها التكافل في الإرث والوصية والنفقة، قال تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال: 75].

ثم الجيرة؛ قال تعالى: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ [النساء: 36]، ثم يأتي أهلُ الحي، ثم المجتمع كله عن طريق الزكاةِ، وهي فريضةٌ ملزِمة، ثم النفقة التطوعية[4].

16 . تأكيد حقوق الضعفاء:

قرر القرآن الكريم حقوقَ الإنسان عامةً، ولكنّه عُني عنايةً فائقةً بحقوق الضعفاء من بني الإنسان خاصة خيفةَ أن يجورَ عليهم الأقوياء، أو يهملَ أمرَهم الحكامُ والمسؤولون، نجد مظاهر هذه العناية في سور القرآن الكريم مكيّه ومدنيّه، كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ [الضحى: 9]، وفي سورة المدثر يتحدّث عن المجرمين في سقر، وأسباب دخولهم فيها، فيقول على لسان أصحاب اليمين حيث يسألونهم:

---

(1) المصدر نفسه ص (182).
(2) البخاري (6951) ومسلم (2580).
(3) المصدر نفسه (109/1).
(4) المحلى، نقلاً عن الحريات، للغنوشي (108/1).




﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ۝ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۝ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾، وهاتان السورتان الضحى والمدثر من أوائل ما نزل، وفي سورة الماعون ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝ وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ فلم يكتفِ بإيجاب إطعام المسكين، بل أوجبَ الحضَّ على ذلك، والدعوة إليه.

وفي سورة الحاقة، علل القرآن دخول صاحب الشمال الجحيم بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ۝ وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾، فقرن الحضَّ على الإيمان بالله بترك الحض على إطعام المسكين.

وفي سورة الفجر خاطب القرآن المجتمع الجاهلي المتظالم بقوله: ﴿كَلاَّ بَلْ لاَ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ۝ ولاَ تَحَآضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ وأمر بالمحافظة على مال اليتيم إن كان له مال، إذ جعل ذلك من وصاياه العشر في سورة [الأنعام: 152]: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾

وفي سورة النساء وضع القواعدَ للمحافظة على مال اليتيم، وحسن استغلاله، وتنميته بالمعروف في جملة من الآيات انتهت بوعيدٍ شديد، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾

وقد جعل القرآن للمساكين واليتامى إذا كانوا فقراء حظاً في أموال الدولة من الزكاة والفيء وخمس الغنيمة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾[التوبة: 60].

وقال تعالى: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾[الحشر: 7].

وإنما جعلنا الزكاة من أموال الدولة، لأنّ الله أمرَ وليَّ الأمر بأخذها، فقال تعالى:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: 103]. فإذا لم تتول الدولة أخذها، كان على أربابِ الأموال أداؤها إلى الفقراء، يبحثون هم عن الفقراء، ولا يبحث الفقراء عنهم.

كما جعل لهم حقاً في أموال أقاربهم وسائر الأمة بعد ذلك، قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: 177]. قال تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ [الإسراء: 26]. وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: 215].

وأهم من ذلك كله: أنّ القرآن شرع القتال، وسلّ السيوف للدفاع عن المستضعفين في الأرض، بل حرّض أبلغ التحريض على القتال ذوداً عن حرماتهم، ودرءاً للظلم عنهم، قال تعالى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝ وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: 74. 75].

هذه بعض الحقوق التي قررها القرآن للإنسان ولا نقول أعلنها، إذ كان الأمر أكبر من إعلان، إنّه بلاغ من رب الناس للناس، أسست عليه عقيدة، ونهضت على أساسه ثقافة وتربية، وبني عليه فقه وتشريع، وقامت عليه دولة وأمة، وامتدت به

حضارة وتاريخ[1].

عاشراً . تكوين الأسرة الصالحة:

ومن المقاصد التي هدف إليها القرآن الكريم: تكوينُ الأسرة الصالحة، التي هي ركيزةُ المجتمعِ الصالحِ، ونواةُ الأمة الصالحة[2].

ولا ريب أنّ أساسَ تكوين الأسرة هو الزواجُ الذي يربط بين الرجل والمرأة رباطاً شرعياً وثيقَ العُرا، مكين البيان، مؤسساً على تقوى من الله ورضوان، وقد اعتبر القرآن هذا الزواج ايةً من آيات الله، مثل خلق السماوات والأرض، وخلق الإنسان من تراب، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: 21].

فأشار إلى الدعائم الثلاثة التي تقوم عليها الحياة الزوجية، كما يرشدُ إليها القرآن، وهي: السكون، والمودة، والرحمة، ويعني بالسكون: سكون النفس من اضطرابها وثورانها توقاً إلى الجنس الآخر، بالإشباع المشروع في ظلّ مرضاة الله، فلا يعرفُ الإسلامُ الأسرةَ إلا بين رجل وامرأة، منذ الأسرة البشرية الأولى من ادم وزوجه ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: 35].

لا يعرف ما يدعو إليه المتحللون من الغربيين اليوم من الأسرة الوحيدة الجنس، بحيث يتزوج الرجل الرجل، والمرأة المرأة، وهذا أمرٌ ضدّ الفطرة، وضدّ الأخلاق، وضدّ

[1] كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟ ص (76).
[2] المصدر نفسه ص (86).

الشرائع، وهو للأسف ما حاول مؤتمر السكان في القاهرة «1994م» ومؤتمر المرأة في بكين أن يفرضاه على العالم[1].

وبهذا يقاوم القرآن الكريم نزعتين منحرفتين:

أولهما: نزعة الرهبانية المنافية للفطرة، التي تحرّم الزواجَ، وتنظر إلى الغريزة الجنسية وكأنها رجسٌ من عمل الشيطان، وتنفر من ظل المرأة، ولو كانت أختاً أو أماً، لأنّها أُحبولةُ الشيطان.

وثانيها: نزعة الإباحية التي تطلق العنانَ للغريزة، بلا ضابط ولا رابط، وتنادي بحرية الاستمتاع الجنسي بين الرجل والمرأة، دون ارتباط بمسؤولية شرعية، تتكون من خلالها حياة زوجية ذات هدف، تنشأ منها أسرة مترابطة، تقوم على أمومة حانية، وأبوة راعية، وبنوة بارّة، وأخوة عاطفة، وتتربى في ظلها مشاعرُ المحبة، وعواطف الإيثار والتعاون[2].

وقد استهدف الشارع عِدّةَ مقاصد من تكوين الأسرة، منها:

1. حفظُ النسل:

وتحقيقاً لهذا المقَصد قصرَ الإسلامُ الزواجَ المشروع على ما يكون بين ذكر وأنثى، وحرّم كلَّ صور اللقاء خارجَ الزواج المشروع، كما حرّم العلاقات الشاذة التي لا تؤدي إلى الإنجاب، وفي هذا تعميرٌ للأرض، وتواصلٌ للأجيال، قال الله جل شأنه: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ **[هود: 61]**[3].

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ

---

[1] المصدر نفسه ص (86).

[2] كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟ ص (87).

[3] ميثاق الأسرة في الإسلام، اللجنة العالمية للمرأة والطفل ص (132).

وَحَفَدَةً﴾ [النحل: 72].

وكان من دعاء عباد الرحمن: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان: 74].

وقال الخليل إبراهيم: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ۝ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ [الصافات: 100 . 101].

وقال زكريا عليه السلام: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ [مريم: 5 . 6].

فجاء الجواب الإلهي: ﴿يَازَكَرِيَا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: 7].

2 . تحقيق السكن والمودة والرحمة:

وشرع الله أحكاماً واداباً للمعاشرة بالمعروف بين الزوجين، حتى لا تنحصرَ العلاقة بين الزوجين في صورة جسدية بحتة، قال الله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: 19].

والمعروف هنا: ما يقره العرف السليم، واعتاده أهل الاعتدال والاستقامة من الناس، قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة 187]، وإنما عبر عن هذه العلاقة باللباس، لما توحي به هذه الكلمةُ من الزينة والستر واللصوق والدفء، قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: 195]. ومعنى : أنّ المرأة من ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾، والرجل من المرأة، فلا خصومةَ ولا تناقضَ، بل

تكاملٌ وتناسقٌ وتعاونٌ[1].

3 . حفظ النسب:

ولهذا المقصد أبطل الله تعالى نظامَ التبني، وأمرنا بإرجاع نسب الأولاد بالتبني إلى أنسابهم الحقيقية، قال الله جل شأنه: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ۝ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ **[الأحزاب: 4 . 5]**.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أيّما رجلٍ دعا إلى غير والديه، أو تولّى غير مواليه الذين أعتقوه، فإنّ عليه لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين إلى يوم القيامة، لا يُقْبَلُ منه صرف[2] ولا عدلٌ»[3].

ولأجل حفظ النسب حرَّم الإسلام أيضاً الزنى، وشرعت الأحكام الخاصة بالعدة، وعدم كتم ما في الأرحام، وإثبات النسب وجحده، وهي أحكامٌ لها تفصيلها في مظانّها من المراجع الفقهية[4].

4 . الإحصان:

يوفّر الزواجُ الشرعيُّ صونَ العفاف، ويحقِّقُ الإحصان، ويحفظ الأعراض، ويسدُّ ذرائع الفساد الجنسي بالقضاء على فوضى الإباحية والانحلال[5]، وقد اختصّ الإسلامُ بمراعاته للفطرة البشرية، وقبولهم بواقعه، ومحاولة تهذيبها، والارتقاء بها، لا كبتها

---

(1) ميثاق الأسرة في الإسلام ص (135).

(2) العدل: التوبة أو الفدية، حديث صحيح رواه أحمد والدارمي.

(3) الصرف: الفريضة أو النافلة، وقيل: التوبة.

(4) ميثاق الأسرة في الإسلام ص (137).

(5) المصدر نفسه ص (137).

وقمعها، قال الله جل شأنه: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: 14]، وهي شهواتٌ مستحبّةٌ مستلذّة، لكنّها يجب أن توضع في مكانها لا تتعداها، ولا تطغى على ما هو أكرم في الحياة وأعلى[1].

والقرآن الكريم لا يضع أي قيد على الاستمتاع بين المرء وزوجه: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ [البقرة: 223]، ما دام الاستمتاع في موضع الحرث، وفي غير زمن الأذى، قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذىً فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: 222][2].

5 . حفظ التدين في الأسرة:

الأسرةُ هي محضن الأفراد، لا برعاية أجسادهم فقط، بل بغرس القيم الدينية والخلقية في نفوسهم، وتبدأ مسؤولية الأسرة في هذا المجال قبل تكوّن الجنين، بحسن اختيار كلٍّ من الزوجين إلى الآخر، وأولوية المعيار الديني والخلقي في هذا الاختيار[3]. قال تعالى: ﴿وَلاَ تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلاَ تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: 221].

---

[1] المصدر نفسه ص (138).

[2] كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟ ص (87).

[3] .ميثاق الأسرة في الإسلام ص (138).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا خطبَ إليكم مَنْ ترضونَ دينَه وخُلُقَهُ فزوّجوه، إلاّ تفعلوا تكن فتنةٌ في الأرضِ وفسادٌ عريضٌ»[1].

وتستمر مسؤوليةُ الأسرةِ بتعليم العقيدة والعبادة والأخلاق لأفراد الأسرة، وتدريبهم على ممارستها، ومتابعة ذلك حتى بلوغ الأطفال رشدهم، واستقلالهم بالمسؤولية الدينية عن تصرفاتهم[2]، قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ [طه 132].

وقال جل شأنه عن النبي إسماعيل عليه السلام: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾ [مريم: 55].

وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلاَئِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: 6].

الحادي عشر . إنصاف المرأة وتحريرها من ظلم الجاهلية:

من أهم ما جاء به القرآن الكريم هنا إنصافُ المرأة وتحريرُها من ظلم الجاهلية وظلامُها، ومن تحكّم الرجل في مصيرها بغير حق، فكرّم القرآن المرأة، وأعطاها حقوقها بوصفها إنساناً، وكرّمها بوصفها أنثى، وكرّمها بوصفها بنتاً، وكرّمها بوصفها زوجة، وكرّمها أماً، وكرّمها بوصفها عضواً في المجتمع[3].

لقد جاء الإسلامُ وبعضُ الناس ينكرون إنسانية المرأة، واخرون يرتابون فيها، وغيرُهم يعترف بإنسانيتها، ولكنّه يعتبرها مخلوقاً خُلِقَ لخدمة الرجل، فكان من فضل الإسلام

---

(1) حديث حسن رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم والبيهقي، ميثاق الأسرة في الإسلام ص (154).

(2) المصدر نفسه ص (138).

(3) كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟ ص (89).

أنه كرّمَ المرأة، وأكّد إنسانيتها، وأهليتها للتكليف والمسؤولية والجزاء ودخول الجنة، واعتبرها إنساناً كريماً له كل ما للرجل من حقوق إنسانية؛ لأنّهما فرعان من شجرة واحدة، وأخوان ولدهما أب واحد هو ادم، وأم واحدة هي حواء، فهما متساويان في أصل النشأة، متساويان في الخصائص الإنسانية العامة، متساويان في التكاليف والمسؤولية، متساويان في الجزاء والمصير[1]، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: 1].

وإذا كان الناس ـ كل الناس ـ رجالاً ونساءً، خلقهم ربُّهم من نفس واحدة، وجعل من هذه النفس زوجاً تكملها وتكتمل بها، كما قال في آية أخرى: ﴿وجعل منها زوجها ليسكن إليها﴾ [الأعراف: 2]، وبث في هذه الأسرة الواحدة رجالاً كثيراً ونساءً، كلهم عبادٌ لربٍ واحد، وأولاد لأم واحدة وأب واحد، فالأخوة تجمعهم، ولهذا أمرتُ الآية الناسَ بتقوى الله، ورعاية الرحم الواشجة بينهم: ﴿واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام﴾ [النساء: 1].

والرجل ـ بهذا النص ـ أخُ المرأة، والمرأة شقيقة الرجل، وفي هذا قال الرسول ﷺ: «إنما النساء شقائق الرجال»[2].

1 ـ في مساواة المرأة للرجل في التكليف والتدين والعبادة:

يقول القرآن الكريم: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ

---

(1) ملامح المجتمع المسلم، د. يوسف القرضاوي ص (321).

(2) رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي عن عائشة. كما في صحيح الجامع الصغير (2333).

وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 35].

2 . في التكاليف الدينية الاجتماعية الأساسية:

يسوّي القرآن بين الجنسين بقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 71].

3 . وفي قصة آدم توجَّه التكليف الإلهي إليه وإلى زوجه على السواء:

قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 35]. والجديد في هذه القصة . كما ذكرها القرآن . أنَّها نسبت الإغواء إلى الشيطان لا إلى حواء كما فعلت التوراة المحرفة: ﴿فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه﴾ [البقرة: 36].

ولم تنفرد حواء بالأكل من الشجرة ولا كانت البادئة، بل كان الخطأ منهما معاً، كما كان الندمُ والتوبةُ منهما جميعاً: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف: 83].

بل في بعض الآيات نسبةُ الخطأ إلى ادمَ بالذات وبالأصالة: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ [طه: 115]، ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ ياآدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَ يَبْلَى ﴾ [طه: 12]. وقال تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ [طه: 121].

كما نسب إليه التوبة وحده أيضاً: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾ [طه: 122]،

ممّا يفيدُ أنّه الأصل في المعصيةِ وامرأتُه تبعٌ له.

ومهما يكن الأمر فإنَّ خطيئة حواء لا يحمل تبعتها إلا هي، وبناتها بريئات من إثمها، ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الزمر: 7] ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: 134].

4 . وفي مساواة المرأة للرجل في الجزاء:

ودخولُ الجنّة يقول الله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: 195]، فنصُّ القرآن في صراحة على أنَّ الأعمال لا تضيع عند الله، سواء أكان العامل ذكراً أم أنثى، فالجميعُ بعضهم من بعض، من طينة واحدة، وطبيعة واحدة، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[النحل: 97]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء: 124].

5 . وفي الحقوق المالية للمرأة:

أبطل الإسلام ما كان عليه كثير من الأمم ـ عرباً وعجماً ـ من حرمان النساء من التملك والميراث، أو التضييق عليهنّ في التصرف فيما يملكن، واستبداد الأزواج بأموال المتزوّجات منهنّ، فأثبت لهن حق التملّك بأنواعه وفروعه، وحق التصرف بأنواعه المشروعة، فشرع الوصية والإرث لهنّ كالرجال، وأعطاهنَّ حقّ البيع والشراء والإجارة والهبة والإعارة، والوقف والصدقة والكفالة والحوالة والرهن وغير ذلك من العقود والأعمال، ويتبع ذلك حقوق الدفاع عن مالها، كالدفاع عن نفسها بالتقاضي

وغيره من الأعمال المشروعة(1).

6 . المرأة باعتبارها أماً:

لا يعرفُ التاريخ ديناً ولا نظاماً كرَّم المرأة باعتبارها أماً، وأعلى من مكانتها، مثل الإسلام، لقد أكَّدَ الوصيةَ بها، وجعلها تالية للوصية بتوحيد الله وعبادته، وجعل بِرّها من أصول الفضائل، كما جعل حقّها أوكد من حق الأب لما تحملته من مشَاق الحمل والوضع والإرضاع والتربية، وهذا ما يقرره القرآن، ويكرره في أكثر من سورة، ليثبته في أذهان الأبناء ونفوسهم، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ [لقمان: 14]، وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: 15](2).

ومن توجيهات القرآن الكريم أنّه وضع أمام المؤمنين والمؤمنات أمثلة وقدوة حسنة لأمهاتٍ صالحاتٍ، كان لهنَّ أثرٌ ومكانةٌ في تاريخ الإيمان.

- فأم موسى تستجيبُ إلى وحي الله وإلهامه، وتُلقي ولدها وفلذة كبدها في اليمّ، مطمئنة إلى وعد ربها، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[القصص: 7].
- وأم مريم التي نذرت ما في بطنها محرراً لله، خالصاً من كل شرك أو عبودية لغيره، داعية الله أن يتقبل منها نذرَها، قال تعالى: ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ

---

(1) ملامح المجتمع المسلم ص (324)، وانظر الإسلام والمرأة للأستاذ سعيد الأفغاني ص (72).

(2) ملامح المجتمع المسلم ص (328).

الْعَلِيمُ ﴾ [آل عمران: 35]. فلما كان المولودُ أنثى على غير ما كانت تتوقع، لم يمنعها ذلك من الوفاء بنذرها، سائلة الله أن يحفظها من كل سوء، قال تعالى: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ [آل عمران: 36].

- ومريم ابنة عمران أم المسيح عيسى، جعلها القرآن ايةً في الطهر، والقنوت لله، والتصديق بكلماته:

﴿وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ [التحريم: 12][1].

7. المرأة باعتبارها بنتاً:

كان العرب في الجاهلية يتشاءمون بميلاد البنات، ويضيقون به، حتى قال أحد الاباء . وقد بشر بأنَّ زوجه ولدت أنثى :. واللهِ ما هي بنعم الولد، نصرُها بكاءٌ، وبرُّها سرقةٌ. يريد أنها لا تستطيعُ أن تنصر أباها وأهلها إلاّ بالصراخِ والبكاءِ، لا بالقتال والسلاح، ولا أنْ تبرَّهم إلا بأن تأخذ من مالِ زوجها لأهلها.

وكانت التقاليد المتوارثة عندهم تبيحُ للأب أن يئدَ ابنته . يدفنها حية . خشيةً من فقرٍ قد يقع، أو من عارٍ قد تجلبه على قومها حين تكبر، وفي ذلك يقول القرآن منكراً عليهم، ومقرّعاً لهم: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: 8 . 9].

ويصفُ حالَ الاباء عند ولادة البنات، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل: 58 . 59].

وكانت بعضُ الشرائع القديمة تعطي الأبَ الحق في بيع ابنته إذا شاء، وبعضها الآخر

---

[1] ملامح المجتمع المسلم، ص (331).

ـ كشريعة حمورابي ـ تجيزُ له أن يسلمَها إلى رجلٍ اخرَ ليقتلها.

جاء الإسلامُ فاعتبر البنتَ كالابن ـ هبة من الله ونعمة ـ يهبها لمن يشاء من عباده، قال تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ۝ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: 49 ـ 50].

وبيّنَ القرآن الكريم في قصصه أنَّ بعض البنات قد تكونُ أعظمَ أثراً، وأخلد ذكراً، من كثيرٍ من الأبناء الذكور، كما في قصة مريم ابنة عمران التي اصطفاها الله وطهرها، واصطفاها على نساء العالمين، وقد كانت أمها عندما حملت بها تتمنّى أن تكون ذكراً يخدمُ الهيكل، ويكون من الصالحين[1]، قال تعالى:

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ۝ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَناً﴾ [آل عمران: 35 ـ 37].

وجعل رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم الجنةَ جزاءَ كلِّ أبٍ يُحْسِنُ صحبةَ بناته، ويحرص على تربيتهن وحسن تأديبهن، ورعايةِ حقّ الله فيهن، حتى يبلُغْنَ، أو يموت عنهن، وجعل منزلته بجواره صلى الله عليه وسلم في دار النعيم المقيم، قال صلى الله عليه وسلم: «مَنْ كانَ له ثلاثُ بناتٍ، فصبر على لأوائهنَّ وضرّائهنَّ وسرّائهنَّ، أدخله الله الجنة برحمتِهِ إيّاهنّ»، فقال رجل: واثنتان يا رسول الله؟ قال: «واثنتان». قال رجل: يا رسول الله، وواحدة؟ قال: «وواحدة»[2].

---

(1) ملامح المجتمع المسلم ص (232-233) الإسلام والمرأة لسعيد الأفغاني ص (51).
(2) رواه الحاكم وصحح إسناده ووافقه الذهبي (176/4).

لم تعدْ ولادةُ البنتِ عبئاً يُخاف منه، وطالعُ نحس يُتطيّر به، بل نعمةٌ تُشْكَرُ ورحمةٌ تُرجى، وتُطلب لما وراءها من فضل الله تعالى، وجزيل مثوبته، وبهذا أبطل الإسلام عادة الوأدِ إلى الأبد، وأصبحَ للبنتِ في قلب أبيها مكان عظيم[1].

8 ـ المرأة باعتبارها زوجة:

كانت بعض الديانات والمذاهب تعتبِرُ المرأةَ رجساً من عمل الشيطان، يجب الفرار منه، واللجوء إلى حياة التبتل والرهبنة، وبعضُها الآخر كان يعتبر الزوجة مجرّد الةٍ لمتاع الرجل، أو طاهٍ لطعامه، أو خادم لمنزله، فجاء الإسلام يعلِنُ بطلان الرهبانية، وينهى عن التبتل، ويحثّ على الزواج، ويعتبر الزوجية اية من آيات الله في الكون، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: 21].

وقرّرَ الإسلام للزوجة حقوقاً على زوجها، ولم يجعلْها مجّرَد حبر على ورق، بل جعل عليها أكثرَ من حافظٍ ورقيبٍ، من إيمان المسلم وتقواه أولاً، ومن ضمير المجتمع ويقظته ثانياً، ومن حكم الشرع وإلزامه ثالثاً.

وأول هذه الحقوق: الصداق: الذي أوجبه الله للمرأة على الرجل إشعاراً منه برغبته فيها، وإرادته لها، قال تعالى: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ﴾ [النساء: 4].

فأينَ هذا من المرأةِ التي نجدُها في مدنيات أخرى، فتدفع هي للرجل بعض مالها، مع أنَّ فطرة الله جعلت المرأةَ مطلوبةً لا طالبة؟

وثاني هذه الحقوق: النفقة، فالرجل مكلّفٌ بتوفير المأكل والملبس والمسكن

---

[1] ملامح المجتمع المسلم، د.يوسف القرضاوي ص (334).

بالمعروف، والمعروف: هو ما يتعارف عليه أهل الدين والفضل من الناس بلا إسراف ولا تقتير، قال تعالى: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق: 7].

وثالث الحقوق: المعاشرة بالمعروف، قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: 19]. وهو حق جامع يتضمن إحسان المعاملة في كلِّ علاقة بين المرء وزوجه، من حسن الخلق، ولين الجانب، وطيب الكلام، وبشاشة الوجه، وتطييب نفسها بالممازحة، والترفيه عنها.

وفي مقابل هذه الحقوق أوجبَ عليها طاعةَ الزوج في غير معصيةٍ، والمحافظة على ماله، فلا تنفِقُ منه إلا بإذنه، وعلى بيته، فلا تدخِلُ فيه أحداً إلا برضاه، ولو كان من أهلها.

وهذه الواجبات ليست كثيرةً ولا ظالمةً في مقابل ما على الرجل من حقوق، فمن المقرر أنَّ كل حق يقابله واجب، ومن عدل الإسلام أنه لم يجعل الواجبات على المرأة وحدَها، ولا على الرجل وحده، بل قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: 228]. فللنساء من الحقوق مثل ما عليهنّ من الواجبات.

ومن جميل ما يروى أنّ ابن عباس رضي الله عنه وقف أمام المراة يصلِحُ هيئته، ويُعَدِّلُ من زينته، فلما سئل في ذلك قال: أتزيّنُ لامرأتي كما تتزيّنُ لي، ثم تلا الاية الكريمة: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: 228]. وهذا من عميق فقه الصحابة للقرآن الكريم(1).

ولم يهدر الإسلامُ شخصية المرأة بزوجها، ولم يذبها في شخصية زوجها، كما هو

---

(1) ملامح المجتمع المسلم، ص(340). وانظر الإسلام والمرأة، للأستاذ سعيد الأفغاني ص (72).

الشأن في التقاليد الغربية التي تجعل المرأة تابعة للرجل، فلا تُعرف باسمها ونسبها ولقبها العائلي، بل بأنها زوجة فلان.

أما الإسلام فقد أبقى للمرأة شخصيتها المستقلة المتميزة، ولهذا عرفنا زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم بأسمائهنّ وأنسابهنّ، فخديجة بنت خويلد، وعائشة بنت أبي بكر، وحفصة بنت عمر، وميمونة بنت الحارث، وصفية بنت حُيَي، وكان أبوها يهودياً محارباً للرسول صلى الله عليه وسلم.

كما أنّ شخصيتها المدنية لا تنقص بالزواج، ولا تفقد أهليتها للعقود والمعاملات وسائر التصرفات، فلها أن تبيع وتشتري، وتؤجر أملاكها، وتستأجر، وتهب من مالها وتتصدق وتوكل وتخاصم.

وهذا أمرٌ لم تصل إليه المرأة الغربية إلاّ حديثاً، ولازالت في بعضِ البلاد مقيَّدةً إلى حدٍّ ما بإرادة الزوج[1].

9 . المحافظة على أنوثة المرأة:

الإسلامُ يحافظ على أنوثة المرأة، حتى تظلَّ ينبوعاً لعواطف الحنان والرقة والجمال، ولهذا أحلّ لها بعضَ ما حُرِّم على الرجال، بما تقتضيه طبيعة الأنثى ووظيفتها، كالتحلّي بالذهب، ولبس الحرير الخالص، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنّ هذين حرامٌ على ذكور أمتي، حل لإناثهم»[2].

كما أنّه حرّم عليها كل ما يجافي هذه الأنوثة، من التشبه بالرجال في الزي والحركة والسلوك وغيرها، فنهى أن تلبَسَ المرأةُ لبسة الرجل، كما نهى الرجل أن يلبَسَ لبسة

---

(1) ملامح المجتمع المسلم، ص(341). وانظر الإسلام والمرأة، للأستاذ سعيد الأفغاني ص (72).

(2) سنن ابن ماجه رقم (3595).

المرأة، ولعن المتشبّهات من النساء بالرجال، مثلما لعَن المتشبهين من الرجال بالنساء، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ثلاثةٌ لا يدخلون الجنة، ولا ينظرُ اللهُ إليهم يومَ القيامةِ: العاقُّ لوالديه، والمرأةُ المترجلةُ[1]، والدّيوثُ»[2].

والإسلام يحمي هذه الأنوثة، ويرعي ضعفها، فيجعلها أبداً في ظلِّ رجل مكفولةَ النفقات، مكفيةَ الحاجات، فهي في كنف أبيها أو زوجها أو أولادها أو إخوتها يجب عليهم نفقتها، وفق شريعة الإسلام، فلا تضطرها الحاجة إلى الخوض في لجج الحياة وصراعها، ومزاحمة الرجال بالمناكب.

والإسلامُ يحافِظُ على خُلُقها وحيائها، ويحرص على سمعتها وكرامتها، ويصون عفافها من خواطر السوء، وألسنة السوء؛ فضلاً عن أيدي السوء أن تمتدَّ إليها: ولهذا يوجِبُ الإسلام عليها:

أ ـ الغضُّ من بصرها والمحافظة على عفتها ونظافتها:

قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: 31].

ب ـ الاحتشام والتستر في لباسها وزينتها دون إعناتٍ لها، ولا تضييقٍ عليها:

قال تعالى: ﴿ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾ [النور: 31].

ج ـ ألا تبدي زينتها الخفية ـ كالشعر والعنق والنحر والذراعين والساقين ـ إلا لزوجها ومحارمها الذين يشقُّ عليها أن تستر منهم استتارها من الأجانب:

قال تعالى: ﴿ولاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ

---

[1] المترجلة: المتشبهة بالرجال.

[2] مسند أحمد رقم (1680)، وإسناده صحيح، والديوث: الذي لا يبالي من دخل على أهله.

أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ [النور: 31].

د ـ أن تتوقر في مشيها وكلامها: قال تعالى: ﴿وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: 31]. وقال: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفًا ﴾ [الأحزاب: 32] فليست ممنوعة من الكلام، وليس صوتها عورة، بل هي مأمورةٌ، أن تقول قولاً معروفاً[1].

هـ أن تتجنب كل ما يجذب الانتباه إليها، ويغري بها، من تبرج الجاهلية الأولى أو الأخيرة.

فهذا ليس من خلق المرأة العفيفة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أيُّما امرأةٍ استعطرتْ، ثم خرجتْ من بيتِهَا ليشمَّ الناسُ ريحها فهي زانية»[2].

و ـ أن تمتنع عن الخلوة بأي رجلٍ ليس زوجها ولا محرْماً لها:

صوناً لنفسها ونفسه من هواجس الإثم، ولسمعتها من ألسنة السوء، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يخلونَّ رجلٌ بامرأةٍ إلا مع ذي محرم»[3].

ز ـ ألا تختلط بمجتمع الرجال الأجانب إلا لحاجة داعية، ومصلحة معتبرة، وبالقدر اللازم:

كالصلاة في المسجد، وطلب العلم، والتعاون على البر والتقوى، بحيث لا تُحْرَمُ المرأةُ من المشاركة في خدمة مجتمعها، ولا تنسى الحدود الشرعية في لقاء الرجال.

---

[1] ملامح المجتمع المسلم (366-367).

[2] سنن الترمذي رقم (2786) حديث صحيح.

[3] البخاري رقم (1088).

إنَّ الإسلامَ بهذه الأحكام يحمي أنوثةَ المرأة من أنياب المفترسين من ناحية، ويحفظ عليها حياءها وعفافها بالبعد عن عوامل الانحراف والتضليل من ناحية ثانية، ويصونُ عرضها من ألسنة المفترين والمرجفين من ناحية ثالثة، وهو ـ مع هذا كله ـ يحافِظُ على نفسها وأعصابها من التوتر والقلق، ومن الهزّات والاضطرابات، نتيجة لجموح الخيال، وانشغال القلب، وتوزع عواطفه بين شتى المثيرات والمهيّجات وهو أيضاً ـ بهذا الأحكام والتشريعات ـ يحمي الرجل من عوامل الانحراف والقلق، ويحمي المجتمع كلّه من عوامل السقوط والانحلال[1].

الثاني عشر ـ بناء الأمة الشهيدة على الناس:

من أهداف الإسلام الأساسية: تكوين أُمةٍ متميزة، ولقد استطاعَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم تحقيق ذلك وفق رؤية واضحة، مبنية على عقيدة راسخة، وشريعة حاكمة، وتخلّص العربُ من الفرقة، والشتات، والعصبيات القبلية، والنعرات الجاهلية، وانتقلوا نقلةً كبيرةً في عالم الفكر، وعالم الشعور، وعالم الواقع، وأصبحت تلك القبائل أمةً واحدةً، تعبد إلهاً واحداً، وتخضع لكتاب واحدٍ، وتنقاد لزعامة الرسول صلى الله عليه وسلم المبيّن والموضح لهم التعاليم الإلهية، وأصبحت هذه الأمةُ لا تقومُ على رابطة عرقية ولا لونية ولا إقليمية ولا طبقية، بل هي أمةُ عقيدةٍ ورسالةٍ قبل كل شيء.

هي أمة الإسلام أو أمة المسلمين كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[الحج:

---

[1] ملامح المجتمع المسلم (368).

78][1][2].

فقد أخرج الله الأمة المسلمة ـ التي قادها النبيُّ صلى الله عليه وسلم ـ لتؤدي دوراً كونياً كبيراً، ولتحمل منهجاً إلهياً عظيماً، ولتنشىء في الأرض واقعاً فريداً، ونظاماً جديداً، وهذا الدور الكبير يقتضي التجرد والعطاء، والتميز والتماسك، وبتعبير مختصر يقتضي أن تكونَ طبيعةُ هذه الأمة من العظمة؛ بحيث تسامي عظمة الدور الذي قدّره الله لها في هذه الحياة، وتسامي المكانة التي أعدها الله لها في الآخرة[3].

ولم تنل هذه الأمةُ هذه المكانة السامقة بين الأمم مصادفةً ولا جزافاً ولا محاباة، فالله سبحانه وتعالى منزَّه عن أن يكون في ملكه شيء من ذلك، فكل شيء عنده بمقدار، وهو يخلقُ ما يشاء ويختار، وهو سبحانه عندما أخبر أنَّ هذه الأمة خيرُ أمة أخرجت للناس، بين وجه ذلك وعلته في الاية نفسها، قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: 110]، فبهذه الأمور الثلاثة العظيمة القدر كانت هذه الأمةُ خيرَ أمة أخرجت للناس.

على أنَّ هذه الأمور ليست هي كل ما كانت به هذه الأمة خير أمة؛ إذ هناك أمورٌ وخلالٌ كثيرة أهلت هذه الأمة لهذه الخيرية، ولكنّ هذه الأمور الثلاثة أهمها وأعظمها، إذ لا تدوم ولا تستمرّ هذه الخيرية، ولا تحفظ إلا بإقامتها وأدائها، فإن فقدت هذه الأمورَ في جيل من الأجيال هذه الأمةُ لم تكن حَرِيَّةً بهذه الخيرية التي

---

(1) كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟ ص (97).

(2) في ظلال القرآن (129/1).

(3) المصدر نفسه (171/1).

حظيت بها[1].

أوصاف الأمة الإسلامية في القرآن الكريم:

أبرزُ ما يميّزُ هذه الأمة عن غيرها من الأمم أوصاف أربعة:

1 . الربانية:

ربانية المصدر، وربانية الوجهة، فهي أمةٌ أنشأها وحي الله تعالى، وتعهدتها تعاليمه وأحكامه، وهي من اكتمل لها دينها، وتمّت به نعمة الله عليها، كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾ [المائدة: 3].

فإنّ تعالى هو صانع هذه الأمة، ولهذا نجده يقول في القرآن الكريم: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: 143]، فهذا التعبير يفيد أنّ الله هو جاعل هذه ﴿جَعَلْنَاكُمْ﴾، ومستخدمها، وصانعها.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 110]، فتعبير ﴿أُخْرِجَتْ﴾ يدل على أنّ هناك مُخرِجاً أخرج هذه الأمة، فهي لم تظهر اعتباطاً، ولم تكن نباتاً برياً ينبت وحده دون أن يزرعه زارع، بل هو نباتٌ مقصودٌ متعهّد بالعناية والرعاية، والذي أخرج هذه الأمة، وزرعها، وهيأها لرسالتها هو الله جل شأنه.

فهي أمةٌ مصدرها رباني، ووجهتُها ربانية كذلك؛ لأنّها تعيش لله، ولعبادة الله، ولتحقيق منهج الله في أرض الله، فهي من الله وإلى الله، كما قال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لاَ شَرِيكَ لَهُ ﴾ [الأنعام: 162 . 163].

---

[1] الوسطية في القرآن الكريم، للمؤلف ص (71).

2. الوسطية:

الوسطية التي تؤهّلُ هذه الأمة للشهادة على الناس، وتبوئها مكان الأستاذية للبشرية، وفيها جاءت الاية الكريمة: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: 143].

ومن وسطية شاملة جامعة، وسطية في الاعتقاد والتصور، ووسطية في الشعائر والتعبد، ووسطية في الأخلاق والسلوك، ووسطية في النظم والتشريع، ووسطية في الأفكار والمشاعر، ووسطية بين الروحية والمادية، بين المثالية والواقعية، بين العقلانية والوجدانية، بين الفردية والجماعية، بين الثبات والتطور[1].

إنّها الأمةُ التي تمثل «الصراط المستقيم» بين السبل المتعرجة والملتوية، صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، لا صراط المغضوب عليهم ولا الضالين.

3. الدعوة:

هي أمةُ دعوةٍ ورسالةٍ، وليست أمة منكفئة عن نفسها تحتكر رسالة الحقّ والخير والهداية لذاتها، ولا تعمل على نشرها في الناس، بل الدعوةُ فريضةٌ عليها، والأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر مع الإيمان بالله أساسُ تفضيلها على كل الأمم.

إنَّ رسالةَ الإسلامِ رسالةٌ عالميةٌ، رسالةٌ لكلِّ الأجناس، ولكلِّ الألوان، ولكل الأقاليم، ولكل الشعوب، ولكل اللغات. قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: 1]. وقال تعالى: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: 158].

---

[1] كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟ ص (98).

4. الوحدة:

الأمةُ التي يريدها الإسلام أمةٌ الوحدة، وإن تكونت من عروق وألوان وطبقات، فقد صهرها الإسلام جميعاً في بوتقته، وأذاب الفوارق بينها، وربطها بالعروة الوثقى لا انفصام لها. قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 92]. وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: 52].

ولهذا لا يجوزُ أن نقول في تعبيرنا: الأمم الإسلامية، بل الأمة الإسلامية، فهي أمة واحدة كما أمر الله، وليست أمماً متفرقة كما أراد الاستعمار، وهي أمة ذات شعوب، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: 13]، فلا بأس أن نقول: «الشعوب الإسلامية» بدل «الأمم الإسلامية»[1].

ومن المفيد هنا أنْ ننبِّه على قضية ذاتِ شأن، وهي: أنَّ الإيمان بالأمة المؤسسة على عقيدة الإسلام وأخوة الإيمان، والتي تضمُّ جميع المسلمين في رحابها حيث كانوا؛ لا ينفي أن هناك خصوصيات معينة لكلِّ قوم يعتزون بها، ويحافظون عليها، ولا يُفرِّطون فيها، ولا مانعَ من ذلك إذا لم تتحول إلى عصبية عرقية تقاوم إخوة الإسلام، أو إلى نزعة أنانية انفصالية تهدِّدُ وحدة دولة الإسلام.

ولقد ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من بعده القبائل تقاتل تحت راياتها الخاصة في ظل القيادة الإسلامية العامة، ليكون ذلك مصدراً إضافياً لحماسهم وإقدامهم؛ حتّى لا يجلبوا العار على أقوامهم وعشائرهم.

إنّ حبَّ الرجل لقومه وعشيرته، ورغبته في جلب الخير لهم، ودفع الشرِّ عنهم نزعةٌ

---

[1] كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟ ص (101).

فطريةٌ لا غبار عليها، ولا خطرَ فيها، كما لا خطرَ في حبه لأسرته، واهتمامه بها.

والخطر إنما يتمثّل فيما إذا وقفوا موقفاً معادياً للإسلام، وحادّوا الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، هنا تحرمُ المودّة والموالاة، ولو كانت لأقرب الناس للإنسان، كأمه وأبيه وبناته وبنيه وزوجه وأخيه، قال تعالى: ﴿لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخر يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: 22]. وقال تعالى:

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۞ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: 23 . 24].

لا بأس أن يحبَّ الرجلُ أسرته، ويحبَّ قومه وعشيرته وشعبه، ولكن إذا تعارض ذلك مع حب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم؛ فإن حب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم أغلى من كلِّ شيءٍ، هنا يتغنى المسلم بقول القائل:

أبي الإســـــلامُ لا أبَ لِي سِـــــوَاهُ   إذا افتخـــروا بقـــيسٍ أو تمـــيمِ[1]

الثالث عشر . السماحة:

السماحة أول أوصاف الشريعة، وأكبر مقاصدها، والسماحة: سهولة المعاملة فيما اعتاد الناس فيه المشادّة، فهي وسط بين الشدة والتساهل، ولفظ السماحة هو أرشقُ

[1] كيف نتعامل مع القران العظيم؟ ص(102).

لفظ يدل على هذا المعنى، يقال: سمح فلان؛ إذا جاء بمالٍ له. قال المقنّعُ الكندي:

لـيسَ العطـاءُ مـن الفضـولِ سماحـةً   حـتى تجـودَ ومـا لـديك قليـلُ

فالسماحةُ أخصُّ من الجود، ولهذا قابلها زيادُ الأعجم بالندى في قوله:

إنَّ السـماحةَ والمـروءةَ والنـدى   قي قُبَّةٍ ضُرِبَتْ على ابنِ الحَشْرَجِ

فتدلُّ السماحةُ على خلق الجود والبذل، وفي الحديث عن جَابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رحمَ اللهُ رَجُلاً سمحاً إذا باع، سمحاً إذا اشترى، سمحاً إذا اقتضى»[1].

فالسماحة من أكبر صفات الإسلام الكائنة وسطاً بين طرفي إفراط وتفريط، وفي الحديث الصحيح عن ابن عبّاس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أحبُّ الدينِ إلى اللهِ الحنيفيةُ السمحةُ»[2].

فرجع معنى السماحة إلى التيسير المعتدل، وهو معنى اليسر الموصوف به الإسلام، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ **[البقرة: 185]**.

واستقراء الشريعة يدل على هذا الأصل في تشريع الإسلام، فليس الاستدلال عليه بمجرد هذه الاية، أو هذا الخبر، حتى يقول معترضٌ: إنَّ الأصول القطعية لا تثبتُ بالظواهر، لأنَّ أدلةَ هذا الأصل كثيرةٌ منتشرةٌ، وكثرة الظواهر تفيد القطعَ، ولهذا قال الإمام مالك بن أنس في مواضعَ من (الموطأ): ودينُ اللهِ يسرٌ، وحسبُكَ بهذه الكلمة من ذلك الإمام، فإنّه ما قالها حتى استخلصها من استقراء الشريعة، إنّ السماحةَ أكملُ وصفٍ لاطمئنان النفس، وأعونُ على قبول الهدى والإرشاد[3]، قال تعالى:

---

(1) البخاري رقم (2076).

(2) البخاري، الأدب المفرد رقم (188).

(3) أصول النظام الاجتماعي، محمد الطاهر بن عاشور ص(51).

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: 159].

إنَّ حكمةَ السماحة في الشريعة أنَّ الله جعل هذه الشريعة دين الفطرة، وأمور الفطرة راجعةٌ إلى الجبلة، فهي كائنة في النفوس، سهل عليها قبولها، ومن الفطرة النفور من الشدة والإعنات، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: 28].

وقد أرادَ اللهُ أن تكونَ الشريعةُ الإسلاميةُ شريعةً عامةً دائمةً، فاقتضى ذلك أن يكون تنفيذُها بين الأمة سهلاً، ولا يكونُ ذلك إلا إذا انتفى عنها الإعنات، فهي بسماحتها أشدَّ ملاءمة للنفوس؛ لأنَّ فيها إراحة النفوسِ في حاليْ خُوَيصتها ومجتمعها[1].

وقد ظهر للسماحة أثرٌ عظيم في انتشار الشريعة، وطول دوامها، إذ أرانا التاريخُ أنّ سرعة امتثال الأمم للشرائع، ودوامهم على اتباعها؛ كان على مقدار اقتراب الأديان من السماحة، فإذا بلغَ بعضُ الأديان من الشدة حدّاً متجاوزاً لأصل السماحة لحق اتباعه العنت، ولم يلبثوا أن ينصرفوا عنه، أو يفرِّطوا في معظمه.

وقد حافظ الإسلام على استدامة وصف السماحة لأحكامه، فقدّر لها أنها إن عرض لها من العوارض الزمنية أو الحالية ما يصيرها مشتملة على شدة فتح لها باب الرخصة المشروع بقوله تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: 173]. وبقوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام 119]، وفي الحديث: «إنّ

(1) مقاصد الشريعة الإسلامية، محمد الطاهر بن عاشور ص(271).

اللهَ يحبُّ أن تؤتى رُخصُه كما يُحِبُّ أن تؤتى عزائمُه»[1]. ومن قواعد الفقه المشهورة: «المشقة تجلب التيسير».

1 . ومن سماحة القرآن الكريم، إنكارهُ على أصحاب النزعات المتطرّفة، والذين يحرّمون الطيبات والزينة التي أخرج لعباده[2]. قال تعالى: ﴿يَابَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ۝ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيات لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 31 . 32].

وفي القرآن المدني يخاطب الجماعة المؤمنة بقوله: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۝ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلاَلاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: 87 . 88].

وهاتان الآيتان الكريمتان تبينان للمسلمين حقيقة منهج الإسلام في التمتع بالطيبات، ومقاومة الغلو الذي وُجِدَ في بعض الأديان، أو عند بعض المتنطعين[3].

2 . ومن سماحة الإسلام أيضاً ما يتبعه من منهج في الدعوة إلى الله عز وجل، وجدال المخالفين، ففي القرآن الكريم قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[النحل: 125][4].

ومن تأمّل الاية الكريمة يجدُ أنّها لا تكتفي بالأمر بالجدال بالطريقة الحسنة، بل أمرت بالتي هي أحسن، فإذا كان هناك طريقتان للحوار والمناقشة إحداهما حسنة،

---

(1) صحيح ابن حبان رقم (354).
(2) أصول النظام الاجتماعي ص (52).
(3) المصدر نفسه ص(52).
(4) سماحة الإسلام، عمر عبد العزيز ص(370).

والآخرى أحسن منها، وجب على المسلم أن يجادِلَ بالتي هي أحسن؛ جذباً للقلوب النافرة، وتقريباً للأنفس المتباعدة[1].

3 . من سماحة النبي صلى الله عليه وسلم أنّ فتًى من قريش جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستأذنه في الزنى، فثار الصحابة، وهمّوا به لجرأته على النبي صلى الله عليه وسلم، ولكنّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم وقف موقفاً اخر فقال: «ادنه» فدنا، فقال: «أتحبه لأمك؟» قال: لا واللهِ، جعلني الله فداك؟ قال: «ولا الناسُ يحبونه لأمهاتهم»، ثم قال له مثل ذلك في ابنته وأخته وعمته وخالته، في كل ذلك يقول: «أتحبه لكذا؟» فيقول: لا، جعلني الله فداك، فيقول صلى الله عليه وسلم: «ولا الناسُ يحبونه». فوضع يده عليه، وقال: «اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصّن فرجه»، فلم يكن بعد ذلك يلتفت إلى شيء[2].

وإنما عامله النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الرفق، تحسيناً للظن به، وأنَّ الخير كامِنٌ فيه، والشر طارأئ عليه، فلم يزل يحاوره حتى اقتنع عقله، واطمأن قلبه إلى خبث الزنى وفحشه، وكسب مع ذلك دعاء النبي صلى الله عليه وسلم[3].

الرابع عشر . الرحمة:

وهي من الأخلاق القرآنية العظيمة التي كانت لها العناية الكبرى في القرآن الكريم من حيث ذكرها، والتوبة بشأنها لما لها من عظيمِ الأثرِ في الحياة الدينية والدنيوية[4].

---

[1] المصدر نفسه ص(30).

[2] مسند أحمد (256/5).

[3] سماحة الإسلام، د.عمر عبد العزيز ص(31).

[4] أخلاق النبي (ص) في القران والسنة، د. أحمد الحداد (611/2).

1 . الرحمة صفة من صفات الله تعالى:

الرحمة صفةٌ من صفات الحقّ تبارك وتعالى، التي وصف بها نفسه كثيراً في القرآن العظيم في نحو مئتي اية، فضلاً عن تصدر كل سورة بصفتي الرحمن الرحيم، وذلك في البسملة التي هي ايةٌ من كلِّ سورة عدا سورة براءة[1]، وذلك للدلالة على مبلغ رحمته العظيمة، وشمولها العام بعباده ومخلوقاته. قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: 156 . 157]. وقال تعالى على لسان ملائكته الكرام: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ [غافر: 7].

وقال تعالى تعليماً للنبي صلى الله عليه وسلم أنْ يقول للمشركين إنْ هم كذبوه: ﴿رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأنعام: 147].

ولقد قرر الله تعالى في كتابه الكريم أنّ الرحمةَ صفته الثابتة التي لا تزول عنه أبداً، كما قال سبحانه: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: 54].

وقد ظهرت اثارُ رحمته في الخليقة كلها، فما مِنْ أحدٍ مسلمٍ أو كافرٍ إلا وعليه من اثار رحمته في هذه الدنيا، ففيها يتعايشون، ويؤاخون، ويوادُّون، وفيها يتقلَّبون، لكنّها للمؤمنين خاصةً في الآخرة، لاحظّ للكافرين فيها[2].

2 . من مظاهر رحمته بخلقه:

من أجلِّ مظاهر رحمة الله تعالى أن بعث لهم رسله تترى، ثم بعث خاتم أنبيائه، وسيد

---

[1] أخلاق النبي (ص) (612/2).

[2] محاسن التأويل، للقاسمي (157/7).

رسله، وصفوته من خلقه محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه؛ الذي امتن به على الأمة، وكشف به الظلمة، وأزاح به الغمة، وجعله رحمة للعالمين أجمعين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: 107]. وكما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [التوبة: 128].

وقد حدَّث النبي صلى الله عليه وسلم عن رحمة الله تعالى، ومبلغ سعتها وكنهها، فقال: «إنّ اللهَ لما قَضَى الخلقَ كتب عنده فوق عرشه: إنّ رحمتي سبقتْ غَضَبِي»[1].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «جعلَ اللهُ الرحمةَ مئةَ جزءٍ، فأمسكَ عنده تسعة وتسعين، وأنزلَ في الأرضِ جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء تتراحمُ الخلائقُ، حتى ترفع الدَّابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه»[2].

ومن حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قُدِمَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبي، فإذا امرأةٌ من السبي تسعى قد تحلّب ثديُها، إذا وجدت صبياً في السبي أخذته، وألصقته ببطنها، وأرضعته، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أترونَ هذه المرأةَ طارحةً ولدَها في النار؟» قلنا: لا والله وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اللهُ أرحمُ بعبادهِ من هذه بولدِها»[3].

3. حض المؤمنين على التحلي بالرحمة:

ندب الله تعالى عباده إلى التحلي بالرحمة، وحثّهم عليها في بعض مواطنها؛ لكبير

---

(1) مسلم رقم (2751).

(2) مسلم رقم (2754).

(3) مسلم رقم (2754)، تحلّب: اجتمع حليب ثديها فيه.

أهميتها في تلك المواطن، لينالوا أجرَها، وعظيم ثوابها، وذلك كالرحمة بالوالدين اللَّذين عظمَ الله شأنهما، وقرن شكرهما بشكره، وطاعتهما بطاعته، فكانت الرحمةُ عند الكبر محتَّمة، حيث قال تعالى: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ [الإسراء: 24].

وقد قال الله جل ذكره في شأن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: 29]. كما أثبتها بلازمها لهم، ولمن اتصف بصفاتهم بقوله سبحانه: ﴿مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: 54].

إذ الذلة التي يتحلّون بها فيما بينهم بسبب التراحم بينهم، وهذا دليل على أنَّ الرحمة من أجلّ صفات المؤمنين، حيث كان حديث القرآن عن الرحمة لديهم في معرض الامتنان والثناء والمدح البليغ، ممّا يدل على عظيم مكانة المتراحمين من المسلمين عند الله تعالى، وقد دلَّ على ذلك ما أعده الله تعالى لهم من الأجر والثواب الذي أخبر الله تعالى عنه بقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ۝ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ [البلد: 17 ـ 18]. أي: أصحاب اليمين الذين يُعْطَوْنَ كتبهم بأيمانهم، والذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ۝ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ۝ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ۝ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ۝ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ۝ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝ لاَ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ ۝ وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ ﴾ [الواقعة: 27 ـ 34][1].

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم القدوةَ الحسنةَ في تحقيق هذا المقصد، وهو الرحمة بالعالمين، فكانت رحمته بالمؤمنين، وبالأهل، والعيال، وبالضعفاء، والكافرين،

---

[1] أخلاق النبي (ص) (615/2).

والحيوان، وكتب السيرة مليئةٌ بالمواقف والأحاديث الدالة على ذلك.

الخامس عشر . الوفاء بالعهود والعقود:

والوفاء من أخلاق السلوك الاجتماعية العظيمة؛ التي كان للقرآن الكريم بها عناية فائقة؛ لما له من عظيم الدلالة على تزكية النفوس، وصفاء الفطر، وسلامة الإيمان[1].

1 . الترغيب بالوفاء بالعهد:

رغّبَ الله تعالى بالوفاء بالعهود بما أعدَّ الله لهم من الثواب، وبما أثنى به عليهم في مُحْكَم الكتاب، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: 10].

وقد فصّل في آيات أخرى عظمة ذلك الأجر فقال: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ ۝ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلاَ يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ۝ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ۝ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ۝ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۝ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۝ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾[الرعد: 19 . 24].

فترى أنّ ذلك الأجرَ العظيمَ لم يقتصر عليهم، بل سرى إلى أصولهم وفروعهم وأهليهم، وأيُّ نعيم للمرء أكبرُ من أن يصحبه فيه أصوله وفروعه وأهلوه، لا جرمَ لا يفرط عاقل بهذا الثناء، وذلك الجزاءُ بعد أن يعلمه وهو قادر على أن يناله؛ إلا أن يكون ممّن غلبت عليه شقوته، وأولئك لهم سوء الدار.

---

(1) المصدر نفسه (549/2).

2. الأوامر القرآنية بالوفاء بالكيل والوزن:

الوفاء بالكيل والوزن، وهو المجال الذي يتعلق كليةً بحقوق الآخرين، وما يترتب عليه من قوام حياتهم ومعاشهم، وهو المجال الذي لا سبيل إلى التساهل فيه؛ لأنّه مبنيٌّ على المشاحّة والمقاصّة، فالوفاء فيه يُصْلِحُ للناسِّ أحوالَهم، ويحفظ لهم حقوقهم، ولهذا تكرر الأمر به في القرآن الكريم خمس مرات، منها قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ [الأنعام: 152]. وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾[الإسراء: 35][1].

وتحدّث القرآن الكريم عن شعيب عليه السلام مع قومه، فقد كان قومه ـ بحكم موقع بلادهم الجغرافي ـ يتحكّمون في طرق التجارة الموصلة بين شمال الجزيرة وجنوبها، وبين مصر والشام وبلاد العراق، فكانوا يفرضون على الناس ما شاؤوا من المعاملات التجارية الجائرة، سعياً إلى جني الربح الفاحش، دون مراعاةٍ لما يقع على غيرهم من الظلم والغبن، وقد شاعت فيهم هذه المعاملات، حتى صارت أمراً متعارفاً عليه عندهم، فلمّا بعث الله شعيباً عليه السلام استهلَّ دعوته بمحاربةِ ما كانوا عليه من عبادة الأصنام والأوثان، ثم ثنى بمحاربة تلك المعاملات الجائرة، ومن أبرزها: نقص الميزان والمكيال[2]. قال تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[الأعراف: 85].

---

[1] أخلاق النبي (ص) (554/2).

[2] أسباب هلاك الأمم السالفة، سعيد محمد بابا ص(450).

ولهذه الاية نظائر في سورة [هود: 84 . 85]، قال تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَال ياقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّيَ أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ ۝ وَياقَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾وقال تعالى في سورة الشعراء ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ [الشعراء: 181] .

ونجد تركيز شعيب عليه السلام على معالجة هذا الانحراف المتأصل في قومه بأساليب مختلفة، شملت الأمر والنهي، والترغيب والترهيب. وقد كان لقوم شعيب معاملات أخرى جائرة غير نقص المكيال والميزان، وذلك أمر متوقع ممّن يمارِسُ هذا العمل، ونجد شعيباً عليه السلام يذكر هذه المعاملات في جملة من الأمور التي نهاهم عنها، وهي:

أ . بخس الناس أشياءهم:

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: 85]. والبخس في الأصل هو: النقص، ومن أحسن ما قيل في حدِّه قولُ ابن العربي رحمه الله: البخسُ في لسان العرب هو: النقصُ بالتعييب والتزهيد، أو المخادعة عن القيمة، أو الاحتيال في التزيد في الكيل أو النقصان منه[1]. فالبخسُ على هذا أعمُّ من نقص الميزان والمكيال، فإنّه يكونُ في المكيل والموزون وغيرهما كالمعدودات، والمقدَّرات، فيعمُّ كلَّ تصرُّف يُقصد منه انتقاص حقوق الناس، ولذلك صور كثيرة لا تنقضي[2].

ب . الفساد في الأرض:

---

(1) أحكام القران (318/2).

(2) أسباب هلاك الأمم السالفة، سعيد محمد بابا ص(450).

وقد ورد في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا﴾ [الأعراف: 85]. وقوله: ﴿وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [هود: 85]. والفسادُ في الأرض أعمّ من كلِّ ما سبق، فيدخل فيه كل معصية كانوا يعملونها، من عبادةِ غيرِ الله، ونقص المكيال والميزان، وبخس الناس حقوقهم، وغير ذلك[1].

ج ـ قطع الطريق:

قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ [الأعراف: 86]. وفي هذه الاية نهيٌ عمّا كانوا يفعلونه من القعود في طريق من يريد المجيء إلى شعيب عليه السلام لسماع دعوته، فيصدّونه، ويقولون: إنّه كذاب[2]، وهذا من الأوجه التي حُملت عليها هذه الجملة، وذكر فيها وجهان اخران، أولهما: قطع الطريق وسلب أموال الناس، وثانيهما: القعود في الطرق لأخذ العشور من الناس، وجوّز الشوكاني رحمه الله حمل الجملة على هذه الأوجه كلها[3].

وعلى الرغم من الجهود التي بذلها شعيب عليه السلام في معالجة هذه الانحرافات في قومه، فإنّه لم يلقَ منهم غيرَ العناد والإصرار، وذلك لشيوع تلك الانحرافات بينهم، وتأصّلها فيهم، وفي اخر الأمر ردوا عليه ردّاً قبيحاً، إذ اعتبروا محاولاته في صرفهم عن معاملاتهم الجائرة ضرباً من الهذيان، سببه ما يداوم عليه من الصلاة، قال تعالى: ﴿قَالُوا ياشُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾[هود: 87]، فقولهم: يعنون به: ما درجوا عليه من نقص المكيال والميزان﴿أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾، وبخس الناس حقوقهم،

---

(1) المصدر نفسه ص(451).
(2) المصدر نفسه ص(451).
(3) المصدر نفسه ص(452)، فتح القدير (224/2).

وسائر معاملاتهم الظالمة، فاستهزؤوا بشعيب، وأنكروا عليه تدخله في تلك الأمور، بدعوى أن الأموال لهم، وهم أحرار فيها، يتصرفون فيها كيف شاؤوا، ويفرضون على الناس ما يحقق لهم الأرباح.

وهذا عينُ ما يردِّده المنحرفون عن المنهج الرباني في هذا العصر، بل وفي كل عصر، يتعاطون أكلَ أموال الناس بالباطل عن طريق الغش والخداع، والحيل والربا وسائر المعاملات المحرمة، فإذا نُهوا عن ذلك، تعلّلوا واحتجوا بما يسمّونه حرية الاقتصاد، واستنكروا أن يتدخل الدينُ في هذه الأمور[1].

والأجدر بهؤلاء، لاسيّما المنتسبين منهم إلى الإسلام أن يعتبروا بما حلّ بأشباههم في سالف الأزمان من الهلاك بسبب معاملاتهم الظالمة، وإصرارهم عليها، أفيأمنُ أحدُهم أن يأخذه الله بعاجل العذاب، ويجعله عبرة لأهل زمانه ولمن بعده، كما جعل قومَ شعيبٍ عبرةً لأهل زمانهم ولمن بعدهم، والعاقل من اتعظ بغيره، لا من وُعظ به غيرُه[2]، فقد كان قوم شعيب أهل شرك وكفر، وتطفيف للمكاييل والموازين، ولم تُجْدِ معهم دعوةُ شعيب إياهم إلى التوحيد، وإيفاء الكيل والميزان، بل ازدادوا عناداً وإصراراً، فأصابهم عذاب الظلة، وهي

سحابة أظلتهم، فيها شرر من نار ولهب، ووهج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء، ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم، فزهقت الأرواح، وفاضت النفوس، وخمدت الأجسام[3].

---

(1) في ظلال القران (609/4).

(2) أسباب هلاك الأمم السالفة ص(453).

(3) تفسير ابن كثير (2/ 242).

3. الأمر بالوفاء بالعقود:

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: 1]. ومعنى الاية: يا أيها الذين التزمتم بإيمانكم أنواع العقود والعهود في إظهار الطاعة، أوفوا بتلك العقود التي التزمتم بها، وإنّما سمى الله تعالى هذه التكاليف عقوداً؛ لأنّه ربطها بعباده، كما يُرْبَطُ الشيءُ بالشيءِ بالحبل الموثق[1]، فالاية الكريمة تنادي الموصوفين بالإيمان أن يفوا بالعقود التي التزموا بها، ووصفهم بالإيمان تهييجاً لهم على الوفاءِ بالعقود؛ لأنّ ذلك من مقتضيات الإيمان الذي تعلقوا به[2].

4. الأمر بالوفاء بالنذر:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾[الحج: 29]. والنذور: جمع نذر، وهو التزام قربة لم تتعيّن في الشرع[3]، ومنه ما وردت فيه الاية؛ مما ينذره الحاج من أعمال البر في حجه من هدي ونحوه، وهو ما شملته اية المائدة السابقة؛ لأنّ عقداً يعقده المؤمن مع الله تبارك وتعالى، فإفراده بالذكر من بين سائر العقود يدل على أهمية الوفاء به، وحتى لا يفرط فيه المؤمن، فيتخلى عن عدم الإيفاء به لعدم المطالب في الدنيا، إذ لا يزع على الإيفاء به إلا قوة الإيمان[4]، ولذلك كان تهديدُ الله تعالى للمفرطين به مخيفاً، حيث قال: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [البقرة: 270].

فإذا كان النذرُ يعلمه الله تعالى فإنّ رهن المجازاة به أداءً أو تفريطاً، فلا يخادع إلا

---

(1) التفسير الكبير (123/11).

(2) أخلاق النبي (ص) (558/2).

(3) أي: ليزيلوا أوساخهم وشعثهم كطول الشعر والظفر.

(4) الياقوت النفيس، للشاطري ص(264).

نفسه إن هو لم يفِ به، أما إذا وفّى به فإنه يكون ذا مكانة عالية عند الله تعالى، كما يدّل عليه تنويه الله تعالى بأهل هذا الخلق العظيم في كتابه الكريم[1].

5. تنويه القرآن الكريم بأهل الوفاء:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ۝ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ [الرعد: 19 ـ 20]. فنعتهم الله تعالى بأولي الألباب، أي: أصحاب عقول، حيث هدتهم عقولهم إلى وجوب احترام العهود والمواثيق التي التزموا بها لخالقهم في الإيمان والعبادة، والمخلوقين في المعاملات والسلوك، فلا ينقضون عهداً ولا ميثاقاً، ومنها قوله سبحانه في سياق تعداد صفات أهل البر من عباده: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: 177].

فوصف الله تعالى أصحابَ هذه الأخلاق، ومنها خُلق الوفاء، بأنّهم أهلُ صدق وأهل تقوى، وذلك لأنهم صدقوا ما عاهدوا الله عليه، واتقوا عذابه وعقابه الذي وعد به الناكثين والخائنين، فتأمل مبلغَ هذا الثناء من الملك الجليل المتضمن للتنويه العظيم بأهل تلك الأخلاق الكريمة تجد التعبير قاصراً عن إدراك كنهه، لما ينطوي عليه من الجزاء الكبير المعد لأولئك الموصفين بهذه الصفات، إذ هو بحسب مقام المثني والمثيب، جعلنا الله ممن نال حظاً من ثنائه وجزائه الكريم، فإنّ جزاءه الكريم لهو الجزاء الأوفى، ولا غَرْوَ أن ينال أهل الوفاء ذلك الثناء وذلك الجزاء العظيم، فإنّهم قد تحلّوا بذلك الخلق العظيم الذي هو من صفات الحق تبارك وتعالى، فإنّه سبحانه ذو الوفاء الذي لا يدانيه وفاء، كما أخبر سبحانه عن نفسه، وهو أصدق القائلين بقوله

---

[1] المصدر نفسه (559/2).

تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ [التوبة: 111].

كما أنّه من صفات أنبياء الله عليهم الصلاة السلام، فهذا نبيُّ الله إبراهيم عليه السلام قد ضربَ المثلَ في الوفاء، إذ وفّى وفاء لم يُعرف أحد من البشر أن ابتلي بمثله، وذلك حينما أمره الله تعالى بأن يذبح ابنه، فلذة كبده بيده، فما كان منه إلا أن امتثل أمر ربه، وطاوعه ابنه على أمر ربه، وتلّه للجبين، ليحقق أمر الله، فلمّا علم الله صدقه ووفاءه فداه بِذِبحٍ عظيم، وناداه معبراً عن رضاه عنه، وعن وفائه بقوله: ﴿يا إِبْرَاهِيمُ ۝ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: 104-105][1].

كما ابتلاه الله أيضاً بكلمات من التكاليف الشرعية، قال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: 124]. فاستحقَّ بذلك أن ينوه الله تعالى بوفائه هذا، فقال: وفّى بجميع ما أمره الله به من التكاليف الشرعية وكذلك نبيُّ الله يوسف عليه السلام، فإنّ خُلقَ الوفاء حمله على أن ينسى ما عمله إخوانه معه من مكر وخديعة؛ بحيث كانوا يهدفون إلى أن يلقوه حتفه حينما ألقوه في غيابة الجُبّ، ناهيك عمّا أورثوه أباهم نبيَّ الله يعقوب عليه السلام من حزن عميق على فقد ابنه يوسف عليه السلام؛ حتى ابيضت عيناه من الحزن، ومع ذلك فلمّا وفد إليه إخوته بعد أن مكنه الله من خزائن الأرض، قال تعالى: ﴿أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ [يوسف: 59]. هذا هو الوفاء بحقوق الناس عامة، والإخوة والأرحام منهم خاصة، وهذا هو الخلق الكريم اللائق من نبي كريم، ولا ريبَ فهو الكريم ابن الكريم ابن

[1] أخلاق النبي (ص) (560/2).

الكريم، عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم[1].

6. ما أعده الله لأهل الوفاء من الأجر والجزاء:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الدهر:5-7]. فسمّاهم الله تعالى أبراراً، ومعلوم أنّ الأبرار لهم صفات كثيرة تدل على عظمة إيمانهم وتعبدهم، ولكنْ لم يذكر الله تعالى في هذه الآية الدالة على مبلغ ثوابهم وأجرهم إلا صفة الوفاء والخوف، وذلك لأنّ هذا الوصفَ أبلغُ في التوفر على أداء الواجبات، لأنّ مَنْ وفّى بما أوجبه الله على نفسه لله، كان أوفى بما أوجبه الله عليه بالأولى[2]، وذلك يدل على قوة الإيمان، إذ لا يدفع إلى الوفاء بالنذر إلا قوة الإيمان، وتفاوتُ الناسِ عند الله تعالى إنّما يكون بحسب قوة إيمانهم وضعفه، كما دل عليه قوله تَعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: 13]. جعلنا الله من أهل الوفاء والتقوى بمنه وكرمه[3].

فهذه من أهم مقاصد القرآن الكريم، وقد تناولنا بعضها، كتصحيح المعتقد، وتقوى الله وعبادته، وتزكية النفس، والحرية، والشورى، وكرامة الإنسان، وتحرير المرأة من ظلم الجاهلية، وتكوين الأسرة، وبناء الأمة الشهيدة على الناس، والسماحة، والرحمة، والوفاء بالعهود.

* * *

---

(1) أخلاق النبي (ص) (560/2).
(2) أخلاق النبي (ص) (561/2).
(3) المصدر نفسه (561/2).

الفصل الرابع : جمع القرآن الكريم وكتابته

أولاً . جمع القرآن الكريم كتابة من فم الرسول صلى الله عليه وسلم.

ثانياً . جمع القرآن الكريم في مصحف واحد في عهد أبي الصديق رضي الله عنه.

ثالثاً . جمع القرآن الكريم في عدد من المصاحف في عهد عثمان ذي النورين رضي الله عنه.

رابعاً . هل المصاحف العثمانية مشتملة على جميع الأحرف السبعة؟

خامساً . عدد المصاحف التي أرسلها عثمان رضي الله عنه إلى الأمصار.

سادساً . الفرق بين جمع الصديق وجمع عثمان رضي الله عنهما.

الفصل الرابع : جمع القرآن الكريم وكتابته

وردت لفظة «الجمع» بمعنى: «الحفظ مع دقة الترتيب» عدّة مرّات في كتاب الله، وذلك من مثل قوله تعالى مخاطباً خاتمَ أنبيائه ورسله صلى الله عليه وسلم: ﴿لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقرآنهُ ۝ فَإِذَا قرآناهُ فَاتَّبِعْ قرآنهُ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ [القيامة: 16 ـ 19].

وهذا المعنى اتاه الله تعالى ـ لخاتم أنبيائه ورسله صلى الله عليه وسلم ـ ولعددٍ غيرِ قليل من صحابته الكرام، ومن تبعهم من الصالحين إلى اليوم، وحتى يوم الدين، وهؤلاء تدارسوا القرآن الكريم، ولا يزالون يتدارسونه ويستظهرونه، ليتمكنوا من القراءة به في الصلوات المكتوبة، وفي النوافل، وفي الاستشهاد.

كما وردت لفظة «الجمع» بمعنى: «الكتابة والتدوين».

وقد مرّ جمع القرآن وتدوينه بمراحل ثلاثة:

أولاً ـ جمع القرآن الكريم كتابة من فم رسول الله صلى الله عليه وسلم[1]:

إنّ جميع الأحاديث الواردة في هذا الشأن تتفق على أنّ ترتيب آيات القرآن، حسبما عليه المصحف الان، إنّما هو ترتيبٌ توقيفي، لم يجتهد فيه رسول الله ولا أحد من الصحابة في عهده أو من بعده، وإنّما كان يتلقّى ترتيبَ بعضها إلى جانب بعض وحياً من عند الله بواسطة جبريل.

روى الإمام أحمد بإسناده عن عثمان بن أبي العاص، قال: كنتُ جالساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ شخصَ ببصره ثم صوّبه، قال: «أتاني جبريل فأمرني أن

(1) مدخل إلى دراسة الإعجاز العلمي د. زغلول النجار.

أضع هذه الاية هذا الموضع من هذه السورة»: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ [النحل: 90][1].

إنّ من مظاهر عناية الله بالقرآن الكريم وحفظه ما تمّ على يد الرسول صلى الله عليه وسلم وأمته من حفظ القرآن في صدورهم، وكتابته في الصحف، وقد بلغ الرسول صلى الله عليه وسلم وأمته في ذلك أرقى مناهج التوثيق، ذلك أنَّ القرآن الكريم نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم منجّماً في ثلاث وعشرين سنة[2]، حسب الحوادث ومقتضى الحال، وكانت السورةُ تدوَّن ساعةَ نزولها، إذ كان المصطفى صلى الله عليه وسلم إذا ما نزلت عليه ايةٌ أو آيات قال: ضعوها في مكان كذا... سورة كذا[3].

ولهذا اتفق العلماء على أنّ جمع القرآن توقيفي، بمعنى أن ترتيبَ آياته بهذه الطريقة التي نراه عليها اليوم في المصاحف إنما هو بأمر الله، ووحي من الله[4].

وما يقال عن ترتيب آيات القرآن هو الذي يقوله إجماع المؤرخين والمحدّثين والباحثين عن ترتيب السور، ووضع البسملة في رؤوسها، قال القاضي أبو بكر الباقلاني رواية عن مكي رحمه الله في تفسير سورة «براءة»: إنَّ ترتيب الآيات في السور، ووضع البسملة في الأوائل هو توقيفٌ من الله عز وجل، ولما لم يؤمر بذلك في أول سورة براءة تُرِكَت بلا بسملة[5].

وروى القرطبي عن ابن وهب قال: سمعتُ سُلَيمان بن بلال يقول: سمعتُ ربيعة

---

(1) مسند أحمد، لا يأتيه الباطل، د. محمد سعيد رمضان البوطي ص(217).

(2) مباحث في علوم القران، مناع القطان ص(105).

(3) الإتقان في علوم القران، للسيوطي (1/60 . 61).

(4) البرهان في علوم القران (1/234 . 235).

(5) تفسير القرطبي (1/61) البخاري (5/165).

يُسأل: لم قدّمت البقرةُ والُ عمران وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة، وإنما نزلتا في المدينة؟ فقال ربيعة: قد قدمتا، وألّف القرآن على علمٍ ممّن ألّفه.

هذا عن ترتيبِ اي القرآن وسوره، أما عن كتابته، فمن المعلوم أولاً أن النبي صلى الله عليه وسلم كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، أجمعَ على ذلك عامة المؤرخين، وكل المشركين الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، لذا فقد كان يعهد بكتابة ما يتنزل عليه من القرآن إلى أشخاصٍ من الصحابة بأعيانهم كانوا يُسمَّون كتّاب الوحي، وأشهرهم الخلفاء الأربعة، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، ومعاوية بن أبي سفيان، والمغيرة بن شعبة، والزبير بن العوام، وشُرَحْبيل بن حسْنة، وعبد الله بن رواحة، وقد كانوا يكتبون ما يتنزل من القرآن تباعاً حسب الترتيب الذي يأتي به جبريل؛ فيما تيسر لهم من العظام المرققة والمخصصة لذلك، وألواح الحجارة الرقيقة والجلود، وقد كانوا يضعون ما يكتبونه في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم يكتبون لأنفسهم إنْ شاؤوا نسخاً عنها يحفظونها لديهم، ولقد كان من الصحابة من يتتبع ما ينزل من آيات القرآن ويتتبع ترتيبها فيحفظها عن ظهر قلب، حتى كان فيهم من حفظ القرآن كله، فمن المشاهير أبي بن كعب، وزيد بن ثابت، واخرون[1].

وظلَّ الصحابة يعكفون على حفظ القرآن غيباً، حتى ارتفعت نسبةُ الحفّاظ منهم إلى عدد لا يحصى.

يتضح لك من هذا الذي ذكرناه أنّ القرآن وعاه الصدر الأول من الصحابة، وبلّغوه إلى مَنْ بعدَهم بطريقتين اثنتين:

إحدهما: الكتابة التي كانت تتم للقرآن بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم لأشخاص

---

[1] لا يأتيه الباطل، محمد سعيد رمضان البوطي ص(217).

بأعيانهم وكّل إليهم هذا الأمر، ولم ينتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جوار ربه إلا والقرآن مكتوب كله في بيته.

الثانية: حفظه في الصدور عن طريق التلقي الشفهي من كبار قرّاء الصحابة وحفاظهم؛ الذين تلقَوْه بدورهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ الذي أقرّهم على كيفية النطق والأداء[1].

وكان كلّ ما يكتب من آيات وسورِ القرآن الكريم بعدَ الوحي بها مباشرةً يُحْفَظُ في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، مع استنساخ كُتّاب الوحي نسخاً لأنفسهم من جميع ما أُملي على كلٍّ منهم، وبذلك تمَّ جمعُ القرآن الكريم كله كتابة وحفظاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم[2].

وثبت أنَّ جبريل عليه السلام كان يعارِضُ الرسول صلى الله عليه وسلم بالقرآن مرّةً واحدةً في كلِّ سنة، ثم عارضه به في السنّةِ التي توفّي فيها صلى الله عليه وسلم مرتين[3]، ومعنى هذا أنَّ القرآن الكريم كان في صورته التامّة في هذه السنة التي تمّ عرضُه فيها مرّتين، ولذلك شواهد كثيرة ذكرها العلماء، من أظهرها ما أورده البغويُّ عن أبي عبد الرحمن السُّلمي أنّه قال: كانت قراءة أبي بكر وعمر وعثمان، وزيد بن ثابت، والمهاجرين والأنصار واحدةً، كانوا يقرؤون القراءة العامة فيه، وهي القراءةُ التي قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم على جبريل مرّتين في العام الذي قُبض فيه، وكان زيد قد شهد العرضة الأخيرة، وكان يقرأئُ الناس بها حتى مات، ولذلك

---

[1] تفسير القرطبي (61/1) البخاري (165/5).
[2] البرهان للزركشي (238/1)، الإتقان (58/1)، فتح الباري في شرح البخاري (18/9)، لا يأتيه الباطل ص(218).
[3] المصدر نفسه ص(219).

اعتمده الصدّيق في جمعه أولاً، وولاه عثمانُ على كَتَبَة المصحف[1].

على أنّ القرآن رغم ذلك لم يجمع بين دفتين في مصحف على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك لضيقِ الوقتِ بين اخرِ ايةٍ نزلت من القرآن وبين وفاته صلى الله عليه وسلم[2].

ثانياً . جمع القرآن الكريم في مصحف واحد على عهد الخليفة الأول أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

كان من ضمن شهداء المسلمين في حرب مسيلمة الكذّاب في اليمامة كثيرٌ من حفظة القرآن، وقد نتجَ عن ذلك أنْ قام أبو بكر رضي الله عنه بمشورة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بجمع القرآن، حيث جُمِعَ من الرقاع والعظام والسَّعْف ومن صدور الرجال[3]، وأسندَ أبو بكر الصديق رضي الله عنه هذا العمل العظيم، والمشروعَ الحضاريَّ الضخم إلى الصحابي الجليل زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه.

يروي زيد بن ثابت رضي الله عنه فيقول: بعث إليَّ أبو بكر رضي الله عنه فقال: إنّ عمر أتاني فقال: إنَّ القتلَ قد استحرّ[4] يومَ اليمامة بقرّاء القرآن، وإنِّي أرى أنْ تأمرَ بجمع القرآن، قلتُ لعمر: كيفَ أفعلُ شيئاً لم يفعله رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم[5] ؟ فقال عمر: هذا واللهِ خيرٌ، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرحَ الله صدري للذي شرحَ له صدرَ عمر، ورأيتُ في ذلك الذي رأى عمر، قال زيدٌ: قال أبو بكر: وإنّك

---

(1) مدخل إلى دراسة الإعجاز العلمي ص(68).

(2) البخاري رقم (4710).

(3) شرح السنة (50/3)، تميز الأمة الإسلامية، د. إسحاق السعدي (595/1).

(4) لا يأتيه الباطل ص(219).

(5) حروب الردة وبناء الدولة، أحمد سعيد ص(145).

رجلٌ شابٌّ عاقل لا نتهمك[1]، وقد كنتَ تكتبُ الوحيَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فتتبّع القرآن فاجمَعْهُ[2]، قال زيد: فوالله لو كلّفوني نقل جبلٍ من الجبال ما كان بأثقلَ عَليّ مما كلفني به من جمع القرآن، فتتبعتُ القرآن من العسب[3] واللِّخاف[4]، وصدورِ الرجال، والرِّقاع[5]، والأكتاف[6]. قال: حتى وجدتُ اخرَ سورةِ التوبةِ مع أبي خزيمة الأنصاريِّ، لم أجدها مع أحدٍ غيره، وهي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [التوبة: 128]، حتى خاتمة براءة، وكانت الصحف عند أبي بكر في حياته حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته حتى توفاه الله، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنهم[7].

وعلق البغوي على هذا الحديث فقال: فيه البيانُ الواضحُ أنّ الصحابة رضي الله عنهم جمعوا بين الدفتين القرآن الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم من غير أن يزيدوا فيه أو ينقصوا منه شيئاً، والذي حملهم على جمعه ما جاء في الحديث؛ وهو أنّه كان مفرّقاً في العسب واللخاف وصدور الرجال، فخافوا ذهاب بعضه بذهاب حفظته، ففزعوا فيه إلى خليفةِ رسول الله، ودعَوْه إلى جمعه، فرأى في ذلك رأيهم، فأمر بجمعه في موضعٍ واحدٍ باتفاقٍ من جميعهم، فكتبوه كما سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير أن يقدموا شيئاً أو يؤخروا أو

---

(1) استحرّ: كثر واشتد.
(2) أي: من الأشياء التي عندك وعند غيرك.
(3) العسب: جريد النخل.
(4) اللخاف: جمع لخفة، وهي صفائح الحجارة.
(5) الرقاع: جمع رقعة، وهي قطع الجلود.
(6) الأكتاف: جمع كتف، وهو العظم الذي للبعير أو الشاة.
(7) البخاري رقم (4986).

يضعوا له ترتيباً لم يأخذوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى أصحابه، ويعلّمهم ما ينزل عليه من القرآن على الترتيب الذي هو الان في مصاحفنا بتوقيفٍ جبريل صلوات الله عليه إياه على ذلك، وإعلامه عند نزولِ كلّ ايةٍ أنّ هذه الاية تكتب عَقِبَ ايةِ كذا في السورة التي يذكر فيها كذا[1].

وهكذا يتضح للقارئ الكريم أنّ من أوليات أبي بكر الصديق رضي الله عنه: أنّه أوّل من جمع القرآن الكريم، يقول صعصعة بن صَوْحان رحمه الله: أول من جمع القرآن بين اللوحين، وورّث الكلالة[2]، أبو بكر.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: يرحم الله أبا بكر، هو أول من جمع القرآن بين اللوحين[3].

وقد اختار أبو بكر رضي الله عنه زيدَ بن ثابتٍ لهذه المهمة العظيمة، وذلك لأنّه رأى فيه المقوّمات الأساسية للقيام بها، وهي:

1. كونه شاباً، حيث كان عمره واحداً وعشرين عاماً، فيكون أنشطَ لما يُطْلبُ منه.

2. كونه أكثر تأهيلاً، فيكون أوعى له، إذ مَنْ وهبه الله عقلاً راجحاً فقد يسّر له سُبُلَ الخير.

3. كونه ثقة، فليس هو موضعاً للتهمة، فيكون عملُه مقبولاً، وتركنُ إليه النفوس، وتَطمئن إليه القلوب.

---

(1) شرح السنة، للبغوي (522/4).

(2) الكلالة: من لا ولد له ولا والد.

(3) أخرجه ابن أبي شيبة (196/7) وإسناده صحيح.

4. كونه كاتباً للوحي، فهو بذلك ذو خبرةٍ سابقةٍ في هذا الأمر، وممارسةٍ عمليةٍ له فليس غريباً عن هذا العمل، ولا دخيلاً عليه[1].

هذه الصفاتُ الجليلةُ جعلتِ الصدّيق يُرشِّحُ زيداً لجمع القرآن، فكان به جديراً، وبالقيام به خبيراً.

5. ويضافُ لذلك أنّه أحد الصحابة الذين جمعوا القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم مع الإتقان.

وأما الطريقة التي اتبعها زيد في جمع القرآن؛ فكان لا يثبِتُ شيئاً من القرآن إلا إذا كان مكتوباً بين يدي النبيِّ صلى الله عليه وسلم ومحفوظاً من الصحابة، فكان لا يكتفي بالحفظ دون الكتابة، خشيةَ أنْ يكونَ في الحفظِ خطأ أو وهمٌ، وأيضاً لم يقبل من أحدٍ شيئاً جاء به إلا إذا أتى معه شاهدان يشهدان أن ذلك المكتوبَ كُتِبَ بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنّه من الوجوه التي نزل بها القرآن[2].

وعلى هذا المنهج استمرّ زيدٌ رضي الله عنه في جمع القرآن حَذِراً، متثبّتاً، مبالغاً في الدقة والتحري[3].

إنّ زيداً اتبع طريقة في الجمع نستطيعُ أن نقولَ عنها من غير ترددٍ: إنّها طريقةٌ فذّة في تاريخ الصناعة العقلية الإنسانية، وإنها طريقة التحقيق العلمي المألوف في العصر الحديث، وإنّ الصحابيَّ الجليل قد اتبع هذه الطريقة بدقة دونها كل دقة، وإنّ هذه الدقة في جَمْعِ القرآن متصلةٌ بإيمان زيد بالله، فالقرآن كلامُ الله جل شأنه، فكل تهاونٍ

---

[1] التفوق والنجابة على نهج الصحابة، حمد العجمي ص(73).
[2] المصدر نفسه ص(74).
[3] أبو بكر الصديق، للمؤلف ص(264).

في أمره، أو إغفالٍ للدقة في جمعه وزر؛ ما كان أحرص زيداً ـ في حسن إسلامه، وجميل صحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتنزه عنه.

إنّ ما قام به زيد بن ثابت رضي الله عنه بتكليفٍ من خليفة المسلمين أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ومشورةِ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ومعاونةِ أبي بن كعب رضي الله عنه، ومشاركة جمهور الصحابة ممّن كان يحفظ القرآن أو يكتبه[1]، وإقرارُ جَمْعٍ من المهاجرين والأنصار مظهرٌ من مظاهر العناية الربانية بحفظ القرآن الكريم، وتوفيقٌ من الله للأمة الإسلامية، وتسديدٌ منه لمسيرتها، ويتضمن ذلك ـ أيضاً ـ كما قال أبو زهرة: حقيقتين مهمتين تدلان على إجماع الأمة كلِّها على حماية القرآن الكريم من التحريف والتغيير والتبديل، وأنّه مصونٌ بعناية الله سبحانه وتعالى، ومحفوظٌ بحفظه وإلهام المؤمنين بالقيام عليه، وحياطته[2].

الأولى: أن عمل زيد رضي الله عنه لم يكن كتابة مبتدأة، ولكنه جمع مكتوب[3]، فقد كُتِبَ القرآن كلُّه في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وعمل زيدٍ الابتدائي هو البحثُ عن الرقاع والعظام التي كان قد كُتِبَ عليها، والتأكد من سلامتها بأمرين، بشهادةِ اثنين على الرقعة التي فيها الايةُ والايتان أو الآيات، وبحفظ زيدٍ نفسه، وبالحافظين من الصحابة، وقد كانوا الجمعَ الغفيرَ، والعددَ الكبيرِ، فما كان لأحدٍ أن يقول: إنَّ زيداً كتب من غير أصلٍ مادي قائمٍ، بل إنّه أخذَ من أصلٍ قائمٍ ثابتٍ مادي، وبذلك نقرِّرُ أن ما كتبه زيد هو تماماً ما كُتِبَ في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، وأنّه ليس كتابة زيد، بل ما كتب في عصره عليه الصلاة والسلام،

---

(1) الحضارة الإسلامية، توفيق الواعي ص(281).

(2) تميز الأمة الإسلامية (603/1).

(3) المصدر نفسه (603/1).

وأملاه، وما حفظه الروح القدس.

الثانية: أن عمل زيد لم يكن عملاً أحادياً، بل كان عملاً جماعياً من مشيخة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد طلب أبو بكر إلى كل ما عنده شيءٌ مكتوب أن يجيء به إلى زيد، وإلى كلِّ مَنْ يحفظ القرآن أن يدلي إليه بما يحفظه، واجتمع لزيدٍ من الرقاع والعظامِ وجريدِ النخل ورقيق الحجارة، وكل ما كَتَبَ أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعند ذلك بدأ زيد يرتبه ويوازنه ويستشهد عليه، ولا يثبِتُ ايةً إلا إذا اطمأن إلى إثباتها، كما أوحيت إلى رسول الله[1].

واستمرّ الأمر كذلك، حتى إذا ما أتمَّ زيدٌ ما كتبَ، تذاكره الناس، وتعرفوه، وأقروه، فكان المكتوب متواتراً بالكتاب، ومتواتراً بالحفظ في الصدور، وما تمّ هذا الكتاب في الوجود غير القرآن[2] ـ وايم الله ـ عناية من الرحمن خاصة بهذا القرآن العظيم[3]. وشرف للأمة الإسلامية تميزت به على سائر الأمم، ووفقها الله لخدمة كتابه في منهج علمي سبقت إليه جميعَ الأمم[4].

ثالثاً ـ جمع القرآن الكريم في عدد من المصاحف على عهد ذي النورين أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه:

1. الباعث على جمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أنّ حذيفة بن اليمان قَدِمَ على عثمان رضي الله عنه، وكان يُغازي أهل الشام في فتح أرمينية، وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزعَ

---

[1] دراسات في القران، أحمد خليل ص(90).
[2] تميز الأمة الإسلامية (604/1).
[3] دراسات تاريخية من القران الكريم، محمد بيومي ص(31 ـ 32).
[4] المصدر نفسه (604/1).

حذيفةَ رضي الله عنه اختلافُهم في القراءة، فقال حذيفةُ لعثمان: يا أميرَ المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتابِ اختلافَ اليهود والنصارى.

فأرسلَ عثمانُ إلى حفصة أنْ أرسلي إلينا بالصُّحفِ ننسخُها في المصاحف، ثم نردُّها إليك، فأرسلت بها حفصةُ إلى عثمان، فأمرَ زيدَ بنَ ثابت، وعبدَ الله بن الزبير، وسعيدَ بن العاص، وعبدَ الرحمن بن الحارث بن هشام رضي الله عنهم، فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرّهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيءٍ من القرآن؛ فاكتبوه بلسان قريش، فإنّما نزل بلسانهم، ففعلوا، حتى إذا نسخوا الصُّحف في المصاحف، ردَّ عثمان رضي الله عنه الصُّحفَ إلى حفصة، فأرسل إلى كلِّ أُفقٍ بمصحف ممّا نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كلِّ صحيفةٍ، أو مصحفٍ أن يُحرّقَ(1).

ويؤخذ من الحديث الصحيح أمور، منها:

أ ـ أنّ السببَ الحامل لعثمان رضي الله عنه على جمع القرآن مع أنّه كان مجموعاً، مرتّباً في صحف أبي بكر الصديق، إنّما هو اختلافُ قرّاء المسلمين في القراءةِ اختلافاً أوشك أن يؤدّي بهم إلى أخطرِ فتنةٍ في كتاب الله تعالى، وهو أصل الشريعة، ودعامة الدين، وأساس بناء الأمة الاجتماعي والسياسي والخُلُقي، حتى إنّ بعضهم كان يقول لبعض: إنّ قراءتي خيرٌ من قراءتك، فأفزعَ ذلك حذيفةَ، ففزع إلى خليفةِ المسلمين وإمامِهم، وطلب إليه أن يُدْرِكَ الأمة قبل أن تختلف، فيستشري بينهم الاختلافُ، ويتفاقم أمرُه، ويعظم خطبُه، فيُمسّ نصُّ القرآن، وتُحرّف عن مواضعها كلماته وآياته، كالذي وقع بين اليهود والنصارى من اختلاف كل أمة على نفسها

---

(1) البخاري، رقم (4987).

في كتابها.

ب ـ أن هذا الحديث الصحيح قاطعٌ بأنّ القرآن الكريم كان مجموعاً في صحف ومضموماً في خيط، وقد اتفقت كلمةُ الأمةِ اتفاقاً تاماً على أنَّ ما في تلك الصُّحف هو القرآن كما تلقته عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم في اخر عرضةٍ على أمين الوحي جبريل عليه السلام، وأنَّ تلك الصحف ظلت في رعاية الخليفة الأول أبي بكر الصديق، ثم انتقلت بعده إلى رعاية الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، ثم عرف عمر حضور أجله، ولم يولِّ عهده أحداً معيناً في خلافة المسلمين، وإنّما جعل الأمر شورى في الرّهط المتصفين بالرّضا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، أوصى بحفظ الصحف عند ابنته حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها، وأنَّ عثمان اعتمدَ في جمعه على تلك الصُّحف، وعنها نقل مصحفه «الرّسمي»، وأنّه أمر أربعةً من أشهر قرّاء الصحابة إتقاناً لحفظ القرآن، ووعياً لحروفه، وأداءً لقراءاته، وفهماً لإعرابه ولغته: ثلاثة قرشيين وواحداً أنصارياً، وهو زيد بن ثابت صاحب الجمع الأول في عهد الصديق بإشارة الفاروق.

وفي بعض الروايات: أنّ الذين أمرهم عثمان أن يكتبوا من الصحف اثنا عشر رجلاً، فيهم أُبي بن كعب، واخرون من قريش والأنصار[1].

ج ـ ونأخذ من هذا: أن الفتوحات في عهد عثمان كانت بإذن وأمر من الخليفة، وأنّ القرار العسكري يصدرُ من المدينة، وأنّ الولايات الإسلامية كلها كانت خاضعة لأمر الخليفة عثمان في عهده، بل يدلّ على أنّ هناك إجماعاً من الصحابة والتابعين في جميع الأقاليم على خلافة عثمان، وقدوم حذيفة بن اليمان إلى المدينة، لرفع

[1] عثمان بن عفان، لصادق عرجون ص(171).

اختلاف الناس في قراءة القرآن، يدل على أنّ القضايا الشرعية الكبرى كان يستشار فيها الخليفة في المدينة، وأنَّ المدينة ما زالت دار السنة، ومجمع فقهاء الصحابة[1].

2 . استشارة جمهور الصحابة في جمع عثمان:

جمع عثمان رضي الله عنه المهاجرين والأنصار، وشاورهم في الأمر، وفيهم أعيانُ الأمة، وأعلامُ الأئمة، وعلماءُ الصحابة، وفي طليعتهم علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، وعرض عثمان رضي الله عنه هذه المعضلة على صفوة الأمة وقادتها الهادين المهديين، ودارسهم أمرَها، ودارسوه، وناقشهم فيها وناقشوه، حتى عرف رأيهم وعرفوا رأيه، فأجابوه إلى رأيه في صراحة لا تجعل للريب إلى قلوب المؤمنين سبيلاً، وظهر للناس في أرجاء الأرض من عقد عليه إجماعهم، فلم يعرف قط يومئذ لهم مخالف، ولا عرف عند أحد نكير، وليس شأن القرآن الذي يخفى على احادِ الأمة فضلاً عن علمائها وأئمتها البارزين[2].

إنَّ عثمان رضي الله عنه لم يبتدع في جمعه المصحف، بل سبقه إلى ذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه، كما أنه لم يضع ذلك من قبل نفسه، إنما فعله عن مشورة للصحابة رضي الله عنهم، وأعجبهم هذا الفعل، وقالوا: نعمَ ما رأيتَ، وقالوا أيضاً: قد أحسن، أي: في فعله في المصاحف[3].

وقد أدرك مصعب بن سعد صحابة النبي صلى الله عليه وسلم حين مشق[4] عثمان

---

[1] المدينة النبوية في فجر الإسلام والعصر الراشدي (244/2).
[2] عثمان بن عفان، لصادق عرجون ص(175).
[3] فتنة مقتل عثمان بن عفان، محمد الغبان (78/1).
[4] مشق في الكتابة: مد في حروفها وجودها.

رضي الله عنه المصاحف، فراهم قد أُعجبوا بهذا الفعل منه[1].

وكان علي رضي الله عنه ينهى مَنْ يعيبُ على عثمان رضي الله عنه بذلك، ويقول: يا أيها الناس لا تغلوا في عثمان، ولا تقولوا فيه إلا خيراً ـ أو قولوا خيراً ـ فوالله ما فعل الذي فعل ـ أي: في المصاحف ـ إلا عن ملأ منا جميعاً ـ أي:

الصحابة ـ والله لو وليتُ، لفعلتُ مثل الذي فعل[2].

وبعد اتفاق هذا الجمع الفاضل من خيرة الخلق على هذا الأمر المبارك، يتبين لكل متجرِّدٍ عن الهوى أنّ الواجبَ على المسلم الرضا بهذا الصنيع الذي صنعه عثمان رضي الله عنه، وحفظ به القرآن الكريم[3].

قال القرطبي في التفسير: وكان هذا من عثمان رضي الله عنه بعد أن جمع المهاجرين والأنصار، وجلة أهل الإسلام، وشاورهم في ذلك، فاتفقوا على جمعه بما صح، وثبت من القراءة المشهورة عن النبي صلى الله عليه وسلم واطّراح ما سواه، واستصوبوا رأيه، وكان رأياً سديداً موفقاً[4].

رابعاً ـ هل المصاحف العثمانية مشتملة على جميع الأحرف السبعة؟

ذهب الشيخ المحقق محمد صادق عرجون رحمه الله إلى أنَّ صحف الصِّدِّيق؛ التي كانت أصلاً للمصحف الإمام بإجماع المسلمين؛ لم تكن جامعةً للأحرف السبعة التي وردت في صحاح الأحاديث بإنزال القرآن عليها، بل كانت حرفاً منها، وهو الذي وقعت به العرضة الأخيرة، واستقرَّ عليها الأمر في اخر حياة رسول الله صلى

---

(1) التاريخ الصغير للبخاري (94/1)، إسناده حسن لغيره

(2) فتح الباري (18/9)، إسناده صحيح.

(3) فتنة مقتل عثمان بن عفان (78/1).

(4) الجامع لأحكام القران (78/1).

الله عليه وسلم، وإنما كانت الأحرف السبعة أولاً من باب التّيسير على الأمة، ثم ارتفع حكمها لما استفاض القرآن، وتمازج الناس، وتوحَّدت لغاتهم.

قال الإمام الطحاويُّ: إنَّما كانت السَّعة للناس في الحروف، لعجزهم عن أخذ القرآن على غير لغاتهم، لأنَّهم كانوا أمِّيين، لا يكتب إلا القليل منهم، فلمَّا كان يشقُّ على كل ذي لغة أن يتحوَّل إلى غيرها من اللُّغات، ولو رَامَ ذلك لم يتهيّأ له إلا بمشقة عظيمة؛ وُسّع لهم في اختلاف الألفاظ، إذا كان المعنى متَّفقاً، فكانوا كذلك حتى كثر منهم من يكتب، وعادت لغاتهم إلى لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقدروا بذلك على حفظ ألفاظه، فلم يسعهم حينئذ أن يقرؤوا بخلافها.

وقال ابن عبد البرِّ: فبات بهذا أن تلك السبعة الأحرف إنما كانت في وقت خاص لضرورة دعت إلى ذلك، ثمَّ ارتفعت تلك الضرورة، فارتفع حكم هذه السبعة الأحرف، وعاد ما يقرأ به القرآن على حرف واحد[1].

وقال الطبري: إنَّ القراءة على الأحرف السبعة لم تكن واجبة على الأمة، وإنما كان جائزاً لهم، ومرخصاً لهم فيه، فلمّا رأى الصحابة أن الأمة تفترق، وتختلف إذا لم يجتمعوا على حرف واحد؛ أجمعوا على ذلك إجماعاً شائعاً، وهم معصومون من الضلالة[2].

وهذا الحرف الذي كتبت به صحف الإجماع القاطع، ونقل عنها المصحف الإمام؛ جامع لقراءات القرّاء السبعة وغيرها، ممّا يقرأ به الناس، ونقل متواتراً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنّ الأحرف الواردة في الحديث غير هذه القراءات[3].

---

(1) عثمان بن عفان، لصادق عرجون ص(180).

(2) المصدر نفسه ص(180).

(3) المصدر نفسه (180).

خامساً. عدد المصاحف التي أرسلها عثمان رضي الله عنه إلى الأمصار:

لما فرغ عثمان رضي الله عنه من جمع المصاحف، أرسل إلى كل أفق بمصحف، وأمرهم أن يحرقوا كلَّ مصحف يخالف المصحف الذي أرسله إلى الافاق، وقد اختلفوا في عدد المصاحف التي فرّقها في الأمصار، فقيل: إنها أربعة، وقيل: إنها خمسة، وقيل: إنها ستة، وقيل: إنها سبعة، وقيل: ثمانية.

أما كونها أربعة، فقيل: إنه أبقى مصحفاً بالمدينة، وأرسل مصحفاً إلى الشام، ومصحفاً إلى الكوفة، ومصحفاً إلى البصرة. وأما كونها خمسة، فالأربعة المتقدم ذكرها ومصحف لأهل مكة. وأما كونها ستة فالخمسة المتقدمة، والسادس اختلف فيه، فقيل: جعله خاصاً لنفسه، وقيل: أرسله إلى البحرين. وأما كونها سبعة، فالستة المتقدم ذكرها، والسابع أرسله إلى اليمن. وأما كونها ثمانية، فالسبعة المتقدم ذكرها، والثامن كان لعثمان يقرأ فيه، وهو الذي قُتِلَ وهو بين يديه[1].

وبعث رضي الله عنه مع كل مصحف مَنْ يرشدُ الناسَ إلى قراءاته بما يحتمله رسمه من القراءات مما صح وتواتر، فكان عبد الله بن السائب مع المصحف المكي، والمغيرة بن شهاب مع المصحف الشامي، وأبو عبد الرحمن السُّلمي مع المصحف الكوفي، وعامر بن قيس مع المصحف البصري، وأمر زيد بن ثابت أن يقرأئ الناس بالمدني[2].

من هذا الاستعراض يتضح أن حفظ القرآن الكريم قد تم بطريقة لم يحظ بها كتاب اخر في تاريخ البشرية كلها، وذلك لأن الله تعالى هو الذي تعهد بحفظه قائلاً: ﴿إِنَّا

---

[1] أضواء البيان في تاريخ القران، صابر حسن ص(77).

[2] المصدر نفسه ص 78، عثمان بن عفان، للمؤلف ص(256).

نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ 9].

فوفق الله سبحانه نفراً من عباده الصالحين ليقوموا بهذا الدور العظيم؛ في ظل من الرعاية الإلهية التي حفظت لنا القرآن حفظاً كاملاً، حرفاً حرفاً، وكلمة كلمة، واية اية، وسورة سورة، في نفس لغة الوحي «اللغة العربية» على مدى يزيد على أربعة عشر قرناً، وتعهد ربنا تبارك وتعالى بهذا الحفظ تعهداً مطلقاً؛ حتى يبقى القرآن العظيم شاهداً على الخلق أجمعين بأنّه كلام رب العالمين[1].

سادساً ـ الفرق بين جمع الصديق، وجمع عثمان رضي الله عنهما:

الفرق بين جَمْع أبي بكر وجمع عثمان: أنَّ جمع أبي بكر كان لخشيته أن يذهب شيء من القرآن بذهاب حملته، لأنّه لم يكن مجموعاً في موضع واحد، فجمعه في صحائف مرتب الآيات على ما وقفهم عليه النبي صلى الله عليه وسلم.

وجمعُ عثمان كان لما كثُر الاختلاف في وجوه القراءة حتى قرؤوه بلغاتهم على اتساع اللغات، فأدى ذلك إلى تخطئة بعضهم بعضاً، فخشي من تفاقم الأمر في ذلك، فنسخ تلك الصحف في مصحف واحد مرتب الآيات والسور، واقتصر من سائر اللغات على لغة قريش، محتجاً بأنه نزل بلغتهم، وإن كان قد وسع في قراءته بلغة غيرهم دفعاً للحرج والمشقة في ابتداء الأمر، فرأى أنَّ الحاجة قد انتهت، فاقتصر على لغة واحدة[2].

* * *

---

[1] مدخل إلى دراسة الإعجاز العلمي ص (70 ـ 71).

[2] عثمان بن عفان، للمؤلف ص(253).

الباب الثاني : الإيمان بالكتب السماوية

الفصل الأول: أهمية الإيمان بالكتب السماوية.

الفصل الثاني: وجوب الإيمان بالكتب السماوية.

الفصل الثالث: الكتب التي ورد ذكرها في القرآن الكريم.

الفصل الرابع: تحريف الكتب السابقة.

الفصل الخامس: القرآن الكريم نسخ الكتب السابقة كلها.





1 . الإيمان بالكتب السابقة ركن من أركان الإيمان، لا يتم الإيمان إلا به.

2 . الإيمان بالكتب السابقة يؤكّد وحدة الرسالات الإلهية، وأنّ الإسلام جامعٌ لكلِّ الديانات السماوية، والمسلمون أولى الناس جميعاً بقيادة البشرية على نهج الإسلام، فالمؤمن يعتقدُ أنّ أي طائفة من أهل الكتاب يملكون أساساً وأصلاً لدينهم، وهذا ممّا يجعلُ أهل الكتاب قريبين من الإسلام والمسلمين لو أنصفوا، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: 13].

3 . الإيمان بالكتب الإلهية جزءٌ من الإيمان بالقرآن، وجزءٌ من الإيمان بأنَّ الله سبحانه هو الهادي، وأنَّ هداية الله لم تنقطع عن البشر، فما مِنْ أمةٍ إلا وقد أنزل الله بها هدًى، قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: 24].

4 . المسلم يؤمن أنّ القرآن قد اشتمل على كلّ ما سبقه من كتب، وهو سليم من أي تحريف، فالقرآن يصدق بالكتب السابقة، وهو المرجع الوحيد لبيان ما فيها من حق، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾ [المائدة: 48].

5 . الإيمان بالكتب السابقة ينمي لدى المسلم الشعور بوحدة البشرية، ووحدة دينها، ووحدة رسلها، ووحدة مصدرها، وأنّ الأمة الإسلامية ورثت العقائد السماوية ووحدة النبوات منذ فجر البشرية، والمحافظة على تراث العقيدة، وتراث النبوة، ورائدة




موكب الإيمان على الأرض إلى آخر الزمان.

6 . الإيمان بالكتب السابقة، ينقي روح المؤمن من التعصب الذميم ضد الديانات، وضد المؤمنين بالديانات، ما داموا على الطريق الصحيح[1].

والموقف الذي ينبغي أن يتّخذه المسلم من تلك الكتب «التوراة والإنجيل»، أن يؤمن بما ورد فيها مما قرره القرآن الكريم، أمّا ما وردَ مخالفاً أصول القرآن العامة فلا يؤمن به، بل يعتقدُ في بطلانه، أما ماعدا ذلك من القصص والمواعظ التي لم يذكرها القرآن، ولا تناقض أصوله فلا يصدقها ولا يكذبها، وذلك اتباعاً لما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، وقولوا امنا بالله وكتبه ورسله، فإن كان حقاً لم تكذبوهم، وإن كان باطلاً لم تصدقوهم»[2].

فأخبار أهل الكتاب على ثلاثة أقسام:

الأول: ما علمنا صحته، وشهد له بالصدق ما بأيدينا من الوحي؛ فذاك صحيح.

الثاني: ما علمنا كذبه، ودلّ على كذبه مخالفته لما لدينا من الوحي.

الثالث: ما هو مسكوت عنه، لا من هذا القبيل، ولا من هذا القبيل، فلا نؤمنُ به ولا نكذبه، وتجوزُ حكايته لما أخرج البخاري في «صحيحه» أنّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «بلغوا عني ولو اية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»[3].

* * *

---

(1) العقيدة الإسلامية، د. أحمد جلي ص (211).

(2) البخاري رقم (4485)، وأحمد رقم (17225).

(3) البخاري رقم (3461).

الفصل الثاني : وجوب الإيمان بالكتب السماوية

يجيء ذكر الإيمان بالكتب السماوية في القرآن في صيغة الأمر تارة، وصفة للمؤمنين تارة أخرى، كما يجيءُ عدم الإيمان بالكتب المنزلة أو الإيمان ببعضها دون البعض الآخر علامة على الكفر تارة ثالثة.

1. فمن أمثلة الأمر قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 136].

2 . كما جاء في صيغة مشابهة له في سورة [آل عمران: 48] قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ﴾

3 . وقد يأتي الأمر في صيغة مجملةٍ في مثل قوله في سورة [النساء: 136]، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾

4 . أما وصف المؤمنين بأنهم هم الذين يؤمنون بالكتب المنزلة كلها فيجيء في مثل هذه الصيغة، قال تعالى: ﴿الم ۝ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدَىً لِلْمُتَّقِينَ ۝ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۝ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخرةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: 1 . 4].

5 . أمّا وصف الذين لا يؤمنون بالكتب كلّها، أو الذين يؤمنون ببعضها، ويكفرون ببعض بأنهم كفّار، فيجيء في مثل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخر فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا﴾ [البقرة: 136].

6. وقال تعالى: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[البقرة: 90 . 91].

ومفهوم هذه الآيات وأمثالها، سواء كانت أمراً مباشراً، أو وصفاً للمؤمنين، أو وصفاً للكافرين، هو أنَّ الإيمانَ بالكتب السماوية كلها أمرٌ واجبٌ، لا يتمُّ إيمانُ المرء إلا به.

وذلك أمر بديهي بالنسبة للمؤمن، فما دام يؤمن بالله، وصدْقِ ما نزل من عنده من الوحي، وما دام الله يخبره في كتابه الكريم أنه قد أَنزل كتباً سابقة على الأنبياء والرسل، فالواجبُ أنّ يؤمنَ بهذه الكتب المنزلة، ويعتقد يقيناً أنها منزلة من عند الله، ولو شك في هذه الحقيقة، أو كذب بها فلن يكونَ مؤمناً على الإطلاق، وكيف يكون مؤمناً بالله حقاً، وهو يكذب خبراً اتياً إليه من الله، كذلك لو قال: إنّه يؤمن ببعض الكتب أنها منزلة من عند الله حقاً، ويشك ويكذّب أن غيرها من الكتب منزل من عند الله، فهل يكون مؤمناً بالله ولو زعم ذلك؟

إنّ من بين دعائم الإيمان: التصديق، فكيف يوجد الإيمان إذا كذَّب الإنسان حرفاً واحداً مما أخبره الله به؟ وما قيمةُ دعواه أنّه مؤمن بالله، أو مؤمن ببعض الكتب التي أنزلها الله؟ إنها دعوة مردودة على صاحبها؛ لأن الدليل العملي يكذّبها. ثم إن الكتب السماوية كلّها تحتوي على حقيقة واحدة، وهي الأمر بعبادة الله وحده.

ولقد اختلفت الكتب المنزلة في اللغات التي نزلت بها، لأن الله يقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ




الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[إبراهيم: 4].

وهذه الكتبُ نزلَت على أقوام مختلفين، فاختلفت من ثَمّ لغاتهم، كذلك اختلفت هذه الكتب فيما تحتويه من شرائع مختلفة للأقوام المختلفة، قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [المائدة: 48].

ولكنّ القضيةَ الأصلية في هذه ضشالكتب كلّها واحدةٌ لم تتغير، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾[الأنبياء: 25].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[النحل: 36].

وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[الشورى: 13].

كذلك نزلت الكتبُ كلُّها لتنذرَ الناس بيوم الحساب، قال تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاَقِ ۝ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لاَ يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ۝ يوم هُمْ بَارِزُونَ لاَ يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ۝ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لاَ ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [غافر: 15-17].

وما دام الأمرُ كذلك، فالإيمانُ بالكتب كلّها هو كالإيمان بالكتاب الواحد سواء، والقضية عند المؤمن واضحة، ولا تحتاج إلى جدال، إنّما الجدال قد جاء في الحقيقة من أهل الكتاب؛ لأنّهم رفضوا أن يؤمنوا بأن القرآن منزل من عند الله، وحساب هؤلاء على الله[1]، كما أنّ أسلافهم قد حرَّفوا الكتب السماوية «التوراة والإنجيل».

---

[1] ركائز الإيمان، ص (194).

الفصل الثالث : الكتب التي ورد ذكرها في القرآن الكريم

من الكتب التي أنزلت على الرسل السابقين ما سمّاه الله تعالى لنا في القرآن الكريم، ومنها ما لم يسمِّه لنا، فمن الكتبِ التي ورد ذكرها في القرآن الكريم:

1 . الصحف:

وكل الذي جاء في القرآن عنها قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الأُولَى﴾ [طه: 133] وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ۝ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ۝ أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ۝ وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى ۝ وأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ۝ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى ۝ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴾[النجم: 36 . 42] وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ۝ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ۝ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝ وَالآخرةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ۝ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى ۝ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ [الأعلى: 14 . 19].

2 . التوراة:

ذكر القرآن الكريم التوراة (18) مرة، وهو الكتاب الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على موسى عليه السلام، وخلاصة حديثِ القرآن عن التوراة تستطيعُ إجماله في الاتي:

أ . وصف القرآن التوراة بأنها هدًى ونور وفرقان، وضياءٌ وذكرٌ، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ﴾ [المائدة: 44] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأنبياء: 48].

ب . إن التوراة كتاب شامل لكل شيء، قال تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا

عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً﴾ [الأنعام: 154].

وتحدّث القرآن الكريم عن ألواح موسى عليه السلام، وقد وردت في ثلاثة مواضع، فقال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ﴾ [الأعراف: 145] وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف: 150] وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدىً وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ [الأعراف: 154].

ج ـ إن الرسالات التي جاءت بعدها مصدقة لها، فلقد قال الله تعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ [المائدة: 46] وقال عن محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ۝ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ ۝ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾[البقرة: 87 ـ 89].

د ـ إنّ القرآن تحدث عن بعض الذي جاء في التوراة، ولنأخذ هذين المثالين:

الأول: قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنْفَ بِالأَنْفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [المائدة: 45].

الثاني: قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: 157][1].

هـ ذكر القرآن الذين كلفوا بحمل أمانة«التوراة» منهم من حملها بأمانة، ومنهم من لم يحملها، فقال تعالى عن الصالحين منهم: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف: 159].

وقال عن المفسدين منهم: (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: 5] لكنّ هؤلاء أصبحوا هم الكثرة الغالبة، فأخذ القرآن لا يتحدّثُ عن حملة التوراة «بني إسرائيل» إلا ويعمهم بالخيانة ونقض الميثاق، قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ [المائدة: 13]

وقال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: 4].

و . أكد القرآن أن التوراة الموجودة الان بين أيدينا ليست هي التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام وإنما هي محرفة من قبل بني إسرائيل الذين خانوا العهد ونقضوا الميثاق[2] قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ۝ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البقرة: 78-79] وقال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ

---

[1] المحكم في العقيدة د. محمد عياش ص(183).
[2] المحكم في العقيدة ص(184).





اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: 75] وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: 13][1].

3 . الإنجيل:

وذكر القرآن الكريمُ الإنجيل «12» مرة، ويكاد يكون حديث القرآن عن الإنجيل قريباً عن حديثه عن التوراة، إلا في بعض النقاط، والإنجيل هو الكتاب الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على عبده ورسوله عيسى عليه السلام.

أ . وصف القرآن الإنجيل بأنه هدى ونور وموعظة:

قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: 46].

ب . ومما ورد في القرآن الكريم:

أنّ الإنجيل جاء مكملاً أو معدلاً لما جاء في التوراة من أحكام، ولم يصف القرآن الإنجيلَ بما وصف به التوراة من أنه كتاب شامل يفصل كل شيء، بل على العكس، جاء وكأنه يصفه بمهمة محدودة هي نسخُ بعضِ ما ورد في التوراة من أحكام، لحكمةٍ يعلمُها الله، يقول القرآن على لسان عيسى ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾[آل عمران: 50].

ولهذا ربط القرآن بينهما في مهمة عيسى عليه السلام فقال: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ۝ وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ

---

[1] المصدر نفسه ص(184).

أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: 48، 49].

ج ـ هناك فرق واضح في اهتمام القرآن، فالظاهر اهتمامه برسالة موسى أكثر من الإنجيل، ويظهر هذا في عدد المرات التي ذكرت فيها التوراة «81» مرة بينما ذكر الإنجيل «12» مرة، وذكر موسى «136» مرة بينما لم يذكر عيسى إلا «25» مرة، هناك إشارة ربما تكون أظهرَ في الدلالة على اهتمام القرآن بالتوراة أكثر من اهتمامه بالإنجيل، وهي قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَاقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: 29، 30][1].

د ـ جاءت في الإنجيل كما في التوراة البشارة بالرسول صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: 157] وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصف: 6][2].

---

[1] المحكم في العقيدة ص (185).

[2] العقيدة الإسلامية د. أحمد محمد جلي ص (197).

هـ **إنّ القرآن جاء مصدقاً أيضاً لرسالة عيسى عليه السلام** كما هو مصدِّقُ لجميع الرسالات السابقة قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عمران: 81] وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ﴾ ﴿يَدَيْهِ وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[البقرة: 97].

و . **وتحدث القرآن عن حملة الإنجيل** كما تحدّث عن حملة التوراة، فقسّمهم إلى قسمين: فئةٌ وقفت مع الإنجيل الحقّ، وأخرى كاذبةٌ كافرةٌ خائنةٌ، فقال عن الأولى: ﴿فَلَمَّا أَحسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عمران: 52 . 53] وأما الثانية فهم: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ﴾ ﴿وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾[المائدة: 14].

ز . **ويخلص القرآن إلى أنّ الإنجيل الذي بين أيدينا الانَ ليس هو كلام الله**، بل هو من تحريف المحرّفين، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران: 78 . 79].

والحقيقة أنّ القرآن لا يفصّل في مقدار التحريف الذي ورد على التوراة والإنجيل، وكأنّ هدفه فقط أن يقول لنا إنّ هذين الكتابين ليسا مصدرَ ثقة، لأن الأهواء

دخلتهما، أمّا التفصيل فلا نحتاجه نحن، وأيضاً فإنَّ مقدار التحريف مختلِفٌ زماناً ومكاناً ومذاهبَ[1]، فلم يهتم القرآن إلا بالذي فيه الفائدة للناس.

4 . الزبور:

هو الكتاب الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على داود عليه السلام، والزبورُ في اللغة هو الكتابُ المزبور أي المكتوبُ، وجمعه زُبُرٌ، وكل كتاب يسمّى زبوراً، قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴾ [القمر: 52] أي مسجّلٌ في كتب الملائكة، ثم غلب إطلاقُ لفظ الزبور على ما أنزل على داود عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴾ 163].

وأخبر سبحانه وتعالى أنّ مما كتبه في الزبور وراثةُ الصالحين الأرضَ، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء: 105] وقال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴾ [النساء: 163].

هذه هي الكتب السابقة التي سمّاها الله لنا في كتابه، إلا أنّه توجد كتب أخرى أُنزلت ولم تسمّ لنا، بل ذكرت مجملةً، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[الحديد: 25].

وعلينا أن نؤمنَ بهذه الكتب التي لم تسمَّ إجمالاً، كما أنّه لا يجوزُ لنا أن ننسب كتاباً إلى الله تعالى سوى ما نسبه إلى نفسه، وأخبرنا القرآن الكريمُ أنه من الكتب التي أنزلها تعالى على رسولٍ من رسله[2].

* * *

---

(1) المحكم في العقيدة ص (187).

(2) العقيدة الإسلامية، أحمد جلي ص (198).

الفصل الرابع : تحريف الكتب السماوية السابقة

أخبرنا الله في كتابه المنزل أنّ أهل الكتاب حرّفوا كتبهم، فلم تعد في صورتها التي أنزلها.

فقد جاء عن اليهود قوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [النساء: 46] وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾[المائدة: 13] وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾[المائدة: 41].

وجاء عن النصارى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[آل عمران: 78].

وإذ تدبرنا هذا الأمرَ وجدنا أنّ هناك ثلاثةَ أنواعٍ من التحريف على الأقل قد وقعت في كتبِ أهلِ الكتاب، وكلُّها وردتِ الإشارةُ إليه في القرآن[1].

1 ـ تحريف المعنى مع بقاء اللفظ على ما هو عليه:

إن الله قد حرّم الربا في جميع كتبه المنزلة: التوراة والإنجيل والقرآن. والتوراةُ التي بين أيدي اليهود اليوم ـ رغم كل ما حدث فيها من تحريفات شنيعة ـ ما تزال تحمل نصّاً بتحريم الربا، ونصاً بوجوب الأمانة في التعامل مع الناس، ومع ذلك فاليهود ـ كما هو معلوم ـ يتعاملون بالربا على نطاق دولي، ويسلبون عن طريقه أموالَ الناس

---

[1] ركائز الإيمان ص (195).

بغير حق، وعن ذلك يقول الله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ۝ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: 160 . 161].

فكيف تحايلوا على النصّ الموجود في كتابهم، أو بعبارةٍ أخرى حرّفوه ليبيحوا لأنفسهم التعامل بالربا مع الناس، وسلب أموالهم؟

لقد قالوا: إنّ الربا غيرُ جائز في التعامل مع اليهود، وكذلك الأمانةُ واجبةٌ في تعامل اليهود بعضهم مع بعض، أمّا إنْ كان الذي نتعامل معه من غير اليهود فلا بأسَ عليك أن تتعامل معه بالربا، ولا بأس عليك أن تأكلَ ماله، وذلك ما وردت عنه الإشارةُ في سورة ال عمران، قال تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 75].

أي: إنّهم قالوا: لا حرجَ علينا في سلب أموال «الأميين» الذين ليسوا يهوداً، ويزعمون أنّ الله أباحَ لهم ذلك، وهم يعلمون أنّ هذا كذبٌ على الله، فإنّه حرّم عليهم الربا إطلاقاً، وحرّم عليهم سلبَ أموالِ الناس جميعاً، أُميين وغير أُميين[1].

2 . التحريف بالتغيير والإضافة:

- فأمّا اليهود فقد أضافوا إلى التوراة مجموعةً من القصص والأساطير ما أنزل الله بها من سلطان، بعضُها يصل إلى حَدِّ الفُحش في حقِّ أنبيائهم، وما من أنبيائهم إلا ألصقوا به سلوكاً لا يليقُ بالرجل العادي، فضلاً عن النبي المعصوم، بل إنهم تجرؤوا

(1) ركائز الإيمان ص (197).

على مقام الألوهية، وقالوا في حق الله سبحانه وتعالى كلاماً لا يخرجُ من فم مؤمن قط، ولا يخطر له على بال، وقد ظلوا يردّدون هذه الأقوال وغيرها حتى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم، وسجل عليهم القرآن أقوالهم، ومعتقداتهم الفاسدة، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [آل عمران: 181 . 182].

- وأما الإنجيل فيحوي من التغيير والإضافة ما لا يقلُّ سخفاً وبشاعة، ولكن في اتجاه اخر، ذلك هو تأليه عيسى عليه السلام، والزعم بأنّه ابن الله، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ۝ وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلاَئِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: 78 . 80].

وأسطورةُ ألوهية عيسى وبنوته لله وكون الله ثلاثة: الأب، والابن، وروح القدس، كلُّها إضافات أضيفت إلى الإنجيل المنزل من عند الله، كتبوها بأيديهم، وزعموا أنها من عند الله، وقد ردّ القرآن عليهم ردّاً مفصلاً في أكثر من سورة، وبيّن حقيقة التوحيد، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ۝ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝ لَهُمْ إِلاَّ

مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾[المائدة: 116 . 117].

ولكنّ المهم أنّ أناجيلهم الأربعة المعتمدة «إنجيل مرقص» و«إنجيل لوقا» و«إنجيل متى» و«إنجيل يوحنا»[1]، متضاربةٌ بعضها مع بعض في هذا الشأن، مما ينفي أن تكون كلّها من مصدر واحد، فضلاً عن أن يكون مصدرُها هو الله، وفضلاً عن ذلك كله فإنّ هناك إنجيلاً خامساً هو «إنجيل برنابا» منعتِ الكنيسةُ تداوله، وأحرقت ما وقع في يدها من نسخه، وهددت مَنْ يوجدُ عنده بإصدار قرار حرمانٍ ضده، أي: الحرمان . في زعمهم . من رضوان الله ومغفرته . لأنه يقرر أنّ عيسى رسولٌ بشرٌ، وليس ربّاً ولا إلهاً، وأنّه بَشَّرَ ببعثةِ محمد صلى الله عليه وسلم من بعده[2].

3 . التحريف بالكتمان:

فهو على نوعين: كتمانُ أحكام الشريعة، وكتمانُ الإشارة إلى بعثة محمد صلى الله عليه وسلم.

أما كتمان أحكام الشريعة فالقرآن يسجّل عليهم أنّهم أمروا بعدم الكتمان فعصوا الله، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [آل عمران: 187]

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[البقرة: 146].

ويسجّل عليهم أنّ الله أخذ عليهم ميثاقاً بأنْ يؤمنوا بكلِّ رسولٍ يأتي من عند الله

---

(1) ركائز الإيمان ص (198).

(2) المصدر نفسه ص (198).

مصدقاً لما معهم، كما يسجّل عليهم أنَّ خبر بعثة محمد صلى الله عليه وسلم موجود عندهم في التوراة والإنجيل، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ۝ فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: 81 ـ 82].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[الصف: 6]. وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[الأعراف: 157].

وعلى الرغم من هذه الوصايا كلّها لأهل الكتاب فقد عَصَوْا أمر ربِّهم، وكتموا الحق الذي أُمروا بإعلانه على الناس.

وأمّا إنكارهم لبعثة الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد اجتهدوا في محْوِ كلِّ ذكر صريح له عليه الصلاة والسلام في كتبهم، وأخفوه عن الناس، ومع كل اجتهادهم هذا فقد بقيتْ إشاراتٌ في التوراة والإنجيل، لا يمكن تفسيرها إلا بأنها إشارةٌ لمجيء الرسول صلى الله عليه وسلم[1].

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ

---

[1] ركائز الإيمان ص (200).

وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[البقرة: 146]. وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾[البقرة: 109]. وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ۝ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ۝ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾[البقرة: 89 ، 90].

* * *

الفصل الخامس : القرآن الكريم نسخ الكتب السابقة كلها

شاء الله سبحانه وتعالى أن ينسخَ الكتب السابقة كلّها وينزّل كتابه الأخير ليبقى في الأرض إلى قيام الساعة، كان كل رسول من السابقين يرسَلُ إلى قومه خاصة، بينما بُعِثَ الرسول محمد صلى الله عليه وسلم إلى البشرية كافة، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: 158]. وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: 28].

وكذلك كانت الكتب السابقة تنزل لأقوام معينين، بينما أنزل القرآن للناس كافة، قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ [القلم: 52].

لذلك اقتضت مشيئة الله أن ينسخ هذا الكتاب الشامل الكامل ما سبقه من الكتب جميعاً، ويهيمن عليها، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ۝ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: 48 ، 50].

ولم يعد يقبل من أحد أن يستمسك بما سبق من الكتب ويرفض القرآن، قال تعالى: ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [المائدة: 68].

وإقامة التوراة والإنجيل بالنسبة لأهل الكتاب المخاطبين بهذه الاية معناها: الإقرار بوحدانية الله، ذلك أنّ التوراة والإنجيل المنزَّلين من عند الله يقرران هذه الوحدانية تقريراً جازماً، ولكنَّ أهل الكتاب حرفوهما، فالمطلوب منهم هو إقامتها مرة أخرى، أي: الرجوع إلى أصل التوحيد، ثم إنّ التوراة والإنجيل قد ذكرا محمداً صلى الله عليه وسلم وأمرا باتباعه عند ظهوره، فإقامتهما معناها والإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم، وما نزل عليه من وحي، أي: الإسلام، قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ﴾ [آل عمران: 19].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخرةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران: 85].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسُ محمّدٍ بيده، لا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمة يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ، ثم يموتُ ولا يؤمنُ بالذي أرسلت به إلا كان من أصحابِ النارِ»[1].

* * *

---

[1] صحيح مسلم بشرح النووي (160/2).

خلاصة الباب

وفي خلاصة هذا الباب يتّضحُ لنا:

1 . أنّ الله عز وجل أنزل كتباً ورد ذكرها في القرآن الكريم، هي بترتيبها التاريخي كما يأتي: صحف إبراهيم . التوراة . الزبور . الإنجيل . القرآن.

2 . وأنّ هذه الكتب جميعاً تحتوي على حقيقة أساسية هي وحدانية الله عز وجل، ووجوبُ إخلاصِ العبادة له من غير شريك، وطاعتُه فيما يأمر به وينهى عنه.

3 . أنّ الكتب السابقة على القرآن لم يعد لها وجودٌ في صورتها المنزلة؛ لأنها إما ضاعت، ولم يعد لها أثر معروف، كصحف إبراهيم، وإمّا حرفت على أيدي أصحابها كالتوراة والإنجيل.

4 . أنّ التحريف الغالبَ إمّا بالتغيير والإضافة، وإما بالكتمان، ومن أبرز الإضافات أساطيرُ التوراة، وقصةُ تأليه عيسى عليه السلام، وقصةُ التثليث، ومن أبرز ما كتموه الإخبارُ عن بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم.

5 . أنّ مشيئة الله قد اقتضت نسخَ الكتب السابقة كلّها ما ضاع منها وما حرف، وأنزل القرآن مصدقاً لما بين يديه من الكتاب، ومهيمناً عليه، وناسخاً لكل ما سبق تنزيله من عند الله.

* * *

الخاتمة

وبعد؛ فهذا ما يسره الله لي من الحديث عن الإيمان بالقرآن الكريم والكتب السماوية في هذا الكتاب، وقد سميته «الإيمان بالقرآن الكريم والكتب السماوية»، فما كان فيه من خطأ، فأستغفرُ الله تعالى، وأتوبُ إليه، واللهُ ورسولُه بريئان منه، وحسبي أني كنتُ حريصاً ألا أقع في الخطأ، وعسى ألا أحرمَ من الأجر.

وأدعو الله أن ينفعَ بهذا الكتاب الإنسان أينما وجد، ويكون سبباً في زيادة إيمانه، وهدايته، أو تعليمه، أو تذكيره، وأن يذكرني من يقرؤه من إخواني المسلمين في دعائه، فإنّ دعوة الأخ لأخيه بظهر الغيب مستجابةٌ إن شاء الله تعالى. وأختم هذا الكتاب بقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: 69].

وبقول الشاعر:

يا مُنْــــزِلَ الآيات والفُرقــــانِ ... بيــني وبينــكَ حُرْمَــةُ القــرآن

اشـرحْ بـه صـدري لمعرفـةِ الهُـدَى ... واعصـمْ بـه قَلْـبِي مِـنَ الشَّـيطانِ

يَسِّـرْ بــه أَمْـرِي واقْـضِ مـاربي ... وأَجِـرْ بـه جَسَـدِي مـن النِّـيَرانِ

واحْطُـطْ بـه وزري وأَخْلِـص نيَّـتي ... واشْـدُدْ بـه أَزْرِي وأَصْـلِحْ شَـاني

واكْشِـفْ بـه ضُـرّي وحَقِّـق تـوبتي ... وأَرْبِـحْ بـه بَيْعِـي بـلا خُسْـرانِ

طَهِّـرْ بـه قلـبي، وصـفِّ سـريرتي ... أَجْمِـلْ بـه ذكـري وَأَعْـلِ مَكَـاني

واقْطَـعْ بـه طَمَعِـي وشَـرِّف همَّـتي ... كَثِّـرْ بـه وَرَعِـي وَأَحْـي جَنَـاني

أَسْـهِرْ بـه لَيْلِـي وَأَظْـمِ جَـوَارِحِي ... أَسْـبِلْ بِفَـيْضِ دموعهـا أجْفَـاني

وامْزُجْـهُ يا رَبِّ بِلَحْمِـي مَـعْ دَمِـي … واغْسِـلْ بـه قَلْـبِي مِـنَ الأَضْـغَانِ
أَنْـتَ الـذي صَـوَّرْتَنِي وخَلَقْتَـنِي … وَهَـــدَيْتَنِي لِشَـــرَائِعِ الإِيْمَـــانِ
أَنْـتَ الَّـذي عَلَّمْتَـنِي ورَحِمْتَـنِي … وَجَعَلْـتَ صَـدْرِي وَاعِـيَ القـرآن
أَنْـتَ الَّـذي أَطْعَمْتَـنِي وَسَـقَيْتَنِي … مِـنْ غَـيْرِ كَسْـبِ يَـدٍ ولا دُكَّـانِ
وَجَبَرْتَـنِي وَسَـتَرْتَنِي وَنَصَـرْتَنِي … وَغَمَـرْتَنِي بِالفَضْـلِ والإِحْسَـانِ
أَنْـتَ الَّـذِي اوَيْتَـنِي وَحَبَـوتَنِي … وَهَـدَيْتَنِي مِـنْ حَـيْرَةِ الخُـذْلانِ
وَزَرَعْـتَ لي بَـيْنَ القُلُـوْبِ مَـوَدّةً … والعطـف منـك برحمـةٍ وحَنَـانِ
وَنَشَـرْتَ لي في العـالمينَ مَحَاسِـناً … وَسَـتَرْتَ عَـنْ أَبْصَـارِهِمْ عِصْـيَانِي
وَجَعَلْـتَ ذِكْـرِي في البَرِيَّـةِ شـائِعاً … حَـتَّى جَعَلْـتَ جَمِـيْعَهُم إِخْـوَانِي
واللهِ لـو عَلِمُـوا قَبِـيْحَ سَـرِيْرَتِي … لأَبَى السَّـلامَ عَلـيَّ مَـنْ يَلْقَـانِي
وَلأَعْرَضُـوْا عَـنِّي وَمَلُّـوا صُـحْبَتِي … ولَبُـؤْتُ بَعْـدَ كرامـةٍ بِهَـوَانِ
لكِـنْ سَـتَرْتَ مَعَـايِبِي ومَثَـالِبِي … وَحَلِمْتَ عن سَقْطِي وعن طُغْيانِي
فلَـكَ المحَامِـدُ والمدَائِحُ كلُّهـا … بِخَـوَاطِري وَجَـوَارِحِي وَلِسَـانِي

سبحانك اللهمّ وبحمدك، أشهدُ أن لا إله إلاّ أنتَ، أستغفرك، وأتوب إليك.

* * *

فهرس الموضوعات

كتب صدرت للمؤلف

1 . السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث

2 . سيرة الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه شخصيته وعصره

3 . سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه شخصيته وعصره

4 . سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه شخصيته وعصره

5 . سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه شخصيته وعصره

6 . سيرة أمير المؤمنين الحسن بن علي بن أبي طالب شخصيته وعصره

7 . الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط

8 . فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم

9 . تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا

10 . تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي

11 . عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين

12 . الوسطية في القرآن الكريم

13 . الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار

14 . معاوية بن أبي سفيان شخصيته وعصره

15 . عمر بن عبد العزيز شخصيته وعصره

16 . خلافة عبد الله بن الزبير

17 . عصر الدولة الزنكية

18 . عماد الدين زنكي





19 . نور الدين محمود

20 . دولة السلاجقة

21 . الإمام الغزالي وجهوده في الإصلاح والتجديد

22 . الشيخ عبد القادر الجيلاني

23 . الشيخ عمر المختار

24 . عبد الملك بن مروان بنوه

25 . فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة

26 . حقيقة الخلاف بين الصحابة

27 . وسطية القرآن في العقائد

28 . فتنة مقتل عثمان

29 . السلطان عبد الحميد الثاني

30 . دولة المرابطين

31 . دولة الموحدين

32 . عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج

33 . الدولة الفاطمية

34 . حركة الفتح الإسلامي في الشمال الإفريقي

35 . صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس

36 . استراتيجية شاملة لمناصرة الرسول (ﷺ) دروس مستفادة من الحروب الصليبية

37 . الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء

38 . الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة) والأيوبيون بعد صلاح الدين

39 . المشروع المغولي عوامل الانتشار وتداعيات الانكسار

40 . سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك

41 . الإيمان بالله جل جلاله (1)

42 . الإيمان باليوم الاخر (5)

43 . الشورى في الإسلام

44 . السلطان محمد الفاتح

45 . الإيمان بالقدر (6)

46 . الإيمان بالملائكة (2)

47 . الإيمان بالقرآن الكريم والكتب السماوية (3)



د. علي محمد محمد الصلابي

مفكر ومؤرخ وفقيه

- ولد في مدينة بنغازي بليبيا عام 1383 هـ/ 1963م

- نال درجة الإجازة العالمية (الليسانس) من كلية الدعوة وأصول الدين من جامعة المدينة المنورة عام 1993م، وبالترتيب الأول.

- حصل على درجة الماجستير من كلية أصول الدين في جامعة أم درمان الإسلامية عام 1996م.

- نال درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية بأطروحته فقه التمكين في القرآن الكريم من جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان عام 1999م.

- اشتهر بمؤلفاته واهتماماته في علوم القرآن الكريم والفقه والتاريخ والفكر الإسلامي.

- زادت مؤلفات الدكتور الصلابي عن ستين مؤلفًا أبرزها:

السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث

سير الخلفاء الراشدين

الدولة الحديثة المسلمة

وسطية القرآن الكريم في العقائد.

صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي.

تاريخ كفاح الشعب الجزائري

العدالة والمصالحة الوطنية

وآخر مؤلفاته "الإباضية. مدرسة إسلامية بعيدة عن الخوارج".

سلسلة أركان الإيمان ٥

الإيمان باليوم الآخر

فِقْهُ القُدُوْم عَلَى اللهِ

د. عليّ محمّد محمّد الصَّلاَّبي



الإيمان باليوم الآخر

فقه القدوم على الله

الطبعة الأولى

1435 هـ 2014 م

سلسلة أركان الإيمان (2)

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ *﴾ **[المؤمنون: 115]**

الإيمان باليوم الآخر

فقه القدوم على الله

تأليف

الدكتور علي محمّد الصَّلابي

دار ابن كثير

للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق ـ بيروت

الإهداء

إلى كلّ إنسان يبحث عن حقيقة مصير البشرية في هذا الوجود أهدي هذا الكتاب .

قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا *﴾ **[الكهف: 110]** .

المقدمة

إنّ الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستهديه ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، ومن يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هاديَ له، وأشهدُ أنْ لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمّداً عبدُه ورسولُه :

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ *﴾ [آل عمران: 102].

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا *﴾ [النساء: 1].

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا *يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا *﴾ [الأحزاب: 70-71].

يا ربِّ لك الحمدُ حتّى ترضى، ولكَ الحمدُ إذا رضيتَ،

ولك الحمدُ بعد الرضى .

أما بعدُ: فهذا الكتابُ يتحدّث عن اليوم الآخر، الذي أخبرنا به الخالق العظيم، الرحمن الرحيم، القوي العزيز، في كتابه المجيد .

ومن خلال مسيرتي في عالم التاريخ رأيتُ كيف قامت الدول وزالت، وتوسّعتِ الحضارات ثم تبخرت، كأن لم تغنَ بالأمس، وكم من ملوك وأمراء، وقادة وحكام، وعلماء وفقهاء، وفلاسفة وعوام من الناس، لا يحصيهم إلاّ الذي خلقهم، قد ماتوا، وأصبحوا في الأمس الغابر، ودخلوا في عالم البرزخ العظيم .

هذا الكتاب يتحدّثُ عن مصير البشرية من دون استثناء، ويجيبُ عن أسئلة حيَّرت الكثيرَ من العقول لبعدِها عن كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ) .

إنّ هذا العالَم الذي نعيشُ فيه قد اضطربتْ فيه التصوراتُ، وانحرفت فيه العقائدُ عن الله والكون، والإنسان والحياة، والقضاء والقدر، والجنة والنار، والمسلمون يملكون عقيدةً سليمة لا يملكها غيرُهم، وحباهم الله بكتابه العزيز، الذي حفظه من الضياع والتحريف، وسنة نبينا (ﷺ)، وهي شارحةٌ ومبينة لكتاب ربنا عز وجل، فبإمكاننا أن نقدِّمَ للعالَم شيئاً يحتاجه ولا يملكه، ومفتقرٌ إليه ولا يستغني عنه .

إنّ بني البشر يسألون عن مصيرهم، وإلى أينَ هم ذاهبون ؟ ويخشون من الموتِ وأهواله، ويبحثون عن إجاباتٍ شافيةٍ: ماذا بعد الموت ؟

وصدق الله العظيم القائل في محكم كتابه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ *فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ *﴾ [المؤمنون: 115. 116] .

في هذا الكتاب إجاباتٌ شافية ووافية لتساؤلات الكثير من بني الإنسان قد جمعتُها من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، واسترشدتُ بأقوالِ علماء راسخين، وفقهاء ربانيين، حفظ الله جهودهم العلمية في أمهات الكتب القديمة والحديثة والمراجع والمصادر الموثوقة .

فهذا الكتابُ يتألف من أربعة فصول هي :

الفصل الأول: يتحدّث عن حقيقة الروح، والموت، وحياة البرزخ، ويتضمن هذا الفصل ثلاثة مباحث :

المبحث الأول: يتحدّث عن الروح، ويبيّنُ حقيقتها في القرآن الكريم، ويجيبُ على أسئلة متعلقة بها، هل الروحُ قديمة أم مخلوقة ؟ وهل النفس هي الروح وما هي مراتب النفوس ؟ وهل تموت الأرواح ؟ وهل للروح كيفية تُعْلَمُ ؟

وكيف تقبض الروح في النوم ؟ ومتى يُغْلَقُ باب التوبة ؟ وكيفية نَزْعُ الروحِ وخروجُ روح المؤمن ؟

ويشرح الآيات المتعلّقة بهذا الأمور كقوله تعالى :

﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخرة لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *﴾ [يونس: 62 . 64].

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلاَمٌ﴾ [النحل: 31 . 32] .

وقوله تعالى: ﴿يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ *ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَةً *﴾ [الفجر: 27 . 28] .

وكذلك الحديثُ عن خروج روح الكافر واحتضاره، وشرح الآيات المتعلقة بذلك كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلاَئِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ *﴾ [الأنعام: 93] .

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلاَئِكَةَ لاَ بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا *﴾ [الفرقان: 22] .

وقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ *لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ*﴾ [المؤمنون: 99 . 100] .

وفي المبحث الثاني: كان الحديثُ عن الموت وحقيقته، وأهمية تذكره في حياة الإنسان، للابتعاد عن المعاصي، وتليين القلب القاسي، وتهوين المصائب، فمن أكثرَ مِنْ ذكر الموت قلَّ فرحه، وقلَّ حسده، واستعد للرحيل .

قال الشاعر :

مشـيناها خطـاً كُتِبَـتْ علينـا ومَـن كُتِبَتْ عليه خطاً مشاها
وأرزاقٌ لنـــا متفرِّقـــاتٍ فَمَـــنْ لَمْ تأتِـــهِ مِنّـــا أتاهـــا
وَمَـــنْ كُتِبَـــتْ منيتُـــه بأرضٍ فلـيسَ يمـوتُ في أرضٍ سِـوَاها

وقال اخر :

هـبِ الـدُّنيا تُسَـاقُ إليـكَ عفـواً ألـيسَ مصـيرُ ذاكَ إلى انتقـالِ
ومـــا دنيـــاكَ إلاّ مثـــلُ فيءٍ أظلَّـــكَ ثُمَّ اذنَ بالـــزَّوَلِ

ويجدُ القارأى الكريم بيانَ الحكمة من الموت، وأنّ ساعة الموت أخطرُ لحظةٍ في عمر الإنسان، فتزدادُ حسرةُ الميّت ومصيبتُه وفجيعتُه حين يكونُ منِكراً للحياة الآخرة، أو مغروراً بمسلكه المضاد لدين الله، أو القائم على البدع والخرافات التي أبعدته عن الإيمان الصحيح والطريق السويّ الموافق للكتاب والسنة .

وأشرتُ إلى أسباب حُسنِ الخاتمة، كإقامة التوحيد لله عز وجل، والاستقامة، والتقوى، والصدق، والتوبة، والدعاء، وقصر الأمل، والتفكر في حقارة الدنيا،

والإكثار من ذكر الموت، وغلبة الرجاء، وحسن الظن بالله . والبعد عن أسباب سوء الخاتمة .

كما بينت أسباب سوء الخاتمة كالشكِّ، والجحود، والتعبد بالبدع، وتسويف التوبة، وعدم الاستقامة، وتعلق القلب بغير الله، وسوء الظن بالله، والإصرار على الذنوب والمعاصي، ونسيان الآخرة، وعدم ذكر الموت، والظلم .

كما شرحتُ الآيات التي تحدثت عن قبض أرواح العباد كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ *ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ *﴾ [الأنعام: 61 . 62] .

وفي المبحث الثالث: كان الحديثُ عن حياة البرزخ، والآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة الدالة على عذاب القبر، وما ينتفع به الميت من عمل الأحياء، وما يتبعُ الميتَ إلى قبره، وأنَّ القبر أول منازل الآخرة، والحكمة من عذاب القبر ونعيمه، وهل عذابُ القبر دائمٌ أم منقطع ؟ وعن أسبابِ عذاب القبر والنجاةِ منه ؟ وأينَ مستقَرُّ الأرواح في البرزخ، كأرواح الأنبياء، وأرواح الشهداء، وأرواح المؤمنين الصالحين وأرواح العصاة وأرواح الكفار .

وفي الفصل الثاني، كان الحديث عن علامات الساعة الصغرى والكبرى، والنفخ في الصور . ويشتمل هذا الفصل ثلاثة مباحث :

المبحث الأول: لخّصت فيه مجملَ أشراط الساعة الصغرى .

وفي المبحث الثاني: كان الحديث عن أشراط الساعة الكبرى في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، كنزول عيسى، ويأجوج ومأجوج، وطلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة، والمهدي، المسيح الدجال، والخسوفات الثلاثة، والنار التي تَحْشرُ الناسَ .

وفي المبحث الثالث: النفخُ في الصور، وما هو الصُّوْر ؟ وما هي عدد النفخات ؟

وفي الفصل الثالث: كان الحديث عن البعث، والحشر، وأهوال القيامة، وأحوال الناس، ويتضمن هذا الفصل أربعة مباحث :

المبحث الأول: في الحديث عن البعث والأدلة على ذلك وأسماء يوم القيامة .

والمبحث الثاني: خُصِّصَ للحشر وأهوال يوم القيامة، وشَرْحِ الآيات التي تحدّثت عن الحشر كقوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ *﴾ [الأنعام: 51] وكقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا *﴾ [الكهف: 47] وكقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ

إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام: 38] .

وتكلّمتُ عن مكان الحشر، وصفة الناس في الحشر، وأحوالهم، وخوفهم الشديد، وبيّنتُ أهوال يوم القيامة التي ذُكِرَتْ في القرآن الكريم، كدكّ الأرض، ونسف الجبال، وقبض الأرض، وطي السماء، وتفجير البحار وتسجيرها، ومَوَرَان السماء وانفطارها، وتكوير الشمس، وخسف القمر، وتناثر النجوم، وسجود الخلائق لله سبحانه عند إتيانه للفصل بين العالمين، ونزول الملائكةِ .

ووضحت أحوالَ الكفار يومَ القيامة كذلّتهم، وهوانهم، وحسرتهم، ويأسهم، واسوداد وجوههم، وإحباط أعمالهم، وفضيحتهم أمام الخلائق، وتخاصمهم في الموقف، وكتخاصم العابدين والمعبودين والأتباع من القادة المضلين، والضعفاء مع السادة والملوك، والمرء مع قرينه وأعضائه، ومقتهم لأنفسهم، كلُّ ذلك من خلال القرآن العظيم .

وذكرتُ صفة حشرهم، كحشرهم وهم عطاش، وهم عُمْي وصم وبكم .

كما كان لأحوال عصاة الموحدين نصيبٌ من الحديث في هذا الكتاب، كالذين لا يؤدّون الزكاة، وأصحاب الغلول، والمتكبرين، وغاصبي الأرض، والغادرين، وذوي الوجهين، والحاكم الذي يحتجب عن رعيته .

كما كان لحال الأتقياء ذكرٌ، فهم لا يخافون ولا يحزنون، ولا يفزعون إذا فزع الناس يوم الفزع الأكبر، كما أنَّ وجوههم بيض، ويظلّهم الله في ظلّه يوم لا ظلَّ إلا ظله، بسبب أعمالهم في الدنيا، والتي من أهمّها العدل في حكمهم وأهليهم وما وُلّوا، والتيسير على المعسرين، والذين يسعون في حاجة إخوانهم، ويسدّون خلتهم، والكاظمين الغيظ، وعتقهم للرقاب .

وفي المبحث الثالث: تكلّمت عن الشفاعة، وذكرت الأدلة القرآنية والنبوية في ثبوتها، وأقسامها، وشروطها وأنواعها، كاختصاصه (ﷺ) باستفتاح باب الجنة، والشفاعة في أهل الكبائر، والشفاعة في أقوام يدخلوا الجنة بغير حساب، وعن الشفعاء غير النبي (ﷺ)، كالملائكة والأنبياء عليهم السلام، والمؤمنون الصالحون، والشهداء، وأولاد المؤمنين، والقرآن الكريم .

وكان الحديث عن الأسباب الجالبة للشفاعة: كالتوحيد، وإخلاص العبادة لله، والصيام، والدعاء بما وردَ عند الأذان، وسكنى المدينة، والصبر على لاوائها، وكثرة السجود ...

وفي المبحث الرابع: كان الحديثُ عن الحساب، والميزان، والحوض، والصراط، فقد ذكر الله سبحانه وتعالى مشهدَ الحساب والجزاء فقال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ *﴾ [الزمر: 69] وشرحتُ مجموعةً من الآيات المباركات المتعلّقة بالحساب، كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ *فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا *﴾ [الانشقاق: 7 . 8] وقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا *اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا *مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً *﴾ [الإسراء: 13 . 15] وغيرها من الآيات الكريمة .

ثم كان الحديثُ كذلك عن اقتصاص المظالم بين الخلق، وعظم شأن الدماء، وأول ما يقضى فيه بين العباد .

وذكرت الأدلة الشرعية المتعلقة بالحوض والميزان ورأي العلماء في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ *﴾ [الأنبياء: 47]

ولخّصت أهم الأعمال التي تثقّل الميزان يوم القيامة، كحُسن الخلق، وتسبيح الله وتحميده .

ووقفتُ مع قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا *ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقُوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا *﴾ [مريم: 71 . 72] وعلاقةُ هذه الآية بالمرور على الصراط، ويا له من موقف يشيبُ لهوله الولدان ! ها هي الأمانةُ على الصراط تقول لكل خائن يمرُّ عليها: أينَ الأمانةُ التي ضيّعتَها؟ أينَ أمانةُ الأموال التي سرقتها ؟ أينَ أمانةُ الشهادةِ لهذا الدين ؟ أينَ الأمانات التي أبتِ السَماوات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها وحملتها أنتَ أيها الإنسان ؟ بل ها هي الرحم تتعلّق على الصراط لتقول لكلِّ من قطعها: أينَ صلةُ الرحمِ التي قطعتَها في الدنيا ؟ وماذا ستصنعُ في اليومِ أمامَ تلك الأهوال؟!

قال الشاعر:

أبـتْ نفسـي تتـوبُ فمـا احتيـالي ... إذا بـرزَ العبـادُ لـذي الجـلالِ
وقـاموا مِـنْ قبـورِهمُ سُـكارَى ... بأوزارٍ كَأَمْثـالِ الجِبَـالِ
وَقَـدْ نُصِـبَ الصـراطُ لكـي يَجُـوْزوا ... فمـنهم مَـنْ يُكَـبُّ علـى الشِّـمالِ
ومِـنْهُم مَـنْ يسـيرُ لـدارِ عَـدْنٍ ... تلقّـاهُ العـرائسُ بالغَـوَالي

يقـــــولُ لـــــه المهـــــيمنُ يا وَلِيِّ   غفـرتُ لـكَ الـذنوبَ فـلا تُبَـالِي

وفي الفصل الرابع: كان الحديثُ عن النار والجنة، ويشتمل على أربعة مباحث:

أفردتُ المبحث الأول: لمقدِّماتٍ، كخلودِ الجنّةِ والنارِ، وكونهما مخلوقتان موجودتان الان، ومكانهما، وأصحاب الأعراف .

وفي المبحث الثاني: تكلّمتُ عن النار، وأسمائها، وخزنتها، وصفتها، وما أعد الله لأهلها، ومطالبهم فيها، وصور من عذابها .

وفي المبحث الثالث: أشرتُ إلى موانع إنفاذ الوعيد، كالتوبة والاستغفار، والحسنات الماحية، ودعاء المؤمنين، وإهداءِ القرباتِ، والشفاعة لأهل الكبائر، والمصائب المكفرة والعفو الإلـهي .

وفي المبحث الرابع: كان الحديثُ عن الجنّة، والطريق إليها، وأخلاق أهلها، وعن أوّلِ واخرِ مَنْ يدخلُها؟ وما أشهرُ أسمائها وصفتها وأصحابها ؟ ومَنْ هم سادة أهل الجنة ؟ وما هو فضلُ نعيم الجنة على متاع الدنيا ؟

ثم فصّلت في نعيم أهل الجنة، كالحديث عن طعامهم وشرابهم، ولباسهم، وحليهم، وخدمهم، ونسائهم، وعن أفضل ما يُعطاه أهل الجنة من النظر إلى وجه الله الكريم ورضوانه العظيم .

وختمت الكتاب بدعاء أهل الجنة قال تعالى: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *﴾ [يونس: 10].

أيها القارىء الكريم؛ أضعُ بين يديك هذا الكتاب، راجياً من الله أن يحيا قلبُك، وتزدادَ هدايةً مع كل معرفة جديدة عن ذلك اليوم الذي أخبرنا عنه المولى عز وجل في كتابه بطريقة سهلة ميسرة، دون عناء ولا شقاء، فاعملْ لذلك اليوم، واستعد للقاء العزيز الرحيم في ذلك اليوم الذي لا ينفع فيه مالٌ ولا بنونٌ إلا من أتى الله بقلب سليم .

أيها القارىء الكريم؛ إنْ جعتَ في هذه الدار، أو افتقرتَ، أو حزنتَ، أو مرضت، أو بخست حقاً، أو ذقت ظلماً، فذكِّر نفسك بالنعيم المقيم في جنّات رب العالمين، إنك إن اعتقدتَ هذه العقيدة، وعملتَ لهذا المصير، تحوّلتْ خسائرُك إلى أرباحٍ، وبلاياك إلى عطايا .

إنَّ أعقل الناس هم الذين يعملون للاخرة، لأنها خيرٌ وأبقى، وإنَّ أحمقَهم الذين يرون أنَّ هذه الدنيا هي قرارهم ودارهم، ومنتهى أمانيهم، فتجدُهم أجزعَ الناس عند المصائب، وأندَمهم عند الحوادث، لأنّهم لا يرون إلا حياتهم

الزهيدة الحقيرة، ولا ينظرون إلا إلى هذه الفانية، ولا يتفكرون في غيرها، ولا يعملون لسواها، فلا يريدون أن يعكَّر لهم سرور، ولا يكدَّرُ عليهم فرح، ولو أنّهم خلعوا حجاب الران عن قلوبهم، وغطاءَ الجهل عن عيونهم، لحدّثوا أنفسهم بدار الخلد ونعيمها وقصورها، ولسمعوا وأنصتوا لخطاب الوحي في وصفها، إنها واللهِ الدارُ التي تستحقُّ الاهتمام والكَدَّ والجهد، وهل تأملنا طويلاً في أهل الجنة بأنهم لا يمرضون، ولا يحزنون، ولا يموتون، ولا يفنى شبابهم، ولا تبلى ثيابُهم، في غرفٍ يُرى ظاهِرُها من باطنها، وباطِنُها من ظاهِرها، فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خطرَ على قلب بشر، يسيرُ الراكِبُ تحت الّشجرةِ من أشجارها مئة عام لا يقطعُه، طولُ الخيمة فيها ستون ميلاً، أنهارُها مطردة، قصورُها منيفة، قطوفُها دانية، عيونُها جارية، سُررُها مرفوعة، أكوابُها موضوعة، نمارقها مصفوفة، زرابيّها مبثوثة، عَظُمَ حبورُها، فاحَ عَرْفُها، منتهى الأماني فيها ،فما لعقولنا لا تفكِّر ؟ ! ما لنا لا نتدبَّرُ ؟ ! إذا كان المصيرُ إلى هذه الدار، فلتخفَّ المصائبُ على المصابين، ولتقرّ عيونُ المنكوبين، ولتفرْح قلوبُ المعدّمين، وليعمل لرضى رب العالِمين العاملون المخلصون[(1)] .

أيها القارىء الكريم ؛ إنّ ممّا يثبّت السعادةَ وينميها ويعمقها أن لا تهتمَّ بتوافه الأمور، فصاحِبُ الهمةِ العاليةِ همُّه طلبُ الآخرة، فيتسامى عن بنيّاتِ الطريق،

فاجعل الهمَّ همّاً واحداً، همَّ لقاءِ الله عزّ وجل، همَّ الوقوفِ بين يديه ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ *﴾ [الحاقة: 18][(2)] .

قال الشاعر[(3)] :

يـومُ القيامـةِ لـو علمـتَ بِهَوْلِـهِ ... لَفَـرَرْتَ مِـنْ أَهْـلٍ وَمِـنْ أَوْطَـانِ

يَـوْمٌ تشـقَّقَتِ السـماءُ لِهَوْلِـهِ ... وتَشَـيبُ فيـهِ مَفَـارِقُ الولـدانِ

يـومٌ عبـوسٌ قمطريـرٌ شَـرُّه ... في الخَلْقِ مُنْتَشِرٌ عظيمُ الشَّانِ

والجَنَّـةُ العليـا ونارُ جَهـنَّمٍ ... دارانِ للخَصْـمَيْنِ دائمتـانِ

يـومٌ يجـيءُ المتقـون لـربِّهم ... وفـداً علـى نُجُـب مـن العقيـان

ويجـيءُ فيـه المجرمـونَ إلى لظًـى ... يتلَّمظـونَ تلمُّـظَ العَطْشَـانِ

ودخـولُ بعـضِ المسلمينَ جهنَّمـاً ... بكبـائرِ الاثامِ والطُّغيـانِ

والله يـرحَمُهم بصـحَّةِ عَقْـدِهِمْ ... ويُبـدَّلُوْا مِـنْ خَـوْفِهِمْ بِأَمَـانِ

وشـفيعُهمْ عنـدَ الخـروجِ محمَّـدٌ ... وطَهـورُهم في شـاطىءِ الحَيَـوانِ

حـتّى إذا طهُـرُوا هُنالِـكَ أُدخلـوا ... جنّـاتِ عَـدْنٍ وهـي خَيْرُ جِنَانِ

فـاللهُ يَجْمَعُنـا وإيّاهـم بهـا ... مِـنْ غَـيْرِ تعـذيبِ وغـيرِ هَـوَانِ

هذا وقد انتهيت من هذا الكتاب يوم الأحد في الساعة التاسعة إلا خمس دقائق ليلاً بتاريخ 11/ ذي الحجة/ 1430هـ الموافق لـ: 28/ 11/ 2009م بمدينة الدوحة، والفضل لله من قبل ومن بعدُ، أسأله سبحانه وتعالى أن يتقبل هذا العمل، ويشرح صدور العباد لانتفاع به ويبارك فيه بمنه وكرمه وجوده قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *﴾ [فاطر: 2] .

ولا يسعني في نهاية هذا الكتاب إلا أن أقف بقلب خاشع منيب أمام خالقي العظيم وإلهي الكريم، معترفاً بفضله وكرمه وجوده، متبرئاً من حولي وقوتي، ملتجئاً إليه في كل حركاتي وسكناتي وحياتي ومماتي، فالله خالقي هو المتفضل، وربي الكريم هو المعين، وإلهي العظيم هو الموفق، فلو تخلى عني ووكلني إلى عقلي ونفسي، لتبلد مني العقل، ولغابت الذاكرة، وليبست الأصابع، ولجفت العواطف، ولتحجرت المشاعر، ولعجز القلم عن البيان، اللهم بصّرني بما يرضيك، واشرح له صدري، وجنبني اللهم ما لا يرضيك، واصرفه عن قلبي وتفكيري، وأسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلى أن تجعل عملي لوجهك خالصاً، ولعبادك نافعاً، وأن تثيبني على كل حرف كتبته وتجعله في ميزان حسناتي، وأن تثيب إخواني الذين أعانوني على إتمام هذا الجهد الذي لولاك ما كان له وجود ولا انتشار بين الناس، ونرجو من كل مسلم يطلع على هذا

الكتاب ألا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه، ومغفرته ورحمته ورضوانه من دعائه ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ [النمل: 19] .

وأختم هذا الكتاب بقول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ *﴾ [الحشر: 10] .

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك .

علي محمد محمد الصَّلاَّبِيّ

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

* * *

الفصل الأول: حقيقة الروح والموت وحياة البرزخ

المبحث الأول: حقيقة الروح .

المبحث الثاني: الموت .

المبحث الثالث: حياة البرزخ .

المبحث الأول: حقيقة الروح

1 . الروح في القرآن:

تأتي كلمةُ الروح في القرآن على عِدّة أوجه[(4)]:

المعنى الأول: القرآن؛ كقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ *﴾ **[الشورى: 52]** .

المعنى الثاني: الوحي؛ كقوله تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ﴾ **[غافر: 15]** .

المعنى الثالث: جبريل: كقوله تعالى: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا *﴾ **[مريم: 17]** ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ *﴾ **[الشعراء: 193]** .

المعنى الرابع: القوة والثبات والنصرة؛ التي يؤيد الله بها من شاء من عباده المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ **[المجادلة: 22]** .

المعنى الخامس: المسيح ابن مريم، قال تعالى: ﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ **[النساء: 171]** .

المعنى السادس: تطلق الروح؛ ويراد بها ما به حياة الإنسان، كقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً*﴾ **[الإسراء: 85]** فهي الجزءُ الذي به تحصلُ الحياةُ، والتحرُّك، واستجلابُ المنافع، واستدفاعُ المضار[(5)]، وهذا هو المعنى المقصود في كتابنا هذا .

فالروحُ جسمٌ مخالِفٌ بالماهية لهذا الجسم المحسوس، وهو: جسم نوراني علوي خفيف حي متحرك، ينفذ في جوهر الأعضاء، ويسري فيها سريان الماء في الورد، وسريان الدهن في الزيتون، والنار في الفحم .

فما دامت هذه الأعضاءُ صالحةً لقبول الاثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف، بقي هذا الجسمُ اللطيف متشابكاً بهذه الأعضاء، وأفادها هذه الاثار من الحس والحركة والإرادة .

وإذا فسدت هذه الأعضاءُ بسبب استيلاء الأخلاط عليها، وخرجت عن قبول تلك الاثار، فارقَ الروحُ البدن، وانفصل إلى عالم الأرواح[(6)] .

2. هل الروح قديمة أم مخلوقة:

الروحُ مخلوقةٌ مبتدعة، باتفاق العلماء وسائر أهل السنة، وقد حكى إجماعَ العلماءِ على أنها مخلوقة غيرُ واحدٍ من أئمة المسلمين، مثل محمد بن نصر المروزي الإمام المشهور، الذي هو أعلمُ أهل زمانه بالإجماعِ، أو من أعلمهم .

والأدلةُ من الكتاب والسنة الدالة على خلقها كثيرة، مثل قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: 16] فهذا عام لا تخصيصَ فيه بوجهٍ ما[(7)]، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا *﴾ [الإنسان: 1] وقوله جلّ وعلا لزكريا: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا *﴾ [مريم: 9] .

والإنسان اسمٌ لروح الإنسان وبدنه، وخطابُ الله لزكريا لروحه وبدنه[(8)] ، فالإنسانُ عبارة عن البدن والروح معاً، بل الروح أخصُّ منه بالبدن، وإنَّما البدن مطيةٌ للروح[(9)] .

وقد جاء الكثير من النصوص عن النبي (ﷺ) أنّ الأرواح تُقْبَضُ، وتُوْضَعُ في كفنٍ وحَنوطٍ تأتي بها الملائكة، ويُصْعَدُ بها، وتُنَعَّمُ، وتُعَذَّبُ، وتُمْسَكُ بالنوم، وتُرْسَلُ، وكلُّ هذا شأنُ المخلوق المحْدَثِ[(10)] .

ولو لم تكن الروحُ مخلوقةً مربوبةً لما أقرّت بالربوبية، وقد قال الله للأرواح حين أخذ الميثاق على العباد وهم في عالم الذر: ألستُ بربكم؟ قالوا: بلى، وذلك

ما قرره الحق في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف: 172] وما دام هو ربهّم، فإنّهم مربون مخلوقون[(11)] .

ولو كانت الروحُ غيرَ مخلوقةٍ فإنها لا تدخلُ النار، ولا تعذَّب، ولا تُحْجَبُ عن الله، ولا تغيَّبُ في البدن، ولا يَمْلِكُها ملكُ الموت، ولما كانت صورةً توصف، ولم تحاسبْ، ولم تعذّبْ، ولم تتعبّد، ولم تخف، ولم ترجُ، ولأنّ أرواحَ المؤمنين تتلألأ، فأرواح الكفّار سودٌ مثل الفحم[(12)] .

والردُّ على مَنْ زعمَ أنَّ الروحَ غيرُ مخلوقةٍ وأنَّها جزءٌ من ذات الله تعالى كما يقال هذه الخرقةُ من هذا الثوب، فالمراد بقوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: 85]، أي إنّها تكوّنت بأمره، أو لأنّها بكلمته كانت، و(الأمرُ) في القرآن يذكر، ويراد به المصدرُ تارةً، ويرادُ به المفعولُ تارةً أخرى، وهو (المأمور به) كقوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: 1] أي المأمور به .

ويمكن أن يقال أيضاً: إنّ لفظة (من) في قوله لابتداء ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾، وليس نصّاً في أنّ الروحَ بعضُ الأمرِ ومن جنسه، بل هي لابتداء الغايةِ، إذ كونت بالأمر، وصدرت عنه، وهذا مثل قوله: أي من أمره كان ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾، وكقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا

مِنْهُ﴾ [الجاثية: 13] ونظير هذا أيضاً قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: 53] أي منه صدرت ولم تكن بعض ذاته[(13)] .

وأما قوله تعالى في ادم: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر: 29] وقوله في مريم: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ [الأنبياء: 91] فينبغي أن يُعْلَمَ أنَّ المضافَ إلى الله تعالى نوعان :

الأول: صفاتٌ لا تقوم إلا به، كالعلم والقدرة، والكلام، والسمع، والبصر، فهذه إضافة صفة إلى موصوف بها، فعلمه وكلامه وقدرته وحياته صفاتٌ له، وكذا وجهه ويده سبحانه .

والثاني: إضافة أعيان منفصلة عنه، كالبيت، والناقة، والعبد، والرسول، والروح. كقوله تعالى: ﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا *﴾ [الشمس: 13] وكقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: 1] وقوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ﴾ [الحج: 26] فهذه إضافةُ مخلوقٍ إلى خالقه، لكنَّها إضافةٌ تقتضي تخصيصاً وتشريفاً، يتميّزُ بها المضافُ إلى غيره[(14)] .

3 . هل النفس هي الروح؟

إنّ النفسَ تُطلقَ على أمور، وكذلك الروحُ، فيتّحدُ مدلولهما تارةً، ويختلفُ تارةً، فالنفس تطلَقُ على الروح، ولكنْ غالب ما تسمّى نفساً إذا كانت

متصلةً بالبدن، وأمّا إذا أُخذت مجردةً فتسميةُ الروح أغلبُ عليها، وتطلق على الدم، ففي الحديث: « ما لا نَفْسَ له سائلةٌ لا يَنْجِّسُ الماءَ إذا ماتَ فيه» [(15)] .

والنفس: العين، يقال: أصابت فلاناً نفس: أي عين .

والنفس: الذات ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [النور: 61] ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: 29] ونحو ذلك .

وأما الروح، فلا تطلقُ على البدن، لا بانفراده، ولا مع النفس، وتطلق الروحُ على القرآن ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: 52] وعلى جبريل ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ *﴾ [الشعراء: 193] وتطلق الروحُ على الهواء المتردد في بدن الإنسان أيضاً، وأمّا ما يؤيد الله به أولياءه، فهي روحٌ خرى، كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة: 22] .

وكذلك القوى التي في البدن، فإنّها تسمى أرواحاً، فيقال: الروحُ الباصر، والروحُ السامع، والروح الشام .

وتطلق الروح على أخصّ من هذا كله وهو: قوة المعرفة بالله، والإنابة إليه، ومحبته، وانبعاث الهمة إلى طلبه وإرادته، ونسبة هذه الروح إلى الروح كنسبة

الروح إلى البدن، فللعلم روحٌ، وللإحسانِ روحٌ، وللمحبةِ روحٌ، وللتوكّلِ روحٌ، وللصدقِ روحٌ، والناس متفاوتون في هذه الروح: فمن الناسِ مَنْ تغلب عليه هذه الأرواحُ فيصير روحانياً، ومنهم من يفقدها فيصير أرضياً بهيمياً[(16)] .

4 . مراتب النفوس:

أخبرنا الحق سبحانه وتعالى أنّ النفوسَ ثلاثةُ أنواع :

النفس الأمارة بالسوء ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ﴾ **[يوسف: 53]**.

والنفس اللوّامة ﴿وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ *﴾ **[القيامة: 2]** .

والنفس المطمئنة ﴿يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ *ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَةً *فَادْخُلِي فِي عِبَادِي *وَادْخُلِي جَنَّتِي *﴾ **[الفجر: 27 . 30]** .

والتحقيق: أنها نفسٌ واحدة، لها صفاتٌ، فهي أمارة بالسوء، فإذا عارضها الإيمانُ صارت لوّامةً، تفعل الذنبَ، ثم تلومُ صاحبها، وتلوم بين الفعل والترك، فإذا قوي الإيمانُ صارت مطمئنة[(17)] .

5. هل تموت الأرواح؟

الأرواحُ مخلوقةٌ بلا شك، وهي لا تعدم ولا تفنى، ولكنَّ موتَها بمفارقة الأبدان، وعند النفخة الثانية تعادُ الأرواح إلى الأبدان[(18)]، وقد دلت على ذلك الأحاديثُ الدالة على نعيم الأرواح وعذابها بعد مفارقة الأجساد إلى أن يرجعها الله إليها، وقد أخبر سبحانه أنَّ أهل الجنة ﴿لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَى﴾ [الدخان: 56] وتلك الموتة هي مفارقةُ الروحِ الجسدَ[(19)] .

6. هل للروح كيفية تُعْلَمْ؟

لما كانت الروحُ مخلوقةً من جنسٍ لا نظيرَ له في عالم الموجودات، فإننا لا نستطيعُ أن نعرفَ صفاتها، فقد عرّفنا الله أنها تصعدُ وتهبِطُ، وتسمع، وتبصر، وتتكلم ... إلى غير ذلك، إلا أنَّ هذه الصفاتِ مخالفةٌ لصفات الأجسام المعروفة، فليس صعودُها وهبوطُها وسمعُها وبصرُها وقيامُها وقعودُها من جنسِ ما نعرفه ونعلمه، فقد أخبرنا الرسول الكريم (ﷺ) أنَّ الروحَ يُصْعدُ بها إلى السماوات العلا، ثم تُعاد إلى القبر، ساعةً من الزمن، كما أخبرنا أنها تنعّم أو تعذّب في القبر، ولا شك أنَّ هذا النعيمَ على نحوٍ مخالِفٍ لما نعلمه ونعرفه[(20)] .

7. قبض الروح بالنوم:

من أحكام الروحِ أنَّها تُقْبَضُ عند النوم، وهي ما تسمّى الوفاة الصغرى، وقد ذكر الله تعالى ذلك في كتابه الكريم قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الآخرى إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ *﴾ [الزمر: 42] .

وعن عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه قال: سرنا مع النبيِّ (ﷺ) ليلةً، فقال بعضُ القوم: لو عرّستَ بنا يا رسول الله .

قال (ﷺ): « أخافُ أنْ تناموا عن الصلاة » .

قال بلال: أنا أوقظكم فاضجعوا، وأسندَ بلالٌ ظهرَه إلى راحلته، فغلبته عيناه فنام، فاستيقظ النبي (ﷺ) وقد طلعَ حاجبُ الشمس فقال (ﷺ): « يا بلالُ أينَ ما قلتَ؟ » .

قال: ماألقيتْ عليّ نومةٌ مثلها قط .

قال (ﷺ): « إنَّ اللهَ قبضَ أوراحَكم حينَ شاءَ، وردَّها عليكم حين شاءَ، يا بلالُ قم فأذِّنْ بالناسِ بالصلاةِ » فتوضأَ، فلمّا ارتفعتِ الشمسُ، وابيضتْ، قام فصلى [(21)] .

8. فتح باب التوبة إلى الغرغرة:

الغرغرةُ: هي لحظة نزع الروح وخروجها، وهناك علاقةٌ بين الروح والتوبة، فما دامتِ الروحُ مستقرّةً في البدنِ فبابُ التوبة مفتوح[(22)]، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا *وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا *﴾ **[النساء: 17 . 18]** .

ومعنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾: ما كان دونَ الموت فهو قريب، وقال الحسن البصري: ما لم يغرغر[(23)] .

ولقد دلت الأحاديث الصحيحة على أنَّ مَنْ تابَ إلى الله عزّ وجلّ وهو يرجو الحياة، فإنّ توبته مقبولةٌ، ولهذا قال تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا *﴾

وأما متى وقع اليأسُ من الحياةِ، وعاينَ ملكَ الموتِ، وخرجتِ الروحُ إلى الحلق، وضاق بها الصدرُ، وبلغتِ الحلقومَ، وغرغرت النفس صاعدة للخروج من البدن، فلا توبةَ مقبولةٌ حينئذٍ، ولهذا قال تعالى:

﴿يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ﴾ **[النساء: 18]**[(24)] .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبيِّ (ﷺ) قال: « إنّ اللهَ يقبلُ توبةَ العبدِ ما لَمْ يُغَرْغِرْ »[(25)] .

9. كيفية نزع الروح:

قال تعالى: ﴿فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ *وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ *وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لاَ تُبْصِرُونَ *﴾ **[الواقعة: 83 . 85]** .

أي: ﴿فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ *﴾، والحلقومُ: هو الحلق، وذلك حين الاحتضار أي إلى ﴿وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ *﴾، وما يكابدُه من سكرات الموت أي بملائكتنا أي ولكن لا تروهم

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ *ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ *﴾ **[الأنعام: 61 . 62]** .

وقال تعالى: ﴿كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ *وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ *وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ *وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ *إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ *﴾ **[القيامة: 26 . 30]** .

أي: ﴿إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ *﴾، والتراقي جمع تُرْقُوة، وهي العظام المكتنفة لنُقْرَةِ النَّحْر، وهو مقدّمُ الحلقِ من أعلى الصدر موضع الحشرجة، ويُكَنَّى ببلوغ النفس التراقي عن الإشفاءِ على الموت، مثله قوله: ﴿فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ

الْحُلْقُومَ*﴾: ﴿كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ *﴾، أي حقّاً أنَّ المساقَ إلى الله أي إذا ارتفعتِ الروحُ إلى ﴿كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ *﴾، والمقصودُ تذكيرهم شِدَّةَ الحال عند نزولَ الموت .

وقال تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا *وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا *﴾ **[النازعات: 1 . 2]** .

والمقصود الملائكة، يعنون حين تنزِعُ أرواحَ بني ادم، فمنهم مَنْ تَأْخذُ روحَه بعسرٍ، فتغرق في نزعهم، ومنهم من تَأْخُذُ روحَه بسهولةٍ، وكأنما حلّته من نشاطٍ وهو قوله .

وقال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ *﴾ **[ق: 19]** . ﴿سَكْرَةُ الْمَوْتِ﴾، وقوله: سكرةُ الميتِ التي تدل الإنسانَ على أنّه ميت .

عن عائشة رضي الله عنها: أنَّ رسولَ الله (ﷺ) كان بين يديه رَكوةٌ، أو علبةٌ فيها ماءٌ، فجعلَ يُدْخِلُ يديه في الماءِ، فيمسحُ بهما وَجْهَه ويقول: « لا إلهَ إلاّ الله، إنَّ للموتِ سكراتِ » ثم نصبَ يدَهُ، فجعلَ يقولُ: « في الرفيقِ الأَعْلَى » حتى قُبِضَ، ومالت يدُه[(26)] .

إنَّ الإنسانَ إذا اقتربَ أجلُه، فإنَّ الروحَ ترتقي إلى أعلى الجسم عند النحر، حتى تخرجَ من جسده، وهذا الخروجُ للروح ليس بالأمر الهيِّن ـ حتى للمؤمن ـ

بل له سكراتٌ وغمراتٌ ومشقّاتٌ، ثم تنتزعِ الملائكةُ الروحَ، وهذا النزعُ يختلِفُ شدةً ويُسراً بحسبِ إيمانِ الرجل[(27)] .

10 . خروج روح المؤمن واحتضاره :

قال تعالى: ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ *الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ *لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخرة لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *﴾ **[يونس: 62 . 64]**، وفي قوله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخرة﴾ :

الأول: الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرى له[(28)] .

والثاني: المراد بذلك بشرى الملائكة للمؤمن عند احتضاره بالجنة والمغفرة، ويدلُّ على هذا حديث البراء رضي الله عنه عن رسول الله (ﷺ): « إنّ المؤمنَ إذا حَضَرَهُ الموتُ، جاءه ملائكةٌ بيضُ الوجوهِ، بيضُ الثيابِ، فقالوا: اخرجي أيتُها الروحُ الطيّبةُ إلى رَوْحٍ وريحانٍ وربٍّ غيرِ غضبان، فتخرجُ تَسِيْلُ كما تسيلُ القَطْرَةُ مِنْ في السقاءِ »[(29)] .

وكلا المعنيين صحيح، ولا تعارضَ بين هذين التفسيرين[(30)] .

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ *نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ

الدُّنْيَا وَفِي الآخرة وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ *﴾ [فصلت: 30 . 31]، وفي قوله تعالى: أي: أخلصوا ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾، وقوله: أي: على ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ رسولِ الله (ﷺ) باتباعه[(31)]، وفي قوله تعالى: يبشَّرون عند ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ﴾، وفي القبر، ويوم خروجهم من قبورهم[(32)]، قال تعالى: ﴿لاَ يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ *﴾ [الأنبياء: 103] وقوله: أي: ممّا تقدمون عليه من أمر الآخرة على ﴿أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا﴾ خلفتموه من أمرِ الدنيا من ولدٍ وأهلٍ ومالٍ أو دَيْنٍ، فإنّا نخلفكم فيه فيبشرونهم بذهاب الشر وحصول الخير قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلاَمٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ *﴾ [النحل: 31 . 32] .

يخبرُ الله تعالى عن حالهم عند الاحتضار أنّهم طيبون، أي: مخلَصون من الشرك والدنس وكل سوء، وأنَّ الملائكة تسلِّمُ عليهم، وتبشرهم بالجنة[(33)]، وأن وفاتهم تكون طيبة سهلة، لا صعوبة فيها ولا ألم، بخلاف ما تقبض به روح الكافر والمخلِّطِ[(34)] .

وقال تعالى: ﴿يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ *ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَةً *﴾ [الفجر: 27 . 28]، وهذا يقالُ لها عند الاحتضار، وفي يوم القيامة أيضاً، كما

أنَّ الملائكة يبشّرون المؤمنَ عند احتضاره، وعند قيامه من قبره، فكذلك ها هنا[(35)] .

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ *فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ *وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ *فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ *﴾ [الواقعة: 88-91] .

هذه الأحوالُ الثلاثةُ: هي أحوالُ الناسِ عند احتضارهم: إما أن يكون من المقربين، أو يكون ممّن دونهم من أصحاب اليمين، وإمّا أن يكون من المكذبين بالحق، الضالين عن الهدى، الجاهلين بأمر الله، ولهذا قال تعالى: أي المحتضر وهم من فعلوا الواجباتِ ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ *﴾، وتركوا المحرّمات والمكروهاتِ وبعضِ المباحاتِ، قوله: أي فلهم رَوحٌ ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾، وتبشرهم الملائكة بذلك عند الموت ﴿فَرَوْحٌ﴾، أو الراحة من الدنيا، والروح: الفرح جنةٌ ورخاءُ فرحمة ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ . وكلُّ هذه الأقوال متقاربةٌ صحيحةٌ، فإنَّ مَنْ مات مقرَّباً حصل له جميع ذلك من الرحمة، والراحة، والاستراحة، والفرح، والسرور، والرزق الحسن[(36)] أي: لا يموتُ أحدٌ من الناسِ حتّى يعلمَ مِنْ أهلِ الجنّةِ هو أَمْ مِنْ أهل النار بذلك، تقول لأحدهم: سلامٌ لك، أي لا باسَ عليك، أنتَ إلى سلامةٍ، أنتَ من أصحاب اليمين[(37)] .

ويكون السلام على المؤمنين عند ثلاثة مواضع: عند قبض روحه في الدنيا، يسلم عليه ملك الدنيا، وعند مساءلته في القبر، يسلم عليه منكرٌ ونكيرٌ، وعند بعثه في القيامة، تسلِّمُ عليه الملائكةُ قبلَ وصوله إلى الجنة، ويكونُ ذلك إكراماً بعد إكرام[(38)] .

11 . خروجُ روحِ الكافرِ واحتضارُه :

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلاَئِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ *﴾ [الأنعام: 93]، قوله تعالى: أي كرباته ﴿فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾، وقوله جوابه محذوف تقديرُه: لرأيتَ أمراً ﴿وَلَوْ تَرَى﴾، وهذه عبارةٌ عن التعنيف في السياق والشدّة في قبض الأرواح[(39)]، وقوله تعالى: أي ﴿بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ﴾، كقوله: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي﴾ [المائدة: 28] وقوله: ﴿وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ﴾ [الممتحنة: 2] وكقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ﴾ [الأنفال: 50] . ولهذا قال: أي بالضربِ ﴿وَالْمَلاَئِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ﴾، حتى تخرجَ أنفسُهم من أجسادِهم، ولهذا يقولون لهم: وذلك أنّ الكافرَ إذا احتُضِرَ بشَّرته الملائكة بالعذاب ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، والأغلال والسلاسل، والجحيم والحميم،

وغضب القهار العظيم، فتفرق روحُه في جسده، وتتعصَّى، وتأبى الخروجَ، فتضربهم الملائكة حتى تخرجَ أرواحُهم من أجسادِهم، قائلين لهم: أي كنتم تهانون غاية الإهانة كما كنتم تكذبون ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ﴾ الله وتستكبرون عن اتّباع آياته ، والانقياد لرسله[(40)]، ثم يبشرون بالعذاب ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ .

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلاَئِكَةَ لاَ بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا *﴾ [الفرقان: 22] أي حرامٌ ومحرَّمٌ عليكم دخولُ الجنة[(41)]، وفي حديث البراء الطويل، قال رسول الله (ﷺ): «وإنّ العبدَ الكافِرَ إذا كانَ في انقطاعٍ عن الدنيا، وإقبالٍ من الآخرة، نزلَ إليه مِنَ السماءِ ملائكةٌ، سودُ الوجوهِ، معهم المسوحُ، فيجلسون منه مدَّ البصر، ثم يجيءُ مَلَكُ الموتِ، حتى يجلسَ عندَ رأسِهِ، فيقول: أيتُها النفسُ الخبيثةُ، اخرجي إلى سخطٍ مِنَ اللهِ وغضبٍ، قال: فتفرق في جسدِهِ، فينتزعُها كما ينتزع السفود من الصوفِ المبلول »[(42)] .

قال تعالى: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ *﴾ [الحجر: 2] .

في الآية إخبار عنهم أنهم سيندمون على ما كانوا فيه من الكفر، ويتمنَّون لو كانوا في الدنيا مع المسلمين، وقيل: إنَّ المرادَ أَنَّ كُلَّ كافرٍ يودُّ عند احتضارِهِ أَنْ لو كان مؤمناً[(43)] .

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ [النحل: 28 . 29] .

وقال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ *لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ*﴾ [المؤمنون: 99 . 100]، وهم لا يكفّون عن طلبِ الرجعة، فيطلبونها في كلِّ وقتٍ، وفي كلِّ حينٍ[(44)] . ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [المنافقون: 10] .

وقال تعالى: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ *﴾ [إبراهيم: 44] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: 53] .

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ *﴾ [السجدة: 12] .

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ *بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ *﴾ [الأنعام: 27 ـ 28]

وقال تعالى: ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ*﴾ [الشورى: 44] وقال تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ *﴾ [غافر: 11] .

وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ *﴾ [فاطر: 37] فذكر تعالى أنّهم يسألون الرجعة فلا يجابون: عند الاحتضار، ويوم النشور، ووقت العرض على الجبار، وحين يعرضون على النار، وهم في غمرات عذاب الجحيم[(45)] .

قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ *﴾ [محمد: 27] هذه الآية فيها التصريح بضرب وجوه الكافرين وأدبارهم عند النزع[(46)] .

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ *﴾ [الأعراف: 40] .

وقد فسر النبيُّ (ﷺ) هذه الآية في حديث البراء السابق[(47)]، وفيه أنّه قال: « ... إنّ العبدَ الكافِرَ إذا كانَ في انقطاعٍ من الدنيا، وإقبالٍ من الآخرة (يعني عند الاحتضار) نزل إليه من السماءِ ملائكةٌ سودُ الوجوه، معهم المسوحُ، فيجلسون مِنْهُ مَدّ البصرِ، ثم يجيءُ ملكُ الموتِ حتى يجلسَ عند رأسه، فيقول: أيتُّها النفسُ الخبيثةُ اخرجي إلى سخطٍ من الله وغضبٍ، قال: فتفرق في جسده، فينتزعُها كما ينتزعُ السفود من الصوف المبلول، فيأخذها في تلك المسوح، ويخرجُ منها كأنتنِ ريحِ جيفةٍ وُجِدَتْ على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرّون بها على ملأٍ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروحُ الخبيثُ؟ فيقولون: فلانُ بنُ فلانٍ بأقبح أسمائه التي كان يسمّى بها في الدنيا، حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا، فيُستَفْتَحُ له فلا يُفتحُ له، ثم قرأ رسول الله ﴿لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: 40] . فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتابَهُ في سجّين في الأرضِ السفلى، فتُطْرَحُ روحُه طَرْحاً، ثم قرأ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ *﴾ [الحج: 31]، فتعادُ روحُه في جسدِهِ، ويأتيه ملكانِ، فيجلسانِهِ، فيقولانِ له: مَنْ ربُّكَ ؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري، فيقولان له: ما دِيْنُكَ ؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري،

فيقولان له: ما هذا الرجلُ الذي بُعِثَ فيكم ؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فينادي منادٍ من السماء أَن كذَب، فافرشوا له من النار، وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه مِنْ حَرّها وسَمُومها، ويضيَّقُ عليه قبرُه، حتى تختلَ فيه أضلاعُه، ويأتيه رجلٌ قبيحُ الوجهِ، قبيحُ الثيابِ، مُنْتِنُ الريحِ، فيقول: أبشر بالذي يسوءك، هذا يومك الذي كنتَ توعدُ، فيقول: مَنْ أنتَ؟ فوجهُك الوجهُ يجيءُ بالشرِّ، فيقول: أنا عملُكَ الخبيثُ فيقول: ربِّ لا تُقِمِ الساعةَ»[(48)].

* * *

المبحث الثاني: الموت

إنّ الحياة ايةٌ من ايات الله، فالموتُ كذلك ايةٌ أخرى تضادُ الحياة، ولكنّها لا تقلُّ عنها عجباً، قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ *﴾ **[البقرة: 28]** .

والتفكُّر في هذه الآية تفكُّر في خلق مِن خَلْقِ الله وعجائبه، الدالّ على عظيم قدرته، وعجيبِ أمره[(49)] .

إنّ لتذكرِ الموتِ أثرٌ كبيرٌ في إصلاح النفوس وتهذيبها، ذلك أنَّ النفوسَ تؤثر الدنيا وملذّاتها، وتطمعُ في البقاء المديد في هذه الحياة، وقد تهفو إلى الذنوب والمعاصي، وقد تقصّر في الطاعات، فإذا كان الموتُ دائماً على بال العبد، فإنّه يصغّر الدنيا في عينه، ويجعله يسعى في إصلاح نفسه، وتقويم المعوجّ من أمره[(50)]، قال رسول الله (ﷺ): « أكثروا ذكرَ هاذِمِ اللذّاتِ: الموتِ، فإنَّه لم يذكره في ضيقٍ مِنَ العيشِ إلاّ وَسّعَهُ عليه، ولا ذكره في سَعَةٍ إلا ضيّقَها»[(51)] .

قال العلماءِ: تذكر الموتِ يردعُ عن المعاصي، ويليّنُ القلبَ القاسي، ويذهبُ الفرحَ بالدنيا، ويهوّن المصائبَ .

وقال العلماء: ليس للقلوبِ أنفعُ من زيارة القبور، وخاصّةً إن كانت قاسيةً، فعلى أصحابها أن يعالجوها بثلاثة أمور :

أحدها: الإقلاعُ عمّا هي عليه، بحضور مجالس العلم: بالوعظ، والتذكير، والتخويف، والترغيب، وأخبار الصالحين، فإنّ ذلك مما يليّن القلوب .

الثاني: ذِكْرُ الموتِ، فيكثر من ذكر هاذم اللذات، ومفرّق الجماعات، وميتّم البنين والبنات .

الثالث: مشاهدة المحتضرين، فإنَّ النظر إلى الميتِ، ومشاهدة سكراته ونزعاته، وتأمل صورته بعد مماته، مما يقطع عن النفوسِ لذّاتها، ويطردُ عن القلوب مسرّاتها، ويمسحُ الأجفانَ من النوم، والأبدانَ من الراحة، ويبعثُ على العمل، ويزيدُ في الاجتهاد والتعب[(52)] .

وذُكِرَ عن الحسن البصري أنّه دخل على مريضٍ يعوده، فوجده في سكرات الموت، فنظر إلى كُربه وشدّة ما نزل به، فرجع إلى أهله بغير اللون الذي خرجَ به من عندهم، فقالوا له: الطعام يرحمكم الله، فقال: يا أهلاه، عليكُم بطعامكم وشرابكم، فواللهِ رأيتُ مصرعاً لا أزالُ أعملُ له حتّى ألقاه[(53)] .

قال أبو الدرداء: مَنْ أكثر ذكر الموت قلّ فرحه، وقَلَّ حسده[(54)] .

قال الشاعر :

مشــيناها خُطــاً كُتِبَــتْ علينــا ومَـنْ كُتِبَتْ عليه خُطاً مشـاها
وأرزاقٌ لنــــــا متفرّقـــــــاتٌ فَمَـــنْ لَمَ تأْتِـــهِ منّـــا أتاهـــا
وَمَــــنْ كُتِبَـــتْ منيتُـــه بأرضٍ فلـيسَ يمـوتُ في أرضٍ سِـوَاهَا

وقال الشاعر :

وإذا وُلّيــــتَ قومـــاً ليلــــةً فــاعلمْ بأنَّــكَ بعــدَها مَسْــؤُولُ
وإذا حَمَلْــتَ إلى القبــورِ جَنَــازةً فــاعْلَمْ بأنَّــكَ بعــدَهَا مَحْمُــوْلُ

وقال اخر:

هَـبِ الـدُّنيا تُسـاقُ إليـكَ عَفْـواً أَلَـيْسَ مصـيرُ ذاكَ إلى انتِقَــالِ
وَمَــا دُنيـــاكَ إلاّ مِثْـــلُ فَيْءٍ أَظلَّــــكَ ثُمَّ اذنَ بالـــزَّوَالِ[(55)]

أولاً ـ الحكمة من الموت :

إنّ الموتَ مرحلةٌ يمرُّ بها الإنسانُ، ومنزلةٌ يَرِدُها، وحقيقةٌ لا يتخطّاها، وكأسٌ يتجرَّعها، ومنهلٌ يستقي منه، فمن حِكَمِ الموتِ :

1 ـ في الموت تتجلى كمال قدرة الله الخالصة سبحانه، وعظيم حكمته في تصريف أطوار الخلق: فهو الذي أنشأ هذا الإنسان من عدم، ثم أوجده طوراً

بعد طور، وخَلْقاً بعد خَلْقٍ، حتى صار بشراً سوياً، يسمع، ويبصر، ويعقل، ويتكلَّم، ويتحرك، ويسالم، ويخاصم، ويتزاوج، ويتناسل، يعيشُ على أرضِ الله، وينالُ من رزق الله، ثم بعد ذلك كلِّه يميتُه الله تعالى، فلا يأكلُ، ولا يشربُ، ولا يسمعُ، ولا يبصرُ، ولا يعقلُ، ولا يتحرّكُ، فيزولُ بعدَ بقاءٍ، وينتفي بعد وجودٍ، وكلُّ ذلك بتصريفِ الله وقدرته، وبالغ حكمته في خلق الأمور المختلفة، والأحوال المتضادّة[(56)].

قال تعالى: ﴿فَلَوْلاَ إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينِ *تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ *﴾ [الواقعة: 86 . 87] تضمّنتِ الايتان تقريراً وتوبيخاً واستدلالاً على أصول الإيمان: من وجودِ الخالق سبحانه، وكمالِ قدرته، ونفوذِ مشيئته وربوبيّته، وتصرّفِهِ في أرواح عباده، حيث لا يقدرون على التصرف فيه بشيء، وأنّ أرواحَهم بيدِه، يذهبُ بها ذا شاء، ويردّها إليهم إذا شاء، ويُخْلِي أبدانهم منها تارةً، ويجمع بينها وبينهم تارة[(57)] .

2 . إن الله تعالى خلق الموت والحياة ابتلاءً لعباده واختباراً لهم ليعلمَ من يطيعه ممن يعصيه: قال سبحانه: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ [الملك: 2] .

3 ـ لم يخلق الله البشر في الدنيا على خلقة قابلة للدوام: بل جعلهم خلائفَ في الأرض، يخلفُ بعضُهم بعضاً، فلو أبقاهم لفاتتِ المصلحةُ والحكمةُ في جعلهم خلائف[(58)] .

4 ـ في الموت نعمٌ عظيمةٌ لا تتأتى للناس إلا به: فلولا الموت لما هنأ لهم العيش، ولا طابَ في هذه الأرض، ولا وسعتهم الأرزاقُ، ولضاقتْ عليهم المساكنُ والمدنُ، والأسواقُ والطرقاتُ .

5 ـ الموت يخلّص المؤمن من نكد هذه الحياة التي حشيت بالغصص: وحفّت بالمكاره والالام الباطنة والظاهرة، إلى نعيم لا ينفد، وقرة عين لا تنقطع، وسعادة لا تنتهي، في ظلال وارفة، وبساتين مؤنقة، وجنات دائمة، مع خيرة الرفقاء، وأطيب الأصفياء[(59)] .

عن أبي الدرداء رضي الله عنه كان يقول: ما مِنْ مؤمن إلا والموتُ خيرٌ له، وما مِنْ كافرٍ إلا والموتُ خيرٌ له، ومَنْ لم يصدّقني فإن الله يقول: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلأَبْرَارِ *﴾ **[آل عمران: 198]** ويقول: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ *﴾ **[آل عمران: 178]**[(60)] .

6 ـ بالموت تصل النفس إلى اليقين: وتتعرّف على حقيقتها من حيث إنّها مخلوقةٌ للخالق سبحانه، وإنّها مخلوقةٌ لغاية[(61)] .

ثانياً ـ ساعة الموت أخطرُ لحظةٍ في عمر الإنسان :

إنّ ساعةَ الموتِ أخطرُ ساعةٍ في رحلة الإنسان الطويلة إلى ما لا نهاية للأسباب الاتية :

1 ـ لأنها بداية الانتقال من عالم الشهادة المحسوس، الذي عرفه الإنسان وألفه، إلى عالمٍ كان غيباً في الحياة الأولى، ويصيرُ محسوساً في الحياة الجديدة، التي تبدأُ بالموتِ الجسدي، ليحدث للإنسان في عالم البرزخ لأول مرة عوالمُ تختلف كل الاختلاف عن عوالم الدنيا التي عايشَها، وائتلف أو تنافر معها .

2 ـ في ساعة الموت يرى الإنسان ملائكة الله، ويسمع منهم الكلمة الفاصلة النازلة إليه من عند الله تعالى، وهي الكلمةُ التي تدلُّ على نعيمه الأبدي أو شقائه الأبدي، ولو كان يملكُ العالم كلَّه في هذه الساعة، وقُبِلَ منه أن يضحي به، أو كان يملك ملء الأرض والسماء ذهباً، وقبل منه أن يتصدق به في سبيل أن يسمعَ كلمةَ الرضى والعفو من الله في هذه الساعة لفعل، وكان في منتهى السعادة، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ **[الزمر: 47]** .

3 ـ كلُّ ما جمعه الإنسان وكدَّ فيه، وسهرَ من أجله، وقضى عمره في تخزينه وكنزه، وكل ما زرعه من حدائق غناء، وبساتين فيحاء، وكلَّ ما شيّده من دور، وما زخرفه من قصور، وكل من يحيط به من أهل وخدم وأتباع، كلُّ ذلك ينظر إليه الإنسان حين تأتيه ملائكةُ الموت بحسرةٍ وفزعٍ، ويأسٍ وجزعٍ، فإنّه مفارقٌ للجميع، ومحرومٌ حرماناً مطلقاً من كلِّ ماجمعَ فأوعى، وكنز فأبقى.

إنّ شيئاً واحداً هو الذي يبحثُ عنه هذا الإنسانُ في لحظةِ موته، ويوقنُ أنَّ فيه نجاته وسعادته، هو (العمل الصالح)، فإن كان قدّمه فلا يضرّه ما ترك، وإن كان لم يقدّم صالحاً فهو القائل: ﴿يَالَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ *مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ *هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ *﴾ **[الحاقة: 27 ـ 29]** .

4 ـ تزداد حسرةُ الميت ومصيبته وفجيعته حين يكون منكراً للحياة الآخرة، أو مغرور بمسلكه المضاد لدين الله، أو القائم على البدع والخرافات التي أبعدته عن الإيمان الصحيح، والطريق السوي الموافق للكتاب والسنة:

إنّ مثل هذا النوع لم يكن يتوقع حياةً أُخرى بعد الموت، أو كان يتوقعها ولكنّه لغروره ظنَّ أنّه على الحق، وأنّ غيرَه على الباطل، اعتماداً على أوهام وخيالات، أو اتباعاً للضالين والمغضوب عليهم من دونِ نظر أو بحث، أو تشبعاً بهواه، واستسلاماً لشياطين الإنس والجن، وهو في كلِّ ذلك رافضٌ

لكتاب الله وحكمته، فإذا جاءه الموتُ، كُشِفَتْ له الحقيقةَ، ورأى عكس ما قَدَّرَ، وفوجىء بأنَّ جميعَ مقاييسه كانت مغلوطةً، وجميعَ حقائقه كانت باطلاً وزيفاً، وفي هؤلاء وأمثالهم يقول تعالى:

﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا *﴾ **[الكهف: 103 . 104]** وقال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ*﴾ **[الزمر: 47]**[(62)] .

5 . إن ساعة الموت فاصلة بين عمر مهما طال في عصرنا فلن يزيدَ عن مئة وخمسين سنة، وهو يعتبر صفراً إذا قيس بآلافِ السنين في القبر، وخمسينَ ألفَ سنةٍ في الموقف، ثم إلى ما لا نهاية في نعيم لا يوصف، أو في شقاءٍ لا يتصور، ففي هذا العمر القصير جداً يحدَّدُ المصيرُ بالنسبة للمستقبل اللانهائي، وليس في عمر الدنيا كلِّه يحدد مصير المستقبل، بل في سنينَ معدودةٍ منه، وقد تكونُ أياماً، وقد تكون ساعةً واحدةً أو أقلَّ، يتوبُ الإنسان فيها، ويندمُ على ذنوبه، ويضرَعُ إلى ربه، ويتخلّص من مظالمه، فينال رضاء الله عند موته، ويطمئن على مستقبله، فيا لها من سعادة في متناول الجميع، ومن مستقبل لا نهائي يحدّدُ الإنسان مصيرَه في دقائق، وصدق الله القائل: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى *وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى *الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى

﴿ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَا﴾ [الأعلى: 10 ـ 13] لذلك كلّه ولغيره كانت ساعةُ الموت أخطرَ ساعةٍ في رحلة الإنسان[(63)] .

ثالثاً ـ حسن الخاتمة أسبابها وعلاماتها:

أ ـ أسبابُ حُسن الخاتمة:

هناك أسبابٌ يُسْتَدلُّ به على حسن الخاتمة منها :

1 ـ إقامة التوحيد لله جلّ وعلا:

إنّ إقامة التوحيد في قلبِ المسلم يجني ثماره في حياته، وعند موته، وفي قبره، ويوم حشره، ويكون سبباً في دخول جنات ربه ورضوانه، قال رسول الله (ﷺ): « فإنّ الله حرَّم على النارِ مَنْ قالَ لا إلهَ إلاّ الله يبتغي بذلك وَجْهَ الله»[(64)] .

2 ـ الاستقامة:

الاستقامةُ أعظمُ كرامةٍ، وسببٌ عظيم في حُسن الخاتمة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: 13] .

والاستقامة كلمةٌ جامعةٌ، اخذةٌ بمجامع الدين، قال الصدّيُق لما سئل عنها: «أنْ لا تشركَ باللهِ شيئاً» فأرادَ بها الاستقامةَ على محضِ التوحيد، وقال عمر بن الخطاب: الاستقامةُ أن تستقيمَ على الأمرِ والنهي، ولا تروغَ رَوَغانِ الثعالب[(65)] .

3 . التقوى:

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ *﴾ [آل عمران: 102] وحَقَّ تقاته أن يطاعُ فلا يُعصى، وأن يذكر فلا يُنسى، وأن يَشْكُرَ فلا يُكفر[(66)] .

وأصل التقوى: أن يجعل العبدُ بينه وبين مَنْ يخافه ويحذَرَه وقايةً تقيه منه، فتقوى العبدِ لربه أن يجعلَ بينه وبين ما يخشاه من ربِّه من غضبه وسخطه وعقابه وقايةً تقيه من ذلك، وهو فعل طاعته، واجتناب معصيته[(67)] .

فالتقوى سببٌ للخروج من كلِّ ضيق، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: 2 . 3] ولا شك أنّ العبدَ عند السكراتِ يكونُ في ضيق وشدة، فتكونُ التقوى سبباً لنجاته .

والتقوى سببٌ لتيسير السكرات على العبد المؤمن، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا *﴾ [الطلاق: 4] .

والتقوى سببٌ للنجاة من المهالك، قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا *ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا *﴾ [مريم: 71 . 72] .

وهي سببٌ لدخول الجنة، قال تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا *﴾ [مريم: 63] .

4 . الصدق:

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ*﴾ [التوبة: 119] وقال رسول الله (ﷺ): «ما يزالُ الرجلُ يَصْدُقُ ويتحرَّى الصدقَ، حتّى يكتبَ عند اللهِ صدّيقاً »[(68)] .

الصدقُ أساسُ بناءِ الدين، وعمودُ فسطاطِ اليقين، مَنْ لم يكن معه الصدقُ فهو من المنقطعين الهالكين، ومنْ كان معه الصدق أوصله إلى حضرة ذي الجلال، وكان سبباً في حُسن خاتمته وطيب المال[(69)] .

5 . التوبة:

قال تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ*﴾ [النور: 31] .

وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لاَ يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ [التحريم: 8] .

وقال رسول الله (ﷺ): «إنّ الله عزّ وجلّ يَقْبَلُ توبةَ العبدِ ما لم يُغَرْغِرْ»[(70)].

وقال رسول الله (ﷺ): «إنّ الله عز وجل يبسطُ يدَه بالليل ليتوبَ مسيءُ النهار، ويبسطُ يدَهُ بالنهارِ، ليتوبَ مسيءُ الليلِ حتى تطلعَ الشمسُ مِنْ مغربها»[(71)] .

وأما عن شروط التوبة فهي ستة:

- الشرط الأول: الإقلاع عن الذنوب .
- الشرط الثاني: الندم على فعل تلك الذنوب .
- الشرط الثالث: العزمُ على أنْ لا يعودَ إليها أبداً .
- الشرط الرابع: الإخلاصُ في التوبةِ .
- الشرط الخامس: التحلُّلَ مِنَ المظالِمِ، لقوله (ﷺ): «مَنْ كانَ لأخيه عندَه مظلمةٌ مِنْ مالٍ أو عِرْضٍ فليتحلّلْهُ اليومَ قَبْلَ ألاّ يكونَ دينارٌ ولا درهمٌ إلا الحسناتُ والسيئاتُ»[(72)] .

- الشرط السادس: أن تقع التوبة قبل الدخول في سياق الموت، قال رسول الله (ﷺ): «إنّ الله يقبلُ توبةُ العبدِ ما لم يُغَرْغِرْ»[(73)] .

6 . الدعاء:

كان من دعاء الصالحين أن يتوفّاهم الله حين انقضاء اجالهم، وهم متمسكون بالطاعات، ملازمون لها، ومجانبون للمعاصي، مفارقون لها، مصاحبون للأبرار، معدودون في زمرتهم، مجافون للفجار، حائدون عن صحبتهم، وفي ذلك يقول عنهم المولى عز وجل: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ *﴾ **[آل عمران: 193]** .

لقد كان ذلك مطلب يوسف رضي الله عنه حين دعا ربه عند انقضاء أجله ؛ وذهاب عمره ؛ أن يميته على الإسلام، ويثبّته عليه[(74)]، قال تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخرة تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ *﴾ **[يوسف: 101]** .

7. قصر الأمل والتفكّر في حقارةِ الدنيا:

قال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخرة عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ *﴾ **[الحديد: 20]** وقال رسول الله (ﷺ): «الدُّنيا ملعونةٌ ؛ ملعونٌ ما فيها ؛ إلا ذكر الله، وما والاه، أو عالماً أو متعلماً»[(75)] .

فالمؤمن يعلم يقيناً أنّ الدنيا لا تساوي عند الله جناحَ بعوضة، وأنّه سينسى كلَّ شقاءٍ بغمسة واحدة في جنة الرحمن جلّ وعلا، فهو لذلك لا يتعلّق قلبه بأي شيء من حطام الدنيا، بل يمسي ويُصبحُ وهو مشغول بالعمل لهذا الدين، ولا يرى أمام عينيه إلاّ الجنة والنار، فهو يعلمُ يقيناً أنّه لا راحةَ إلا في جنّةِ العزيز الغفار[(76)] .

8. الإكثار من ذكر الموت:

ذكرُ الموت ينغّص اللذات، ويحقّر الشهوات، ويجعل الآخرة نُصبَ العين . ومشاهدةُ المحتضرين ؛ والنظر إلى سكراتهم ونزعاتهم ؛ ومعالجتهم في طلوع

الروح ؛ وشِدّة كربهم ؛ أعظمُ عبرة، وبتغسيل الموتى يرق القلب، وتذرف العينان، ورؤيةُ القبور وسكونها تعجِّل بالتوبة، فتكون سبباً لحُسْنِ الخاتمة[(77)].

وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه إذا وقفَ على قبرٍ بكى حتّى يبلَّ لحيته، فقيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكي وتبكي من هذا؟ فقال: إنّ رسولَ اللهِ(ﷺ) قال: « إنَّ القَبرَ أوّلُ منزلٍ من منازلِ الآخرة، فإنْ نجا منه، فما بعدَه أيسرُ منه، وإنْ لم ينجُ منه، فما بعده أشدُّ منه »[(78)] .

وقال رسول الله (ﷺ): «ما رأيتُ منظراً قطُّ إلا القبرُ أفظعَ منه »[(79)] .

وزيارةُ القبور تذكّر بالموت، فيزهد في الدنيا، ويرغب في الآخرة، ويتّعظ بها ويعتبر، وقد بيّن القرطبي [6] بعباراتٍ مؤثرة كيف تتحقق للزائرِ العبرةُ والعظةُ، فقال: يعتبر بمن صار تحت التراب، وانقطع عن الأهل والأحباب، بعد أن قاد الجيوش والعساكر، ونافسَ الأصحاب والعشائر، وجمعَ الأموال والذخائر، فجاءه الموتُ في وقتٍ لم يحتسبه، وهولٍ لم يرتقبه، فليتأمل الزائرُ حالَ من مضى من إخوانه، ودرجَ من أقرانه، الذين بلغوا الامال، وجمعوا الأموال، كيف انقطعت امالهم، ولم تغن عنهم أموالهم، ومحا الترابُ محاسنَ وجوههم، وافترقت في القبورِ أجزاؤهم، وترمّلت بعدهم نساؤهم، وشمل ذُلُّ اليتمِ أولادهم، واقتسم غيرُهم طريفهم وتلادهم .. وعند هذا التذكر والاعتبار يزولُ عنه جميع الأغيار

الدنيوية، ويقبل على الأعمال الآخروية، فيزهدُ في دنياه، ويقبل على طاعة مولاه، ويلينُ قلبه، وتخشع جوارحه[(80)] .

9 . غلبة الرجاء وحسن الظن بالله:

قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآَتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ*﴾ **[العنكبوت: 5]** ومدح أهله وأثنى عليهم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخر وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا *﴾ **[الأحزاب: 21]** .

والخوف والرجاء كجناحي طائر، إذا استويا استوى الطائر، وتمّ طيرانه، وإن نقص أحدُهما، وقع في الطائر النقصُ، وإن ذهب أحدُهما أو كلاهما صارَ الطائرُ عُرضةً للهلاك[(81)] .

ولذا جمع الله بينهما في غير موضع، فقال عزّ شأنه: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ﴾ **[الإسراء: 56 . 57]** .

وقال سبحانه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخرة وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ *﴾ **[الزمر: 9]** .

ولا يجتمعُ الخوفُ والرجاء في قلب العبدِ عند سكرات الموت ومفارقة الحياة إلا أعطاه الله ما يرجوه من الرحمة والمغفرة[(82)]، وامنه مما يخافه من العقوبة، ولكن ينبغي أن يغلبَ عندَ الموت جانبُ الرجاء على الخوف، وأن الله تعالى يرحمه، ويعفو عنه، ويتجاوز عن سيئاته، وذلك حُسْنُ الظن الذي عناه النبي(ﷺ) في حديث جابر بن عبد الله الأنصاري حين قال: سمعتُ رسول الله (ﷺ) قبل موته بثلاثة أيام يقول: « لا يموتَنَّ أحدُكم إلاّ وهو يُحْسِنُ الظنَّ باللهِ عز وجل »[(83)] . وذلك عند انقطاع العمل، وتبدّد الأمل في بقاءٍ وحياةٍ، ولم يتبقَّ له إلا التعلق بعفو الله ورحمته، وعظيم فضله، ورجاء كرمه، ورحمة الله تسبق غضبه، والعفو أحبُّ إليه من الانتقام[(84)] .

10 . البعد عن أسباب سوء الخاتمة:

فإنّ من أسبابِ حُسن الخاتمةِ الخوفُ من سوءِ الخاتمة، والبعد عن أسبابها، وهي، فساد المعتقد، والانغماس في البدع، النفاق، ومخالفة الباطن للظاهر، والتسويف بالتوبة، وطول الأمل، وحب الدنيا، وتعلق القلب بغير الله، وإلف المعاصي، والإصرار عليها، والانتحار، واليأس من رحمة الله، ومصاحبة أهل الفساد، وعدم الاستقامة على الطاعة[(85)] .

ب ـ علامات حسن الخاتمة:

علامات حسن الخاتمة التي جاءت في أحاديث رسول الله (ﷺ) كثيرةٌ، منها: من كان اخرُ كلامه لا إله إلا الله، الموتُ برشحِ الجبين، الموتُ يومُ الجمعة، القتلُ في سبيل الله، الموتُ غازياً في سبيل الله، الموتُ بالطاعونِ، الموتُ بداءِ البطن، الموتُ بالغرقِ، الموتُ بالهدمِ، الموتُ في سبيل الدفاع عن المال والدين والنفس، موتُ المرأة في نفاسها بسبب ولدها، الموتُ مرابطاً في سبيل الله، الموتُ على عملٍ صالح[(86)] .

رابعاً ـ سوء الخاتمة وعلاماتها:

أ ـ أسباب سوء الخاتمة:

أسباب سوء الخاتمة كثيرة، نذكر منها على سبيل الإجمال :

الشك والجحود، والتعبد بالبدع، وتسويف التوبة، وعدم الاستقامة على الطاعة، وطول الأمل، وحب الدنيا، وصحبة الأشرار، ومخالفة الباطن الظاهر، وتعلق القلب بغير الله، وسوء الظن بالله، والإصرار على الذنوب والمعاصي، ونسيان الآخرة، وعدم ذكر الموت، والظلم[(87)] .

ب ـ علامات سوء الخاتمة:

تحدّث العلماءُ عن علامات سوء الخاتمة وذكروا منها: الأمن من مكر الله عز وجل، كأنّ بعضهم اتاهم الله ميثاقاً أن لا يعذّبه، والغفلة عن ذكر الله عز وجل، والنفاق، والرياء، وحب السمعة، وغير ذلك من العلامات[(88)] .

خامساً: قبض أرواح العباد:

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ *قُلْ يَتوفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ*﴾ **[السجدة: 10 ـ 11]** .

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ *ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ *﴾ **[الأنعام: 61 ـ 62]** .

وقال العلماء للجمع بين الآيات السابقة: إنّ الملائكة الذين هم أعوانُ ملك الموت ينزعون الأرواحَ، وملكُ الموتِ ـ الذي هو رئيسُهم ـ يقبِضُها إذا بلغتِ الحلقوم، وهناك رأيٌ اخر وهو أنّ أعوانَ ملك الموت يقومون بقبض الأرواحِ بأمرِ ملكِ الموتِ[(89)] .

سادساً ـ الموت مكتوب على الخلائق ولا ينجو منه هارب:

إنّ الله تعالى خلقَ عباده، وقدّر لهم اجالاً إليها ينتهون، فلا يتقدّمون عنها ولا يتأخرون، كما قال سبحانه: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ*﴾ [الواقعة: 60] وكتب أجل كل منهم في كتاب عنده لا يُزاد فيه ولا ينقص منه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلاً﴾ [آل عمران: 145] .

وجعله حتماً لازماً لا بدّ لكلّ نفسٍ من تتجرعِ غصصه، ولو كان الميتُ رسولاً أو نبياً أو ولياً، حيث قال تعالى:

﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ *﴾ [آل عمران: 185] وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ *﴾ [العنكبوت: 57] إذ لا باقي إلا هو سبحانه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص: 88] .

وهو الوارثُ لجميع خلقه بعد فنائهم، وانقضاء اجالهم: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ *﴾ [مريم: 40] .

وهو المحيي والمميت الذي بيده الإحياء والإماتة لا بيدِ العباد، وليس في ملكهم ومقدرتهم، كما قال عز وجل: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ

كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ *﴾ [آل عمران: 156] .

والعبدُ لا يمكنه أن يدفعَ غائلة الموت عن نفسِه مهما بلغ حرصُه عليها، ولذا عابَ الله على أهل النفاق تثبيطَهم عن الجهاد، بزعمهم أنَّ القعود عنه ينجي من الموت[(90)]، فقال سبحانه في شأنهم: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ *﴾ [آل عمران: 168] .

فالموتُ لا ينجي منه هربٌ، ولا يغني عنه جَزَعٌ، ولا يدفع عنه حَذَرٌ، ولو تُحصِّن منه بالقصور المنيعة، والمساكن الرفيعة، قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: 78] .

ولا ينجو منه فار، ولا يسلم منه هارب، وقد أبان الله ذلك لليهود مع كراهيتهم له، وخوفهم منه، في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاَقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ *﴾ [الجمعة: 8] .

وأنذر المنافقين بأنّ فرارهم منه لا يزيدُ في أعمارهم، ولا يؤخِّرُ في اجالهم، بل بقاؤهم في الدنيا إلى قدر مقدور، وأجل مكتوب[(91)]، كما قال سبحانه:

﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لاَ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً*﴾ [الأحزاب: 16] .

ولم يطمّعِ الله بشراً في الخلود في الأرض، ولو فعل لكان أولى الناس بذلك رسولُ الله (ﷺ)[(92)]، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ *ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ *﴾ [الزمر: 30 ـ 31] .

سابعاً ـ الآجال محدودة :

إن الله تعالى جعل لكلِّ أحدٍ من الخلق أجلاً معيناً، ووقتاً محدوداً، فإذا جاء أجله، وحل وقت زواله، لا يتقدّم عنه برهةً من الزمن ولا يتأخر، لا الأمم مجتمعة ولا أفرادها، قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ *﴾ [الآعراف:34] وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ *مَا تَسْبَقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ*﴾ [الحجر: 4 ـ 5] .

فهذا عن الأمم، وأمّا عن الأفراد فقد قال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلاً﴾ [آل عمران: 145] أي بأجلٍ محدودٍ مقيّد، إلى وقت معلومٍ بقضاء من الله مبروم، وقدر محكم، فالاجالُ محدودةٌ بأزمنة وأمكنة لا يتخّطاها المرءُ، ولا يتعداها، ولو سلك كلَّ سبيل[(93)] .

ولو أنّ العبادَ استحقوا الهلاك والفناء بسبب ظلمهم ما بادرهم الله بذلك حتى يبلغوا منتهى أعمارهم وغاية اجالهم، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَآبَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ *﴾ [النحل: 61] .

ويقول تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَآبَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً*﴾ [فاطر: 45] .

والمرءُ لا يدري متى يحلُّ به ذلك الأجلُ ؟ لأنّ ذلك من علم الغيب، الذي طواه الله عن خلقه، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ *﴾ [لقمان: 34] .

وقد بيّنَ النبيُّ (ﷺ) أنّ هذه الخمسُ هي مفاتيح الغيب التي أخفاها عن عباده[(94)]، فالإنسان لا يعلم متى ينقضي أجلُه، وفي أي بقعةٍ يكونُ مضجعه، أفي برٍ أم في بحرٍ ؟ وفي سهلٍ أم حَزَنٍ ؟ وقريبٌ ذلك أم بعيدٌ ؟ كما قال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ

شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ *﴾ [الأعراف: 185] .

ولقد دعا الرسول (ﷺ) إلى المبادرة بالطاعة، وذلك باستنفاد العمر في ملازمةِ التقوى، وبذل الصحة قبل حلول العلل، ومجاهدة النفس قبل وقوع الأجل[(95)]، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أخذَ رسولُ اللهِ (ﷺ) بمنكبي فقال: « كُنْ في الدُّنيا كأنَّكَ غريبٌ أو عابرُ سبيلٍ » وفيه: « خُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لموتِك »[(96)]، وكان ابن عمر يقول: « إذا أمسيتَ فلا تَنْتَظِرِ الصباحُ، وإذا أصبحتَ فلا تَنْتَظِرِ المساءَ»[(97)]، وفي رواية: « وعُدَّ نفسَك في أهلِ القبورِ »[(98)] . والمعنى استمر سائراً ولا تفتر، فإنّكَ إن قصّرتَ انقطعتَ وهلكتَ[(99)] .

* * *

المبحث الثالث: حياة البرزخ

البرزخ: اسمُ ما بينَ الدُّنيا والآخرة من وقتِ الموت إلى البعثِ، قال تعالى: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ *﴾ [المؤمنون: 100] .

وجاءت النصوصُ بإثبات الحياة في البرزخ، وهي حياةٌ تخالِفُ الحياة المعهودة في الدنيا، فالله سبحانه جعل الدُّورَ ثلاثاً: دارَ الدنيا، ودارَ البرزخ، ودارَ القرار، وجعل لكلّ دارٍ أحكاماً تختصُّ بها، وركّبَ هذا الإنسانَ من بدن ونفس، وجعل أحكام دار الدنيا على الأبدان والأرواح تبعاً لها... وجعل أحكام البرزخِ على الأرواحِ والأبدانِ تبعاً لها... فإذا كان يومُ حشرِ الأجساد، وقيام الناس من قبورهم صار الحكم والنعيمُ والعذابُ على الأرواح والأجساد ظاهراً أبدياً أصلاً[(100)].

ومما ينبغي أن يُعلم أنَّ عذابَ القبر ونعيمه، اسمٌ لعذاب البرزخ ونعيمِه، وهو ما بين الدنيا والآخرة[(101)]، قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ *لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ *﴾ [المؤمنون: 99 ، 100] .

أولاً . الآيات القرآنية الدّالةُ على عذاب القبر:

1 . قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنَزلَ اللهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: 93] ففي قوله: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ فالآية تبيّنُ المحتضرِ الكافر، وأنّه تأتيه الملائكةُ، وتخبره أنّه سوف يعذَّبُ اليومَ، يعني يومَ موته، وهذا يدلُّ أنَّ العذابَ يكون قبلَ يوم القيامة، ففي الآية دليلٌ واضحٌ على عذاب القبر، ولو تأخّر عنهم العذابُ إلى انقضاء الدنيا لما صحَّ أن يقال لهم:

2 . قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ *﴾ [التوبة: 101] قوله تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾: المرّةُ الأُولى في الدنيا من المصائبِ في النفس أو المالِ أو الولدِ أو غير ، وأمّا المرةُ الثانيةُ ففي القبرِ، وأمّا عذابُ الآخرة فذكره بقوله: ﴿ثم يردون إلى عذاب عظيم﴾.

3 . قال تعالى: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ *النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ *﴾ [غافر: 45 . 46] وهذا النصُّ من النصوص الصريحةِ في عذاب

القبر، فإنَّ هذا العذابَ الذي حصل لآلِ فرعون إنّما كانَ بعدَ موتهم، وأمّا عذابُ الآخرة فهو المذكورُ بعدَه بقوله: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ*﴾.

4 ـ قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ *﴾ [السجدة: 21] وقد احتجَّ جماعةٌ منهم عبد الله بن عباس بهذه الآية على عذابِ القبرِ، فإنّه سبحانه أخبرَ أنَّ له فيهم عذابين: أدنى وأكبر، فأخبرَ أنّه يذيقُهم بها بعد عذابَ الدنيا[(102)]، ولهذا قال: يعني به عذاب القبر.

5 ـ قال تعالى: ﴿كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ * وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ *﴾ [الطور: 45 ـ 47] عن قتادةَ أنَّ ابنَ عباسٍ كان يقول: إنّكم لتجدون عذابَ القبرِ في كتاب الله.

6 ـ قال تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ *حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ *﴾ [التكاثر: 1 ـ 2] فيها الحديثُ عن عذابِ القبرِ[(103)] .

7 ـ قال تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا *﴾ [نوح: 25] قوله: ﴿فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ بعد ، وهذا يدلُّ على عذاب القبر[(104)] .

ثانياً ـ فتنة القبر وسؤال الملكين:

لقد جاءت الأحاديثُ بفتنةِ القبرِ وسؤالِ الملكينِ، وممّا يُستَدَلُّ به من القرآن على سؤال الملكين قول الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخرة وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ *﴾ [إبراهيم: 27] .

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه أنّ رسولَ اللهِ (ﷺ) قال: « المسلمُ إذا سُئِلَ في القبرِ يشهدُ أنْ لا إله إلاّ الله، وأنْ محمَّداً رسولُ اللهِ، فذلك قولُه تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخرة﴾ [إبراهيم: 27] »[(105)] .

وفي (الصحيحين)[(106)] عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال نبيُّ الله(ﷺ): « إنّ العبدَ إذا وُضِعَ في قبرِه، وتولّى عنه أصحابُه، إنّه يسمَعُ قرعَ نعالِهم، قال: يأتيه ملَكانِ فَيَقْعُدانِ، فيقولانِ لَهُ: ما كنتَ تقولُ في هذا الرجلِ، قال: فأمّا المؤمنُ فيقولُ: أشهدُ أنّه عبدُ اللهِ ورسولُه، قال: فيقالُ لهُ: انظرْ إلى مقعدِكَ مِنَ النَّارِ، قد أبدلَكَ اللّهُ به مقعداً من الجنّةِ » قال نبيُّ الله(ﷺ): « فيراهما جميعاً » .

«وأما المنافقُ والكافرُ فيقالُ له: ما كنتَ تقولُ في هذا الرجلِ ؟ فيقولُ: لا أدري، كنتُ أقولُ ما يقولُ الناسُ، فيقال: لا دَرَيْتَ ولا تَلَيْتَ، ويُضْرَبُ بمطارقَ من حديدٍ ضربةً، فيصيحُ صيحةً يسمعُها مَنْ يليه غيرَ الثقلين» .

1 ـ اسمُ الملكين (منكر ونكير):

عن أبي هريرةَ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ اللهِ (ﷺ): «إذا قُبِرَ الميتُ، أتاه ملكانِ أسودانِ أزرقانِ، يقال لأحدِهما المنكرُ، وللاخرِ النكيرُ، فيقولانِ: ما كنتَ تقولُ في هذا الرجلِ ؟ فيقولُ ما كان يقولُ: هو عبدُه ورسولُه، أشهدُ أنْ لا إلهَ إلاّ الله، وأنّ محمّداً عبدُه ورسولُه، فيقولانِ: قد كُنّا نعلمُ أنّكَ تقولُ هذا، ثم يُفْسَحُ له في قبرِه سبعونَ ذراعاً في سبعين، ثم ينوَّرُ له فيه، ثم يقالُ له: نَمْ، فيقولُ: أرجعُ إلي أهلي فأخِبرُهم، فيقولانِ: نم كنومةِ العروسِ الذي لا يوقظُه إلاّ أحبُ أهلِه إليه، حتّى يبعثَه اللهُ مِنْ مضجعِه ذلك .

وإنْ كانَ منافِقاً قال: سمعتُ الناسَ يقولونُ فقلتُ مثلَه لا أدري، فيقولانِ: قد كنّا نعلمُ أنّكَ تقولُ ذلك، فيقالُ للأرضِ التئمي عليه، فتلتئِمُ عليه، فتختلِفُ فيها أضلاعُه، فلا يزالُ فيها معذَّباً حتى يبعثَه الله مِنْ مضجعِه ذلك»[(107)] .

2. عودة الروحِ إلى الميت عند السؤال:

وممّا يستدلُّ به على عودةِ الروح إلى جسدِ الميّتِ عند السؤال حديث البراء بن عازب رضي الله عنه الذي قال: خرجنا مع النبيّ (ﷺ) في جنازةِ رجلٍ من الأنصارِ، فانتهينا إلى القبرِ، ولما يُلْحَدُ، فجلسَ رسولُ اللهِ (ﷺ)، وجلسنا حولَهُ، وكأنَّ على رؤوسنا الطيرَ، وفي يدِهِ عُوْدٌ ينكتُ في الأرضِ، فرفعَ رأسه فقال: « استعيذوا باللهِ مِنْ عذابِ القبرِ » (مرتين أو ثلاث) .

ثم قال: « إنّ العبدَ المؤمنَ إذا كانَ في انقطاعٍ من الدنيا، وإقبالٍ من الآخرة، نزلَ إليهِ ملائكةٌ من السماءِ، بيضُ الوجوهِ، كأنَّ وجوهَهم الشمسُ، معهم كفنٌ من أكفانِ الجنةِ، وحَنوطٌ من حَنوطِ الجنّةِ، حتى يَجْلِسوا منه مَدَّ البصرِ، ثم يجيءُ ملكُ الموتِ[5]، حتى يجلسَ عندَ رأسِهِ، فيقولُ: أيتُها النفسُ الطيّبةُ، اخرجي إلى مغفرةٍ مِنَ اللهِ ورضوانٍ، قال: فتخرجُ تَسِيْلُ كما تسيلُ القَطْرَةُ مِنْ فِي السقّاءِ، فيأخُذُها، فإذا أخذَها لم يَدَعوها في يدِهِ طرفةَ عينٍ، حتّى يأخذَوها، فيجعلوها في ذلك الكفنِ، وفي ذلكَ الحنوطِ، ويخرجُ منها كأطيبِ نفحةِ مسكٍ وُجِدَتْ على وجهِ الأرضِ، قال: فيصعدون بها، فلا يمرّونَ (يعني بها) على ملأ من الملائكةِ إلا قالوا: مَا هذا الروحُ الطيِّبُ ؟ فيقولون: فلانُ بنُ فلانٍ، بأحسنِ أسمائهِ التي كانوا يسمّونه بها في الدنيا، حتّى ينتهوا بها إلى السماءِ الدُّنيا، فَيَسْتَفْتِحُوْنَ له، فَيُفْتَحُ لهم، فيشيّعهُ مِنْ كلِّ سماءٍ مقرَّبوها إلى

السماءِ التي تليها، حتّى يُنتهى به إلى السماءِ السابعةِ، فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: اكتبوا كتابَ عَبْدِي في عليّين، وأعيدوه إلى الأرضِ، فإِنِّي منّها خلقتُهم، وفيها أُعيدُهم، ومنها أُخرجُهم تارةً أُخرى .

قال: فتعادُ روحُه في جسدِه، فيأتيه ملكانِ فيُجْلِسَانه فيقولانِ له: مَنْ ربُّكَ ؟ فيقولُ: رِبِّيَ اللهُ . فيقولانِ له: ما دينُكَ ؟ فيقول: دينيَ الإسلامُ . فيقولان له: ما هذا الرجلُ الذي بُعِثَ فيكم؟ فيقولُ: هو رسولُ اللهِ (ﷺ) . فيقولان له: وما عملُكَ؟ فيقول: قرأتُ كتابَ اللهِ، فامنتُ به وصدّقتُ، فينادى منادٍ في السماءِ: أنْ صدقَ عبدي، فأفرشوه مِنَ الجنّةِ، وألبسوه من الجنّةِ، وافتحوا له باباً إلى الجنّةِ، قال: فيأتيه من رَوْحِها وطيبِها، ويفسحُ له في قبرِهِ مدُّ بصره .

قال: ويأتيه رجلٌ حَسَنُ الوجهِ، حَسَنُ الثيابِ، طيّبُ الريح، فيقول: أبشرْ بالذي يسرُّكَ، هذا يومُكَ الذي كنتَ توعدُ . فيقول له: مَنْ أنتَ؟ فوجُهَك الوجهُ يجيءُ بالخيرِ، فيقول: أنا عملُكَ الصالحُ، فيقول: ربِّ أقمِ الساعةَ، حتَّى أرجعَ إلى أهلي ومالي .

قال: وإنّ العبدَ الكافِرَ إذا كانَ في انقطاعٍ من الدنيا، وإقبالٍ من الآخرة، نزلَ إليه مِنَ السماءِ ملائكةٌ، سودُ الوجوهِ، معهم المسوحُ، فيجلسون منه مدَّ البصرِ، ثم يجيءُ ملكُ الموتِ، حتى يجلسَ عند رأسِهِ، فيقول: أيتُها النفسُ الخبيثةُ، اخرجي إلى سخطٍ مِنَ اللهِ وغضبٍ، قال: فتفرَّقُ في جسدِهِ، فينتزِعُها

كما يُنْتَزَعُ السفودُ من الصوفِ المبلول، فيأخذها، فإذا أخذَها لم يدعوها في يده طرفةَ عينٍ حتّى يجعلوها في تلكَ المسوحِ، ويخرجُ منها كأنتنِ ريحِ جِيْفَةٍ وُجِدَتْ على وجهِ الأرضِ، فيصعدونَ بها، فلا يمرّون بها على ملأٍ من الملائكةِ إلاّ قالوا: ما هذا الروحُ الخبيثُ ؟ فيقولونَ: فلانُ بنُ فلانٍ، بأقبحِ أسمائه التي كان يسمَّى بها في الدنيا، حتى يُنْتَهَى به إلى السماءِ الدُّنيا، فيُستفتَحُ له، فلا يُفْتَحُ له، ثم قرأ رسولُ اللهِ (ﷺ): ﴿لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: 40] فيقول الله عزّ وجلّ: اكتبوا كتابه في سجّين، في الأرضِ السُّفلى، فتُطرَحُ روحُه طرحاً، ثم قرأ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ *﴾ [الحج: 31] فتعادُ روحُه في جسدِهِ، ويأتيه ملكانِ فيُجْلِسَانِه، فيقولان لَهُ: مَنْ ربُّكَ؟ فيقولُ: هاه هاه لا أدري، فيقولان له: ما دينُكَ ؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري، فيقولان: ما هذا الرجلُ الذي بُعِثَ فيكم ؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري، فينادِي منادٍ منَ السماءِ أنْ كذبَ، فأفرشوا له من النار، وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه مِنْ حرِّها، وسَمُومها، ويُضيَّقُ عليه قبرُه، حتّى تختلفَ فيه أضلاعُه .

ويأتيه رجلٌ قبيحُ الوجه، قبيحُ الثيابِ، منتنُ الرِّيحِ، فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومُكَ الذي كنتَ توعَدُ، فيقول: مَنْ أنَت؟ فوجهُك الوجهُ يجيءُ بالشرِّ، فيقول: أنا عملُك الخبيثُ، فيقول: ربِّ لا تُقِمِ الساعَة»[(108)].

3. ما ينتفِعُ به الميتُ مِنْ عملِ الأحياء:

ينتفعُ الأمواتُ مِنْ سعي الأحياء بأمرين :

أحدُهما: ما تسبّبَ إليه الميتُ في حياته .

والثاني: دعاءُ المسلمين واستغفارهم له، والصدقةُ والحجُّ .

والأدلة على ذلك منها :

أ . قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ **[الحشر: 10]** فأثنى الله عليهم باستغفارهم للمؤمنين قبلهم، فدلَّ على انتفاعهم باستغفارِ الأحياء .

ب . والأدعيةُ التي وردت بها السنّةُ في صلاة الجنازة مستفيضةٌ . وكذا الدعاءُ له بعدَ الدفن، ففي (سنن أبي داود)[(109)] من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه ، قال: كان النبيُّ (ﷺ) إذا فرغَ مِنْ دفنِ الميّتِ وقفَ عليه فقال: « استغفروا لأخيكم، وأسألوا له التثبيتَ، فإنَّه الانَ يُسْأَلُ » .

وكذلك الدعاءُ لهم عندَ زيارة قبورهم، كما في (صحيح مسلم)[(110)] من حديث بُريدةَ بن الحَصِيْب، قال: كان رسولُ اللهِ (ﷺ) يعلّمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا: « السلامُ عليكم أهلَ الديارِ مِنَ المؤمنينَ والمسلمينَ، وإنّا إنْ شاءَ الله بِكُم لاحقون، نَسْأَلُ الله لنا ولكم العافيةَ » .

وأما وصول ثواب الصدقة ففي (الصحيحين)[(111)] عن عائشةَ رضي الله عنها: أنّ رجلاً أتى النبيَّ (ﷺ) فقال: يا رسول الله، إنَّ أُمي افتُلتت نفسُها، ولم توصِ، وأظنُّها لو تكلّمتْ تصدّقتْ، أفلها أجرٌ إنْ تصدّقتُ عنها ؟ قال: « نعم » .

وأما وصولُ ثوابِ الصوم، ففي (الصحيحين)[(112)] عن عائشة رضي الله عنها، أنَّ رسولَ الله (ﷺ) قال: « مَنْ ماتَ وعليه صيامٌ صامَ عنه وليُّه » .

وأما وصول ثواب الحج ففي (صحيح البخاري)[(113)] عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما: أنَّ امرأةً من جُهينةَ جاءتْ إلى النبيّ (ﷺ)، فقالتْ: إنّ أُمي نذرتْ أن تحجَّ فلم تحجَّ حتّى ماتتْ، أفأحجُّ عنها ؟ قال: « نعم حُجّي عنها، أرأيتِ لَوْ كانَ على أُمُّكِ دَيْنٌ، أكنتِ قاضيتَهُ ؟ اقضوا اللهَ، فاللهُ أحقُّ بالوفاءِ» .

وقد دل على انتفاعِ الميّتِ بالدعاءِ إجماعُ الأمةِ على الدعاءِ له في صلاةِ الجنازةِ .

وأجمعَ المسلمونَ على أنَّ قضاءَ الدَّينِ يُسقطه من ذمّةِ الميت، ولو كان من أجنبي، ومن غير تركته، وقد دلَّ على ذلك حديثُ أبي قتادة حيثُ ضَمِن الدينارينِ عن الميت، فلمّا قضاهما قال النبيُّ (ﷺ): « الان برّدتْ عليه جِلْدُتُه»[(114)] . وهذا جارٍ على قواعد الشرع، وهو محضُ القياس، فإنَّ الثوابَ حقُّ العامل، فإذا وهبه لأخيه المسلم لم يُمنع من ذلك، كما لم يمنعْ من هبةِ ماله له في حياته، وإبرائه له منه بعد وفاته[(115)]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسولَ اللهِ (ﷺ) قال: « إذا ماتَ الإنسانُ انقطعَ عنه عملُه إلاّ مِنْ ثلاثةٍ، إلاّ مِنْ صدقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ يُنْتَفَعُ بهِ، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له»[(116)] .

وقد تحدّث العلماءُ في الصدقاتِ الجارية، وأنّ بابها واسعٌ وكبيرٌ، من بناء المساجد، والابار، والمدارس، والمعاهد، وطباعة العلوم النافعة، وكفالة الأيتام والأرامل، وطلاب العلم ... إلخ .

4 . بكاء السماء على الميت:

قال رسول الله (ﷺ): « ما مِنْ مؤمنٍ إلا وله بابانِ، بابٌ يَصْعَدُ منه عملُه، وبابٌ يَنْزِلُ منه رزقُه، فإذا ماتَ بكيا عليه، فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ*﴾ [الدخان: 29][(117)] .

5. ما يتبع الميت إلى قبره:

قال رسول الله (ﷺ): « يتبعُ الميّتَ ثلاثةٌ، فيرجِعُ اثنانِ، ويبقى واحدٌ، يتبعه أهلُه ومالُه وعملُه، فيرجِعُ أهلُه وماله، ويبقى عملُه»[(118)] .

6. القبر أولُ منازل الآخرة:

قال رسول الله (ﷺ): « إن القبرَ أولُ منزلٍ من منازلِ الآخرة، فإن نجا منه، فما بعدَه أيسرُ منه، وإنْ لم ينجُ منه فما بعدَه أشدُّ منه »[(119)]، وقال رسول الله: « ما رأيتُ منظراً قطُّ إلا القبرُ أفظعُ منه»[(120)] .

7. نعيمُ القبر أوعذابُه ينالُ مَنْ دُفَنَ ومَنْ لم يُدْفَنْ:

عذابُ القبرِ ونعيمُه ينالُ مَنْ دُفِنَ ومن لم يدفن، وأنَّ من أكلته السباعُ أو مُزّقَ جسدُه، أو أُحْرِقَ وذُرَّ رمادُ جسمهِ في البرِّ أو البحر، أو منْ كانَ في ثلاّجاتِ الموتى فترات طويلة، أو مَنْ أُغرق أو صُلِبَ، أو كلُّ من لم يُدْفَنْ بحالٍ من الأحوالِ، فإنّه يناله عذابُ القبرِ أو نعيمُه، وأنه يحيا حياةً برزخيةً حتّى يوم القيامة[(121)] .

8. الحكمةُ من عذابِ القبرِ ونعيمُه:

هناك مجموعةٌ من الحِكَمِ في عذاب القبر ونعيمِه منها :

ـ إظهارُ فضلِ الله تعالى على عباده المؤمنين الصالحين في تنعيمهم في الحياة البرزخية، وإذلال وتعذيب المكذبين العاصين والعياذ بالله .

ـ إظهارُ قدرة الله تعالى في تعذيب العصاة والكافرين، وتنعيم المؤمنين الصّادقين في القبر دون أن يشعرَ بذلك سائرُ البشر .

ـ إنَّ المكلّفين عندما يعلمون أنّ هناك عذاباً في القبرِ أو في الحياة البرزخية، فإنَّ ذلك يكونُ رادعاً ومانعاً لهم عمّا يسوءُ ويشينُ فعلُه في الآخرة.

ـ التحذيرُ من بعضِ الذنوب والمعاصي، والتي يكونُ لها عقوبات خاصة تناسِبُها، كعدم التنزّه من البولِ، والنميمةِ وغير ذلك .

ـ إنّه قد يكونُ العذاب في القبر أو في الحياة البرزخية مكفِّراً لبعضِ الذنوب والمعاصي التي ألَمَّ بها العبدُ في الحياة الدنيا، فيأتي يومَ القيامةِ ولا ذنبَ له .

ـ إنه قد يكون العذابُ في القبر تخفيفاً لعقوبة ذلك العبد في النار يومَ القيامةِ[(122)] .

9 . هل عذابُ القبرِ دائمٌ أم منقطعٌ ؟:

يختلفُ عذابُ العصاةِ من المؤمنين، فمنهم من يعفو الله عنهم فلا يعذّبهم في قبورهم، ومنّهم من تكون معاصيه صغيرةً، فيعذّبون بقدرها، ثم يُرفع عنهم العذاب، وقد ينقطع أو يرتفع بدعاءٍ أو صدقةٍ، أو استغفارٍ، أو ثوابِ حجٍّ[(123)]، أو غيرِها من أعمال الخير، ومنهم من تكونُ معاصيه كبيرةً،

فيستمرُّ به العذابُ لقول النبي (ﷺ): «بينما رجلٌ يجرُّ إزاره من الخيلاء، خُسِفَ به، فهو يَتَجَلْجَلُ في الأرضِ إلى يومِ القيامةِ »[(124)] .

وأمّا الكافرُ والمنافِقُ فيستمرُّ عذابه إلى يوم القيامة، ولا يتوقّفُ، والدليل على ذلك قوله الله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ *﴾ **[غافر: 46]** وفي حديث البراء بن عازب في قصة الكافر: « ثم يُفْتَحُ له بابٌ إلى النارِ، فينظرُ إلى مقعدِهِ فيها حتّى تقومَ الساعةُ »[(125)] .

وأما قول الله تعالى: ﴿يَاوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ **[يس: 52]** قال العلماء: إنّ الكفارَ إذا عاينوا جهنم وأنواعَ عذابها صارَ عذابُ القبرِ في جنبها كالنّوم[(126)] .

وقال الإمام الطبري في قوله تعالى: : هؤلاء المشركون لما نُفخ في الصور نفخة البعث لموقف القيامة فردّت أرواحهم إلى ﴿قَالُوا يَاوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾، وذلك بعد نومة ناموها: وقد ﴿قَالُوا يَاوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾: إنّ ذلك نومةٌ بين النفختين[(127)] .

وقال العلامة الشنقيطي عن هذه الآية: والتحقيقُ أنّ هذا قولُ الكفّار عند البعث، والآية تدلُّ دِلالةً لا لُبْسَ فيها على أنّهم ينامون نومةً قبلَ البعث، كما قال غيرُ واحد، وعند بعثهم أحياء من تلك النومة التي هي نومةُ موتٍ، يقول

لهم الذين أُوتوا العلمَ والإيمان: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَانُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ *﴾، أي هذا البعثُ بعدَ الموتِ[(128)] .

وقال رسول الله (ﷺ): « ما بين النفختين أربعون » قالوا: يا أبا هريرة، أربعونَ يوماً ؟ قال: أبيتُ، قالوا: أربعون سنةً ؟ قال: أبيتُ، قال: أربعون شهراً ؟ قال: أبيتُ . « ويبلى كلُّ شيءٍ من الإنسانِ إلا عُجْبَ ذَنَبِهِ، فيه يركَّبُ الخلقُ »[(129)] وفي هذا الحديثِ دلالةٌ على أنّهم يموتون بين النفختين مقدارَ أربعون، ولم تُحدَّد تلك الأربعون، وإن ذهب بعض أهل التفسير إلى أنها أربعون سنة[(130)] .

وقال النبيُّ (ﷺ): « لا تخيّروني على موسى، فإنَّ الناسَ يُصْعقون يومَ القيامةِ، فأُصعقُ معهم، فأكونُ أولَ من يُفيقُ، فإذا موسى باطِشٌ جانبَ العرشِ، فلا أدري كانَ فيمن صُعِقَ فأفاقَ قبلي، أو كان ممّن استْثَنَى اللهُ»[(131)] .

إنَّ الآيات والأحاديثَ الدّالة على استمرار العذاب، من باب العموم، وقد خُصّصت بآيةِ (يس) وبالأحاديث السابقةِ الذكر في هذا القول[(132)] .

ثالثاً ـ أسباب عذاب القبر :

ما الأسباب التي يُعذَّب بها أصحابُ القبور ؟ الجواب من وجهين، مجمل ومفصل :

أما المجمل: فإنّهم يُعذَّبون على جهلهم بالله، وإضاعتهم لأمره، وارتكابهم لمعاصيه، فلا يعذِّبُ الله روحاً عرفته، وأحبتْه، وامتثلتْ أمره، واجتنبتْ نهيه، ولا بدناً كانت فيه أبداً، فإنّ عذابَ القبرِ وعذاب الآخرة أثرُ غضبِ الله وسخطه على عبده، فَمَنْ أغضبه وأسخطه في هذه الدار، ثم لم يتبْ، ومات على ذلك، كان له من عذابِ البرزخِ بقدر غضبَ اللهِ وسخط عليه، فمستقلٌّ ومستكثِرٌ، ومصدّق ومكذّب .

وأما الجواب المفصل: فقد أخبر النبيُّ (ﷺ) عن الرجلينِ اللذين راهما يعذّبان في قبريهما يمشي أحدُهما بالنميمة بين الناس، ويترك الآخر الاستبراءَ من البولِ، فعذابُ القبرِ من معاصي القلب، والعين، والأذن، والفم، واللسان، والبطن، والفرج، واليد، والرجل، والبدن كله .

فالنمّام، والكذّاب، والمغتاب، وشاهِدُ الزور، وقاذِفُ المحصن، والداعي إلى البدعة، والقائل على اللهِ ورسوله (ﷺ) ما لا عَلِمَ له، والمجازِفُ في كلامه، واكلُ الربا، واكلُ أموال اليتامى ظلماً، واكلُ السُّحتِ من الرشوة، واكلُ مال

أخيه المسلم بغيرِ حقٍّ أو مالِ المعاهَدِ، وشاربُ المسكر، واكلُ لقمة الشجرة الملعونة (الحشيش)، والزَّاني، واللوطي، والسارق، والخائن، والغادر، والمخادع، والماكر، واخذ الربا، ومعطيه، وكاتبه، وشاهداه، والمحلِّل، والمحلَّل له، والمحتالُ على إسقاطِ فرائض الله، وارتكابِ محارمه، ومؤذي المسلمين، ومتتبع عوراتهم، والحاكم بغيرِ ما أنزل الله، والمفتي بخلاف ما شرعه الله، والمعينُ على الإثم والعدوان، وقاتِلُ النفس التي حرّم الله، والمُلْحِدُ في حرم الله، والمعطِّلُ لحقائق أسماء الله وصفاته، الملحِدُ فيها، والمقدِّمُ رأيه وذوقه وسياسته على سنة رسول الله (ﷺ)، والنائحةُ، والمستمع إليها، ونوّاحي جهنم، وهم المغنّون الغناءَ الذي حرّمه الله ورسوله (ﷺ)، والمستمِعُ إليهم، والذينَ يبنون المساجدَ على القبور، يوقدون عليها القناديل والسُّرج، والمطففون في استيفاء ما لهم إذا أخذوا، وهَضْمِ ما عليهم إذا بذلوه، والجبّارون، والمتكبّرون، والمراؤون، والهمّازون، واللّمازون، والطاعنون على السلف، والذينَ يأتون الكهنةَ والمنجّمين والعرّافين، فيسألونهم، ويصدّقونهم، وأعوانُ الظلمةِ الذين باعوا اخرتهم بدنيا غيرهم، والذي يفتخرُ بالمعصية، ويتكثّر بها بين إخوانه وأضرابه وهو المجاهر، والذي لا تأمنه على مالِكَ وحرمتك، والفاحشُ اللسانِ البذيءُ الذي تركه الخلق اتقاء شرّه وفحشه، والذي يؤخِّرُ الصلاةَ إلى اخر وقتها، وينقرها، ولا يذكر الله فيها إلا قليلاً، ولا يؤدّي زكاةَ ماله طيّبةً بها نفسُه، ولا

يحجُّ مع قدرته على الحجِّ، ولا يؤدّي الحقوقَ مع قدرته عليها، ولا يتورّع مِنْ لحظةٍ ولا لفظةٍ ولا أكلةٍ ولا خطوةٍ، ولا يبالي بما حَصّل المال من حلالٍ أو حرامٍ، ولا يصلُ رَحِمَه، ولا يرحمُ المسكينَ، ولا الأرملةَ، ولا اليتيمَ، ولا الحيوانَ البهيمَ، بل يدعُّ اليتيمَ، ولا يحضُّ على طعام المسكين، ويرائي العالمين، ويمنعُ الماعونَ، ويشتغلُ بعيوب الناس عن عيبه، وبذنوبهم عن ذَنْبه، فكلُّ هؤلاء وأمثالهم يُعذبون في قبورهم بهذه الجرائم، بحسب كثرتها وقلتها، وصغيرها وكبيرها، ولما كان أكثرُ الناس كذلك، كان أكثرُ أصحاب القبور معذّبين، والفائز منهم قليل، فظواهِرُ القبور ترابٌ، وبواطنها حسراتٌ وعذاب . . . وظواهرها بالتراب والحجارة المنقوشةُ مبنيّاتٌ، وفي باطنها الدواهي والبليّات تغلي بالحسرات، كما تغلى

القبورُ بما فيها، ويحقُّ لها وقد حيل بينها وبين شهواتها وأمانيها[(133)] .

وهذه بعض أسباب عذاب القبر :

1 . الشرك بالله والكفر به:

من أعظم أسباب عذاب القبر الإشراكُ بالله، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلاَئِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ

تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ *﴾ [الأنعام: 93] .

2. النفاق:

قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ *﴾ [التوبة: 101] سنعذّبهم مرّتين: إحداهما في الدنيا، والآخرى هي عذاب القبر .

3 . النميمةُ وعدم الاستتار من البول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما، مرَّ النبيُّ (ﷺ) على قبرين فقال: «إنّهما ليعذّبانِ، وما يعذّبانِ في كبيرٍ»، ثم قال: «بلى، أمّا أحدُهما فكان يسعى بالنميمةِ، وأما أحدُهما فكان لا يَسْتَتِرُ مِنْ بوله» . قال: ثم أخذَ عوداً رطباً فكسره باثنتين، ثم غرز[(134)]كلَّ واحدٍ منهما على قبرٍ، ثم قال: « لعلّه يخفَّفُ عنهما ما لم يَيْبَسَا »[(135)] .

4 . الغُلول[(136)]:

عن أبي رافع رضي الله عنه قال: مررتُ مع رسولِ اللهِ (ﷺ) بالبقيع، فقال: « أُفٍّ لكَ، أفٍّ لَكَ » فظننتُ أنّه يريدني فقلتُ: يا رسول الله أحدثتُ شيئاً ؟

قال: « وما ذاك؟ » قلت: أُفَّفتَ منّي . قال: « لا، ولكنّ صاحبَ هذا القبرِ فلانٌ، بعثتُه ساعياً على بني فلانٍ فغلّ درعاً، فَدُرّعِ الان مثلَها مِنَ النّارِ»[(137)] .

5. جَرُّ الإزارِ من الخيلاء:

عن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ النبيَّ (ﷺ) قال:

« بينما رجلٌ يجرُّ إزاره من الخيلاءِ خُسِفَ به، فهو يُجَلْجِلُ[(138)] في الأرضِ إلى يوم القيامة »[(139)]، وإنما خُصّ الإزارُ بالذكر، لأنّه هو الذي يظهرُ به الخيلاء غالباً[(140)] .

6. حبسُ المدين في قبره بدينه:

روى سعد بن الأطول رضي الله عنه، أنّ أخاه ماتَ، وترك ثلاثمئة درهم وترك عيالاً، قال: فأردتُ أن أنفقَها على عياله، قال: فقال لي نبيُّ الله (ﷺ): «إنّ أخاكَ محبوسٌ بِدَيْنِار، فَاذْهَبْ فاقضِ عنه» فذهبتُ فقضيتُ عنه ثم جئتُ، قلت: يا رسول الله، قد قضيتُ عنه إلا دينارينِ ادّعتْهما امرأةٌ، وليست لها بينةٌ، قال: « أعطِها فإنَّها محقَّةٌ » وفي رواية « صادقة »[(141)] .

7. عقوبةُ الاخذِ بكتاب الله، ثم رفضه، والنائم عن الصلاة المكتوبة:

فقد جاء في حديث سَمُرَةَ بن جُنْدب رضي الله عنه الطويل جواب الملكين عن سؤال النبي (ﷺ) عمّا رأى في ليلته معهما، فقالا له: « أمّا الرَّجُلُ الأوّلُ الذي أتيت عليه يُثْلَغُ رأسُه بالحَجَرِ[(142)] فإنّه الرجلُ يأْخُذُ بالقرآن فيرفُضُهُ، وينامُ عن الصلاةِ المكتوبة »[(143)] .

فالجزاءُ من جنس العمل، فلأنّ هذا الرجلَ رفضَ القرآن، وجعلَه وراءَ ظهره، وتثاقَل عنه، وكذلك عن الصلاة المكتوبة، فلم يصلّها مع عبادِ الله في جماعة المسلمين، بل ثقل رأسه على الفراش، فجزاؤه أن يُثْلَغَ ويرضَخَ هذا الرأسُ الذي هذا فعلُه وشأنه، وهكذا يعذَّبُ إلى قيامِ الساعةِ، فقد جاء في بعض الرواياتِ: « . . . فيفعلُ به إلى يومِ القيامةِ »[(144)] .

8. عقوبةُ الكذّاب:

وفي حديث سمرة أيضاً ما أجابَ الملكانِ عن عقوبة ذلك الرجل الذي يُشَرْشَرُ، ويمزَّقُ، ويقطّعُ شِدْقُه وعينُه ومِنْخَرُه إلى الخلفِ، إنّه الكذَّابُ الذي يفشو كذبه، وينتشر على الملأ، حيث قالا للنبيّ (ﷺ): «..وأمّا الرجلُ الذي أتيتَ عليه يُشَرْشِرُ شِدْقُه إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه، وعينه إلى قفاه، فإنّه الرَّجُلُ يغدو من بيته فيكذِبُ الكذبةَ تبلغُ الافاق»[(145)] فانظر إلى عقوبة

هذا الداء العضال والمرض الاجتماعي الذي يجب على المسلم تحاشيه، فإنّه من صفات المنافقين عياذاً بالله من كلِّ سوءٍ[(146)] .

9 . عقوبةُ الزّناة والزواني:

في حديث سمرة أيضاً المتقدِّمِ جاء فيه: «...فانطقنا، فأتينا على مثل التنّورِ » قال: فأحْسِبُ أنّه كان يقول: « فإذا فيه لغطٌ وأصواتٌ قال: فاطّلعنا فيه، فإذا فيه رجالٌ ونساءٌ عراةٌ، وإذا هم يأتيهم لهبٌ من أسفلِ منهم، إذا أتاهم ذلك اللهبُ ضَوْضَوْا» أي صاحوا. وفي آخر الحديث: «وأمّا الرجالُ والنساءُ العراةُ الذين هم في مثل بناءِ التنور، فإنّهم الزُناةُ والزواني»[(147)].

ومناسبة العري لهم لاستحقاقهم أن يفضحوا، لأنّ عادتهم أن يستتروا في الخلوة، فعوقبوا بالهتك، والحكمةُ في إتيان العذاب من تحتهم كونُ جنايتهم من أعضائهم السفلى[(148)] .

10 . عقُوبة اكل الربا:

وفي الحديث السابق أيضاً: «... فانطلقنا فأتينا على نهرٍ حسبتُ أنّه كانَ يقول أحمر مثل الدم، وإذا في النهرِ رجلٌ سابحٌ يَسْبَحُ، وإذا على شطِّ النهرِ رَجُلٌ قد جمع عِنْدَه حجارةً كثيرةً، وإذا ذلك السابحُ يَسْبَح ما يَسْبَحُ، ثم يأتي ذلك الذي قد جمعَ عندَهُ الحجارةَ، فَيَفْغَرُ[(149)] (أي يفتح) له فاه، فيُلْقِمَه

حَجَراَ، فينطلِقُ يسبحُ ثم يرجعُ إليه، كلّما رجعَ إليه فغرَ فاهُ، فألقمه حَجَراً...» الحديث، وفي اخر الحديث: « وأمّا الرجلُ الذي أتيتَ عليه يسبحُ في النهرِ ويُلْقَمُ الحجرُ فإنّه اكلُ الربا »[(150)] .

11 . الإفطارُ في رمضان من غير عُذرٍ:

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال سمعتُ رسول الله (ﷺ) يقول: « بينما أنا نائمٌ أتاني رجلانِ، فأخذا بضبعيَّ، فأتياني جبلاً وعراً، فقالا: اصعد، فقلتُ: إنِّي لا أطيقُه، فقالا: إنا سنسهّله لك، فصعدتُ حتى إذا كنتُ في سواء الجبلِ إذا بأصواتٍ شديدةٍ، قلتُ: ما هذه الأصواتُ؟ قالوا: هذا عواءُ أهلِ النارِ، ثم انطلقَ بي، فإذا أنا بقومٍ معلّقين بعراقيبهم، مشققة أشداقُهم دماً، قال: قلت: مَنْ هؤلاء؟ قال: الذين يُفْطِرونَ قبل تحلّة صومهم»[(151)].

12 . مَنْ حَرَمَتْ رضيعَها من ثديها:

إذا عمدت الأم إلى حرمان ابنها مِنْ هذا اللبن الذي خلفه الله تعالى في ثديها، وأعطته بدلاً منه لبناً صناعياً لا يقومُ مقامه، ولا يماثله . وهل يصنع الناس كما يصنع بهم؟ فإنَّ النتيجة أنَّ الوليدَ سينشأُ ضعيفاً، وتعاقب الأم على ذلك في قبرِها بعد موتها، ففي حديث أبي أمامة: «... ثم انطُلِقَ بي،

فإذا أنا بنساءٍ تَنْهَشُ ثُدْيُهنَّ الحياتُ قلت: ما بالُ هؤلاءِ؟ قال: هؤلاء يمنعنَ أولادهن ألبانهن »[(152)] .

13 . حبس الحيوان وتعذيبه:

ففي حديثِ جابرٍ في صلاة الكسوف قال النبيُّ(ﷺ): «... وحتى رأيتُ فيها صاحبة الهرّة التي ربطتْها، فلم تطعِمها، ولم تَدعْها تأكلُ مِنْ خَشَاشِ[(153)] الأرضِ، حتى ماتتْ جوعاً »[(154)] .

14 . الذين يقولون ما لا يفعلون:

قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ *﴾ [البقرة: 44] .

وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ *كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ *﴾ [الصف: 2 . 3] .

وقال رسول الله (ﷺ): « رأيتُ لَيْلَةَ أُسرِيَ بي رجالاً تُقْرَضُ شِفَاهُهُم بِمَقارِيْضَ مِنْ نارٍ، فَقُلْتُ: مَنْ هؤلاءِ يا جِبْرِيْلُ ؟ فقالَ: الخطباءُ مِنْ أُمَّتِكَ، يأمُرُوْنَ النَّاسَ بِالبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ يَتْلُوْنَ الكِتَابَ، أفلا تَعْقِلُوْنَ»[(155)].

15 . النياحة على الميت:

قال (ﷺ):«الميّتُ يُعذَّبُ في قبرِهِ بما نِيْحَ عليه»[(156)] .

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله (ﷺ): «ما مِنْ مَيِّتٍ يموتُ فيقومُ باكِيْهِم فيقولُ: واجبلاه، وَاسَنَدَاهُ، أَوْ نحو هذا، إلاّ وُكِّلَ به ملكانِ يَلْهَزانِهِ: أهكَذَا كُنْتَ؟!»[(157)] . وهذا محمولٌ على أنّه أوصاهم بذلك، أو علم أنّهم سينوحون عليه ثم لَمْ يَنْهَهُمْ، قال ابن المبارك: إذا كان ينهاهم في حياته ففعلوا شيئاً من ذلك بعدَ وفاته لم يكن عليه شيءٌ، والعذابُ عندَهم بمعنى العقاب .

16 . السرقة:

وأمّا عذابُ السارقِ في البرزخِ ففيه حديثُ رسول الله (ﷺ)، عن جابرٍ حيث قالَ رسولُ اللهِ: « ... وحتّى رأيتُ فيها صاحِبَ المِحْجَنِ[(158)] يجرُّ قُصْبَهُ في النارِ، كان يسرقُ الحاجَّ بِمِحْجَنِهِ، فَإِنْ فُطِنَ له قال: إنّما تعلّق بِمِحْجَنِي، وإنْ غُفِلَ عنه ذهبَ بِهِ »[(159)] .

17 . الإعراض عن ذكر الله:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى *﴾ **[طه: 124]** وفسرتِ المعيشةُ الضَّنْكُ بعذاب القبر، ولا ريبَ أنّه من

المعيشةِ الضنكِ[(160)]، فالمعيشةُ الضنكُ لازمةٌ لمن أعرض عن ذكر الله الذي أنزله على رسوله (ﷺ) في دنياه، وفي البرزخ، وفي يوم معاده[(161)] .

والآية تتناول ما هو أعمُّ منه[(162)] .

رابعاً ـ الأسباب المنجية من عذابَ القبر:

من السباب المنجية من عذاب القبر، تجنّب تلك الأسباب التي تقتضي عذابَ القبر، ومن أنفعها أن يجلسَ الرجلُ عندما يريدُ النومَ لله ساعةَ يحاسِبُ نفسه فيها على ما خسره وربحه في يومه، ثم يجدّدُ توبةً نصوحاً بينه وبين الله، فينامُ على تلك التوبة، ويعزِمُ على أن لا يعاوِدَ الذنبَ إذا استيقظَ، ويفعل هذا كلَّ ليلةٍ، فإنْ ماتَ من ليلته مات على توبة، وإن استيقظَ مستقبِلاً للعملِ مسروراً بتأخير أجلِه حتّى يستقبلَ ربَّه، ويستدركَ ما فاته، وليس للعبدِ أنفعُ من هذه النومة، ولا سيّما إذا ذلك عقّب ذكرِ الله، واستعمال السُّنَنِ التي وردتْ عن رسولِ اللهِ (ﷺ) عندَ النومِ حتّى يغلبه النومُ، فمن أرادَ اللهُ به خَيْراً وفّقه لذلك، ولا قوة إلا بالله[(163)] .

أما الجواب المُفصّل فنذكر أنّ مما ينجي من عذاب القبر :

1 . توحيد الله تعالى:

لقد كان توحيدُ الله سبحانه دوماً في مقدّمةِ الأعمال الصالحة، لأنّه أساسها وأصلها الذي تنبني عليه، وإذا فُقِدَ أو خُرِمَ انهارَ صرحُها، وتهاوى بنيانُها، وهو أعظمُ عاملٍ للثبات في جميع المواطن، وفي هذا الموطنِ جاء الدليلُ من الكتاب والسنة على أهميةِ التوحيدِ في ثباتِ المؤمن في القبر[(164)]، قال الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخرة وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ *﴾ [إبراهيم: 27] والقولُ الثابتُ هو كلمةُ التوحيدِ، وهي شهادةُ ألاّ إله إلا الله، وأنّ محمّداً رسولُ اللهِ . فلا يثبتُ في القبرِ إلا الموحّدُ الذي عرف الله حقَّ المعرفةِ، وامنَ به إيماناً صادقاً، ولم يعرف عبادة لسواه، بل وحّده في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته[(165)] .

2 . الاستقامة على طاعة الله عزّ وجلّ:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ *﴾ [فصلت: 30] . فلقد أجرى اللهُ الكريمُ عادته بكرمه أنّ مَنْ عاشَ على شيءٍ مات عليه، ومن ماتَ على شيءٍ بُعِثَ عليه، فمن عاش على الطاعةِ مُخْلصاً لله، ومتّبعاً له، ومتّبِعاً

لهديِ رسول الله (ﷺ)، فإنّه يموتُ على الطاعة ، وينوّرُ الله له قلبه بتلك الطاعة، بل يصبحُ قبرُهُ روضةً من رياضِ الجنةِ جزاءً لكلِّ لحظةٍ عاشها في طاعة الله جلّ وعلا[(166)] .

3 . الصلاة والزكاة والصيام وفعل الخيرات:

قال النبيُّ (ﷺ): «إنّ الميتَ إذا وُضِعَ في قبرِهِ إنَّه يسمعُ خَفْقَ نعالِهِمْ حينَ يولوّن عَنْهُ، فإنْ كانَ مؤمناً كانت الصلاةُ عندَ رأسِهِ، وكانَ الصيامُ عن يمينِهِ، وكانتِ الزكاةُ عن شمالِهِ، وكان فِعْلُ الخيراتِ مِنَ الصَّدَقَةِ والصِّلَةِ والمعروفِ والإحسانِ إلى الناسِ عِنْدَ رِجْلَيْهِ، فَيُؤْتَى مِنْ قِبَلِ رَأْسِهِ، فتقولُ الصلاةُ: ما قِبَلِي مَدْخَلٌ، ثم يُؤْتّى مِنْ قِبَلِ رِجْلَيْهِ، فيقولُ فعْلُ الخَيْرَاتِ من الصّدَقَةِ والصِّلَةِ والمعروفِ والإحسانِ إلى الناسِ: ما قِبَلِي مَدْخَلٌ، فيقالُ له: اجلِسْ، فَيَجْلَسُ، وقد مُثِّلَتْ لهُ الشمسُ، وقد أُدنيتْ للغروبِ، فيقالُ له: أرأيتُكَ هذا الرجلُ الذي كانَ فيكُم، ما تقولُ فيه، وماذا تشهدُ بِهِ عليه؟ فيقولُ: دعوني حتّى أُصلِّي، فيقولون: إنَّك سَتَفْعَلُ، أخبرْنا نسألُكَ عنه، أرأيتُكَ هذا الرجلَ الذي كانَ فيكم ما تقولُ فيه، وماذا تشهدُ عليه ؟ قال: فيقول: محمَّدٌ، أشهدُ أنَّه رسولُ اللهِ، وأَنَّه جاءَ بالحقِّ مِنْ عندِ اللهِ، فيقال له: على ذلك حييت، وعلى ذلك مت، وعلى ذلك تبعث إن شاء الله، ثم يفتح له باب من أبواب الجنة، فيقالُ له: هذا مقعدُكَ منها، وما أعدَّ اللهُ لكَ فيها، فيزدادُ غبطةً وسروراً، ثم

يُفْتَحُ له بابٌ من أبوابِ النَّارِ، فيُقالُ له: هذا مقعدُكَ منها، وما أعدَّ الله لكَ فيها لو عصيتَهُ، فيزدادُ غبطةً وسروراً، ثم يُفْسَحُ له في قبرِهِ سبعونَ ذراعاً، وينوَّرُ له فيه، ويُعَادُ الجسدُ لِمَا بَدَأَ منه، فَتُجعْلُ نسمتُه[(167)]، في النسيم الطيّبِ، وهو طيرٌ يعلَّق[(168)] في شَجَرِ الجنةِ، قال: فذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخرة وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ *﴾ [إبراهيم: 27]»[(169)].

لقد بيَّنتِ الأحاديثُ أنَّ لهذه الطاعاتِ أثراً عظيماً في القبر، فهي تحيطُ بالمؤمن من جميع جوانبه، وتحميه وتدافع عنه[(170)] .

4 . الشهادة في سبيل الله تعالى:

قال تعالى: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ *فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ*﴾ [آل عمران: 169 . 170] .

وقد جاء بيانُ ذلك في حديث ابن مسعود رضي الله عنه عندما سأله مسروقٌ عن معنى الآية الأُولى فقال: أمّا إنّا قد سألنا عن ذلك رسولَ اللهِ (ﷺ) فقال: « أرواحُهم في جوفِ طيرٍ خُضْرٍ، لها قناديلُ معلقةٌ بالعرشِ، تسرحُ مِنَ الجنَّةِ حيثُ شاءتْ، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فأطّلعَ عليهم ربُّهم اطّلاعةً،

فقالَ: هل تَشْتَهُوْنَ شَيْئاً ؟ فقالوا: أيْ شَيْءٍ نَشْتَهِي ونحنُ نَسْرَحُ من الجنّةِ حيثُ شئنا ؟ ففعل ذلك بهم ثلاثَ مرّاتٍ، فلمّا رأَوْا أنَّهم لن يُتْرَكُوا مِنْ أن يسألوا قالوا: يا ربِّ نريدُ أنْ تَرَدَّ أرواحنا في أجسادِنا حتى نُقْتَلَ في سبيلَك مرَّةً أُخرى، فلمّا رأى أنْ ليسَ لهم حاجةً تُرِكُوا »[(171)] .

فالشهداءُ أرواحُهم حيةٌ عند الله حياةً برزخيةً، مودعةٌ في أجوافِ طيرٍ خُضْرٍ تتنعّم بنعم الله، وترتزقُ برزقِ الله، تسرحُ من الجنّةِ حيثُ شاءتْ، تأكلُ من ثمارِها، وتلتذّ بنعيمِها، وهي مغتبطةٌ فرحةٌ بما نالت من أجر، وحَظِيَتْ من كرامةٍ، بل تتمنّى أن تعودَ إلى الدنيا لتُقْتَلَ في سبيل الله مرةً أُخرى لِمَا رأتْ من فضلِ الشهادةِ، وعظيمِ ثوابها[(172)] .

ولقد بيَّن النبيُّ (ﷺ) أنَّ مَنْ قُتِلَ في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وإعزاز دينه، أَمَن فتنةَ القبرِ، وسَلِمَ منها، فلمّا سُئِلَ رسول الله (ﷺ) وقيل له يا رسول الله: ما بالُ المؤمنين يُفْتَنون في قبورهم إلا الشهيدَ ؟ قال: « كَفَى ببارقةِ[(173)] السيوفِ على رأسهِ فتنةً »[(174)] .

وقال رسول الله (ﷺ): « مَنْ لَقِيَ العدوَّ، فصبرَ حتَّى يُقْتَلَ أو يَغْلِبَ لم يُفْتَنْ في قبرِهِ »[(175)] .

وقال رسول الله (ﷺ): « للشهيدِ عندَ اللهِ سِتُّ خصالٍ: يُغْفَرُ له في أوّلِ دفعةٍ، ويرى مقعدَه من الجنَّةِ، ويُجَارُ من عذابِ القبرِ، ويأمنُ من الفَزَعِ

الأكبرِ، ويوضَعُ على رأسِهِ تاجُ الوقارِ، الياقوتةُ منه خيرٌ من الدنيا وما فيها، ويزوَّجُ باثنتين وسبعينَ زوجةً من الحور العينِ، ويشفَّعُ في سبعينَ من أقاربه»[(176)] .

5 . الرباط في سبيل الله:

فعن فَضَالةَ بن عُبيدٍ رضي الله عنه أنَّ رسول الله(ﷺ) قال: « كُلَّ الميتِ يُخْتَمُ على عَمَلِهِ إلا المرابطُ، فإنَه ينمو له عملُه إلى يوم القيامةِ، ويُؤَمَّنُ من فتّانِ القبرِ »[(177)] .

وفي رواية قال: « يُنَمّى له عملُه إلى يومِ القيامةِ، ويُؤْمَنُ من فتنةِ القبرِ»[(178)].

وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ اللهِ (ﷺ) يقول: «رباطُ يومٍ في سبيل اللهِ أفضلُ (وربما قال): خيرٌ من صيامِ شهرٍ وقيامِهِ، ومَنْ ماتَ فيه وُقِيَ فتنةَ القبرِ، ونُمِّيَ له عملُه إلى يومِ القيامةِ »[(179)] .

فالمرابطُ في سبيل الله يأمنُ من فتنة القبر، ومن فتّاني القبر، فيَسْلَمُ منهما بثباتٍ وصبرٍ، فيضاعَفُ له الأجر، ولا ينقطعُ مدَّة الحياةِ وأبدَ الدهرِ إلى يوم القيامة والحشرِ[(180)] .

6 . التعوُّذُ باللهِ من عذاب القبر:

عن أنسِ بنِ مالك رضي الله عنه قال: كان النبيُّ (ﷺ) يقول: « اللهمَّ إِنِّي أعوذُ بكَ من العجزِ والكسلِ والجُبْنِ والبُخْلِ والهَرَمِ، وأعوذُ بِكَ من عذابِ القبرِ، وأعوذُ بِكَ مِنْ فتنةِ المحيا والمماتِ»[(181)].

وعن عُروة بن الزبير عن عائشةَ رضي الله عنها، أخبرتْه أنَّ رسول الله (ﷺ) كان يدعو في الصلاة: « اللهمَّ إِنِّي أعوذُ بِكَ من عذابِ القبرِ، وأعوذُ بِكَ من فتنةِ المسيحِ الدَّجَالِ، وأعوذُ بِكَ من فتنةِ المحيا وفتنةِ المماتِ . اللهُمّ إِنِّي أعوذُ بكَ من المأْثَمِ والمغْرَمِ »[(182)] .

وقال رسول الله (ﷺ): « إذا فرغَ أحدُكم مِنَ التشهُّدِ الآخر، فليتعوَّذْ باللهِ من أربعٍ: من عذابِ جهنَّمَ، ومِنْ عذابِ القبرِ، ومِنْ فتنةِ المحيا والمماتِ، ومن شرِّ المسيحِ الدَّجَالِ »[(183)] .

7 . الدعاء:

ولا ينبغي أبداً أن يَغْفَلَ المسلمُ عن الدُّعاءِ، فالدعاءُ من أعظمِ أسبابِ النّجاةِ في الدنيا والآخرة، سَمَعَ النبيُّ (ﷺ) رجلاً يقول في التشهُّدِ: اللهمَّ إِنِّي أسأَلُكَ بأنَّ لكَ الحَمْدُ، لا إله إلا أنتَ، وحدَكَ لا شَرِيْكَ لكَ، المنانُّ، يا بديعَ

السماواتِ والأرضِ، يا ذا الجلالِ والإكرامِ، يا حيَّ يا قيوَم إِنِّي أسألك الجنةَ، وأعوذُ بِكَ من النَّارِ، فقال (ﷺ) لأصحابه: « تدرون بما دعا؟ » . قالوا: اللهُ ورسولُه أعلم . قال: « والذي نفسي بيدِهِ، لَقَدْ دَعَا اللهَ باسْمِهِ العَظِيْمِ (وفي رواية) الأعظمَ، الذي إذا دُعِيَ به أجابَ، وإذا سُئِلَ به أَعْطَى »[(184)] .

فعلينا أن نسألَ الله تعالى بأسمائه الحُسنى، وصفاته العليا، وباسمه الأعظم أن ينجيَنا مِنْ عذابِ القبرِ، ونحنُ موقنونَ بالإجابة[(185)] .

كما أنَّ الدعاءَ للميّت من أسباب التثبيت، فعن عثمانَ بنِ عفّانَ رضي الله عنه قال: كان النبيُّ (ﷺ) إذا فرغَ من دفنِ الميّتِ، وقفَ عليه، فقال: «استغفروا لأخيكم، وسَلُوا لهُ التثبيتَ، فإنَّه الانَ يُسْأَلُ »[(186)] .

8 . تجنُّبِ أسباب عذاب القبر:

ومن أسباب النجاة من عذاب القبر أن يتجنَّبَ العبدُ كلَّ الأسبابِ التي تؤدِّي إلى عذابِ القبرِ، مثل النميمةِ، وعدم الاستتار والتنزُّه من البول، والكذب، وهجر القرآن، وعدم العمل به، وأكل الربا، والوقوع في الزنا... الخ، فكلُّ هذه الأشياء مِنْ أسبابِ عذابِ القبر، فعلينا أن نتجنّبها للننجوَ جميعاً من عذاب القبر، وكذلك علينا أن نتجنّبَ الأسبابَ التي تؤدِّي إلى سوءِ الخاتمة، من الشكِّ، والجحودِ، وفساد المعْتَقَدِ، والنفاقِ، وحُبِّ المعاصي،

والإصرار عليها، وتعلّق القلب بغيرِ اللهِ، والانتحار، والعدول عن الاستقامة، وحُبِّ الدنيا، وطول الأمل وغير ذلك من الأسباب[(187)] .

ونسأل الله عزّ وجلّ بأسمائه الحسنى وصفاته العلا أنْ ينجّيَنا جميعاً من عذاب القبر وعذابِ النارِ، وأن يجمعنا في مستقرِّ رحمته مع النبيينَ والصديقينَ والشُّهداءِ والصالحينَ، وحَسُنَ أولئك رفيقاً .

خامساً . مستقر الأرواح في البرزخ:

تتفاوتُ أرواحُ العبادِ في البرزخ في منازلها، ومن خلال دراسةِ النصوص الواردةِ في ذلك يمكنُ التقسيمُ التالي :

1 . أرواح الأنبياء:

وهذه تكونُ في خيرِ المنازلِ في أعلى عليين، في الرفيق الأعلى، وقد سمعتْ السيدةُ عائشة الرسولَ (ﷺ) في اخرِ لحظاتِ حياته يقول: « اللهمَّ الرفيقَ الأعلى »[(188)] .

2 . أرواح الشهداء:

قال تعالى: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ *﴾ **[آل عمران: 169]** وأرواحُهم في أجوافِ طيرٍ خُضْرٍ لها قناديلُ

معلّقةٌ بالعرش، تسرحُ من الجنةِ حيثُ شاءت، ثم تأوى إلى تلك القناديل[(189)] .

3 . أرواحُ المؤمنين الصالحين:

تكونُ طيوراً تعلّق في شجرِ الجنّةِ، قال رسول الله (ﷺ): « إنّما نسمةُ المسلمِ طيرٌ يعلّقُ في شجرِ الجنةِ، حتى يرجعَها اللهُ إلى جسدِهِ إلى يومِ القيامةِ» [(190)] .

والفرقُ بين أرواحِ المؤمنين وأرواحِ الشهداءِ، أنَّ الشهداءَ في حواصلِ طيرٍ خُضْرٍ تسرحُ متنقلةً في رياض الجنة، وتأوي إلى قناديلَ معلّقةٍ في العرش، أمّا أرواحُ المؤمنينَ، فإنّها في أجوافِ طيرٍ يعلّق في ثمرِ الجنةِ، ولا ينتقل في أرجائها[(191)] .

4 . أرواح العصاة:

سبق وأنْ ذكرتُ بعضَ النصوصِ التي تبيّنُ ما يلاقيه العصاةُ من العذاب، فمن ذلك أنَّ الذي يكذِبُ الكذبةَ تبلغُ الافاقَ، يعذَّبُ بكلوبٍ من حديدٍ، يدخلُ في شِدْقِهِ حتى يبلغَ قفاه، والذي نامَ عن الصلاةِ المكتوبةِ يُشْدَخُ رأسُه بصخرةٍ، والزناة والزَّوَاني يعذَّبونَ في ثُقْبٍ مثل التنورِ، ضيّقٌ أعلاه، وأسفلُه

واسعٌ، تُوْقَدُ النارُ تحته، والمرابي يَسْبَحُ في بحرٍ من الدمِ، وعلى الشطِّ مَنْ يلقمُه الحجارةَ [(192)] .

وقد ذكرنا الأحاديث التي تتحدّث عن عذاب الذي لم يكن يستنزه من بوله، والذي يمشي بالنميمة بين الناس[(193)]، والذي غلَّ من الغنيمة ونحو ذلك[(194)] .

5 . أرواحُ الكفّار:

في حديث رسول الله (ﷺ) بعدما وصفَ حالَ المؤمنِ إلى أن يبلغَ مستقرّه في الجنةِ، ذكر حال الكافر، وما يلاقيه عند النزع، وبعد أن تُقْبَضَ روحُه، تخرجُ منه كأنتن ريح، حتى يأتونَ به بابَ الأرضِ، فيقولن: ما أنتنَ هذه الريح حتى يأتونَ به أرواحَ الكفّار[(195)] .

* * *

الفصل الثاني: علامات الساعة الصغرى والكبرى والنفخ في الصور

المبحث الأول: علامات الساعة الصغرى .

المبحث الثاني: أشراط الساعة الكبرى .

المبحث الثالث: النفخ في الصور .

المبحث الأول: علامات الساعة الصغرى

أولاً ـ إخبار النبي (ﷺ) عن الغيوب المستقبلية:

أخبر النبيُّ (ﷺ) بما يكونُ إلى قيامِ الساعة، وذلك مما اطلعه الله عليه من الغيوبِ المستقبليّةِ، والأحاديثُ في هذا البابِ كثيرةٌ جداً، حتى بلغتِ التواترَ المعنويَّ[(196)]، فمنها :

1 ـ ما رواه حذيفة رضي الله عنه قال: لقد خطبنا النبيُّ (ﷺ) خطبةً ما ترك فيها شيئاً إلى قيام الساعة إلا ذكره، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ، وجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ، إنْ كنتُ لأرى الشيءَ قد نسيتُ، فأعرفه كما يعرِفُ الرجلُ الرجلَ إذا غابَ عنه فراه فعرفه[(197)] .

2 ـ روى أبو زيد عمر بن أخطب الأنصاري رضي الله عنه، قال: صلّى بنا رسولُ اللهِ (ﷺ) الفجرَ، وصعدَ المنبر، فخطبنا حتى حضرتِ الظهرُ، فنزلَ، فصلّى، ثم صعدَ المِنْبَرَ، فخطَبنا حتّى حَضَرتِ العصرُ، ثم نزلَ، فصلّى، ثم صعدَ، فخطبنا حتّى غربتِ الشمسُ، فأخبرنا بما كان، وبما هو كائنٌ، فأعلمُنا أحفظنا[(198)] . فهذه أدلةٌ صحيحةٌ على أنَّ النبيَّ (ﷺ) قد أخبر أمته بكلِّ ما هو كائنٌ إلى قيام الساعة، فيما يخصُّهم .

ولا شكَّ أن أشراطَ الساعةِ كثيرةٌ جداً، ورُويتْ بألفاظٍ مختلفةٍ لكثرة مَنْ نقلها من الصحابةِ رضي الله عنهم[(199)] .

ثانياً ـ علم الساعة:

غيبٌ لا يعلمه إلاّ الله تعالى، كما دلّت على ذلك الآيات القرآنية، والأحاديثُ النبوية، فإنّ علمَ الساعة ممّا استأثر الله به، فلم يُطْلِعْ عليه مَلَكاً مقرباً ولا نبياً مرسلاً، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ *﴾ **[الأعراف: 187]** فالله تعالى يأمرُ نبيّه محمّداً(ﷺ) أن يخبرَ الناسَ أنَّ علمَ الساعةِ عند الله وحدَه، فهو الذي يعلمُ جليّة أمرها، لا يعلمُ ذلك أحدٌ من أهل السماوات والأرض[(200)]، وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا*﴾ **[الأحزاب: 63]** وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا *فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا *إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا *﴾ **[النازعات: 42 ـ 44]** .

فمنتهى عِلمُ الساعةِ إلى الله وحدَه، ولهذا لما سأل جبريلُ عليه السلام رسولَ اللهِ (ﷺ) عن وقتِ الساعةِ ـ كما في حديثِ جبريل الطويل ـ قال النبيُّ

(ﷺ): « ما المسؤولُ عنها بأعلم من السائلِ »[(201)] . فجبريلُ لا يعلمُ متى تقومُ الساعة، وكذلك محمّدٌ (ﷺ)[(202)] .

ثالثاً ـ قرب قيام الساعة:

تدلُّ الآيات القرآنية الكريمة والأحاديثُ الصحيحة على قُرْبِ الساعة ودُنوِّها، فإنَّ ظهور أكثر أشراطِ الساعةِ دليلٌ على قربها، وعلى أننا في اخرِ أيّام الدنيا[(203)]، قال تعالى: ﴿إِقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ*﴾ [الأنبياء: 1]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا *﴾ [الأحزاب: 63] وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يرونه بعيدا* ونراه قريبا﴾ [المعارج: 6 ـ 7] وقال تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ *﴾ [القمر: 1] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدّالّةِ على قُرْبِ نهايةِ هذا العالم الدنيوي، والانتقال إلى دار أخرى، ينالُ فيها كلُّ عاملٍ عمله، إنْ خيراً فخير، وإنْ شرّاً فشر[(204)] .

وقال رسول الله (ﷺ): « بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين، ويشيرُ بأصبعيه فيمدُّهما»[(205)] .

رابعاً ـ مجمل أشراط الساعة الصغرى:

تحدّث العلماءُ عن أشراط الساعة، وإليك أهمُّها ممّا ثبتَ بالسنّة النبوية منها :

1 . بعثة النبيِّ (ﷺ) .

2 . موتُ النبيِّ (ﷺ) .

3 . فتحُ بيت المقدس .

4 . طاعونُ عمواس[(206)] .

5 . استفاضةُ المالِ، والاستغناءُ عن الصدقة .

6 . ظهورُ الفتن، كظهورها من المشرق، ومقتل عثمان رضي الله عنه، وموقعة الجمل، وموقعة صفين[(207)] وظهور الخوارج، وموقعة الحَرَّة ، اتباع سنن الأمم الماضية.

7 – ظهور مدعي النبوة.

8 – ظهور نار الحجاز.

9- انتشار الأمن.

10 . قتالُ الترك .

11 . قتالُ العجم .

12 . ضياعُ الأمانةِ .

13 . قبضُ العلم، وظهورُ الجهل .

14 . كثرةُ الشُّرَطِ وأعوانُ الظلمة .

15 . انتشار الزنا .

16 . انتشارُ الربا .

17 . ظهورُ المعازِفِ واستحلالُها .

18 . كثرةُ شربِ الخمر واستحلالُها .

19 . زخرفةُ المساجدِ، والتباهي بها .

20 . التطاوُلُ في البنيانِ .

21 . ولادةُ الأمة لِربتّها .

22 . كثرةُ القتلِ .

23 . تقاربُ الزمان .

24 . تقاربُ الأسواقِ .

25 . ظهورُ الشرك في هذه الأمة .

26 . ظهورُ الفُحْشِ، وقطيعةُ الرحم، وسوءُ الجوار .

27 . تشبُّب المشيخة .

28 . كثرةُ الشح .

29 . كثرةُ التجارةِ .

30 . كثرةُ الزلازل .

31 . ظهورُ الخَسْفِ والمِسْخِ والقَذْفِ .

32 . ذهابُ الصالحين .

33 . ارتفاعُ الأسافل .

34 . التحيةُ للمعرفةِ: أي لا يطلَقُ السّلام إلا على مَنْ يعرفه .

35 . التماسُ العلمِ عندَ الأصاغر .

36 . ظهورُ الكاسياتِ العارياتِ .

37 . صدقُ رؤيا المؤمن .

38 . كثرةُ الكتابة وانتشارُها .

39 . التهاونُ بالسنن التي رغّبَ فيها الإسلام .

40 . انتفاخُ الأهلة[(208)] .

41 . كثرةُ الكذب، وعدمُ التثبّت في نقل الأخبار .

42 . كثرةُ شهادةِ الزور، وكتمانُ شهادة الحق .

43 . كثرةُ النساءِ وقلّةُ الرجالِ .

44 . كثرةُ موتِ الفجأة .

45 . وقوعُ التناكُرِ بين الناس[(209)] .

46 . عودُ أرضِ العرب مروجاً وأنهاراً .

47 . كثرةُ المطر، وقلّة النباتِ .

48 . حسرُ الفراتِ عن جبلٍ من ذهب .

49 . كلامُ السباعِ والجماداتِ للإنسان .

50 . تمنّي الموت من شدة البلاء .

51 . كثرةُ الروم، وقتالُهم للمسلمين .

52 . فتح القسطنطينية .

53 . قتالُ اليهود .

54 . نفيُ المدينةِ لشرارِها، ثم خرابُها في اخرِ الزمان .

55 . بعثُ الريح الطيبة لقبضِ أرواحِ المؤمنين .

56 . استحلالُ البيتِ الحرامِ، وهدمُ الكعبةِ .

هذه أهمُّ أشراطِ الساعة الصغرى التي جاءت في أحاديث النبي (ﷺ)، ومن أرادَ التوسُّعَ ومعرفة الأحاديث فليراجع كتاب (أشراط الساعة)[(210)] ففيه التفاصيل .

* * *

المبحث الثاني: أشراط الساعة الكبرى في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة

أولاً . نزول عيسى عليه السلام:

نزولُ عيسى عليه السلام في اخر الزمان ثابتٌ في الكتاب والسنة الصحيحة المتواترة، وذلك علامةٌ من علامات الساعة الكبرى :

أ . الأدلة من القرآن الكريم على نزول عيسى عليه السلام:

1 . قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ *وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ *إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ *وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلاَئِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ *وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلاَ تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ*﴾ [الزخرف: 57 . 61] .

فهذه الآيات جاءت في الكلام على عيسى عليه السلام ، وجاء في اخرها قوله تعالى: أي نزول ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾ قبل يوم القيامة علامة على قرب الساعة[(211)] .

2 . وقال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً *بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا *وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا *﴾ **[النساء: 157 . 159]** فهذه الآيات، كما أنها تدلُّ على أنَّ اليهودَ لم يقتلوا عيسى عليه السلام ، ولم يصلبوه، بل رفعه الله إلى السماء، كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ﴾ **[آل عمران: 55]** فإنّها تدلُّ على أنَّ مِنْ أهل الكتاب مَنْ سيؤمنُ بعيسى عليه السلام اخرَ الزمان، وذلك عند نزوله، وقبل موته، كما جاءت بذلك الأحاديث المتواترة الصحيحة[(212)].

وعيسى عليه السلام حيٌّ، وقد ثبت في (الصحيحين)[(213)] عن النبيِّ(ﷺ) أنه قال: «والذي نفسي بيده ليوشكنَّ أن ينزلَ فيكم ابنُ مريمَ حَكَماً عَدْلاً، وإماماً مُقْسِطاً، فيكسِرُ الصليبَ، ويقتلُ الخنزيرَ، ويضعُ الجزيةَ، ويفيضُ المالُ حتى لا يقبله أحدٌ» .

وثبت في (الصحيح)[(214)] عنه أنّه ينزل على المنارةِ البيضاء شرقي دمشق، وأنّه يقتلُ الدجّال، ومن فارقت روحُه جسدَه، لم ينزل جسدُه من السماءِ، وإذا أُحييَ، فإنَّه يقومُ من قبره .

وأما قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران: 55] فهذا دليلٌ على أنّه لم يعنِ بذلك الموتَ، إذ لو أراد بذلك الموت، لكان عيسى في ذلك كسائر المؤمنين، فإنَّ الله يقبِضُ أرواحهم، ويعرجُ بها إلى السماء، فعُلِمَ أنّه ليس له في ذلك خاصيةٌ، وكذلك قوله: ولو كان قد فارقت روحُه ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، لكان بدنه في الأرض، كبدن سائر الأنبياء، أو غيره من الأنبياء، وقد قال تعالى في الآية الآخرى ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً * بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: 157-158] فقوله هنا يبين أنّه رُفِعَ بدنُه ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾، كما ثبت في (الصحيح)[(215)] أنه ينزلُ ببدنه وروحه، إذا لو أيدَ موتُه لقال: وما قتلوه وما صلبوه بل مات .

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ [النساء: 159] قال: قبل موت عيسى بن مريم[(216)] .

ب . والأدلة من السنة على نزول عيسى عليه السلام كثيرة ومتواترة منها:

1 . قال رسول الله (ﷺ): « والذي نفسي بيده، ليوشِكَنّ أنْ ينزلَ فيكم ابنُ مريمَ حَكَماً عَدْلاً، فيكسِرُ الصليبَ، ويقتلُ الخنزيرَ، ويضعُ الحربَ، ويفيضُ

المالُ حتّى لا يقبلَه أحدٌ، حتى تكونَ السجدةُ الواحدةُ خيراً من الدنيا وما فيها»[(217)].

2 . وقال رسول الله (ﷺ): « كيف أنتم إذا نزلَ ابنُ مريمَ فيكم وإمامُكم مِنْكُم »[(218)] ؟

3 . وقال رسول الله (ﷺ): « لا تزالُ طائفةٌ من أمتي يقاتِلُونَ على الحقِّ، ظاهرينَ، إلى يومِ القيامةِ، قال: فينزلُ عيسى بن مريم 4 فيقولُ له أميرُهم: صلِّ لنا، فيقول: لا، إنَّ بعضَكُم على بعضٍ أمراء، تَكْرُمة اللهِ هذه الأمةِ»[(219)] .

وقد جاءت الأحاديثُ في نزول عيسى عليه السلام في الصحاح والسنن والمسانيد وغيره من دواوين السنة، وهي تدلُّ دلالةً صريحةً على نزول عيسى عليه السلام ، ولا حجّةَ لمن ردّها[(220)] .

ثانياً . يأجوج ومأجوج :

خروج يأجوجَ ومأجوجَ في اخر الزمان علامةٌ من علامات الساعة الكبرى، وقد دلّ على ظهورِهم الكتابُ والسنةُ :

والآيات الدالة على ظهور يأجوج ومأجوج هي :

1 . قال تعالى في سياقه لقصة ذي القرنين :

﴿مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا * قَالَ مَا مَكَّنْنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا *آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا *فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا *قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا *وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا *﴾ **[الكهف: 92 . 99]** .

2 . وقال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ *وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا ياوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ *﴾ **[الأنبياء: 96 . 97]** .

فهذه الآيات تدلُّ على أنّ الله تعالى سخّر ذا القرنين الملكَ الصالح لبناء السدّ العظيم، ليحجزَ بين يأجوج ومأجوج القوم المفسدين في الأرض وبين الناس، فإذا جاء الوقتُ المعلوم، واقتربتِ الساعةُ، اندكّ هذا السدُّ، وخرجَ يأجوجُ ومأجوجُ بسرعةٍ عظيمةٍ، وجمعٍ كبيرٍ، لا يقفُ أمامَه أحدٌ من البشر، فماجوا في الناس، وعاثوا في الأرض فساداً، وهذا علامةٌ على قرب النفخ في الصور، وخرابِ الدنيا، وقيام الساعة[(221)] .

والأحاديث الصحيحة الدّالةُ على ظهور يأجوج ومأجوج كثيرةٌ منها :

عن أم حبيبة بنت أبي سفيان عن زينب بنت جحش، أنّ رسول الله (ﷺ) دخلَ عليها يوماً فزعاً يقول: « لا إله إلا الله، ويلٌ للعربِ مِنْ شرٍّ قَدِ اقتربَ، فُتِحَ اليومَ مِنْ رَدْمِ يأجوجَ ومأجوجَ مُثْلُ هذِهِ » وحلّقِ بأصبعي الإبهامِ والتي تليها . قالت زينبُ بنت جحش: فقلتُ: يا رسول الله أفنهلكُ وفينا الصالحون، قال: « نعم، إذا كَثُرَ الخَبَثُ »[(222)] .

ثالثاً . الدخان:

قال تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ *يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ *﴾ **[الدخان: 10 . 11]** .

ومن علامات الساعة وأشراطها العظمى ظهورُ دخانٍ قَبْلَ قيام الساعة، يملأُ الأرضَ كلَّها، فتصبحُ كبيتٍ أوقد فيه، فيأخذُ بالمؤمنين كالزكمةِ، ويدخلُ في منافذِ الكفّار والمنافقين حتى يخرجَ من كلِّ مسمعٍ منهم[(223)] .

وعن حذيفة بن أُسيدٍ الغفاري أنه قال: اطّلع رسولُ الله (ﷺ) علينا، ونحن نتذاكَرُ فقال: « ما تذكرون ؟ » قلنا: نذكر الساعة، قال: « إنّها لَنْ تقومَ حتّى تروا قبلَها عشرَ آياتٍ، فذكر: الدخانَ، والدجّالَ، والدابةَ، وطلوعَ

الشمسِ من مغربها، ونزولَ عيسى بنِ مريم، ويأجوجَ ومأجوجَ، وثلاثةَ خسوفٍ، خسفٌ بالمشرق، وخسفٌ بالمغرب، وخسفٌ بجزيرة العرب واخرُ ذلك نارٌ تطردُ الناسَ إلى محشرهم »[(224)] .

رابعاً . طلوع الشمس من مغربها:

من أعظم أشراط الساعة الكبرى، وبه يُغْلَقُ بابُ التوبة .

الآية الدالة على ذلك :

قد ذكر الله تعالى طلوع الشمس من مغربها في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلاَئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ *﴾ **[الأنعام: 158]** .

وقد دلّت الأحاديثُ الصحيحةُ أنَّ المراد ببعض الآيات المذكورة في الآية هو طلوعُ الشمسِ من مغربها، وهو قول أكثر المفسرين[(225)] .

قال الطبري بعد ذكره لأقوال المفسرين في هذه الآية: وأولى الأقوالِ بالصوابِ في ذلك ما تظاهرتْ به الأخبارُ عن رسول الله (ﷺ) أنه قال: « ذلك حينَ تطلعُ الشمسُ من مغربها »[(226)] .

والأحاديث الدالة على طلوع الشمس من مغربها كثيرة منها :

قال رسول الله (ﷺ): « لا تقومُ الساعةُ حتّى تطلعَ الشمسُ مِنْ مغربها، فإذا طلعتْ، فراها الناسُ، امنوا أجمعون، فذاكَ حينَ لا ينفعُ نفسَاً إيمانُها لم تكن امنتْ من قبلُ أو كسبتْ في إيمانها خيراً »[(227)] .

خامساً . خروج الدابة:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ *﴾ **[النمل: 82]** .

فهذه الآية الكريمة جاء فيها ذكرُ خروج الدابة، وأنَّ ذلك يكون عند فساد الناس، وتركهم أوامرَ الله، وتبديلهم الدينَ الحقَّ، يُخرجُ لهم دابةً من الأرض، فتكلِّمُ الناسَ على ذلك[(228)] قال العلماء في معنى قوله تعالى: ﴿وَقَعَ الْقَوْلُ﴾: وجبَ الوعيدُ عليهم، لتماديهم في العصيان والفسوق والطغيان، وإعراضهم عن آيات الله، وتركهم تدبرها، والنزول على حكمها، وانتهائهم في المعاصي إلى ما لا تنجح معه فيه موعظةٌ، ولا تصرفهم عن غيهم تذكرةٌ، يقول عز من قائل فإذا صاروا كذلك: ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾:

دابة تعقِلُ وتنطق، والدواب في العادة لا كلامَ لها ولا عقل، ليعلم الناس أن ذلك اية من عند الله[(229)] .

روى مسلم في (صحيحه) عن أبي هريرة عن النبي (ﷺ) قال: « بادروا بالأعمال ستاً: الدجالَ، والدخانَ، ودابةَ الأرضِ، وطلوعَ الشَّمسِ من مغربها، وأمرَ العامة، وخويصةَ أحدكم »[(230)] .

سادساً . المهدي:

جاءت الأحاديثُ الصحيحةُ الدالّةُ على ظهور المهدي، وهذه الأحاديثُ منها ما جاء فيه النصُّ على المهدي، ومنها ما جاء فيه ذكر صفته فقط، ومن هذه الأحاديث :

1 . قال رسول الله (ﷺ): « يخرجُ في اخرِ أمتي المهديُّ، يسقيه اللهُ الغيثَ، وتُخرِجُ الأرضُ نباتها، ويُعْطَى المالَ صحاحاً، وتكثرُ الماشيةُ، وتعظُمُ الأمةُ، يعيشُ سبعاً أو ثمانياً » يعني: حِجَجاً[(231)] .

2 . وقال رسولُ الله (ﷺ): « أبشّرُكم بالمهدي، يُبْعَثُ على اختلافٍ من الناس وزلازلَ، فيملأُ الأرضَ قِسْطاَ وعَدْلاً كما مُلِئتْ جُوْراً وظُلْماً، يرضَى عنه ساكنُ السماء وساكنُ الأرضِ، يقسِمُ المال صحاحاً » . فقال له رجلاً: ما صحاحاً ؟ قال: « بالسويةِ بينَ الناسِ »[(232)] .

3 . وعن عليٍّ رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ (ﷺ): « المهديُّ منا أهلَ البيتِ، يُصْلِحُه الله عزّ وجل في ليلةٍ »[(233)] أي يتوب عليه، ويوفقه، ويلهمه، ويرشده، بعد أن لم يكن كذلك .

سابعاً . المسيح الدجال:

مسيحُ الضلالةِ، يفتنُ الناسَ بما يُعْطاه من الآيات، كإنزال المطرِ، وإحياءِ الأرضِ بالنبات وغيرهما من الخوارق، وسُمّي الدجُّال مسيحاً، لأنّ إحدى عينيه ممسوحةٌ، ولأنّه يمسحُ الأرضَ في أربعين يوماً، والقولُ الأوّل هو الراجحُ، لما جاء في الحديث النبوي: « إنّ الدجالَ ممسوحُ العينِ »[(234)] .

ومعنى الدجّال: المِمّوه الكذّاب بالمِمَخرِق، وهو من أبنية المبالغة، وهو على وزن فعّال، أي يكثرُ منه الكذبُ والتلبيسُ، وجمعه دجّالون، وجمعه الإمام مالك على دجاجلة وهو جمعُ تكسيرٍ[(235)] .

وسمي الدجال دجالاً: لأنه يغطِّي الحق بالباطل، أو لأنه يغطي على الناس كفره بكذبه وتمويهه وتلبيسه عليهم، وقيل لأنه يغطي الأمر بكثرة جموعه[(236)] .

ولفظةُ الدجال أصبحت علماً على المسيح الأعور الكذاب، فإذا قيل الدّجّالُ، فلا يتبادَرُ إلى الذهن غيره .

والدّجال رجلٌ من بني ادم، له صفاتٌ كثيرةٌ، جاءت بها الأحاديثُ لتعريفِ الناس به، وتحذيرهم من شرّه، حتى إذا خرجَ عرفه المؤمنون، فلا يُفْتَنون به، بل يكونون على علمٍ بصفاته، فلايغترُّ به إلا الجاهلُ الذي سبقت عليه الشِّقْوةُ، نسألُ الله العافية .

ومن هذه الصفاتِ أنَّه رجلٌ شابٌّ، أحمرُ، قصيرٌ، أَفْحَج جعدُ الرأسِ، أجلى الجبهةِ، عريضُ النحرِ، ممسوحُ العينِ اليُمنى، وهذه العينُ ليست بناتئة[(237)]، ولا جحراء[(238)]، كأنَّها عِنْبةٌ طافيةٌ، وعينهُ اليسرى عليها ظفرةٌ غليظةٌ[(239)]، ومكتوب بين عينيه (ك ف ر) بالحروف المقطعة، أو (كافر) بدون تقطيع، يقرؤها كلُّ مسلمٍ كاتبٍ وغيرِ كاتبٍ، ومن صفاته أنّه عقيمٌ لا يولد له .

وهذه بعضُ الأحاديث الصحيحة التي جاء فيها ذكر صفاته السابقة ومنها:

1 . قال رسول الله (ﷺ): « إنّ المسيحَ الدجّالَ رجلٌ قصيرٌ، أفحجُ جَعْدُ، أعورُ مطموسُ العينِ، ليست بناتئةٍ ولا حَجْراء »[(240)] .

2 . قال رسولُ الله (ﷺ): « الدجالُ أعورُ العينِ اليُسْرَى، جفالُ الشعرِ»[(241)] .

3 . وقال (ﷺ): « وإنّ بين عينيه مكتوبٌ كافر »[(242)] .

وحُرِّمَ على الدّجّالِ دخولُ مكة والمدينة حينَ يخرجُ في اخر الزمان، لورود الأحاديث الصحيحة بذلك، وأما سوى ذلك من البلدانِ، فإنَّ الدجالَ سيدخلُها واحداً بعدَ الآخر، وأكثرُ اتباع الدجال من اليهود والعجم والترك، وأخلاطٍ من الناس غالبُهم الأعرابُ والنساء[(243)] .

وفتنةُ الدجال عظيمةٌ، وذلك بسببِ ما يخلقُ الله معه من الخوارقِ العظيمة التي تبهرُ العقولَ، وتحيّرُ الألبابَ[(244)] .

الوقاية من الدجال: أرشدَ النبيُّ (ﷺ) أمته إلى ما يعصِمُها من فتنة المسيح الدجال، فقد ترك أمّتَه على المحجّةِ البيضاء، ليلِها كنهارِها، لا يزيغُ عنها إلا هالكٌ، فلم يدعْ (ﷺ) خيراً إلا دلَّ أُمته عليه، ولا شرًّا إلا حذّرها منه، ومن جملةِ ما حذّر منه فتنةُ المسيح الدجال، لأنّها أعظمُ فتنةٍ تواجهها الأمةُ إلى قيام الساعةِ .

وكان كلُّ نبيّ ينذِرُ أمته الأعورَ الدجال، وخَصَّ محمّدٌ (ﷺ) بزيادةِ التحذيرِ والإنذارِ، وقد بيّن الله له كثيراً من صفاتِ الدجّال ليحذِّرَ أمته، فإنّه خارجٌ من هذه الأمة لا محالة، لأنها اخرُ الأمم، ومحمّدٌ (ﷺ) خاتمُ النبيين .

ومن الإرشاداتِ النبوية التي أرشدَ إليها المصطفى (ﷺ) لتنجوَ من هذه الفتنةِ العظيمةِ الاتي :

1 ـ التمسك بالإسلام، والتسلّح بسلاح الإيمان، ومعرفة أسماء الله الحسنى التي لا يشاركه فيها أحدٌ، فيعلَم أنَّ الدجالَ بشرٌ يأكل ويشرب، وأنَّ الله تعالى منزَّهٌ عن ذلك، وأنّه لا أحدَ يرى ربَّه حتى يموتَ .

2 ـ التعوذ من فتنة الدجال، وخاصة في الصلاةِ، وقد وردت بذلك الأحاديثُ الصحيحةُ، فقد كان رسول الله (ﷺ) يدعو في الصلاة: « اللهم فإنّي أعوذُ بِكَ من فتنة النار وعذاب النار، وفتنة القبر وعذابِ القبرِ، وأعوذُ بِكَ من شرِّ فتنةِ المسيحِ الدَّجَّال »[(245)] .

وروى مسلم[(246)] عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله (ﷺ): « إذا تشهَّد أحدُكم فليستعذْ باللهِ من أربعٍ، يقول: اللهمَّ إنّي أعوذُ بِكَ من عذابِ جهنَّم، ومِنْ عذابِ القَبْرِ، ومن فتنةِ المحيا والمماتِ، ومِنْ شرِّ فتنةِ المسيح الدَّجَّال » .

3 ـ حفظ آيات من سورة الكهف: فقد أمر النبيُّ (ﷺ) بقراءةِ فواتح سورة الكهف على الدجّال، وفي بعض الروايات خواتيمَها، وذلك بقراءةِ عشر آيات من أولها أو اخرها.

ومن الأحاديث الواردة، قوله (ﷺ): « من أدركَهُ مِنْكُم، فليقرأْ عليه فواتحَ سورةِ الكهف »[(247)] .

وقال رسول الله (ﷺ): « مَنْ حَفِظَ عَشْرِ آياتٍ مِنْ أوّلِ سورةِ الكَهْفِ عُصِمَ مِنَ الدَّجَّالِ[(248)]، أي: من فتنته، وهذا من خصوصياتِ سورة الكهف، فقد جاءت الأحاديثُ بالحثِّ على قراءتها وخاصّةً يومَ الجمعة[(249)] .

وروى الحاكم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبيَّ (ﷺ) قال: « إنّ مَنْ قرأَ سورةَ الكهفِ يومَ الجمعةِ، أضاءَ له مِنْ النُّوْرِ بينَ الجُمُعَتَيْنِ» [(250)].

4 ـ الفرار من الدجال والابتعاد منه، قال رسول الله (ﷺ): « مَنْ سمعَ بالدّجّالِ، فلينأَ عَنْهُ، فواللهِ إنَّ الرَّجُلَ ليأتيه وهو يَحْسَبُ أنَّه مؤمنٌ، فيتبعُه مما يبعثُ به مِنَ الشُّبهاتِ، أو لما يبعثُ به من الشبهاتِ »[(251)] .

وأمّا هلاك الدجال على يدي المسيح عيسى بن مريم رضي الله عنهم، فقد دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة[(252)] .

ثامناً ـ الخسوفات الثلاثة:

وهي من أشراط الساعة، جاء ذكرها في الأحاديث ضمن العلامات الكبرى، فعن حذيفة بن أُسيدٍ رضي الله عنه أنَّ رسول الله (ﷺ) قال: « إنّ الساعةَ لن تقومَ حتّى تَرَوْا عَشْرَ آياتٍ .. (فذكر منها) وثلاثةَ خسوفٍ، خَسْفٌ بالمشرقِ، وخَسْفٌ بالمغربِ، وخَسْفٌ بجزيرة العرب »[(253)] .

وهذه الخسوفُ تكونُ عظيمةً وعامةً لأماكنَ كثيرةٍ من الأرض، في مشارقها ومغاربها وفي جزيرة العرب . وقد وُجِدَ عبرَ التاريخ الخسفُ في مواضع، ولكن يحتمل أن يكون المراد بالخسوف الثلاثة قدراً زائداً على ما وُجِدَ، كأنْ يكونَ أعظمَ منه مكاناً وقدراً [(254)] .

تاسعاً ـ النار التي تحشر الناس:

ومنها خروجُ النارِ العظيمة، وهي من أشراطِ الساعة الكبرى، وأوّلُ الآيات المؤذنةِ بقيام الساعة، وجاءت الرواياتُ بأنَّ خروجَ هذه النارِ يكونُ من اليمنِ، من قعرة عدن، فقد جاء في حديثِ حذيفة بن أُسيد في ذكر أشراطِ الساعة الكبرى قوله (ﷺ): « واخِرُ ذلك نارٌ تخرجُ من اليمنِ، تطرُدُ الناسَ إلى محشرِهِم »[(255)]، وفي رواية له عن حذيفة أيضاً: « ونار تخرجُ من قعرةِ عدنٍ ترحّلُ الناسَ »[(256)] . وكون النار تخرجُ من قعرة عدن لا ينافي حشرها الناس من المشرق إلى المغرب، وذلك أنَّ ابتداءَ خروجِها من قعرةِ عدن، فإذا خرجتْ انتشرتْ في الأرضِ كلِّها . . . وعندما تنتشرُ يكون حشرُها لأهلِ المشرقِ[(257)] .

المبحث الثالث: النفخ في الصور

أولاً ـ ما هو الصور؟

عرّف النبي (ﷺ) الصُّور ـ كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال: جاء أعرابيٌّ إلى النبي (ﷺ) قال: ما الصورُ؟ ـ قال: « الصُّوْرُ قرنٌ يُنْفَخُ فيه»[(258)] قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ *﴾ [النمل: 87] .وقد سمّاه الله تعالى أيضاً الناقور، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ *﴾ [المدثر: 8] والناقور هو الصور[(259)]، فالصور والناقور اسمان لمسمًى واحد .

ثانياً ـ أسماء الصوت الذي يخرج من الصور:

وقد سمّى الله تعالى الصوتَ الذي يخرجه إسرافيل من الصور بأسماء هي :

1 ـ النفخة: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ *﴾ [الحاقة: 13] .

2 ـ الصيحة: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ *﴾ [يس: 49] .

3 ـ الراجفة: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ *تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ *﴾ [النازعات: 6 ـ 7] .

4 . الزجرة: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ *﴾ [النازعات: 13] .

فإسرافيل ينفخُ نفخةً، وزجرةً، وهي النفخةُ بغضبٍ تُحْدِثُ صيحةً عظيمةً ترجُفُ لها الأرضُ والقلوبُ[(260)] .

ثالثاً . عددُ النفخاتِ:

اختلف العلماء في عدد النفخات على أقوال :

القول الأول: أنها ثلاثُ نفخاتٍ، وذلك أنّ الله نصَّ على هذه الثلاث في كتابه وهي :

1 . نفخة الفزع:

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ *﴾ [النمل: 87] .

2 . نفخة الصعق:

قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: 68] .

3 . نفخة البعث:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ *﴾ [الزمر: 68] .

وقالوا: إن الفزع مغايِرُ للصعقِ، واستدلوا بحديثِ الصور الطويل، وفيه أنَّ النفخاتِ ثلاثٌ[(261)] .

القول الثاني: أنّهما نفختان: (نفخة الصعق) و(نفخة البعث)، وقالوا: هذا هو ظاهِرُ النصوص: كقوله تعالى: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ *فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلاَ إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ *وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ *قَالُوا يَاوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَانُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ *﴾ [يس: 49 . 52] .

وقوله: هذه هي النفخةُ ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ﴾ . وقوله: هذه هي النفخةُ الثانية وكقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ * يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ *تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ *﴾ [النازعات: 6 . 7] هما النفختان الأولى والثانية[(262)] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ (ﷺ) قال: « بينَ النفختينِ أربعونٌ».

قالوا: يا أبا هريرة أربعون يوماً، قال: أبيت، قالوا: أربعون سنة، قال: أبيت، قالوا: أربعون شهراً، قال: أبيت، « ويبلَى كلُّ شيءٍ من الإنسانِ إلاّ عُجْبُ ذَنَبِهِ، فيه يركَّبُ الخَلْقُ »[(263)] .

ويمكِنُ الجمعُ بين الفزع والصعق، وجعلهما نفخةً واحدةً، ولكنّها تبدأُ بالفزِع، وتنتهي بالصَّعْقِ، مع وجودِ مسافةٍ زمنيةٍ تفصِلُ بين بدايتها ونهايتها، أي إنَّ الله يأمرُ إسرافيلَ بالنفخِ، فينفخُ نفخةَ إفزاعٍ يطوّلها ويمدّها لا يفترُ (وهو ما يعني استمرار النفخ بلا انقطاع) فيما الناسُ في العذابِ يشاهدون أحداثَ الزلزلةِ إلى أنْ يأمرَ اللهُ بنفخةِ الصَّعْقِ الأشدِّ قوةً وهولاً، فيموتُ لشدّتها كلُّ من في السموات والأرض إلا من شاء الله[(264)] .

ومن هذا الباب يمِكنُ الاستدلالُ على ذلك بقول الرسول (ﷺ): « يخرجُ الدجّالُ في أمتي، فيمكثُ أربعينَ (ثم قال:) وهم في ذلك دارٌّ رزقُهم، حَسَنٌ عيشُهم، ثم ينفخُ في الصورِ، فلا يسمعُه أحدٌ إلا أصغى لِيْتاً، ورفع لِيْتاً، قال: وأول من يسمعُه رجلٌ يلوطُ حَوْضَ إبله، قال: فيُصعقُ ويُصعُقُ الناسُ» [(265)]، وأصغى في الحديث: يعني: أمال . (والليت) صفحةُ العنق، فهذا التسمُّعُ والإصغاءُ يدلُّنا على أنَّ بدايةَ النفخةِ ليستْ كنهايتها في القوّة والشّدةِ، حتى إنّ الصوتَ لم يشمل كلَّ الناسِ عند بدايته[(266)]، كما نجدُ في نص الحديث: « وأوّلُ مَنْ سمِعُه رجلٌ يلوطُ حَوْضَ إبله » فلو كانت بدايتُها (بالصعقة) المميتة لماتَ الناسُ على أثرِها، ولما بقيت فسحةٌ لهذا التسمُّعِ والإصغاء، وكأنّ الصوت يبدأُ رويداً، ثم يمضي في التدرّج الصاعدِ، إلى أن يملأ الكونَ دويّاً وإرعاداً، مصحوباً بالزلزلةِ العظيمةِ، وذلك التدرُّجُ في النفخِ والمدِّ

والتطويل أدعى لتصعيدِ حِدَّةِ الخوف، وإيقاع الرهبةِ في نفوس شرار الخلق، الذي يعذّبهم الله في الدنيا بأحداثِ الساعة ما شاءَ له أن يعذِّبَهم، إلى أن يأمرَ بنفخةِ الصعق فيصعقون[(267)].

1 ـ انتظار إسرافيلَ الأمرَ بالنفخ في الصور: قال رسول الله (ﷺ): « إنّ طَرْفَ صاحبِ الصُّوْرِ منذ وُكِّلَ به مستعدٌّ ينظرُ نحو العرشِ مخافةَ أن يؤمرَ قبل أن يرتدَّ إليه طرفُه، كأنَّ عينيه كوكبانِ دُرّيان »[(268)] .

2 ـ كيف أنعمُ وقد التقمَ صاحِبُ القرنِ القرنَ؟ قال رسول الله (ﷺ): « كيف أنعمُ وقد التقمَ صاحبُ القَرْنِ القرنَ، وحَنَى جبهتَهُ، وأَصْغَى سَمْعَهُ ينتظِرُ أن يؤمرَ أن ينفخَ، فينفخَ »؟! . قال المسلمون: فكيف نقول يا رسول الله؟ قال: « قولوا حسبُنا الله ونعمَ الوكيل، توكلنا على الله ربنا »[(269)] .

3 ـ اليومُ الذي تكون فيه النفخة: قال رسول الله (ﷺ): « إنَّ مِنْ أفضلِ أيّامِكُم يومَ الجمعةِ، فيه خُلِقَ ادمُ، وفيه قُبِضَ، وفيه النفخةُ، وفيه الصعقةُ، فأكثروا عليَّ من الصلاةِ فيه، فإنَّ صلاتَكُم معروضةٌ عليَّ، إنّ الله حرّم على الأرضِ أنْ تأكلَ أجسادَ الأنبياءِ »[(270)] .

4 ـ مَنِ الذين استثناهم الله من الفزع والصعق؟ قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ *﴾ **[الزمر: 68]** .

ذهب طائفةٌ من العلماء إلى أنّ الذين استثناهم الله في قوله: هم ﴿إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾، ومنهم من قال: إنّهم الأنبياءُ أو الشهداءُ أو الحُور العين ... إلخ. والصحيحُ أنّه لم يردْ نصٌّ صريحٌ في كتاب الله أو في سُنَّةِ رسولِه (ﷺ) يحدّد لنا من الذين استثناهم الله في تلك الآية، وبذلك لا يمكُننا أن نجزمَ بذلك، وصار مثل العلم بوقتِ الساعةِ، وأمثال ذلك ممّا لم يخبرِ الله به[(271)] .

رابعاً . الآيات التي يقصد بها النفخة الأولى:

1 . قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ *﴾ [النمل: 87] .

2 . وقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: 68] .

3 . وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلاَءِ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ *﴾ [ص: 15] .

4 . وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ *﴾ [النازعات: 13] .

5 . وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ *﴾ [النازعات: 6] .

خامساً . الآيات التي يقصد بها النفخة الثانية:

1 . قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ *﴾ [الصافات: 19] هي عبارة عن النفخة الثانية في الصور[(272)] .

2 . وقال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا *﴾ [الكهف: 99] .

3 . وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ*﴾ [يس: 51] .

4 . وقال تعالى: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ*﴾ [يس: 53] .

5 . وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا *﴾ [النبأ: 18] .

6 . وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا *﴾ [طه: 102] .

7 . وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ*﴾ [المؤمنون: 101] . قال الشنقيطي: إنها الثانية[(273)] .

8 . وقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ *﴾ [ق: 20] قال الشوكاني: وهذه هي النفخةُ الآخرة للبعث[(274)] .

9 . وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ *﴾ [ق: 42] .

10 . وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ *﴾ [الحاقة: 13] لقوله بعدها: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ *﴾ [الحاقة: 15] .

سادساً: الآيات التي تحتمل الأمرين:

1 . قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلاَ فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ *وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ *﴾ [سبأ: 51 . 54] .

2 . وقال تعالى: ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ *﴾ [الأنعام: 73] .

3 . وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِي إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ *﴾ [القمر: 6] قال القرطبي: الداعي هو إسرافيل[(275)] عليه السلام، وعليه فتكونُ الدعوةُ هي النفخُ في الصور، والله تعالى أعلم وأحكم[(276)] .

* * *

الفصل الثالث: البعث والحشر وأهوال يوم القيامة وأحوال الناس فيها

المبحث الأول: البعث .

المبحث الثاني: الحشر، وأهوال يوم القيامة، وأحوال الناس فيها.

المبحث الثالث: الشفاعة .

المبحث الرابع: الحساب والحوض والميزان، والصراط .

المبحث الأول: البعث

تعريف البعث ومنهج القرآن في الاستدلال عليه :

تعريف البعث: هو إعادة المخلوقات بعد فنائها للحساب والجزاء، من خير أو شر [(277)] قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى *﴾ [النجم: 31] .

ولقد نهج القرآن الكريم في الاستدلال على البعث، وتحقُّقِ وقوعه منهجاً قوياً، يجمعُ بين ما فُطِرَتْ عليه النفوس من الإيمان، بما تشاهد وتحس ويقع منه تحت تأثير السمع والبصر، وبين ما تقرره العقول السليمة، ولا يتنافى مع الفطر المستقيمة، وتلك الطريقةُ التي تميّزَ بها القرآن الكريم[(278)] .

أولاً ـ الاستدلال بمن أماتهم الله ثم أحياهم:

كما أخبر الله تعالى عن ذلك ومنهم :

1 ـ قوم موسى: قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ *ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ *﴾ [البقرة: 55 ـ 56] .

2 ـ المضروب بعضوٍ، من أعضاء البقرة: كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ *فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ *﴾ [البقرة: 72 ـ 73] .

3 ـ الذين أخبر الله عنهم بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ﴾ [البقرة: 243] .

4 ـ ما حصل لعُزَير، كما قال تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *﴾ [البقرة: 259] .

5 ـ سؤال إبراهيم عليه السلام عن كيفية إحياء الموتى: قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ *﴾ [البقرة: 260] .

6 ـ ما أخبر الله به عن عيسى عليه السلام من أنّه كان يحيي الموتى بإذن الله: قال تعالى: ﴿وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ

لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِىءُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: 49] .

7 ـ ما أخبر الله من قصة أصحاب الكهف: كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا *إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّىءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا *﴾[الكهف: 9 ـ 10].

إنّ هذه الأدلّة المتقدّمة أدلةٌ حسيةٌ ماديةٌ، وقعت كلّها لتدلَّ على إحياء الموتى بعد مماتهم، وهذا برهانٌ قطعيٌّ على القدرة الإلـهية، وقد أخبر الله ورسوله(ﷺ) عن وقوع البعث والحشر فوجب القطع بذلك[(279)] .

ثانياً ـ الاستدلال على البعث بالنشأة الأولى :

ومن الآيات الدالّة على ذلك ما يلي :

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ﴾ [الحج: 5 ـ 7] .

وهذه الآيات تعطي تفصيلاً للمراحل التي يمرُّ بها خلقُ الإنسان، فقد قابل الله هذه المراحل بعدّةِ دلالات على قدرته سبحانه على البعث، فالله سبحانه يبيّنُ للناسِ إنْ كنتم في ريب من البعث، فلستم ترتابون في أنّكم مخلوقون،

ولستم ترتابون في مبدأ خلقكم من حال إلى حال إلى حين الموت والبعث الذي وُعْدِتُم به، نظير النشأة الأولى، فهما نظيران في الإمكان والوقوعُ، فإعادتكم بعدَ الموتِ خلقاً جديداً كالنشأة الأولى التي لا ترتابون فيها، فكيف تنكرون إحدى النشأتين مع مشاهدتكم لنظيرها[(280)] ؟! .

إنّ هذه الآيات لها دلالةٌ عقليةٌ على البعث، إنّها نقلةٌ ضخمةٌ بعيدةُ الأغوارِ والاماد، تشهدُ بالقدرة التي لا يعجزها البعثُ، وإنّ إنشاءَ الإنسان من التراب، وتطوَّرَ الجنينِ في مراحل حياته، وانبعاثَ الحياة من الأرض بعد الهمود، كلُّ ذلكَ متعلّقٌ بأنَّ الله هو الحق، فهو من السنن المضطردة التي تنشأ من أنَّ خالقها هو الحق، الذي لا تختل سننه، ولا تتخلف .

وأنَّ اتجاهَ الحياةِ في هذه الأطوارِ ليدلَّ على الإرادةِ التي تدفعُها، وتنسّقُ خطاها، وترتّب مراحلها، فهناك ارتباطٌ وثيقٌ بينَ أنّ الله هو الحق، وبين هذا الاضطرادِ والثباتِ، والاتجاه الذي لا يحيدُ .

وأنَّ إحياءَ الموتى هو إعادةُ للحياة، والذي أنشأ الحياةَ الأولى هو الذي ينشِئها للمرّة الآخرة، وأَنَّ اللّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ليلاقوا ما يستحقّونه من جزاء، فهذا البعثُ تقتضيه حكمةُ الخلق والتدبير .

وإنَّ هذه الأطوارَ التي يمرُّ بها الجنينُ، ثم يمرُّ بها الطفلُ بعد أن يرى النور، لتشيرُ إلى أنَّ الإرادةَ المدبِّرةَ لهذه الأطوار، ستدفعُ بالإنسان إلى حيث يبلغ

كماله الممكن في دار الكمال، إذ إنَّ الإنسانَ لا يبلغُ كماله في حياة الأرض، فهو يقفُ ثم يتراجعُ فلابدَّ مِنْ دارٍ أُخرى يتمُّ فيها تمامُ ﴿لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ .

فدلالة هذه الأطوار على البعثِ دلالةٌ مزدوَجةٌ، فهي تدلُّ على البعثِ من ناحيةِ أنَّ القادرَ على الإنشاءِ قادرٌ على الإعادةِ، وهي تدلُّ على البعثِ، لأنَّ الإرادةَ المدبّرَة تكمِّلُ تطويرَ الإنسان في الدار الآخرة، وهكذا تلتقي نواميسُ الخلقِ والإعادةِ ونواميسُ الحياةِ والبعثِ، ونواميسُ الحسابِ والجزاءِ، تشهدُ كلُّها بوجودِ الخالق المدبرِ القادرِ، الذي ليس في وجوده جدال[(281)] .

ثالثاً ـ الاستدلال على إمكان البعث بخلق الأكوان، مثل السماوات والأرض، فإنّ خلقها أعظمُ مِنْ خلق الإنسان.

ومن الآيات الدالة على ما يلي :

1 ـ قال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ **[الإسراء: 98 ـ 99]** .

2 . قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *﴾ [الأحقاف: 33] .

3 . وقال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [يس: 81] .

رابعاً ـ الاستدلال على إمكان البعث بخلق النباتات المختلفة:

ومن الآيات ما يلي :

1 . قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ *﴾ [الأعراف: 57] .

2 . قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ *﴾ [فاطر: 9] .

3 . قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *﴾ [فصلت: 39] .

4 ـ قال تعالى: ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ *﴾ [الرعد: 4] .

5 ـ وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: 5] .

6 ـ قال تعالى: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ *﴾ [الحج: 5 ـ 7] .

7 ـ وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ *وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ *رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ *﴾ [ق: 9 ـ 11] ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا﴾: يراد به الأرض التي كانت هامدةً، فلمّا نزلَ عليها الماءُ اهتزّت وربت، وأنبتت من كل زوجٍ بهيجٍ من أزاهير وغير ذلك، مما يحارُ الطرفُ في حُسنها، وذلك بعدما كانت لا نباتَ بها، فأصبحتْ تهتزُّ خضراً، فهذا مثالٌ للبعث بعد الموت والهلاك، كذلك يحيي الله الموتى، وهذا المشاهد من عظيم قدرته بالحسِّ أعظمُ مما أنكره الجاحدون للبعث[(282)] .

فجعل الله سبحانه، إحياءَ الأرض بعدَ موتها نظيرَ إحياءِ الأموات، وإخراجَ النبات منها نظيرَ إخراجهم من القبور، ودلّ بالنظير على نظيره، وجعلَ ذلك آية ودليلاً على خمسة مطالب :

المطلب الأول: وجودِ الصانع، وأنّه الحقُّ المبين، وذلك يستلزِمُ إثبات صفات كماله وقدرته، وحياته وعلمه، وحكمته ورحمته، وأفعاله .

المطلب الثاني: أنه يحيي الموتى .

المطلب الثالث: عموم قدرته على كل شيء .

المطلب الرابع: إتيان الساعة، وأنها لا ريبَ فيها .

المطلب الخامس: أنه يخرِجُ الموتى من القبور، كما أخرجَ النباتَ من الأرض[(283)] .

خامساً ـ الاستدلال على البعثِ والإعادةِ بإخرجِ النارِ من الشجرِ الأخضرِ:

الشجرُ إذا قُطِعَ وأصبحَ حطباً يكونُ ميتاً، وليس فيه أثرٌ للحياة، فإذا أُوقدتْ به النارُ دبّت فيه حركة واضطراب، وهذه اثارُ الحياةِ، فَمَن قَدَرَ على هذا قدَرَ على إحياء الموتى .

وقد ذكر الله تعالى هذا الدليلَ في موضعين من كتابه سبحانه: قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ *أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِؤُونَ *﴾ [الواقعة: 71 . 72] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ*﴾ [يس: 77 .82]

فردّ بهذه الآيات على مَنْ أنكرَ البعث بثلاثةِ أدلةٍ عقلية :

الدليل الأول: الاستدلال بالنشأة الأولى على النشأة الآخرى، قال تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ *﴾ [يس: 79] .

الدليل الثاني: الاستدلال بإخراج النار من الشجر الأخضر، مع أنّه أكثر بالضدية، لأنّ الشجرَ إنّما يكونُ أخضرَ إذا كان مليئاً بالماء، فمن قدرَ على إخراجِ النارِ من هذا الشجر الميّت المليء بالماء قادِرُ على إحياء الأموات من قبورهم، قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ *﴾ [يس: 80] .

الدليل الثالث: الاستدلال بخلق السماوات والأرض على خلق الإنسان، قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ *إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ *﴾ [يس: 81 – 82] .

سادساً ـ الاستدلال على البعث بأن حكمة الله وعدله يقتضيان البعث والجزاء:

فإن الله تعالى لم يخلقِ الناسَ عبثاً، ولن يتركهم سدًى :

1 ـ قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ *فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ *﴾ **[المؤمنون: 115 ـ 116]** .

2 ـ وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً *﴾ **[القيامة: 36]** فهل يظنُّ عاقِلٌ أنْ يترِكَ الإنسانُ في هذه الدنيا لا يؤمر ولا يُنهى ويترك في قبره سدًى دونَ أن يبعث ؟ إنّ ذلك لا يليقُ بحكمة الله، فكلُّ شيء يصدر عنه سبحانه له حكمة تقتضيه[(284)] .

إننا نشاهد في حياتنا ظالمين ظلوا ظالمين حتّى لحظة الموت، ولم يأخذْ على أيديهم أحدٌ، ومظلومين ظلّوا مظلومين إلى اخرِ حياتهم، لم ينصفْهم أحدٌ، أفإنْ كانت الحياةُ هي نهايةَ المطاف، أيكونُ هذا عدلاً وحكمةً ؟ وأينَ هي الحكمةُ في خلق حياةٍ تجري أحداثُها على غير مقتضى العدل، ثم تنتهي دونَ حسابٍ؟

لذا يأتي التأكيدُ في القرآن على أنَّ البعثَ ضرورةٌ يقتضيها عدلُ اللهِ وحكمته في مواضعَ عديدةٍ من القرآن منها[(285)] :

3 ـ قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ *﴾ [الجاثية: 21] .

4 ـ وقوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ *﴾ [ص: 28] .

5 ـ قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ *مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ *﴾ [القلم: 35 ـ 36] .

6 ـ قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ *﴾ [ص: 27] .

سابعاً ـ إخبار العليم الخبير بوقوع القيامة :

أعظمُ الأدلّةِ على وقوع المعاد إخبارُ الحقِّ تبارك وتعالى بذلك، فَمَنْ امنَ باللّهِ، وصدّقَ برسولِه (ﷺ) الذي أرسلَ، وكتابِه الذي أنزل، فلا مناصَ له من الإيمانِ بما أخبرنا به من البعث والنشور، والجزاء والحساب، والجنة والنار، وقد نوَّعَ تبارك وتعالى أساليبَ الإخبارِ، ليكونَ أوقعَ في النفوس، واكد في القلوب.

1 . ففي بعض المواضع يخبرنا بوقوع ذلك اليوم إخباراً مؤكداً (بأنّ) أو (بإنّ واللام) كقوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: 15] وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ *﴾ [الحجر: 85] .

2 . وفي مواضع أخرى يقسمُ الله تعالى على وقوعه ومجيئه، كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ [النساء: 87] ويقسمُ على تحقق ذلك بما شاء من مخلوقاته، كقوله تعالى: ﴿وَالطُّورِ *وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ *فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ *وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ *وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ *وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ *إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ *مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ *﴾ [الطور: 1 . 8] .

3 . وفي بعض المواضع يأمرُ رسولَه (ﷺ) بالإقسام على وقوع البعث وتحققه: وذلك في معرض الردّ على المكذّبين به، المنكرين له، كقوله تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ [التغابن: 7] .

4 . وفي مواضع أخرى يذمُّ المكذّبين بالمعاد: كقوله تعالى: ﴿خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ *﴾ [يونس: 45] .

5 . وأحياناً يمدح المؤمنين بالمعاد: قال تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ * رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ

إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ *رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ *﴾ [آل عمران: 7 . 9] .

6 . وأحياناً يخبر أنه وَعْدٌ صادق، وخبرٌ لازمٌ . وأجلٌ لا شكَّ فيه: قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآَيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخرة ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ *وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَعْدُودٍ *﴾ [هود: 103 . 104] .

7 . وفي بعض الأحيان يخبر عن مجيئه واقترابه: قال تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ *﴾ [النحل: 1] [(286)].

8 . وفي مواضع أخرى يمدح نفسه تبارك وتعالى بإعادة الخلق بعد موتهم: ويذم الالهة التي يعبدها المشركون بعدم قدرتها على الخلق، كقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ [النمل: 64] .

9 . وبين في مواضع أخرى أن هذا الخلق وذاك البعث الذي يعجزُ العباد ويذلّهم سهل يسير عليه: قال تعالى: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: 28] وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ*﴾ [القيامة: 3 . 4] [(287)].

ثامناً ـ قياس البعث على النوم:

فالنومُ أخو الموتِ، بل هو موتةٌ صغرى، فالله تعالى يتوفّى الأنفسَ بالموت وبالنوم، فالقادر على إرجاع نفسِ النائم له بعد قبضها، قادِرٌ على إرجاع نفس الميت له بعد قبضها، قال تعالى: ﴿مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ*﴾ [الزمر: 42] .

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: كان النبيُّ (ﷺ) إذا أخذَ مضجعَه من الليل وضعَ يدَه تحت خَدِّهِ ثم يقول: « اللهمَّ باسمِكَ أموتُ وأحيا »، وإذا استيقظَ قال: « الحمدُ للهِ الذي أحيانا بعدَما أماتنا وإليه النشورُ »[(288)] .

وعن جابر بن عبد الله قيل: يا رسول الله أينامُ أهل الجنة ؟ قال: « لا، النومُ أخو الموتِ، والجنّةُ لا موتَ فيها »[(289)] .

تاسعاً ـ الفطرة تدل على البعث:

فطر الله تعالى الأنبياءَ على الإحساسِ بوجودِ عالمٍ اخر بعد الموت، وهذا من أقوى الأدلّةِ على وجود اليوم الآخر، لأنَّ الله تعالى إذا أرادَ أن يُقْنِعَ بني الإنسان بأمرٍ ما، فإنّه يغرسُ فكرةَ الاقتناع به في فطرِهم، ولذا فإنَّ الإنسانَ

يشتاق إلى حياةٍ خالدةٍ، ولو في عالم غير هذا العالم، وهذا الإحساسُ شائعٌ في نفوس البشر، بحيث لا يمكِنُ النظرُ إليه باستخفاف، ولذلك جاءت الأديانُ السماويةُ مبشرةً بحياة أخرى بعد الموت، وجعلت مصيرَ كلِّ إنسانٍ مرتهناً بما قدّمت يداه في الدنيا، وهذا مما يكسب زيادةَ إيمانٍ بربه، وبما جاءت به الرسل، فيقدّمُ الأعمالَ الصالحةَ استعداداً بها ليوم الميعاد[(290)] .

عاشراً ـ أسماء يوم القيامة:

وقد جاء الحديثُ عن يوم القيامة في القرآن الكريم مفصّلاً، وسمي بأسماء كثيرة، وهذا يدلُّ على تعظيم الشيء، كما هي العادةُ عند العرب، فقد كانوا إذا عظّموا شيئاً أكثروا له من السماء، ومن الأسماء التي ذُكِرَتْ في القرآن ليوم القيامة: اليوم الآخر، ويوم الازِفَة، ويوم البعث، ويوم التغابُن، ويوم التلاقي، ويوم التنادي، ويوم الجَمْع، والحاقّة، ويوم الحساب . ويوم الحسرة، واليوم الحقّ، ويوم الخروج، ويوم الدين، والساعة، والصاخة، والطامة الكبرى، والغاشية، والفزع الأكبر، ويوم الفصل، والقارعة، والمعاد، واليوم الموعود، والواقعة، والوعد الحق، ويوم الوعيد، والوقت المعلوم[(291)] .

وأمّا عن صفاتِ يوم القيامة، فقد وُصِفَ بأنّه عظيمٌ، ويوم عقيمٌ، ويومٌ عسيرٌ، ويومٌ ثقيلٌ، ويومٌ كبيرٌ، ويومٌ محيطٌ[(292)] .

المبحث الثاني: تعريف الحشر وأهوال يوم القيامة، وأحوال الناس

أولاً . الحشر :

أ . تعريف الحشر:

جمع الخلائق يوم القيام لحسابهم والقضاء بينهم .

1 . قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ *﴾ [الأنعام: 51] .

2 . وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ *﴾ [يونس: 45] .

3 . وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا *﴾ [الكهف: 47] .

4 . وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ*﴾ [ق: 44] .

5 . وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ *﴾ [الأنعام: 38].

6 . وقال تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ *﴾ [التكوير: 5] .

ب . مكان الحشر (أرض الحشر):

دلَّ الكتاب والسنة على أنّ أرضَ المحشر هي أرض الشام قال تعالى :

﴿الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ *﴾ [الحشر: 2] .

وعن سمرة بن جندب أنَّ رسول الله (ﷺ) كان يقول « إنَّكم تحشرونَ إلى بيتِ المقدسِ، ثم تجتمعون يومَ القيامةِ »[(293)] .

ج . صفة الناس في الحشر:

1 . يحشر الناس حفاة عراة غرلاً: حفاةً غير متنعلين، عراةً غير لابسين، غرلاً غير مختونين، فكما أنّ الإنسانَ يولد حافياً عارياً أغرلاً فكذلك يبعث .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي (ﷺ) قال: «أيها الناسُ ؛ إنّكم تُحْشَرُوْنَ إلى الله حفاةً عراةً غرلاً، ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ *﴾ [الأنبياء: 104] ألا وإنّ أوَّل الخلائقِ يُكْسَى يومَ القيامة إبراهيمُ عليه السلام، ألا وإنَّه سَيُجَاءُ برجالٍ من أمتي، فيؤخَذُ بهم ذاتَ الشمالِ

فأقول: يا ربِّ أصحابي، فيُقَالُ: إنَّكَ لا تدري ما أحدثوا بَعْدَكَ، فأقولُ كما قالَ العَبْدُ الصَّالِحُ: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *﴾ **[المائدة: 117 . 118]** قال: فيُقالُ لي: إنَّهم لم يزالوا مرتدينَ على أعقابهم منذُ فارقتَهُم»[(294)] .

وعن عائشة رضي الله عنها أنّ رسول الله (ﷺ) قال: « يُبْعَثُ الناسُ يومَ القيامةِ حُفاةً عُراةً، غُرْلاً »، فقالت عائشة: فكيف بالعوراتِ، قال: « لكلِّ امرىءٍ يومئذٍ شأنٌ يغنيه »[(295)] .

2 . الوجوه: قال تعالى: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا *﴾ **[طه: 111]** أي ذلت وخضعت[(296)] .

3 . الأبصار: قال تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ *﴾ **[القمر: 7]** وقال تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ *﴾ **[القيامة: 7]** أي اضطربت وجالت العينُ من الخوفِ[(297)] .

4 . أحوال الناس عموماً: يعرضون صفّاً أمام الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا *﴾ **[الكهف: 48]** .

ولا يتكلمون، قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لاَ عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَانِ فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا *﴾ [طه: 108] وقال تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ لاَ يَنْطِقُونَ *وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ *﴾ [المرسلات: 35 . 36] .

وأحياناً يتكلمون، قال تعالى: ﴿يَقُولُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ *﴾ [القيامة: 10] يدلُّ على أنّهم يتكلمون، فكيف يتكلّمون ولا يتكلمون ؟

الجواب: هذا بحسب اختلاف الأوضاع، فيومُ القيامة يومٌ طويلٌ، وفي موقفٍ يتكلّمون، وفي موقف يصمتون، والله تعالى يقول: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلاَئِكَةُ صَفًّا لاَ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَانُ وَقَالَ صَوَابًا *﴾ [النبأ: 38] . فإثباتُ الكلام من الخلق يوم القيامة تبعٌ لإذن الله لهم، ونفيُه في الحالةِ التي لم يؤذَنْ فيها[(298)] .

5 . ذهول الناس وخوفهم وهلعهم:

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ *يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ *﴾ [الحج: 1 . 2]

فإن كانت الأمُّ المرضعةُ . وهي أحرص ما يكون على ولدها . تذهلُ عنه، فغيرها من بابٍ أولى، وإن كان الطفلُ الصغيرُ الذي لم يذنب بعدُ يخاف حتى يشيبَ عارضاه فما بالك بغيره من الناس[(299)] .

6 . تُنسى الأنسابُ، فكلُّ إنسانٍ مشغولٌ بنفسه لأنه يأتي وحيداً:

قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ *﴾ **[المؤمنون: 101]** قال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَانِ عَبْدًا *لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا *وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا *﴾ **[مريم: 93 . 95]** وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَ يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ *﴾ **[لقمان: 33]** .

7 . يجثون على الرُّكبِ، قال تعالى: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾ **[الجاثية: 28]** .

8 . يعرضون على الله لا يخفى منهم شيء: قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ *﴾ **[الحاقة: 18]** وغير ذلك من أحوال الناس[(300)] .

ثانياً: أهوال يوم القيامة :

يحدّثنا القرآن عن أهوالِ ذلك اليوم التي تَشْدَه الناسَ، وتشدُّ أبصارَهم، وتملِكُ عليهم نفوسَهم، وتزلزل قلوبَهم .

ومن أعظم تلك الأهوال ذلك الدمارُ الكونيُّ الشاملُ الرهيبُ الذي يصيبُ الأرضَ وجبالها، والسماءَ ونجومَها، وشمسَها وقمرَها[(301)]، ومن أهوال ذلك اليوم :

1 . دكُّ الأرضِ ونسفُ الجبال:

قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ *وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً *فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ *﴾ [الحاقة: 13 . 15] وقال تعالى: ﴿كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا *﴾ [الفجر: 21] وعند ذلك تتحوّلُ هذه الجبال الصلبة القاسية إلى رمل ناعم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلاً *﴾ [المزمل: 14] أي تُصْبِحُ ككثبان الرمل بعد أن كانت حجارةً صماءَ، والرمل المهيل: هو الذي إذا أخذتَ منه شيئاً تبعك ما بعده، يقال: أهلتُ الرمل أهيله هيلاً، إذا حركت أسفله انهال من أعلاه .

وأخبر في موضع اخر أنّ الجبال تصبحُ العهن، والعهنُ هو الصوف، كما قال تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ *﴾ [المعارج: 9] وفي نصٍّ اخر مثلها بالصوف المنفوش: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ *﴾ [القارعة: 5] .

ثم إنّ الحقَّ تبارك وتعالى يزيلُ هذه الجبال عن مواضعها، ويسوّي الأرضَ حتى لا يكونَ فيها موضعٌ مرتفعٌ ولا منخفضٌ، وعبّر القرآن عن إزالةِ الجبال بتسييرها مرة، وبنسفها مرة أخرى، قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ *﴾

[التكوير: 3] ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا *﴾ [النبأ: 20] وقال في نسفه لها: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ *﴾ [المرسلات: 10] .

ثم بين الحقُّ حال الأرض بعد تسيير الجبال ونسفها قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى﴾ [الكهف: 47]، أي ظاهرةً لارتفاع فيها ولا انخفاض[(302)]، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا *فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا *لاَ تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلاَ أَمْتًا *﴾ [طه: 105 . 107] .

2 . قبضُ الأرض وطيُّ السماءِ:

قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ *﴾ [الزمر: 67] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ *﴾ [الأنبياء: 104] وقال رسول الله (ﷺ): «يقبِضُ اللهُ الأرضَ يومَ القيامةِ، ويطوي السماءَ بيمينه، ثم يقول: أنا المِلكُ أينَ ملوكُ الأرض ؟!»[(303)].

ومعنى الكلام أي على الكتاب بمعنى المكتوب.

3 . تفجير البحار وتسجيرها:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ *﴾ [الانفطار: 3]

فُجّرت: فجر الله بعضها في بعض، وقيل: ذهبَ ماؤها، وقيل: اختلطَ عذبُها بمالحها، وقال تعالى: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ *﴾ [الطور: 6] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ *﴾ [التكوير: 6] أوقدت، فصارت ناراً تضطرِمُ، وقيل يَبِسَتْ[(305)] . والمعنى المتحصّل من أقوالهم أنّها يفجّرُ بعضُها في بعضٍ، فتمتلىءُ، ثم تسجَّرَ، فتصبحُ ناراً، ثم يَذْهَبُ ماؤها[(306)] .

4 . موران السماء وانفطارها:

قال تعالى: ﴿فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ *﴾ [الرحمن: 37] فهي في أشدِّ ما تكونُ من الوهن، وقال تعالى: ﴿وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ *﴾ [الحاقة: 16] وذلك أنها تضطربُ اضطراباً مَهُولاً، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ﴾ [الطور: 9] تتحرّك تحريكاً هو تشقُّقها، تدور دوراً، وقيل استدارتها وتحرُّكها لأمر الله، وموجُ بعضها في بعض، ثم إنَّها تتشقّق وتنفطِرُ وتنفرجُ، قال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ *وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ *﴾ [الانشقاق: 1–2] وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا *السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً *﴾ [المزمل: 17–18] وقال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ*﴾ [الانفطار: 1] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ *﴾ [المرسلات: 9] وقال تعالى: ﴿فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ *﴾ [الرحمن: 37] يعني الدهان، فشبّه السماءَ في تلوُّنها بالدُّهن في اختلافِ ألوانه،

وهو كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ *﴾ [المعارج: 8] وهو دَرْدِيُّ الزيت[(307)].

5 . تكويرُ الشمس:

قال تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ *وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ*﴾ [التكوير: 1 . 2]

قال ابنُ جريرٍ: والصوابُ عندنا من القولِ في ذلكَ أنّ التكويرَ جمعُ الشيءِ بعضُه على بعضٍ، ومنه تكوير العمامة، وجمع الثيابُ بعضُها على بعض، فمعنى قوله تعالى: جُمِعَ بعضُها إلى ﴿كُوِّرَتْ *﴾، ثم لُفَّت فرُمِيَ بها، وإذا فُعِلَ بها ذلك ذهبَ ضوؤها[(308)].

6 . خسف القمر:

قال تعالى: ﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ *وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ *﴾ [القيامة: 8 . 9]

خسف: أظلمَ وذهبَ نوره وضوؤه[(309)]، وقوله تعالى: ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ*﴾ [القيامة: 9] فسّره النبيُّ (ﷺ) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ (ﷺ) قال: الشمسُ والقمرُ مكوّران يومَ القيامةِ، يعني مجموعان مظلمان[(310)].

7. تناثر النجوم:

والنجوم والكواكب ينفرط عقدُها فتنتثر، ويذهب ضوءُها فتطمسَ، قال تعالى: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ *﴾ [التكوير: 2] يعني انتثرت[(311)]، وانفرطَ عِقْدُها، وتساقطت على أهل الأرض، وهو كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ *﴾ [الانفطار: 2] وقال تعالى: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ *﴾ [المرسلات: 8] يعني ذهبَ ضووؤها[(312)] .

8. بديلُ الأرضِ:

تبدَّلُ هذه الأرض، وتتغيَّرُ صفاتُها، ويكونُ عليها الحشرُ الأول، ثم تذهبُ هذه الأرضُ تماماً يوم يُحشَرُ الناسُ لمكانِ الحسابِ أمام الجسر، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ *﴾ [إبراهيم: 48] وجاء في (الصحيحين) عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله (ﷺ): « يُحْشَرُ الناسُ يومَ القيامةِ على أرضٍ بيضاءَ عفراءَ[(313)] كقُرصة النقي[(314)]، ليس فيه معلمٌ لأحدٍ»[(315)] .

ثم بعد ذلك تنتقل الخلائق إلى أرض الحساب، عن عائشة رضي الله عنها قالتْ: سألتُ رسولَ اللهِ (ﷺ) عن قوله عزّ وجل: فأين يكونُ الناسُ يومئذٍ

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ رسول الله؟ فقال: « على الصراط »[(316)] .

وعن ثوبان مولى رسول الله (ﷺ) قال: كنتُ قائماً عندَ رسولِ اللهِ (ﷺ) فجاءَ حَبْرٌ من أحبارِ اليهودِ فقال: السلامُ عليكم يا محمَّد، فدفعتُه دفعةً كادَ يصرعُ منها، فقال: لم تدفعُني ؟ فقلت: ألا تقول يا رسولَ اللهِ ؟ فقال اليهوديُّ: إنّما ندعوه باسمه الذي سمّاه به أهلهُ، فقال رسول الله (ﷺ): « إنَّ اسمي محمَّدٌ الذي سمّاني به أهلي » فقال اليهوديُّ: جئتُ أسألكَ، فقال له رسول الله (ﷺ): « أينفعُكَ شيءٌ إنْ حدَّثْتُكَ؟ » قال: أسمع بأذني، فنكتَ رسولُ الله (ﷺ) بعودٍ معه فقال: « سل » . فقال اليهوديُّ: أين يكون الناسُ ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ ؟ فقال رسول الله(ﷺ): « هُمْ في الظُّلْمَةِ دونَ الجِسْرِ ... »[(317)] .

وبهذا يتّضحُ أن تبديلَ الصفات في الحشر الأول إلى أرض المحشر عندما تُنْسَفُ الجبالُ والمرتفعاتُ، وتسوّى الأرضُ، فلا يبقى في تلك الأرض معلمُ لأحدٍ، وأما ذهابُ الأرضِ بالكلية ففي الحشر الثاني إلى أرضِ الحساب قبل جسر جهنم، والله تعالى أعلم[(318)] .

9 . سجودُ الخلائق لله سبحانه عند إتيانه للفصل بين العالمين ونزول الملائكة:

بعد بعثِ الناسِ من قبورِهم، وحشرِهم لأرضِ المحشرِ، وحصولِ أهوالِ يوم القيامةِ، وتبديلِ هذه الأرض، وحشرِ الناسِ لأرضِ الحسابِ عند الجسرِ، تنزلُ الملائكةُ صفوفاً، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلاَئِكَةُ تَنْزِيلاً *﴾ [الفرقان: 25] .

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلاَئِكَةُ صَفًّا لاَ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَانُ وَقَالَ صَوَابًا *ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا *﴾ [النبأ: 38 . 39] والمقصود بالروح جبريل عليه السلام .

وقال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلاَئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ *﴾ [النحل: 33] ومن هذه الملائكةِ هنالك ثمانيةُ أملاكٍ تحملُ عرشَ الرحمنِ سبحانه وتعالى: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ *﴾ [الحاقة: 17] .

ويأتي رب العزة للفصل بين العباد ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا *﴾ [الفجر: 22] أي والحالُ أنَّ الملائكةَ صفوفاً[(319)]، وقال سبحانه: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلاَئِكَةُ وقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ *﴾ [البقرة: 210] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ

﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ *﴾ [الأنعام: 30] .

وعندئذٍ تشرقُ الأرضُ بنور ربها، ويُؤتى بصحفِ الأعمال وبالشهود، ويبدأُ الحساب[(320)]، قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ *وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ *﴾ [الزمر: 69 . 70] .

ثالثاً . أحوال الكفار يوم القيامة :

تختلِفُ أحوال الناسِ في ذلك اليوم اختلافاً بيناً، وسنتحدّث بإذن الله تعالى عن الكفّار وغيرهم، فالذي يتأمل في نصوص الكتاب والسنة التي تحدِّثنا عن مشاهد القيامة، يرى الأهوالَ العِظام، والمصائب الكبار، التي تنزل بالكفرة المجرمين في ذلك اليوم العظيم .

فمن تلك الأحوال :

1 . ذلتهم وهوانهم وحسرتهم ويأسهم:

فمن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ﴾ [يونس: 27] .

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ *أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَاحَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ *أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ *أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ *بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ *﴾ [الزمر: 55 . 59] .

وقال تعالى: ﴿وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا *يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ *وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ *وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ *وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ *﴾ [المعارج: 10 . 14] .

2 . اسودادُ وجوههم وتغيُّرُها[(321)]:

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ *﴾ [آل عمران: 106]

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ *﴾ [الزمر: 60] .

3 . إحباط أعمال الكفار[(322)]:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ *﴾ [النور: 39] وقال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا*﴾ [الفرقان: 23] وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ *﴾ [إبراهيم: 18] .

4 . فضيحتهم أمام الخلائق:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاَءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ *﴾ [هود: 18] .

5 . تخاصمُ الكفرةِ في الموقف:

قال تعالى: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ *﴾ [الزخرف: 67] .

ومن صور هذا التخاصم :

أ . تخاصم العابدين والمعبودين:

في ذلك اليوم الرهيب يجمعُ اللهُ المشركين، ثم يأمرُهم أن ينادوا شركاءَهم، فينكروا أن يكونَ لهم شركاءُ[(323)]، قال تعالى: ﴿كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ *﴾ [فصلت: 47 ـ 48] وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاَءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ *قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا *فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلاَ نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا *﴾ [الفرقان:17 ـ 19] .

ب ـ تخاصم الأتباع مع القادة المضلين:

قال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ *قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ *قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ *وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ *فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ *فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ *﴾ [الصافات: 27 ـ 32] .

ج ـ تخاصم الضعفاء مع السادة والملوك:

قال تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ *﴾ [إبراهيم: 21] .

د . تخاصم الكافر وقرينه:

قال تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ *قَالَ لاَ تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ *﴾ [ق: 27 . 28] هو الشيطان الذي وُكِّلَ به أي يقولُ عن الإنسانِ الذي قد وافَى القيامة كافراً يتبرأ منه شيطانه ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾: أي بل كان هو في نفسِه ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾، قابلاً للباطل، معانداً للحق[(324)] .

فإذا سمع الكافِرُ هذا من قرينه تحسَّرَ وتندّم، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَانِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ *وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ *حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَالَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ *﴾ [الزخرف: 36 . 38][(325)] .

هـ – تخاصم المرء مع أعضاءه:

ويبلغُ الأمرُ أشدَّهُ، والمخاصمةُ ذروتَها ، عندما يخاصِمُ المرءُ أعضاءَه، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ *حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا

شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *﴾ [فصلت: 19-22] .

6 . مقتهم لأنفسهم:

والمقتُ أشدُّ البغضِ، فتصل كراهيتهم لأنفسهم في ذلك اليوم أقصاها، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ *﴾ [غافر: 10] .

7 . صفة حشر الكفّار إلى النار:

أ . حشرهم وهم عطاش:

قال تعالى: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا *﴾ [مريم: 86] يعني عطاشاً، تكادُ تنقطِعُ رقابهم من العطش، وفي قوله: إشعارُ ﴿وَنَسُوقُ﴾، كأنّهم نَعَمٌ عطاشٌ تساقُ إلى الماءِ[(326)] .

ب . حشرهم عمياً صماً بكماً:

قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا *﴾ [الإسراء: 97] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى *قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا *﴾ [طه: 124 . 125] .

ج . يحشرون إلى جهنم على وجوههم:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً *﴾ [الفرقان: 34] .

د . حشرهم مع شياطينهم وهم جاثون على الركب:

قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا *﴾ [مريم: 68] قال القرطبي: أي ولنحشرنَّ الشياطين قرناءهم، قيل: يحشر كلُّ كافرٍ مع شيطانٍ في سلسلةٍ، كما قال تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ *﴾ [الصافات: 22] والواو في ﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾ يجوز أن تكونَ للعطف، وبمعنى (مع) وهي بمعنى (مع) أوقع، والمعنى أنَّهم يحشرون مع قرناءهم من الشياطين الذين أغوَوْهم، يقرِنون كلَّ كافرٍ مع شيطانٍ في سلسلةٍ[(327)] .

وهذا الجثيُّ مصاحِبٌ لهم في كل حال، ففي الموقف يومَ يُحْشَرُ الناسُ إلى أرض الحساب تجثو كلُّ الأمم، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ *وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ *﴾ [الجاثية: 27 . 28]. وفي النار

كذلك، قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا *ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا *﴾ [مريم: 71 . 72] .

رابعاً . أحوال عصاة الموحدين :

وهم المؤمنون الذي خلطوا عملاً صالحاً واخر سيئاً، فأتوا بشعائر الإسلام وأركانه، ولكنّهم وقعوا ببعض المعاصي .

وقد ذكر الله تعالى عذاب أولئك العصاة، وجاء ذكرُ بعضِهم على لسانِ رسولِ اللهِ (ﷺ): من ذلك

1 . الذين لا يؤدون الزكاة:

الزكاةُ من فروضِ الإسلام الكبرى، وهي حقُّ المال، فمن لم يؤدِّ زكاته، عُذِّب بها في ذلك اليوم العظيم، وقد أخبرتِ النصوصُ أنَّ عذابهم على وجهين :

الوجه الأول: يمثَّلُ لصاحبِ المال مالُه ثعباناً أقرعَ له زبيبتانِ، فيطوِّقُ عنقه، ويأخذُ بلهزمتي صاحبه، قال تعالى: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ *﴾ [آل عمران: 180] وهذا الطوقُ عبارةٌ عن ثعبانٍ في رقابهم، كما فسّرها بذلك النبيُّ (ﷺ)، فقد قال:

« مَنْ اتاهُ اللهُ مالاً، فلم يؤدِّ زكاتَهُ مُثِّلَ له مالُه يومَ القيامةِ شجاعاً أقرعَ، له زبيبتانِ، يطوّقه يومَ القيامةِ، ثم يأخذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ (يعني شدقيه) ثم يقولُ: أنا مالُك، أنا كنْزُكَ، ثم تلا ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾»[(328)] .

الوجه الثاني: إن كان المِمْتَنَعُ عن تأديةِ زكاته ذهباً أو فضةً، فإنّها تصفَّحُ صفائحَ، ثم تكوَى بها جباهُهم وجنوبُهم وظهورُهم، فيحيطُ به الألمُ مِنْ كلِّ مكانٍ، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ *﴾ [التوبة: 34 . 35] وقد فسّر رسولُ الله (ﷺ) هذه الآية، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسولُ اللهِ (ﷺ): « ما مِنْ صاحبِ ذهبٍ ولا فِضَّةٍ لا يؤدي مِنْها حَقَّها إلا إذا كان يومُ القيامةِ صُفِّحَتْ له صفائحَ من نارٍ، فأُحمي عليها في نارِ جهنَّم، فيُكوَى بها جنبُه وجبينُه وظهرُه، كلّما بردتْ أُعيدتْ له، في يومٍ كان مقدارُه خمسينَ ألفَ سنةٍ حتى يُقْضَى بينَ العباد، فيرى سبيلَه إمّا إلى جنةٍ وإمّا إلى النارِ »[(329)] .

2 . ذنوبُ لا يكلِّمُ الله أصحابَها ولا يزكّيهم:

وقد رتب الله تعالى على كثير من الذنوب هذا العقاب فمنها :

أ ـ **كتمان العلم**: قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ *أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ *﴾ **[البقرة: 174 ـ 175]** فمن كتم من علماءِ هذه الأمة شيئاً من العلم إرضاءً لحاكمٍ، أو تحقيقاً لمصلحةٍ شخصيةٍ، أو طلباً لعَرضٍ دنيوي، كان مشابهاً لأحبارِ ورهبانِ اليهود والنصارى في كتمهم صفاتِ الرسول (ﷺ)، فكان جزاؤهم هذا الجزاء .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله (ﷺ): « مَنْ سُئِلَ عن علمٍ عَلِمَه ثم كتَمَهُ أُلْجِمَ يومَ القيامةِ بِلِجَامٍ مِنْ نارٍ »[(330)] .

ب ـ **الاستهانة بعهد الله وميثاقه**: قال تعالى: ﴿يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ *﴾ **[آل عمران: 77]** وهي ليست خاصّةً باليهود، كما توهَّم بعضُهم، وتدلُّ على ذلك أحاديثُ كثيرةٌ[(331)]، فقد قال رسول الله (ﷺ): « ثلاثةٌ لا ينظرُ اللهُ إليهم يومَ القيامةِ، ولا يزكّيهم، ولهم عذابٌ أليمٌ: رجلٌ كانَ له فضلُ ماءٍ بالطريقِ فمنعه ابنَ السبيلِ، ورجلٌ بايعَ إماماً لا يبايعه إلا لدنيا، فإنْ أعطاهُ منها رَضِيَ، وإنْ لم يُعْطه منها سَخِطَ، ورجلٌ أقامَ سلعته بعدَ العَصْرِ، فقال:

واللهِ الذي لا إله غيرُه لقد أُعطيتُ بها كذا وكذا، فصدّقه رجلٌ، ثم قرأ هذه الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً﴾ »[(332)] .

3 . الغلول:

هو الأخذُ من الغنيمة على وجهِ الخفيةِ دونَ علمِ أحدٍ، وهو ذنبٌ يخفي تحته شيئاً من الطمع والأثرة، وقد توعّدَ الله تبارك وتعالى الغالَّ بالفضيحةِ يومَ القيامة على رؤوس الأشهاد[(333)] قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ*﴾ **[آل عمران: 161]** . أي يأتي به حاملاً على ظهره ورقبته، معذَّباً بحمله وثقله، ومرعوباً بصوته، وموبّخاً بإظهارِ خيانته على رؤوس الأشهاد .

وقد فسر الرسول (ﷺ) هذا الإتيان للغلول يوم القيامة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قام فينا النبيُّ (ﷺ)، فذكر الغلولَ، فعظّمه وعظّم أمره قال: « لا ألفينَ أحدَكم يومَ القيامةِ على رقبتِهِ شاةٌ لها ثغاءٌ، على رقبتِهِ فرسٌ له حَمْحَمَةٌ، يقول: يا رسولَ اللهِ أَغِثْني، فأقولُ: لا أملكُ لكَ شيئاً، وقد أبلغتُكَ، وعلى رقبتِهِ بعيرٌ له رُغاءٌ، يقول: يا رسولَ اللهِ أغثني، فأقولُ: لا أَمْلِكُ شيئاً وقد أبلغتُكَ، وعلى رقبتِهِ صامتٌ، فيقول: يا رسولَ اللهِ أغثني، فأقولُ: لا أملكُ لكَ شيئاً قد أبلغتُكَ، أو على رقبتِهِ رقاعٌ تخفقُ فيقول: يا رسولَ اللهِ أغثني، فأقولُ: لا أملكُ لكَ شيئاَ قد أبلغتُكَ »[(334)] .

4 . المتكبرون:

قال رسول الله (ﷺ): « يُحْشَرُ المتكبّرونَ أمثالَ الذَّرِّ يومَ القيامةِ، وفي صورِ الرِّجَالِ، يغشاهُم الذُّلُّ مِنْ كلِّ مكانٍ »[(335)] . والذَّرُّ صغارُ النمل، وصغارُ النمل لا يَعْبَأُ به الناسُ، فيطؤونه بأرجلهم وهم لا يشعرون .

وكما يبغضُ الله المتكبرين يبغض أسماءهم التي كانوا يطلقونها على أنفسهم استكباراً واستعلاءً، تصبحُ هذه الأسماءُ التي كانوا يفرحون عند سماعها أنكرَ الأسماء وأخبثَها، وأغيظَها على الله[(336)] قال رسول الله (ﷺ): « أخنعُ اسمٍ عندَ اللهِ يومَ القيامةِ، رجلٌ تسمّى مَلِكَ الأملاك » وزاد مسلم في رواية: « لا مَالِكَ إلا الله عزّ وجل »[(337)] . قال القاضي عياض: أخنعُ: معناه أذلُّ الأسماءِ صَغَاراً . وقال ابن بطّال: وإذا كان الاسمُ أذلَّ الأسماءِ، كان من تسمّى به أشدَّ ذلاً[(338)] .

5 . الأثرياء المنعّمون:

الذين يركنون إلى الدنيا، ويطمئنون إليها، ويكثرون من التمتع بنعيمها، يضيّق عليهم يوم القيامة، وإنّ أصحاب المال الكثير والمتاع الدنيوي الواسع، يكونون أقلَّ الناس أجراً يوم القيامة، ما لم يكونوا بذلوا أموالهم في سبل الخيرات[(339)]، قال رسول الله (ﷺ): « إنّ المكثرينَ هم المقلّونَ يوم القيامة، إلاّ مَنْ أعطاهُ

اللهُ خيراً، فنفحَ فيهِ بيمينِه وشمالِه، وبينَ يديه ومِنْ ورائه، وعَمِلَ فيه خَيْراً»[(340)] .

6 . فضيحة الغادر:

قال رسول الله (ﷺ): « إذا جمعَ اللهُ الأوّلين والآخرين يومَ القيامةِ، يرفعُ لكلِّ غادرٍ لواءٌ، فقيل: هذه غدرةُ فلانِ بن فلانٍ»[(341)]، وقال رسول الله (ﷺ): « لكلِّ غادرٍ لواءٌ يومَ القيامةِ يُرْفَعُ له بقدر غَدْرِه، ألا ولا غادرَ أعظمُ غَدْراً من أميرِ عامةٍ »[(342)]، وأمير العامة هو الحاكم أو الخليفة، وكانت غدرتُه كذلك، لأنّ ضرره يتعدّى إلى خَلْقٍ كثيرٍ، ولأنَّ الحاكمَ أو الوالي يملِكُ القوَّة والسلطانَ فلا حاجةَ به إلى الغَدْرِ[(343)] .

والغادر: الذي يواعِدُ على أمر لا يفي به، واللواء: الرايةُ العظيمةُ لا يمسكها إلا صاحبُ جيشِ الحقِّ، أو صاحب دعوةِ الجيشِ، ويكونُ الناسُ تبعاً له، فالغادر تُرْفَعُ له رايةٌ تُسجّل عليها غدرتُه، فيُفْضَحُ بذلك يوم القيامة، وتجعل هذه الراية عند مؤخرته[(344)] .

7 . غاصب الأرض:

قال النبيُّ (ﷺ): « من أخذَ شيئاً من الأرضُ بغيرِ حَقِّهِ خُسِفَ به يومَ القيامةِ إلى سَبْعِ أرضينَ »[(345)] .

8 . ذو الوجهين:

شَرُّ الناسِ يومَ القيامةِ المتلوّنُ الذي لا يثبتُ على حالٍ واحدةٍ، وموقفٍ واحدٍ، يأتي هؤلاء بوجهٍ، وهؤلاءِ بوجهٍ[(346)]، قال رسول الله(ﷺ): «تَجِدُوْنَ شَرَّ الناسِ يومَ القيامةِ ذا الوجهينِ، الذي يأتي هؤلاءِ بوجهٍ، وهؤلاءِ بوجهٍ»[(347)] .

9 . الحاكم الذي يحتجِبُ عن رعيته:

قال رسول الله (ﷺ): « مَنْ وَلاّه الله شيئاً من أمورِ المسلمينَ، فاحتجبَ دون حاجتهم وخَلّتِهم وفقرِهم، احتجبَ الله دون حاجتِه وخَلّته وفقرِه يوم القيامةِ »[(348)] .

10 . الذي يسأل وله ما يغنيه:

قال رسول الله (ﷺ): « مَنْ سألَ وله ما يغنيه، جاءت مسألتُه يومَ القيامةِ خُدُوْشاً أو خُمُوْشاً أو كُدَوحاً في وجهه» [(349)] .

11 . من كذب في حُلُمه:

قال رسول الله (ﷺ): « مَنْ تَحَلَّمَ بِحُلُمٍ لم يَرَهُ، كُلِّفَ أن يَعْقِدَ بين شَعِيْرَتَيْنِ، ولن يفعلَ، ومن استمعَ إلى حديثِ قومٍ وَهُمْ له كارهون، صُبَّ في أُذُنهِ الانُكُ

يومَ القيامةِ، ومن صَوّرَ صورةً عُذِّبَ أو كلّف أنْ يَنْفُخَ فيها الروحَ وليس بنافخٍ »[(350)] .

خامساً . حالة الأتقياء :

1 . لا يخافون ولا يحزنون ولا يفزعون إذا فزع الناس يوم الفزع الأكبر:

قال تعالى: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لاَ يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ*﴾ **[الزمر: 61]** وقال الله تعالى لهم تطميناً لقلوبهم: ﴿يَاعِبَادِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلاَ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ *الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ *﴾ **[الزخرف: 68 . 69]** . وقال تبارك وتعالى: ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ *الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ *لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخرة لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *﴾ **[يونس: 62 . 64]** .

أما البشرى في الحياة الدنيا فتُطْلَقُ على أمرين: على تبشير الملائكة للمحتضر بالجنّة . وتقدّم دليلُ هذا . وتطلَقُ على الرؤيا الصالحة[(351)]، فقد قال رسول الله (ﷺ): « لم يَبْقَ من النبوّةِ إلا المبشِّراتُ » قالوا: وما المبشرات ؟ قال: «الرؤيا الصالحة»[(352)] .

وأما البشرى في الآخرة فهي تَلقّي الملائكةِ لهم بالتثبيت لقلوبهم، وتأمينهم من الفزع الكبر، قال تعالى: ﴿لاَ يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ *﴾ [الأنبياء: 103] قال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ *﴾ [النمل: 89] .

2 . بياضُ وجوههم:

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ *﴾ [آل عمران: 107] قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ *ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ*﴾ [عبس: 38 . 39] مسفرة: قيل مشرقة، وقيل: مضيئة، وقيل: مستنيرة، وكلُّها متقاربةٌ في المعنى، والاشتقاقُ اللغوي يدل على ذلك[(353)] .

3 . الذين يظلّهم الله في ظلّه:

قال رسول الله (ﷺ): « سبعةٌ يُظِلُّهمُ اللهُ في ظِلّه، يومَ لا ظِلَّ إلاّ ظِلُّه: الإمَامُ العَادلُ، وشابٌّ نشأَ في عبادةِ ربِّه، ورجلٌ قلبُه معلَّقٌ في المساجِدِ، ورجلانِ تحابّا في اللهِ، اجتمعا عليه، وتفرّقا عليه، ورجلٌ دَعَتْهُ امرأةٌ ذاتُ

مَنْصِبٍ وجمالٍ فقال: إنِّي أخافُ اللهَ، ورجلٌ تصدَّقَ بِصَدَقةٍ فأخفاها حتّى لا تعلمَ يمينُهُ ما تُنْفِقُ شِمالُهُ، ورَجُلٌ ذكر اللهَ خالياً ففاضتْ عيناه »[(354)] .

والإظلالُ في ظلِّ العرشِ ليس مقصوراً على السبعة المذكورين في الحديث، فقد جاءت نصوصٌ كثيرةٌ تدل على أن الله يظلُّ غيرَهم، وقد جمع ابنُ حجرٍ العسقلاني الخصالَ: التي يُظِلُّ الله أصحابَها في كتاب سماه: (معرفةُ الخصالِ: الموصلةُ إلى الظلال)[(355)] ومن هذه الخصال: إنظارُ المعسرِ أو الوَضْعِ عنه، قال رسول الله (ﷺ): « مَنْ أنظرَ مُعْسِراً أوْ وَضَعَ عَنْهُ، أظلَّه اللهُ في ظلّه » [(356)]، وقال رسول الله (ﷺ): « مَنْ نَفَّسَ عَنْ غَرِيْمِهِ، أو مَحَا عَنْهُ، كانَ في ظِلِّ العَرْشِ يومَ القيامةِ »[(357)] .

4 . الذين يسعَوْنَ في حاجةِ إخوانهم، ويسدّون خَلتهم:

من أعظم ما يفرّج كرباتِ العبدِ في يوم القيامة سعيُ العبدِ في الدنيا في فكِّ كرباتِ المكروبينَ، ومساعدةِ المحتاجينَ، والتيسيرِ على المعسرين[(358)]، قال رسول الله (ﷺ): «مَنْ نفّسَ عن مُؤْمنٍ كربةً مِنْ كُرَبِ الدُّنيا نَفَّسَ الله عَنْهُ كُربةً مِن كُرَبِ يوم القيامةِ، ومَنْ يَسَّرَ عَنْ مُعْسِرٍ يَسَّرَ الله عليه في الدُّنيا والآخرة، ومَنْ سترَ مُسْلِماً سَتَرَهُ الله في الدُّنيا والآخرة، واللهُ في عَوْنِ العَبْدِ ما كانَ العَبْدُ في عَوْنِ أَخِيْهِ »[(359)] .

5 . الذين ييسّرون على المعسرين:

قال النبي (ﷺ): « كانَ رجلٌ يداينُ الناسَ، فكان يقولُ لفتاه: إذا أتيتَ مُعْسِراً تجاوزْ عنه، لعلَّ الله أن يتجاوزَ عنا، قال: فلقيَ اللهَ فتجاوزَ عنه»[(360)] .

6 . الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولّوا:

العادلون يوم القيامة في مقامٍ رفيعٍ، يجلسون على منابرَ من نورٍ عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمينٌ، قال رسول الله (ﷺ): « إنّ المقسطينَ عندَ اللهِ على منابرَ من نُوْرٍ، عن يمينِ الرحمنِ عزَّ وجل، وكلتا يَدَيْهِ يمينٌ، الذين يعدلون في حُكْمِهِم وأهليهم وما وَلُوا»[(361)] .

7 . الشهداء والمرابطون: قال رسول الله (ﷺ):

« للشهيدِ عندَ اللهِ ستُّ خصالٍ: يُغْفَرُ له في أوّلِ دفعةٍ، ويرى مقعدَه من الجنَّةِ، ويُجَارُ منْ عذابِ القبرِ، وَيَأْمَنُ من الفزعِ الأكبرِ، وَيُوْضَعُ على رأسِهِ تاجُ الوقارِ، الياقوتةُ منه خيرٌ من الدنيا وما فيها، ويزوَّجُ اثنتي وسبعين زوجةً من الحور العين، ويشفّعُ في سبعينَ من أقربائه »[(362)] .

وقال رسول الله(ﷺ): « رباطُ يومٍ خيرٌ من صيامِ دهرٍ، ومَنْ ماتَ مرابطاً في سبيلِ اللهِ أَمَنِ من الفزعِ الأكبر»[(363)] .

8 . الكاظمون الغيظ:

قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ [آل عمران: 133 . 134]

وقال رسول الله (ﷺ): « مَنْ كظمَ غيظاً، وهو يَقْدِرُ أن ينفذَهُ دعاهُ الله على رؤوسِ الخلائقِ يومَ القيامةِ حتّى يخيره في أيِّ الحورِ العينِ شاءَ »[(364)] .

9 . عتق الرقاب المسلمة:

قال تعالى: ﴿فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ *وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ *فَكُّ رَقَبَةٍ *﴾ [البلد: 11 - 13] فمن الأعمال الكريمة التي يتمكّنُ صاحبها من اقتحامِ العقباتِ الكأداء في يوم القيامة عتقُ الرقابِ[(365)] .

10 . فضل المؤذنين:

قال رسول الله (ﷺ): « المؤذّنون أطولُ الناسِ أعناقاً يوم القيامة »[(366)]، وطولُ العنقِ جمالٌ، ثم هو مناسِبٌ لما قاموا به من عمل، حيث كانوا يبلّغون الناسَ بأصواتهم كلماتِ الأذانَ، التي تعلنُ التوحيدَ، وتدعو للصلاةِ[(367)] .

11 . الذين يشيبون في الإسلام:

قال رسول الله (ﷺ): « مَنْ شابَ شيبةً في الإسلامِ كانتْ له نوراً يومَ القيامةِ»[(368)] .

12 . فضل الوُضوء:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله(ﷺ) يقول: « إنّ أمّتي يُدْعَوْنَ يومَ القيامةِ غُرّاً مُحَجَّلِيْنَ من اثارِ الوُضُوْءِ»[(369)]، غرّاً جمعُ أغر، أي ذو غرّةٍ، وأصلُ الغُرّةِ لمعةٌ بيضاءُ تكونُ في جبهةِ الفَرَسِ، ثم استُعملتْ في الجمالِ والشُّهرةِ وطيْبِ الذِّكْرِ، والمرادُ بها النورُ الكائن في وجوه أمة محمد (ﷺ)، وقوله (محجلين) من التحجيل، وهو بياضٌ يكون في ثلاثِ قوائمَ من قوائمِ الفرسِ، وأصلُه من الحِجْلِ بكسر الحاء وهو الخلخال، والمرادُ به هنا أيضاً النور[(370)]، وهذه الغرّةُ وذلك التحجيلُ تكونُ للمؤمنِ حليةٌ في يوم القيامة، ففي (صحيح مسلم)[(371)] عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله (ﷺ): « تبلغُ الحليةُ من المؤمنِ حيثُ يبلغُ الوُضوءُ » وبهذه الحلية يعرف الرسولُ (ﷺ) أمته بين الخلائق، لا فرق بين أصحابه وغيرهم[(372)] .

المبحث الثالث: الشفاعة

أولاً ـ تعريف الشفاعة:

التوسُّطُ للغيرِ بِجَلْبِ منفعةٍ أو دَفْعِ مضرّةٍ[(373)].

ثانياً ـ الأدلة القرآنية والنبوية:

في ثبوت الشفاعة لأهلها ونفيها عمن عداهم :

أ ـ الآيات القرآنية :

1 ـ قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: 255] .

2 ـ وقال تعالى: ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ [يونس: 3] .

3 ـ وقال تعالى: ﴿وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: 28]

4 ـ وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لاَ تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَانُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً *﴾ [طه: 109] .

5 ـ وقال تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ﴾ [النجم: 26] .

6 ـ وقال تعالى: ﴿وَلاَ يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ *﴾ [الزخرف: 86] وفي قوله تعالى: أي الأصنام والأوثان

أي ﴿وَلاَ يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ﴾ يقدرون على الشفاعة لهم هذا استثناء ﴿إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ *﴾، أي: لكنْ مَنْ شهدَ بالحقِّ على بصيرةٍ وعلمٍ فإنّه تنفع شفاعته عند الله بإذنه له، فهذه الآيات تدلُّ على الشفاعة المثبتة بشروطها[(374)] .

وأما الآيات الدالة على نفي الشفاعة عن غير أهلها وهم الكفار، فمنها :

1 . قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ﴾ **[الأنعام: 51]** .

2 . وقال تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ *﴾ **[غافر: 18]** .

والمرادُ بالظالمين هنا الكافرون، ويشهدُ لذلك مُفْتَتَحُ الآية إذ هي في ذكر الكافرين[(375)] .

3 . وقال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ **[الزمر: 44]** .

ب . الأحاديث النبوية

لقد ورد ذكر الشفاعة كثيراً في الأحاديث النبوية الشريفة في كتب السنة الصحاح منها[(376)] :

1 ـ قال رسول الله (ﷺ): « لكلِّ نبيٍّ دعوةٌ دعا بها في أمته فاستجيبَ له، وإنّي أريد أنْ أُؤَخِّرَ دعوتي شفاعةً لأمتي يومَ القيامةِ »[(377)] .

2 ـ قال رسول الله (ﷺ): « أُعطيتُ خمساً لَمْ يُعْطَهُنَّ أحدٌ قبلي (وذكر منها) وأُعطيتُ الشفاعةَ »[(378)] .

3 ـ وقال رسول الله (ﷺ): « أنا سيّدُ وِلْدِ ادمَ يَومَ القيامةِ ... وأوَّلُ شافعٍ وأوَّل مُشَفَّعٍ »[(379)] .

ثالثاً ـ أقسام الشفاعة في الآخرة :

تنقسِمُ الشفاعةُ في الآخرة إلى :

1 ـ الشفاعة الصحيحة:

وهي التي جمعت شروطَ الشفاعةِ الثلاثة، وهي

رضي الله عن الشافع، ورضاه عن المشفوع له، والإذن بذلك . وسيأتي تفصيل هذه الشروط في الفقرة الاتية .

2 ـ الشفاعة الباطلة:

هي ما يتعلّق به المشركون في أصنامهم، حيث يعبدونهم، ويزعمون أنّهم شفعاء لهم عند الله، كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ

يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: 18] ولكنّ هذه الشفاعة بالله لا تنفعُ كما قال تعالى: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ *﴾ [المدثر: 48].

ومن الآيات الدالة على بطلان شفاعة المشركين قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لاَ يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلاَ يَعْقِلُونَ *﴾ [الزمر: 43] وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ *﴾ [الزمر: 44] .

رابعاً. شروط الشفاعة الصحيحة :

شروط الشفاعة الصحيحة ثلاثةٌ، وهي ظاهرةٌ في كتاب الله عزّ وجلّ لمن تأمّلها، وهي :

1. رضي الله عن الشافع:

قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لاَ تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَانُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً*﴾ [طه: 109] .

2. رضي الله عن المشفوع له:

قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ *﴾ [الأنبياء: 28] .

3 . إذن الله بالشفاعة:

قال تعالى: ﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ **[البقرة: 255]** .

هذا وقد جمع الله تعالى هذه الشروط الثلاثة في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي﴾ **[النجم: 26]** . فقوله هذا شرط ﴿إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ﴾، وقوله فلم يذكر متعلَّق الفعل ﴿وَيَرْضَى *﴾ يرضى فهل يرضى عن الشافع أم عن المشفوع ؟ والقاعدةَ تقولُ :

حَذْفُ التعلّق يفيدُ العموم[(380)] . إذن فالآية تدل على المعنيين، فتشمل الرضى عن الشافع وعن المشفوع، وهو المطلوب[(381)] .

وقد وضَّح رسول الله (ﷺ) هذه القضيةَ في حديث أنس في (الصحيحين)[(382)] فقال « فأَسْتَأْذِنُ على ربِّي، فإذا رأيتُه وقعتُ له ساجداً، فيدعُني ما شاءَ الله، ثم يقولُ لي: ارفعْ رأسَك، وسَلْ تعطه، وقُلْ يُسْمَعْ، واشْفَعْ تُشفَّعْ، فأرفعُ رأسي، فأحمدُ ربِّي بتحميدٍ يعلِّمُنيه ربي، ثم أشفعُ، فيحدُّ لي حَدّاً، ثم أخرجُهم من النارِ، وأدخلُهم الجنةَ ثم أعودُ » .

خامساً . أنواعُ الشفاعةِ :

إنَّ للنبيِّ (ﷺ) يومَ القيامةِ شفاعاتٌ متعدِّدةٌ منها :

1 . الشفاعة العظمى:

وهذه الشفاعةُ مِنْ أعظمِ الشفاعات، وهي المقامُ المحمود الذي قال الله تعالى فيه: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا *﴾ [الإسراء: 79] وذلك حين يتوسَّلُ الناسُ يوم القيامة إلى ادم، ثم نوحٍ، ثم إبراهيمَ، ثم مُوسى، ثم عيسى 3، حتى ينتهيَ الأمرُ إلى نبينا محمد (ﷺ): « فيقولون: يا محمّد، أنتَ رسولُ اللهِ وخاتمُ الأنبياءِ، وغفر الله لك ما تقدّمَ من ذنبك وما تأخَّرَ، أشفعْ لنا إلى ربِّكَ، ألا ترى ما نحنُ فيه ؟ ! ألا تَرَى ما قَدْ بلغنا ؟ ! فأنطلقُ فاتي تحتَ العرشِ، فأقعُ ساجداً لربي، ثم يفتحُ اللهُ عليَّ، ويُلْهِمُني من محامدِهِ وحُسْنِ الثناءِ عليه شيئاً لم يفتحْهُ لأحدٍ قبلي، ثم يُقالُ: يا محمَّدُ، أرفعْ رأسَكَ، سَلْ تُعْطه، وقُلْ يُسْمَعْ، واشفعْ تشفّع، فأرفعُ رأسي فأقول: يا ربِّ أُمتي أُمتي، فيقال: يا محمَّدُ أَدْخِلِ الجنَّةَ مِنْ أمتِكَ مَنْ لا حسابَ عليه مِنَ البابِ الأيمنِ مِنْ أبوابِ الجنَّةِ، وهم شركاءُ الناسِ فيما سِوى ذلك مِنَ الأبوابِ . والذي نفسِي بيده إنَّ ما بينَ المصراعينِ من مصاريعِ الجنّةِ لكما بينَ مكّةَ وبُصْرَى»[(383)] .

يعني أنَّ مَنْ لا حسابَ عليه من أمة محمد (ﷺ) يدخلُ الجنة مباشرةً، ولا يمرُّ بما يمرُّ به الناس من أهوالٍ، ثم بعد هذه الشفاعة يبدأُ الحسابُ، وهذه الشفاعةُ خاصَّة بنبينا (ﷺ)[(384)] .

2 . اختصاصُه (ﷺ) باستفتاح باب الجنة:

قال رسول الله (ﷺ): « أنا أوّلُ الناسِ يشفعُ في الجنّةِ، وأنا أكثرُ الأنبياءِ تبعاً »[(385)] . وقال رسول الله(ﷺ): « اتي بابَ الجنّةِ يومَ القيامةِ فأستشفعُ، فيقولُ الخازنُ: مَنْ أنتَ؟ فأقولُ: محمّدٌ، فيقولُ: بِكَ أُمِرْتُ لا أفتحُ لأحدٍ قبلكَ »[(386)] .

وأوَّلُ مَنْ يدخلُ الجنةَ من الأممِ أمتُه (ﷺ)، فقد قال: « نحنُ الآخرُونَ الأوّلونَ يومَ القيامةِ، ونحنُ أوَّلُ مَنْ يدخلُ الجنَّةَ »[(387)] .

3 . الشفاعةُ في رفعِ درجاتِ أقوامٍ مِنْ أهلِ الجنّةِ فوق ما يقتضيه ثوابُ أعمالهم:

وقد جاء في ذلك بعضُ الأحاديث، ودليلٌ هذا النوعِ ما ثبتَ في (الصحيحين) وغيرِهما من حديث أبي موسى رضي الله عنه في استشهاد أبي عامر رضي الله عنه، وفيه: يا بنَ أخِي، انطلقْ إلى رسولِ اللهِ (ﷺ) فأَقْرِئْهُ منّي السلامَ، وقل له: يقولُ لكَ أبو عامرٍ: استغفر لي، قال: واستعملَني أبو عامرٍ على النَّاسِ، ومكثَ يسيراً، ثم إنّه ماتَ، فلمّا رجعتُ إلى النبيّ (ﷺ) دخلتُ عليه، وهو في بيتٍ على سريرٍ مُرَمَّلٍ، وعليه فراشٌ، وقد أثَّرَ رمالُ السريرِ بِظَهْرِ

رسولِ اللهِ (ﷺ) وَجنْبَيْهِ، فأخبرتهُ بخبرِنا وخبرِ أبي عامر وقلتُ له: قال: قل له: يَسْتَغْفِرْ لي، فدعا رسولُ الله (ﷺ) بماءٍ فتوضَّأَ منه، ثم رفعَ يديه، ثم قال: « اللهمَّ اغْفِرْ لعبيدٍ أبي عامرٍ حتّى رأيتُ بياضَ إبطيه » ثم قال: « اللهمَّ اجعلْه يومَ القيامةِ فوقَ كثيرٍ مِنْ خلقِكَ أو مِنَ الناس »، فقلت: ولي يا رسول الله فاستغفرْ، فقال النبيُّ (ﷺ): « اللهمَّ اغْفر لعبدِ اللهِ بنِ قيسٍ ذَنْبَهُ، وأَدْخِلْهُ يومَ القيامةِ مَدْخلاً كَرِيماً »[(388)] .

وعن أمِّ سلمةَ رضي الله عنها قالت: دخلَ رسولُ اللهِ (ﷺ) على أبي سلمةَ، وقد شُقَّ بصرُهُ، فأغمضَه، ثم قال: « إنَّ الروحَ إذا قُبِضَ تَبِعَهُ البَصَرُ » فضجَّ ناسٌ مِنْ أهلِهِ فقال: « لا تَدْعُوْا عَلى أَنْفُسِكُمْ إلاّ بِخَيْرٍ، فإنَّ الملائكةَ يؤمِّنونَ على ما تقولونَ » ثم قال: « اللهمَّ اغْفِرْ لأبي سَلَمَةَ، وارْفَعْ دَرَجَتَهُ في المهْدِيينَ، واخلفْهُ في عَقِبِهِ في الغابرينَ، واغْفِرْ لنا وله يا ربَّ العالمين، وافْسَحْ له في قبرِهِ ونوّرْ له فيه »[(389)] .

4 . الشفاعة في بعض الكفار من أهل النار حتّى يخفَّفَ عنهم:

وهذه الشفاعةُ خاصّةٌ بالنبيِّ (ﷺ) لعمِّه أبي طالب، ويُسْتَدَلُّ لهذا النوع بحديث في (الصحيحين)[(390)] عن العبّاس بن عبد المطلب رضي الله عنه أنه قال: يا رسولَ اللهِ، هل نفعتَ أبا طالبٍ بشيءٍ، فإنّه كانَ يحوطُكَ،

ويَغْضَبُ لكَ؟ قال: « نعم، هو في ضَحْضَاحٍ[(391)] من نارٍ، ولولا أنا لكانَ في الدَّرْكِ الأسفلِ مِنَ النَّارِ » .

وهذه شفاعةُ تخفيفٍ لا شفاعةُ إخراجٍ من النارِ، وإن كان أهونَ أهلِ النار عذاباً، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنه أنّ رسولَ اللهِ (ﷺ) قال: «أهونُ أهلِ النَّارِ عذاباً أبو طالبٍ، وهو مُنْتَعِلٌ بنعلينِ، يَغْلِي مِنْهُما دِمَاغُه»[(392)] .

5 . الشفاعةُ في أهل الكبائر:

شفاعتُه (ﷺ) في أهلِ الكبائرِ من أُمته، ممّن دخل النار، فيُخْرَجُوْنَ منها، وقد تواترت بهذا النوعِ الأحاديثُ، وهذه الشفاعةُ تشارِكهُ فيها الملائكةُ والنبيون والمؤمنون أيضاً، وهذه الشفاعةُ تتكرّر منه (ﷺ) أربعَ مرّات[(393)] ومن أحاديثِ هذا النوع، حديثُ أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): « شفاعتي لأهلِ الكبائرِ من أُمّتي» [(394)] .

6 . الشفاعةُ في أقوامٍ يدخلون الجنّةَ بغيرِ حسابٍ:

ويحسنُ أن يستشهدَ لهذا النوع بحديثِ عمْرانِ بن حُصينٍ رضي الله عنه قال: قال النبيُّ (ﷺ): « يدخلُ الجنّةَ مِنْ أُمّتي سبعونَ ألفاً بغيرِ حِسَابٍ » قالوا: وَمَنْ هم يا رسولَ اللهِ ؟ قال: « هُم الذين لا يكتوونَ، ولا يسترقُوْنَ، ولا

يتطيّرُوْنَ، وعلى ربِّهم يتوكّلونَ » فقال عكّاشة بن محصن رضي الله عنه: أدعُ اللهَ أن يجعلَني مِنْهُم، قال: « أنتَ مِنْهُم » قال: فقامَ رجلٌ فقال: يا نبيَّ الله، ادعُ اللهَ أن يجعلَني منهم، قال: « سَبَقَكَ بها عُكّاشَةُ »[(395)] .

7 . شفاعةُ الرسولِ (ﷺ) في أقوامٍ تساوتْ حسناتُهم وسيئاتُهم:

فيشفعُ فيهم ليدخلوا الجنَّةَ، وفي اخرينَ قد أُمر بهم إلى النار، أن لا يدخلوها[(396)] .

سادساً . الشفعاءُ غيرُ النبيِّ (ﷺ) :

1 . الملائكة:

قال تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى *﴾ [النجم: 26] وفيه دلالةٌ على أنّه إذا أَذِنَ الله تعالى له فإنّه يشفّع[(397)] وقال تعالى: ﴿وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ *﴾ [الأنبياء: 28] .

2 . الأنبياءُ والمؤمنون الصالحون:

وهذا النوعُ قد ثبتَ بالحديثِ الطويل لأبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله(ﷺ): « ... ثم يقولُ الله: شَفَعَتِ الملائكةُ، وشَفَعَ الأنبياءُ، وشفعَ المؤمنون، وبقي أرحمُ الراحمين»[(398)] .

3 . الشهداء:

قال رسولُ اللهِ (ﷺ): « يشفعُ الشهيدُ في سبعينَ مِنْ أهلِ بيته» [(399)] .

4 . أولاد المؤمنين:

عن أنس رضي الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ (ﷺ) قال: « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يموتُ لَهُ ثلاثةٌ من الوَلَدِ لم يَبْلُغُوْا الحِنْثَ إلاّ أَدْخَلَهُ الجَنَّةَ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ إياهم »[(400)] وقال (ﷺ): « لا يموتُ لأحدٍ مِنَ المسلمينَ ثلاثةٌ مِنَ الوَلَدِ فَيَحْتَسِبُهُم إلاّ كانوا له جُنَّةً مِنَ النَّارِ » فقالت امرأةٌ عندَ رسولِ اللهِ(ﷺ): يا رسولَ اللهِ أو اثنان قال: « أَو اثنانِ »[(401)] .

5 . القرآن الكريم:

عن أبي أُمامة الباهليّ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله(ﷺ): « اقرؤوا القرآن، فإنّه يَأْتِي يومَ القيامةِ شَفِيْعاً لأَصْحَابِهِ، اقرؤوا الزَّهْرَاوَيْنِ: البقرةَ وسورةَ آل عمران، فإنَّهما تأتيانِ يومَ القيامةِ كأنَّهُمَا غَمَامتانِ، أو كأنَّهُمَا

غَيَايتانِ[(402)]، أو كأنَّهما فِرقانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍّ، تُحَاجَّانِ عن أصحابِهِمَا، اقرؤوا سورةَ البقرِة، فإنَّ أخذَها بركةٌ، وتركَها حسرةٌ، ولا يستطيعُها البطلةُ»[(403)]: أي السحرة .

وقال رسول الله (ﷺ): « إنَّ سورةً مِنَ القرآن ثلاثونَ ايةً، تشفعُ لصاحِبِهَا حتَّى يُغْفَرَ لَهُ ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *﴾ [الملك: 1] »[(404)] .

سابعاً . الأسباب الجالبة للشفاعة :

تعدّدتِ الأحاديثُ الواردةُ في ذكر أسباب الشفاعة منها :

1 . التوحيد وإخلاص العبادة لله:

جاء في الحديثِ قولُ النبيِّ (ﷺ) لما سُئِلَ: مَنْ أسعدُ الناسِ بشفاعتِكَ يومَ القيامةِ ؟ قال: « أسعدُ النَّاسِ بشفاعتي يومَ القيامةِ مَنْ قالَ: لا إلهَ إلاّ اللهَ خالصاً مِنْ قلبِهِ أو نفسِهِ »[(405)]، وقال رسولُ اللهِ (ﷺ): « لكلِّ نبيٍّ دعوةٌ مُسْتَجَابةٌ، فَتَعَجَّلَ كلُّ نبيٍّ دعوتَهُ، وإنِّي اختبأتُ دَعْوَتِي شفاعةً لأُمَّتي يومَ القيامةِ، فهيَ نائلُةٌ إنْ شاءَ اللهِ مَنْ ماتَ مِنْ أُمّتي لا يشرِكُ باللهِ شيئاً » [(406)].

2 . الصيام:

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنَّ رسولَ اللهِ (ﷺ) قال: « الصيامُ والقرآن يشفعانِ للعبدِ يومَ القيامةِ، يقول الصيامُ: أيْ ربِّ منعتُه الطعامَ والشرابَ بالنهارِ فشفّعني فيه، ويقولُ القرآن: ربِّ منعتُه النومَ بالليلِ فشفّعني فيه فيشفّعانِ »[(407)] .

3 . الدُّعاءُ بما وردَ عند الأذان:

قال رسول الله (ﷺ): « مَنْ قالَ حِيْنَ يسمعُ النِّدَاءَ: اللهمَّ رَبَّ هذِهِ الدعوةِ التامَّةِ، والصّلاةِ القائمةِ، اتِ محمّداً الوسيلةَ والفضيلةَ، وابعثْهُ مقاماً مَحْمُوْداً الذي وَعدْتَهُ، حلّتْ له شفاعتي يومَ القيامة »[(408)] .

4 . سُكنى المدينةِ، والصبرُ على لأوائها:

قال رسولُ اللهِ (ﷺ): « لا يصبرُ أحدٌ على لأوائها[(409)] إلا كنتُ له شفيعاً أو شهيداً يومَ القيامةِ إذا كان مُسْلِماً »[(410)] .

5 . الصلاةُ على النبيّ (ﷺ):

قال رسولُ الله (ﷺ): « مَنْ صلَّى عليَّ حينَ يُصْبِحُ عَشْراً، وحِيْنَ يُمْسِي عَشْراً، أدركتْهُ شفاعتي يومَ القيامةِ» [(411)].

6 . صلاةُ جماعةٍ من المسلمين على الميّتِ المسلم:

قال (ﷺ): « ما مِنْ مَيّتٍ تصلّي عليه أمةٌ من المسلمينَ يَبْلُغُوْنَ مئةً، كلُّهم يشفعونَ له، إلاّ شُفِّعُوا فيهِ »[(412)]، وقال رسول الله (ﷺ): « ما مِنْ رجلٍ مُسْلِمٍ يموتُ، فيقومُ على جنازته أربعونَ رَجُلاً، لا يُشْرِكُونَ باللهِ شَيْئاً، إلاّ شفّعهم الله فيه» [(413)] .

7 . كثرةُ السجودِ:

عن ربيعةَ بن كعبٍ الأسلمي أنّه قال: كنتُ أَبِيْتُ مع رسولِ اللهِ (ﷺ)، فأتيتُه بِوَضُوْئه وحاجَتِهِ، فقال لي: « سَلْ » فقلتُ: أسألُكَ مُرَافَقَتَكَ في الجنَّةِ، قال: « أَوَ غَيْرَ ذَلِكَ؟ »، قلت: هُوَ ذاكَ، قال: « فأعنِّي على نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُوْدِ »[(414)] .

* * *

المبحث الرابع: الحساب والحوض والميزان والصراط

أ . الحساب :

ذكر الله سبحانه وتعالى مشهدَ الحساب والجزاء فقال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ *﴾ [الزمر: 69] والمرادُ بالحسابِ هو أن يقفَ العبادُ بين يدي الله تبارك وتعالى، وأن يعرّفوا بما عملوا، وأن تحضرَ أقوالُهم، ما صدر منهم في الحياة الدنيا من إيمانٍ وكُفرٍ، وطاعةٍ ومعصيةٍ، وما يستحقّونه من ثوابٍ وعذابٍ، ثم ما كان يتسلّمونه من كُتُبٍ بإيمانهم، إن كانوا مؤمنينَ صالحينَ، أو بشمالِهم، إنْ كانوا طالحينَ [(415)] .

أولاً . إيتاء العباد كتبهم :

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ *فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا *﴾ [الانشقاق: 7 . 8] فذكر إيتاءَهم الكتبَ أولاً، ثم عقّب بحرف الفاء، الذي يقتضي الترتيبَ والتعقيبَ، فذكر الحسابَ[(416)] . ويُخْرَجُ لكلِّ إنسانٍ كتابٌ مفتوحٌ، فيقرأه، وإن كان أُمياً، لإقامة الحُجَّةِ عليه .

قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً *﴾ [الإسراء: 13 . 15] وهذا الكتابُ يأخذهُ المؤمنُ بيمنهِ مِنْ أمامِه، وأمّا الكافِرُ فيأخذهُ بشمالهِ مِنْ خلفِ ظهرِه .

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَأُوا كِتَابِيَهْ *إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاَقٍ حِسَابِيَهْ *فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ *فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ *قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ *كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ *وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ *وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ *يَالَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ *مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ *هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ *خُذُوهُ فَغُلُّوهُ *ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ *ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ *﴾ [الحاقة: 19 . 32] .

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ *فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا *وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا *وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ *فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا *وَيَصْلَى سَعِيرًا *﴾ [الانشقاق: 7 . 12] .

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَأُونَ كِتَابَهُمْ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً *﴾ [الإسراء: 71] .

وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُون يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا *﴾ [الكهف: 79] .

وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ *وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ *﴾ [القمر: 52 . 53] والّذينَ يكتبونَ همُ الملائكة، الذين وكّلهم اللهُ مع كلِّ إنسان، يسجِّلُونَ عليه كلَّ شيءٍ، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ *كِرَامًا كَاتِبِينَ *يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ *﴾ [الإنفطار: 10 . 12] .

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ *﴾ [يس: 12] .

ثانياً: سؤالُ كلِّ الناسِ عن أعمالِهم :

ذكر الله تعالى في اياتٍ كثيرةٍ أنَّ الكفّار يُسْألون :

كقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ *﴾ [الحجر: 92] .

وقوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ *مَا لَكُمْ لاَ تَنَاصَرُونَ *﴾ [الصافات: 24-25] .

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ *وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ *﴾ [العنكبوت: 12-13] .

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ *حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ*﴾ [النمل: 83 ـ 85] .

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ *تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ *أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ *﴾ [المؤمنون: 103 ـ 105] .

وأمّا الآيات التي تدلُّ على أنَّ الكفّار لا يُسْألون :

كقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلاَ يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ *﴾ [القصص: 78].

وقوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَ يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلاَ جَانٌّ *﴾ [الرحمن: 39]

وقوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ لاَ يَنْطِقُونَ *وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ *﴾ [المرسلات: 35 ـ 36] ونحو ذلك من النصوص . قال العلماء: إنَّهم يسألون يومَ القيامةِ في موطنٍ دونَ موطنٍ، فالقيامةُ مواطن، فموطِنٌ يكونُ فيه سؤالٌ وكلامٌ، وموطنٌ لا يكونُ ذلك[(417)] .

وقالوا: إنَّ الكفّارَ لا يُسألونَ سؤالَ شفاءٍ وراحةٍ، وإنَّما يُسألونَ سؤالَ تقريعٍ وتوبيخٍ، لم عملتم كذا وكذا [(418)] وإنّهم لا يُسالون سؤال استفهامٍ، لأنّه

تعالى عالِم بكلّ أعمالهم، وإنّما يُسألون سؤالَ تقريع، فيقال لهم: لِمَ فَعَلْتُم كذا [(419)] .

وقال القرطبيُّ: إنّ معنى قوله تعالى: ﴿يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ *﴾ [القصص: 78] سؤال التعرّف لتمييز المؤمنين من الكافرين، أي إنّ الملائكةَ لا تحتاجُ أنْ تَسْأَلَ أحداً يومَ القيامةِ أن يقال: ما كانَ دِيْنُكَ ؟ وما كنتَ تَصْنَعُ في الدُّنيا ؟ حتى يتبيّنَ لهم بإخبارِهِ عن نفسه أنّه كان مؤمناً أو كان كافراً، لكنّ المؤمنين يكونون ناضري الوجوه، منشرحي الصدور، ويكون المشركون سودَ الوجوه، زرقاً، مكروبين، فهم إذا كُلِّفوا سوق المجرمين إلى النار، وتميزهم في الموقف كفتهم مناظرهم عن تعرف أديانهم [(420)] .

ومن حكمةِ الله تعالى في محاسبتهم ووزنِ أعمالهم ـ مع أنَّ أعمالَهم حابطةٌ مردودةٌ ـ أمورٌ منها :

1 ـ إقامةُ الحجةِ عليهم، وإظهارُ عَدْلِ الله فيهم: قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ *﴾ **[الأنبياء: 47]** .

2 ـ أنّ الله يحاسبهم لتوبيخهم وتقريعهم: قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ

تَكْفُرُونَ *﴾ [الأنعام: 30] وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ *الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ *﴾ [الشعراء: 91 . 92] .

3 . **أنّ الكفَّار مكلّفون بأصول الشريعة**، كما هم مكلّفون بفروعها: لأنّ الله تعالى قال: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لاَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [فصلت: 6 . 7] . فتوعَّدهم على منعهم الزكاةَ، وأخبرَ عن المجرمين أنّهم يقال لهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ *قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ *وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ *وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ *﴾ [المدثر: 42 . 45] . فبانَ بهذا أنَّ المشركينَ مخاطبون بالإيمان والبعث وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأنّهم مسؤولون عنها، ومُجْزِيُّون بها [(421)].

4 . **أنّ الكفّار يتفاوتون في كفرهم وذنوبهم ومعاصيهم**: ويحلّون في النار بمقدارِ هذه الذنوب، فالنَّارُ دَركاتٌ، بعضُها تحت بعض [(422)] قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: 145] .

ثالثاً . الأمور التي يسأل عنها العبد يوم القيامة :

يسأل العبدُ يوم القيامة عن كلِّ شيءٍ فعله، كما قال تعالى: ﴿وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ *﴾ [النحل: 93] وقال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ *عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ *﴾ [الحجر: 92 . 93] .

ولكنْ هناكَ بعضُ الأعمالِ نصَّ الله تعالى على أن يُسأل عنها ليزدادَ الخوفُ منها، وهي :

1 . **الكفر والشرك**: قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ﴾ [النحل: 56] .

2 . **كذبهم في حق الملائكة**: قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلاَئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَانِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ *﴾ [الزخرف: 19].

3 . **النعيم الذي أنعم عليه في الدنيا**: قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ*﴾ [التكاثر: 8] .

4 . **العهود والمواثيق**: قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً *﴾ [الإسراء: 34] .

5 . **العلم والسمع والبصر والفؤاد**: قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً *﴾ [الإسراء: 36].

6 . إضلال المضلين للناس: قال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ *﴾ **[العنكبوت: 13]** .

7 . الدين ونصرته والقرآن والعمل به: قال تعالى: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ *وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ *﴾ **[الزخرف: 43 . 44]** .

8 . يُسأل العبدُ عن صلاته: قال رسول الله (ﷺ): « إنّ أوّلَ ما يُحَاسَبُ به العبدُ يومَ القيامةِ مِنْ عَمَلِهِ صلاتُه، فإنْ صَلَحَتْ فقد أفلحَ وأنجح، وإن فَسَدَتْ فقد خابَ وخَسِرَ، وإنْ انتقص من فريضتةٍ قال الله تعالى: انظُروا هلْ لعبدِي من تطوُّعٍ يُكَمِّلُ بها ما انتقصَ من الفريضة ؟ ثم يكونُ سائرُ عملِهِ على ذلك »[(423)] .

9 . سيُسْأَلُ كلُّ عبدٍ عن أشياء: قال رسول الله (ﷺ): « لا تزولُ قدما ابنِ ادمَ يومَ القيامةِ مِنْ عندِ ربّه حتّى يُسْأَلُ عن خَمْسٍ: عَنْ عُمُرِهِ فيم أفناهُ ؟ وعَنْ شبابِهِ فِيْمَ أبلاه ؟ وعَنْ مَالِهِ مِنْ أينَ اكتَسَبَهُ، وفِيْمَ أنفقَهُ ؟ وماذا عَمِلَ فِيْمَا عَلِمَ »[(424)] .

رابعاً . القواعد التي يحاسب العباد على أساسها :

من هذه القواعد التي ذكرت في القرآن الكريم :

1 . عدلُ اللهِ التام:

قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ [الأنبياء: 47] وقال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلاَ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ *﴾ [يس: 54] وقال تعالى: ﴿يَابُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ *﴾ [لقمان: 16] وقال تعالى: ﴿وَالآخرة خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً *﴾ [النساء: 77] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا *﴾ [النساء: 124] وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: 40].

2 . لا يتحمَّلُ أحدٌ ذَنْبَ أحدٍ:

قال تعالى: ﴿وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ *﴾ [الأنعام: 164] وقال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى *وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى *أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ

أُخْرَى *وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى *وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى *ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى *﴾ [النجم: 36. 41] .

3. اطلاع العباد على ما قدموه من أعمال:

قال تعالى: ﴿عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ *﴾ [آل عمران: 30] وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ ياوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا *﴾ [الكهف: 49] .

4. مضاعفة الحسنات دون السيئات:

قال تعالى: ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ *﴾ [التغابن: 17] وقال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ *﴾ [الأنعام: 160] وأما السيئةُ فلا يُجزى إلا مثلها، قال تعالى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا﴾ . وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ *﴾ [البقرة: 261] هذا فضلٌ ضربه الله لتضعيف الثوابِ

لمن أنفقَ في سبيله، وابتغاء مرضاته، وأنَّ الحسنةَ تضاعَفُ بعشرِ أمثالها إلى سبعمئةِ ضعفٍ[(425)].

ومن فضل الله تبارك وتعالى أنّ المؤمنَ الذي يهمُّ بفعلِ الحسنةِ، ولكنّه لا يفعلها تُكْتَبُ له حسنةً تامةً، والذي يهمُّ بفعل السيئةِ، ثم تدركهُ مخافةُ اللهِ، فيتركَها تكتبُ له حسنةً كاملةً[(426)]، عن النبي (ﷺ) فيما يرويه عن ربّه عزّ وجلّ، قال: « إنّ الله كتبَ الحسناتِ والسيئاتِ، ثم بيَّن ذلكَ، فمَنْ همَّ بحسنةٍ فلم يعمَلْها، كتبَها اللهُ عندَهُ حسنةً كاملةً، فإنْ هُوَ همَّ بها فعملَها كتبها اللهُ له عَشْرَ حسناتٍ إلى سبعمئةِ ضِعْفٍ، إلى أضعافٍ كثيرةٍ، ومن هم بسيئةٍ فلم يعملْها كتبَها اللهُ له عندَه حسنةً كاملةً، فإنْ هُوَ همَّ بها فعمِلَها، كتبَها اللهُ له سيئةً واحدةً »[(427)] .

5 . تبديلُ السيئاتِ حسناتٍ:

قال تعالى: ﴿إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا *﴾ [الفرقان: 70] وهذا من رحمة الله وفضله على المؤمنين أن يبدّلَ سيئاتهم حسنات .

خامساً: إقامةُ الشهودِ على الناس :

الله سبحانه وتعالى لا يحتاجُ إلى مَنْ يخبرُهُ عن عبادِهِ، أو يشهدُ عليهم بما فعلوه، إلاّ أنّه سبحانه من كمال عَدْلِهِ وإعذاراً للعالمين أقامَ عليهمُ الشهودَ، ونوّعَ تلكَ الشهود وكثّرَها، حتّى تنقطعَ الحُججُ، وتخرسَ الأفواهُ، وتقرّ الجموعُ بعدل الله المطلق[(428)]، وهؤلاء الشهود كثُرٌ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاَءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ *﴾ [هود: 18] وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ *﴾ [غافر: 51] وقال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ *﴾ [الزمر: 69] .

ومما ذكر في القرآن الكريم من إقامة الشهود على الناس الاتي :

1 . شهود الملائكة:

قال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ *﴾ [ق: 21] أي مَلَكٌ يسوقه إلى المحشر، ومَلَكٌ يشهد عليه بأعماله[(429)] وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ *كِرَامًا كَاتِبِينَ *يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ *﴾ [الانفطار: 10 . 12]

فهؤلاء الملائكةُ الكرام الكاتبون هم الذين يشهدون، ويدلُّ عليه الحديثُ

التالي عن أنسِ بنِ مالك قال: كُنّا عند رسولِ اللهِ (ﷺ) فَضَحِكَ، فقال: «هَلْ تَدْرُوْنَ ممَّ أَضْحَكُ؟ »، قال: قلنا اللهُ ورسوله أعلم، قال: « مِنْ مخاطبةِ العبدِ ربَّه يقول: يا ربِّ ألم تُجِرْني من الظُّلْمِ، قال: يقولُ بَلَى، قال: فيقولُ: فإنّي لا أجيزُ على نَفْسِي إلا شاهِداً مني، قال: فيقولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ اليومَ عليكَ شهِيْداً، وبالكِرامِ الكاتبينَ شهوداً، قال: فيُخْتَمُ على فيهِ، فيقالُ لأركانه انطقي، قال: فتنطِقُ بأعمالِهِ، قال: ثم يُخَلَّى بينهُ وبينَ الكلامِ، قال: فيقولُ: بُعْداً لكنَّ وسُحْقاً فعنكنَّ كنتُ أناضِلُ»[(430)] .

2 . شهود الرسل عليهم:

فيشهدُ كلُّ رسولٍ على أمته، وأنّه قد بلّغهم، وبيّن لهم، وأزالَ عنهم الشُّبَهَ، لئلا يكونَ للناسِ حجةٌ بعدَ الرسل . قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ*﴾ [يونس: 47] يعني إذا جاء الرسولُ يوم القيامة قُضِيَ بينهم، وسماه الله تعالى شهيداً، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ*﴾ [النحل: 84] وقال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ *﴾ [القصص: 75] .

3 . وتشهدُ أمةُ محمّدٍ(ﷺ) على الخلق:

بعد أن تشهدَ الرسلُ على أقوامهم، لا تجدُ هذه الأمم مهرباً إلا بتكذيب رسُلِها، فيقومون وينكرون ما جاءت به الرسلُ، ويكذّبونهم . كما كانوا يكذبونهم في الدنيا، ويقولون: ما جاءنا مِنْ نبيٍّ، فتقومُ أمةُ محمَّدٍ . الأمةُ الوسطُ، فتشهد للرسل: قال تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ *﴾ [الحج: 78] وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: 143] وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسولُ اللهِ (ﷺ): « يجيءُ نوحٌ وأمتهُ، فيقولُ الله تعالى: هل بلّغت ؟ فيقول: نعم أَيْ ربِّ، فيقولُ لأمّتِهِ: هل بلَّغكم ؟ فيقولون: لا، ما جاءنا من نبيٍّ، فيقول لنوحٍ: مَنْ يشهدُ لَكَ ؟ فيقول: محمَّدٌ (ﷺ) وأمتهُ، فنشهدُ أنّه قد بلّغَ، وهو قوله جلّ ذكره ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ العدل[(431)] .

4 . شهود نبينا محمد (ﷺ):

قال تعالى: ﴿وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ [الحج: 78] وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلاَءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ*﴾ [النحل: 89] .

5 . شهود جوارح الإنسان من الألسن والأيدي على نفسه:

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ*﴾ [النور: 24] وقال تعالى: ﴿نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ *﴾ [يس: 65] وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ *حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ *وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لاَ يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ *﴾ [فصلت: 19 . 22] .

6 . وتشهد الأرض:

قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا *بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا*﴾ [الزلزلة: 4 . 5] عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قرأ رسولُ الله (ﷺ) ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا *﴾: « أتدرونَ ما أخبارَها ؟ » قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: « فإنّ أخبارَها أن تشهدَ على كُلِّ عبدٍ أو أَمَةٍ بما عَمِلَ على ظَهْرِهَا، أنْ تقولَ: عَمِلَ كذا وكذا، يومَ كذا وكذا قال: فهذه أخبارها» [(432)] .

7 . أعظم شهيد وأجلّ شهيد:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا *﴾ [الأحزاب: 55] وقال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَلاَ أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ *﴾ [يونس: 61] فبعد أن يشهدَ الأحياءُ والجماداتُ، وتنتهي هذه الشهاداتُ، تأتي شهادةُ اللهِ العزيز الحميد جلّ جلاله وتقدّست أسماؤه[(433)] .

8 . شهودهم على أنفسهم:

إذا رأى العبدُ الحقَّ، وتبيّنَ له أنَّ الله لا تخفى عليه خافيةٌ، ورأى كلَّ ما عمله مكتوباً في صحيفته، وقامت عليه الشهودُ، ورأى أنّه لا برهانَ له ولا حجة،

أقرَّ واعترفَ بما جنى واقترف[(434)]، قال تعالى: ﴿يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ *﴾ [الأنعام: 130] .

سادساً: اقتصاص المظالم بين الخلق :

في ذلك اليوم يُقْتَصُّ للناسِ بعضُهم من بعضٍ، فالحسابُ شامِلٌ لظلم العبدِ نفسَه، وظلمه لغيرِه من الناس، وما أعظمَ خيبةَ الذي وقعَ في ظلمِ الناس، لأنَّ القصاصَ يومئذٍ لا يكونُ بالمالِ ولا السجنِ ولا غير ذلك، بل يكونُ بالحسناتِ والسيئاتِ[(435)]، قال تعالى: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا *﴾ [طه: 111] .

وقال رسول الله (ﷺ): « مَنْ كانتْ له مظلمةٌ لأخيهِ مِنْ عِرْضِهِ أو شيءٍ فَلْيَتَحَلَّله مِنْهُ اليومَ قبلَ أنْ لا يكونَ دينارٌ ولا دِرْهَمٌ، إن كان لَهُ عَمَلٌ صالِحٌ أُخِذَ منه قَدْرَ مظلمته، وإنْ لم تكنْ له حسناتٌ أُخذَ من سيئاتِ صاحبه فحُمِلَ عليه »[(436)] .

وقال رسول الله (ﷺ): « أتدرونَ مَنِ المفْلِسُ؟ » قالوا: المفلسُ فينا مَنْ لا دِرْهَمَ له ولا مَتَاعَ، فقال: « إنَّ المفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يأتي يومَ القيامةِ بصلاةٍ

وصيامٍ وزكاةٍ، ويأتي قد شتمَ هذا، وقذفَ هذا، وأكلَ مالَ هذا وسفكَ دمَ هذا، وضربَ هذا، فيُعْطَى هذا مِنْ حسناته، وهذا مِنْ حسناتِهِ، فإنْ فَنِيَتْ حسناتُه قبلَ أن يَقْضِي ما عليه، أُخِذَ من خطاياهم فَطُرِحَتْ عليه، ثم طُرِحَ في النَّارِ »[(437)] .

ومن كمال عدل الله تعالى في ذلك اليوم أنّه يقتصُّ للبهائم بعضِها من بعضٍ[(438)]، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: « إذا كانَ يومُ القيامةِ مُدّتِ الأرض مدَّ الأديمُ، وحُشِرَ الخلائقُ: الأنسُ والجنُّ والدوابُّ والوحوشُ، فإذا كان ذلك اليوم جُعِلَ القصاصُ بين الدوابِ، حتّى تقتصّ الشاةُ الجمّاءُ مِنَ القرناءِ بنطحِها، فإذا فرغَ الله مِنَ القصاصِ بينَ الدوابِ، قال لها: كوني تراباً، فتكونُ تراباً، فيراها الكافِرُ فيقول: ﴿يَالَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا *﴾ [النبأ: 40][(439)] .

1 . عظم شأن الدماء:

من أعظمِ الأمورِ عندَ الله أن يَسْفِكَ العبادُ بعضَهم دمَ بعضٍ في غيرِ الطريق الذي شرعه الله تبارك وتعالى[(440)]، قال رسولُ الله(ﷺ): « يَجِيْءُ الرجلُ اخذاً بيدِ الرجلِ، فيقولُ: يا ربِّ، هذا قتلني، فيقولُ: لم قتلتَهُ ؟ فيقول: قتلتهُ لتكونَ العزَّةُ لكَ، فيقول: فإنَّها لي، ويجيءُ الرجلُ اخذاً بيدِ الرَّجُلِ فيقول: أيْ

ربِّ، إنَّ هذا قتلني، فيقول الله: لم قتلتَهُ؟ فيقول: لتكونَ العزَّةُ لفلان، فيقول: إنَّها ليستْ لفلانٍ، فيبوءُ بإثمِهِ » [(441)] .

وقال رسول الله (ﷺ): « يجيءُ المقتولُ بالقاتلِ يومَ القيامةِ، ناصيتهُ ورأسُه بيدِه، وأوداجُه تشخبُ دماً، فيقول: يا ربِّ سَلْ هذا فيمَ قتلني؟ حتَّى يدنيه من العَرْشِ »[(442)] .

2 . أوّلُ ما يقضى بينَ العبادِ في الدماءِ:

ولعظمِ أمرِ الدماءِ، فإنَّها تكونُ أوَّل شيءٍ يُقْضَى فيه بين العباد، فقد قال رسول الله (ﷺ): « أوَّلُ ما يُقْضَى بينَ الناسِ يومَ القيامةِ في الدماءِ»[(443)].

ب . الحوض :

قال تعالى في سورة الكوثر ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ *فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ *إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ *﴾ .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بينما رسولُ اللهِ (ﷺ) ذاتَ يومٍ بين أظهُرنا إذ أغفى إغفاءةً[(444)]، ثم رفعَ رأسَه مبتسماً، فقلنا: ما أضحكك يا رسولَ اللهِ ؟ قال: أُنزلتْ عليَّ انفاً سورةٌ فقرأ ثم ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ * إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ *فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ *إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ *﴾: « أتدرون

ما الكوثر ؟ » فقلنا: الله ورسوله أعلم، قال: « فإنّه نَهرٌ وعدنيه ربِّي عزَّ وجلَّ، عليه خيرٌ كثيرٌ، عليه حوضٌ، تَرِدُ عليه أُمَّتي يومَ القيامةِ، انيتُه عددُ النجومِ، فَيُخْتَلَجُ[(445)] العبدُ مِنْهُم فأقول: ربِّ إنَّه مِنْ أُمّتي، فيقول: ما تدري ما أحدث بعدك »[(446)] . فقوله « عليه حوض » يدلُّ على أنَّ الحوضَ يتفرّعُ من النهر، ويدلُّ الحديث أيضاً على أنّ الحوضَ موجودٌ في عَرْصاتِ يوم القيامة قبلَ دخولِ الجنّة، لقوله (ﷺ): « فيختلج العبد منهم » وهذا لا يكونُ في الجنّةِ، لأنّهم في الجنة لا يمنعون من شيءٍ يشتهونه[(447)] .

وقد جاءت الأحاديثُ النبويةُ في بيان حوض النبي (ﷺ) الذي أكرمه الله عزّ وجلّ به، وهو في عَرْصاتِ القيامة، وهو غيرُ الكوثرِ، بل الكوثرُ يكونُ مدداً له، والذي يتَلخَّص في صفته أنّه حوضٌ عظيم، وموردٌ كريمٌ، يُمَدُّ شراب الجنة من نَهر الكوثر، وماؤه أشدُّ بياضاً من اللبن والوِرْقِ، وأحلى من العسل، وأبردُ من الثلج، وأطيبُ ريحاً من المسك، وهو في غاية الاتّساع، عرضُه وطولُه سواءٌ، كلُّ زاويةٍ من زواياه مسيرةُ شهرٍ، وكيزانُه عددُ نجوم السماءِ، تردُ عليه أمةُ رسولِ اللهِ (ﷺ)، وهو فَرَطُهم عليه، مَنْ شَرِبَ منه شربةً لا يظمأُ بعدَها أبداً[(448)] .

ولقد بيّن لنا رسولُ اللهِ (ﷺ) في أحاديثَ كثيرةٍ الذينَ يردون على حوضه، والذين يُذادون عنه، فيُمنعونَ من الشربِ منه، فمن تلك الأحاديث :

1 . عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أنّ رسول الله (ﷺ) قال: « إنّ حوضي لأبعدُ مَنْ أَيْلة[(449)] من عدنٍ[(450)]، والذي نفسي بيده إِنّي لأذودُ عنه الرجالَ كما يذودُ الرجلُ الإبلَ الغريبةَ عن حوضِهِ » قالوا: يا رسول الله وتعرفُنا ؟ قال: « نعم ، تردونَ عليَّ غُرّاً محجَّلينَ من اثارِ الوضوءِ، ليستْ لأحدٍ غيركم »[(451)] .

2 . قال رسول الله (ﷺ): « بينما أنا قائمٌ على الحوض إذا زمرةٌ، حتى إذا عرفتُهم خرجَ رجلٌ من بيني وبينهم فقال: هلم، فقلتُ: إلى أينَ؟ قال: إلى النار، والله، قلت: ما شأنهم ؟ قال: إنَّهم ارتدّوا بعدك على أدبارِهم القهقهرى، ثم إذا زمرةٌ، حتى إذا عرفتُهم خرجَ رجلٌ من بيني وبينهم فقال: هلم، قلت: أين ؟ قال: إلى النار، والله قلتُ: ما شأنُهم ؟ قال: إنّهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقهرى، فلا أراه يخلُصُ منهم إلا هَمَلُ النعم »[(452)]

أي فلا يرد الحوض إلا القليل، لأن الهمل من الإبل قليل بالنسبة الى غيره .

3 . وقال رسول الله (ﷺ): « إنِّي فرطُكُم على الحوضِ، مَنْ مَرّ عليَّ شَرِبَ، وَمَنْ شرب، لَمْ يَظْمَأْ أبداً، لَيَرِدَنَّ عليَّ أقوامٌ، أعرفُهم ويعرفونني، ثم يُحالُ بيني وبينهم »[(453)]، وفي حديث اخر « فأقول: إنهم مني، فيقال: إنّكَ لا تَدْرِي ما أحدثوا بَعْدَكَ، فأقول: سُحقاً سُحقاً لمن غيّر بعدي »[(454)] وقال النووي

في شرح بعض روايات الحديث عند قوله (ﷺ): (هل تدري ما أحدثوا بعدك) المراد به على أقوال :

القول الأول: إن المراد به المنافقون والمرتدّون، فيجوزُ أنّ يُحْشَروا بالغُرّة والتحجيل، فيناديهم النبيُّ (ﷺ) للسمة التي عليهم فيقال: ليس هؤلاءِ ممّا وُعدتَ بهم، إنَّ هؤلاء بدّلوا بعدك، أي لم يموتوا على ما ظهرَ من إسلامهم .

القول الثاني: إنّ المراد مَنْ كان في زمن النبي (ﷺ) ثم ارتدَّ بعدَهُ، فيناديهم النبيُّ (ﷺ) إنْ لم يكن عليهم سمةُ الوضوءِ، لما كان يعرفُه (ﷺ) في حياته من إسلامهم، فيقال: ارتدوا بعدك .

القول الثالث: إنّ المرادَ به أصحابُ المعاصي والكبائر، الذين ماتوا على التوحيد، وأصحابُ البدعِ الذين لم يخرجوا ببدعتهم عن الإسلام، وعلى هذا لا يُقْطعُ بهؤلاء الذين يُذَادُوْنَ بالنار، يجوز أن يذادوا عقوبةً لهم، ثم يرحمهم سبحانه وتعالى، فُيدْخِلُهم الجنة بغيرِ عذابٍ[(455)]، ونقل هذه الأقوال، أو قريباً منها، القرطبي وابن حجر رحمها الله تعالى[(456)] .

ولا يمتنعُ أن يكونَ أولئك المذادون عن الحوضِ هم من مجموع تلك الأصناف المذكورة، فإنَّ الرواياتِ محتملةٌ لكلِّ هذا، ففي بعضها يقول النبي (ﷺ): «فأقول أصحابي»[(457)] و«أُصيحابي»[(458)] بالتصغير . وفي بعضها يقول: « سيؤخذ أناسٌ من دوني فأقول: يا ربي مني ومن أمتي » وفي بعضِها يقول:

« ليردنَّ عليَّ أقوامٌ أعرفُهم ويعرفوني »[(459)] وظاهرُ ذلك أنَّ المذادين ليسوا طائفةً واحدةً، وهذا هو الذي تقتضيه الحكمةُ، فإنَّ العقوباتِ في الشرع تكونُ بحسب الذنوب، فيجتمع في العقوبة الواحدة كلُّ مَنِ استوجبها من أصحابِ ذلك الذنب[(460)].

وإذا كان النبيُّ (ﷺ) قد بيّن أنّ سببَ الذودِ عن الحوض هو الارتدادُ كما في قوله: « إنهم ارتدوا على أدبارهم » أو الإحداثِ في الدين كما في قوله: « إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك » فمقتضى ذلك هو أن يُذَادَ عن الحوضِ كلُّ مرتدٍ عن الدين، سواء أكان ممن ارتدَّ بعد موتِ النبي (ﷺ) من الأعراب، أو منْ كان بعدَ ذلك، يشارِكُهم في هذا أهلُ الأحداثِ، وهم المبتدعةُ، وهذا ما ذهبَ إليه بعضُ أهل العلم، وكذلك الظلمةُ المسرفون في الجور وطمس الحق، والمعلنون بالكبائر، وكلُّ هؤلاء يُخاف عليهم أن يكونوا ممن عُنوا بهذا الخبر والله أعلم[(461)] .

فالذود عن الحوض إنّما هو بسبب الردة أو الإحداث في الدين، والصحابةُ من أبعدِ الناس عن ذلك، بل هم أعداءُ المرتدين، الذين قاتلوهم، وحاربوهم في أصعب الظروف وأحرجها بعد موت النبي (ﷺ)، فقد تصدّى أصحابُ النبي (ﷺ) لهؤلاء المرتدين، وقاتلوهم قتالاً عظيماً، وناجزوهم حتى أظهرهم الله

عليهم، فعاد للدين من أهل الردة مَنْ عادَ، وقُتِلَ منهم من قُتِلَ، وعاد للإسلام عزُّه وقوتُه وهيبتُه على أيدي الصحابة رضي الله عنهم .

وكذلك أهلُ البدع كان الصحابةُ رضوان الله عليهم أشدَّ الناسِ إنكاراً عليهم، لهذا لم تشتدَّ البدعُ وتقوى إلا بعد انقضاء عصرهم، ولما ظهرتْ بعضُ بوادرِ البدع في عصرِهم أنكروها، وتبرّؤوا منها ومن أهلها[(462)]، وهذه المواقفُ العظيمةُ للصحابة من أهل الردّة وأهل البدع، من أكبر الشواهد الظاهرة على صدق تدينهم، وقوة إيمانهم، وحسنِ بلائهم في الدين، وجهادهم أعداءَه بعد موتِ رسول الله (ﷺ)، حتى أقامَ الله بهم السُّنةَ، وقمعَ البدعَ، الأمرُ الذي يظهرُ به كَذِبُ مَنْ رماهم بالردة والإحداث في الدين، والذود عن حوض النبي (ﷺ)، بل هم أولى الناسِ بحوضِ نبيّهم، لحُسْنِ صحبتهم له في حياته، وقيامهم بأمرِ الدين بعد وفاته .

ولا يُشْكِلُ على هذا قولُ النبيّ (ﷺ): « لَيَرِدَنَّ عليَّ ناسٌ من أصحابي الحوضِ، حتى إذا عرفتُهم اختلجوا دوني »[(463)]، فهؤلاء هم مَنْ ماتَ النبيُّ (ﷺ) وهم على دينه، ثم ارتدوا بعد ذلك، كما ارتدت كثيرٌ من قبائلِ العرب بعدَ موتِ النبيّ (ﷺ)، فهؤلاء في علم النبيّ (ﷺ) من أصحابه، لأنَّه ماتَ وهم على دينه، ثم ارتدّوا بعد وفاته، ولذا يقال له: « إنّكَ لا تدري ما أحدثوا

بعدك » إنّهم ارتدوا على أدبارِهم القهقرى[(464)]، فظاهِرٌ أنّ هذا في حَقِّ المرتدين بعد موتِ النبيِّ (ﷺ) .

وأين أصحابُ النبيّ (ﷺ) الذين قاموا بأمر الدين بعدَ نبيهم خيرَ قيام، فقاتلوا المرتدين، وجاهدوا الكفّار والمنافقين، وفتحوا بذلك الأمصار، حتى عمَّ دينُ اللهِ كثيراً من الأمصار، مِنْ أولئك المنقلبين على أدبارِهم .

وهؤلاء المرتدون لا يدخلون في الصحابة، ولا يشملُهم مصطلح الصُّحبةِ إذا ما أطلق، فالصحابي كما عرّفه العلماءُ المحققون: من لقيَ النبيَّ (ﷺ) مؤمناً به، وماتَ على الإسلام[(465)] .

فاللهم ارزقنا شَرْبةً هنيئةً مريئةً من حَوْضِ النبيِّ (ﷺ) لا نَظْمَأُ بعدَها أبداً .

ج ـ الميزان :

قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ﴾ **[الأنبياء: 47]** قال العلماءُ: وإذا انقضى الحسابُ كان بعدَه وزنُ الأعمال، والوزنُ لإظهارِ مقاديرِها، ليكونَ الجزاءُ بحسبها[(466)] .

وقد ذُكِرَ لفظُ الوزنِ والميزانِ في القرآن الكريم في ثلاث وعشرين اية، منها خمس عشرة آية خاصّةً بالبحث على إقامةِ العدل في ميزان الدنيا، والحذرِ من

التطفيفِ في الكيل والميزان ... المستوجبِ لعذابِ الله، ومنها ثماني آيات خاصة بالوزن في الآخرة[(467)] .

وقد دلّتِ السنة المطهرة على أنَّ الميزانَ ميزانٌ حقيقي، لا يقدر قدره إلا الله عز وجل، قال رسول الله (ﷺ): « يُوْضَعُ الميزانُ يوم القيامةِ، فلو وُزِنَ فيه السماواتُ والأرضُ لوسعتْ، فتقولُ الملائكةُ: يا ربِّ لِمَنْ يَزِنُ هذا ؟ فيقولُ الله تعالى: لمن شئتُ مِنْ خَلْقِي، فتقولُ الملائكةُ: مَنْ تجيزُ على هذا ؟ فيقولُ: مَنْ شئتُ مِنْ خَلْقِي، فيقولون: سبحانك ما عبدناك حقَّ عبادتك» [(468)].

1 . دقة الميزان:

قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ *﴾ **[الأنبياء: 47]**

يخبِرُ تعالى في هذه الآية عن القضاء العادل يومَ القيامةِ بأنّه يوازِنُ بين أعمال العباد موازنةً دقيقةً، فيحاسبُ كُلاًّ على أعماله، ووصفَ الله تعالى الموازينَ بالقسطِ، لأنَّ الميزانَ قد يكونُ مستقيماً، وقد يكون بخلافه، فبيَّن أنَّ تلك الموازين تجري على حدِّ العدل والقسطِ، وأكد ذلك بقوله: ﴿فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ .

وقد صور القرآن الكريم دقّة الموازنةَ بصورةٍ حسيةٍ من مألوف الناس، قال تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *وَمَنْ

خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ *﴾ [الأعراف: 8 ـ 9] .

كما صوّر الحديثُ النبويُّ ذلك الميزان الدقيق العادل بصورة حسية قال رسول الله (ﷺ): « تُوْضَعُ الموازينُ يومَ القيامةِ، فيُؤْتَى بالرَّجُلِ، فيوضَعُ في كِفّةٍ، فيُوْضَعُ ما أحْصِي عليه، فَتَمَايلَ به الميزانُ، قال: فَيُبْعَثُ به إلى النَّارِ، قال: فإذا أُدْبِرَ بهِ، إذا صائحٌ يصيحُ من عندِ الرحمنِ يقول: لا تَعْجَلُوا لا تَعْجَلُوا، فإنَّه قد بقيَ له، فُيؤتَى ببطاقةٍ فيها، لا إله إلا الله، فتوضعُ مع الرَّجُل في كِفّةٍ، حتّى يميلَ به الميزانُ »[(469)] .

2 ـ المؤمنون هم المفلحون:

ذكر الله سبحانه في القرآن الكريم أنَّ مَنْ ثَقُلَتْ موازينُه بأنْ رجحتْ من موازين أعمالُه بالإيمانِ وكثرةِ الحسناتِ، فأولئك هم الفائزون بالجنة، الناجونَ من العذابِ، فالمؤمنون على تفاوت درجاتهم في الأعمال همُ المفلحون، وإنْ عُذّبوا على بعضِ ذنوبهم بمقدارها[(470)] .وفي ذلك يقول الله في آيات كثيرة منها: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ *فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ *تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ

فِيهَا كَالِحُونَ *﴾ [المؤمنون: 101 . 104] وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ *فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ *﴾ [القارعة: 6 . 7] .

3 . الأعمال التي تثْقُلُ في الميزانِ:

إنّ كلَّ أعمالِ البرِّ والطاعةِ تثقلُ في الميزانِ، وتجعلُ كِفّةَ الحسناتِ راجحةً على كِفّةِ السيئاتِ، ولكنْ هناكَ أشياءُ تجعلُ كفَّة الحسناتِ ثقيلةً جدّاً، منها[(471)] :

أ . **حُسْنُ الخلق**: قال رسول الله (ﷺ): « ما مِنْ شيءٍ أَثْقَلُ في ميزانِ العبدِ المؤمنِ يومَ القيامةِ مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ، وإنَّ اللّهَ يُبْغِضُ الفاحِشَ البَذِيءَ»[(472)].

ب . **تسبيح الله وتحميده**: قال رسول الله (ﷺ): « كلمتانِ خفيفتانِ على اللسانِ، ثقيلتانِ في الميزانِ، حبيبتانِ إلى الرحمنِ: سبحانَ اللهِ وبحمدهِ وسبحانَ اللهِ العظيم »[(473)] .

ج . **الحمد لله**: قال رسول الله (ﷺ): « الطُّهورُ شَطْرُ الإيمانِ، والحمدُ لله تملأُ الميزانَ، وسُبحانَ الله والحمْدُ للهِ تملآن . أو تملأ . ما بينَ السماواتِ والأرضِ، والصلاةُ نورٌ، والصدقةُ برهانٌ، والصبرُ ضياءٌ، والقرآن حُجَّةٌ لكَ أو عليكَ، كلُّ الناسِ يغدو، فبائعٌ نفسَه، فمعتقُها أو موبقُها »[(474)] . ففي قوله:

«وسبحان الله والحمد لله تملآن ـ تملأ ـ ما بين السموات والأرض» سببُ عظيمُ فضلِها ما اشتملت عليه من التنزيه لله تعالى، والافتقار إليه[(475)] .

د ـ احتباسُ الخيلِ في سبيل الله: قال رسول الله (ﷺ): «مَنِ احتبسَ فرساً في سبيلِ اللهِ إيماناً باللهِ، وتصديقاً بوعدِهِ، كان شِبَعُهُ ورِيُّهُ وَرَوْثُهُ وبَوْلُهُ حسناتٍ في ميزانه يومَ القيامةِ»[(476)] .

د ـ الصراط:

إنّ الصراط جسرٌ ممدودٌ على متن جهنم، أحدُّ من السيفِ، وأدقُّ من الشَّعْرِ، يمرُّ عليه جميعُ الخلائق، وهم في جوازِهِ متفاوتون[(477)] فيقع فيها أهلها، وينجو الآخرون[(478)] قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا *ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا *﴾ [مريم: 71-72] والمراد بالورود في الآية المرور على الصراط، وعن جابر عن أم مبشر، عن حفصة قالت: قال النبيُّ (ﷺ): «إنِّي لأرجو ألا يدخل النارَ أحدٌ إنْ شاءَ الله تعالى ممّن شهدَ بدراً والحديبية» . قالت: قلتُ: يا رسول الله، أليس قد قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا

مَقْضِيًّا *﴾، قال: « ألم تسمعيه يقول: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا *﴾ [مريم: 72] »[(479)] .

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ *يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ *فَالْيَوْمَ لاَ يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلاَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاَكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ *﴾ [الحديد: 12 . 15] .

لقد كرّم الله تعالى المؤمنين يومئذٍ تكريماً عظيماً، إذ يمرّون على الصراط بسرعاتٍ مختلفةٍ، وأنوارٍ متفاوتةٍ، أما المنافقون فلا نور لهم[(480)] .

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لاَ يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ*﴾ [التحريم: 8] وفي قوله تعالى: على قدر ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾، يمرّون على الصراط، منهم من نُورُه مثلُ الجبل، ومنهم من نورُه مثل النخلةِ،

ومنهم من نورُه مثل الرجل القائم، وأدناهم نوراً من نورُه في إبهامه يتّقدُ مرةً، ويطفأ مرةً »[(481)] .

1 . المؤمنون يشفعون لإخوانهم في النار:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في حديثه الطويل في سياق الشفاعة عن رسول الله (ﷺ) وفيه: « ثم يُضْرَبُ الجِسْرُ على جهنم، وتحلُّ الشفاعةُ، ويقولون: اللهمَّ سلّم سلّم » قيل: يا رسول الله، وما الجسر؟ قال: « دَحْضٌ[(482)] مَزَلّةٌ، فيه خطاطيفُ وكلاليبُ وحَسَكٌ، تكونُ بنجدٍ فيها شويكةٌ يقال لها السعدان، فيمرُّ المؤمنون كطرفِ العينِ وكالبرقِ، وكالريحِ، وكالطير، وكأجاويدِ الخيلِ، والرّكابِ، فناجٍ مُسَلَّمٌ، ومخدوشٌ مُرْسَلٌ، ومكدوسٌ في نارِ جهنّم، حتى إذا خلصَ المؤمنونَ من نارِ جهنم، فوالذي نفسي بيده ما مِنْكُم من أحدٍ بأشدَّ مناشدةً لله في استقصاءِ الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار، يقولون: ربّنا كانوا يصومون معنا، ويصلّون ويحجّون، فيقال لهم: أخرجوا مَنْ عرفتُم، فتحرَّمُ صورُهم على النار، فيُخرِجون خلقاً كثيراً قد أخذتِ النّارُ إلى نصفِ ساقيه، وإلى ركبتيه، ثم يقولون: ربّنا ما بقي فيها أحدٌ ممن أمرتنا به ... » [(483)] .

2. الأمانةُ والرحمُ على جنبتي الصراط:

قال رسول الله (ﷺ): « وتُرسَلُ الأمانةُ والرَّحِمُ، فتقومانِ على جنبتي الصراطِ يميناً وشمالاً، فيمرُّ أولُكم كالبرقِ» . قال: قلتُ: بأبي وأمي، أيُّ شيءٍ كالبرق؟ قال: « ألم تروا إلى البرقِ كيف يمرُّ ويرجِعُ في طَرْفَةِ عينٍ؟ ثم كمرِّ الريحِ، ثم كمرِّ الطيرِ، وشدِّ الرحالِ، تجري بهم أعمالُهم، ونبيُّكم قائمٌ على الصراطِ يقولُ: ربِّ، سلّم سلّم، حتى تعجزَ أعمالُ العبادِ، حتى يجيءَ الرجلُ، فلا يستطيعُ السيرَ إلا زَحْفاً، قال: وعلى حافتي الصراطِ كلاليبُ معلّقةٌ مأمورةٌ بأخذِ مَنْ أُمِرَتْ به، فمخدوشٌ ناجٍ، ومكدوسٌ في النارِ »[(484)] .

فياله من موقف يشيب لهوله الولدان !

ها هي الأمانةُ على الصراطِ تقولُ لكلِّ خائنٍ يمرُّ عليها: أينَ الأمانةُ التي ضيعتَها ؟ ... أين أمانةُ الطاعةِ ؟ ... أينَ أمانةُ الزوجةِ والأولادِ ؟ أينَ أمانةُ الأموالِ التي سرقتها ؟ أينَ أمانةُ الشهادةِ لهذا الدين ؟ أينَ الأماناتُ التي أبت السماواتُ والأرضُ والجبالُ أن يحملنها، وأشفقنَ منها، وحملتها أنتَ أيها الإنسان، بل ها هي الرحمُ تتعلّقُ على الصراطِ لتقولَ لكلِّ مَنْ قطعها: أينَ صلةُ الرَّحِمِ التي قطعتَها في الدنيا ؟ وماذا ستصنعُ اليومَ أمام تلك الأهوال[(485)]؟

قال رسول الله (ﷺ): « إنّ الله تعالى خلقَ الخلقَ، حتّى إذا فرغَ منهم، قامتِ الرحمُ فقالت: هذا مقامُ العائذِ بكَ من القطيعةِ، قال: نعم، أما ترضينَ أنْ أصلَ مَنْ وصلكِ، وأقطعَ من قطعكِ ؟ قالتْ: بلى، قال: فذلكَ لكِ » ثم قال رسول اللهِ (ﷺ): « اقرءوا إن شئتم ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ *أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ *﴾ **[محمد: 22 . 23]**[(486)] .

وقال رسول الله (ﷺ): « ما مِنْ ذنبٍ أجدرُ أنْ يُعَجِّلَ اللهُ تعالى لصاحبِهِ العقوبةَ في الدُّنيا مَعَ ما يدّخره له في الآخرة من قطيعةِ الرحمِ، والخيانةِ، والكذبِ، وإنَّ أعجلَ الطاعةَ ثواباً لصلةُ الرَّحِمِ، حتّى إنّ أهلَ البيتِ ليكونوا فجرةً، فتنموا أموالُهم، ويكثرَ عددُهم، إذا تواصلوا »[(487)] .

3 . تهذيب المؤمنين وتنقيتهم قبل دخولهم الجنة:

بعد أن يجتازَ المؤمنون الصراط يُوْقَفون على قنطرةٍ بين الجنّةِ والنار، ثم يهذّبون وينقّون، وذلك بأنْ يقتصَّ لبعضهم من بعضٍ ،إذا كانتْ بينهم مظالم في الحياة الدنيا، حتى إذا دخلوا الجنة، كانوا أطهاراً أبراراً، ليس لأحدٍ عند الآخر مظلمةٌ، ولا يطلبُ بعضُهم بعضاً بشيءٍ من غِلٍّ وبُغْضٍ، قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ **[الأعراف: 43]** .

قال رسول الله (ﷺ): « يخلصُ المؤمنون من النارِ، فَيُحْبَسُوْنَ على قنطرةٍ بين الجنّةِ والنار، فيُقتصُّ لبعضِهم من بعضٍ مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِنَ لهم في دخولِ الجنّةِ، فوالذي نفسُ محمّدٍ بيده لأحدُهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا »[(488)] .

ثم الناسُ بعد تجاوز قناطر الصراط على نوعين: نوعٌ تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فهؤلاء أهلُ الأعراف، وهو سور بين النار والجنة[(489)]، قال تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ *﴾ **[الأعراف: 46]**.

ونوع رجحت حسناتهم سيئاتهم وهم أهل الجنة .

4 . عظة المرور على الصراط:

تفكر الان فيما يحلّ بك من الفزع بفؤادك إذا رأيتَ الصراطَ ودقّته، ثم وقع بصرك على سواد جهنم من تحته، ثم قرع سمعُك شهيقُ النار وتغيّظها، وقد كُلّفتَ أن تمشي على الصراط، مع ضعفِ حالكَ، واضطرابِ قلبك، وتزلزل قدمِكَ، وثِقَلِ ظهرِكَ بالأوزار، المانعةِ لك من المشي على بساط الأرض، فضلاً عن حِدَّة الصراط، فكيف بك إذا وضعتَ عليه إحدى رجليك ؟ فأحسست بحدِّته، واضطررتَ إلى أن ترفع قدمكَ الثانية، والخلائق بين يديك يزلّون، ويعثرون، وتتناولهم زبانيةُ النار بالخطاطيفِ والكلاليبِ، وأنت تنظرُ

إليهم كيف يُنَكِّسون إلى جهة النار رؤوسَهم، وتعلو أرجلُهم، فيا له من منظرٍ ما أفظعه، ومرتقًى ما أصعبه، ومجازٍ ما أضيقه[(490)]!!

قال الشاعر[(491)] :

أَبَتْ نفسي تتوبُ فما احتيالي ... إذا برزَ العبادُ لذي الجلالِ

وقاموا من قبورِهِمُ سُكَارى ... بأوزارٍ كأمثالِ الجبالِ

وقد نُصِبَ الصّراطُ لكي يَجُوْزُوا ... فمنهم مَنْ يُكَبَّ على الشِّمَالِ

ومنهم مَنْ يسيرُ لدارِ عَدْنٍ ... تلقّاه العرائسُ بالغوالي[(492)]

يقول له المهيمنُ: يا وليي ... غفرتُ لك الذنوبَ فلا تبالي

* * *

الفصل الرابع: النار والجنة

المبحث الأول: مقدمات .

المبحث الثاني: النار .

المبحث الثالث: موانع إنفاذ الوعيد .

المبحث الرابع: الجنة .

المبحث الأول: مقدمات الجنة والنار موجودتان، لا تفنيان وبيان مكانهما، وأهل الأعراف

أولاً: خلود الجنة والنار :

الجنة والنار خالدتان أبداً، والأدلة على ذلك كثيرةٌ، وهي تدلُّ على خلودِ أهل الجنة والنار، وهذا يستلزمُ خلودَ الجنة والنار، ولازمُ الحقِّ حقٌّ .

1 . أما الجنة فقد دل على خلودها الكتاب والسنة :

أما القرآن الكريم فقد قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ *﴾ [هود: 108] يعني غيرَ مقطوعٍ، وقال تعالى: ﴿لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ *﴾ [الحجر: 48] فقد نفى الله تعالى عنهم الخروجَ منها والموتَ فيها، تأكيداً لمعنى أبدية الخلود، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً *﴾ [النساء: 57] .

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً *﴾ [النساء: 122][(493)] .

وأما في السنة: فمنها قول رسول الله (ﷺ): « ينادي منادٍ، (يغني أهل الجنة أنّ لكم أن تحيوا، فلا تموتوا أبداً، وأنَّ لكم أن تصحِّوا، فلا تسقموا أبداً، وأنّ لكم أن تشبّوا فلا تهرموا أبداً، وأنّ لكم أن تنعموا، فلا تبأسوا أبداً، فذلك قوله عز وجل: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ *﴾ [الأعراف: 43] »[(494)] .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله (ﷺ): « يؤتى بالموتِ كهيئةِ كبشٍ أملحَ، فينادي منادٍ: يا أهل الجنّةِ، فيشرئبونَ وينظرونَ، فيقولُ: هل تعرفونَ هذا ؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلّهم قد راه فيذبح، ثم يقول: يا أهلَ الجنّةِ خلودٌ فلا موتَ، ويا أهلَ النارِ خلودٌ فلا موتَ، ثم قرأ: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ *﴾ [مريم: 39] »[(495)] .

2 . وأما خلود النار: فقد دل على خلودها الكتاب والسنة :

أما القرآن فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ *لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ *﴾ [الزخرف: 74 . 75]، وقال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا

تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ *لَوْ كَانَ هَؤُلاَءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ *﴾ [الأنبياء: 98 . 99]، وقال تعالى: ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ*﴾ [البقرة: 81] .

وأما السنة فحديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ (ﷺ) قال: « مَنْ تردَّى مِنْ جبلٍ فقتلَ نفسَهُ، فهو في نارِ جهنمَ، يتردّى فيها خالداً مخلّداً، ومن تحسَّى سمّاً، فقتل نفسَه، فسمُّه في يده يتحسّاه في نار جهنم خالداً فيها أبداً، ومن قتلَ نفسَه بحديدةٍ، فحديدتهُ في يده، يجأُ بها في بطنه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً »[(496)] .

3 . هل المراد بالخلود طولُ المكث :

قد يقول القائل: إنَّ المراد بالخلودِ هو طولُ المكثِ لا أبديتُه، والناسُ تسمي أبناءها خالداً تفاؤلاً بطول بقائه، وهم يوقنون أنّه ميتٌ لا محالة، وتقول العرب :

فلان خلّدَ اللهُ ملكه، يعني أطال الله ملكه، ولكن إلى أمدٍ ،لا إلى الأبدِ، والرجلُ الذي أسنَّ ولم يشبْ تقول عنه العرب مخلَّد[(497)] .

والجواب: الأصل في معنى الخلود هو دوامُ البقاءِ وأبديتُه، قال صاحب (لسان العرب): الخُلْودُ دوامُ البقاء في دارٍ لا يخرجُ منها[(498)]، وإنّما يُطْلَقُ الخلودُ

على طولِ البقاءِ لا أبديته بقرينةٍ، كما هو الحال في النار بالأبد لدفع هذا الوهم، وهي بالتتبعِ ثلاثةُ مواضعَ في كتاب الله :

الموضع الأول ـ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا *إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا*﴾ [النساء: 168 ـ 169] .

الموضع الثاني ـ قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا *خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لاَ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا *﴾ [الأحزاب: 64 ـ 65] .

الموضع الثالث ـ قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا *﴾ [الجن: 23] .

وزادت هذا المعنى وضوحاً الآيات التي تنفي خروجهم من النار، وتبيّن أنّ عذابهم مقيم وثابت، وأنَّ العذابَ لا يفتر عنهم، وأنّهم لا يموتون فيها[(499)] .

قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ *﴾ [المائدة: 37] وقال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لاَ يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ *﴾ [الجاثية: 35] وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ *لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ *﴾ [الزخرف: 74 ـ 75] وقال تعالى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى *الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى *ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَا *﴾

[الأعلى: 11 . 13] وقال تعالى: ﴿إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ *﴾ [هود: 106 . 107]، ففي تفسير هذه الآية أوجهٌ :

أحدهما: أنّ قوله تعالى ﴿إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾: إلا مَنْ شاءَ الله عدمَ خلودِه فيها من أهل الكبائر من الموحّدين، وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة أنَّ بعضَ أهلِ النارِ يخرجون منها، وهم أهلُ الكبائرِ من الموحّدين، ونقل ابنُ جريرٍ هذا القولَ عن قتادة والضحاك، وأبي سنان، وغيرهم .

الوجه الثاني: أنّ المدةَ التي استثناها الله هي المدة التي بين بعثهم من قبورهم، واستقرارهم في مصيرهم .

الوجه الثالث: أنّ قوله: فيه ﴿إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾، وقد جاءت الآيات والأحاديث الصحيحة مصرّحةً بأنهم خالدون فيها أبداً، وظاهِرُها أنه خلودٌ لا انقطاع له، والظهورُ من المرجّحات، فالظاهر مقدّمٌ على المجْمَلِ كما هومقرَّرٌ في علم الأصول[(500)] .

4 . وهل تفنى النار ؟ وهل يموت أهلها ؟ وهل يخفف العذاب عن أهلها ؟

أما فناء النار، فقد بيّن سبحانه عدمه بقوله: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا *﴾ [الإسراء: 97] ومعلومُ أن ﴿كُلَّمَا﴾ تقتضي التكرارَ بتكرارِ الفعل الذي بعدها.

وأما موتهم: فقد نصَّ تعالى على عدمه بقول: ﴿لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ﴾ [فاطر: 36] وقوله: ﴿لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَا *﴾ [طه: 74] وقوله: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم: 17] .

وقد بيّن النبيُّ (ﷺ) في الحديثِ الصحيح، أنّ الموتَ يُجاءُ به يوم القيامة في صورةِ كبشٍ أملح، فيذبحُ، وإذا ذُبِحَ الموتُ حصل اليقينُ بأنّه لا موت، كما قال رسول الله (ﷺ) «يا أهلَ الجنةِ، خلودٌ فلا موتَ، ويا أهل النارِ خلودٌ فلا موتَ»[(501)].

وأما إخراجهم منها: فنصَّ تعالى على عدمه بقوله: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ *﴾ [البقرة: 167] وبقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة: 20] وبقوله: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ*﴾ [المائدة: 37] .

وأما تخفيف العذاب عنهم: فنصّ تعالى على عدمه بقوله: ﴿وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ *﴾ [فاطر: 36] وقوله ﴿فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا *﴾ [النبأ: 30] وقوله: ﴿لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ *﴾ [الزخرف: 75] وقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا *﴾ [الفرقان: 65] وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا *﴾ [الفرقان: 77] وقوله: ﴿لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ *﴾ [البقرة: 162] وقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ *﴾ [المائدة: 37] .

وهذا الخلود في حق الكفار لا في حقّ الموحدين من المسلمين من أصحاب الكبائر، ولا غرابة في خلودِ الكفار الأبدي، لأن خبثهم الطبيعيَّ دائمٌ لا يزولُ، فكان جزاؤهم دائماً لا يزولُ، والدليل على أنَّ خبثهم لا يزول قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: 23] فقوله نكرةٌ في سياق الشرط فهي ﴿خَيْرًا﴾، فلو كان فيهم خيراً ما، لعلمه الله .

وعذاب الكفار للإهانة والانتقام، لا للتطهير والتمحيص كما أشار إليه تعالى بقوله ﴿وَلاَ يُزَكِّيهِمْ﴾: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ *﴾ [آل عمران: 178] والعلم عند الله تعالى[(502)] .

ثانياً: الجنة والنار مخلوقتان وموجودتان الان:

الجنة والنار مخلوقتانِ وموجودتانِ الان لقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ *﴾ [آل عمران: 133] وفي النار ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ *﴾ [البقرة: 24] والإعدادُ التهيئة، وقد اتفق أهل السنة على هذا .

ومن الأدلة على أنهما موجودتان الان الأحاديثُ التي يذكر فيها النبيُّ (ﷺ) أنه رأى الجنة والنار، ورأى أهلهما، كحديث عبد الله بن عباس أنه قال: «خُسِفَتِ الشمسُ على عهدِ رسولِ الله (ﷺ)، فصلّى رسولُ اللهِ (ﷺ) والناس معه، فقام قياماً طويلاً ... الحديث وفيه: قالوا: يا رسول الله رأيناكَ

تناولتَ شيئاً في مقامِكَ هذا، ثم رأيناكَ تَكَعْكَعْتَ، فقال: « إنِّي رأيتُ الجنةَ، فتناولتُ منها عُنقوداً، ولو أخذتُه لأكلتم منه ما بقيتِ الدُّنيا، ورأيتُ النارَ فلم أرَ كاليوم منظراً قطُّ ، ورأيتُ أكثرَ أهلِها النساءُ »، قالوا: لمَ يا رسول الله، قال: « بكفرهنَّ »، قيل: يكفرن بالله، قال: « يكفرنَ العشيرَ، ويكفرنَ الإحسانَ، ولو أحسنتَ إلى إحداهنَّ الدهرَ، ثم رأتْ منك شيئاً قالت: ما رأيتُ مِنْكَ خيراً قط» [(503)].

وعن أنسٍ قال: قال رسول الله (ﷺ): « والذي نفسُ محمّدٍ بيده لو رأيتمُ ما رأيتُ لضحكتُم قليلاً، ولبكيتُم كثيراً » قالوا: وما رأيتَ يا رسول الله ؟ قال: « رأيت الجنّةَ والنار »[(504)] .

ثالثاً ـ مكان الجنة:

مكان الجنة فوق السماء السابعة، وتحت عرش الرحمن، أما كونها فوق السماء السابعة فدلَّ عليه القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى *عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى *﴾ [النجم: 14 ـ 15] وسدرةُ المنتهى فوق السماء السابعة، كما في حديث الإسراءِ المشهور، وفيه: « ثُمّ عرجَ إلى السماءِ السابعةِ، فاستفتحَ جبريلُ، فقيل: مَنْ هذا؟ قال: جبريلُ، قيل: ومَنْ معك ؟ قال: محمَّدٌ (ﷺ)، قيل: وقد بُعِثَ إليه ؟ قال: قد بُعِثَ إليه، فَفُتِحَ لنا، فإذا أنا بإبراهيمَ عليه

السلام مسنِداً ظهرَه إلى البيتِ المعمورِ، وإذا هو يَدْخُلُه كلَّ يومٍ سبعون ألفَ مَلَكٍ لا يعودون إليه، ثم ذُهِبَ بي إلى سدرةِ المنْتَهى، وإذا ورقُها كاذانِ الفيلةِ، وإذا ثمرُها كالقِلال، قال: فلمّا غشيها من أمرِ اللهِ ما غشّى تغيّرت، فما أحدٌ مِنْ خلقِ الله يستطيعُ أن ينعتَها مِنْ حسنِها، فأوحى الله إليَّ ما أوحى ففرضَ عليّ خمسين صلاةً ... »[(505)] فهذا الحديث يدلُّ على أنّ سِدْرة المنتهى بعدَ السماء السابعة، وبما أنَّ الجنة عندها إذن فهي فوق السماء السابعة[(506)] .

وأما كون الجنة تحت عرش الرحمن فدلَّ على ذلك من السنة، حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي (ﷺ) قال: « مَنْ امنَ باللهِ ورسولِه، وأقامَ الصلاةَ، وصامَ رمضانَ، كان حقًّا على اللهِ أن يُدْخِلَهُ الجنّةَ جاهدَ في سبيلِ اللهِ أو جلسَ في أرضِهِ التي وُلِدَ فيها » . قالوا: يا رسول الله أفلا نبشّرُ الناسَ بذلك . فقال: « إنّ في الجنةِ مئةَ درجةٍ أعدّها الله للمجاهدين في سبيله، كلُّ درجتين ما بينهما كما في السماء والأرض، فإذا سألتُمُ الله فسلوه الفردوسَ، فإنّه أوسطُ الجنةِ وأعلى الجنة وفوقَه عشرُ الرحمن، ومنه تفجّرُ أنهارُ الجنّةِ » [(507)]، فأعلى درجات الجنة هي الفردوس . كما في الحديث . وفوق عرشه الرحمن، إذن فالجنة تحت عرشه سبحانه[(508)] .

رابعاً ـ مكان النار:

قال تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ *وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ *كِتَابٌ مَرْقُومٌ *﴾ [المطففين: 7 ـ 9] .

وفي حديث البراء: « فيقول الله عزّ وجلّ اكتبوا كتابه في سجين في الأرضِ السُّفلى » سجين فعيل من السجن، وهو الضيق، كما يقال: فسّيق وشرّيب وخمّير وسكير ونحو ذلك، ولهذا أعظم الله أمره فقال: أي أمر ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ *﴾، وسجنٌ مقيم، وعذابٌ أليم، وقد فُسّر في الحديثِ بأنه في الأرض السفلى وقال بعضهم: صخرة تحت الأرض السابعة، وقيل بئر في جهنم، وقيل غير ذلك مما لا دليل عليه، ولا قول بعد قول رسول الله(ﷺ) [(509)] .

والظاهر من الآية أنّ سجينَ هو اسمُ للكتابِ، لأنه تعالى قال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ *كِتَابٌ مَرْقُومٌ *﴾ ولكن قال الحافظ ابن كثير في تفسيره لقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ *﴾ قال: ليس تفسيراً لقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ*﴾ وإنّما هو تفسيرٌ لما كُتبَ فيه من المصير إلى سجين، أي مرقوم مكتوب مفروغ منه، لا يزادُ فيه أحدٌ، ولا ينقص منه أحد . قاله محمد بن كعب القرظي[(510)] . وهكذا قال الراغب والقاسمي[(511)]، وعليه فيكون قوله تعالى: تفسير ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ *﴾ تفسير لقوله: ﴿كلا إن كتاب الفجار

لفي سِجّينٌ *﴾ أي إنّ كتابَ الفجّارِ كتابٌ مرقوم، ويكون قوله: ﴿وما أدراك ما سِجّينٍ *﴾، وهذه جملة معترضةٌ بين المفسِّر والمفسَّر، وهذه الآية ليست صريحة في مكان النار .

وقد دلّت الأحاديثُ أنّ النار يؤتى بها يومَ القيامةِ، فتكونُ في موضعٍ قبل مكان الجنة، لأنَّ الصراطَ منصوبٌ على جِسْرِ جهنم[(512)]، ودلَّ حديثُ عبد الله بن مسعود عن رسول الله (ﷺ) قال: « يُؤْتَى بجهنم يومئذٍ لها سبعونَ ألفَ زمامٍ، مع كلِّ زمامٍ سبعونَ ألفَ مَلكٍ يجرّونها »[(513)] .

خامساً: أصحاب الأعراف:

الأعراف: سور بين الجنة والنار[(514)] قال تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ *وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ *وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ *﴾ **[الأعراف: 46-48]** .

وأما أصحاب الأعراف: فهم قومُ استوت حسناتُهم وسيئاتُهم، فمنعتهم حسناتُهم من دخولِ النارِ، وقصّرت بهم سيئاتهم عن دخول الجنة، فيقفون

على السور، حتى يُقْضَى بين الناس، ثم يدخلهم الله الجنة برحمته، نقله البيهقي في كتابه (البعث والنشور) عن جمع من الصحابة والتابعين[(515)].

وقال عبد الله بنُ المبارك عن أبي بكر الهُذلي قال: قال سعيد بن جبير وهو يحدِّث عن ابنِ مسعود قال: يحاسَبُ الناسُ يومَ القيامةِ، فَمَنْ كانت حسناتُه أكثرَ من سيئاته بواحدةٍ دخل الجنّةَ، ومَنْ كانتْ سيئاتُه أكثرَ من حسناتِهِ بواحدةٍ دخلَ النار، ثم قرأ قولَ الله تعالى: ﴿رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ *فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ *وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَه *نَارٌ حَامِيَةٌ *﴾ [القارعة: 6. 11] .

ثم قال: الميزان يخفُّ بمثقال حبة ويرجحُ، قال: ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف، فوقفوا على الصراط، ثم عرفوا أهل الجنة وأهل النار، فإذا نظروا إلى أهلِ الجنّةِ نادوا وإذا صرفوا أبصارهم إلى يسارهم نظروا أهل النار تعوّذوا بالله من ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: 47].

قال: فأمّا أصحابُ الحسنات، فإنّهم يعطَوْنَ نوراً يمشون به بين أيديهم وبأيمانهم، ويعطى كلُّ عبدٍ يومئذٍ نوراً، وكل أمة نوراً، فإذا أتوا على الصراط سلبَ الله نور كلِّ منافقٍ ومنافقةٍ، فلمّا رأى أهلُ الجنةِ ما لقيَ المنافقون قالوا: ﴿رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ .

وأما أصحاب الأعراف فإنَّ النورَ كان بأيديهم فلم ينزع، فهنالك يقول الله تعالى: فكان الطمعُ ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ *﴾، فقال ابن مسعود: إنَّ العبدَ إذا عمل حسنةً كُتِبَ له بها عَشْرٌ، وإذا عملَ سيئةً لم تكتبْ إلا واحدةً، ثم يقول: هلك من غلبتْ احادُه عشراتِهِ[(516)] . وفي قوله تعالى قال ابن ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ *﴾: يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه، وأهلُ النار بسوادِ الوجوه[(517)] .

* * *

المبحث الثاني: النَّار

1 . النار: هي الدَّار التي أعدها الله في الآخرة لعذاب الكفرة والفسقة والعصاة.

أولاً . أسماء النار :

وأسماء النار التي ذكرت من القرآن ثمانيةٌ، أولها وأشهرها :

1 . النار .

وأما البقية فهي كالاتي :

2 . سعير:

قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا*﴾ **[الفرقان: 11]** وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ *﴾ **[الملك: 5]** .

3 . جهنم:

قال تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ *﴾ **[الملك: 6]**

وقال تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا *﴾ **[النبأ: 21]** .

4 . لظى:

قال تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّهَا لَظَى *نَزَّاعَةً لِلشَّوَى *تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى *وَجَمَعَ فَأَوْعَى *﴾ **[المعارج: 15 . 18]** اللظى: اللهبُ الخالص، وقال تعالى: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى *لاَ يَصْلاَهَا إِلاَّ الأَشْقَى *﴾ **[الليل: 14 . 15]** التظاءُ النارِ: التهابُها، وتلظّيها: تلهّبها، وقوله تعالى: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى *﴾ **[الليل: 14]** أي تتوهج وتتوقد[(518)] .

5 . سقر:

قال تعالى: ﴿لِلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ *﴾ **[المدثر: 26 . 30]** وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى﴾ **[القمر: 48 . 49]** والسقر: البعدُ، وسَقَرَتْهُ الشمسُ: لوّحته، والمتْ دماغَه بحرِّها، ويوم مُسقّر: شديدُ الحرِّ[(519)].

6 . الهاوية:

قال تعالى: ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ *وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَه *نَارٌ حَامِيَةٌ *﴾ **[القارعة: 9 . 11]** وسُمّيت النارُ بالهاويةِ لبعدِ قعرها، فمن سقطَ يهوي فيها، ومعنى أُمُّه هاوية: أي مستقرُّه الهاويةِ[(520)] .

7 . الحطمة:

قال تعالى: ﴿كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ *وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ *نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ *الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ *إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ *فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ *﴾ [الهمزة: 4-9] والحَطْمُ: الكَسْرُ في أيِّ وجهٍ كان، قيل: هو كَسْرُ الشيءِ اليابسِ خاصةً، كالعظم ونحوه[(521)]، وسُمّيتِ النارُ بذلك لأنَّها تحطِمُ رأسَ وعظامَ كلِّ مَنْ دخلَها[(522)] .

8 . الجحيم:

قال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ *﴾ [الدخان: 47] . قال رسول الله (ﷺ): « أتاكُم رمضانُ شهرٌ مباركٌ، فرضَ الله عزّ وجلّ عليكُم صيامَهُ، تُفْتَحُ فيه أبوابُ السماءِ، وتُغْلَقُ فيه أبوابُ الجحيمِ، وتُغَلُّ فيه مَرَدَةُ الشياطينِ، للهِ فيه ليلةٌ خيرٌ مِنْ ألفِ شهرٍ، مَنْ حُرِمَ خيرَها، فَقَدْ حُرِمَ»[(523)]. الجاحِمُ: المكانُ الشديدُ الحرِّ، وجَحَمَ النارَ أوقدها، ورأيتُ جحمةَ النارِ أي توقُّدَها، وكلُّ نارٍ عظيمةٍ في مهواة فهي جحيمٌ، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ *﴾ [الصافات: 97] وكلُّ نارٍ توقد على نارٍ جحيمٍ، وهي نارٌ جاحمةٌ[(524)]، وسمّيتِ النارُ بالجحيم لأنَّها نارٌ عظيمةٌ في مهواة، وهي نارٌ توقَدُ على نارٍ، كما قال تعالى: أي التي أوقد ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ *﴾ .

هذا وقد ذهبَ بعضُهم إلى أنّ هذه الأسماء إنّما هي أسماءٌ لأبوابِ جهنم ، قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ*﴾ [الحجر: 44] : جهنم، والسعير، ولظًى، والحطمة، وسقر، والجحيم، والهاوية، وهي أسفلهم . وقال بعضُهم: إنَّ هذه الأسماء إنّما هي لِدَرَكاتِ[(525)] النار .

والصحيحُ أنَّ هذه الأسماء للنار لا لأبوابها ولا لدركاتها، لأنّ الاثارَ التي ذكرت ضعيفةٌ، وجميعُ المفسرين عند تفسيرهم للآيات السابقة ،إنّما يذكرون أنَّ هذه الأسماء أسماءٌ للنارِ لا غير، وسياقُ الآيات يدلُّ على أنّ المرادَ هو النارُ نفسُها لا أبوابها ولا دركاتها، خُذْ مثلاً على ذلك قولَه تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا *﴾ [الفرقان: 11] . فبعيدٌ أن يكون المعنى: وأعتدنا لمن كذّب بالساعةِ باباً، وكذا قوله تعالى: ﴿كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ *﴾ [الهمزة: 4] ليس معناه لينبذَنّ في بابِ اسمه الحُطَمة، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ *نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ *﴾ [الهمزة: 5 . 6] نصٌّ في أنّ هذا اسمٌ للنارِ، وكذا قوله تعالى: ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ *وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَه *نَارٌ حَامِيَةٌ *﴾ [القارعة: 9 . 11] . وقوله: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وَجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ *﴾ [القمر: 48] .

ومعاني الأسماء تقوِّي هذا الرأي أيضاً، فالنارُ كلُّها تلتهبُ، وتستعَّرُ، وتتلظَّى، وتسقّر، وهي كلُّها سوداءُ، لا بابُها فقط، ولا جزءٌ من أجزائها، وهي هاويةٌ بعيدةُ القعرِ، ليس البابُ، ولا أظنُّ أنَّ النارَ ليس فيها إلا سبع دركاتٍ فقط، قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عمَّا يَعْمَلُونَ *﴾ [الأنعام: 132] وأهل النار ليسوا على سبعة مستويات فقط، فمنهم من يوضَعُ تحت رجله جمرةٌ من النار فيغلي دماغُه، وهو أهونُ أهلِ النار عذاباً، ثم يتدرّجُ العذابُ، حتى يصلَ إلى عذابِ المنافقين ،الذين هم في الدَّرْكِ الأسفلِ من النار[(526)] .

ثانياً: خزنة النار :

1 . عدد خزنة النار:

قال تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ *لاَ تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ *لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ *﴾ [المدثر: 27 . 30] فعددُهم تسعةَ عشرَ ملكاً، ولكنّ القرطبي قال: والصحيح . إن شاء الله . أنّ هؤلاء التسعة عشر هم الرؤساءُ والنقباءُ، وأمّا جملتُهم فالعبارةُ تعجَزُ عنها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلاَئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً وَلاَ يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ

مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَى﴾ [المدثر: 31] وقد ثبت في (الصحيح) عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله (ﷺ): «يؤتى بجهنّم يومئذٍ لها سبعونَ ألفَ زمامٍ، مع كلِّ زمامٍ سبعونَ ألفَ ملكٍ يجرُّونها »[(527)] .

2 . أسماءُ خزنةِ النار:

أمّا كبيرُ خزنة النار فهو مالك رضي الله عنه، وجاء ذكره في الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ *﴾ [الزخرف: 77] وهو خازن ﴿وَنَادَوْا يَامَالِكُ﴾، أخرج البخاريُّ[(528)] عن صفوان بن يعلى عن أبيه رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسولَ اللهِ (ﷺ) يقرأ على المنبر: « أي يقبِضُ أرواحَنا فيريحَنا ممّن نحنُ ﴿وَنَادَوْا يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾، فإنّهم كما قال تعالى: وقال ﴿يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ وجل: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى *الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى *ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَا *﴾ [الأعلى: 11 ـ 13] فلمّا سألوا أن يموتوا أجابهم مالك: قال ابن عباس: مكث ألفَ سنةٍ ثم ﴿قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ *﴾: إنّكمُ ماكثون، أي لا خروجَ لكم منها، ولا محيدَ لكم عنها .

وقد وصف الله عز وجل خزنةَ النارِ بأنّهم وهم الذين يتولَّوْن تعذيبَ الكفار والعصاة في ﴿الزَّبَانِيَةَ *﴾، كما قال سبحانه: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ *سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ*﴾ [العلق: 17 . 18] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال أبو جهل: هل يعفّرُ محمَّدٌ وجهه بين أظهركم، قال فقيل: نعم، فقال: واللاتِ والعُزَّى لئن رأيتُه يفعلُ ذلك لأطأنَّ على رقبتِهِ، أو لأعفّرَنَّ وجهَهُ في الترابِ، قال: فأتى رسولَ اللهِ (ﷺ) وهو يصلِّي زعمَ ليطأَ على رقبتِهِ، قال: فما فَجِئهُم منه إلاّ وهو ينكُصُ على عقبيه، ويتّقي بيديه، قال: فقيل له: مالكَ؟ فقال: إنَّ بيني وبينه لخندقاً من نارٍ وهولاً وأجنحةً، فقال رسولُ اللهِ (ﷺ): « لو دنا منِّي لاختطفتهُ الملائكةُ عُضْواً عُضْواً » قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى *أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى *إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى *أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى *عَبْدًا إِذَا صَلَّى *أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى *أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى *أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى *أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى *كَلاَّ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ *نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ *فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ *سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ *كَلاَّ لاَ تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ *﴾ [العلق: 6 . 19][(529)] .

3 . صفاتهم:

وحديثُنا هنا عن صفاتهم الزائدةُ عن الصفات العامة المشتركة للملائكة، وقد ذكر الله تعالى من صفاتهم صفتين، وهاتان الصفتان شاملتان لجميع

الصفات، وهما: الغِلْظةُ والشِّدَّةُ، فهي فيهم[(530)]، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلاَئِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ *﴾ [التحريم: 6] .

وقد ذكر الله تعالى جلّ جلاله بعضَ المواقف التي تبيّن شيئاً من غلظتهم مع أصحاب النار في ثلاثة مواطن :

الموطن الأول: عند فتح أبواب جهنم لإدخالهم فيها، قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ *قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ *﴾ [الزمر: 71 . 72] .

الموطن الثاني: عند دخولهم النار، قال تعالى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ كَبِيرٍ *وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ *فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ *﴾ [الملك: 8-11] .

الموطن الثالث: عند سؤال أهل النار خزنة جهنم أن يشفعوا لهم عند الله في تخفيف العذاب، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ *قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ *﴾ [غافر: 49. 50] .

ثالثاً: صفة النار:

1. أبواب النار:

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ *لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ *﴾ [الحجر: 43. 44] .

وعندما يردُ الكفّار النارَ تفتّح الأبوابُ، ثم يدخلونها خالدين، قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى﴾ [الزمر: 71]، وبعد هذا الإقرار يقال لهم ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ *﴾ [الزمر: 72] .

وهذه الأبواب تغلقُ على المجرمين، فلا مطمَعَ لهم في الخروج منها بعد ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ *عَلَيْهِمْ نَارٌ

مُؤْصَدَةٌ *﴾ [البلد: 19 . 20][(531)] ومؤصدة: مغلقة الأبواب[(532)]، فأبوابُ النار مؤصدةٌ مغلَقةٌ، وأسوارُها ذاتُ عمدٍ ممدودةٍ طويلةٍ، لا يمكِنُ تخطّيها، ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُؤْصَدَةٌ *فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ *﴾ [الهمزة: 8 . 9][(533)].

2 . دركات النار:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: 145]

والدَّرْك: هو أقصى قَعْرُ الشيء[(534)]، وقال الراغب: (الدرك) كالدرج، لكن الدرج يقال اعتباراً بالصعود، والدرك اعتباراً بالحدور، ولهذا قيل: درجاتُ الجنةِ ودركاتُ النار[(535)]، وقد يطلَقُ على منازِل النار درجاتٍ، كقوله تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ *﴾ [آل عمران: 163] .

وفي سورة الأنعام ذكر الله أهل الجنة والنار ثم قال: وقال سبحانه: ﴿كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ *﴾ [آل عمران: 162 . 163] .

وتتفاوتُ دركاتُ أهل النار بحسب أعمالهم وسيئاتهم، وقد بيّنا أنَّ الله عز وجل ذكر أنَّ المنافقين في الدرك الأسفل من النار، وكونهم في الدرك الأسفل يستلزِمُ أنّهم في أشدِّ العذاب، وليست هذه الدركةُ مختصةً بالمنافقين فقط بل معهم غيرهم، فقد ذكر الله تعالى لنا ثلاثة أصنافٍ من الناس أنّهم في أشدِّ العذاب[(536)] .

الصنف الأول: فرعون وقومه، قال تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ *﴾ [غافر: 46] .

الصنف الثاني: اليهودُ الذين امنوا ببعض الكتاب، وكفروا ببعضه، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاَءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ *﴾ [البقرة: 85] .

الصنف الثالث: الذين كفروا من أصحاب المائدة، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ *قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ *قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ *﴾ [المائدة: 112 . 115] .

وأمّا أهونُ أهل النار عذاباً فهو رجلٌ ينتعِلُ بنعلين يغلي منهما دماغه، فعن أبي سعيد الخدري أنَّ رسول الله (ﷺ) قال: « إنَّ أدنى أهلِ النارِ عذاباً ينتعلُ بنعلينِ من نارٍ، يغلي دماغهُ من حرارةِ نعليه »[(537)] .

3 . وَقودُ النار:

وَقودُ النار، البشر والحجر، قال تعال: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ *﴾ [البقرة: 24] . وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ *﴾ [آل عمران: 10] وقال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ *﴾ [الأنبياء: 98] وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلاَئِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ *﴾ [التحريم: 6] .

4 . شدّةُ حرِّها وعظِمُ دخانها وشرارها:

قال تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ *فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ *وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ *لاَ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ *﴾ [الواقعة: 41 . 44] وقد تضمّنتْ هذه الآية ذكر ما يتبرّد به الناسُ في الدنيا في الكرب والحر، وهو ثلاثة: الماء، والهواء، والظل، وذكرت الآية أنَّ هذه لا تغني عن أهل النار شيئاً، فهواء جهنم

السَّموم، وهو الريحُ الحارّةُ الشديدةُ الحر، وماؤها الحميمُ، الذي قد اشتدّ حرَّه، وظلّها اليحموم، وهو قِطعُ دخانها[(538)] . والظلُّ الذي أشارت إليه الآية ﴿وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ *﴾ [الواقعة: 43] هو ظلُّ دخانِ النارِ، والظلُّ يُشْعِرُ عادةً بالنداوةِ والبرودةِ، كما أنَّ النفسَ تحبُّه وتستريحُ إليه، أمّا هذا الظلُّ فإنّه ليس باردَ المدخلِ ولا بكريمِ المنظر، إنّه ظلٌّ من يحموم .

وقد حدّثنا القرآن في هذا الظل الذي هو دخان جهنم الذي يعلو النار، فقال: ﴿انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلاَثِ شُعَبٍ *لاَ ظَلِيلٍ وَلاَ يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ *إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ *كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ *﴾ [المرسلات: 30 . 33] فالآية تقرّرُ أنَّ الدخانَ الذي يتصاعدُ من هذه النار لفخامته ينقسِمُ إلى ثلاثةِ أقسامٍ: وهو يلقي ظلالاً ولكنّها غيرُ ظليلةٍ، ولا تقي من اللهب المشتعل . أما شرارُ هذه النار المتطاير منها فإنّه يشبه الحصونَ الضخمةَ، كما يشبه هذا الشرارُ الجمالَ الصفر، أي الإبلَ السود .

وقال الحقُّ مبيناً قوّة هذه النار، ومدى تأثيرها في المعذبين: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ *لاَ تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ *لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ *عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ *﴾ [المدثر: 27-30] إنّها تأكل كلَّ شيءٍ، وتدمِّرُ كلَّ شيءٍ، لا تبقي ولا تذر، تحرقُ الجلودَ، وتصلُ إلى العظامِ، وتصهرُ ما في البطون، وتطّلع على الأفئدة .

وقد أخبرنا الرسول (ﷺ): « أنّ نارنا جزءٌ من سبعينَ جزءاً من نار جهنم » قيل: يا رسول الله إنْ كانت لكافيةٌ، قال: « فُضِّلَتْ عليها بتسعينَ جزءاً، كلهنَّ مثلُ حَرِّها »[(539)] .

وعندما تسقبِلُ النارُ أهلَها يوم القيامة تسعّر، قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ *﴾ [التكوير: 12] ومعنى سُعِّرت: أُوقدت، وأحميت[(540)] .

5 . النار تتكلّم وتبصر وتغضب:

الذي يقرأُ النصوصَ من الكتاب والسنة التي تصفُ نار جهنم يجدُها مخلوقاً يتكلّم ويبصر ويغضبُ :

أمّا كلامها فيقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ *﴾ [ق: 30] .

وأما رؤيتُها للناسِ، فيقول تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سعيرا * اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا﴾ [الفرقان: 11 -12] فقوله: ﴿رَأَتْهُمْ﴾ يدل على أنها تبصِرُ، وقوله: ﴿سَمِعُوا لَهَا﴾ يدلُّ على أنها تتكلم.

وأما غضبها فيقول سبحانه: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ *تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ *﴾ [الملك: 7 . 8] وقال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا

وَزَفِيرًا*﴾ [الفرقان: 12] فهي تشهقُ وتزفُرُ من غيظها على الكافرين، بل تكادُ تتميّزُ . أي تتقطع[(541)] . من شدّةِ عضبها عليهم .

6 . وديان النار:

سمّى الله تعالى بعضَ أسماءِ هذه الأودية، وهي التالية :

أ . وداي الويل: قال تعالى: ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ *﴾ [الأنبياء: 18] وقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ *الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ *يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ*﴾ [الهمزة: 1 . 3] وعن أبي سعيد عن رسول الله (ﷺ) أنه قال: «ويلٌ وادٍ في جهنَّم يهوي فيه الكافِرُ أربعينَ خريفاً قبل أن يبلغَ قعرَهُ، والصَّعُوْدُ جبلٌ من نارٍ يُصْعَدُ فيه سبعينَ خريفاً ،ثم يهوي فيه كذلك منه أبداً» [(542)].

ب . وادي الغي: قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا *﴾ [مريم: 59] قال ابن مسعود رضي الله عنه في تفسيره قوله: هو وادٍ في جهنم يُقْذَفُ فيه الذين اتبعوا الشهوات.

وقال البراء بن عازب رضي الله عنه: (الغي) وادٍ في جهنم بعيدُ القعرِ، منتنُ الريح[(543)]، وهذا لا يقالُ من قبل الرأي، فله حكم الرفع[(544)] .

ج ـ وادي الموْبق: قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا *﴾ [الكهف: 52] قال أنس بن مالك في قوله تعالى: وادٍ من قَيْحٍ ودَمٍ.

7. جبال النار:

قال تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا *﴾ [المدثر: 17] قال ابن عباس في تفسير هذه الآية: جبلٌ في جهنم[(548)] .

8. سرادق النار:

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا*﴾ [الكهف: 29] السرادِقُ: كلُّ ما أحاطَ بشيءٍ من حائطٍ أو مضربٍ أو خباءٍ[(549)] . وقال رسولُ اللهِ (ﷺ): « لسرادقِ النارِ أربعُ جُدُرٍ كُثُفٍ، كلُّ جدارٍ مثل مسيرة أربعينَ سنة »[(550)]، وهذا السورُ له أعمدةٌ ممدودةٌ طويلةٌ كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ *فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ*﴾ [الهمزة: 8 ـ 9] .

9 . سعةُ النارِ، وبُعد قعرها، وعظم عمقها:

وتدلُّ على ذلك أمورٌ كثيرة منها:

أ . أنّ مِنْ أسماءِ النارِ الهاويةُ: أي يُهوَى بها لبُعْدِ قعرِها ،عن أبي هريرةَ قال: كُنّا مع رسولِ اللهِ (ﷺ) إذ سمعَ وجبةً، فقال النبيُّ (ﷺ): « تدرونَ ما هذا؟» قال: قلنا: الله ورسولُه أعلم . قال: « هذا حَجَرٌ رُمِيَ به في النَّارِ منذُ سبعينَ خريفاً، فهو يهوي في النارِ الانَ حتّى انتهى إلى قعرها»[(551)].

ب . أنّ الكافرَ يكبُرُ حجمُه في النارِ: قال رسول الله (ﷺ): « ضِرْسُ الكافرِ أو نابُ الكافرِ مثلُ أحُدٍ، وغِلَظُ جلدِهِ مسيرةُ ثلاثٍ »[(552)] .

والذين يدخلونَ النارَ أعدادٌ لا تُحصى، ومع العدد الهائلِ من الناس وبهذا الحج الكبير للكفار فإنّها لا تمتلىء، بل تطلبُ المزيد، قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ *﴾ **[ق: 30]** .

ج . ويدلُّ على عظمها أيضاً كثرةُ الذين يجرونها من الملائكة: فقد فسّر النبيُّ(ﷺ) قوله تعالى: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى *﴾ **[الفجر: 23]** بأنّ الذين يجيئون بها ملائكةٌ، قال رسول الله: «يؤتَى بجهنم يومئذٍ لها سبعون ألف زمامٍ مع كلِّ زمامٍ سبعونَ ألفَ مَلَكٍ يجرّونها» [(553)] .

10 . وصف عذاب النار:

إنّ الذي يتأمل ويتدبّر في القرآن الكريم يجدُ في آيات كثيرة أنَّ الله سبحانه وتعالى قد وصفَ عذابَ الحياةِ الآخرة، بأوصافٍ كثيرةٍ متنوّعةٍ، مما يدلُّ على عظمة عذابها وشدته، فمن هذه الأوصاف :

أ . أنّه أشقُّ وأشدُّ: قال تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخرة أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ *﴾ [الرعد: 34] . وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخرة أَشَدُّ وَأَبْقَى *﴾ [طه: 127] .

ب . غرام: قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا *﴾ [الفرقان: 65] والغرامُ: اللازمُ الدائمُ، ومنه سمِّيَ الغريمُ لملازمته، ويقال: فلانٌ مغرمٌ بكذا، أي: ملازمٌ له ومولَعُ به، هذا معناه في كلام العرب، كما ذكره ابن الأعرابي وابن عرفة وغيرهما، ومنه قول الأعشى :

إنْ يعاقِبْ يكنْ غراماً وإنْ يُعْـ ـطِ جَزِيلاً فإنّهُ لا يُبَالِي[(554)]

ج . العذاب المهين: قال تعالى: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ *﴾ [البقرة: 90] وقوله تعالى: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ *﴾ لما كان كفرُهم سببَه البغي ، منشأ ذلك التكبر، قوبلوا

بالإهانة والصَّغارِ في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾ [غافر: 60] . أي صاغرينَ حقيرينَ ذليلينَ راغمينَ[(555)] .

د . العذاب الأخزى: ومن أوصافِ عذاب الآخرة أنّه عذاب أخزى، قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخرة أَخْزَى وَهُمْ لاَ يُنْصَرُونَ *﴾ [فصلت: 16] وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ [آل عمران: 192] .

هـ العذاب العظيم: قال تعالى: ﴿وَلاَ يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الآخرة وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ*﴾ [آل عمران: 176] .

و . العذاب السيء: ومن أوصاف عذاب الآخرة أنه العذاب السيء، الشديد النكاية، قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ *﴾ [الزمر: 24] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ *﴾ [الزمر: 47] .

ز . العذاب الأكبر: قال تعالى: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ *فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخرة أَكْبَرُ لَوْ

كَانُوا يَعْلَمُونَ *﴾ [الزمر: 25 . 26] وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخرة أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ *﴾ [القلم: 33] وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ *لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ *إِلاَّ مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ *فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ*﴾ [الغاشية: 21 . 24] [(556)].

11 . كيفية دخول أهل النار إلى جهنم:

فصّل الله تعالى كيفيةَ دخول أهل النار إلى جهنم، وبيّن ذلك في كثير من الآيات، فقد أمر الله تعالى الملائكةَ أن تقيّدَ وتغلَّ الكافر، قال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ *﴾ [الحاقة: 30] الغُلُّ: هو ما يُقَيَّدُ به[(557)]، وهذا القيدُ يكون في عنقه كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ*﴾ [الرعد: 5] وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا الأَغْلاَلَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *﴾ [سبأ: 33] . وهذه الأغلالُ عبارةٌ عن سلاسل من الحديد، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ *إِذِ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاَسِلُ يُسْحَبُونَ *فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ *﴾ [غافر: 70 . 72] ثم تجمعُ الملائكة نواصيهم مع أقدامهم: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ *﴾ [الرحمن: 41] عن ابن عباس رضي الله عنه قال:

«يُجْمَعُ بينَ رأسِهِ ورجليه، ثم يُقْصَفُ كما يُقْصَفُ الحطبُ» [(558)] . ثم يساقون إلى النار سوقاً شديداً، ويدفعون إليها دفعاً ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا *هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ*﴾ [الطور: 13 . 14] والدعُّ: الدفع الشديد .

ثم إذا اقتربوا منها فُتِحَت أبوابُها في وجوههم بغتةً حتّى يصيبَهم عذابُ الفزع، قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ *﴾ [الزمر: 71] ثم يُلْقَون فيها إلقاء من مكان ضيق، وهم مكتّفون، قال تعالى: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا*﴾ [الفرقان: 13] مقرنين أي مشدودين ومربوطين[(559)] .

وهذا الربط بالأصفاد هي الأغلال ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ *﴾ [إبراهيم: 49] وهذا الإلقاءُ إنّما يكونُ على وجوههم، قال تعالى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ*﴾ [النمل: 90] [(560)] ثم يُلْقَى بعضُهم على بعضٍ، قال تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ *وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ *﴾ [الشعراء: 94 . 95]

كُبكبوا: أُلقي بعضُهم على بعضٍ[(561)] . ثم تبدأُ بعد ذلك سلسلةٌ طويلٌ من أنواع العذاب وأصناف النكال وألوان الالام[(562)] .

12 . أوّل من تسعّر بهم النار يوم القيامة:

قال رسول الله (ﷺ): «إنَّ أوّلَ الناسِ يُقْضَى يومَ القيامة عليه، رجلٌ اسْتُشْهِدَ فأُتِي به، فعرّفه نعمه فعرفَها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيكَ حتى استشهدتُ، قال: كذبتَ، ولكنّك قاتلتَ لأنْ يقالَ جريءٌ، فقد قيل، ثم أُمِرَ به فسُحِبَ على وجهه حتّى أُلْقِيَ في النَّارِ .

ورجلٌ تعلّمَ العِلْمَ وعلَّمه، وقرأَ القرآن، فأُتِيَ به، فعرّفه نعمه فعرَفها، قال: فما عملتَ؟ قال: تعلّمتُ العلمَ وعلّمتهُ، وقرأتُ فيكَ القرآن، قال: كذبتَ، ولكنّكَ تعلّمتَ العلم ليُقالَ عالمٌ، وقرأتَ القرآن ليُقالَ قارئٌ، فقد قيل، ثم أُمِرَ به فسُحِبَ على وجهه، حتى أُلقِيَ في النَّارِ .

ورجلٌ وسَّعَ اللهُ عليهِ، وأعطاهُ مِنْ أصنافِ المالِ كله، فأُتِي به فعرّفه نعمهَ فَعَرَفَهَا، قال: فما عملتَ فيها ؟ قال: ما تركتُ مِنْ سبيلٍ تحبُ أن يُنْفَقَ فيها إلاّ أنفقتُ فيها لكَ، قال: كذبتَ، ولكنّكَ فعلتَ ليُقالَ هو جَوَادٌ، فقد قيل، ثم أُمِرَ به فَسُحِبَ على وجهِهِ، ثم أُلْقِيَ في النَّارِ »[(563)] .

ثالثاً ـ ما أعدّ الله لأهلِ النّارِ من عذابِ:

1 ـ شدة العذاب:

ومن شدّة عذابها أنَّ نفخةً واحدةً منها تكفي بأَن يقرّوا بكلّ شيءٍ، قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُن ياوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ*﴾ [الأنبياء: 46] وقال تعالى: ﴿كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ *وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ *نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ *الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ *إِنَّهَا عَلَيْهِم مُؤْصَدَةٌ *فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ *﴾ [الهمزة: 4 ـ 9] وقد اشتملت هذه السورةُ ـ مع قصرها ـ على سبعِ أمورٍ تدلُّ على عظيمِ عذابِ نار جهنم، وشدته، وهي كما يلي :

أ ـ قوله: والنبذُ يُستخدَمُ ﴿لَيُنبَذَنَّ﴾، والمهانة، والذلّ، ويقال: فلانٌ منبوذٌ، أي مهانٌ محتَقر، لا نصير له، ولا معُزّ، فهم إضافةً لعذابهم البدني بالنار، فإنّهم يعذّبون عذاباً نفسياً بالمهانة والتحقير .

ب ـ قوله: تسميةُ النار بالحُطَمَةِ تعظيمٌ ﴿الْحُطَمَةِ *﴾، لأنّها تَحْطِمُ عظامَ ورؤوسَ مَنْ دخلها .

ج ـ قوله: هذا الأسلوبُ أسلوبُ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ *﴾، كقوله تعالى: ﴿الْحَآقَّةُ *مَا الْحَآقَّةُ *وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَآقَّةُ *﴾ [الحاقة: 1 ـ 3] وقوله: ﴿الْقَارِعَةُ *مَا الْقَارِعَةُ *وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ *﴾ [القارعة: 1 ـ 3] .

د ـ قوله تعالى: ﴿نَارُ اللَّهِ *﴾ الله تعالى النار إلى نفسه سبحانه، وهذه إضافةُ تعظيمٍ، كقوله تعالى: « بَيْتُ الله » و« نَاقَةُ اللهِ » .

هـ وقوله تعالى: على وزن ﴿الْمُوقَدَةُ *﴾، وهذه الصيغةُ من صيغ اسم المفعول[(564)]، ومن المعلوم أنّ هذه الصيغة تدلُّ على من وقع عليه الفعل، فهي إذن نار، ويوقد عليها، والإيقاد إنّما يكون بالنار، وهذا من الغرائب، كيف يوقد على النار، وهي التي يوقد بها لا عليها، ولكنّ نار جهنم من شدّة نارها وحرارتها يوقَدُ عليها حتّى لا تخبوَ وتضعفَ، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً *﴾ [الإسراء: 97] .

و ـ: من شدة حرارة جهنم أنها ﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ *﴾ تحرِقُ الأبشار والجلودَ فقط، بل يصلُ حَرْقُها ونارُها وحرارتُها إلى القلبِ والفؤادِ .

ز ـ من شدّة عذابها أنها مُحْكَمةٌ ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ *فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ *﴾، موصَدةُ الأبوابِ، ممدّدةُ الأعمدةِ والأسوارِ، لا منجا منه ولا مهرب ولا مفر[(565)] .

2 ـ إحاطة النار بأهلها:

قال تعالى: ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ *جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ *﴾ [ص: 55 ـ 56] وقال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ﴾ [الأعراف: 41] المهاد: المكان الممهد، الموطأ[(566)]، وهو الفراش، وهذا يكونُ من تحتهم،

ومهادُهم من جهنم، وغواش: جمع غاشية أي: نيران تغشاهم[(567)]، وقال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلاَ عَنْ ظُهُورِهِمْ ولاَ هُمْ يُنْصَرُونَ *﴾ [الأنبياء: 39] وقال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ *يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ *﴾ [العنكبوت: 54 . 55] وقال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَاعِبَادِ فَاتَّقُونِ *﴾ [الزمر: 16] الظل: جمع ظلة، والظلة سحابة تظلُّ، كغرفة وغرف، كقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ [الأعراف: 171] وقوله: ﴿عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ [الشعراء: 189] وهذه الظُّلَلُ من نارٍ[(568)] .

3 . قيودُ أهل النار وأغلالُهم وسلاسلُهم ومطارِقُهم:

أعد الله تعالى لأهل النار أغلالاً وسلاسلَ وقيوداً ومطارقَ، وأوثق بها أهل الكفر وثاقاً لا يمكن لأحدٍ من العالمين أن يوثِقَه، قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ *وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ *﴾ [الفجر: 25 . 26] .

والأغلال: جمع غل، وهو ما يقيّد به، فتجعل الأعضاء وسطه[(569)]، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ

تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلاَلَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *﴾ [سبأ: 33] .

والأصفاد: جمع صفد وهو الغل، والأصفاد هي الأغلال . قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ *﴾ [إبراهيم: 49] .

والسلاسلُ: معروفةٌ، هي القيودُ من حديدٍ . قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ *الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ *﴾ [غافر: 69 . 74] وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاَسِلَ وَأَغْلاَلاً وَسَعِيرًا *﴾ [الإنسان: 4] وطول هذه السلسلة سبعون ذراعاً، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ *ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ *﴾ [الحاقة: 31 . 32] وطولُ السلسلةِ لا يُستغرَبُ، ولا يشكلُ، لأنَّ الكافرَ يكبرُ حجمهُ في النار، حتّى يكون ضِرْسُه كجبل أُحد[(570)] .

والمقامع هي المطارق، ومقامِعُ أهل النار من مادة الحديد حتى يكونَ وقعُها أشدُّ، قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ *كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ *﴾ [الحج: 21 . 22] أي كلّما أرادَ أحدُهم الخروجَ من النار ضُرِبَ بالمقمعِ، فيهوي مرّةً أخرى في النار[(571)].

4 . قرن أهل النار بمعبوداتهم وشياطينهم:

قال تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ *مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ *﴾ [الصافات: 22 . 23] وقال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ *لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ *﴾ [الأنبياء: 98 . 99] لما عبد الكفار الالهة من دون الله، واعتقدوا أنّها تشفعُ لهم عند الله، وتقرّبهم إليه، عوقبوا بأنْ جُعِلَتْ معهم في النار، إهانةً لهم وإذلالاً، ونكايةً لهم، وإبلاغاً في حسرتهم وندامتهم، فإنَّ الإنسانَ إذا قُرِنَ في العذاب بمن كان سبب عذابه كان أشدّ في ألمه وحسرته[(572)]، ومن أجل ذلك يُقْذَفُ يومَ القيامة بالشمس والقمر في النار، ليكونا ممّا توقد به النار، تبكيتاً للظالمين الذين يعبدونهما من دون الله ففي الحديث: « الشمسُ والقمرُ يكوّران يوم القيامة »[(573)] .

ولهذا المعنى يقرن الكفار بشياطينهم ليكونَ أشدَّ لعذابهم، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَانِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ *وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ *حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَالَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ *وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ *﴾ [الزخرف: 36 . 39] .

5 . سجون أهلِ النار:

قال تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ *وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ *﴾ [المطففين: 7 . 8] سجّين فعيل من السجن، وهو الضيق، كما يقال: فسيح وشريب وخمير وسكير ونحو ذلك، ولهذا أعظم الله أمره فقال: أي أمرٌ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ *﴾، وسجنٌ مقيم، وعذابٌ أليم[(574)] .

وقال رسول الله (ﷺ): «يُحْشَرُ المتكبّرون يوم القيامة أمثالَ الذَّرِّ في صورِ الرجالِ، يَغْشَاهُمُ الذّلُّ من كلِّ مكانٍ، فيُساقونَ إلى سجنٍ في جهنم يسمّى بُوْلَس، تعلوهم نارُ الأنيار، يُسْقَوْن من عُصارة أهلِ النارِ، طينةِ الخبال » [(575)] .

6 . طعام أهل النار:

ذكر الله تعالى في اياتٍ كثيرة أنواعاً من طعامهم، وهي كما يلي :

أ ـ النار: قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ *﴾ [البقرة: 174] أي إنّما يأكلون ما يأكلونه في مقابلة كتمان الحق ناراً تأجّجُ في بطونهم يومَ القيامة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا *﴾

[النساء: 10] وقال رسول الله (ﷺ): «الذي يَشْرَبُ في إناءِ الفِضَّةِ، إنّما يُجَرْجِرُ في بَطْنِهِ نارَ جَهَنَّمَ»[(576)] .

ب ـ الزقوم: من أشجار النار الزقوم، وهي شجرةٌ لا نفعَ فيها، فهي لا ظلَّ لها ينعمون به، ومنظرُها بشعٌ، فطلعُها كأنّه رؤوسُ الشياطين، وما الظنُّ بشجرةٍ تنبتُ في أصلِ الجحيم، وإنّما القصدُ من وضع هذه الشجرة هو تعذيبهم بها، فيأكلون من ثمرها، ظناً منهم أنّه ينفعهم، فما يزيدُهم إلاّ عذاباً، فإذا أكلوا بدأ يغلي في بطونهم، فيفزعون يبحثون عن الماء ليطفىءَ الغليان الذي في بطونهم، فيشربونَ من ماءِ الحميمِ يكرعون منه كرعاً، فيقطّعُ أمعاءَهم، ويتضاعفُ العذاب عليهم[(577)]، قال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ *طَعَامُ الأَثِيمِ *كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ *كَغَلْيِ الْحَمِيمِ *خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ *ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ *ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ*﴾ [الدخان: 43 ـ 49] .

ج ـ المهل: قيل: هو عكر الزيت[(578)]، وقيل: النُّحاس المذاب [(579)]. فيبدأ يغلي في بطنه كما يغلي الحميمُ وهو الماءُ الحار، قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّآلُّونَ الْمُكَذِّبُونَ *لآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ *فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ *فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ *فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ *هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ *﴾ [الواقعة: 51 ـ 56] . فقوله ﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ *﴾ أي: على الزقومِ

ليطفأ ، و﴿الْهِيمِ *﴾: هي الإبلُ العطاش، واحدها أهيم والأنثى هيماء، ويقال هائم وهائمة، والهِيمُ: داءٌ يأخذُ الإبلَ، فلا تروى أبداً حتى تموت، فكذلك أهلُ جهنم لا يروون من الحميم أبداً [(580)]، وقال تعالى: ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ *إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ *إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ *طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ *فَإِنَّهُمْ لآَكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ *ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ *ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الْجَحِيمِ *﴾ [الصافات: 62 ـ 68] . فبعد شربهم من الحميم يرجعون مرة أخرى إلى النار، فهذا حالُهم من شجر الزقوم مرةً أُخرى، وهكذا كأنهم في طواف، قال تعالى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ *يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ *﴾ [الرحمن: 43 ـ 44] والحميم الان: هو الماءُ الذي بلغ أقصى حرارته[(581)] .

د ـ الغسلين: قال تعالى: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ *وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ *لاَ يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِئُونَ *﴾ [الحاقة: 35 ـ 37] الغسلين: غُسالةُ أبدانِ الكفّار في النار[(582)]، وهو الدمُ والماءُ الذي يسيلُ من لحومهم[(583)].

هـ الضريع: قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ *لاَ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِنْ جُوعٍ *﴾ [الغاشية: 6 ـ 7] الضريعُ: نباتٌ في الحجازِ له شوكٌ كبار، يقال له: الشرِق، فإذا يبسَ قيل له: الضريع .

و . طعام ذو غصة: قال تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَجَحِيمًا *وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا *﴾ [المزمل: 12 . 13] قال ابن عباس في قوله ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ قال: شوكٌ يأخذُ ، لا يدخلُ ولا يخرجُ[(584)] .

7 . شرابهم:

أ . **الحميم**: وهو الماءُ المغليُّ شديد الحرارة[(585)]، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ *﴾ [الأنعام: 70] وقال تعالى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ *يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ *﴾ [الرحمن: 43 . 44] أي: بلغ وقته من شدة الحر، ومنه قوله تعالى: ﴿تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ *﴾ [الغاشية: 5] قال تعالى: ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ *وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ *لاَ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ *﴾ [الواقعة: 42 . 44] قوله ﴿سَمُومٍ وَحَمِيمٍ *﴾ أي: هواء ، وماء حار، وقال تعالى: ﴿لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلاَ شَرَابًا *إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا *﴾ [النبأ: 24 . 25] وهذه الحميم إذا شربوه قطّع أمعاءَهم، كما قال سبحانه ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ *﴾ [محمد: 15] وإذا لم يشربوه صُبَّ فوق رؤوسهم، فتنصهِرُ جلودهم وما في بطونهم، قال تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ﴾ [الحج: 19–20] وقال رسول الله (ﷺ): «إنَّ الحميمَ لَيُصَبُّ على رؤوسهم،

فينفذُ الحَمِيْمُ حتّى يخلصَ إلى جوفه، فَيَسْلتُ ما في جوفِهِ حتّى يمرقَ من قدميه، وهو الصَّهرُ، ثم يعادُ كما كان»[(586)] .

ب . ماء الصديد: قال تعالى: ﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ *يَتَجَرَّعُهُ وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ *﴾ **[إبراهيم: 16 . 17]** الصديد: هو القيح والدم[(587)] .

ولا يزالُ هذا الصديدُ يكثُرُ خروجُه من أهل النار، حتّى يصبحَ نهراً يسمّى نهر الخبالِ .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله (ﷺ): « مَنْ شَرِبَ الخمرَ لم تقْبَلْ له صلاةٌ أربعين صباحاً، فإنْ تابَ تابَ اللهُ عليه، فإنْ عادَ لم تُقْبَلْ له صلاةٌ أربعينَ صباحاً، فإنْ تابَ تابَ اللهُ عليه، فإنْ عادَ لم تُقْبَلْ له صلاةٌ أربعينَ صباحاً، فإنْ تابَ تابَ اللهُ عليه، فإنْ عادَ الرابعةَ لم تُقْبَلْ له صلاةٌ أربعينَ صباحاً، فإنْ تابَ لم يَتُبِ اللهُ عليه، وغضبُ الله عليه، وسَقَاهُ من نَهْرِ الخبال »، قيل: يا أبا عبد الرحمن، وما نهرُ الخبال؟ قال: «نهرٌ من صديدِ أهلِ النّارِ»[(588)] .

ج . **ماء كالمُهل**: قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: 29] المهْلُ: دَرْدِيُّ الزيتِ، وهو ما يبقى في أسفله[(589)]، فهو ماءٌ ثقيل، يختلِفُ عن الحميم .

د . **الغسّاق**: قال تعالى: ﴿لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلاَ شَرَابًا *إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا*﴾ [النبأ: 24 . 25] وقال تعالى: ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ *وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ *﴾ [ص: 57 . 58] أمّا الحميمُ فهو الحارُّ الذي قد انتهى حرُّه، وأما الغَسّاقُ فهو ضِدّهُ، وهو البارِدُ الذي لا يُسْتَطاعُ من شدّةِ برده المؤلم، ولهذا قال عز وجل: أي: وأشياء من هذا ﴿وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ*﴾: الشيءُ وضِدُّه يعاقبون بها[(590)] .

وعن مجاهد قال: الغَسّاقُ الذي لا يستطيعون أن يذوقوه من شدّة برده[(591)]. وعن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلاَ شَرَابًا *إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا *﴾ [النبأ: 24 . 25] قال: استثنى من الشراب: الحميمَ، ومن البارِدِ: الغسّاق[(592)] .

8 . لباس أهل النار:

بعد أن يُحْشَرَ الناسُ حفاةً عُراةً يُلْبَسُون لباساً، وهذا اللباسُ ليسَ لسترِ العورةِ، ولا للزينةِ، لأنّه لباسٌ مقطَّعٌ ممزّقٌ، بل لباسٌ لزيادةِ العذابِ، فهو لباسٌ من

نارٍ، قال تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ *يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ*﴾ [الحج: 19 . 20] قوله: ﴿قُطِّعَتْ﴾ يعني ليست مفصّلة على ، بل هي مقطّعةٌ ممزّقةٌ، وكان إبراهيمُ التَّيْميُّ إذا قرأ هذه الآية يقول: سبحانَ من قطّع من النيران ثياباً[(593)]، وقال تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ *﴾ [إبراهيم: 50] السرابيل: جمعُ سربال، والسربالُ هو القميصُ أو الدّرعُ، وقيل: كلُّ ما لُبِسَ فهو سربال[(594)] . القطران: النُّحاس المذاب[(595)]، فلباسُهم من نُحاسٍ مذابٍ، والنُّحاسُ لا يكون مذاباً حتى يحمَى عليه، ويكون في الغايةِ من الحرارة والغليان .

وعن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله (ﷺ) قال: « أربعٌ في أُمَّتي من أمرِ الجاهليةِ لا يتركونهنَّ: الفَخْرُ في الأحسابِ، والطعنُ في الأنسابِ، والاستسقاءُ بالنجومِ، والنياحةُ، وقال: النائحةُ إذا لم تتبْ قبل موتها تقامُ يومَ القيامة، وعليها سِرْبالٌ من قَطِرَانٍ، ودِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ »[(596)] .

9 . صور من عذابهم:

أ . **إنضاجُ الجلودِ**: إنّ نيرانَ الجبارِ تحرقُ جلودَ أهل النار، والجلدُ موضعُ الإحساسِ بألمِ الاحتراقِ، ولذلك فإنّ الله يبدّلُ لهم جلوداً أخرى غيرَ تلك التي

احترقتْ لتَحْترِقَ من جديدٍ[(597)] . قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ﴾ [النساء: 56] وقال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا *﴾ [الكهف: 29] .

ب ـ الصهر: من ألوانِ العذابِ صبُّ الحميم فوق رؤوسهم، والحميمُ هو ذلك الماء الذي انتهى حَرُّه، فلشدَّة حَرِّهِ تذوبُ أمعاؤهم، وما حوتْه بطونُهم، قال تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ *يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ *﴾ [الحج: 19 ـ 20] وقال رسول الله (ﷺ): « إنَّ الحميمَ ليصبُّ على رؤوسهم، فينفذُ الحميم حتّى يخلصَ إلى جوفه، فيسلتُ ما في جوفه، حتى يمرقَ من قدميه، وهو الصهرُ، ثم يعادُ كما كان»[(598)].

ج ـ اللفحُ: أكرمُ ما في الإنسان وجهُه، ولذلك نهانا الرسولُ (ﷺ) عن ضربِ الوَجْهِ، ومن إهانةِ اللهِ لأهلِ النّارِ أنّهم يُحْشرون يوم القيامة على وجوههم عُمياً وصُماً وبُكماً، قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا *﴾

[الإسراء: 97] . ويلقون في النّارِ على وجوههم، قال تعالى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ *﴾ [النمل: 90] .

ثم إنّ النارَ تلفَحُ وجوهَهم وتغشاها أبداً، لا يجدون حائلاً يحولُ بينهم وبينها، قال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلاَ عَنْ ظُهُورِهِمْ ولاَ هُمْ يُنْصَرُونَ *﴾ [الأنبياء: 39] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ [المؤمنون: 103 . 104] .

وفي قوله تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾: تحرقها، واللفح كالنفخ إلا أنّه أشدُّ تأثيراً منه، وتخصيصُ الوجوه بذلك لأنَّها أشرفُ الأعضاءِ، فبيانُ حالها أزجرُ عن المعاصي المؤدية إلى النار، وهو السرُّ في تقديمها على الفاعل[(599)] .

ثم إنَّ وجوههم تعلوها النار، وتحيطُ بها، وتسعّرُ أجسامهم المسربلة بالقطران[(600)]، قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ *سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ *﴾ [إبراهيم: 49 . 50] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَالَيْتَنَا﴾ [الأحزاب: 66] إنّه مشهدٌ بائسٌ أليمٌ حين تغشاهم النار من كلّ جهة، فالتعبيرُ على هذا النحو يرادُ به تصويرُ الحركةِ وتجسيمُها، والحرصُ على أن تصلَ النارُ إلى كلِّ صفحةٍ من صفحاتِ وجوههم زيادةً في النكال[(601)] .

د . **السَّحْبُ**: ومن أنواع العذابِ الأليم سَحْبُ الكفار في النار على وجوههم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ *يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وَجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ *﴾ [القمر: 47 . 48]، ويزيدُ في الامهم إهانتُهم حالَ سحبهم في النار أنّهم مقيّدون بالقيود والأغلال والسلاسل، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ *الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ *إِذِ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاَسِلُ يُسْحَبُونَ *فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ *﴾ [غافر: 69 . 72] قال قتادة: يسحبون مرة في النار، وفي الحميم مرة[(602)] .

هـ **تسويدُ الوجوه**: ومن ألوان عذابِ الحياة الآخرة تسويدُ الوجوه، وذلك لما ترى من سوء العاقبة، وما يحلُّ بها من النكال والوبال، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ *﴾ [آل عمران: 106] كأنّما أُلبست وجوهُهم قطعاً من أديم الليل حال كونه حالكاً مظلماً لا بصيصَ فيه من نور القمر الطالع ولا النجم الثاقب، فتشقها قطعةً بعدَ قطعةٍ، فصارت ظُلماتٌ متراكمةٌ بعضها فوق بعض[(603)] . قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ

اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ *﴾ [يونس: 27] . ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ *تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ *﴾ [القيامة: 24 . 25] .

تلك وجوه أهل النار التي تغشاها ظلمة وانكدار، ويبدو عليها مضضٌ[(604)]، وإرهاق، فإنّها ليست كالحةً فحسب، ولكن يخالجها التوجُّسُ[(605)]، أن تنزل بها داهية تقصِمُ[(606)] الفقار[(607)]، والتوجُّس شرٌّ من وقوع العذاب[(608)] .

و . اندلاقُ الأمعاءِ في النار: في (الصحيحين)[(609)] عن أسامة بن زيد عن النبي (ﷺ) قال: « يُجاءُ بالرَّجُلِ يومَ القيامةِ فيُلقى في النَّارِ، فتندلقُ أقتابُه في النارِ، فيدور به كمايدور الحمارُ برحَاه، فتجتمعُ أهلُ النّارِ عليه، فيقولون: يا فلان، ما شأنُكَ، ألسَتَ كنتَ تأمرُ بالمعروفِ، وتنهى عن المنكرِ؟ فيقول: كنتُ امرُكم بالمعروفِ ولا اتيه، وأنهاكُم عن المنكرِ واتيه » .

ز . حيّاتُ جهنم: في النار حياتٌ يعذِّبنَ أهلها، قال تعالى: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ*﴾ [آل عمران: 180] وهذا الطوقُ عبارةٌ عن ثعبان في رقابهم، كما فسّرها

بذلك النبيُّ (ﷺ)، فعن عبد الله بن مسعود عن رسولِ الله (ﷺ) قال: « ما مِنْ رجلٍ لا يؤدِّي زكاةَ مالِهِ إلا جعلَ الله يومَ القيامةِ في عُنُقِهِ شُجاعاً، ثم قرأ علينا مصداقَهُ من كتاب الله عز وجل: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ » الآية وقال مرة: قرأ رسولُ اللهِ (ﷺ) مصداقه: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، « مَنِ اقتطعَ مالَ أخيه المسلمِ بيمينٍ لقيَ اللهَ وهو غضبانُ » ثم قرأ رسولُ اللهِ (ﷺ) مصداقه من كتاب الله: ﴿ان الذين يشترون بعهد الله﴾.

وقال رسول الله (ﷺ): « مَنْ اتاهُ الله مالاً فلم يؤدِّ زكاتَهُ مُثِّلَ له يومَ القيامةِ شُجَاعاً[(610)] أقرعَ، له زبيبتانِ يطوَّقه يومَ القيامةِ، ثم يأخذُ بِلهْزِمتيهِ (يعني شدقيه) ثم يقول: أنا مالُكَ أنا كَنْزُكَ » تَلا هذِه الآيَةَ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ...﴾ **[آل عمران: 180]** إلى آخرِ الآيَةِ.

وقال رسول الله (ﷺ): « إنَّ في النَّارِ حَيَّاتٌ كأمثالِ أعناقِ البُخْتِ تَلْسَعُ إحداهنَّ اللسعةَ فَيَجِدُ حموتَها أربعينَ خريفاً، وإنَّ في النارِ عقاربٌ كأمثالِ البغالِ الموكّفة، تلسعُ أحدَهم اللسعةَ فيجدُ حموتها أربعين سنة »[(611)] .

ح ـ **كثرة أهلها**: أهل النار كثيرون، وقد دل على ذلك كتاب الله تعالى في ثلاثة مواضع وهي :

الأول: قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ *﴾ [هود: 119] .

والثاني: قول تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ *﴾ [السجدة: 13] .

والثالث: قول تعالى: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ *لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ *﴾ [ص: 84 ، 85] .

كما دلت السنة على ذلك، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبيِّ(ﷺ) قال: « يقولُ اللهُ تعالى: يا ادمُ، فيقول: لبَيكَ وسعديكَ، والخيرُ في يديكَ، فيقول: أَخْرِجْ بعثَ النّار، قال: وما بَعْثُ النّارِ ؟ قال: مِنْ كُلِّ ألفٍ تسعمئةٍ وتسعةً وتسعين، فعندَهُ يشيبُ الصغيرُ، وتضعُ كلُّ ذاتِ حَمْلٍ حملها، وترى الناسَ سُكارى وما هُمْ بِسُكارى، ولكنَّ عذابَ اللهِ شديدٌ »، قالوا: يا رسول الله، وأينَ ذلك الواحدُ ؟ قال: « أبشروا، فإنَّ مِنْكُم رَجُلاً، ومِنْ يأجوجَ ومأجوجَ ألفاً، ثم قال: والذي نفسِي بيدِهِ إِنِّي أَرْجُو أن تكونوا رُبْعَ أهلِ الجنّةِ » فكبَّرْنا، فقال: « أرجو أنْ تكونوا ثُلُثَ أهلِ الجنّةِ » فكبرّنا، فقال: « أرجو أنْ تكونوا نصفَ أهلِ الجَنَّةِ » فكبرّنا، فقال: « ما أنتم في الناسِ إلاّ كالشعرةِ السوداءِ في جِلْدِ ثَوْرٍ أبيضَ، أو كشعرةٍ بيضاءَ في جلدِ ثورٍ أسودَ »[(612)] .

رابعاً: مطالبُ أهلِ النار في الآخرة:

مطالبُ أهلِ النار في الآخرة هي :

1 . طلب الفداء: قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ﴾ **[المائدة: 36 . 37]** إنّ أقصى ما يتصوّره الخيالُ على أساسِ الافتراض، هو أن يكونَ للذين كفروا كلَّ ما في الأرض جميعاً، ولكنَّ السياقَ يفترِضُ لهم ما فوقَ الخيال في عالم الافتراض، فيفرِضُ أنَّ لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه، ويصورهم يحاولون الافتداءَ بهذا، وذلك لينجوا به من عذاب يوم القيامة، ويرسم مشهدهم وهم يحاولون الخروج من النار، ثم عَجْزهم عن بلوغ الهدف، وبقاءهم في العذاب الأليم المقيم، إنَّه مشهدٌ مجسَّمٌ ذو مناظرَ وحركاتٍ متوالياتٍ، منظرُهم ومعهم ما في الأرض ومثله معهم، ومنظرُهم وهم يعرضونه ليفتدوا به، ومنظرُهم وهم مخيبو الطلب، غير مقبولي الرجال، ومنظرُهم وهم يدخلون النار، ومنظرُهم وهم يحاولون الخروجَ منها، ومنظرُهم وهم يُرْغَمون على البقاء، ويسدل الستار ويتركهم مقيمين هناك[(613)] .

قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ

وَبِئْسَ الْمِهَادُ *﴾ [الرعد: 18] أي: من مات فلن يقبل الله منه خيراً أبداً، ولو كان قد أنفقَ مثل الأرضِ ذهباً، لو افتدى نفسه من الله بملء الأرض ذهباً بوزن جبالها وتلالها وترابها ورمالها وسهلها ووعرها وبرها وبحرها[(614)].

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ *﴾ [آل عمران: 10] والأموال والأولاد مظنّةُ حمايةٍ ووقايةٍ، ولكنّهما لا يُغنيانِ شيئاً في ذلك اليوم، الذي لا ريبَ فيه، لأنّه لا خلافَ لميعاد الله، وهم فيه ... بهذا التعبير الذي يسلبهم كلَّ خصائص الإنسان ﴿وَقُودُ النَّارِ *﴾، ويصوّرهم في صورة الحطب والخشب وساء ﴿وَقُودُ النَّارِ *﴾ بل إنَّ الأموال والأولاد ومعهما الجاه والسلطان لا تغني شيئاً في الدنيا[(615)].

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ﴾ [الزمر: 47 . 48]، إنّه الهولُ الملفوفُ في ثنايا التعبير الرهيب، فلو أنَّ لهؤلاء الظالمين، لو أنَّ لهؤلاء مما يحرصون عليه لقدّموه فديةً مما يرون من سوء العذاب يوم ﴿مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ .

وهولٌ اخرُ يتضمّنه التعبير الملفوف ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ*﴾ ولا يفصحُ عمّا بدا لهم من الله ولم يكونوا يتوقعونه . لا يفصح عنه، ولكنّه هكذا هائلٌ مذهِلٌ مخيفٌ، فهو الله الذي يبدو منه لهؤلاء

الضعاف ما لا يتوقّعون، هكذا بلا تعريفٍ ولا تحديدٍ ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ *﴾ وهذه كذلك تزيدُ الموقفَ ، حين يتكشّفُ لهم قبحُ ما فعلوه، وحين يحيطُ بهم ما كانوا به يستهزئون من الوعيد والنذير، وهم في ذلك الموقف الأليم[(616)] .

2. طلبُ العودةِ إلى الدنيا لعمل الصالحات:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ *بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ *﴾ **[الأنعام: 27 . 28]** وفي قوله ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ *﴾ الله يعلمُ طبيعتهم، ويعلم إصرارهم على باطلهم، ويعلم أنَّ رجفةَ الموقف الرهيبِ الرعيبِ على النار هي التي أنطقت ألسنتهم بهذه الأماني وهذه الوعود ويدعهم السياقُ في هذا المشهد ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ*﴾، وهذا الردُّ يصفعُ وجوهَهم بالمهانة والتكذيب[(617)] .

قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ*﴾

[الأعراف: 53] ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ أي: يوم القيامة، وما وُعِدوا به من العذاب والنكال والجنة والنار[(618)] .

قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ *لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ*﴾ [المؤمنون: 99 . 100] إنّه مشهدُ الاحتقار وإعلان التوبة عندَ مواجهةِ الموتِ، وطلب الرجعة إلى الحياة، لتدارك ما فاتَ، والإصلاح فيما ترك وراءه من أهلٍ ومالٍ، وكأنّما المشهدُ معروضُ اللحظةَ للأنظار مشهودٌ كالعيان، فإذا الردُّ على هذا الرجاء المتأخر لا يوجَّه إلى صاحبِ الرجاءِ، إنّما يعلَنُ على رؤوس الأشهاد ﴿كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ كلمةٌ لا معنى لها، ولا مدلول وراءها، ولا تنبغي العناية بها أو بقائلها، إنّها كلمةُ الموقفِ الرهيبِ، لا كلمةُ الإخلاصِ المنيب، كلمةٌ تقالُ في لحظة الضيق ليس لها في القلب رصيدٌ، وبها ينتهي مشهدُ الاحتضار، وإذا الحواجزُ قائمةٌ بين قائل هذه الكلمة والدنيا جميعاً، فلقد قُضِيَ الأمرُ، وانقطعت الصلات، وأغلقتِ الأبوابُ، وأُسدلتِ الأستار﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ *﴾ فلا هم من أهل ، ولا هم من أهل الآخرة، إنّما هم في ذلك البرزخ إلى يوم يبعثون[(619)] .

قال تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ *رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ *قَالَ اخْسَأُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ *إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ *فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ *إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ *﴾ [المؤمنون: 106 ـ 111]، وأحسنُ ما قيل في معنى ﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ غلبتْ علينا أهواؤنا، فسمّى الأهواءَ واللذّاتِ شقوةً لأنهما يؤديان إليهما أي: كنّا فعلنا ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ *﴾، ضالين عن الهدى، وليس هذا اعتذارٌ منهم إنما هو إقرار، ويدل على ذلك قولهم ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ *﴾: طلبوا الرجعةَ إلى الدنيا كما طلبوا عند الموت ﴿فإن عدنا﴾ إلى الكفر ﴿فإنا ظالمون﴾ لأنفسنا بالعودة، فيجابون بعد ألف سنة ﴿اخْسَأُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ *﴾: ابعدوا في جهنم[(620)] .

قال تعالى: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُواْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ * وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ *﴾ [إبراهيم: 44 ـ 45] أنذرهم يوم يأتيهم ذلك العذابُ المرسوم انفاً، فيتوجه الذين ظلموا يومئذ إلى الله بالرجاء يقولون:

﴿رَبَّنَا﴾ الان وقد كانوا يكفرون به من ، ويجعلون له أنداداً ﴿أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ ونتبع الرسل﴾ وهنا ينقلِبُ السياق من الحكايةِ إلى ﴿وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾، كأنّهم ماثلون شاخصون يطلبون، وكأننا في الآخرة قد انطوت الدنيا، وما كان فيها، فها هو ذا الخطابُ يوجَّه إليهم من الملأ الأعلى بالتبكيتِ والتأنيبِ والتذكيرِ بما فرط منهم في تلك الحياة ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ *﴾ ؟ فكيفَ ترون الآن؟ زلتم يا ترى أم تزولوا ؟ ولقد قلتُم قولتكم هذه، واثار الغارين شاخصةٌ أمامكم مثلاً، بارزاً للظالمين مصيرهم المحتوم ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ *﴾ فكانَ عجباً أن تروا مساكن الظالمين أمامكم خالية منهم وأنتم فيها ، ثم تقسمون مع ذلك ﴿مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ *﴾ وعند هذا التبكيتِ ينتهي ، وندركُ أينَ صاروا، وماذا كان بعد الدعاءِ وخيبة الأمل، وإنّ هذا المثلَ ليتجدّدُ في الحياة، ويقعُ كلَّ حين، فكم من طغاةٍ يسكنون مساكنَ الطغاة الذين سكنوا من قبلهم، وربّما يكونون قد هلكوا على أيديهم . ثم هم يطغون بعد ذلك، ويتجبّرون، ويسيرون حذوك النعل بالنعل سِيرةَ الهالكين، فلا تهزّ وجدانَهم تلك الاثار الباقية التي يسكنونها، والتي تتحدّث عن تاريخ الهالكين، وتصوّر مصايرهم للناظرين، ثُم يُؤخذون أخذة الغابرين، ويلحقون بهم، وتخلوا منهم الديارُ بعدَ حينٍ[(621)] .

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ *وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ *﴾ **[فاطر: 36 ـ 37]** ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾، يتصارخون، يفتعلون الصراخ، وهو الصياح بجهد وشدة، ويجأرون إلى الله عز وجل بأصواتهم[(622)] .

قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ *أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَاحَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ *أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ *أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ *﴾ **[الزمر: 55 ـ 59]** في قوله ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَاحَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ أي: يتحسّرُ المجرم المفرط في التوبة ، ويودُّ لو كان من المؤمنين المخلصين المطيعين لله[(623)] .

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ *وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلاَ إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ *﴾

[الشورى: 44-45] الظالمون كانوا طغاةً بغاةً، فناسبَ أن يكون الذلُّ مظهرَهم البارزَ في يوم الجزاء، إنّهم يرونَ العذابَ، فيتهاوى كبرياؤهم، ويتساءلون في انكسار ﴿هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ *﴾ في هذه الصيغة الموجبةِ باليأس مع اللهفة ، مع التطلع إلى بارقة للخلاص، وهم يعرضون على النار ﴿خَاشِعِينَ﴾ لا من التقوى ولا من الحياء، ولكن من الذُّلِّ والهوان، وهم يُعْرَضُون منكَّسي الأبصار، لا يرفعون أعينهم من الذل والعار وهي صورةٌ شاخصةٌ ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾، وفي ظلِّ هذا المشهد يوجَّهُ الخطابُ إلى المعاندين المكابرين ليستجيبوا لربّهم قبل أن يفاجئهم مثل هذا المصير، فلا يجدون لهم ملجأ يقيهم، ولا نصيرَ ينكرُ مصيرهم الأليم[(624)] .

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ *وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ *وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ *﴾ [المنافقون: 9 . 11] .

قال تعالى: ﴿وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ * وَلَوْ شِئْنَا لآَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ

*فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ *﴾ [السجدة: 12 . 14] .

3 . طلب الانتقام من الأولياء: قال تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاَءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لاَ تَعْلَمُونَ *وَقَالَتْ أُولاَهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ *﴾ [الأعراف: 38-39] وفي قوله تعالى: ﴿إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾ وتلاحق اخرُهم، واجتمع قاصِيهم بدانيهم، بدأ الخصامُ والجدالُ[(625)] .

وقال تعالى: ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ *جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ *هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ *وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ *هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لاَ مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ *قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لاَ مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ *قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ *﴾ [ص: 55 . 61] .

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ *﴾ [فصلت: 29] وفي قوله ﴿الَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا﴾: الشياطين على ضربين جني وإنسي[(626)] وترى الحنق والتحرّق

على الانتقام في قولهم ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ*﴾ وذلك بعد المودة والمخادنة والوسوسة، هذه صلة الوسوسة والإغراء[(627)] .

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً *خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لاَ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيراً *يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَالَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاَ *وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ *رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً *﴾ [الأحزاب: 64 . 68] .

وقال تعالى: ﴿آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ * إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ *وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ *﴾ [البقرة: 165 . 167] أولئك الذين اتّخذوا من دونِ الله أنداداً، فظلموا الحقَّ، وظلموا أنفسَهم لو مدُّوا أبصارهم إلى يوم يقفون بين يدي الله الواحد، لو تطلّعوا ببصائرهم إلى يوم يرون العذاب الذي ينتظِرُ الظالمين، لو يرون لرأوا ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ فلا شركاءَ ولا أندادَ... ﴿وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ *﴾ لو يرون إذ تبرَّأ المتبوعون من التابعين، ورأوا العذاب، فتقطّعت بينهم الأواصر والعلاقات ، وانشغل كلٌّ بنفسه تابعاً كان أم متبوعاً، وسقطت الرياسات والقيادات التي كان المخدوعون يتبعونها، وعجزت عن وقاية

أنفسها، فضلاً عن وقاية تابعيها، وظهرت حقيقةُ الألوهية الواحدة والقدرة الواحدة، وكذب القيادات الضالة وضعفها وعجزها أمام الله وأمام العذاب ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا﴾ وتبدّى الحنقُ والغيظُ في التابعين المخدوعين من القيادات ، وتمنَّوا لو يردّون لهم الجميل، لو يعودون إلى الأرض فيتبرأوا من تبعيّتهم لتلك القيادات العاجزة الضعيفة في حقيقتها التي خدعتهم، ثم تبرأت منهم أمام العذاب، إنّه مشهدٌ مؤثرٌ، مشهدُ التبرؤ والتعادي والتخاصم بين التابعين والمتبوعين، بين المحبين والمحبوبين، وهنا يجيء التعقيب الممِضُّ المؤلم ﴿كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار﴾ [(70)]

4 . طلب الاستنجاد بالشركاء والأولياء:

قال تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ *وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ *﴾ [إبراهيم: 21 . 22] وفي قوله تعالى: ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾: بنافعكم

ومنقذكم ومخلصكم مما أنتم فيه ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ﴾: بنافعي بإنقاذي ممّا أنا فيه من العذاب والنكال[(628)]، وقال القرطبيُّ: فلا أنا بمغيثكم ولا أنتم بمغيثيَّ، والصارخُ والمستصرخُ هو الذي يطلبُ النصرة والمعاونة، والمصرخ هو المغيث[(629)] .

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ *قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلاَءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ *وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ *﴾ **[القصص: 62 . 64]** وفي قوله تعالى: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ *﴾ والله يعلم أنّه وجودَ اليوم لهؤلاء الشركاء، وأنّ أتباعهم لا يعلمون عنهم شيئاً، ولا يستطيعون إليهم سبيلاً، ولكنّه الخزيُ والفضيحةُ على رؤوس الأشهاد، ومن ثَمَّ لا يجيبُ المسؤولون عن السؤال، فليس المقصودُ به هو الجواب، إنّما يحاولون أن يتبرأَّ من جريرة إغوائهم لمن وراءهم، وصدهم عن هدي الله، كما يفعل كبراءُ قريش مع الناس خلفهم، فيقولون: ﴿رَبَّنَا هَؤُلاَءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ *﴾ ربّنا إننا لم نغوهم، فما كان لنا من سلطان على قلوبهم، إنّما وقعوا في الغواية عن رضًى منهم واختيار، كما وقعنا نحنُ في الغواية دون إجبار ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ﴾ من جريمة إغوائهم ﴿ما كانوا إيانا يعبدون﴾ إنّما كانوا

يعبدون أصناماً وأوثاناً وخلقاً من ، ولم نجعل أنفسنا لهم الهةً، ولم يتوجهوا إلينا نحنُ بالعبادة، وفي قوله: ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾ رأوه في هذا، ورأوه ماثلاً وراءه، فليس وراءَ هذا الموقف إلا العذاب، وهنا في اللحظة التي يصلُ فيها المشهدُ إلى ذِروته يعرض عليهم الهُدى الذي يرفضونه، وهو أمنيةُ المتمنّي في ذلك الموقف المكروب! وهو بين أيديهم في الدنيا، ولو أنّهم إليه يسارعون .

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا * وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا *﴾ [الكهف: 52 . 53] وفي قوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا *﴾: أنّ الله تعالى بيّن أنّه لا سبيلَ لهؤلاء المشركين، ولا وصولَ لهم إلى الهتهم التي كانوا يزعمون في الدنيا، وأنّه يفرِّق بينهم وبينها في الآخرة، فلا خلاصَ لأحدِ الفريقين إلى الآخر، بل بينهم مهلكٌ وهولٌ عظيمٌ، وأمرٌ كبيرٌ[(630)] .

وقال تعالى: ﴿وقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا القرآن وَلاَ بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلاَ أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ *قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ *وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ

نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلاَلَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *﴾ [سبأ: 31 . 33] .

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلاَئِكَةِ أَهَؤُلاَءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ *قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ *فَالْيَوْمَ لاَ يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ *﴾ [سبأ: 40 . 42] .

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ *قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ *﴾ [غافر: 47 . 48] .

وقال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ *قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ *قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ *وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ *فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ *فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ *فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ *إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ *﴾ [الصافات: 27 . 34] وفي قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ ، قال ابنُ عباس: يقولون: كنتم تقهروننا بالقدرة منكم علينا لأنّا كُنّا أذلاء، وكنتم أعزاء[(631)] .

5 . طلب الخروج من النار:

قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ *لاَ تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لاَ تُنْصَرُونَ *قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ *مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ *﴾ **[المؤمنون: 64 . 67]** وفي قوله ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ﴾ يعني حتّى إذا جاءَ . وهم المنعمون في الدنيا . عذابُ الله وبأسُه ونقمتُه بهم: ﴿إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ أي: يصرخون ويستغيثون ﴿ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ *﴾ أي: إذا دعيتم أبيتم، وإن طلبتم امتنعتم [(632)] قيل مستكبرين بالبيت يقولون: نحن أهله ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ*﴾، وكانوا يتكبّرون ويسمُرون فيه، ولا يعمرونه ويهجرونه [(633)].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً *يَاوَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَنًا خَلِيلاً *لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنْسَانِ خَذُولاً *﴾ **[الفرقان: 27 . 29]** .

وقال تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلاَتَ حِينَ مَنَاصٍ *﴾ **[ص: 3]** ومعنى قوله: ﴿فنادوا ولات حين مناص﴾ نادوا بالتوحيد حين تولّت الدُّنيا عنهم وأرادوا التوبةَ في غير وقتها ، قال تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ *ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا

دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ *﴾ [غافر: 11 . 12] وفي قوله: ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ *﴾ فهل أنتَ مجيبنا إلى أن تعيدنا إلى الدار ، فإنّكَ قادِرٌ على ذلك لنعمل غير الذي كنّا نعمل، فإن عُدنا إلى ما كنا فيه فإنّا ظالمون، فأجيبوا إلى أن لا سبيل إلى عودكم ومرجعكم إلى الدار الدنيا، ثم علّل المنعَ من ذلك بأنَّ سجاياكم لا تقبلُ الحقَّ ولا تقتضيه، بل تمجُّه وتنفيه، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾ فهذا هو الذي يقودكم إلى ذلك الموقف الذليل إيمانكم ، وكفركم بالوحدانية، فالحكم لله العلي الكبير، وهما صفتان تناسبان موقف الحكم، الاستعلاء على كل شيء، والكبر فوق كل شيء في موقف الفصل الأخير[(634)] .

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ *وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ *﴾ [السجدة: 20 . 21]

6 . طلب التخفيف من العذاب:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ *قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ *﴾ [غافر: 49 . 50] .

7 . طلب القضاء عليهم :

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ *لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ *وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ *وَنَادَوْا يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ *لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحقِّ كَارِهُونَ *﴾ **[الزخرف: 74 . 78]** .

8 . طلب سقيا الماء والطعام:

قال تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ *أَهَؤُلاَءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ *وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ *الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ *﴾ **[الأعراف: 48 . 51]** .

9 . طلب النور:

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ

الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ *يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ *﴾ [الحديد: 13 . 14] إنّ المنافقين والمنافقات في حَيرةٍ وضلال، وفي مهانةٍ وإهمالٍ، وهم يتعلّقون بأذيالِ المؤمنين والمؤمنات ﴿يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾ فحيثُما تتوجّه أنظارُ المؤمنين والمؤمنات يشعُّ ذلك النور اللطيف ، ولكن أنَّى للمنافقين أن يقتبسوا من هذا النور، وعاشوا حياتهم كلها في الظلام ؟ إنّ صوتاً يناديهم ﴿قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا ناركم﴾ ويبدو أنّه صوتٌ للتهكم والتذكير بما كان منهم في الدنيا من نفاقٍ ودَسٍّ في الظلام: ارجعوا وراءكم إلى الدنيا، إلى ما كنتم تعملون، ارجعوا فالنور يلتمس النور، وعلى الفور يفصل بين المؤمنين والمؤمنات والمنافقين والمنافقات، فهذا يومُ الفصل إن كانوا في الدنيا مختلطين في الجماعة: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ *﴾ ويبدو أنّه سورٌ يمنعُ، ولكن لا يمنعُ الصوتَ فها هم أولاء المنافقون ينادون المؤمنين ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ فما بالنا نفترق ؟ ألم نكن معكم في الدنيا نعيش في صعيد واحد ؟ وقد بعثنا معكم في صعيد واحد؟[(635)] ﴿وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ﴾: فتنتم أنفسكم باللذات والمعاصي والشهوات، وتربصتم أي: أخرتم التوبة من وقت إلى وقت ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾:

بالبعث بعد الموت . ﴿وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ﴾: قلتم سيغفر لنا وقيل: غرتكم الدنيا ﴿حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾: ما زلتم في هذا حتى جاءكم الموت ﴿وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ *﴾: الشيطان[(636)] .

خامساً ـ جملة الجرائم التي تدخل النار!

من الجرائم التي تدخلُ النارَ، الإشراكُ بالله تعالى، والتكذيبُ للرسل، والكفر، والحسدُ، والكذبُ، والخيانةُ، والظلمُ، والفواحشُ، والغدرُ، وقطيعةُ الرحم، والجبنُ عن الجهادِ، والبخلُ، واختلافُ السرِّ والعلانية، واليأسُ من روحِ الله، والأمنُ من مكر الله، والجزعُ عند المصائب، الفخرُ والبطرُ عند النعم، وتركُ فرائضِ اللهِ، والاعتداءُ على حدوده، وانتهاك حرماته، وخوفُ المخلوق دون الخالق، والعملُ رياءً وسمعةً، ومخالفةُ الكتاب والسنة في أي اعتقادٍ وعملٍ، وطاعةُ المخلوقِ في معصية الخالق، والتعصّبُ للباطل، واستهزاءٌ بايات الله، وجحدُ الحق، والكتمانُ لما يجبُ إظهارُه من علمٍ وشهادةٍ، والسحرُ، وعقوقُ الوالدين، وقتلُ النفس التي حرّم الله إلاّ بالحق، وأكلُ مالِ اليتيم، والربا، والفرارُ من الزحف، وقذفُ المحصناتِ الغافلاتِ المؤمنات[(637)] .

سادساً: أكبر جرائم المخلّدين في النار :

إنّ الذي يتدبّر القرآن الكريمَ يجدُ في آياتٍ كثيرةٍ أنّ الله عزّ وجل قد ذكر أسبابَ جرائم الخالدين الذين استحقوا بها الخلود في النار من أهمها:

1 ـ الكفر والشرك: قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ *﴾ **[البينة: 6]** .

2 ـ طاعة قرناء السوء: قال تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ *وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا القرآن وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ *فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ *ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ *﴾ **[فصلت: 25 ـ 28]** .

3 ـ النفاق: قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ *﴾ **[التوبة: 68]** وقال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّآنِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا *﴾ **[الفتح: 6]** .

4 . الكبر: قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ *﴾ **[الأعراف: 36]** وقال تعالى: ﴿فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ *﴾ **[الزمر: 72]** وقال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ **[غافر: 75 . 76]** .

5 . عدم القيام بالتكاليف الشرعية: مع التكذيب بيوم الدين، وترك الالتزام بالضوابط الشرعية، فقد أخبرنا الله سبحانه وتعالى أنّ أهلَ الجنة يَسْأَلون أهلَ النار قائلين ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ *﴾ **[المدثر: 42]** . فيجيبون قائلين: ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ *وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ *وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ *وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ *حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ *﴾ **[المدثر: 43 . 47]** [(638)] .

سابعاً: أشخاص بأعينهم في النار :

ذكر الله تعالى بعضَ الأشخاص بأعيانهم، وبيّن أنهم من أهل النار، ونحن ـ كمسلمين ـ لا نشهدُ لأحدٍ بعينه أنّه من أهل النار إلاّ مَنْ شهدَ الله ورسوله(ﷺ) له بذلك[(639)] ومن هؤلاء :

1 . إبليس: والآيات في ذلك كثيرة، ودخولُه النارَ معلومٌ من الدين وبالضرورة، بل معلومٌ في جميع الأديان، كمثل قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ

إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ *فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ*﴾ [الحشر: 16 . 17] وقال تعالى لإبليس: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ *لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ *﴾ [ص: 84 . 85] .

2 . **قابيل:** وأما ابن ادم (قابيل) فقد قال رسول الله (ﷺ): « لا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلماً إلاّ كان على ابن ادمَ الأولِ كِفْلٌ مِنْ دَمِها، لأنّه أولُ من سَنّ القتلَ »[(640)] .

3 . **فرعون وجنوده:** قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ * وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص: 41 . 42] وقال تعالى: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ *النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ *﴾ [غافر: 45 . 46] .

4 . **قارون وهامان:** قال تعالى: ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ *فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ

يَظْلِمُونَ*﴾ [العنكبوت: 39 ـ 40] وقال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ *﴾ [القصص: 81] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ *إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ *فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ *﴾ [غافر: 23 ـ 25]، فسمّاهم الله تعالى كافرين[(641)] .

5 ـ امرأة نوح وامرأة لوط: قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلاَ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ *﴾ [التحريم: 10] .

6 ـ كفرة الجن في النار: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ﴾ [الأعراف: 179] وقال تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا *وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا *﴾ [الجن: 14 ـ 15].

7 ـ أحد أبناء نوح: قال تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يابُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلاَ تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ *قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ *﴾ [هود: 42 ـ 43] .

8 . قوم نوح: قال تعالى: ﴿وَأُوْحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ *وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ *﴾ **[هود: 36 . 37]** .

9 . قوم عاد: قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ﴾ **[هود: 59 . 60]** .

10 . قوم ثمود: قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ *كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لِثَمُودَ *﴾ **[هود: 67 . 68]** فحكم الله عليهم بالكفر، وقد قدّمنا أنَّ أصحاب الخلود في النار هم الكفار والمشركون[(642)] .

11 . قوم لوط: قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ *مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ *﴾ **[هود: 82 . 83]** .

12 . قوم شعيب: قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ *كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلاَ بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ *﴾ **[هود: 94 . 95]** وقال تعالى:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ *﴾ [الشعراء: 189] وتكذيبُ الرسل مِنْ أنواعِ الكفر[(643)] .

13 . بنو النضير من اليهود: قال تعالى: ﴿وَلَوْلاَ أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاَءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخرة عَذَابُ النَّارِ *﴾ [الحشر: 3] وقد نزلتْ هذه الآية في يهود بني النضير لما خانوا الرسول (ﷺ)، وأرادوا قتله بإلقاء حجر عليه، ولكنّ الله تعالى عصمه منهم، فحاصرهم النبيُّ (ﷺ) وأجلاهم[(644)]، وهذا الحكمُ ليس خاصاً بيهود بني النضير، بل كلُّ مَنْ سمعَ بدعوة النبيِّ(ﷺ) من اليهود والنصارى ولم يُسْلِمْ فهو في النار[(645)]، قال رسول الله (ﷺ): «والذي نفسُ محمّدٍ بيده لا يسمعُ بي أحدٌ مِنْ هذه الأمةِ يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ، ثم يموتُ، ولم يؤمنْ بالّذي أُرسلتُ به، إلاّ كانَ من أصحابِ النّارِ»[(646)] .

14 . أبو لهب وامرأته: قال تعالى في سورة المسد: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ *مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ *سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ *وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ *فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ *﴾ .

15 . الوليد بن المغيرة: وهو المقصودُ بقوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا *وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُودًا *وَبَنِينَ شُهُودًا *وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا *ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ

*كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا *سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا *إِنَّهُ فَكَّرَ وقَدَّرَ *فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ *ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ *ثُمَّ نَظَرَ *ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ *ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ *فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ *إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ *سَأُصْلِيهِ سَقَرَ *﴾ **[المدثر: 11 . 26]**

جاء الوليدُ بنُ المغيرة إلى النبيِّ (ﷺ)، فقرأ عليه القرآن، فكأنّه رقَّ له، فبلغَ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عم إنّ قومَك يرون أن يجمعوا لك مالاً، قال: لم ؟ قال: ليعطوكه، فإنّك أتيتَ محمداً تتعرّضُ لِمَا قِبَله، قال: قد علمتْ قريشٌ أني أكثرُها مالاً، قال: فقل فيه قولاً يبلغُ قومَك أنّك منكِرٌ له، أو أنَّكَ كارهٌ له، قال: ماذا أقول ؟ فواللهِ ما فيكم رجلٌ أعلمُ بالأشعارِ مني، ولا برجزٍ ولا بقصيدةٍ مني، ولا بأشعارِ الجنّ، واللهِ ما يُشْبِهُ الذي يقول شيئاً من هذا، واللهِ إنَّ لقولهِ الذي يقولُ حلاوةٌ، وإنّ عليه لطلاوةٌ، وإنّه لمثمِرٌ أعلاه، مغدِقٌ أسفلُه، وإنّه ليعلو وما يعلى عليه، وإنّه ليحطِمُ ما تحته، قال: لا يرضى عنك قومُكَ حتّى تقولَ فيه، قال: فدعني حتّى أفكرَ، فلمّا فكر، قال: هذا سحرٌ يؤثر، يأثرُه عن غيره، فنزلت ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا يعني الآياتِ .

* * *

المبحث الثالث : موانع إنفاذ الوعيد

تحدّث العلماءُ عن أسباب سقوط العذاب في الآخرة، وذكروها في موانع إنفاذ الوعيد، والتي منها :

أولاً . التوبة :

التوبةُ مانعٌ من إنفاذِ وعيد جميع الذنوب، ودليلُ ذلك الكتاب والسنة والإجماع .

أما الدليل من كتاب الله تعالى فقد قال تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ *﴾ **[الزمر: 53]** أي لمن تاب[(647)]، وقال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ *فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *﴾ **[المائدة: 38-39]** .

أما الدليل من السنة فقد جاء عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): « إنّ اللهَ عزّ وجلّ يَبْسُطُ يدَه بالليلِ ليتوبَ مسيءُ النهارِ، ويبسطُ يدَه بالنهارِ ليتوبَ مسيءُ الليلِ، حتّى تطلعَ الشمسُ من

مغربِها »[(648)] . وقال رسول الله (ﷺ): « إنّ الله يقبلُ توبةَ العبدِ ما لم يُغَرْغِرْ »[(649)] .

وأما الإجماع: فقد اتفق العلماءُ على أنّ التوبةَ من الكفرِ مقبولةٌ ما لم يوقنِ الإنسانُ بالموتِ بالمعاينة، ومن الزنا، ومن فعل فعلة قوم لوط، ومن شُربِ الخمر، ومن كلِّ معصيةٍ بين المرء وربه تعالى، ممّا لا يحتاجُ في التوبة إلى دفع مال، ومما ليس مظلمة للإنسان[(650)] . فالتوبةُ مانعٌ شاملٌ، يمنعُ إنفاذَ وعيدِ جميعِ الذنوب، كالكفر وما دونه، وهذا الشمولُ مختصٌّ بهذا المانع[(651)] . فالتوبةُ تمحو جميعَ السيئات، وليس شيءٌ يغفِرُ جميعَ الذنوب إلاّ التوبة[(652)].

ثانياً: الاستغفار :

دلّتِ النصوصُ الشرعيةُ على أنَّ الاستغفارَ مانعُ من إنفاذِ الوعيد، ومن هذه النصوص :

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ *أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ *﴾ [آل عمران: 135 . 136] وقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا

تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا *﴾ **[النساء: 11]** وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا *﴾ **[النساء: 64]** .

وقال رسول الله (ﷺ): « إنّ عبداً أصابَ ذنباً، فقال: ياربّ إنّي أذنبتُ ذنباً، فاغفره لي، فقال له ربُّه: عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ ربًّا يغفِرُ الذَّنبَ ويأخذُ به ،فغفر له .

ثم مكثَ ما شاء الله، ثم أصابَ ذنباً اخر، وربما قال: ثم أذنبَ ذنباً اخر ، فقال: ياربِّ إنّي أذنبتُ ذنباً اخر فاغْفِرْهُ لي، فقال ربُّه: عَلِمَ عبدي أنّ له رباً يغفِرُ الذنبَ، ويأخذُ بِهِ، فغفرله، ثم مكث ما شاء الله، ثم أصابَ ذنباً اخر، قال أذنب ذنباً اخر، فقال: ياربِّ أذنبت ذنباً فاغفره لي، فقال ربه: علم عبدي أن له ربّاً يغفِرُ الذنبَ، ويأخذُ به، فقال ربُّه: غفرتُ لعبدي، فليعملْ ما شاء »[(653)] . وقال رسول الله (ﷺ): « والذي نفسِي بيدِه لو لم تُذْنِبوا لذهبَ اللّهُ بِكُم، ولجاءَ بقومٍ يُذْنِبُوْنَ فَيَسْتَغْفِرُوْنَ اللهَ فَيَغْفِرَ لهم»[(654)].

فدلّت هذه النصوصُ المحْكَمَةُ على أنَّ الاستغفارَ مانعٌ من إنفاذِ الوعيدِ [(655)] .

ثالثاً: الحسنات الماحية :

دلّت نصوصٌ شرعيةٌ كثيرةٌ على أنَّ الحسناتِ يمكنُ أن تمنعَ إنفاذَ وعيدِ السيئاتِ، والأدلّةُ على ذلك كثيرة منها: قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ *﴾ **[هود: 114]** .

وعن أبي ذر رضي الله عنه، قال: قال لي رسولُ الله (ﷺ): « اتَّقِ اللهَ حيثُما كنتَ، وأتبعِ السيئةَ الحسنةَ تَمْحُها، وخالِقِ النّاسَ بخُلقٍ حَسَنٍ »[(656)] .

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، قال سمعتُ رسولَ اللهِ (ﷺ) يقول: «ما مَنْ أحدٍ يَشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلاّ الله، وأنَّ محمداً رسولُ اللهِ صدقاً من قلبه إلا حرّمَ اللهُ عليه النَّارَ »[(657)] .

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه، قال: قال رسولُ اللهِ (ﷺ): « مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الوُضُوْءَ خَرَجَتْ خطاياه مِنْ جَسَدِهِ حتّى تخرجَ مِنْ تحت أظفارِهِ »[(658)] .

وقال رسولُ اللهِ (ﷺ): « أرأيتُم لو أنَّ نَهْراً ببابِ أحدِكم يَغْتَسِلُ فيه كلَّ يومٍ خَمْسَ مرّاتٍ ،هل يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شيءٌ » ؟ قالوا: لا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ، قال: فكذلك مَثَلُ الصلواتِ الخَمْسِ، يَمْحُو اللهُ بهن الخَطَايا »[(659)] .

وقال رسول الله (ﷺ): « مَنْ صامَ رمضان إيماناً واحتساباً غفرَ لَهُ ما تقدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ »[(660)] .

وقال رسول الله (ﷺ): « مَنْ حَجَّ للهِ فلم يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُق، رَجَعَ من ذنوبه كيومَ ولدتْه أُمُّهُ »[(661)] .

رابعاً . دعاء المؤمنين:

النصوصُ الشرعيةُ التي دلّت على مشروعيةِ الدُّعاء للمؤمنين بالمغفرةِ والرحمةِ تدلُّ قطعاً على انتفاع المدعو بدعاء إخوانه المؤمنين، ومن أهمِّ مظاهرِ انتفاعهِ عدمُ إنفاذِ الله وعيدَه بسببِ دعاء المؤمنين واستغفارِهم، ولا شك أنَّ الدعاء بالمغفرةِ والرحمةِ لا يمكِنُ أن يمنعَ إنفاذَ وعيدِ المدعو له إذا لقي الله متلبِّساً بمكفِّرٍ، كالشرك الأكبر والنفاق الأكبر، لأنّ الله أخبرَ في كتابه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا *﴾ [النساء: 48] .

كما أنَّ النصوصَ الشرعيةَ دلّت على تحريم الاستغفار المطلق والمقيد بفعلٍ معيّنٍ كمن لقيَ الله كافراً، فقد دلَّ على تحريم الاستغفار المطلق قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ *﴾ [التوبة: 113] والمقصودُ من هذا كله أنَّ تحريمَ الاستغفار بمختلَفِ صوره لَمَنْ لَقِيَ الله كافراً، يدلُّ مِنْ وجهٍ اخرَ على أنَّ طلب المغفرة وما في معناها لا أثر له البتَّة في إسقاطِ وعيدِه، كما أنَّ الدعاءَ من حيث هو لا يترتّبُ عليه أثرهُ إلاّ إذا تحققتْ شروطُه، وانتفتْ موانعُه، ومن شروطه أن يكون المطلوب جائزَ الطلبِ شرعاً، ومن موانِعِه الاعتداءُ في الدعاء، وحينئذٍ فطلب المغفرة وما في معناها لمن لقي الله كافراً لا يمكِنُ أن يترتّبَ عليه أثرهُ، لتخلّف شرطه، ووجودِ مانعه[(662)] .

وأمّا الأدلة الشرعية على مشروعية الدعاء لأحياء المؤمنين وأمواتهم بالمغفرة والرحمة فمنها: قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: 91] وقوله: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [آل عمران: 159] وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ*﴾ [الحشر: 10] .

وقال رسول الله (ﷺ): « قَدْ تُوفِّي اليومَ رجلٌ صالحٌ مِنَ الحَبَشِ فهلمَّ فَصَلُّوا عَلَيْهِ »[(663)] .

وقال رسول الله (ﷺ): « مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يموتُ، فيقومُ على جنازتِهِ أربعونَ رجلاً لا يُشْرِكُونَ باللهِ شيئاً إلاّ شَفَّعهم اللهُ فِيْهِ »[(664)]، والشفاعةُ للميّتِ . أي الدعاء للميت بالمغفرة والرحمة . هي المقصودُ من هذه الصلاة أصالةً، ولذلك أمر النبيُّ (ﷺ) في صلاة الجنازة بإخلاصِ الدُّعاءِ للميت، فقد قال رسول الله (ﷺ): « إذا صَلَّيْتُم على الميّتِ فَأَخْلِصُوْا لَهُ الدُّعَاءِ »[(665)]، ومن دعاءِ النبيّ (ﷺ) في صلاةِ الجنازةِ، قوله (ﷺ): « اللهمَّ اغْفِرْ لَهُ، وارْحَمْهُ، وعافِهِ وأعْفُ عَنْهُ، وأَكْرِمْ نُزُلَه، وَوَسّعْ مُدْخَلَهُ، وَاغْسِلْهُ بالماءِ والثَّلْجِ والبَرَدِ، ونقِّه مِنَ الخطايا كما نَقَّيْتَ الثوبَ الأبيضَ مِنَ الدَّنَسِ، وَأَبْدِلْهُ داراً خيراً مِنْ دارِهِ، وأهلاً خَيْراً مِنْ أهلِهِ، وزَوْجَاً خيراً مِنْ زوجِهِ، وَأدْخِلْهُ الجَنَّةَ، وأَعِذهُ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، ومِنْ عَذابِ النَّارِ »[(666)] .

وقال رسول الله (ﷺ): « إنَّ الله لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، ويغفر ما دُوْنَ ذلك لمن يشاءُ، وقال: أَخَّرْتُ شَفَاعَتِي لأَهْلِ الكبائِرِ »[(667)] .

فالاستغفارُ للمؤمنينَ وما في معناه، إنّما يَمْنَعُ إنفاذَ الوعيدِ ظنّاً لا قطعاً، لأنّه دعاء، والدعاءُ: قَدْ يستجاب وقد لا يُستجابُ، إمّا لتخلّف شرطٍ، وإمّا لوجودِ مانعٍ، وإمّا لحكمةٍ إلـهيةٍ لا نعلمُها، ولكنّ جانبَ الإجابةِ أرجحُ لقوّة

دلالةِ النصوص، والعملُ بالراجحِ مطلوبٌ شرعاً، فينبغي الحِرْصُ على الدعاء للمؤمنين بالمغفرة والرحمة، والاجتهادُ في ذلك، فقد يُعْتِقُ الله بدعائه كثيراً من أهل البلاء والمحنة في البرزخِ أو في الآخرة، قال تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا *﴾ **[النساء: 85]**، وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه مرفوعاً: « اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا »[(668)] والشفاعة الحسنة تشملُ الشفاعةَ للناس في قضاء حوائجهم، والدعاءَ لهم بخيري الدُّنيا والآخرة وغير ذلك، فَمَنْ شفَع لينفعَ كانَ له نصيبٌ من الأجرِ، ومَنْ دعا لأخيه بظهرِ الغيبِ أَمَّنَ المَلَكُ على دعائِهِ، وقال: « ولك بمثلٍ »[(669)] .

خامساً . إهداء القربات:

دلّتِ النصوصُ الشرعيةُ على انَّ الجزاءَ ثواباً أو عقاباً إنّما يترتّبُ على عمل الإنسان، وعلى ما هو من اثارِ عملهِ . قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ **[البقرة: 286]** وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا﴾ **[الأنعام: 164]** وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ *﴾ **[يس: 12]** أي نكتبُ أعمالَهم التي

باشروها بأنفسهم واثارَهم التي اثروها من بعدهم، فنجزيَهم على ذلك، إنْ خيراً فخير، وإنْ شراً فشر[(670)] .

وقال رسول الله (ﷺ): « مَنْ سَنَّ في الإسلامِ سُنَّة حَسَنَةً، فَله أجرها، وأجر مَنْ عمله بها مِنْ بَعْدِهِ، من غير أن يَنْقُصَ مِنْ أُجُوْرِهِمْ شيءٌ، وَمَنْ سَنَّ في الإسلامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كان عليه وزرُها ووزرُ مَنْ عمل بها، من غير أن ينقصَ من أوزارهم شيء »[(671)] . وقال رسول الله (ﷺ): « مَنْ دَعَا إلى هُدًى، كانَ له مِنَ الأَجْرِ مِثْلَ أُجُوْرِ مَنْ تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ ذلك مِنْ أجورِهم شيئاً، ومَنْ دَعَا إلى ضَلالةٍ، كانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْم مِثْلَ اثامِ مَنْ تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ ذلك مِنْ آثامِهِم شَيْئاً[(672)] . وقال رسول الله (ﷺ): « لا تُقْتَلُ نفسٌ ظُلْماً إلاّ كانَ على ابنِ ادَمَ الأول كِفْلٌ من دمها، لأنَّه أوَّلُ مَنْ سَنَّ القَتْلَ»[(673)]، وقال رسول الله(ﷺ): « إذا ماتَ الإنسانُ انقطعَ عنه عملُه إلاّ مِنْ ثلاثةٍ: إلاّ من صدقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له »[(674)] .

وأمّا عملُ الآخرين، وما نشأَ عنه من اثار، فإنَّ مقتضى دلالةِ هذه النصوص عدمُ مؤاخذةِ الإنسانِ إن كان شراً، وعدمُ استحقاقِ ثوابه إنْ كان خيراً، وقد نصَّ على هذا لمعنى صراحةً قولُه سبحانه: ﴿أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى *وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى *﴾ **[النجم: 38 . 39]** وهذه الآية الكريمةُ لا تعني أنَّ الإنسانَ لا ينتفِعُ بعملِ غيرِه، وإنّما تعني أنَّ الإنسانَ لا يستحقُّ عملَ

غيرِه[(675)]، فظاهِرُ الآية أنَّ الإنسانَ ليس له إلا سعيه، وهذا حقٌّ، فإنَّه لا يملِكُ ولا يستحقُّ إلا سعيَ نفسِه، وأمَّا سعيُ غيرِه فلا يملِكُه ولا يستحقُّه، لكنّ هذا لا يمنعُ أن ينفعه الله ويرحمه به، كما أنّه دائماً يرحمُ عبادَه بأسبابٍ خارجةٍ عن مقدورهم[(676)] .

وقد دلّتِ النصوصُ الشرعيةُ على مُطْلَقِ الانتفاع بعمل الآخرين، ومن ذلك ما رواه البخاري[(677)] بسنده عن ابن عباس رضي الله عنه أنَّ سعدَ بنَ عبادةَ رضي الله عنه، توفِّيَتْ أُمه، وهو غائبٌ عنها، فقال: يا رسولَ اللهِ، إنَّ أُمي توفيتْ، وأنا غائبٌ عنها، فهل ينفعُها شيءٌ إنْ تصدَّقْتُ به عنها؟ قال «نعم» قال: «فإني أُشْهِدُكَ أنَّ حائطي المِخْرَافَ[(678)] صدقةٌ عليها» .

ومعنى نفعُ الميتِ بالصدقةِ عنه، تنزيلُه منزلةَ

المتصدِّقِ، بحيثُ تقعُ الصدقةُ نفسُها عن الميتِ، ويُكْتَبُ له ثوابُها[(679)] .

وهناك نصوصٌ شرعية تدلُّ على الانتفاع بعمل الآخرين في إسقاطِ هذه الحقوق إجمالاً وتفصيلاً .

أما الدليل الإجمالي فما رواه البخاريُّ[(680)] بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنّ امرأةً من جُهينة جاءتْ إلى النبيِّ (ﷺ) فقالتْ: إنَّ أُمي نذرتْ أن تحجَّ، فلم تحجَّ حتَّى ماتتْ، أفأحجُّ عنها ؟ قال: « نعم، حُجِّي عنها، أرأيتِ لو كان على أُمُّكِ دينٌ أكنتِ قاضيتَه ؟ أقضوا اللهَ فاللهُ أحقُّ بالوفاءِ»،

والحديثُ وإنْ وردَ على سبب خاص، وهو الحجُّ إلا أنَّ العبرةَ بعمومِ اللفظِ لا بخصوصِ السببِ على المعتمد من أقوال أهل العلم، ولذلك قال ابن حجر: ويلتحِقُ بالحجِّ كلُّ حقٍّ ثبتَ في ذمته، من كفارةٍ أو نذرٍ أو زكاةٍ أو غير ذلك[(681)] .

وأما الأدلة التفصيلية فمنها ما روته عائشة رضي الله عنها أنّ رسول الله (ﷺ) قال: « مَنْ ماتَ وعليه صيامٌ صامَ عنه وليُّه »[(682)]، وعن ابن عباس رضي الله عنه، قال: استفتى سعدُ بنُ عبادة رسول الله (ﷺ) في نذرٍ كان على أُمِّه، توفيتْ قبل أن تقضيَه، قال رسول الله (ﷺ): « فاقضِه عَنْها»[(683)] . وعن بُريدةَ رضي الله عنه، قال: بينما أنا جالسٌ عند رسولِ اللهِ (ﷺ) إذ أتته امرأةٌ فقالت: إِنّي تصدقتُ على أُمي بجاريةٍ، وإنَّها ماتتْ، قال: فقال: « وجبَ أجرُكِ، وردّها عليكِ الميراثُ » قالت: يا رسول الله، إنه كان عليها صومُ شهرٍ فأصومُ عنها ؟ قال: « صومي عنها » قالت: إنّها لم تحجَّ قط، أفأحجُّ عنها ؟ قال: « حُجّي عنها »[(684)] .

أمّا الحقوقُ التي للناس كالدَّين، فقد دلَّ على الانتفاع بعمل الآخرين في إسقاطها النصُّ والإجماعَ . أمّا النصُّ فما رواه البخاري[(685)] بسنده عن سلمة بن الأكوع، أنَّ النبيَّ (ﷺ) أُتِيَ بجنازةٍ ليصلّي عليها، فقال: « هل عليه من دينٍ ؟ » قالوا: لا، فصلّى عليه . ثم أُتِيَ بجنازةٍ أُخرى فقال: « هل عليه

مِنْ دينٍ ؟ » قالوا: نعم، قال: « صلوا على صاحبكم » . قال أبو قتادة: عليَّ دينُه يا رسولَ اللهِ، فصلّى عليه .

وأجمع المسلمون على أنَّ قضاءَ الدَّينِ يسقطُه من ذمّةِ الميِّت، ولو كان من أجنبي، أو مِنْ غير تركته ... وأجمعوا على أنَّ الحيَّ إذا كان له في ذمة الميّتِ حقٌّ من الحقوقِ، فأحلّه منه أنه ينفعُه ويبرأُ منه، كما يسقط من ذمة الحي[(686)]، ومن كلِّ ما سبق يتبيّن أنَّ النصوص الشرعية دلّت على جوازِ إهداءِ القُربات في الجملة[(687)]، وأنَّ الميّت يمكنُ أن ينتفعَ بكلّ ما يُهدى إليه من قرباتٍ عدا القرباتِ التي يتعيّن أن يفعلَها العبدُ بنفسه، كالإيمانِ والتوبةِ[(688)] .

سادساً ـ الشفاعة في أهل الكبائر:

الشفاعةُ المقبولة يمكِنُ أن تمنعَ إنفاذَ وعيدِ المعيّنِ من أهلِ الكبائرِ ظنّاً لا قطعاً، والشفاعةُ المقبولةُ هي التي انتظمت فيها شروطُ القَبولِ، وهي ثلاثة: إذنُ الله في الشفاعةِ، ودليله قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: 255] ورضاه عن الشافع، ودليله قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لاَ تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَانُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً *﴾ [طه: 109] أي إلاّ شفاعة مَنْ أَذَنِ له الرحمنُ[(689)]، ورضاه عن المشفوع له، ودليلُه قوله تعالى: ﴿وَلاَ

يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: 28] وأهلُ رضا اللهِ هم أهلُ التوحيدِ، ولو كانوا أهل كبائر[(690)] . وقد دلّ على هذه الشروط مجتمعةً قوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى *﴾ [النجم: 26] أي الشافعِ والمشفوعِ له[(691)] .

سابعاً ـ المصائِبُ المكفّرة :

المصائبُ اسمٌ جامع للآلام التي تلحقُ الإنسان نفسيةً كانتْ أو عضويةً، وهذه الالامُ إمّا أن تكونَ قدريةً، وإمّا أن تكونَ شرعيةً .

أمّا الالامُ القدريةُ فتنقسِمُ باعتبارِ المكانِ الذي تقع فيه إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول: الام دنيوية: كنقصِ الأموالِ والأنفسِ والثمراتِ .

القسم الثاني: الام برزخية، وهي ما تكونُ في القبر من الفتنةِ والضغطةِ والروعةِ.

القسم الثالث: الام أخروية، وهي ما تكونُ في عَرْصاتِ القيامة من الأهوالِ والكُرُبات والشدائد[(692)] .

وقد دلّتِ النصوص الشرعية بعمومها على أنَّ هذه الالام مما يكفِّرُ اللهُ به الخطايا، ومن هذه الأدلة: ما قاله رسولُ اللهِ (ﷺ): «ما مِنْ مصيبةٍ تصيبُ

المسلمَ إلاّ كفَّرَ اللّهُ بها عنه، حتَّى الشوكةِ يُشاكُها»[(693)] وقال رسول الله(ﷺ): «ما يصيبُ المسلمَ من نَصَبٍ[(694)]، ولا وَصَبٍ[(695)]، ولا هَمٍّ، ولا حَزنٍ ،ولا غمٍّ، حتّى الشوكةِ يشاكُها إلا كفّرَ الله بها من خطاياهُ»[(696)] وقال رسول الله (ﷺ): « ما مِنْ مُسْلمٍ يصيبُه أذًى، مرضٌ فما سواه، إلا حطَّ اللّهُ به سيئاتِهِ كما تحطُّ الشجرةُ ورقَها »[(697)]، وقال رسول الله (ﷺ): « لا يموتُ لأحد من المسلمين ثلاثةٌ من الولدِ فتمسه النارُ إلا تحلّةَ القَسَمِ»[(698)] .

وقد ذهبَ الجمهورُ مِن أهلِ العلمِ إلى أنَّ نفسَ المصائبِ مكفّراتٌ ومثيباتٌ ، واستدلوا بقول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا﴾ **[التوبة: 120]** فرتّبَ الله سبحانه الأجرَ على جملةِ أمورٍ، منها ما هو من المصائب، كالنَّصَبِ، فدلّ ذلك على أنَّ الإنسان يؤجر على المصائب نفسها[(699)]، وقال رسول الله (ﷺ): « ما مِنْ مسلمٍ يشاكُ شوكةً فما فوقَها إلا كُتِبَتْ له بها درجةً، ومُحِيَتْ عنه بها خطيئةً »[(700)] .

إنّ ما يحصلُ للمؤمن في الدنيا والبرزخ والقيامةِ من الالام التي هي عذابٌ، فإنّ ذلك مما يكفر به خطاياه[(701)] .

وأمّا الالام الشرعية فهي الحدودُ والتعزيراتُ، لأنها زواجِرُ وجوابرُ معاً .

أمّا إنها زواجرُ عن ارتكاب المحظورات وتركِ المأموراتِ، فالأمرُ فيها ظاهرٌ، ولذا قال الله تعالى في الزانية والزاني: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخر وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ *﴾ [النور: 2] وذلك للتغليظِ في زجرِهما عن المعاودةِ، ولزجر الناسِ عن فعلهما .

وأمّا إنّها جوابرُ بمعنى أنّ مجرّدَ فعلها مكفّرٌ لذنبِ المعاقَبِ دون حاجة إلى مكفر اخر، فدليله ما رواهُ عبادةُ بن الصامت رضي الله عنه، قال: كنّا مع رسولِ اللهِ (ﷺ) في مجلسٍ، فقال: « تُبايعوني على أنْ لا تُشْرِكوا باللهِ شيئاً، ولا تَزْنُوا، ولا تَسْرِقوا، ولا تَقْتُلوا النَّفْسَ التي حرّم اللهُ إلاّ بالحقّ، فَمَنْ وفَّى مِنْكُم فَأَجْرُهُ على اللهِ، ومَنْ أصابَ شيئاً من ذلكَ فعوقب به، فهو كفارةٌ له، ومَنْ أصاب شيئاً من ذلك فَسَتَرَهُ اللهُ عليهِ، فَأَمْرُهُ إلى اللهِ، إنْ شاءَ عفا عنه، وإنْ شاءَ عَذّبَهُ »[(702)]، فدلَّ الحديثُ على أنَّ العقابَ مكفِّرُ للذنب بمجرّد فعله، وهذا يعمُّ العقوباتِ الشرعيةِ المقدّرة وهي الحدودُ، وغير المقدرة وهي التعزيراتُ[(703)] .

ثامناً ـ العفو الإلهي:

دلّت النصوصُ الشرعيةُ المتواترةُ دِلالةً قطعيةً على أنَّ الله تعالى عفوٌّ غفورٌ، يتجاوزُ عمّا يستحقّه المذنبون من العقابِ، منها قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ *﴾ [الرعد: 6] وقال تعالى: ﴿وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ [الشورى: 25] وقوله تعالى: ﴿وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ *﴾ [الشورى: 30] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ *﴾ [الحج: 60] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا *﴾ [النساء: 43]، وهذه النصوصُ، وما في معناها تدلُّ قطعاً على أنَّ العفو الإلهي من موانعِ إنفاذِ الوعيدِ[(704)].

ولكن لا يمكنُ أن يمنعَ إنفاذُ وعيدِ الكفرِ قطعاً، ودليلُ هذا الأصلِ القرآن والسنةُ :

فالقرآن الكريم يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: 48] وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ *﴾ [المائدة: 72] .

وأمّا السنة فقد قال رسول الله (ﷺ): « مَنْ ماتَ وهو يدعو مِنْ دونِ اللهِ نِدّاً دخلَ النارَ »[(705)] . ولا خلاف بين المسلمين أنَّ المشرك إذا ماتَ على شركِه لم يكنْ من أهلِ المغفرةِ[(706)] .

والعفو الإلهي يمكِنُ أن يمنعَ إنفاذَ وعيدِ أهل الكبائر، قال تعالى :

﴿لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا *﴾ **[النساء: 48]** أبانت هذه الآية أنَّ كلَّ صاحبِ كبيرةٍ ففي مشيئة الله، إنْ شاءَ عفا عنه، وإن شاء عاقبه عليه، ما لم تكن كبيرته شِرْكاً بالله[(707)] .

وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ اللهِ (ﷺ) يقول: « يُدْنَى المؤمنُ يومَ القيامةِ مِنْ رَبّه عزّ وجلّ حتّى يضعَ عليه كَنَفَهُ[(708)]، فيقرّره بذنوبه، فيقول: هل تَعْرِفُ؟ فيقول: أيْ ربِّي أعرفُ، قال: فإِنّي قَدْ سترتُها عليكَ في الدنيا، وإِنّي أغفرُها لك اليوم »[(709)]، وعن أنس رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسولَ الله (ﷺ) يقول: « قال الله تعالى: يا ابنَ ادمَ إنَّك لو لقيتني بِقُرابِ الأرضِ خطايا، ثم لقيتَني لا تشرك بي شيئاً لأتيتُك بقُرابها مغفرةً»[(710)] .

* * *

المبحث الرابع : الجَنَّة

أولاً . الطريق إلى الجنة:

إنّ بدايةَ الطريق إِلى الجنة هو أن نتذكّرَ الغايةَ التي خلقنا الله تعالى لأجلها، حيث قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ *مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ *﴾ [الذاريات: 56 . 57] . ومعنى الآية أنّه تبارك وتعالى خلَقَ العبادَ ليعبدوه وحدَه، لا شريكَ له، فَمَنْ أطاعه جازاه أتمَّ الجزاء، ومن عصاه عذّبه أشدَّ العذاب، وأخبر أنّه غيرُ محتاجٍ إليهم، بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم، فهو خالقُهم ورازقُهم، وفي الحديث القدسي: « يا ابنَ ادمَ تفرّغْ لعبادتي أملأْ صدركَ غنًى، وأسدُّ فقركَ، وإلاّ تفعلْ ملأتُ صدرَكَ شُغلاً، ولم أسدَّ فقركَ »[(711)] . فالله عزّ وجلّ ما خلَقَ العبادَ إلا لغايةٍ واحدةٍ، وهي أن يعبدُوه سبحانه، وهذا يقتضي أن يحرصَ العبدُ أن تكونَ كلُّ أعماله بل كلُّ حياته عبادةً لله تعالى ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ *﴾ [الأنعام: 162 . 163] .

والعبادةُ الشاملةُ المطلوبةُ هي ألاّ تتقدّم بين يدي الله ورسوله (ﷺ) بقولٍ أو فعلٍ تفعله مِنْ عندِ نفسك، قبل أن تعلمَ حكمَ الله وحكمَ الرسول (ﷺ) فيه،

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ *﴾ [الحجرات: 1] فمن العبادةِ المتابعةُ التامةُ لكلِّ ما جاء عن النبيِّ (ﷺ) من الأقوالِ والأفعالِ، مع الإخلاص في ذلك لله ربِّ العالمين [(712)] . فالمتابعة التامة للنبيِّ (ﷺ) هي الكفيلةُ بتحقيقِ منزلةِ العبودية التامة لله ربِّ العالمين، مع الوفاء بحاجتنا البشرية على أكملِ وجهٍ ممكن[(713)] .

ولابدَّ لدخولِ الجنّة من عملٍ، فالعملُ ركنٌ من أركان الإيمان، وقد نصَّ الله تعالى في مواضعَ كثيرةٍ أنَّ العملَ سببٌ لدخولِ الجنان، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ *﴾ [الزخرف: 72] وقال تعالى: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ *﴾ [الأعراف: 43] .

والقرآن يذكر كثيراً أنَّ أصحاب الجنة هم المؤمنون الذين يعملون الصالحات، فالإيمانُ هو ما في القلب، والعملُ الصالحُ هو ما ظهرَ على الجوارح، فهو جمعٌ بين العقيدة والشريعة، أو الإيمان والإسلام، أو عمل الباطن (القلب) وعمل الظاهر (الجوارح)، فلا يكفي أحدُهما عن الآخر، فمن امن ولم يعمل فهو كاذبٌ في إيمانه، إذ لو امنَ حقاً لظهر على جوارحه أثرُ الإيمان بالأعمال الصالحة، ومن عمل الصالحات من غير إيمانٍ فإنّها لا تنفعه ،إذ شرط قبول الأعمال تقدم الإيمان، كما في حديث عائشة قالت: قلتُ يا رسول الله ابنُ جدعان كان في الجاهلية يصلُ رحمَه، ويطعمُ المسكينَ، فهل ذلك نافعهُ ؟

قال: « لا ينفعهُ، إنّه لم يقلْ يوماً ربِّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين» [(714)]، وعن أنس بن مالك قال: قال رسولُ اللهِ (ﷺ): « إنّ الله لا يظلِمُ مؤمناً حسنةً يعطي بها في الدنيا، ويجزي بها في الآخرة، وأمَّا الكافِرُ فيُطعَمُ بحسناتِ ما عملَ بها للهِ في الدنيا، حتى إذا أفضَى إلى الآخرة لم تكن له حسنةٌ يجزَى بها »[(715)] .

إذن لابدّ للجنة من إيمانٍ وعملٍ صالحٍ، فمن كان عنده هذان الشرطان استحقَّ ـ بعدَ رحمةِ الله ـ الجنَةَ[(716)]، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ *﴾ [البقرة: 82] وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ *أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *﴾ [الأحقاف: 13 ـ 14] .

وقد فصّل لنا الله تعالى بعضَ أنواعِ الأعمال الصالحة، فمن ذلك :

1 ـ التوبة: قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا *إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئًا *﴾ [مريم: 59 ـ 60] .

2 ـ تزكية النفس: قال تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى *﴾ [طه: 76] .

3 . **التقوى**: قال تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا *﴾ [مريم: 63] .

4 . **الصبر في البأساء والضراء**: قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ *﴾ [البقرة: 214] .

5 . **الجهاد في سبيل الله**: قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ *﴾ [آل عمران: 142] وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ *تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ *يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *﴾ [الصف: 10 . 12] .

6 . **الشهادة**: قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ *وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ *﴾ [محمد: 4 . 6] .

7 . **الابتعاد عن الكبائر**: قال تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيمًا *﴾ [النساء: 31] .

8 . **إقام الصلاة والإنفاق في سبيله تعالى**: قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ﴾ **[الرعد: 22 . 24]** .

9 . **التوكل على الله**: قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ *الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ *﴾ **[العنكبوت: 58 . 59]** .

10 . **قيام الليل**: قال تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا﴾ **[السجدة: 16 . 17]** وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ *آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ *﴾ **[الذاريات: 15-19]** .

11 . **خوف الله**: قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى *فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى *﴾ **[النازعات: 40 . 41]** .

وهذه بعض الآيات التي جمعت الكثير من الأعمال الصالحة[(717)] .

من سورة المؤمنون: قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ *الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ *وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ *وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ *وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ *إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ

مَلُومِينَ *فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ *وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ *وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ *أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ *الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ *﴾ .

من سورة الفرقان: قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَاناً *وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا *أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاَمًا *خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا *﴾ .

من سورة التوبة: قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالقرآن وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ *﴾ .

من سورة ق: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ *هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ *مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَانَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ *ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ *لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ *﴾ .

من سورة المعارج: قال تعالى: ﴿إِلاَّ الْمُصَلِّينَ *الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ *وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ *لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ *وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ *وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ *إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ *وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ *إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ *فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ *وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ *وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ *وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ *أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ *﴾ .

من سورة آل عمران: قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ *الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ *وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ *أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ *﴾ .

وعموماً فكلُّ طاعةٍ لله ورسوله (ﷺ) هي من الأعمال الصالحة، وهي سببٌ لدخول الجنة، قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا

الأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا *﴾ [الفتح: 17]، وهذا في القرآن كثير، ومداره على ثلاثِ قواعدَ: إيمانٌ، وتقوًى، وعملٌ خالصٌ لله على موافقة السنة، فأهل هذه الأصول الثلاثة هم أهل البُشرى دون من عداهم من سائر الخلق، وعليها دارت بشاراتُ القرآن والسنّةُ، وجميعها تجتمع في أصلين: إخلاص في الطاعة، وإحسان إلى الخلق .

وضدُّها يجتمع في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ *وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ *﴾ [الماعون: 6 . 7] .

وترجعُ إلى خصلةٍ واحدةٍ وهي موافقةُ الربِّ تبارك وتعالى في محابّه، ولا طريقَ إلى ذلك إلا بتحقيق القدوة ظاهراً وباطناً برسول الله (ﷺ) .

وأما الأعمال التي هي تفاصيلُ هذا الأصل، فهي بضعٌ وسبعونَ شعبة، أعلاها قولُ لا إله إلاّ الله، أدناها إماطةُ الأذى عن الطريق، وبين هاتين الشُّعبتينِ سائرُ الشُّعَبِ التي مرجعُها تصديقُ الرسول (ﷺ) في كلِّ ما أخبرَ، وطاعته في جميع ما أمرَ استحباباً وإيجاباً[(718)] .

وأمّا الأعمالُ التي هي سببٌ لدخول الجنة الواردة في السنة، فالأحاديثُ فيها أكثر من أن تحصر[(719)] .

ثانياً ـ هل الجنة ثمناً للعمل:

لاشكَّ أنَّ الأعمال سببٌ لدخول الجنة، ولكنَّ الجنَّة أعظمُ من أعمالنا، ولا يمكنُ لأعمالنا أن تدرِكَ بذاتها الجنةَ، لذلك فإنّ اللّهَ برحمته يُدْخِلُ المؤمنين الجنَّة، ويجعلها من نصيبهم، مع تقصيرهم في العمل لها، وكيف لهم أن يدركوا هذا الفضلَ وأصلُ هدايتهم إلى العمل الصالح من الله، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ﴾ [الأعراف: 34] .

ثم إنَّ الله تعالى يكرمهم ويجازيهم على هذه الهداية، التي أعطاهم إيّاها بجزاءٍ عظيمٍ جدّاً وهي الجنة، فكيف يمكِنُ لأعمالهم أن تدركَ هذا الجزاءَ الذي الفضلُ فيه لله أولاً واخراً[(720)]؟ وقال رسول الله (ﷺ): «لا يدخلُ أحدُكم الجنّةَ بعمله» قالوا: ولا أنتَ يا رسول اللهِ؟ قال: «ولا أنا؛ إلاّ أن يتغمدَني اللهُ برحمةٍ مِنْ فَضْلِهِ»[(721)]، وعن عائشة زوجِ النبيّ (ﷺ) أنَّها كانتْ تقولُ، قال رسول الله (ﷺ): «سَدِّدُوا وقارِبُوا وأَبْشِروا، فإنّه لن يُدْخِلَ الجنةَ أحداً عملُه»[(722)]، قالوا: ولا أنتَ يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا؛ إلا أنْ يتغمَّدني اللّهُ مِنْهُ برحمة، واعلمُوا أنَّ أحبَّ العملِ إلى اللهِ أدومُه وإنْ قَلّ»[(723)]. وعن جابرٍ قال سمعتُ النبيَّ (ﷺ) يقول: « لا يُدْخِلُ أحداً مِنْكُمْ عملُهُ الجنةَ، ولا يجيرُه من النَّارِ، ولا أنا ؛ إلاّ برحمةٍ مِنَ اللهِ »[(724)] وهو حديث متواتر [(725)].

وأما قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ *﴾ [الأعراف: 43] وقوله: ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *﴾ [السجدة: 17] فلا تعارُضَ بينها وبين الحديث، لأنّ الآية تدلُّ على أنَّ العملَ سببٌ، والحديثُ يدلُّ على أنَّ الأعمالَ ليستْ ثمناً للجنّةِ ولابدَّ مِنْ رحمةِ الله تعالى حتّى يبلّغوا هذا العطاءَ العظيمَ[(726)] .

ثالثاً . أول واخر من يدخل الجنة :

قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ *أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ *فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ *﴾ [الواقعة: 10 . 12] السابقون همُ المبادرون إلى فعل الخيرات، فالسابقون إليها في الحياة الدنيا هم السابقون إلى الجنة في الحياة الآخرة، ثم يلي السابقينَ أصحابُ اليمين الأبرار، الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم، منزلتُهم دونَ المقرّبين، فهم أقلُّ درجة في النعيم من السابقين[(727)]، قال تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ *فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ *وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ *وَظِلٍّ مَمْدُودٍ *وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ *وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ *لاَ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ *وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ *إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً *فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا *عُرُبًا أَتْرَابًا *لأِصْحَابِ الْيَمِينِ *ثُلَّةٌ مِنَ

الأَوَّلِينَ *وَثُلَّةٌ مِنَ الآخرينَ *﴾ [الواقعة: 27 . 40] ولاشك أنَّ رسولَنا محمّداً(ﷺ) أولُ السابقينَ، وأنَّه أولُ مَنْ تُفْتَحُ له الجنةُ، وتدخلُ أمتُهُ بعدَه، وهي أول الأمم دخولاً الجنة .

وقد دلَّ على ذلك أحاديث كثيرة منها[(728)]: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): « أنا أكثرُ الأنبياءِ تَبَعاً يومَ القيامةِ، وأنا أَوّلُ من يقرعُ بابَ الجنَّةِ »[(729)] . وقال رسول الله (ﷺ): « اِتي بابَ الجنَّةِ يومَ القيامةِ فأَسْتَفْتِحُ، فيقولُ الخازنُ: مَنْ أنتَ ؟ فأقول: محمّدٌ، فيقولُ: بِكَ أُمِرتُ لا أفتحُ لأحدٍ قبلك »[(730)]، وقال رسول الله (ﷺ): « نحنُ الآخرونَ الأوّلونَ يومَ القيامةِ، ونحنُ أوَّلُ مَنْ يدخلُ الجنَّة »[(731)] .

وأما اخِرُ مَنْ يدخل الجنَّة، فقد ذكرَ رسولُ اللهِ (ﷺ) حديثاً عن ذلك، فقال: « إنِّي لأعلمُ اخرَ أهلِ النارِ خُروجاً مِنها، واخرَ أهلِ الجنّة دخولاً، رجلٌ يخرجُ مِنَ النّارِ حَبْواً، فيقولُ اللهُ: اذهبْ فادْخُلِ الجنَّةَ، فيأتيها فيُخيَّلُ إليه أنَّها ملأى، فيرجِعُ فيقول: يا ربِّ وجدتُّها ملأى، فيقول: اذهبْ فادْخُلِ الجنّة، فيأتيها فيُخيّلُ إليه أنَّها ملأى، فيرجعُ فيقولُ: يا ربِّ وجدتُّها ملأى، فيقول: اذهبْ فادْخُلِ الجنّةَ، فإنَّ لكَ مِثْلَ عشرةِ أمثالِ الدُّنيا، فيقول: تسخرُ منِّي أو تضحَكُ منِّي، وأنتَ المِلِكُ؟ » قال الراوي عبد الله بن مسعود: فلقد رأيتُ

رسولَ اللهِ (ﷺ) ضَحِكَ حتّى بَدَتْ نواجِذُه، وكان يقال: « ذلك أدنى أهلِ الجنّةِ منزلةً »[(732)] .

رابعاً ـ الذين يدخلون الجنة بغير حساب:

أولُ زمرةٍ تدخلُ من هذه الأمة الجنةَ هم القمم الشامخة في الإيمان والتُّقى والعمل الصالح، والاستقامة على الدين الحق، يدخلون الجنّةَ صفاً واحداً، لا يدخلُ أولهم حتى يدخلَ اخرُهم، صورُهم على صورة القمر ليلة البدر، قال رسول الله (ﷺ): « أوّلُ زمرةٍ تلجُ الجنَّة صورهم على صورةِ القمر ليلةَ البدرِ[(733)]، لا يَبْصُقُونَ فيها، ولا يتمخّطون، ولا يتغوّطون، انيتُهم فيها الذهبُ، أمشاطُهم من الذهبُ والفِضّةُ، وَمَجامِرُهم من الأُلوّةِ، ورشحُهم المِسْكُ، ولكلِّ واحدٍ منهم زوجتانِ، يُرَى مخُّ ساقِهما من وراءِ اللحمِ من الحُسْنِ، لا اختلافَ بينهم ولا تباغُضَ، قلوبُهم قلبُ رجلٍ واحدٍ، يسبّحون الله بكرةً وعشياً »[(734)] .

وقال رسول الله (ﷺ): « أعطيتُ سبعينَ ألفاً من أُمّتي يدخلونَ بغيرِ حسابٍ، وجوهُهم كالقمرِ ليلةَ البدرِ، قلوبُهم على قلب رجلٍ واحدٍ، فاستزدتُ ربّي عزّ وجلّ فزادني مع كلِّ واحد سبعين ألفاً[(735)] .

وقد وصف الرسول (ﷺ) السبعين ألفاً الأوائل وبيّن علاماتهم، فقال: « عُرِضَتْ عليَّ الأممُ، فأخذَ النبيُّ يمرُّ معه الأمةُ، والنبيُّ يمرُّ معه النفرُ، والنبيُّ يمرُّ معه العشرةُ، والنبيُّ يمرُّ معه الخمسةُ، والنبيُّ يمرُّ وحدَه، فنظرتُ فإذا سوادٌ كثيرٌ . قال: هؤلاءِ أمتُك، وهؤلاءِ سبعون ألفاً قدّامهم، لا حسابَ عليهم ولا عذابَ، قلتُ: ولِمَ ؟ قال: كانوا لا يَكْتَوُوْنَ، ولا يَسْتَرْقُوْنَ، ولا يَتَطيَّرُوْنَ، وعلى ربِّهم يتوكّلون »، فقام إليه عُكّاشة بن مِحْصن فقال: ادعُ الله أن يجعلني منهم، قال: « اللهمّ اجْعَلْه مِنْهم » ثم قام إليه رجل فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، قال: « سبقك بها عُكّاشة »[(736)] .

خامساً: أسماء الجنة:

الجنةُ هي دار كرامةِ الله التي أعدّها لعباده المتقين، ولها أسماء كثيرة فمنها :

1 . الجنة: وهو الاسم المشهور لها، قال تعالى: ﴿لاَ يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ *﴾ **[الحشر: 20]** .

2 . جنة الخلد: قال تعالى: ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا *﴾ **[الفرقان: 15]** وسُمّيت بذلك لخلودِ أهلها فيها.

3 . **جنة النعيم**: قال تعالى: ﴿وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ *﴾ [الشعراء: 85] وسُمِّيت بذلك لما فيها من النعيم المقيم الكريم .

4 . **جنة المأوى**: قال تعالى: ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى *﴾ [النجم: 15] وسمّيت بذلك لأنها مأوى المؤمنين .

5 . **جنات عدن**: قال تعالى: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابُ *﴾ [ص: 50] فهي درجةٌ من درجاتِ الجنة .

6 . **دار السلام**: قال تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *﴾ [الأنعام: 127] وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ *﴾ [يونس: 25] وسمّيت بذلك لأمور منها :

ـ لأنها سالمةٌ من كلِّ المنغصات والمكدرات، ومن كلِّ بليةٍ وافةٍ .

ـ لأنّها دارُ السلام، ومن أسمائه «السلام» كما قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ [الحشر: 23] فهي دارُ السّلام، يعني دار اللهِ، فهو سبحانه الذي سلّمها، وسلّم أهلها .

ـ لأن: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ *﴾ [إبراهيم: 23] ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلاَمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ [الأحزاب: 44] .

ـ لأنّ أولَ ما يستقبِلُهم به خزنةُ الجنّة هو السلامُ: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ

طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ *﴾ [الزمر: 73] وقال تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ *سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ *﴾ [الرعد: 23 ـ 24] والربُّ يسلم عليهم من فوقهم ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ *سَلاَمٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ *﴾ [يس: 57 ـ 58] .

ـ لأنّ كلامَهم فيها سلامٌ، أي لا لغو فيها ولا فحش ولا باطل، لا يقولونه ولا يسمعونه، وقال تعالى: ﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلاَّ سَلاَمًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا *﴾ [مريم: 62] وقال تعالى: ﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلاَ كِذَّابًا*﴾ [النبأ: 35] وقال تعالى: ﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلاَ تَأْثِيمًا *إِلاَّ قِيلاً سَلاَمًا سَلاَمًا *﴾ [الواقعة: 25 ـ 26] .

7 ـ دار المتقين: قال تعالى: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ *﴾ [النحل: 30] وسُمِّيت بذلك لأنّهم أهلُها .

8 ـ دار الآخرة: قال تعالى: ﴿وَلَدَارُ الآخرة خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلاَ تَعْقِلُونَ*﴾ [يوسف: 109] والغالبُ أنْ تذكر بلفظ التعريف للدار، فيقال: الدّار الآخرة، قال تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخرة نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ *﴾ [القصص: 83] .

9 . الحسنى: قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ **[يونس: 26]** [(737)]

وقال رسول الله (ﷺ): « الحُسْنَى الجنةُ، والزيادةُ النظرُ إلى وَجْهِ الرحمن»[(738)] .

10 . دار المقامة: قال تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ **[فاطر: 34 . 35]** دار المقامة يعني دار الإقامة[(739)] .

11 . الفردوس: قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ *الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ *﴾ **[المؤمنون: 10 . 11]** .

ولو توسعنا في هذا لذكرنا أسماءً كثيرةً مثل :

12 . المُدْخَلِ الكريم، المأخوذ من قوله: ﴿وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيمًا *﴾ **[النساء: 31]** .

13 . حُسْنَ الماب، المأخوذ من قوله تعالى: ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ *جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابُ *﴾ **[ص: 49 . 50]** [(740)].

سادساً: صفة الجنة:

مهما كتبَ الكتّاب والأُدباء، وتخيّل المتخيلون، وأبدعَ المبدعون وصفاً للجنة، فلن نجدَ مثل وصف القرآن الكريم ونبيّه الكريم(ﷺ) لحقيقتها، فقد وصفها الله عز وجل بأمور منها :

1 . أبواب الجنة:

قال تعالى: ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ *جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابُ *﴾ [ص: 49 .50] وقال تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ *سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ *﴾ [الرعد: 23 . 24] وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ *﴾ [الزمر: 73] .

وقال رسول الله (ﷺ): « في الجنّةِ ثمانيةُ أبوابٍ، فيها بابٌ يُسمّى الريانُ، لا يدخلُه إلا الصّائمون »[(741)] .

وقال رسول الله (ﷺ): « مَنْ قال: أشهدُ أنْ لا إلهَ إلاّ الله وحدَه، لا شريكَ له، وأنَّ مُحمَّداً عبدهُ ورسولُه، وأنَّ عيسى عبدُ اللهِ، وابنُ أمَتِهِ، وكلمتُه ألقاها إلى مريمَ، وروحٌ منه، وأنَّ الجنةَ حقٌّ، والنّارَ حَقٌّ، أدخله اللهُ مِنْ أيِّ أبوابِ الجنّةِ الثمانيةِ شاء »[(742)] .

وقال رسول الله (ﷺ): « مَنْ أنفقَ زوجينِ[(743)] في سبيلِ اللهِ نُودِيَ في الجنّةِ: يا عبدَ اللهِ، هذا خيرٌ، فَمنْ كانَ مِنْ أهلِ الصَّلاةِ دُعِي مِنْ بابِ الصلاةِ، ومَنْ كانَ مِنْ أهلِ الجهادِ دُعِيَ من بابِ الجهادِ، ومَنْ كانَ مِنْ أهلِ الصّدقةِ دُعِيَ من بابِ الصدقةِ، ومَنْ كانَ من أهلِ الصيامِ دُعِيَ من بابِ

الرّيانِ »، قال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، ما على أحدٍ يُدعى من تلك من ضرورةٍ، فهل يُدْعَى أحدٌ من تلك الأبوابِ كلِّها ؟ قال رسول الله (ﷺ): « نعم، وأرجو أن تكونَ مِنْهُم »[(744)] .

2 . قصور الجنة وخيامها:

لقد بنى الله سبحانه في الجنة مساكنَ طيبةً للإقامة المطمئنة الخالدة، وقد سمّى الله عزّ وجلّ في مواضعَ من كتابه العزيز هذه المساكن بالغُرفات، وهي القصور التي مِنْ فوقها غُرَفٌ مبنية محكمة مزخرفة عاليةٌ[(745)]، كما أنّ الغرفة أكرمُ من البهوِ فيما اعتادَ الناسُ في البيوت في هذه الحياة الدنيا عندما يستقبلون الضيوفَ، وأنَّ في الجنةِ خياماً عجيبةً، فهي من دُرّةٍ مجوّفةٍ، وفي ذلك يقول سبحانه في ايات كثيرة منها :

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *﴾ [التوبة: 72] .

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ *﴾ [سبأ: 37] .

وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاَمًا *خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا *﴾ [الفرقان: 75 . 76] .

وقال تعالى: ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ *﴾ [الزمر: 20] .

وقوله سبحانه في خيام الجنة: ﴿حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ *﴾ [الرحمن: 72] إشارةٌ إلى معنًى في غاية اللطف، وهو أنَّ المؤمنَ في الجنةِ لا يحتاجُ إلى التحرّك لشيءٍ، وإنَّما الأشياءُ تتحرّك إليه، فالمأكولُ والمشروبُ يصلُ إليه من غيرِ حركةٍ منه، ويطافُ عليهم بما يشتهونه، فالحورُ يَكُنَّ في بيوت، والعرب يمدحون النساء الملازماتِ للبيوتِ للدِّلالة على شدّة الصيانة[(746)]، وعندِ الانتقال إلى المؤمنين في وقتِ إرادتهم تسيرُ بهم للارتحال إلى المؤمنين خيامٌ، وللمؤمنين قصورٌ تنزل الحورُ من الخيامِ إلى القصور[(747)] .

وقد وصف رسولنا (ﷺ) قصورَ الجنة، حين دلّنا على صفاتِ بعض قصور أصحابه، فقال: أتى جبريلُ النبيَّ (ﷺ) . فقال: « يا رسولَ اللهِ، هذه خديجةُ قد أتتْ مَعَها إناءٌ فيه إدامٌ أو طعامٌ أو شرابٌ، فإذا هي أتتْكَ فاقرأ عليها السلامَ مِنْ ربّها ومنّي، وبشّرْها ببيتٍ في الجنَّةِ من قَصَبٍ[(748)]، لا صَخَبَ[(749)] فيه ولا نَصَبَ »[(750)] .

وقال رسول الله (ﷺ): « دخلتُ الجنةَ فرأيتُ فيها داراً أو قصراً، فقلتُ: لِمَنْ هذا ؟ فقالوا: لعمر بنِ الخطابِ، فأردتُ أن أدخلَ، فذكرتُ غيرتَك » فبكى عمر وقال: أي رسول الله، أو عليكَ يُغَارُ[(751)] .

وقد وصف النبيُّ (ﷺ) خيامَ الجنة بأنها دُرّةٌ مجوّفة طولها في السماء ثلاثون ميلاً، عن أبي بكر الأشعري عن أبيه أن النبيَّ (ﷺ) قال: « الخيمةُ درّةٌ مجوّفةٌ طولها في السماءِ ثلاثون ميلاً، في كلِّ زاويةٍ منها للمؤمن أهلٌ لا يراهم الآخرون »[(752)] .

3 . أشجار الجنة وثمارها :

وُصِفَتِ الجنّةُ بأنها البستانُ المحفوفُ بالشجر، المتكاثفُ بالأعناب والنخيل والرمان، حيثُ الجمالُ الرائعُ، والأشجارُ المتدانية القطوفُ، الوفيرةُ الاثار، وقد حفل القرآن الكريم بشواهدَ لهذا الصنف من الخير والجمال، فقال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا *حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا *﴾ **[النبأ: 31 . 32]** .

وإلى جانب هذه الحدائق والأعناب هناك فاكهة كثيرة متنوعة، منها ثمرُ النخيل والرمان ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ *﴾ **[الرحمن: 68]** كما أن مِنْ أشجارِ الجنّةِ السِّدْرُ المخضودُ الذي لا شوك فيه، بخلافِ سدر الدنيا، فإنَّه كثيرُ الأشواكِ، قليلُ الثمرِ، وفي الآخرة على العكس، وإنَّ مِنْ أشجارِ الجنّةِ

الطلحُ المنضودُ الذي يشبه طلحَ الدنيا، لكن له ثمرٌ أحلى من العسل، وأنَّه متراكِمُ الثمر[(753)]، وقال تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ *فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ *وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ *وَظِلٍّ مَمْدُودٍ *وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ *وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ *لاَ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ *﴾ [الواقعة: 27 ـ 33] [(754)].

وفواكهُ الجنّةِ لا تُحجَبُ عن مؤمن فضلاً عن كل معين يطلبه، وإذا كان قد ذكر بعض أنواع الفواكه، فإنَّ ما يحبه المؤمن من فاكهة يعرفها، له أن يدعوَ ليجدَ بغيته أمامه، قال تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ *﴾ [ص: 51] وقال تعالى: ﴿وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ *﴾ [الواقعة: 20] وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلاَلٍ وَعُيُونٍ *وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ *كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ *﴾ [المرسلات: 41 ـ 43] .

وأشجارُ الجنة دائمةُ العطاء، فهي ليست كأشجارِ الدنيا تعطي في وقتٍ دونَ وقتٍ، وفصلٍ دون فصلٍ، بل هي دائمةُ الأثمارِ والظلالِ، وهي نعمةٌ تطمئنّ لها النفسُ وتستريح[(755)]، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ *﴾ [الرعد: 35] وقال سبحانه: ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ *لاَ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ*﴾ [الواقعة: 32 ـ 33] .

ووصف الله عز وجل أشجار الجنة بأنّها ذاتُ أغصانٍ جميلةٍ، وأنها شديدةُ الخضرةِ، وأنَّ ثمارَها قريبةٌ دانيةٌ مذلَّلةٌ، ينالها أهلُ الجنّةِ بيسرٍ وسهولةٍ[(756)]

قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ *فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ *ذَوَاتَا أَفْنَانٍ *﴾ [الرحمن: 46 . 48] وقال عز وجل: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ *فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ *مُدْهَآمَّتَانِ *﴾ [الرحمن: 62 . 64] وقال سبحانه: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ *﴾ [الرحمن: 54] وقال تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ *قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ *﴾ [الحاقة: 22 . 23] .

ولقد وصف الرسولُ (ﷺ) بعض أشجار الجنة بأوصافٍ عجيبةٍ منها[(757)] :

أ . **الشجرة التي يسير الراكب فيها مئة عام:** وهي الشجرةُ التي ذكرت في قوله سبحانه: ﴿وَظِلٍّ مَمْدُودٍ *﴾ [الواقعة: 30] وقد فسّره النبيُّ (ﷺ) فقال: «إنّ في الجنّةِ شجرةً يسيرُ الراكبُ في ظلّها مئةَ عام لا يقطعُها، واقرؤوا إنْ شئتم: [(758)]»، وعن ﴿وَظِلٍّ مَمْدُودٍ *﴾ بن سعد عن رسول الله (ﷺ) قال: «إنّ في الجنّةِ لشجرةٌ يسير الراكبُ في ظلّها مئةَ عامٍ لا يقطعُها »[(759)].

ب . **سدرة المنتهى:** قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى *عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى *عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى *إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى *مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى *لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى *﴾ [النجم: 13 . 18] وقال تعالى: ﴿فِي سِدْرٍ

مَخْضُودٍ *وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ *وَظِلٍّ مَمْدُودٍ *﴾ [الواقعة: 28 . 30] فذكر في هذه الآيات ثلاثَ أنواعٍ من الأشجارِ، منها: السِّدْرُ، وفي قوله: مخضود أي منزوعُ الشوكِ .

ج . **شجرة طوبى:** ومن أشجار الجنة شجرةٌ تسمّى « طوبى » وهي كما تبيّنَ مِنْ وصفها شجرةٌ عظيمةٌ تَخرج منها ثيابُ أهل الجنة، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله (ﷺ) أنَّ رجلاً قال له: يا رسول الله، طوبى لمن راك، وامن بك، قال: « طُوبى لِمَنْ راني وامَن بي، ثم طُوْبَى ثم طُوْبَى لمن امن بي ولم يَرَني »، وقال له رجل: وما طوبى ؟ قال: « شجرةٌ في الجنّةِ، مسيرةُ مئةِ عامٍ، ثيابُ أهلِ الجنّةِ تخرجُ من أكمامِهَا »[(762)] .

وجميعُ أشجار الجنة لها ظلٌّ ظليلٌ، كما قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً *﴾ [النساء: 57] والمؤمن يكثر حظُّه من أشجارِ الجنة بالإكثارِ من سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، قال رسولُ الله (ﷺ): « لقيتُ إبراهيمَ ليلةَ أُسرِيَ بي، فقال: يا محمّدُ، أقرىء أُمّتكَ منّي السّلامَ وأخبرهم أنَّ الجنةَ، طيبةُ التربةِ، عذبةُ الماءِ، وأنَّها قيعانٌ، وأنَّ غرسَها: سبحانَ اللهِ، والحمدُ للهِ، ولا إله إلا الله، واللهُ أكبرُ»[(763)] .

وسيقان أشجارِ الجنّةِ مِنْ ذهبٍ، قال رسول الله (ﷺ): « ما في الجنّةِ شجرةٌ إلا وساقُها من ذَهبٍ »[(764)] .

فالجنةُ خالدةٌ، لا تفنى ولا تبيد، وأنواعُ نعيمها دائمةٌ، لا تنقطعُ ولا تمنعُ، وأهلُها فيها خالدون، لا يرحلون عنها ولا يظعنون، ولا يبيدون ولا يموتون[(765)] . قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً *﴾ [النساء: 122] وقال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً *خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً *﴾ [الكهف: 107 . 108] وقال سبحانه: ﴿فِي مَقَامٍ أَمِينٍ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ *يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ *كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ *يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ *لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ *فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *﴾ [الدخان: 51 . 57] .

4 . درجات الجنة:

الجنةُ درجاتٌ متفاضلاتٌ تفاضلاً عظيماً، وأولياءُ الله المتقون في تلك الدرجات بحسب إيمانهم وتقواهم، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ﴾ [طه: 75] .

وقال تبارك وتعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاَهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا *وَمَنْ أَرَادَ الآخرة وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا *كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا *انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً *﴾ [الإسراء: 18 . 21] فبيّن الله سبحانه وتعالى أنه يمدُّ من يريدُ الدنيا ومن يريدُ الآخرة من عطائه، وأنَّ عطاءَه ما كان محظوراً من برٍّ ولا فاجر، ثم قال: ﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً *﴾ فبيَّن الله سبحانه أنّ أهل الآخرة يتفاضلون فيها أكثر مما يتفاضل الناسُ في الدنيا، وأن درجات الآخرة أكبر من درجات الدنيا[(766)] .

وتفاضلُ أنبيائه عليهم السلام كتفاضل سائر عباده المؤمنين، قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: 253]

وقال تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ *﴾ [آل عمران: 163] .

وهذه الدرجات تختلف باختلاف العمل، فكلّما كان عملُ الإنسانِ أكثرَ، وموافقاً للسنة، كان أجرُه أكثرَ، ودرجتهُ في الجنة أعلى، قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ *﴾ [الأحقاف: 19] .

وأهلُ الدرجاتِ العالياتِ يكونون في نعيمٍ أرقى من الذين دونهم، فقد ذكر الله أنّه أعدَّ للذين يخافون جنتين: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ *﴾ [الرحمن: 46] ووصفهما ثم قال: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ *﴾ [الرحمن: 62] أي دونَ تلك الجنتين في المقام والمرتبة، ومن تأمّلَ صفاتِ الجنتين اللتين ذكرهما الله اخراً، علم أنّهما دون الأُوليينِ في الفضل، فالأُوليان للمقربين، والآخريان لأصحاب اليمين، قال القرطبيُّ: لما وصفَ الجنتين أشار إلى الفرق بينهما .

فقال في الأُوليين: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ *﴾ [الرحمن: 50] وقال في الآخريين: ﴿فِيهِمَا *﴾ [الرحمن: 66] أي فوّارتان بالماء، ولكنّهما ليستا كالجاريتين، لأنَّ النضخَ دون الجري .

وقال في الأُوليينِ: ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ *﴾ [الرحمن: 52] معروفٌ وغريبٌ، رطبٌ ويابسٌ، فَعَمَّ ولم يخصّ، وفي الآخريينِ: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ *﴾ [الرحمن: 68] ولم يقل مِنْ كلِّ فاكهة زوجان .

وقال في الأُولين: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمن: 54] وهو الديباج . وقال في الآخرين: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ *﴾ [الرحمن: 76]، والعبقريُّ الوشيُ، ولا شكَّ أنَّ الديباجَ أعلى من الوشي، والرَفْرَفُ كَسْرُ الخِباء، ولاشكَّ أنَّ الفُرُشَ المعدّة للاتكاء فيها أفضلُ من الخباء .

وقال في الأُولين في صفة الحور العين: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ *﴾ [الرحمن: 58] وفي الآخريين: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ *﴾ [الرحمن: 70] وليس كلُّ حُسْنٍ كحُسْنِ الياقوت والمرجان .

وقال في الأُولين: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ *﴾ [الرحمن: 48] وفي الآخريين: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ*﴾ [الرحمن: 64] أي خضروان كأنّهما من شِدّة خضرتهما سوداوان .

ووصف الأُولينِ بكثرة الأغصان، والآخريينِ بالخضرة وحدها[(767)] .

وقد بيّنَ رسولُ الله (ﷺ) درجاتِ الجنة، فقال (ﷺ): « إنّ أهلَ الجنّةِ يتراءون أهلَ الغُرَفِ مِنْ فوقهم، كما تتراءَونَ الكوكبَ الدُّرِيَّ الغابِرَ في الأُفقِ مِنَ المَشرِقِ أو المغْرِبِ لتفاضُلِ ما بينهم »، قالوا: يا رسولَ اللهِ، تلكَ منازِلُ الأنبياءِ لا يبلغُها غيرهم؟ قال: «بلى، والذي نفسِي بيدِهِ رجالٌ امنوا باللهِ وصدّقوا المرسلين »[(768)] .

وأعلى درجاتُ الجنّةِ هي الفردوسِ الأعلى، وقد ذكرها الله سبحانه في كتابه في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ *الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ*﴾ [المؤمنون: 10 . 11] وبيّن الرسولُ (ﷺ) منزلةَ هذه الدرجة، فقال(ﷺ): « مَنْ امنَ باللهِ ورسولِه، وأقامَ الصلاةَ، وصامَ رمضانَ، كانَ حقّاً على اللهِ أن يدخلَهُ الجنَّة، هاجرَ في سبيلِ اللهِ، أو جلسَ في أرضِهِ التي وُلِدَ فيها »، قالوا: يا رسول الله، أفلا نبشّرُ الناس ؟ قال: « إنّ في الجنَّةِ مئةُ درجةٍ أعدَّها اللهُ للمجاهدينَ في سبيلهِ ما بينَ الدرجتينِ كما بينَ السماءِ والأرضِ، فإذا سألْتُم اللهَ فاسألوه الفردوسَ، فإنّه أوسطُ الجنّةِ، وأعلى الجنّةِ، وفوقَهُ عرشُ الرحمنِ، ومنه تَفَجَّرُ أنهارُ الجنّةِ »[(769)] .

والمقصودُ بـ (وسط الجنة) أي عرضاً، و(أعلى الجنة) أي طولاً، فهذا يدلُّ على أنّ الفردوسَ على مثلِ الربوةِ أو القُبّةِ، ويدل أن الجنة مقببة[(770)] . قال ابن كثير: ولا تكون هذه الصفة إلا في المقبب، فإن أعلى القبة هو أوسطها، فالجنة والله أعلم كذلك[(771)] .

وأعلى درجاتُ الفردوسِ هي الوسيلةُ، وهي منزلةٌ لشخصٍ واحدٍ فقط هو نبيُّنا محمد (ﷺ)، فعن عبدِ اللهِ بن عمروِ بنِ العاص أنّه سمعَ النبيَّ (ﷺ) يقولُ: « إذا سمعتُم المؤذِّن فقالوا مثلَ ما يقولُ، ثم صلُّوا عليَّ، فإنَّه مَنْ صلَّى عليَّ صلاةً صلّى اللهُ بِهَا عَشْراً، ثُمَّ سَلُوا الله لِيَ الوسيلةَ، فإنَّها منزلةٌ في الجنَّةِ لا

تنبغي إلاّ لعبدٍ من عبادِ اللهِ، وأرجو أنْ أكونَ أنا هُوَ، فَمنْ سألَ لِيَ الوسيلةَ حَلَّتْ له الشَّفَاعَةُ »[(772)] .

5. أنهار الجنة:

قال تعالى: ﴿وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ [البقرة: 25] وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ﴾ [الكهف: 31] .

وأنهارُ الجنّةِ ليستْ ماءً فحسب، بل منها الماءُ، ومنها اللبنُ، ومنها الخمرُ، ومنها العسلُ المصفّى، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصْفّىً﴾ [محمد: 15] .

وذكر سبحانه هذه الأجناسَ الأربعةَ، ونفى عن كلِّ واحدٍ منها الافةَ التي تعرضُ له في الدنيا، فافةُ الماءِ أن يأسنَ و يأجنَ من طولِ مكثه، وافةُ اللبنِ أن يتغيَّرَ طعمُه إلى الحموضةِ، وأن يصيرَ قارصاً، وافةُ الخمرِ كراهةُ مذاقها المنافي للذّة شرابها، وافةُ العسل عدمُ التصفيةِ[(773)]، و تأمّلِ اجتماعَ هذه الأنهار الأربعة التي هي أفضلُ أشربةِ الناس، فهذا لشربِهم وطُهورِهم: وهو الماءُ، وهذا لقوتهم وغذائهم: وهو اللبن، وهذا للذّتهم وسرورهم: وهو الخمر، وهذا لشفائهم ومنفعتهم: وهو العسل[(774)] .

ومن أنهارِ الجنّة نهرُ الكوثر، قال تعالى: فعن ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ *﴾ عباس رضي الله عنه قال: «هو نهرٌ في الجنَّةِ»[(775)] وعن أنس رضي الله عنه قال: قال النبي (ﷺ): « رأيتُ نهراً في الجنّةِ حافتاه قبابُ اللؤلؤ، قلتُ: ما هذا يا جبريلُ ؟ قال: هذا الكوثرُ الذي أعطاكَهُ اللهُ »[(776)] .

6 . عيون الجنة :

في الجنةِ عيونٌ كثيرةٌ مختلفةُ الطعمِ واللّذةِ، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ *ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ آمِنِينَ *﴾ **[الحجر: 45 . 46]** وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ *فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ *﴾ **[الدخان: 51 . 52]** .

وبعضُ هذه العيون يخرجُ ماؤها، ثم يجري على أرضِ الجنة، قال تعالى: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ *﴾ **[الغاشية: 12]** .

قال تعالى في وصف الجنّتين اللتينِ أعدَّهما الله لمن خاف مقام ربه: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ *﴾ **[الرحمن: 50]** وقال سبحانه في وصف الجنتين اللتين دونهما: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ *﴾ **[الرحمن: 66]** والنضخُ فورانُ الماءِ، وهو أبلغُ من النضحِ .

وقد ذكر الله تعالى لنا أسماءَ ثلاثةٍ منها، وهي:

أ ـ عين الكافور: قال تعالى: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا *عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا *﴾ [الإنسان: 5 ـ 6] فالأبرارُ يشربونَ ماءً ممزوجاً بالكافور، بينما يشربُه عبادُ اللهِ المقرّبون صِرْفاً لا خَلْطَ فيه[(777)]، وقد عُلِمَ ما في الكافور من التبريدِ والرائحةِ الطيبة مع ما يضافُ إلى ذلك من اللذاذة في الجنة[(778)] .

ب ـ عين السلسبيل: قال تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً *عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً *﴾ [الإنسان: 17 ـ 18] أي ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا﴾ يعني الأبرار ـ أيضاً من هذه الأكواب ﴿كأساً﴾ أي خمراً ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً*﴾ فتارةً يمزج لهم الشراب ، وهو بارد، وتارةً بالزنجبيل وهو حار، ليعتدلَ الأمرُ، وهؤلاء يُمْزَجُ لهم من هذا تارة، ومن هذا تارة، وأمّا المقرّبون فإنّهم يشربون من كلِّ منها صرفاً كما قاله قتادة وغير واحد[(779)] .

وعن ثوبان مولى رسول الله (ﷺ) قال: كنتُ قائماً عندَ رسولِ اللهِ (ﷺ) فجاءَ حَبْرٌ من أحبارِ اليهودِ، فقال: السلامُ عليك يا محمَّدُ، فدفعتُه دفعةً كادَ يُصْرَعُ منها . فقال: لم تدفعني؟ فقلتُ: ألا تقول يا رسولَ الله، فقال اليهوديُّ: إنّما ندعوه باسمه الذي سمّاه به أهلُه، فقال رسول الله (ﷺ): «إنّ

اسمي محمّدٌ الذي سمّاني به أهلي»، فقال اليهوديُّ: جئتُ أسألُكَ، فقال رسول الله (ﷺ): «أينفعُكَ شيءٌ إنْ حدَّثْتُكَ؟» . قال: أسمعُ بأذني .

فنكتَ رسولُ اللهِ (ﷺ) بعودٍ معه فقال: «سل» . فقال اليهودي: أينَ يكونُ الناسُ يومَ تبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسموات ؟ فقال رسول الله (ﷺ): «هُمْ في الظُّلْمَةِ دونَ الجِسْرِ »، قال: فمن أوّلُ الناسِ إجازةً ؟ قال: « فقراءُ المهاجرينَ »، قال اليهوديُّ: فما تحفتُهم حين يدخلونَ الجنَّة؟، قال: « زيادةُ كَبْدِ النُّوْنِ »، قال: فما غِذَاؤهم على إثْرِها .

قال: « يُنْحرُ لهم ثورُ الجنّةِ الذي كانَ يأكلُ مِنْ أطرافها »، قال: فما شرابُهم عليه ؟ قال: « مِنْ عينٍ فيها تُسمّى سلسبيلاً » قال: صدقت .

قال: وجئتُ أسألُكَ عن شيءٍ لا يعلمُه أحدٌ مِنْ أهلِ الأرضِ إلاّ نبيٌّ أو رجلٌ أو رجلانِ، قال: ينفعُك إنْ حدّثتُك ؟، قال: أسمعُ بأذني، قال: جئتُ أسألُكَ عَنِ الولدِ، قال: « ماءُ الرَّجُلِ أبيضُ، وماءُ المرأةِ أصفرُ، فإذا اجتمعا فَعَلاَ مَنِيُّ الرجلِ مَنِيَّ المرأةِ أذكَرا بإذنِ اللهِ، وإذا علا مَنِيُّ المرأةِ مَنِيَّ الرَّجُلِ انثا بإذنِ اللهِ » .

قال اليهوديُّ: لقد صدقتَ وإنَّك لنبيٌّ، ثم انصرفَ فذهبَ، فقال رسول الله (ﷺ): « لقد سَألني هذا عَنِ الذي سألني عنه ومالي علمٌ بشيءٍ منه حتّى أتاني اللّهُ به »[(780)] .

ج ـ عين التسنيم: قال تعالى: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ *عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ *تَعْرِفُ فِي وَجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ *يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ *خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ *وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ *عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ*﴾ [المطففين: 22 ـ 28] قال ابن عباس: (تسنيم) أشرفُ شرابِ أهل الجنة، وهو صِرْفٌ للمقربين، ويُمْزَجُ لأصحابِ اليمين[(781)] .

7 ـ نور الجنة:

والجنةُ لها نورٌ، كما قال تعالى: ﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلاَّ سَلاَمًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا *﴾ [مريم: 62] في قوله: أي في مثل وقت البكرات ووقت ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا *﴾، لا أنّ هناك ليلاً ونهاراً، ولكنّهم في أوقاتٍ تتعاقَبُ، يعرفُ مضيها بأضواءٍ وأنوارٍ[(782)] .

وقد قال تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلاَ زَمْهَرِيرًا*﴾ [الإنسان: 13] والجنة ليسَ فيها شمسٌ ولا قمرٌ، ولا ليلٌ ولا نهارٌ، لكنّ البُكْرَة والعشيةَ تُعرفانِ بنورٍ يظهر من قِبَل العرش[(783)] . وقال القرطبي: قال العلماءُ: ليس في الجنّة ليلٌ ونهارٌ، وإنّما هم في نورٍ دائمٍ، وإنّما يعرفون مقدارَ الليل بإرخاءِ الحُجُبِ وإغلاقِ الأبواب، ذكره أبو الفرج ابن الجوزي[(784)] .

8. ريح الجنة:

للجنةِ رائحةٌ عبقةٌ زكيةٌ تملأُ جنباتِها، وهذه الرائحةُ يجدُها المؤمن من مسافات شاسعة[(785)]، قال رسول الله (ﷺ): « مَنْ قتلَ رَجُلاً مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ لم يجدْ ريحَ الجنّةِ، وإنَّ ريحَها ليوجَدُ مِنْ مسيرةِ أربعينَ عاماً »[(786)] .

9. تربة الجنة:

تربةُ الجنّةِ بيضاءُ كما جاء ذلك مصرحاً به في الحديث، فعن أبي سعيدٍ الخدري أنّ النبي (ﷺ) سأل ابنَ صائدٍ عن تُربةِ الجنّة فقال: دَرْمَكَةٌ بيضاءُ، مِسْكٌ خالِصٌ، فقال رسول الله (ﷺ): « صَدَقَ »[(787)] . دَرْمَكَةُ بيضاء: هي الدقيقُ الأبيضُ[(788)] .

عن أبي هريرةَ قال: قلتُ يا رسولَ اللهِ، ممَّ خُلِقَ الخلق ؟ قال: « مِنْ ماءٍ »، قلنا: الجنةُ ما بناؤها ؟ قال: « لبنةٌ من ذهبٍ، ولبنةٌ مِنْ فِضّةٍ، وملاطُها المِسْكُ الأذفرُ، وحصباؤها الدُّرُّ والياقوتُ، وتربتُها الزعفرانُ، منْ يدخلُها يَنْعُمُ ولا يَبْأَسُ، ويَخْلُدُ ولا يموتُ، ولا تبلى ثيابُه، ولا يفنى شبابه »[(789)] .

وقال رسول الله (ﷺ): « أدخلتُ الجنةَ، فإذا فيها جنادِلُ اللؤلؤِ، وإذا ترابُها المِسْكُ »[(790)] .

10 ـ دوابُ الجنّةِ وطيورُها: في الجنةِ دوابٌ وطيورٌ كثيرةٌ، يركبُها أهلُ الجنّةِ، ويأكلون منها، ويتمتّعون بالنظرِ إليها، قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَانِ وَفْدًا *﴾ [مريم: 85] .

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لا واللهِ ما على أرجلهم يحشرون، ولا يحشر الوفدُ على أرجلِهم، ولكن بنوقٍ لم يرَ الخلائقُ مثلها، عليها رحائلُ من ذهبٍ، فيركبونَ عليها حتّى يضربوا أبوابَ الجنّة[(791)] .

وقد ثبت عن عبد الله بن عمرو ـ وله حكم الرفع ـ أنّ في الجنةِ إبلاً وخيلاً، حيثُ قال: في الجنةِ عِتاقُ الخيلِ وكرائمُ النجائب، ويركبُها أهلُها[(792)] .

وعن أبي مسعودٍ الأنصاري رضي الله عنه قال: جاء رجلٌ بناقةٍ مخطومةٍ فقال: هذه في سبيلِ اللهِ، فقال رسولُ اللهِ (ﷺ): « لكَ بها يومَ القيامةِ سبعُمئةِ ناقةٍ كلُّها مخطومةٌ »[(793)]، وهذه الروايةُ لم تنصّ أنها في الجنةِ، ولكن جاءت روايةٌ أُخرى لهذا الحديث عند الحاكم بزيادة « في الجنّةِ » حيثُ قال (ﷺ): « لك بها سبعمئةِ ناقةٍ مخطومةٍ في الجنّةِ »[(794)] .

وقال تعالى: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ *﴾ [الواقعة: 21] أي يأكلون من لحم طير يشتهونه، وعن أنس بن مالك قال: سُئِل رسولُ اللهِ (ﷺ): ما الكوثر؟ قال: «ذاك نهرٌ أعطانيه اللهُ ـ يعني في الجنّةِ ـ أشدُّ بياضاً من اللبنِ، وأحلى مِنَ

العَسَلِ، فيها طيرٌ أعناقُها كأعناق الجُزُرِ»، قال عمر: إنّ هذه لناعمةٌ، قال رسول الله (ﷺ): « أكلتُها أحسنُ منها »[(795)] .

11 ـ الجنةُ لا مثلَ لها، وإنّها فوقَ ما يخطرُ بالبال، أو يدورُ في الخيال:

قال تعالى: ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ*﴾ [السجدة: 17] قال رسولُ اللهِ (ﷺ): «أعددتُ لعبادي الصالحينَ ما لا عَين رأتْ، وأذن سمعتْ، ولا خَطرَ على قلبِ بَشَرٍ، فاقرءوا إن شئتم ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ»، ولمن دخل الجنة ما يشاءُ من النعيم، وله كلُّ ما يتمنى ويطلب، بل له فوقَ هذا بكثيرٍ، قال تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخرة خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ *جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاؤُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ *﴾ [النحل: 30 ـ 31] وقال تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ *﴾ [ق: 35] .

وما الظنُّ بمكانٍ موضعُ السوطِ أو القوسِ فيه خيرٌ من الدنيا وما فيها، فعن سهل بن سعد الساعدي قال: قال رسولُ اللهِ (ﷺ): « موضعُ السوطِ في الجنّةِ خيرٌ من الدنيا وما فيها »[(796)]، وقال رسول الله (ﷺ): « لقابُ قوسٍ في الجنّةِ خيرٌ ممّا تطلعُ عليه الشمسُ وتغربُ »، وقال: « لغدوةٌ أو روحةٌ في سبيلِ اللهِ خيرٌ ممّا تطلعُ عليه الشمسُ وتغربُ »[(797)] .

وما الظنُّ بمكانِ الغمسةُ الواحدةُ فيه تُنْسِي المعذَّبَ كلَّ عذابه وشقائه في الدنيا، فعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله (ﷺ): « يُؤتَى بأنعمِ أهلِ الدُّنيا من أهلِ النارِ يومَ القيامةِ فَيُصْبَغُ في النارِ صَبْغَةً، ثم يقالُ: يا ابنَ ادمَ هل رأيتَ خيراً قطُّ، هل مرَّ بكَ نعيمٌ قَطُّ ؟ فيقولُ: لا واللهِ يا ربِّ، ويُؤْتَى بأشدِّ الناسِ بؤساً في الدُّنيا من أهلِ الجنّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً في الجنّةِ، فيُقالُ له: يا ابنَ ادمَ هل رأيتَ بؤساً قَط، هل مرَّ بكَ شدَّةٌ قط ؟ فيقول: لا واللهِ يا ربِّ، ما مرَّ بي بؤسٌ قط، ولا رأيتُ شدّةً قط »[(798)] .

سابعاً . أصحاب الجنة :

أصحابُ الجنّةِ هم المؤمنون الموحدون الذين يعملون الصالحات مع إخلاصٍ عظيمٍ للهِ عزّ وجلّ، واستقامةٍ على شريعته، ووفاءٍ بعهودِهم، وعدمِ نقضهم لها، ووصلهم ما أمر الله بوصله، وخشيتهم للهِ، وخوفهم من سوءِ العذابِ، وصبرهم لله، وإقام الصلاة، والانفاقِ سرّاً وعلانية، ودرئهم بالحسنةِ السيئةَ، قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ *الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلاَ يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ *وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ *وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَأُونَ

بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبى الدَّارِ *جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ *سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبى الدَّارِ *﴾ **[الرعد: 19 . 24]**[(799)] .

والجنةُ درجةٌ عاليةٌ، والصعودُ إلى العلياءِ يحتاجُ إلى جهدٍ كبيرٍ، وطريقُ الجنة فيه مخالفةٌ لأهواءِ النفوس ومحبوباتها، وهذا يحتاجُ إلى عزيمةٍ ماضيةٍ، وإرادةٍ قويةٍ، قال رسول الله (ﷺ): «حُجِبَتِ النّارُ بالشهواتِ، وحُجِبَتِ الجنّةُ بالمكارهِ»[(800)] وهذا من بديعِ الكلامِ وفصيحهِ والجوامعِ التي أُوتيها (ﷺ) من التمثيل الحسن، ومعناه لا يوصلَ إلى الجنَةِ إلاّ بارتكابِ المكارهِ، ولا إلى النار إلاّ بارتكاب الشهوات، وكذلك هما محجوبتانِ بهما، فمن هتك الحجابَ وصل إلى المحجوبِ، فهتك حجاب الجنّةِ باقتحام المكاره، وهتك حجاب النار بارتكابِ الشهوات، فأمّا المكارهُ فيدخلُ فيها الاجتهادُ في العبادة، والمواظبةُ عليها، والصبرُ على مشاقِّها، وكظمُ الغيظِ، والعفو، والحلم، والصدقة والإحسان إلى المسيء، والصبرُ على الشهواتِ، ونحو ذلك[(801)] .

1 . معرفةُ أهل الجنة لمساكنهم :

قال تعالى: ﴿الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ *﴾ **[محمد: 1 . 2]** أي إذا دخلوها يقال لهم: تفرّقوا إلى منازلكم، فهم أعرفُ بمنازلهم من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم [(802)] .

وقال رسولُ الله (ﷺ): «يخلصُ المؤمنونَ من النّارِ، فيُحْبَسُوْنَ على قنطرةٍ بينَ الجنّةِ والنّارِ، فَيُقَصُّ لبعضِهم من بعضٍ مظالمُ كانتْ بينهم في الدُّنيا، حتّى إذا هُذِّبوا ونُقّوا أُذِنَ لهم في دخولِ الجنّةِ، فوالذي نفسُ محمّدٍ بيدِهِ لأحدُهُم أهدَى بمنزلِهِ في الجنّةِ منه بمنزله كان في الدنيا »[(803)] .

2 . هل الرجال أكثر في الجنة أم النساء؟ تخاصمَ الرجالُ والنساءُ في هذا والصحابةُ أحياء، ففي (صحيح مسلم)[(804)] عن ابن سيرين قال: اختصمَ الرجالُ والنساءُ: أيُّهم أكثرُ في الجنّةِ ؟ وفي روايةٍ: إمّا تفاخروا، وإمّا تذاكروا: الرجالُ في الجنةِ أكثرُ أم النساءُ ؟ فسألوا أبا هريرةَ، فاحتجَّ أبو هريرة على أنَّ النساءَ في الجنةِ أكثرُ بقول الرسول (ﷺ): « إنَّ أوَّل زمرةٍ تدخلُ الجنّةَ على صورِ القمرِ ليلةَ البدرِ، والتي تليها على أضوأ كوكبٍ دُرِّي في السماءِ، لكلِّ

امرئٍ منهم زوجتان اثنتان، يُرَى مخُّ سوقهما من وراءِ اللحمِ، ما في الجنّةِ أعزبُ » والحديثُ واضحُ الدلالةِ على أنَّ النساءَ في الجنة أكثر من الرجال .

وقد احتجَّ بعضُهم على أنَّ الرجالَ أكثرُ بحديثِ: « رأيتُكُنَّ أكثرَ أهلِ النَّار » والجوابُ لا يلزمُ من كونهنَّ أكثرَ أهلِ النار أن يكنَّ أقلّ ساكني الجنة كما يقول ابن حجر العسقلاني[(805)]، فيكونُ الجمعُ بين الحديثينِ أنَّ النساءَ أكثرُ أهلِ النارِ، وأكثرُ أهلِ الجنةِ، وبذلك يكنُّ أكثر من الرجالِ وجوداً في الخلق[(806)] .

3 . أطفال المؤمنين:

قال تعالى: ﴿عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ *﴾ [الطور: 21] فهذه الآية تدلُّ بعمومها على أنَّ ذريةَ المؤمنين معهم في الجنة، لأنَّ الطفلَ يولد على الفطرةِ، وهي الإسلامُ، فإذا ماتَ فهو ميّتٌ على الإيمانِ، فيكونُ مع والديه في الجنان، وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ *إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ *﴾ [المدثر: 38 . 39] قال عليٌ بنُ أبي طالب رضي الله عنه: هم أطفالُ المسلمين، لم يكتسبوا فيرتهنوا بكسبهم[(807)] .

ودخولُ أطفالِ المسلمين الجنَّة ثابتٌ في السنَّة، وذكر الكتّاني أنّها بلغتْ حدَّ التواتر[(808)]، فعن أبي حسان قال: قلتُ لأبي هريرة: إنّه ماتَ لي ابنانِ فما

أنتَ محدّثني عن رسولِ اللهِ (ﷺ) بحديثٍ تطيّبُ به أنفسَنا عن موتانا، قال، قال: نعم: « صغارُهُم دَعَامِيْصُ[(809)]، الجنّةِ، يلتقي أحدُهم أباه، أو قال أبويه، فيأخذه بثوبه، أو قال بيده، كما اخذُ أنا بصفنة ثوبِكَ هذا، فلا يتناهى . . أو قال فلا ينتهي . حتى يدخله وأباه الجنة »[(810)] وعن البراء رضي الله عنه قال: لما توفي إبراهيمُ ابنُ الرسولِ (ﷺ) قال رسول الله(ﷺ): «إنّ له مُرْضِعاً في الجنّةِ »[(811)] .

وقال رسول الله (ﷺ): « ما مِنْ مسلمٍ يموتُ له ثلاثةٌ مِنَ الولدِ لم يبلغوا الحِنْثَ إلاَّ تلقَّوْهُ مِنْ أبوابِ الجنّة الثمانيةِ من أيّها شاءَ دخلَ »[(812)] . وقال رسولُ الله (ﷺ): « ذراري المسلمينَ في الجنّةِ يكُفُلهم إبراهيمُ عليه السلام »[(813)] وقال رسول الله (ﷺ): « أطفالُ المسلمينَ في جبلٍ في الجنّةِ يكفُلُهم إبراهيمُ وسارةٌ حتّى يدفعوهم إلى ابائهم يوم القيامة »[(814)] .

4 . اجتماع أهل الجنة وحديثهم:

من أحاديثهم ما قاله سبحانه : ﴿قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ *إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ *﴾ [الطور: 25 . 28] .

ومن أحاديثهم تذكُّرُهم أهلَ الكفرِ الذين كانوا يشككونهم بالله واليوم الآخر، قال تعالى: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ *إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ *أُولَئِكَ

لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ *فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ *فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ *عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ *يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ *بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ *﴾ [الصافات: 39- 61] .

تأمل ما في هذه الآيات من النعيم والكرامة، فقد بيّن الله تعالى في هذه الآية أنّهم يجتمعون يوم القيامة، ويعطون من الفواكه وهم على السرر متقابلين، يتجاذبون أطرافَ الحديث، وفي أثناء حديثهم يُخْدَمُون كالملوك، فعندهم الفواكه، ويُطافُ عليهم بالخمر اللذيذة، وعندهم النساءُ الحور العين، ثم يبدأُ الحوار، فيتذكّر أحدُهم صاحباً له كان يأمُرُه بالمعاصي، وينكِرُ البعث، فينادي منادٍ: هل تريدُ أن تعرفَ حالَه ؟ فيأخذُ هذا الرجلُ ليريَهُ ذلكَ الصاحبَ وقد استقرَّ في قلبِ الجحيمِ، يتقلَّب على الجمرِ، لا يموت ولا يحيا، فيخاطِبُه سائلاً سؤال توبيخٍ واستنكارٍ: هل نحنُ لا نموتُ إلاّ موتتنا الأولى، ولن نبعث، ولن نعذب؟ ثم ينظر لحاله والنعيم الذي هو فيه، وينظرُ إلى حال هذا الذي أصبحَ مِنْ حطبِ جهنم، ويقارن بين الحالين، فيرى البونَ الشاسعَ والفرقَ الواسع، فيقول لنفسه وقد امتلأ سروراً وفاض غبطة .

5 . أعلى أهل الجنة :

الأنبياءُ ثم الصديقون ثم الشهداءُ ثم الصالحون، قال تعالى: ﴿وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا *﴾ **[النساء: 69]** أي معهم في الجنة، وإن لم يكونوا معهم في الدرجة[(815)] .

وعن المغيرة بن شعبة قال: سمعتُ رسولَ اللهِ (ﷺ) قال: « سألَ موسى ربَّه: ما أدنى أهلُ الجنّةِ منزلةً ؟ قال: هو رجلٌ يجيءُ بعدما أُدْخِلَ أهلُ الجنّةِ الجنّةَ، فيُقالُ له: ادْخُلْ الجنَّةَ، فيقول: أيْ ربِّ كيفَ وقد نزلَ الناسُ منازِلَهُم وأخذوا أَخَذَاتِهِم ؟ فيقال له: أترى أنْ يكونَ لكَ مثل مُلْكِ مَلِكٍ من ملوكِ الدنيا ؟ فيقول: رضيتُ رَبِّ، فيقولُ: لَكَ ذلك، ومثلُه، ومثلُهُ، ومثلُهُ، ومثلُهُ، فقال في الخامسةِ: رضيتُ رَبِّ، فيقول: هَذَا لكَ وَعَشرةُ أمثالِهِ، ولكَ ما اشْتَهَتْ نَفْسُكَ، ولذّتْ عينَكَ، فيقول: رضيتُ ربِّ .

قال: ربِّ، فأعلاهم منزلةً ؟

قال: أولئك الذين أردتُ، غرستُ كرامتَهم بيدي، وختمتُ عليها، فلم ترَ عينٌ، ولم تسمعْ أذنٌ، ولم يخطرْ على قلبِ بشرٍ، قال: ومصداقه في كتاب الله عز وجل ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ*﴾ **[السجدة: 17]**[(816)] .

6. أهل الجنة يرثون نصيب أهل النار في الجنة:

قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ *﴾ [الأعراف: 43] وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ*﴾ [الزخرف: 72] وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ *الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ *﴾ [المؤمنون: 10 . 11] وقال رسول الله (ﷺ): «ما مِنْكُم من أحدٍ إلاَّ له منزلانِ: منزلٌ في الجنّةِ، ومنزلٌ في النّارِ، فإذا ماتَ فدخلَ النّارَ، ورثَ أهلُ الجنّةِ منزله، فذلك قوله تعالى:﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ [المؤمنون: 10]».

7. زوجة المؤمن إذا ماتت على الإيمان مع زوجها المؤمن في الجنة:

قال تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ﴾ [الرعد: 23] وهم في الجنّاتِ منعَّمون من الأزواجِ، يتكئون في ظلال الجنة، مسرورين فرحين، قال تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلاَلٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ *﴾ [يس: 56] وقال تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ *﴾ [الزخرف: 70] [(817)].

8 . مؤمنو الجن يدخلون الجنة:

مؤمنو الجن يثابون على الطاعةِ، ويدخلون الجنّةَ، فبعد أن تكلَّمَ الله عزّ وجلّ عن الإنس والجن في سورة الأنعام قال تعالى: وقوله ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عمَّا يَعْمَلُونَ * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الأنعام: 165] يعود على الإنس والجن، فدلَّ على أنَّ لهم درجات في الجنّةِ بحسب عملهم[(818)]، وقوله تعالى في الحور العين: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَآنٌّ *﴾ [الرحمن: 56] فدلَّ على أنَّ الجنَّ يدخلون الجنة، ويتمتّعون بالحور العين كما يحصلُ للإنس[(819)] .

9 . ضحك أهلُ الجنّةِ من أهل النار:

كان الكفّار في الدنيا يخاصمون المؤمنين، ويسخرون منهم، ويهزؤون بهم، فإذا جاءَ يومُ القيامةِ انقلبَ الحالُ، وتبدّلتِ الأَآلُ، فإذا بالمؤمنين، وهم في النعيم المقيم ينظرون إلى المجرمين فيضحكون منهم، ويسخرون بهم[(820)]، قال تعالى: ﴿تَسْنِيمٍ * عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ *إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ *وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ *وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ *وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاَءِ لَضَآلُّونَ *وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ

*فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ *عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ *هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ *﴾ [المطففين: 22 ـ 36][(821)] .

ثامناً: سادة أهل الجنة:

1 ـ الأنبياء والرسل:

سيّدُ أهلِ الجنّةِ هو محمد رسول الله (ﷺ)، ثم إخوانُه من الأنبياء والمرسلين، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ *إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ *﴾ [ص: 45 ـ 50] وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ *وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ *وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ *﴾ [الأنعام: 82 ـ 90] .

فوصفهم الله بالهداية والصلاح والاجتباء والإحسانِ وبيّن في اياتٍ كثيرةٍ أنَّ المحسنَ جزاؤه الجنة ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ *﴾ [يونس: 26] وهذا معلومٌ من

الدين بالضرورة، بل العقلُ يدلُّ على ذلك، فإنَّ الله تعالى لا يرسِلُ مبلّغاً عنه إلا وهو في الغاية القصوى من الكمال البشري خَلقاً وخُلقاً، وديناً وصلاحاً، وما كان الله ليعذِّبَ مَنْ دلَّ الناسَ عليه[(822)] .

2 . سادات الصحابة:

الجنّةُ درجاتٌ ومراتبُ، وأهلها متفاوتون في درجاتهم، وأعلى الدرجات فيها سادةُ أهل الجنة، فسيّدُ كهول أهل الجنة أبو بكر وعمر رضي الله عنهما لقوله(ﷺ): «أبو بكرٍ وعمرُ سيدا كهولِ أهل الجنة من الأولينَ والآخرينَ»[(823)] وسيدا شباب أهل الجنة الحسنُ والحسينُ، لقوله (ﷺ): «الحسنُ والحسينُ سيدا شباب أهل الجنة»[(824)]، ونصَّ الرسول (ﷺ) على أنَّ عشرةً من أصحابه في الجنة، فقد قال: «أبو بكر في الجنة، وعُمرُ في الجنة، وعُثمانُ في الجنة، وعليٌّ في الجنة، وطلحةُ في الجنة، والزبيرُ في الجنة، وعبدُ الرحمن بن عوف في الجنة، وسعدُ بن أبي وقاص في الجنة، وسعيدُ بنُ زيدٍ في الجنة، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة »[(825)] وإسنادُه صحيح .

وقد نصَّ الرسول (ﷺ) على مجموعةٍ أخرى من الصحابة في الجنة منهم:

جعفر بن أبي طالب، وحمزة بن عبد المطلب: قال رسول الله (ﷺ): «دخلتُ الجنّةَ البارحةَ، فنظرتُ فيها، فإذا جعفرُ يطيرُ مع الملائكةِ، وإذا حمزةُ متكىءٌ

على سريرٍ»[(826)]، وقد صحَّ أنَّ الرسول (ﷺ) قال: «سيّدُ الشهداءِ حمزةُ بنُ عبدِ المطلبِ»[(827)].

عبد الله بن سَلام: قال رسول الله (ﷺ): «عبدُ اللهِ بن سَلامٍ عاشِرُ عشرةٍ في الجنّة»[(828)].

زيد بن حارثة: قال رسول الله (ﷺ): «دخلتُ الجنَّة، فاستقبلتني جاريةٌ شابةٌ، فقلتُ: لِمَنْ أنتِ ؟ قالت: لزيدِ بنِ حارثة »[(829)] .

زيد بن عمرو بن نُفَيْلٍ: قال رسولُ اللهِ (ﷺ): « دخلتُ الجنَّة فرأيتُ لزيدِ بنِ عمروِ بن نُفَيْلٍ درجتين » .

حارثة بن النعمان: قال رسول الله (ﷺ): «دخلتُ الجنَّة، فسمعتُ فيها قراءةً، فقلتُ: مَنْ هذا؟ قالوا: حارثةُ بنُ النعمان، كذلكم البرُّ، كذلكم البرُّ»[(830)] .

بلال بن أبي رباح: قال رسولُ الله (ﷺ): «دخلتُ الجنّةَ، فسمعتُ خشفةً بين يدي، قلتُ: ما هذه الخشفةُ ؟ فقيل: هذا بلالٌ يمشي أمامَك » [(831)].

3 . سيدات نساء أهل الجنة:

مريمُ بنتُ عمران هي سيدةُ النساءِ الأُولى، وأفضلُ النساءِ على الإطلاق، فقد روى الطبرانيُّ بإسنادٍ صحيحٍ على شرطِ مسلم عن جابرٍ قال: قال رسولُ

اللهِ(ﷺ): «سيداتُ نساءِ أهلِ الجنّةِ بعدَ مريمَ ابنةَ عمرانَ، فاطمةُ، وخديجةُ، واسيةُ امرأةُ فرعون»[(832)]، فهؤلاء الأربعةُ نماذجُ رائعةٌ للنساء الكاملات الصالحات.

فمريم ابنة عمران أثنى عليها ربُّها في قوله: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ [التحريم: 12] وكونُها أفضلُ النساءِ على الإطلاق صرّح به القرآن: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ *﴾ [آل عمران: 42] .

وخديجةُ التي آمنت بالرسول (ﷺ) من غير تردُّدٍ، وثبتته، واسته بنفسِه ومالها، قد بشّرها ربُّها في حياتِها بقصْرٍ في الجنّةِ مِنْ قَصَبٍ، لا صَخَبَ فيه ولا نَصَبَ[(833)]، فقد روى البخاريُّ في (صحيحه)[(834)] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى جبريلُ النبيَّ (ﷺ) فقال: «يا رسولَ اللهِ، هذه خديجةُ قد أتتْ مَعَها إناءٌ فيه إدامٌ أو طعامٌ أو شرابٌ، فإذا هي أتتْكَ فاقرأ عليها السلامَ من ربِّها ومني، وبشّرها ببيتٍ في الجنّةِ من قصبٍ، لا صَخَبَ فيه ولا نَصَبٌ».

وآسيةُ امرأة فرعون، هانَ عليها مُلْكُ الدنيا ونعيمُها، فكفرت بفرعون وألوهيته، فعذّبها زوجها، فصبرت حتى خرجتْ روحُها إلى بارئها، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي﴾ [التحريم: 11] .

وفاطمة الزهراء ابنة الرسول (ﷺ) الصابرةُ المحتسبَةُ التقية الورعة فرعُ الشجرة الطاهرة، وتربيةُ معلم البشرية[(835)] .

وأمهاتُ المؤمنين أيضاً من سيّدات الجنة، لأنهنّ مع النبيِّ (ﷺ) في الجنة، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً *وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخرة فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا *﴾ **[الأحزاب: 28 ـ 29]** .

عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما أُمِرَ رسولُ اللهِ (ﷺ) بتخيير أزواجِهِ بدأَ بي، فقال: «إنِّي ذاكِرٌ لَكِ أمراً فلا عليكِ أنْ لا تَعْجَلِي حتّى تستأمري أبويكِ» قالت: قد علمَ أنَّ أبويَّ لم يكونا ليأمراني بفراقِهِ قالت: ثم قال: إن الله عزَّ وجلَّ قال: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً *وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخرة فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا *﴾ **[الأحزاب: 28-29]** قالت: فقلتُ: في أيِّ هذا أستأمرُ أبويَّ، فإنِّي أريدُ اللهَ ورسولَه والدارَ الآخرة، قالت: ثم فعل أزواجُ رسولِ اللهِ مثل ما فعلتُ[(836)] .

وقال رسول الله (ﷺ): « المرأةُ لآخرِ أزواجِها في الآخرة » . وفي رواية: «جمعَ بينَهما في الجنة »[(837)]، وعليه فتكون زوجاته عليه الصلاة والسلام معه في الجنة، ولا يلزمُ مِنْ هذا أن يكنَّ معه في نفس الدرجة، لأنّه قد ثبت أنَّ

النبيّ(ﷺ) في منزلة الوسيلة التي لا تنبغي إلاّ لرجلٍ واحدٍ، ولكنهنّ قريباتٌ منه (ﷺ)، ولا يلزم من هذا أيضاً أن تكون أمهات المؤمنين خيرٌ من كلِّ أصحابِ رسولِ اللهِ (ﷺ) بما فيهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وقد تواترت الأحاديثُ على أفضليةِ أبي بكر على جميعِ الصحابةِ بما فيهم أمهات المؤمنين[(838)]، وقد تواتر عن أمير المؤمنين عليّ بنِ أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: خيرُ هذه الأمةِ بعدَ نبيها أبو بكر ثم عمر رضي الله عنهما[(839)] .

تاسعاً: فضلُ نعيم الجنةِ على متاعِ الدنيا:

قارن المولى عزّ وجلّ بين متاع الدنيا ونعيم الجنة، وبيّن أنَّ نعيمَ الجنّةِ خيرٌ من الدُّنيا وأفضل، وأطال في ذمِّ الدنيا وبيان الآخرة، وما ذلك إلا ليجتهد العبادُ في طلب الآخرة، ونيل نعيمها، ونجدُ ذَمَّ الدنيا ومدحَ نعيم الآخرة، وتفضيلَ ما عند الله على متاع الدنيا القريب العاجل في مواضع[(840)]، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى *﴾ [طه: 131] . وقال في موضع ثانٍ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ﴾ [آل عمران: 14 . 15] .

وسِرُّ أفضليةِ نعيم الآخرة على متاع الدنيا من وجوهٍ منها:

1 . متاع الدنيا قليل:

قال تعالى: ﴿الْقِتَالَ لَوْلاَ أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخرة خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً *﴾ [النساء: 77] .

وقد صور لنا الرسول (ﷺ) قِلّةَ متاعِ الدنيا بالنسبةِ إلى نعيم الآخرة بمثالٍ ضربه فقال: « واللهِ ما الدُّنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعلُ أحدُكم أصبعَه هذِهِ . وأشار بالسبابة . في اليَمِّ . فلينظرْ بِمَ تَرْجِعُ »[(841)] . مالذي تأخذُهُ الأصبعُ إذا غُمِسَتْ في البحرِ الخِضَمِّ، إنّها لا تأخذُ منه قطرة، هذه هي نسبةُ الدنيا إلى الآخرة .

ولما كان متاع الدنيا قليل، فقد عاتبَ الله المؤثرين لمتاع الدنيا على نعيم الآخرة، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخرة فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخرة إِلاَّ قَلِيلٌ *﴾ [التوبة: 38] .

2 . هو أفضلُ من حيث النوع:

قال تعالى: ﴿وَالآخرة خَيْرٌ وَأَبْقَى *﴾ [الأعلى: 17] ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى *﴾

[طه: 131] فثيابُ أهلِ الجنّةِ وطعامُهم وشرابُهم وحليّهم وقصورُهم أفضلُ مما في الدنيا، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا *﴾ [الإنسان: 20] بل لا وجهَ للمقارنة، فإنّ موضعَ السوطِ في الجنّة خيرٌ من الدنيا وما فيها، فعن سهلِ بن سعدِ الساعديّ قال: قال رسول الله (ﷺ): «موضعُ سوطٍ في الجنّةِ خيرٌ من الدنيا وما فيها»[(842)]، وقال رسول الله (ﷺ): «لغدوةٌ أو روحةٌ في سبيلِ اللهِ خيرٌ من الدُّنيا وما فيها»[(843)] .

وقارن نساءِ أهل الجنة بنساءِ الدنيا لتعلمَ فَضْلَ ما في الجنة على ما في الدنيا، عن أنس بن مالك عن النبيّ (ﷺ): « لروحةٌ في سبيلِ اللهِ أو غدوةٌ خيرٌ من الدنيا وما فيها، ولقابُ قوسِ أحدِكم من الجنّةِ أو موضعُ قيدِ ـ يعني سوطه ـ خيرٌ من الدُّنيا وما فيها، ولو أنَّ امرأةً مِنْ أهلِ الجنّةِ اطّلعتْ إلى أهلِ الأرضِ لأضاءتْ ما بينهما، ولملأته ريحاً، ولنصِيْفُها على رأسِهَا خيرٌ مِنَ الدُّنيا وما فيها »[(844)] .

وقال تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ *﴾ [الزخرف: 70]: أي تفرحون، والفرح في القلب[(845)] .

3 . الجنةُ خاليةٌ من شوائبِ الدُّنيا وكدرِها:

فطعام أهل الدنيا وشرابُهم يلزمُ منه الغائط والبول والروائح الكريهة، وإذا شربَ المرءُ خمر الدنيا فقد عقلَه، ونساءُ الدُّنيا يحضنَ ويلدنَ، والحيضُ أذًى، والجنةُ خاليةٌ من ذلك كله، فأهلها لا يبولون، ولا يتغوطون، ولا يبصقون، ولا يتفلون، وخمرُ الجنة كما وصفها خالقُها: ﴿بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ *﴾ [الصافات: 46] وماءُ الجنة لا يأسَنُ، ولبنُها لا يتغيَّر طعمُه ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ *﴾ [محمد: 15] ونساءُ أهل الجنّةِ مطهّرات من الحيض والنفاس وكل قاذورات نساء الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة: 25] .

وقلوبُ أهل الجنة صافيةٌ، وأقوالُهم طيبةٌ، وأعمالُهم صالحةٌ، فلا تسمعُ في الجنّةِ كلمةً نابيةً تكدّرُ الخاطرَ، وتعكّرُ المزاجَ، وتستثيرُ الأعصابَ، فالجنةُ خاليةٌ من باطلِ الأقوالِ والأعمالِ ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ [الحجر: 47] .

ولا تطرقُ المسامعَ إلا الكلمةُ الصادقةُ الطيبةُ السالمةُ من عيوبِ كلامِ أهل الدنيا ﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلاَ كِذَّابًا *﴾ [النبأ: 35] ﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلاَّ سَلاَمًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا *﴾ [مريم: 62] وقال تعالى: ﴿لاَ

تَسْمَعُ فِيهَا لاَغِيَةً *﴾ [الغاشية: 11] إنّها دارُ الطُّهْرِ والنَّقاءِ والصَّفاءِ الخاليةِ من الأوشاب والأكدار، إنّها دارُ السّلامِ والتسليم ﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلاَ تَأْثِيمًا *إِلاَّ قِيلاً سَلاَمًا سَلاَمًا *﴾ [الواقعة: 25 . 26] فأهلُ الجنّةِ . عند دخول الجنة . لا اختلافَ بينهم ولا تباغضَ، قلوبُهم على قلبٍ واحدٍ، يسبّحون الله بكرةً وعشياً[(846)]، وصدَقَ اللهُ إذ يقول: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ *﴾ [الحجر: 47] .

4 . نعيم الدنيا زائل ونعيم الآخرة باقٍ:

قال تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخرة لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ *﴾ [العنكبوت: 64] ولذلك سمَّى الحقُّ تبارك وتعالى ما زُيِّنَ للناسِ من زهرةِ الدنيا متاعاً، لأنّهُ يَتمتَّعُ به، ثم يزولُ . وأما نعيمُ الآخرة فهو باقٍ ليس له نفادٌ، قال تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: 96] قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ *﴾ [ص: 54] وقال: ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: 35] ﴿لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ *﴾ [الحجر: 48] .

وقد ضرب الله الأمثالَ لسرعةِ زوال الدنيا وانقضائها قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ

هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا *الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً *﴾ [الكهف: 45-46] فقد ضربَ الله مثلاً لسرعة زوال الدنيا وانقضائها بالماءِ النازلِ من السماءِ، الذي يخالِطُ نباتَ الأرض، فيخضرّ ويزهر ويثمر، وما هي إلا فترةٌ وجيزةٌ حتّى تزولَ بهجتُه، فيذوبُ ويصفّر، ثم تعصِفُ به الرياح في كلِّ مكانٍ، وكذلك زينةُ الدنيا من الشباب والمال والبناء والحرث والزرع كلُّها تتلاشى وتنقضي، فالشبابُ يذوبُ ويذهبُ، والصحةُ والعافيةُ تبدّلُ هرماً ومرضاً، والأموالُ والأولادُ قد تذهب، وأما الآخرة فلا رحيلَ ولا فناءَ ولا زوالَ، قال تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخرة خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ *جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاؤُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ*﴾ [النحل: 30 . 31] .

5 . العمل لمتاع الدنيا ونسيان الآخرة:

العمل للدنيا تعقبه الحسرة والندامة ودخول النيران، قال تعالى: ﴿الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ *﴾ [آل عمران: 185] وأمّا العمل للآخرة فلا يعقبه إلا الفوز بها[(847)] .

ومن تكريم الله لهم أنَّ الجنةَ تقرَّبُ لهم، لا يقربون هم إلى الجنة قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ *﴾ [الشعراء: 90] وقال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ *﴾ [ق: 31] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ *﴾ [التكوير: 13] أي: قربت[(848)] .

عاشراً: نعيمُ أهلِ الجنّةِ:

1 . طعام أهل الجنة:

الجنةُ لا جوعُ فيها ولا عطش، قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى *وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى *﴾ [طه: 118 . 119] .

وقال رسول الله (ﷺ): «إنّ أهلَ الجنّة يأكلونَ فيها ويشربونَ، ولا يَتْفُلُون، ولا يبولون، ولا يتغوطون، ولا يتمخّطون»، قالوا: فما بالُ الطعام؟ قال: «جشاءٌ ورشحٌ كرشحِ المِسْكِ، يُلْهَمُوْنَ التسبيحَ والتحميدَ، كما يُلْهَمُونَ النَّفَسَ»[(849)] .

وقد ذكر الله تعالى أنواعاً كثيرةً من طعامهم منها :

الفاكهة بجميع أنواعها: قال تعالى: ﴿وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ *﴾[الواقعة: 20] ومن هذه الفاكهة العنبُ ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا *حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا*﴾ [النبأ: 31–32]

وهذه الفاكهةُ ليست بقليلةٍ، بل هي كثيرةٌ ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ *﴾ [الزخرف: 73] .

ولا يتعب المؤمن نفسه في إحضارها وجنيها، بل يطلبُ ذلك، ويحضِرُها الخدمُ له ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ *﴾ [ص: 51] .

وهذه الفاكهة من النوع الذي يختاره ويشتهيه حتى تكملَ اللذّةُ، فلا يأتونه بشيءٍ لم يختره ولا يشتهيه ﴿وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ *وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ *﴾ [الواقعة: 20 . 21] وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلاَلٍ وَعُيُونٍ *وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ *كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ *﴾ [المرسلات: 41 . 43] .

وهذه الفاكهة لا تنقطعُ في وقتٍ من الأوقاتِ كما يحصلُ في فواكه الدنيا، بل هي متوفّرةٌ دائماً، ولا تُمنع عن أصحاب الجنة أبداً ﴿وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ *وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ *لاَ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ *﴾ [الواقعة: 31 . 33] وإذا اشتهى أن يقطفَ الفاكهةَ بنفسِه فإنَّها لا تعسرُ عليه، بل تذلل له الأغصانُ، وتنزلُ حتّى يأخذُ منها ما شاء، بلا تعبٍ ولا عناءٍ ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظلالها وذللت قطوفها تذليلا﴾ [الإنسان: 14] وقال: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ *﴾ [الرحمن: 54] .

لحم الطير: قال تعالى: ﴿وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ *وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ *﴾ [الواقعة: 20 . 21] وعن أنس بن مالك قال: سُئلَ رسولُ اللهِ (ﷺ): ما

الكوثر؟ قال: «ذاكَ نهرٌ أعطانيه اللهُ ـ يعني في الجنة ـ أشدُّ بياضاً من اللبنِ، وأحلى من العَسلِ، فيها طيرٌ أعناقُها كأعناقِ الجُزُرِ» قال عمر: إن هذه لناعمةٌ، قال رسول اللهِ (ﷺ): «أكلتُها أَحْسَنُ منها»[(850)] . وليس هذا فقط طعامُهم، بل لهم كلُّ ما اشتهتْ أنفسُهم ولذّتهُ أعينُهم ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ *﴾ [الزخرف: 71] .

2 ـ شراب أهل الجنة:

وأمّا شرابُهم فإنّه شرابٌ طهورٌ طيبٌ، لا كما يفعلُ بعضُ الضالّين الذين يشربون النجاسة، فتجدُهم يشربون الخمرَ، وبعضهم يشربُ الدمَ المسفوحَ، وبعضُهم يشربُ العرق وغير ذلك من النجاسات والقاذورات .

وأمّا أهلُ الجنّة فشرابهم طاهرٌ طهورٌ طيب قال تعالى: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا *﴾ [الإنسان: 21] .

ومن هذه الأشربة: العسل واللبن والماء: قال تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ [محمد: 51].

الكافور: قال تعالى: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا *﴾ **[الإنسان: 5 . 6]** .

الزنجبيل: قال تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً *عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً *﴾ **[الإنسان: 17 . 18]** أخبر سبحانه عن مزج شرابهم **بشيئين**: بالكافور في أول السورة، والزنجبيل في اخرها، فإنّ في الكافورِ من البردِ وطيبِ الرائحة، وفي الزنجبيلِ من الحرارةِ وطيبِ الرائحةِ ما يحدثُ لهم باجتماع الشرابين، ومجيء أحدهما على أثر الآخر حالة أخرى أكمل وأطيب وألذ من كل منهما بانفراده، ويعدّل كيفية كل منهما بكيفية الآخر، وما ألطفَ موضعَ ذكر الكافور في أول السورة والزنجبيلِ في اخرها، فإنّ شرابَهم مُزِجَ أولاً بالكافور، وفيه من البرد ما يجيء الزنجبيلُ بعدَه فيعدّله، والظاهرُ أنَّ الكأسَ الثانيةَ غير الأولى، وأنّهما نوعان لذيذان من الشراب، أحدهما مُزِجَ بكافورٍ، والثاني مُزِجَ بزنجبيلٍ[(851)] .

التسنيم: قال تعالى: ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ *خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ *وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ *عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ *﴾ **[المطففين: 25 . 28]** قال ابن عباس: تسنيمٌ أشرفُ شرابِ أهلِ الجنة، وهو صرفٌ للمقربين، ويمزَجُ لأصحاب اليمين[(852)] .

الخمر: تكلّمَ الله تعالى عن خمرِ الجنّةِ في غيرِ ما اية، ونفى عنه جميع افاتِ خمر الدنيا، قال تعالى: ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ *لاَ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنْزِفُونَ *﴾ [الواقعة: 18 . 19] وقال: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ *يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لاَ لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمٌ *﴾ [الطور: 22 . 23] وقال: ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ [محمد: 15] فخمر الدنيا[(853)]، طعمُها غيرُ لذيذٍ، ويَحْدُثُ لمن شربها صُداعٌ، وتَذْهَبُ بعقِلِه، ويكثر عندها اللغوُ واللَّغطُ، بل لا تحلو إلاَّ بكثرةِ اللغو، وتوقع الإنسانَ في الآثامِ العظامِ من دخولٍ تحت اللعنةِ، وارتكابٍ للمحظورات، فلا يمتنع عن شيءٍ منها، وكيف يمتنع وهو لا عقل له ؟ فهذه خمسةُ منغّصاتٍ لخمر الدنيا نفاها الله عن خمر الآخرة، فالطعمُ لذّة للشاربين، وهم ﴿لاَ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنْزِفُونَ *﴾ أي: تُذْهِبُ عقولَهم، ولا لغو عندها، ولا إثم فيها[(854)] . وقال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ *بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ *لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنْزِفُونَ *﴾ [الصافات: 45 . 47] .

وهذه الكأسُ من خمر الجنة، (والمعين) الجاري الكثير، ولونُ هذه الخمر بيضاء أي حسنةُ المنظرِ، وهي (لذةٌ)، والغَوْلُ صداعٌ في الرأسِ، وقيل وجعٌ في البطنِ، وهي ليس فيها هذا ولا هذا ﴿يُنْزِفُونَ *﴾أي: يسكرون منها[(855)]، فلا تُذْهِبُ عقولَهم، وتبقى لذّتُها، والخمرُ هي المقصودة بقوله

تعالى: ﴿يسقون من رحيق مختوم * ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون * ومزاجه من تسنيم * عيناً يشرب بها المقربون﴾ [المطففين: 25-27] والرحيق هي الخمر الصافية، ومن لذة الخمر أنها تُخْتَمُ بالمسك[(856)]، ولعلّ أعظمَ منغّصاتِ خمرِ الدنيا أنَّ مَنْ شربها في الدنيا لم يشربها في الآخرة، قال رسول الله (ﷺ): « مَنْ شَرِبَهَا في الدُّنيا لم يَشْرَبْهَا في الآخرة »، وقال رسول الله (ﷺ): « مَنْ شَرِبَ الخمرَ في الدُّنيا لَمْ يَشْرَبْهَا في الآخرة إِلاّ أنْ يَتُوْبَ»[(857)] .

وقال رسول الله (ﷺ): «أيما مؤمنٍ أَطْعَمَ مُؤْمِناً على جُوْعٍ أَطْعَمَهُ اللهُ يومَ القيامةِ مِنْ ثمارِ الجنّةِ، وأيما مؤمنٍ سَقَى مُؤْمِناً على ظَمَأٍ سَقَاهُ اللهُ يومَ القيامةِ مِنْ الرَّحِيْقِ المختومِ، وأيّما مؤمنٍ كسا مُؤْمِناً على عُرْيٍ كَسَاهُ اللهُ مِنْ خضر الجنّةِ »[(858)] .

3 . انية طعامهم وشرابهم:

انيةُ طعامِ أهلِ الجنّةِ مِنْ ذهبٍ وفضةٍ، قال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ*﴾ [الزخرف: 71][(859)]، (الصِّحَاف) جمع صحفة وهي القصعة

وزناً ومعنى، وهي من ذهبٍ كما هو صريحُ الآية، والأكوابُ جمع كوب وهو الكوزُ المستديرُ الرأسِ الذي لا عروةَ له ولا خرطوم[(860)] .

وقال رسولُ اللهِ (ﷺ): « أوّلُ زمرةٍ تدخلُ الجنَّة على صورةِ القمرِ ليلةَ البدرِ، والذين على أثرِهم كأشدِّ كوكبٍ إضاءةً، قلوبُهم على قلبِ رجلٍ واحدٍ، لااختلافَ بينهم ولا تباغُض، لكلِّ امرىءٍ منهم زوجتان، كلُّ واحدةٍ منهما يُرَى مُخُّ ساقِها مِنْ وراءِ لحمها من الحُسْنِ، يُسَبِّحُوْنَ اللهَ بُكْرَةً وعَشِيّاً، لا يَسْقُمُوْنَ، ولا يَتَمَخَّطونَ، ولا يَبْصُقُوْنَ، انيتُهم الذهبُ والفضةُ، وأمشاطُهم الذهبُ، ووقودُ مجامِرُهم الأُلّوة ـ يعني العود ـ ورشحُهم المِسْكُ »[(861)] .

وقال تعالى: ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ *لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ *﴾ [الواقعة: 18 ـ 19] أباريق جمع إبريق، والأكواب الكبيرة ذاتُ العري والخراطيم[(862)]، والكأسُ هو الكوبُ إذا كان فيه شرابٌ[(863)]، وهذا الكأسُ مليءٌ بالشرابِ، كما قال تعالى: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا *﴾ [النبأ: 34] أي مليئةٌ مترعةٌ متتابعةٌ، وهذا من كمالِ النعيم، فلا ينقصهم شيءٌ حتّى الكؤوسُ مليئةٌ، وقال تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا *قَوَارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا *﴾ [الإنسان: 15 ـ 16] القوارير الزجاج، أي هي في صفاء الزجاج، وهي من فضة، وهذا ما لا نظيرَ له في الدُّنيا[(864)] .

وهي معدّةٌ على قَدْرِ كفايةِ وليّ الله في شربةٍ لا تنقصُ عن كفايته شيء ولا تزيدُ، فقد قدّروها تقديراً، وهذا أبلغ في لذّة الشارب، فلو نقصَ عن ريِّه لنقص التذاذهُ، ولو زاد حتى يشمئز منه حصل له ملالةٌ وسامةٌ من الباقي، وهذا يدلُّ على الاعتناء والشرف[(865)] . وقال رسول الله (ﷺ): « لا تلبَسُوا الحريرَ ولا الدِّيباجَ، ولا تشربوا في انيةِ الذَّهَبِ والفِضَّةِ، ولا تأكلوا في صِحَافها، فإنَّها لهم في الدُّنيا، ولنا في الآخرة »[(866)] . وقال رسول الله(ﷺ): « جنّتانِ من فضةٍ انيتُهما وما فيهما، وجنتان من ذهبٍ انيتُهما وما فيهما، وما بينَ القومِ وبين أن ينظروا إلى ربِّهم إلاَّ رداءُ الكبرياءِ على وجهه في جنّةِ عَدْنٍ »[(867)] .

4 . لباس أهل الجنة وحليهم:

لا عُرْيَ في الجنّة قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى *وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى *﴾ **[طه: 118 . 119]** . وقال رسول الله (ﷺ): «مَنْ يدخلُ الجنّةَ يَنْعُمُ لا يَبْأَسُ، لا تَبْلَى ثيابهُ، ولا يَفْنَى شبابُه »[(868)].

ولهم أفضلُ أنواعِ اللباسِ فمن ذلك :

الحرير: بأنواعه الرقيق منه والغليظ قال تعالى ﴿وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا*﴾ **[الإنسان: 12]** وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ *﴾ [الحج: 23] وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا *﴾ [الكهف: 31] وقال سبحانه: ﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ *﴾ [الدخان: 53] .

والسندس ما رقَّ من الديباجِ والحريرِ، والاستبرق ما غلظَ منه، وقال الزّجَّاجُ: هما نوعانِ من الحرير، وأحسن الألوان الأخضر، وألين اللباس الحرير، فجمع لهم بين حُسْنِ منظرِ اللباس، والتلذذ به[(869)] . وقال تعالى: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا*﴾ [الإنسان: 21] تأمل ما دلّتْ عليه لفظة من كون ذلك اللباس ظاهراً بارزاً يُجَمّلُ ﴿عَالِيَهُمْ﴾، ليس بمنزلة الشعار الباطن، بل الذي يلبس فوق الثياب للزينة والجمال[(870)] .

وأمّا حليهم وأساورهم فهي كالتالي:

الذهب: قال تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ [الحج: 23] .

الفضة: ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: 21] .

اللؤلؤ: قال تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ *﴾ [فاطر: 33] فأساوِرُ أهل الجنة بعضُها من الفضة، وبعضُها من ذهبٍ، وبعضُها من لؤلؤ، قال تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ *﴾ [الحج: 23][(871)] .

5 . فرش أهل الجنة:

قال تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ *﴾ [الرحمن: 54] فَفُرْشُ أهل الجنّةِ باطنُها من حريرٍ، فإذا كان هذا باطنُها، فكيف هو ظاهرُها؟ وهذه الفرشُ عاليةٌ لها سُمك وحشو بين البطانة والظهارة، كما قال تعالى: ﴿وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ *﴾ [الواقعة: 34] .

6 . بسط أهل الجنة:

قال تعالى: ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ *﴾ [الغاشية: 16] والزرابيُّ جمعُ زربية وهي البسط[(872)]، وهو مبثوثةٌ على شكلٍ متّسقٍ ومتكاملٍ، وقال تعالى:

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ *﴾ [الرحمن: 76] العبقري: البسط الجياد، والرفرف: رياض الجنة[(873)] .

7 . الوسائد:

قال تعالى: ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ *وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ *﴾ [الغاشية: 15 . 16] النمارق: جمع نمرقة وهي الوسادة، وهي التي توضَعُ تحتَ الرأسِ، وقيل المساند، وهي التي تُوْضَعُ خلفَ الظهر أو على الجنب . وقد يعمهما اللفظ[(874)]. وهذه المخاد والوسائد مصفوفةٌ ومعدّةٌ للاستناد إليها دائماً، وترتيبُ الوسائدِ وصفُّها أجملُ للناظر من المبعثرة، وهكذا وسائدُ أهل الجنة، فينعمون حتّى بالنظر[(875)] .

8 . سرر وأرائك أهل الجنة:

قال تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ *﴾ [الطور: 20] السرر: جمع سرير وهو الذي يجلس عليه[(876)] .

وذكر الله تعالى لهذه السرر ثلاث صفات:

قال تعالى: فالسررُ مصفوفةٌ بعضُها إلى جانبِ ﴿سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ﴾، وليس بعضُها خلف بعض، ولا بعيدٌ عن بعض .

وقال تعالى: ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ *مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ *﴾ **[الواقعة: 15-16]** موضونةٌ: أي مرصّعة، ومتقاربة، ومنسوجة بقضبانِ الذهب مشبّكةٌ بالدُّر والياقوت والزبرجد[(877)] .

وقال تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ *﴾ **[الغاشية: 13]**[(878)] .

وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا *﴾ **[الكهف: 31]** وقال تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ *﴾ **[ص: 51]** وقال تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلاَ زَمْهَرِيرًا *﴾ **[الإنسان: 13]** وقال تعالى: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ٢٣تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ٢٤﴾ **[المطففين: 23–24]** وقال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ *عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ *﴾ **[المطففين: 34 . 35]** الأرائكِ جمعُ أريكةٍ، قال ابن عباس: لا تكونُ أريكةً حتى يكونَ السريرُ في الحَجَلَةِ[(879)]، وقال مجاهد هي الأسرّةُ في الحجال[(880)]، والحجال: القبةُ من القماشِ تكونُ على السريرِ مثلما يُصْنَعُ للعروسِ على سريرِها من ضربِ الستور والأقمشةِ على شكل

القبّة وتعلّقُ فوق السرير[(881)]، فالأريكةُ سريرٌ عليه الستور، يخلو به المؤمنُ بحِبِّه[(882)] .

9 . خدم أهل الجنة:

قال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ *بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ*﴾ [الواقعة: 17 . 18] وقال تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا *﴾ [الإنسان: 19] يطوفُ على أهلِ الجنّةِ للخدمةِ وُلْدَانٌ من ولدانِ أهل الجنّة ﴿مُخَلَّدُونَ﴾ أي على حالةٍ واحدةٍ مخلّدون ، لا يتغيّرون عنها، لا تزيدُ أعمارُهم عن تلك السنٌّ، وقوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا *﴾ [الإنسان: 19] أي إذا ﴿رَأَيْتَهُمْ﴾ في انتشارهم في قضاء حوائج ، وكثرتهم، وصباحةِ وجوههِم، وحسنِ ألوانهم وثيابهم وحليهم ﴿حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا *﴾ يكونُ في التشبيه أحسنُ من هذا، ولا في المنظر أحسن من اللؤلؤ المنثور على المكان الحسن[(883)] .

10 . سوق أهل الجنة:

قال رسول الله (ﷺ): «إنّ في الجنّةِ لسوقاً، يأتونها كلَّ جُمُعَةٍ، فتهبُّ ريحُ الشمالِ، فتحثوا في وجوههم وثيابهم، فيزدادونَ حُسناً وجمالاً، فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حُسناً وجمالاً، فيقولُ لهم أهلوهم: واللهِ لقد ازددتُم بعدَنا حُسْناً وجمالاً، فيقولون: أنتم، واللهِ لقد ازْدَدْتُم بعدَنا حُسناً وجمالاً» [(884)] .

والمراد بالسوقِ مجمّعٌ لهم يجتمعون كما يجتمع الناسُ في الدنيا في السوق، ومعنى يأتونها كلَّ جمعة، أي مقدار كل جمعة، أي أسبوع، وليس هناك حقيقةً أسبوعٌ، لفقد الشمس والليل والنهار[(885)] .

11 . سماع أهل الجنة:

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ *﴾ [الروم: 15] وقال تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ *﴾ [الزخرف: 70] .

قال يحيى بن أبي كثير: الحَبْرَةُ: اللذّة وسماعُ الغناء[(886)]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ *﴾ [يس: 55] قال ابن عباس رضي الله عنه: شُغُلُهم بسماعِ الأوتار[(887)] . وقوله الفكاهةُ المزاحُ والكلامُ الطيّبُ والمتفكه المتنعم.

12 . لهم ما اشتهت نفوسهم:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ *لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ *﴾ [الأنبياء: 101-102] وقال تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ *﴾ [يس: 57] وقال جل ذكره: ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاؤُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ

وَعْدًا مَسْؤُولاً*﴾ [الفرقان: 16] وقال تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ﴾ [الزمر: 34] وقال تعالى: ﴿بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ *﴾ [الزخرف: 71] .

13 . الجمع بين متاع الدنيا ونعيم الجنة:

الدُّنيا تُذَمُّ إذا كانت شاغلاً عن الآخرة، أمّا إذا جعلها العبدُ مَعْبَراً ومَدْخَلاً لنيل الآخرة، فالأمرُ ليس كما يظن بعضُ الناسِ، وانظر إلى الصالحينَ من قوم قارون عندما أنسته أموالهُ الآخرة قالوا له: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخرة وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ *﴾ [القصص: 77] فلم يأمروه بتركِ الدنيا كلِّها، بل قالوا له: ﴿وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ وأقرّهم ربُّ العزة على هذه ، وسطّرها في كتابه عنواناً لمنهج رباني[(891)] . وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيات لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ*﴾ [الأعراف: 32] .

الحادي عشر: الحور العين:

1 . جمال وحسن الحور العين:

شبه الله تعالى الحور العين بثلاث تشبيهات :

1 . قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ *كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ *﴾ **[الصافات: 48 . 49]** قيل إنّه بَيْضُ النعام المكنون في الرمل، وهو عند العرب أحسنُ ألوانِ البياض، وقيل: المراد بها اللؤلؤ قبل أن يبرز من صدفه[(892)] .

2 . وقال تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ *كَأَمْثَالِ اللَّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ *﴾ **[الواقعة: 22-23]** المكنون: أي المخبأ، الذي لم يغيّر صفاءَ لونه ضوءُ الشمس ولا عبثُ الأيدي، ولم تؤثّر على لونه، فاللؤلؤ المكنون هو اللؤلؤ المصون الذي لم يخرج من صَدَفه[(893)]، وهو في هذه الحال في غاية ما يكونُ من الحسن والجمال، فشبّه اللهُ تعالى الحورَ العين باللؤلؤ المكنون لحسنهنّ وبهائهنّ، ونظافتهنّ، وحُسْن منظرهنّ، وملبسهنّ، وبياض الحور العين غايةٌ في البياضِ، حتّى إنَّ إحداهنَّ لو خرجتْ إلى الدُّنيا لملأَ نورُها أرجاءَ المعمورة[(894)]، قال رسول الله(ﷺ): « ولو أنَّ امرأةً مِنْ أهلِ الجنّةِ اطّلعتْ على أهلِ الأرضِ لأضاءتْ ما بينَهُما، ولملأته ريحاً، وَلَنَصِيْفُها على رأسِهَا خيرٌ من الدُّنيا وما فيها[(895)].

والنَّصِيْفُ هو الخِمَارُ، فإذا كان الخمارُ خيراً من الدنيا وما فيها فما بالُكَ بالتي تَلْبَسُ الخَمَارَ »[(896)] .

3 ـ وقال تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ *﴾ [الرحمن: 58] الياقوتُ والمرجانُ حجرانِ كريمانِ جميلانِ، ولهما منظرٌ حسنٌ بديعٌ، فشبههنّ في صفاءِ الياقوتِ وبياضِ المرْجَانِ[(897)] .

2 ـ صفاتهن الخُلُقية:

قاصرات الطرف: قال تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَآنٌّ *﴾ [الرحمن: 56] وقال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ *كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ *﴾ [الصافات: 48 ـ 49]، وقال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ *﴾ [ص: 52] والمفسّرون كلُّهم على أنَّ المعنى قَصَرْنَ طرْفهنَّ على أزواجهنّ، فلا يطمحنَ إلى غيرِهم، قال مجاهد: قَصَرْنَ أبصارهنَّ وقلوبهنّ وأنفسهنّ على أزواجهنّ فلا يردن غيرهم . وقيل: قَصَرْنَ طرفَ أزواجهنّ عليهنَّ، فلا يدعهم حسنهنّ وجمالهنّ أن ينظروا إلى غيرهن[(898)] .

متحببات: قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً *فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا *عُرُبًا أَتْرَابًا*﴾ [الواقعة: 35 ـ 37] عُرُب: جمع عَروبة[(899)] أو عَرِبة أو عروب، وهي المرأةُ الحسناءُ المتوددة المتحببة لزوجها، العاشقة له[(900)] .

جميعُ الأخلاق الحسنة الطاهرة: قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ *﴾ [البقرة: 25] طهّر باطنَها من الأخلاق السيئة والصفات المذمومة، وطهّرَ لسانها من الفُحْشِ والبَذَاءِ، وطهر طرفها من أن تطمع لغير زوجها، وطهرت أثوابها من أن يعرضَ لها دنس أو وسخ[(901)] .

3 . صفاتهن الخلْقِيَّة:

أ . مطهرات من الأنجاس:

قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ *﴾ [البقرة: 25] أي مِنَ الحيض، والنفاس، والبول، والغائط، والبصاق، والمخاط، والنخامة، والمني، والمذي، والحدث، وكل قذر وأذى يكون في نساء الدنيا[(902)]، بل حتّى إذا وطئها زوجُها رجعتْ بعد نزعه طاهرةً مطهرةً، وقال رسول الله (ﷺ) أنه سئل: أنطأُ في الجنّةِ ؟ قال: « نعم والذي نفسِي بيدِه دحماً دحماً، فإذا قامَ عنها رجعتْ مطهّرةً بكراً »[(903)] .

ب . حور عين:

قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ *﴾ **[الدخان: 54]** . الحُوْرُ جمع حوراء، وهي المرأةُ الشابّةُ الحسنةُ الجميلةُ، نقية اللون والجلد لبياضها[(904)].

وهذا اللفظُ مشتقٌّ من الحَور، والحور أن يشتدَّ بياضُ العين، ويشتدَّ سوادُ سوادِها، وتستديرُ حدقتُها، وترقُّ جفونها مع شدّة بياضِ الجسدِ، ولا تكونُ السمراءُ حَوْراء، قال الأزهريُّ: لا تسمَّى حوراءَ حتى تكونَ مع حَوَرِ عينيها بيضاء لون الجسد[(905)]، وقيل: إنّ لفظَ الحَوْراء مشتقٌّ من الحيرة، لأنَّ الناظرَ إليها يحارُ من شدّة جمالها، قال مجاهد: الحور التي يحارُ الطرفُ فيها[(906)]، وقال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ *﴾ **[الصافات: 48]** وعِيْنٌ: جمع عيناء، وهي الواسعةُ العَيْنِ[(907)]، وجمعت أعيُنهنَّ مع السعة صفاتِ الحسن والملاحة[(908)] .

ج . أتراب في السن:

قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ *﴾ **[ص: 52]** وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً *فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا *عُرُبًا أَتْرَابًا *﴾ **[الواقعة: 35 . 37]**

أترابٌ: أي أقران، أسنانهن واحدة، مستويات على سن واحدة، وميلاد واحد

من الشباب والحسن، والمعنى من الإخبار باستواء أسنانهنَّ أنهنّ ليس فيهن عجائز قد فات حسنهنّ، ولا ولائد لا يطقنَ الوطء[(909)] .

د ـ أبكار: كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً *فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا *﴾ **[الواقعة: 35 ـ 36]** والبكر أفضل من الثيب، فالأرضُ التي لم يُرعَ فيها خيرٌ من أرضٍ قد رُعِيَ فيها، وهذه البكارةُ تعودُ كلّما قام عنها زوجُها، عن أبي هريرة عن رسول الله (ﷺ) أنه سئل: أنطأ في الجنة ؟ قال: « نعم والذي نفسِي بيدِه دحماً دحماً، فإذا قامَ عنها رجعتْ مطهّرةً بكراً »[(910)] .

هـ كواعب: قال تعالى: ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا *﴾ **[النبأ: 33]** كواعبُ: جمع كاعب، الكاعِبُ هي المرأة التي تكعّب ثديها، أي نَهَدَ واستدارَ[(911)]، والمراد أنَّ ثُديهنَّ نواهِدُ كالرمان، ليست متدليةً إلى أسفل، ويسمينَ: نواهدَ وكواعبَ[(912)] .

وحسبك شهادةً لجمالهنَّ الباهرَ، وأنّه بلغَ الغايةَ في الحسن، والمنتهى في الجمال ؛ إنّ الله تعالى شهد بهذا فقال: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ *﴾ **[الرحمن: 70]** وحِسَانٌ جمع حسناء[(913)] .

4 . غيرة الحور العين:

قال رسول الله (ﷺ): «لا تُؤْذِي امرأةٌ زوجَها في الدنيا، إلاّ قالتْ زوجتُه مِنَ الحُوْرِ العِيْنِ: لا تؤذيه قاتَلَكِ اللهُ، فإنَّما هُوَ دخيلٌ عندَكِ، يوشِكُ أنْ يفارِقَكِ إلينا»[(914)].

5 . يُعْطَى المؤمن في الجنة قوة مائة رجل:

عن زيد بن أرقم قال: أتى النبيَّ (ﷺ) رجلٌ من اليهود فقال: يا أبا القاسم ؛ ألستَ تزعمُ أنَّ أهلَ الجنةِ يأكلونَ فها ويشربونَ . وقال لأصحابه: إنْ أقرّ لي بهذه خصمته . قال: فقال رسول الله (ﷺ): « بلى والذي نفسِي بيدِهِ إنَّ أحدَهُم ليُعْطَى قوةَ مئةِ رَجُلٍ في المِطْعَمِ والمِشْرَبِ والشَّهْوَةِ والجِمَاعِ » .

وقال: فقال له: اليهودي: فإنّ الذي يأكلُ ويشربُ تكونُ له الحاجةُ .

قال: فقال رسولُ اللهِ (ﷺ): « حاجةُ أحدِهم عَرَقٌ يفيْضُ مِنْ جلودِهِم مثل ريْحِ المسكِ فإذا البطنُ قد ضَمَر »[(915)] .

والتمتع بالحور العين يكونُ بالملامسة، والحديثُ معهنَّ وسماعُ غنائهن، والتلذذ بجمالهن، والتمتع بشم رائحتهن الزكية .

فالملامسة: وما يصاحبها من مقدماتٍ وضمٍّ وتقبيلٍ، وهذا لازمُ الملامسةِ قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ *هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلاَلٍ

عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ *﴾ [يس: 55 . 56]، قال ابنُ مسعود وابنُ عباس وقتادةُ ومجاهدُ وغيرهم: شُغْلُهم افتضاضُ الأبكارِ[(916)] .

الحديث معهن: ومن معاني قوله تعالى: أي مشغولٌ ﴿فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ *﴾، وكلامها، ومسامرتها، وممازحتها، ومذهول من طيب كلامها ، ومشغول بها عن الالتفاتِ لغيرها[(917)]، قال القرطبي: قوله: ﴿فَاكِهُونَ*﴾: الفاكهةُ المزاحُ والكلامُ الطيب، والمتفكه: المتنعم[(918)] .

سماع غنائهن: قال تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ *﴾ [الزخرف: 70] الحبرة اللذة وسماع الغناء[(919)] .

التلذذ بجمالهن: إنّ من صفاتِ الحور العين أنهنّ ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ *﴾ [الصافات: 48] ومن معانيه أنهنّ قُصِرَتْ أعينُ أزواجهنَّ عليهنَّ مِنْ شدّةِ جمالهن، فلا يطمعُ بغيرِها، ولا يلتفتُ عنها، ولا يبتغي سواها، قد شغفتْهُ حُبّاً، وامتلأ قلبه من حبِّها، واكتنزَ وفاضَ حتى غمر جوارحَه، فلا ينظر لسواها، وهذا من النعيم الكامل، واللّذة التامة، حتى العين لها نصيبٌ وافر من النعيم واللذة[(920)]، وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ*﴾ [الزخرف: 71] .

التمتع بشم رائحتهن الزكية: لاشكَّ أنَّ الرائحةَ الطيبةَ في المرأة يزيدُها حباً لزوجها، وهو من كمالِ اللذّة، والاستمتاع بهنّ، والحورُ العينُ لهنّ من ذلك أوفرُ نصيبٍ، حيثُ إنَّ عبقَ طِيْبها لو خرجَ إلى الأرض لملأها مِسْكاً[(921)]، قال رسول الله (ﷺ): « لروحةٌ في سبيلِ اللهِ أو غدوةٌ خيرٌ من الدنيا وما فيها، ولقابُ قوسِ أحدِكم من الجنّةِ أو موضع قيد ـ يعني سوطه ـ خيرٌ من الدنيا وما فيها، ولو أنَّ امرأةً من أهلِ الجنّةِ اطّلعتْ إلى أهلِ الأرضِ لأضاءتْ ما بينها ولملأته ريحاً، ولنَصِيْفُها على رأسِهَا خيرٌ من الدُّنيا وما فيها» [(922)].

إذن يكونُ التمتّعُ بهنّ بالحواسّ الخمس جميعاً، وهذا من أعظم النعيم، حيث يفيضُ التمتّع على جميع أجزاءِ جسدِه، ويغمر كلَّ ذرّةٍ في جسمه[(923)] .

الثاني عشر ـ أفضل ما يعطاه أهل الجنة النظر إلى وجه الله الكريم:

إنّ مسألة رؤيةِ المؤمنين لربّهم عز وجل بالأبصارِ في الدار الآخرة من أشرفِ المسائل وأجلِّها، إذ هي الغايةُ القصوى، والنهايةُ العظمى، وأعلى الكراماتِ، وأفضلُ الأعطيات التي شمّر إليها السابقون، وتنافسَ فيها المتنافسون، واجتهدَ في نيلها العابدون، وقد تضافرت النصوصُ من الكتاب العزيز والسنة النبوية الصحيحة، على أنّ المؤمنين يرون اللهَ عزَّ وجلَّ بأبصارِهم، كما يرون القمرَ ليلةَ البدرِ[(924)] .

والآيات التي تدلُّ على رؤية الله تعالى كثيرة، وهي أنواع منها:

1 . آيات المزيد:

قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ *﴾ **[يونس: 26]** وقال رسول الله(ﷺ): « إذا دخلَ أهلُ الجنّةِ الجنة قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدونَ شيئاً أزيدُكُم، فيقولون: ألم تبيِّض وجوهَنا ؟ ألم تُدْخِلْنا الجنَّةَ، وتُنْجِنَا مِنَ النارِ؟ قال: فيُكْشَفُ الحجابُ، فما أُعطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظرِ إلى ربِّهم عزّ وجلّ »، ثم تلا هذه الآية ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ **[يونس: 26]**.

وقال رسول الله (ﷺ): « الحسنى: الجنّةُ، والزيادةُ: النظرُ إلى وَجْهِ الرحمن » وهذا الحديثُ متواتِرٌ يُقْطَعُ بصحته[(925)] .

وقال تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ *﴾ **[ق: 35]** وعن عليّ وأنس رضي الله عنهما أنَّ تفسير هذه الآية النظرُ إلى وجه الرحمن[(926)] . قال ابنُ كثير: وقوله تعالى: كقوله ﴿لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ فِيهَا﴾ كقوله عز وجل: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ **[يونس:26]**.

2. الآيات الصريحة في النظر إلى وجه الله تعالى:

قال تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ *إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ *﴾ [القيامة: 22 . 23]

الناضرة: الحسنة، حسّنها الله بالنظر إلى ربّها عز وجل، وحقَّ لها أن تَنْضُرَ وهي تنظر إلى ربّها جل جلاله[(927)]، وفي قوله: ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ *﴾ هذا من ؛ أي: إلى خالقها ومالك أمرها ناظرة، أي تنظرُ إليه، والمرادُ به ما تواترت به الأحاديث الصحيحة من أنَّ العبادَ ينظرن إلى ربّهم يوم القيامة كما ينظرون إلى القمرِ ليلةَ البدرِ[(928)] .

3. آيات حرمان الكفار من رؤيته سبحانه:

بين سبحانه في بعض الآيات أنّه يَحْرِمُ الكفارَ من النظر إليه عقوبةً لهم على كفرهم، وهذا يدلُّ بمفهومه على أنَّ المؤمنين يرونه سبحانه، إذ لو كان المؤمنون لا يرونه أيضاً، لما كان لتخصيصِ الكفار بالحرمان فائدةً، بل أصبحَ هذا الكلامُ من العبث الذي ينزّه عنه الشارع .

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بَعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخرة وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ *﴾ [آل عمران: 77] قال تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ

لَمَحْجُوبُونَ *﴾ [المطففين: 15] وفي هذه الآية دليلٌ على أنَّ الله عز وجل يُرَى في القيامة، ولولا ذلك ما كان في هذه الآية فائدةٌ، ولا خَسّتْ منزلةُ الكفار بأنهم يحجبون، وقال مالك بن أنس في هذه الآية: لما حجبَ أعداءَه فلم يروه، تجلّى لأوليائه حتى رأوه .

وقال الشافعي: لما حجب قوماً بالسخط، دلّ على أنّ قوماً يرونه بالرضا، ثم قال: أما واللهِ لو لم يوقن محمد بن إدريس أنّه يَرى ربَّه في المعاد لما عبده في الدنيا[(929)] .

وعن أشهبَ قال: سأل رجلٌ مالكاً: هل يرى المؤمنون ربَّهم يوم القيامة ؟ فقال مالك: لو لم يرَ المؤمنون ربَّهم يومَ القيامة لم يعيّر اللهُ الكفّارَ بالحجابِ، فقرأ: فقيل ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ *﴾: يا أبا عبد الله فإنّ قوماً يزعمون أنّ الله لا يُرى، فقال مالك: السيفَ السيفَ[(930)] .

4 . آيات العندية:

عن مسروق قال: سألنا عبد الله عن هذه الآية: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ *﴾ [آل عمران: 169] قال: أما إنّا قد سألناه عن ذلك . . يعني رسول الله (ﷺ) . فقال: « أرواحُهم في جوفِ طيرٍ خُضْرٍ لها قناديلُ، فاطّلعَ إليهم ربُّهم اطلاعةً فقال: هل تشتهونَ شيئاً ؟

قالوا: أيْ شيءٍ نشتهي، ونحنُ نسرحُ من الجنّةِ حيث شئنا، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلمّا رأوا أنّهم لن يُتركوا مِنْ أنْ يَسْألوا فقالوا: يا ربّ نريدُ أن تردَّ أرواحَنا في أجسادِنا حتى نُقْتلَ في سبيلكَ مرّةً أُخرى، فلمّا رأى أنْ ليسَ لهم حاجةً تُركِوا »[(931)] .

5 . آيات الملاقاة :

قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاَقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ *﴾ [البقرة: 223] وقال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلاَمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا *﴾ [الأحزاب: 44] وقال تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّيَ أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [هود: 29] وقال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ *﴾ [البقرة: 249] وقال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا*﴾ [الكهف: 110] .

وقال ابن مسعود: من أرادَ النظرَ إلى وجهِ اللهِ خالقهِ فليعملْ عملاً صالحاً، ولا يخبر أحداً[(932)] وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ

رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: 46] قال ابن القيم: وأجمعَ أهلُ اللسانِ على أنَّ اللقاءَ متى نُسِبَ إلى الحيِّ السليم من العمى والمانع اقتضى المعاينةَ والرؤية[(933)] .

6 . الأحاديث النبوية في الرؤية:

وقد ثبتت رؤيةُ المؤمنين للهِ عزّ وجلّ في الدار الآخرة في الأحاديث الصحاح من طرق متواترةٍ عند أئمة الحديث لا يمكنُ دفعُها ولا منعُها[(934)]، وذكر في « نظم المتناثر من الحديث المتواتر » أنَّ أحاديثَ الرؤيةِ وردتْ مرفوعةً من طريق ثمانيةَ وعشرين صحابياً، ثم سردَ أسماءهم[(935)] .

وقال ابنُ أبي العزّ الحنفي: وقد روى أحاديثَ الرؤيةِ نحو ثلاثين صحابياً، ومن أحاط بها معرفةً يقطعُ بأنَّ الرسول (ﷺ) قالها[(936)]، **ومن هذه الأحاديث:**

– ما رواه أبو سعيد رضي الله عنه أنَّ أناساً في زمن النبيّ (ﷺ) قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربَّنا يومَ القيامةِ ؟ قال النبيُّ (ﷺ): « نعم، هل تضارّونَ في رؤيةِ الشمسِ بالظهيرةِ، ضوءٌ ليس فيها سحابٌ ؟ »، قالوا: لا، قال: « هل تضارّونَ في رؤيةِ القمرِ ليلةَ البدرِ، ضوءٌ ليس فيها سحابٌ؟ »، قالوا: لا، قال النبي (ﷺ): « ما تضارُّونَ من رؤيةِ اللهِ عزَّ وجلَّ يومَ القيامةِ إلاَّ كما تضارُّون في رؤيةِ أحدِهما »[(937)] .

- عن أبي هريرة أنّ ناساً قالوا لرسولِ اللهِ (ﷺ): يا رسولَ اللهِ هل نرى رَبَّنا يومَ القيامةِ ؟ فقال رسولُ اللهِ (ﷺ): « هل تضارُّونَ في رؤيةِ القمرِ ليلةَ البَدْرِ؟ »، قالوا: لا يا رسول الله، قال: « هل تضارُّونَ في الشمسِ ليس دونها سحابٌ ؟ »، قالوا: لا يا رسول الله، قال: « فإنّكم ترونه كذلك» [(938)].

- وعن جريرِ بن عبد الله قال: قال النبيُّ (ﷺ): «إنَّكم سترونَ ربَّكم عياناً»[(939)] .

7. رضوان الله أكبر :

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *﴾ [التوبة: 72] أي: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ الله عنهم وأكبر وأجلّ وأعظمُ مما هم فيه من النعيم .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنَّ رسولَ اللهِ (ﷺ) قال: « إنّ الله عزّ وجلّ يقولُ لأهل الجنَّة: يا أهلَ الجنّةِ، فيقولون: لبيكَ ربَّنا وسعدَيكَ، والخيرُ في يديكَ . فيقول: هل رضيتُم ؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربِّ، وقد أعطيتنا ما لم تُعطِ أحداً من خَلْقِك ؟ ! فيقول: ألاَّ أُعطيكم أفضلَ مِنْ ذلك؟ فيقولون: يا ربِّ، وأيُّ شيءٍ أفضلُ من ذلك ؟ فيقول: أُحِلُّ عليكم رضواني، فلا أسخطُ عليكم بعدَه أبداً »[(940)] .

الثالث عشر . اخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين:

بعد انقضاء الحساب تحمَدُ الملائكةُ ربَّها: قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *﴾ [الزمر: 75] .

وأما المؤمنون بعد دخولهم الجنة فيقولون: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ *الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ *﴾ [فاطر: 34 . 35] وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ *﴾ [الزمر: 74] واخرُ دعواهم في جنّاتِ النعيم: الحمد لله رب العالمين، قال تعالى: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *﴾ [يونس: 10] .

* * *

الخاتمة

وبعدُ: فهذا ما يسّره الله لي مِنْ حديثٍ عن اليوم الآخر، مما تضمّنه هذا الكتاب، وقد سميتهُ «الإيمان باليوم الآخر» . فما كان فيه من صوابٍ فهو محضُ فضلِ اللهِ عليَّ، فله الحمد والمنَّة، وما كان فيه من خطأ، فأستغفرُ الله تعالى وأتوبُ إليه، واللهُ ورسولُه بريئان منه، وحسبي أنِّي كنتُ حريصاً ألاّ أقعَ في الخطأ، وعسى ألاّ أُحْرَمَ من الأجر . وأدعو الله أن ينفعَ بهذا الكتاب بني الإنسان، وأن يذكرَني مَنْ يقرؤه من إخواني المسلمين في دعائه، فإنَّ دعوة الأخِ لأخيه بظهرِ الغيبِ مستجابةٌ إن شاء الله تعالى، وأختمُ هذا الكتابَ بقول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ *﴾ [الحشر: 10] .

وبقول الشاعر[(941)] :

يا مُنْزِلَ الآيات والفُرْقانِ ... بيني وبينَك حرمةُ القرآنِ

اشرحْ به صدراً لمعرفةِ الهُدَى ... واعصمْ به قلبي من الشَّيْطانِ

يَسِّرْ به أمْري واقْضِ مارِبي ... وأَجْرِ به جَسَدِي مِنَ النِّيْرَانِ

واحطُطْ به وِزْري وأَخْلِصْ نِيَّتي ... واشدُدْ به أزْرِي وَأَصْلِح شَاني

واكشُـفْ بـه ضُـرِّي وحقِّـقْ تَـوْبَتِي　　وأَرْبِــحْ بــه بَيْعِــي بــلا خُسْــرَانِ
طهِّــرْ بــه قلــبي وصَــفِّ سَــرِيْرَتِي　　أَجْمِــلْ بــه ذِكْــرِي وأَعْــلِ مَكَــانِي
واقْطَـعْ بـه طَمَعِـي وَشـرِّفْ هِمَّـتِي　　كَثِّــرْ بــهِ وَرَعِــي وأحْــيِ جَنَــانِي
أَسْــهِرْ بــه لَيْلِــي وَأَظْــمِ جَــوَارِحِي　　أَسْــبِلْ بفــيضِ دُمُوْعِهَــا أجْفَــانِي
أُمزجْــهُ يا ربِّ بِلَحْمِــي مَــعَ دَمِــي　　واغْسِــلْ بــه قَلْــبِي مِــنَ الأضْــغَانِ
أنــتَ الــذي صــوَّرتني وخَلَقْتَــنِي　　وهَــــدَيْتَنِي لشــــرائعِ الإِيْمَــــانِ
أنــتَ الــذي علَّمْتَــنِي ورَحِمْتَــنِي　　وجَعَلْــتَ صَــدْرِيَ وَاعِــيَ القــرآن
أنــتَ الــذي أَطْعَمْتَــنِي وسَــقَيْتَنِي　　مِــنْ غــيرِ كَسْــب يــدٍ ولا دُكَّــان
وَجَبَرْتَــــنِي وسَــــتَرْتَنِي ونَصَــــرْتَنِي　　وغَمَــــرْتَنِي بِالفَضْــــلِ والإِحْسَــــانِ
أنــتَ الــذي اوَيْتَــنِي وَحَبَــوْتَنِي　　وَهَــدَيْتَنِي مِــنْ حَــيْرَةِ الخُــذْلاَنِ
وَزَرَعْــتَ لي بَــيْنَ القُلــوبِ مَــوَدَّةً　　والعطــف مِنْــكَ برحمــةٍ وحنــانِ
ونشــرتَ لي في العــالمينَ مَحَاسِــناً　　وَسَــتَرْتَ عــن أبصــارِهِم عِصْــيَانِي
وَجَعَلْــتَ ذِكْــرِي في البّريــةِ شَــائِعاً　　حــتّى جَعَلْــتَ جَمِــيْعَهم إخِــوَانِي
واللهِ لــو عَلِمُــوا قبــيحَ سَــرِيْرَتِي　　لأبى السَّــلامَ علــيَّ مَــنْ يَلْقَــانِي
وَلأَعْرَضُــوْا عــنِّي وَمَلُّــوا صُــحْبَتِي　　وَلبُــؤْتُ بَعْــدَ كرامَــةٍ بَهَــوَانِ
لــكنْ سَــتَرْتَ مَعَــايبِي وَمَثَــالِبِي　　وَحَلِمْتَ عـن سَقَطِي وَعَـنْ طُغْيَـانِي

فلــــكَ المحَامِـــدُ والمـــدائحُ كُلُّهــــا   بخَـــــواطِرِي وجَـــوَارِحِي وَلِسَـــــانِي
ولقـــد مننــتَ علـــيَّ ربِّ بِأَنْعُـــمٍ   مــــالي بِشُـــكْرِ أقلّهـــنَّ يَـــدَانِ
فوحـــقِ حِكْمَتِـــك الـــتي اتيتَـــنِي   حـــتّى شـــددتَ بِنُوْرِهـــا بُرْهَـــانِي
لـئن اجْتَبَتْـنِي مِـنْ رِضَـاكَ مَعُوْنَـةٌ   حـــتّى يقـــوّي أيْـــدُهَا إِيْمَـــانِي
لأُسَــــبِّحَنّكَ بُكْـــرَةً وَعَشِــــيّةً   وَلَتَخْـــدِمَنَّكَ فِي الـــدُّجَى أَرْكَـــانِي
ولأذْكُرَنَّـــــكَ قائِمـــــاً أو قاعِـــــداً   ولأَشْــــكُرَنّكَ ســــائِرَ الأحيــــانِ
وَلأَكْـــتُمنَّ عـــن البريَّـــةِ خَلِـــتي   وَلأَشْـــكُوَنَّ إليـــكَ جَهْـــدَ زَمـــانِي
ولأَقْصِـــدَنَّكَ فِي جميـــعِ حَـــوَائِجِي   مِـــنْ دُوْنِ قَصْـــدِ فلانـــةٍ وفُـــلانِ
وَلأَحْسِــمَنَّ عـــن الأنامِ مَطَــامِعِي   بحُسَـــامِ يأسٍ لم تَشُـــبْهُ بَنَـــانِي
ولأَجْعَلَــنَّ رِضَــاكَ أكــبَرَ همَّـــتي   وَلأَضْـــرِبَنَّ مِـــنَ الهَـــوَى شَـــيْطَانِي
ولأكْسُـــوَنَّ عيـــوبَ نَفْسِـــي بالتُّقَـــى   وَلأَقْبِضَـــنَّ عَـــنِ الفُجُـــوْرِ عِنَـــانِي
وَلأَمْـــنَعَنَّ الـــنَّفْسَ عَـــنْ شَـــهَواتِهَا   وَلأَجْعَلَـــنَّ الزُّهْـــدَ مِـــنْ أَعْـــوَانِي
وَلأَتْلُـوَنَّ حُـرُوْفَ وَحْيِـكَ فِي الـدُّجَى   وَلأَحْـــــرِقَنَّ بِنُــــــوْرِهِ شَـــــيْطَانِي

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك

* * *

فهرس الموضوعات

المراجع

[1]. لا تحزن د . عائض القرني ص (47) .

[2]. لا تحزن ص (79) .

[3]. نونية القحطاني ص (19 . 20) .

[4]. الروح لابن القيم ص (241) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ص (369)

[5]. مفردات ألفاظ القرآن للراغب ص (369) .

[6]. الروح لابن القيم ص (226، 272 . 300) .

[7]. شرح الطحاوية ص (242) .

[8]. اليوم الآخر، القيامة الصغرى د . عمر الأشقر ص (95) .

[9]. فتاوى ابن تيمية (4 / 222) .

[10]. اليوم الآخر، القيامة الصغرى ص (95) .

[11]. المصدر نفسه .

[12]. مجموع الفتاوى (4 / 220) .

[13]. مجموع الفتاوى (4 / 226 . 235) .

[14]. شرح الطحاوية ص (442) القيامة الصغرى ص (99) .

[15]. البيهقي (1 / 253)، حديث ضعيف .

[16]. المنحة الإلـهية في تهذيب الطحاوية عبد الآخر الغنيمي ص (235) .

[17]. المنحة الإلـهية في تهذيب الطحاوية .

[18]. مجموع الفتاوى (4 / 279) .

[19]. شرح الطحاوية ص (446) .

[20]. القيامة الصغرى د . عمر الأشقر ص 87 .

[21]. البخاري، رقم (570) .

[22]. اليوم الآخر عبد المحسن المطيري ص (54) .

[23]. تفسير الطبري (8 / 9) بتصرف .

[24]. اليوم الآخر عبد المحسن المطيري ص (55) .

[25]. الترمذي رقم (3537) حسن غريب .

[26]. اليوم الآخر للمطيري ص (55) .

[27]. تفسير ابن كثير (4 / 466) .

[28]. لسان العرب (4 / 373) .

[29]. البخاري، رقم (6145) .

[30]. اليوم الآخر في القرآن العظيم والسنة المطهرة ص (58) .

[31]. ابن ماجه رقم (3898) وسنده صحيح .

[32]. أحمد رقم (18534) صحيح الإسناد . وسيأتي بتمامه في المبحث الثالث ص(55)

[33]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (59) .

[34]. تفسير القرآن العظيم لابن كثير (4 / 98) .

[35]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (61) .

[36]. تفسير البغوي (7 / 173) بتصرف .

[37]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (62) .

[38]. تفسير القرطبي (10 / 67) .

[39]. تفسير ابن كثير (4 / 510) .

[40]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (64) .

[41]. تفسير ابن كثير (4 / 300) .

[42]. محاسن التأويل للقاسمي (7 / 22) .

[43]. تفسير القرطبي (17 / 151) .

[44]. التسهيل لابن جزي (1 / 279) .

[45]. تفسير القرآن العظيم (2 / 156) تفسير البغوي (3 / 169) .

[46]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (601) وسيأتي الحديث بتمامه ص (9)

[47]. أحمد رقم (18013) صحيح الإسناد وسيأتي بتمامه ص (59) .

[48]. تفسير القرآن العظيم (2 / 544) .

[49]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (69) .

[50]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (70) .

[51]. المصدر نفسه ص (72) .

[52]. ص (33) ويأتي بتمامه ص (59) .

[53]. أحمد رقم (18063) صحيح الإسناد .

[54]. القيامة الصغرى ص (74) .

[55]. المصدر نفسه ص (81) .

[56]. صحيح الجامع الصغير (1 / 388) رقم (1222) .

[57]. تذكرة القرطبي ص (12) .

[58]. المصدر نفسه ص (12) .

[59]. كتاب الزهد لابن المبارك، القيامة الصغرى ص (213) .

[60]. القيامة الصغرى ص (79، 80) .

[61]. الثبات على دين الله . د . الأمين الصادق (2 / 976) .

[62]. الثبات على دين الله (2 / 977) التبيان في أقسام القرآن لابن القيم ص (149)

[63]. شفاء العليل لابن القيم ص (241) .

[64]. الثبات على دين الله (2 / 978) .

[65]. تفسير القرآن العظيم (1 / 665) .

[66]. الثبات على دين الله (2 / 980) .

[67]. رحلة الخلود، حسن أيوب ص (112) .

[68]. رحلة الخلود ص (112) .

[69]. البخاري رقم (325) مسلم (263) .

[70]. رحلة إلى الدار الآخرة، محمود المصري ص (42)، سكب العبرات، سيد العفاني (10 / 57) .

[71]. الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (4 / 157) .

[72]. جامع العلوم والحكم (1 / 398) .

[73]. صحيح الجامع رقم (4071) .

[74]. سكب العبرات (1 / 61) .

[75]. الترمذي رقم (3537) حسن غريب .

[76]. مسلم (2759) .

[77]. رحلة إلى الدار الآخرة ص (51) .

[78]. تقدم تخريجه انفاً .

[79]. الثبات على دين الله (2 / 1042) .

[80]. رحلة إلى الدار الآخرة ص (52) صحيح الجامع رقم (3414) .

[81]. رحلة إلى الدار الآخرة ص (52) .

[82]. سكب العبرات (1 / 64) .

[83]. الترمذي رقم (2461) .

[84]. الترمذي رقم (2308) .

[85]. الثبات على دين الله (1 / 1029) .

[86]. مدارج السالكين (2 / 36) .

[87]. الثبات على دين الله (1 / 1038) .

[88]. مدارج السالكين (2 / 45 . 46) .

[89]. الثبات على دين الله (1 / 1039) .

[90]. رحلة إلى الدار الآخرة ص (54) .

[91]. قام الدكتور محمد حيدر بجمعها ودراستها في رسالته المتقدّمة لنيل رسالة الدكتوراة بجامعة أم درمان المسماة (أحاديث حياة البرزخ في الكتب التسعة جمعاً وتخريجاً ودراسة) . فمن أراد التوسع فليرجع إليها .

[92]. رحلة إلى الدار الآخرة ص (79 . 96) .

[93]. سكب العبرات (1 / 114) .

[94]. رحلة الخلود، حسن أيوب ص (113) .

[95]. الثبات على دين الله (1 / 1046) .

[96]. المصدر نفسه .

[97]. المصدر نفسه (1 / 1046) .

[98]. الثبات على دين الله .

[99]. البخاري، رقم (4697) .

[100]. الثبات على دين الله (2 / 1054) .

[101]. البخاري، رقم (6416) .

[102]. المصدر نفسه .

[103]. الترمذي، رقم (2333) صححه الألباني .

[104]. تحفة الأحوذي (6 / 515)، الثبات على دين الله (2 / 1055) .

[105]. كتاب الروح لابن القيم ص (88 . 89)، الوعد الآخروي شروطه وموانعه، عيسى السعدي ص (89) .

[106]. تفسير القرطبي (12 / 150)، أحاديث حياة البرزخ ص (32) .

[107]. الروح ص (132) .

[108]. تفسير الطبري (14 / 441) .

[109]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (98) .

[110]. دراسات عقدية في الحياة البرزخية للحازمي ص (311) .

[111]. المصدر نفسه ص (312) تفسير الطبري (11 / 499) .

[112]. أهوال القبور لابن رجب ص (79) .

[113]. تفسير القرطبي (18 / 201) .

[114]. البخاري (4699) ومسلم (2871) .

[115]. البخاري رقم (1374) ومسلم (2870) .

[116]. الترمذي رقم (1071) صححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (1391) .

[117]. أحمد رقم (18534) إسناده صحيح .

[118]. أبو داود (3221) .

[119]. مسلم (249) .

[120]. البخاري (1388) ومسلم (1004) .

[121]. البخاري (1952) ومسلم (1147) .

[122]. البخاري رقم (1852) .

[123]. أورده الهيثمي في المجمع (3 / 39) إسناده حسن .

[124]. المنحة الإلهية في تهذيب الطحاوية للغنيمي ص (248) .

[125]. مسلم رقم (1631) .

[126]. الترمذي رقم (3255) ضعيف الإسناد .

[127]. البخاري رقم (6514) .

[128]. الترمذي رقم (2461) .

[129]. الترمذي رقم (2308) صحيح الجامع الصغير رقم (5623) .

[130]. دراسات عقدية في الحياة البرزخية ص (348) .

[131]. دراسات عقدية في الحياة البرزخية ص (358 . 359) .

[132]. المصدر نفسه ص (249) .

[133]. البخاري رقم (3485) .

[134]. مسند أحمد رقم (15834) .

[135]. دراسات عقدية في الحياة البرزخية ص (350) .

[136]. تفسير الطبري (10 / 450 . 451) .

[137]. أضواء البيان (6 / 489، 490) .

[138]. مسلم رقم (2955) .

[139]. دراسات عقدية ص (353) .

[140]. البخاري (3408) ومسلم (2373) .

[141]. دراسات عقدية ص (354) .

[142]. الروح لابن القيم ص (103 . 106) .

[143]. الغرز: الادخال (النهاية) (3 / 359) .

[144]. البخاري رقم (1378) .

[145]. الغلول: الخيانة .

[146]. أحمد (6 / 392) .

[147]. يجلجل: الحركة مع الصوت .

[148]. البخاري رقم (3485) .

[149]. فتح الباري (10 / 272) .

[150]. أحكام الجنائز للألباني ص (15) إسناده صحيح .

[151]. يثلغ رأسه: أي يشدخه ويشقه .

[152]. البخاري رقم (7047) .

[153]. الكبائر والصغائر حامد محمد المصلح ص (137) .

[154]. البخاري رقم (7047) .

[155]. الكبائر والصغائر ص (137) .

[156]. البخاري رقم (7047) .

[157]. فتح الباري (12 / 465) .

[158]. فيفغر: أي يفتح .

[159]. البخاري رقم (7047) .

[160]. ابن خزيمة وصححه الألباني في صحيح الترغيب ص (995) .

[161]. ابن خزيمة رقم (70) حياة القبر حسن زكريا ص (59) .

[162]. خشاش الأرض: الحشرات والهوام .

[163]. مسلم، رقم (904) .

[164]. السلسلة الصحيحة للألباني رقم (291) .

[165]. البخاري (3 / 161) .

[166]. صحيح سنن الترمذي (1 / 294) .

[167]. المحجن: عصا معقوفة .

[168]. مسلم، رقم (904) .

[169]. حياة القبر عذاب أم نعيم، حسن زكريا ص (ص55) .

[170]. الداء والدواء لابن القيم ص (137، 163، 164) .

[171]. الرحلة إلى الدار الآخرة ص (196) .

[172]. الرحلة إلى الدار الآخرة ص (199) .

[173]. الثبات على الدين (2 / 1137) .

[174]. المصدر نفسه (2 / 1138 . 1139) .

[175]. الرحلة إلى الدار الآخرة ص (201) .

[176]. نسمته: النسمة هي النفس والروح .

[177]. يعلق: أي يأكل .

[178]. الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، رقم (3113) .

[179]. الثبات على دين الله (2 / 1141) .

[180]. مسلم، رقم (1887) .

[181]. الثبات على دين الله (2 / 1143) .

[182]. بارقة السيوف: أي لمعانها .

[183]. النسائي رقم (2053) صححه الألباني .

[184]. الحاكم (2 / 130)، صحيح الإسناد .

[185]. الترمذي رقم (1663) صحيح الإسناد .

[186]. أبي داود رقم (2500) صحيح الإسناد .

[187]. الإحسان رقم (4624) .

[188]. مسلم رقم (1913) .

[189]. الثبات على دين الله (2 / 1144) .

[190]. البخاري رقم (6367) .

[191]. البخاري رقم (832) .

[192]. مسلم رقم (588) .

[193]. رحلة إلى الدار الآخرة ص (205) أخرجه الحاكم وصححه . ووافقه الذهبي

[194]. المصدر نفسه ص (205) .

[195]. أبي داود رقم (3221)، صححه الألباني .

[196]. رحلة إلى الدار الآخرة ص (303) .

[197]. البخاري رقم (6348) ومسلم (2444) .

[198]. مسلم رقم (1887) .

[199]. سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني رقم (995) .

[200]. اليوم الآخر، القيامة الصغرى، عمر الأشقر ص (103) .

[201]. انظر البخاري رقم (7047) .

[202]. البخاري (1378) .

[203]. أحمد (6 / 392) .

[204]. أحمد (18534) .

[205]. الشفا بتعريف أحوال المصطفى للقاضي عياض (1 / 650) .

[206]. البخاري رقم (6604) .

[207]. مسلم (2894) .

[208]. أشراط الساعة يوسف الوابل ص (55) .

[209]. أشراط الساعة للوابل ص (58) .

[210]. مسلم (8) .

[211]. أشراط الساعة ص (58) .

[212]. المصدر نفسه ص (67) .

[213]. واتباع سنن الأمم الماضية .

[214]. أشراط الساعة ص (67) .

[215]. البخاري (3936) ومسلم (2951) .

[216]. عَمْواس: بلدة في فلسطين على ستة أميال من الرملة، وكان هذا الطاعون في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

[217]. انظر: كتاب حقيقة الخلاف بين الصحابة للمؤلف، ففيه تفصيل .

[218]. معركة بين أهل المدينة وجيش يزيد بن معاوية بن أبي سفيان عام 63 هـ .

[219]. تفسير انتفاخ الأهلة بأن ذلك عبارةً عن كبر الهلال حين طلوعه عمّا هو معتادٌ في أول الشهر، فيرى وهو ابن ليلة كأنه ابن ليلتين .

[220]. وقوع التناكر عند كثرة الفتن والمحن، وكثرة القتال بين الناس، وحينما تستولي المادّةُ على الناس، ويعمل كل منهم لحظوظ نفسه، تكثر الأنانية، وتسيطر الأهواء والشهوات، فيحدثُ التناكر بين الناس .

[221]. أشراط الساعة يوسف الوابل ص (80 . 235) .

[222]. أشراط الساعة ص (342) .

[223]. أشراط الساعة ص (344) .

[224]. البخاري رقم (2222) ومسلم رقم (155) .

[225]. مسلم رقم (1237) .

[226]. تقدم انفاً .

[227]. تفسير الطبري (6 / 8) .

[228]. البخاري رقم (2222) ومسلم رقم (155) .

[229]. البخاري رقم (3449) ومسلم رقم (155) .

[230]. مسلم رقم (156) .

[231]. أشراط الساعة ص (349) .

[232]. أشراط الساعة ص (371) .

[233]. البخاري رقم (7059) ومسلم (2880) .

[234]. أشراط الساعة الكبرى ماجد البنكاني ص (185) . .

[235]. مسلم رقم (2901) أشراط الساعة للبنكاني ص (185) .

[236]. أشراط الساعة ص (391) .

[237]. تفسير الطبري (8 / 103) .

[238]. البخاري رقم (4635) ومسلم رقم (157) .

[239]. أشراط الساعة ص (404) .

[240]. التذكرة (3 / 340) ط دار ابن كثير .

[241]. مسلم رقم (2947) .

[242]. الحاكم (4 / 557 . 558) سند صحيح رجاله ثقات .

[243]. أحمد (3 / 37) رجاله ثقات .

[244]. أحمد (2 / 58) رقم (645) إسناده صحيح .

[245]. مسلم رقم (2934) .

[246]. لسان العرب (دجل) .

[247]. المصدر نفسه .

[248]. ناتئة: مأخوذة من النتوء وهو الارتفاع والانتفاخ .

[249]. جحراء: ليست غائرة منحجرة في نقرتها .

[250]. ظفرة: لحمة تنبت عند الماقي، وقد تمتد إلى السواد فتخشاه .

[251]. أبو داود مع عون المعبود (11 / 443) حديث صحيح .

[252]. مسلم رقم (2934) .

[253]. البخاري رقم (7131) ومسلم رقم (2934) .

[254]. أشراط الساعة ص (309 . 311) .

[255]. أشراط الساعة ص (313) .

[256]. البخاري رقم (6368) ومسلم رقم (589) .

[257]. مسلم رقم (588) .

[258]. مسلم مع شرح النووي (18 / 65) .

[259]. مسلم رقم (809) .

[260]. أشراط الساعة ص (328) .

[261]. الحاكم (2 / 368) صحيح الإسناد .

[262]. صحيح الجامع الصغير للألباني رقم (6177) .

[263]. أشراط الساعة ص (333) .

[264]. مسلم رقم (2901) وقد تقدم ص (93) .

[265]. فتح الباري لابن حجر (13 / 84) .

[266]. مسلم رقم (2901) .

[267]. المصدر نفسه .

[268]. أشراط الساعة ص (419) .

[269]. أبو داود رقم (4742) .

[270]. فتح الباري (11 / 376) .

[271]. أبو داود رقم (4742) .

[272]. حديث الصور أخرجه البيهقي في البعث والنشور ص (325) وهو حديث ضعيف .

[273]. تفسير ابن كثير (4 / 466)، فتح الباري (11 / 374) .

[274]. البخاري رقم (4536) ومسلم رقم (2955) .

[275]. رحلة قبل الرحيل، بشير عبد الله ص (39) .

[276]. مسلم رقم (7307) .

[277]. رحلة قبل الرحيل ص (39) .

[278]. رحلة قبل الرحيل ص (40) .

[279]. السلسلة الصحيحة للألباني رقم (1078) .

[280]. السلسلة الصحيحة رقم (1079) .

[281]. صحيح الجامع رقم (4000) .

[282]. مجموع الفتاوى (4 / 261)، رحلة إلى الدار الآخرة ص (341) .

[283]. فتح الباري (11 / 376)، اليوم الآخر للمطيري ص (218) .

[284]. أضواء البيان (5 / 822) .

[285]. فتح القدير للشوكاني (5 / 76) .

[286]. الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (17 / 85) .

[287]. اليوم الآخر في القرآن العظيم والسنة المطهرة ص (220) .

[288]. اللباب في شرح العقيدة على ضوء السنة والكتاب د . محمد محمد الزبيدي ص (216) .

[289]. دراسات في التفسير الموضوعي د . إبراهيم الألمعي ص (302) .

[290]. دراسات في التفسير الموضوعي ص (305) .

[291]. أعلام الموقعين لابن القيم ص (436) .

[292]. في ظلال القرآن لسيد قطب (4 / 2409 . 2411) باختصارٍ وتصرف، الدلالة العقلية في القرآن د . عبد الكريم عبيدات ص (437) .

[293]. تفسير ابن كثير (4 / 222)، تفسير الطبري (21 / 55) .

[294]. أعلام الموقعين (1 / 144 . 145)، الدلالة العقلية ص (444) .

[295]. فتح القدير للشوكاني (5 / 342) .

[296]. الدلالة العقلية في القرآن ومكانتها في تقرير مسائل العقيدة ص (448) .

[297]. رحلة إلى الدار الآخرة، ص (346، 347، 348) .

[298]. المصدر نفسه ص (348) .

[299]. البخاري رقم (5955) .

[300]. السلسلة الصحيحة للألباني رقم (1087) .

[301]. مباحث العقيدة في سورة الزمر ناصر علي ص (549) .

[302]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (185 . 191) .

[303]. المصدر نفسه ص (192 . 193) .

[304]. مجمع الزوائد (10 / 620) إسناده حسن .

[305]. مسلم رقم (2860) .

[306]. النسائي رقم (2083) بسند صحيح .

[307]. مفردات ألفاظ القرآن للراغب ص (590) .

[308]. المصدر نفسه ص (119) .

[309]. تفسير السعدي ص (446) .

[310]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (235) .

[311]. المصدر نفسه ص (235) .

[312]. اليوم الآخر القيامة الكبرى عمر الأشقر ص (100) .

[313]. اليوم الآخر، القيامة الكبرى، الأشقر ص (103) .

[314]. البخاري رقم (6947) مسلم رقم (2787) .

[315]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (242) .

[316]. تفسير ابن كثير (3 / 199) .

[317]. معارج القبول (2 / 212) .

[318]. المصدر نفسه (2 / 212) .

[319]. تفسير ابن كثير (4 / 240) .

[320]. معارج القبول (2 / 213) .

[321]. المفردات للراغب ص (282) .

[322]. البخاري، رقم (3028) .

[323]. المفردات للراغب ص (704) .

[324]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (243) .

[325]. العفر: بياض يضرب إلى الحمرة .

[326]. النقي: الدقيق النقي من القش والنخال .

[327]. البخاري رقم (6156) .

[328]. مسلم رقم (2791) .

[329]. مسلم رقم (315) .

[330]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (245) .

[331]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (245) .

[332]. المصدر نفسه ص (246) .

[333]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (251) .

[334]. المصدر نفسه ص (253) .

[335]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (253 ـ 258) .

[336]. تفسير القرطبي (17 / 22) .

[337]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (267) .

[338]. تفسير القاسمي (5 / 91)، اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (469) .

[339]. تفسير القرطبي (11 / 88) .

[340]. البخاري رقم (1338) .

[341]. مسلم رقم (987) .

[342]. الترمذي رقم (2649) وقال الترمذي: حسن .

[343]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (275) .

[344]. البخاري رقم (4277) .

[345]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (276) .

[346]. البخاري رقم (3073) مسلم (1831) .

[347]. مشكاة المصابيح (2 / 635) إسناده حسن .

[348]. اليوم الآخر القيامة الكبرى، د . عمر الأشقر ص (144) .

[349]. البخاري رقم (6206) مسلم رقم (2143) .

[350]. فتح الباري (10 / 589) .

[351]. اليوم الآخر، القيامة الكبرى ص (149) .

[352]. صحيح الجامع الصغير رقم (1950) .

[353]. مسلم رقم (1735) .

[354]. مسلم رقم (1738) .

[355]. اليوم الآخر، القيامة الكبرى ص (151) .

[356]. اليوم الآخر، القيامة الكبرى ص (151) .

[357]. البخاري رقم (3196) .

[358]. فتح الباري لصحيح البخاري (5 / 3) .

[359]. البخاري رقم (3493 و3494) مسلم رقم (2526) .

[360]. أبو داود رقم (2948) والترمذي رقم (1333) .

[361]. صحيح الجامع الصغير رقم (6471) .

[362]. رواه البخاري رقم (7042) والآنُك: الرصاص .

[363]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (279) .

[364]. البخاري رقم (6589) .

[365]. لسان العرب ابن منظور (4 / 369) معجم مقاييس اللغة (3 / 182) .

[366]. البخاري رقم (660) مسلم رقم (1031) . واللفظ له .

[367]. فتح الباري (2 / 144) .

[368]. مسلم رقم (3006) .

[369]. صحيح الجامع رقم (1462) .

[370]. اليوم الآخر القيامة الكبرى ص (61) .

[371]. رواه مسلم رقم (2699) .

[372]. البخاري رقم (2078) مسلم رقم (1562) .

[373]. مسلم (1827) .

[374]. الترمذي (1663) ابن ماجه (2799) .

[375]. صحيح الجامع الصغير رقم الحديث (3473) .

[376]. أبو داود (4777) والترمذي (2021) وابن ماجه (4186) .

[377]. اليوم الآخر، القيامة الكبرى ص (166) .

[378]. مسلم رقم (387) .

[379]. اليوم الآخر، القيامة الكبرى ص (169) .

[380]. النسائي (6 / 26 . 27) بإسناد صحيح .

[381]. البخاري (136) ومسلم (246) .

[382]. فتح الباري (1 / 236) .

[383]. مسلم (250) .

[384]. اليوم الآخر، يوم القيامة ص (172) .

[385]. الشفاعة عند المثبتين والنافين د . عفاف بنت حمد عبد العزيز الونيس ص (354) .

[386]. الشافعة عند المثبتين والنافين .

[387]. المصدر نفسه ص (255) .

[388]. المصدر نفسه ص (257) .

[389]. مسلم رقم (200) .

[390]. مسلم رقم (521) .

[391]. مسلم (2278) .

[392]. قواعد التفسير لخالد السبت (2 / 597) .

[393]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (292) .

[394]. البخاري رقم (6565) ومسلم رقم (193) .

[395]. البخاري (4312) مسلم رقم (194) .

[396]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (299) .

[397]. مسلم رقم (196) .

[398]. مسلم رقم (333) .

[399]. مسلم رقم (855) .

[400]. البخاري (4322) مسلم (2498) .

[401]. مسلم (920) .

[402]. ضحضاح: ما رقّ من الماء على وجه الأرض، ما يبلغ الكعبين، فاستعاره للنار . النهاية (3 / 75) . .[403] البخاري رقم (6208) ومسلم (209) .[404] مسلم رقم (362) .

[405]. المنحة الإلهية في تهذيب الطحاوية للغنيمي ص (292) .

[406]. الترمذي رقم (2435) حسن صحيح وغريب .

[407]. مسلم رقم (216) .

[408]. اليوم الآخر القيامة الكبرى ص (189)، فتح الباري (11 / 436) .

[409]. الشفاعة عند المثبتين والنافين ص (412) .

[410]. أحمد رقم (11488)، وسنده صحيح، وله شواهد كثيرة في (الصحيحين) . .[411] صحيح سنن ابن ماجه (2 / 129) .

[412]. البخاري رقم (1248 و1381) .

[413]. الموطأ (1 / 235)، جامع الأصول لابن الأثير (9 / 593) حديث صحيح .

[414]. الغياية: كلُّ شيء أظلَّ الإنسانَ فوقَ رأسِهِ .

[415]. مسلم (804) .

[416]. صحيح ابن ماجه (2 / 216) .

[417]. البخاري رقم (99) .

[418]. مسلم رقم (200) .

[419]. المسند (2 / 174) الحاكم (1 / 544) حديث صحيح .

[420]. البخاري (614) .

[421]. لأوائها: أي الصبر على شدائدها وضيق العيش فيها .

[422]. مسلم (1374 / 477) .

[423]. صحيح الجامع للألباني رقم (6233) .

[424]. مسلم (947) .

[425]. مسلم (948) .

[426]. مسلم (489) .

[427]. الحياة في القرآن الكريم، أحزمي جزولي (2 / 599) .

[428]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (307) .

[429]. تذكرة القرطبي (2 / 95) اليوم الآخر، القيامة الكبرى ص (201) للأشقر .

[430]. التذكرة للقرطبي (2 / 95) .

[431]. لوامع الأنوار البهية (2 / 174) .

[432]. تذكرة القرطبي ص (2 / 96)، اليوم الآخر يوم القيامة ص (202) .

[433]. تذكرة القرطبي (2 / 135)، اليوم الآخر القيامة ص (199) .

[434]. اليوم الآخر القيامة ص (199) .

[435]. أبو داود (864) والترمذي (413) والنسائي (1 / 232) وابن ماجه (1425) .

[436]. الترمذي (2416) وقال: حديث غريب .

[437]. تفسير ابن كثير (1 / 561) .

[438]. اليوم الآخر يوم القيامة ص (211) .

[439]. البخاري (7501) ومسلم (128) .

[440]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (335) .

[441]. المصدر نفسه ص (337) .

[442]. مسلم رقم (2969) .

[443]. البخاري رقم (3161) .

[444]. الترمذي رقم (3353)، حسن صحيح غريب .

[445]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (340) .

[446]. المصدر نفسه ص (343) .

[447]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (343) .

[448]. البخاري رقم (2317) .

[449]. مسلم رقم (2317) .

[450]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (344) .

[451]. الحاكم بإسناد صحيح، اليوم الآخر المطيري ص (344) .

[452]. اليوم الآخر القيامة الكبرى للأشقر ص (240) .

[453]. صحيح الجامع الصغير رقم (7885) .

[454]. صحيح الجامع الصغير رقم (7887) .

[455]. البخاري (6533) ومسلم (1678) .

[456]. أغفى: أي نام نومة خفيفة، أو نعس .

[457]. الاختلاج: الحركة والاضطراب .

[458]. مسلم رقم (400) .

[459]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (360) .

[460]. اللباب في شرح العقيدة على ضوء السنة والكتاب د . محمد الزبيدي ص (286) .

[461]. أيلة: مدينة على بحر القلزم (البحر الأحمر) مما يلي الشام، وقيل هي اخرُ الحجاز وأولُ الشام وتسمَّى اليوم (إيلات) ردّها الله إلى ديار المسلمين .

[462]. عدن: مدينة باليمن .

[463]. مسلم (248) .

[464]. البخاري (6587) .

[465]. البخاري (6583) مسلم (2290) .

[466]. البخاري (6584) ومسلم (2291) .

[467]. شرح صحيح مسلم (3 / 136، 137) .

[468]. المفهم للقرطبي (1 / 504)، فتح الباري (11 / 385) .

[469]. البخاري (6576) .

[470]. مسلم (2304) .

[471]. البخاري (6583) .

[472]. الانتصار للصحب والال للرحيلي ص (354) .

[473]. شرح النووي على صحيح مسلم (3 / 137) .

[474]. السنة لعبد الله بن أحمد (2 / 420) علي بن أبي طالب للمؤلف ص (684) .

[475]. البخاري رقم (6582) ومسلم (2340) .

[476]. البخاري (6587) .

[477]. الإصابة في تمييز الصحابة (1 / 7) .

[478]. التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ص (2 / 134) .

[479]. الغيبيات في ضوء السنة د . محمد همام ص (345)، الحياة في القرآن الكريم (2 / 606) .

[480]. سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (941) .

[481]. مسند أحمد (2 / 221 . 222) رقم (7066) إسناده صحيح .

[482]. الحياة في القرآن الكريم (2 / 608) .

[483]. رحلة إلى الدار الآخرة ص (482) .

[484]. الترمذي (2002) وقال: حديث حسن صحيح .

[485]. البخاري رقم (7563) ومسلم (2694) .

[486]. مسلم (223) .

[487]. شرح الأربعين حديثاً النووية لابن دقيق العيد ص (61 . 62) .

[488]. البخاري رقم (2853) فتح الباري (6 / 67) .

[489]. لوامع الأنوار البهية للسفاريني (2 / 192) .

[490]. شرح مسلم للنووي (16 / 58) .

[491]. ابن ماجه رقم (4281) سند صحيح .

[492]. الحياة في القرآن الكريم (1 / 617) .

[493]. تفسير ابن كثير (4 / 270) .

[494]. دحض: زلق .

[495]. مسلم (183) .

[496]. مسلم رقم (195) .

[497]. رحلة إلى الدار الآخرة ص (498) .

[498]. البخاري رقم (4830) ومسلم (2554) .

[499]. صحيح الجامع للألباني رقم (5705) .

[500]. البخاري رقم (6535) .

[501]. الحياة في القرآن الكريم (2 / 619) .

[502]. التذكرة للقرطبي ص (2 / 165) .

[503]. اليوم الآخر؛ القيامة الكبرى ص (283) والتذكرة (2 / 165) .

[504]. الغوالي جمع (غالية) وهي من أطيب الطيب .

[505]. اليوم الآخر، عبد المحسن المطيري ص (294) .

[506]. مسلم رقم (2837)، اليوم الآخر في القرآن العظيم والسنة المطهرة ص (394) .

[507]. البخاري رقم (4453) مسلم (2849) .

[508]. البخاري رقم (5445) مسلم رقم (109) .

[509]. لسان العرب (3 / 1) .

[510]. المصدر نفسه (3 / 1) .

[511]. اليوم الآخر في القرآن والسنة المطهرة ص (400) .

[512]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (402) .

[513]. البخاري رقم (4453)ومسلم (2849).

[514]. دفع إيهام الاضطراب عن ايات الكتاب للشنقيطي ص (93 ـ 97).

[515]. البخاري رقم (4901) مسلم رقم (907).

[516]. مسلم رقم (426).

[517]. مسلم رقم (162).

[518]. اليوم الآخر د . المطيري ص (410).

[519]. البخاري رقم (2637).

[520]. اليوم الآخر د . المطيري ص (410).

[521]. الفتح الرباني شرح مسند الإمام أحمد الشيباني، لعبد الرحمن بن أحمد البنا الساعاتي (7 /). [522]. تفسير ابن كثير (4 / 4).

[523]. محاسن التفسير للقاسمي (7 / 2).

[524]. اليوم الآخر، عبد المحسن المطيري ص (412).

[525]. مسلم رقم (2842).

[526]. مفردات الراغب ص (562).

[527]. البعث والنشور للبيهقي ص (81 . 87).

[528]. اليوم الآخر د . المطيري ص (418).

[529]. تفسير ابن كثير (2 / 2)، فتح القدير (1 / 2).

[530]. لسان العرب (15 / 2).

[531]. لسان العرب (4 / 3).

[532]. اليوم الآخر، د . المطيري ص (425).

[533]. لسان العرب (12 / 1).

[534]. اليوم الآخر د . المطيري ص (426).

[535]. النسائي رقم (2104)وأصله في الصحيحين .

[536]. لسان العرب (12 /)، بتصرف وتقديم وتأخير .

[537]. البعث والنشور للبيهقي ص (255).

[538]. اليوم الآخر في القرآن العظيم والسنة المطهرة ص (429).

[539]. مسلم (2842).

[540]. البخاري (4819).

[541]. مسلم رقم (2797).

[542]. اليوم الآخر في القرآن العظيم والسنة المطهرة ص (435).

[543]. اليوم الآخر، الجنة والنار، عمر الأشقر ص (28).

[544]. المصدر نفسه ص (28).

[545]. اليوم الآخر، د . محسن المطيري ص (438).

[546]. لسان العرب (10 / 4).

[547]. مفردات القرآن للراغب الأصفهاني ص (311).

[548]. اليوم الآخر في القرآن العظيم، والسنة المطهرة ص (442).

[549]. مسلم رقم (211).

[550]. اليوم الآخر، الجنة والنار للأشقر ص (33).

[551]. البخاري رقم (3092) مسلم رقم (2843).

[552]. اليوم الآخر الجنة والنار للأشقر ص (43).

[553]. اليوم الآخر في القرآن العظيم والسنة المطهرة ص (446).

[554]. الترمذي (3164) .

[555]. ابن أبي الدنيا صفة النار ص(41) .

[556]. المصدر نفسه ص (460) .

[557]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (450) .

[558]. البيهقي في البعث والنشور ص (261) .

[559]. المصدر السابق ص (261) .

[560]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (450) .

[561]. اليوم الآخر، في القرآن والسنة المطهرة ص (451) .

[562]. أخرجه البيهقي في البعث والنشور ص (268) .

[563]. النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (2 / 359) .

[564]. الترمذي رقم (2584) .

[565]. مسلم رقم (2844) .

[566]. مسلم رقم (2851) .

[567]. مسلم رقم (2842) .

[568]. ديوان الأعشى الكبير (59)، الحياة في القرآن الكريم أحزمي سامعون جزولي (1 / 274) .

[569]. تفسير ابن كثير (1 / 112) .

[570]. الحياة في القرآن الكريم (1 / 272 . 281) .

[571]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (457) .

[572]. البعث والنشور للبيهقي ص (286) .

[573]. مفردات القرآن للأصفهاني ص (667) .

[574]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (457) .

[575]. لسان العرب لابن منظور (1 / 697) .

[576]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (458) .

[577]. مسلم (1905) .

[578]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (495) .

[579]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (495) .

[580]. المفردات للراغب ص (78) .

[581]. تفسير القرطبي (7 / 133) .

[582]. اليوم الآخر في القرآن العظيم والسنة المطهرة ص (496) .

[583]. المفردات للراغب ص (610) بتصرف .

[584]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (497) .

[585]. المصدر نفسه ص (497) .

[586]. المصدر السابق (499) .

[587]. البخاري (3200) .

[588]. الفتح الرباني (7 / 77) .

[589]. جامع الترمذي رقم (2493) .

[590]. البخاري رقم (5311) .

[591]. اليوم الآخر في القرآن العظيم والسنة المطهرة ص (447) .

[592]. مفردات القرآن للراغب الأصفهاني ص (781) .

[593]. تفسير القرطبي (16 / 100) .

[594]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (447) .

[595]. المصدر نفسه ص (448) .

[596]. اليوم الآخر د . المطيري ص (502) .

[597]. البدور السافرة للسيوطي ص (493) .

[598]. صفة النار لابن أبي الدنيا ص (64) .

[599]. المفردات للراغب ص (254) لسان العرب (12 / 153) .

[600]. الترمذي رقم (2582) حسن صحيح غريب .

[601]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (504) .

[602]. الترمذي رقم (1862) صححه الألباني في صحيح الترمذي (2 / 169)

[603]. لسان العرب (3 / 166) .

[604]. تفسير ابن كثير (4 / 41) .

[605]. البدور السافرة، للسيوطي ص (441) .

[606]. المصدر نفسه ص (441) .

[607]. اليوم الآخر، الأشقر ص (97) .

[608]. لسان العرب (11 / 335) .

[609]. البعث والنشور للبيهقي ص (284) .

[610]. مسلم رقم (934) .

[611]. اليوم الآخر، الأشقر ص (97) .

[612]. الترمذي رقم (2582) حسن صحيح غريب .

[613]. تفسير أبي السعود (6 / 151) .

[614]. القطران: النحاس المذاب، غريب القرآن ص (407) .

[615]. في ظلال القرآن (5 / 2883) .

[616]. الحياة في القرآن الكريم (1 / 286) .

[617]. تفسير المراغي (4 / 96)، .

[618]. المضض: وجع المصيبة، لسان العرب (7 / 233) .

[619]. التوجس: التسمع إلى الصوت الخفي .

[620]. القصم: كسر الشيء .

[621]. القفار: الظهر .

[622]. الحياة في القرآن الكريم (1 / 287) .

[623]. البخاري (3267) ومسلم (2989) .

[624]. الترمذي رقم (3012)، حسن صحيح .

[625]. الشجاع: الحية الذكر والأقرع الذي تقرّع رأسه .

[626]. البخاري رقم (1338) .

[627]. الإحسان رقم (7417) وصححه .

[628]. البخاري رقم (3170) .

[629]. تأمّل الفرق بين مطالب الظالمين في الدنيا والآخرة رجب محمود بخيت ص (18) في ظلال القرآن سيد قطب (2 / 882) .

[630]. تفسير ابن كثير (1 / 280) .

[631]. في ظلال القرآن (1/ 373)، مطالب الظالمين في الدنيا والآخرة، رجب بخيت ص (20).

[632]. في ظلال القرآن (5 / 3056) .

[633]. المصدر نفسه (2 / 1067 . 1068) .

[634]. تأمل الفرق بين مطالب الظالمين في الدنيا والآخرة ص (35) .

[635]. مطالب الظالمين ص (38) في ظلال القرآن (4 / 2480 . 2481) .

[636]. تفسير القرطبي (6 / 102 . 103)، مطالب الظالمين ص (40) .

[637]. في ظلال القرآن (4 / 2112) .

[638]. مطالب الظالمين ص (45 . 46) .

[639]. المصدر نفسه ص (47) .

[640]. في ظلال القرآن (5 / 3168) .

[641]. مطالب الظالمين ص (65)

[642]. مطالب الظالمين ص (70) .

[643]. في ظلال القرآن (5 / 3120) .

[644]. في ظلال القرآن (1 / 153، 154) .

[645]. مطالب الظالمين ص (85) .

[646]. تفسير القرطبي (9 / 233، 234) .

[647]. في ظلال القرآن (5 / 2706) .

[648]. مطالب الظالمين في الدنيا والآخرة ص (95) .

[649]. مطالب الظالمين ص (106) .

[650]. مطالب الظالمين ص (116) .

[651]. المصدر نفسه ص (116) تفسير ابن كثير (3 / 257) .

[652]. تفسير ابن كثير (4 / 26) مطالب الظالمين ص (127) .

[653]. في ظلال القرآن (5 / 3072) .

[654]. في ظلال القرآن (6 / 3486) .

[655]. مطالب الظالمين ص (159) .

[656]. اليوم الآخر، الجنة والنار للأشقر ص (57 . 58) .

[657]. الحياة في القرآن الكريم، المحزون (1 / 269) اليوم الآخر، الجنة والنار للأشقر ص (55) . .[658] اليوم الآخر في القرآن العظيم والسنة المطهرة ص (466) .

[659]. البخاري (3335) .

[660]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (467) .

[661]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (472) .

[662]. المصدر نفسه ص (473) .

[663]. الرحيق المختوم للمباركفوري ص (293) .

[664]. اليوم الآخر، الجنة والنار ص (473) .

[665]. مسلم رقم (153) .

[666]. الحاكم (2 / 506) والبيهقي في الدلائل (2 / 198) ومن أراد التوسع لمعرفة الأشخاص الذين بأعيانهم في النار فليرجع إلى كتاب (أهل النار) ليوسف الحاج أحمد ص (145 . 269) .

[667]. تفسير الطبري (24 / 17) تفسير ابن كثير (4 / 58) .

[668]. مسلم (2759) .

[669]. الترمذي (3537) ابن ماجه (4253) .

[670]. موانع إنفاذ الوعيد د . عيسى السعدي ص (41) .

[671]. المصدر نفسه ص (41) .

[672]. منهاج السنة (3 / 180) .

[673]. البخاري (7507) ومسلم (2758) .

[674]. مسلم (2749) .

[675]. موانع إنفاد الوعيد ص (56) .

[676]. الترمذي (1988) وقال: حديث حسن صحيح .

[677]. البخاري (3435) ومسلم (28) .

[678]. مسلم (245) .

[679]. البخاري (528) ومسلم (667) .

[680]. البخاري (1901) ومسلم (759) .

[681]. البخاري (1521) ومسلم (1350) .

[682]. موانع إنفاذ الوعيد ص (100) .

[683]. البخاري (1320) ومسلم (952) .

[684]. مسلم (948) .

[685]. أبو داود (3199) .

[686]. مسلم (963) .

[687]. مجمع الزوائد للهيثمي (211 / 10) . رواه البزار، إسناده جيد .

[688]. البخاري (1432) ومسلم (2627) .

[689]. مسلم (2732) .

[690]. تفسير ابن كثير (3 / 565) .

[691]. مسلم (1017) .

[692]. مسلم (2674) .

[693]. البخاري (3335) ومسلم (1677) .

[694]. مسلم (1631) .

[695]. موانع إنقاذ الوعيد ص (113) .

[696]. مجموع الفتاوى لابن تيمية (7 / 499) .

[697]. البخاري (2762) .

[698]. المخراف: المكان المثمر: والحائط: البستان .

[699]. نهاية المحتاج للرملي (92 / 6) .

[700]. البخاري (1852) .

[701]. فتح الباري (66 / 4) .

[702]. البخاري (1952) ومسلم (1147) .

[703]. مسلم (1260) .

[704]. مسلم (1149) .

[705]. البخاري (2295) .

[706]. كتاب الروح لابن القيم ص 165 .

[707]. موانع إنفاذ الوعيد ص 117 .

[708]. المصدر نفسه ص 129 .

[709]. فتح القدير للشوكاني (387 / 3) .

[710]. المصدر نفسه (3 / 406) .

[711]. تفسير السعدي (191 / 5) وقد تقدم الحديث عنها المبحث الثالث (الشفاعة) الفقرة (رابعاً) ص (143) .

[712]. موانع إنفاذ الوعيد ص (160) .

[713]. البخاري رقم (5640) ومسلم رقم (2572) .

[714]. نصب: تعب .

[715]. وصب: هو المرض .

[716]. البخاري رقم (5641، 5642) ومسلم رقم (2573) .

[717]. البخاري رقم (5660) ومسلم رقم (2571) .

[718]. البخاري رقم (1251) ومسلم رقم (2632) .

[719]. موانع إنفاذ الوعيد ص (157) .

[720]. مسلم رقم (2572) .

[721]. مجموع الفتاوى (24 / 375) .

[722]. البخاري (4894) ومسلم (1709) .

[723]. جامع العلوم والحكم لابن رجب ص (161) .

[724]. موانع إنفاذ الوعيد ص (175) .

[725]. البخاري رقم (1238) ومسلم (92) .

[726]. فتح القدير (1 / 475) موانع إنفاذ الوعيد ص (176) .

[727]. تفسير الطبري (5 / 126) .

[728]. كنفه: ستره .

[729]. البخاري (2441) ومسلم (2768) .

[730]. جامع الترمذي (3540) إسناد حسن .

[731]. أحمد (2 / 358) الترمذي (2468) ابن ماجه (4107) .

[732]. موسوعة الدار الآخرة، د . عبد الحميد هنداوي ص (494) .

[733]. المصدر السابق ص (494) .

[734]. مسلم رقم (214) .

[735]. مسلم رقم (2808) .

[736]. اليوم الآخر د . المطيري ص (537) .

[737]. اليوم الآخر، المطيري ص (537 . 450) .

[738]. حادي الأرواح لابن القيم ص (444) .

[739]. انظر: موجبات الجنة، لمعمر عبد الوهاب الأصبهاني، وتمام المنة ببيان الخصال الموجبة للجنة، للأدريسي .

[740]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (542) .

[741]. البخاري رقم (5349) .

[742]. البخاري رقم (6464) و(6467) .

[743]. البخاري رقم (2818) ومسلم (2818) .

[744]. مسلم رقم (2817) .

[745]. نظم المتناثر من الحديث المتواتر للكتاني ص (201) .

[746]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (543) .

[747]. الحياة في القرآن الكريم (2 / 627) .

[748]. المصدر نفسه (2 / 627) .

[749]. مسلم رقم (331) .

[750]. مسلم رقم (333) .

[751]. مسلم رقم (555) .

[752]. البخاري رقم (6571) .

[753]. اليوم الآخر، الجنة والنار للأشقر ص (123) .

[754]. البخاري (3254) ومسلم (3834) .

[755]. صحيح الجامع رقم (1068) .

[756]. البخاري (6541) .

[757]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (523 . 526) .

[758]. نظم المتناثر من الحديث المتواتر، للكتاني ص (253) .

[759]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (528) .

[760]. المصدر نفسه ص (528) .

[761]. البخاري (3257) .

[762]. مسلم رقم (46) .

[763]. زوجان: كل شيء قرن لصاحبه فهو زوجان .

[764]. مسلم (1027) .

[765]. تفسير ابن كثير (4 / 46) .

[766]. تفسير المراغي (9 / 129) .

[767]. التفسير الكبير (29 / 118) .

[768]. المراد به لؤلؤة مجوفة واسعة كالقصر المنيف .

[769]. الصخب: الصياح والمنازعة برفع الصوت والنصب: التعب .

[770]. البخاري رقم (3820) ومسلم (2432) .

[771]. مسلم (2394) .

[772]. البخاري رقم (3243) .

[773]. تفسير ابن كثير (4 / 253) .

[774]. الطلح: الموز: واحدتها طلحة .

[775]. الحياة في القرآن الكريم (2 / 646) .

[776]. المصدر نفسه (2 / 646) .

[777]. الحياة في القرآن (2 / 646) .

[778]. البخاري رقم (3252) .

[779]. مسلم رقم (3827) .

[780]. لسان العرب (3 / 163) .

[781]. البعث والنشور للبيهقي ص (172) .

[782]. تفسير ابن كثير (4 / 288) .

[783]. الأكمام: جمع الكُم، وهو القشر، لكل شجرة مثمرة كِمٌّ وهو برعومته، سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني رقم (1985) .

[784]. صحيح الجامع الصغير رقم (5028) .

[785]. الترمذي (2525) حديث حسن غريب .

[786]. الحياة في القرآن (2 / 648) .

[787]. اليوم الآخر، الجنة النار للأشقر ص (155) .

[788]. التذكرة للقرطبي ص (440) اليوم الآخر الجنة والنار الأشقر ص (159) .

[789]. البخاري رقم (3083) .

[790]. البخاري رقم (7423) .

[791]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (553) .

[792]. صفة الجنة للحافظ ابن كثير ص (31) من كتاب البداية والنهاية .

[793]. مسلم رقم (384) .

[794]. حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم ص (218) .

[795]. المصدر نفسه ص (219) .

[796]. رواه ابن أبي الدنيا موقوفاً .

[797]. البخاري رقم (4681) .

[798]. اليوم الآخر في القرآن الكريم العظيم والسنة المطهرة ص (559) .

[799]. تفسير ابن كثير (4 / 454) .

[800]. تفسير ابن كثير .

[801]. مسلم رقم (315) .

[802]. البدور السافرة إلى أحوال الآخرة ص (544) .

[803]. تفسير ابن كثير (3 / 129) .

[804]. مجموع الفتاوى (4 / 312) .

[805]. الجنة والنار للأشقر ص (174) .

[806]. اليوم الآخر الجنة والنار للأشقر ص (175) .

[807]. صحيح الجامع رقم (6333) .

[808]. مسلم رقم (2928) .

[809]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (562) .

[810]. أحمد (2 / 304 . 305) والترمذي (2526) .

[811]. البخاري (1 / 458 . 459) .

[812]. تفسير ابن كثير (3 / 137) بتصرف .

[813]. صفة الجنة لابن كثير ص 205 قال المحقق: رجاله ثقات .

[814]. مسلم رقم (1892) .

[815]. السلسلة الصحيحة للألباني (2 / 227) .

[816]. الترمذي رقم (2542) حسّنه الأرناؤوط في جامع الأصول (10 / 467)

[817]. البخاري رقم (3072) .

[818]. البخاري رقم (3078) .

[819]. البخاري رقم (2640) .

[820]. مسلم رقم (2807) .

[821]. الجنة والنار للأشقر ص 188 .

[822]. البخاري (6487) ومسلم (2822) .

[823]. شرح النووي على مسلم (17 / 165) .

[824]. تفسير القرطبي (16 / 153) .

[825]. البخاري رقم (6535) .

[826]. مسلم رقم (2834) .

[827]. فتح الباري (6 / 325) .

[828]. الجنة والنار للأشقر ص (195) .

[829]. التذكرة للقرطبي (2 / 317) اليوم الآخر للمطيري ص 573 .

[830]. نظم المتواتر ص 127 .

[831]. دعاميص: جمع دعموص، أي صغار أهلها .

[832]. مسلم رقم (2635) .

[833]. البخاري رقم (1316) .

[834]. ابن ماجه رقم (1604) سنده حسن .

[835]. السلسلة الصحيحة رقم (603) .

[836]. السلسلة الصحيحة رقم (1467) .

[837]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (571) .

[838]. المصدر نفسه ص (572) .

[839]. مسلم رقم (189) .

[840]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (584) .

[841]. المصدر نفسه ص (582) .

[842]. المصدر نفسه ص (590) .

[843]. المصدر نفسه ص (590) .

[844]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (582) .

[845]. المصدر نفسه ص (583) .

[846]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (585) .

[847]. سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (824) .

[848]. المصدر نفسه رقم (797) .

[849]. صحيح الجامع الصغير رقم (50) .

[850]. صحيح الجامع الصغير رقم (3358) .

[851]. صحيح الجامع رقم (3569) .

[852]. المصدر نفسه رقم (3870) .

[853]. المصدر نفسه رقم (3362) .

[854]. صحيح الجامع الصغير رقم (3366) .

[855]. المصدر نفسه (3 / 142) رقم (3364) .

[856]. سلسلة الأحاديث الصحيحة (3 / 410) رقم (1424) .

[857]. الجنة والنار للأشقر ص (211) .

[858]. البخاري (3820) .

[859]. الجنة والنار للأشقر ص (212) .

[860]. البخاري رقم (4508) .

[861]. السلسلة الصحيحة للألباني (3 / 275) .

[862]. نظم المتناثر من الحديث المتواتر للكتابي ص (202) .

[863]. المصدر نفسه ص (203) .

[864]. الجنة والنار للأشقر ص (223) .

[865]. مسلم رقم (2858) .

[866]. البخاري رقم (3078) .

[867]. البخاري رقم (2640) .

[868]. البخاري رقم (2643) .

[869]. اليوم الآخر، في القرآن العظيم ص (593) .

[870]. فتح الباري (6 / 318) الجنة والنار للأشقر ص (227) .

[871]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (595) .

[872]. المصدر نفسه .

[873]. مسلم رقم (2835) .

[874]. الترمذي (2542) .

[875]. حادي الأرواح ص (224) لابن القيم .

[876]. البدور السافرة في أحوال الآخرة .

[877]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (603) .

[878]. المصدر نفسه ص (604) .

[879]. التسهيل لابن جزي (2 / 235) المصدر نفسه ص (604) .

[880]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (604) .

[881]. البخاري رقم (5575) .

[882]. أبو داود رقم (1682) سنده حسن .

[883]. أكواب: أي من ذهب .

[884]. لسان العرب (1 / 729) .

[885]. البخاري رقم (3073) .

[886]. صفة الجنة لابن كثير ص (113) .

[887]. مفردات القرآن للراغب الأصفهاني ص (729) .

[888]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (609) .

[889]. صفة الجنة لابن كثير ص (103) بتصرف .

[890]. البخاري رقم (5110) مسلم (2067) .

[891]. البخاري رقم (4597) مسلم رقم (180) .

[892]. مسلم رقم (2836) .

[893]. حادي الأرواح ص (237) .

[894]. المصدر نفسه ص (238) .

[895]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (611) .

[896]. لسان العرب (1 / 447) .

[897]. البعث والنشور للبيهقي ص (183) .

[898]. صفة الجنة لابن كثير ص (123) .

[899]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (613) .

[900]. لسان (361 / 4) اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (614) .

[901]. المصدر نفسه ص (614) .

[902]. المصدر نفسه ص (614) .

[903]. البعث والنشور للبيهقي ص (182) .

[904]. المصدر نفسه ص (182) .

[905]. لسان العرب (11 / 144) .

[906]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (615) .

[907]. تفسير ابن كثير (4 / 456) .

[908]. مسلم رقم (2833) .

[909]. النووي على مسلم (17 / 170) .

[910]. البعث والنشور للبيهقي ص (211) حادي الأرواح ص (291) .

[911]. تفسير ابن كير (3 / 575) .

[912]. تفسير القرطبي (15 / 31) .

[913]. صفة الجنة لابن كثير ص (137) سنده صحيح بشواهد .

[914]. صحيح الجامع الصغير للألباني رقم (1557) .

[915]. البعث والنشور للبيهقي ص (211) .

[916]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (626) .

[917]. صفة الجنة لابن كثير ص(127) .

[918]. التسهيل لابن جزي (2 / 377) .

[919]. اليوم الآخر في القرآن العظيم والسنة المطهرة ص (627) .

[920]. البخاري رقم (2643) .

[921]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (628) .

[922]. تفسير ابن كثير (278 / 4) .

[923]. حادي الأرواح لابن القيم ص (261) .

[924]. مفردات القرآن، للراغب ص (557) .

[925]. لسان العرب (591 / 1) .

[926]. حادي الأرواح لابن القيم ص (258) .

[927]. البدور السافرة ص (554) حادي الأرواح ص (258) .

[928]. ابن حبان وسنده حسن، انظر تحقيق صفة الجنة ص (143) .

[929]. حادي الأرواح ص (258) .

[930]. لسان العرب (219 / 4) .

[931]. البعث والنشور ص (203) .

[932]. لسان العرب (302 / 13) .

[933]. حادي الأرواح ص (259) .

[934]. حادي الأرواح لابن القيم ص (261) .

[935]. ابن حبان وسنده حسن، تحقيق صفة الجنة لابن كثير ص (143) .

[936]. لسان العرب (719 / 1) المفردات للراغب ص (713) .

[937]. حادي الأرواح لابن القيم ص (267) .

[938]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (632) .

[939]. صحيح الجامع الصغير رقم (7069) .

[940]. أحمد رقم (19165) سنده صحيح .

[941]. الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (15 / 30) .

[942]. اليوم الآخر المطيري ص (634) .

[943]. تفسير القرطبي (31 / 51) .

[944]. البعث والنشور للبيهقي ص (211) .

[945]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (636) .

[946]. المصدر نفسه ص (636) .

[947]. البخاري رقم (2643) .

[948]. اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (637) .

[949]. أقوال التابعين، عبد العزيز عبد الله (1066 / 3) .

[950]. مسلم رقم (181) .

[951]. نظم المتناثر من الحديث المتواتر للكتاني ص (253) .

[952]. شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للألكائي (519 / 3) .

[953]. تفسير ابن كثير (228 / 4) .

[954]. أقوال التابعين في مسائل التوحيد والإيمان (1074 / 3) .

[955]. فتح القدير للشوكاني (336 / 5) . وسيأتي الحديث بلفظه في الفقرة (6) التالية ص (309) .

[956]. تفسير القرطبي (171 / 19) بتصرف .

[957]. شرح أصول اعتقاد أهل السنة (518 / 3) للألكائي .

[958]. مسلم رقم(1887) اليوم الآخر في القرآن العظيم ص (644) .

[959]. حادي الأرواح ص (372) .

[960]. حادي الأرواح ص (328) .

[961]. تفسير ابن كثير (450 / 4) .

[962]. نظم المتناثر للكتاني ص 250 حادي الرواح ص (337) .

[963]. شرح الطحاوية (217 / 1) .

[964]. البخاري رقم 4581 .

[965]. البخاري رقم (6573)، مسلم رقم (182) .

[966]. البخاري رقم (6998) .

[967]. البخاري رقم (6549)، مسلم (2829) .

[968]. القحطاني في نونيته (9 . 10) .

سلسلة أركان الإيمان ٤

الإيمان بالرسل والرسالات

د. علي محمد محمد الصلابي



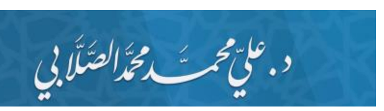


بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى: ﴿ آمَنَ الرَّسُــولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُـلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ *﴾
[البقرة: 285]

الإيمان بالرسل والرسالات

بقلم
علي محمد محمد الصَّلاَّبي





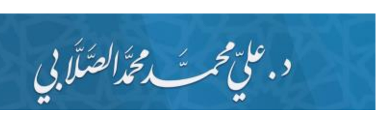
الإهداء

إلى كلِّ إنسانٍ في الوجودِ يبحثُ عن حقيقةِ الرسل والرسالاتِ أهدي هذا الكتاب.

سائلاً المولى عزّ وجل بأسمائه الحسنى وصفاته العلا أن يكونَ خالصاً لوجهه الكريم. قال تعالى:

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا *﴾

علي محمد محمد الصَّلاَّبي





بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إنّ الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضلّ له ، ومن يضلِلْ فلا هادي له ، وأشهد ألا إله إلاّ الله وحده ، لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمّداً عبده ورسوله.

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ *﴾ [آل عمران: 102].

﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا *﴾ [النساء: 1].

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا *يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا *﴾ [الأحزاب: 70 ـ 71].

يا ربِّ لك الحمدُ حتى ترضى ، ولك الحمدُ إذا رضيتَ ، ولك الحمدُ بعد الرضى.

أما بعد: فهذا الكتاب: «الرسل والرسالات» هو خاتمة سلسلة أركان الإيمان ، وقد تحدّثت فيها عن الخالق العظيم، والرازق الكريم ، الفعّال لما يريد ، الكريم المنّان ، الواسع العليم ، الذي رأيتُ من خلال مسيرتي في الدنيا وعالمِ التاريخ عظمته في الحياةِ ، وفي قيام الدولِ وزوالِها ، وانتشارِ الحضاراتِ واندثارِها ، وعزِّ الحكوماتِ وإذلالها ، وقصص الناس ، وفي مخلوقاته العجيبة الغريبة ، وفي هذا الكون الفسيح ، وحركة التاريخ ، كم مِنْ ملوكٍ وأمراء وقادة وحكام ، وعلماء وفقهاء وفلاسفة وعوام الناس لا يحصيهم إلا الذي خلقهم ، قد ماتوا وأصبحوا في الأمس الغابر ، ودخلوا في عالم البرزخ العظيم.

علمتني الحياةُ أنَّ المؤمنَ لا يقنع بأمر يسكنُ إليه دون الله ، ولا يفرحُ بما حصل له دون الله ، ولا ييأس على ما فاته سوى الله ، ولا يستغني إلا بالله ، ولا يفتقر إلا إلى الله ، ولا يفرح إلاّ بموافقته لمرضاة الله ، ولا يخافُ إلا من سقوطه من نظر الله ، فكلّه بالله ، وكلّه لله ، وكلّه مع الله ، وسيرُه دائماً إلى الله ، يحبّ اللهَ ، ويحبّه الله ، ويرضى بالله ، ويرضى عنه الله.





إنّ بين العبدِ وبين ربّه مسافة لا تُقْطع إلا بقطع العلائق ، ورفض العوائق ، وكيف يصل إلى الله مَنْ لا يسيرُ وهو في قبضة العوائق أسير؟!. قال تعالى: ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ *﴾ [الذاريات :50].

كلُّ شــــيء تخافه فإنّكَ تفرُّ منه وتهربُ إلا الواحد الأحد ، فإن من خافه يفر منه إليه ، ويهرب من ســـخطه إلى رضوانه ، ومن وعيده إلى وعده ، فلا ملجأ ولا منجا منه إلا إليه ، الفرارُ إلى الله تعالى هو الانطراحُ ببابه ، والانكسارُ لجنابه ، هو اللجوءُ إليه تعالى ، والدخولُ في الإيمان والطاعة ، والهروبُ من المعصية والخطيئة.

والفرار نوعان: فرار السعداء ، وفرار الأشقياء ، ففرار السعداء: هو الفرار إلى الله عز وجل ، وفرار الأشقياء: هو الفرار منه تعالى لا إليه ، والذي يظنُّ أنه يستطيع أن يفرَّ من الله تعالى ، وأن يفلتَ من قبضته ، فهو جاهلٌ أحمق ، فإنَّ المرجع إليه ، والمصير إليه[1].

لقد رأيتُ من خلال مسيرتي في عالم التاريخ أهميةَ الإيمان للإنسان والشعوب والجماعات والأمم ، وقد حرصتُ على أن يكون أسلوبُ هذه السلسلة واضحاً ، معتمداً على الأدلةِ من القرآن والسنة الصحيحة ، وابتعدتُ كلَّ البعدِ عن مناهجِ الفرق الكلامية ، والمذاهب الفلسفية ، والمسائلِ الجدلية العقيمة.

وحرصتُ على أن أبيّن ما كان عليه رسول الله (ﷺ) وأصحابه من صفاءٍ ووضوحٍ في أصولِ الإيمان.

وهذه السلسلةُ تهدف إلى مخاطبة العقول ، وإحياء القلوب ، وتحريك فطرة الإنسان ، وربط الناس بالخالق العظيم ، وبيان ما يجبُ على المكلّف النبيل فضلاً عن الفاضل الجليل ، وقد كُتِبَتْ بطريقةٍ يستفيدُ منها العالم ، وطالبُ العالم ، وعوامُّ الناس ، ومن أشغلتهم زحمةُ الحياة عن البحث والتنقيب ، فهذه زبدةُ سنين من العكوف على مئات المصادر والمراجع القديمة والحديثة ، تقدَّم بين يدي القارأى الكريم.

والمنهجية التي سرت عليها قد خضعتْ لمناقشاتٍ وحواراتٍ مع العلماء والفقهاءِ وطلاّبِ العلم ، وبعضِ العلماء الذين استفدتُ من توجيهاتهم وأفكارهم منهم الدكتور يوسف القرضاوي ، والدكتور سلمان العودة ، والدكتور عائض القَرَني الذي كان يمازحني ويقول لي: إنّ الله عزّ وجل يوم القيامة لن يسأل الأفارقة ولا غيرهم عن السلاجقة والزنكيين والأيوبيين والتتار ـ ولكن سيسألهم عن التوحيد والإيمان ، وكان يشجّعني بقوّةٍ للاهتمام بالتفسير ، والحرص على الطرح

[1] الله أهل الثناء والمجد. ناصر الزهراني ص (681).



القرآني والنبوي الكريم ، وكذلك الدكتور محمد طاهر البرزنجي وغيرهم من الأخوة الكرام والسـادة العلماء والمفكرين فلهم مني الدّعاء الصالح في ظهر الغيب.

فهذه السلسلة «أركان الإيمان» كانت فكرةً ، وأصبحت حقيقةً بفضل الله وتوفيقه ، وهي الان في متناول الدعاة والخطباء والعلماء والساسة ورجال الفكر وطلاب العلم وعموم الناس ، لعلّهم يستفيدون منها في حياتهم ، وبعد مماتهم.

إنّ الأيام تمضي ولا أعلمُ أحداً من الناسِ حقّق كلَّ ما يريده قبل أن يغادرَ هذه العاجلة.
وطموحاتي العلمية والفكرية والثقافية لا تنتهي ، وأنا على يقينٍ بأنني سأرحلُ من هذه الحياة قبل تحقيقها ، ولذلك رأيتُ أن أذكر بعض هذه المشاريع لعلّ الله يشرحُ قلوب بعض طلاب العلم أو العلماء أو الباحثين لكتابتها بطريقة منهجية صحيحة ، لعلّها تساهِم في نهضة الأمة ، وتنوير الطريق أمام الأجيال القادمة ، التي ستحمِلُ رايةَ الإسلام ، وتعمل على إعادة دوره الحضاري في قيادة الأمم والشعوب ، وإخراجها من ضيق الدنيا إلى سعة الاخرة ، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام.

وهذه المشاريع تهدف إلى الاهتمام بالاتي بحيث تكونُ من ضمن الثقافة العامة للناس:

1 . الاهتمام بمقاصد الشريعة.

2 . فك الاشتباك بين السياسة الشرعية والعقائد.

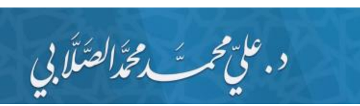
3 . استيعاب فقه السنن ، والنظر في اثارها في الأفراد والجماعات والشعوب والأمم والحضارات.

4 . إعادة النظر والبحث في القصص القرآني ، واستخراج العبر والدروس والسنن وربطها بواقع الحياة.

5 . تقديم القيم والمبادأى الإنسانية العامة من خلال التصور الإسلامي ، كالشورى ، والحريات ، والمساواة ، والعدالة ، وحقوق الإنسان ، والمرأة ، وتقديم رؤية للدولة المدنية الحديثة التي مرجعيتها الإسلام.

6 . استخراج منهج للتزكية وعلم السلوك من الكتاب والسنة وتراث الأمة يلائم العصر.

7 ـ الاهتمام بالدّراساتِ المتعلّقة بعلم الإدارة والتخطيط ، والمتابعة والتنظيم ، والتطوير ، وتجمع بين الأصالة والمعاصرة والتأصيل.



8 ـــ الاهتمام بفقه الجهاد ، وتطوير المؤسسات العسكرية في الدول الإسلامية والجمع بين الإعداد المعنوي والمادي ، ومتابعة التقنيات الحديثة في هذا المجال.

9 ـــ دراسةُ المشاريع الغازية قديماً وحديثاً ، والعمل على إيجاد مشروع حضاري يستوعبُ طاقات الأمة لكي تتصدّى لهذه المشاريع أو تحاورها من موقف قوة.

10 . دراسةُ فقد الموازنات ، والأَوْلَوِيات والاختلاف ، وفقه المالات.

11 ـــــ البحثُ عن السبل والوسائل لإحياء وتطوير الاجتهاد الجماعي وغيرها من المشاريع العلمية الهادفة والمهمة لنهضة شعوبنا وأمتنا.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً *﴾ الكهف: 30.

- هذا وقد قمت بتقسيم هذا الكتاب إلى فصولٍ:
-

فالفصل الأول: كان الحديث فيه عن مفهوم النبوة والرسالة والفرق بينهما ، وتعريف النبي والرسول ، والفرق بين الرسول والنبي.

وفي الفصل الثاني: تكلّمتُ عن وجوب الإيمان بالرسل ، وموجز تاريخهم.

والفصل الثالث: تضمّن خصائصَ وسماتِ دعوة الأنبياء ، وتفاضلهم فيما بينهم.

والفصل الرابع: أشرتُ فيه إلى جوانب الاقتداء بهدي الأنبياءِ عليهم الصلاة والسلام.

وفي الفصل الخامس: فصّلتُ الحديثَ عن الوحي ، وإثبات النبوة ، والمعجزات.

وفي الفصل السادس: لخّصت فيه خصائص الرسالة المحمدية ، وحقوقَ النبيِّ (ﷺ) على أمته.

ثم كانت الخاتمة:

هذا وقد انتهيت من هذا الكتاب يوم 24/ذي الحجة 1431هـ الموافق 2010/11/30م الساعة السادسة إلا ربع بعد صلاة المغرب بتوقيت الدوحة.

والفضل لله من قبلُ ومن بعدُ ، وأسأله سبحانه وتعالى أن يتقبّلَ هذا العملَ قبولاً حسناً ، وأن يكرمنا برفقة النبيين والصديقيين والشهداء والصالحين.

قال تعالى: ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *﴾ [فاطر: 2].

وبهذا الكتاب أضعُ سلسلة أركان الإيمان بين يدي قارئيها ، ولا أدّعي الكمال فيها ، كما قال الناظم:

وما بها مِنْ خطأٍ ومِنْ خَلَلْ ... أَذِنْتُ في إصلاحِهِ لِمَنْ فَعَلْ
لكنْ بِشَرْطِ العِلْمِ والإنْصَافِ ... فذا وذا مِنْ أَعْظَمِ الأَوْصَافِ
واللهُ يهدي سُبُلَ السلامِ ... سبحانه بِحَبْلِهِ اعْتِصَامي

فلله الحمد على ما منّ به عليّ أولاً واخراً ، وأسأله سبحانه بأسمائه الحسنى وصفاته العلا ، أن يجعل هذه السلسلة الإيمانية لوجهة خالصة ، ولعباده نافعة ، وأن يثيبني على كل حرف كتبته ، ويجعله في ميزان حسناتي ، وأن يثيب إخواني الذين أعانوني بكافة ما يملكون من أجل إتمام هذا الجهد المتواضع ، ونرجو من القارأى الكريم أن لا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه في صالح دعائه.

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ *وَسَلاَمٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ *وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *﴾ [الصافات: 180 . 182].

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنتَ ، أستغفرْكَ وأتوبُ إليك ، واخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين[2].

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه
علي محمد محمد الصلاّبي

[2] أيها الإخوة الكرام: يسرّني أن تصلني ملاحظاتكم وانطباعاتكم حول هذا الكتاب وغيره من كتبي من خلال دور النشر ، وأطلب من إخواني الدعاء لي بظهر الغيب بالإخلاص لله ، والصواب ، لخدمة دينه العظيم.



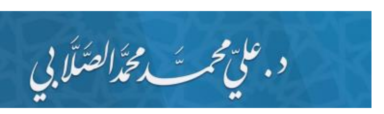
الفصل الأول

مفهوم النبوة والرسالة
والفرق بينهما

أولاً ـ تعريف النبوة لغة وشرعاً.

ثانياً ـ تعريف الرسول لغة.

ثالثاً ـ الفرق بين النبي والرسول.





الفصل الأول

مفهوم النبوة والرسالة والفرق بينهما

أولاً ـ تعريف النبوة لغة وشرعاً:

أ ـ تعريف النبوة لغةً:

للنبوّةِ عند أهل اللغة ثلاثةُ استعمالات:

1 ـــ حينما تكون مشتقةً من النبأ ، فتكون بمعنى الإخبار ، لأنّ النبأ معناه الخبر ، ومنه قوله تعالى: ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ *عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ *﴾ [النبأ: 1 ـ 2].

2 ـ حينما تُشْتَقُّ من النباوة ، أي الطريقُ الواضحة ، فتكونُ بمعنى الطريق الموصلة إلى مرضاة الله عز وجل[3]، وكل هذه المعاني موافقةٌ للمعنى الشرعي للنبوة.

ب ـ تعريف النبوة شرعاً:

هي أخبارُ رجُلٍ عن اللهِ عز وجل بما أُوْحِيَ إليه من ربّه ، وهي أيضاً رفعةٌ لصاحبها ، لما فيها من التكريم والتشريف ، فإن مقامَ النبوّة مقامٌ رفيعٌ ، لا يكون إلاّ لمن يقع عليه الاختيار من الله عز وجل بحمل أعباء الرســالة ، وإبلاغها للناس ، يقول الله تعالى: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الانعام: 124] ، وقال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: 68].
كما أنها الطريق الواضحة الجلية ، الذي لا يمكن الوصول إلى مراضي الله ، واجتناب مساخطه؛ والفوز بجنته؛ والنجاة من ناره؛ إلا عن طريقه.

إلاّ أنّ أخصَّ تلك المعاني بالدلالة هو الاستعمال الأول ، لأنّ وظيفةَ النبي الرئيسة هي الإخبارُ عن اللهِ ، وإبلاغُ الأمةِ بما أُوحِيَ إليه من ربّه[4].

---

[3] الشيخ عبد القادر الجيلاني ، د. سعيد القحطاني ص (295).

[4] الشيخ عبد القادر ص (296).





ثانياً . تعريف الرسول لغة:

الرسول مأخوذٌ من الإرسال. أي البعثُ والتوجيه ، والرسول بمعنى الرسالة وهو الذي يتابعُ أخبارَ الذي بعثه[5]، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ *﴾ [النمل: 35].

وعلى ذلك فالرسل إنّما سُمّوا بذلك ، لأنّ الله أرسلهم وبعثهم بالرسالات إلى أممهم ، وكلّفهم بحملها وتبليغها ، قال عز وجل: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ [المؤمنون: 44].

ثالثاً . الفرق بين النبي والرسول:

ذهب بعضُ العلماء إلى التفريق بين النبيّ والرسول ، وعرّفوا النبيَّ بأنَّه إنسانٌ أوحيَ إليه بشرعٍ سواءٌ أمر بتبليغه أم لم يؤمر ، والرسول هو إنسانٌ أوحي إليه بشرعٍ ، وأُمر بتبليغه للناس ، فالنبيُّ أعم من الرسول ، فمن نبأى وأُمر بتبليغ ما نبّأى به إلى الناس فهو نبيٌّ ورسولٌ ، وإن لم يؤمر بتبليغه فهو نبيٌّ غيرُ رسولٍ ، وعليه فكلُّ رسولٍ نبيٌّ ، وليس كلُّ نبيٍّ رسولٌ[6].

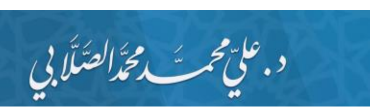
ويشهد لهذا التفريق ما ورد من الوصف بالمصطلحين وفيه إشعار بتغاير المفهومين في الاصطلاح الشرعي ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا *﴾ [مريم: 51].
ومثال النبيّ غير الرسول (يوشع) صاحب موسى وفتاه ، فقد نبّأه الله ، وخلف موسى وهارون في بني إسرائيل ، وهو الذي غزا بيتَ المقدس وفتحها.

ومثال النبيِّ الرسول نبينا محمد (ﷺ) ، إذ هو نبي الله ورسوله إلى الناس أجمعين ، وكذلك سائرُ الأنبياء المرسلين إلى أقوامهم المذكورين في القرآن الكريم.

وذهبَ اخرون إلى أنَّ الكلمتين مترادفتان ، ولهما مدلولٌ واحد ، فالنبيُّ يسمّى رسولاً ، والرسول يسمى نبياً ، فيسمى رسولاً بالنظر إلى ما بينه وبين الناس الذين أرسله الله تعالى إليهم ، ويسمى نبيّاً بالنظر إلى ما بينه وبين الله ، حيث إنه نبي أوحي إليه ، وكلاهما متلازمان ، وقد ذهب إلى هذا الرأي القاضي عياض والسعد التفتازاني[7].

---

[5] لسان العرب ، لابن منظور (2/14/11) الشيخ عبد القادر ص (296).
[6] أما العضد الإيجي فيرى أن الرسول أعم من النبي ، فبينهما عموم وخصوص مطلق ، لأن كل نبي رسول ، وليس كل رسول نبي ، ويمثّل لذلك بجبريل عليه السلام ، فهو رسول بنصّ القران الكريم ، ولكنه ليس نبياً (ن).
[7] حاشية الباجوري على الجوهرة ص: 6 ، العقيدة الإسلامية أركانها واثارها على الفرد والمجتمع ، د. أحمد محمد الجلي ص: 219.



وذهب اخرون إلى رأي غير هذين الرأيين ، مفاده أن النبيَّ هو مَنْ أوحى الله إليه ، وهو يبلغ ما أوحي إليه ، لكنّه لم يرسل إلى قوم كافرين ، ليخرجهم من الكفر إلى الإيمان ، أمّا الرسول فهو مَنْ أرسل إلى قومٍ كفّارٍ يدعوهم للتوحيد ، فإن الله تعالى قال: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ﴾ [الحج: 52]. فذكر أنَّ الإرسال يعمُّ الرسول والنبي ، وخصَّ أحدَهما بأنه رسول ، وهذا هو الرسول المطلق ، الذي أمر بتبليغ رسالة الله إلى قوم خالفوا أمر الله ، ووقعوا في الشرك ، كما كان شأنُ نوحٍ عليه السلام ، وقد ثبت في (الصحيح) أنّه أوّل رسولٍ بُعِثَ إلى الأرض ، وقد كان قبله أنبياء كادم وإدريس عليهم السلام.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ﴾ [الحج: 2] دليلٌ على أنَّ النبيَّ مرسلٌ ، ولا يسمّى رسولاً عند الإطلاق ، لأنه لم يرسل إلى قوم بما لا يعرفونه ، بل كان يأمر المؤمنين بما يعرفون أنّه الحق ، كالعالم ، ولهذا قال النبي (ﷺ): «العلماءُ ورثةُ الأنبياء». وليس من شرط الرسول أن يأتي بشريعة جديدة ، فإنّ يوسفَ كان رسولاً ، وكان على ملة إبراهيم ، وداود وسليمان كانا رسولين ، وكانا على شريعة التوراة[8].

والتعريف المختار أنّ الرسول مَنْ أُوحي إليه بشرعٍ جديدٍ ، والنبيُّ هو المبعوثُ لتقرير شرعِ مَنْ قبلَه[9].

وقد كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء ، كلّما مات نبي قام نبي ، كما ثبت في الحديث[10]، وأنبياءُ بني إسرائيل مبعوثون بشريعة موسى (التوراة) ، وكانوا مأمورين بإبلاغ قومهم وحيَ الله إليهم ، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا﴾ [البقرة: 246].

فالنبيُّ كما يظهر من الآية يوحى إليه شيءٌ يوجِبُ على قومه أمراً ، وهذا لا يكون إلا مع وجوب التبليغ ، واعتبر في هذا بحال داود وسليمان وزكريا ويحيى ، فهؤلاء جميعاً أنبياء ، وقد كانوا يقومون بسياسة بني إسرائيل ، والحكم بينهم ، وإبلاغهم الحق ، والله أعلم بالصواب[11].

* * *

[8] كتاب النبوات ، ابن تيمية ص (172 ـ 173).
[9] الرسل والرسالات عمر الأشقر ص (15).
[10] البخاري ومسلم ، الرسل والرسالات ص (15).
[11] المصدر السابق ص (15).



الفصل الثاني

وجوب الإيمان بالرسل وموجز تاريخ الرسل

أولاً ـ وجوب الإيمان بالرسل الكرام.

ثانياً ـ موجز تاريخ الرسل الكرام.

ثالثاً ـ جوهر الرسالات كلها.

رابعاً ـ حقيقة النبوة.

خامساً ـ حاجة البشر إلى الرسل الكرام.

سادساً ـ الحكمة من إرسال الرسل الكرام.

سابعاً ـ من أهم صفات الأنبياء والمرسلين.

ثامناً ـ شبهات حول عصمة الأنبياء.

تاسعاً ـ مَنِ اختلف في نبوتهم

الفصل الثاني

وجوب الإيمان بالرسل وموجز تاريخ الرسل

أولاً . وجوب الإيمان بالرسل الكرام:

من المسلّمات البدهية في الإسلام ، التي اعتبرت ركناً أساسياً من أركان الإيمان والعقيدة: الإيمان بالنبوة والوحي ، والتصديق برسالات الله وبرسله إلى خلقه ، الذين بعثهم مبشّرين ومنذرين ، لكي لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

فلا يصحُّ إيمان مؤمن ، ولا يدخلُ في دين الله ، ولا يُقْبَلُ في جماعةِ المؤمنين ، ما لم يؤمنْ بكلّ كتابٍ أُنزل ، وبكلّ نبيٍّ أُرسل.

وهذا أمرٌ في غايةِ الوضوح في كتاب الله ، وسنة رسوله (ﷺ) ، لا يرتاب فيه مسلم ، ولا يتردد فيه عقل ، ولا يتلجلج به لسان.

يقول تعالى مبيناً حقيقة البِرّ وأركان الإيمان ، ردّاً على اليهود ، الذين أثاروا ضجّة حول تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة[12]. قال تعالى: ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [177] ، وقال سبحانه: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ *﴾ [البقرة: 285] ، فذكر الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله صراحةً.

وأشار إلى الإيمان باليوم الاخر بقوله تعالى:
﴿ يا ايها الذين آمنوا آمنوا بالله وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا *﴾ [النساء: 136].

[12] فتاوى معاصرة يوسف القرضاوي (167/3).



وقال تعالى: ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [الحديد: 21].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ *﴾ [آل عمران: 84].

وقال تعالى: ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ *﴾ [البقرة: 136].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ *﴾ [غافر: 78].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ *﴾ [فاطر: 24].

وقال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ *﴾ [يونس: 47].

وفي السنة حديثُ جبريلَ المشهور ، عندما سأله عن الإيمان قال: «الإيمانُ: أن تؤمنَ باللهِ ، وملائكتهِ ، وكتبِهِ ، ورسلِهِ ، واليومِ الاخرِ ، وتؤمن بالقدرِ»[13].

وإنّما لم يذكر القرآن الكريمُ الإيمانَ بالقدر ، لأنَّه من جملة الإيمان بالله تعالى ، فهو إيمانٌ بمقتضى الكمال الإلهي ، وأنّه عَلِمَ كلَّ شيءٍ وأرادَه قبل أن يقعَ ، قال تعالى: ﴿ وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ *﴾ [الانعام: 59].
المهم أنَّ الإيمان بالرسلِ لا ريبَ فيه ، ولا خلافَ عليه ، ولهذا ورد أنَّ

الناس يوم القيامة يُسألون سؤالين رئيسين: أولهما: ماذا كنتم تعبدون؟ والثاني: بماذا أجبتم المرسلين؟ ويقول تعالى: ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لاَ يَتَسَاءَلُونَ *﴾ [القصص: 66].

[13] مسلم رقم (8).



ولقد ردّ القرآن الكريم على المكذّبين ، الذين استبعدوا أن يرسلَ الله إليهم رسولاً يبشّرهم وينذرهم ويهديهم إلى صراط مستقيم ، قال عز وجل على لسان نوح عليه السلام: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ *﴾ [الاعراف: 63].

المهم أنّ الإيمانَ برسل الله جميعاً عقيدةٌ إسلاميةٌ أساسيةٌ ، ومن كذَّب رسولاً واحداً من رسل الله حقاً فكأنما كذّب المرسلين جميعاً ، وهذا ما يقرره القرآن الكريم حينما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ *﴾ [الشعراء: 105]. وهم لم يكذّبوا إلاّ نوحاً ، وكما في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ *﴾ [الشعراء: 123]. وهم لم يكذبوا إلا هوداً ، وكما في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ *﴾ [الشعراء: 141]. هم لم يكذبوا إلا صالحاً ، وكذلك قال عن قوم لوط وقوم شعيب ، وإنّما نسبَ إليهم تكذيب المرسلين ، لأنّهم لما كذبوا واحداً منهم ، فكأنهم جحدوا مبدأ الرسالة نفسه ، فمن زعم أنّه امنَ بالله تعالى ، وكذّب رسله ، أو واحداً منهم ، ممن ثبتت رسالتُه ، فهو كاذِبٌ في دعوى الإيمان ، إذ الإيمانُ الحق: هو ما جاء على لسان الرسول الصادق المؤيَّد بالآيات ، ومن قال: أومنُ بواحدٍ أو بمجموعةٍ ، ولا أومنُ بغيره ممّن هو مثلهم ، أو أعلى منهم ، فهو كاذِبٌ في دعوى إيمانه ، بل القرآن يقول عن مثله إنَّه الكافر حقاً[14].

اقرأ معي قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً *أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِيناً *﴾ [النساء: 150 ـ 151].

وهاتان الايتان نزلتا في شأن اليهود والنصارى ، فاليهود امنوا بموسى ، وكفروا بعيسى ومحمد ، والنصارى امنوا بموسى وعيسى ، وكفروا بمحمد ، والمسلمون وحدهم هم الذين امنوا بكلِّ نبي أرسله الله ، وبكلِّ كتاب أنزله الله ، كما قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُوْلَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا *﴾ [النساء: 152][15].

لقد جاء الرسل كلُّهم بقضية واحدة وكلمة واحدة ، جاؤوا يبيّنون أنه لا إله بحقّ في هذا الوجود كله إلا إله واحد ، هو الله سبحانه وتعالى بلا شريك ، جاؤوا يقولون للناس: ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ﴾ [هود: 50] ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25] .

---

14 فتاوى معاصرة (169/3).

15 المصدر نفسه (169/3).





لقد منح القرآن الكريم مسألة الإيمان بالأنبياء والرسل أهميةً كبيرة تتناسب مع عظمتها وخطورة شأنها ، إنّ الله تعالى أمرَ العباد بتحقيق العبادة الشاملة لله ، والعبادةُ هي امتثالُ الأمر والنهي ، وهذا يقضي أنَّ لله أوامر ونواهي ، فكيف يتعرّف الإنسان على هذه الأوامر والنواهي؟.

إنّه لا طريقَ للتلقي من الله إلا بواسطة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وعلى هذا ، فإنَّ الذي لا يؤمن بالرسل لا يمكن أن يكون موحّداً لله ، ومن هذا ندرك لماذا اهتمّ القرآن الكريم بهذه القضية؟ ونلاحظ مظاهر هذا الاهتمام في النماذج التالية:

1 ـــ كثرة النصوص القرآنية التي جاءت مفصّلة ومبيّنةً ومؤكّدةً لهذه القضية ، ويكفي أن نعلم أنّ كلمة (الرسول) وحدَها تكررت في القرآن الكريم نحو (363) مرة ، وكلمة (النبي) نحو (75) مرة.

وأمّا الحديث عنهم عليهم الصلاة والسلام وما جرى لهم فهذا أخذَ حيّزاً كبيراً من القرآن الكريم.

2 . اقتران الإيمان بهم بالإيمان بالله ، في مواضعَ كثيرة من القرآن الكريم ، سواء أكان هذا في النبوّة العامة أم الخاصة.

أ ـــ فأما في النبوة العامة ، فمثلاً قوله تعالى: ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾[البقرة: 177].

ب ـ وأما في النبوة الخاصة ، قوله تعالى: ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ﴾ [الاعراف: 158] وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النور :62].

3 ـــ التحذير من تكذيبهم ، وتخويف المكذبين بما لاقى أسلافهم ، ويكفي أن تمرَّ على هذه الآيات: قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَامُوسَى مَسْحُورًا *قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلاَءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّك يافِرْعَوْنُ مَثْبُورًا *فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا *﴾ [الإسراء :101 . 103][16].

ثانياً . موجز تاريخ الرسل الكرام:

تاريخُ الأنبياء الكرام تاريخُ العظمة والجلالِ ، وحياتُهم حياةُ الكفاح والنضال والجهاد ضد أعداء الحق وأعداء الله وأعداء الإنسانية في كلِّ زمان ومكان ، وليس الغرض من ذكر القصص في القرآن التسليةَ أو الترفيه عن النفس ، وإنّما

[16] ركائز الإيمان ، محمد قطب ص (227).





الغرضُ العظةُ والعبرةُ ، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [يوسف: 111].

كما أشارت الآية الأخرى إلى ضرورة الاستفادة من قصص القرآن بالتفكر والتدبر ، والسير على منهاج الأنبياء والمرسلين: ﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ *﴾ [الاعراف :176]. وخاصة بالنسبة إلى مقام الدعاة ، فإنَّ الغرضَ من ذكر قصص الأنبياء لهم تثبيتُهم على الدعوة ، وتقويةُ عزائمهم بإطلاعهم على سيرة الأنبياء الأطهار ، وما تحمّلوه من أذى في سبيل الله[17] ، كما قال تعالى لسيد الخلق محمد (ﷺ): ﴿ وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ *﴾ [هود:120].

1 . من أغراض قصص الأنبياء في القرآن الكريم:

للقران الكريم في ذكر قصص الأنبياء أغراضٌ عديدةٌ وجليلةٌ:

أ ــــ إثبات الوحي والرسالة: بيّن القرآن الكريم أنّ هذا القصص إنما هو بوحي الله ، فمحمد (ﷺ) أمي لا يكتب ولا يقرأ: ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ *﴾ [العنكبوت: 48].

ولم ينقل عن الرسول (ﷺ) ، أنه كان يجلس إلى أحبار واليهود ، أو رهبان النصارى ، فمن أين جاء بهذا القصص الرائع عن الأنبياء قبله ، وعن الأمم والخلائق ، وما وقع لهم ، وما حلّ بهم ، وبعض القصص جاء في دقة وإسهاب ، كقصص إبراهيم ، ويوسف ، وموسى وعيسى عليهم السلام.

إنّ مجيءَ القصص بهذه الدقة المتناهية ، وورودها في القرآن بهذا البيان المحكم ، أعظمُ دليل على أنه وحيٌ من عند الحكيم الخبير ، وقد أشار كثيرٌ من الآيات القرآنية إلى هذا الغرض إشارةً واضحةً جليّةً في مقدّماتِ بعض القصص أو في أواخرها ، مثل قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ ﴿ هَذَا القرآن وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ *﴾ [يوسف: 3] وقال تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ*﴾[هود: 49][18].

ب ـ تثبيت النبي (ﷺ) في دعوته: ببيان أنّ النصرَ في النهاية للرسل الكرام ، وأن الهلاكَ والدمارَ للأمم المكذبين ، وفي ذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ

[17] المحكم في العقيدة د. محمد عياش ص (123) ت(124).

[18] عقيدة التوحيد من الكتاب والسنة ، سعاد مبير ص (300).





لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ *﴾ [الأنعام:34] ويقول سبحانه أيضاً داعياً رسوله (ﷺ) إلى تدبّر ذلك الجزاء العادل ، الذي أخذ به القوم المجرمين: ﴿ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ *﴾ [العنكبوت: 39 . 40].

ج . دفع الناس إلى الإيمان بخاتمة الرسالات: لقد أكثر القرآن العظيم من ذكر دعوات الأنبياء السابقين ، وموقف الناس منها طائعين وعصاة ، وعاقبة كل منهم ، وذلك بقصد خلق تأثيرٍ نفسي لدى المطّلع على ذلك ، يجعله يؤمن بالدعوة المعروضة عليه ، لأنَّ المسألة من خلال ما سمع أو قرأ قد وَضُحَتْ وبانت ، فمن امن نجا ، ومن كفر هلك ، قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلاَ تَعْقِلُونَ*﴾ [يوسف: 109].

د ــ إظهار الترابط الوثيق بين الرسالات السماوية: فكلُّ نبي إنّما يأتي برسالة متممة ومكملة لرسالة النبي الذي سبقه ، ويدعو إلى الإيمان برسالته ، وقد أخذ الله سبحانه وتعالى العهدَ والميثاقَ على جميع الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد (ﷺ) ، ويتبعوه ، ويكونوا من أنصاره إن أدركوا حياته وعهده[19]، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ *﴾ [آل عمران: 81].

2 . الرسل والأنبياء الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم:

وهم خمسة وعشرون رسولاً ، أولهم ادم عليه السلام ، واخرهم محمد (ﷺ)، وقد جمع هؤلاء الرسل في آيات كريمة من سورة الأنعام ، ذكر منهم فيها ثمانية عشر ، والسبعة الباقون ذكروا في آياتٍ متفرّقةٍ من كتاب الله تعالى ، أما الآية الكريمة فهي قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ *وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ *وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ *وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ *﴾ [الانعام :83 . 86].

وقد جمع بقية الرسل في الآيات الكريمة التالية: قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا *﴾ [مريم :56] وقال تعالى: ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [هود :50] وقال تعالى: ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ [هود:61] وقال تعالى: ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ﴾ ﴿ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾[هود: 84] وقال جل وعلا: ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا

[19] عقيدة التوحيد ص (301).



الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّـابِرِينَ *﴾[الأنبياء: 85] وقال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عمران عَلَى الْعَالَمِينَ *﴾[آل عمران: 33] وقال تعالى: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾[الفتح: 29][20].

وهؤلاء من ذكرهم الله في القرآن الكريم ، وهناك من لم يذكرهم ، ولا نعرف عددهم ، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: 78].

وقد أخبرنا رسول الله (ﷺ) بعدة الأنبياء والمرسلين ، فعن أبي ذر ، قال: قلتُ يا رسول الله ، كم المرسلون؟ قال: «ثلاثمئة وبضعة عشرَ جماً غفير» وفي رواية أبي أمامة ، قال أبو ذر قلت: يا رسول الله ، كم وفاء عدّةِ الأنبياء؟ قال: «مئة ألفٍ وأربعةٌ وعشرونَ ألفاً ، الرسل من ذلك ثلاثمئةٍ وخمسةَ عشرَ جماً غفيراً»[21].

ثالثاً ـ جوهر الرسالات كلها:

إنّ الدينَ الإسلامي هو الدّين الذي ارتضاه الله لعباده المؤمنين الموحّدين ، فهو دينُ الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وبعث به كل الرسل ليُبلغوه للناس ، ودعا له الرسلُ ونشروه في أرجاء المعمورة ، فهو أصلُ رسالتهم الذي اتّحدوا عليه ، وانطلقوا منه ، فكان هو دينهم جميعاً ، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ﴾ [آل عمران: 19]. وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ *﴾ [آل عمران: 85].

فالإسلامُ دين جميع الأنبياء والمرسلين ، وإن اختلفت شرائعهم وأحكامهم ، فإنّهم متفقون على الأصل الأول ، وهو التوحيد والإسلام ، فمثلاً:

أخبر الله عن نوح عليه السلام: ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ *﴾ [يونس :72].
وأخبر عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ *﴾ [البقرة :131].

وأخبر عن موسى عليه السلام: ﴿ ياقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ *﴾ [يونس :84].

وأخبر عن حواريي المسيح: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا واشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ *﴾ [المائدة :111].

---

[20] عقيدة التوحيد ص (301).
[21] المصدر نفسه ص (303).



وأخبر عن سليمان عليه السلام على لسان ملكة سبأ: ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *﴾ [النمل :44].

وأخبر سبحانه وتعالى عن الأنبياء الذين تقدموا: ﴿ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ [المائدة :44][22].

إنّ أصل الدين واحدٌ ، بعث الله به الأنبياء والمرسلين جميعاً ، واتفقت دعوتهم إليه ، وتوحّدت سبيلهم عليه ، وإنّما التعدّد في شرائعهم المتفرعة عنه ، وجعلهم الله سبحانه وسائطَ بينه وبين عباده في تعريفهم بذلك ، ودلالتهم عليه ، لمعرفة ما ينفعهم وما يضرّهم ، وتكميل ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم.

بُعثوا جميعاً بالدّين الجامع ، الذي هو عبادةُ اللهِ وحده ، لا شريك له ، بالدعوة إلى توحيد الله ، والاستمساك بحبله المتين.

وبُعثوا للتعريف بالطريق الموصل إليه ، وبُعثوا ببيان حالهم بعد الوصول إليه ، فاتّحدت دعوتهم إلى هذه الأصول الثلاثة:

1 . الدعوة إلى الله تعالى في إثبات التوحيد ، وتقريره ، وعبادة الله وحده لا شريك له ، وترك عبادة ما سواه ، فالتوحيدُ دينُ العالم بأسره من لدن ادم إلى اخر نفسٍ منفوسةٍ من هذه الأمة.

2 . والتعريف بالطريق الموصل إليه سبحانه في إثبات النبوات ، وما يتفرّع

عنها من الشرائع ، من صلاةٍ ، وزكاة ، وصيامٍ ، وجهادٍ ، وغيرها ، أمراً ونهياً في دائرة أحكام التكليف الخمسة: الأمر وجوباً ، أو استحباباً ، والنهي تحريماً ، أو كراهة ، والإباحة ، وإقامة العدل والفضائل ، والترغيب والترهيب.

3 ـــ والتعريف بحال الخليقة بعد الوصول إلى الله: في إثبات المعاد ، والإيمان باليوم الاخر ، والموت ، وما بعده من القبر، ونعيمه وعذابه ، والبعث بعد الموت ، والجنة والنار ، والثواب والعقاب.

وعلى هذه الأصول الثلاثة مدارُ الخلق والأمر ، وبُعث به الأنبياء والرسل جميعاً ، وتلك هي الوحدة الكبرى بين الرسل والرسالات والأمم ، وهذا هو المقصود من قول النبي (ﷺ): «إنّا معاشرَ الأنبياءِ أخوةٌ لِعلاتٍ ، أمهاتُهم شتّى ، ودينُهم واحدٌ» ، وهو المقصود في مثل قول الله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ

[22] مشكاة المصابيح (122/3) وقال الألباني: إسناده صحيح.



مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ *﴾ [الشورى :13]. وهذه الأصول الكلية هي ما تضمنته عامة السور المكية من القرآن الكريم.

وإذا تأملتَ سرّ إيجاد الله لخلقه ، وهو عبادته ، كما في قول الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ *﴾ [الذاريات :56]. عرفتَ ضرورةَ توحُّد الملة والدين ، ووحدةِ الصراط ، ولهذا جاء في أم القرآن فاتحةِ كتاب الله عز وجل: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ *صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ *﴾ [الفاتحة :6 . 7] ثم أتبع ذلك بأن أهل الكتاب ، خارجون عن هذا الصراط فقال: ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ *﴾ [الفاتحة: 7].

وبهذا تدركُ الحكمَ العظيمة ممّا قصه الله تعالى علينا في القرآن العظيم من قصص الأنبياء وأخبارهم مع أممهم لأخذ العبرة ، والتفكر ، وتثبيت أفئدة الأنبياء ، وإثبات النبوة والرسالة ، وجعلها موعظةً للمؤمنين ، وأخبار الأمم المكذّبة لرسلهم ، وما صارت إليه عاقبتُهم ، وأنها سننه سبحانه فيمن أعرض عن سبيله.

والدّينُ بهذا الاعتبار هو (دين الإسلام) بمعناه العام ، وهو: إسلام الوجه لله

وطاعته ، وعبادته وحده ، والبراءة من الشرك ، والإيمان بالنبوات ، والمبدأ والمعاد[23].

ولوحدة الدين بهذا الاعتبار في دعوة جميع الأنبياء والمرسلين وحّد سبحانه (الصراط) و(السبيل) في جميع آيات القرآن الكريم ، وهذا الدين (دين الإسلام) باعتبار وحدته العامة وتوحد صراطه وسبيله ، هو الذي ذكره الله في آيات من كتابه عن أنبيائه: نوح ، وإبراهيم ، وبنيه ، ويوسف ، وموسى ، وسليمان ، وجواب بلقيس ملكة سبأ ، وعن الحواريين، وعن سحرة فرعون ، وعن فرعون حين أدركه الغرق.

ودين الإسلام بهذا الاعتبار: هو دين الأنبياء والمرسلين جميعاً وملتهم ، بل إن إسلام كل نبي ورسول يكون سابقاً لأمته ، وهو محل بعثته إلى أمته ، وما يتبع ذلك من شريعته ، كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل :36] وقال سبحانه: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ *﴾ [الانبياء :25].

[23] العقيدة الصافية للفرقة الناجية ص (119 . 120).

وإنما خص الله سبحانه نبيه إبراهيم عليه السلام بأن: (دين الإسلام) بهذا الاعتبار العام هو ملته في مثل قوله تعالى: ﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [آل عمران: 95] لوجوهٍ:

1 ـ أنه عليه السلام واجه من أجل تحقيق التوحيد وتحطيم الشرك أمراً عظيماً ، وقد نصره الله بعد ذلك ، وهو ما قصَّ الله خبره.

2 ـــ أن الله سبحانه وتعالى جعل في ذريته النبوة والكتاب ، ولذا قيل له: (أبو الأنبياء) ولذا قال الله تعالى: ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ﴾ [الحج :78].

وهو عليه السلام تمام ثمانية عشر نبياً سمّاهم الله في كتابه من ذريته وهم: ابنه إسماعيل ، ومن ذريته: محمد عليهما الصلاة والسلام ، وابنه إسحاق ومن ذريته: يعقوب ، ويوسف ، وأيوب ، وذو الكفل ، وموسى ، وهارون ،

وإلياس ، واليسع ، ويونس ، وداود ، وسليمان ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى ، عليهم السلام.

3 ـــ لإبطال مزاعم اليهود والنصارى في دعواهم أنهم على ملة إبراهيم عليه السلام ، فقد كذبهم الله تعالى في قوله تعالى: ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ *﴾ [البقرة :140][24].

وردّ الله عليهم محاجتهم في ذلك بقوله تعالى: ﴿ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَآجُونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ *هَاأَنْتُمْ هَؤُلاَءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ *مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ *﴾ [آل عمران: 65 ـ 67].

ثم بين سبحانه إن أَوْلى الناس بإبراهيم هم الذين على ملته وسنته ، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ *﴾ [آل عمران: 68].

وبيّن سبحانه مدى الضلال البعيد في جُنوح أهل الكتاب إلى هذه الدعوى ، وما هم فيه من الغلو والضلال ، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ *﴾ [المائدة :77].

---

[24] الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان ، بكر عبد الله أبو زيد ص (50 ـ 51).



ويبيّن سبحانه أنّ هذه المحاولة الكاذبة اليائسة من أهل الكتاب جاريةٌ في محاولاتهم مع المسلمين لإضلالهم عن دينهم ، ولبس الحق بالباطل ، فقال تعالى:

﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ،فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ *﴾ [البقرة :135 ـ 137].

وهكذا يجد المتأمل في كتاب الله تعالى التنبيه في كثير من الآيات إلى أن هذا القرآن ما أُنزل إلا ليُجدِّدَ دين إبراهيم عليه السلام ، حتى دعاهم بالتسمية التي يكرهها اليهود والنصارى، (ملة إبراهيم) فأقرأ قول الله تعالى: ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج :78].

والخلاصة: أن لفظ: (الإسلام) له معنيان.

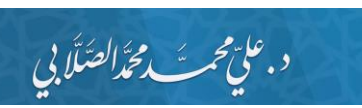
معنى عام: يتناول إسلامَ كلِّ أمةٍ متبعة لنبي من أنبياء الله ، الذي بعث فيهم ، فيكونون مسلمين حنفاء على ملة إبراهيم بعبادتهم لله وحده ، واتباعهم لشريعة مَنْ بعثه الله فيهم ، فأهل التوراة قبل النسخ والتبديل مسلمون حنفاء على ملة إبراهيم ، فهم على (دين الإسلام).

ثم لما بعث الله نبيه عيسى عليه السلام كان على الإسلام.

ثم لما بعث الله محمداً (ﷺ) وهو خاتمهم ، وشريعته خاتمة الشرائع ، ورسالته خاتمة الرسالات ، وهي عامّةٌ لأهل الأرض ، وجب على أهل الكتابينِ وغيرهم اتباع شريعته ، وما بعثه الله به لا غير ، فمن لم يتبعه فهو كافر ، لا يوصف بالإسلام ، ولا أنّه حنيف ، ولا أنّه على ملة إبراهيم ، ولا ينفعه ما يتمسّك به من يهودية أو نصرانية ، ولا يقبله الله منه.

فبقي اسم (الإسلام) عند الإطلاق ـــ منذ بعثة محمد (ﷺ) حتى يرث الله الأرض ومن عليها ـــ ، مختصاً بمن يتبعه لا غير. وهذا هو معناه الخاص الذي لا يجوز إطلاقه على دين سواه ، فكيف وما سواه دائر بين التبديل والنسخ ، فإذا قال أهل الكتاب للمسلمين: فقد أمر الله المسلمين أن يقولوا لهم: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾

ولا يوصَفُ أحدٌ اليوم بأنه مسلم ، ولا أنّه على ملة إبراهيم حنيفاً ، ولا أنّه من عباد الله الحنفاء إلا إذا كان متّبعاً لما بعث الله به خاتم أنبيائه ورسله محمّداً (ﷺ).





وأمّا تنوع الشرائع وتعدُّدُها: فيقول الله تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة :48].

شرعة: أي شريعة وسنة ، قال بعض العلماء: سميت الشريعةُ شريعةً ، تشبيهاً بشريعة الماء ، من حيث إنّ مَنْ شرع فيها على الحقيقة المصدوقة رُوي وتطهّر[25].

ومنهاجاً: أي طريقاً وسبيلاً واضحاً إلى الحق ، ليعملَ به في الأحكام ، والأوامر والنواهي ، ليعلم الله من يُطيعه ممّن يعصيه.

ويقول سبحانه: ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلاَ يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدىً مُسْتَقِيمٍ *﴾ [الحج :67]. منسكاً: متعبداً ، هم ناسكوه: متعبدون به.

وقال تعالى في حق نبيه ورسوله محمد (ﷺ): ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ [الجاثية :18].

وقد علمنا الأصولَ التي تساوت فيها الملل ، وتواطأت دعوةُ أنبياء الله ورسله عليها: على دين واحد ، وملة واحدة ، في تقرير العبودية لله سبحانه لا شريك له ، وتوحيده ، وتقرير النبوة والمعاد ، ووحدة التشريع من عند الله تعالى ، فهذه لا تتغير ولا تتبدل ، ولا يدخلها نسخٌ ، فهي محكمة غيرُ منسوخة ، ولا تقبل الاجتهاد ولا التخصيص.

أما الشرائع ، فهي مختلفة ، متنوعة ، متعددة ، ويعترضُها النسخ ، فشريعة كل رسولٍ تخالف الأخرى في كلٍّ أو بعضِ أمور التشريع ، فهناك حكم تعبدي في شريعة رسول ينتهي بانتهاء شريعته ببعثة رسول اخر ، وهناك حكم يغير في بعض جزيئاته في وقته ، أو كيفيته ، أو مقداره ، أو حكمه من التشديد إلى التخفيف وبعكسه. وهناك حكم يكون في شريعة لاحقةً دون السابقةِ أو عكسه[26] وهكذا من تنوع التشريع في الأحكام العملية والقولية ، من الأوامر والنواهي حسب سابق علم الله تعالى وحكمته في تشريعه وأمره بأوضاع كل أمة ، وأزمانها وأحوالها ، وطبائعها من قوتها وضعفها ، وحسب أبدية التشريع ، أو تغييره ونسخه ، وهذا يكاد ينتظِمُ أبوابَ التشريع في العبادات والمعاملات والنكاح ، والجنايات والحدود ، والإيمان والنذور والقضاء وغير ذلك من الفروع ، التي ترجع إلى وحدة الدّين والملة ، ولذا فإنَّ شريعةَ الإسلام ــ وهي اخر الشرائع ــ باينت جميع الشرائع في عامة الأحكام العملية والقولية ، والأوامر والنواهي لِمَا لها من صفة الدوام والبقاء ، وأنها اخرُ شريعةٍ نزلت من عند الله ناسخةٌ لما قبلها من شرائع الأنبياء[27].

---

[25] الإبطال ص (53).
[26] الإبطال ص (57).
[27] الإبطال.




سلسلة أركان الإيمان ٤
الإيمان بالرسل والرسالات


د. علي محمد الصلابي



رابعاً ـ حقيقة النبوة:

النبوةُ والرسالةُ اصطفاءٌ خالصٌ من عند الله ، يختصّ به مَنْ يشاء من عباده ، وليست شيئاً يكتسِبُه العبادُ من ذاتِ أنفسهم بعمل يعملونه من جانبهم ، وكل ما يقعُ للبشر في حياتهم هو من عند الله ، ولكنَّ الله قدّر أن يكونَ للإنسان جانب من الكسب في كلّ ذلك ، فقد أعطى الإنسانَ القدرةَ على المعرفة ، ووهبَ له ذكاءً يتفاوتُ من شخص إلى شخص ، ومنحه طاقةً مختلفةً ، ثم كلّفه أن يعملَ ، وأن يبذلَ جهداً معيّناً لتحصيل المعرفة ، واستخدام الذكاء في عمارة الأرض وغيرها من شؤون الحياة.

قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ *﴾ [الملك : 15] وقال تعالى: ﴿ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود :61] وقال تعالى: ﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ *عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ *﴾ [العلق :4 ــ 5] وقال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ *﴾ [النحل :78].

ويستطيعُ الإنسانُ بتحصيله الشخصي أنْ ينمّي ما وهب الله له من مواهبَ ، فيستطيع مثلاً أن ينمّي قوته الجسدية بالرياضة البدنية والتدريب ، فيصبح قويَّ الجسم ، متينَ العضلات ، ويستطيعُ أن ينمّي قوته الذهنية بالتدريبات العقلية، وتعلّم العلم ، وإمعان الفكر ، فيستنبطُ ويكتشفُ ويخترعُ ويدبّرُ ويخطّط ، ويستطيعُ أن ينمّي قوته الروحية بالامتناع عن بعض لذائذ الحسّ ، وبالتأمّل وبإبعاد النفس شيئاً من الوقت عن عالم الحسّ القريب بصورة من الصور ، فتصفو روحُه ، ويكتسب طاقةً روحيةً كبيرة ،كل هذه الأعمال هي في أصلها موهبة من الله ، وهي فيما تنتهي إليه كسب يكسبه البشر بجهد يبذلونه ، وتحصيل يكدون فيه ويكدحون.

أمّا الرسالة والنبوة فموهبةٌ من الله ذات طبيعة مختلفة ، إنه لا يد للإنسان فيها ولا كسب ولا اختيار، إنّما هي اصطفاء خالص من جانب الله سبحانه وتعالى لعبد من عباده يجتبيه ، وينعم عليه ، ويبعثه بالهداية إلى الناس[28].

قال تعالى: ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ *﴾ [الحج :75].

وقال تعالى: ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ [مريم :58].

وقال سبحانه في إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا﴾ [البقرة :130].

[28] المصدر السابق ص (59).





وقال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿ اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي﴾ [الاعراف :144].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآل عمران عَلَى الْعَالَمِينَ *﴾ [آل عمران: 33].

وقال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى *﴾ [طه :13].

وحقيقة أنّ الذين يصـــطفيهم الله ليكونوا رســـلاً وأنبياء هم خيار الناس وأفضـــلهم ، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ *﴾ [ص :47].

ولكن نحن لا نستطيع بمقياسنا أن نقول: إن فلاناً من البشر يستحق النبوة أو أنه أولى بها من غيره ، قال تعالى: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الانعام :124].

فالنبوة إذاً محض اختيار من الله واصطفاء واجتباء ، ولذلك ردَّ الله زعم المشركين أن النبوة لا تليق إلا برجل عظيم من الأثرياء حين قالوا: فيما حكاه الله عنهم: ﴿ وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا القرآن عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ *﴾ [الزخرف :31] رد عليهم ســبحانه قائلاً: ﴿ أَهُمْ يَقْسِــمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَــمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَــتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الزخرف :32].

أي ليس الأمر مردوداً إليهم ، بل إلى الله عز وجل ، والله أعلم حيثُ يجعل رســـالته ، فإنّه لا ينزلها إلا على أزكى الخلق قلباً ونفساً ، وأشرفهم بيتاً ، وأطهرهم أصلاً ، فبيّن سبحانه في ردّ زعمهم أنّ النبوةَ رحمة منه يخص بها مَنْ يشاء من عباده ، وأنها منزلة رفيعة يرفع الله بها عبده فوق خلقه درجات ، ثم إنّ النبوة قد انقطعت بعد محمد (ﷺ) ، فلا نبيَّ بعده البتة ، قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُــولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الاحزاب :40] كما هو ثابتٌ بالقرآن أيضاً ، فلا مطمعَ لأحدٍ في هذه المنزلة بعده (ﷺ) ، ولم يبلغْها من البشرِ إلاّ هو ، ومن تقدّمه من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، فلا يبلغها غيرهم إلى قيام الساعة[29].

وقال (ﷺ) «أنا خاتم النبيين»[30]، وقال (ﷺ): «إلاّ إنه لا نبي بعدي»[31]. وفي الجملة ، فإن كونه (ﷺ) خاتمَ النبيين ، وأنه لا نبيَّ بعده ثابت بالتواتر من أحاديث رسول الله (ﷺ)[32].

ويأتي الحديثُ عن انقطاع النبوة بعد محمد (ﷺ) لاحقاً بإذن الله تعالى.

29 ركائز الإيمان ص (229).

30 مباحث في المفاضلة في العقيدة ، محمد الشليفي ص (176).

31 البخاري مع الفتح (58/6) ، تفسير ابن كثير (128/4).

32 البخاري مع الفتح (495/6).





خامساً . حاجة البشر إلى الرسل:

لم يستطع العقلُ البشري مرةً واحدةً أن يضعَ منهجاً متكاملاً خالياًمن العيوب ، وكلّما أبرزَ التطبيقُ العملي عيباً في تلك المناهج البشرية حاول البشرُ إصلاحه بعيبٍ جديدٍ تظهر نتائجه المنحرفة بعد حين من الزمان ، ذلك أنَّ وضعَ المنهج الصالح لحياة البشر يحتاجُ إلى جملةِ أمورٍ يقصُرُ عنها العلمُ البشري منها:

1 ـ أنّه يحتاج إلى معرفة حقيقية كاملة بالكيان البشري ذاته ، والإنسان ـ على الرغم من كلّ العلم المادي الذي عرفه . ما يزال شديدَ الجهلِ بكيانه الذاتي ، وهو بالتالي شديدُ الجهل بما يصلحه وما يصلح له.

2 ـ وأنّه يحتاجُ إلى إحاطة كاملة بماضي الجنس البشري وحاضره ومستقبله والتجارب التي خاضها ، وأسبابها ونتائجها ، وهذا يستحيل استحالة كاملة على الإنسان ، لأن كثيراً من أحداث الماضي مجهول له ، وهو عاجز عن الإحاطة بكل أحداث الحاضر الذي يعيشه ، أمّا المستقبل فهو غيب موصد أمامه لا يستطيع الاطلاع عليه.

3 ـــ وأنّه يحتاجُ إلى أن يكونَ واضحَ المنهج غير متحيّز ، لا مصلحة له في أمر من الأمور ، ولا هوى ولا شهوات ، وهذا أمر لا يتوفر أصلاً في الإنسان ، الذي ينجذبُ دائماً إلى مصلحته الذاتية ، وتحرّكه دائماً الأهواء والشهوات ما لم يلتزم بأمر الله ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا *إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا *وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا *إِلاَّ الْمُصَلِّينَ*﴾ [المعارج :19 ـ 20].

4 ـ وأنَّ واضعَ المنهج يحتاج إلى علم كامل بمن يطيعه في السرّ والعلن ، وإلى قدرة تامة على مجازاة من يطيع ، ومعاقبة من يعصي ، حتى يكونَ المنهجُ محترماً ومطبقاً ، وهذه الأوصافُ لا تتوفّر في الجنس البشري ، فالإنسان لا يرى إلاّ في حدود ما تبصر عيناه ، ولا يسمع إلاّ في حدود ما يبلغ سمعه.

أما الله عز وجل فإنه يعلم جميع ما يفعله الإنسان من خير وشر ، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ *﴾ [المجادلة :7].

والله عز وجل قادر على أن يجازي من أطاعه ، ويعاقب من عصـــاه على الدقيق والجليل ، قال تعالى: ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ *وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ *﴾ [الزلزلة :7 ـ 8].

ومن ثَمَّ فإنّ المنهجَ الصالح لا يمكن أن يأتي إلا من مصدر واحد هو الله تعالى.





فالله هو الذي يعلم حقيقة الإنســـان ، لأنّه هو الذي خلقه ســـبحانه: ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ *﴾ [الملك :14][33].

والله هو الذي يعلمُ كلّ شـيء في حياة البشـر وفي الكون كله ، علم إحاطة واطلاع: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ *﴾ [سبأ :2] وقال تعالى: ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَلاَ أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ *﴾ [سبأ :3].

واللهُ هو الذي شرع التشريع الحكيم ، لأنه هو الغني القادر ، وليس محتاجاً إلى شيءٍ ممّا عند الناس ، وهو الواهب لهم كلَّ شــيءٍ ، وهو الذي لا يزيد في ملكه أن يكونَ الناسُ كلُّهم على أتقى قلب رجلٍ منهم ، ولا ينقص في ملكه على أن يكونوا كلهم على قلبِ أفجرِ رجلٍ منهم ، كما جاء في الحديث القدسي.

والهدايةُ الربانيةُ التي تشتمل على المنهج الصالح لحياة البشر طريقُها هو الرسل والرسالات ، ومن ثَمَّ تصبحُ الرسالةُ حاجةً بشريةً لا غنًى عنها ، ولا استقامة لحياة البشر من دونها. فكما تكفّل الله سبحانه وتعالى ـــ رحمة منه بعباده . بكل ما يحفظ حياتهم من الطعام والكساء والمأوى والعقل المدبر المنظم ، فقد تكفّل سبحانه كذلك بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب لتستقيمَ حياة الناس في الأرض ، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد :25][34].

فحاجةُ البشـر إلى رســالة الرسـل: ضـرورةٌ للعباد ، لابدّ لهم منها ، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شــيء ، والرسالة روح العالم ونوره وحياته ، فأيّ صلاحٍ للعالم إذا عَدِمَ الروح والحياة والنور؟ والدُّنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شمسُ الرسالةِ ، وكذلك العبدُ ما لم تشرقْ في قلبه شمس الرسالة ، ويناله من حياتها وروحها فهو في ظلمة ، وهو من الأموات ، قال الله تعالى:

﴿ فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الانعام :122].

فهذا وصــفٌ المؤمن كان ميتاً في ظلمة الجهل ، فأحياه الله بروح الرســالة ونور الإيمان ، وجعل له نوراً يمشــي به في الناس ، وأمّا الكافر فميت القلب في الظلمات.
إنَّ الله سمّى رســـالته روحاً ، والروح إذا عدم فُقِدت الحياة ، قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى :52].

---
[33] المصدر نفسه ص (176).
[34] ركائز الإيمان ص (224).



فذكر هنا أصلين هما: الروح والنور ، فالروح الحياة ، والنور النور.

إنّ اللهَ يضـــرب الأمثال للوحي الذي أنزله حياة للقلوب ونوراً لها بالماء الذي ينزله من الســـماء حياة للأرض ، وبالنار التي يحصل بها النور ، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْـــرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ *﴾ [الرعد :17].

فشـبّه العلمَ بالماءِ المنزَلِ من الســماء ، لأنّ به حياة القلوب ، كما أنَّ الماء حياة الأبدان ، وشـبّه القلوبَ بالأودية ، لأنّها محلّ العلم ، كما أنَّ الأودية محل الماء ، فقلب يسـع علماً كثيراً ، وواد يسـع ماءً كثيراً ، وقلب يسـع علماً قليلاً ، وواد يسـع ماءً قليلاً ، وأخبر تعالى أن الزَّبَدَ يعلو على السـيل بسـبب مخالطة الماء ، وأنّ هذا الزَّبَدَ يذهب جفاءً ، أي يرمى به ويختفي ، والذي ينفع الناس يمكث في الأرض ، ويستقرّ ، وكذلك القلوب ، تخالطها الشـهوات والشبهات ، ثم تذهب جفاء ، ويستقر فيها الإيمان والقرآن الذي ينفع صاحبه والناس.

وقـال تعـالى: ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْـــرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ [الرعد:17] فهذا المثل الاخر هو الناري ، فالأول للحياة ، والثاني للضياء.

إنَّ الكافرَ يعيشُ في ظلمات الكفر والشـــرك ، فهو غير حيّ ، وإن كانت حياته حياة بهيمية ، فهو عادم الحياة الروحانية العلوية التي سـببها الإيمان ، وبها تحصـلُ للعبدِ السـعادةُ والفلاحُ في الدنيا والاخرة ، فإنّ الله سـبحانه جعل الرسل وسائط بينه وبين عباده في تعريفهم بما ينفعهم وما يضرّهم ، وتكميل ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم ، وبعثوا جميعاً بالدعوة إلى الله ، وتعريف الطريق الموصـــلِ إليه ، وبيان حالهم بعد الوصـــول إليه: وهذا يحتاجُ إلى معرفة ثلاثة أصول:

الأصـل الأول: يتضـمّن إثبات الصـفات ، والتوحيد ، والقدر ، وذكر أيام الله في أوليائه وأعدائه ، وهي القصـص التي قصّها الله على عباده ، والأمثال التي ضربَها لهم.

والأصل الثاني: يتضمّن تفصيلَ الشرائع ، والأمر والنهي والإباحة ، وبيان ما يحبه الله وما يكرهه.

والأصل الثالث: يتضمّن الإيمانَ باليوم الاخر ، والجنةَ والنارَ ، والثوابَ والعقابَ.



على هذه الأصول الثلاثة مدارُ الخلق والأمر ، والسعادةُ والفلاحُ موقوفةٌ عليها ، ولا سبيل إلى معرفتها إلاّ من جهة الرسل ، فإنَّ العقل لا يهتدي إلى تفاصيلها ومعرفة حقائقها ، وإن كان يدرِكُ وجهَ الضرورة إليها من حيث الجملة ، كالمريض الذي يدرِكُ وجهَ الحاجة إلى الطب ، ومن يداويه ، ولا يهتدي إلى تفاصيلِ المرضِ ، وتنزيلِ الدواء عليه[35].

سادساً . الحكمة من إرسال الرسل:

من رحمة الله بعباده ، ومن جميل لطفه بهم ، وإحسانه إليهم ، أنْ بعثَ إليهم الأنبياء والمرسلين ، مبشرين ومنذرين ، ليكونوا منارات للهدى ، وأعلاماً للفضيلة ، ونجوماً زاهرة في سماء الإنسانية ، تضيء للعالم طريق الخير ، وترشدهم إلى السعادة ، وتنقذهم من براثن الشرك والوثنية ، وتسمو بهم إلى مدراج العزّ والكمال ، وقد جرت سنةُ الله في خلقه ألاّ يعاقبَ أمةً قبل أن يبعثَ إليها رسولاً ، يدعوهم إلى الخير والبر ، وينهاها عن السوء والشر ، وذلك حتى لا يدعَ لأحدٍ من البشر عُذراً ، قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً *﴾ [الإسراء: 15]

ولئلا يقول الناس يوم القيامة: ﴿ مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ﴾ [المائدة :19] وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى *﴾ [طه : 134] وقال تعالى: ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا *﴾ [النساء:165].

فكانت حكمةُ الله ورحمته بعباده أن يقيمَ لهم موازين الحق والعدل ، ويفتح أعينهم على الهدى والرشاد ، وينصب لهم الدلائل والبراهين حتى تقومَ الحجة ، وتتضحَ المحجّة[36].

سابعاً . وظائف الرسل ومهماتهم:

1 . دعوة الخلق إلى عبادة الله الواحد القهار:

هذه هي الوظيفة الأساسية ، بل هي المهمة الكبرى التي بعث الله من أجلها الرسل الكرام ، وهي تعريف الخلق بالخالق جلا وعلا ، وإرشادهم إلى الإيمان بوحدانيته ، وتخصيص العبادة له دون سواه ، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ *﴾ [الانبياء : 25].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل :36][37].

---

35 المصدر نفسه ص (245).

36 فتاوى ابن تيمية (93/0 . 96) ، الرسل والرسالات ص (34).

37 دراسات في التفسير الموضوعي ، د. زاهر الألمعي ص (242).





وقد بذلَ الرسلُ في سبيل دعوة الناس إلى الله جهوداً عظيمة ، وحسبُك في هذا أن تقرأ سورةَ نوحٍ لترى الجهدَ الذي بذله على مدار تسعمئة وخمسين عاماً ، فقد دعاهم ليلاً ونهاراً ، سرّاً وعلانية ، واستعمال أساليب الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد ، وحاول أن يفتحَ عقولهم ، وأن يوجّهها إلى ما في الكون من آيات ، ولكنّهم أعرضوا ، قال تعالى: ﴿ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا *﴾ [نوح :21][38].

وقد ضــربت الملائكة للرســول (ﷺ) مثلاً توضّــح دوره ، وتبين وظيفته ، ففي الحديث: «إنّي رأيتُ في المنام كأنّ جبريل عند رأســي ، وميكائيلَ عند رجلي ، يقول أحدهما لصــاحبه: اضــربْ له مثلاً ، فقال: اسمع سمعت أذنك ، واعقل عقل قلبك ، إنّما مثلك ومثل أمتك ، كمثل ملكٍ اتخذَ داراً ، ثم بنى فيها بيتاً ، ثم جعلَ فيها مائدةً ، ثم بعث رســولاً يدعو الناسَ إلى طعامه ، فمنهم من أجاب الرســول ، ومنهم مَنْ تركه ، فالله هو الملِكُ ، والدار الإســلام ، والبيت الجنة ، وأنت يا محمد رسول ، من أجابك دخل الإسلام ، ومن دخل الإسلام دخل الجنة ، ومن دخل الجنة أكل ما فيها» رواه البخاري والترمذي[39].

2 . تبليغ أوامرِ الله ونواهيه للبشر:

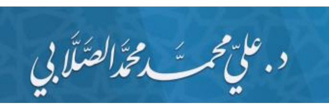
فالأوامرُ الإلهية لابدَّ لها من مُبلّغٍ ، ولابدّ أن يكونَ هذا المبلّغُ من البشر ، ليمكن الأخذُ عنه ، ولهذا فقد اختار الله عزّ وجلّ الرسل من البشر ، وقد بلّغ الرسلُ عليهم السلام رسالةَ اللهِ إلى خلقه على الوجه الذي أمر به دون زيادة أو نقصـان ، أو تغيير أو كتمان ، يقول تبارك وتعالى: ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللَّهِ وَيَخْشَـوْنَهُ وَلاَ يَخْشَـوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا *﴾ [الاحزاب :39][40].

وقد جعل الله تعالى علامة الرسول تبليغ الرسالة وخاطب سيد الأنبياء بقوله عز من قائل: ﴿ يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَـــالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِـــمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ *﴾ [المائدة :67].

فالرسل سفراء الله إلى عباده ، وحملة وحيه ، ومهمتهم هي إبلاغ هذه الأمانة التي حملوها إلى عباد الله ، والبلاغ يكون بتلاوة النصـــوص التي أوحاها الله من غير نقصـــان ولا زيادة ، قال تعالى: ﴿ اتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [العنكبوت :45].

---

[38] عقيدة التوحيد ص (228).
[39] الرسل والرسالات ص (45).
[40] صحيح الجامع (319/2).





وقال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾ [البقرة :151].

ومن البلاغ أن يوضّح الرسولُ الوحيَ الذي أنزله الله لعباده ، لأنه أقدر من غيره على التعرّف على معانيه ومراميه ، وأعرفُ من غيره بمراد الله من وحيه ، وفي ذلك يقول الله لرسوله (ﷺ): ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ *﴾ [النحل :44].

والبيانُ من الرسول للوحي الإلهي قد يكون بالقول ، فقد بيّن الرسول (ﷺ) أموراً كثيرة استشكلها أصحابُه ، كما بيّن المرادَ من الظلم في قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ *﴾ [الانعام:82]. بين الرسول (ﷺ) أنَّ المراد به الشرك ، لا ظلمَ النفس بالذنوب ، كما بيّن الرسول (ﷺ) الآيات المجملة في الصلاة والزكاة والحج وغير ذلك بقوله.

وكما يكون البيانُ بالقول ، يكون بالفعل ، فقد كانت أفعالُ الرسول (ﷺ) في الصلاةِ والصدقةِ والحجِّ وغير ذلك بياناً لكثير من النصوص القرآنية ، وعندما يتولّى الناسُ ويعرضون عن دعوة الرسل ، فإنَّ الرسلَ لا يملكون غير البلاغ[41]، ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ﴾ [آل عمران: 20].

فالغايةُ من إرسالِ الأنبياء والمرسلين هو القيامُ بالتبليغ الديني ، فلو لم يأتوا لما عرفنا المسائل المتعلّقة بالعبادة ، ولما وصلتنا الأوامرُ والنواهي ، ولما عرفنا واجباتنا وما فرض علينا[42].

إنّ رسولنا (ﷺ) تحمّل عبئاً كبيراً مثل عبء النبوة ثلاثة وعشرين عاماً ، وقام بإيفاءِ حقّ وظيفته بنجاحٍ منقطعٍ النظير ، لم يتيسر لأي صاحب دعوةٍ اخر ، وبمثل هذه الروح ، وبهذه المشاعر الممتلئة بحب الله كان يتقدّم ويقترب من الهدف المنشود ، ومن النهاية المباركة.

وحج حجةَ الوداع ، وفي هذا الحجِّ ركب رسول الله (ﷺ) ناقته ، وبلّغ كل ما يجب تبليغه مرة أخرى ، فمن قضايا القتل والفدية إلى حقوق المرأة ، إلى قضايا الربا ، إلى العلاقات بين الأقوام والقبائل ، إلى سواها من الأمور والمواضيع ، بل كلُّ ذلك مرةً أخرى ، وكان يتوجّه كلّ مرة إلى الجماعة المؤمنة قائلاً: «ألا هل بلغت؟» فكانت ترد عليه: نشهدُ أنك قد بلّغتَ وأدّيتَ ونصحتَ ، فكان يشيرُ بأصبعه إلى السماء ، وينكتُها على الناس قائلاً: «اللهم أشهد ، اللهم أشهد» ثلاث مرات[43].

---

[41] عقيدة التوحيد ص (229).

[42] الرسل والرسالات ص (44).

[43] النور الخالد محمد مفخرة الإنسانية ، محمد كولن ص (57).



لـقـد أدّى مهمتـه بحق ، وقـام بالتبليغ على أفضل وجه ، لذا فقد كان مستريحَ الضمير ، مرتـاحَ الـنفس ، مطمئنَ القلب ، وكان يتهيّأ لملاقاة ربِّه بعد أن استطاع أن يبلّغَ رسالة الله ، وحقق هدفه الذي من أجله أرسله خالقه[44].

3 . هداية الناس إلى طريق الخير وإرشادهم إلى الصراط المستقيم:

فمن وظائف الرسل:

أ ــــ هداية البشـرية إلى معرفة الخالق وتوحيده: إنّ الفطرة البشـرية بذاتها تعرفُ وجودَ الخالق ، وتتجه إليه بالعبادة ، ولكنّها كثيراً ما تضـلّ ، فتتصـور الخالق على غير حقيقته ، وتشـرك معه الهةً أخرى ، ومن ثَمَّ يرسـل الله الرسـلَ ليعرّفوا البشـر بحقيقة خالقهم ، وينفوا من عقولهم ونفوسـهم التصـوّرات الباطلة عن الله سبحانه وتعالى ، وما يترتّب عليها من الخرافات في الفكر والسـلوك ، وليعالجُوا بصـفة خاصـة قضـيةَ الشـرك ، وهي أشـدّ ما يتعرّض له البشـر من انحرافٍ في تصوّرهم للخالق وسلوكهم.

يقول الرسل جميعاً لأقوامهم: ﴿ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [:59 و65 و73 و85].

فالله سبحانه وتعالى واحدٌ أحدٌ: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ *اللَّهُ الصَمَدُ *لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ *وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ *﴾.

ومن ثَمَّ تنتفي كلُّ نبوة لله ، أو قرابة لأحدٍ من البشــــر أو الجنّ أو الملائكة مما تعجُّ به خرافاتُ الجاهلية ، ما بادَ منها وما لا يزالُ باقياً حتى اليوم ، كذلك ليس الله متمثّلاً في صـنم أو وثن أو في الشـمس أو القمر أو النجوم أو غيرها من الكائنات ، فكلُّها مخلوق ، والله هو الخالقُ ﴿ لاَ تَسْـجُدُوا لِلشَّـمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْـجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾[فصلت: 37].

وكذلك فإنّ الله لا يشركُ في حكمه أحداً، ولا يوزّع اختصاصاته سبحانه على أحدٍ من خلقه ، ولا يُنْتَزَعُ منه قهراً عنه ، قال تعالى: ﴿ لَهُ غَيْبُ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِـرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ يُشْـرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا *﴾ [الكهف :26] ، وقال تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لاَ يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّــــمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ *﴾ [سبأ :22] ، وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ *﴾ [الانبياء :29].

---

[44] البخاري (132) مسلم (147).



كما يقوم الرسل بتعريف البشر بإلههم بصفاته كلّها ، وأسمائه الحسنى ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الاعراف : 180]. وقال تعالى: ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَانُ الرَّحِيمُ *هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ *هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِىءُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *﴾ [الحشر :22 ـ 24].

فإذا عرفَ البشرُ ربَّهم على هذه الصورة ، وانتفى كلُّ وهم باطل عنه في أذهانهم وفي مشاعرهم ، بقيت القضيةُ الثانيةُ التي يضلّ البشر بشأنها في جاهليتهم ، وهي الطريقة الصحيحة لعبادة الله.

ب ـ العبادة الصحيحة: إنّ العبادةَ ليست فقط في الاعتقاد بأنّ الله واحدٌ لا شريكَ له ، ولا في تقديم شعائر التعبد من صلاة ونسك ودعاء الله وحده دون شريك ، بل هناك أمرٌ اخرٌ ، قال تعالى: ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ *﴾ [الاعراف :3].

إنّه لابدّ من اتباع ما أنزل الله ، وإلا فقد بطلت العبادة ، ولم يصبح المعبود إلهاً واحداً ، وإنّما إلهين اثنين ، واحد تُقدَّم له شعائر التعبد ، وواحد يَشْرَعُ وتُطاع تشريعاته من دون الله ، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لاَ تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [النحل :51].

تلك هي المهمةُ الكبرى للرسل جميعاً صلوات الله عليهم وسلامه ، أن يهدوا البشرية إلى الإله الواحد ، ويدلّوهم على الطريقة الصحيحة لعبادته ، وبذلك تقوم حياتُهم على قاعدتها الصحيحة: إفرادُ الله سبحانه وتعالى بالإلوهية والربوبية ، وتوحيد العبادة له في الاعتقاد وشعائر التعبد ، واتباع ما أنزل الله من التشريع ، أي الحكم بما أنزل[45].

4 ـ تقديم القدوة الحسنة:

ومن الأسباب التي يمكن ذكرها لإرسال الله تعالى أنبياءه ورسله ، هو أنْ يكونوا أسوةً حسنة وقدوة متبعة لأممهم ، فالله تعالى يذكر في قرانه الكريم: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الانعام :90].

هذه الآية موجهةٌ للرسول (ﷺ) توصيه بالاقتداء بالأنبياء الذين سبقوه ، بعد أن ذكر أسماءَهم واحداً تلوَ الاخر ، ثم إنّ القرآن الكريم يخاطِبنا قائلاً: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: 21].

45 النور الخالد ص (61).





فالأنبياءُ أسوةٌ حسنة لنا ، وهم أئمتنا ، فكما نتّبع الإمامَ في الصلاة ، نتبع سلوك الأنبياء في جميع تفاصيل الحياة ، وتقتدي بهم ، ذلك لأنّ الحياة الحقيقية بالنسبة إلينا يمثّلها نبينا والأنبياء الاخرون صلوات الله وسلامه عليهم والصحابة الذين عاشوا عهد رسول الله (ﷺ) اقتدوا به[46].

5 . تأمين التوازن بين الدنيا والاخرة:

أتى الأنبياءُ والرسلُ لتأمين التوازن بين الدنيا والاخرة ، فبمقياس التوازن الذي جاؤوا به يستطيعُ ابنُ ادم أن يجدَ طريقه المستقيم ، ومنهاجه الصحيح ، ويتخلّص من الإفراط والتفريط ، فلا يجب ترك الدنيا ، والاعتكاف في الأديرة والصوامع كالرهبان ، ولا يجبُ الانغماسُ في الدّنيا ، والانقلابُ إلى عبدٍ لها ، وأسير في يدها ، بل الأفضلُ العثور على الطريق الوسط ، ولا يمكن ذلك إلا بواسطة الوحي ، فالعقلُ والوجدان لا يستطيعان إنشاءَ مثل هذا التوازن ، والعلم الصرف

أبعد منهما عن الوصول إلى هذا الهدف ، وتحقيق هذه الغاية ، إذ لا يستطيعُ رفعَ الإنسان إلى هذا المستوى ، والقرآن الكريم يشرحُ هذا التوازنَ فيقول تعالى: ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ *﴾ [القصص :77].

فإذا وضعتَ في إحدى كفتي هذا الميزان الإلهي الحقائقَ التي تنطق بها الآية الكريمة عليك أن تضع التحذيرَ الذي تتضمنه الآية الكريمة ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ * ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ *﴾ [التكاثر :8].

وهكذا يتمّ حفظ التوازن بهذه المقاييس والموازين ، ومع أنّ الدنيا أقبلت على الصحابة ، فإنهم عاشوا حياة متوازنة ، ذلك لأن قدوتهم وأسوتهم ومرشدهم عاش كذلك[47].

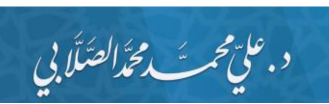
6 . تعريف الناس بالقيم الحقيقية التي تستحقُّ الاعتبارَ ، وتستحقُّ أن يحرصَ الناسُ عليها ، ويَسْعَوا إلى تحصيلها:

فالناسُ بطبيعتهم منجذبون دائماً إلى متاعِ الأرض ، قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [آل عمران: 14].

---

46 ركائز الإيمان ص (248).

47 النور الخالد ص (62).



وهم يحتاجون دائماً إلى مَنْ يرفعهم من ثقلة الأرض هذه ، ويبصّـــرهم بالقيم العليا التي ينبغي أن يتّجهوا إليها من صــدقٍ وإخلاصٍ وأمانةٍ وتضــحيةٍ وكرمٍ وشــجاعةٍ وإيثارٍ وعدلٍ ، ممّا يليقُ بالإنســان الذي كرّمه الله وفضّــله وجعله خليفة في الأرض ، وحمّله الأمانة الكبرى.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة :30].

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّـــلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً *﴾ [الاسراء :70].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْـــنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّـــمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا﴾ ﴿ وَأَشْـــفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ﴾[الأحزاب: 72].

فالرسلُ والأنبياء يقرّون ـــ بصورة واقعية مشهودة ـــ أنّ القيمة الحقيقية العليا هي الإيمان بالله ، والدعوة إلى الله ، والجهاد في ســبيل الله ، وأنّ ذلك أفضــلُ وأعلى وأغلى من متاع الأرض كله ، ومن الذهب والســلطان ، عندئذٍ تتغير القيم والمعايير في حياة الناس ، فأمّا الأتباع الذين امنوا ، فإنّهم يرون رسـولهم الذي اقتدوا به ، وامنوا على يديه ، يصـبر على الأذى في ســبيل عقيدته ، ويصـبر عليها ، ولا يتخلّى عنها تحت أي ضـغط من إغراء أو تهديد ، فيقتدونَ به ، ويصبرون معه على الأذى والاضطهاد والتشريد والتعذيب والحرمان ، ويستعلون بالعقيدة على متاع الأرض كله ، كما استعلى سحرةُ فرعون بعد إيمانهم.

قال تعالى: ﴿ فَأُلْقِيَ السَّــحَرَةُ سُــجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَــى *قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّـحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَـدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى *قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِـي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا *إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى *﴾ [طه :70 ـ 73].

وأمّا بقية الناس فإنّهم ـ تدريجياً ـ يستيقظون من غفلتهم ، إذ يرون قوماً من الناس يهدّدون في أمنهم وراحتهم ، وفي كلّ المتاع الذي يحرصـــون هم عليه ، ويرون أنه غاية الحياة كلّها ، وأغلى ما فيها ، ومع ذلك لا يتخلّون عن إيمانهم وعن عقيدتهم ،

فيتعلّمون أنّ هناك في الحياة ما يُحْرَصُ عليه أكثر المتاع ، وما يضحي من أجله بالمتاع ، ذلك هو رضوان الله وهو متاع الاخرة ، قـال تعـالى: ﴿ وَمَـا هَـذِهِ الْحَيَـاةُ الـدُّنْيَـا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الـدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَـانُوا يَعْلَمُونَ *﴾ [العنكبوت :64] وقـال تعـالى: ﴿ كُـلُّ نَفْسٍ ذَائِقَـةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَـا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَـامَـةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّـارِ



وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ *﴾ [آل عمران: 185] وعندئذٍ يعدّلون معاييرَ حياتهم ، ليرتفعوا كما ارتفعتْ تلك الفئةُ المؤمنةُ ، ويدخلوا في الإيمان.

وأمّا الذين أصـرّوا على الباطل ، واسـتحبّوا الحياة الدنيا على الاخرة ، ورفضـوا الهُدى الرباني ، فأولئك مالهم الدمار والبوار ﴿ نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ *وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ *﴾ [ابراهيم :28 . 30]. وهكذا تتقرّر القيم العليا . في ذروتها . من خلال الصراع الذي يخوضه الرسل وأتباعهم بين الحق والباطل ، ويتميّز النفع الحقيقي من الزائف ، قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْـرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ *﴾ [الرعد :17] وقال تعالى: ﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ *﴾ [البقرة :251]. وقال تعالى: ﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ *﴾ [الحج :40][48].

7 . التعريف والتعليم والتزكية:

من وظائفِ الأنبياءِ والمرسلين تعريفُ الناس بالمنهج الحقّ ، الذي تستقيم به حياتهم في الدنيا ، وينالون به رضوان الله في الاخرة ، وذلك بتبليغ ما أوحى الله به إليهم وشـرحه وبيانه ، وتعريف الناس به بطريقة تطبيقية ، وتدريبهم على ذلك ، كما يفعل المعلّم مع تلاميذه ، حتى يطمئنوا أنَّ أتباعهم قد وعوا ما أنزل الله وعياً صـحيحاً ، وطبقوه التطبيق الصحيح.

ولا تقتصـر مهمةُ الرسـل على التعريف والتعليم ، على ما لهذا الأمر من أهمية بالغة في حياة الناس ، إنما تمتدّ إلى التربية والتزكية ، فليس دينُ الله معلوماتٍ تلقى ثم تحفظ ، إنما هو سـلوكٌ علمي بمقتضـى التعليم الرباني[49]، والوحي الإلهي الذي أخرجَ الله به من شـاء من الناس من الظلمات إلى النور ، قال تعالى: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة :257].

وقد أرسل الله رسلَه بهديه ، ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور ، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [ابراهيم :5] وقال تعالى:

---

48 النور الخالد ص (64).

49 ركائز الإيمان ص (254).



﴿ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ *﴾ [الجمعة :2].

8 ـ التذكير بفقه القدوم على الله والذي مِنْ مفرداته التذكير بالنشأة والمصير ، وتعريف الناس بما بعد الموت من شدائد وأهوال ، وإلى أين المصير:

قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ *فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ *﴾ [المؤمنون :115 ـ 116].

ويعرّفون الناسَ بحقيقةِ الموت ، وأهمية تذكره في حياة الإنسان ، للابتعاد عن المعاصي ، وتليين القلب القاسي ، وتهوين المصائب ، فمن أكثر من ذكر الموت قلّ فرحه ، وقلّ حسده ، واستعدّ للرحيل.

يعلّمون الناسَ أنّ حياة الإنسان لا تنتهي بانتهاء الحياة الدنيا ، وإنّما تنتهي مرحلة فحسب ، وتبدأ مراحلُ أخرى ، تنتهي بالبعث والنشور والامتحان الذي يُكْرَمُ المرءُ فيه أو يُهان ، فيصل إلى النعيم الخالد ، أو العذاب المقيم ، فالحياة التي يحياها الناسُ على الأرض هي أقصر مراحلها؟ سنوات معدودة هي سنوات العمر المحدود ، وبعد ذلك من الاماد ما لا يحصيه إلا الله ، ثم بعد ذلك الخلود.

ألا إنه هو الخسران المبين ، حين ينحصر تفكيرُ الناس في الحياة الدنيا ، ولو أصلحوا كلَّ أمور الحياة الدنيا ، واستمتعوا فيها بكل ما يشتهون ، قال تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ *ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ *مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ *﴾ [الشعراء :205 ـ 207].

فكيف وهم لا يصلحون كلَّ أمور الأرض؟! وكيف ونعيمُ الأرض دائماً مشوبٌ ، وأقل عيوبه القلقُ الدائمُ من تقلّب الأحوال ، وهي دائماً تتقلب ، من الموت ، وهو لابدّ أن يجيء.

إنها الخسارة المضاعفة ، في الحياة الدنيا وفي الحياة الاخرة ، قال تعالى: ﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ *﴾ [العنكبوت :64].

لذلك فكلُّ علم الأرض لا ينفعُ إذا انقطع بالإنسان عن الله واليوم الاخر ، إنّما العلمُ النافعُ هو الذي ينفعُ الناسَ في دنياهم واخرتهم معاً ، فيحقق لهم مصالحهم الحقيقية في الدنيا ، ويصل بهم إلى دار الأمان في الاخرة ، قال تعالى: ﴿ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ *﴾ [إبراهيم: 23] وقال تعالى: ﴿ وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ * لاَ يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ *﴾ [الأنبياء: 102 ـ 103].

وفقه القدوم على الله ـــ هو المعرفةُ اليقينية بالله واليوم الاخر ـــ واتباع ما أنزل الله في الحياة الدنيا ، وهذا هو الذي يضـمنُ للناس حاضـرَهم ومستقبلهم ، فأمّا حاضِـرُهم فيصـلح ويستقيم باتباع المنهج الرباني ، وأمّا مستقبلهم فيصـلحُ بدخول الجنة التي وعدَ اللهُ بها عباده المتقين ، الذين امنوا به في الحياة الدنيا ، واســـتقاموا على أوامره ، وانتهوا عن نواهيه، وعندئذٍ يكون العلم الأرضي كله ـ من طب ، وهندسة ، وعلوم ، ورياضيات ، وكيمياء ، وفيزياء...إلخ ـ محققاً الفائدة ، لأنه يعينُ الناسَ على تحقيق المنهج الرباني ، ولا يفتنهم عن الاخرة ، وإلا فإنه ـ هو ذاته ـ يصبحُ علماً ضاراً إذا استُخدِم في تزيين الحياة الدنيا ، يفتن الناس عن عبادة ربهم الحق ، وينسيهم ثواب الله وعقابه ، ويغرقهم في ضـلال الشهوات.

وهذا العلمُ النافع ينفردُ به الأنبياء والرســل ، لأنهم يتلقّونه تلقياً مباشــراً من الله ســبحانه وتعالى عن طريق الوحي ، ويؤمنون به إلى درجة اليقين ، ثم يدعون الناس إلى الإيمان به لتصلحَ دنياهم واخرتهم[50].

وبالعلم النافع وحدَه صلحتْ أحوالُ الناسِ خلالَ التاريخ ، واستخدم العلم الأرضي في ظله في نفع الناس وفي الخير، وبغير هذا العلم ـ الذي تفرّدَ به الأنبياء والرسل ، ودعا به الدعاةُ المؤمنون من بعدهم ـ ظل العلم الأرضي ينفعُ ويضرُّ ، ويزدادُ ضرره على نفعه على مرّ الأجيال[51]، عندما ابتعد عن هداية السماء ووحي الهادي إلى الصراط المستقيم.

9 . قيادة الأمة وسياستها الدينية والدنيوية:

الرسـولُ في قومه هو قائدُهم وزعيمُهم ورئيسُـهم وحاكمُهم وقاضـيهم ومديرُ سـياسـتهم الدينية والدنيوية ، ولذلك أمرَ اللهُ أتباع كلّ رسولٍ بطاعة رسولهم ، وجعل طاعتهم للرسول جُزءاً من طاعته سبحانه ، فقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء :64] وقال سبحانه: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَـــيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُـــولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَومِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَـــنُ تَأْوِيلاً*﴾ [النساء :59].

وأما كون الرسـول حاكماً وقاضـياً في أمته فتشـهدُ له نصـوصٌ كثيرة من القرآن منها قوله تعالى: ﴿ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [المائدة :49][52].
وقاله تعالى: ﴿ يَادَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ [ص: 26].

---

[50] المصدر نفسه.

[51] ركائز الإيمان ص (364) الإيمان باليوم الآخر للمؤلف.

[52] ركائز الإيمان ص (365).





وقاله تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور :51].

وقاله تعالى: ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: 80].
وقاله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: 31].

10 . الشهادة على الأمة وإقامة الحجة لئلا يبقى للناس حجةٌ عند الله تعالى:

كما قال سبحانه: ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: 165].

ووظيفة الشهادةِ هذه يقوم بها أيضاً أتباعُ الرسول الذين بلّغوا رسالته للناس في عصره ، وللأجيال من ورائه ، وفي ذلك يقول الله تعالى في حق أمة محمد (ﷺ): ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة :143][53].

ولو لم يرسل الله الرسلَ إلى الناس لجاءوا يومَ القيامة يخاصمون الله جلّ وعلا ، ويقولون: كيف تعذّبنا وتدخلنا النار ، وأنت لم ترسلْ إلينا مَنْ يبلّغنا مرادك منا ، كما قال تعالى: ﴿ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى *﴾ [طه: 134].

أي لو أهلكهم الله بعذابٍ جزاءَ كفرهم قبل أن يرسلَ إليهم رسولاً لقالوا: هلاّ أرسلتَ إلينا رسولاً كي نعرفَ مرادك ، ونتبعَ آياتك ، ونسيرَ على النهج الذي تريد؟ وفي يوم القيامة عندما يجمعُ الله الأولين والاخرين يأتي الله لكلّ أمة برسولها ، ليشهدَ عليها بأنّه بلغها رسالة ربه ، وأقام عليها الحجة. ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيدًا *يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا *﴾ [النساء: 41 ـ 42].

وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلاَءِ﴾ [النحل: 89].

ولذلك فإنّ الذين يرفضون اتّباع الرسل ، ويُعْرِضون عن هديهم لا يملكون إلاّ الاعترافَ بظلمهم إذا وقع بهم العذاب في الدنيا ، قال تعالى: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ *فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ *لاَ تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ *قَالُوا ياوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ *فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ *﴾ [الانبياء: 11 ـ 15].

[53] عقيدة التوحيد ص (230).



ويوم القيامة عندما يساقون إلى المصير الرهيب ، وقبل أن يُلْقَوْا في الجحيم يسألون عن ذنوبهم فيعترفون ، قال تعالى: ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ *قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ كَبِيرٍ *وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ *فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لأَصْحَابِ السَّعِيرِ *﴾ [الملك: 8 ـ 11].

وعندما يضجّون في النار بعد أن يُحيطَ بهم العذابُ من كلِّ جانب ، وينادَوْنَ ويصرخون يقول لهم خزنة النار ﴿ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ *﴾ [غافر :50][54].

11 ـ التبشير والإنذار:

دعوةُ الرسل إلى الله تقترنُ دائماً بالتبشير والإنذار ، لأنّ ارتباطَ الدعوة إلى الله
بالتبشير والإنذار وثيقٌ جداً ، فقد قَصَرَ القرآن مهمة الرسل عليهما في بعضِ آياته ، قال تعالى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [الكهف :56].

وتبشيرُ الرسل وإنذارهم دنيوي وأخروي ، فهم في الدنيا يبشّرون الطائعين بالحياة الطيبة، قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل :97] وقال تعالى: ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى *﴾ [طه :123]. ويَعِدُونهم بالعزّ والتمكين والأمن ، وقال تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: 55].

ويخوّفون العصاة بالشقاء الدنيوي ، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: 124].

ويحذّرونهم من العذاب والهلاكَ الدنيوي ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ *﴾ [فصلت: 13].
وفي الاخرةِ يبشرون الطائعين بالجنة ونعيمها ، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *﴾ [النساء: 13].
ويخوّفون المجرمين والعصاة من عذاب الله في الاخرة ، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ *﴾ [النساء : 14].ومن يدرس دعواتِ الرسلِ يجد أنّ مِن وظائفها التبشيرَ والإنذار[55].

[54] عقيدة التوحيد ص(230).
[55] الرسل والرسالات ص (53).



ثامناً ـ من أهمّ صفات الأنبياء والمرسلين:

ذكر العلماء صفات في الأنبياء منها:

1 ـ الذكورة:

فالنبوّة خاصّـةٌ بالرجال ، ولا تكونُ للنســاء أبداً ، والدليلُ على ذلك هو واقعُ حالِ الرســل ، فالله سـبحانه لم يختَرْ رسلَه الذين بعثهم إلى الناس على مرّ العصور إلاّ من الذكور ، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ *﴾ [الانبياء : 7] وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِــيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلاَ تَعْقِلُونَ *﴾ [يوسف: 109] ، وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ *﴾ [النحل : 43].

قال الطبري: يقول تعالى ذكره يا محمد لا نساء ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً﴾ ملائكة[56].

والحكمةُ من تخصيص الرجال بالنبوّة دون النسـاء ، أنّ النبوة عِبءٌ ثقيل ، وتكليف شـاق ، لا تتحمّله طبيعة المرأة الضعيفة بتركيبها البيولوجي والنفسي ، الذي أعدت من خلاله لأداء وظائف الأمومة والتربية ، ولهذا كان جميعُ الأنبياء من الذكور ، لأنّ مهام الرســالة مضـنيةٌ ، تحتاجُ إلى مصــابرة ومجاهدة ، وتتطلّب الكفاحَ والسـفر ، وخوض المعارك ، وتحمّل المشــاق ، والرجلُ أقدر على ذلك من المرأة ، ولقد عانى الرسـلُ جميعاً محناً قاسـيةً من قِبلِ أقوامهم حين كانوا يدعونهم ، وابتلوا ابتلاءاً شـديداً في سبيل تبليغ دعوة الله ، ولهذا قال تعالى مخاطباً سيد المرسلين: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الاحقاف :35].

2 ـ الحرية:

وكما اشــــترط في الرســـول أن يكون ذكراً ، كذلك لابدّ أن يكون حراً ، لأنّ العبودية مطعنٌ يطعن به الكفّار على الرسول ، ويعيّرونه بها ، هذا بالإضافة إلى أنها قيدٌ لا يتّفق مع المهمة التي أرسل الرسول من أجلها[57].

3 ـ البشرية:

لقد أكّد القرآن الكريم على صفات الرسل البشـرية لحماية جانب التوحيد ، فالخالق خالق ، والمخلوق مخلوق ، وإذا كانت تلك الصـفات تدفع بالنفس الضـعيفة أن تؤلّه هؤلاءِ الصـفوة ، فإنّ هذه الصـفات تعين على الثبات في الموقف الصحيح ، وتقي من الانزلاق ، وهي مع تلك تكمّل الصورة الحقيقية لهؤلاء الصفوة ، ومن الأمثلة على ذلك:

---

56 الرسل والرسالات ص (48) .

57 تفسير الطبري (380/13).

أ ـــ التأكيد على أن هؤلاء الصفوة هم بشرٌ من خلق الله: قال تعالى: ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ [ابراهيم: 11]. وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَـرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا *﴾ [الكهف: 110]. وقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: 79].

ب ـــ التأكيد على أنهم عباد الله: فعن نوح عليه السلام قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ *﴾ [القمر : 9].

وعن داود عليه السلام قال تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ *﴾ [ص: 30].

وعن أيوب عليه السلام قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ [ص: 41].

وعن عيسى عليه السلام قال تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا *﴾ [مريم :30].

عن محمد (ﷺ) قال تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الاسراء :1] وقال تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: 1][58].

ج ـــ ليس فيهم شيءٌ من خصائص الألوهية: إنهم لا يملكون من أمر الله شيئاً ، ولا ينفعون ولا يضرون إلا بإذن الله ، ومقتضى كونهم بشراً أنهم ليسوا بالهة ، وليس فيهم من صفات الألوهية شيءٌ ، ولذلك فإنّ الرسل يتبرؤون من الحول والطول ، ويعتصمون بالله الواحد الأحد ، ولا يدّعون شيئاً من صفات الله تعالى ، قال تعالى مبيناً براءة عيسى عليه السلام مما نسب إليه:

﴿ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ *﴾ [المائدة: 116 ـ 117].

والرســول لا يتصــرّف في الكون ، ولا يملك النفع أو الضــر ، ولا يؤثر في إرادة الله ، ولا يعلم من الغيب إلا القَدْرُ الذي أراده الله له ، قال تعالى: ﴿ قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ *﴾ [الاعراف: 188][59]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لاَ

[58] عقيدة التوحيد ص (239).
[59] المحكم في العقيدة ص (139).





تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص : 56] وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ رَشَدًا *﴾ [الجن : 21] وقال تعالى: ﴿ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الانعام : 58].

د ـــ ذكر عوارضهم البشرية ، كالمرض والجوع والتعب والأكل والموت والغضب.. إلخ: فهم يتّصفون بالصفات التي لا تنفكّ عنها البشرية ، فمن ذلك كونهم جسداً يحتاجون لما يحتاجُ إليه البشر من الطعام والشراب ، ويُحْدِثون كما يحدث البشر ، لأنّ ذلك من لوازم الطعام والشراب.

قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ *وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ *﴾ [الانبياء: 7 ـ 8].
ومن ذلك أنّهم وُلدوا كما وُلِدَ البشر ، لهم اباء وأمهات ، وأعمام وعمات ، وأخوال وخالات ، يتزوّجون ، ويولد لهم ، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد : 38].

ويصيبُهم ما يصيبُ البشر من أعراض ، فهم ينامون ، ويقومون ، ويصحّون ، ويمرضون ، ويأتي عليهم ما يأتي على البشر ، وهو الموت.
قال تعالى في ذكر إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام: ﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ *وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ *وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ *﴾ [الشعراء: 79 ـ 81][60].

وقال تعالى عن لوط عليه السلام: ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ*﴾ [هود: 77].

وقال تعالى عن يعقوب عليه السلام: ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ*﴾ [يوسف: 13].

وقال الله تعالى لعبده ورسوله محمد (ﷺ): ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ *﴾ [الزمر: 30].

وقال تعالى مبيناً أنّ هذه سنته في الرسل كلهم: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ﴾ ﴿ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾[آل عمران: 144].

وقد جاء في وصف الرسول (ﷺ): كان بشراً من البشر يفلّي ثوبه ، ويحلبُ شاته ، ويخدمُ نفسَه[61].

---

[60] العقيدة الإسلامية ، د. أحمد جلي ص (226).

[61] الرسل والرسالات ص (74).



وقد صحّ أنَّ الرسول (ﷺ) قال لأم سُلَيْمٍ: «يا أمَّ سُليم ، أما تعلمينَ أنّي اشترطتُ على ربِّي فقلت: إنّما أنا بشرٌ ، أرضى كما يرضى البشرُ ، وأغضبُ كما يغضبُ البشرُ ، فأيّما أحدٍ دعوتُ عليه من أمّتي بدعوةٍ ليسَ لها بأهلٍ ، أن يجعلها طهوراً وزكاةً وقُربةً يقرّبه بها منه يوم القيامة»[62].

هـ- تعرض الأنبياء للبلاء: الأنبياءُ لا يصابون بالبلاء فحسب ، بل هم أشدُّ الناس بلاءً ، فعن المصعب بن سعد عن أبيه قال: قلت لرسول الله (ﷺ): أي الناس أشدُّ بلاءً؟ قال: «الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجلُ على حَسَبِ دينه ، فإنْ كانَ دينُه صلباً اشتدّ بلاؤه ، وإن كان في دينه رقةٌ ابتلِيَ على حسب دينه ، فما يبرحُ البلاءُ بالعبدِ حتى يتركَه يمشي على الأرضِ ما عليه خطيئةٌ»[63].

ودخل أبو سعيد الخدري على الرسول (ﷺ) وهو يوعَكُ ، فوضعَ يده على الرسول (ﷺ) ، فوجدَ حرّاً بين يده فوق اللحاف ، فقال: يا رسول الله ، ما أشدّها عليك؟! قال: «إنّا كذلك ، يضعّفُ علينا البلاءُ ويضعّفُ لنا الأجرُ» قلت، يا رسول الله ، أي الناسِ أشدُّ بلاءً؟ قال: «الأنبياءُ ، ثم الصالحون ، إنْ كانَ أحدُهم ليُبتلى بالفقر ، حتى ما يجدُ إلا العباءةَ التي يحويها ، وإن كان أحدُهم ليفرحُ بالبلاءِ كما يفرحُ أحدُكم بالرخاء»[64].

فالأنبياءُ قد يسجنون كما سُجنَ يوسف ، قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف : 33] ﴿ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ *﴾ [يوسف: 42] كما ذكر الله تعالى.

وقد يصيبهم قومُهم بالأذى ، وقد يرمونهم ، كما أصابوا الرسول (ﷺ) في معركة أُحدٍ فأدموه ، وكسروا رباعيته ، وقد يخرجونهم من ديارهم ، كما هاجر إبرهيم عليه السلام من العراق إلى الشام ، وكما هاجر نبينا محمد (ﷺ) من مكة إلى المدينة ، وقد يقتلونهم ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ *﴾ [البقرة: 87].

وقد يصابون بالأمراض ، كما ابتلى اللهُ نبيَّه أيوبَ فصبر ، وقد صحّ عن الرسول (ﷺ) أنه قال: «إنَّ نبيَّ الله أيوب لبثَ في بلائه ثمانيَ عشرةَ سنةً ، فرفضه القريبُ والبعيدُ إلا رجلينِ من إخوانِه»[65].

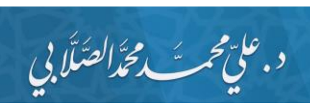
---

62 سلسلة الأحاديث الصحيحة ، الألباني رقم (671).

63 المصدر نفسه رقم (84).

64 سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (143).

65 المصدر نفسه رقم (17).



وكان من ابتلائه أنْ ذهبَ أهلُه ومالُه ، وكان ذا مالٍ وولدٍ كثير ، قال تعالى: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ *فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ*﴾ [الانبياء: 83 ـ 84].

و ـــ اشتغال الأنبياء بأعمال البشر: ومن مقتضى بشريتهم أنّهم قد يقومون بالأعمال والأشغال التي يمارسها البشر ، فمن ذلك اشتغال الرسول (ﷺ) بالتجارةِ قبل البعثةِ ، ومن ذلك رعي الأنبياءِ للغنم ، فقد روى جابرُ بنُ عبد الله رضي الله عنه قال: كُنّا مع رسول الله (ﷺ) نجني الكَباث[66]، وأنّ رسول الله (ﷺ) قال: «عليكم بالأسود منه ، فإنّه أطيبُه» قالوا: أكنت ترعى الغنم؟ قال: «وهل مِنْ نبيٍّ إلا وقد رعاها»[67].

ومن الأنبياء الذين نصّ القرآن على أنهم رعوا الغنم نبيُّ الله موسى عليه السلام ، فقد عمل في ذلك عِدّةَ سنوات ، فقد قال له العبد الصالح: ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلاَ عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ *﴾ [القصص: 27 ـ 28].

قال ابن حجر: والذي قاله الأئمة: إنّ الحكمةَ في رعاية الأنبياء للغنم ليأخذوا أنفسَهم بالتواضع ، وتعتادَ قلوبهم بالخلوة ، ويترقوا من سياستها إلى سياسة الأمم[68].

ومن الأنبياء الذين عملوا بأعمال البشر داود عليه السلام ، فقد كان حداداً يصنع الدروع ، قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ *﴾ [الانبياء : 80] ، وكان في الوقت نفسه ملكاً ، وكان يأكل مما تصنعه يداه ، ونبي الله زكريا كان يعملُ نجاراً[69].

ز ـــ لِمَ لمْ يكن الرسل ملائكة؟ الرسل جميعاً من البشر ، ومن الأمم نفسها التي بعثوا فيها ، يتحدّثون لغة قومهم ، ويعيشون بينهم ، وقد كان ذلك لحكمةٍ أرادها الله تعالى لم تتضح للمخاطبين وبالرسالات ، ومن ثَمَّ أنكروا أن يكون الرسل بشراً.

---

[66] الكباث: ثمرُ الأراك ، ويقال ذلك للناضجِ منه.

[67] المصدر نفسه رقم (144).

[68] البخاري ، فتح الباري (6/438).

[69] المصدر السابق (6/439).





قال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الانعام: 91] أوأن يتنزّل الوحيُ الإلهي على واحدٍ من البشرِ على الإطلاق. وقال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولاً *﴾ [الاسراء : 94].

لأنّ طاقات البشر وإمكاناتهم المألوفة لديهم لا تتناسبُ وتحمُّل الوحي ، بل الذي يتناسب مع ظاهرة الوحي العجيبةِ نزولُ ملَكٍ يقوم بهذه المهمة ، أو يعيّن الرسول في القيام بها. قال تعالى: ﴿ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنْزَلَ مَلاَئِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ *﴾ [المؤمنون : 24]. وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلاَ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا*﴾ [الفرقان: 7].

وقد بيّنَ القرآن أنَّ هؤلاء القوم بمطلبهم هذا قد غفلوا عن عِدّة أشياء منها:

* أنّ الملائكة لم يخلقوا لسكنى الأرض، والعيش فيها باطمئنان ، قال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولاً *قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلاَئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولاً *﴾ [الاسراء: 94 ـ 95].

* أنّ الملك لو نزل على الأرض؛ فلابدّ أن يتّخِذَ صورةَ البشرِ ، وعندئذٍ لا يستطيعون أن يتعرّفوا على حقيقته الملائكية، ولا أن يميّزوا بينه وبين سائر البشر. قال تعالى:
﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ *﴾ [الانعام: 9].

* لو كان الرسولُ من غير البشر أنفسهم لانتفت الحكمةُ من إرساله ، لأنّ الرسل أرسلوا لا للتبليغ فحسب ، بل ليكونوا قدوةً عملية لأقوامهم ، فلو كان الرسول مَلَكاً ، لما تحققت القدوة والمثال ، ولامتنع الناسُ من الالتزام بأوامر الله، ولقالوا: نحنُ بشرٌ لنا نَزَعاتٌ وشهواتٌ ، وليس في وسعنا الالتزامُ بما تلتزم به الملائكةُ ، فكيف يُطْلَبُ منا الاقتداء بهم في أعمالهم ، أفلا يرسِلُ إلينا بشراً مثلنا ، يحسّ كما نحسّ ، ويفكّر كما نفكّر ، ويشعر بضروراتنا وبحدود طاقاتنا؟ وبذلك تتجلى الحكمة من إرسال الرسل بشراً ، حتى لا يقف اختلاف الجنس حائلاً بين الناس وبين الاقتداء برسولهم فيما يفعل وما يقول ، وحتى تتمثل الأسوة للبشر في واحدٍ من جنسهم له نفس تركيبهم ونفس ضروراتهم البشرية من طعام وشراب وملبس ومسكن.. إلخ فهو يأكلُ الطعامَ ، ويمشي في الأسواقِ ، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا *﴾ [الفرقان: 20].





والله سبحانه وتعالى اصطفى الأنبياء والرسل ، ومنحهم القدرةَ على تلقي الوحي الإلهي بإمكاناتٍ خاصة ، أودعها نفوسَهم ، دون أن يخرِجَهم ذلك عن حدودِ بشريتهم[70].

4 . الصدق:

الصدقُ هو محورُ النبوةِ ، ومدارُ ارتكازها ، فكلّ ما ينطق به الأنبياءُ صدقٌ خالصٌ ، ولا يمكن أن يجافي الواقعَ أو الحقيقةَ ، وعندما يشرح القرآن الكريم فضائل الأنبياءِ يشيرُ إلى هذه الصفة عندهم[71].

لقد وصف الله تعالى أنبياءه بالصدق على سبيل التعيين أو الإجمال في غير ما اية من كتابه العزيز ، كقوله عن إدريس عليه السلام: [مريم: 41]. ﴿ إِنَّهُ كَانَ صَدِّيقًا نَبِيًّا *﴾ عن إسماعيل عليه السلام: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا *﴾ [مريم: 54]. وقوله عن موسى عليه السلام: ﴿ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لاَ أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ﴾ [الاعراف: 105]. وقوله عن يوسف عليه السلام: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ [يوسف : 46]. وقوله فيه: ﴿ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ *﴾ [يوسف :51]. وقوله في حقِّ نبينا محمد (ﷺ): ﴿ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [الاحزاب: 22]. وقوله في حقه أيضاً: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكَافِرِينَ *وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ *﴾ [الزمر: 32 . 33].

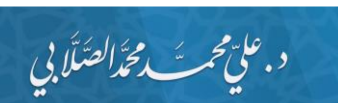
فسمى ما جاء به من عند الله من أحكام شرعه ، وأخبار رسله وخلقه ، قراناً أو سنة ، سمّاه صدقاً ، وذلك وقفٌ له بالالتزام ، إذ لا يأتي بالصدق إلا صادقٌ ، وذلك مما لا جدال فيه ، حيث كان صدقُه معلوماً من حداثةِ سنه ، وشهد له بذلك أعداؤه قبل أصدقائه ، فإنّ الأعداءَ من الكفرة والمشركين لم يكونوا يشكّون يوماً في صدقه كما قال تعالى: ﴿ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ *﴾ [الانعام: 33].

وكما كانوا يشهدون له بذلك في مواقف مختلفة ، فقد ذكر بعضها ومثل هذا الدليل الالتزامي قول الله تعالى في حقه (ﷺ): ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ *لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ *ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ *فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ *﴾ [الحاقة : 44 . 47].

حيث دلّلَ الله تعالى على صدق نبيه بدليل التمانُع ، فقد امتنع أخذه سبحانه لنبيه (ﷺ) بتلك الصفة ، لامتناع تقوّله عليه ، وامتناعُ التقوّل عليه يعني الصدق فيما يقول: فالآية إذاً تطمئِنُ النفوسَ على صدق وأحقيّة ما جاء به محمد (ﷺ) غاية الاطمئنان ، إذ دلّت على أنّ الله تعالى له بالمرصاد ، إن هو تقوّل عليه ، ـــ وحاشاه ذلك ـــ والواقع

70 ثبت في حديث صحيح رواه مسلم في صحيحه ، انظر: مشكاة المصابيح (117/3) ، الرسل والرسالات ص (7).

71 العقيدة الإسلامية ص (226).





خلافه ، فإنّ الله تعالى مازال يؤيده بالمعجزات الدالّة على صدقه ، وهي منزلةٌ منزَّلةَ أن يقول الحقّ تبارك وتعالى: صدقَ عبدي فيما يبلّغ عني ، إذ لولا صـــدقُه لما أمدّه بها ، كما يُعْلَمُ من حال الكذّابين من مدّعي النبوة ، وكما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَيَمْحُو اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ [الشورى: 24][72].

ولكن لما كان الله تعالى يؤيد نبيه المصطفى (ﷺ) بالمعجزات الباهرات ، وينصره على عدوّه المرة تلو الأخرى ، ويظهر دينه يوماً بعد يوم ، دلّ ذلك على صدقه (ﷺ) فيما يبلّغُ عن ربه جل شأنه.

وقد أكد الله تعالى ذلك بأدلة أخرى كثيرةٍ ، كقوله سبحانه: ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى *مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى *وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى *إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى *﴾ [النجم: 1 ـ 4].

فهذا قَسَـــمٌ من الله جلا وعلا ، على أنّ ما ينطق به النبيُّ (ﷺ) هو وحيٌ من الله تعالى ، لا مجال لمحمد (ﷺ) في أن يأتيَ به من عنده ، أو أن يتقوّله عنه[73]. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ *قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ *فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ *﴾ [يونس: 15 ـ 17].

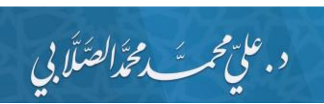
وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَـــيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَــأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [الانعام: 93].

ولقد اشتَهَرَ الرسولُ (ﷺ) منذُ الصغر بالصدقِ والأمانة حتى كان المشركون يسمّونه الصادق الأمين ، وكانت ثقتُهم به تامةً ، ومع أنه لم يكنْ قد بُعثَ بعدُ نبياً ، إلا أنه كان محطَّ ثقةِ الجميع ، إذ كان يحمل جميع صفات الأنبياء.

أجل ، فالفضلُ ما شهدت به الأعداءُ ، فها هو أبو سفيان ألدُّ أعداء الرسول (ﷺ) انذاك يشهد بصدقه ، ففي رواية لعبد الله بن عباس عن أبي ســـفيان أنه قال: إنّ هرقلَ أرســـل إليه في رَكبٍ من قريش، فأتوه وهم بإيلياء (بيت المقدس)، فدعاهم إلى مجلســـه ، وحوله عظماء الروم ، ثم دعاهم ، ودعا بترجمانه فقال: أيُّكم أقربُ نســـباً بهذا الرجل الذي يزعمُ أنّه نبيٌّ؟ فقال أبو ســفيان: فقلت: أنا أقربهم نســباً ، فقال: أدنوه مني ، وقرّبوا أصــحابه ، فاجعلوهم عند ظهره. ثم قال لترجمانه ، قل لهم: إني ســـائلٌ هذا عن هذا الرجل ، فإن كَذَبني فكذّبوه ، فواللهِ لولا الحياء من أن يأثروا عليّ كذباً لكذَبْتُ عنه.

[72] النور الخالد ص (75).

[73] النبوة والأنبياء ، لابن تيمية ص (228 ـ 230).



ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟.

قلت: هو فينا ذو نسب.

قال: فهل قال هذا القول منكم أحدٌ قط قبله؟.

قلت: لا.

قال: فهل كان من ابائه من ملك؟.

قلت: لا.

قال: فأشرافُ الناسُ يتبعونه أم ضعفاؤهم؟.

فقلت: بل ضعفاؤهم.

قال: أيزيدون أم ينقصون؟.

قلت: بل يزيدون.

قال: فهل يرتدّ أحدٌ منهم سخطةً لدينه بعد أن يدخلَ فيه؟.

قلت: لا.قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟.

قلت: لا.

قال: فهل يَغْدُرُ؟.

قلت: لا ، ونحن منه في مدّةٍ ، لا ندري ما هو فاعلٌ فيها ، قال: ولم تمكن كلمة أدخل فيه شيئاً غير هذه الكلمة.

قال: فهل قاتلتموه؟.

قلت: نعم.

قال: فكيف كان قتالكم إياه؟.

قلت: الحربُ بيننا وبينه سجال ، ينالُ منّا وننالُ منه.

قال: ماذا يأمركم؟.

قلت: اعبدوا الله وحدَه ، ولا تشركوا به شيئاً ، واتركوا ما يقول اباؤكم ، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة.

فقال للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه ، فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، فكذلك الرسلُ نبعث في نسبِ قومها.

وسألتك: هل قال أحدٌ منكم هذا القول ، فذكرتَ لا ، فقلتُ: لو كان أحدٌ قال هذا القولَ قبله لقلتُ رجلٌ يأْتَسِي بقولٍ قيل قبله.

وسألتك: هل كان من ابائه من ملك ، فذكرت أنْ لا. قلتُ: فلو كان من ابائه من ملك ، قلت: رجلٌ يطلبُ مُلك أبيه.

وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقولَ ما قال ، فذكرتَ أنْ لا ، فقد أعرفُ أنّه لم يكنْ ليذرَ الكذبَ على الناسِ ويكذبَ على الله»[74].

---

[74] أخلاق النبي في القران والسنة ، د. أحمد عبد العزيز الحداد (999/2).

والنصُّ طويلٌ ، ونقتصــر على هذا القدر ، وأهمُّ ما يلفتُ النظرَ هنا وجودُ دليلين على صــدق رســول الله (ﷺ): أوّلُهما هو هرقل إمبراطور الروم ، الذي قال ما أوردناه انفاً ، والثاني: هو جوابُ أبي سفيان ، الذي كان يعترِفُ بصدقِ رسول الله (ﷺ) ويقبله ، مع أنه لم يكن قد أسلمَ بعدُ ، ولكنّ هرقل أضاع فرصةً ذهبيةً جاءَت إليه ، إذ إنّ حبّه لملكه أضاعَ عليه الحصولَ على الملك الحقيقي الخالد ، فلم يُسْلِمْ ، ولم يدخل في أمة الإسلام السعيدة[75].

5 . التبليغ:

إنّ مهمة الرسل الأولى التي كلّفهم الله تعالى بها إلى الأمم ، ليخرجوهم من الظلمات إلى النور:هي التبليغُ الذي أوجبه الله تعالى عليهم بمقتضــى اصــطفائهم للرســالة التي حمّلهم إيّاها ، فيجبُ عليهم التبليغُ ، ويســتحيل عليهم الكتمانُ ، ويجب على المســلمين اعتقادُ ذلك فيهم ، تصــديقاً لشــهادة الله تعالى لهم بذلك ، قال تعالى: ﴿ فَهَلْ عَلَى الرُّسُـلِ إِلاَّ الْبَلاَ غُ الْمُبِينُ *﴾ [النحل: 35].

وقد قام رســل الله صــلوات الله وســلامه عليهم بواجب ذلك البلا غ أكمل قيام ، حيث بلّغوا كل صــغيرةٍ وكبيرةٍ ليلاً ونهاراً ، لا يفترون عن ذلك ، ولا يملّون ، حتى قامت الحجةُ على أقوامهم ، فمنهم من هدى الله ، ومنهم من حقّت عليه الضلالة ، وقد كانوا ينالون من جرّاء ذلك الشدة الشديدة والإيذاء البليغ ، وذلك لما هم عليه من الرحمة بأممهم ، والشفقة بهم ، لعلمهم بما سيحيق بهم من العذاب إن أعرضوا عن قبولِ ما بلّغوه عن الله تعالى جل جلاله.

فكان كلُّ واحد يبذل جهده ، ويتفانى في إقناع قومه بقبول ما أُمِرَ بتبليغه إليهم ، ويتلطّف لهم بالخطاب ، ليقبلوا ما جاءوا به من عند الله تعالى ، كما حكى الله تعالى عن نوح عليه الســـلام: ﴿ قَالَ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَـــلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُـــولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ *أُبَلِّغُكُمْ رِسَـــالاَتِ رَبِّي وَأَنْصَـــحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ *﴾ [الاعراف : 61 . 62]. وكما قال هود عليه الســلام لقومه أهل عاد: ﴿ قَالَ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي سَـفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُـولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ *أُبَلِّغُكُمْ رِسَـالاَتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِـحٌ أَمِينٌ *﴾ [الاعراف: 67 ـــ 68]. إلى غير ذلك من الآيات الدالّة على التلطّف بالبلا غ ، وكمال الرحمة بالمبلَّغين.

فكانوا غير مقتصـــرين على مجرد البلا غ الواجب عليه قط ، بل إنّهم كانوا يتفانون في النصـــيحةِ لأقوامهم لقبوله ، فيجادلونهم ويحاورونهم بالتي هي أحســن ، حتى يقبلوا ، أو ييأسوا من ذلك ، فعندئذٍ لا يَسَعُهم إلاّ أن يقولوا: ﴿ وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَ غُ الْمُبِينُ *﴾ [يس: 17] كما قال هود عليه السلام لما يئس من قوم عاد من قبول رسالة الله: ﴿ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ *﴾ [الاحقاف: 23]. وقال أيضاً: ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا

[75] البخاري (7/1).

فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ *﴾ [هود: 57] وكما قال صالح عليه السلام: ﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لاَ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ *﴾ [الاعراف: 79][76]. وكما قال شعيب عليه السلام: ﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَال ياقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ *﴾ [الاعراف: 93].

وهكذا نجد الرسل جميعاً يعلنون بكل صراحةٍ ووضوحٍ أنهم قد بلّغوا رسالة الله ، ونصحوا للأمة ، حتى خاتم الرسل محمد (ﷺ) يأمره ربُّه بتبليغ الرسالة ، فيقول مخاطباً له: ﴿ يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ *﴾ [المائدة: 67].

فكلُّ رسول مكلَّفٌ بتبليغ الدعوة والرسالة ، ولا يمكِنُ لأحدٍ من الرسل أن يزيدَ حرفاً أو ينقِصَ حرفاً ممّا نزل عليه ، لأنه يكونُ قد خالف أمر الله ، وخانَ الأمانة التي عُهدتْ إليه ، ولهذا نجدُ بعضَ السور أو الآيات الكريمة تبدأ بقوله تعالى وهو أمرٌ موجَّهٌ للنبيِّ (ﷺ) ليبلغه ﴿ قُلْ﴾ ، فيبلغها الرسول كما نزلت عليه ، دون زيادة أو نقصان ، اقرأ مثلاً قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: 108]. وقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ *لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ *﴾ [الكافرون: 1 . 2]. وقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ *﴾ [الفلق: 1]. وقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ *﴾ [الناس: 1].

وقد كان يكفي الرسول أن يبلّغَ الأوامرَ الإلهية دون تلك الكلمة التي خوطب بها ، ولكنّه أمينٌ على الوحي ، يبلِّغ رسالة ربه بالحرف الواحد دون تغيير أو تبديل ، أو زيادةٍ أو نقصان ، فلم يقل ولم يقل أو وإنّما ذكر الأمرَ الذي توجّه إليه من العلي القدير ، بنفس الصيغة ، ونفس الحروف ، وذلك دليلٌ الأمانةِ القصوى في تبليغ الدعوة والرسالة.

والغرض من (التبليغ) أن يقطعَ اللهُ الحجةَ على الناس ، ولئلا يبقى لأحدٍ عذرٌ يومَ القيامة ، فإنّ الله تبارك وتعالى أكرمُ من أن يعذّب إنساناً قبل أن تبلغه الرسالةُ ، وأرحمَ من أن يعذّبه دونَ ذنبٍ ، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً *﴾ [الاسراء: 15][77].

كان التبليغُ لدى سيد المرسلين فطرةً وسجيةً ، وكانت نفسه تضيقُ عندما لا يجدُ قلباً طاهراً يقبلُ دعوته ، مثلما نضيق نحن إن حُرمنا من الطعام والشراب ، أو عندما نحرَمُ من تنفس الهواء ، والحقيقة أنّه (ﷺ) ما كان يهتمّ بالطعام والشراب ، فقد كان يصومُ أحياناً صوماً متواصلاً ، وكان يأكل أحياناً ما يكفي لسدِّ رمقه فقط ، وإبقائه حياً ، فإنّ قلبَه المفعمَ بالام دعوته لم يدعْ لديه شهيةً للأكل ، فكما تعيشُ الملائكة بالتسبيح ، كان رسولُنا (ﷺ) يعيشُ بالدعوة ، وعندما يجدُ أمامه صدراً رحباً طاهراً يفرحُ وينشَطُ ، والقرآن الكريم يصفُ وضعَه هذا فيقول: ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ

[76] النور الخالد ص (79).
[77] أخلاق النبي (2/1006).



أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ *﴾ [الشـعراء: 3] وفي اية أخرى يقول: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَـكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا *﴾ [الكهف : 6][78].

6 . الفطنة والحكمة وقوة الحجة:

وهذه الصفات واضحة في القرآن الكريم في سير الأنبياء والمرسلين ، فقد قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ *﴾ [الانعام: 83].

وقال تعالى داود عليه السلام: ﴿ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة : 251] وقال أيضاً: ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ *﴾ [البقرة: 20].

وعن يوسف عليه السلام: ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ *﴾ [يوسف: 55].

78 النبوة والأنبياء ، محمد علي الصابوني ص (51).

ويمكن ملاحظة هذه الصفات من خلال هذه الأمثلة القرآنية والنبوية[79].

أ. إبراهيم عليه السلام:

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ *﴾ [الانبياء: 51] فسيدنا إبراهيم عليه السلام في غاية الذكاء والنباهة ، والحكمة وقوة الحجة ، وانظر إليه في موقف المحاجة لقومه المشركين نجدْ فيه آيات النبوغ والحكمة والذكاء ، قال تعالى: ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ *قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ *قَالُوا سَمِعْنَا فَتىً يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ *قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ *قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا ياإِبْرَاهِيمُ *قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ *فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ *ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاَءِ يَنْطِقُونَ *قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلاَ يَضُرُّكُمْ *أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ *﴾ [الانبياء : 58 . 67].

وحقاً إنّه لمنتهى الذكاء والنبوغ ، يتجلّى في عمل إبراهيم عليه السلام ، فلقد حطم بيده الأصنام ، ثم علق القدوم في عنق أكبر الأصنام ، ليقيمَ الحجةَ على قومه ، فحين قدّموه للمحاكمة سألوه هذا السؤال: مَن الذي حطّم الهتنا ، وأقدم على تكسير الأصنام؟ هل أنتَ فعلتَ ذلك يا إبراهيم؟.

فأجابهم إبراهيم عليه السلام: إنني لم أحطّمها ، ولكنّ الصنمَ الكبير والإلهَ العظيم هو الذي حطمها ، لأنه لم يرضَ أن تعبد معه ، والدليل على ذلك أنّه وضع القدوم في عنقه ، وإذا لم تصدّقوا كلامي ، فاسألوهم عن ذلك الأمر ، وسلوه ، وهنا كان قد بلغ إبراهيم إلى هدفه ، فأقام عليهم الحُجّة بعد أن سفّه عقولهم ، وجعلهم يضحكون من أنفسهم ، وهكذا يكون منطق الأنبياء.

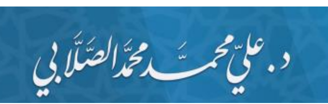
وانظر إليه في موقف اخر ، وهو يجادلُ الطاغيةَ (النمرود) الذي نازعَ اللهَ في ملكه ، وزعم أنّه إله يُعْبَدُ من دون الله ، وأنّه الربُّ المعبود ، كيف كان نبوغ إبراهيم وذكاءه؟ وكيف دحض خصمه العنيد ، قال تعالى: ﴿ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ *﴾ [البقرة : 258][80].

فانظر في الآيات السابقة لما أراد الطاغية أن يَرُوْغَ في قضية الإماتة والإحياء ، كيف ترك إبراهيمُ هذه المسألة ، وفاجأ الطاغيةَ بسؤالٍ لم يتوقعه فأرداه باهتاً ، وتصوّر لو أنّا افترضنا أنّ إبراهيم بقيَ يجادله في المسألة الأولى ماذا تكون

---

[79] النور الخالد ص (171).

[80] المحكم في العقيدة ص (134).



النتيجة؟ ثم لاحظ أنَّ ســؤال إبراهيم الثاني لا يدعُ المجال حتى للمكابر ، فتخيّل لو أنّ إبراهيمَ قال له: مَنْ خلقَ الشمس؟ فإنّ المكابر قد يقول: أنا ، ولكنّ إبراهيم طالبه بفعلٍ جديدٍ في الشمس ، فماذا يقول المكابر[81]؟.

فقد أقام إبراهيم عليه السلام الحجةَ الدامغةَ بفطنته النيرة ، بحيث لم يستطع مواصلةَ اللجاج والعناد ، وبذلك عرّف خبره لأتباعه ، وأنه أحقر من أن يخلقَ بعوضــةً أو يدبّرَ أمراً ، وتبيّن لهم بذلك أنَّ دعواه الألوهية محض افتراء ، ولكنهم مع ذلك لم يهتدوا ، إذ الناسُ غالباً على أديان ملوكهم ، وأتباع كلِّ ناعق[82].

ومن فطنةِ إبراهيم عليه السلام وحكمتهِ وقوةِ حجته مناظرته لقومه في شأنِ معبوداتهم من الكواكب ، حيث استطاعَ إقامة الحجة الدامغة عليهم في بطلانِ ألوهيتها ، بما لم يدع شكاً للمنصف العاقل ، فقد استدرجهم في تفنيد اعتقادِهم شـيئاً فشـيئاً ، حتى أتى على معتقدهم الزائفِ من أسـاسـه ، وأقام الحجة الدامغة على اجتثاثه ، كما قصّـه الله تعالى علينا ذلك بقوله: ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ *فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ *فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ *فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ *إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ *﴾ [الأنعام: 75 ـ 79].

بيّن إبراهيمُ عليه السلام أولاً عدمَ صلاحية الكواكب للألوهية ، ثم ترقّى منها إلى القمر ، الذي هو أضوأ منها وأبهى ، ثم ترقّى إلى الشمس التي هي أشدّ الأجرامِ المشاهدةِ ضياءً وسناءً وبهاءً ، فبيّن أنها مسخرةٌ مسيّرةٌ مقدّرةٌ مربوبةٌ ، فلا تصلحُ أن تكون رباً[83].

وأنَّ الربَّ من شأنه أن يكون مدبّراً مسخِّراً ضارّاً نافعاً ، وأنَّ هذه الكواكب لا تملكُ شيئاً من هذه الأمور ، فهي إذاً لا تستحقُّ أن تعبدَ ، فأعلنَ براءته منها وإخلاصَ عبوديته لله تعالى قائلاً: ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ *﴾ [الانعام: 79].

وبذلك زعزع إيمانَهم في معتقداتهم الضـالّة بهذه الكواكب السيّارة ، التي لا تملك ضرّاً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشـوراً ، وذلك بفضـل الله تعالى ، ثم بفضـل هذا الأسـلوب الجدلي الحكيم القائم على اسـتدراج المخاطَبِ بالتسـليم بدعاويه ، ثم الكرَّ عليها بالبطلان ، لقوة الحجة والبرهان ، وما كان له بذلك من قوة لولا الفِطنةُ الكبرى التي رزقه الله تعالى إيّاها ، لتساير تكليفه بالرسالة[84].

---

81 النبوة والأنبياء ، للصابوني ص (53).
82 المحكم في العقيدة ص (135 ، 136).
83 أخلاق النبي (1041/2).
84 المصدر نفسه (1041/2).



ب . نوح عليه السلام:

استطاع نوحٌ عليه السلام بفطنته وحكمته وقوّة حجته أن يُفحمَ مناوئيه من قومه حتى أقروا له بالعجز عن مجادلته ، واستعجلوا ما يتوعدهم به من العذاب ، وقالوا: ﴿ قَالُوا يانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ *﴾ [هود: 32].

ذلك لأنه ما فتأى يناظرهم ويجادلهم ويحاججهم ، كلما أتوه بشبهة فندّها ، وكلما جادلوه أسكتهم ، فلا يملكون جواباً ولا رداً ولا حجة ، ﴿ فَقَالَ الْمَلأَُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ *﴾ [هود: 27]. أجابهم نوح عليه السلام بقوله: ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاَقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * وَيَاقَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ *وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ *﴾ [هود: 28 . 31].

فقومه لما جادلوه بما يُنمي عن قصور عقولهم ، حيث احتجّوا عليه بفقده وسائلَ السؤدد عليهم في نظرهم من المال والجاه ، فرأوا أنّه غيرُ أهلٍ لشرفِ الرسالة ، وأنّه من جنسهم البشري ، وظنّوا أنّ شرفَ الرسالة ينبغي أن يكونَ لغير هذا الجنس ، مع أنّه الجنسُ الذي كرّمه الله وشرّفه على كثيرٍ من الأجناس ، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الاسراء: 70].

فلمّا قصر نظرهم عن إدراك أسباب الكمال ، حيث نظروا إليه وإلى أتباعه ، فلم يروا في أجسامهم ما يميزهم عن الناس ، بل إنّ أتباعه من ضعفاء قومهم ، ورأوا أنّ ذلك علامةُ كذبه ، وضلالُ أتباعه ، لما كان أمرهم كذلك سلك نوح عليه السلام في مجادلتهم مسلك الإجمالِ لإبطالِ شبههم ، ثم مسلك التفصيل لردّ أقوالهم.

أمّا مسلك الإجمال فسلك فيه مسلك القلب ، بأنّهم إن لم يروا فيه وفي أتباعه ما يحمِلُ على التصديق برسالته ، فكذلك هو لا يستطيعُ أن يحملهم على رؤيةِ المعاني الدالّة على صدقه ، وأنّه لا يستطيع منعَ الذين امنوا به من متابعته والاهتداء بالهدى الذي جاء به ، وأنّه لم يدّعِ فضلاً غيرَ الوحي إليه كما حكى الله عن أنبيائه ورسله عليهم السلام في قوله: ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [ابراهيم: 11].

ثم فصّل إجابته السابقة ، فأجابهم عمّا توهموه ، من أنّ من لوازم النبوة أن يكونَ أغنى منهم أو أن يعلمَ الأمورَ الغائبة بقوله: ﴿ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ [هود : 31].
والمعنى لا أدّعي ما ليسَ لي ، فتنكروا قولي ، وتستبعدوا ما اتاني الله من فضل النبوة.



وعن دعواهم بأنّه بشر لا يستحقُّ أن يتميّزَ عنهم بالرسالة أجابهم بقوله: ﴿ ولا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ بل أنا بشرٌ مثلكم تعرفوني، ولكن اتاني الله فضلَ الرسالةِ إليكم.

وعن دعواهم باسترذالِ أتباعه لكونهم من ضعفائهم وفقرائهم أبطله بطريقة التغليط ، لأنهم جعلوا ضعفهم وفقرهم سبباً لانتفاء فضلهم ، فأبطله بأنَّ ضعفهم ليس بحائلٍ بينهم وبين الخير من الله تعالى إذ لا ارتباطَ بين الضعفِ في الأمور الدنيوية من فقرٍ وقلةٍ ، وبين الحرمان من نوالِ الكمالاتِ النفسانية والدينية ، فقال: ﴿ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ وهكذا فنّد ادعاءاتهم

واحدةً واحدةً بما لم يتركْ لهم مجالاً للمكابرة ، حيث قرّر لهم بذلك الحقائق الثابتة في شأنه ، والتي لا يجهلونها ، وجعلهم في واقع الأمر مسلّمين بأنّه لا يحملهم على مجادلته إلا محضُ الكِبْرِ ومجرّدِ اللجاج والعنادِ ، فما كان لهم بعد ذلك من طاقة في الصبر على مجادلته المفحمة ، فعدلوا إلى استعجال العذاب الذي يتوعّدهم به ، لما سئموا من تزييف معارضتهم وارائهم ، شأنهم بذلك شأنُ المبطِلِ إذا دمغته الحجة فقالوا: [هود: 32]

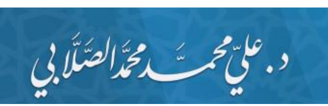
ج. يوسف عليه السلام:

قال تعالى: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ *قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ *وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ *يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ *مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ *يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ *﴾ [يوسف: 36 ـ 41].

ومن فطنةِ يوسفَ عليه السلام وحكمتِه وقوّةِ حجته توظيفُه حاجةَ صاحبيه إلى علمِه، فشرعَ في بثِّ عقيدته الصحيحة بين السجناءِ ، وتوضيح التوحيد ، وخطورة الشرك ، ويبدو في طريقةِ تناول يوسف للحديثِ لطفُ مدخله إلى النفوس ، وكياستُه ، وتنقّلُه في الحديث في رفقٍ لطيفٍ[85]، ولما أكملَ مهمته في تبليغ الدعوة شرعَ في تفسير الرؤيا للسجينين.

---

85 أخلاق النبي (1041/2).





د. محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم:

قال تعالى: ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ *مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ *﴾ [القلم: 1 ـــ 2]. حيث أقسم المولى جلّ وعلا قَسَـــماً مؤكّداً على نفي الجنون عنه الذي كان يرميه به بعضُ المشـــاغبين من أهل الكفر والعِناد، كما قال ســبحانه: ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَــارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ *﴾ [القلم: 51]. وذلك ردّاً عليهم، وتكذيباً لقولهم، كما قال في اية أخرى: ﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ *﴾ [التكوير: 22].

وقال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلاَ مَجْنُونٍ *﴾ [الطور: 29]. وفي ذلك النفي إثباتٌ لكمال عقله، وأنّه من إنعامِ اللهِ عليه بحصـافة العقل والشـهامة التي يقتضـيها التأهيلُ للنبوة بمنزلةٍ عظمى لا يُرْقَى إليها. وقد برهن الله تعالى على كمال عقله ـ إضافة إلى قسمه المؤكّد ـ بعظمة أخلاقه، حيث قال بعد ذلك: ﴿ وَإِنَّ لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ *وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ *﴾ [القلم: 3 . 4].

إذ إنّ صــاحبَ الخلق العظيم، لا يكونُ إلا في منتهى الكمال العقلي، والصـفاء الذهني، لأنّ العقلَ أصـلُ فروع الفضـائل الخُلقية، وعنصر ينابيعها، ونقطة دائرتها حيث يتفرّع منه: ثقوبُ الرأي، وجودةُ الفطنة والإصابة، وصـدقُ الظنّ، والنظرُ للعواقب، ومصـالحُ النفسِ، ومجاهدةُ الشـهوةِ، وحسـنُ السـياسـةِ والتدبير، واقتناءُ الفضـائل، وتجنُّب الرذائل، وقد كان (ﷺ) من هذه كلها في الغايةِ القصوى التي لم يبلغْها بشرٌ سواه[86].

وقال القاضي عياض بعد أن قرّر أنّه لا مريةَ في أنّه (ﷺ) أعقلُ الناس وأذكاهم، قال: ومن تأمّل تدبيرَه أمرَ بواطن الخلق وظواهرهم، وسياسةِ العامة والخاصّة، مع عجيب شمائله، وبديعِ سيرته، فضلاً عَمّا أفاضه من العلم، وقرّره من الشــرع، دونَ تعلّم ســابقٍ، ولا ممارســةٍ تقدّمت، ولا مطالعةٍ للكتب فيه، لم يمترِ في رجحانِ عقله، وثقوبِ فهمه لأوّلِ بديهةٍ[87].

ومن الأمثلة على فطنته وذكائه:

* سـرعةُ إقامةِ الحجّة على المعارضـين، وقطع شـغبهم وجدالهم بالباطل، فلا يسـتطيعونَ مجاراته أو مكابرته، بل لا يَسَعُهم إلاّ الإذعانُ والتسليمُ، أو النكوصُ على أعقابهم خاسئين.

ومن ذلك ما أجابَ به أبا سفيان يوم أحد حينما افتخر أبو سفيان ـ وهو على شركه يومئذٍ ـ بأوثانه إثر المعركة التي انجلت عن نصرٍ له ولقومه أهل الشرك والوثنية، فقال متبجّحاً: أعْل هُبَل[88].

فقال (ﷺ): «أجيبوه».

---

[86] أخلاق النبي (1040/2).

[87] في ظلال القران (1988/4)، المحكم في العقيدة ص (136).

[88] اسم للصنم الأكبر الذي كانوا يعبدونه.



فقالوا: ما نقول؟.

قال: «قولوا: الله أعلى وأجلّ».

قال أبو سفيان: لنا العُزّى[89]، ولا عُزّى لكم.

فقال (ﷺ): «أجيبوه».

فقالوا: ما نقول؟.

قال: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم».

فقال أبو سفيان: يومٌ بيومٍ والحربُ سجالٌ ، وتجدون مُثْلَةً لم امرْ بها ، ولم تَسُؤني.

فقال (ﷺ): «أجيبوه».

فقالوا: ما نقول؟.

قال: «قولوا: لا سواء ، قتلانا في الجنّةِ ، وقتلاكم في النار»[90].

ومن مظاهر كمال فطنته (ﷺ) سرعةُ حَلِّه للمشاكل المستعصية ، التي تحارُ في حلِّها العقولُ الكبيرةُ الشهيرة.

فقد حاول المنافقون ذات مرة أن يفككوا عُرى الوحدةِ بين المهاجرين والأنصار ، فكانت حكمةُ النبيّ (ﷺ) وفطنتُه لهم بالمرصاد ، فأحبطتْ تلك المحاولةَ الخبيثةَ ، وأجهضتها في حينها ، وذلك أنّ رجلاً من غِلمان المهاجرينَ كسع[91] رجلاً من غلمان الأنصار، إثر اختلافٍ بينهما على الماء، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فسمع ذلك رسول الله (ﷺ) فقال: «ما بالُ دعوى الجاهلية؟» قالوا: يا رسول الله كسعَ رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، فقال (ﷺ): «دعوها فإنها مُنتنةٌ».

فسمع بذلك عبد الله بن أُبيّ رأسُ المنافقين فقال: فعلوها؟ أمّا واللهِ لئنْ رجعنا إلى المدينةِ ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذل ، فبلغَ النبيَّ (ﷺ) ، فقام عمرُ رضي الله عنه فقال: يا رسول الله ، دعني أضرِبُ عنقَ هذا المنافق ، فقال النبيُّ (ﷺ): «دعه ، لا يتحدَّثُ الناسُ أنَّ محمّداً يقتلُ أصحابه»[92].

ثم سار رسول الله (ﷺ) بالناس يومَهم أجمع ، حتى أمسى ، وليلتَهم حتى أصبح ، وصدرَ يومهم حتى اذتهم الشمسُ ، ثم نزل بالناس ، فلم يلبثوا أنْ وجدوا مسّ الأرض ، فوقعوا نياماً. وإنّما فعل ذلك ليشغلَ الناسَ عن الحديثِ الذي كان بالأمسِ[93]، حيث خاضَ الناسُ في حديثِ عبد الله بن أبيّ ، وفي النزعةِ الجاهليةِ التي كادتْ تقضي على وحدةِ المجتمعِ المسلم لولا حكمةُ رسول الله (ﷺ) وسياسته الماهرة ، وفطنته العظيمة ، في إطفاءِ لهبها بسيره الميمون ،

---

[89] اسم للصنم لهم كان بالطائف ، تفسير غريب الحديث 166.

[90] المصدر نفسه (161/1).

[91] الكسع: أن تضرب بيدك على شيء أو برجلك.

[92] البخاري (191/6).

[93] عيون الأثر لابن سيد الناس (94/2) ، البداية والنهاية (158/4).

ذلك الذي أشغلهم به عن الخوض في تلك الفتنة العمياء ، التي أرادَ رأسُ النفاق أن يُشْعِلها ، ليحقِّقَ غرضه في زعزعةِ المجتمع المسـلم ، وإطفاء نور الله ، ولكنَّ اللهَ ردَّ كيده في نحره بفضـل ما اتى نبيَّه من الحكمة والفطنةِ والحِلْمِ فصـلواتِ ربي وسلامه عليه.

وكم كانت فطنته وحكمته تحلُّ من مشاكل عديدَة في أسرعِ وقتٍ وأقصره ، فيتحقّقُ بذلك له ولأمته ما يَصْبون إليه من نَصْـرٍ وسـعادَةٍ وعزٍّ وسـيادةٍ ، ينوءُ عنها الحصـر في مثل هذا المقام المقتضـي للإيجاز ، والإتيان من كل بحرٍ بقطرة كنموذج لغيره ، والدليلُ على ما سواه.

ومن ذلك براهينه السـاطعة القاطعة التي كان يقيمها على مجادليه ومناظريه من مشـركين وإهل كتاب ، التي كانت تقطعُ دابِرَهم ، وتزهقُ باطِلَهم ، وتجعلهم يوقنون أنّهم في ضـلالهم يعمهون ، ويعميهم عن اتباع الحقّ بعد سماع تلك القوارع البينة: الكِبْرُ والعنادُ ، والرسوخُ في الإلحاد[94].

وهكذا جميع الأنبياء والرسل ، أعطاهم الله العقلَ والرُّشدَ ، فكانوا على أكمل وجوه الذكاءِ والنبوغِ ، فقد خصّهم الله تعالى بالذكاءِ الخارقِ ، والفطنة والنباهة ، ليسـتطيعوا إقامةَ الحجّةِ على أقوامهم ، وقد جرت حكمةُ اللهِ الأزلية ، أن يختارَ للرسالةِ أكملَ الناسِ عقلاً ، وأوفرَهم ذكاءً ، وأقواهم حُجةً وبرهاناً ، ليظهرَ ضياءُ الحقّ وتعلو دعوةُ اللهِ. وصدقَ اللهُ العظيم حيثُ يقولُ: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ *﴾ [الانعام: 124].

وإذا كان البشرُ يعتريهم النقص ، وتضعفُ قواهم العقلية ، وربّما وصل البعضُ منهم إلى حالةِ الخرف عند بلوغ سِنِّ الشـيخوخة ، فإنَّ الأنبياءَ الكرام يظلّون في القمة العليا من رجاحةِ العقل ، وقوّةِ التفكير ، مهما امتدت أعمارُهم ، لأنّ الله تعالى قد أحاطهم بعنايته ، وحفظهم برعايته ، ولا يمكن أن تضـعُفَ حواسّـهم الفكرية ، وتتعطّل مواهبهم العقلية ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم[95].

---

94 أخلاق النبي (1052/2).

95 النبوة والأنبياء ، للصابوني ص (54).



7 . الأمانة:

وهي أن يكونَ النبيُّ أميناً على الوحي، يبلّغ أوامرَ الله ونواهيه إلى عباده، دونَ زيادةٍ أو نقصـــانٍ ، ودون تحريفٍ أو تبديلٍ، امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا *﴾ [الاحزاب: 39].

فالأنبياء جميعاً مُؤتَمَنونَ على الوحي ، يبلّغون أوامر الله كما نزلت عليهم ، لا يمكن لهم أن يخونوا أو يُخْفُوا ما أمرَهم الله تعالى به ، لأنّ الخيانة تتنافى مع الأمانة ، وهل يليقُ بالنبيِّ أن يخونَ أمانته ، فلا ينصحُ الأمة ، ولا يبلّغ رسالة الله[96]؟!

ولذلك كان وصـــفُ الأمانة واجباً ، ويجب على الأمةِ اعتقاده فيهم ، وقد أثنى الله تعالى به عليهم في آياتٍ كثيرةٍ كما قال هود عليه السلام: ﴿ وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ *﴾ [الاعراف: 68] ، وكما قال عن يوسف عليه السلام: ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ *﴾ [يوسـف : 54] ، وقصَّ عن نوحٍ وهودٍ وصـالحٍ ولوطٍ وشـعيبٍ وموسى عليهم السـلام مقالةَ كلٍّ منهم لقومه وهو يدعوهم للإيمان: ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُـولٌ أَمِينٌ *﴾ [الشـعراء: 107 ، 125 ، 143 ، 162 ، 168 ، والدخان: 18] ، وقصَّ مقالةَ ابنةِ شعيبٍ عليه السلام في وصفها لموسى عليه السلام: ﴿ يَاأَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ *﴾ [القصص: 26] إلى غير ذلك من الآيات الواصفة لهم بهذا الخلق ، دونَ سائر أوصافهم الحميدة ، فدل اختيارُ وصفِ الأمانةِ لأنبياءِ الله عليهم السلام في هذه الآيات مع كثرة صفاتهم وأخلاقهم الكريمة على عظمة هذا الخُلق ، وبالغُ منزلته[97].

ولو لم تكن في الأنبياء الأمانةُ لتغيّرت مظاهرُ الرســالة ، وتبدّلت ، ولما اطمأنّ الإنســانُ على الوحي المنزَل ، ولهذا تقول الســيدة عائشــة رضــي الله عنها: لو كان محمّدٌ كاتماً شــيئاً ممّا نزل عليه لكتم هذه الآية الكريمة: ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾[الاحزاب : 37][98].

وقد نشأ رسول الله (ﷺ) على الصدق والأمانة لا يعرف لهما بديلاً منذ نشأته وترعرعه ، وهو لا يكادُ يُعْرَفُ في أوساط قومه إلا بالأمين ، فيقولون: جاء الأمينُ ، وذهبَ الأمين[99]، حتى حلّ محلّ الرضا في قلوبهم وعقولهم ، كما دلّ على ذلك احتكامُهم إليه في قصّـةِ رفع الحجر الأسـودِ عند بنائهم الكعبةَ المشرّفة ، بعد تنازعهم في استحقاق شـرف رفعه ، ووضــعه في محله ، حتى كادوا يقتتلون لولا اتفاقهم على تحكيم أولِ داخلٍ يدخلُ المســجدَ الحرام ، فكان ذلك الداخلُ هو محمّدٌ (ﷺ) المرضــيُّ لديهم أجمعين «فلما رأوه قالوا: هذا الأمينُ رضــينا ، هذا محمد ، فلما انتهى إليهم ، وأخبروه الخبر ، قال (ﷺ): «هلمَّ إليَّ ثوباً» فأُتِيَ به ، فأخذَ الركنَ ، فوضــعه فيه بيده الطاهرة ، ثم قال: «لتأخذْ كلُّ

[96] المصدر نفسه ص (48).

[97] أخلاق النبي (536/2).

[98] البخاري (22).

[99] سيرة ابن هشام مع الروض الأنف (207/1).





قبيلةٍ بناحيةٍ من الثوبِ ، ثم ارفعوه جميعاً» ففعلوا ، حتى إذا بلغوا به موضعه ، وضعه هو بيده ، ثمَ بنى عليه» قال ابن هشام: وكانت قريشٌ تسمِّي رسول الله (ﷺ) قبلَ أن ينزلَ عليه الوحيُ الأمين[100].

وهكذا كان خلق الأمانة سبباً لترشيح هذا الشاب اليتيم لحلّ فتنةٍ كادت تشتعلُ بين بطون قريش ، فتُودي بحياة كثير منهم ، لولا أنَّ الحكمة العظيمة مِنْ صاحب الأمانةِ العظيمةِ أطفأتها ، وما كان لهذه الحكمة أن تبرزَ لو لم يكنْ خلقُ الأمانةِ قد مهّد الطريقَ أمامها ، ممّا جعلهم يرضون بحكمه دون أن يتسرّبَ إليهم شكٌّ في محاباةٍ أو مداهنةِ فئة على أخرى ، لعلمهم بعظيم أمانته ، وثقتهم به[101].

بل لقد جعلتهم ثقتهم الكبيرة بأمانته (ﷺ) ينقلون إلى بيته أموالهم ، ونفائسَ مدّخراتهم ، لتكونَ وديعةً عنده ، فلم يكن أحدٌ بمكةَ عنده شيءٌ يخشى عليه إلا وضعه عنده (ﷺ)، لما يعلمُ من صدقه وأمانته ، ولم يزل ذلك دأبهم حتى بعد معاداته بسبب دعوته لهم إلى الإيمان بالله تعالى ، وترك عبادة الأوثان ، لا يختلجهم شك في أمانته ، وهم له معادون.

كما دل على ذلك تركه (ﷺ) عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه في مكة بعد هجرته ، ليردَّ ودائعَ الناس التي كانت عنده للناس ، حتى إذا فرغَ منها ، لحق برسول الله (ﷺ)[102].

* الشهادة لرسول الله (ﷺ) بالأمانة:

ولقد شهد لرسول الله (ﷺ) بالأمانةِ الأعداءُ والأصدقاءُ على حدٍّ سواء ، وذلك دليلٌ على شيوع هذا الخلق فيه ، وتسليمُ الكلِّ له به.

فأبو سفيان زعيمُ مكة لما كان قبلَ إسلامه أمامَ هرقل ملك الروم ، لم يستطعْ أن يخفي هذا الخلقَ العظيمَ ، وهو الحريصُ على أن يغمطه حقه ، أو يطعنَ فيه بدافع العداء له حينذاك ، ولكن لما سأله عمّ ماذا يأمرُ النبي (ﷺ) أجابه أبو سفيان: بأنه يأمرُ بالصلاة ، والصدقِ ، والعفافِ ، والوفاءِ بالعهد ، وأداءِ الأمانة[103].

وأما الأصدقاء ، فمنه ما قالته خديجةُ رضي الله عنها له (ﷺ) عند ابتداء تنزُّل الوحي: ... فواللهِ إنكَ لتؤدّي الأمانةَ ، وتصلُ الرّحمَ ، وتَصْدُقُ الحديثَ[104].

---

[100] سيرة ابن هشام مع الروض الأنف (1/28).

[101] أخلاق النبي (ص) (2/239).

[102] سيرة ابن هشام مع الروض الأنف (2/237).

[103] البخاري (3/236).س

[104] متفق عليه ، الروض الأنف (1/274).





وما قاله جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه في قصته مع النجاشيّ ملك الحبشة وذلك حين سأله عن الدين الذي اعتنقوه ، فكان من إجابته له قوله: «حتى بعثَ الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبَه وصِدْقَه وأمانتَه وعفافَه..»[105].

ولا غَرْوَ في أن يكونَ النبيُّ (ﷺ) بتلك المكانة من الأمانة ، لأن الله تعالى قد أراد منه أن يكونَ خاتم أنبيائه ورسله إلى الخلق كافة ، ولا يقومُ بذلك إلا أمينٌ كاملُ الأمانةِ ، ينالُ ثقةَ الناس ، فيستجيبون له ، ويؤمنون به ، ولقد تمثّل خلقُ الأمانة فيه (ﷺ) بكل معانيه بعد بعثته ، كتمثله فيه قبل ذلك ، بل بأوضح من ذلك وأجلّ ، فلقد ائتمنه الله تعالى على تبليغ شرعه ، وسياسة خلقه ، فقام بذلك حقَّ قيام ، حتى رضي الله عنه وعن بلاغه المبين ، وشهد له بأنّه أدى الأمانة ، وبلَّغَ الرسالة كما وصلت إليه حتى تمَّ الدِّين ، وذلك حين قال سبحانه: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾[المائدة: 3][106].

8 . السلامة من العيوب المنفرة أو ما يخل بأداء رسالتهم:

وهذه الصفة من خصائص الأنبياء والرسل الكرام ، فإنه لما كانت مهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام تستدعي مخالطةَ الناس ، والاجتماعَ بهم لدعوتهم وإرشادهم وقيادتهم وسياستهم ، فلا يمكنُ أن تكونَ فيهم عيوب خَلْقية أو خُلقية ، تنفّرُ الناسَ من الاجتماع بهم ، أو اتباعهم ، والسماع لدعوتهم ، كما أنّ الأمراضَ المنفِّرة كالبرص والجُذام والتشويه الجسدي لا يكونُ في أحدِ الأنبياء ، فهم وإن كانوا من البشر ، تصيبُهم العوارضُ التي تصيبُ البشر ، إلاّ أنّ الله عزّ وجلّ قد صانهم من العيوب المنفّرة ، وسلّمهم من الأمراض الشائنة ، التي تجعل النفوسَ تنفر منهم.

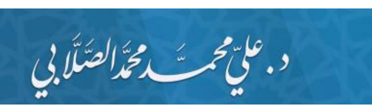
وما يحكى عن أيوب عليه السلام من أنّه مرضَ ، واشتدّ به المرض ، حتى تعفّنَ جسدُه ، وأصبح الدودُ يخرج من بدنه ، حتى كرهته زوجتُه ، فإنَّ هذا من الأباطيل والأكاذيب التي نُقلت عن الإسرائيليات ، ولا يجوزُ تصديقها أو الاعتقاد بها ، لأنها تتنافى مع صفاتِ الأنبياء ، ولم يذكر لنا القرآن الكريمُ شيئاً من هذا ، وإنّما الذي ذكره أنه قد أصابه الضرُّ في بدنه ، فدعا ربَّه فكشف عنه ما أصابه من كرب وبلاء ، قال تعالى: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ *﴾ [الأنبياء: 83 . 84].

وظاهر من الآية الكريمة أنّ الضر الذي أصابه كان في جسمه وأهله ، وهذا النوع من الضرّ يلحَقُ البشر ، ويلحق الأنبياء ، فإنَّ المرض يعتري الأنبياء ، كما يعتريهم الموت ، وليس في ذلك شيءٌ ينقص من قدرهم ، أو يزري بمقامهم،

---

105 السيرة النبوية الصحيحة د. أكرم العمري (174/1) ، سيرة ابن هشام مع الروض الأنف (87/2).

106 أخلاق النبي (ص) (541/2).



وكما يستحيل على الأنبياء الإصابة بالأمراض المنفّرة ، كما يستحيل عليهم الجنون والإغماء الطويل ، لأنّ ذلك يخلّ بقيامهم بأعمال الرسالة[107].

9 . العصمة:

* العصمة من الخطأ في التبليغ والتنفيذ:

الرسل معصومون فيما يبلغون عن الله ، فهم لا يخطئون في التبليغ عن الله ، ولا يخطئون في تنفيذ ما أوحى الله به إليهم ، عصمهم الله من الخطأ في هذه وتلك ، وذلك من خصوصياتهم:

أ ـ لأنّ الأمر لا يستقيم إذا أخطأ الرسول في التبليغ عن الله ، إذ ليس لذلك إلا إحدى نتيجتين ـ كلتاهما خارجة عن التصور .:

* إما أن يسكتَ الوحيُ عن تصحيح الخطأ ، ومعنى ذلك أنَّ الله سبحانه وتعالى أراد أن يبلغ الناس أمراً معيناً ، ثم رضي جل جلاله أن يبلّغَ عنه غير ذلك الأمرَ ، وهذا لا يجوز في حق الله تبارك وتعالى.

* وإمّا أن يتنزلَ الوحي بالتصحيح، فيعودُ الرسولُ فيقول للناس: إنّ الله أمرني أن أبلّغكم كذا وكذا ، ولكني أخطأتُ في التبليغ ، وإليكم الان تصحيح البلاغ ، وينتجُ عن ذلك لا محالة أن يفقدَ الناسُ الثقةَ فيما يبلغهم إياه الرسول عن ربه ، لأنّ احتمالَ الخطأ في التبليغ قائمٌ في أذهانهم.

وكلا هذين الأمرين خارجٌ عن التصور، لأنّه يتنافى مع الحق الذي يتنزل به الوحي مع التوقير والتعظيم اللازمين لكلام الله سبحانه وتعالى ، مع وجوب الطاعة للرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

ب ـــ ولا يستقيمُ الأمرُ كذلك إذا أخطأ الرسولُ في تنفيذ ما أوحى الله به إليه ، لأنّ القدوةَ تنتفي يومئذٍ ، ويضطرِبُ الأمرُ في نفوس الأتباع ، الذين اتبعوا الرسلَ ، فلا يعرفون أيَّ طريق يسلكون ، وفضلاً عن ذلك تذهب جدية الأمر من مشاعرهم ، فالمفروض في الشخص المؤمن أن يجتهد في اتباع ما أنزل الله قدر جهده ، ليكون أقرب إلى الصواب ، فإذا كان القدوة أمامه ـ وهو الرسول ـ يخطأى في التنفيذ ، فسوف يحسُّ هو أنه في حِلّ من أن يخطأى ، وليس عليه أن يتحرّى الصوابَ ، فهو ليس أفضل من الرسول المؤيد بالوحي ، وعندئذٍ ينفرط عقد الأمر ، ولا يعود للدين ما أراده الله من تعظيم في نفوس المؤمنين[108].

107 عقيدة التوحيد ص (242).
108 ركائز الإيمان ص (279).

إن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم قد اصطفاهم الله واختارهم ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآل عمران عَلَى الْعَالَمِينَ *﴾ [آل عمران: 33].

* العصمة من المعاصي:

ونزههم عن السيئات وعصمهم من المعاصي صغيرها وكبيرها ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾ [آل عمران: 161].

وحلاّهم بالأخلاق العظيمة من الصدق والتفاني في الحق ، فاجتباهم ، وعلمهم: ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ *﴾ [يوسف : 6].

فالأنبياء يتّسمون بالطهر والنزاهة والقداسة ، وهم النموذج الحي ، والصورة المثلى للكمال الإنساني ، ومن ثمّ فهم معصومون عن الاثام ، ومنزّهون عن الوقوع في المعاصي ، فلا يرتكبون محرّماً ، ولا يقصّرون في أداء واجب ، ولا يتّصفون إلاّ بالأخلاق العظيمة ، التي يكونون بموجبها القدوةَ الحسنةَ والمثلَ الأعلى ، وقد زكّاهم الله سبحانه وتعالى ، وأدبهم وهذّبهم وعلّمهم ، قال تعالى: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الانعام : 90]. وقال تعالى: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ*﴾ [الانبياء : 90].

فيتَّضحُ من هذه الآيات مدى الكمال الإنساني الذي أفاضه الله على أنبيائه ورسله ، ولو لم يكونوا كذلك ، لسقطت هيبتُهم في القلوب ، ولصغرَ شأنُهم في أعين الناس ، وبذلك تضيعُ الثقة فيهم ، فلا ينقادُ لهم أحدٌ ، ولذهبت الحكمةُ من إرسالهم ليكونوا قادةَ الخلقِ إلى الحقِّ[109].

* حقيقة العصمة:

العصمة في اللغة: المنعُ ، وورد في (لسان العرب): العصمةُ المنعُ ، وقال الزجّاج في قوله تعالى: ﴿ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ﴾ [هود : 43]. أي يمنعني من الماء ، والمعنى: من تغريق الماء. واعتصم فلانٌ بالله إذا امتنع به ، واعتصمتُ بالله إذا امتنعت بلطفه من المعصية ، ومن ذلك أيضاً قول الله تعالى حكاية عن امرأة العزيز: ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف : 32].

أمّا في الاصطلاح: فهي لطفٌ من الله تعالى يحمِلُ النبيَّ على فعل الخير ، ويزجره عن الشر ، مع بقاءِ الاختيار ، تحقيقاً للابتلاء.

---

109 العقيدة الإسلامية ، ص (233).

وقيل: هي حفظُ اللهِ أنبياءَه ورسلَه من النقائص ، وتحقيقهم بالكمالات النفسية ، والنصرة والثبات في الأمور ، وإنزال السكينة.

وقيل: هي ملكةٌ إلهية تمنعُ الإنسانَ من فعل المعصيةِ والميلِ إليها مع القدرةِ عليها.

وقد ذهبَ بعضُهم إلى أنها خاصيةٌ في نفس الشخص أو في بدنه ، يمتنعُ بسببها صدورُ الذنب عنه ، وممّا يضعّف هذا الرأي ويَدْحَضُه ، كما يقول الإيجي: إنه لو كان ذلك كذلك ، لما استحقَّ المدحَ بذلك ، وأيضاً فالإجماعُ على أنّهم مكلفون بترك الذنوب ، مثابون به ، ولو كان الذنبُ ممتنعاً عنهم ، لما كان كذلك ، وأيضاً قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ [فصلت : 6]. يدل على مماثلتهم لسائر الناس فيما يرجِعُ إلى البشريةِ والامتيازِ بالوحي لا غير[110].

* العصمة ثابتة قبل البعثة وبعدها:

وقد اختلف العلماءُ في عصمة الأنبياء ، هل هي قبل البعثة أم بعدها؟ وهل تكونُ العصمةُ عن الكبائر فقط ، أم عن الكبائر والصغائر من الذنوب؟ فذهب بعضُهم إلى أنّ العصمة ثابتةٌ لهم قبل النبوة وبعدها من الصغائر والكبائر ، وذلك لأنّ السلوك الشخصيَّ ـ ولو قبل النبوة ـ يؤثّر على مستقبل الدعوة للنبي ، فلابدَّ إذاً أن يكونَ من ذوي السيرة العطرة ، والصفاء النفسي ، حتى لا يكونَ ثمة مطعنٌ في رسالته ودعوته ، واستدلّوا على ذلك بأنّ الله تبارك وتعالى قد اختار أنبياءه من صفوة البشر ، ورعاهم منذ الصغر كما قال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي *﴾ [طه : 39]. وجعلهم من المصطفين ، كما قال سبحانه: ﴿ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ *﴾ [ص : 47]. فلابدّ إذاً أن يكونوا معصومين قبل النبوة وبعدها ، لكن وقع الخلاف في وجوب العصمة لهم من الصغائر[111].

والبحث في هذه المسألة داخلٌ في الأمور الاجتهادية التي لم تنهضْ لها أدلةٌ قاطعة تقطعُ دابرَ الخلاف فيها ، وإن كان جمهورُ أهل السنة والجماعة يميلون إلى القول بامتناع الصغائر في حقّ الأنبياء خصوصاً بعد البعثة.

وأما الفريق الاخر فقد ذهب إلى أنَّ عصمة الأنبياء والرسل إنما تكون بعد النبوة ، وتكون في الصغائر والكبائر معاً ، لأنَّ المعاصي تكونُ بعد ورود الشرع والتكليف به ، ولأنَّ البشرَ ليسوا مأمورين باتباعهم قبل البعثة ، فالاتباع والاقتداء إنّما يكون بعد نزول الوحي عليهم ، وبعد تشريفهم بحمل الرسالة والأمانة ، وأمّا قبلها فإنّما هم كسائر البشر ، ومع ذلك فإنَّ سيرتهم تأبى عليهم الوقوعَ في المعاصي والاثام ، أو الانحراف في طريق الفاحشة والرذيلة ، فإنّهم ولو كانوا قبل البعثة غيرَ معصومين ، لكنّهم محفوظون بالعناية والفطرة.

---

110 العقيدة الإسلامية ، ص (234) المواقف ، للإيجي ص (366).

111 عقيدة التوحيد ص (244).

والصحيحُ الذي عليه المعوَّلُ من أقوال العلماء: هو أنّ الأنبياءَ صلوات الله وسلامه عليهم معصومون عن المعاصي (الصغائر والكبائر) بعد النبوة باتفاق ، وأما قبل النبوة فيحتمل أن تقع منهم بعضُ المخالفات اليسيرة التي لا تخلُّ بالمروءة ، ولا تقدحُ بالكرامة والشرف[112].

استعظام بعض الباحثين نسبة صغائر الذنوب إلى الأنبياء: مدّعين بأنّ وقوع مثل هذه الذنوب فيه طعنٌ بالرسل والرسالات ، واحتجّوا لذلك بأمرين:

الأمر الأول: أنّ الله أمرَ باتباع الرسل ، والتأسي بهم ، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا *﴾ [الاحزاب : 21]. وهذا يستلزمُ أنّ اعتقادات الرسول وأفعاله وأقواله جميعاً طاعاتٌ لا محالة ، لأنّه لو جاز أن يقعَ من الرسول معصيةٌ لحصل تناقض ، ولاجتمعَ في هذه المعصية التي وقعت منه الأمر باتباعها وفعلها من حيثُ الأمر بالتأسي به ، والنهي عن اقترافها من حيث كونها معصية منهي عنها، وهذا تناقض ، فلا يمكن أن يأمرَ الله عبداً بشيءٍ في حالٍ ينهاه عنه.

وقد تصدقُ هذه الدعوى لو بقيت معصيةُ الرسول خافيةً غير ظاهرةٍ ، بحيث تختلط علينا الطاعةُ بالمعصيةِ ، ولكن ممّا يقرره أهل السنة القائلون بوقوع الصغائر منهم: أنّ الرسل لا يُقَرُّوْنَ على معصيةٍ أيّاً كانت ، ومن ثَمَّ فإنَّ الوحي ينبّههم إلى ما وقعَ منهم من صغائر الذنوب ، ويدفعهم إلى التوبة منها.

الأمر الثاني: من قال بعصمة الأنبياء من مثل هذه الذنوب ، توهم أنَّ الذنوبَ تنافي الكمال ، وأنّها تكون نقصاً ، وإن تاب المذنبُ منها ، وهو غير صحيح ، فإنَّ التوبة تجبُّ ما قبلها ، والتائبُ من الذنبِ كَمَنْ لا ذنبَ له ، ومِنْ ثَمَّ فإن صغائر الذنوب لا تنافي الكمال ، ولا يتوجه إلى صاحبها اللوم ، بل إنّ العبد في كثيرٍ من الأحيان يكون بعد توبته من معصيةٍ خيراً منه قبل وقوع المعصية ، وذلك لما يشعرُ به من الندم والخوف والخشية ، ولما يقبل عليه من الاستغفار والدعاء ، والعمل الصالح رجاء أن تمحو الحسناتُ السيئاتِ ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ *﴾ [البقرة : 222]. وقال تعالى: ﴿ إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا *﴾ [الفرقان : 70].

وأخيراً: فإنّ مثل هذه الصغائر لا تَنْتَقصُ من مكانة الرسل ، ولا تَقْدَحُ في عصمة الأنبياء ، بل هي أقربُ لتوكيد بشريتهم ، فهم بشرٌ عرضةٌ للخطأ في التصرّفات ، والاجتهاداتِ الشخصية ، ولكنّهم معصومون فيما يتعلّق بالوحي تلقيناً وتبليغاً ، وهذا يجعلهم أهلاً للقدوة والأسوة ، فلو أصبحوا نوعاً اخر من البشر لا تجري عليهم الهنات والهفوات البشرية ، لصعبتِ القدوةُ بهم ، وقال الناس: هؤلاءِ الرسلُ ليسوا مثلنا في أي شيءٍ فكيف نقتدي بهم[113]؟.

---

[112] عقيدة التوحيد ص (244).

[113] العقيدة الإسلامية ص (238).



ومعلوم أنّه لم يقعْ ذنبٌ من نبي ، إلا وسارع إلى التوبة والاستغفار ، يدلُّنا على هذا أنّ القرآن لم يذكر ذنوبَ الأنبياء إلا مقرونةً بالتوبة والاستغفار.

فادمُ وزوجُه عصــيا فبادرا بالتوبة قائلين: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَــنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِــرِينَ *﴾ [الاعراف : 23].

وما كادت ضـربةُ موسـى عليه السـلام تُسْـقِطُ القبطيَّ قتيلاً حتى سـارع طالباً الغفران والرحمة: ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القصص : 16].

وداود ما كاد يشـــعرُ بخطيئته حتى خرَّ راكعاً وأناب: ﴿ فَاسْـــتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ *﴾ [ص : 24][114]، وذلك حين حكمَ لأحدِ الخصمين قبل أن يستمعَ لقول الخصمِ الاخر ، قال تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ *إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لاَ تَخَفْ خَصْـمَانِ بَغَى بَعْضُـنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلاَ تُشْـطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَـوَاءِ الصِّـرَاطِ *إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْـعٌ وَتِسْـعُونَ نَعْجَةً وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ *قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُـؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُـهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ *﴾ [ص : 21 . 24][115].

تاسعاً – شبهات حول عصمة الأنبياء:

ما ورد في القرآن الكريم من نصوص تثبتُ لبعضهم بعضَ المخالفات ، وتنسِبُ إلى بعضهم الاخر الذنب والمعصية ، كادم ، ونوح ، وموسـى عليهم السـلام ، وغيرهم من الأنبياء والمرسـلين ، كما في قوله تعالى في حق ادم عليه السـلام: ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى *﴾ [طه : 121] وقوله سبحانه في حق نوح عليه السلام: ﴿ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ *﴾ [هود : 46] وقوله جل وعلا في حق سـيد المرسـلين (ﷺ): ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح : 2]. فالجواب على ذلك أنّ هذه النصوص محمولةٌ على بعض الوجوه الاتية:

* أنها ليست معصية ، وإنما فِعْلُ خلاف الأولى.

---

114 الرسل والرسالات ص (111).

115 ركائز الإيمان ص (279).



* أنّها ليست معصية ، وإنّما هي خطأٌ في الاجتهاد ، والخطأُ في الاجتهادِ لا يتنافى مع العصمة ، لأنَّ المعصية هي ارتكابُ المحرَّمِ عمداً ، والخطأ هو إبداءُ الرأي في أمر يخالِفُ الحقيقة الموجودة في علم الله تعالى ، أو هو تصرّفٌ على وجهٍ يكونُ له وجهٌ اخرُ أصحّ.

وعلى فرض أنّها مخالفة ومعصية فإنّها قد وقعت قبل النبوة[116]، وإليك شيء من الإيضاح:

أ. ادم عليه السلام:

معصية ادم عليه السلام التي صرّح القرآن بها في قوله تعالى: ﴿ فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سُوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى *ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى *﴾ [طه : 121 ـــ 122] إنّما كانت هذه المخالفةُ والمعصيةُ قبل النبوة ، بدليل قوله تعالى: والاجتباءُ هو اصطفاءُ الله ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾ ، فتكونُ المعصيةُ قد وقعت من ادم عليه السلام قبل النبوة.

وهناك قول اخر أنّ ادم عليه السلام ، إنّما أكلَ من الشجرة ناسياً ، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا *﴾ [طه : 115]. وقيل: إنَّ ادم عليه السلام لما نهي عن الأكل من الشجرة بقوله تعالى: ﴿ وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [البقرة : 35]. ظنَّ أنَّ المرادَ عينُ هذه الشجرة لا جِنْسُها ، فأكل من شجرةٍ أخرى من جنسها فخالَفَ الأمر ، وكلُّ ذلك باجتهادٍ منه ، لا عن سابق تعمّدٍ وإصرارٍ على المخالفة ،[117] كما قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِيْنَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة : 286] ولم يكن من ادم تعمّدٌ أو عزمٌ منه على المعصية ، بدليل الآية التي ذكرناها وذلك ﴿ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا *﴾ اختاره بعضُ المفسرين كالقرطبي وابن العربي.

أو نقول: إنّ المعصيةَ وقعتْ منه قبلَ النبوة ، وذلك ما اختاره صاحبُ تفسير المنار حيث قال: ... ولنا أن نقول: إنّ تلك مخالفة صدرت منه قبلَ أن يدركَهُ عزمُ النبوة ، كما قال جل شأنه ﴿ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا *﴾ والاتفاق إنّما هو على العصمة عن مخالفة الأوامر بعد النبوة ، وقد يكون الذي وقع من ادم نسياناً ، فسُمِّي تفخيماً لأمره عصياناً.. والنسيانُ والسهو ممّا لا ينافي العصمة[118].

وأبو بكر ابن العربي المالكي قد رجّح الأول ، وذهبَ إلى أنَّ المخالفة وقعت من ادم عليه السلام بسبب النسيان ، فقد جاء في كتاب (أحكام القرآن) ما نصّه: كم قال في تنزيه الأنبياء عن الذي لا يليق بمنزلتهم مما يَنْسِبُ الجهلةُ إليهم ـ من وقوعهم في الذنوب عمداً منهم إليها ، واقتحاماً لها مع العلم بها ، وحاشا لله ـ فإنّ الأوساط من المسلمين يتورّعون عن ذلك ، فكيف بالنبيين ، ولكنّ الباري سبحانه بحكمه النافذ ، وقضائه السابق ، أسلم ادم إلى المخالفة ،

---

116 عقيدة التوحيد ص (244 . 245).

117 النبوة والأنبياء ص (71).

118 تفسير المنار (380/1).



فوقع فيها متعمداً ناسياً فقيل في تعمده: ﴿ وعصى آدم ربه﴾ وقيل في بيانِ عذره ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا *﴾ [طه : 115]. ونظيرُها: أن يحلفَ الرجلُ لا يدخل داراً أبداً ، فيدخلها متعمّداً ناسياً ليمينه ، أو مخطئاً في تأويله ، فهو عامدٌ ناسٍ ، ومتعلَّق العمدِ غير متعلِّقِ النسيان.. وجاز للمولى أن يقول في عبده (عصى) تعذيباً ، ويعود عليه بفضله فيقول: (نسَي) تنزيهاً.

ثم قال: ولا يجوز لأحدٍ منا اليوم أن يخبرَ بذلك (أي بعصيان ادم) إلا إذا ذكرناه في أثناء قوله تعالى عنه ، أو قول نبيه (ﷺ) ، فأمّا أن يبتدأى ذلك من قبل نفسه ، فليس بجائزٍ لنا في ابائنا الأدنَيْنَ المماثلين لنا ، فكيف في أبينا الأقدم الأعظم الأكرم ، النبي المقدم ، الذي عذره الله ، وتاب عليه وغفر له[119].

ومن خلال أقوال العلماء والمفسّرين أنّ ادم عليه السلام لم يتعمّد مخالفة أمر الله عز وجل ، وإنّما أكل من الشجرة متأوّلاً ، بطريق الاجتهاد ، أو ناسياً لأمر الله تبارك وتعالى ، فعاتبه ربُّه بإخراجه من الجنة ، وإنزاله إلى الأرض ، وذلك لحكمةٍ إلهيةٍ سابقةٍ ، فلا يجوزُ لنا أن نرميَه بالعصيان ، مع أنَّ ما وقع منه لم يكن إلا بسبب النسيان ، ولا أن نسيءَ الأدبَ ، ولا سيّما بعد أن نزل القرآن بقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى *﴾ [طه : 122][120].

إنّ ادم عليه السلام أكلَ من الشجرةِ ناسياً ، ولم يكن عازماً ولا عامداً ولا قاصداً ، فمعنى لم نجدْ له قصداً ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا *﴾ تعمُّداً للأكل من الشجرة ، ولم يعزم على الأكل ، ولم يتعمّد المخالفة ، ولم يصرّ على ارتكاب المحظور، لم نجد له عزماً على المخالفة ، لأنّه أكل من الشجرة ناسياً ، والنسيانُ ينفي عنه القصدَ والتعمّد ، وفي الآية . على هذا الفهم والتفسير ـــ توجيهٌ لمعصية ادم في أكله من الشجرة ، بأنّه كان في حالةِ نسيانٍ منه تعهده لله ، وعدم تذكره ، ولو كان ذاكراً لعهد الله لما أكل من الشجرة ، وهذا النسيان نفيٌ للعزم والتعمد والتصميم والإصرار ، وكأن جملة توجيهٌ لأكل ادم من ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا *﴾ ، وتحليلٌ لذلك الفعل ، سيق ليكونَ مثل اعتذارٍ له ، وشهادة له ، بأنّه لم يتعمّد ولم يقصد ولم يعزمْ على المخالفة.

ولما تذكّرَ ادمُ عهدَ الله بعدَ الأكل ــ كان ذلك بعد بُدُو السوءات ــ عرف أنه خالفَ عهد الله ، وارتكب المحظور ، وأنّه بذلك عصى ، فسارعَ بالتوبة والإنابة والاستغفار ، وطلبَ من الله أن يغفرَ له ، فتاب الله عليه ، وغفر له ، وقد انطبق على أبي البشر عليه السلام قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ *﴾ [الاعراف : 201].

---

119 النبوة والأنبياء ص (72) أحكام القران ، لابن العربي (1249/3).

120 النبوة والأنبياء ص (73).



فمجرّد أنْ تذكّرَ ادم تاب إلى الله ، فتاب الله عليه ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ *﴾ [البقرة : 37][121].

ب . نوح عليه السلام:

وأمّا نوحٌ عليه السلام ، فما وقع منه فهو أنّه سأل الله عن هلاك ابنه مع مَنْ هلكوا في الطوفان ، مَعْ وعدِ الله بنجاته ونجاةِ أهله ، فقد بيّن القرآن الكريم أنّ الله تعالى أوصــاه أن يحمِلَ أهله والمؤمنين في الســفينة. قال تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَــبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ [هود: 40] ولهذا قال نوح عليه الســلام: ﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ *قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْــأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِــرِينَ *﴾[هود: 45 . 47].

فلم يكن لنوحٍ عليه السلام علمٌ بأنّ نسب ابنه إليه قد انتفى بكفره، وإعراضه عن دعوة الله ، فأعلمه الله تعالى أنّ الصلة الدينية والنسب الروحي أقوى من صلة الدم ، فإذا انقطعت هذه الصلةُ ذهبت بصلةِ النسب والدمِ ، فقال له معلماً إياه: معلّلاً ذلك بأنّ عمله عملٌ غيرُ ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ ، وبذلك ينتفي نســبُه من أبيه ، فلا يكونُ من أهله الذين وُعِدُوا بالنجاة[122]. وعلّلَ نفيَ كونه من أهله الحقيقيين لكفره بقوله بعد ذلك والعجيبُ في الجملة أنّه حوّل الشخص نفسه إلى رُكامٍ من العمل غير ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ ، لم يقل إنه عملَ عملاً غير صالح ، ولكنّه قال: إنه عمل غير صالح ، وفرقٌ بعيدٌ بين الجملتين ، وما أثبته نوح عليه السلام عن ابنه أنه من أهله ، أراد به الصلة النسلية النسبية بينهما ، وما نفاه الله عن ابنه ، أراد به الصلة الإيمانية الاعتقادية فيما أنه ليس من دينه ، فقد انقطعت الصلةُ بينهما ، رغم أنّه ابنه من صــلبه ونســبه ، وقد مات كافراً ، وعرف نوحٌ حقيقةَ نهاية ابنه ، وقد عاتب الله نوحاً عليه السلام عتاباً شديداً على سؤاله ولذلك قال تعالى له: وسارع نوح عليه السلام إلى الاعتذار والاستغفار واللجوء إلى ﴿ فَلاَ تَسْــأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ *﴾ ، قال تعالى: ﴿ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ *﴾ [هود : 47].

ولم يكن نوحٌ عليه السلام معترضاً على حكم الله في ابنه ، ولما عرف الحقيقة التزم بها ، واستغفر ربه ، وأناب ، وعاتبه الله ، لأنه فعل خلافَ الأَوْلى ، فرغم أنّه لم يخطئ في سؤاله ، إلا أنه كان الأَوْلى والأجدرُ به أنْ لا يسأل ، وأنْ يعرفَ

121 مواقف الأنبياء في القران ، تحليل وتوجيه، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي ص (549).

122 عقيدة التوحيد ص (245).

الأمر بدون سؤال ، والله يريدُ من رسوله عليه السلام أن يكون فعلُه دائماً وفقَ الأولى والأفضل والأكمل والأحسن ، والله بعتابه له يرشده إلى ما هو أولى وأفضل رغم أن فعله صواب[123].

ج ـ إبراهيم عليه السلام:

وأمّا ما ذكر عن إبراهيم عليه السلام ، من أنّه كان شاكّاً في الله أوّل أمره ، متأثراً ببيئة قومه في عبادة الكواكب ، فليسَ بصحيحٍ ، بل إنّه نشأ مؤمناً بالله منذُ صغره ، وما كان منه من قوله للكوكب وللقمر وللشمس (هذا ربي) ، فإنّما هو من قبيل التسليم الجدلي في مقام الاستدلال على وجود الله لإقامة الحجّة على قومه ، بحيث يتنزّل معهم إلى مستوى إدراكهم وفهمهم ، ويتدرّجُ معهم حسب اعتقادهم ، ليبطِلَ عقيدتهم في عبادة هذه الالهة المزعومة بالمنطق السليم ، وبالحجة والبرهان ، ولهذا امتدحَ الله عزّ وجلّ إبراهيمَ عليه السلام على الأسلوبِ الذي اتبعه في الاستدلال ، وإليك هذه الآيات: قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ *فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّآلِّينَ *فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ *﴾ [الانعام : 76 ـ 79].

فهذه الأقوال من إبراهيم الخليل لم تكن شكّاً في الله ، ولم تكن جهلاً بالخالق جلّ وعلا.. وإنّما كانت من أجل إقامة الحجة على ضلال قومه ، عن طريق البرهان والاستدلال ، وإفحامهم بأعظم الحُجج الدامغة[124].

فمن ظنَّ بإبراهيمَ الشك ، أو اعتقد أنّه عبدَ الشمس أو الكوكب ، فقد جانب الحق ، وأخطأ الفهم ، وجهل صفات الأنبياء والمرسلين ، وكيف يكون والله جلّ جلاله قد أعطاه العقلَ وكمالَ الرُّشد قبل ذلك ، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ *﴾ [الانبياء : 51].

وقد أطلعَ اللهُ عزّ وجل إبراهيمَ عليه السلام على ملكوت السماوات والأرض ، وأخبرنا بأنّه كان من المؤمنين الموحّدين الكاملين في الإيمان واليقين ، وأنّ الله تعالى قد وهبه وأعطاه الحجة الدامغة ، التي تقصِمُ ظهر كلّ معاندٍ ومكابرٍ ، وأنه في مقام الاستدلال وإقامة البرهان على وجود الله الواحد الأحد ما كان يغلبه أحد ، استمع إلى الآيات الكريمة ، كيف أنّ الله عزّ وجلّ يسوقُ البراهين على كمالِ يقينه ، قال جل ثناؤه: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ *وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ *﴾ [الانعام : 74 ـ 75].

---

[123] مواقف الأنبياء في القران ، ص (76).

[124] النبوة والأنبياء ص (77).



فالله عزّ وجل أعطى إبراهيم الحُججَ المقنعة ، والبراهينَ الساطعةَ ، التي بها قام الدليلُ على وجودِ الصانع الحكيم ، فهو يجادِلُ أباه بقوله ثم يصفُ قومَه بالضلالة في عبادة مَنْ ﴿ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾ يسمع ، ولا يبصر ، ولا يغني عن الحقِّ شيئاً ، . فيقول:﴿ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ *﴾ ثم يأتي البرهانُ على كمالِ يقين إبراهيم بشهادة الله عز وجل: ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ *﴾

والآيات التي جاءت بعدها إنّما هي في مقام الاستدلال على وجود الله ، وفي تقرير الحجة على قومه ، بحيث يتنزّل معهم إلى مستوى إدراكهم وفهمهم ، ويتدرّجُ معهم على حسب اعتقادهم ، فيقول عن النجم (هذا ربي) ثم عن القمر ثم الشمس ، ليبطلَ عقيدتهم في عبادةِ هذه الالهةِ المزعومة بالمنطق السليم ، وبالحجّة والبرهان ، ولهذا ختم الله عزّ وجلّ هذه القصة بقوله جل وعلا: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ*﴾ [الانعام : 83][125].

وأمّا النص الثاني فهو قوله تعالى: [126]﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ *﴾ [البقرة : 260].

فإبراهيمُ الخليل عليه السلام لم يكن شاكّاً في ربه ، أو في قدرته تعالى ، وإنّما سأل عن الكيفية ، ولم يسأل عن الماهية ، فلم يقل: هل تقدِرُ يا ربِّ أن تحيي الموتى والسؤال عن الكيفية إنما هو بدافع الشوقِ والتطلّع لرؤية أسرار الصنعة الإلهية[127].

إنّه التشوّق إلى ملابسة سرِّ الصنعة الإلهية ، وحين يجيءُ هذا التشوّق من إبراهيم الأوّاه ، الحليم ، المؤمن ، الراضي ، الخاشع ، العابد ، القريب ، الخليل ، حين يجيءُ هذا التشوّقُ من إبرهيم ، فإنّه يكشِفُ عمّا يختلجُ أحياناً من الشوقِ والتطلّع لرؤية أسرار الصنعة الإلهية في قلوبِ أقربِ المقربين.

إنّه تشوّقٌ لا يتعلّقُ بوجودِ الإيمانِ وثباتِهِ وكمالِهِ واستقراره ، وليس طلباً للبرهانِ أو تقويةٍ للإيمان ، إنّما هو أمرٌ اخر له مذاقٌ اخر ، إنّه أمرُ الشوق الروحي إلى ملابسةِ السرِّ الإلهي ، في أثناء وقوعه العملي ، ومذاقُ هذه التجربة في الكيان البشري مذاقٌ اخر غيرُ مذاق الإيمان بالغيب ، ولو كان هو إبراهيم الخليل الذي يقول لربه ويقول له ربه ، وليس وراءَ

---

[125] النبوة والأنبياء ص (74 . 75).

[126] فصرهن إليك: ضمهن إليك.

[127] عقيدة التوحيد ص (246).



هذا إيمانٌ ولا برهانٌ للإيمان ، ولكنّه أراد أن يرى يدَ القدرةِ وهي تعملُ ، ليحصلَ على مذاق هذه الملابسةِ فيستَرْوِحَ بها ، ويتنفّس في جوّها ، ويعيش معها ، وهي أمرٌ اخرٌ غير الإيمان الذي ليس بعده إيمانٌ[128].

كان إبراهيم عليه السلام إنساناً لا يعرِفُ حدّاً للشبع من المعرفة الإلهية ، كان دائمَ الطلب: هل من مزيد؟ أعطني يا ربِّ من معرفتك المزيد ، لذا ففي حديثٍ يرويه البخاريُّ ومسلم يقول: يقول الرسول (ﷺ): «نحن أحقُّ بالشكّ من إبراهيم»[129]، أي بما أننا لا نشكُّ في إحياء الموتى ، فمِنَ الأَوْلى عدمُ وجودِ الشكِّ عندَ إبراهيم[130].

التعريضات الثلاثةُ لإبراهيم عليه السلام:

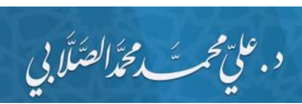
ورد في السنة النبوية ما يشيرُ ظاهرُه إلى عدم (العصمة) بحقّ إبراهيم عليه السلام ، وذلك في قوله (ﷺ): «لمْ يَكْذِبْ إبراهيمُ إلاّ ثلاثَ كذباتٍ: اثنتين منهنَّ في ذاتِ اللهِ ، قوله: وقوله: وقال: بينما هو ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ * بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ يومٍ وسارةُ ، إذ أتى على جبارٍ من الجبابرة ، فقيل له: إنّ هاهنا رجلاً معه امرأةٌ من أحسن النّاس ، فأرسل إليه، فسأله عنها: مَنْ هذهِ؟ قال: هي أختي. فأتى ، فقال لها: إنَّ الجبارَ إنْ يعلمْ أنّكِ امرأتي يَغْلِبُني عليك ، فإنْ سألكِ فأخبريه أنّك أختي ، فإنّكِ أختي في الإسلام ، ليس على وَجْه الأرضِ مؤمنٌ غيري وغيرُك ، فأرسلَ إليها ، فأتى بها ، وقام إبراهيمُ يصلّي ، فلمّا دخلت عليه ذهبَ يتناولها بيده ، فأُخِذَ ، فقال: ادعي الله لي ولا أضرُّك ، فدعتَ الله فأُطلقَ ، ثم تناولها الثانية ، فأُخذ مثلها أو أشدّ ، فقال: ادعي الله ولا أضرّك ، فدعت اللهَ ، فدعا بعضَ حجبته فقال: إنّكَ لم تأتني بإنسانٍ ، إنّما أتيتني بشيطانٍ ، فأخدمَها هاجرَ ، فأتته وهو قائمٌ يصلّي ، فأومأ بيده مُهيم؟ قالت: ردّ اللهُ كيدَ الكافرِ في نحرِه ، وأخذَ هاجر» قال أبو هريرة: تلك أمكم يا بني ماء السماء[131].

هذا الحديث الشريف ليس فيه ما يدلُّ على عدم العصمة ، لأنّ النبي (ﷺ) لم يقصدْ بهذه الكلماتِ الثلاثة حقيقةً معنى الكذب ، إنّما قصد أنَّ إبراهيم الخليل أخبرَ بإخباراتٍ توهِمُ الكذب في الصورة ، وهي ليست بكذبٍ في الحقيقة والواقع[132]، وهذه هي التعريضات الثلاثة لإبراهيم عليه السلام ، وسنتناولها جميعاً لنرى الوجْهَ الحقيقيّ لعصمته بعد معرفة ماهية الحوادث.

إني سقيم:

يبين القرآن الكريم التعريض الأول فيقول: ﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيْعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ *إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ *إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ *أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ *فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ *فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ *فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ *فَتَوَلَّوْا

[128] في ظلال القران سيد قطب (1/301 ـ 302).
[129] البخاري (3372).
[130] العصمة النبوية ، محمد فتح الله كولن ص (49).
[131] البخاري (3358).
[132] النبوة والأنبياء ص (80).



عَنْهُ مُدْبِرِينَ *﴾ [الصافات : 83 ـــ 90] كان إبراهيم عليه السلام يقصِدُ من الإشارةَ إلى السبب الرئيس لعدم شعوره ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ *﴾ ، كانتِ الأصنامُ مصدرَ حزنه وسقمه ، وشعرَ بأنّه ما لم يهدم هذه الأصنام ويكسرها ، فلن يجدَ طعماً للراحة ، وعندما قال لمن حوله: ظنوه مريضاً من الناحية ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ *﴾ ، فتولّوا عنه ، إذ كانوا يصرّون على اصطحابه معهم لمشاركتهم في احتفالهم الديني ، وما إن خرجوا من عنده حتى أسرعَ ليحطم الأصنام ، مبيناً بذلك السبب الحقيقي لسقمه ، غير أنّه استعمل في كلامه معهم تعريضاً يفهمون منه شيئاً غير مقصودِهِ الحقيقي ، ولكنّه لم ينحرف في كلامه هذا إلى الكذب أبداً ، كل ما هناك أنَّ قومه لم يفهموا قصده الحقيقي ، وليس هذا بغريبٍ عن قومه الذين صمّوا اذانهم عن الاستماع إلى الحق[133].

بل فعله:

والتعويض الثاني هو: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ *إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ *قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ *قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ *قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ *قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ *وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ *فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ *قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ *قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ *قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ *قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَاإِبْرَاهِيمُ *قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ *﴾ [الانبياء : 51 ـ 63].

فقوله: لم يكن في الحقيقة ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ ، وإنّما هو نوع من الحُجّة الدامغة ، والبرهانِ الساطع أراد أن يقيمَه إبراهيمُ على قومه ، فحين سألوه مَنْ حطّم هذه الأصنام؟ أشار إلى الصنمِ الأكبرِ ، سخريةً وتهكماً بهم وبهذه الأصنام ، ثم لما راهم متعجّبين من كلامه أجابهم بالجواب المسكت ﴿ فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ *﴾ [الانبياء : 63][134].

إنك أختي:

لا توجد في التعريض الثالث ذرّةٌ من الكذب ، بل لا يمكِنُ حتى إطلاق كلمة (التعريض) على كلامه ، فهو كلامٌ صحيحٌ صادِقٌ تمامَ الصدق ، إذ أوصى زوجته سارة أن تقول للنمرود ولرجاله إن سألوها (إنني أخته) ولو سألوا إبراهيم عليه السلام عنها لقال: إنها أختي ، ذلك لأنَّ إبراهيم عليه السلام لو قال: إنّها زوجته لامتدت أيديهم بالأذى والسوء إليها ، ولوقع هو وزوجته في ضيق شديد ، وربّما اضطر إلى ترك تلك البلاد ، والرحيل عنها ، غير أنّ ما قاله

133 العصمة النبوية ص (52).

134 النبوة والأنبياء ص (80).



إبراهيم عليه الســـلام مطابِقٌ للحقيقة ، ذلك لأنَّ جميع المؤمنين إخوة كما يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات : 10].

والإيمانُ هو الرباط الأول الذي يربط الإنسـان بالاخرين ، واختلاف الزمان والمكان لا يكونُ حائلاً بين أخوة الإيمان ، والمؤمنون والمؤمنات إخوة فيما بينهم دونَ أيّ تفرقة بين ذكر وأنثى ، أمّا نقاط التقارب الأخرى فتأتي بعد هذه الأخوة، فإن قام مؤمنٌ بتطليق زوجته، انقطعت رابطة الزوجية فيما بينهما، ولكنَّ رابطة الإيمان تبقى موجودةً ، فإبراهيم عليه السلام أشار إلى هذه العلاقة ، وإلى هذه الرابطة ، وقال عن زوجته: إنّها أخته ، وهذه الكلمة تفيد عينَ الحقيقة[135].

استغفاره لأبيه:

لما أصـــرّ والد إبراهيم عليه الســـلام على كفره ، وردّ عليه دعوته بغلظةٍ وفظاظةٍ ، ردّ عليه إبراهيم عليه الســـلام بحلمٍ وهدوءٍ ، ووعده أن يســتغفرَ الله له ، قال تعالى: ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي ياإِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا *قَالَ سَلاَمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا *﴾ [مريم : 46 ـ 47].

واستغفار إبراهيم لأبيه مبنيٌّ على إيمانه بالله ، أي: إنْ امنَ أبوه طلبَ من الله أن يغفر له ، أمّا إن لم يؤمن ، وأصرّ على كفره ، فلن يغفِرَ الله له ، لأنَّ إبراهيم عليه الســـلام يعلمُ أنّ الله لا يغفِرُ لإنســـانٍ كافرٍ بالله ، ماتَ على كفره وشركه، فهذه مسألة

اعتقادية جاء بها جميعُ الرسـل ، ويعلمُها جميعُ الرسـل ، إذن لا يُلامُ إبراهيم على اسـتغفاره لأبيه ، لأنَّ اسـتغفاره له مشروط بالإيمان ، كأنّه باستغفاره يقول: اللهم إنْ امنَ أبي فاغفر له ، وقد أخبرنا الله عن استغفاره لأبيه في قوله تعالى: ﴿ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّآلِّينَ *﴾ [الشعراء : 86].

ولكنّ أباه لم يؤمن ، وأصرّ على كفره ، عند ذلك لم يستمرّ إبراهيم عليه السلام في استغفاره له ، وإنّما تبرأ منه ، وقطع صـلته به ، وايات القرآن في هذه صـريحةٌ ، قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ *وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ *﴾ [التوبة : 113 ـ 114].

وحتى لا يستشـهدَ أحدُهم بفعل إبراهيم عليه السـلام ، وحتّى لا يسـتغفرَ لقريبه الكافر مقتدياً بإبراهيم في اسـتغفاره لأبيه ، فقد وضّحت الآية ملابساتِ ذلك: والمعنى: استغفرَ إبراهيمُ عليه السلام لأبيه بسبب الوعد الذي وعد ﴿ وَمَا

---

[135] العصمة النبوية ص (55).

كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ ، حيث وعد أباه أن يستغفرَ له ، وذلك في قوله: ﴿ سَلاَمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا *﴾ [مريم : 47] وعندما تبيّن له حقيقة موقف أبيه تبرّأ منه: لقد تبرّأ إبراهيمُ من أبيه في ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ *﴾ ، وأظهرَ عداوته له ولقومه[136].

د . يوسف عليه السلام:

وفي قصّةِ يوسف الصديق عليه السلام ، التي قصها علينا القرآن الكريم ، صورةٌ مشرقة عن نزاهة هذا النبيّ الكريم ، وبراءته وعصمته ، مع ما أعطاه الله عزّ وجلّ من الجمال ، وما كساه من البهاء والجلال ، حتى افتُتِنَتْ به امرأةُ العزيز ـ عزيز مصر ـ فصنعت ما صنعت بقصد إغوائه وإغرائه ، ولكنّه عليه السلام كان أصلبَ من الحديدِ ، وأقوى من الجبالِ ، فلم تؤثّر فيه تلك العواصفُ الهوج ، والمكايد التي اصطنعتها النسوةُ مع امرأةُ العزيز ، والتي قصَّ علينا القرآن الكريم طرفاً منها ، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ *فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتْ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ *﴾ [يوسف : 30 ـ 31].

ومما تجدرُ الإشارةُ إليه أنّ بعض الناس ممن ليس لهم قدمٌ راسخٌ في العلم ، قد اغترّوا ببعض رواياتٍ إسرائيليةٍ باطلةٍ مكذوبة ، لا يصحُّ أن تروى بَلْهَ أن تذكر في كتب التفسير ، وقد نبه عليها العلماء الأثبات ، والحفّاظ الثقات ، لأنها تصادِمُ النصوص القرآنية الكريمة ، وتتنافى مع عصمة الأنبياء الأطهار[137].

وهذا النصُّ الذي فُسّرَ تفسيراً خاطئاً لا يتفق مع عصمة الأنبياء ، ولا ينسجِمُ مع النصوص القرآنية الأخرى هو قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف : 24]. لقد فسروا الهمَّ من يوسف على أنّه مطاوعةٌ منه لامرأة العزيز ، وعزمٌ على قربانها ، وفسّروا البرهانَ على أنّه الصورة التي ظهرَ بها والده يعقوب عليه السلام وهو يعضُّ على أنامله ، حتى تركَ يوسفُ ذلك العمل القبيح ، وهذا التأويلُ باطلٌ ، ولا يجوزُ بحالٍ من الأحوالِ.

وقد نبّه كثيرٌ من المفسرين إلى أمثال هذه الإسرائيليات ، وبيّنوا بطلانها ، لئلا ينخدعَ بعضُ المسلمين بها ، فيظنوا أنّها أخبارٌ حقيقة موثوقة.

إنَّ الآية الكريمة لها مفهومٌ دقيق ، ينبغي ألاّ يغفل عنه واسعُ العلم ، دقيقُ البصر ، ذلك أنَّ الهم الذي وقع من امرأة العزيز كان هَمَّ سوءٍ ، كانت تدعوه إلى نفسها من أجل عمل الفاحشة ، ومن أجل ذلك راودته عن نفسها ، بعد أن

---

136 مواقف الأنبياء في القران ص (106).

137 النبوة والأنبياء ص (81).



أحكمت إغلاقَ الأبوابِ ، وحاصـــرته في الدار ، كما قال تعالى: ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِـــهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ *﴾ [يوسف : 23].

أما الهمُّ الذي كان من يوسف الصديق عليه السلام فلم يكن هَمّ سوء ، ولم يكن عزماً على خيانة أو فاحشة ، وما خطر بباله عليه السلام شيءٌ مما يتوهمه بعض الجهلاء من إرادةِ السوء أو عمل الفاحشة ، وإنّما كان همه أن يدفع عنه هذه المكيدة الخبيثة التي دبرتها له سـيدته امرأة العزيز ولهذا نجد المقاومة في موقفه ، والمقاومة العنيفة في حديثه: ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾.

فالهم منها غير الهم منه ، همت به طلباً ، وهم بها دفعاً ، كما يقول بعض المفسرين.
أو كما قال البعض الاخر: إن الهمّ منها وقع فعلاً ، وأما هم يوســف فكان بالطبع ، أي إنه عليه الســـلام مال إليها بطبيعته الفطرية مع الامتناع عن مقارفةِ السوء ، والإنسانُ غير مواخذٍ بما تشتهيه نفسُه ، أو يميل إليه طبعه ، ما لم يعزم على فعل الشيء ، وهذا ما فسره النسفي حيث قال: هم عزم هم الطباع مع ﴿ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾

ويرى بعض المفسرين أنّ في الآية تقديماً وتأخيراً ، ويصبح المعنى ﴿ لَوْلاَ أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [:يوسـف: 24] المعنى لولا برهان الله أي عصمته ليوسف لهم بها ، ولكنّ عصمة الله تعالى له حالت دون ذلك الهم[138]. وهذا أرجح الأقوال.

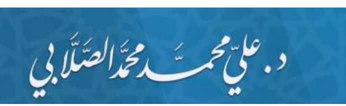
الأدلة على عصمة يوسف عليه السلام:

هناك وجوه عشرة على عصـمة يوسـف وبراءته عليه السلام من تلك التهمة الشنيعة ، التي نسبها إليه مَنْ لا يعرفُ قدر النبوة ، ولا عظمة الرسالة ، ولا صفات الأنبياء الكرام صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وهي:

الوجه الأول: امتناعه عليه السـلام عن مطاوعةِ امرأة العزيز ، ووقوفه في وجهها بكلِّ صـلابة وعزم ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ *﴾.

الوجه الثاني: فِرَارُه عليه السـلام من امرأةِ العزيز بعد أن حاصـرته ، وضـيّقت عليه الخناق ، وراودته عن نفسـه بالغصب والإكراه ، ولو كان يوسـف همّ بالفاحشــة لما فرّ منها ، لأن الذي يريدُ عمل الفاحشــة يُقْدِمُ ولا يفر قال تعالى: ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ﴾ [يوسف : 25].

138 النبوة والأنبياء ص (84).



الوجه الثالث: شهادةُ بعض أقرباء زوجة العزيز ببراءة يوسف ، حيث أشار بفحص ثوبه ، لأنه إذا كان هو الطالِبُ لها وهي الممتنعة ، فإنّ ثوبه سيُشَـقُّ من أمام ، وإن كانت هي الطالبةُ ، وهو الممتنعُ الهاربُ منها ، فإنَّ ثوبه سيشـقُّ من خلفٍ ، قال تعالى: ﴿ وَشَـهِدَ شَـاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُـهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَـدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ *فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ*﴾ [يوسف : 26 ـ 28].

الوجه الرابع: تفضيله السجن على الفاحشة: ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ *﴾ [يوسف : 33].
وهذا من أعظم البراهين على براءته عليه السلام ، إذ كيف يُعْقَلُ أن يفضِّلَ شخصٌ السجنَ على شيء يرغبه ويتمنّاه ، ولو أنّه استجاب لدعوتها ، وطاوعها على نفسها ، لما لبث في السجن بضعَ سنين بسبب تلك التهمة التي ألحقتها به ، فدعوى هَمّ يوســف بامرأة العزيز باطلٌ ظاهِرُ البطلان ، يدرك ذلك كلُّ منصــفٍ درسَ تاريخ هذا النبيّ الكريم ، وفهم معاني القرآن[139].

الوجه الخامس: ثناء الله عز وجل عليه في مواطن عديدة من السورة كما قال تعالى: ﴿ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ *﴾ [يوسف : 24] ، وقال تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ *وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ *﴾ [يوسف : 22 ـ 23].

فقد أخبر الله تعالى بأنّه من المحســنين ، وأنّه من عباده المخلصــين ، الذين اختارهم الله لنبوته ، وأخلصــهم لطاعته وعبادته ، ولا يكونُ ثناءُ الله تبارك وتعالى إلاّ على مَنْ صـفت نفسُـه ، وطهرت سـريرتُه مِنْ كلِّ نية سـيئة ، وكل عملٍ قبيح ، فكان من الأطهار المقربين؟.

وقد شـهد رسـول الله (ﷺ) له أيضـاً بالصـلاح والتقى وبالطهارة والاسـتقامة ، قال (ﷺ): «الكريمُ ابنُ الكريم ابنُ الكريم ابنُ الكريم ، يوسفُ بنُ يعقوب بن إسحاقَ بن إبراهيم»[140]، وكفى بذلك شرفاً وفضلاً.

الوجه السادس: اعترافُ امرأة العزيز نفسِها بعصمته وعفّته أمام جمع من نسوةِ المدينة ، كما قال تعالى:
﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَـلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِـكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَـرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ * قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ * ﴾ [يوسف: 31 ـ 32].

139 النبوة والأنبياء ص (85).

140 البخاري (3382).





فهذه شهادةٌ صريحةٌ واضحةٌ على عِفّة يوسف وبراءته ، صدرت من امرأة العزيز نفسها ، التي اتهمته أمام زوجها بإرادة عمل الفاحشة ، ولفظ يدل على الامتناع ﴿ فَاسْتَعْصَمَ﴾ ، والتحفّظ الشديد ،كأنّه في عصمةٍ من الأمر ، وهو يجتهد في الاستزادة منها ، وهذا بيانٌ على أنَّ يوسف عليه السلام بريءٌ ممّا فسر به بعضُ الناس الهمَّ والبرهان.

الوجه السابع: ظهورُ أماراتِ البراءة على يوسف عليه السلام بالدلائل الواضحة ، والبراهين الساطعة ، أمام جميع الشهود ، ومع ذلك فقد أقدم عزيزُ مصرَ على سجنه ، إيهاماً للناس ، وستراً على زوجته ، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيات لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ *﴾ [يوسف : 35].

الوجه الثامن: استجابةُ الله عزّ وجلّ لدعوة يوسف حين طلب من ربّه أن يصرفَ عنه كيدهن ومكرهن الخبيث به ، ولو كانت له رغبةٌ في مطاوعة زوجة العزيز لما طلبَ من الله أن يصرِفَ عنه كيدهنّ ، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ *﴾ [يوسف : 34].

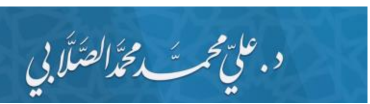
الوجه التاسع: عدم قبول يوسف الخروجَ من السجن حتى تظهرَ براءته أمامَ الناس جميعاً ، وذلك يدلُّ على منتهى شهامته وعفته ونزاهته ، ولولا ذلك لما فضل البقاء في السجن بعد أن مكث فيه سبعَ أو تسعَ سنوات ، ولاقى فيه الشدائدَ ، فلم يقبل الخروجَ من السجن حتى يقرَّ الجميعُ ببراءته ، وتتنزّه ساحتُه من تلك التهم الشنيعة: ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ *﴾ [يوسف : 50].

الوجه العاشر: وأخيراً الاعترافُ الواضح الصريحُ من النسوة ومن امرأة العزيز التي اتهمته بنفسها ، وذلك لا يدعُ ذرةً من شك في براءة يوسف ونزاهته وعصمته ممّا نُسِبَ إليه ، وذلك حين جمعَ الملك النسوة ، وسألهن عن يوسف الصديق ، فأجبنه بجوابٍ صريحٍ قاطع ، قال تعالى: ﴿ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ *﴾ [يوسف : 51 . 52][141].

هـ يونس عليه السلام:

قال تعالى: ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ *فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ *﴾ [الانبياء : 87 ـ 88] وقد سُمّيَ يونُسُ (ذا النون) كما سُمِّي (صاحبَ الحوت) في قوله تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ [القلم : 48] ، لأنه عاش في بطن الحوت فترةً ، وبقى فيها حياً بإذن الله.

141 النبوة والأنبياء ص (88).



واللطيفُ أنَّ القرآن اعتبرها صـــحبةً بين يونسَ والحوت! وكأنَّ الحوتَ عندما ابتلعَ يونس عليه الســـلام كان صـــاحِباً مســـاعِداً له ، ابتلعه لِحِرْصِـــهِ وإشـــفاقه عليه ، لأنّه خافَ أن تأكله باقي الحيتان والأسماك ، فأنقذه منهم بابتلاعه ، بهدف حمايته ، لا بهدفِ أكله ، ولهذا صارت بينهما صحبة[142].

وقد أخبرنا الله أنّ ذا النون عليه السلام ذهبَ مغاضباً ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا﴾ ، و: اسمُ ﴿ مُغَاضِبًا﴾ ، فعله الماضي رُباعي (غاضَبَ) والألف في الفعل ألفُ مفاعلة ، تدل على المشاركة.

والمشاركة تدل على أنّ الغضبَ كان بين الطرفين: الطرف الأول هو يونس عليه السلام ، لكنْ مَنْ هو الطرفُ الثاني؟ ذهب ناقلو الإســرائيليات إلى أنَّ الطرف الثاني هو الله سـبحانه ، أي يونس عليه الســلام غادرَ قومه ، وذهبَ عنهم مغاضباً لربّه ، قالت الإسرائيليات: غضب يونس من ربه ، لأنه لم يوقع العذابَ على قومه خلال ثلاثة أيام ، ممّا جعله يبدو أمامهم كاذباً ، وغضبَ الله منه ، لأنّه غادرهم بدون إذن منه ، وهذا فعلٌ لا يجوز أن يصدرَ عن مسلمٍ صالح ، فكيف يصدرُ عن نبي كريم؟

لقد كانت المغاضبةُ بين يونس عليه السلام وبين قومه الكافرين: غضب هو منهم ، لأنّهم رفضوا دعوته ، وأصرّوا على الكفر ، وغضبوا هم منه ، لأنه أنذرهم العذاب ، وأخبرهم أنّه سيقع بهم بعد ثلاثة أيام[143].

فالمغاضبةُ كانت لقومه ، والمعاتبة كانت لعدم الصبر ، ولخروجه من بين قومه بغير إذنٍ من الله ، ولهذا أمرَ اللهُ رسولَه الكريم (ﷺ) أن يصبرَ على تكذيبِ المشركين ، وألا يكونَ ضيّقَ الصدر ، قليلَ الصبرِ ، كما كان شأنُ يونس عليه السلام مع قومه ، حيث ضربه الله تعالى مثلاً فقال عز ومن قائل: ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ *لَوْلاَ أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ *فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ *﴾ [القلم : 48 ـ 50].

وقوله تعالى: جواب ومعلوم أن في اللغة العربية هي حرف امتناع ﴿ ﴾ ، أي إنّها تفيدُ امتناعَ الجوابِ لوجود الشرط.

ومعنى الآية الكريمة: لولا أنّ الله أنعم عليه بإجابة دعائه ، وقبول عذره ، لنبذ من بطن الحوت أي: الفضـــاء وهو مذموم أي: معاتَبٌ ﴿ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ *﴾ ، لكنّه رُحِمَ فنبذَ غيرَ مذموم[144].

142 مواقف الأنبياء في القران ص (349).

143 المصدر نفسه ص (350).

144 النبوة والأنبياء ص (91).



وأما معنى قوله تعالى: ظنّ يونس أن الله لن يضـــيّق عليه بإبقائه عند هؤلاء ﴿ فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ ، المنتظرين للعذاب ، وسيوجّهه إلى قوم اخرين يدعوهم إلى الله.

فالتقدير هنا: التضييقُ ، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ [سبأ : 11] أي: ضيق في الدرع لتكونَ الفتحةُ على قدر المسمار.

عن ابن عباس رضــي الله عنهما قال: أرســل لي معاويةُ بن أبي ســفيان رضــي الله عنه ، فقال لي: لقد ضــربتني أمواجُ القرآن. قلت: بماذا؟ قال: في قوله تعالى: ﴿ فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ﴾ ، أيظنُّ عبدٌ من عبيدِ الله أنَّ اللهَ لا يقدِرُ عليه ، فضلاً عن نبيٍّ من الأنبياء؟ قلت له: ليس ذلك من القُدْرَةِ ، إنّما ذلك من التقدير بمعنى التضييق ، قال تعالى: ﴿ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ أي ضـيق عليه رزقه. والذي فعله يونس عليه السـلام خلافُ الأولى ، وعَمِلَ ما يسـتحق عليه اللوم من الله ، ولذلك قال تعالى: ﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ *﴾ [الصافات : 142].

وفرقٌ بين اللوم والعقاب: العقاب يكونُ عن وقوع في ذنب ، بترك واجب ، أو فعل حرام ، أمّا اللومُ فإنه يكون عن فعل خلافِ الأولى ، مع جواز ذلك الفعل ، لامَ الله يونُسَ ، لأنه فعل خلافَ الأولى ، وقدّر له أن يمُرَّ بتلك المحنة الشديدة.

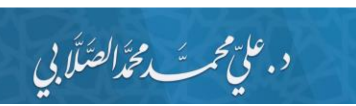
وكانت المحنةُ الأولى ابتلاءً من الله له ، والابتلاءُ لا يكونُ بســـبب الذنوب دائماً ، فقد يكونُ بهدف رفع درجات المبتلى عند الله ، ومن هذا الباب ابتلاءُ الأنبياء ، كما كانت محنةُ يونس عليه السلام درساً وعبرةً للمؤمنين من بعده ، وأخبرنا الله عنها في القرآن ، لنقف عندها متدبّرين ، ونأخذَ منها العبرة والعظة ، ونأخذ منها دروســـاً في العقيدة والإيمان والإقبال على الله ، واللجوء إليه ، والاعتماد عليه عند المحن والمصائب والابتلاءات[145].

وصف يونس عليه السلام نفسه بالظلم:

عندما وجد يونُسُ نفسَه في الظلمات ، أقبل على الله ، ذاكراً مسبّحاً ، داعياً متضرّعاً ، وكان تسبيحُه ودعاؤه سبباً لنجاته ، قال تعالى: ﴿ فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَـــبِّحِينَ *لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ *﴾ [الصـــافات : 143 . 144].

أي: سبب نجاته أن سبّح الله في بطن الحوت ، ولو لم يسبّحِ اللهَ لهضمه الحوتُ ، وحوله إلى غذاءٍ له ، قال تعالى: ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُـبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ *﴾ [الانبياء : 87] ، وفي وَصْـفِ يونسَ عليه السـلام لنفسِـه بالظلم . هذا معناه أنّ يونس عليه السـلام

[145] مواقف الأنبياء في القران ص (351 ، 352).



أدركَ وهو في بطن الحوت أنّه تســـرّع بالخروج من ﴿ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ *﴾ ، قبل توجيه الله له ، وأنّ الله عاتبٌ عليه ، ولامه من أجل ذلك ، وقدّر أن يوقع به هذا البلاء ، ويمتحنه بهذه المحنة ، وعند ذلك انطلق لســـانُه بأنه كان ظالماً في فعله وتصـرفه وخروجه ، وطلب من الله أن يتجاوزَ عن ظلمه ، وهذا من بابِ شـعوره بالتقصـير في حق الله ، وحيائه من الله ، وطلبه تفريج الهم والكرب والضيق ، فهذا الاعترافُ منه من بابِ ذكره لله وتوسله إليه[146].

و. عصمة النبي (ﷺ):

أدلة عصمته (ﷺ):

دلّتْ نصوصُ القرآن والسنة على عصمة نبينا محمد (ﷺ) في تبليغ شرع الله إلى الخلق.

وقد عُرِّفت عصـمة النبيِّ بأنها: لطفٌ من الله تعالى يحمِلُ النَبيَّ على فعلِ الخير، ويزجُرُه عن الشـرِّ ، مع بقاءِ الاختيار تحقيقاً للابتلاء[147].

1. فمن القرآن الكريم:

أ ــ قال تعالى: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى *إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى *﴾ [النجم : 3 ــ 4] فالآية نصٌّ في عصمة لسانه (ﷺ) من كل هوى وغرض ، فهو لا ينطق إلا بما يوحى إليه من ربه ولا يقول إلا ما أُمر به ، فيبلّغه إلى الناس كاملاً موفوراً من غير زيادة ولا نقصان ، وهذه الآية شهادةٌ وتزكيةٌ من الله لنبيه ورسوله محمد (ﷺ) في كل ما بلغه للناس من شرع الله.

ب ـــ وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ *لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ *ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ *فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ *﴾ [الحاقة : 44 . 47].

فالآيات نصّت على أنّ الله سبحانه وتعالى لا يؤيّدُ من يكذِبُ عليه ، بل لابد أن يظهر كذبه ، وأن ينتقم منه ، ولو كان محمد (ﷺ) من هذا الجنس ، كما ما يزعمُ الكافرون فيما حكاه الله عنهم: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الشـورى : 24] لأنزل الله به من العقوبة ما ذكره في هذه الآيات ، وحيث إنّ الرسـول (ﷺ) لم يقع له شـيء من ذلك ، فلم يهلكه الله ، ولم يعذبه ، فهو على هذا لم يتقوّل على الله ما لم يقله ، ولم يفتر شـيئاً من عند نفسـه ، وبهذا ثبتتْ عصمتُه في كلِّ ما بلّغه عن ربه عز وجل[148].

---

[146] المصدر نفسه ص (355).

[147] مواقف الأنبياء ص (356 . 357).

[148] نسيم الرياض في شرح الشفا . للقاضي عياض ، للخفاجي (4/39).

قال ابن كثير بعد أن فسّر هذه الآيات: والمعنى في هذا أنّـــه صادقٌ راشدٌ ، لأنّ الله عزّ وجلّ مقرٌّ له ما يبلّغه عنه ، ومؤيد له بالمعجزات الباهرات والدلالات القاطعات[149].

ج ــــ وقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَتَّخَذُوكَ خَلِيلاً *ولَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً *إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا *﴾ [الاسراء : 73 ـ 75].

فقد أخبر تعالى عن تأييده لرسوله (ﷺ) ، وتثبيته وعصمته ، وسلامته من شر الأشرار ، وكيد الفجار ، وأنه تعالى هو المتولي أمره ونصـره ، وأنّه لا يكله إلى أحدٍ من خلقه ، بل هو وليه وحافظه ، وناصـره ومؤيده ، ومظهره ومظهر دينه على من عاداه وخالفه في مشارق الأرض ومغاربها[150].

2 ـ من السنة النبوية:

أ ــــ حديث طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه ، وجاء فيه قوله (ﷺ): «ولكن إذا حدثتُكم عنِ اللهِ شيئاً فخُذُوا به ، فإنِّي لنْ أكذبَ على الله»[151].

ب ــ حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله (ﷺ) أريدُ حفظَه ، فنهتني قريشٌ ، فقالوا: إنك تكتبُ كلَّ شيءٍ تسمعه من رسول الله (ﷺ) ، ورسولُ الله (ﷺ) بشرٌ يتكلّم في الغضبِ والرضا ، فأمسكتُ عن الكتابِ ، فذكرتُ ذلك لرسول الله (ﷺ) فقال: «أكتب فوالذي نفسي بيده ما خرجَ منّي إلا حقٌّ»[152].

ج ــ حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله (ﷺ) أنه قال: «إنّي لا أقولُ إلا حقّاً» قال بعض أصحابه: فإنك تداعبنا يا رسول الله. قال: «إني لا أقول إلا حقاً»[153].

149 حقوق النبي على أمته (130/1).

150 المصدر نفسه (131/1).

151 تفسير ابن كثير (417/4).

152 المصدر نفسه (53/3).

153 مسلم (95/7).



- عصمته (ﷺ) قبل مبعثه:

دلت النصوص الثابتةُ على أنّ النبيَّ (ﷺ) معصومٌ من الكفر والشرك منذ نشأته ، فلم يُعْهَدْ عنه (ﷺ) أنه سجد لصنم ، أو استلمه ، أو غير ذلك من أمور الشرك التي كان يفعلُها قومُه ، فقد فطره الله على معرفته ، والاتجاه إليه وحده ، وهذا هو المعلومُ من سيرته ، فمن النصوص التي يُسْتَدَلّ بها على هذا الأمر ما يلي:

حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أنّ رسول الله (ﷺ) أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان ، فأخذه فصرعه ، فشق عن قلبه ، فاستخرج القلبَ ، فاستخرجَ منه علقةً ، فقال: «هذا حظُّ الشيطانِ منك» ثم غسله في طِسْتٍ من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه ، ثم أعاده في مكانه ، وجاء الغلمان يَسْعَوْنَ إلى أمه ـ يعني ظِئْرَه ـ[154] ، فقالوا: إنَّ محمداً قد قُتِلَ ، فاستقبلوه وهو منتقع اللون ، قال أنس: وقد كنتُ أرى أثرَ ذلك المخيطِ في صدره[155].

فالحديث نصَّ على إخراجِ جبريل لحظِّ الشـيطان منه (ﷺ) وتطهيره لقلبه ، فلا يقدرُ الشـيطانُ على إغوائه ، إذ لا سبيل له عليه ، وهذا دليلٌ على تنزيهه من الشرك منذ صغره (ﷺ)[156].

والنصـوص في مثل هذا كثيرةٌ ، وقد عُني بجمعها مَنْ ألّف في (دلائل النبوة) مثل الحافظ أبي نُعيم الأصـفهاني ، فقد عقد فصـــلاً في كتابه (دلائل النبوة) بعنوان: ذكر ما خصّـــه الله عزّ وجل به من العصـــمةِ ، وحماه من التديّن بدينِ الجاهلية.. وقد أورد تحت هذا العنوان العديدَ من الأحاديث والشواهد في هذا الشأن[157].

وكذلك فعل البيهقي في (دلائل النبوة) أيضاً فعقد عنواناً لهذا الموضوع فقال: باب ما جاء في حفظ الله تعالى رسولَه (ﷺ) في شبيبته عن أقذار الجاهلية ومعايبها لما يريده به من كرامته برسالته حتى يبعث رسولاً[158].

ومثلهما السـيوطي في (الخصـائص الكبرى) حيث قال: باب اختصـاصـه (ﷺ) بحفظ الله إياه في شـبابه عمّا كان عليه أهل الجاهلية[159].

---

154 ظئره: أي مرضعته حليمة السعدية.

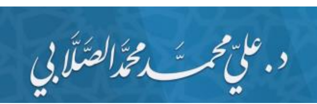
155 مسلم (1/101 ، 102).

156 حقوق النبي على أمته (1/134).

157 دلائل النبوة ، للأصفهاني ص (143 ـ 147).

158 دلائل النبوة ، للبيهقي (2/30 ـ 42).

159 الخصائص الكبرى ، للسيوطي (1/148 ، 152).





- إزالة ما يوهم عدم إيمان نبينا وضلاله قبل بعثته:

وردت بعضُ النصـوص التي قد يتوهّمُ منها البعضُ أنَّ رسـول الله (ﷺ) كان على كفرٍ وضـلالٍ قبل بعثته ، فمن تلك النصوص:

أ ـ قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ﴾ [الشورى : 52].

فقد يتوهّمُ البعضُ أنّ هذه الآية تعني انتفاء معرفة النبي (ﷺ) للإيمان بالكلية قبل بعثته ، بمعنى أنّه لم يكن مؤمناً.

والجواب على ذلك أنّ هذا الفهمَ خاطئٌ ، لأنّ الإيمان في قوله: ﴿ وَلاَ﴾ مصـدرٌ بمعنى ﴿ الإِيمَانُ﴾ ، فيكون المراد: أي ما يجبُ الإيمانُ به من الفرائض والأحكام الشـرعية التي كُلّف بها علماً وعملاً ، فالمنفي هو الإيمان التفصـيلي لا الإجمالي ، فقد كان النبيُّ (ﷺ) قبل نزول الوحي إليه مبغِضـاً للشـرك وعبادةِ الأصـنام ، ومتّجهاً إلى الله وحده ، فلما نزلت عليه الفرائض والأحكام الشـرعية التي لم يكن يدري بها قبل الوحي امن بها وطبقها ، فهذا هو المعنى الصـحيح للاية ، كما ذكر ذلك علماءُ التفسير عند تفسيرها[160]، قال ابن كثير:
على التفصيل الذي شرع لك في القرآن قال الشوكاني: ومعنى أنه كان (ﷺ) ﴿ وَلاَ الإِيمَانُ﴾ يعرِفُ تفاصيل الشرائع ، ولا يهتدي إلى معالمها ، وخَصَّ الإيمان لأنه رأسها وأساسها[161].

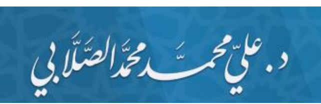
ب ـ ومن النصوص كذلك قوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فَهَدَى *﴾ [الضحى : 7].
فقد يتوهّم البعضُ أنّ الآية تعني أنّ نبينا (ﷺ) كان على ضـــلال قبل مبعثه ، وهذا فهمٌ خاطأى ، وباطلٌ تردّه النصـوص التي سـبق إيرادها ، والتي نصّـت على أنّ النبيّ (ﷺ) كان من أول حاله إلى نزول الوحي عليه معصـوماً من عبادة الأوثان ، وقاذوراتِ أهل الفسق والعصيان[162].

وقد أشار القرطبيُّ عند تفسيره لهذه الآية إلى بطلان هذا الفهم حيث قال: فأمَّا الشرك فلا يُظنُّ به[163].

---

160 حقوق النبي على أمته (140/1).

161 تفسير ابن كثير (122/4).
162 فتح القدير (530/4).
163 تفسير القرطبي (99/20).



وأمّا المعنى الصحيح لهذه الآية فقد أشار العلماء إلى عِدّةِ معانٍ صحيحة لهذه الآية تشترك جميعاً في تنزيه النبيّ (ﷺ) عن أن يُنْسَبَ إليه شيءٌ من الشرك ، أو الكفرِ قبل بعثته ، ومن تلك المعاني ما يلي:

أن يفسَّر الضلالُ هنا بمعنى الغَفْلةِ ،كما في قوله تعالى: ﴿ لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنْسَى *﴾ [طه : 52] وكما في قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ *﴾ [يوسف : 3]. والمعنى أنّه وجدك غافلاً عما يُرادُ بك من أمر النبوة[164].

وقال بعضُهم: معنى (ضالاً) لم تكن تدري ما القرآن والشرائع؟ فهداك الله إلى القرآن وشرائعِ الإسلام ، وهو بمعنى قوله تعالى: وعلى هذا التفسير يكون المعنى: أي وجدك ضالاً عن شريعتك التي أوحاها ﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ﴾ ، لا تعرفها قبل الوحي إليك فهداك إليها[165]وقال بعضهم: معنى الآية أي وجدك في قوم ضُلاّل فهداهم الله بك[166].
ولقد أورد العلماء عدداً من المعاني لهذه الآية منها ما هو معنوي ، ومنها ما هو حسي، وهي معانٍ كلها حسان[167].

ومن النصوص كذلك قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا القرآن وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ *﴾ [يوسف : 3].

فليس المقصودُ بالغفلة هنا الشرك والغواية ، إنّما المقصودُ منها الغفلة عن قصة يوسف مع أبيه وإخوته ، كما يوضّحُ ذلك سياقُ الآية ، فهذه القصة وأمثالها لا تُعْلَمُ إلا من الوحي ، فلهذا لا يلحقه نقصٌ بسببها ، وهذا هو ما ذكره علماء التفسير عند هذه الآية[168]، قال الشوكاني: والمعنى أنك قبل إيحائنا إليك من الغافلين عن هذه القصة[169].

- عصمته من الكذب في غير الوحي والتبليغ:

من المعروف عن سيرته (ﷺ) قبل البعثة وبعدها أنه متّصفٌ بكل خُلُقٍ فاضلٍ من صدقٍ ، وأمانةٍ ، وبرٍّ ، وصلة رحم ، وإحسان ، وجودٍ ، إلى غير ذلك من محاسن الأخلاق ، التي جبله الله عليها منذ نشأته ، وحرى به (ﷺ) أن يكون كذلك ، فقد اختاره الله لحمل الأمانة العظمى التي هي أداءُ الرسالة ، وتبليغُها إلى الناس كافةً ، فكان لابدّ من إعداده لهذه المهمة ، ولذا فقد فطره الله على كلِّ خُلقٍ فاضل كريم ، وقد جمع الله خصال الخير كلها ، فلم يكن يُدْعَى إلا بالأمين.

---

[164] تفسير القرطبي (96/20) ، فتح القدير (458/5).
[165] تفسير القرطبي (96/20 ، 97)
[166] فتح القدير (458/5) ، تفسير القرطبي (97/20).
[167] المصدر نفسه (97/20) بتصرف حقوق النبي على أمته (142/1).
[168] حقوق النبي على أمته (142/1).
[169] فتح القدير (4/3).



ومن الأدلة التي يستدل بها على اتصافه بالصدق قبل بعثته ما يلي:

أ ـــ قول خديجة بنت خويلد: رضي الله عنها حينما أتاها النبيُّ (ﷺ) خائفاً بعد أن لقيه جبريل في غار حراء ، وقال لها: «إني قد خشيتُ على نفسي» فقالت له: كلا ، أبشرْ ، فوالله لا يخزيك اللهُ أبداً ، فواللهِ إنك لتصلُ الرحمَ ، وتصدقُ الحديثَ ، وتحمِلُ الكَلَّ ، وتُكْسِبُ المعدومَ ، وتقريَ الضيفَ ، وتعينُ على نوائب الحق[170].

ب ـــ إجماع قريش على الإقرار بصدقه: حينما جمعها ليصدعَ بالدعوة جهراً ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ *﴾ [الشعراء : 214] صعد النبي (ﷺ) على الصفا ، فجعل ينادي: يا بني فِهْرٍ ، يا بني عدي ـ لبطون قريش ـ حتى اجتمعوا ، فجعل الرجلُ إذا لم يستطعَ أن يخرجَ أرسلَ رسولاً لينظرَ ما هو ، فجاء أبو لهب وقريش ، فقال: «أرأيتكم لو أخبرتُكم أنّ خيلاً بالوادي تريدُ أن تغيرَ عليكم أكنتم مصدّقِيَّ؟» قالوا: ما جربنا عليك إلا صِدْقاً ، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»[171].

فالشاهد من الحديث قولهم: (ما جربنا عليك إلا صدقاً) فالنبيُّ (ﷺ) انتزع منهم هذه الشهادة الجماعية بصدقه ، وانتفاء الكذب عنه ، لعلمه بما قد سيقع من تكذيبهم له عند إخبارهم بأمر الرسالة[172].

على الرغم من تكذيب قريش للنبيّ (ﷺ) في دعوة النبوة ، إلا أنّ أحداً منهم لم يجرؤ على وصفه بالكذب في سواها، فقد قال أبو جهل للنبي (ﷺ): إنّا لا نكذّبك ، ولكن نكذِّبُ الذي جئتَ به ، فأنزل الله تعالى: ﴿ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ *﴾ [الانعام : 33].

وكذلك عندما سأل الأخنسُ بن شُريقٍ أبا جهلٍ بعدما خلا به يومَ بدرٍ ، فقال: يا أبا الحكم ، أخبرني عن محمّدٍ أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس هاهنا أحدٌ من قريش غيري وغيرك يسمع كلامنا ، فقال أبو جهل: ويحك ، والله إنَّ محمداً لصادقٌ ، وما كذبَ محمّدٌ قط ، ولكن إذا ذهبَ بنو قصي باللواء والحجابة والسقاية والنبوة ، فماذا يكون لسائر قريش[173]. هذه بعضُ النماذج التي تدلُّ على صدقه (ﷺ) ، وعصمته من الكذب قبل بعثته ، وكذا الحال بعد بعثته (ﷺ) ، فهذه أخبار نبينا محمد (ﷺ) وسيرته وشمائله معتنًى بها ، مستوفاة تفاصيلها ، لم يرد في شيء منها تداركه (ﷺ) لخبرٍ صدر منه رجوعاً عن كذبة كذبها ، ولو وقع شيء من ذلك لنقل إلينا[174].

---

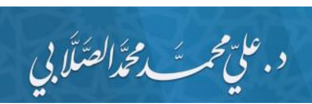
170 البخاري رقم (4953) ، فتح الباري (715/8).

171 البخاري (4770).

172 حقوق النبي على أمته (148/1).

173 تفسير ابن كثير (130/2).

174 حقوق النبي على أمته (150/2).





مسألة وقوع الخطأ منه:

أمّا ما يقعُ من الخطأ منه في جانب الأمور الدنيوية ، فمن الأدلة على ذلك حديثُ رافع بن خَدِيج رضـي الله عنه قال: قدم نبيُّ الله (ﷺ) المدينةَ ، وهم يؤبّرون النخل (يلقحون النخل) فقال: «ما تصنعون؟» قالوا: كنا نصنعه. قال: «لعلكم لو لم تفعلوا كان خيراً» فتركوه فنقصت. قال: فذكروا ذلك له ، فقال: «إنّما أنا بشرٌ إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشيء من رأيٍ ، فإنّما أنا بشر»[175].

وفي رواية أنس: «أنتم أعلم بأمر دنياكم»[176]، وفي رواية طلحة: «إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه ، فإني إنما ظننت ظناً فلا تواخذوني بالظن ، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به ، فإني لا أكذب على الله عز وجل»[177].

وكذلك الأمر بالنسبة للأحكام البشرية الجارية على يديه وقضاياهم ، ومعرفة المحق من المبطل ، وعلم المصلح من المفسد ، فهذه أمورٌ اجتهادية ، يجتهد فيها برأيه ، فقد قال رسول الله (ﷺ): «إنّكم تختصمون إليّ ، ولعلَّ بعضكم أنْ يكونَ ألحنَ بحجته من بعض ، فأقضي له على نحو ما أسمع منه ، فمن قطعتُ له من حقّه أخيه شيئاً فلا يأخذْه ، فإنّما أقطعُ له به قطعة من النار»[178].

فاقتضت حكمته تعالى أن لا يكونَ معصوماً في هذا الجانب ، وذلك حتى تقتدي به الأمة من بعده في النظر في القضايا والأحكام على ما كان يقضي به بين الناس[179].

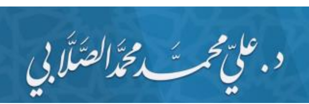
قال القاضي عياض: وتجري أحكامه (ﷺ) على الظاهر وموجب غلبات الظن بشهادة الشاهد ، ويمين الحلف ، ومراعاة الأشبه ، ومعرفة العِفاص والوكاء ، مع مقتضى حكمة الله في ذلك[180].

خلاف الأولى والأحسن والأفضل:

الرسول (ﷺ) محفوظ بعناية الله ، محاط برعايته ، فلا يمكن أن تقعَ له مخالفة لأمر الله ، أو يرتكب ذنباً يستحقّ عليه العقوبة ، ولكنّه (ﷺ) قد يجتهدُ فيفعل خلافَ الأولى والأفضل والأحسن ، فيعاتبه ربه ، وليس هذا من قبيل الذنب والمعصية ، وإنما هو من قبيل التنبيه إلى فعل الأكمل والأفضل.

---

175 مسلم (95/7).
176 مسلم (95/7).
177 مسلم (95/7).
178 البخاري رقم (2680).
179 حقوق النبي على أمته (159/2).
180 الشفا (875/2).





وإليك بعضُ النصوص الكريمة التي ورد فيها العتابُ لرسول الله (ﷺ):

أ. عتاب رسول الله (ﷺ) بشأن أسرى بدر:

قال ابن عباس: ولما أسروا الأسرى ، قال رسول الله (ﷺ) لأبي بكر وعمر: «ما ترون في هؤلاء الأسارى؟».

فقال أبو بكر: يا نبي الله ، هم بنو العم والعشيرة ، أرى أن تأخذَ منهم فديةً ، فتكون لنا قوةً على الكفار ، فعسى اللهُ أن يهديهم للإسلام ، فقال رسول الله (ﷺ): «ما ترى يا ابن الخطاب»؟ قلت: لا ، والله يا رسول الله ، ما أرى الذي رأى أبو بكر ، ولكنّي أرى أن تمكنّا فنضربَ أعناقهم ، فتمكِّنَ علياً من عقيلٍ فيضربَ عنقه ، وتمكنُّني من فلانٍ (نسيباً لعمر) فأضربَ عنقه ، فإنّ هؤلاء أئمةُ الكفرِ وصناديدُه.

فهوى رسول الله ما قال أبو بكر ، ولم يهوَ ما قلتُ (يعني ما قاله عمر).
فلمّا كان من الغدِ جئتُ ، فإذا رسول الله (ﷺ) وأبو بكر قاعدين يبكيان. قلت:
يا رسولَ الله ، أخبرني من أيِّ شيء تبكي أنتَ وصاحبُكَ ، فإنْ وجدتُ بكاءً بكيتُ ، وإن لم أجدْ تباكيتُ لبكائكما.

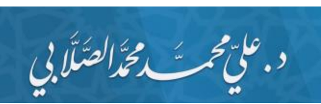
فقال رسول الله (ﷺ): «أبكي للذي عَرضَ عليّ أصحابُكَ من أخذهم الفداءَ ، لقد عُرِضَ عليّ عذابُهم أدنى من هذه الشجرة (شجرة قريبة من نبي الله (ﷺ)) وأنزل الله عز وجل قول الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ ﴾ إلى قوله: فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً﴾ فأحلّ الله الغنيمةَ لهمُ].

وفي رواية عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما كان يومُ بدرٍ ، وجيء بالأسرى ، قال رسول الله (ﷺ): «ما تقولون في هؤلاء الأسارى؟».
فقال أبو بكر: يا رسول الله ، قومُكَ وأهلُكَ ، استبقهم ، واستأنِ بهم ، لعلّ الله أنْ يتوبَ عليهم.

وقال عمر: يا رسول الله ، كذّبوك وأخرجوك ، قرّبهم فاضربْ أعناقهم.
وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله ، انظر وادياً كثيرَ الحطب ، فأدخلهم فيه ، ثم أضرمْ عليهم ناراً.

قال: فقال العباس: قطعتَ رحِمَك. قال: فدخل رسول الله (ﷺ) ، ولم يردَّ عليهم شيئاً.

فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر ، وقال ناسٌ: يأخذ بقول عمر ، وقال ناس: يأخذُ بقول عبد الله بن رواحة.



قال: فخرجَ عليهم رسول الله (ﷺ) فقال: «إنَّ الله ليُليّنُ قلوبَ رجالٍ فيه حتى تكونَ ألينَ من اللبن ، وإنّ الله ليُشَدِّدُ قلوب رجالٍ فيه حتى تكونَ أشــدَّ من الحجارة ، وإنَّ مثلكَ يا أبا بكر مثل إبراهيمَ عليه الســلام حيث قال: ﴿ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *﴾ [ابراهيم : 36]. وإنّ مثلكَ يا أبا بكر كمثل عيسى عليه السلام قال: ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *﴾ [المائدة : 118] وإن مثلك يا عمرُ كمثل موسى ، قال: ﴿ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ *﴾ [يونس : 88].

ثم قال رسول الله (ﷺ): «أنتمُ اليومَ عالةً فلا ينفلتنَّ أحدٌ منهم إلا بفداءٍ أو ضربِ عُنُقٍ»[181].

وأما الآيات التي نزلت بشــأن الأســرى ، فقوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْــرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ *لَوْلاَ كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَــبَقَ لَمَسَّــكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ *فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الأَسْــرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ *﴾ [الانفال : 67 . 71].

لقد كان هذا العتاب توجيهاً من الله لرسوله (ﷺ) إلى الأفضل والأولى والأصحّ والأصوب لهم في تلك الحادثة[182].

والحقيقة أنّ التحذيرَ الواردَ هنا ، والدرسَ المرادَ تلقينه هو للمســلمين جميعاً ، أمّا بالنســبة لرســول الله (ﷺ) فهو لم يكن له من قبلُ ، ولن يكون له من بعدُ أيّ ميلٍ للدنيا ، فهذا التحذيرُ موجَّهٌ للمسلمين في شخص الرسول (ﷺ) ، لكي يعتبروا ، ويستفيدوا من التوجيه الإلهي[183].

وما أجمل ما قاله ابن القيم حول هذه المسألة: وقد تكلّم الناسُ في أيّ الرأيين كان أصوب: فرجحتْ طائفةٌ قول أبي بكر ، لاســتقرار الأمر عليه ، وموافقته الكتاب الذي ســبق من الله بإحلال ذلك لهم ، ولموافقته الرحمة التي ســبقت الغضــبَ ، ولتشــبيه النبي (ﷺ) له في ذلك بإبراهيم وعيســى عليهما الســلام ، وتشــبيهه لعمر بنوح وموســى عليهما الســلام ، ولحصــول الخير العظيم الذي حصــل بإســلام أكثر أولئك الأســرى ، ولخروج من خرجَ من أصــلابهم من المسلمين ، ولحصول القوة التي حصلت للمسلمين بالفداء ، ولموافقة رسول الله (ﷺ) لأبي بكر أولاً ، ولموافقة الله له اخراً ، حيث استقرّ الأمر على رأيه ، ولكمال نظر الصديق ، فإنه رأى ما يستقرّ عليه حكم الله اخراً ، وغلب جانب الرحمة على جانب العقوبة.

---

181 مسلم رقم (1763).

182 رواه أحمد رقم (3452).

183 كتاب الرسول في القران ، ص (53).





قالوا: وأمّا بكاءُ النبيِّ (ﷺ) ، فإنّما كان رحمةً لنزول العذاب بمن أراد بذلك عرض الدنيا ، ولم يُرد ذلك رسـول الله (ﷺ) ولا أبو بكر ، وإن أراده بعضُ الصحابة ، فالفتنةُ كانت تعُمّ ولا تصيبُ من أراد ذلك خاصة[184].

ب . إذنُ الرسول (ﷺ) المتخلّفين عن غزوة تبوك:

قال تعالى: ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ *﴾ [التوبة : 43].

لما عزم رسول الله (ﷺ) إلى تبوك استأذنه بعضُ المنافقين في التخلّف ، لأعذار أبدوها ، فأذنَ لهم فيه لسببين:

أحدهما: أنّ الله لم يقدّم إليه في ذلك أمراً ولا نهياً.
ثانيهما: أنّه لم يرد أن يجبرهم على الخروج معه ، فقد يكون في خروجهم على غير إرادتهم ضررٌ.

فأنزل الله تعالى يبيّن له أنَّ تركَ الإذنِ لهم كان أولى ، لما يترتّب عليه من انكشافِ الصادقِ من الكاذبِ ، فيما أبدوه من الأعذار ، واستفتح ربُّ العزّةِ ما أنزله بجملةٍ دعائية هي قوله: على عادةِ العرب في استفتاح كلامهم بهذهِ ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ ، أو بقولهم: (غفر الله لك) ، أو (جعلت فداك) ، أو نحوها يقصدون تكريمَ المخاطب ، إذ كان عظيمَ القدر ، ولا يقصدون المعنى الوصفيَّ للجملة[185]، ولو بدأ ربُّ العزة حبيبه ومصطفاه بقوله: لخيفَ عليه أن ينشقَّ قلبُه من هيبة هذا ﴿ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ ، لكنّ الله تعالى برحمته أخبره بالعفو حتى سكن قلبه ، ثم قال له: بالتخلف حتى يتبيّنَ لك الصادقُ في عذره من الكاذب؟ وفي هذا بيانٌ لعظيم منزلته عند ﴿ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ ، مما لا يخفى على ذي لب.

ومن إكرامه إياه ، وبرّه به ، ما ينقطع دون معرفة غايته نياط القلب ، فليتأمّل كلُّ مسـلمٍ هذه الملاطفةَ العجيبة في السؤال من ربِّ العالمين ، المنعم على الكلِّ ، المستغني عن الجميع ، ويستثير ما فيها من الفوائد ، وكيف ابتدأ بالإكرام قبل العتب ، وهل سمعتم بمعاتبةٍ أحسـنَ من هذا إن كان ثَمَّ عتبٌ ، وأنس العفو قبل ذكر الذنب إن كان ثَمَّ ذنب ، وهكذا في أثناء عتبه براءته ، وفي طيّ تخويفه تأمينه وكرامته[186]، إن قوله تعالى: غايةٌ ﴿ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ يمكِنُ أن يدعى فيها أن تكون دالةً على أنه (ﷺ) ترك الأَوْلى والأفضل ، وقد بينتُ أنَّ ترك الأولى ليس بذنب[187].

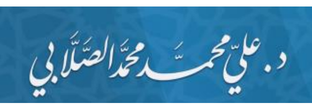
---

184 العصمة النبوية ، ص (84).

185 زاد المعاد ، لابن القيم (111/3).

186 رد شبهات حول عصمة النبي ، د. عماد الشربيني ص (181).

187 رد شبهات حول عصمة النبي ص (182).



ج ـ عتاب رسول الله (ﷺ) بشأن عبد الله بن أم مكتوم:

أجمع المفسرون والأخباريون على أنّ مطلع سورة (عبس) نزل عتاباً من الله لرسوله (ﷺ) لموقفه من الصحابي عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه ، ومطلعُ السورة النازلُ في تلك الحادثة هي قوله تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى *أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى *وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى *أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى *أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى *فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى *وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى *وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى *وَهُوَ يَخْشَى *فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى *كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ *فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ *فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ *مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ *بِأَيْدِي سَفَرَةٍ *كِرَامٍ بَرَرَةٍ *﴾ [عبس : 1 ـ 16].

أتى عبدُ الله بن أم مكتوم النبيَّ (ﷺ) وهو يناجي عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشـــام ، والعبّاس بن عبد المطلب ، وأبي بن خلف ، وأمية بن خلف ، ويدعوهم إلى الله تعالى ، ويرجو إسلامهم ، فقال له ابن أم مكتوم: يا رسول الله ، علّمني ممّا علمك الله ، وجعل يناديه ، ويكرّرُ النداء ، ولا يدري أنّه مشتغِلٌ مقبِلٌ على غيره ، حتى ظهرت الكراهيةُ في وجه رسول الله (ﷺ) لقطعه كلامه ، فعبسَ رسول الله (ﷺ) وأعرضَ عنه ، وأقبل على القوم الذين يكلّمهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآيات ، وكان رسول الله (ﷺ) بعدَ ذلك يكرِمُه ، وإذا راه يقول: «مرحباً بِمَنْ عاتبني فيه ربي»[188].

فأنتَ ترى من ســبب النزول أنَّ النبي (ﷺ) كان مشــغولاً مع رؤســاء قريش ، وكان يحرصُ على دعوتهم ، لأنهم إذا أسلموا أسلم بإسلامهم الناسُ ، وقد جاءه هذا الأعمى في وقت كان (ﷺ) مشغولاً فيه ، فترك إجابته لما هو ـــ في نظره ـ أهمّ وأعظم ، فعاتبه الله على هذا ، وبيّن له ما هو الأفضل والأحسن[189].

د ـ ثبات الرسول (ﷺ) أمام مساومات الكفار:

إنّ الله هو الذي ثبّتَ الرســول (ﷺ) على الحقِ ، وجعله يواجه مســاوماتٍ وإغراءاتٍ وعروض الكافرين بمزيدٍ من الثبات ، وقد امتنَّ الله على رسوله (ﷺ) في تثبيته على الحق ، وأخبره أنه لولا فضله عليه بذلك التثبيت لاستجاب للمشــركين ، فقال له: ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَتَّخَذُوكَ خَلِيلاً * وَلَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً *إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا *وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَ يَلْبَثُونَ خِلاَفَكَ إِلاَّ قَلِيلاً *سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً *﴾[الإسراء: 73 ـ 77][190].

وقد أحسن محمد الطاهر ابن عاشور في تفسيره للايات فقال: ولولا أنْ عصمناك من الخطأ في الاجتهاد ، وأريناك أنّ مصلحة الشدّة في الدين ، والتنويه باتباعه ـــ ولو كانوا من ضعفاء أهل الدنيا ـــ لا تعارضُها مصلحةُ تأليفِ قلوب

[188] أسباب النزول ، للواحدي ص (254).

[189] النبوة والأنبياء (99).

[190] عتاب الرسول في القران ص (90).



المشركين ، فإنّ إظهارَ الهوادةِ في أمر الدّين تطمعُ المشركين في الترقي إلى سؤال ما هو أبعدُ مدًى مما سألوه ، فمصلحةُ ملازمةِ موقفِ الحزمِ معهم أرجحُ من مصـــلحةِ ملاينتهم وموافقتهم ، ولولا ذلك كله كدتَ تركنُ إليهم قليلاً ، أن تميلَ إليهم ، أي: تعدهم بالإجابة إلى بعض ما سـألوك ، استناداً لدليل مصـلحةٍ مرجوحةٍ واضـحةٍ ، وغفلة عن مصـلحة راجحةٍ خفيةٍ ، واغتراراً بخفة بعض ما سألوه في جانب عظيم ما وعدوا به من إيمانهم.

وركون الرسول (ﷺ) إليهم غيرُ واقع ، ولا مقاربُ الوقوع ، وقد نفته الآية بأربع أمور هي: (لولا) الامتناعية ، وفعل المقاربة (كاد) المقتضي أنه ما كان يقعُ الركون ، ولكن يقع الاقترابُ منه ، والتحقير المستفاد من كلمة (شيئاً) والتقليل المستفاد من كلمة (قليلاً) ، أي: لولا إفهامنا إياك وجه الحق لخيف أن تقتربَ من ركونٍ ضعيفٍ قليل ، ولكنَّ ذلك لم يقع ، ودخلت (قد) في حيّزِ الامتناع فأصـــبح تحقيقها ﴿ ولَوْلاَ﴾ ، أي: لولا أن ثبتناك لتحقق قربُ ميلك القليل ، ولكنّ ذلك لم يقع ، لأنّا ثبتناك[191].

لقد أخبر الله تعالى عن تأييده لرسوله (ﷺ) وتثبيته ، وعصمته وسلامته من شرّ الأشرار وكيدِ الفجار ، وأنّه تعالى هو المتولي أمره ونصــره ، وأنّه لا يكله إلى أحدٍ من خلقه ، بل هو وليُّه ، وحافظه ، وناصــره ، ومؤيده ، ومظهر دينه على من عاداه وخالفه في مشارق الأرض ومغاربها[192].

هـــ - قال تعالى: ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ *﴾ [يونس : 94].

فهذه الآية الكريمةُ ليس فيها ما يدلُّ على شـــك الرســـول (ﷺ) في الوحي الذي نزل عليه ، وإنّما هو من باب (الفرض والتقدير) كما هو عادةُ العربِ في تقدير الشـــك ليبنَى عليه ما ينفي احتمال وقوعه ، كما تقول لابنك: (إن كنت ابني فلا تكن بخيلاً) ومعنى الآية على هذا التقدير: إنْ وقع منك يا محمد شكٌ ـــ فرضاً وتقديراً ـــ فيما قصصنا عليك من أخبار الأنبياء السابقين كنوحٍ وإبراهيمَ ، فسأل علماءُ أهل الكتاب الذين يقرؤون الكتاب من قبلك ، فإنّهم على علم من ذلك ، فالغرضُ وصفُ الأحبار بالعلم ، لا وصفُ النبيّ بالشك والريب ، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنه: لا واللهِ ما شكَّ رسول الله (ﷺ) طرفةَ عينٍ ، ولا سأل أحداً منهم[193].

و ـــ قال تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا *وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا *﴾ [الاحزاب : 1 ـ 2].

---

[191] تفسير ابن عاشور (15/175 ـ 176).

[192] النبوة والأنبياء ص (100).

[193] صحيح تفسير ابن كثير ، مصطفى العدوي (2/659).



فإنّ هذا النصّ الكريم ليس فيه ما يدلَّ على وقوع الذنب من الرســول (ﷺ) ، وإنّما هو خطابٌ للأمة توجّه إلى القائد والزعيم في صــورة الخطاب له (ﷺ) ، والمراد به أمته ، كما يقول الملك لقائد جيشـه: (لا تتسـامحْ مع العدو ، وقاتلهم حتى يخضــعوا لحكمك ، وينقادوا لأمرك ، ولا تقتل طفلاً ولا امرأة ولا شــيخاً كبيراً ، ولا تُظْهِرْ أمام عدوك الخوفَ والفزعَ إلى اخر ما يأمر به) فهو يخاطب القائد ، والمراد به الجند ، وينبّه الزعيمَ ، والمرادُ به الأمة ، والدليل أنَّ المقصــود بالخطاب هو الأمة لا شــخص الرسـول (ﷺ) أنَّ الله تعالى ختم الآيات الكريمة بصـيغة الجمع: ولم يقل: بما ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا *﴾ ، فهو مثل قوله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَــاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق : 1]. هي خطابٌ للأمة في شخص الرسول (ﷺ) ، وإذا حملنا الخطابَ على الرسول (ﷺ) فليس فيه ما يدلّ على أنّ الرسولَ (ﷺ) همّ بطاعة الكافرين والمنافقين ، أو فعل معصية حتى أمره الله تعالى بالتقوى ، وإنّما غايةُ ما في الأمر أنَّ الله تعالى حذّره من مكر الكافرين ، وخداع المنافقين ، وأطلعه على خبيئةِ نفوسهم ، ليكونَ الرسول (ﷺ) منهم على حذرٍ ، ولئلا ينخدع بمعسول كلامهم[194].

ز ـ أمر الرسول (ﷺ) بالبقاء مع المؤمنين المستضعفين:

قال تعالى: ﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِـيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَـابِهِمْ مِنْ شَـيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ *﴾ [الانعام : 52].

ففي هذه الآية تحذيرٌ له (ﷺ) على إجابة كفّار قريش في طرد المؤمنين المســتضــعفين، وليس فيها ما يدلّ على أنّه طردهم فعلاً ، وإنّما هو عرضٌ عرضه المشركون على رسول الله (ﷺ) فجاء التنبيه من الله والتحذير من فعله.

روى مسـلم عن سـعد بن أبي وقاص رضـي الله عنه قال: كنا مع رسـول الله (ﷺ) سـتة نفر ، فقال المشـركون للنبي (ﷺ): اطرد هؤلاء ، لا يجترئون علينا ، قال: وكنتُ أنا وابن مســعود ، ورجل من هُذيل ، وبلال ، ورجلان لســتُ أسميهما ، فوقع في نفس رسـول الله (ﷺ) ما شـاء الله أن يقع ، فحدَّث نفسـه ، فأنزل الله عز وجل قوله: ﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الانعام : 52][195].

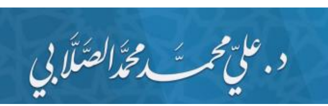
وعن عبد الله بن مسـعود رضـي الله عنه قال: مرَّ الملأ من قريش برسـول الله (ﷺ)، وعنده خبَّاب وصُـهيب وبلال وعمّار ، وغيرهم من ضُـعفاء المسـلمين ، فقالوا: يا محمد ، أرضـيتَ بهؤلاء من قومك؟ اطردهم فلعلّك إنْ طردتهم أن نتبعك ، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الانعام : 52][196].

---

194 النبوة والأنبياء ص (101).

195 مسلم (2413).

196 تفسير ابن كثير (2/138، 139).



وبعدما نهى الله رسوله (ﷺ) عن الاستجابة لطلب المشركين بطرد المؤمنين أمره أن يكرمَ المؤمنين إكراماً اخر ، وذلك بأن يبادرهم بالسؤال عندما يجيئون إليه ، ويبشّرهم برضا الله عنهم ، ومغفرته لهم ، ورحمته بهم ، ليزدادوا عبادةً لله ، ونشاطاً في طاعته ، ويكثروا من التوبة والاستغفار ، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *﴾ [الانعام : 54].

فالرسول (ﷺ) لم يرتكبْ خطأً ، لأنه لم يوافق الكفّار المشركين على طلبهم ، ولم يطرد المستضعفين من مجلسه ، وكل ما في الأمر أنّ نفسه حدَّثته بشيء ، ووقع في قلبه ما شاء الله أن يقع ، كما قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، ولعلّه مال إلى الموافقة على طلبهم لحرصه على إيمانهم ، ولكنّ الله تداركه ، فأنزل الله عليه الآيات

المذكورة من سورة الأنعام ، لتنهاه عن ذلك ، وأكّدها بايات من سورة الكهف ، قال تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا *﴾ [الكهف: 28] لقد شاء الله لرسول الله (ﷺ) الأفضل والأكمل وأرشده إليه ، فالتزامه (ﷺ) مقرّراً الميزان الرباني الصحيح في التكريم والتفضيل ، وهو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات : 13].

وقد روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله (ﷺ) قال: «إن الله لا ينظرُ إلى صوركم وأموالِكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[197].

ح- زواج الرسول (ﷺ) بزينب بنت جحش رضي الله عنها:

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الاحزاب : 37].
يحلو لبعض الناس أن يثيروا بعضَ الشبهات حولَ زواج النبي (ﷺ) بزينبَ رضي الله عنها ، التي كانت عند مولاه ومتبناه زيد بن حارثة ، وأن يقيموا زوبعةً من الزوابع الهوج حول عصمته (ﷺ) ، فقد زعموا أنّ محمداً رأى زينبَ فأحبها ، ثم كتم هذا الحبَّ ، ثم بعد ذلك أظهره ، ورَغِبَ في زينب ، فطلّقها زوجُها زيدٌ ، وتزوّجها رسول الله (ﷺ) ، وزعموا أنّ العتاب في الآية لكتمان هذا الحب.

وكذبوا بعضَ الأكاذيب الأثيمة ، فزعموا أنَّ النبي (ﷺ) مرَّ ببيت زيدٍ وهو غائبٌ ، فرأى زينبَ ، فوقع منها في قلبه شيءٌ ، فقال: سبحان مقلِّب القلوب فسمعت زينبُ التسبيحةَ ، فنقلتها إلى زيدٍ ، فوقع في قلبه أن يطلّقها ،

[197] مسلم رقم (2564).



حتى يتزوّجَ بها الرسـول (ﷺ) إلى غير ما هنالك من المزاعم الباطلة ، التي تلقّفها المستشـرقون ومَنْ على شـاكلتهم ، وأباحوا لأنفسـهم الخوضَ في الأعراض ، والتكلّم في حق النبي الكريم (ﷺ) ، وتصـويره بصـورة يترفّع عنها كثيرٌ من الناس ، وكان سندهم في ذلك بعضَ الروايات الإسرائيلية ، التي دُسَّتْ في كتب التفسير، وهي رواياتٌ باطلةٌ لم يصحَّ منها شيء ، كما قال: (أبو بكر بن العربي)[198]:

فلا حجّة لمن ذهبَ هذا المذهبَ ، وفسَّرَ الآيات بما لا يليقُ بمنصب النبوة ولا بالعصمة من المتقدّمين من المفسرين، الذين اعتمدوا على روايات ضعيفة وأسانيد واهية ، اتخذت فيما بعد لضجيجٍ أهوج ، وصيحاتٍ هسترية ، تطعنُ في السنة النبوية وأهلِها من أعدائها ، وترمي بالنقيصةِ وعدم العصمةِ أكمل الناس خُلقاً وأحمدهم سيرة[199].

ولا حجَّةَ لهم في التعلّق بظاهر الآية ، ولا بالاراء التي قيلت في تأويلها ، ولا سند لها ، بل هي باطلةٌ لوجوه:

الوجه الأول: أنه ليس في الآية ما يدلُّ على أن رسـول الله (ﷺ) صـدر منه في هذه الواقعة مذمةٌ ، ولا عاتبه الله على شيءٍ منه ، ولا ذكر أنه عصى أو أخطأ ، ولا ذكرَ استغفار النبيّ (ﷺ) منه ، ولا أنه اعترفَ على نفسه مخطئاً ، وأنّه لو صدرت عنه زلةٌ لوجِدَ من ذلك شيء.

الوجه الثاني: أنه ذكر في القصـة بصـريح القرآن الكريم ﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ [الاحزاب : 38]. ونُفي الحرج عن النبي (ﷺ) تصـريحٌ بأنه لم يصـدر منه ذنب البتة ، كما أنّ نفيَ الحرج ردٌّ على مَنْ توهّم من المنافقين نقصاً في تزوجه (ﷺ) امرأة زيدٍ مولاه ودعيّه الذي كان قد تبناه[200].

الوجه الثالث: أنه تعالى ذكر الحكمةَ والعلّةَ مِنْ زواجه (ﷺ) من زينبَ رضـي الله عنها بقوله: ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَي لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الاحزاب : 37].

الوجه الرابع: قوله تعالى: ﴿ زَوَّجْنَاكَهَا﴾ ، ولو حصـل في ذلك سـوءٌ لكان قدحاً في الله تعالى ، وهو ما يؤكد أنه لم يصدرْ منه (ﷺ) ذنبٌ البتة في هذه القصة.

الوجه الخامس: أنّه لو كان ما زعموه صـحيحاً، لكان قوله (ﷺ) لزيدٍ كما حكى القرآن الكريم: ﴿ أَمْسِـكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ [الاحزاب : 37] ، نفاقاً ، لأنّه أظهرَ بلسانه خلافَ ما يضمِرُه في نفسه ، لكنّ الله عزّ وجلّ عصم نبيّه (ﷺ) من ذلك.

198 النبوة والأنبياء ص (106).
199 رد شبهات حول عصمة النبي ص (195).
200 رد شبهات حول عصمة النبي ص (197).



الوجه السادس: أنّ رسول الله (ﷺ) ، لم يكن يرى زينبَ للمرة الأولى ، فهي بنتُ عمته ، ولقد شاهدها منذُ ولدت ، وحتى أصبحت شابةً ، أي شاهدها مرّاتٍ عديدة ، فلم تكن رؤيته لها مفاجأةً ، كما تصوّرُ القصة الكاذبة ، ولو كان رسول الله (ﷺ) يحمِلُ أيَّ ميلٍ نحو زينب رضي الله عنها لتقدّم لزواجها ، وقد كان هذا أملُها وأملُ أخيها حين جاء (ﷺ) يخطبها منه ، فلمّا صـــرح لهما أنه يخطبها لزيد ، أبيا ، فأنزل الله تعالى: ﴿ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الاحزاب : 36] ، فقالا: رضينا بأمر الله ورسوله ، وكانت هذه الآية توطئةً وتمهيداً لما ستقرّره الآيات التاليةُ لها من حكم شرعي يجبُ على المؤمنين الانضياعُ له ، وامتثالُه ، والعملُ به ، وتقبله بنفس راضية ، وقلب مطمئن وتسليم كامل.

الوجه السابع: أنّ ما أخفاه النبيُّ (ﷺ) وأبداه الله تعالى هو: أمرُهُ بزواج زينب ، ليبطلَ حكمَ التبنّي ، هذا ما صرّحت به الآية لا شيءَ اخر غيره ، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَي لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الاحزاب : 37].

فكيف يعدلون عن تصريح القرآن الكريم إلى رواياتٍ لا زمامَ لها ولا خِطامَ ، وليس في هذا الإخفاءِ ما يعابُ عليه (ﷺ) أصلاً ، وإلاّ لكان ذنباً تجبُ منه التوبة؟ وليس في الآية الكريمة ما يشعِرُ بشيءٍ من ذلك ، وعليه فالإخفاء هو غايةُ العقل وعينُ الكمال ، لأنّ ذلك إنّما كان سِرّاً بينه وبين خالقه عزّ وجلّ ، لم يأمره بإذاعته قبل أوانه ، فكتمانه في الحقيقة ، قبل مجيء وقته هو الكمال الذي لا ينبغي غيره.

ويوضّحُ هذا ويبينه ما وقع منه في قصّة عائشة رضي الله عنها ، حين أتاه جبريل عليه السلام ، قبل أن يتزوّجها بأمدٍ بعيدٍ ، بصورتها على ثوب من حرير ، وقال له: هذه (امرأتك) ، وقد عرفها رسول الله (ﷺ) يقيناً ، ولم يشك في أنّها ستكونُ من أزواجه الطاهرات ، ومع ذلك فقد ترك هذا الأمرَ سرّاً مكتوماً بينه وبين ربه ، وقال: «إنْ يكُ هذا مِنْ عندِ اللهِ يُمْضِهِ»[201]. أي إنه من الله ولابدّ ، فلأتركه إلى أن يجيءَ وقته الموعود ، فلما جاء هذا الوقت أظهره الله تعالى، وتمّ ما أراد عز وجل.

وهنا نصلُ إلى أصحِّ المحامل في قصّة زينب رضي الله عنها ، وهو أنّ الله تعالى قد أعلمَ نبيّه (ﷺ) أنها ستكونُ من أزواجه ، فلمّا شكاها له زيدٌ ، وشاوره في طلاقها ، ومفارقتها ، قال له على سبيل النصيحة والموعظة الخالصة: «أمسكْ عليكَ زوجَكَ ، واتّق الله» أي واتّق اللهَ في شكواك منها ، واتهامك لها بسوءِ الخُلق ، والترفع عليك ، لأنه شكا منها ذلك[202].

---

[201] فتح الباري ، لابن حجر (8/9).
[202] السنن الكبرى ، للبيهقي (138/7).





وأخفى رسول الله (ﷺ) في نفسه ما كان أعلمه الله به من أنّه سيتزوجها ، ممّا اللهُ مبديه ومظهره بتمام التزويج وطلاق زيد لها[203].

ويصحّحُ هذا قولُ المفسرين في قوله تعالى بعد هذا: أي: لابدّ أن ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً *﴾ ، ويوضّحُ هذا أيضاً أنّ الله تعالى لم يبدِ من أمره (ﷺ) معها غيرَ زواجه لها، فدلَّ على أنّه هو الذي أخفاه (ﷺ) ممّا كان أعلمه به ربه عز وجل.

وبهذا القول الذي تعطيه التلاوةُ من أنّ الذي أخفاه النبي (ﷺ):هو إعلامُ الله له أنّها ستكونُ لها زوجةٌ له بعد طلاقها من زيدٍ ، قال به جمهورُ السلف ، والمحققون من أهل التفسير والعلماء الراسخون كابن العربي والقرطبي[204]، والقاضي عياض[205]، والقسطلاني في (المواهب) والزُّرقاني في (شرحها)[206] ، وغيرهم ممن يعنون بفهم الآيات القرآنية وفقهها ، وتنزيه الرسل عمّا لا يليقُ بهم من الروايات البعيدة عن منطق الحق والواقع[207].

إنَّ النبيَّ (ﷺ) لم يقدّمْ خشيةَ الناس على خشية الله ، لأنَّ الله لم يكلّفه بعمل شيءٍ فتركه ولم ينفذه لأنَّه يخشى الناسَ ، ولما أمره الله بالزواج بزينب نفّذ أمرَ الله ، ولو لم يفعل ذلك خوفاً من كلام الناس ــ وحاشاه أن يفعل ــ لقيل: كان يخشى الناسَ أكثر من خشيته لله ، فلامه وعاتبه ، وقال له: عليك أن تخشى الله أكثر من خشيةِ الناس ، لأنّه أحق أن تخشاه[208].

روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: لو كان محمّدٌ (ﷺ) كاتماً شيئاً مما أُنزل عليه لكتم هذه الآية:
﴿ وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وانعمت عليه أمسك عليك زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الاحزاب : 37][209].

وكان الحقّ هو أنّ هذا الزواجَ كان امتحاناً في أوله لزينب وأخيها ، حيث أُكرهتْ على قبولِ زيدٍ ، وفي النهاية كان امتحاناً قاسياً للنبي (ﷺ) حيث يؤمر به ، ويعلم نهايته ، وزينب تحت مولاه زيد ، والحكمة كما نطق القرآن هو تحطيمُ

[203] رد شبهات حول عصمة النبي (ص) ص (198).
[204] الجامع لأحكام القران (14/190 . 191).
[205] الشفا (2/191).
[206] شرح الزرقاني على المواهب ، نقلاً عن رد شبهات ص (199).
[207] رد شبهات حول عصمة النبي ص (199).
[208] عتاب الرسول في القران ص (118).
[209] مسلم (177).



مبدأٍ كان معمولاً به ، ومشهوراً عند العرب ، هو (تحريم زواج امرأة الابن من التبني) كتحريمها إذا كان الابنُ من النسب ﴿ لِكَي لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الاحزاب : 38][210].

وكان رســـول الله (ﷺ) يعلمُ أنَّ زيداً وزينبَ لن يتفقا ، لأنَّ الله أخبره بذلك ، كما أخبره أنّه ســـيتزوّجها هو بعد تطليق زيدٍ لها ، وكان يُخفي هذا الخبرَ في نفسه ، مع يقينه أنّ الله سيبديه ويظهره في حينه ، وسببُ إخفائه له أنه كان يخشـــى ويتحرّج من كلام الناس ، وشـــبهات المنافقين ، حيث ســـيقولون: تزوَّج محمّدٌ امرأة ابنه ، وعليه (ﷺ) أنْ لا يخشى الناسَ ، لأن الله هو الأحقُّ أن تخشاه.

ولم يُخطأى رسول الله (ﷺ) في موقفـــه ، ولم يفعلْ ما يعاتَبُ فيه أو يلامُ عليه ، ولذلك لم يفعل ما يعاتبه الله في قوله له: لأنه ليس فيه ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ يُلامُ عليه ، لأنّ الله لم يأمره أن يخبرَ الناسَ ، ويظهرَ لهم ما أخبره الله به ، من أنّه ســـيتزوّج زينب بعد تطليقها رضـــي الله عنها ، فتزوجها (ﷺ) ، لأنّ الله هو الذي أمره بذلك فما في الآية هو إخبارٌ من الله عن موقف النبيّ (ﷺ) من الحادثةِ ، وكان موقفه ســـليماً صحيحاً والله أعلم[211].

ط ـ ما الذي حرمه الرسول (ﷺ) على نفسه لمرضاة أزواجه؟

قال تعالى: ﴿ قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ * إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَـــغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاَهُ وَجِبْرِيلُ وَصَـــالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ *عَسَـــى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْـــلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا *﴾ [التحريم : 1 ـ 5].

لهذه الآيات سببان للنزول ، ورداً في رواياتٍ صحيحةٍ:

السبب الأول: روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله (ﷺ) يمكثُ عند زينب بنت جحش ، ويشـربُ عندها عسـلاً ، وتواصيتُ أنا وحفصـة أنّ أيَّتُنا دخلَ عليها النبي (ﷺ) فلتقل: إني أجدُ منك ريحَ مغافير ، أكلتَ مغافير[212]؟ فدخل على إحداهما ، فقالت ذلك له ، فقال: «لا ، بل شـربتُ عسـلاً عند زينب بنت جحش ، ولن أعودَ له» فأنزل الله قوله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ﴾ إلى قوله: لعائشـــة ﴿ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ﴾ ، ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ﴾ لقوله: ﴿ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ شربتُ عسلاً»[213].

---

[210] النبوة والأنبياء ص (108).

[211] عتاب الرسول في القران ص (122).

[212] المغافير: جمع مغفار من شجر صحراوي له شوك ، يسمى العرفط ، وهذا الصمغ حلوُ الطعم ، كريه اللون.

[213] البخاري رقم (5267) ، مسلم رقم (1474).



وفي لفظ اخر للبخاري ، عن عائشة رضي الله عنها ، قالت: كان رسول الله (ﷺ) يشربُ عسلاً عند زينب بنت جحش ، ويمكثُ عندها ، فواطأت أنا وحفصـــةُ أنّ أيّتُنا دخلَ عليها فلتقل له: أكلتَ مغافير؟ إنِّي أجدُ منك ريحَ مغافير. قال: «لا ، ولكنّي كنتُ أشربُ عسلاً عند زينب بنت جحش ، فلن أعود له ، وقد حلفتُ ، لا تخبري بذلك أحداً»[214].

ويبدو أنّ التي جرى بينها وبينه هذا الكلام هي حفصـــةُ ، ولكنّها لم تلتزم بقوله: «لا تخبري أحداً» حيث أخبرت شريكتَها في الحادثةِ عائشة بذلك ، ولعلَّ هدفها من إخبارها هو تبشيرها بنجاح خطتهما ، لإبعاد رسول الله (ﷺ) عن عَسَلِ زينب ، وليس لإفشـاءِ سـرِّ رسـول الله (ﷺ) ، فهاهو قد حلف يميناً عن ذلك ، فأنزل الله الآيات عتاباً للرسـول (ﷺ) على يمينه ، ودعاه إلى التكفير عنه ، وأخبره عن إفشـاء حفصـة كلامه لها ، والتفتتِ الآيات إلى لوم حفصة وعائشة رضي الله عنهما ، وتهديدهما

بالعقاب ، ودعوتهما إلى التوبة والاستغفار ، وإخبارِها أنّ الله وجبريل والمؤمنين معه[215].

السبب الثاني: مارية رضي الله عنها:

عن أنس بن مالك رضـي الله عنه قال: إنّ رسـول الله (ﷺ) كانت له أمةٌ يطؤها ، فلم تزل به عائشة وحفصة حتّى حرّمها ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَـــاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *﴾ [التحريم : 1][216].

وروى الطبري عن زيدٍ بن أسلم: أنَّ رسول الله (ﷺ) أصابَ أمَّ إبراهيم في بيتِ بعضِ نسائه ، فقالت حفصة: أيْ رسـول الله في بيتي وعلى فراشـي؟ فجعلها عليه حراماً ، فقالت: يا رسـولَ الله ، كيف تحرّم عليك الحلالَ؟ فحلف لها باللهِ لا يصـــيبُها ، فأنزل الله قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَـــاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التحريم: 1] .

أمُّ إبراهيم هي جاريتُه مارية القبطية ، التي أهداها له حاكم مصرَ المقوقس في السنة السابعة من الهجرة ، وهي أمته وملك يمينه ، وقد أنجبت له ابنه إبراهيم عليه السلام ، الذي توفي وهو في السنة الثانية من عمره[217].

---

[214] البخاري رقم (4912).

[215] عتاب الرسول في القران ص (138).

[216] فتح الباري (288/9).

[217] تفسير الطبري (174/28).



وقد رجّح كثيرٌ من المفسرين قصّة حلفه على جاريته مارية ، مع أنّ قصة حلفه على العسل أصحُّ إسناداً.

ويمكن أن يجمع بينهما بالقول: إنَّ ما حدث أولاً هو تامر حفصة وعائشة رضي الله عنهما لما شربَ العسل في بيت زينب ، فقالت له حفصة: أكلتَ مغافير؟ فحلف لها ألا يعود إليه ، وأمرها ألا تخبر أحداً ، فخالفت وأخبرت حليفتها عائشة ، وبعد ذلك وطيء مارية في بيت حفصة أثناء غيابها ، ولما عادت وغضبت حلف ألا يطأ مارية لترضى حفصة، وطلب منها ألا تخبر أحداً ، فأخبرت عائشة ، وأنزل الله الآيات يعاتب الرسول (ﷺ) على يمينه ، وطلب منه أن يدفع الكفارة ، ويهدد أزواجه المخالفات بالعقاب[218].

* توجيه تحريم الرسول (ﷺ) الحلال:

نتوقّفُ الان لتوجيه موقف الرسول (ﷺ) واليمين الذي حلفه ، ونوع التحريم الذي حرّمه على نفسه ، والذي عاتبه عليه بقوله: ﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ﴾.

وإذا كنا نعتقدُ أنّ التحليل والتحريم لله وحده ، وأنّه لا يجوزُ لأيِّ إنسان أن يحرّم ما أحلّ الله ، فكيف حرّم الرسولُ (ﷺ) ما أحلّ الله له؟ هناك معنيان للتحريم:

الأول: تحرم لغوي عام ، وهو بمعنى الامتناع ، فإذا امتنعَ إنسانٌ عن فعل شيءٍ ، قيل حرّم هذا الشيءَ عن نفسه.

والثاني: تحريمٌ شرعي خاص ، وهو أن يمتنعَ المسلمُ عن فعلِ شيءٍ ، لأنّ الله نهاه عنه ، وهدَّده بالعذاب إن هو فعله.

والامتناع عن فعل شيءٍ يُسمَّى تحريماً لغةً ، وهو ألا يكون امتناعاً شرعياً إلا إذا حرّمه الشرع ، وأمر بالامتناع عنه أو زعم الممتنِعُ عنه أنّ الشرع حرّمه.

وتحريم رسول الله (ﷺ) شربَ العسل على نفسه ، وتحريمه وطءَ جاريته من النوع الأول ، فهو تحريمٌ لغوي قائمٌ على معنى امتناعه من فعل الحلال المباح ، وليس من التحريم الشرعي ، لأنَّ الرسول (ﷺ) يقول: إن التحريم الشرعي حق الله ، وأنّه لا يجوزُ له تحريم شيء تحريماً شرعياً أباحه الله.

ومن التحريم بمعناه اللغوي القائم على الامتناع ، قوله تعالى عن موسى عليه الصلاة والسلام وهو طفيل رضيع ، التقطه ال فرعون: ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾ [القصص : 12]. والمعنى: أمر الله شفتي الطفل الرضيع موسى أن تمتنعَ في

---

[218] عتاب الرسول في القران ص (138).





قبولِ ثدي أي امرأةٍ مرضـع ، فإذا وضـعت ثديها في فمه رفضَـه ، بحثاً عن ثدي أمه ، وانتظاراً لعودته إليها ، واعتبرت الآية هذا الامتناعَ تحريماً[219].

ومن هذا التحريم ما حرّمه نبيُّ الله إسـرائيل (يعقوب) عليه والسـلام على نفسـه ، والذي أخبرنا عنه قوله تعالى: ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ *﴾ [آل عمران: 93].

إنّ يعقوب عليه السلام نبيٌّ ، يعلمُ أنَّ التحليل والتحريم لله وحده ، وهو لم يحرّمْ على نفسه شيئاً تحريماً شرعياً ، وإنّما حرّمه تحريماً لغوياً ، أي امتنع عن تناوله امتناعاً شخصياً.

والرسول (ﷺ) امتنع عن شرب العسل ، وعن معاشـرة جاريته مارية ، امتناعاً شـخصياً ، ليُرضـيَ بذلك حفصة ، وليس امتناعه عن ذلك امتناعاً شـرعياً ، ولم يحرّم بذلك على نفسـه ما أباحه الله له بالمفهوم الشـرعي ، فهو يعتقدُ أنّه مازال مباحاً له ، ولكنّه امتنع عن فعل ذلك المباح ، واعتبرت الآية امتناعَ الرســول (ﷺ) عمّا امتنعَ عنه تحريماً ، لأنّه تحريمٌ بالمعنى اللغوي ، وهو الامتناعُ الشخصي عن بعض ما أباح الله له[220].

إنّ عتاب الله لرسوله (ﷺ) لا يعني أنّه وقع في ذنب أو زلة أو خطأ ، إنّما يعني أنّ الله يرشِدُه إلى ما هو أولى وأفضل ، فما فعله جائز ، لكنْ كان الأولى والأفضـل له أن لا يغفله ، وكان الأفضـلُ أن لا يحلف على ما حلف عليه ، والله يريدُ لرســوله (ﷺ) دائماً ما هو أولى وأكمل ، ولذلك عاتبه هذا العتابَ الرقيق ، الذي وعاه رســول الله (ﷺ) حقَّ الوعي[221] وقد كفّرَ رسول الله (ﷺ) عن يمينيه اللذين حلفهما ، وعاد إلى شرب العسل عند زينب ، وعاد إلى معاشرة جاريته[222].

ي ـ صلاة الرسول (ﷺ) على زعيم المنافقين:

كان عبد الله بن أُبي بن ســلول زعيماً للمنافقين ، وكان شــديدَ العداوة للرســول (ﷺ) ، لأنه يراه حرمه مُلكاً في المدينة، فقد كان زعيماً لقومه الخزرج قبل الهجرة ، وقد اتفق الأوسُ والخزرجُ على أن يتوّجوه ملكاً عليهم للقضـاء على خلافاتهم ونزاعاتهم ، وبينما كانوا يُعدّون لحفل تتويجه ملكاً عليهم شرحَ الله صدور فريقٍ منهم للإسلام ، فبايعوا الرسول (ﷺ) بيعةَ العقبةِ الأولى وبيعةَ العقبةِ الثانية ، ونتجَ عن ذلك هجرة الرســول (ﷺ) إلى المدينة ، وبذلك فاتت فرصــةُ

219 المصدر نفسه ص (146).

220 عتاب الرسول في القران ص (141 ، 142).

221 عتاب الرسول في القران ص (147).

222 المصدر نفسه ص (150).



الزعامةِ على عبد الله بن أبي ، فأكلَ الحقدُ قلبه على رسول الله (ﷺ) ، وصار يكيدُ له ، ويتامر عليه ، واستمرّ عبد الله بن أُبي مع المنافقين الذين معه في العداوة للمسلمين ، ورسم المكايد والمؤامرات ضدّهم ، من السنة الثانية حتى السنة التاسعة للهجرة[223].

وبعد عودة الرسول (ﷺ) من تبوك في السنة التاسعة من الهجرة مرض عبد الله بن أُبي مرضَ الموت ، وجاءه الرسول (ﷺ) يعودُه ، ولما توفي جاء ابنُه الصالح عبدُ الله إلى النبيّ (ﷺ) ، وأخبره بموت أبيه ، وطلب منه أن يعطيَه قميصَه ، ليكفّنه فيه ، فاستجابَ له رسول الله (ﷺ) ، وأعطاه قميصَه ، وكُفِّنَ عبدُ الله بن أُبي المنافقُ الكافرُ في قميص رسول الله (ص[224].

روى البخاريُّ ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: لما توفي عبدُ الله بن أبي ، جاء ابنُه إلى رسول الله (ﷺ) ، فقال: يا رسولَ اللهِ أعطني قميصَك اكفّنه فيه ، وصلِّ عليه ، واستغفرْ له ، فأعطاه النبيُّ (ﷺ) قميصه[225].

والسبب الذي حمل رسول الله (ﷺ) على أن يكفِّن المنافق الكافر بثوبه ، هو الردُّ على يدٍ كانت لابن أُبيٍّ عنده ، فقد روي البخاري عن جابرِ بن عبد الله رضي الله عنهما قال: لما كان يومُ بدرٍ أتي بأسارى ، وأتي بالعباس ، ولم يكن عليه ثوبٌ ، فنظرَ النبيُّ (ﷺ) له قميصاً فوجدوا قميص عبدُ الله بن أُبي يقدر عليه ، فكساه النبي إيّاه ، فلذلك نزع النبي (ﷺ) قميصه الذي ألبسه قال ابن عُيينة: كانت له عند النبي (ﷺ) يدٌ ، فأحبَّ أن يكافئه[226].

وروى البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما ماتَ عبدُ الله بن أُبي ابن سلول ، دُعي رسول الله (ﷺ) ليصلّي عليه ، فلمّا قام رسول الله (ﷺ) وثبتُ إليه ، فقلتُ: يا رسول الله أتصلِّي على ابنِ أبي ، وقد قال يوم كذا وكذا وكذا؟ أعدّدُ عليه قوله فتبسم رسول الله (ﷺ) ، وقال: «أخِّر عنِّي يا عمر»! فلمَّا أكثرتُ عليه: قال: «إنّي خُيِّرت ، فاخترتُ ، لو أعلمُ أنِّي إن زدتُ على السبعين يُغْفَرُ له لزدتُ عليها» فصلّى عليه رسول الله (ﷺ) ثم انصرفَ ، فلم يمكث إلا يسيراً حتى أنزل الله عليه قوله تعالى: ﴿ وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ [التوبة : 84] ، فعجبتُ بعد ذلك من جُرأتي على رسول الله (ﷺ)[227].
فالنبيُّ (ﷺ) لم يُخطِئْ في استغفاره لعبد الله بن أُبي زعيم المنافقين ، لأنّه فعل ذلك من باب فرط رحمته ورأفته وشفقته ، ولأنّ الله لم ينهه عن الاستغفار للمنافقين نهياً مباشراً صريحاً ، لأنّه فهم من الآية التخيير وليس النهي ، فاختار ما يتّفقُ مع رحمته ورأفته ، مع علمه أنّ الاستغفار لن ينفعهم ، لأنهم كافرون منافقون.

---

223 المصدر نفسه ص (68 ، 69).

224 عتاب الرسول في القران ص (75).
225 البخاري رقم (1269) ، مسلم (2774).

226 البخاري (4671).
227 البخاري (4671).





وأمّا صــلاته على المنافقين ، والآية التي تنهى عن ذلك أنزلها الله عليه بعد صــلاته وليس قبلها ، والآية التي كانت أنزلت قبل صلاته على ابن أُبي تحدّثت عن الاستغفار وليس الصلاة: ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾

لقد فهم منها تخييرُ الله له بالاستغفار لهم أو تركه ، والصلاةُ من صور الاستغفار ، فصلاته على ابنِ أُبي وفقَ فهمه التخيير من تلك الآية ، وهو يختارُ المتفق مع رحمته ، وهو في صلاته مطبّقٌ لما فهمه من الآية ، ولا يُلامُ على اجتهاده، ولا على فعلٍ قام به ليس عنده فيه توجيه من الله ، ولما أنزل الله عليه ايةٌ ينهاه فيها عن الصلاة على المنافقين ، والقيام على قبورهم ، التزم بذلك التوجيه الرباني ، ولم يخالفه ، فإذا مات أحد المنافقين بعد ذلك لم يصــلِّ عليه رســول الله (ﷺ) ، ولم يمشِ في جنازته ، ولم يَقُمْ على قبره ، ملتزماً في ذلك بتوجيه الله له ، وقبل أن يُقْبَضَ (ﷺ) أخبر أمينَ سرّه حذيفة بن اليمان رضي الله عنه بأسماء المنافقين ، لئلا يصلَّى على أحدٍ منهم بعده[228].

بذلك يتبين لنا أنَّ كلّ الأنبياء معصـومون ، لأنهم مصـطَفَوْن من قبل العزيز الغفار ، لأداء مهمة الرسـالة ، والتي تحتاجُ لصفة العصمة في الأنبياء والمرسلين.

عاشراً. من اختلف في نبوتهم:

هناك أشــخاص صــالحون ، ورد ذكرهم في القرآن دون التصـريح بكونهم أنبياء أو غير أنبياء ، فاختَلفَ في شــأنهم العلماء ، وهم:

1 . لقمان:

لا يوجدُ دليلٌ على نبوة لقمان ، والله تعالى لم يذكر عنه إلا أنّه اتاه الحكمة ، وذكر بعض ما يدلُّ على حكمته في وعظه لابنه[229] قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ [لقمان : 12].

وذهب جمهور أهل العلم إلى أنّه كان حكيماً ، ولم يكن نبياً[230]، وحكى بعضــهم اتفاقَ أهل العلم على ذلك ، فلم يعتد بخلافِ مَنْ خالف[231].

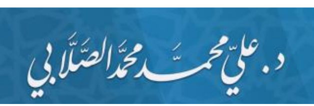
---

[228] عتاب الرسول في القران ص (76).

[229] منهج الحافظ ابن حجر في العقيدة ، محمد كندو (1236/3).

[230] اراء بن حجر الهيتمي الاعتقادية ، محمد الشايع ص (428).

[231] شرح صحيح مسلم (144/2) ، تفسير البغوي (286/6).



2 . ذو القرنين وتبع:

جاء ذكر ذي القرنين في سورة الكهف: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (83) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (84) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (85) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (86) قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا (87) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (88) قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (89) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (89) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا (90) كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (91) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (92) حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (93) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (94) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (95) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (96) فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (97) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (98)﴾ [الكهف : 83 . 98].

ومن ضمن هذه الآية قوله تعالى: ﴿ قُلْنَا ياذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً *﴾ [الكهف : 86] فهل كان هذا الخطابُ بواسطة نبي كان معه ، أو كان هو نبياً؟.

جزم الفخر الرازي في تفسيره بأنّه كان نبياً ، كما نقله الحافظ في (الفتح)[232] وقال بعد ذلك: قد اختُلِفَ في ذي القرنين ، فقيل: كان نبياً كما تقدم ، وهذا مروي أيضاً عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، وعليه ظاهرُ القرآن.

وذكر الحافظ في شأنه اثاراً كثيرة تدلُّ على كثرة الاختلاف فيه[233].

وعلى كل حال فإنَّ القولَ بعدم نبوته هو ما عليه جمهورُ أهل العلم[234].

الأفضلُ أن يتوقَّفُ في إثبات النبوة لذي القرنين وتُبّع ، لأنه صحَّ عن رسول الله (ﷺ) أنه قال: «ما أدري أتّبع نبيَّاً أم لا ، وما أدري ذي القرنين نبياً أم لا»؟[235] فإذا كان الرسول (ﷺ) لا يدري فنحن أحرى بألاّ ندري[236].

---

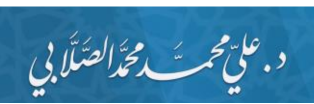
[232] فتح الباري (382/6).

[233] منهج الحافظ ابن حجر في العقيدة (1237/3).

[234] تفسير البغوي (198/6) ، تفسير ابن عطية (538/3).

[235] رواه الحاكم والبيهقي ، انظر صحيح الجامع الصغير (121/5).

[236] الرسل والرسالات ص (22).



وورد ذكر تُبّعٍ في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ*﴾ [ق : 37] وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ *وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ *وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ *﴾ [ق : 12 ـ 14].

3 ـ الخضر:

لم يذكر اسم الخَضِرِ في القرآن ، وإنما ذكرتْ فيه قصته مع نبي الله موسى عليهما الصلاة والسلام ، وصرّحت السنّةُ باسمه ، كما في حديث ابن عباس ، عن أُبي بن كعب عن النبيّ (ﷺ) في ذكر القصة[237].

وقد اختُلِفَ في نبوة الخضر ، والذي عليه أكثرُ أهل العلم أنّه نبيٌّ ، ثم اختلفوا: هل هو رسول أم لا؟ وقال القرطبي: هو نبيٌّ عند الجمهور ، والآية تشهَدُ بذلك[238]، قال طائفة: هو ولي[239].

والصحيحُ قولُ الجمهور بأنّه نبي لا ولي ، وقولُ مَنْ قال منهم بنبوته دون رسالته[240]، ويقول العلامة الألوسي: ... والمشهورُ ما عليه الجمهور ـــ يعني القولُ بنبوته ـــ وشواهِدُه من الآيات والأخبار كثيرة ، وبمجموعها يكادُ يحصل اليقين[241].

وسياق القصة يدلّ على نبوته من وجوه:

أحدهما: قوله تعالى: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ﴾ ﴿ لَدُنَّا عِلْمًا *﴾ [الكهف: 65]. والأظهر أنّ هذه الرحمة هي رحمةُ النبوة ، وهذا العلمُ هو ما يوحَى إليه من قبل الوحي.

الثاني: قول موسى له: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا * قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا *وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا *قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا *قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلاَ تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا *﴾ [الكهف : 66 ـــ 70]. فلو كان غيرَ نبيٍّ لم يكن معصوماً ، ولم يكن لموسى وهو نبيٌّ عظيم ، ورسولٌ كريم ، واجبُ العصمة ـ كبيرُ رغبة ولا عظيمُ طلبه في علم وليٍّ غير واجب العصمة ، ولما عزم على الذهابَ إليه ، والتفتيش عليه ، ثم لما اجتمعَ به تواضعَ له ، وعظّمه ، واتبعه في صورةٍ مستفيد منه ، دلّ على أنّه نبيٌّ

---

237 البخاري رقم (74).

238 فتح الباري (434/6).

239 المصدر نفسه (434/6).

240 اراء ابن حجر الهيتمي الاعتقادية ص (419).

241 روح المعاني (320/15).



مثله ، يوحى إليه كما يوحى إليه ، وقد خُصَّ من العلوم اللدنية والأسرار النبوية بما لم يطلع الله عليه موسى الكليم عليه السلام.

الثالث: أنّ الخضر أقدمَ على قتل الغلام ، وما ذاك إلا للوحي إليه من الملك العلاّم ، وهذا دليلٌ مستقل على نبوته ، وبرهانٌ ظاهِرٌ على عصـمته[242]، لأنَّ الولي لا يجوزُ له الإقدامُ على قتل النفوس بمجرّد ما يُلقى في خَلَدِه ، لأن خاطره ليس بواجبِ العصمة ، إذ يجوزُ الخطأ عليه بالاتفاقِ ، ولما أقدم الخضر على قتل ذلك الغلام الذي لم يبلغ الحلم ، علماً منه بأنه إذا بلغ يكفر ، ويحمل أبويه على الكفر ، لشدة محبتهما له ، فيتابعانه عليه ، ففي قتله مصلحة عظيمة تربو على بقاء مهجته ، صيانة لأبويه عن الوقوع في الكفر ، وعقوقه ، دلّ ذلك على نبوته ، وأنّه مؤيّدٌ من الله بعصمته[243].

الرابع: ومن أوضح ما يُستدلُّ به على نبوة الخضر قوله تعالى: ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ [الكهف : 82]. وينبغي اعتقاد كونه نبياً لئلا يتذرّعَ بذلك أهل الباطل في دعواهم أنَّ الوليَّ أفضلُ من النبيِّ حاشا وكلا[244]: أي يعني: ما فعلته من تلقاء نفسي ، بل أمرت به ، وأوحى إلي فيه[245].

وأمّا ما يتعلق بحياته وتعميره ، فالقولُ الصحيح القولُ بوفاته ، وهو ما عليه المحقّقون من أهل العلم[246].

والأدلة من الكتابِ والسنّةِ تدلُّ على قول من قال بوفاته، وتؤيده:

فمن الكتاب الكريم:

قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ [الانبياء : 34]. فالخَضِرُ إن كان بشراً ، فقد دخل في هذا العموم لا محالة ، ولا يجوزُ تخصيصه منه إلا بدليل صحيح ، والأصل عدمُه حتى يثبتَ ، ولم يذكر ما فيه دليل على التخصيص عن معصوم يجب قبوله.
وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران: 81]. قال ابن عباس: ما بعثَ الله نبياً إلا أخذَ عليه الميثاق لئن بُعِثَ محمّدٌ وهو حيٌّ

---

242 الرسل والرسالات ص (23).

243 المصدر نفسه ص (23).

244 منهج الحافظ ابن حجر العسقلاني (1240/3).

245 الرسل والرسالات ص (24).

246 المنار المنيف ، لابن القيم ص (72) ، فتح الباري (434/6) ، اراء ابن حجر الهيتمي الاعتقادية ص (419).



ليؤمنَنَّ به وينصــرَنَّه[247] ، فالخَضِـــرُ إن كان نبياً أو ولياً فقد دخل في هذا الميثاق ، فلو كان حياً في زمن النبي (ﷺ) لكان أشـرفُ أحواله أن يكونَ بين يديه ، يؤمن بما أنزل الله عليه ، وينصــره بأنْ لا يصـلَ أحدٌ من الأعداء إليه ، ولم يثبت أنَّ الخضر اجتمعَ مع النبيّ (ﷺ) ، فدلَّ ذلك على موته[248].

ومن السنة المطهرة:

قوله (ﷺ): «أرأيتكم ليلتكم هذه ، فإنَّ على رأسِ مئةِ سنةٍ لا يبقى على ظهرِ الأرضِ أحد»[249].

وقوله (ﷺ): «تسـألوني عن السـاعة ، وإنّما علمُها عندَ اللهِ ، وأقسمُ باللهِ ما على الأرضِ نفسٌ منفوسـةٌ تأتي عليها مئةٌ سنة»[250].

قال ابن الجوزي: فهذه الأحاديثُ الصِّحاحُ تقطع دابرَ دعوى حياة الخضر[251].

4 . إخوة يوسف: هل هم الأسباط؟

اتّفق أهلُ العلم على أنّ المرادَ بالأسباط في قوله تعالى: ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ﴾[البقرة : 136] وقوله سبحانه: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ﴾ [البقرة : 136] بأنّهم أبناءُ يعقوب عليه السلام ، واختلفوا هل هم أبناؤه لصلبه أم لا[252]؟.

فمَنْ قال: إنهم أبناؤه من ذريته ، حكم بعدم نبوة إخوة يوســـف ، ومن قال: إنّهم أبناؤه لصـــلبه حكم بنبوة إخوة يوسف.

واختلَفَ هؤلاء في الجوابِ عمّا وقع منهم.

فقال بعضهم: إنّ زلّتهم قد غُفرتْ بندمهم ، واستغفارِ أبيهم لهم ، ولا يستحيلُ في العقلِ زلّةُ النبي[253].

---

[247] تفسير الطبري (330/3).

[248] البداية والنهاية (312/1).

[249] البخاري رقم (116) ، مسلم رقم (2537).

[250] مسلم رقم (2538).

[251] نقله عنه ابن كثير في البداية والنهاية (313/1).

[252] تفسير ابن كثير (200/1) ، تفسير القرطبي (141/2) ، تفسير الطبري (618/1).

[253] تفسير القرطبي (133/9).

ويُرَدُّ بأنّ الأنبياء معصومون من الكبائر.

وقال اخرون: إنّهم لم يكونوا أنبياء حين فِعْلِهم بأخيهم يوسف ذلك ، وإنّما نبأهم الله بعد توبتهم[254].

ويُرَدُّ بأنَّ القولَ الصحيح أنّ الأنبياء معصومون قبل النبوة وبعدها[255].

والراجح ــ والله أعلم ــ القولُ بعدم نبوة إخوة يوسف عليه السلام ، يقول ابن كثير: اعلم أنّه لم يقمْ دليلٌ على نبوة إخوة يوسف ، وظاهر هذا السياق (يعني سياق قصتهم) يدلُّ على خلاف ذلك.

ومن الناس من يزعمُ أنّهم أوحي إليهم بعد ذلك ، وفي هذا نظرٌ ، ويحتاج مدّعي ذلك إلى دليل ، ولم يذكروا سوى قوله تعالى: ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ﴾ [البقرة: 136] وهذا فيه احتمالٌ ، لأنّ بطون بني إسرائيل يقالُ لهم الأسباط ، كما يقال للعرب قبائل ، وللعجم شعوب ، يذكر تعالى أنّه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بني إسرائيل ، فذكرهم إجمالاً ، لأنهم كثيرون ، ولكنْ كلُّ سبطٍ من نسل رجل من إخوة يوسف ، ولم يقم دليلٌ على أعيانِ هؤلاءِ أنهم أوحي إليهم ، والله أعلم[256].

* * *

[254] تفسير ابن عطية (220/3) ، تفسير السعدي ص (363).

[255] اراء بن حجر الهيتمي الاعتقادية ص (424).

[256] تفسير ابن كثير (514/2).



الفصل الثالث

سمات وخصائص دعوة الأنبياء

أولاً . سمات دعوة الأنبياء.

1 . الربانية.

2 . الإخلاص التام والتجرد في الدعوة عن الأغراض الشخصية.

3 . الزهد في الدنيا ، وإيثار الاخرة.

4 . التركيز على عقيدة التوحيد ، والتشديد في أمر الإيمان بالغيب.

5 . إخلاص الدين لله ، وإفراد العبادة له جل وعلا.

6 . البساطة في الدعوة ، ومجانبة التكلف والتعقيد.

7 . وضوح الهدف والغاية من الدعوة.

8 . الحكمة والتيسير في دعوة الأنبياء.

9 . اختصاصها بالعلم النافع المنجي.

10 . الإيمان بالاخرة والاهتمام بها.

11 . دعوة حضارية لها أسلوبها الخاص في الحياة.

ثانياً . خصائص الأنبياء

1. اصطفاؤهم بالوحي والرسالة.

2 . تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم.

3. تخييرهم عند الموت.

4. يقبر النبي حيث يموت.

5. لا تأكل الأرض أجسادهم.

6 . أحياء في قبورهم.

7 . لا يورثون بعد موتهم.

8 . إعداد الله لهم وتهيئتهم لرسالة





الفصل الثالث

سمات وخصائص دعوة الأنبياء

أولاً ـ سمات دعوة الأنبياء:

إنَّ الدعوات السماوية واحدةٌ من سماتها ، لأنّها جميعاً من مصدر واحد ، ولها غايةٌ واحدةٌ ، وأبرز هذه السمات:

1 ـ الربانية:

إنّ أوّل وأهم ما تمتاز به دعوة الأنبياء أنها وحيٌ وتكليفٌ من الله عز وجل ، فليســـت هي نابعة من نفوســـهم ، وليست نتيجة العوامل الاجتماعية التي تتكوّن في زمانهم ، من ظلم وبغي وجَوْر ، كما أنها ليست من تفكيرهم العميق ، وتألّمهم على الحالة المؤسـفة التي يعيشـها الناس ، أو من شـعورهم الرقيق الحسـاس ، وقلبهم الرقيق الفيّاض ، أو تجاربهم الواسـعة الحكيمة ، لا شـيءَ من ذلك أبداً ، إنّما هي وحيٌ من الله ، وتكليفٌ منه جل وعلا ، قال تعالى: ﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ *﴾ [يونس : 16] وقال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ *﴾ [الشورى : 52].

ويقول القرآن الكريم عن طبيعة الرسالة التي يختار لها الرسل، وعن مبدئها ومصدرها: ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلاَئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ *﴾[النحل: 2].

لذلك لا يخضعُ الرسول لعوامل نفسية داخلية، أو حوادث وقتية خارجية ، ولا يدير رسالته حيث دارت الأحوال الأوضاع وشاء المجتمع ، وقد قال الله عن رسوله الكريم: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى *إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى *﴾ [النجم : 3 ـ 4].

ولا يستطيعُ الرسول أن يحدِثَ تغييراً أو تبديلاً ، أو تحويراً ، أو تعديلاً في رسالته وأحكام الله ، وقد قال الله لرسوله (ﷺ): ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ *﴾ [يونس: 15].

وهذه هي السـمة الفاصـلة الأسـاسـية بين الأنبياء صـلوات الله عليهم وبين القادة والزعماء، الذين تكون رسـالتُهم وكفاحُهم من وحي بيئتهم وثقافتهم ومشـــاعرهم ، والذين يلاحظون دائماً البيئة والمجتمع ، والظروف والأحوال ،





ويراعون المصلحة والسياسة ، ويخضعون لها في كثير من الأحوال ، فيتنازلون عن أشياء كثيرة ، وقد يتساومون مع الأحزاب ، ويتبادلون معها المنافع ، ومبدأ كثير منهم الذين يأخذون به (دُر مع الدَّهْر كيف دار)[257].

2 . الإخلاص التام والتجرد في الدعوة عن الأغراض الشخصية:

كان أنبياء الله ورسله أوفياء للحقّ ، قائمين على نشره ، وكانوا مخلصين للدعوة ، متجرّدين عن الأغراض الشخصية، لا يدعون أحداً لقصد الكسب المادي ، أو الربح الدنيوي ، إنما يعلنون أنهم لا يطلبون أجرهم إلا من الله سبحانه ، كما قال تعالى على لسان هود عليه السلام: ﴿ يَاقَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [هود : 51] وكذلك قال تعالى على لسان خاتم الأنبياء (ﷺ) وهو يقرر هذه الحقيقة: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ *﴾ [ص : 86] وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً *﴾ [الفرقان : 57].

فهم في دعوتهم يخلصون العمل ، وفي نصحهم إرشادهم لا يرجون الثناء أو المديح ، إنّما يقصدون ثواب الاخرة ووجه الله ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا *﴾ [الكهف : 110][258].

3 . الزهد في الدنيا وإيثار الاخرة:

لم تكن دعوةُ الرسل إلى الاخرة وإيثارها على الدنيا ، والاستهانة بقيمة الدنيا ومتاعها دعوةً باللسان فقط ، ودعوةً لأمتهم فقط ، بل كان ذلك مبدءاً ومنهاجاً لحياتهم ، وكانوا أول المؤمنين بها ، السائرين عليها في حياتهم وخواصهم وعشيرتهم ، وقد قال شعيب عليه السلام معبراً عن جماعته كلها: ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾[هود: 88].

فكانوا زاهدين في الدنيا ، مقبلين على الاخرة ، قد زهدوا في المناصب الكبيرة ، والمراكز الخطيرة ، وضحّوا بها في سبيل دعوتهم ، وفوّتوا الفرص ، وكان أكثرهم من الذين لهم مستقبل زاهر في الحياة والغد المضمون ، وكانوا من اللامعين في المجتمع بذكائهم ونبوغهم وشرف أسرهم وصلاتهم بالبلاط أو الأسر الحاكمة ، وعن ذلك عبر قوم صالح: ﴿ ياصَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ [هود : 62] ، وبذلك أخذوا أهل بيتهم وأسرتهم ، وقد قيل لسيد الرسل (ﷺ): ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً *وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا *﴾ [الاحزاب : 28.29].

---

[257] النبوة والأنبياء في ضوء القران ، لأبي الحسن الندوي ص (3).

[258] عقيدة التوحيد ص (236) ، النبوة والأنبياء ، للصابوني ص (37).





وكان من تأثير صحبته (ﷺ) على أزواجه رضي الله عنهنّ أنهنّ كلّهنّ اثرن الله ورسوله (ﷺ) ، واثرن الفقر والضيق مع الرسول (ﷺ) على الرخاء وخَفْضِ العيش مع غيره[259].

لقد اثر الرســـلُ الباقيةَ على الفانية ، لأنهم أيقنوا أن ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلاَ تَعْقِلُونَ *﴾ [القصــص : 60] ، لذلك كانوا زاهدين في الدنيا ، مقبلين على الاخرة ، وقد خاطب الله رســولنا الكريم (ﷺ) ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: 131]

4 . التركيز على عقيدة التوحيد ، والتشديد في أمر الإيمان بالغيب:

إنّ القرآن الكريم تحدّث عن الأنبياء بأنهم بدأوا بالدعوة إلى توحيد الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَــلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * الا تعبدوا الا الله إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ*﴾ [هود : 25 . 26].

وقال تعالى: ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَال ياقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود : 50].

وقال تعالى: ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَال ياقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود : 61].

وقال تعالى: ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَال ياقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود : 84].

فالأنبياء جميعاً ركّزوا جهودهم على إثبات وحدانية الله تعالى ، ووجود الصـــانع المدبر الحكيم ، وتحقيق العبودية لله تعالى ، ومحاربة الشرك بأنواعه وأشكاله.

كما أنهّم ركّزوا على الإيمان بالغيب ، وجعلوه شرطاً أساسياً للهداية والانتفاع بالدين ، وشعاراً للمهتدين ، وعلامة للمتقين.

قال تعالى: ﴿ الم *ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ *الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّـــلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ *وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ *أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *﴾ [البقرة : 1 . 5].

[259] النبوة والأنبياء في ضوء القران ص (46).



وقد زخرت الكتب السـماوية ، وزخر القرآن الكريم بعجائب صـنع الله بالمعجزات والخوارق التي لا يصـدّقها ولا يسيغها ولا يحتملها إلا الإيمان بالغيب ، الإيمان بقدرة الله المطلقة ، ومشيئة الله القاهرة ، والاعتماد الكامل على صحّة هذه الكتب ، وصدق الرسل الذين أنزلت عليهم ، وأخبروا بها.

أما الإيمان الذي لم يقم إلاّ على الحس والتجربة والمألوف من الحوادث ، ومطابقة العقل الظاهر ، والعلم المدوّن في الكتب ، فإنّه إما أن يرفض أن يقبله ويصـدق به ، أو أن يتعثر ويتلجلج في قبوله ، والتصـديق به ، أو يأوله بما يتفق مع ما ألفه ، ولذلك قال تعالى: ﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ *﴾ [النمل : 66].

وقد ذكر القرآن الكريم الفرق بين الفريقين: فريق أكرمه الله بالإيمان الكامل ، وشرحَ صدره للإسلام ، وفريق ضاق عقله وصدرُه عن كثير ممّا جاء من الله ، وصوّر هذا الفرق تصويراً دقيقاً فقال تعالى: ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ *﴾ [الانعام : 125].

وقد ذكر القرآن الكريم من صفات الله تعالى وأفعاله ومن الوقائع والحوادث ، والاء الله وأيامه ، وأخبار الرسل ، وما أجري على أيديهم من المعجزات ، وما أظهر الله لهم من الآيات ، كانفلاق البحر لموسـى عليه السـلام وقومه ، وانفجار اثنتي عشرة عيناً من الحجر بضرب موسى ، وارتفاع الجبل كالظُّلةِ على طائفةٍ من بني إسرائيل ، وحياتها بعد موتها ، ومسخ فرقٍ منهم قردةً خاسئين ، وحياة المقتول الذي جُهِلَ قاتله بضربه بجزءٍ من البقرة المذبوحة ، وتحوّل النار برداً وسلاماً على إبراهيم ، ومنطق الطير الذي عُلِّمَهُ سليمانُ ، وفهمُه لحديث النمل ، ومطاوعة الرياح له ، وسيرها به، غدوُّها شـهر ، ورُواحها شـهر ، وانتقال عرش ملكة سـبأ في طرفةٍ عين ، وقصـة ذي النون ، وخروجه من بطن الحوت ، وولادة عيسى الخارقة للعادة ، وهلاك أصحاب الفيل بحجارة من سجيل ، وإسراء الرسول (ﷺ) من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، ومنه إلى السماء ، إلى غير ذلك مما زخر به القرآن الكريم والصحف السماوية ، ما لا يقبله إلا المؤمن بالغيب ، إيمان من امن بالله الذي وسعت قدرتُه كلَّ شيء[260].

ذلك لأنَّ الإيمانَ الذي يقومُ على الحسِّ والتجربة ، ويسير مع المألوف المعروف ، ويتقيّدُ بالسنن الكونية ، والنواميس الطبيعية ، والحوادث التاريخية ، ويلجأ دائماً إلى شهادة العقل ، والحواس الخمس ، وقوانين العلوم الرياضية والمحسوسات ، إنّما هو إيمانٌ مغلولٌ ، وإيمانٌ محدودٌ مشروط ، لا يصلح للاعتماد إلا في نطاق عالم الشهادة ، ولا يسايرُ الأديان ، ولا يتّفق مع دعوة الأنبياء ، وما يطلبونه من تصـديق مطلق بعالمي الشـهادة والغيب على حد سـواء ، وثقة دائمة وسرعة في الانقياد والطاعة ، وتفان في الجهاد والتضحية، ولا يصلحُ في الحقيقة لأنْ يسمّى إيماناً ، إنّما هو علم وتطبيق

---

260 عقيدة التوحيد ص (236) ، النبوة والأنبياء ص (40).



وخضوع للمنطق وطاعة للحواس والتجارب، ولا فضلَ فيه ، ولا يختصّ بالدين ، فكلّ عاقلٍ في حياته ، يؤمِنُ بتجاربه، ونتائج استقرائه ، وما تؤدّي إليه حواسّه ، ويرشد إليه عقله[261].

وأمّا المؤمنُ بالغيب ، المؤمنُ بقدرة الله المطلقة ، وإرادته الحرة ، المصدّق للرسل في كلِّ ما جاؤوا به ، ونطقوابه ، وأخبروا به عن الله ، فهو في راحةٍ وهدوءٍ ، وانسـجامٍ ووئامٍ مع روح هذه الديانات وأخبارها ، جاهد وفكر مرة ثم اسـتراح ، جاهد وفكر في الإيمان بالله وصـدق الرسـول (ﷺ) وعصـمته في ما يقول: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى *إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى *﴾ [النجم : 2 ـــ 3] ثم امن واطمأنّ وصدق بكل ما جاء به الرسول (ﷺ) ، وصحّ به النقل في سهولةٍ ويسرٍ ، كأنّه كان منه على ميعادٍ ، وكان على أتمّ الاستعداد.

وقد ذكر الله هذا الفرقَ بين النفسيتين ، نفسيةِ المؤمن الذي أخضع عقله للصحيح من المنقول والثابت عن الرسول (ﷺ) ، وبين نفسـية الرجل الذي يحاول أن يخضـع الكتاب وما جاء به الرسـل لعقله وعلمه القاصـر ، ويسـلط عليه التأويل البعيد ، قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـــابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِـــخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ *رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ *﴾ [آل عمران: 7 ـ 8].

وذكر نفســية الرجل الذي تعوّد أن لا يؤمنَ ، وأنْ لا يدينَ ، وأن لا يعيشَ إلا على المألوف المعروف الموافق لعقّله الظاهر السـطحي ، وشـهواته ومصـالحه فقال: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ *﴾ [الحج : 11][262].

5 . إخلاص الدين لله وإفراد العبادة له جلّ وعلا:

من سمات دعوة الأنبياء ، تصـحيح العقيدة في الله تعالى ، وتصـحيح الصـلة بين العبد وربه ، والدعوة إلى إخلاص الدين، وإفراد العبادة لله وحده ، وأنّه النافعُ الضـارّ ، المستحق للعبادة والدعاء والالتجاء ، والنسك له وحده ، وكانت حملتُهم مركزةً موجهة إلى الوثنية القائمة في عصـورهم ، الممثّلة بصـورة واضـحة في عبادة الأوثان والأصـنام والصـالحين المقدسـين من الأحياء والأموات ، الذين كان يعتقدُ أهل الجاهلية أنّ الله خلعَ عليهم لباسَ الشـرف والتألّه ، وجعلهم متصرّفين في بعض الأمور الخاصة ، ويقبل شفاعتهم فيهم بالإطلاق ، بمنزلة ملك الملوك ، يبعث على كلِّ قطر ملكاً ، ويقلّده تدبيرَ تلك المملكة في ما عدا الأمور العظام[263].

---

[261] النبوة والأنبياء في ضوء القران ص (49) كل ذلك جاء في القران صراحة في سور كثيرة ومواضع عديدة.

[262] قوانين عالم الشهادة لا تصلح إلا لعالم الشهادة ، أما الغيب فسبيله الخبر الصادق عن الله سبحانه (ن)..[270]  النبوة والأنبياء في ضوء القران ، ص (50).

[263] النبوة والأنبياء في ضوء القران ص (36).



وكلُّ مَنْ له صلةٌ بالقرآن ــ وهو الكتابُ المهيمن على الكتب السالفة ــ يعرفُ اضطراراً وبداهةً أنَّ القضاء على هذه الوثنية والإنكار عليها ومحاربتها وإنقاذ الناس من براثنها كان هدفَ النبوّة الأساسي ، ومقصد بعثة الأنبياء ، وأساس دعوتهم ، ومنتهى أعمالهم ، وغاية جهادهم ، وقطب الرحى في حياتهم ودعوتهم ، حولها يدندنون ، ومنها يصدرون ، وإليها يرجعون ، ومنها يبدؤون ، وإليها ينتهون ، والقرآن يقول بالإجمال: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ *﴾ [الانبياء : 25]. وتارة يقول بالتفصيل فيسمي نبياً نبياً[264].

فإخلاصُ الدِّين لله ، وإفرادُ العبادةِ له هو الهدفُ الأسمى الذي دعا إليه جميعُ الأنبياء عليهم السلام ، في كلّ عصرٍ وزمانٍ ، وفي كلّ بيئةٍ ومكانٍ فلم يكن هدفُ الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه ، إلا أن يوجهوا المخلوق الضعيفَ إلى خالقه العظيم القدير ، وأن يصرفوا وجهةَ البشر من عبادة العباد إلى عبادة ربِّ العباد ، مصداقاً لقوله تعالى:
﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ *﴾ [البينة : 5].

6 . البساطة في الدعوة ، ومجانبة التكلف والتعقيد:

ومن سمات دعوة الأنبياء البعدُ عن الأساليب الصناعية ، والتصنع والتكلّف في حياتهم وسلوكهم بصفة عامة ، وفي دعوتهم وكلامهم وحجتهم بصفة خاصة ، وقد كان قول اخر الرسل (ﷺ): ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ *﴾ [ص: 86] تصوير لحالِ جميع إخوانه من الأنبياء والمرسلين السابقين (ﷺ) جميعاً.

فهم دائماً يخاطِبون الفطرةَ السليمة ، والعقل العام بأسلوب فطري غير ذي عوجٍ ، لا يتوقف فهمُه على ذكاءٍ نادر، وعلم فائق ، وألمعية بارعة ، ودراسةٍ واسعةٍ للعلوم ، وإحاطةٍ بالمصطلحات العلمية ، ومعرفةِ المنطق والفلسفة ، والرياضيات ، والفلك وعلوم الطبيعة ، يفهمه العوام كما يتذوقه الخواص ، وينتفع به الجهلاء كما ينتفع به العلماء ، كلٌّ على قدر فهمه وطاقته ، ويطابِقُ حالَ الأمم التي تعيش على فطرتها وسذاجتها ، كما يطابق حال الأمم المتمدنة المثقفة العالية ، ولا يثيرون الأسئلة الدقيقة ، ولا يفترضونها ، إنّما كلامهم كالماء الزلال السلسال ، الذي يسيغه كلُّ واحدٍ ، ويحتاج إليه كل واحد[265].

قال تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ *﴾[النحل : 125].

---

264 المصدر نفسه.

265 النبوة والأنبياء في ضوء القران ص (92).



وانظر إلى إبراهيم عليه السلام وهو يقيمُ الحجّة القاصمة على خصمه العنيد ، ويقطعُ عليه الطريقَ بأيسر الطرق ، وأظهر البراهين الدامغة ، قال تعالى: ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ *﴾ [البقرة : 258].

ولهذا نجدُ أنّ أنجحَ طريقٍ للدعوة هو سلوكُ سبيل الأنبياء في مخاطبة الفطرة ، والبعد عن التصنّع والمناهج الكلامية[266].

قال إمام الحرمين الجويني: لقد خضتُ البحرَ الخضّمَ ، وتركتُ أهل الإسلام وعلومَهم ، وخضتُ في الذي نهوني عنه، والان إن لم يتداركني ربّي برحمته ، فالويلُ لفلان ، وها أنا أموتُ على عقيدة أمي[267].

قال الفخر الرازي:

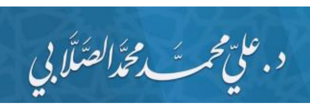
نهايةُ إقدامِ العقولِ عقالُ ... وأكثرُ سَعْيِ العالمينَ ضَلالُ
وأرواحُنا في وحشةٍ من جسومنا ... وحاصِلُ دنيانا أذًى ووبالُ
ولم نستفدْ مِنْ بحثِنا طولَ عمرنا ... سوى أنْ جمعنا فيه قِيلَ وقالوا
وكم من جبالٍ قد علتْ شرفاتها ... رجالٌ، فماتوا، والجبالُ جبالُ

لقد تأملتُ الطرقَ الكلاميةِ والمناهجَ الفلسفيةِ، فما رأيتُها تشفي عليلاً ، ولا تروي غليلاً ، ورأيتُ أقربَ الطرق طريقةَ القرآن ، إقرأ في الإثبات: ﴿ الرَّحْمَانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى *﴾ [طه : 5] ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر : 10] ، واقرأ في النفي: ﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا *﴾ [طه : 110] ، ومن جرَّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي[268].

وقال أبو حامد الغزالي: «إنّ الصحابة رضوان الله عليهم كانوا محتاجين إلى محاجّة اليهود والنصارى في إثبات نبوة محمد (ﷺ) ، فما زادوا على أدلة القرآن شيئاً ، وما ركبوا ظهرَ اللجاج في وضع المقاييس العقلية وترتيب المقدمات ، كلُّ ذلك لعلمهم بأنّ ذلك مثارَ الفتن ، ومنبع التشويش ، ومن لا تقنعه أدلةُ القرآن لا يقمعه إلا السيفُ والسنان ، فما بعد بيانِ الله بيان»[269].

---

[266] عقيدة التوحيد ص (337).
[267] عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين للمؤلف ص (159).
[268] عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين للمؤلف ص (159).
[269] إلجام العوام عن علم الكلام ، للغزالي ص (89 ـ 90).





7 . وضوح الهدف والغاية في الدعوة:

ومن سمات دعوة الأنبياء وضوحُ الهدف والغايةِ في الدعوة ، فهم يدعون الناس إلى هدف واضح ، وإلى فكرة بيّنة ، لا لُبْسَ فيها ولا غموض ، استمع إلى قوله تعالى مخاطباً خاتم الأنبياء والمرسلين: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ *﴾ [يوسف : 108].

فالأنبياء الكرام دعوا الناس إلى رسـالةٍ ربّانية واضـحة بينة ، لا غموض فيها ولا خفاء ، ومن مظاهر هذا الوضـوح أنّهم قد أُرسلوا في أقوامهم وبلغاتهم ، حتى
يمكن التفاهم معهم ، وإيصـال الرسـالة إليهم ، وأنّ الدعوة كانت تنزل منجّمة حتى يفهمَ السـائلُ ، ويقتنعَ المجادلُ ، ويسهلَ التطبيقُ.

ومن مظاهر هذا الوضوح أيضاً أنّ الرسل كانوا يذكرون أصول دعوتهم ابتداءً ، ويستمرون بعد ذلك في التدليل على ما دعوا إليه[270].

8 . الحكمة والتيسير في دعوة الأنبياء:

من سمات دعوة الأنبياء مراعاة الحكمة والمصلحة مطلقاً ، ورعاية طبائع الناس واستعدادهم ، ورعاية المكان الصالح والزمان الصـالح ، ونشـاط النفوس ، وإقبال القلوب ، ورعاية التدرّج والتيسـير ، وهذا ما تقتضـيه طبيعة الإسـلام السـمحة، وحكمة الله البليغة ، وفِطَرُ الأنبياء الحكيمة ، ونطقت به الاثار ، وشـهدت به الحوادث ، وزخر به تاريخ التشريع ، وسيرة الرسول (ﷺ).

قال تعالى: ﴿ وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً *﴾ [الاسراء : 106].
وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ القرآن جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً *﴾ [الفرقان: 32]. وقال تعالى: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة : 185].
وقال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج : 78].

وقد كان رسول الله (ﷺ) يأمرُ أصحابه بالتيسير والتبشير ، وقد قال رسول الله (ﷺ) لمعاذ وأبي موسى رضي الله عنهما لما بعثهما إلى اليمن: «يسّرا ولا تعسّرا ، وبشّرا ولا تنفّرا»[271].

---

[270] دعوة التوحيد.

[271] صحيح البخاري (622/2).



وقال (ﷺ): «إنما بعثتم ميسّرين ، ولم تُبْعَثوا معسِّرين»[272].

وقد كان يرجِئُ تطبيق شيءٍ فيه مصلحة جزئية لأجل مصلحة كلية هي أعظمُ وأهمُّ منها ، فقال لعائشة رضي الله عنها: «لولا حداثةُ قومك بالكفرِ لنَقَضْتُ البيتَ ، ثم لبنيتُه على أساسِ إبراهيم عليه السلام»[273].

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: كان النبيُّ (ﷺ) يتخوَّلنا بالموعظةِ في الأيام كراهة السامة علينا[274].

وعن جابر بن عبد الله: كان معاذُ بن جبل يصلّي مع النبيّ (ﷺ) ، ثم يرجع ، فيؤمُّ قومه ، فصلّى العشاء ، فقرأ البقرة ، فانصرف رجلٌ ، فكان معاذٌ ينالُ منه ، فبلغ النبيَّ (ﷺ) فقال: «فتان فتان» ثلاث مراراً[275].

وعن ابن مسعود قال: قال رجلٌ: يا رسول الله ، إنِّي لأتأخرُ عن الصلاةِ في الفجر ممّا يطيلُ بنا فلانٌ فيها ، فغضبَ رسول الله (ﷺ) ، ما رأيته غضبَ في موعظةٍ كان أشدَّ غضباً منه يومئذٍ ، ثم قال: «يا أيها الناس ، إنَّ منكم منفِّرين، فَمَنْ أمَّ منكم الناسَ فليتجوَّزْ ، فإنَّ خلفه الضعيفَ والكبيرَ وذا الحاجةِ»[276].

والنصوص في ذلك والشواهدُ أكثر من أن تُحصى[277]، وهذا كلّه مستفيضٌ متواتر من سيرته (ﷺ) ، مفروض في سيرة الأنبياء السابقين ، للحكمة التي وصفهم الله بها ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ *﴾ [ص : 20]. قال تعالى: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاَءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ *﴾ [الانعام : 89].

ولكن كلُّ هذا التيسير والتدريج ومراعاة الحكمة والمصلحة والنظر إلى استعدادِ النفوس ، إنّما هو للتعليم والتربية وفي المسائل الجزئية ، ومما ليس من العقائد ومبادأى الدين في شيء.

أمّا ما يفرّق بين الإيمان والكفر، والتوحيد والشرك، وكان من شعائر الإسلام ، وحدود الله ، فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ــ على اختلاف عصورهم ــ أصلبُ فيه من الحديد ، وأثبتُ عليه من الجبالِ ، لا يعرفون تنازلاً ، ولا يعرفون هوادة ، ولا يرضون مساومة[278].

---

[272] المصدر نفسه (215/1).

[273] المصدر نفسه.

[274] المصدر نفسه.

[275] المصدر نفسه.

[276] المصدر نفسه.

[277] النبوة والأنبياء في ضوء القران ص (35).

[278] المصدر نفسه.



9 . اختصاصها بالعلم النافع المنجي:

تكفّل الأنبياءُ صلواتُ الله وسلامه عليهم وانفردوا في دعوتهم بالعلم النافع ، وبالعلم الذي لا سعادةَ للإنسان ولا نجاةَ له بغيره ، وهو العلمُ الذي يَعْرِفُ به الإنسانُ خالقه، وفاطرَ هذا الكون، ومدبّرَ هذا العالم ، وصفاتِه العليّة ، والصلةَ التي بينه وبين عبده ، وموقف الإنسان في هذا العالم ، وموقفه من ربّه ، ومبدأه ومصيره ، وما يرضيه تبارك وتعالى وما يُسخطه ، وما يشقي الإنسانَ في الدار الاخرة وما يُسْعِدهُ ، وخواص عقائده وأعماله وأخلاقه ، وجزاءها ، وما يترتّب على ما يصـــدرُ منه من قولٍ واعتقادٍ ، وعملٍ من الثواب والعقاب ، والنتائج البعيدة الطويلة المدى ، وهذا هو العلمُ الذي يستحق أن يُسمّى (علم النجاة)[279].

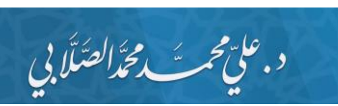
10 . الإيمان بالاخرة والاهتمام بها:

من سمات دعوة الأنبياء وملامحها وشعائرها التشـديدُ على جانب الاخرة ، واللهجُ بها ، والإشـادةُ بذكرها ، والتنويهُ بشأنها تنويهاً يجعلها من النقاط الأساسية في دعوتهم ، ويشعُرُ كلُّ مَنْ يعيش في أخبارهم وأحاديثهم ، ويتذوّق كلامهم أنَّ الاخرة دائماً نُصب أعينهم ، لا تزال ماثلة أمامهم بنعيمها وجحيمها ، وسعادتها وشقائها ، فهم إلى الجنة في حنين شديد ، ومن جهنم في فزع كبير ، وهو شيءٌ طبيعي ، قد ملك عليهم مشاعرهم ، واستولى على فكرهم ، وحسناً أن نقرأ ما حكاه القرآن من قول إبراهيم ، وقد جاشـت نفسُـه ، وفاضـت عواطفه ، حيث ذكر الاخرة ، وتمثل هولها وفزعها قال تعالى: ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ *رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّـالِحِينَ *وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ *وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ *وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ *وَلاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ *يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ *إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ *وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ *وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ *﴾ [الشعراء : 82 ـ 91].

والإيمان بالاخرة، وتمثُّل ما فيها من سعادةٍ دائمةٍ، وشقاءٍ دائمٍ، وما أعدَّ الله فيها لعباده المؤمنين المطيعين من جزاءٍ ، وللكفّار العصاةِ من عقاب ، هو الحافزُ الحقيقي إلى دعوتهم ، وبذل نصحهم ، وهو الذي يقلقهم ، ويطيّر نومهم ، ويكدّر صفو عيشهم ، ويجعلهم لا يهدأ لهم بال ، ولا يقرُّ لهم قرار ، وهو حافزٌ أقوى وأعظم سلطاناً على نفوسهم ممّا يشاهدونه من اختلال النظام واضطراب الأحوال ، وما يشعرون به من الأخطار المحيطة بهذا المجتمع إذا انتشر فيه الفساد ، ويجعلون ذلك موجباً لدعوتهم ، وإنذارهم ، وسبباً لقلقهم وإشفاقهم.

وقد تعدّى الإيمانُ بالاخرة إلى أتباعهم ، والمؤمنين بهم ، وتجلّى لهم مدى الحياة وتفاهتها ، وعظمة الحياة الاخرة وخلودها ، وأنها المبتغى الذي يجاهد في سبيله المجاهدون ، ويسعى له العاملون ، ويتنافس فيه المتنافسون ، قال مؤمن من ال فرعون ﴿ يَاقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ *مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ

[279] المصدر نفسه.



عَمِلَ صَـــالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَـــابٍ *﴾ [غافر : 39 . 40].

وقال سحرة فرعون بعد لحظة من إيمانهم بموسى عليه السلام ، لما أوعدهم فرعون بالعذاب الأليم ، وما أدراكم به؟ تقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، والتصليب في جذوع النخل: ﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا *إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى *إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَا *وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّـــالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى * مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّـــالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى *﴾ [طه: 72 . 76][280].

والأنبياء يبعدون كلَّ البعد عن أن يُطمعوا أمتهم في مُلك أو ســيادة أو منفعة دنيوية ، ويجعلونه ثمناً لإيمانهم ، أو مكافأة لقبول دعوتهم ، بل بالعكس من ذلك ، ينكرون على الناس حب العلو والاستعلاء والاستيلاء بدافع حب الجاه والطموح الفردي أو القومي قال تعالى: ﴿ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ *﴾ [القصــص : 83]. إنّما يطمعونهم في رحمة الله، ويخوفونهم من عذاب الله، ويجعلون مناط الأمر الثوابَ والجزاءَ في الاخرة، إنّما يذكرون أنّ هذا الإيمان والطاعة والاســتغفار يجلبُ رحمة الله، ويســتدرُّ الرزق، ويُنزل الأمطار، ويدفع ما هم فيه من جَدْب وضيق، فيقول نوح عليهالسلام: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا *يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا *﴾ [نوح : 10 . 11].

وقال تعالى: ﴿ وَيَاقَوْمِ اسْــتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِــلِ السَّــمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ*﴾ [هود : 25] ، وهذه طبيعةُ الإيمانِ والاستغفارِ ، وسجيتها التي لا تختلف عنها كطبائع الأشياء وخواصّ الأدوية ، ونواميسَ الفطرة[281].

11 . دعوة حضارية ، لها أسلوبها الخاص في الحياة:

إنّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، لم يدعوا إلى عقيدة وشريعة فحسب ، ولم يحملوا ديناً جديداً فحسب ، بل كانوا مؤسسي حضارة ومدنية وأسلوب من الحياة جديدٍ خاص ، جديرٍ بأن يسمّى الحضارة الربانية ، ولهذه الحضارة

280 النبوة والأنبياء في ضوء القران ص (35).

281 المصدر نفسه.

أصولٌ ودعائمُ ، وعلاماتٌ وشعائرُ ، تمتازُ بها عن الحضاراتِ الأخرى ، الحضارات التي تُسمّى الحضارات الجاهلية ، امتيازاً واضحاً ، امتيازاً في الأساس وفي الروح ، وفي الأشكال والتفاصيل[282].

وكان إبراهيم الخليل الحنيف (ﷺ) إمامَ هذه الحضارة الحنيفية المؤسسة على توحيد الله تعالى ، والإيمان به وذكره ، المؤسسة على متابعة الفطرة السليمة ، والقلب السليم ، المؤسسة على الحياة والأدب مع الله ، والإنابة والرحمة على بني الإنسان ، ورقّة العاطفة ، وقد سرت أخلاقه في هذه المدنية ومنهج الحياة قال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ *﴾ [التوبة : 114].

وكان إبراهيم عليه السلام ولا يزال مؤسس هذه الحضارة ، وكان رسول الله (ﷺ) ـ وهو حفيده ـ مجدّدَ هذه الحضارة ومتممَّها ، وهو الذي بعث فيها الروحَ ، وأفاض عليها الخلودَ ، وأرسى قواعدها ، وشدّ بنيانها ، وجعلها خالدة باقية عالمية[283].

إنّ هذه الحضارة الإبراهيمية المحمدية لا تعرفُ الوثنيةَ والشركَ ، ولا تسمح به في لونٍ من الألوان ، وفي أي مكان وزمان ، فكان أكبرُ دعاء إبراهيم وأكبرُ همه ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ *﴾ [ابراهيم : 35] ، وكان أكبرُ وصيته ودعوته للأمم والأفراد جميعاً ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ * حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ [الحج : 30 ـ 31].

إنها لا تعرِفُ التهالك على الشهوات ، والتكالُبَ على حطام الدنيا ، والتناحُرَ على جِيفَ المادة ، والتقاتل في سبيل الحكومات والمناصب ، إنّها دعوة لم تزل عقيدتُها: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ *﴾ [القصص : 83].

إنّها حضارة لا تعرِفُ الفصل بين الإنسان والإنسان ، والتمييز بين الألوان والأوطان ، «فالناسُ كلهم من ادم ، وادمُ من تراب ، لا فضلَ لعربيٍّ على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ألا بالتقوى» ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات : 13][284].

قال لمن هتف بالأنصار ومن هتف بالمهاجرين: «دعوها فإنها منتنة»[285].

إنّها حضارةٌ تُعْرَفُ في العقيدةِ بالتوحيد ، وفي الاجتماعِ باحترام الإنسانية ، والمساواةِ بين أفرادها.

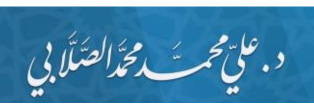
---

282 المصدر نفسه.

283 النبوة والأنبياء في ضوء القران ص (44).

284 المصدر نفسه ص (45).

285 المصدر نفسه ص (23).





وفي دائرة الأخلاق والمنهج بتقوى الله ، والحياء والتواضع ، وفي ميدان الكفاح بالسعي للاخرة ، والجهاد في سبيل الله ، وفي ساحة الحرب بالرحمة والعاطفة الإنسانية ، وفي أنواع الحكومات بترجيح جانبِ الهداية على جانبِ الجباية ، والخدمة على الاستخدام ، تعرف في التاريخ بخدمة الإنسانية المخلصة ، وإنقاذها من براثن الجاهلية ، والدعواتِ المضلّة الطاغية ، وفي العالم باثارها الزاهرة الزاهية ، وخيراتها المنتشرة الباقية ، إنها عُجِنت مع اسم الله ومراقبته ، وصبغت بصبغة الله ، وقامت على أساس الإيمان ، فلا يمكن تجريدُها عن الطابع الديني ، واللون الرباني ، والروح الإيماني[286].

ثانياً . خصائص الأنبياء:

الأنبياءُ عليهم الصلاة والسلام هم صفوةُ البشر وسادتهم ، وهم من بني ادم ، لهم خصائص البشر وصفاتهم ، لا يخرجون عن صفاتهم البشرية ، ولكنّ الله عزّ وجلّ اصطفاهم ، وأنعم عليهم باختيارهم رسلاً إلى الناس ، وخصّهم لذلك ببعض الخصائص والصفات ، التي لا يشترِكُ معهم بقيةُ البشر فيها ، وهذه الخصائص لا تخرِجُهم عن بشريتهم وعبوديتهم لله عز وجل ، قال تعالى على لسان بعض رسله في مجادلتهم لأقوامهم: ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ *﴾ [ابراهيم : 11].

ومن أهم خصائص الأنبياء:

1 . اصطفاؤهم بالوحي والرسالة:

قال تعالى: ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ *﴾ [الحج : 75]. وقال تعالى لرسوله (ﷺ): ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [الكهف : 110].

2 . تنام أعينهم ، ولا تنام قلوبهم:

عن أنس رضي الله عنه في حديث الإسراء: «والنبيُّ نائمةٌ عيناه ، ولا ينام قلبُه ، وكذلك الأنبياء تنامُ أعينهم ، ولا تنام قلوبهم»[287].

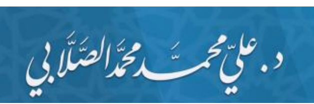
وقد صحَّ عنه (ﷺ) أنه قال: «إنا معاشرَ الأنبياءِ ، تنامُ أعيُننا ، ولا تنامُ قلوبُنا»[288].

---

[286] النبوة والأنبياء في ضوء القران ص (64).

[287] مسند الإمام أحمد (411/5).

[288] البخاري رقم (3570).





3 . تخييرهم عند الموت:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعتُ رسول الله (ﷺ) يقول: «ما مِنْ نبيٍّ يمرَضُ إلاّ خُيِّرَ بين الدُّنيا والاخرة»[289].

وسُمع النبي (ﷺ) في شكواه التي قُبِضَ فيها يقول: «مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين»[290].

4 . يقبر النبيُّ حيثُ يموت:

صحَّ عنه (ﷺ) قوله: «لم يُقْبَرْ نبيٌّ إلاّ حيثُ يموتُ»[291] ، ولهذا فإنّ الصحابةَ رضي الله عنهم دفنوا الرسول (ﷺ) في حُجرةِ عائشة رضي الله عنها حيثُ قُبِضَ[292].

5 . لا تأكل الأرض أجسادَهم:

قال رسول الله (ﷺ): «إنّ الله حرّمَ على الأرضِ أن تأكلَ أجسادَ الأنبياء»[293].

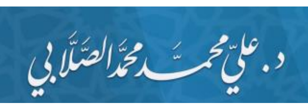
6 . أحياءٌ في قبورهم:

صحَّ عنه (ﷺ) أنّه قال: «الأنبياء أحياءٌ في قبورهم يصلّون»[294].

كما ثبت عنه (ﷺ) أنه قال: «مررتُ على موسى ليلةَ أُسرِيَ بي عند الكثيبِ الأحمرِ، وهو قائمٌ يصلّي في قبره»[295].

أمّا عن كيفية هذه الحياة ، فهذا أمرٌ غيبي ، لا مجال للعقل فيه ، فما دام أنه صحّ عن رسول الله (ﷺ) فيجبُ الإيمانُ من غيرِ تكييفٍ ، ولكنْ مع إيماننا بأنَّها حياةٌ برزخيةٌ ليست كحياتهم التي عاشوها في الدنيا ، فلا يجوزُ سؤالهم

289 المصدر نفسه رقم (4586).
290 وقفات تربوية في ضوء القران الكريم ، عبد العزيز الجليل (33/3).
291 صحيح الجامع رقم (5201).
292 وقفات تربوية (34/3).
293 صحيح أبي داود ، للألباني رقم (925).
294 السلسلة الصحيحة رقم (621).
295 مسلم رقم (2375).



في قبورهم ، ولا طلب المدّدِ منهم ، فإنّهم لا ينفعون ولا يضـــرون ، قال تعالى: ﴿ وَلاَ تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنْفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ *﴾ [يونس: 106].

7 . لا يورثون بعد موتهم:

قال رسول الله (ﷺ): «إنّا معشرَ الأنبياءِ لا نُوْرَثُ ، وما تركتُ بعدَ مؤنةِ عاملي ونفقةِ نسائي صدقة»[296].

والروايات التي عند البخاري ومسلم ليس فيها «إنا معشر الأنبياء» وإنما هي بلفظ «لا نُوْرَثُ ما تركنا صدقةٌ»[297].

8 . إعداد الله لهم وتهيئتهم لرسالته:

لقد أكرم الله عزّ وجل أنبياءَه ورســله ، وخصّــهم بمزيد عنايةٍ وتوفيقٍ وأخلاقٍ عاليةٍ ، لم تكتمل لغيرهم من البشــر ، وذلك لتهيئتهم لقيادة الأمم ، وسـياســة الشـعوب ، فخصّـهم الله بأخلاقٍ ســاميةٍ ، واداب عاليةٍ ، وحكمةٍ بالغةٍ ، وعزائمَ، وعقيدةٍ صحيحة.

ولنأخذ مثالاً على ذلك عناية الله عز وجل بنبيه موسى عليه السلام ، وتهيئته للرسالة قبل إرساله ، وتأييده له بعدها ، حيث يقول عز وجل: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي *﴾ [طه : 39].

فحياةُ موسى عليه السلام كلُّها عظاتٌ ، واياتٌ بينات على سنته تعالى في إعداد أنبيائه قبل الرسالة فمنها:

* أنّ الله ســبحانه جعل نجاته ممّا أصـــاب غيره من أبناء قومه فيما يراه الناسُ دماراً ، وإلقاءً بالنفس إلى التهلكة: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ *﴾[القصص: 7 . 8].

* أن الله سـبحانه كتبَ لموسـى حياةً سـعيدةً في بيتِ مَنْ يُخشـى عليه منهم ، فعاش بين أظهرهم عيشـةَ الملوك ، قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ عَسَـــى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لاَ يَشْـــعُرُونَ *﴾ [القصص : 9].

* أنّ الله حرّمَ عليه تحريماً كونياً أن يَرْضَـــعَ من امرأةٍ ســوى أمه ، فكان ذلك فيما يرى الناسُ بلاءً أحاط به ، وهو في نفس الأمر لطفٌ من الله ورحمة بموسـى ليرجِعَه إلى أمه ، وهم لا يشـعرون ، فاجتمعت له السـلامةُ والنجاةُ ، وعطفُ الأمهات ، وعزُّ الملوك ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِـــعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ

---

[296] رواه النسائي في الكبرى رقم (6309) مسند أحمد (9973) إسناده صحيح.

[297] البخاري رقم (6730) مسلم رقم (1757).

ناصِحُونَ * فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ *﴾[القصص: 12ـ 13].

وهنــــاك سلسلة أخرى من حياة موسى قبل الرسالة تضمّنت الكثيرَ مما حباه الله به من العلم والحكمة ، والمروءة والنجدة ، ونصر المظلوم ، والأخذ على يد الظالم ، والعطف على الضعيف ، وقوة الإيمان بالله ، والصدق في الالتجاء إليـه ، والتوكل عليـه ، والـتواضع مع عزّة الـنفس ، وغير ذلك مكـارم الأخلاق التي يُعدّ الله بها مَنْ يختارُه للرسالة ، وقيادة الأمم ، وتلخيص ذلك فيما يلي:

* حفظ الله على موسى صفاءَ روحهِ ، وسلامةَ فطرته ، فمع أنه عاش في أوساط ظلم وطغيان ، لم يتأثّر بما يتأثّر به مَنْ قضى الأيام الأولى من حياته في بيئةٍ استشرى فيها الفسادُ ، وطبعت بطابع الجبروت والاستبداد ، ولم يصبه ما يصــــاب به أبناء الوجهاء ، ومن يتقلب في النعمة ورغد العيش غالباً: من الجهل والاســــتهتار ، أو الرخاوة والخلاعة والمجون ، بل صانه الله عن كلِّ ما يشينه ، واتاه العلم النافع ، والحكمة البالغة ، وسداد الرأي ، كما حفظ عليه نعمته من قبلُ في بدنه ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ *﴾ [القصص : 14].

* جبل الله نبيه موسى عليه السلام على الحزم ، والأخذ بالقوة في نصرة المظلوم ، فيتجلَّى ذلك من الخصومة التي كانت بين رجل من بني إسرائيل واخر مصري ، وإنصافه للمظلوم.

كما طبعه الله على الرفق بالضـــعيف ، والعطف عليه ، ومدّ يدِ المعونة إليه ، يتبيّن ذلك فيما كان منه من النجدة حينما وردَ ماءَ مدين ، فوجد عليه أُمّةً من الناس يسقون ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال: ما خطبكما؟ قالتا: لا نسقي حتى يصدرَ الرِّعاء وأبونا شيخ شيخ كبير ، فسقى لهما ، فجمع له بين شدة البطش بالظالمين ، وكمال الرفق بالمستضعفين.

*كان من اثار عناية الله بموسى عليه السلام ورعايته له أن قوّى فيه الوعيَ الدينيَّ ، واستحكمت فيه الصلةُ بينه وبين ربِّه ، فأحبَّ ما يحبه الله من العدل والإنصاف ، وكره ما يبغضه الله من الظلم والعدوان ، لذلك فزع إلى ربه ، واعترف بظلمه لنفسه حينما قضى المصري نحبَه من وكزته ، وأسرع في الأوبة إليه مِنْ ذنبه ، فغفر الله له ، فأخذ على نفسه عهداً ألا يكون ظهيراً للمجرمين ، شــكراً لله على نعمته ، ووفاء له بما غفر من ذنبه ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ *قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ *﴾ [القصص : 16ـ 17].

* فاض قلبُه إيماناً بالله ، وعظمت ثقته به ، وتوكله عليه ، فقصــد إليه وحده في غربته وحيرته رجاءَ أن يهديه ســواء السبيل ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ *﴾ [القصص : 22].

ولما اشـتدّت به الحاجةُ ، وأخذ منه الجوعُ مأخذه توجّه إلى ربه ، وسـأله من فضـله ، وأبت عليه عزّةُ نفسـه أن يشـكوَ حاجته لغير ربه ، أو يُعرّض لمن سـقى لهما بطلب الأجر ﴿ فَسَـقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ *﴾ [القصص : 24].

وقد استجاب الله دعاءه ، وهيأ له بيئةً صالحةً يحيا فيها حياةً طيبةً ، فقد عرض عليه الرجل الصالح ــ لما عرف عنه من القوة والأمانة ـ أن يزوّجه إحدى ابنتيه ، على أن يرعى له الغنم ثمانيَ حجج ، فإنْ أتمَّ عشراً كان ذلك مكرمة منه، فالتزم موسـى بذلك ، ولم يمنعه ما كان فيه أولاً من رغد العيش وحياة الملوك أن يكون أجيراً يأكلُ ويتزوَّجُ من كسـب يده ، وأشهد ربَّه على ذلك ﴿ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلاَ عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ*﴾ [القصص: 28] وقد ثبت أنّه أتمَّ أبعدَ الأجلين ، فدل على أنه طُبِعَ على حبِّ الخير ، وفعلِ المعروف[298].

* * *

[298] الحكمة من إرسال الرسل ص 78 . 80 ، عبد الرزاق عفيفي ، وقفات تربوية (40/3).



الفصل الرابع

جوانب الاقتداء بهدي الأنبياء وتفاضلهم
عليهم الصلاة والسلام

أولاً ـ هديهم في قوة العلم بالله عز وجل ، وأثر ذلك في صدق الإيمان وكمال التوحيد.

ثانياً ـ هديهم في السلوك والأخلاق.

ثالثاً ـ التعرض للأذى والصدّ عن سبيل الله عز وجل من قبل الأعداء وأنصار الباطل.

رابعاً ـ التدرج في الدعوة ، ومراعاة المصالح والمفاسد.

خامساً ـ مراعاة السنن الربانية.

سادساً ـ أصناف المدعوين في دعوة الأنبياء.

سابعاً ـ تفاضل الأنبياء.



الفصل الرابع

جوانب الاقتداء بهدي الأنبياء وتفاضلهم

عليهم الصلاة والسلام

أولاً ــــ هديهم عليهم الصلاة والسلام في قوة العلم بالله عز وجل ، وأثر ذلك في صدق الإيمان ، وكمال التوحيد:

إنّ أعلمَ الناس باللهِ عزّ وجلّ هم أنبياؤه ورسله عليهم الصلاة والسلام ، وهذا العلمُ به سبحانه وبأسمائه وصفاته العلا هو الذي أثر هذه الخشية العظيمة والإيمان الصادق ، والتوحيدَ الكامل لله عز وجل ، لأنّه كلّما كان العبدُ أعلمَ وأعرفَ بربه سبحانه كان أشدَّ خوفاً وتعظيماً وعبادةً ومحبة وإخلاصاً ، وإن ممّا اختص الله سبحانه به رسله ، ومَنَّ عليهم به هو تكميلُ هذا العلم النفيس في نفوسهم ، والذي هو أشرفُ العلومِ وأزكاها.

ومن الأدلة على شرف هذا العلم ، وأنّ أولى الناس به هم الأنبياءُ والرسلُ[299] ما يلي:

قوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ يَاأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا *﴾ [مريم : 43].

وقوله تعالى عن يعقوب عليه السلام: ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ *﴾ [يوسف : 68].

وقوله تعالى عن قول يعقوب عليه السلام لبنيه: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ *﴾ [يوسف : 96] وذلك بعد أن جاءَ البشير بقميص يوسف عليه السلام ، فارتدّ البصرُ إلى يعقوب عليه السلام ، وأخبرهم أنّه يعلم من لطف الله سبحانه ورحمته ما يدفعُ عنه اليأسَ ، ويثمِرُ الرجاءَ ، وهذا الأثرُ العظيم من اثار علم يعقوب عليه السلام بأسماء الله عزّ وجل وصفاته مما لم يصل إليه أبناؤه الذين استنكروا عليه أمله في رجوع يوسف عليه السلام.

وقوله تعالى عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ*﴾[الأعراف: 62] ، أي وأعلمُ مِنَ اللهِ ما لا تعلمونه ، فأعلمُ من صفاتِ اللهِ وقدرته الباهرة ، وبطشه بأعدائه ما جهلتم ، وأعلم أنَّ العاقبة للمتقين ، وأن بأسه لا يُرَدُّ عن القوم المجرمين[300].

---

[299] وقفات تربوية (53/3).

[300] وقفات تربوية (54/3).



وقوله تعالى عن مقالة نوح عليه السلام لقومه: ﴿ قَالَ ياقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ *﴾ [هود : 28].

وقوله تعالى عن صالح عليه السلام: ﴿ قَالَ ياقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ *﴾ [هود : 63].

وقوله تعالى عن شعيب عليه السلام: ﴿ قَالَ ياقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَناً وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ *﴾ [هود : 88].

وقوله تعالى لنبيه محمد (ﷺ): ﴿ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ *﴾ [الانعام : 57].

وقوله (ﷺ) عن نفسه عندما تنزّه بعضُ الصحابة عن شيء رخّص فيه الرسول (ﷺ) ، فبلغه ذلك فخطبَ ، فحمِدَ الله ، ثم قال: «ما بالُ أقوامٍ يتنزّهون عن الشيء أصنعهُ ، فواللهِ إنِّي لأعلمُهم بالله ، وأشدُّهم له خشيةً»[301].

والعلم بالله عز وجل وبأسمائه الحسنى وصفاته العلا له اثارٌ إيمانية مباركة منها:

1 . شدة تعظيمهم لله عزّ وجل وخوفهم منه:

مما يلفت الانتباه في حياة الأنبياء شدةُ تعظيمهم لله عز وجل، وخوفهم منه، والأمثلة على ذلك كثيرة منها:

أ . مناجاة نوح عليه السلام لربّه بشأن ابنه:

قال تعالى: ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ *قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ *﴾[هود: 45 . 47].

ويظهر من هذه الآيات علمُ نوح عليه السلام بربه عزّ وجلّ ، والذي أثمر عنده هذا الأدبَ العظيم مع ربّه ، والخوف منه سبحانه ، فتراه وهو يدعو ربّه بشأن ابنه الهالك مع الكافرين يختمُ دعاءَه بقوله: ﴿ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ *﴾ ، ولم يقل: وأنت أرحم الراحمين ، وهذا من كمال علمه عليه السلام بأسماء الله عزّ وجلّ وصفاته واثارها ، لأنّ المقام

[301] البخاري رقم (6101) ، مسلم رقم (2356).



مقام تفويض واستسلام لحكمة الله البالغة ، التي اقتضت أن يكون ابنُ نوح مع الهالكين ، ولم يكن مع الناجين ، ولذلك ختم نوح عليه السلام دعاءه بقوله: . ﴿ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ *﴾

كما يظهر في هذه المناجاة خوف نوح عليه السلام من ربه ، واتهامه لنفسه بالظلم ، وطلبه المغفرة من ربه سبحانه، وذلك في قوله: الله أكبرُ! هذا نوحٌ عليه السلام الذي أمضى تسعمئة وخمسين عاماً في دعوة ﴿ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ *﴾ ، وصبر وصابر ، وناله من الأذى والاستهزاء الشيءَ العظيم ، ومع ذلك يختم دعوته بطلب المغفرة والرحمة من ربّه سبحانه: ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَارًا *﴾ [نوح : 28][302].

ب ـ محاجّة شعيب عليه السلام لقومه ، وردّه عليهم عندما خيّروه بين الخروج من قريتهم ، أو العودة في ملتهم:

قال الله عز وجل: ﴿ قَالَ الْمَلأُالَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ﴾ ﴿ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ *﴾[الأعراف: 88 ـ 89].

أي: يمتنعُ عن مثلنا أن نعودَ فيها ، فإن هذا من المحال ، فايسهم عليه السلام من أن يوافقهم من وجوهٍ متعددة:

من جهة أنّه هو ومن معه كارهون لملّتهم ، مبغضون ما هم عليه من الشرك.
ومن جهة ثانية جعل ما هم عليه كذباً ، وأشهدهم أنّه إن اتبعهم وهو من معه فإنّهم كاذبون.

ومنها اعترافهم بمنّةِ الله عليهم ، إذ أنقذهم الله منها.

ومنها أنّ عودتهم في ملّتهم بعد أن هداهم الله ـ من المحالات ، بالنظر إلى حالتهم الراهنة ، وما في قلوبهم من تعظيم الله تعالى ، والاعتراف له بالعبودية ، وأنّه الإله وحده ، الذي لا تنبغي العبادةُ إلاّ له وحده ، لا شريك له ، وأنَّ الهةَ المشركين أبطلُ الباطل ، وأمحلُ المحال ، لأنّ الله منَّ عليهم بعقول يعرفون بها الحق من الباطل ، والهدى من الضلال.

وأما من حيث النظر إلى مشيئة الله ، وإرادته النافذة في خلقه ، التي لا خروجَ لأحدٍ عليها ، ولو تواترت الأسباب، وتوافقت القوى ، فإنّهم لا يحكمون على أنفسهم أنهم سيفعلون شيئاً أو يتركونه ، ولهذا استثنى ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ

302 وقفات تربوية (57/3).



نَعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ ، أي: فلا يمكننا ولا غيرُنا الخروج على مشيئته التابعة لحكمه وحكمته ، قال تعالى: ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ ، فيعلم ما يصلح للعباد وما يدبرهم عليه[303].

ونلاحظ في الآيات الكريمة: أنَّ شعيباً بقدر ما يرفعُ رأسَه ، وبقدر ما يرفع صوتَه في مواجهةِ طواغيت البشر من الملأ الذين استكبروا من قومه ، بقدر ما يخفِضُ هامته ، ويسلّم وجهه في مواجهة ربه الجليل ، الذي وسع كل شيء علماً ، فهو في مواجهة ربه ، لا يتألّى عليه ، ولا يجزمُ بشيءٍ أمامَ قدره ، ويدع له قيادة زمامه ، ويعلن خضوعه واستسلامه: ﴿ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ ، إنّه يفوّض الأمرَ لله ربه في مستقبل ما يكون من أمره وأمر المؤمنين معه ، إنّه يملك رفضَ ما يَفْرِضُه عليه الطواغيتُ من العودةِ في ملّتهم ، ويعلن تصميمه والمؤمنين معه على عدم العودة ، ويعلن الاستنكارَ المطلقَ للمبدأ ذاته ، ولكنّه لا يجزمُ بشيءٍ عن مشيئة الله به وبهم ، فالأمرُ موكولٌ إلى هذه المشيئة ، وهو والذين امنوا معه لا يعلمون ، وربّهم وسعَ كل شيء علماً ، فإلى علمه ومشيئته تفويضُه واستسلامُه.

إنّه أدبُ وليِّ الله مع الله، الأدب الذي يلتزم به أمره ، ثم لا يتألّى بعد ذلك على مشيئته وقدره ، ولا يتأبّى على شيء يريدُه به ، ويقدّره عليه.

وهنا يدع شعيبُ طواغيتَ قومه وتهديدَهم ووعيدهم، ويتّجه إلى وليه بالتوكل الواثق يدعوه أن يفصلَ بينه وبين قومه بالحق

ج ـ تعظيم موسى عليه السلام لربه وخوفه منه:

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: 143].

وفي قوله تعالى: ﴿ وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ ﴾ إذا تجلّى الله له ﴿ فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل﴾ الأصمّ الغليظ ﴿ جعله دكاً﴾ أي: انهال مثل الرمل ، انزعاجاً من رؤية الله ، وعدم ثبوته لها ﴿ وَخَرَّ مُوسَى﴾ حيث رأى ما أرى ﴿ صعقاً﴾ أي: مغشياً عليه ﴿ فلما أفاق﴾ تبيّن له حينئذٍ أنّه إذا لم يثبت الجبل لرؤية الله ، فموسى أولى أن لا يثبتَ لذلك ، فاستغفرَ ربَّه لما صدرَ منه من السؤال الذي لم يوافق موضعاً ، لذلك ﴿ قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ أي: تنزيهاً لك، وتعظيماً عما لا يليق بجلالك ﴿ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من جميع الذنوب، وسوءِ الأدبِ معك ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ المؤمنين﴾ أي جدد عليه السلام إيمانه بما كمل الله له مما كان يجهله قبل ذلك.

---

[303] وقفات تربوية (60/3) ، تفسير السعدي عند الآية (89) من سورة الأعراف.



د. تعظيم عيسى عليه السلام لربه سبحانه، وأدبه مع ربه عز وجل:

وذلك عن ســـؤال الله عز وجل له يوم القيامة وهو أعلم ﴿ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة : 116].

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا
أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَـــهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَـــيْءٍ شَـــهِيدٌ *إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *﴾[المائدة: 116 . 120].

وفي هذه الآيات الكريمة من المعاني الشـريفة اللطيفة ما يحتاجُ إلى تأمل وتدبر ، ففي ردّ عيســى عليه الســلام من التعظيم والتنزيه والأدب لربّه عزّ وجلّ ما يدلُّ على معرفته لخالقه الكريم.

وتأمل أحوال الرسل صلوات الله وسلامه عليهم مع الله ، وخطابهم وسؤالهم ، كيف تجدها كلها مشحونة بالأدب قائمة به؟.

قال المســـيح عليه الســـلام: ولم يقل: لم ﴿ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ ، وفَرْقٌ بين الجوابين في حقيقة الأدب ، ثم أحال الأمرَ على علمه سـبحانه بالحال وسـره ، فقال: ﴿ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ ، ثم برّأ نفسَـه عن علمه بغيب ربه، وما يختصّ به سبحانه ، فقال: ثم أثنى على ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ ، ووصـفه بتفرده بعلم الغيوب كلها ، فقال: ثم نفى أن يكونَ قال لهم غير ﴿ وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ أمره ربُّه به ـ وهو محض التوحيد ـ فقال: ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ *﴾ ، ثم أخبرَ عن شـــهادته عليهم مدّةَ مقامه فيهم ، وأنّه بعد وفاته لا اطلاع له عليهم ، وأنّ الله عزّ وجلّ وحدَه هو المتفرّدُ بعد الوفاة بالاطلاع عليهم ، فقال: ثم وصفه بأنّ شهادته سبحانه فوق كل شهادة ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ ، فقال: ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَـــهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ ، ثم قال: وهذا من أبلغ الأدب مع الله في مثل هذا ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ ، أي شـأن السـيد رحمةُ عبيده ، والإحسان إليهم ، وهؤلاء عبيدك ليسوا عبيداً لغيرك ، فإذا عذّبتهم ــ مع كونهم عبيدك ــ فهذا عدلك ، فلولا أنهم عبيدُ ســوءٍ من أبخس العبيد وأعتاهم على ســيدهم وأعصــاهم له لم تعذبهم ، لأنّ قربة العبودية تســتدعي إحســان الســيد إلى عبده ورحمته ، فلماذا يعذّب أرحمُ الراحمين؛ وأجودُ الأجودين؛ وأعظمُ المحســنين: عبيدَه لولا فرط عتوّهم وإبائهم عن طاعته ، وكمال استحقاقهم العذاب ، ثم قال: ﴿ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ ،

ولم يقل: الغفور الرحيم ، وهذا من أبلغ الأدب مع الله تعالى ، فإنه قاله في وقت غضب الرب عليهم ، والأمر بهم إلى النار ، فليس المقام مقام استعطافٍ ولا شفاعةٍ ، بل مقامِ براءة منهم. فلو قال: (فإنك أنت الغفور الرحيم) لأشعرَ باستعطافه ربَّه على أعدائه الذين قد اشتدّ غضبه عليهم ، فالمقامُ مقامُ موافقةٍ للربِّ في غضبه على مَنْ غضب الربُّ عليهم ، فعدل عن ذكر الصفتين اللتين يُسألُ بهما عطفه ورحمته ومغفرته ، إلى ذكر العزّةِ والحكمة المتضمنتين لكمالِ القدرةِ وكمالِ العلم.

والمعنى: إن غفرتَ لهم فمغفرتُك تكونُ عَنْ كمالِ القدرة والعلم ، وليست عن عجزٍ عن الانتقام منهم ، ولا عن خفاءٍ عليك بمقدار جرائمهم ، وهذا لأن العبد قد يغفِرُ لغيره لعجزٍ عن الانتقام منه ، ولجهله بمقدار إساءته إليه ، والكمالُ: هو مغفرةُ القادر العالم ، وهو العزيزُ الحكيم ، وكان ذكر هاتين الصفتين في هذا المقام عينُ الأدبِ في الخطاب[304].

هـ. تعظيم نبينا محمد (ﷺ) لربه سبحانه وخوفه منه:

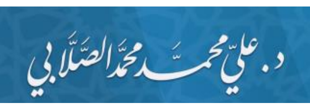
فقد قال رسول الله (ﷺ): «فوالله إنّي لأعلمُهم بالله ، وأشدُّهم له خشية»[305].
وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): «لو تعلمونَ ما أعلمُ لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»[306].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله (ﷺ) إذا عصفتِ الريحُ قال: «اللهم إنّي أسألُكَ خَيْرَها ، وخَيرَ ما فيها ، وخيرَ ما أرسلتْ به ، وأعوذُ بكَ من شرِّها ، وشرِّ ما فيها ، وشرِّ ما أُرسلتْ به».

قالت: وإذا تخيّلت السماءُ تغيّرَ لونه ، وخرجَ ، ودخلَ وأقبل وأدبرَ ، فإذا أمطرت سُرّي عنه ، فعرفت ذلك عائشة ، فسألته فقال: «لعلّه يا عائشة» فسألته فقال؛ «لعله يا عائشة كما قال قوم عاد: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾[الأحقاف: 24]»[307].

---

[304] مدارج السالكين ، لابن القيم (378/2 ، 379).
[305] البخاري رقم (6101) ، مسلم رقم (2356).
[306] البخاري رقم (6486).
[307] وقفات تربوية (67/3).



2 ـ كثرة ذكرهم لله عز وجل، وشدة تضرّعهم ودعائهم له سبحانه مع قوة عبادتهم:

ومن هذه النماذج ما يلي:

أ ـ تضرّعهم إلى الله وسؤاله قضاء حوائجهم:

قال تعالى:﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ *وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ *فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ *﴾ [الأنبياء: 83 ـ 90].

فقد جمع في هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد وإظهار الفقر والفاقة إلى ربه ، ووجود طعم المحبة في التملّق له ، والإقرار له بصفة الرحمة ، وأنّه أرحم الراحمين ، والتوسل إليه بصفاته سبحانه ، وشدّة حاجته هو وفقره ، ومتى وجد المبتلَى هذا كُشِفَتْ عنه بلواه[308].

وفي قوله تعالى: ﴿ وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ *﴾ ، أي: إنّ في صبرِ أيوب عليه السلام ودعائه عبرةً للعابدين من بعده ، ليقتدوا بصبره وعبادته ودعائه ، وفي هذه الآيات أيضاً ذكر إسماعيل ، وإدريس ، وذا الكفل ، وأنهم من الصابرين ، وأنّ الله عزّ وجلّ جازاهم بأنْ أدخلهم في الصالحين[309].

فهؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد وصفهم الله بالصبر ، فدلَّ على أنّهم وفّوها حقها ، وقاموا بها كما ينبغي، ووصفهم أيضاً بالصلاح ، وهو يشمل صلاح القلب بمعرفة الله ومحبته[310] ، والإنابة إليه كل وقت ، وصلاح اللسان، بأن يكون رطباً من ذكر الله ، وصلاح الجوارح باشتغالها بطاعة الله ، وكفِّها عن المعاصي ، فبصبرهم وصلاحِهم أدخلهم الله في رحمته ، وجعلهم مع إخوانهم من المرسلين ، وأثابهم الثوابَ العاجِلَ والاجل ، ولو لم يكن من ثوابهم إلا أن الله تعالى نوّه بذكرهم في العالمين ، وجعل لهم لسانَ صدقٍ في الاخرين ، لكفى بذلك شرفاً وفضلاً[311].

وفي قوله تعالى: ﴿ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ *﴾ [الانبياء : 87]، قال ابن القيم: فإنّ فيها من كمال التوحيد والتنزيه للربّ تعالى ، واعترافِ العبد بظلمه وذنبه ، ما هو من أبلغ أدوية الكربِ والهمِّ والغمّ ، وأبلغ الوسائل إلى الله سبحانه في قضاء الحوائج ، فإنَّ التوحيدَ والتنزيه يتضمنان إثباتَ كلّ كمال لله ، وسلبَ كل نقصٍ وعيبٍ ، والاعترافُ بالظلم يتضمّنُ إيمانَ العبد بالشرع والثوابِ والعقابِ ، ويوجِبُ انكساره ، ورجوعه إلى الله ، وإقالة عثرته ، والاعتراف بعبوديته، وافتقاره إلى ربه ، فهاهنا أربعةُ أمورٍ قد وقع التوسل بها: التوحيد ، والتنزيه ، والعبودية ، والاعتراف[312].

---

[308] بدائع التفسير ، لابن القيم (189/3).

[309] وقفات تربوية (70/3).

[310] تفسير السعدي (295/3).

[311] المصدر نفسه (295/3).

[312] بدائع التفسير ، (190/3).

وقد وصف الله سبحانه: نبيّه يونس عليه السلام بأنّه كان من المسبّحين في وقت الرخاء ، فقال تعالى: ﴿ فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ *لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ *﴾ [الصافات : 143 ـ 144]. وفي قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ *﴾ في وقته السابق بكثرة عبادته لربه ، وتسبيحه ، وتحميده وفي بطن الحوت[313].

هذا هو أدبُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في كثرة ذكر الله عزّ وجلّ وتسبيحهم في الرخاء والشدة ، وفي كلِّ حينٍ ، مع دعائهم لربهم ، واعترافهم بظلمهم لأنفسهم.

ويبقى في الآيات السابقة وصفُ زكريا ويحيى عليهما السلام بقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ *﴾ [الانبياء : 90]. وفي قوله: أي: يبادرون ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ ، ويفعلونها في أوقاتها الفاضلة ، ويكمّلونها على الوجهِ اللائق الذي ينبغي ، ولا يتركون فضيلةً يقدرون عليها إلا انتهزوا الفرصةَ فيها أي: يسألوننا الأمور المرغوبَ فيها من مصالح الدنيا ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ ، ويتعوّذون بنا من الأمور المرهوبِ منها من مضارّ الدارين ، وهم راغبون لا غافلون راهبون. و أي: خاضعين ﴿ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ *﴾، متضرّعين ، وهذا لكمال معرفتهم بربهم[314].

هذه صلة الأنبياء بربهم: ذكر ، وتسبيح ودعاء[315].

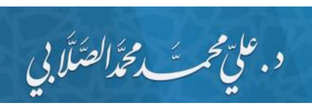
ب . خشوعهم وبكاؤهم عند ذكر الله عز وجل:

فبعد أن ذكر الله عز وجل مجموعةً من الأنبياء في سورة مريم ، أثنى عليهم بقوله تعالى: ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَانِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا *﴾ [مريم: 58].

فهذه خيرُ بيوت العالم ، اصطفاهم الله ، واختارهم ، واجتباهم ، وكان لهم عند تلاوةِ آيات الرحمن عليهم المتضمّنة للأخبارِ بالغيوب ، وصفات علام الغيوبِ ، والإخبار باليوم الاخر ، والوعد والوعيد. أي: ﴿ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا *﴾ لايات الله ، وخشعوا لها ، وأثّرت في قلوبهم من الإيمان والرغبة ما أوجبَ لهم البكاءَ والإنابة والسجودَ لربهم ، ولم يكونوا من الذين إذا سمعوا آيات الله: وفي إضافة الآيات إلى اسمه (الرحمن) دلالةٌ على أنَّ آياته من رحمته بعباده وإحسانه ﴿يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَاناً *﴾ ، حيث هداهم بها إلى الحقِّ ، وبصّرهم من العمى ، وأنقذهم من الضلالةِ ، وعلّمهم من الجهالة[316].

---

313 تفسير السعدي (272/4).
314 تفسير السعدي (297/3) وقفات تربوية (73/3).
315 المصدر نفسه (73/3).
316 تفسير السعدي (209/3).



ج. دعاؤهم عليهم الصلاة والسلام ربّهم بالثبات على الحق ، والموت على التوحيد والإسلام:

من ذلك قول الله تعالى عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه قال: ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ *﴾ [ابراهيم : 35]. وقوله تعالى عن دعائه الاخر أيضاً: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ *﴾ وقوله تعالى عنه أيضاً: ﴿ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا﴾[الممتحنة: 5].

وقوله تعالى عن موسى عليه السلام عندما أخذت قومَه الرجفةُ قوله: ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ * وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الاعراف : 155. 156].

وقوله تعالى: عن سليمان عليه السلام أنه قال: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ *﴾ [النمل : 19].

وقوله تعالى عن يوسف عليه السلام أنه قال: ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ *﴾ [يوسف: 101].

ومن دعاء يوسف عليه السلام: ينبغي للعبد أن يتضرّعَ إلى الله دائماً في تثبيت إيمانه ، ويعمل الأسباب لذلك: يسأل الله حسن الخاتمة ، وتمام النعمة ، ويتوسَّلُ بنعمه الحاصلة إلى ربه أن يتمّها عليه ، ويحسن له العاقبة ، وليس هذا من (يوسف) تمنياً للموت ــ كما ظنَّ بعضُهم ــ بل هو دعاءُ اللهِ أن يُحْسِنَ خاتمته ، ويتوفّاه على الإسلام. كما يسأل العبدُ ربَّه ذلك كلَّ وقت[317].

وقد جمعت هذه الدعوةُ الإقرارَ إليه ، والبراءةَ من موالاةِ غيرِ الله سبحانه ، وكون الوفاةِ على الإسلام أجلُّ غايات العبدِ ، وأنّ ذلك بيدِ الله ، لا بيدِ العبدِ ، والاعترافِ بالمعاد ، وطلبِ مرافقة السعداء[318].

د. القوة في طاعة الله وعبادته:

قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ *﴾ [ص : 45].

ومعنى قال: أولو القوّة في ﴿ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ *﴾ ، والعلم بأمرِ اللهِ. وروي عن قتادة قال: أُعطُوا قوةً في العبادةِ، وبَصَراً في الدّين[319].

---

317 تفسير السعدي (452/2) وقفات تربوية (75/3).

318 بدائع التفسير (476/2).

319 مجموع الفتاوي (170/19) وقفات تربوية (77/3).

والشواهد في ذكر عبادةِ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كثيرةٌ منها:

قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ *﴾ [ابراهيم : 40].

وقوله تعالى في مدح إسماعيلَ عليه السلام: ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا *﴾ [مريم : 55].

وقوله تعالى في مدح إسحاق ويعقوب عليهما السلام: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ *﴾ [الانبياء : 73].

وقوله تعالى: في وصف عبادة داود عليه السلام وإنابته ، وكثرة تسبيحه وخشوعه حتى إنّ الجبالَ والطيرَ تردّدُ معه: ﴿ اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ *إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ *وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ *﴾ [ص : 17 ـ 19].

ووصف نوبته بقوله سبحانه: ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ *﴾ [ص : 24].

وقد وصف لنا الرسولُ (ﷺ) جانباً من كثرة عبادة داود عليه السلام ، وقوّته فيها ، فقال: «أحبُّ الصلاةِ إلى الله صلاةُ داودَ ، وأحبُّ الصيامِ إلى الله صيامُ داود ، كان ينامُ نصفَ الليل ، ويقومُ ثلثه ، وينامُ سدسَه ، وكان يصومُ يوماً، ويفطِرُ يوماً ، ولا يفرُّ إذا لاقى»[320].

وأمّا عن نبينا محمد (ﷺ) وكثرةِ عبادتِه ، وقوّته فيها ، فهي كثيرةٌ جداً ، ولا غرابةَ في ذلك ، فهو الذي امتلأ قلبُه معرفةً بربّه سبحانه ، وحبّاً وتعظيماً له ، وهو الذي قال له ربُّه عزّ وجلّ: ﴿ يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ *قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً *نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً *أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ القرآن تَرْتِيلاً *﴾ [المزمل : 1 ـ 4].

وهو الذي قال له ربه عز وجل: ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً *﴾ [الإنسان : 26]. وقال له: ﴿ فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا *﴾ [مريم : 65].

---

320 البخاري رقم (1131) وقفات تربوية (78/3).



ومن أحواله (ﷺ) في عبادته وقوته فيها:

* عن حذيفة رضـــي الله عنه قال: صـــلّيتُ مع النبيّ (ﷺ) ذاتَ ليلةٍ ، فافتتحَ البقرةَ ، فقلتُ: يركَعُ عند المئةِ ، ثم مضى ، فقلتُ يصلّي بها في الركعةِ ، فمضى ، فقلت:

يركع بها ، ثم افتتح النساء فقرأها ، ثم افتتح آل عمران ، فقرأها ، يقرأ مسترسلاً ، إذا مرَّ بايةٍ فيها تسبيحٌ سبّحَ ، وإذا مرَّ بسؤالٍ سأل ، وإذا مرَّ بتعوّذ تعوّذ ، ثم ركع ، فجعل يقول: «سبحان ربي العظيم» فكان ركوعه نحواً من قيامه ، ثم قال: «سمع الله لمن حمده» زاد في روايةٍ: «ربنا لك الحمد» ثم قام قياماً طويلاً قريباً مما ركع ، ثم سجدَ فقال: «سبحان ربي الأعلى» فكان سجودُه قريباً من قيامه[321].

* وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: قام النبيُّ (ﷺ) حتى تورّمت قدماه ، فقيل له: قد غفرَ اللهُ لكَ ما تقدّمَ من ذنبك وما تأخر ، قال: «أفلا أكونُ عبداً شكوراً؟!»[322].

3 . كمال التوكل على الله:

وإليك شيئاً من الأمثلةِ:

قال الله عز وجل عن نبيه نوح عليه الســلام: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ياقَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُـــرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُـــوا إِلَيَّ وَلاَ تُنْظِرُونِ*﴾ [يونس : 71].

وقال تعالى عن نبيه هود عليه السلام في محاجته لقومه: ﴿ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنْظِرُونِ *إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِـيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِـرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * مَا مِنْ دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ *﴾ [هود: 54 . 56].

ولما علم نبيُّ الله هود عليه الســلام أنّ ربّه على صــراطٍ مســتقيمٍ في خَلْقه ، وأمره ونهيه ، وثوابه وعقابه ، وقضــائه وقدره، ومنعه وعطائه ، وعافيته وبلائه ، وتوفيقه وخذلانه ، لا يخرج في ذلك عن موجب كماله المقدس ، الذي تقتضـيه أسماؤه وصـفاته ، من العدل والحكمة ، والرحمة والإحسـان والفضـل ، ووضـع الثواب موضـعه ، والعقوبة في موضعها اللائق بها ، ووضع التوفيق والخذلان ، والعطاء والمنع ، والهداية والإضلال ، كل ذلك في أماكنه ومحالّه اللائقة به ، بحيث يستحق على ذلك كمالَ الحمدِ والثناء: أوجبَ له ذلك العلمَ والعرفانَ ، إذ نادى على رؤوس الملأ في قومه بجنانٍ ثابتٍ ، وقلبٍ خائفٍ بل متجرّد لله: ﴿ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا

---

321 مسلم رقم (772).

322 البخاري رقم (4836) ومسلم رقم (2819).





ثُمَّ لاَ تُنْظِرُونِ *إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ *﴾ [هود : 54 ـ 56].

فكيف أخافُ مَنْ ناصيتُه بيد غيره ، وهو في قهره وقبضته ، وتحت قهرِه وسلطانه ، وهل هذا إلا مِنْ أجهلِ الجهل وأقبحِ الظلمِ؟![323].

ومن مواقف الشجاعة والثبات وحسن الظن بالله عز وجل ما قصه الله عز وجل علينا في كتابه عن موسى عليه السلام مع قومه عندما تبعهم فرعون وجنوده عند البحر. قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ *قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ *فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ *﴾ [الشعراء : 61 ـ 63].

وما قصه علينا عن محمد (ﷺ) وهو في غار ثور قال تعالى: ﴿ إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة : 40].

4 ـ حسن الظن بالله والرضى بحكمه:

وهذه الصفات من ثمار التوكّل الصادقِ ، الذي ينبعُ من العلم بالله عز وجل ، ومعرفة أسمائه وصفاته واثارها.
قال تعالى عن خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلاَمٍ حَلِيمٍ *فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَابُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَاأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ *وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَاإِبْرَاهِيمُ *قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ *إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاَءُ الْمُبِينُ *﴾ [الصافات: 101 ـ 106].

حقاً إنّ هذا لهو البلاءُ المبين ، والامتحانُ العظيم ، للثقة بالله عز وجل ، والرضى بحكمه ، والاستسلام لأمره ، وقد وصف الله سبحانه حالهما بقوله: ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ *﴾ أي أسلم الوالدُ والولدُ لأمر الله وجل وحكمه.

الله أكبر ما أعظمَ هذه النفوس ، وأنبلَها وأطهرَها ، وأعظمَ إيمانَها بالله وتوحيده؟![324].
ونموذج اخر من التوكل العظيم والثبات العظيم لإبراهيم عليه الصلاة والسلام فيما قصه الله عز وجل علينا عن إلقائه في النار ، قال تعالى: ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ *قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلاَمًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ *وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ *﴾ [الانبياء : 68 ـ 70].

---

[323] وقفات تربوية (96/3).
[324] المصدر نفسه (97/3).



روى البخاريُّ عن ابن عباس رضـــي الله عنهما قال: «حَسْـــبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ» قالها إبراهيم حين ألقي في النار ، وقالها محمّدٌ حين قيل له: [آل عمران: 173]

ما قصّه الله عزّ وجل في سورة يوسف عن يعقوب عليه السلام ، وحسن ظنه بالله عز وجل ، والرضا بحكمه النابع من صـدقه وتوكله ، وثقته بربه سبحانه ، قال تعالى في وصـف رجائه ، وحسـن ظنه بربه سـبحانه ، بعد ما فقد ابنَه الثاني ، وقبله كان قد فقد يوسفَ عليه السلام: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ *وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَال يَاأَسَـفَى عَلَى يُوسُـفَ وَابْيَضَّـتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ *قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُـفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًـا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ *قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ *يَابَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّـــسُـــوا مِنْ يُوسُـــفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُـــوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ *﴾ [يوسف : 83 ـ 87].

وإنّ هذا الرجاءَ العظيمَ من يعقوب عليه السلام في ربّه عز وجل ، وحسن ظنه به ، واستسلامه لحكمه ليظهرَ من قوله: ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ *﴾ [يوسـف : 83] وقد توسّـل عليه السـلام إلى ربه باسمه (العليم) و(الحكيم) وذلك لعلم يعقوب عليه الســـلام بربه ، وعلمه بأسمائه وصـــفاته ، ودلالاتها واثارها ، فكأنّه يقول: إنه هو (العليم) بحالي في الحزن والأسف (الحكيم) الذي لم يبتلني بذلك إلا لحكمةٍ ومصلحةٍ.

وكذلك يتَّضـحُ هذا الرجاءُ في الله عز وجل وعدم اليأس من رحمته من قوله: ﴿ يَابَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّـسُـوا مِنْ يُوسُـفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ *﴾

5 ـ الاستعانة بالله عز وجل والتبرؤ من الحول والقوة:

وهذه الصفة من أعظم ثمار العلم بالله عز وجل وتوحيده والتوكل عليه ، فترى حياتهم كلّها قائمةً على الاستعانة بالله وحده ، والاعتصام به سبحانه ، وأنّهم لا يرون لأنفسهم فضلاً ولا قوة إلا بما يمدّهم الله به من توفيقه وعزّته عز وجل وهذه الصفةُ بارزةٌ في هديهم جميعاً ، نكتفي منها بما يلي:

قول الله عز وجل في دعاء نوح عليه السلام بعد أن كذّبه قومه ، وبذل جميع الأسباب في هدايتهم: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ *﴾ [القمر : 10].
قوله تعالى عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه قال: ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *﴾ [الممتحنة : 4 ـ 5].



وقوله تعالى أيضاً عن وصية أخرى من موسى لقومه: ﴿ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ *﴾ [الاعراف : 128].

وقوله تعالى أيضاً عن وصية أخرى من موسى لقومه: ﴿ وَقَالَ مُوسَى يَاقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ *﴾ [يونس: 84].

وقوله تعالى عن موسى عليه السلام عندما هدده فرعون بالقتل: ﴿ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ *﴾ [غافر: 27].

وقوله تعالى عن يوسف عليه السلام عندما تعرّض لفتنة النساء: ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ *فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ *﴾ [يوسف : 33 . 34][325].

ثانياً . هديهم عليهم الصلاة والسلام في السلوك والأخلاق:

لقد خصّ الله عزّ وجلّ أنبياءَه عليهم الصلاة والسلام بالكمال البشري في الأخلاق والسلوك ، فجاءوا قدوات لمن بعدهم ، يُهتدَى بأخلاقهم ، ويقتدى بسلوكهم ، كما كان الشأنُ في توحيدهم وإيمانهم ، ومعرفتهم بربهم ، ولا غرابة فيما وصلوا إليه من أخلاق عالية ، وصفات نبيلة ، فما هي إلا من اثار التصوّر الصحيح ، والإيمان العظيم ، فالارتباطُ بين المعتقَد والسلوك ارتباطٌ قوي ، وبينهما تناسَبٌ طردي ، تشهدُ له الأدلة والتجارب ، فكلّما صحَّ الاعتقاد وكان سليماً ، فإنّ الأخلاق تعلو وتنمو ، وتشرقُ ، والعكس بالعكس.

وحسبنا أن نستعرضَ بعض هذه الأخلاق الرفيعة ، لتدلُّنا على بقيتها ، لعلَّ القلوبَ ترقُّ ، والعزائمُ تستيقظ ، لتلحق بهذه الصفوة المباركة ، فتهتدي بأخلاقهم ، وتسير بسلوكهم ، وخاصة في مثل زماننا المعاصر ، الذي يشهد أزمةَ أخلاق ، وسوء ممارسات في التعامل بين الناس ، فإن كنّا محبين للأنبياء حقيقةً فهذه أخلاقهم عليهم الصلاة والسلام ، وقد أمرنا الله عز وجل بالاقتداء بهم فيها وفي غيرها:

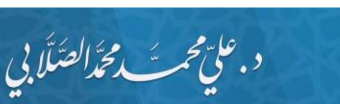
ومن هذه الأخلاق ما يلي:

1 . خلق الرحمة بالناس والشفقة عليهم من عذاب الله عز وجل:

قال تعالى عن دعوة نوح عليه السلام لقومه: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ *﴾ [الاعراف : 59].

---

[325] وقفات تربوية (97/3).



فنوحٌ عليه السلام خوّفهم إنْ لم يطيعوه عذابَ الله ، فقال: ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ *﴾ وهذا من نصحه عليه السلام لهم ، وشفقته عليهم ، حيث خاف عليهم العذاب الأبدي ، والشقاء السرمدي ، كإخوانه من المرسلين ، الذين يشفقون على الخلق أعظم من شفقة ابائهم وأمهاتهم[326].

وهذا التخوفُ على الناس من عذاب الله عز وجل كان عندَ جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ومن ذلك قول الله تعالى عن شعيب عليه السلام يحذر قومه: ﴿ وَيَاقَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ *﴾ [هود : 89].

وقد وصف الله عزّ وجلّ نبيه محمد (ﷺ) بقوله: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ *﴾ [التوبة : 128].

2 . النصح للناس:

قوله تعالى عن نبيه نوح عليه السلام: ﴿ قَالَ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ *أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ *﴾ [الاعراف : 61 . 62].

وقوله تعالى عن نبيه هود عليه السلام: ﴿ قَالَ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ *أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ *﴾ [الاعراف : 67 . 68].

وقوله تعالى عن نبيه صالح عليه السلام بعد هلاك قومه: ﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ﴾ [الأعراف: 79].

وقوله تعالى عن نبيه شعيب عليه السلام بعد هلاك قومه: ﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَال ياقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ *﴾ [الاعراف : 93].

ولقد بلغ النصحُ والشفقةُ على الناس من نبينا محمد (ﷺ) حتى كادَ هذا الأمرُ أن يهلكه ، فخاطبه الله عز وجل قائلاً: ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ *﴾ [الشعراء: 3] ، فكان يحزن حزناً شديداً على عدم إيمانهم نصحاً لهم ، وشفقة عليهم[327].

ومن هذا الباب ، أيضاً تلك الدعوة التي وجهها إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأبيه ، والتي كانت كلّها نصحٌ وشفقةٌ ورحمةٌ مع أدبٍ جمٍّ ، وحلم وتلطف ، من الابن النبي إلى أبيه الكافر: قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا *إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا *يَاأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا

[326] تفسير السعدي (122/2) ، وقفات تربوية (99/3).
[327] وقفات تربوية (100/3).

لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا *يَاأَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَانِ عَصِيًّا *يَاأَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَانِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا *قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَاإِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا *قَالَ سَلاَمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا *﴾ [مريم : 41 . 47].

ومع أنّ الأبَ الشقيَّ ردَّ نصيحة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وهدّده ، وتوعّده بالرجم ، وطالبه بالهجر والمقاطعة ، إلاّ أنّ الابن البار الخائف على أبيه من عذاب يمسّه من قبل الرحمن قال: فلما أيس من ﴿ قَالَ سَلاَمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا *﴾ ، تبرأ منه ، واعتزله ، وترك الاستغفار له ، ومع ذلك فإن إبراهيم عليه الصلاة والسلام يحاولُ الشفاعة فيه يوم القيامة ، ولكن حقّت كلمةُ العذابِ على الكافرين[328].

ومن ذلك قوله تعالى عن إسماعيل عليه السلام: ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا *﴾ [مريم : 55].

أي وكان مقيماً لأمر الله على أهله ، فيأمرهم بالصلاة المتضمنة الإخلاص للمعبود ، وبالزكاة المتضمنة الإحسان إلى العبيد ، فكمّل نفسه ، وكمّل غيره ، وخصوصاً أخصّ الناس عنده ، وهم أهله ، لأنهم أحقّ بدعوته من غيرهم[329].

3 . الصبر:

الصبر من الأخلاق الأساسية في الإمامة في الدين:

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ *﴾ [الانعام : 34].
وقال تعالى: ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ *﴾ [إبراهيم: 12].
وقال تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ [الأحقاف: 35].
وقال تعالى عن أيوب عليه السلام: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ *﴾ [ص : 44].
وقال سبحانه عن نبيه يوسف عليه السلام بعد تلك الابتلاءات المتنوّعة، والتي ثبّته الله عز وجل فيها، وتجاوزها بنجاح: ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ *﴾ [يوسف : 90].
والآيات في وصف صبر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وتقواهم ، وخشيتهم من الله سبحانه كثيرةٌ لا يتّسع المقام لذكرها ، وممّا تجدرُ الإشارةُ إليه ، أنّ مِنْ أهمّ أغراض قصص الأنبياء في القرآن الكريم أخذُ العبر من صبرهم وتضحيتهم ومعاناتهم في مواجهة الشرك ، وإرجاع الناس إلى عبادة الله عز وجل ، وذلك حتى يقتديَ بصبرهم مَنْ جاء بعدهم من

[328] المصدر نفسه (3/100).
[329] وقفات تربوية (3/107).



الدعاة والمصلحين ، فيثبتوا ولا يضعفوا ، ويستبشروا ولا ييأسوا ، قال تعالى: ﴿ وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ *﴾ [هود : 120].

وهذا إبراهيم عليه الصلاة والسلام تعرّض لمحنٍ عظيمةٍ فصبر لها صبرَ الموحّدِ لربّه ، الموفي لوعده ، ذلك حين ألقي في النار ، وحين أُمِرَ بذبح ابنه ، وفلذة كبده ، وحين أُمِرَ بتركه بوادٍ غير ذي زرع ، وحين هاجر من موطنه وترك أباه وأقاربه.

وهذا موسى عليه السلام وما واجه من الأذى والتهديد من فرعون وملأه ، ثم ما واجه من الأذى والتعنت من قومه بني إسرائيل ، حتى إنّ الرسول (ﷺ) قال عن موسى عليه السلام: «يرحمُ اللهُ موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر»[330].

وهذا عيسى عليه السلام جاءه من الأذى والتهم الباطلة من بني إسرائيل حتى تامروا على قتله وصلبه، فصبر على ذلك كله، ولكنّ الله عزّ وجل رفعه إليه[331].

والأنبياء والمرسلون يتفاوتون في الصبر ، فبالرغم من الصبر العظيم من يوسف عليه السلام لا يعني أنه فاق أولي العزم من الرسل في الصبر والتقوى ، فقصة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم صلوات الله وسلامه عليهم أعظم ، والواقع فيها من الجانبين ، فما فعله الأنبياء من الدعوة إلى توحيد الله وعبادته ودينه ، وإظهار آياته ، وأمره ونهيه ، ووعده ووعيده ، ومجاهدة المكذّبين لهم ، والصبر على أذاهم ، هو أعظم عند الله ، ولهذا كانوا أفضل من يوسف صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وما صبروا عليه وعنه أعظم من الذي صبر يوسفُ عليه وعنه ، وعبادتهم لله وطاعتهم وتقواهم وصبرهم بما فعلوه أعظمُ من طاعة يوسف وعبادته وتقواه ، أولئك أولو العزم الذين خَصّهم الله بالذكر في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا *﴾ [الاحزاب : 7] وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا *﴾ [الاحزاب : 7] وقوله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى : 13] ، وهم يوم القيامة الذين تطلب منهم الأمم الشفاعة[332].

---

[330] وقفات تربوية (108/3) ، البخاري رقم (6100).

[331] وقفات تربوية.

[332] مجموع الفتاوى (130/15 . 135) باختصار.





وفي قصة يوسف عليه السلام من جوانب الصبر العظيمة ما يدلنا على ما هو أعظمُ صبراً من يوسف عليه السلام ، ففي قول يوسف عليه السلام: ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ *﴾ [يوسف : 33]. عبرتان:

إحداهما: اختيار السجن والبلاء على الذنوب والمعاصي.

والثانية: طلبُ سؤال الله ودعائه أن يثبّتَ القلبَ على دينه ، ويصرفه إلى طاعته ، وإلا فإذا لم يثبت القلبُ صبا إلى الامرينَ بالذنوبِ ، وصار من الجاهلين ، ففي هذا توكل على الله ، واستعانة به أن يثبت القلب على الإيمان به والطاعة.

وهذا كقول موسى عليه السلام لقومه: ﴿ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ *﴾ [الاعراف : 128]. لما قال فرعون: ﴿ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ * قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ *﴾ [الاعراف : 127 ـ 128].

وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ *الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ *﴾ [النحل : 41 ـ 42].

فلا بدّ من التقوى بفعل المأمور ، والصبر على المقدور ، كما فعل يوسف عليه السلام: اتقى الله بالعفّة على الفاحشة ، وصبر على أذاهنّ له بالمراودة والحبس ، واستعان بالله ودعاه ، حتى يثبته على العفّة ، فتوكّل عليه أن يصرف عنه كيدهن ، وصبر على الحبس ، ومن احتمل الهوان والأذى في طاعة الله على الكرامة والعز في معصية الله ، كما فعل يوسف عليه السلام وغيره من الصالحين ، كانت العاقبة له في الدنيا والاخرة ، وكان ما حصل له من الأذى قد انقلب نعيماً وسروراً ، كما أنّ ما يحصل لأرباب الذنوب من التنعيم بالذنوب ينقلب حزناً وثبوراً.

فيوسفُ خاف الله من الذنوب ، ولم يخف من أذى الخلق وحبسهم إذ أطاع الله ، بل اثرَ الحبس والأذى مع الطاعة على الكرامة والعز وقضاء الشهوات ونيل الرياسة والمال مع المعصية ، فإنّه لو وافق امرأة العزيز لنال الشهوة وأكرمته بالمال والرئاسة ، فاختار يوسف الذلَّ والحبسَ وتركَ الشهوة والخروجَ من المال والرياسة مع الطاعة على العز والرياسة والمال وقضاء الشهوة مع المعصية ، بل قدم الخوف من الخالق على الخوف من المخلوق وإن اذاه بالحبس والكذب ، فإنّها كذبت عليه ، فزعمتْ أنّه راودها ، ثم حبسته[333].

كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها أكمل من صبره على إلقاء أخوته له في الجُبِّ وبيعه ، وتفريقهم بينه وبين أبيه ، فإنّ هذه أمورٌ جرت عليه بغير اختياره ، لا كسب له فيها ، وليس للعبد فيها حيلة غير الصبر ، وأمّا

333 مدارج السالكين (2/156)..

صبره عن المعصية ، فصبرُ اختيارٍ ورضًى ، ومحاربةٍ للنفس ، ولا سيّما مع الأسباب التي تقوى معها دواعي الموافقة ، فإنّه كان شاباً ، وداعية الشباب إليها قوية ، وعزباً ليس له ما يعوّضه ، ويردّ شهوته ، وغريباً ، والغريب لا يستحي في بلدِ غربته مما يستحي منه مَنْ هو بين أصحابه ومعارفه وأهله ، ومملوكاً ، والمملوك أيضاً ليس له وازعٌ كوازع الحرِّ ، والمرأة جميلةٌ ، وذاتُ منصب وجمالٍ ، وهي سيدته ، وقد غاب الرقيب ، وهي الداعية له إلى نفسها ، والحريصة على ذلك أشدَّ الحرص ، ومع ذلك توعّدته إن لم يفعل بالسجن والصَّغار ، ومع هذه الدواعي كلِّها صبر اختياراً وإيثاراً لما عند الله ، وأين هذا من صبره في الجب على ما ليس من كسبه[334]؟!.

وكذلك كان صبر نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام ، على ما نالهم من الله ، باختيارهم وفعلهم ، ومقاومتهم قومهم ـــ أكمل من صبر أيوب على ما ناله في الله من ابتلائه وامتحانه بما ليس مسبباً في فعله ، وكذلك صبر إسماعيل الذبيح ، وصبر أبيه إبراهيم عليهما الصلاة والسلام على تنفيذ أمر الله أكملُ من صبر يعقوب على فقد يوسف[335].

هذا هو صبرُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهذه هي تضحياتهم.

وإذا أردنا أن نقتدي بهم في هذا الخلق العظيم، وأن ننتفع به كما انتفعوا ، فلابدّ في هذا الصبر من شروطٍ ثلاثٍ:

أ ــ أن يكون الصبر بالله ، والمراد بذلك الاستعانة بالله سبحانه ورؤيته أنه هو المصبِّر ، وأنَّ صبرَ العبد بربه لا بنفسه ، كما قال تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ [النحل: 127]

ب ـــ أن يكون لله ، وهو أن يكون الباعثُ له على الصبر محبة الله ، وإرادة وجهه ، والتقرب إليه ، لا لإظهار قوة النفس ، والاستحماد إلى الخلق ، وغير ذلك من الأغراض.

ج ـ أن يكون الصبر مع الله ، وهو دورانُ العبد مع مراد الله الديني منه ، ومع أحكامه الدينية سائر بسيرها ، مقيماً بإقامتها ، أي يجعل نفسه وقفاً على أوامره ومحابه[336].

---

334 المصدر نفسه (169/2).
335 المصدر نفسه (157/2).
336 المصدر نفسه (157/2).





4 ـ الكرم:

من الأمثلة على صفة الكرمِ الكرمُ الذي كان من إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأضيافه من الملائكة ، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ *إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاَمًا قَالَ سَلاَمٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ *فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ *﴾ [الذاريات : 24 ـ 26] ، وقوله تعالى: ﴿ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ *فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلاَ تَأْكُلُونَ *﴾ [الذاريات : 26 . 27] ، متضمنٌ وجوهاً من المدح واداب الضيافة ، وإكرام الضيف:

منها: قوله تعالى: ﴿ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ﴾ والروغان الذهابُ بسرعةٍ ، وهو يتضمّن المبادرة إلى إكرام الضيف ، والاختفاء يتضمّن ترك تخجيله ، وألاّ يعرّضه للحياء ، وهذا بخلافِ مَنْ يتثاقل ، ويتبادَرُ على ضيفه ، ثم يبرز بمرأى منه ، ويحلّ صرةَ النفقة ، ويزنُ ما يأخذ ، ويتناول الإناء بمرأى منه ، ونحو ذلك ، مما يتضمّن تخجيلَ الضيف وحياءه فلفظة (راغ) تنفي هذين الأمرين.

وفي قوله تعالى: ﴿ إِلَى أَهْلِهِ﴾ مدحٌ اخر لما فيه من الإشعار بأنَّ كرامة الضيف معدة حاصلة عند أهله ، وأنَّه لا يحتاجُ إلى أن يستقرِضَ من جيرانه ، ولا أن يذهبَ إلى غير أهله ، إذ قِرَى الضيف حاصلٌ عندهم.

وقوله: ﴿ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ *﴾يتضمّن ثلاثة أنواع من أحدها: خدمة ضيفه بنفسه ، فإنه لم يرسل به ، وإنما جاء به بنفسه.

الثاني: أنه جاءهم بحيوان تام ، لم يأتهم ببعضه ، ليتخيّروا من أطيبِ لحمه ما شاءوا.

الثالث: أنه سمين ، ليس بمهزول ، وهذا من نفائس الأموال ، ولد البقر السمين ، فإنّهم يعجبون به ، فمن كرمه هان عليه ذبحه وإحضاره.

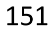
وقوله: ﴿ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ متضمناً المدحَ واداباً أخر.

ثم عرض عليهم الأكل بقوله: ﴿ أَلاَ تَأْكُلُونَ *﴾ وهذه الصيغة مؤذنةٌ ، بخلاف من يقول: ضعوا أيديكم في الطعام ، كلوا ، تقدموا ، ونحو هذا.

وهذا يوسف عليه السلام يقول الله عز وجل على لسانه وهو يخاطب إخوته: ﴿ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ *﴾ [يوسف : 59]. أي خير المضيفين ، لأنه أحسن ضيافتهم[337].

---

337 مسلم رقم (2312).



وأما إذا جئنا إلى كرم الرسول محمد (ﷺ) وجوده، فهو الكرم الذي لا يضاهَى ، والجود الذي لا يبارى ، ويكفينا من ذلك قول الأعرابيّ الذي جاء إلى رسول الله (ﷺ) فوجد عنده من الكرم والسخاء ما يبهرُ العقولَ ، حتى قال مقولته المشهورة لما رجع إلى قومه ، وقد أعطاه الرسول (ﷺ) غنماً بين جبلين فقال: يا قوم أسلموا ، فإنّ محمّداً يعطي عطاءَ مَنْ لا يخشى الفاقة[338].

5 . الوفاء:

أمّا صفة الوفاء فهي بارزةٌ في حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، الذين بلّغوا الرسالة ، وأدّوا الأمانة ، وجاهدوا في الله حق جهاده.

فمنهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام، الذي قال عنه ربه تعالى: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى *﴾ [النجم : 37] أي بلغ جميعَ ما أُمرَ به ، وقال ابن عباس ﴿ وَفَّى *﴾ أُمِرَ به ، وقال قتادة طاعة ﴿ وَفَّى *﴾ ، وأدَّى رسالته إلى خلقه ، وهذا القولُ هو اختيارُ ابن جرير ، وهو يشمل الذي قبله[339].

ومدحَ الله سبحانه نبيّه إسماعيل عليه السلام بقوله: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا *﴾ [مريم : 54]. قال ابن كثير: وقال بعضم: وإنّما قيل له لأنّه قال لأبيه: فصدق في ذلكِ ُ ستجـدللهلـِ إلـل« شاء افففملله كل افصفافحِل *﴾.[340]

وقد وفّى موسى عليه السلام لربّه سبحانه في تبليغ بني إسرائيل دعوةَ اللهِ عزّ وجلّ ، وصبره على أذاهم وتعنتهم وسوء أدبهم ، وقد كان له موقفُ وفاءٍ قبل بعثته ، ألا وهو موقفه عليه السلام مع شيخ مدين حينما أجر نفسه عشر سنين، وهي أتمُّ الأجلين عند الشيخ والد البنتين حتى يتزوّج إحداهما ، وكان قد خيّره بين الثماني والعشر ، فاختار أكمل الأجلين.

عن سعيد بن جبير ، قال: سألني يهودي من أهل الحيرة: أيُّ الأجلين قضى موسى؟ فقلت: لا أدري حتى أقدم على حَبْرِ العرب فأسأله ، فقدمتُ فسألتُ ابنَ عباس فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما ، إنّ رسول الله إذ قال فعل[341].

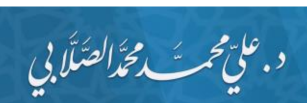
إنَّ العقل والقلم ليعجزان عن الإحاطةِ بأخلاق وسلوكيات هؤلاء الصفوة من عباد الله عزَّ وجلَّ، سواء من جهة الكم أو الكيف ، ولكننا استعرضنا بعض هذه الأخلاق الكريمة لترشدنا إلى غيرها.

338 مسلم رقم (2312).

339 تفسير ابن كثير عند الآية (37) من سورة النجم.

340 المصدر نفسه عند الآية (54) من سورة مريم.

341 البخاري رقم (2684).





ثالثاً ـ التعرّض للأذى ، والصدّ عن سبيل الله عزّ وجلّ مِنْ قِبَلِ أعداء الدعوة ، وأنصار الباطل:

من سنن الله في دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تعرّضهم للأذى ، ووقوف المفسدين في طريق دعوتهم ، يصدونهم ، ويشوّهون دعوتهم ، ويؤذونهم بصنوف الأذى والابتلاء ، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ *﴾ [الانعام : 34].

ولما جاء الرسول (ﷺ) إلى ورقة بن نوفل ابن عمِّ خديجة رضي الله عنها ، وأخبره بما رأى في غار حراء من نزول الوحي قال له ورقة: هذا الناموسُ الذي نزّل على موسى: يا ليتني فيها جذعاً ، ليتني أكونُ حياً ، إذ يخرجُك قومك ، فقال رسول الله (ﷺ): «أو مخرجي هم؟» قال نعم ، لم يأتِ رجلٌ قطُّ بمثلِ ما جئتَ به إلا عُودي ، وإن يدركني يومك أنصرْك نصراً مؤزّراً[342].

ومن صور الأذى والصد عن سبيل الله عز وجل التي تعرّض لها أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام:

1 ـ السخرية ، ورميهم تارة بالسحر ، وتارة بالجنون والسفاهة ، وتارة بالكذب والضلالة:

والشواهد في القرآن على هذا كثيرة منها:

قال تعالى عن قوم نوح عليه السلام: ﴿ قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ*﴾ [الاعراف : 60]. وقال تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ *﴾ [المؤمنون : 25].

وقال عز وجل عن قوم هود عليه السلام: ﴿ قَالَ الْمَلأَُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ *﴾ [الاعراف : 66].

وقال تعالى عن قوم صالح عليه السلام: ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ *﴾ [الشعراء : 153].
ونفس هذه المقولة قالها قوم شعيبٍ لنبيهم: ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ *﴾ [الشعراء : 185].
وقال تعالى عن قوم فرعون: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ *﴾ [يونس : 76].

وقال تعالى عن مشركي العرب مع رسول الله (ﷺ): ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ *﴾ [الانبياء : 5].
وقال عزَّ وجل مخبراً عن هذا الموقف الموحّد من المشركين مع أنبيائهم عليهم السلام: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ *أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ *﴾ [الذاريات : 52 ـ 53][343].

---

[342] البخاري رقم (3).

[343] وقفات تربوية (163/3).



2. القتل والسجن والإخراج من الأرض:

قال تعالى: ﴿ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَانُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ *﴾ [الشعراء : 116].

وقال تعالى عن قوم إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ *﴾ [الانبياء : 68].

وإخباره تعالى عن تهديد قوم شـعيب لنبيهم عليه السـلام بقوله تعالى: ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الاعراف : 88].

وقول قوم لوط لنبيهم عليه السـلام وأهله في قوله تعالى: ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ *﴾ [النمل : 56].

ولما قصّ الله عز وجل علينا خبرَ قوم نوح وهود وصـالح مع رسـلهم عليهم السـلام في سـورة إبراهيم [13] قال بعد ذلك: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا﴾.

وقوله تعالى عن تهديد فرعون لموسى عليه السلام بالقتل: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ [غافر : 26].

وما تعرض له الرسـول (ﷺ) من التهديد بالسـجن ، أو الإخراج ، أو القتل ، والذي ذكره الله عز وجل في قوله: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ *﴾ [الانفال : 30].

وقال نوح عليه السـلام عندما هُدِّدَ بالرجم: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ *فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ *﴾ [الشعراء : 117 ـ 118].

وقال شـعيب عليه السـلام عندما هُدِّدَ بالإخراج من بلده: ﴿ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ *﴾ [الاعراف : 89].

وقال لوط عليه السـلام بعدما هُدِّدَ بالإخراج: ﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ *رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ *﴾ [الشعراء: 168 ـ 169][344].

---

[344] وقفات تربوية (3/177 ـ 178).

وقد يلجأ المبطلُ إلى القوّة المادية ، فيقتل بعضَ أنبياء الله ، ويعذّب بعضـــاً اخر ، بعد أن تعوزُه الحجّة ، وينقصـــه البرهانُ والدليل ، فيكون التجاوُه إلى التعذيب والتقتيل عنوان خذلانه ، وعلامةً على نصــــر أعدائه ، ورُبَّ معذب أو قتيل كتب الله له النصر ، ولدعوته الظفر والتأييد ، وربَّ جبار أو عنيد كتب الله عليه الذل ، وسجّل عليه الخذلان ، فكان الأول حياً في موته ، منتصــــراً في قبره ، وكان الثاني ميتاً في حياته ، مكبوتاً في جبروته وكبريائه ، فهو نصــــر معنوي، يظفر فيه الحقّ بالباطل ، وتظهر فيه الحجّة على التقليد ، والبرهان على الشبهة ، وقوة الروح على قوة المادة ، وقد يكونُ مع النصــــر المعنوي نصــرٌ مادي ، كإنجاء الله إبراهيم من النار ، بعد أن دبّروا له ما دبّروا ، وصـــنعوا له ما صنعوا ، وإنجاء نبينا محمد (ﷺ) من تدبير قريش لقتله ، كلُّ ذلك نصر مادّي ، ومعه نصر معنوي[345].

3 . التضييقُ في الرزق ، وانتهاجُ سياسة التجويع والحصار الاقتصادي:

ويتّضحُ هذا مما قام به المشركون في مكة من مقاطعة الرسول (ﷺ) ومَنْ امن معه مقاطعةً اقتصادية في البيع والشراء وغير ذلك ، ومحاربتهم في شِعْبِ أبي طالب ، حتى مسّهم الضرُّ ، وبلغ منهم الجوع مبلغاً شديداً ، وكذلك ما نادى به المنافقون في المدينة من محاولةٍ لتضييق سبل الرزق لمن حول رسول الله (ﷺ) ، حتى يتفرّقوا عنه ، وينشغلوا في بطلب المعاش ، قال تعالى: ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لاَ تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُـــولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّـــوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّـــمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَفْقَهُونَ *﴾ [المنافقون : 17].

وهي قولةٌ يتجلّى فيها خُبثُ الطبع ، ولؤم النحيزة[346]، ذلك أنّه لخسّة مشاعرهم يحسبون لقمة العيش هي كلُّ شيء في الحياة ، كما هي في حســـهم ، فيحاربون بها المؤمنين... وهي خطة غيرهم ممّن يحاربون الدعوة إلى الله عز وجل من قديم الزمان إلى هذا الزمان ، ناســـين الحقيقة البســـيطة ، التي يذكّرهم القرآن بها قبل ختام هذه الآية: ﴿ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَفْقَهُونَ *﴾ [المنافقون: 7][347].

4 . إثارة الفرقة بين أبناء الأمة الواحدة وجعلها أحزاباً وشيعاً:

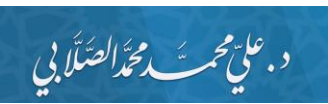
وهذا واضـحٌ من قوله تعالى عن فرعون مصـر: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ *﴾ [القصص : 4].

---

[345] دعوة الرسل ، محمد العدوي ص (241).

[346] النحيزة: الطبع والجبلة.

[347] ظلال القران (3579/6).





وكذلك ما حاوله اليهود زمنَ الرســـول (ﷺ) من إثارةِ النعرات بين الأوس والخزرج بعد إســـلامهم ، ولكنّهم باءوا بالفشل، وعصم الله سبحانه الأنصار بوجود الرسول (ﷺ)[348].

5 . اتهامهم بالفساد والإفساد وإثارة الفتن:

ويتّضحُ هذا جلياً من قوله تعالى عن المقولة الجائرة لفرعون: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ *﴾ [غافر: 26].

وقال تعالى عن الملأ من قوم فرعون: ﴿ وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَـى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِـدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ [الاعراف : 127][349].

6 . اتّهام الأنبياءِ عليهم الصلاة والسلام بأنّهم طُلاّب مُلْكٍ ودنيا ، وليسوا مخلصين فيما ينادون به:

قال تعالى: ﴿ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون : 24].

وقوله تعالى أيضـــاً في مقولة فرعون لموســـى عندما رأى معجزة العصـــا: ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِـنَا بِسِـحْرِكَ يَامُوسَى*﴾ [طه : 57].

وقوله تعالى عن فرعون وقومه وعن موسى وهارون عليهما السلام:

﴿ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ *﴾ [يونس : 78].

وفي قولـه تعالى: ﴿ وَتَكُونَ لَكُمَـا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ﴾ [يونس : 78]: هـذه الكلمة مِنْ ملأ فرعون هي إذكـاءٌ لشـعور الرفعة وأبّهة السـلطان ، وتأريثٌ للعداوة والبغضـاء لموســى وأخيه ، لأنّه يحاول بعمله هذا أن يَسْـلُبَ فرعون مُلكه، ويقضي على نفوذه وعظمته ، وهي دسيسـةُ خبيثةٌ دنيئةٌ ألفناها من بطانات الرؤسـاء ، وتعوّدناها من حواشي السوء ، إذا كرهوا رجلاً دسّوا عليه تلك الدّسيسة ، واتّهموه بتلك التهمة ، لأنّهم يعلمون أنّ الرؤساء لا يتأثرون بشيءٍ تأثرهم بما يمسّ ســلطانهم ، ويتعلق بســـلطانهم ، فإذا لقنوهم تلك الكلمة فإنّهم لا يناقشـــون فيها ، ولا يطلبون عليها دليلاً ، ولا شبه دليل من ذلك المبلّغ الدسّاس ، وهي طبيعةٌ من طبائع التسلط ، وخُلقٌ من أخلاقه ، ولا تخص رجلاً دونَ اخر ، ولا تتعلّق بجيلٍ دون جيلٍ.

وقد يعلم ملأ فرعون أنّ موسى عليه السلام وأخاه هارون لا يريدان ملكاً ، وإنما يريدان إصلاحاً في الأرض ، وإنقاذاً لبني إسرائيل من بطش فرعون وظلمه ، ولــكنّ بطانات السوء تأبى إلا أن تظهِرَ المصلحَ بتلك الصورة ، التي من شأنها

---

348 وقفات تربوية (171/3).

349 وقفات تربوية (167/3).





أن يطيرَ لها لبُّ فرعون ومَنْ على شاكلته من الظلمة المستبدين ، لـــذلك لجأوا إلى تلك الدسيســـة ، دسيسة أنّهما يريدانِ مُلكاً ، ولا يريدان رسالة[350].

وهذه الصور من الأذى والصدّ عن سبيل الله تعالى تبيّنُ لنا سنةَ الله عزّ وجل في الصراع بين الحق والباطل ، وسنته سبحانه في الابتلاء والتمحيص.

رابعاً ـ التدرّج في الدعوة ، ومراعاة المصالح والمفاسد:

أوّل ما أوحي إلى رسول الله (ﷺ) من ربه تبارك وتعالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ *﴾ [العلق : 1] ، وذلك أوّل نبوته ، فأمره أن يقرأ في نفسه ، ولم يأمره إذ ذاك بالتبليغ ، ثم أنزل عليه: ﴿ يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ *قُمْ فَأَنْذِرْ *﴾ [المدثر : 1 ـ 2] فنبأه بقوله: ﴿ اقرأ﴾ وأرسله بـ ﴿ يا أيها المدثر﴾ ثم أمره أن ينذرَ عشيرته الأقربين ، ثم أنذرَ قومه، ثم أنذرَ مَنْ حولهم من العرب ، ثم أنذر العربَ قاطبةً ، ثم أنذرَ العالمين ، فأقام بضـعَ عشـرةَ سـنةً بعد نبوته ، ينذِرُ بالدعوة بغير قتال ولا جزية ، ويؤمَرُ بالكفِّ والصـبرِ والصـفحِ ، ثم أذن له في الهجرة ، وأذن له في القتال ، ثم أمره أن يقاتِلَ منْ قاتله ، ويكفَّ عَمّنْ اعتزَّ به ولم يقاتله. ثم أمره بقتال المشركين حتى يكونَ الدين كلّه لله.

ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقســام: أهل صــلح وهدنة ، وأهل حرب ، وأهل ذمة ، فأمر بأنْ يتمَّ لأهل العهد والصـلح عهدهم ، وأن يوفي لهم به ما اسـتقاموا على العهد ، فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم ، ولم يقاتلهم حتى يُعْلِمهم بنقض

العهد. وأمر أن يقاتل مَنْ نقضَ عهده ، ولما نزلت (سـورة براءة) نزلت ببيان حكم هذه الأقسـام كلها ، فأمره فيها أن يقاتل عدوّه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية ، أو يدخلوا في الإسلام ، وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين ، والغلظة عليهم ، فجاهد الكفّارَ بالسـيف والسـنان ، والمنافقين بالحجة واللســان ، وأمره أن يجعل أهل العهد في ذلك ثلاثة أقسام:

1 ـ قسم أمره بقتالهم ، وهم الذين نقضوا عهده ، ولم يستقيموا له ، فحاربهم ، وظهر عليهم.

2 ـ وقسم لهم عهدٌ مؤقّت لم ينقضوه ، ولم يظاهروا عليه ، فأمره أن يتمَّ لهم عهدهم إلى مدتهم.

3 ـــ وقسم لم يكن لهم عهد ، ولم يحاربوه ، أو كان لهم عهد مطلق ، فأمر أن يؤجّلهم أربعةَ أشـهرٍ ، فإذا انسلخت قاتلهم وهي الأشـهر الأربعة المذكورة ، وهي الأشـهر الحرم المذكورة في قوله: ﴿ فَسِـيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْـهُرٍ﴾ [التوبة : 2] ، وهي الحرم المذكورة في قوله: ﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة : 5].

[350] دعوة الرسل ص (221) بتصرف.



فالحُرُم هاهنا: أشهرُ التسيير ، أوّلها يومُ الأذان ، وهو اليوم العاشر من ذي الحجة ، وهو يومُ الحجّ الأكبر ، الذي وقع فيه التأذين بذلك ، واخرُها العاشر من شهر ربيع الاخر ، وليست هي الأربعة المذكورة في قوله: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة : 36] ، فإن تلك واحدٌ فردٌ ، وهو شهر رجب وثلاثة سردٌ: ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ولم يسيّر المشركين في هذه الأربعة ، فإنّ هذا لا يمكن ، لأنّها غير متوالية ، وهو إنّما أجّلهم أربعة أشهر ، ثم أمره بعد انسلاخها أن يقاتلهم ، فقتل الناقض لعهده ، وأجَّل مَنْ لا عهدَ له ، أو له عهد مطلق أربعة أشهر ، وأمره أن يُتَمَّ للموفي بعهده عهدَه إلى مدته ، فأسلم هؤلاء كلهم ، ولم يقيموا على كفرهم إلى مدتهم.

وضرب على أهل الذمة الجزية ، فاستقرّ أمرُ الكفار معه بعد نزول براءة على ثلاثة أقسام: محاربين له ، وأهل عهد، وأهل ذمة ، ثم الت حالُ أهل العهد والصلح إلى الإسلام ، فصاروا معه قسمين: محاربين ، وأهل ذمة ، والمحاربون له خائفون منه ، فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام: مسلم مؤمن بربه ، ومسالم له امن ، وخائف محارب.

وأما سيرته في المنافقين ، فإنّه أُمِرَ أن يقبلَ منهم علانيتهم ، ويكلَ سرائرَهم إلى الله ، وأن يجاهِدَهم بالعلم والحجة ، وأمره أن يُعرِضَ عنهم ، ويُغْلِظ عليهم بالقول البليغ إلى نفوسهم ، ونهاه أن يصلّي عليهم ، وأن يقوم على قبورهم ، وأخبر أنّه إن استغفرَ لهم فلن يغفرَ الله لهم ، فهذه سيرته في أعدائه من الكفّار والمنافقين[351].

هذا هو خط دعوته (ﷺ) وجهاده منذ أن بعثه الله سبحانه إلى أن مكّن له في الأرض ونصره.

وفترةُ النبيّ (ﷺ) قبل الهجرة والإذن بالقتال محلّ اتفاق بين الأنبياء جميعاً ، حيث إنّ هديهم عليهم الصلاة والسلام قد اتفق في هذه الفترة مع هدي الرسول (ﷺ) في مكة قبل الهجرة حيث الاستضعاف والصبر وكفّ اليد ، أمّا بعد الهجرة ، فكان الجهادُ الذي نصر الله به نبيّه (ﷺ) ، وبما أيده به من المعجزات.

أما الأنبياء الذين لم يشرع في حقهم الجهاد وقتال الأعداء ، فكان نصرُ الله عزّ وجلّ ينزل عليهم بعد أن يكونوا قد تجاوزوا مرحلة البناء والابتلاء بنجاح ، وذلك النصرُ يجيء بمعجزةٍ منه سبحانه ، وايةٍ من آياته ، فينصر الله سبحانه به أنبياءه ، ويهلك به أعداءه ، كما نصر نوحاً بالطوفان ، وهوداً بالريح ، وصالحاً بالصاعقةِ ، وشعيباً بعذاب يوم الظلّة[352].

ومن أهم ملامح الدعوة في فترات الاستضعاف ــ والذي يتّضح من هدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في دعوة أقوامهم في تلك المرحلة ــ الصفحُ والصبرُ على الأذى ، وكفُّ اليد ، والاستعانةُ بالله على كلِّ وسائل الأذى والصدّ والاستفزاز ، الذي يقومُ به أهلُ الباطل ، وأعداءُ الدعوة.

---

351 زاد المعاد: (3/159 . 161).

352 وقفات تربوية (3/185).



إنّ القول بالصفح والصبر في الدعوة وكفّ اليد لا يعني أبداً تركَ الجهر بالدعوة إلى التوحيدِ ، وتبصير الناس بدينهم ، وتصـــحيح مفاهيمهم ، وتوعيتهم بكيد أعدائهم ، كما أنّه لا يعني بحالٍ من الأحوال ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والنصـح للناس بتحذيرهم من الفسـاد وعواقبه ، وتعرية الباطل ، وإنما المقصـود تجنب أي شـكل من أشـكال المواجهة بالقوة مع الباطل وأهله للأســباب المذكورة ســابقاً ، وما ســوى ذلك يجب أن يبقى على أشــدّه في الدعوة والبلاغ والتربية ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حسب الضوابط الشرعية ، وحسب الاستطاعة ، وقدر ما يملك من فعل الأســباب ، وأنْ توطّءَى النفوسُ على تحمّل الأذى والابتلاءات التي تترتب على دعوة الناس وتبليغهم دينهم حتى إذا جاءت العقبات من الباطل وأنصـاره ، فإذا العزائمُ قوية تتحمّل الأذى ، وتثبت ولا تضـعف وتتضـعضـع أمامَ تهويشِ الباطل وتخويفه ، أو أمام ترغيبه ومساوماته[353].

خامساً . مراعاةُ السنن الربانية في دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام:

قال تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ *﴾ [آل عمران: 43].

وقال عز وجل: ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً *﴾ [فاطر : 43].

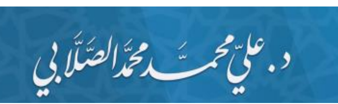
والتاريخُ بما يحتوي من الحوادث المتشـابهة، والمواقف المتماثلة، يسـاعد على كشـف هذه السـنن التي هي غايةٌ في الدقة والعدل والثبات.

وفي إدراكنا للســـنن الربانية فوائدُ عظيمة، حتى لو لم نقدر على تفادي حدوثها والنجاة منها، حيث يعطينا هذا الإدراكُ والمعرفةُ صـلابةً في الموقف، بخلاف من يجهل مصـدر الأحداث، فإنّ الذي يعلمُ تكونُ لديه بصـيرةٌ وطمأنينة، أما الذي يجهل فليس لديه إلا الحَيْرَة والخوف والقلق[354].

---

353 وقفات تربوية (196/3).

354 منهج كتابة التاريخ الإسلامي ، د.محمد صامل السلمي ص (60).



ومن السنن الثابتة من خلال دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ما يلي:

1 . سنّةُ سوءِ عاقبةِ المكذّبين:

إنّ الذين يكذّبون بآيات الله ورسله ، ويظلمون الناس بغير حق ، ويَسْعَوْن في الأرض فساداً ، وعدهم الله بسوءِ العاقبة ، قال تعالى: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا *وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا *وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا *﴾ [الفرقان : 37 . 39].

2 . العاقبة للمتقين:

قال تعالى عقب قصة نوح عليه السلام: ﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ *﴾ [الاعراف : 128].

فمن سنن الله تعالى أنَّ العاقبةَ للمتقين ، والهلاكَ للمكذّبين المعاندين.

قال تعالى عن هود عليه السلام مع قومه: ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ *﴾ [الاعراف : 72].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ *﴾ [الروم : 47].

وما جرى من تحقُّق هذه السنة في الماضي ، سيجري مثلُه إن شاء الله تعالى في الحاضر والمستقبل إذا تحققت أسبابها من ظهور المتقين الذين يستحقّون نصر الله عز وجل[355].

3 . الابتلاء سنةٌ جاريةٌ للمؤمنين:

وهذه السنّة من الوضوح بحيث لا تحتاجُ إلى تعليق ، حيث تواترت بها الأدلّةُ الكثيرةُ من القرآن والسنة ، وحيث الوقائع والتجارب في حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم تشهد بذلك ، ويكفي قوله تعالى: ﴿ الم *أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ *وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ *﴾ [العنكبوت : 1 ـــ 3]. وقوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ *﴾ [البقرة : 214].

---

[355] وقفات تربوية (207/3).

وعن مصعب بن سعد عن أبيه قال: قلتُ يا رسول الله: أيُّ الناس أشدُّ بلاءً؟ قال: «الأنبياءُ ، ثم الأمثلُ فالأمثلِ ، فيبتَلى الرجلُ على حَسَبِ دينه ، فإن كان في دينه صَلْباً اشتدّ بلاؤه ، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حَسَبِ دينه ، فما يبرحُ البلاءُ بالعبدِ حتى يتركَه يمشي على الأرضِ ما عليه خطيئةٌ»[356].

وحكمةُ هذا الابتلاء عظيمةٌ ، وفوائدُه في التربية والتمحيص وتمييز الصـــفوف معروفةٌ ، وعلى هذا ينبغي أن توطن النفوسُ على هذه السنة مع سؤال الله عز وجل العافية والثبات[357].

4 . سنّةُ إناطةِ التغييرِ بالبشر:

وتُعتبر هذه من سنن الله سبحانه الخالدة ، التي أناطَ بالبشرية مسؤولية رقيّهم وانحطاطهم ، ومسؤولية إتباعهم للخير أو الشر ، حيث إنّهم مُنِحوا قدراً من الحرية والاختيار ، ومع ذلك القدر من الحرية بعث إليهم المولى عزّ وجلّ الرسل ، التي جاءتهم بالهداية الربانية ، التي فيها خيري الدنيا والاخرة لمن اتبع المرســـلين ، قال تعالى: ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى *﴾ [طه : 123].

فإذا وجدت أسبابُ الهداية فإنّ النتائجَ تتبعها ، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد : 11].

لذلك فإنّ التغيير يبدأُ من النفس، ســـواء بالارتقاء إلى أعلى ، أو بالانتكاس والهبوط إلى أســـفل ، فهي تعتبر النقط الأساسية في تغيير النفس البشرية من الشرّ إلى الخير أو العكس ، والبشر في كلتا الحالتين هم المسؤولون مباشرة عن إصلاح أنفسهم ، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد : 11].

ولقد تعامل رســـول الله (ﷺ) مع هذه الســـنة في تغيير النفوس والمجتمع ، ومن تأمّل هذه الآية الكريمة التي قرّرت حدوثَ التغيير من الله سبحانه مترتباً على حدوثه من النفس البشرية سواء بالسلب أو الإيجاب ، وهذا الترتيبُ يضع البشرية أمامَ مفرق طرق ، ويربط في أعناقهم مسؤولية عدم إحداث التغيير في النفس البشرية والمجتمعات الإنسانية وفق منهج الله القويم ، قال تعالى: وهذه السنةُ ﴿ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ يمكِنُ إدراكها إدراكاً صحيحاً وكلياً إلا باتباع المنهج الرباني ، الذي يربط بين الســـنن والأحداث التاريخية ، ويحدد العلاقة الســـليمة بينهما ، حيث إنّ اتباع المنهج الرباني يغطّي خير الســنن ، ويصـرف الصـوارف ، قال تعالى: ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ *﴾ [البقرة : 38][358].

---

356 سنن الترمذي رقم (2400) صححه الألباني رقم (1003).

357 وقفات تربوية (210/3).

358 منهج كتابة التاريخ الإسلامي ص (64).





5 . سنة زوال الأمم بالعلوّ والطغيان:

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ *إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ *الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ *وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ *وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ *الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ *فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ *فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ *إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ *﴾ [الفجر : 6 . 14].

فتأمل في هذه الآيات الكريمة التي تقرّرُ سنةً من سنن الله الربانية التي لا تحابي أحداً من خلقه ، إنّها سنةُ زوال الأمم بالترف والفساد ، زوال الأمم بالتجبر والطغيان ، زوال الأمم بالبطر والكبرياء ، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا *﴾ [الاسراء : 16]. أي أمرناهم بالأمر الشرعي من فعل الطاعات ، واجتناب المعاصي ، فعصوا وفسقوا ، وحققوا
أسباب الزوال والانهيار ، فحقّت عليهم سنةُ الأخذِ والزوال ، والتدمير والتنكيل ، جزاءَ فسقهم وعصيانهم.

6 . سنة إهلاك الأمم بالظلم والإجحاف:

قال تعالى: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ *﴾ [الانبياء : 11].

فإذا ما فشى الظلمُ ، وعدمُ إقامة العدل في أمة من الأمم ، فقد تحقّقت فيهم أسبابُ الهلاك ، وحقت عليهم سنةُ الله بالهلاك ، ووقعت عليهم القاصمة ، لأنَّ الله سبحانه تعالى قد حرّم الظلمَ على نفسه ، وجعله بين العباد محرّماً ، كما في الحديث القدسي: «يا عبادي إنّي حرّمتُ الظلمَ على نفسي ، وجعلتُه بينكم محرَّماً فلا تظالموا»[359].

فإذا اختلّت الموازينُ ، وانعدمتِ القيمُ ، وتحكّم الأقوياءُ في رقاب الضعفاء ، وقسم المجتمع إلى طبقاتٍ سادة وعبيد ، وتلاعبَ السادةُ بحدود الله وأوامره ، فقد حقّت عليه سنةُ الله ، التي لا تحابي أحداً من خلقه ، ولن تجدَ لسنّة الله تبديلاً ولا تحويلاً ، جاء في الحديث الصحيح قوله (ﷺ): «إنّما هلك الذين مِنْ قبلكم أنّهم كانوا إذا سرَقَ فيهم الشريفُ تركوه ، وإذا سرقَ فيهم الضعيفُ أقاموا عليه الحدَّ ، وايمُ اللهِ ، لو أنَّ فاطمةَ بنتَ محمّدٍ سرقتْ لقطعتُ يدَها»[360].

7 . سنة لكل أمة أجل:

قد يرى الناسُ موجبات العذاب والانهيار، قد حلّت بأمة من الأمم ، ثم لا يرون زوالها بأنفسهم ، لكنَّ عمر الأمم أطولُ من عمر الأفراد ، ولا تقع إلا بأجل محدود لابدّ من استيفائه ، قال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ

---

[359] مسلم رقم (2577).

[360] البخاري رقم (3475) مسلم رقم (1688).



لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ *﴾ [الاعراف : 34]. وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ *مَا تَسْبَقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ *﴾ [الحجر : 4 ــ 5]. وقال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا *﴾ [الكهف : 59].

8 . سنةُ الأيام سِجَالٌ بين الناس:

فمن رحمة الله سبحانه أنْ جعل مداولةَ الأيام سِجالٌ بين الناس ، من شدّةٍ ورخاءٍ ، وقوّة وضعف ، وعزّ وذلّ ، وصحةٍ وسقمٍ ، وغنًى وفقر ، امتحاناً لهم حتّى يعلمَ منهم ـ وهو أعلمُ بما يفعلون ـ الشاكرين من الجاحدين ، والصابرين من الجازعين ، والمجاهدين من القاعدين ، والمنفقين من الممسكين ، قال تعالى: ﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ *﴾ [آل عمران: 14][361].

9 . سنة نصر الله للمؤمنين:

لقد قضت حكمةُ الله سبحانه وسنته الجارية على استحقاقِ المؤمنين لنصره إذا أتوا بشروطِ هذه السنّة ، ومن هذه الشروط:

أ . الاستقامة على منهج الله، قال تعالى: ﴿ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا *﴾ [الجن: 16].

ب ــ عدم الإشراك به سبحانه، وتحقيق الإيمان، والعبودية الشاملة ، قال تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا﴾ ﴿ اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ *﴾ [النور: 55].

ج . ذكر الله كثيراً، قال تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ *﴾ [الانفال : 45].

فإذا ما حقق المؤمنون شروطَ هذه السنة، كما كان الأمر في عهد داود وسليمان ومحمد عليهم أفضل الصلاة والتسليم، فإنّ نصرَ الله لهم قريب، قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ *﴾ [غافر : 51]. وقال تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ *﴾ [محمد : 7]. وقال تعالى: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ *﴾ [الروم : 47][362].

---

361 منهج كتابة التاريخ الإسلامي ص (65).

362 منهج كتابة التاريخ الإسلامي ص (69).



10 . سنة التدافع بين الحق والباطل:

وهذه السـنةُ من أهم السـنن الربانية التي يجب الوقوفُ عندها ، وعدمُ نسـيانها أو الغفلة عنها ، والمتأمّلُ في دعوةِ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع أقوامهم يلمسُ هذه السنة بوضوحٍ وجلاءٍ ، فالنبيُّ (ﷺ) تعامَلَ مع هذه السنة ، وظهرت جلياً في الفترة المدنية مع حركة السَّرايا والبعوث والغزوات التي خاضها النبيُّ (ﷺ) ضدَّ المشركين.

وهذه السـنّةُ متعلقةٌ تعلّقاً وطيداً بالتمكين لهذا الدين، وقد أشـار الله تعالى إليها في كتابه العزيز ، وجاء التنصيصُ عليها في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ *﴾ [البقرة : 251]. وفي قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ *﴾ [الحج : 40].

ونلاحظ في اية البقرة: أنّها جاءت بعد ذكر نموذج من نماذج الصـراع بين الحق والباطل، المتمثّل هنا في طالوت وجنوده المؤمنين، وجالوت وأتباعه، ويذيّل الله تعالى الآية بقوله ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ *﴾ [البقرة : 251] مما يفيد أنَّ دفعَ الفسادِ بهذا الطريق إنعامٌ يعمُّ الناسَ كلَّهم[363].

وتأتي ايةُ الحجّ بعد إعلان الله تعالى أنه يدافع عن أوليائه المؤمنين ، وبعد إذنه لهم سـبحانه بقتال عدوِّهم ، ويختتم الآية بتقريرٍ لقاعدة أساسية: ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ *﴾.

لقد أدرك الصحابةُ هذه السنة ، وعلموا أنَّ القضاء على الباطل وتدميره ، لابدّ له من أمةٍ لها قيادة ومنهج ، وقوة تدمغ الباطل وتزهقه ، وأيقنوا أنَّ الحقَّ يحتاجُ إلى عزائم تنهضُ به ، وسواعد تمضي به ، وقلوب تحنو عليه ، وأعصابٌ ترتبط به ، لقد علّمهم النبيُّ (ﷺ) كيف يتعاملون مع هذه السنة ، فاستجابوا لأمرِ الله تعالى عندما أمرهم بالجهادِ في سبيله ، فقد شرع الله عز وجل الجهادَ لهذه الأمة ، وجعله فريضةً ماضيةً إلى يوم القيامة ، لا يبطله جورُ جائرٍ ، ولا عدلُ عادلٍ ، وما تركه قومٌ إلا أذلهم الله ، وسلّط عليهم عدوَّهم ، وقد شرع الله عز وجل الجهادَ على مراحل ، ليكونَ أروض للنفس ، وأكثرَ ملاءمةً للطبع البشري ، وأحسنَ موافقةً لسير الدعوة وطريقة تخطيطها[364].

هذه بعض السنن التي نلاحظها في دراسة دعوة الأنبياء والرسل. وفي إدراكنا للسنن الربانية فوائدُ عظيمة، حتى لو لم نقدر على تفادي حدوثها ، والنجاة منها ، حيث يعطينا هذا الإدراكُ والمعرفةُ صـلابةً في الموقف ، بخلاف مَنْ يجهل مصدر الأحداث ، فإنّ الذي يعلم تكون لديه بصيرةٌ وطأنينةٌ ، أما الذي يجهلُ فليس لديه إلا الحَيرةُ والخوف والقلق.

---

[363] مفاتيح الغيب للفخر الرازي (514/3).

[364] السيرة النبوية للمؤلف (611/1 . 612).



والسنن الربانية نوعان: سنن خارقة ، وسنن جارية:

فالسنن الخارقة: هي التي يجريها اللهُ على خلاف مألوف الناسِ على يد رسولٍ من رسله ، تأييداً من الله له بتلك المعجزة ، كما حوّل العصا حيةً في يد موسى عليه السلام ، قال تعالى: ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَامُوسَى *فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى *﴾ [طه : 19 ـ 20].

وكما أنبع الماءَ من الصخرةِ عندما ضربها موسى بعصاه ، قال تعالى: ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً﴾ [البقرة : 60].

والسنة الجارية نوعان:

سنةٌ متعلقة بالأمورِ الطبيعية ، كسنة الله في تعاقب الليل والنهار ، والشمس والقمر ، فهي تجري وفقَ ناموسٍ محدّدٍ قدَّره الله لها.

وسنة متعلقة بدين الله، وأمره ونهيه ، ووعده ووعيده ، فهي ثابتةً لا تتبدّل ، مثل نصره لأوليائه ، وإهانته لأعدائه ، كما أنّه سبحانه وتعالى إذا حكم في الأمور المتمثلة بحكمٍ ، فإنّ ذلك لا ينتقض ولا يتبدّل ولا يتحوّل ، فهو سبحانه لا يفرّق بين المتماثلين ، وإذا وقع تغييرٌ فذلك لعدم التماثل ، كما أنّ من سننه التفريقَ بين المختلفين ، كما دلَّ على ذلك القرآن ، قال تعالى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ *﴾ [القلم : 35][365].

ومن هذا الباب صارت قصصُ المتقدّمين عبرةً لنا ، ولولا القياسُ واطراد فعله وسننه لم يصحَّ الاعتبارُ بها ، لأنّ الاعتبارَ إنّما يكونُ إذا كان حكمُ الشيء حكمَ نظيره كالأمثال المضروبة في القرآن[366].

فهذه السنن الشرعية إنّما تدرك من خلال النظر في التاريخ ، وملاحظة مصائر الأمم ، وقيام الحضارات وسقوطها وأسبابُ ذلك[367].

والسنن الربانية تجيءُ في القرآن غيرَ محدّدة ، لكي تشملَ على أكبر قدرٍ من الوقائع ، وتلامسَ أكبرَ عدد من التفاصيل، والجزئيات[368].

كما أنّ معرفة السنن الربانية تفرضُ على الجماعة الواعية المدركة والملتزمة أن تتجاوزَ مواقع الخطأ التي قادت الجماعات البشرية السابقة إلى الدمار والهلاك ، وأن تحسنَ التعامل مع تلك السنن ، ومع قوى الكون ، مستمِدّةً ذلك من منهج الله الذي سار عليه أنبياؤه ورسله صلوات الله وسلامه عليهم.

---

365 منهج كتابة التاريخ الإسلامي ص (60).

366 جامع الرسائل ، لابن تيمية ص (55).

367 تفسير التاريخ ، عماد الدين خليل ص (109).

368 المحكم في العقيدة ص (159 ـ 162).





سادساً ـ أصناف المدعوّين في دعوة الأنبياء:

فصّل القرآن الكريم أصنافَ المدعوّين الذين اتّصل بهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فلا تكادُ تجدُ طبقةً من الناس إلاّ والقرآن يقدّم لك نموذجاً لاتصالِ الأنبياء بهم، ومن هذه النماذج:

1 ـ الملوك:

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ*﴾ [البقرة : 258].

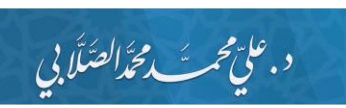
وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا﴾ [يونس : 75].

وقال تعالى: ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِي لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ *لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ *فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ *إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ *وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ *أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ *اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ *قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ *اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ *قَالَتْ يَاأَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ *إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ *أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ *﴾ [النمل : 20 ـ 31].

2 ـ الأغنياء المترفون:

قال هود عليه السلام لقومه في القرآن الكريم: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ *وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ *وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ *فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ *وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ *أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ *وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ *﴾ [الشعراء : 128 ـ 134].

وقال صالح عليه السلام لقومه في القرآن الكريم: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلاَءَ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ *﴾
[الاعراف : 74].





3 . الفقراء والمستضعفون:

هذا كلام قوم نوح لنوح عليه السلام: ﴿ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ *﴾[هود: 27].

وقال تعالى عن قوم موسى عليه السلام: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ *وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ *﴾ [القصص : 4 ـ 6].

4 . المطففون:

قال تعالى: ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ *وَيَاقَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ *﴾ [هود : 84 ـ 85].

5 . الشاذون:

قال تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ *إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ *وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ *﴾ [الاعراف : 80 ـ 82].

6 . المسجونون:

قال تعالى: ﴿ يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ *مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ *﴾ [يوسف : 40].

7 . الأقربون:

قال تعالى: ﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَابُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلاَ تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ *﴾ [هود: 42].

وقال تعالى:﴿ يَاأَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَانِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا *﴾ [مريم : 41 ـ 45][369].

[369] صحيح مسلم (1/271).

سابعاً . تفاضل الأنبياء:

أ . التفاضل بين الأنبياء ثابتٌ بأدلةِ الكتاب والسنة:

فمن الكتاب:

قوله سبحانه: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: 253].

قوله تعالى: ﴿ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ فالمراد به موسى عليه ، إذ هو المشتهر بين الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم بالتكليم ، وقد قال له سبحانه: ﴿ قَالَ يَامُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي﴾ [الاعراف : 144]. وقال تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا *﴾ [النساء : 164].

وقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعَضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا *﴾ [الاسراء : 55].

ومن السنة:

ما رواه أبو هريرة: أنَّ رسول الله (ﷺ) قال: «فُضِّلْتُ على الأنبياءِ بستٍّ: أعطيتُ جوامعَ الكلم ، ونُصِرْتُ بالرعبِ، وأُحلّتْ لي الغنائم ، وجُعلتْ لي الأرضُ طهوراً ومسجداً ، وأُرسلتُ إلى الخلق كافّةً ، وخُتِمَ بي النبيون»[370] ، فقوله (ﷺ): «فضلت على الأنبياء» دليل على وقوع التفاضل بينهم ، والأمةُ مجمعةٌ على أنّ بعض الأنبياء أفضلُ من بعضٍ[371].

ب . وجوه تفاضل الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم بالتفصيل:

بعد أن ذكرنا تفاضل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على وجه الإجمال ، وذكرنا الأدلة على ذلك من القرآن الكريم والسنة النبوية ، نذكر الآن وجوه التفضيل على التفصيل ، وهذه الوجوه هي:

الوجه الأول: التفضيل بالتخصيص بمنقبةٍ:

كتكليم موسى عليه السلام ، فمن خُصَّ بمنقبةٍ عظيمةٍ أفضلُ ممّن لم يخصَّ.

الوجه الثاني: التفضيل بالبينات والآيات:

كما قال سبحانه: ﴿ وآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ [البقرة : 87] ، وقال (ﷺ): «أعطيتُ جوامعَ الكلم ، ونصرتُ بالرعب»[372].

---

[370] صحيح مسلم (1/271).

[371] مباحث في المفاضلة في العقيدة ، محمد الشظيفي ص (117 . 118).

[372] صحيح مسلم (1/271).

الوجه الثالث: التفضيل بالتأييد بالملائكة:

كما قال سبحانه في عيسى: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة : 253] ، وروح القدس هو جبريل في أظهر الأقوال[373]، فمن كان تأييد الله له من الأنبياء بالملائكة أكثر وأظهر كان أفضل.

وقال ابن السعدي في الآية: وأيده بروح القدس أي: بروح الإيمان ، فجعل روحانيته فائقة روحانية غيره ، فحصل له بذلك القوة والتأييد ، وإن كان أصل التأييد بهذه الروح عاماً لكل مؤمن بحسب إيمانه ، كما قال: ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة : 22] ولكنّ ما لعيسى أعظمُ ممّا لغيره ، لهذه خصّه بالذكر ، وعليه فكلُّ مَنْ كان من تأييد الله له من الأنبياء بالإيمان أعظم وأقوى كان أفضل.

الوجه الرابع: التفضيل بالشرائع:

كما قال (ﷺ): «وأُحلّت لِيَ الغنائمُ ، وجُعِلتْ لِيَ الأرضُ مسجداً وطهوراً»[374] ، وكما قال سبحانه عن محمد (ﷺ) في شأن اليهود: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الاعراف : 157].

وكما حكى الله قول عيسى لليهود: ﴿وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: 50]. فكل من كانت شريعتهُ أتمَّ وأيسرَ فهو أفضل.

الوجه الخامس: التفضيل بإنزال الكتب:

كما قال سبحانه: [النساء: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا *﴾ ، فمن أُنزل عليه الكتابَ أفضلُ ممّن لم ينزل عليه كتاب.

الوجه السادس: التفضيلُ بما في الكتاب من الشرائع ونحوها بين مَنْ أُنزل إليهم كتاب.

الوجه السابع: التفضيل بالدرجات:

كما قال سبحانه: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: 253] يعني مراتبَ ، ووجوه متعددة[375].

الوجه الثامن: والتفضيل بالمراتب في السماء:

كما في حديث المعراج[376].

الوجه التاسع: التفضيل بكثرة الاتباع:

كما في حديث (الصحيحين) أنّ النبيّ (ﷺ) عُرِضَتْ عليه الأمم ، فرأى النبيَّ وليس مَعَه أحدٌ ، والنبيَّ ومعه الرجلُ والرجلان ، والنبيَّ ومعه العشرةُ ، والنبيَّ ومعه السوادُ الأعظم[377].

---

373 روح المعاني ، للألوسي (2/3).

374 صحيح مسلم (145/1) فتح الباري (478/13).

375 مباحث المفاضلة في العقيدة ص (121).

376 روح المعاني ، للألوسي (2/3).

377 صحيح مسلم (145/1) فتح الباري (478/13).



قال بعضُ أهل العلم: والتفضيلُ المرادُ لهم هنا في الدنيا ، وذلك بثلاثة أحوال:
أن تكون ايتُه ومعجزاتُه أبهرَ وأشهرَ.
وأن تكونَ أمّتَه أزكى وأكثر.
أو يكون في ذاته أفضل وأظهرَ ، وفضله في ذاته راجعٌ إلى ما خصّه الله به من كرامته ، واختصاصه من كلامٍ أو خلةٍ أو رؤيةٍ ، أو ما شاء الله من ألطافه ، وخصوص ولايته واختصاصه[378].

والرســـولُ الذي ينشـــأ بين أهل الكفر الذين لا نبوّة لهم يكونُ أكملَ من غيره من جهةِ تأييد الله له بالعلم والهدى وبالنصر والقهر ، كما كان نوح وإبراهيم عليهما السلام[379].

فهذه جملةٌ من وجوه تفاضلِ الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم[380].

ج . أولو العزم من الرسل:

أفضلُ الرسل أولو العزم منهم ، قال سبحانه وتعالى امراً نبيه محمد (ﷺ) وهو أفضل الخلق: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ [الأحقاف: 35].
فامتدحهم الله عزّ وجلّ بالعزم ، وخصّهم بالذكر من بين رسله ، وأمرَ نبيّه محمداً (ﷺ) ـ وقد فضله على جميع خلقه . أن يقتديَ بهم[381] ، فأفضـــلُ أولياء الله هم أنبياؤه ، وأفضـــل أنبيائه هم المرســـلون منهم ، وأفضـــل المرســـلين هم أولو العزم[382].

قال ابن كثير: لا خلافَ أنّ الرسلَ أفضلُ من بقيةِ الأنبياءِ ، وأنّ أولي العزم منهم أفضلهم[383].

وواضحٌ من الآية السابقة أنَّ الصفةَ البارزةَ في أولئك الرسل أولي العزم هي الصبر ، ذلك أنها هي الصفةُ التي يطلب الله عز وجل من رسوله الكريم (ﷺ) أن يتأسّى بهم فيها من بين صفاتهم العديدة.

---

378 الشفا (1/227 ، 228).
379 الفتاوي (15/131).
380 مباحث في المفاضلة في العقيدة ص (123).
381 المصدر نفسه ص (130).
382 الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان. لابن تيمية ص (7).
383 تفسير ابن كثير (3/47).



وكل الرسل ذوو صبر وثبات وتحمّل ، فلابدّ أن يكون اختصاصُ (أولي العزم) بهذا الوصفِ الذي وصفهم به الله في كتابه الكريم ناشئاً عن زيادةِ صفةِ الصبر عن الرسل العاديين ، وقدرة فائقة على تحمّل الشدائد ، وثبات في مواجهة المواقف الصعبة ، التي مرّت بهم في أثناء قيامهم بالدعوة إلى التوحيد.

وإذا كان الرسل جميعاً هم هداةُ البشرية وقادتها ، وهم موضع القدوة والأسوة ، فإنّ في حياة أولي العزم من الرسل عِبَراً خاصة ، لطول جهادهم ، وكثرة المواقف الصعبة التي تعرّضوا لها ، وثباتهم في وجه العواصف المزلزلة ، التي تنخلعُ لها القلوب ، واطمئنانهم إلى قدر الله ، ووعده بالنجاة والنصر... ثم فيما حلّ بالمكذّبين من أقوامهم من هلاكٍ وتدمير.

إنّ الدعاة بصفة خاصة هم أَوْلى الناسِ بأخذِ العبرة من سير الرسل جميعاً ، ولكنّهم أجدر بأن يأخذوا العبرة من سير أولي العزم من الرسل ، وعلى رأسهم محمد (ﷺ) ، لأنّه ما مِنْ موقفٍ يتعرّضون له في دعوتهم إلا وله مثيلٌ أو شبيه في سيرهم.. ثم ينتصر الحق بعد الجهاد الطويل ، والجهد الشاق ، وتذهب قوى الباطل بدداً ، ويبقى الحق راسخاً في الأرض ، يظلل الناسَ بظلاله الوارفة ، وينعَمَ الناسُ في ربوعه بالأمن ، بعد أن يكون المجاهدون قد ضحّوا في سبيله بأمنهم وراحتهم ، وأموالهم وأنفسهم ، يذهبُ منهم مَنْ ذهب شهيداً في سبيل الله ، ويبقى منهم من يبقى شهيداً للحق بصبره وثباته وتجرّده لله ، قال تعالى: ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً *﴾ [الشورى : 23][384].

1 . تعيين أولي العزم:

أولو العزم خمسةٌ وهم: محمّد ، ونوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى عليهم الصلاة والسلام ، وهم الخمسة المذكورون نصّاً في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا *﴾ [النساء : 7]. وفي قوله سبحانه: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى : 13].

فقد خصّهم الله عزّ وجلّ بالذكر في هاتين الايتين من بين الأنبياء ، وهو تنبيهٌ إلى فضلهم بين سائر الأنبياء ، وقد خصّهم سبحانه بالذكر في ذكره أعظمَ الأمور وأفضلها وأغلظها ، وهو الميثاقُ الذي قال فيه: ﴿ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا *﴾ [النساء : 154].

---

[384] ركائز الإيمان ص (284 . 285).



والوصـايا التي شـرعها لخلقه ، وذلك ما أخذ على جميع النبيين ، وبَعث به جميع النبيين ، وهو العهدُ الذي بين اللهِ وخلقه ، وهو إقامة الدين ، وعدم التفرق فيه ، وإسلام الوجه له سبحانه ، والدعوة إلى ذلك ، والمجاهدة فيه ، والموالاة فيه ، والبراءة فيه.

وهؤلاء الخمسة صلوات الله وسلامه عليهم أكمل وأعظم مَن قام بهذا الميثاق ، ولذا خُصّوا بالذكر ، وهم الذين تفزعُ الأمم إليهم في الموقف يوم القيامة بعد أبيهم ادم ، فيتراجعونها ، حتى تنتهي إلى محمد (ﷺ) ، كما في حديث الشفاعة[385].

يقول ابن القيم في بيان طبقات المكلّفين:

الطبقة الأولى: مرتبة الرسالة ، وهي العليا على الإطلاق ، فأكرم الخلق وأخصّهم بالزلفى لديه رسلُه.

قال: وأعلاهم منزلة أولو العزم منهم ، المذكورون في قوله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ [الشورى : 13] وهؤلاء هم الطبقة العليا من الخلائق ، وعليهم تدورُ الشفاعة ، حتى يردوها إلى خاتمهم وأفضلهم محمد (ﷺ).

قال: الطبقة الثانية: من عداهم من الرسل ، على مراتبهم من تفضيل بعضهم على بعض[386].

2 . في تفاضل أولي العزم:

ذكر الله عز وجل أولي العزم في ايتي الأحزاب والشـورى المذكورتين ، وقد بدأ سـبحانه في الايتين بذكر الطرفين أول الرسـل وخاتمهم ، وذكر بعدهما الثلاثة مبتدأ بإبراهيم ثم موسـى ثم عيسـى بحسـب ترتيب وجودهم عليهم الصـلاة والسلام.

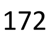
وقد بدأ سـبحانه في اية الأحزاب بذكر محمد (ﷺ) لشـرفه وفضـله عليهم ، وذلك لأنّ في الآية ذكرٌ للنبيين في الجملة، تعميماً ، ثم خصّ الله سـبحانه أفضـلهم بالذكر بعد دخولهم في العموم ، فناسـب ذلك الابتداء بذكر محمد (ﷺ) ، لكونه أفضل هؤلاء المفضلين.

وفي الآية ذكرٌ للميثاق المأخوذ على النبيين ، فهي متعلقة بالأنبياء خاصة ، ولذلك قدم محمد (ﷺ) في الذكر للوجه المذكور ، قال سبحانه: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا *﴾ [الاحزاب : 7].

---

385 فتح الباري (395/8) صحيح مسلم (63/1).

386 طريق الهجرتين لابن قيم ص 249 ، مباحث في المفاضلة في العقيدة ص (135).





أمّا اية الشورى فمتعلقة بالشريعة التي بعثوا بها ، ولذلك بدأ سبحانه بنوح قبل محمّد عليهمـا الصلاة والسلام ، لأن الآية في ذكر دين الإسـلام ، وما وصـى الله به الرسـل ، فناسـب ذلك أن يبدأ بنوح عليه السـلام ، لأنّ رسـالته أول الرسـالات ، ففيه بيانٌ جلي أنّ أول رسـالات الرسـل أوصـتْ بما شُـرِعَ لأمة محمد (ﷺ) من الدين ، فهو دينٌ أصـيل مستقيم ، لا عوج فيه ولا اضـطراب ، ثم ذكر سـبحانه مِنْ بين من توسّـطوا بين محمد ونوح أشـهر أصـحاب الشـرائع وأفضلهم[387].

فمحمّد (ﷺ) هو أفضـلُ أولي العزم بلا خلاف ، يقول ابن كثير: ولا خلافَ أنّ محمداً (ﷺ) أفضـلهم ، ثم بعده إبراهيم ، ثم موسى ، ثم عيسى عليهم الصلاة والسلام على المشهور[388].

يرى ابن كثير أنّ نوحاً اخرهم في ترتيبهم في الفضل ، وقوله: (على المشهور) كأنه إشارة إلى وجود خلاف في ترتيبهم في الفضـل بعد محمد (ﷺ) ، وقد قطعَ بأنّ إبراهيم بعده في الفضـل في موضـع اخرَ ، فقال في إبراهيم: هو أشـرفُ أولي العزم بعد محمّد (ﷺ)[389].

3 . بعض خصائص أولي العزم:

إبراهيم عليه الصلاة والسلام:

فمن فضـائله وخصـائصـه عليه الصـلاة والسـلام أنّه خليلُ الرحمن ، لم يشـاركه في الخلة إلاّ محمّد صـلى الله عليهما وسـلم، قال سـبحانه: ﴿ وَمَنْ أَحْسَـنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْـلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِـنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً *﴾ [النساء : 125].

وقد جعله الله إماماً للناس ، يقتدون به ، ويهتدون بهديه ، قال سـبحانه: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة : 124]. وقال سـبحانه: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ *﴾ [النحل : 120]. وقال سبحانه: ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ *﴾ [البقرة : 130].

---

387 تفسير ابن كثير (3/470) روح المعاني (21/154).

388 تفسير ابن كثير (3/47) مباحث في المفاضلة في العقيدة ص (137).

389 البداية والنهاية (1/170).



وقد أجرى الله على يديه بناءَ بيته ، الذي جعله قياماً للناس ، ومثابة وأمناً ، وعهد الله إليه ولابنه تبعاً تطهير البيت للطائفين والعاكفين والركع السجود ، وأمر سبحانه المؤمنين باتخاذِ مقامِهِ مصلى ، قال سبحانه: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾ ﴿ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّىً وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ *﴾[البقرة: 125]. وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ *﴾[البقرة: 127].

وقد حصر اللهُ النبوّة والكتابَ من بعده في ذريته عليه الصلاة والسلام قال سبحانه: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ *﴾ [العنكبوت: 27]. فلم يأتِ نبيٌّ بعد إبراهيم إلاّ من ، وهو عليه الصلاة والسلام أول من يُكْسَى يومَ القيامة كما في المتفق عليه من حديث ابنِ عباسٍ قال: قام فينا النبي (ﷺ) يخطبُ فقال: «إنّكم محشرونَ حُفاةً عراةً غُرْلاً ـ كما بدأنا أوّلَ خلقٍ نعيده ـ الآية وإنّ أوّلَ الخلائقِ يُكْسَى يومَ القيامةِ إبراهيمُ»[390].

وقد جمع الله له منزلتين عظيمتين قال سبحانه: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَدِّيقًا نَبِيًّا *﴾ [مريم: 41]. فجمع له بين الصديقية ، وفضائله عليه الصلاة والسلام أكثرُ من أن تحصَى ، وما علمناه غيضٌ من فيضِ مما جهلناه في إبراهيم عليه الصلاة والسلام[391].

نوح عليه السلام:

فقد جاهد في الله حقّ جهاده ، وهو أول رسول بعث في الناس بعد اختلافهم على دينهم ، واجتيال الشيطان لهم ، وقد لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، باذلاً وسعه في الدعوة إلى الله ليلاً ونهاراً ، سراً وجهراً ، صابراً على أذى قومه ، لا تُثنيه عن الدعوةِ إلى ربه سفاهاتهم وتعدّياتهم ، قال سبحانه:
﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ*﴾ [العنكبوت: 14 ـ 15].
قال سبحانه في نوح: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا *فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا *وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا *ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا *ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا *فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا *﴾ [نوح: 5 ـ 10].
وقال سبحانه عن قوم نوح: ﴿ قَالُوا يانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ *﴾ [هود: 32 ـ 33].

[390] مسلم (2194/4) فتح الباري (377/11).
[391] مباحث في المفاضلة في العقيدة ص (143).





موسى عليه السلام:

وأمّا موسى عليه السلام فهو كليمُ الله ، اشتهر من بين الأنبياء بهذه الحلية ، قال سبحانه: ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا *﴾ [النساء: 164]. وقال سبحانه: ﴿ وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ * قَالَ يَامُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ *﴾ [الاعراف : 143 ـ 144].

وقد ورد ذكر تكليم الله موسى في مواضعَ من كتاب الله ، وهو عليه السلام المعنيُّ في قوله سبحانه: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ [البقرة : 253].

وقد اتاه الله عز وجل تسعَ آياتٍ بيّناتٍ[392] إلى فرعون وقومه ، ظهرت بهنّ حجته ، وقامت بينته ، أيده الله بهنّ ، قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الاسراء : 101]. وقال عز وجل: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ *﴾ [النمل : 12].

عيسى عليه السلام:

فاختُصَّ من بين سائر الخلق بأنّه ولد لأم من غير أب ، وإنّما نفخ جبريل في درع جَيْبِ مريم ، فحملت بعيسى عليه السلام ، وتكلّم في المهد ، واتاه الله من البينات ما فضّله به ، كما في قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيْسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: 253].

وحكى الله كلام عيسى في المهد ، فكان مما قاله وتظهر فيه من فضائله عليه السلام غررٌ: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا *وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا *وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا *وَالسَّلاَمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا *﴾ [مريم : 30 ـ 33].

وقد قال سبحانه في ذكر ولادة عيسى عليه السلام: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيًّا *فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا *قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَانِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا *قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاَمًا زَكِيًّا *قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا *قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا *فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيًّا *﴾ [مريم : 16 ـ 22].

[392] التسع هي: العصا ، واليد ، والسنين ، وفلق البحر ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم.



وكان من الآيات التي اتاها الله عيسى عليه السلام ما قاله سبحانه: ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِىءُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ *﴾ [المائدة: 110].

وقد رفعه الله عز وجل إليه ، فهو حيٌّ في السماء ، وهو في السماء الثانية كما حديث الإسراء قال سبحانه في تكذيب اليهود في دعواهم قتله عليه السلام ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً * بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء : 157 ـ 158]. وهذا من خصائصه عليه السلام ، إذ ليس في الأنبياء حيٌّ إلا هو[393].

وسينزل عليه السلام في اخر الزمان ، كما دلّ عليه الكتاب والسنة والإجماع ، وهذا من خصائصه عليه السلام ، قال سبحانه: ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا *﴾ [النساء : 159]. وقد تواترت الأخبار عن النبيّ (ﷺ) بنزول عيسى عليه السلام[394]. قال (ﷺ): «والذي نفسي بيده ليوشكنَّ أن ينزلَ فيكم ابنُ مريمَ حَكَماً مقسطاً»[395]، وقال (ﷺ): «كيف أنتم إذا نزل ابنُ مريم فيكم وإمامُكم منكم؟»[396].

4 . تفضيل نبينا محمّد (ﷺ) على جميع الخلائق:

محمّدٌ (ﷺ) هو أفضل الأنبياء على الإطلاق ، بل هو خير الخلائق أجمعين ، صلوات الله وسلامه عليه ، وقد جاءت في ذلك نصوص لا تحصى كثرةً فيما أوحاه الله عز وجل في كتابه ، وعلى لسان رسوله (ﷺ) ، وفيما كتب وروي من أقوال الأئمة المهديين من السلف الصالح رضوان الله عليهم.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ [البقرة : 253] والمعنى بقوله: ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ (ﷺ) ، قاله ابن عباس والشعبي ومجاهد وغيرهم[397].

وقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعَضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا *﴾ [الاسراء : 55] ، ذكر المفسرون أنّ الآية في محاجة اليهود ، وأنّ المعنى: وإنّكم لم تنكروا تفضيلَ النبيين ، فكيف تنكرون فضل النبيّ (ﷺ)[398] ؟!.

393 مباحث في المفاضلة في العقيدة ص (146 ، 147).
394 تفسير ابن كثير (578/1).
395 البخاري في الفتح (414/4) مسلم (135/1).
396 البخاري في صحيحه مع فتح الباري (414/4) مسلم (135/1).
397 تفسير الطبري (2/3) تفسير القرطبي (264/3).
398 تفسير البغوي (120/3) تفسير السعدي (143/4).

وقد احتجّ العلماء بقوله تعالى في الأنعام: ﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: 90] لكون النبي (ﷺ) أفضل الأنبياء ، لأن ما تفرّق في الأنبياء من خصال الفضل اجتمعت فيه (ﷺ)[399].

وقال (ﷺ): «أُعطيتُ خمساً لم يعطهنَّ أحدٌ من الأنبياء قبلي: نُصرْتُ بالرعب مسيرة شهرٍ ، وجُعِلَتْ لِيَ الأرضُ مسجداً وطهوراً ، فأيّما رجلٍ من أمتي أدركتْه الصلاةُ فليصلِّ ، وأحلَّتْ لِيَ الغنائمُ ، وكان النبيُّ (ﷺ) يُبْعَثُ إلى قومِهِ خاصةً ، وبُعِثتُ إلى الناسِ كافةً ، وأعطيتُ الشفاعة»[400].

وفي أحاديث الشفاعة في بيان فضله (ﷺ) على الأنبياء ما هو ظاهرُ ، وقد وصف النبيُّ (ﷺ) ذلك اليوم بأنّه يومٌ يرغبُ إليه فيه الخلقُ كلّهم حتى إبراهيم عليه الصلاة والسلام[401].

وقال (ﷺ): «اتي بابَ الجنةِ يومَ القيامةِ فاستفتحُ ، فيقول الخازنُ: مَنْ أنت؟ فأقولُ: محمّد ، فيقولُ: بكَ أمرتُ لا أفتحُ لأحدٍ قبلكَ»[402].

وقال (ﷺ): «أنا أكثرُ الأنبياء تَبَعاً»[403].

وقال (ﷺ): «أنا سيّدُ ولدِ ادمَ يومَ القيامةِ ، وأوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عنه القبرُ ، وأوّلُ شافعٍ ، وأوّلُ مُشَفَّعٍ»[404].

وقال (ﷺ): «أنا أكثرُ الأنبياءِ تبعاً»[405]، وقال: «لم يصدّق نبي من الأنبياء ما صدقت ، وإنّ من الأنبياءِ ما يصدقه من أمته إلاّ رجلٌ واحدٌ»[406].

وقال (ﷺ): «أنا سيّدُ ولدِ ادمَ ولا فَخْرَ»[407]. وفي معنى: (ولا فخر): أي: لا أتبجّحُ بهذه الأوصاف ، وإنّما أقولها شكراً لربّي ، ومنبهاً أمتي على إنعامه عليّ ، وإنّما نفى الفخرَ الذي هو الكِبْرُ الواقع في النفس ، المنهيُّ عنه ، الذي قيل فيه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ *﴾ [القصص : 18]. ولم ينفِ فخرَ التجمّل بما ذكره من النعم التي بمثلها يُفْتَخَرُ ، ومثله قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ *﴾ [القصص : 76]. يعني الأشرِيْنَ ، ولم يُرد الفرحَ بنعمة الله تعالى[408].

---

399 تفسير الخازن (157/2).

400 مسلم في صحيحه (188/1).

401 صحيح مسلم (370/1) فتح الباري (533/1).

402 صحيح مسلم (562/1).

403 مسلم في صحيحه (188/1).

404 المصدر نفسه (188/1).

405 مسلم في صحيحه (1782).

406 المصدر نفسه (188/1).

407 صححه الألباني في صحيح الجامع (21/2).

408 صفة الصفوة ، لابن الجوزي (183/1).

وقد قال سبحانه: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ *﴾ [يونس : 58] فأمر سبحانه بالفرح بفضله [409]. ولقد أجمعت الأمة على أنّه أفضل الخلق[410].

د . توجيه النهي الوارد في التفضيل بين الأنبياء:

لا بدّ من اعتقادِ التفاضل بين الأنبياء ، واعتقادِ فضل الرسل على الأنبياء ، وفضلِ أولي العزم على بقية الرسل ، وفضلِ محمّد (ﷺ) على سائر الرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليه ، لقيام الأدلة الشرعية الصريحة الصحيحة على ذلك ، وقد ثبتَ عن النبيِّ (ﷺ) نهيه عن التفضيل بين الأنبياء ، ونهيه عن تفضيله خاصةً على بعض الأنبياء[411]، فقد قال (ﷺ): «لا تفضّلوا بينَ الأنبياء»[412] وهو واقع في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينما رسول الله (ﷺ) جالسٌ ، جاء يهودي فقال: يا أبا القاسم ، ضربَ وجهي رجلٌ من أصحابك ، فقال: «أضربته؟» قال: سمعتُه بالسوق يحلِفُ: والذي اصطفى موسى على البشر ، قلت: أي خبيث ، على محمّد (ﷺ) ، فأخذتني غضبةٌ ، فضربتُ وجهه ، فقال النبي (ﷺ): «لا تخيّروا بين الأنبياء»[413]. وفي رواية: «لا تفضلوا بين أنبياء الله»[414].

وروى القصة أبو هريرة بنحوه إلا أنه قال: «لا تخيّروني على موسى»[415].

وفي حديث ثان قال (ﷺ): «لا ينبغي أن يقول أنا خيرٌ من يونس بن متى»[416].

والحاصل أنّ في الحديثين ينهى رسول الله (ﷺ) عن التفضيل بين الأنبياء ، وعن تفضيله على موسى ويونس خاصّةً.

---

[409] مباحث في المفاضلة في العقيدة ص (153).
[410] المصدر نفسه ص (153).
[411] مباحث في المفاضلة في العقيدة ص (158).
[412] البخاري مع الفتح (450/6) مسلم (1844/4).
[413] البخاري مع الفتح (70/5) ، مسلم (1844/4).
[414] البخاري مع الفتح (450/6) ، مسلم (1844/4).
[415] مسلم (1844/4).
[416] مسلم (1846/4).



حُمِلَ الحديث في يونس على أنّ النبي (ﷺ) هو المراد ، وهو أفضل منه ومن سائر الأنبياء ، وجميع الخلق قطعاً ، كما تقدّمت الدلائلُ عليه من الكتاب والسـنة والإجماع ، وقد وجّه العلماء ذلك النهي لإزالة الإشـكال في أقوال متعددة منها:

* أن النهي وردَ قبل أن يعلمَ النبيُّ (ﷺ) أنّه سـيدُ ولد ادم ، وأنّه أفضـلُ الأنبياء ، فلما علم أخبر به ، وأنّ النهيَ عن التفضيل منسوخ بالقرآن[417].

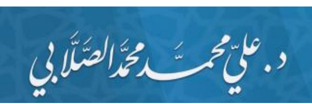
* أنّ النهيَ من باب التواضع ، وهضم النفس ، ونفي الكبر والعجب.

* أنَّ المرادَ بالنهي منعُ التفضـيل الذي يؤدّي إلى الخصـومة والتشـاجر ، وذلك في مثل الحال التي تحاكم فيها اليهودي مع المسلم عند النبي (ﷺ) كما في حديث

أبي سعيد وأبي هريرة ، فهذا التوجيه ملائمٌ لسبب ورود الحديث[418].
* أنَّ المرادَ بالنهي منع التفضيل الذي يؤدّي إلى توهم النقص في المفضول ، أو الغضّ منه ، والإزراء به[419].

* * *

417 الشفا (226/1) ، تفسير القرطبي (262/3).
418 مباحث في المفاضلة في العقيدة ص (153).
419 المصدر نفسه ص (164).





الفصل الخامس

الوحي وإثبات النبوة والمعجزات

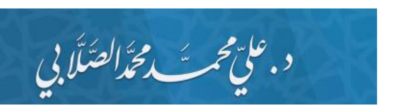
أولاً ـ الوحي.

ثانياً ـ إثبات النبوة.

ثالثاً ـ المعجزات.

رابعاً ـ القرآن الكريم معجزة الرسول (ﷺ) الكبرى.

خامساً ـ الفرق بين المعجزة والكرامة وخوارق السحر.



الفصل الخامس

الوحي وإثبات النبوة والمعجزات

أولاً . الوحي:

1 . تعريف الوحي في اللغة والاصطلاح:

أ . الوحي في اللغة:

اسمُ مصدر من أوحى إليه ، إذا أعلمه بمراده في سرعةٍ وخفاء ، ويدور من ثَـمَّ معنى الكلمة في اللغة على الإعلام الخفي السريع الخاص بمن يوجَّه له ، بحيث يخفى على غيره مهما اختلفت أسبابُ هذا الإعلام وواسطته ، لذلك يطلق الوحي على: الإلهام ، والإيحاء ، والإشـــارة ، والكناية ، والأمر ، والرســـالة ، والكلام الخفي ، وكل ما ألقيتَه إلى غيرك[420].

ب . الوحي في لسان الشرع:

إعلامُ الله تعالى مَنْ اصـــطفاه من عبادِه ما أرادَ إطلاعَه عليه من ألوان الهداية والعلمِ بطريقةٍ غيرِ معتادةٍ للبشـــر مع الوعي والإدراكِ التامّ لكلِّ ما يتلقّى[421].

2 . أنواع الوحي:

تعدّدت طرق الوحي وأنواعه ، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَـرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِـلَ رَسُولاً فَيُوحِي بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ *﴾ [الشورى : 51]. وهي كما يلي:

أ . الرؤيا الصادقة:

الرؤيا الصادقة الصالحة كانت أوّلَ ما بُدِءَى (ﷺ) به من الوحي ، كما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها . قالت: أول ما بُدِأى به رســـول الله (ﷺ) من الوحي الرؤيا الصـــالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلقِ الصبح[422]، وشُبِّهت بفلق الصبح لظهوره ، ووضوحه ، وكذلك الرؤيا ، وقوعها حقٌّ لا مرية فيه[423]. وكان بَدْءُ الوحي للنبي (ﷺ) بالرؤيا الصالحة إرهاصاً للنبوة[424].

---

420 انظر: الصحاح الجوهري (252/6) تهذيب اللغة ، الأزهري (297/5).

421 مناهل العرفان ، الزُّرقاني (63/1).

422 مسلم رقم (252).

423 فتح الباري (31/1).

424 أصول الاعتقاد في سورة يونس ، القحطاني ص (234).



ورؤيا الأنبياء من الوحي ، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَابُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَاأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ *﴾ [الصافات : 102].

وقال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَاأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ *﴾ [يوسف : 4].

وقال تعالى في شأن نبينا محمد (ﷺ): ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا *﴾ [الفتح : 27][425].

ب ـ أن يلقي المَلَكُ في روع النبيّ (ﷺ) وقلبه دون أن يراه ،

كما ورد عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): «إنّ جبريلَ عليه السلام ألقى في روعي أنَّ أحداً منكم لن يخرجَ مِنَ الدُّنيا حتّى يستكملَ رزقه ، فاتّقوا الله، وأجملوا في الطلب ، فإن استبطأ أحدٌ منكم رزقَه ، فلا يطلبْه بمعصيةِ الله ، فإنّ الله لا ينالُ فضلُه بمعصيتِه»[426]، وفي رواية: «فإنَّ الله لا يُنالُ ما عنده إلا بطاعته»[427].

ج ـ أن يأتيه الوحي مثل صلصلة الجرس فيتلبّس به ، وهو أشدّه على النبيّ (ﷺ).

روى البخاريُّ عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنّ الحارث بن هشام رضي الله عنه ، سأل رسول الله (ﷺ) فقال: يا رسول الله كيفَ يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله (ﷺ): «أحياناً يأتيني مثلَ صلصلة[428] الجرس وهو أشدُّه ، فَيَفْصِمُ عنّي ، وقد وعيتُ عنه ما قال ، وأحياناً يتمثَّلُ لي المَلَكُ رجلاً ، فيكلّمني فأعي ما يقولُ» قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيتُه ينزلُ عليه الوحيُ في اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه وإنَّ جبينَه ليتفصّدُ عَرقاً[429].

وهذا النوع من الوحي كان من أشدِّ أنواع الوحي ، وكان الرسول (ﷺ) يعاني منه مشقةً عظيمةً ، كما جاءت بذلك الأحاديث الصحيحة.

---

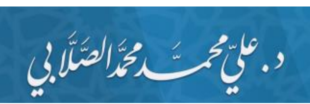
425 المصدر نفسه ص (235).

426 رواه الحاكم في المستدرك (4/2).

427 سنن ابن ماجه رقم (2144).

428 الصلصلة: صوت الحديد إذا حرّك.

429 البخاري رقم (2).





ففي (صحيح مسلم)[430] عن عبادة بن الصامت قال: كان النبيُّ (ﷺ) إذا أنزل عليه الوحي نكسَ برأسِهِ ، ونكسَ أصحابُه رؤوسَهم ، فلمّا سُرّيَ عنه رفع رأسه.

وعن زيد بن ثابت قال: إذا نزل الوحيُ على الرسولِ (ﷺ) ثقلَ لذلك ، وتحدّر جبينُه عرقاً ، كأنّه الجُمان ، وإن كان في البردِ[431].

وعنه أيضاً فيما يروي عنه: أنّ رسول الله (ﷺ) أملى عليه: ﴿ لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء : 95]. فجاءه ابنُ أمّ مكتوم وهو يُملّها عليَّ ، قال: يا رسول الله ، والله لو أستطيعُ الجهادَ لجاهدتُ ، وكان أعمى ، فأنزل الله على رسوله (ﷺ) وفخذُه على فخذي ، فثقلتْ عليَّ حتّى خِفْتُ أن ترضَّ فخذي ، ثم سُرّي عنه فأنزل الله [النساء: 95]

د. مجيء الرسول الملكي في صورة بشر:

وهذه الحالةُ من أيسرِ الأنواعِ ، إذ يرى الرسولُ (ﷺ) الملَكَ ويخاطِبُه ، ويعي منه ما يقول ، وقد يشارِكُه في الرؤيةِ غيرُه من أصحابه ، كما كان جبريل عليه السلام يأتي رسول الله (ﷺ) في صورة دحية الكلبيّ رضي الله عنه ، وجاءه مرةً في صورة أعرابي ، فدخل المسجدَ ، وجلس إلى النبي (ﷺ) ، وأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع يديه على فخذيه ، وأخذ يسأل الرسول (ﷺ) ، والرسولُ (ﷺ) يجيب ، وهو يصدِّقه بقوله: «صدقت» حتى عجِبَ الصحابة منه ، كيف يسأله ويصدّقه ، ولما انصرف ، أمر الرسول (ﷺ) أصحابَه أن يردّوه عليه ، فطلبوه ، فلم يظفروا به ، فقال (ﷺ): «هذا جبريلُ جاءَ ليعلّم الناسَ دينهم»[432].

وفي نزول جبريل عليه السلام على رسول الله (ﷺ) قال تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ *عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ *بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ *﴾ [الشعراء : 193 . 195].

والوحي بواسطة الملك هو الذي عناه الله تعالى بقوله: ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ *﴾ [الشورى : 51] ، وهذا الرسولُ في الغالبِ هو جبريل عليه السلام ، وقد يكونُ غيره ، وذلك في أحوال قليلة[433].

هـ رؤية الملك بصورته التي خلق الله عليها:

فيوحي إلى الرسول ما شاء الله أن يوحيه ، وقد وقع هذا للرسول (ﷺ) مرّتين ، كما جاء في سورة النجم ، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى *فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى *فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى *مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى *أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى *وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى *عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى *﴾

---

430 مسلم رقم (2335).

431 صحيح الجامع للألباني رقم (3792).

432 مسلم (30/1).

433 الرسل والرسالات للأشقر ص (63).



فقد رأى رسول الله (ﷺ) جبريلَ مرّتين، فقد قال رسول الله (ﷺ) في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى *﴾ جبريل لم أره على صورته التي خُلِقَ عليها غير هاتين المرتين ، رأيته منهبطاً من السماء سادّاً ما بين السماء والأرض»[434].

فأما الأولى ، فكانت في الأرض بُعيدَ بعثته (ﷺ) بعد أن فتر الوحي. روى البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، أنه سمع النبيَّ (ﷺ) يقول في فترة الوحي: «بينا أنا أمشي إذ سمعتُ صوتاً من السماء ، فرفعتُ بصري ، فإذا المَلَك الذي جاءني بحِرَاءَ جالس على كرسيٍّ بين السماء والأرض ، فرعبتُ منه ، فرجعتُ قلتُ: زمّلوني زمّلوني ، فأنزل الله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ *قُمْ فَأَنْذِرْ *وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ *﴾ ﴿ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ *وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ *﴾ [المدثر: 1 ـ 5]. فحمى الوحي وتتابع»[435].

وأما الثانية ، ففي السماء ليلة الإسراء والمعراج ، روى الإمام أحمد رحمه الله بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال هذه الآية: ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى *﴾ [النجم : 13] ، قال رسول الله (ﷺ): «رأيتُ جبريلَ عند سدرةِ المُنْتَهى عليه ستمئة جناحٍ ، ينثرُ مِنْ ريشهِ التهاويلَ والياقوت»[436].

و ـ تكليم الله عز وجل لرسوله بلا واسطة ملك من وراء حجاب:

تكليمُ الربِّ لعبده من وراء حجاب ، كما كلّم الله موسى عليه السلام ، وقد ذكر الله سبحانه تكليمه موسى عليه السلام في كتابه حيث قال تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا *﴾ [النساء : 164]. وقال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الاعراف : 143] ، وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَامُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ *وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَامُوسَى أَقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ *﴾ [القصص : 30 ـ 31][437].

وكما كلّم الله محمداً (ﷺ) ليلةَ المعراج ، عندما فرض عليه الصلوات الخمس[438]، كما كلّم الله ادم عليه السلام: ﴿ وَقُلْنَا يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ *﴾ [البقرة : 35][439].

وجميع هذه المراتب ثبتت لنبينا محمد (ﷺ) وهذا من خصائصه[440].

---

434 مسلم رقم (177).

435 البخاري رقم (4) مسلم رقم (116).

436 مسند أحمد (421/1) تفسير ابن كثير ، وقال إسناده جيد.

437 العقيدة الإسلامية ص (221).

438 البخاري رقم (349).

439 أصول الاعتقاد في سورة يونس ص (247).

440 المصدر نفسه ص (248).

و . وحي الإلهام والإرشاد:

أمّا بالنسبة لوحي الإلهام والإرشاد فهو عام ، ولا يختصّ بالأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه ، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ *﴾ [النحل : 68].

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ *﴾ [القصص : 7] ، وهذا وحيُ إلهامٍ وإرشادٍ ، لأنّ من شرط النبوة الذكورةَ ، كما بينا سابقاً.

ومن الإلهام قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا﴾ ﴿ آمَنَّا واشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ *﴾ [المائدة: 111].

والإلهام: هو شيءٌ يوقعه الله في رَوْع مَنْ كُتِبَ له ذلك ، فيلقيه إلى الناس ، فيكونُ مطابقاً للواقع ، وليس من الكهانة، ولا من باب النجامة والرمل ، ولا من باب تلقين الشيطان[441].

والفرق بين الإلهام والوحي ، أنّ الوحي معصومٌ من الخطأ ، أما بالنسبة للإلهام فليس معصوماً ، فقد يقعُ وقد ولا يقع[442].

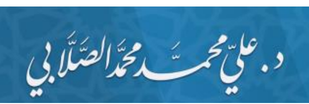
ومن الإلهام ما يجري على لسان عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي (ﷺ) قال: «لقد كان فيمن قبلَكم منَ الأمم ناسٌ محدثون ، فإن يكُ في أُمَّتِي أحدٌ فإنَّه عمر»[443]، والحديث إلهام خاص[444].

ويأتي الوحي بمعنى الإيماء والإشارة ، فقد سمّى القرآن إشارةَ زكريا إلى قومه وحياً: ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا *﴾ [مريم : 11][445].

وأكثر ما وردت كلمة (وحي) في القرآن الكريم بمعنى إخبار وإعلام الله من اصطفاه من عباده كل ما أراد إطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم ، بطريقة سرّية خفيّة ، غيرِ معتادةٍ للبشر[446].

---

[441] مدارج السالكين (39/1 ، 44 . 45).
[442] أصول الاعتقاد في سورة يونس ص (251).
[443] البخاري رقم (3486).
[444] مدارج السالكين (454/1).
[445] الرسل والرسالات ص (61).
[446] المصدر نفسه ص (61).



ثانياً . إثبات النبوة:

تعددت الأدلة والآيات الدالة على نبوة الأنبياء ، فمنها:

1 ــــ الأنبياء أعدل الناس طريقة ، وأصدقهم لهجة ، وأكثرهم وقاراً ، وأزهدهم في المال والجاه ، وأرفضهم لحُبِّ الدعة والراحة[447]، هذا مع كثرة المحن والابتلاء عليهم ، فما زادهم ذلك إلا ثباتاً ، فما ليّنَتْ الشـــدائدُ لهم قناة ، ولا فتّرت المكايدُ لهم عزماً[448]، ومع ذلك كلِّه ما جافوا في حكمٍ على عدو ، ولا شهدوا بغيرِ الحقِّ لصديقٍ.

فنوحٌ عليه السلام لبث في قومه ألفَ سنةٍ إلاّ خمسين عاماً لا يدعوهم إلا إلى الله، ولا يطلبُ منهم غرضاً دنيوياً، ولا مقصداً عاجلاً، وليس له في دعوته هوًى ولا شهوة.

وخاتم الأنبياء وسـيد ولد ادم أجمعين (ﷺ)، عُرِضـت عليه الدُّنيا مُلكاً ورئاسـةً ومالاً، على أن يتركَ ما يدعوهم إليه، فأبى ذلك، وسَرْدُ ذلك يطول عن سائر الأنبياء صلوات الله وسلامهم عليهم أجمعين.

2 ــــ معاداتهم لقراباتهم وأرحامهم الذين جُبِلَتِ الطباع على محبّتهم ، وعلى رجاءِ الاستغفار لهم ، بحيث تركوا مناهجَ ابائهمَ ، التي ولع الطبع باتباعها ، وعادَوْا عشيرتهم التي يتقي مِنْ كلِّ عدوٍّ بمحاماتها ، ولقوا في الصبر عنهم الحتوف ، ووقعوا في الدنيا لذلك في أعظم مخوف[449].

فنوحٌ عليه السـلام ترك ابنه وفلذة كبده يغرقُ مع الغرقى ، مع رجائه له أن يكون من الناجين ، ودلّه على ما ينجيه، وهو ترك الكفر بالله ، ثم إنه استغفر من دعائه له ، فقال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ *﴾ [هود : 47].

وإبراهيم (ﷺ) تبرّأ من أبيه لما أصـــرّ على كفره ، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اسْــتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ *﴾ [التوبة : 114][450].

3 ــــ أنهم حصلت لهم أغراضهم النبيلة من النصرة ، والنجاة من الهلاك ، كما قال الله تعالى: ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ *﴾ [القصص : 83].

---

[447] البرهان القاطع في إثبات الصانع جميع ما جاءت به الشرائع ، لابن الوزير ص (8) الشفا (172/1) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، لابن تيمية (456/5 . 282).[463] مسائل أصول الدين المبحوثة في علم أصول الفقه (562/2).

[448] المصدر نفسه ص (562/2).

[449] مسائل أصول الدين المبحوثة في علم أصول الفقه (562/2).

[450] مسائل أصول الدين ص (563/2).



وقال تعالى: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ *﴾ [الروم : 47].

وقد استدل بهذا قيصرُ الروم على صِدْقِ نبوة خاتم الأنبياء محمد (ﷺ) لما ذكر له أبو سفيان ـــ وكان وقتئذٍ مشركاً . ذكر له أنّ الحرب سجالٌ بينهم وبينه ، فقال هرقل: هكذا الأنبياءُ تبتلى ، ثم تكونُ العاقبةُ لهم[451].

وفي المقابل أهلك الله مَنْ خالفهم وعاداهم، فأغرقَ قومَ نوح ، وكان غرقهم ايةً لم يســـتطيع دفعَها إنسٌ ولا جان ، ومسخَ أهلَ السبتِ قردةً وأهلكهم ، وكان ذلك اية ، وأهلك عاداً وثمودَ ، مع قوتهم وشدة بطشهم ، ولنا طريقان إلى العلم بذلك[452] ما يعاينُ ، وما يعقل بالقلوب ، فقد ترك لنا الله آيات مرئية ، كمساكن ثمود ، كما قال الله تعالى: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ﴾ [العنكبوت : 38].

والطريق الثاني: ما يسـمع وهو متواتر ، فإنّ العلم بأنّه قد وُجِدَ أنبياء ، وحصـل لهم ولأتباعهم النصـر على أعدائهم ، وأنّ المكذّبين لهم ، منهم من أغرق ، ومنهم من خُسِفَ به ، ومنهم من أُرسلَ عليه الريحُ العقيم ، العلم بذلك متواتر ، ومعلوم علماً ضـــرورياً ، ويقول الله عَقِبَ ذكره لإهلاك المكذبين وإنجاء المؤمنين: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ *﴾ [الشعراء : 8][453].

إن تأييد الله لرسله ، ونصرته لهم ، ذو تأثير كبير على نفوس الناس ، فإنّ العرب لما رأت انتصار الإسلام صدّقت ، وامنت ، ودخلت في دين الله أفواجاً ، قال تعالى: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْـــرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ *وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا *﴾ [١ . 2].

إنّه يستحيل على الله أن يتقوّل عليه متقوّلٌ ، فيدعي أنّه مرسلٌ من عند الله ، وهو كاذب في دعواه ، ثم بعد ذلك يؤيده وينصره ، ويرسل الملائكة لتثبيته وحمايته ، وقد أشار الله إلى هذا النوع من الاستدلال فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ *﴾ [النحل : 116] ، فحكم بعدم الفلاح وقال: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ﴾ ﴿ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ *ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ *﴾ [الحاقة: 44 . 46][454].

4 ـــ زهدهم في الدنيا وإطراحهم للأهواء ، وقلقهم من هول المعاد الأخروي ، وتقطُّع نياط قلوبهم خوفاً من العذاب السرمدي ، وهو شيء عُلِمَ منهم أنّه جدٌّ لا مزاحَ فيه ولا هزل ، وحقٌّ لا تصنّع فيه ولا تكلّف ، وكيف ، والتكلّف لا تخفى اثاره ، ولا تستمر لصاحبه أحواله[455]!!.

---

451 البخاري رقم (9241).

452 مجموع الفتاوي (4/213 . 214).

453 مسائل أصول الدين (2/564).

454 الرسل والرسالات ص (204 . 205).

455 البرهان القاطع ص (12) الشفا (1/179) ، مسائل أصول الدين (2/565).

والناسُ يميّزون بين الصادق والكاذب خاصةً في دعوى النبوة ، فإنّه يدعيها أصدق الصادقين ، أو أكذب الكاذبين، والنبوّة مشتملةٌ على علوم وأعمال هي أشرفُ العلوم والأعمال ، فكلّها صدقٌ وعدلٌ واستقامةٌ في الأعمال بخلاف الكاذب ، فلابدّ أن يظهرَ عليه ما يدلُّ على بطلانِ دعواه من الكذب والفجور[456]، فلابدّ أن يظهرَ في أقواله كذبٌ واختلافٌ ، وفي أفعاله زَيْغٌ وانحراف ، يقول الله تعالى: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ *تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ *يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ *وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ *أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ *وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ *﴾ [الشعراء : 221 ـ 226].

إنّ الرسلَ أزهدُ الناسِ في متاع الدُّنيا وعرَضها الزائل ، وبهرجها الكاذب ، لا يطلبون من الناس الذين يخاطبونهم أجراً ولا مالاً ، فهم يبذلون الخير ، ولا ينتظرون منهم جزاءاً ولا شكوراً ، وقد قصَّ الله علينا في سورة الشعراء طرفاً من قصة نوح وهود وصالح ، ولوط وشعيب ، وكل منهم يقول لقومه: ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ *﴾ فهذا اخرُ الرسل يأمره الله بمثل ذلك: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً *﴾ [الفرقان : 57][457].

5 ـ أنّ جمعاً منهم تمكنوا من الدنيا ، واستولوا على ما يحبُّ الناسَ منها ، فلم تتغيّر لهم طريقة ، ولم تتحوّل لهم سجيةٌ، ملك سليمان عليه السلام ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده ، فخدمته الطيرُ وحُشِرت معه ، وحملته الريحُ على متنها ، وسُخّرت له ، ودانت

له ملوك الإنس ، وخضعت له عفاريتُ الجنّ ، وكان البساطُ يحمله في أرجاء الأجواء مستقرّاً على متن الريح الخفاقة ، وكانت الطيرُ تظلّه ، وكانت الأرض في يده ، وكانت أوامره مطاعة ، والخلائق له طائعة[458]، ومع ذلك كان في غاية التواضع ، قائماً بأمر الله ، لا يعصيه.

وسيد المرسلين محمد (ﷺ) كانت حاله مستقيمة ، وأخلاقه على الكمال في كل أوقاته بعد أن تغلّب على أعدائه ، وقبل ذلك ، وقد توفي (ﷺ) وليس عنده درهم ولا دينار يورّثه ، وبقيت له درع مرهونةٌ عند يهودي على ثلاثين صاعاً من شعير ابتاعها لأهله[459]، وكل ذلك من دلائل الصدق[460].

6 ـ قوّة يقينهم بوعود الله ، وتسليمهم نفوسهم لما أمر الله ، وإن كان في ظاهره كالجناية على النفس ، والإلقاء بها إلى التهلكة ، كقول نوح عليه السلام لقومه مع كثرتهم وقوتهم ﴿ ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلاَ تُنْظِرُونِ *﴾ [يونس : 71] وقال

456 الجواب الصحيح (5/357 ـ 411) ، شرح العقيدة الطحاوية ص (160).
457 الرسل والرسالات ص (201).
458 البرهان القاطع ص (13).
459 البخاري رقم (2916).
460 الجواب الصحيح (5/440) مسائل أصول الدين (2/567).

هود عليه السلام: ﴿إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهِ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ *﴾ [هود : 54 ـ 57].

7 ـ أنها ظهرت لأجلهم خوارقُ العادات ، وبواهِرُ المعجزات: من غير ممارسةٍ لشيءٍ من علوم الطبائعيين والمرتاضين ، والمتفلسفين والمنجّمين ، والمتكهنين، والمصاحبين للجنّ والشياطين ، وأخبروا عن الغيوب ، واتّصلوا في خرق العادات إلى مرتبةٍ قصّر عنها أهلُ الدراية في فنون هذه العلوم[461].

يأتي الحديثُ عنها مفصلاً في المعجزات بإذن الله تعالى ممّا يدلُّ على أنّ ما جاءوا به ممّن لا يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السماء ، لكونها من عند الله سبحانه وتعالى.

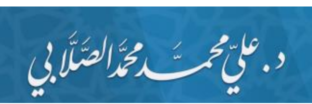
8 ـ عدم اختلافهم ، فأخبارُهم كلُّها صدقٌ ، ولا تناقُض بينها ، وما جاءوا به من الأعمال وتفاصيل الشرائع دالٌّ على أنّ ما جاءوا به هو من عند الله العزيز العليم الحكيم. ألا ترى أنَّ النجاشيّ لما استخبر من هاجر من الصحابة إلى الحبشة عمّا يخبر النبي (ﷺ) به ، واستقرأهم القرآن ، فقرؤوا عليه ، فقال: (إنّ هذا والذي جاء به موسى عليه السلام ليخرجُ من مشكاةٍ واحدةٍ)[462]، وكذلك ورقة بن نوفل لما قالت له خديجة رضي الله عنها: أي عمّ ، اسمع من ابن أخيك ما يقول ، فأخبره النبي (ﷺ) بما رأى ، فقال: هذا الناموسُ الذي أنزل الله على موسى[463]، وكذلك هرقل لما سأل أبا سفيان: بماذا يأمركم؟ أجاب: يأمرنا أن نعبدَ الله وحده ، لا نشركَ به شيئاً ، وينهانا عمّا كان يعبد اباؤنا ، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة ، قال هرقل: وهذه صفةُ نبيٍّ[464].

9 ـ عجز من عاصرهم عن عدِّ كذبة واحدة على واحدٍ منهم ، في جميع عمره ، من جميع الأمور التي ادّعاها ، وكان هذا من الدلائل عند هرقل ، إذ سأل أبا سفيان: فقال: أكنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا. فقال هرقل: فعرفتُ أنّه لم يكنْ ليدعَ الكذبَ على الناسِ ويكذبَ على الله[465].

10 ـ نسبهم وسيرتهم وأخلاقهم: فهم الأحسنُ في ذلك كله ، وقد سأل هرقلُ أبا سفيان عن نسب رسول الله (ﷺ) فأجاب أبو سفيان: هو فينا ذو نسب ، قال هرقل: كذلك الرسلُ تبعث في نسبٍ من قومها[466]، وقد قالت خديجة

---

461 البرهان القاطع ص (14).
462 البخاري رقم (3) مسلم رقم (160).
463 البخاري رقم (2941).
464 البخاري رقم (2941).
465 البخاري رقم (2941).
466 البخاري رقم (2941).



رضي الله عنها لرسول الله (ﷺ) أول نزول الوحي عليه: كلا واللهِ لا يخزيك الله أبداً ، إنّك لتصلُ الرحمَ ، وتَصْدُقُ الحديثَ ، وتَحْمِلَ الكلَّ ، وتَقْرِي الضيفَ ، وتعينُ على نوائبِ الحقّ[467].

قال قوم صالح لصالح عليه السلام: ﴿ قَالُوا ياصَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ [هود : 62]. مع كمال أمانتهم ، وعدم غدرهم.

وكان من أسئلة هرقل لأبي سفيان عن صفة النبيّ (ﷺ): فهل يغدر؟ قلت: لا ، قال هرقل: وكذلك الرسلُ لا تغدر[468].

11 ـ البشارة بمبعث خاتم الأنبياء محمد (ﷺ) في الكتب السابقة: فقد وردت صفته في التوراة والإنجيل ، وذكر مكان ظهوره ، وصفة أمته ، وخاتم النبوة بين كتفيه على ظهره ، وما يحصل له من الهجرة والتمكين والنصر على أعدائه ، وظهوره على الدين كله ، فكان ذلك كما أخبر الله ، وقد أسلم بذلك كثيرٌ من أهل الكتاب ، ولا يكون الخبر بذلك إلا من عند علام الغيوب ، الذي بيده الأمر كله[469]. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَم يابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف : 6]. وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ *﴾ [الشعراء : 197].

فالآية تبيّنُ أنّ من الآيات البينات الدالة على صدق الرسول (ﷺ) وصدق ما جاء به علمُ بني إسرائيل بذلك ، وهو علمٌ مسجّلٌ محفوظٌ مكتوبٌ في كتبهم التي تداولوها ، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ *﴾ [الشعراء : 196][470]. وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ *رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ *رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيْهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *﴾ [البقرة : 127 ـ 129].

وقد استجاب الله دعاء خليله إبراهيم ، وابنه نبيّ الله إسماعيل عليهما السلام ، وكان محمد (ﷺ) هو تأويلُ تلك الاستجابة[471].

---

[467] البخاري رقم (2941).
[468] البخاري رقم (2941).
[469] مسائل أصول الدين (570/2).
[470] الرسل والرسالات ص (162).
[471] الرسل والرسالات ص (163).



وقال تعالى: ﴿ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *﴾ [الاعراف : 156 ـ 157].

وضرب الله في التوراة والإنجيل مثلين لرسولنا محمد (ﷺ) ولأصحابه: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا *﴾ [الفتح : 29].

ثالثاً ـ المعجزات:

لم يرد في القرآن الكريم ولا في السنة المطهرة مصطلحُ المعجزة ، وإنّما ظهر هذا المصطلح في وقتٍ متأخر بعضَ الشيء، عندما دوّنت العلوم ، ومنها علمُ العقائد ، في أواخر القرن الثاني الهجري وبداية الثالث ، لذا نجد أنّ القرآن الكريم قد استعمل كلمة: (الآية) في صدر إعطاء الدلائل للرسل عليهم الصلاة والسلام لحاجّة الأقوام ، يقول تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيات عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لاَ يُؤْمِنُونَ*﴾ [الأنعام: 109].

كما استعمل القرآن الكريم تارة لفظة البينة ، كما في قوله تعالى: ﴿ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ [الاعراف : 73]. والبينة هي الدلالةُ الواضحةُ عقليةً كانت أو حسية.

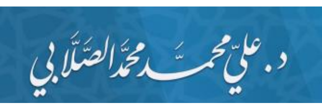
وتارة يستخدم القرآن لفظة البرهان ، يقول تعالى:
﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ *﴾ [القصص : 32].

والبرهان بيّن للحجة ، وهو أوكد الأدلة ، ويقتضي الصدقَ لا محالة[472].
كما يأتي التعبير عن المعجزة أحياناً بالسلطان ، قال تعالى:
﴿ تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ *﴾ [ابراهيم : 10].

ولعلّ اختيارهم هذا المصطلح بدلاً من الآية والكلمات الأخرى لإزالة الدلالة المشتركة في الآية من القرآن الكريم ، كما في قوله تعالى: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا﴾ [البقرة : 106] ، وبين الآية بمعنى العلامة البارزة الدالة على

---

472 مفردات الراغب ، الأصفهاني ص (45).





وجود الخالق سبحانه وتعالى ووحدانيته كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآَيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ *﴾ [آل عمران: 190].

وبين الآية بمعنى البناء العالي ، كما في قوله تعالى: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ *﴾ [الشعراء : 128] ، وكذلك الخروج من الدلالات المشتركة في الكلمات الاخرى[473].

1 . تعريف المعجزة:

أمرٌ خارقٌ للعادة ، مقرونٌ بالتحدّي ، سالمٌ عن المعارضة ، يظهره الله على يدِ رسله[474].

فالمعجزة أمر خارق للسنة التي أودعها الله سبحانه وتعالى في الكون ، ولا تخضع للأسبابِ والمسبباتِ ، ولا يمكن لأحدٍ أن يصل إليها عن طريق الجهد الشخصي والكسب الذاتي ، وإنّما هي هبة من الله سبحانه وتعالى ، يختار نوعها وزمانها ليبرهنَ بها على صدق رسوله الذي أكرمه بالرسالة.

والسحرُ والأعمالُ الدقيقة التي يمارسها بعضُ أهل الرياضيات البدنية أو الروحية لا يدخلُ تحت اسم الخارق ، لأنّ لكلّ من تلك الأمور أساليبَ ووسائلَ يمكن لأيّ إنسانٍ أن يتعلّمها ويتقنها ويمارسها ، فإذا اتبع الأسباب والأساليب المؤدية إلى نتائجها أمكنه بواسطة الجهد الشخصي والمران والممارسة أن يتوصل إلى تلك النتائج.

أما الأمور الخارقة فلا تدخلُ تحت طاقة البشر، وليست لها أسباب تؤدي إليها[475].

2 . شروط المعجزة:

ومن خلال التعريف السابق للمعجزة نستطيع أن نتلّمس شروطها:

أ . أن تكون من الأمور الخارقة للعادة:

سواء كان هذا الأمر الخارق من قبيل الأقوال ، كتسبيح الحصى ، وحنين الجذع، ومثل القرآن الكريم ، أو يكون من قبيل الفعل ، كانفجار الماء بين أصابع الرسول (ﷺ) ، وتكثير الطعام القليل ، وكفايته للجمع الكثير ، أو من قبيل الترك: مثل عدم إحراق النار لسيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وعدم إغراق الماء لموسى وقومه ، وعدم سيلانه عليهم.

ب . أن يكون الخارق مِنْ وضع الله وإنجازه:

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ *﴾ [غافر : 78].

فالمعجزةُ هبةٌ من الله سبحانه وتعالى ، لا يستطيعُ أحدٌ أن يعيّنَ زمانها ونوعها: ﴿ قُلْ إِنَّمَا الآيات عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الانعام : 109].

---

473 مباحث في إعجاز القران ، د. مصطفى مسلم ص (14).

474 المصدر السابق ص (14) الإتقان ، للسيوطي (3/4).

475 مباحث في إعجاز القران ص (14).



ج . سلامتها من المعارضة:

فلو استطاع الخصمُ أن يأتي بمثل ما جاء به النبيُّ بطلت حجته، ولم يسلّم له ادعاؤه أنّ هذه الخارقة أو هذا الأمرَ دليلٌ على صدقه ، وأمارةٌ على بعثِهِ من قبل الله سبحانه وتعالى.

د . أن تقع على مقتضى من يدِّعيها:

يشترط في المعجزة أن تكون موافقة لقول مدّعيها، غير مخالفة له ، سواء كان هذا الأمر مطابقاً لطلب المعاندين ، أو مخالفاً له، لأنّ الرسول يبلّغ عن ربه في تحديد نوع المعجزة وزمانها ، ولا دخل له في هذا التعيين ، فإذا جاءت المعجزةُ على وجهٍ غير الوجه الذي عيّنه الرسول لم تكن دليلاً على صدقه ، بل تثيرُ عندئذٍ الشكوك حول ادّعائه.

ومن هذا القبيل ما وقع لبعضهم ممّا يطلق عليه العلماء (اسم الإهانة) فإذا مسحَ على المريضِ ليُشفى فمات، أو بصق في البئر لتكثير مائه فغار، كما ذكرت بعض الروايات في شأن مسيلمة الكذاب، فلا تكون معجزةً، إنما هي إهانةٌ له، ودليلٌ على كذبه.

ج . التحدّي بها:

وهذا شرطٌ أساسي في المعجزة لإثباتِ عجز الجاحدين ، وإقامة الحُجّة عليهم ، فإنّ عدم التحدي لمعجزة لا يبرزها كدليلٍ وبرهانٍ لكي لا يقول قائل فيما بعدُ: إنّه لو تحدّى بالمعجزة القومَ لتمكّنوا من الإتيان بها ، والتحدّي يكونُ بالقول الصريح بأن يقولَ الرسولُ: دليل صدقي وصحة ما جئت به هو عجزكم عن الإتيان بمثل هذا الأمر الذي أفعله، وهذا هو الغالبُ في معجزات الرسل عليهم الصلاة والسلام[476].

هـ أن يستشهد بها مدَّعي الرسالة على الله عز وجل:

أي يجعلها الرسول دليلَ صدقٍ رسالته ، لإثباتها ، وينسب إليه هذا الأمر إلى الله عز وجل ، فيقول مثلاً: ايتي أن يقلبَ الله سبحانه وتعالى هذه العصا ثعباناً ، أو أن يُحييَ الله سبحانه وتعالى هذا الميت عند قولي له (قم).

و . تأخّر الأمر المعجز عن دعوى الرسالة:

لأنّه بمثابة الشاهد ، ولا يقوم الشاهِدُ إلا بعد قيام الدعوى ، أما إذا تقدّم على دعوى الرسالة ، فيكون من قبيل (الإرهاص) ، وهي الأمورُ التي تتقدّم على الرسالة ، وتمهّد لها ، كتظليل السحابةِ لرسول الله (ﷺ) وهو في سفره إلى الشام قبل البعثة[477].

---

[476] مباحث في إعجاز القران ص (14).

[477] مباحث في إعجاز القران ص (17).





3 . المعجزة قرينةُ الرسالة:

ولولا المعجزةُ لأشـكلَ الأمرُ على الناس ، والتبس أمر الصـادق بغيره ، ولما سـلمت الدعواتُ من مدّعين كاذبين ، وتأييد الرسول باية صدق سنة إلهية في رسالات الأنبياء جميعاً ، والقرآن الكريم يوضّحُ هذه السنة ، ويقرّرها كما ورد في قصص الأنبياء والأمم السابقة ، ولم يؤاخذِ الأقوامَ عندما طالبوا رسلَهم بالآيات الدالّة على صدقهم ، إنّما اخذهم عندما عطّلوا ملكاتهم العقلية ، ولم يتدبّروا أثرَ الحكمة والتدبير فيما حولهم ، أو أصـرّوا على نوع معيّنٍ من الآيات من قِبَلِ العناد والجحود على العادات الجاهلية الموروثة من الاباء ، الذين لم يكونوا على هدى من ربهم[478].

إنَّ الرسول لا يتميّز عن سائر الناس بجسمه ولا بكلامه ، فكان لا لابدّ من أمارةٍ تدلُّ على صدقه في سفارته هذه بين الخالق سبحانه وتعالى وبين خلقه.

وقد يعطى الرسولُ الآية المعجزة عند تبليغه الوحيَ أوّل مرة من غير سؤالٍ وتطلّع كما حدث لموسى عليه السلام: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *يَامُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَامُوسَى لاَ تَخَفْ إِنِّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ *إِلاَّ مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ *وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ *﴾ [النمل : 8 ـ 12].

وقد يُعطاها الرسـول بعد تكذيب القوم له ، ومطالبتهم بالآية ، كما حدث لأغلب الأنبياء عليهم صـلوات الله وسلامه: ﴿ قَالُوا ياهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ *﴾ [هود : 53].

وقال تعالى: ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ *مَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ *قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ *﴾ [الشعراء : 153 ـ 155].

وعلى الحالتين فإنّها هبةٌ من الله سـبحانه لرسـله ، فهو المعطي ، وهو الذي يختارُ نوعَها وزمانها ومكانها ، ودورُ الرسـول فيها أنّها تتجلّى على يده ، وليس بالضـرورة أن تكونَ نفسَ الخارقة التي طلبها القوم ، فإنَّ مدلول الخارقة والإيمان والتصديقِ لصدق الرسول يتحقّق بوجودِ المعجزةِ مطلقاً ، ولا يتوقّف على نوع خاص من المعجزات ، بل إنّ سنة الله تقضي بتعجيل عذاب الاستئصال للذين لم يذعنوا للاية الخاصة التي سألوها: ﴿ وَقَالُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لاَ يُنْظَرُونَ *﴾ [الانعام : 8][479].

---

478 المصدر نفسه ص (18).

479 مباحث في إعجاز القران ص (24).



4 . سنة الله سبحانه وتعالى في معجزات الأنبياء:

باستعراض معجزات الأنبياء السابقين ، ومعجزات خاتمهم عليهم الصلاة والسلام أجمعين ، نلاحظ أنَّ المعجزة تختار من بيئة القوم الذين يُرسَلُ الرسول إليهم ، ومن نوع المشهور في عصرهم مما يتلاءم مع مستواهم الفكري ، ورقيِّهم الحضاري ، لتكون الحجةُ أقوى.

أ ـــ الأنبياء الذين عاشوا في البلاد العربية كانت معجزاتهم مناسبةً لبيئة العرب الصحراوية ، فمعجزةُ صالح عليه السلام كانت ناقةً غريبة المنشأ والمولد بين نوقِ أهل البادية قال تعالى: ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ *مَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ *قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ *وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ *﴾ [الشعراء : 153 . 156].

ب ـ وكان السحر منتشراً بين المصريين عامتهم وخاصتهم استرهبهم فرعون وجنوده به ، فجاءت معجزات موسى عليه السلام من جنس المشهور بين قومه ، فمن معجزاته الرئيسية: العصا: ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ *﴾ [الشعراء : 32]. واليد: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [النمل : 12]. فظاهر هاتين المعجزتين لا يختلفُ عمّا كان متداولاً بين سحرة فرعون[480] ولكنّ أهل الدرايةبالسحر كانوا يميّزون بين السحر ، وبين ما هو خارج قوى السحرة ، بل من صنع الله ، لذا كانوا أول المؤمنين به.

ج ـــ وبعد عصر موسى عليه السلام انتشرت الفلسفة اليونانية وهي أساس الفلسفة الأوربية فيما بعد ، وكانت تقوم على الأخذ بالأسباب والمسبِّبات ، وتولُّد المعلول من العلة في انتظام قائمٍ لا يتخلّف ، فجاءت معجزاتُ أنبياء بني إسرائيل في هذا العصر خارقةً للأسباب والمسبَّبات ، لتثبتَ أنَّ الكونَ كلّه بإرادةِ مريدٍ مختارٍ لا ليفعل إلاّ ما يريدُ ، ولا يصدر عنه بغير إرادته الثابتة شيءٌ[481].

فمعجزات سليمان عليه السلام مثلاً جاءت مناهضةً لتلك النظرية التي تقول إنّ المخلوقات نشأت عن الموجد الأول نشوء العلّةِ من المعلول ، فكانت حياةُ نبيّ الله سليمان في ملكه تجري على هدم هذا النظر ، فمن معجزاته: تسخير الجن والطير له ، وتعليمه منطق الطير والحيوان: ﴿ وَقَالَ يَاأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ * وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ *حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَاأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ *فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ *وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِي لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ *لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ

---

480 المصدر نفسه ص (12).

481 المعجزة الكبرى ، للشيخ محمد أبي زهرة ص (437) مباحث في إعجاز القران ص (24).



*فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ *﴾ [النمل : 16 ـ 22]. تسخير الريح له: ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ [سبأ : 12].

د . وفي عصر اليونان ازدهر الطب والفلسفة المبنية على الأسباب أيضاً فكانت معجزاتُ عيسى عليه السلام من جنس ما اشتهر به هذا العصر.

* فكانت ولادته إبطالاً صـارخاً لهذه النظرية ، فإنّ المعتاد في حياة الكائنات الحية أنَّ المولود يولد من أبوين ، فجاء عيسى عليه السلام من غير أب ، فكان ذلك خرقاً للأسباب الطبيعية الجارية: ﴿ رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَانِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا *قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُـولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاَمًا زَكِيًّا *قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا *قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا *فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيًّا *﴾ [مريم : 17 . 22].

* وتحدُّثه في المهد حديث الحكماء: ﴿ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَـبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا *وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَـانِي بِالصَّـلاَةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا *وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَـقِيًّا *وَالسَّلاَمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا *﴾ [مريم : 29 . 33].

* وتصـويره من الطين كهيئة الطير ثم نفخه فيها فيكون طيراً بإذن الله: ﴿ وَرَسُـولاً إِلَى بَنِي إِسْـرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِىءُ الأَكْمَـهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *﴾ [آل عمران: 49].

هـ وقبل بعثة خاتم النبيين (ﷺ) بلغت الفصاحةُ والبلاغةُ وفنونُ القول شأواً بعيداً ، وأخذت الكلمة مكاناً في نفوس العرب من التقديس والتعظيم لم يبلغه شيءٌ اخر ، ممّا حدا بهم أن يُعلقوا المعلّقات السبع في جوف الكعبة ، وإذا علمنا أنَّ الكعبة كانت تعتبر أقدسَ مكانٍ عند العرب في جاهليتهم أدركنا مكانةَ الكلمةِ في نفوسهم.

والحكمة الإلهية في اختيار المعجزة من جنس ما اشتهر بين القوم هي أنَّ الإنسانَ إذا أُتِيَ من قِبَلِ ما يعتبره مفخرته ، ومجالَ إجادته واعتزازه تكون الحجّةُ عليه أقوى ، والمعجِزُ أكثر فعلاً وأثراً.

ولتكون معجزةُ النبي الخاتم (ﷺ) أشـدَّ لمعاناً ، وأسـطعَ برهاناً ، فقد جعل الله معجزته كتاباً متلواً معجزاً ، وهو الإنسان الأمي الذي لم يَخُطَّ بيده كتاباً ، ولم يتلقَّ من أحدٍ من البشر معرفةً[482].

482 المعجزة الكبرى ص (437) مباحث في إعجاز القران ص (25).





5 . بعض معجزات الرسول (ﷺ) الحسية:

قد جرى على يد رسولنا صلوات الله وسلامه عليه العديد من الخوارق الحسية والكونية ، التي شهد لها مَنْ حضرها انذاك ، وجاءت بها الأخبار الصحيحة ، ومن تلك المعجزات الحسية ما يلي:

أ . انشقاق القمر:

من المعجزات الخارقة التي أيّد الله بها محمّداً (ﷺ) حين سألته قريش أن يريَهم ايةً تدلُّ على صدقه ، فأراهم انشقاقَ القمر ، فلمّا رأوا ذلك قالوا: هذا سحرٌ منه (ﷺ) لأعينهم ، إلاّ أنَّ بعضَ القوم قالوا: انظروا ما يأتيكم به السفّار ، فإنّ محمداً لا يستطيع أن يسحرَ الناسَ كلهم ، فلما سألوا مَنْ قدم عليهم من المسافرين أجابوهم برؤية القمر وقد انشقّ إلى نصفين.

وقد أثبت القرآن هذه المعجزة صراحةً في قوله تعالى: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ *﴾ [القمر : 1 ـــ 2]. كما جاءت بها أحاديث صحيحة ومن ذلك ما رواه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إنّ أهل مكة سألوا رسول الله (ﷺ) أن يريهَم ايةً ، فأراهم انشقاقَ القمر[483].

ب . نبع الماء من بين أصابعه (ﷺ) على مرأى ومشهد من الصحابة:

ومن ذلك ما روي عن جابر رضي الله عنه قال: عطش الناسُ يومَ الحديبية ، ورسول الله (ﷺ) بين يديه ركوةٌ ، فتوضَّأ منها ، ثم أقبل الناسُ نحوه ، فقال رسول الله (ﷺ): «ما لكم»؟ قالوا: يا رسول الله ليس عندنا ما نتوضَّأُ به ، ولا نشربُ إلاَّ مِنْ ركوتِكَ ، فوضع النبيُّ (ﷺ) يَدَهُ في الركوةِ ، فجعل الماءُ يفورُ من بين أصابعه ، كأمثال العيون قال: فشربنا وتوضَّأنا ، قلت لجابر: كم كنتم يومئذ؟ قال: لو كنا مئةَ ألف لكفانا ، كنا خمس عشرة مئةٍ[484]. وقد علّق القاضي عياض على ما ورد من أحاديث حول هذه القصة قائلاً: هذه القصةُ رواها الثقات والعددُ الكثيرُ عن العدد الكبير من الصحابة ، ومنها ما رواه الكافة عن الكافة متصلاً بالصحابة ، وكان ذلك في مواطن اجتماعِ الكثيرِ منهم في المحافلِ ومجمع العسكرِ ، ولم يَرِدْ عن أحدٍ منهم إنكارٌ على راوي ذلك ، فهذا النوع ملحق بالقطعي من معجزاته[485].

---
483 مباحث في إعجاز القران ص (26 . 27).
484 البخاري رقم (3637) مسلم (2802).
485 البخاري رقم (4125).





ج ـ معجزة الإسراء والمعراج:

قد سجل القرآن هذه المعجزة في قوله تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ *﴾ [الاسراء : 1].

كما أشار القرآن الكريم إلى بعض تلك الآيات التي أراد أن يريها لعبده محمّداً في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى *عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى *عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى *إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى *مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى *لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى *﴾ [النجم : 13 ـ 18].
كما سجلت تفاصيلها أحاديثُ الرسول (ﷺ)[486].

د ـ معجزات أخرى:

ومن تلك المعجزات المادية: معجزةُ تكثير الطعام القليل ، حتى أشبعَ العددَ الكثير ، ومعجزةُ حنين الجذع ، واستجابةُ الجماداتِ لدعائه لها ، وأتيانها له ، ومعجزات إبراءِ المرضى ، وردّ ما انفصل من بعض أجزاء الإنسان ، وغير ذلك من الآيات[487].

486 الشفا بتعريف حقوق المصطفى (1/496 ـ 497).
487 البخاري رقم (3207).





رابعاً ـ القرآن الكريم معجزةُ الرسول (ﷺ) الكبرى:

إن تلك الآيات المعجزة والعجائبَ الخارقة للعادة على كثرتها وتنوعها وصـــحّة وقوع حوادثها ، لم يقع بها التحدّي العام لإثبات دعوى الرسالة كما وقع بالقرآن الكريم ، فقد كانت معجزته (ﷺ) الكبرى التي وقع بها التحدّي ، وبقيت على مرّ الزمان ، وخوطبت بها البشـرية جمعاء ، هي القرآن الكريم ، وقد ورد في الحديث عنه (ﷺ) أنه قال: «ما من الأنبياء نبيٌّ إلا أُعْطِيَ من الآيات ما مِثْلُهُ امَنَ عليه البَشَـــرُ ، وإنّما كانَ الذي أُوْتِيْتُهُ وحياً أَوْحَاهُ اللهُ إليَّ ، فأرجو أنْ أكونَ أكثرَهم تَبَعاً، يومَ القيامةِ»[488]، فتحدى الله سبحانه وتعالى العربَ بأن يأتوا بمثل هذا القرآن.

قال تعالى: ﴿ قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القرآن لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُـــهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا *﴾ [الاسراء : 88].

وتنزَّل معهم في التحدّي ، وطلب منهم أن يأتوا بعشـر سور مِنْ مثله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْـرِ سُـوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ *﴾ [هود : 13].

ولما عجزوا عن ذلك ، وظلّوا على عنادهم واستكبارهم ، زادهم تحدياً بأن يأتوا بسـورة: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ *﴾ [يونس : 38].

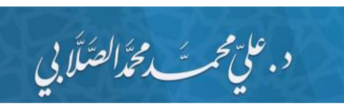
وقال تعالى: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُـــورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُـــهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ *فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ *﴾
[البقرة : 23 ـ 24].

وظلَّ التحدي قائماً منذ ذلك الحين ، عجزَ عنه فصحاءُ العرب وبلغاؤهم وعجزتْ عنه البشريةُ كلُّها على مدى أربعة عشر قرناً من الزمان ، وإنهم لعاجزون حتى قيام الساعة ، فقد كان أولى الناس بالردّ على التحدي أولئك الذين كانت صناعتهم الفصاحة والبلاغة يتيهون بها على الناس.

ولقد كانت معجزاتُ الرســل كلهم مِنْ قبلُ معجزاتٍ حســيةً وكونيةً ، تتعلّق بالســـنن الجارية في الكون وتخرقهَا ، فمعجزتا نوح وهود عليهما الســلام كانتا حسـيتان كونيتان ، ومعجزة صــالح عليه الســلام كانت ناقة عجيبة لم يعهد البشر لها مثيلاً.
وكذلك كانت معجزات موسى وعيسى عليهما السلام التي أشرنا إليهما انفاً ، أشياءَ خارقةً للسنن الكونية.

---

[488] البخاري رقم (4981).



أما معجزة الرسول (ﷺ) فهي معجزةٌ عقليةٌ معنوية جامعة ، وليست معجزةً حسية ولا كونية ، وإن كان للرسول (ﷺ) معجزاتٌ أخرى حسية وكونية ، كالإسراء والمعراج ، وانشقاق القمر..إلخ ، ولكن المعجزة الكبرى التي وقع بها التحدّي ، والتي بقيت على الزمن وخوطبت بها البشرية كلها هي القرآن[489].

وإعجازُ القرآن الكريم ، لا يقتصرُ على ناحيةٍ معينةٍ ، ولكن يأتي من نواحٍ متعددة ، لفظية ، ومعنوية ، وروحية ، وعلمية ، وتشريعية ، وقد اتفقت كلمةُ العلماء ، كما يقول الشيخ خلاّف ، على أنّ القرآن لم يعجزِ الناسَ على أن يأتوا بمثله من ناحية واحدة معينة ، وإنّما أعجزهم من نواحٍ متعددة لفظية ومعنوية وروحية ، تساندتْ وتجمّعتْ ، فأعجزت الناسَ أن يعارضوه ، واتفقت كلمتهم أيضاً على أنّ العقول لم تصل حتى الان إلا إدراك نواحي الإعجاز كلّها ، وحصرها في وجوه معدودةٍ ، وأنّه كلّما زادَ تدبّر سننه أظهر مرُّ السنين عجائبَ الكائنات الحية وغير الحية ، وتجلّت نواحٍ من إعجاز ، وقام البرهانُ على أنه من عند الله[490].

1 . الإعجاز اللغوي:

قد بلغت بلاغةُ القرآن ، وجزالةُ ألفاظه؛ وروعةُ أساليبه ، وإحكامُ نظمه درجةً بهرت العرب ، وأدركوا أنَّ هذا الكلام الذي يسمعوه لا يشبه الشعر الذي يقرضونه ، ولا النثرَ الذي يتعاطونه ، وقد شهد بذلك الوليد بن المغيرة ، حينما بعثتْ به قريشٌ ليحاجَّ الرسول (ﷺ) ، فعاد إليهم قائلاً: وماذا أقول؟ فواللهِ ما فيكُم رجلٌ أعلمُ بالشعر مني ، لا برجزِهِ ولا بقصيدِهِ ، ولا بأشعارِ الجنِّ ، والله ما يشبه هذا الذي يقولُ شيئاً من هذا ، واللهِ إنَّ لقوله لحلاوةٌ ، وإنَّ عليه لطلاوةٌ ، وإنّه لمثمِرٌ أعلاه ، مغدِقٌ أسفلُه ، وإنّه ليعلو وما يُعلى ، وإنّه ليَحْطِمُ ما تحته[491].

ويظهر هذا الإعجاز اللغوي في تنوّع أساليب القرآن في العرض وفقاً لتنوّع الموضوع النفسي المصاحبِ له ، فيشتدُّ أحياناً ، فيهزّ المشاعرَ والحواس ، كما في مواقف الوعيد والعذاب ، مثل قوله تعالى: ﴿ سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ *﴾ [الحاقة : 30 ـ 32].

بينما يلين الخطابُ ، ويرقّ ، ويلطفُ في مواقف الرحمة والرفق والدعاء ، مثل قوله تعالى: ﴿كهيعص *ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا *إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا *قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا *وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا *يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا *﴾ [مريم : 1 ـ 6].

---

489 ركائز الإيمان ص (373).

490 علم أصول الفقه ، عبد الوهاب خلاف ص (57).

491





كما يتميز بعرضه الحي للمشاهد والأحداث ، وقصص السابقين ، ومشاهد القيامة ، إذ تمتلئ بالحركةِ وروعة التصوير التي ينفعلُ بها الإنسان ، وتهتزّ لها مشاعره[492].

وقد كتب كثير من العلماء قديماً وحديثاً ، في أوجه إعجاز القرآن من ناحية البلاغة والأسلوب ، كما حاول بعضُ العرب قديماً معارضة القرآن ، فجاء كلامهم ساقطاً مضحكاً ، جعلهم موضعَ سخريةٍ بين قومهم ، وأكد إعجاز القرآن الكريم ، فبضدِّها تتميزُ الأشياءُ[493].

2 . الإخبار عن أحوال الأمم السابقة:

قد وردَتْ في القرآن أخبارٌ عن أمم بادت ، وشعوب هلكت ، من أمثال: عاد ، وثمود ، وقوم لوط ، وقوم نوح ، وإبراهيم ، وقصة موسى وقومه ، وفرعون وملئه ، ومريم وولادتها المعجزة للمسيح ، إلى غير ذلك من الأخبار التي جاءت متوافقةً مع ما توصّل إليه الإنسان من اكتشافات تاريخية عن تلك الأمم ، ومتفقة مع ما صحَّ وكان معقولاً من الروايات التي وردت في كتب أهل الكتاب ، وقد ورد هذا كله من أمّي لا يقرأ ولا يكتبُ ، ولم تكن بيئته بيئةَ علمٍ وكتابٍ ، ولم يجلسْ إلى معلّمٍ يتلقّى منه ، فكان ذلك دليلاً قوياً على أنَّ ما جاء به محمد (ﷺ) هو وحيٌ من عند الله تعالى ، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ *﴾ [العنكبوت : 48].

ولما تحيّر الجاحدون ، ولم يستطيعوا الطعنَ فيما أخبر به الوحي الإلهي، افتروا الكذب ، وادعوا أنّه يعلّمه بشرٌ ، ولم يجدوا بمكة إلاّ فتًى رومياً لا يُحْسِنُ العربية ، ولا يعلمُ من الأخبار وقصص الأولين شيئاً ، ولهذا قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ *﴾ [النحل: 103][494].

3 . الإخبار عن أحداث غيبية أو مستقبلية:

من وجوه الإعجاز القرآني إخباره عن أمور غيبية أو أحداث مستقبلية لم يتوقع حدوثه انذاك ، بل إنّ حدوثها بالصورة التي أخبر عنها القرآن كان مستبعداً ، لا تدل عليه القرائن والأحوال الظاهرة ، فجاءت كما قرر القرآن الكريم وأخبر ، ومن ذلك:

أ ــ إخباره بانهزام الفرس على يد الرومان ، بعد أن هزموا الرومان هزيمةً ساحقةً ، قال تعالى: ﴿ الم *غُلِبَتِ الرُّومُ *فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ *فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ *﴾ [الروم : 1 ـ 4]

فوقع الأمر كما أخبر القرآن ، فهزم الرومُ الفرسَ ، مع أنَّ ضَعْفَ الدولة الرومانية انذاك يجعلُ مثل هذا النصرَ بعيداً.

---

[492] تفسير المنار (1/199) العقيدة الإسلامية ، ص (259).

[493] المصدر السابق ص (260).

[494] المصدر نفسه ص (160).



ب ـــ وقد وعد الله المؤمنين بالنصر في غزوة بدر الكبرى ، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ *﴾ [الانفال : 7] ، وقد تحقّق النصرُ الباهرُ مع قلة عددِ المسلمين وعُدْتهم.

ج ـــ كما وعدَ سبحانه وتعالى المؤمنين بدخول المسجد الحرام: ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا *﴾ [الفتح : 27].

د ـــ وقد تحقق وعد الله فتم للمسلمين دخول المسجد في فتح مكة ، وقد وعد الله المؤمنين أن يستخلفهم في الأرض ، كما استخلف الذين من قبلهم ، فقال تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [النور : 55].

وقد تحقق وعد الله ، فاستولى المسلمون في حياة الرسول (ﷺ) على كلِّ بلاد العرب ، ودانت جميعُها للمسلمين ، وتجاوزَ أصحابه حدودَ الجزيرة ، واستولوا على أرضِ فارس وما وراءها ، ومدّوا سلطانهم عليها ، وساروا إلى أرض الروم، فاقتطعوا منها الشام كلّها ومصر.

هـــ وأخيراً فقد تعهد الله سبحانه وتعالى بحفظ هذا القرآن من التحريف ، فقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ *﴾ [الحجر : 9]. وقد صدق هذا الخبرُ وتحقق ، فمازال القرآن محفوظاً من التغيير والتبديل إلى يومنا هذا، رغم تطاول الزمان ، وتقلّب الأحوال بالمسلمين ، وسيبقى كذلك بإذن الله تعالى إلى يوم القيامة[495].

4 . اتساق سور القرآن وتوافق آياته:

من أوجه الإعجاز القرآني اتساق سوره ، وموافقة آياته بعضها بعضاً في أحكامها ومعانيها وأساليبها ، فالقرآن الكريم نزل منجّماً ، وأوحي بعضُه في مكة ، وبعضُه في المدينة ، وفي ظروف متباينة من ليل ونهار ، وسفر وحضر ، ولا نجدُ في جملةِ آياته . التي تتجاوز ستة الاف اية ، وسوره التي تبلغ مئة وأربعة عشرة سورة . ايةً
تختلِفُ عن أخرى في مستوى بلاغتها ، ولا تعارِضُ ايةٌ منها ايةً أخرى فيما اشتملت عليه من معاني ، ولا سورة تتضمن من الأحكام والمعارف ما يتناقَضُ مع سورة أخرى ، الأمر الذي يدلُّ على أنَّ هذا القرآن ليس من وضع البشر ، الذي نرى ثمرات عقولهم ونتاج أفكارهم ، فنجد أنّه لا يخلو عمل من أعمالهم ، مهما حاولوا تلافي ذلك من نقص وقصور ، وتناقض وتعارض ، وفي هذا الوجه من وجوه الإعجاز القرآني ورد قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرآن وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا *﴾ [النساء : 82][496].

[495] العقيدة الإسلامية ، ص (261
[496] العقيدة الإسلامية ص (266).



5 . الإعجاز التشريعي:

تضمّن القرآن الكريم من التشريعات المنظمة للحياة الإنسانية في دوائرها الفردية والاجتماعية ، والبشرية العامة ، ما لم يكن معروفاً في الحضارات والثقافات ، والفلسفات السابقة جميعاً ، وجاء فيه من القيم الكبرى: أخلاقية وإنسانية ، وإجتماعية عامة ، ما لم يكنْ وارداً على العقول ، ولا جارياً على الخواطر ، ولا مأثوراً في واقع الناس ، ويكفي أن نشيرَ إلى بعض القيم المتعلّقة بتكريم الإنسان ، وتحريره من الاستبداد ، وتقرير حقوقه الإنسانية بقطع النظر عن جنسه ولونه ودينه ، وإعلان الوحدة الإنسانية العالمية ، وتنظيم الحياة الأسرية ، وضبط العلاقات الاجتماعية والدولية على أسس ثابتة من العدل ، وغير ذلك ممّا لم يكن معهوداً في عصر النزول القرآني ، لا في البيئة المحلية ، ولا في البيئة العالمية ، بل لم يكن معروفاً في تاريخ الحضارات ، ما كان منها دارساً وما كان باقياً[497].

وهكذا نجد أنّ شريعة القرآن هي أقوى وجوه الإعجاز ، وهي الدالة على إعجازه إلى يوم القيامة ، وهي قائمةٌ إلى اليوم حجةً على العربي والأعجمي ، لا يفترِقُ في قبولها مَنْ يعرف لسان القرآن ومن لا يعرفه ، وهي شفاء سقام المجتمعات ، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ *﴾ [يونس : 57][498].

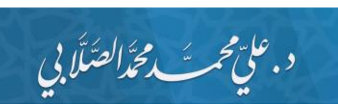
6 . الإعجاز العلمي:

مما هو معلومٌ أنَّ القرآن ليس كتابَ علوم ، ولم ينزل ليقرّرَ نظريات علمية ، أو يَدْرُسَ مسائل رياضية أو فلكية ، ولكن ورد في القرآن الكريم العديد من الإشارات إلى بعض الظواهر الكونية والعلمية ، التي لم يكن للعرب ، ولا للعالم كله انذاك علمٌ بها ، ولم يكشف عنها العلمُ إلا مِنْ وقت قريب ، الأمر الذي يدلُّ على أنَّ القرآن ، الذي احتوى هذه المعارفَ ، وتلك الحقائق العلمية ، لا يمكن أن يكونَ مصدرُه البشر ، بل هو من عند الله تعالى العليم بالكون الذي خلقه ، ومن ثَمَّ جاء خبره (الوحي) عن الكون مطابقاً لما فيه من حقائق.

---

497 المصدر نفسه ص (266).

498 المصدر نفسه ص (266).





ومن بين تلك الإشارات العلمية التي وردت في القرآن الكريم.

أ ــ قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ *﴾ [الانبياء : 30] الذي يشير إلى أنَّ السماوات والأرض كانتا شيئاً واحداً ، ثم انفصلت الأرض عن السماء؛ وقد اكتشفَ العلمُ هذه الحقيقة. فيما يعرف بنظرية الانفجار العظيم ، التي يفسّر بها نشأة الكون ، وبداياته الأولى.

ب ــ من الحقائق العلمية التي أشار إليها القرآن ظاهرة الجبال وأنَّها رواسي ، تمنع الأرض أن تميدَ بأهلها ، قال تعالى: ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [لقمان : 10].

وفي هذا القرن فقط كشف العلم أنَّ الجبال تحفظ توازن الأرض ، وأنّه حين يختل هذا التوازن لسبب من الأسباب تحدث الزلازل والبراكين ، فالجبال تحفظ الأرضَ فلا تميدُ بأهلها كما عبر القرآن.

ج . أشار القرآن إلى تكوّن اللبنُ في بطون الأنعام بين الفرث (وهو الغذاء المهضوم) والدم ، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ *﴾ [النحل : 66] ، وتلك حقيقة علمية لم يكشفها العلم إلا في القرن العشرين ، إذ ثبت علمياً أنَّ اللبن يتكوّن من مواجهة محتوى الأمعاء (الفرث) مع الدم ، خلال الجدار المعوي نفسه ، ثم تقوم الغدد اللبنية باستخلاص العناصر اللازمة لتكوين اللبن من الدم والكيلوس (خلاصة الغذاء المهضوم) وتفرز عليها عصارات خاصة تحيلها إلى لبنٍ يختلف في لونه ومذاقه اختلافاً عن كل منهما[499].

وهذه المعلومات تعتبر اليوم من مكتشفات علمي الكيمياء وفسيولوجيا الهضم ، التي كانت بالتأكيد غير معروفة مطلقاً في عصر النبي محمد (ﷺ) ، وترجع معرفة هذه الأمور العلمية فقط إلى العصر الحديث[500].

د . أشار القرآن الكريم إلى أصل خلق الإنسان ومراحل نمو الجنين:
قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ *ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ *ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ *﴾ [المؤمنون : 12 . 14].

---

499 دلائل الإعجاز العلمي في القران والسنة ، لموسى الخطيب ص (37).

500 القران الكريم والتوراة والإنجيل ، لموريس بوكاي ص (223).



ولم يكتشف التشريحُ وعلمُ الأجنّة عن هذه المراحل إلا في العصر الحديث ، يقول موريس بوكاي: تطوّر الجنين في الرحم ـ كما يصفه القرآن ـ يستجيبُ تماماً لما نعرفه اليوم عن بعض مراحل تطور الجنين ، ولا يحتوي هذا الوصفُ على أي مقولة يستطيعُ العلم الحديث أن ينقدها[501].

وفي عبارة أخرى يقول بوكاي: إن مقولات القرآن عن التناسل البشري ، تعبر في ألفاظ بسيطة عن حقائق أولى أنفقت مئات من السنوات لمعرفتها[502].

وحينما سئل العالم كيث مور: هل كان من الممكن أن يعرف رسول الله (ﷺ) هذه التفصيلات عن أطوار الجنين؟ قال: مستحيل.. إنّ العالم كله في ذلك الوقت لم يكن يعرفُ أنّ الجنين يخلق أطواراً ، فما بالكم بتحديد مراحل الأطوار التي لم يستطع العلم حتى الان تسميتها بدقة ، بل أعطاها أرقاماً بشكل معقد غير مفهوم ، في حين جاءت في القرآن بأسماء محدّدة وبسيطة ، وغاية في الدقة ، ثم يضيف.. يتّضح لي أنَّ هذه الأدلة حتماً جاءت لمحمد من عند الله ، وهذا يثبتُ لي أنَّ محمداً رسول الله[503].

هـ أشار القرآن الكريم إلى أنَّ هناك حاجزاً بين البحار الملتقية ببعضها:

قال تعالى: ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ *بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَ يَبْغِيَانِ *﴾ [الرحمن : 19 ـــ 20]. ولم يُكْتَشَفْ هذا الأمر إلاّ مؤخراً ، حيث ثبت علمياً أنَّ مياه البحار والأنهار لا يمتزجُ بعضها ببعض ، وذلك لتباين طبيعة الماء ، وتمايز خصائصه فيهما[504].

هذا وفي القرآن إشارات كونية وعلمية كثيرة ، منها ما كشف عنه العلم ، ومنها ما لم يكشف عنه حتى اليوم ، وهي تثبتُ بدليل قاطع أنَّ هذا القرآن من عند الله العليم الحكيم ، وأنّه ما كان يتأتّى لبشرٍ أن ينطقَ به من عند نفسه[505].

إنَّ الكشفَ عن بعض مظاهر الإعجاز العلمي في القرآن ، قد يكونُ ، وقد كان بالفعل سبباً في دخول بعض العلماء التجريبيين الغربيين في الإسلام ، إذ إنّه دليل بيّن على إثبات إعجاز القرآن ، وبيان أنَّ هذا القرآن وحي من عند الله سبحانه وتعالى ممّا يترتّب عليه إثباتُ النبوة ، وصدقُ الرسالة ، التي جاء بها محمد (ﷺ) ، ولعلّ في اتّباع هذا المنهج في فهم القرآن سبيلاً إلى إعادة الثقة إن لبعض المسلمين الذين اهتزّت قناعاتهم بسبب ضغوط الحضارة المادية

---

501 المصدر نفسه ص (232) العقيدة الإسلامية ص (264).
502 القران الكريم والتوراة والعلم ص (234).
503 المصدر نفسه ص (234).
504 العقيدة الإسلامية ص (264).
505 ركائز الإيمان ص (264).



المعاصـرة ، ومنهجها العلمي وإقناعهم بأنّ الإسـلام لا يحاربُ العلم كما فعلت النصـرانية المحرّفة ، بل إنَّ العلم في إطارِ الحضارة الإسلامية نشأ بدعوةٍ وتوجيهٍ من الوحي الإلهي[506].

خامساً ـ الفرق بين المعجزة والكرامة وخوارق السحر:

1 ـ الفرق بين المعجزة والكرامة:

* إنّ الكرامة دون المعجزة في خرق العادة.

* إنّ الكرامةَ معتادة في الصالحين بخلاف المعجزة فهي خارقة لعادة البشر.

* إنّ الكرامة تابعةٌ للمعجزة ، ودليل من دلائل النبوة ، فإنَّ الولي لم تحصل له الكرامة إلا لاتباعه النبي ، ولو لم يتبعه لما وقعت له.

* إنَّ الكرامة ينالها الوليُّ بفعله كعبادته ودعائه ، بخلاف المعجزة فإنَّها غير مكتسبة[507].

* إنّ الكرامة هي أمرٌ خارق للعادة ، غير مقرون بدعوة النبوة ، ولا هو مقدمة
لها ، يظهرها الله على يد ولي ظاهر الصلاح ، ملتزم بمتابعة نبيه ، مصحوب بصحيح الاعتقاد والعمل الصالح ، وقد يكرّمُ الله تعالى مَنْ يشـــاء من عباده الصـــالحين بأمور غير خارقة للعادة ، ولا خارجة عن مألوف الناس ، وذلك كالاستقامة ، والتوفيق إلى طاعة الله ، والزيادة في العلم والعمل ، وهداية الخلق إلى الحق[508].

* وإذا لاحظنا واقعَ حال الكرامة ، عرفنا أنَّ الكرامة لا تقترنُ بدعوة النبوة ، ولا يتحدّى بها ، بل الأصلُ فيها الإخفاءُ والكتمانُ ، وهذا يخالِفُ المعجزةَ ، لأنها تقترن بدعوى النبي النبوة ، ويتحدّى بها ، وإظهارها واجبٌ ليتمّ بها المقصـــودُ من تبليغ الرسالة ، وتقام بها حجة الله على خلقه[509].

* ليســتِ الكرامة دليلاً على تفضـيل هذا المعطى على غيره ، فقد يُعطي اللهُ الكرامةَ لضـعيف الإيمان لتقوية إيمانه ، وعندما يكون محتاجاً لسـدّ حاجته ، ويكونُ الذي لم يعطَ مثل ذلك أكمل إيماناً ، وأعظمَ ولاية ، وهو لذلك مسـتغنٍ عن مثل ما أعطى غيره ، ولذلك كانت الأمورُ الخارقةُ في التابعين أكثر منها في الصحابة[510].

---

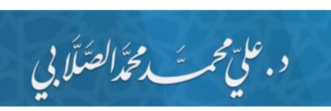
[506] العقيدة الإسلامية ص (265).

[507] اراء بن حجر الهيتمي الاعتقادية ص (473).

[508] عقيدة التوحيد ص (282 ـ 283).

[509] المصدر نفسه ص (283).

[510] الرسل والرسالات ص (160).



2. الفرق بين الكرامة وخوارق السحر:

أمّا الفرق بين الكرامة والســـحر ، فهو أنَّ الخارق غير المقترن بتحدّي النبوّة إن ظهر على يدِ صـــالحٍ ، وهو القائمُ بحقوق الله وحقوق خلقه فهو الكرامة ، وإن وإن ظهر على يد مَنْ ليس كذلك ، فهو الســحر أو الاســتدراجُ.. وتميز الصالح المذكورِ عن غيره بيّنٌ لا خفاءَ فيه ، إذ ليست السيما كالسيما ، ولا الاداب. كالاداب ، وغير الصالح لو لبس ما عسى أن يلبس لابدّ أن يرشحَ من نتنِ فعله أو قوله ما يميّزه عن الصالح[511].

إنّ بين كرامات الأولياء وبين ما يشبهها من الأحوال الشيطانية فروق متعددة:

منهـا: أنّ كرامات الأولياء سببُها الإيمان والتقوى ، والأحوال الشيطانية يكون سببُـها ما نهى الله عنـه ورسوله (ﷺ) ، ويُستعان بها على ما نهى الله عنه ورسوله[512].

* * *

[511] العقيدة الإسلامية ص (3).

[512] اراء ابن حجر الهيتمي الاعتقادية ص (473).



الفصل السادس

خصائص الرسالة المحمدية

وحقوق النبي (ﷺ) على أمته

أولاً . خصائص الرسالة المحمدية.

ثانياً . وضع العالم الإسلامي ومستقبله.

ثالثاً . حقوق النبي (ﷺ) على أمته.



الفصل السادس

خصائص الرسالة المحمدية وحقوق النبي (ﷺ) على أمته

أولاً . خصائص الرسالة المحمدية:

الرســـالة المحمدية هي الرســـالةُ الخاتمةُ ، وبها كَمُلَ الدين ، وتمّتِ النعمةُ الربانيةُ على البشــرية ، قال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾ [المائدة : 3].

وتتميّز الرسالة المحمدية عن الرسالات السابقة كلّها بجملةِ خصائص منها[513]:

1 . أنها الرسالةُ الخاتمةُ والناسخةُ لما قبلها:

إنّ رسالة محمد (ﷺ) قد جاءت لتكون خاتمةَ الرسالات السماوية ، وإنّ محمداً خاتم النبيين والمرسلين ، فلا نبيَّ بعده، ولا شــريعة سماوية تأتي بعده ، والاعتقاد بذلك أصــلٌ من أصــول الدين ، يَكْفُرُ منكره ، ويخرج عن دائرة الإســلام جاحده ، وقد نصّ القرآن على ذلك ، وكذلك السنة الصحيحة ، وأجمع على ذلك المسلمون سلفاً وخلفاً[514].
قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الاحزاب : 40].

فهذه الآية نصٌّ في أنّه لا نبيَّ بعده (ﷺ) ، وإذا كان لا نبيَّ بعده فلا رسول بطريقِ الأولى والأحرى ، لأنَّ مقام الرسالة أخصُّ من مقام النبوة ، فإنّ كلّ رسولٍ نبيٌّ ولا ينعكس[515].

فالنبيُّ (ﷺ) ختمَ النبوة فطُبِعَ عليها ، فلا تفتح لأحدٍ بعده[516]، فقد انقطع إنباء الله للناس.

وقال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾ [المائدة: 3] ، فالآية تؤكّد أنّ الأمة لم تعدْ تحتاجُ إلى نبيٍّ يُكْمِلُ لها دينَها ، أو يتمّ عليها نعمةَ ربها ، لأنّ الله ســـبحانه وتعالى أكمل الدين على يد رسوله (ﷺ) ، ثم رضيه لها ، لأنّ الله سبحانه وتعالى قد أكملَ الدين على يدِ رسول الله (ﷺ) ، ثم رضيه له ولأمته ديناً يعبدون الله به إلى يوم القيامة[517].

---

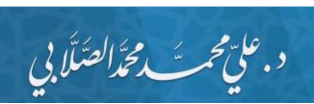
513 ركائز الإيمان ص (338).

514 عقيدة التوحيد ص (258).

515 تفسير ابن كثير (501/3).

516 تفسير الطبري ، اية الأحزاب رقم (40).

517 عقيدة ختم النبوة د. أحمد الغامدي، حقوق النبي على أمته (108/1).





وقد أعلن النبيُّ (ﷺ) أنّ رسالتَه خاتمةُ الرسالات ، وأنّه عليه الصلاة والسلام خاتمَ النبيين في أحاديث نبوية كثيرة ، منها:

حديث أبي هريرة رضـــي الله عنه أنّ النبيّ (ﷺ) قال: «مثلي ومثل الأنبياء قبلي ، كمثلِ رجلٍ بنى بيتاً ، فأحســـنه وأجمله، إلاّ موضعَ لبنةٍ من زاويةٍ ، فجعل الناسُ يطوفون ، ويعجبون ، ويقولون: هلاّ وُضِعَتْ هذه اللبنةُ؟» قال: «أنّا اللبنةُ وأنا خاتمُ النبيين»[518].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتي رسول الله (ﷺ) بلحمٍ ، فرفع إليه الذراعَ ـــ وكانت تُعْجِبُه ـــ فَنَهَسَ [519]منها نَهْسةً ، ثم قال: «أنا سيد الناس يوم القيامة ، وهل تدرون ممّا ذلك؟» ثم ذكر (ﷺ) يوم القيامة ، وما يحدثُ فيه من استشفاع الناس بالأنبياء للحساب ، حتى يصلوا إليه (ﷺ) ، فذكر (ﷺ) أنّهم يقولون: «أنتَ رسول الله ، وخاتمُ الأنبياءِ ، وقد غفرَ لك ما تقدّمَ من ذنبكَ وما تأخّرَ ، تشفّع لنا إلى ربك»[520].

وقال رسول الله (ﷺ): «كانت بنو إسرائيل تسوسُهم الأنبياء ، كلّما هلكَ نبيٌّ خلفَه نبيٌّ ، وإنّه لا نبيَّ بعدي ، وسيكونُ خلفاء فيكثرون»[521].

وقد وردت أحاديثُ متعددةٌ متنوعةٌ ، جميعُها أكّدت على مدلولٍ واحدٍ ، هو انقطاع الوحي بعد النبيِّ (ﷺ) ، وختم النبوة به ، وقد بلغ بعضُ هذه الأحاديث حدَّ التواتر ، كما أنَّها في جملتها متواترة تواتراً قطعياً[522].

فرسالته (ﷺ) هي الخاتمة الناسخةُ لما قبلها ، قال تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾ [المائدة : 48] ، فهو مصـــدّقٌ بها في العقيدة ، فالكتبُ كلها تقول: إنه لا إله إلا الله وحده بلا شريك ، والقرآن يقول الشيء نفسه ، والكتب كلها تقول: . والقرآن يدعو الدعوة ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ *﴾ ، ولكنّ القرآن مهيمنٌ على ما بين يديه من الكتب في شأن التشريع ، فهو يحمِلُ النسخة الأخيرة المنزلة من عند الله ، وشرعُه هو الشرعُ الواجبُ الطاعة ، ومن ثَمَّ فهو ينسخُ كلَّ ما أتى قبله ، مخالفاً له ، وعلى هذا المعنى تفهم أيضاً هذه الآية: ﴿ قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [المائدة : 68].

فهم مطالبون بإقامة التوراة والإنجيل في أمر عبادة الله الواحد بلا شـــريك ردّاً على قول اليهود: عزيز ابن الله ، وقول النصارى: المسيح ابن الله.

[518] البخاري رقم (3534).

[519] النهس: أخذ اللحم بأطراف الأسنان.

[520] البخاري رقم (4712).

[521] البخاري رقم (3455).

[522] حقوق النبي على أمته (1/109).





وفي الأمر بالاعتراف برســـالة محمد (ﷺ) لأنهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل باسمه بإقامة ما أنزل إليهم من ربهم ــــ أي القرآن ــــ عقيدة وشريعة ، وإلاَّ فهم ليسوا على شيءٍ كما تصفهم الآية ، أي ليسوا على دين صحيح يقبله الله منهم[523].

إنّ القرآن الكريم يدعو الناس كافةً إلى الإيمان برسول الله (ﷺ) وطاعته ، واتّباع شريعته ، بما في ذلك أهل الكتاب ، كقوله تعالى: ﴿ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُــولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ *يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْـوَانَهُ سُـبُلَ السَّـلاَمِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ *﴾ [المائدة : 15 ـ 16].

ففي هذه الآيات تصريحٌ بأنّ الشرائع السابقة قد نُسِختْ برسالةِ سيدنا محمد (ﷺ) وأنّ الهداية والنجاح منحصِرٌ في طاعته (ﷺ) ، واتّباع شــريعته[524]، فرســالة محمد (ﷺ) جمع اللهُ فيها محاســنَ ما قبلها من الرســالات ، وزادها من الكمالات ما ليس في غيرها ، فلهذا جعلها الله شاهدةً وأمينةً وحاكمةً على الرسالات كلها ، وخاتمةً لها وناسخة[525].

2 . إنّها رسالة عالمية:

جاءت رسالةُ الإسلام عامةً إلى الثقلين: الإنس والجن ، وإلى الأبيض والأسود ، وهذه من الخصائص الكبرى المميّزة للإسـلام ، فإن الرسـالات السـابقة كانت خاصـةً بأمة معينة ، وتنقضـي بزمان محدّد ، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُــولٍ إِلاَّ بِلِسَــانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [ابراهيم : 4]. وقال تعالى: ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ *﴾ [فاطر : 24]. وأمّا خاتم النبيين محمد (ﷺ) فقد خاطبه الله تعالى بقوله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُــولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الاعراف : 158]. وقال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا *﴾ [الفرقان : 1]. وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ : 28].

كما وصــف القرآن بأنّه: ﴿ بَلاَغٌ لِلنَّاسِ﴾ [ابراهيم : 52] و ﴿ بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 138] و ﴿ هُدىً لِلنَّاسِ﴾ [البقرة : 185].

كما ورد في الحديث الصحيح عنه (ﷺ): «فُضِّلتُ على الأنبياء بستٍّ ، أُعْطِيْتُ جوامعَ الكلم ، ونُصِرْتُ بالرُّعبِ، وأُحِلَّتْ لي الغنائمُ ، وجُعِلَتْ لِيَ الأرضُ طهوراً ومسجداً ، وأُرْسِلْتُ إلى الخَلقِ كافةً ، وخُتِمَ بي النبيون»[526].

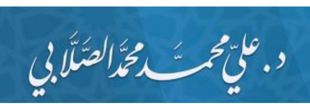
---

[523] ركائز الإيمان ص (329).

[524] عقيدة التوحيد ص (260).

[525] تفسير ابن كثير (68/2).

[526] مسلم رقم (523).



ولا يتنافى مع هذا العموم ، أن يكون المخاطبون في بادأى الأمر هم العرب قومُ الرسـول (ﷺ) ، وأن يبدأ بالإنذار بهم ، وقال تعالى: ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ *﴾[الشعراء: 214] ، وقال تعالى: ﴿ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: 92] ، وأنْ يكونَ العربُ هم أداة التبليغ ، وأن تكون لغتُهم هي وسـيلة ذلك: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ *﴾ [الزخرف: 3] ، وأن يكون لهم بذلك ذكراً ومنزلةً ورفعةً: ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَـوْفَ تُسْأَلُونَ *﴾ [الزخرف: 44].

ولذلك كانت لغتُهم التي نزل بها القرآن الكريم ، وأسـاليبُهم وعاداتُهم هي المرجعُ في فهم القرآن ومعرفة الإسـلام ، لأنها روعيت في الخطابِ الذي وجّه إليهم بادأى ذي بدء[527].

وقد حمل العربُ هذه الرسالة إلى الناس كافةً ، لأنَّها الرسالةُ العالميةُ التي ارتضاها الله للبشرية جمعاء ، فالنوعُ البشريُّ بأجمعه مكلَّفٌ بالإيمان برسالة الإسلام وتصديقها واتباعها ، فلا يحقُّ لأحد بَلَغَتْهُ رسالةُ الإسلام أن يدينَ بغيره ، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ *﴾ [آل عمران: 85][528] ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلاَمُ﴾ [آل عمران: 19].

3 . موافقتها للفطرة:

من الخصـائص التي تمتازُ بها الرسـالة المحمدية أنّ الإسـلامَ دينُ الفطرةِ ، فهو بنُظُمه ومبادئه وأسـاليبه في التربية والتهذيب يمثّل أسلمَ سبيل للوصول إلى الإنسان المهذّب السليم ، ذلك بأنّه قبل كلّ شيءٍ يعترفُ بهذه الفطرة كحقيقةٍ ماثلةٍ في تركيب الإنسان ، ويضعُ لها من التشريع والصيانة والاهتمام ما يجعلها تسيرُ في مسارها الصحيح بغير عوج أو التواء ، فالإنسانُ بفطرته يبغضُ عدوّه ، ويرغب في صدّه ودفع أذاه ، وضربه في معقله إن تجاوزَ واعتسفَ أو اعتدى على العقيدة أو النفس أو المال أو العرض ، وفي صدّ العدوان ما يرضي الفطرة ، يقول القرآن: ﴿ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة : 194].
ويقول تعالى: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ *﴾ [الشورى : 40].

وفي ذلك إرضاء للنفس كي لا تعاني من الكبت والضغينة إلاّ إذا عفا المرءُ ، وأسقط حقّه عن طيبِ خاطرٍ ، والقرآن يمدحُ القصـاصَ ، لأنّه سـبيلٌ لصـدِّ الشـرّ وصـون الأرواح ، قال تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاأُولِي الأَلْبَابِ﴾ [البقرة : 179].

---
[527] العقيدة الإسلامية ص (244).
[528] عقيدة التوحيد ص (254).



والإنسانُ بفطرته يحبُّ التملك ، وينزع إلى الاستقلال الشخصي ، فأباح له الإسلامُ الملكية بالوسائل المشروعة[529]، ليتيح للحوافز الفردية أن تعملَ ، ولا يكبتها كما تصنع الشيوعية ، ولكنّه يضع الضوابطَ التي تمنعُ الظلم ، وتمنع الفسادَ، فيحرّم الربا والاحتكار ، والغصب والسلب والنهب والسرقة والغش كطرق للتملك أو لتنمية المال ، ثم يفرضُ الزكاةَ التي تحدّ من التضخم ، وتشركُ الفقراءَ في أموال الأغنياء ، ويوجِبُ الإنفاق في سبيل الله ، ويحرّم الكنز ، ويحرّم الترفَ والمخيلةَ بالمال ، وهذه كلُّها ضوابط تمنع ما يحدثُ في الغرب الرأسمالي من فسادٍ خلقي ، وظلم اجتماعي ، وسياسي ، واقتصادي ، وهكذا لو تتبعت جميع مجالات الحياة تجد التوافق الكامل ، بين هذا الدِّين وبين الفطرة البشرية ، كما تجدُ التوجيهات التي تمنع الانحراف أو تعالجه عند حدوثه ، فتظلّ الفِطَرُ أقربَ ما يكونُ إلى السلامة والحياة ، وأقربَ إلى الاستقرار[530]، قال تعالى: ﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم : 30].

إنّ في الفطرة البشرية كما خلقها الله مجموعةً من الدوافع، أودعها الله في الفطرةِ لتعينَ الإنسانَ على القيام بما كُلّف به من أمر الخلافة في الأرض ، كدافع الطعام، والشراب ، والملبس ، والمسكن ، والجنس ، والتملك ، وإثبات الذات.. إلخ، ولكنّ هذه الدوافع مع ضرورتها لعمارة الأرض خطيرةٌ على الكيان البشري إذا تُركت بلا ضابط يضبطها، فعندئذٍ تتحوّل إلى شهواتٍ جامحةٍ لا يملكُ الإنسانُ نفسَه من سلطانها ، والنظام الأمثل هو الذي يسمحُ لهذه الدوافع بالقدر المعقول من الحركة ، فلا يعطّلها ولا يكبتها ، وفي الوقت ذاته يضبطها ، فلا تتحوّل إلى شهوات ، فيأخذ الإنسان نصيبه من المتاع الطيب ، وينضبط سلوكُه في الوقت ذاته في الحدود التي تعود عليه بالعطب والدمار ، وذلك بالضبط هو ما صنعه الإسلام، فيتيحُ للدوافع كلها أن تعمل، لا يستقذر شيئاً منها ولا يستنكره، وفي الوقت ذاته يعمل على تهذيب هذه الدوافع ، والارتفاع بها إلى أقصى ما يملك الإنسان من رفعةٍ في حدود كيانه البشري ، فلا تصبحُ شهواتٍ جامحةً ، وإنّما رغبات منضبطة بالحدود التي شرعها الله بعلمه وحكمته ، وقال عنها: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة : 187]. وقال تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة : 229] ، لذلك لا يقرّ الإسلامُ الرهبانية ، لأنّها تعطل دوافعَ الفطرة وتكبِتُها.

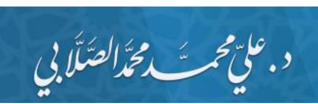
ذهب ثلاثةُ رهطٍ إلى بيتٍ من بيوتِ رسول الله (ﷺ) ، فسألوا عن عبادته (ﷺ) ، ولما أُخبروا كأنّهم تقالّوها ، فقال أحدُهم: أمّا أنا فأصومُ الدهرَ ولا أفطرُ ، وقال الاخر ، وأمّا أنا فأقومُ الليلَ ولا أنام ، وقال الثالث: أمّا أنا فلا أتزوجُ النساءَ ، فلمّا سمع بهم رسول الله (ﷺ) قال لهم: «أمّا واللهِ إنّي لأخشاكم للهِ ، وأتقاكم له ، ولكنّي أصومُ وأفطِرُ ، وأصلّي وأرقدُ ، وأتزوّجُ النساء ، فمن رَغِبَ عن سُنَّتي فليسَ مِنّي»[531].

---

[529] عقيدة التوحيد ص (254).

[530] ركائز الإيمان ص (356).

[531] مسلم رقم (1402).





كذلك لا يقرّ الإسلامُ الانفلاتَ من الشهواتِ الجامحةِ كما تصنعُ الجاهليةُ المعاصرة بصفة خاصة ، فتفسد الفطرةَ ، وتفسد الأخلاقَ ، وتنحطُّ بالإنسانِ إلى دركِ الحيوان[532].

4 . شمولها لمطالب البشرية في جميع الميادين:

إنّها تتضمّن كلَّ ما يحتاجُ إليه الإنسانُ من شؤون الدين والدنيا والاخرة على وجهٍ يكفلُ المصلحة للناس جميعاً ، ويؤمّن لهم السعادة الحقيقية إذا هم التزموا بها ، وعملوا على تحقيقها ، فهي تَنْظُمُ أمورَ العقيدة والأخلاق والعبادات ، والأسرِ ، والمعاملات المالية ، والقضاء والعقوبات وما إلى ذلك[533].

قال تعالى: ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الانعام : 38].

وقال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾ [المائدة : 3].

وقال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ *﴾ [النحل : 89].

لله دَرُّ العلامة ابن القيم ، فقد بيّن معنى الشمول في رسالة الإسلام بياناً شافياً ، فقال: وعموم رسالته (ﷺ) بالنسبة إلى كلّ ما يحتاج إليه العبادُ في معارفهم وعلومهم ، وأعمالهم ، وأنّه لم يحوج إلى أحدٍ بعده ، وإنما حاجاتهم إلى مَنْ يبلّغهم عنه ما جاء به ، فلرسالته عمومان محفوظان ، لا يتطرّق إليهما تخصيصٌ: عموم بالنسبة إلى المرسل إليهم ، وعمومٌ بالنسبة إلى كلّ ما يحتاجُ إليه مَنْ بعث إليه في أصول الدين وفروعه ، فرسالته كافيةٌ شافيةٌ عامةٌ ، لا تُحْوِجُ إلى سواها ، ولا يتمّ الإيمان به إلا بإثبات عموم رسالته في هذا ، وهذا وقد توفي رسول الله (ﷺ) وما طائرٌ يقلّب جناحيه في السماء إلا ذكر للأمة منه عِلْماً ، وعلّمهم كلَّ شيءٍ حتى اداب التخلّي ، واداب الجِماع ، والنوم ، والقيام ، والقعود ، والأكل والشرب ، وبالجملة جاءهم بخيري الدنيا والاخرة برمته ، ولم يحوجهم إلى أحد سواه[534].

فالشمول من الخصائص التي تميّزت بها رسالة الإسلام عن كلِّ ما عرفه الناسُ من الأديان والفلسفات والمذاهب ، وهذا الشمول تمثّل فيما يلي:

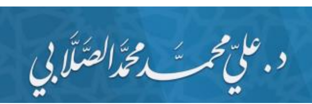
أ ـــ قد اشتملت على ما في تعاليم النبوّات السابقة من مبادأى جوهرية ثابتة في العقيدة والأخلاق ، ونسخت ما كان فيها من تشريعات مؤقتة ، وأحكام عارضة.

---

[532] ركائز الإيمان ص (355).

[533] عقيدة التوحيد ص (258).

[534] أعلام الموقعين (375/4).



ب ــ تناولت الشريعةُ فيها حياةَ الإنســان من جميع أطرافهــا ، ومن كلّ جوانب نشاطاتها الاقتصاديــة والسياسيــة والاجتماعية والعقلية والروحية والخلقية.. إلخ.

ج ـــ وضعتِ المبادأى الكليّة ، والقواعدَ الأساسية فيما يتطوّر فيها ويتحوّر بتغير الزمان والمكان ، ووضعتْ الأحكامَ التفصيلية والقوانينَ الجزائية فيما لا يتطوّر ولا يتحوّر بتغير الزمان والمكان ، وهذا هو الكمال والشمول الذي تميّزت به الشريعة الإسلامية ، وأشارت إليه الآيات القرآنية[535].

ومع هذا الشمول تبرزُ خاصية المرونة التي تكسب الرسالة المحمدية عنصرَ الاستجابة لكلّ المشكلات جميعاً ، فلا تقفُ متخلفةً عن ركب الحياة الناشطة المتحركة ، بل هي قادرةٌ على احتواء الواقع البشري كله مهما امتدّ الزمنُ ، أو تبدّلت الأحوال والظروف[536].

إنَّ الإسلامَ لا يقفُ في سبيل التقدّم العلمي والنهوض الحضاري ، بل إنّ الإسلامَ هو الذي بعثَ المسلمين لينشئوا حركةً علميةً ضخمةً ، كان من أهم اثارِها المنهجُ التجريبي في البحث العلمي ، التي تعلمته أوربة على يد المسلمين في الأندلس والشمال الإفريقي وصقلية وجنوب إيطالية الإسلامي ، والذي قامت عليها نهضتُها العلمية الحاضرة ، والإسلامُ هو الذي أنشأ حضارةً تاريخيةً ضخمةً أنارت العالمَ كلّه وقتَ أنْ كانت أوربة تعيش في ظلام القرون الوسطى ، المظلمة بالنسبة إليها ، المزدهرة بالنسبة للإسلام ، وكان أروعَ ما في هذه الحضارةِ أنّها تعمُرُ الأرضَ بأقصى ما في طاقة البشر من قدرةٍ على التعمير في جميع الميادين ، وجميع الاتجاهات ، ولكن دونَ أن تقطعَ ما بين الحياة الدنيا والاخرة ، كما تصنعُ تلك الجاهلية ، فتدفع الناسَ دفعاً إلى التكالب المزري على شهوات الأرض ، وعلى تحطيم كل القيم الفاضلة في سبيل ذلك المتاع الرخيص ،وما ينشأ عن ذلك حتماً من فساد الفطر ، وفساد الأخلاق ، والصراع الرهيب الذي يهدّد الأرضَ بالدمار.

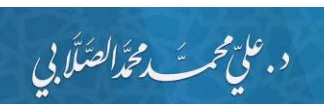
كلا إنّ الإسلامَ يُنْشِىءُ حضارةً من نوع اخر ، أثمن وأعلى حضارة تعمر الأرض ، ولكنّها تعْمُرُها بمقتضى المنهج الرباني ، فلا تحرمُ الناسَ من المتاع الطيب ، ولكنّها تحافظُ على كيانهم الإنساني ، وهم يتناولون ذلك المتاع ، ولا تهبِطُ بهم إلى مستوى الحيوان[537]، قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ﴾ ﴿ الآيات لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ *﴾[الأعراف: 32]. وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ *﴾[محمد: 12].

---

535 العقيدة الإسلامية ص (345).

536 عقيدة التوحيد ص (258).

537 ركائز الإيمان ص (346).





5 ـ اهتمامها بالعقل البشري وتميزها بالمنهج الفكري:

من خصائص الرسالة المحمدية ، أنّها أحلّت العقل الإنسانيَّ محله اللائق ، فخاطبته لإيقاظه ، ودفعته لاستخدامه ، قال تعالى: ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاَ يَخْلُقُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ *﴾ [النحل : 17].

وقال تعالى: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ *﴾ [المؤمنون : 91].
قال تعالى: ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرآن وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا *﴾[النساء : 82].

فمن خصائص الدعوة المحمدية أنّها تخاطِبُ الإنسان كلّه ، وجدانه وفكره على السواء ، وكما يستثيرُ القرآن وجدانَ الإنسان ، لينفعلَ بمشاهدة آيات الله ويستسلمَ له ، فكذلك يوقِظُ القرآن عقلَ الإنسان ليتدبّر ، وليناقِشَ الأمورَ مناقشة فكرية منطقية هادئة تصلّ به إلى اليقين[538]، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ *أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ *أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ *﴾
[النمل : 59 ـ 64].

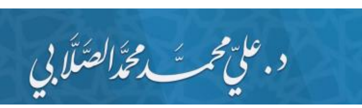
وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ *﴾ [البقرة : 170].

وقال تعالى: ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً *﴾
[الاسراء : 36].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ *﴾[سبأ : 46].

إنّ هذه الآيات وأمثالُها تكوّنُ في مجموعها منهجاً فكرياً للوصولِ إلى الحقّ يمكن تلخيصُه في هذه النقاط:
* عدم اقتفاء أي فكرة قبل تمحيصها وعرضها على البرهان والمنطق ، لأنّ الإنسان مسؤول عن تفكيره واعتقاده ، لأنّ الله أعطاه سمعاً وبصراً وعقلاً ، ليفكر لنفسه ، ويتدبر ، ويوم القيامة يسأل عن سمعه وبصره وعقله: كيف اقتفى شيئاً دون أن يعرف حقيقته؟.

538 ركائز الإيمان ص (347).





* التدبّر في كلّ الأمور بالمنطق العقلي ، وعدمُ اتخاذ المواقفِ بدافع الهوى ، لأنّ الهوى يُعمِي الإنسان عن الحق.
* التخلّي عن التقليد الأعمى ، والموروثات الفاسدة ، التي لا تقومُ على دليلٍ ولا برهان.

فإذا اتّبع الإنســـانُ المنهج ، فألقى عنه موروثاته ، التي لا تقومُ على دليل ، وكفّ عن التقليدِ الأعمى ، ورفضَ أن يتّبَعَ شيئاً يعرضُ عليه إلاّ ببرهانٍ ، ثم راحَ يفكّر بالمنطقِ ، بعيداً عن الهوى ، فإنّه لابدّ واصلٌ بإذن الله إلى الحق[539].

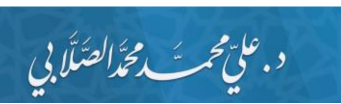
إنّ الإســلام دعا العقل البشـري أن يعملَ فيما هو متاحٌ له ، ليصـلَ إلى اليقين في تلك الحقائق الرئيسـة الكبرى التي تكوّن أساسَ الإيمان.

على أنّ المنهج الفكري الذي تتميّز به هذه الدعوة ، لا ينحصِرُ فيما يتعلّق بأمور العقيدة ، بل يمتدّ فيشـمل ميادين أخرى ، فإذا كان القرآن قد طالب العقل البشري بأن يتدبّر آيات الله في الكون ، ليتعرّفَ على الخالق ، الذي له ملك السـماوات والأرضِ ، وهو على كل شـيء قدير ، فقد طالبه كذلك بالتفكر في تلك الآيات ، ليتعرّف على السـنن الربانية ، التي تحكمُ سيرَ هذا الكون ليتمكن من استخدام ما سخّر الله له في هذا الكون من طاقات: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّـــمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجاثية : 13]. ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِـرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْـلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّـنِينَ وَالْحِسَـابَ وَكُلَّ شَـيْءٍ فَصَّـلْنَاهُ تَفْصِـيلاً *﴾ [الاسراء : 12]. ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ﴾ [البقرة : 189]

وإنّ أمثال هذه التوجيهات في القرآن والسـنة ، لا تكتفي بطلب مشـاهدة الأشـياء ، بل تلفِتُ النظر إلى عللها ، التي بعثت الأمة الإسلامية تطلب العلم من مصادره ، التي كانت متاحة يومئذ ، ثم تنشأ من بعدُ حركتها العلمية الذاتية، التي تتلمذت عليها أوربة ، فأنشـأت نهضـتها ، وكان أبرزُ ما فيها منهجَ المشـاهدة والملاحظة والتجريب ، الذي يقومُ على أسـاسه كلُّ التقدم العلمي الحاضـر ، كذلك يطلبُ القرآن من العقل البشـري أن يتأمّلَ في حكمة التشريع (بقدر ما يتاحُ له) حتى إذا طبّقه كان تطبيقه واعياً متفهّماً ، فتختم كثيراً من الأحكام بمثل هذا التعقيب: ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيات لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ *﴾ [النور : 61].

وهذا التوجيه هو الذي أنشأ الفقه الإسلامي، وهو أثمنُ ما أنتجه العقل المسلم من روائع ، وما يزالُ هذا الإنتاج حياً وقابلاً للحياة والنمو ما دامت الحياة ، كما أنّ الإسـلام وجّه العقل البشـري إلى تدبّر السـنن الربانية ، التي تسـيّرُ حياةَ البشـر على الأرض ، قال تعالى: ﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسُـنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً *﴾ [الفتح : 23]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[الرعد : 11].

[539] ركائز الإيمان ص (348).



وقال تعالى: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ *﴾ [الروم : 41]. وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا*﴾ [الاسراء : 16].

وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [الاعراف : 96].

وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ *﴾ [الانعام : 44] وقال تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الانفال : 25].

والغرضُ من هذه التوجيهات هي أنْ يعرفَ الإنسانُ أنّ حياته لا تمضي بلا ضوابط ، وأنّه ليس معفًى من نتائج عمله ، بل إنّ كلّ عمل يعمله الإنسانُ فرداً أو جماعةً له عواقبه ، سواء في الحياة الدنيا ، أو في الاخرة حسب سنن ربانية لا تتبدَّل ولا تتحوّل ، ولا تحابي فرداً ولا جماعة ، فمِنْ أجلِ ذلك عليه أن يتدبّرَ الطريقَ الذي ينبغي أن يسلكه، ويتدبّرَ عواقبَ عمله قبل أن يقدمَ عليه.

كذلك يطلبُ الإسلامُ من العقل البشري أن يتدبّر عبر التاريخ: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ *﴾ [آل عمران: 137]. ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ *﴾ [غافر : 21]. ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ *﴾ [الحج : 46] ، فالمطلوبُ إذن دراسة التاريخ ، لا على أنّه مجموعةٌ من الحوادث حدثت بغير رابطٍ ولا دلالةٍ ، ولكن على أنّه يجري حَسْبَ السنن الربانية الثابتة ، وأنّ هناك رباطاً يربطُ الأحداثَ هو قدر الله المقدور ، الذي يسير حسب تلك السنن الثابتة ، فإذا تدبّر العقلُ ذلك ، ووعى عبرةَ التاريخ ، فإنّه قمينٌ ألاّ يقعَ فيما وقعَ فيه السابقون من أخطاء وخطايا ، بل يقوّم خطأه بحيث لا يصطدِمُ مع السنن الربانية ، فيسيرُ امناً في الحياة الدنيا ، وفي طريق يؤدّي به إلى الأمن في الدار الاخرة ، وعلى ذلك يمكن تلخيص المجالات التي يطلبُ الإسلامُ من العقل البشري أن يتفكّرَ فيها بهذه المجالات الخمسة:

* التدبر في آيات الله في الكون، للتعرّف على الخالق، والإيمان به ، والتسليم له ، والتعرّف على السنن التي يسير الكون لاستخلاص طاقاته ، وتسخيرها لعمارة الأرض.

* التدبر في حكمة التشريع ، لإحسان تطبيقه على الأحوال المتجدّدة في حياة الناس.

* التدبر في السنن الربانية ، التي تسيّرُ حياة الناس في الأرض بمقتضاها لتقويم حياة المجتمع البشري.



* التدبر في عِبَرِ التاريخ ، والاستفادة منها في تجنّب الأخطاء ، والاستقامة على الطريق الصحيح.

وذلك أوسعُ مجالٍ يمكن للفكر البشري أن يعملَ فيه العمل المثمر المفيد[540].

6 . تحقيق المصلحة ودفع المفسدة:

إنّ الرسالةَ المحمّدية جاءت لجلب الخير للناس ، ودفع الشرِّ وأشكال الضرر عنهم ، فهي ليست للعبث أو الهزل أو اللهو ، ولم تأتِ كذلك لتجلب للإنسان الحرجَ والشقاءَ ، ولكنّها جاءت جادّة في دفع المفسدة ، وجلب المنفعة ، حتى إذا ما تحققت للناس عناصرُ الخير والراحة والسعادة والاستقرار ، فقد تحققت مقاصدُ الشريعة على التمام ، يقول الشاطبيُّ في هذا الصدد: إنّ تكاليفَ الشريعة ترجعُ إلى حفظِ مقاصدها في الخلق ، وهذه المقاصدُ لا تعدو ثلاثة أقسام:

أحدها: أن تكون ضرورية.
وثانيها: أن تكون حاجية.
وثالثها: أن تكون تحسينية.

فأمّا الضرورية فمعناها أنّها لابدّ منها في قيام مصالح الدين والدنيا بحيث إذا فقدت لم تجر مصالحُ الدّنيا على استقامة، بل على فسادٍ وفوتِ حياة ، وفي الحياة الأخرى فوت النجاة والنعيم ، والرجوع بالخسران المبين.

ومجموع الضروريات خمسةٌ وهي: حفظ الدين ، والنفس ، والنسل ، والمال ، والعقل ، وقد صانت الشريعةُ كلاً من هذه الضروريات ، وأوجبت لصونها عقوبات ، كالقصاص في القتل ، والحد في الزنى والقذف والسرقة وشرب الخمر.

وأما الحاجيات فمعناها أنها مفتَقَرٌ إليها من حيثُ التوسعة ، ودفع الضيق المؤدي في الغالب إلى الحرج والمشقة ، ومن أجل ذلك شرعت الرخص المخففة في العبادات ، كإباحةِ الإفطار للمسافر والمريض ، وشرعت في المعاملات عقودَ القروض والمساقاة وغيرها.

وأما التحسينات فمعناها الأخذُ بما يليقُ من محاسن العادات ، وتجنّب ما تأنفه العقول الراجحةُ ، ويجمع ذلك قسم مكارم الأخلاق ، وذلك كالطهارة وستر العورة ، وأخذ الزينة ، واداب الأكل والشرب ، ومجانبة الإسراف والإقتار وغير ذلك[541].

---

[540] ركائز الإيمان ص (347 . 352).
[541] ركائز الإيمان ص (257).





وخلاصةُ القول: إنَّ الإسلامَ بعقائده وشرائعه ونُظمه وتعاليمه ومعانيه إنّما جاء ليحقّق للإنسان الحياةَ الفاضلة الكريمة التي تتجسّدُ فيها أسبابُ المصالح ، وتندفعُ فيها أسبابُ المفاسد.

إنّ الأنظمة الوضعية التي وضعها البشر لم تفلحْ في صبغ الحياة البشرية بصبغة الأمن والسعادة والاستقرار ، فضلاً عن إخفاقها الذريع في دفع الضرر والفساد على وجه الأرض ، بل إنّ الحقيقة المرة هي أنّ هذه المبادأى والنظم التي صنعها البشر قد أفلحت في إغراق الإنسان في جحيم الكوارث والماسي والويلات ، وأوردته مواردَ الشقاء والعيش البائس ، ذلك العيش المنكود ، الذي تجسّد في حصائل متعددة من الأمراض والحروب والمجاعات والقلق ، والأحزان ، وهي أضرارٌ ومفاسدُ يعاني منها الإنسان ، وسيظلّ يعاني حتى يهتدي ، فيعودُ إلى الصواب بعد أشواط طوال من الويلات والأرزاء[542].

7 . سماحتُها ويسرُها ورفعُ الحرج عنها:

إن الله لم ينزل هذا الدين أصلاً ليعنت به الناس ، قال تعالى: ﴿ إِنْ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ *﴾ [البقرة : 143].

فالسماحةُ من أكبر صفات الدعوة المحمدية ، قال رسول الله (ﷺ): «أحبُّ الدِّينِ إلى اللهِ الحنيفيةُ السمحةُ»[543]، ويرجعُ معنى السماحة إلى التيسير المعتدل ، وهو معنى اليسر الموصوف به الإسلام: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة : 185].

ومن سماحة الدعوة المحمدية إنكارها على أصحاب النزعات المتطرفة والذين يحرّمون الطيبات والزينة التي أخرج لعباده.

قال تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ *وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلاَلاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ *﴾ [المائدة : 87 ـ 88].

وهذه الآية الكريمة تبيّن للمسلمين حقيقةَ منهج الإسلام في التمتع بالطيبات ومقاومة الغلو الذي وجد في بعض الأديان أو عند بعض المتنطعين[544].

ومن سماحة الدعوة المحمدية ما يتبعه من منهج في الدعوة إلى الله عز وجل وجدال المنافقين ، ففي القرآن الكريم قال تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل : 125].

---

542 ركائز الإيمان ص (257).

543 البخاري في الأدب المفرد رقم (88).

544 سماحة الإسلام ، عمر بن عبد العزيز ص (370).



ومن تأمل الآية الكريمة يجد أنّها لا تكتفي بالأمر بالجدال بالطريقة الحسنة ، بل أمرت بالتي هي أحسن ، فإذا كان هناك طريقتان للحوار والمناقشة إحداهما: حسنة ، والأخرى أحسن منها ، وجب على المسلم أن يجادِلَ بالتي هي أحسن جذباً للقلوب النافرة ، وتقريباً للأنفس المتباعدة[545].

ومن أبرز المزايا التي تتحلّى بها الدعوة المحمدية بأنها سهلةٌ ميسورةٌ وهي بطبيعتها تعارِضُ المشقة ، وتنفي أية صورة من صور الضيق والحرج ، وفي القرآن الكريم والسنة المطهرة نصوص كثيرة تنفي كل أنواع الحرج التي لا يطيقها الإنسان أو يشق عليه احتمالها ، ومن أدلة التيسير.

قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة : 185]. وقال سبحانه: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفًا *﴾ [النساء : 28]. وقال تعالى: ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا *إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا *﴾ [الشرح : 5 - 6]. وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا *﴾ [الطلاق : 4]. وقال تعالى: ﴿ آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا *﴾ [الطلاق : 7].

* ومن أدلة رفع الحرج:

من أقوى الأدلة في الدلالة على رفع الحرج قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج : 78] ، أي ما كلفكم ما لا تطيقون ، وما ألزمكم بشيء يشق عليكم إلا جعل الله لكم فرجاً ومخرجاً[546].

وقال تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [النور : 61].

وفي هذه الآيات دلالةٌ ظاهرةٌ على رفع الحرج عن هذه الأمة ، وأنّ الله لم يجعل في التشريع حرجاً ، وبعض هذه الآيات وإن كانت خاصة في أحكام معينة ولكننا نجدُ التعليل عاماً ، فكأنّ التخفيف ورفع الحرج في هذه الأحكام والفروض بإعادة الشيء إلى أصله ، وهو رفع الحرج عن هذه الأمة ، فكل شيء يؤدي إلى الحرج لسبب خاص أو عام فهو معفو عنه ، رجوعاً إلى الأصل والقاعدة[547].

ومن أدلة عدم التكليف بما يضاد الوسع والطاقة:

قال سبحانه: ﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [البقرة : 286].

---

[545] الإيمان بالقران والكتب السماوية للمؤلف ص (94).

[546] تفسير الطبري (207/17).

[547] الوسطية في ضوء القران د. ناصر العمر ص (106).

وقال سبحانه: ﴿ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِيْنَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ [البقرة : 286].

وقال سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ*﴾ [الاعراف : 42].

هذه الأدلة يظهر من خلالها الإسلام في صورته الوضيئة المشرقة وفي طابعه الكريم السهل ، وفي جوهره الذي ينبذ الغلو والتعسير والتنطع ، والذي يحبذ التيسير والتسهيل تمشياً مع فطرة الإنسان ، التي تضيق بالعنت والإحراج[548].

8 . غنى مصادرها التشريعية:

ممّا تميّزت به هذه الدعوةُ كذلك غنى مصادرها التشريعية ، فالرسالاتُ السابقةُ كلّها تجدُ تشريعاتها في الكتاب المنزل فحسب ، أمّا هذه الدعوة التي لم تنزل لقوم محدودين ، ولا لفترة من الزمان محدودة ، وإنّما نزلت للبشرية كافة ، ولأمدٍ من الزمن ممتدّ إلى قيام الساعة ، فقد خصّها الله بسعةٍ في المصادر التشريعية تلائِمُ سعة رقعتها ، وامتداد زمانها ، فنجدُ مع الكتابِ سنّةَ الرسول (ﷺ) تفصّل ما أجمله الكتاب ، وتبيّن أحكامه تارةً ، وتستقلُّ تقرير الحكم تارة أخرى ، فقد فرض اللهُ الصلاة ـ مثلاً ـ ولكنّ أحكامَ الصلاةِ بيَّنتها السنّةُ ، وكذلك الأمر في الزكاة ، فالسنّةُ ببعض الأحكام ، كحدِّ الردّة ، وحدّ الخمر ، وحكم الرجم للزاني المحصن ، وأحكام البيع والشراء.. إلخ.

وإلى جانب الكتاب والسنة فبابُ الاجتهاد مفتوحٌ فيما لم يرد فيه نصٌّ ، أو في طريقة تطبيق النصّ على حالة لم تقع في عهد الرسول (ﷺ) ، وهذا هو الذي كفل لهذه الشريعة أن تتسع للنمو الدائم في حياة البشر ، ولا تضيق عنه ، وجعل الحياةَ في ظلّها تتحرّك وتنمو أبداً لا تتجمّد ، وهو ما لم يكن متاحاً للدعوات السابقة ، لأنّ الله قدّر لها فترة محدودة من الزمن تُنْسخُ بعدها ، أمّا هذه الرسالة فلا ناسخَ لها ، لذلك وهبها اللهُ القدرةَ على الامتدادِ ومواكبة الحياة المتجدّدة على الأرض[549].

9. دعوتها إلى الإيمان بما جاء به الأنبياء من قبل:

الرسالة المحمّدية هي الرسالةُ الوحيدةُ التي يؤمِنُ أتباعُها بالرسل جميعاً ، وبما أنزل إليهم ، فقد كفر اليهودُ بعيسى عليه السلام ومحمد (ﷺ) ، وكفر النصارى بمحمد (ﷺ) وامنوا بعيسى ، ولكن لا على أنّه رسول ، بل على أنه إلهٌ وابنُ إله ، أمّا المسلمون فهم وحدهم الذين يؤمنون بالرسل جميعاً من لدن ادم ونوح إلى محمد صلوات الله وسلامه عليهم ،

[548] عقيدة التوحيد ص (257).
[549] ركائز الإيمان ص (353).



قال تعالى: ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ﴾ ﴿ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ *﴾[البقرة: 136].

10 . حفظ الله تعالى للرسالة المحمدية:

لما كانت الرسالات السابقة مرهونةً بوقت معين ، وزمان محدود ، لم يتكفل الله تعالى بحفظها ، بل وكل حفظَها إلى علماء تلك الأمم ، التي أنزلت إليها ، فأوكل حفظ التوراة إلى الربانيين: ﴿ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [المائدة : 44]. ولم يستطع الربانيون والأحبارُ حفظ كتابهم ، وخان بعضُهم الأمانةَ ، فغيروا وبدّلوا وحرّفوا ، أمّا هذه الرسالة الخاتمة فقد تكفّل الله بحفظها ، ولم يكل حفظها إلى البشر ، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ *﴾ [الحجر : 9] ، وحفظ كتابها من التحريف والتبديل: ﴿ لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ *﴾ [فصلت : 42][550].

11 . شهادة أمة الإسلام على الأمم:

إن المؤمنين بهذه الرسالة يشهدون يوم القيامة على سائر الأمم من أصحاب الرسالات السابقة ، يقول الله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة : 143].

وقال تعالى: ﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج : 78].

روى البخاري في (صحيحه) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنّ رسول الله (ﷺ) قال: «يُجاءُ بنوحٍ فيقال له: هل بلّغتَ؟ فيقول: نعم يا ربِّ ، فتسأله أمته هل بلغكم؟ فيقولون: ما جاءنا من نذير ، فيقول: مَنْ شهودك؟ فيقول: محمد وأمته ، فيجاء بكم فتشهدون» ثم قرأ رسول الله (ﷺ): ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة : 143][551].

أنزل الله تعالى أمة محمد (ﷺ) منزلة العدول من الحكّام ، فإنّ الله تعالى إذا حكم بين العباد فجحدت الأممُ تبليغَ الرسالة أحضر أمّةَ محمّد (ﷺ) فيشهدون على الناسِ بأنّ رسلهم أبلغتهم ، وهذه الخصيصةُ لم تثبتْ لأحدٍ من الأنبياء[552].

---

550 العقيدة الإسلامية ص (146).

551 البخاري رقم (7349) ، الواسطة بين الله وخلقه ، المرابط الشنقيطي ص (183).

552 المصدر السابق ص (184).



12 . السيرة المحمدية:

هي السيرة القطعية الثبوت في التاريخ ، فمن قدر الله بالنسبة للإسلام أن تبقى أصوله كاملة ومن غير تحريف ، لأنّه الدين الباقي إلى أن تقوم الساعة ، والذي قدر الله سبحانه وتعالى أن يحفظه ويُظهره على الدين كله: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [الصف : 9].

وكما حفظ الله القرآن بقدرته حيث قال جلَّت قدرته: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ *﴾ [الحجر : 9]. فقد حفظ كذلك السنة المطهرة ، وحفظ السيرة النبوية الكريمة ، فلم تضعِ كما ضاعت سيرُ كثيرٍ من الأنبياء من قبلُ، ولم تدخل عليها التشويهات والتحريفات التي دخلت على سير أنبياء بني إسرائيل من موسى إلى عيسى عليهما الصلاة والسلام ، فيما يُسمَّى الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد (المقابلين للتوراة والإنجيل).

إنّ من يقرأ العهدَ القديم بصفة خاصة يتقزّز من بشاعةِ ما أُلصق بالأنبياء في سيرهم المزيفة. من تهمٍ فاحشةٍ لا تليقُ بشخص عادي ، فضلاً عن نبيّ مرسلٍ ، فما من جريمة في الأرض ـ على بشاعتها ـ إلا وأُلصِقَتْ زوراً وبهتاناً بأولئك الأنبياء ، من قتلٍ وسرقةٍ ، وغصبٍ ، ونهبٍ ، وغشٍ ، وكذبٍ ، وفسقٍ خُلقي ، وهذا كله مكتوب بأيدي المؤمنين بأولئك الرسل ، وصدق الله العظيم: ﴿ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *﴾ [البقرة : 93]. قال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيدِيهِمْ وَوَيلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ *﴾ [البقرة : 79].

لقد حرَّفوا سير أنبيائهم لا عن جهل ، ولكن ليبرروا لأنفسهم شناعة سلوكهم في الأرض ، فإذا كان أنبياؤهم يصنعون ما ينسبونه إليهم من أفاعيل ، أفلا يكونون هم في حلٍّ مما يفعلون؟ فأمّا العهد الجديد في تزويره لسيرة عيسى عليه السلام فلا تقِلُّ نكراً من تأليه عيسى ، وادّعاه بنوته لله: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَانُ وَلَدًا *لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا *تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا *أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَانِ وَلَدًا *﴾ [مريم : 88 ـ 91]. ذلك ما أصاب سير الأنبياء من قبلُ من نسيان أو تحريف.

فأما سيرة رسول الله (ﷺ) فقد صانها الله عن العبث وعن النسيان ، ووكلها ـ بقدر منه ـ إلى أمة ذات قدرة غير عادية على حفظ الروايات والنصوص ، ومن ثَمّ بقيت محفوظة على مدار التاريخ ، وبذلك فهي السيرة القطعية في التاريخ كله التي يمكن الوثوق بوقائعها وأحداثها ونسبتها إلى صاحبها (ﷺ).

ومن خلال هذه السيرة ـ ومن خلال القرآن كذلك ـ حفظت اللمحات الصادقة من سير الأنبياء من قبلُ ، فلا حقَّ يوثق به في سير أولئك الأنبياء إلا ما ورد في القرآن أو الحديث ، وفضلاً عن ذلك ، فإننا نستطيع أن نقرأ في سيرة الرسول (ﷺ) سيرَ الأنبياء جميعاً ، فقد تجمَّع في حياته (ﷺ) ما تفرق في حياة الأنبياء من قبل[553].

[553] ركائز الإيمان ص (323 . 330).

ثانياً . وضع العالم الإسلامي ومستقبله:

1 . وضع العالم الإسلامي المعاصر:

لم يحدث في تاريخ الأمة الإسلامية أن تكالبَ عليها أعداؤها بمثل الضراوة التي يتكالبون بها عليها في الوقت الحاضر: يذبَّحون ويقتَّلون في كل مكان غلب عليهم أعداؤهم ، ويشـــرَّدون من أرضـــهم وأموالهم ، ويســـلَّط عليهم أعداء من داخلهم أو من خارجهم ، يحكمونهم بغير ما أنزل الله ، لحســـاب أعدائهم الذين لا يؤمنون بلا إله إلا الله ، وينتقص الوطن الإسلامي مرةً بعد مرةً بإقامة دول غير إسلامية في أرضه ، وتفتت وحدته ، ثم تقسّم الدول منه إلا دويلات.

والفقر والجهل والمرض يتفشّـــى في العالم الإســـلامي على الرغم من أنّ تربته تحتوي على أكبر ثروات العالم على الإطلاق.

لقد وعد الله هذه الأمة بالاستخلاف والتمكين: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور : 55].

لقد اشترط الله عليهم شروطاً للتمكين ، مقابل الاستخلاف والتمكين والتأمين: ﴿ يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾، فأين هم اليوم من هذا الشرط؟! أين هم من الالتزام بأمر ربهم وتحكيم شريعته؟!

لقد أعرضوا عن القرآن الكريم إعراضاً ، ــ إلا ما رحم ربي ــ فلا هو الذي يستمدّون منه الشريعة التي تحكمهم ، ولا هو الذي يستمدون منه منهجَ تربيتهم ، ولا هو الذي يستمدّون منه أخلاقهم وأفكارهم ومشاعرهم وأنماط سلوكهم ، وإنما وجهتهم في ذلك كله هي أوربة ، شـرقها أو غربها سـواء ، فكيف يطمعون أن ينصـرهم ربّهم وهم معرضـون عن كتابه؟! وأن يمكّن لهم في الأرض وهم مخالفون لشرطه؟!.

لقد ابتلى اللهُ إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام ذلك الابتلاء الضخم الذي أبلى فيه بلاءً حسناً ، فكافأه الله على طاعته فقال: ﴿ اني جاعلك للناس اماما﴾ وعندئذٍ أدركته رغبته الفطرية في أن يكون هذا العهد لذريته من بعده فيكونون أئمة للناس: ﴿ قال ومن ذريتي﴾ فماذا قال له الله سبحانه وتعالى لحظة التقريب والتكريم والإعزاز؟ ﴿ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ *﴾ [البقرة : 124].

فهذه سنةٌ من سنن الله الجارية ، التي لا تتبدّل ولا تحابي أحداً ، إنّ الله لا يعطي الناس التمكين في الأرض لأنهم من ذرية قوم مؤمنين ، بل لأنهم هم أنفسهم مؤمنون ، فإذا تخلّوا عن شرطِ الإيمان الصحيح ، فلا يمنعهم يومئذٍ أن يكونوا ذرية لقوم مؤمنين[554].

ولقد عرض القرآن علينا سيرة بني إسرائيل بتفصيل كامل ، لكي لا نقعَ فيما وقعوا فيه ، وحذّرنا من ذلك تحذيراً ﴿ سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ *﴾ [البقرة : 211].

فماذا كان من بني إسرائيل: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لاَ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ *﴾ [الاعراف : 169].

والأمة الإسلامية اليوم تقف في الموقف الذي حذرنا الله منه ، يتركون كتابهم من أجل عرض من أعراض الحياة الدنيا، ويمنّون أنفسهم بالأماني الفارغة ويقولون سيُغفر لنا! لا جرمَ إذن أن يكونوا على حالهم الذي هم فيه. «ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل».

قال تعالى: ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا *وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا *﴾ [النساء : 123 ـ 124][555].

2 ـ مستقبل الأمة الإسلامية:

لا خلاص للأمة الإسلامية مما هي منه إلا بالرجوع إلى الله ، واتّباع المنهج القرآني ، لقد جرّب العالم الإسلامي أن يقتفيَ أثرَ الشرق أو الغرب من أجل الإصلاح ، فكانت النتيجةُ نكساتٍ تلو نكساتٍ ، والاستضعافُ مستمرٌّ في الأرض ، لا خلاصَ للأمة الإسلامية ممّا هي فيه إلا بالرجوع إلى الله ، واتباع المنهج القرآني ، لقد جرّب العالم الإسلامي أن يقتفي أثرَ الشرق أو الغرب من أجل الإصلاح ، فكانت النتيجةُ نكساتٍ تلو نكساتٍ ، والاستضعافُ مستمرٌّ في الأرض والتقتيلُ والتشريدُ قائمٌ ، وتفتيت وحدةِ المسلمين يشتدُّ يوماً بعد يوم ، ذلك أنهم ماضون في مخالفة أمر الله ، والبعد عن كتابه الكريم ، وقد أخبرهم الله ورسوله (ﷺ) بأنهم لن ينتصروا ، ولن ينصلحَ حالهم ، إلا بالتزام أوامر الله: ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ *﴾ [محمد : 38].

---

554 ركائز الإيمان ص (387).

555 ركائز الإيمان ص (389).





وقال تعالى: ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ *﴾ [محمد : 38].

وقد ان للأمة الإسلامية أن تعرفَ هذه الحقيقة ، وتعمل بمقتضاها ، ان لها أن تدركَ أولاً أنّ ما بين يديها من كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ) خيرٌ مما يسعون إلى اكتسابه من مناهج الجاهلية: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ *﴾ [المائدة : 50].

وأنّ التشريع السماوي الذي يعرضون عنه هو أكملُ تشريع ، وأفضلُ تشريع ، بينما شرائع الجاهلية كلّها نقصٌ وانحرافٌ واختلالٌ ، وأنّ منهج التربية الإسلامية هو وحده الكفيل بإنشاء الإنسان الصالح ، وما سواه كله انحراف[556].

والبداية هي معركة النفوس ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد:، فإذا غيّر المسلمون ما بأنفسهم ، وكفّوا عن إعراضهم عن كتاب الله ، وعادوا إلى الأخذِ بمنهجهم القرآني ، فسيعيدُ الله خيراتهم إليهم ــ بقدر منه وبجهدٍ يبذلونه تنفيذاً لأمر ربهم ــ فيصبحون أغنى أمة في الأرض ، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [الاعراف : 96]. ويصبحون من ثَمَّ أقوى أمة في الأرض، فإن الغني هو الذي أنشأ القوة المادية ، التي ينتصر بها المؤمنون ، ويصبحون أداة سلامٍ في العالم المهدَّدِ بالدمار ــ لأن العالم ــ بمعسكريه إنّما يتنازعُ على امتلاكنا نحنُ ، امتلاك خيراتنا ، واستعبادنا ، وكسر شوكتنا ، فيوم نكونُ أصحابَ ثرواتنا ، ومُلاّك أنفسنا ، فسنكوِّن القوّةَ التي تمنعُ النزاع في الأرض ، أو في القليل يكون نزاعهم خارجاً عنا ، وليس واقعاً علينا كما هو اليوم[557].

---

556 ركائز الإيمان ص (391).

557 المصدر نفسه.



ثالثاً . حقوق النبي (ﷺ):

1 . الإيمان به (ﷺ):

هو تصديقه ، وطاعاته ، واتّباع شريعته[558]، وهذه الأمور هي الركائز التي يقوم عليها الإيمان بالنبي (ﷺ).

وعن بيان هذه الأمور المطلوبة عند الإيمان به بالنبي (ﷺ). قال العلماء:

أ . أما تصديقه (ﷺ) فيتعلّق به أمران عظيمان:

أحدهما: إثباتُ نبوته ، وصدقه فيما بلّغه عن الله ، وهذا مختصٌّ به (ﷺ)[559].

ويندرج تحت هذا الإثبات والتصديق عدّةُ أمورٍ منها:

* الإيمانُ بعموم رسالته إلى كافة الثقلين إنسهم وجنهم.

* الإيمان بكونه خاتم النبيين ، ورسالته خاتمة الرسالات.

* الإيمان بكون رسالته ناسخة لما قبلها من الشرائع.

* الإيمان بأنه (ﷺ) قد بلغ الرسالة ، وأكملها ، وأدّى الأمانة ، ونصح لأمته حتى تركهم على بيضاء ليلها كنهارها.

* الإيمان بعظمته.

* الإيمان بماله من حقوق ، كما سيأتي تفصيلُها بإذن الله.

ب . تصديقُه فيما جاء به ، وأنَّ ما جاء به من عند الله حقٌّ يجبُ اتباعه ، وهذا يجب عليه (ﷺ) وعلى كلِّ أحد[560].

فيجب تصديقُ النبيِّ (ﷺ) في جميع ما أخبر به عن الله عز وجل ، من أنباء ما قد سبق وأخبار ما سيأتي ، وفيما أحلّ من حلال ، وحرّم من حرام ، والإيمان بأنّ ذلك كله من عند الله عز وجل ، قال تعالى: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى *إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى *﴾ [النجم : 3 . 4].

ويجب على كلّ أحدٍ أن يؤمنَ بما جاء به الرسول (ﷺ) إيماناً مُجملاً ، ولا ريبَ أنَّ معرفة ما جاء به الرسول (ﷺ) على التفصيل فرضٌ على الكفاية[561].

ب . طاعته واتباع شريعته:

إنّ الإيمان بالرسول (ﷺ) كما يتضمّن تصديقه فيما جاء به ، فهو يتضمّن كذلك العزم على العمل بما جاء به ، وهذه هي الركيزةُ الثانيةُ من ركائز الإيمان به (ﷺ) ، وهي تعني: الانقياد له (ﷺ) ، وذلك بفعل ما أمر به ، واجتناب ما نهى عنه وزجر ، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر : 7][562].

---

[558] اقتضاء الصراط المستقيم ، لابن تيمية ص (92).

[559] مجموع الفتاوى (91/15).

[560] المصدر نفسه ، وحقوق النبي (ص) على أمته (35/1).

[561] شرح العقيدة الطحاوية ص (66).

[562] حقوق النبي على أمته (35/1).



2. وجوب طاعة النبي (ﷺ) ولزوم سنته ، والمحافظة عليها:

إنَّ الآيات الواردة في الأمر بطاعة النبي (ﷺ) واتباعه والاقتداء به ، جاءت في مواطنَ متعددة من القرآن الكريم ، واتّصفت تلك الآيات بتنوع أساليبها ، وتعدّد صيغها مع اتحادها جميعاً في الأمر بالاقتداء بالنبي (ﷺ) وطاعته في جميع ما جاء به من شرائع وأحكام من عند الله عز وجل[563]، ويمكن تقسيمُها على حسب ما اتّحدت به في السياق على النحو التالي:

أ. الآيات التي جاء فيها الأمر بطاعته:

ومن تلك الآيات:

قوله تعالى: ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء : 80].

وقوله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ *﴾ [آل عمران: 132].

وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ ورَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ *﴾ [النور : 52].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا *﴾ [الاحزاب : 71].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ *﴾ [آل عمران: 32].

وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا *﴾ [الفتح : 17].

ب. وفي آيات أخر يأمر الله سبحانه بطاعته وطاعة رسوله (ﷺ) ،

مع إعادة الفعل ، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنّ ما يأمرُ به رسول الله (ﷺ) تجبُ طاعته فيه ، وإن لم يكن مأموراً به بعينه في كلام الله ، الذي هو القرآن ، فتجبُ طاعةُ الرسـول (ﷺ) مفردةً ، كما تجب مقرونةً بأمره سـبحانه ، ومن هذه الآيات:

قوله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ *﴾ [محمد : 33].

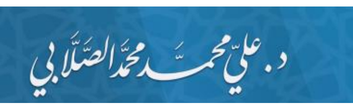
وقوله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ *﴾ [المائدة : 92].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُـولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ *﴾ [النور : 54].

وقال تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء : 59].

---

[563] المصدر نفسه (173/1).



وفي هذه الآية أمر تعالى بطاعته، وطاعة رسوله (ﷺ)، وأعاد الفعل إعلاماً بأنّ طاعة الرسول (ﷺ) تجب استقلالاً من غير عرض ما أمر به على الكتاب ، بل إذا أمر وجبت طاعته مطلقاً ، سواء كان ما أمرَ به في الكتاب أو لم يكن فيه ، فإنّه أوتي الكتاب ومثله معه[564]، لقوله (ﷺ): «ألا أني أوتيت الكتاب ومثله معه»[565].

ولم يأمر بطاعة أولي الأمر استقلالاً ، بل حذف الفعلَ ، وجعل طاعتهم في ضمن طاعة الرسول (ﷺ) ، إيذاناً بأنهم إنما يطاعون تبعاً لطاعة الرسول (ﷺ) ، فمن أمر منهم بطاعة الرسول (ﷺ) وجبت طاعته ، ومن أمر منهم بخلاف ما جاء به الرسول (ﷺ) فلا سمعَ له ولا طاعة ، كما صحّ عنه (ﷺ) أنه قال: «لا طاعة في معصية الله ، إنما الطاعة في المعروف»[566]، وقال (ﷺ): «على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحبّ أو كره، إلا أنْ يؤمر بمعصية ، فلا سمع ولا طاعة»[567].

وفي قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ *﴾ [النور : 54].

فقد أخبر تعالى في هذه الآية أنّ الهداية في طاعة الرسول (ﷺ) لا في غيرها ، فإنه معلّق بالشرط ، فينتفي بانتفائه.. وهذا من الأحكام التي ترتبت على شروط وعلقت ، فلا وجودَ لها بدون شروطها[568] إذا ما علّق على الشرط ، فهو عدم عند عدمه ، وإلا لم يكن شرطاً له ، وإذا ثبت هذا ، فالآية نصٌّ في انتفاء الهداية عند عدم طاعته[569].

وقوله تعالى: ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ ، والمعنى: أنّه قد حمل أداء الرسالة وتبليغها ، وحملتم طاعته ، والانقياد له ، والتسليم[570].

ج ـ الآيات التي جاء فيها الأمر باتباعه والتأسي به والأخذ بما شرعه:

فقد جاء الأمر من الله تبارك وتعالى باتباع رسوله (ﷺ) والتأسي به في مواطن متعددة كما في كتابه العزيز[571].
قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: 31].

---

564 أعلام الموقعين ، لابن القيم (48/1).
565 أبو داود رقم (4604).
566 مسلم (15/6).
567 البخاري رقم (7144).
568 حقوق النبي على أمته (177/1).
569 المصدر نفسه (177/1).
570 حقوق النبي (ص) على أمته (187/1).
571 المصدر نفسه (178/1).



ففي هذه الآية الأولى جعل الله الاتّباع سبيلاً إلى نيل حبّه ، ووسيلةً إلى تحقيق رضاه ، وحصول غفرانه ، إذ باتّباع الرسول (ﷺ) يحصلُ حبُّ الله تعالى ورضاه ومثوبته ، فالخير كلّ الخير في اتّباعه ، والشرّ كلّ الشرّ في مخالفته والابتعاد عن سنته ، فالاتّباع هو دليل المحبّة وبرهانها ، وبتحقّقه تكون المحبّة التي هي إحدى ثمراته ، كما قال تعالى: ﴿ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ ، كما أنّ من ثمراته غفران الذنوب ، كما جاء في هذه الآية نفسها ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾

وهذه المنزلةُ والمكانةُ لاتّباع الرسول (ﷺ) نابعةٌ من كون هذا الاتباع إنّما هو في الحقيقة اتباع لله ، إذ الرسول (ﷺ) إنّما جاء لهذا الدين من عند الله عز وجل ، فهو شـرعُ الله ودينه الذي أوحاه لرسـوله (ﷺ) ليبلغه للعباد ، فالرسـول (ﷺ) إنّما هو مبلّغ عن الله ، ولم يأتِ بشـيء من عند نفسـه ، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَـرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا *﴾ [الكهف : 110]. وقال تعالى: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ [البقرة : 285].

ومن الآيات التي جاء فيها الأمرُ بالتأسّي به واتباعه قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ *﴾ [الاعراف : 158].

جاء الأمر بالاتباع عقب الأمرِ بالإيمان تأكيداً على وجوب اتباع النبي (ﷺ) ، وإلا فإنّ الاتباع داخل في الإيمان ، ولكن أفرد بالذكر هنا تنبيهاً على أهميته وعظيم منزلته[572].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُـولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشـر : 7]. فهذه الآية أوجبت الاتّباع المطلق للنبي (ﷺ) ، فما أمر به من شـيء ، فإن علينا فعله ، وما نهى عن شـيء ، فإنّ علينا تركه واجتنابه ، فهو لا يأمر إلا بخير ، ولا ينهى إلا عن شر[573].

وفي هذا الاتّباع والانقياد حياتنا وفلاحنا ، كما قال تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْـتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُـولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ *﴾ [الانفال : 24].

إذ الحياةُ الحقيقية الطيّبة هي حياةُ مَنِ اسـتجابَ لله ولرسـوله (ﷺ) ظاهراً وباطناً، فهؤلاء هم الأحياء وإن ماتوا، وغيرهم أموات، وإن كانوا أحياء الأبدان، ولهذا كان أكملُ الناس حياة أكملَهم استجابةً لدعوة الرسول (ﷺ) ، فإنّ كلّ ما دعا إليه ففيه الحياة ، فمن فاته جزءٌ منه فاته جزءٌ من الحياة ، وفيه من الحياة بحسـب ما اسـتجاب للرسول(ﷺ)[574].

---

572 حقوق النبي (ص) على أمته (180/1).

573 المصدر نفسه (180/1).

574 الفوائد ، لابن القيم ص 88 بتصرف.



ولقد أعقب هذا الأمرَ بالاستجابة تحذيرَ مَنْ تركَ الاستجابة له ، أو تثاقل وتباطأ عنها ، فقال تعالى: والمعنى: أنكم إن تثاقلتم عن ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ ، وأبطأتم عنها ، فلا تأمنوا أنّ الله يحول بينكم وبين قلوبكم ، فلا يمكنكم بعد ذلك من الاستجابة عقوبة لكم بعد وضوح الحق واستبانته[575].

وأما قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا *﴾ [الاحزاب : 21].

فقد جعل الله تبارك وتعالى من رسوله (ﷺ) الأسوة والقدوة ليحتذيَ به الخلقُ في أقواله وأفعاله ، وجميع ما جاء به النبي (ﷺ)[576]، قال ابن كثير: هذه الآية الكريمة أصلٌ كبيرٌ في التأسّي برسول الله (ﷺ) في أقواله وأفعاله وأحواله[577].

د. الآيات التي جاء فيها التسليم لحكمه والانقياد له:

قال تعالى: ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا *﴾ [النساء : 65].

يقسم الله تعالى بنفسه الكريمة المقدّسة أنّه لا يؤمن أحدٌ حتى يحكِّمَ الرسول (ﷺ) في جميع الأمور ، فما حَكَمَ به فهو الحقُّ الذي يجب الانقياد له باطناً وظاهراً ، ولهذا قال تعالى: ﴿ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا *﴾ [النساء : 65] ، أي إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم ، فلا يجدون في أنفسهم حرجاً مما حكمتَ به ، وينقادون له في الظاهر والباطن ، فيسلّمون لك تسليماً كلياً من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة[578].

وهذه الآية ينبغي لكلِّ مسلم أن يعرض نفسه عليها[579] ومتى أراد العبدُ أن يعلم ـــ قبوله لحكم الرسول (ﷺ) والتسليم له ـــ فلينظرْ في حاله ، ويطالعْ قلبه عند ورود حكمه على خلاف هواه وغرضه ، أو على خلاف ما قلد فيه أسلافه من المسائل الكبار وما دونها: ﴿ بَلِ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ *وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ *﴾ [القيامة : 14 ـ 15].

فسبحان الله كم من حزازة في نفوس كثير من الناس من كثير من النصوص بودّهم أنْ لو لم ترد؟ وكم من حزازة في أكبادهم منها؟ وكم من شجًى في حلوقهم منها ومن موردها؟ ستبدو لهم تلك السرائر بالذي يسوء ويخزي يوم تبلى السرائر[580].

---

575 الفوائد ، لابن القيم (90).
576 حقوق النبي (ص) على أمته (181/1).
577 تفسير ابن كثير (474/3).
578 تفسير ابن كثير (520/1).
579 حقوق النبي (ص) على أمته (183/1).
580 حقوق النبي (ص) على أمته (183/1).



ومن الآيات التي جاءت في وجوب التسليم لحكمه ، والانقياد له ، قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *﴾ [النور : 51].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُبِيناً *﴾ [الاحزاب : 36].

وأمّا الأحاديث النبوية في حَثِّ الأمة على طاعة رسول الله (ﷺ) وامتثال أمره ، واتباع ما جاء به ، فهي كثيرةٌ منها:
عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله (ﷺ) قال: «كلُّ أمتي يدخلونَ الجنَّةَ إلا مَنْ أبى» قالوا: يا رسول الله ومن يأبى؟ قال: «من أطاعني دخلَ الجنَّة ، ومن عصاني فقد أبى»[581].
وقال رسول الله (ﷺ): «من أطاعني فقد أطاعَ الله ، ومن عصاني فقد عصى الله»[582].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنّ رسول الله (ﷺ) قال: «ما مِنْ نبيٍّ بعثَه
اللهُ في أُمةٍ قبلي إلاّ كان له من أُمّته حواريون وأصحاب ، يأخذون بسنّته ، ويقتدون بأمره ، ثم إنّها تخلف من بعدهم خلوفٌ يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون ، ومن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراءَ ذلك من الإيمان حبةُ خردلٍ»[583].

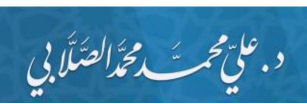
وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاءَ ثلاثةُ رهطٍ إلى بيوت أزواج النبي (ﷺ) يسألون عن عبادة النبي (ﷺ)، فلمّا أخبروا كأنّهم تقالّوها ، فقالوا: وأينَ نحنُ من النبيّ (ﷺ) ، وقد غُفِرَ له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر؟! قال أحدهم: أما أنا فأنا أصلّي الليل أبداً. وقال اخر: أنا أصومُ الدهرَ ولا أفطرُ. وقال اخر: أنا أعتزِلُ النساءَ فلا أتزوّجُ أبداً.

فجاء رسول الله (ﷺ) فقال: «أنتم الذين قلتُم كذا وكذا؟ أما واللهِ أنِّي أخشاكم للهِ وأتقاكم له ، ولكنِّي أصومُ وأُفْطِرُ، وأُصَلِّي وأَرْقُدُ ، وأتزوّجُ النساءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عن سنّتي فليسَ مني»[584].
وقد رسم النبي (ﷺ) في هذا الحديث ركيزتين أساسيتين في هذا الدين هما: الاتباع ، وترك الابتداع[585].

وقد بيّن الرسول (ﷺ) مواقفَ الناسِ من الأخذ بدعوته واتّباع سنته ، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبيّ (ﷺ) أنه قال: «إنّ مثلَ ما بعثني الله به عزّ وجلّ من الهُدى والعلم كمثل غيثٍ أصابَ أرضاً ، فكانت منها طائفةٌ طيبةٌ قبلتِ الماءَ فأنبتتِ الكلأَ والعشبَ الكثيرَ ، وكان منها أجادِبُ أمسكتِ الماءَ ، فنفع الله منها الناسَ ، فشربوا

---

581 البخاري رقم (7280).
582 البخاري رقم (7137).
583 مسلم (50).
584 البخاري رقم (563).
585 حقوق النبي (ص) على أمته (197/1).



منها ، وسُقوا ، وزرَعوا ، وأصابَ طائفةً منها أُخرى ، إنّما هي قِيعانٌ لا تمسِكُ ماءً ، ولا تُنْبِتُ كلأً ، فذلك مَثَلُ مَنْ فَقِه في دينِ اللهِ ، ونفعه الله به فعلِمَ وعَلَّمَ ، ومثل مَنْ لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذي أُرسلتُ به»[586].

وفي هذا الحديث قسّم النبيُّ (ﷺ) الناسَ — فيما يتّصل بدعوته — إلى ثلاث أقسام ، وشبّه (ﷺ) العِلْمَ الذي جاء به بالغيث ، لأنّ كلاً منهما سبب الحياة ، فالغيثُ سببُ حياة الأبدان ، والعلمُ سببُ حياة القلوب ، وشبّه القلوبَ بالأودية كما قال تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد : 17] كما أنّ الأرضين ثلاثة بالنسبة إلى قبول الغيث.

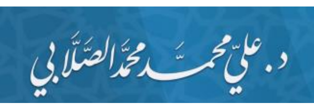
إحداها: أرضٌ زكية، قابلةٌ للشراب والنبات ، فإذا أصابها الغيثُ ارتوتْ ، ومنه يثمِرُ النبتَ من كلِّ زوجٍ بهيجٍ ، فذلِكَ مَثَلُ القلبِ الزكي الذكي ، فهو يَقْبَلُ العلمَ بذكائه ، فيثمِرُ فيه وجوه الحِكَمِ ودين الحق بزكائه ، فهو قابِلٌ للعلم بذكائه ، ويثمِرُ فيه وجوهَ الحكم والدين بزكائه ، فهو قابِلٌ للعلمِ مثمرٌ لموجبه وفقهه وأسرار معادنه.

والثانية: أرضٌ صلبةٌ قابلةٌ لثبوتِ ما فيها وحفظه ، فهذه تنفعُ الناسَ لورودها والسقي منها ، والازدراع وهو مثل القلب الحافظ للعلم ، الذي يحفظه كما سمعه دون في تصرّف فيه ، ولا استنباط ، بل للحفظِ المجرّدِ فهو يؤدّي كما سمع ، وهو مِنَ القسم الذي قال فيه النبيُّ (ﷺ): «فَربَّ حامِلِ فقهٍ إلى مَنْ هو أفقه منه ، وربَّ حامِلِ فقهٍ غيرِ فقيهٍ»[587].
فالأول: كمثل الغني التاجر الخبير بوجوه المكاسب والتجاراتِ ، فهو يكسب بماله ما شاء.
والثاني: مثل الغني الذي لا خبرةَ له بوجوه الربح والمكسب ، ولكنّه حافِظٌ لما لا يحسن التصرف والتقلب فيه.
والأرض الثالثة: أرضٌ قاعٌ ، وهو المستوى الذي لا يقبلُ النباتَ ، ولا يمسِكُ ماءً ، فلو أصابها من المطر ما أصابها لم تنفع منه بشيءٍ.
فهذا مثل القلب الذي لا يقبل العلم والفقه والدراية ، وإنّما هو بمنزلة الأرض البور التي لا تنبت ولا تحفظ ، وهو مثلُ الفقيرِ الذي لا مال له ، ولا يحسن يمسك مالاً.

فالأول: عالمٌ معلّمٌ ، وداعٍ إلى الله على بصيرةٍ ، فهذا من ورثةِ العلم.
والثاني: حافظٌ مؤدٍّ لما سمعه ، فهذا يحمِلُ لغيره ما يتّجِرُ به المحمولُ إليه ويستثمر.
والثالث: لا هذا ولا هذا ، فهو الذي لم يقبل هدى الله ، ولم يرفع به رأساً فاستوعب هذا الحديثُ أقسام الخلق في الدعوة النبوية ومنازلهم منها قسمان: قسم سعيد ، وقسم شقي[588].

---

586 البخاري رقم (79).
587 سنن ابن ماجه (188/2) حديث صحيح.
588 حقوق النبي على أمته (201/1).





هـ – الأدلة من القرآن الكريم على التحذير من معصية الرسول (ﷺ) وحكم من خالفه:

ورد التحذيرُ من معصية الرسول (ﷺ) في مواطنَ عدّة من القرآن الكريم ، وقد جاء التحذيرُ مصحوباً بالوعيد الشديد لذلك المخالف العاصي ومن تلك المواطن.

قوله تعالى: ﴿ لاَ تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ *﴾ [النور : 63].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ *﴾ [النساء : 14].

وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُبِيناً *﴾ [النساء : 36].

وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا *﴾ [الجن : 23].

وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ *﴾ [الانفال : 13].

وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ *﴾ [التوبة : 63].

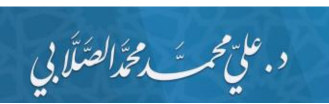
وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ *﴾ [المجادلة : 20].

كما أنّ كلَّ من أعرضَ عن حكم الرسول (ﷺ) ولم ينقد له ، ولم يرضَ به إلاّ إذا كان موافقاً لهواه ، فهو محكومٌ عليه بالنفاق بنصِّ القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا *﴾ [النساء : 60 ـ 61].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ *وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ *أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ *إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *﴾ [النور : 48 ـ 51].

فمن سمةِ المنافقين أنّهم لا يتحاكمون لشرع الله ، إلاّ إذا كان الحقّ في صفّهم ، وحكم الشرع لصالحهم ، أمّا إذا كان الأمرُ على خلافِ ذلك ، فلا ترى منهم سوى الإعراضِ عن شرع الله المتمثّل في كتاب الله وسنة نبيه (ﷺ). وأمّا أهل الإيمان الذين ترسّخَ في قلوبهم الإيمانُ بشرع الله اعتقاداً بالقلبِ ، وقولاً باللسان ، وعملاً بالجوارح ، فإنّ من صفاتهم وعلاماتهم تحاكمهم لكتاب الله وسنة رسول الله (ﷺ) في جميع أحوالهم وشؤونهم مع الرضى والتسليم لذلك الحكم



سواء كان لهم أم عليهم ، ولذلك فقد وصف الله أهل الإيمان بالفلاح[589]، فقال تعالى: ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *﴾ بينما وصفَ أهلَ النفاقِ بالظلم حيث تعالى: ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ *﴾.

3 . وجوب محبته (ﷺ):

لما كانت محبة الله ورسوله (ﷺ) من أعظم واجبات الإيمان ، وأكبر أصوله ، وأجل قواعده ، بل هي أصلُ كل عمل من أعمال الإيمان والدّين ، كما أنَّ التصــديق أصــلُ كلّ قولٍ من أقوال الإيمان[590]، ولما كانت هذه المحبةُ من الإيمان الواجب الذي لا يتمّ إيمانُ العبدِ إلاّ به ، ولما كانت هذه المحبّة هي إحدى الحقوق الواجبة للنبيّ (ﷺ) على أمته ، فقد جعل الله هذه المحبة فوق محبة الإنسانِ لنفسه وأهله وماله والناس أجمعين ، كما نصَّ على ذلك:

أ . في كتاب الله العزيز ،

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ *﴾ [التوبة : 24].

فالآية نصّــت على وجوب محبة الله ورســوله (ﷺ) ، وأنّ تلك المحبة يجب أن تكون مقدّمةً على كلِّ محبوبٍ ، ولا خلافَ في ذلك بين الأمة[591].

كفى بهذه الآية حضّـاً وتنبيهاً ، ودلالة وحجة على لزوم محبته ، ووجوب فرضــها ، واســتحقاقه لها (ﷺ) ، إذا قرّع تعالى مَنْ كان مالُه وأهلُه وولدُه أحبَّ إليه من الله ورســوله (ﷺ) ، وأوعدهم بقوله تعالى: ﴿ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ ، ثم فسّقهم بتمام الآية ، وأعلمهم أنهم ممّن ضلَّ ، ولم يهده الله[592].

ب . ومن الآيات التي يستدلّ بها على وجوب محبّةِ النبي (ﷺ)

قوله تعالى: ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ ، فالآية دليلٌ على أنّ مَنْ لم يكن الرسول (ﷺ) أولى به من نفسه، فليس من المؤمنين ، وهذه الأولوية تتضمّن أموراً أهمها:

أن يكونَ النبي (ﷺ) أحبَّ إلى العبدِ من نفســه ، لأنَّ الأولية أصـلُها الحبّ ، ونفس العبد أحبُّ إليه من غيره ، ومع هذا يجب أن يكون الرسول (ﷺ) أولى به منها ، فبذلك يحصلُ له اسمُ الإيمانِ.

ويلزمُ من هذه الأولوية والمحبة كما الانقياد والطاعة والرضا والتسليم وسائر لوازم المحبة من الرضا بحكمه والتسليم لأمره ، وإيثاره على من سواه[593].

---

589 حقوق النبي على أمته (252/1).

590 مجموع الفتاوي (10/48 . 49).

591 تفسير القرطبي (95/8) بتصرف.

592 الشفا (563/2).

593 حقوق النبي على أمته (304/1).



ج. ومما يستدلُّ به كذلك على وجوب محبّة النبي (ﷺ)

قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة : 165].

ووجه الاستدلال بهذه الآية: أنَّ الآية قد تضمّنت وجوبَ محبة النبي (ﷺ) ، لأنّه ممّا يدخل في محبة الله محبة ما يحبّه الله ، والله يحبُّ نبيه وخليله (ﷺ) ، فمن أجل ذلك وجبتْ علينا محبته ، ومن المعلوم أن أصـل حب أهل الإيمان هو حب الله ، ومن أحب الله أحب من يحبه الله ، وكل ما يحب سواه فمحبته تكون تبعاً لمحبة الله ، إذ ليس في الوجود ما يســتحقُّ أن يحبّ لذاته من كلّ وجهٍ إلا الله تعالى ، فالرســولُ (ﷺ) إنّما يحب لأجل الله ، ويطاع لأجل الله ، ويتبع لأجل الله ، وكذا الأنبياء والصـالحون وسـائر الأعمال الصـالحة تَحبُّ جميعاً ، لأنها مما يُحِبُّ الله ، وبهذا يعلم تعين محبة النبي (ﷺ) ووجوبها ولزومها.

هذا وقد جاء ذكر محبة الرســول (ﷺ) مقترناً بمحبّة الله في قوله تعالى: وكذلك في قوله (ﷺ): ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ مَنْ كُنَّ فيه وَجَدَ بهنّ حلاوةَ الإيمان: مَنْ كانَ اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه ممّا سواهما...»[594].

وهذا الاقترانُ يدلِّل على مدى الصـلة الوثيقة بين محبة الله ومحبة رسـول الله (ﷺ)، وإن كانتْ محبّةُ الرسـولِ (ﷺ) داخلةً ضِـمْنَ محبة الله تعالى أصـلاً ، لكنّ إفرادها بالذكر مع أنّها ضِـمْنَ محبّة الله فيه إشـارة إلى عِظَمِ قدرها وإشـعارٌ بأهميتها ومكانتها[595].

د. ومن الأدلة:

قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *﴾ [آل عمران: 31].

ففي هذه الآية إشـارةٌ ضـمنية إلى وجوبِ محبّة النبيّ (ﷺ) ، لأنَّ الله تبارك وتعالى قد جعل برهانَ محبّته تعالى ودليلَ صدقها هو اتّباعُ النبيّ (ﷺ) ، وهذا الاتّباعُ لا يتحقّقُ ولا يكونُ إلا بعد الإيمان بالنبيّ (ﷺ) ، والإيمانُ به لابدّ فيه من تحقق شـروطه ، التي منها محبة النبي (ﷺ) ، فعن أبي هريرة رضـي الله عنه أنَّ رسـول الله (ﷺ) قال: «فوالذي نفسـي بيده لا يؤمنُ أحدُكم حتّى أكونَ أحبَّ إليه من ولده ووالده»[596].

هـ والأدلة من السنة على وجوب محبته (ﷺ) كثيرة منها:

قوله (ﷺ): «لا والذي نفسي بيده حتى أكونَ أحبَّ إليكَ من نفسِكَ» فقال له عمر: فإنّه الان واللهِ لأنتَ أحبُّ إليَّ من نفسي ، فقال النبي (ﷺ): «الان يا عمر»[597].

---

[594] البخاري رقم (21).

[595] حقوق النبي على أمته (306/1).

[596] البخاري رقم (14).

[597] البخاري رقم (6632).



وعن أنس رضـــي الله عنه قال: قال النبي (ﷺ): «لا يؤمنُ أحدُكم حتّى أكونَ أحبَّ إليه من والدِهِ وولدِهِ والناسِ أجمعين»[598].

وعن أنس بن مالك رضـــي الله عنه عن النبيِّ (ﷺ) قال: «ثلاثٌ منْ كُنَّ فيه وجدَ حلاوةَ الإيمان: أن يكونَ اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه ممّا سواهما ، وأن يحبَّ المرءَ لا يحبّه إلا لله ، وأن يكرَهَ أن يعودَ في الكفرِ بعد أن أنقذه الله منه ، كما يكره أن يُقْذَفَ في النار»[599].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء رجلٌ إلى رسول الله (ﷺ) فقال: يا رسول الله متى الساعة؟ قال: «وما أعددتَ للساعة؟» قال: حب الله ورسوله. قال: «فإنك مع مَنْ أحببت» قال أنس: فما فرحنا بعدَ الإسلام فرحاً أشدَّ من قول النبي (ﷺ): «فإنك مع من أحببتَ» قال أنس: فأنا أحبُّ الله ورســـوله وأبا بكر وعمرَ ، فأرجو أن أكون معهم ، وإن لم أعمل بأعمالهم[600].

من علامات محبته (ﷺ):

- اتباعه والأخذ بسنته (ﷺ).
- الإكثار من ذكره (ﷺ).
- تمني رؤيته والشوق إلى لقائه (ﷺ).
- النصيحة لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين ، وعامتهم.
- تعلّم القرآن الكريم.
- محبة من أحب الله ورسوله (ﷺ).
- بغض من أبغض الله ورسوله (ﷺ).
- الزهد في الدنيا[601].

598 البخاري رقم (15).
599 البخاري رقم (21).
600 البخاري رقم (6171).
601 حقوق النبي على أمته (321/1).

4 . وجوب تعزيره وتوقيره وتعظيمه:

ومعنى التعزير: اسمٌ جامع لنصره وتأييده ، ومنعه من كل ما يؤذيه[602].

ومعنى التوقير: اسم جامع لكلِّ ما فيه سكينة وطمأنينة من الإجلال والإكرام ، وأن يعامَل من التشريف والتكريم والتعظيم بما يصونه عن كل ما يخرجه عن حدّ الوقار[603].

ومعنى التعظيم: التبجيل ، وقد استخدمه العلماء في كلامهم عند هذه المسألة ، وذلك لقربه في المعنى إلى ذهن السامع ، ولتأديته للمعنى المراد من لفظتي (التعزير) و(التوقير)[604].

إنّ تعظيمَ النبي (ﷺ) وإجلالَه وتوقيرَه شعبةٌ عظيمةٌ من شعب الإيمان ، وهذه الشعبةُ غير شعبة المحبة ، بل إنَّ منزلتها ورتبتَها فوقَ منزلة ورتبة المحبة ، ذلك لأنّه ليس كلُّ محبٍّ معظِّماً ، ألا ترى أنّ الوالد يحبُّ ولده ، ولكن حبه إياه يدعوه إلى تكريمه ، ولا يدعوه إلى تعظيمه ، والولد يحب والده فيجمع بين التكريم والتعظيم ، فعلمنا بذلك أنَّ التعظيم رتبته فوق رتبة المحبة[605].

ومن حق النبي (ﷺ) على أمته أن يُهابَ ويعظَّم ويوقّر أكثر من كل ولد لوالده ، ومن كل عبد لسيده ، فهذا حق من حقوقه الواجبة[606]. وهو ما أمر الله به في كتابه العزيز قال تعالى: ﴿ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح : 9]. وقال تعالى: ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *﴾ [الاعراف : 157].

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة جاء فيها التأكيد على هذا الحق من حقوقه (ﷺ) وبخاصة في جوانب معينة من جوانب تعظيمه ، ومن تلك الآيات ما يلي:

أ ــ قوله تعالى: ﴿ لاَ تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: 63]. ففي هذه الآية نهي من الله أن يدعى رسول الله (ﷺ) بغلظة وجفاء ، وأمرهم أن يدعوه بلين وتواضع[607]، وأمرهم أن يفخّموه ويشرّفوه[608].

فقد خص الله نبيه في هذه الآية بالمخاطبة بما يليق به ، فنهى أن يقولوا: يا محمد أو يا أحمد ، أو يا أبا القاسم ، ولكن ليقولوا: يا رسول الله ، يا نبي الله ، وكيف لا يخاطبونه بذلك ، والله سبحانه أكرمه في مخاطبته إياه بما لم يكرمْ به

---

602 الصارم المسلول ، لابن تيمية ص (422).

603 المصدر نفسه ص (422).

604 حقوق النبي على أمته (422/2).

605 المصدر نفسه (423/2).

606 المصدر نفسه (423/2).

607 تفسير الطبري (177/18).

608 المصدر نفسه (177/18).

أحداً من الأنبياء ، فلم يدعُه باسمه في القرآن قط بل يقول: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ [الاحزاب : 28]. وقال تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة : 67][609].

ب ـ وقال تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ *يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ولاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ *إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ *إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ *وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *﴾ [الحجرات : 1 ـ 5].

ج ـ وقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلاَ يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ التوبة : 120].

د ـ وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِيناً *﴾ [الاحزاب : 57].

هـ ـ وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلاَ أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا *﴾ [الاحزاب : 53].

و ـ وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *لاَ تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ *﴾ [النور: 62 ـ 63].

فهذه الآيات تبيّنُ لنا حقوق رسول الله (ﷺ) ، وأنّه أجلّ وأعظمُ وأكرمُ وألزمُ لنا وأوجبُ علينا من حقوق الاباء على أولادهم ، لأنّ الله أنقذنا به من النار في الاخرة ، وعصم به لنا أرواحنا وأبداننا وأعراضنا وأموالنا وأهلينا وأولادنا في العاجلة ، فهدانا به لأمر إن أطعناه كانت طاعته سبباً في دخول جنات النعيم ، فأيُّ نعمة توازي هذه النعم؟! وأية مِنّةٍ تداني هذه المنن؟! فحقٌّ علينا إذن أن نحبّه ونجلّه ونعظّمه ونهابه ، فبهذا نكون من المفلحين: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ

[609] حقوق النبي على أمته (425/2).

الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *﴾ [الأعراف: 157][610].

فالآية بيّنت أنّ الفلاح إنّما يكون لمن جمع إلى الإيمان به تعزيره ولا خلاف أن التعزير هنا التعظيم ، فلقد سجل الله في هذه الآية الفلاح بأسلوب الحصر للذين تأدّبوا بهذا الأدب القرآني الرفيع ، وكما قال تعالى في الإناطة بمقامه الأشرف ، وبيان حقه على كل مؤمن ومؤمنة: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا *لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: 8 ـــ 9] ، راجع إلرسول الله (ﷺ) وتفخموه في أدب المخاطبة ، والتحدث إليه ومجالسته[611]، فالتسبيحُ لله وحده ، والتعزيرُ والتوقيرُ للرسول (ﷺ) ، والإيمان بالله ورسله[612].

فهذه الآيات وغيرُها نزلت لتبيّن مقامَ شرف رسول الله (ﷺ) وعظيم منزلته عند ربه ، مما يوجِبُ على المؤمنين برسالته أن يكونوا في مخاطبتهم معه على سنن الإجلال والتعظيم[613].

ومما يدل على عظيم قدره ، ورفعة مكانته عند ربه ، الخصائص التي أمتنّ الله بها على عبده ورسوله محمد (ﷺ) ، والتي تدلل على تشريف الله عز وجل وتكريمه لنبيه محمد (ﷺ) ، فقد أكرم الله نبينا محمد بخصائص في الدنيا والاخرة دلّت على علو قدره ، ورفعة مكانته ، وسموّ منزلته عند الخالق تبارك وتعالى ، فقد قال تعالى في محكم تنزيله: ﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا *﴾ [النساء : 113].

ففي هذه الآية يمتنُّ الله على نبيه (ﷺ) بما أسبغَ عليه من الفضائل ، التي هي المناقب والمراتب التي أعطاه الله إياه ، وميّزه بها على بقية أنبيائه ، فالله سبحانه فضّل بعض الرسل على بعض ، فقال تعالى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة : 253].

فكان لنبيّنا محمد (ﷺ) النصيبُ الأوفر من هذا الفضل ، فقد خصّه الله وميّزه بخصائص ومناقب دنيوية وأخروية ، فُضِّلَ بها على سائر الأنبياء ، ومَنْ سواهم من البشر.

---

610 حقوق النبي على أمته (445/2).

611 المصدر نفسه (445/2).

612 المصدر نفسه (446/2).

613 المصدر نفسه (446/2).





ومن هذه الخصائص على وجه الاختصار[614]:

أ . أخذ العهد له (ﷺ) على جميع الأنبياء والرسول عليهم الصلاة والسلام:

من الأمور التي تدل على عظيم قدره (ﷺ) عند ربه ما أخذ الله من العهد له (ﷺ) على جميعِ الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام على أنّه لو بُعِثَ (ﷺ) وهم أحياء
أو أحدٌ منهم ، فإنّه يجب عليهم أن يؤمنوا به ويتبعوه وينصروه[615].

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ *﴾ [آل عمران: 81].

ب . أنه (ﷺ) أكثرُ الأنبياء تبعاً:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبيَّ (ﷺ) قال: «ما مِنْ نبيٍّ إلا أُعْطِيَ من الآيات ما مِثْلُهُ امنَ عليه البشرُ ، وإنّما كان الذي أُوْتِيْتُه وَحْياً أوحاه الله إليَّ ، فأرجو أن أكونَ أكثرَهم تابعاً يوم القيامة»[616].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): «أنا أكثرُ الأنبياء تبعاً يوم القيامة»[617].

ج . أنّ قرنه (ﷺ) خيرُ قرون بني ادم كما أنه خير قرون أمته والقرون التي تلي قرنه (ﷺ):

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله (ﷺ) قال: «بُعِثْتُ من خيرِ قرونِ بني ادم قرناً فقرناً حتى كنتُ من القرنِ الذي كنتُ فيه»[618].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي (ﷺ) قال: «خيرُ الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم»[619].

د . أن الله تعالى أخبره أنه غَفَرَ له ما تقدّمَ من ذنبه وما تأخّرَ وهو حيٌّ صحيحٌ يمشي على الأرض:

قال تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِيناً *لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا *وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا *﴾ [الفتح : 1 . 3].

---

614 حقوق النبي على أمته (394/2).
615 المصدر نفسه (395/2).
616 البخاري رقم (7374).
617 مسلم رقم (130/1).
618 البخاري رقم (3557).
619 البخاري رقم (3557).



هـ – أن الله رفع له ذكره:

قال تعالى: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ *﴾ [الشرح : 4].

فلا يذكر الله سبحانه إلا ذكر معه ، ولا تصحُّ للأمة خطبةٌ ولا تشهّدٌ حتى يشهدوا أنّه عبده ورسوله ، وأوجب ذكره في كل خطبة ، وفي الشهادتين اللتين هي عمادُ الدين ، إلى غير ذلك من المواضع[620].

و . أن الله أقسم بحياته (ﷺ):

قال تعالى: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ *﴾ [الحجر : 72].

والإقسامُ بحياة المقسَم بحياته يدلُّ على شرف حياته ، وعزتها عند المقسم بها ، وأنّ حياته (ﷺ) لجديرةٌ أن يقسَمَ بها لما فيها من البركة العامة والخاصة ، ولم يثبت هذا لغيره (ﷺ)[621].

ز . أن الله وقره في ندائه ، فناداه بأحبِّ أسمائه وأحسنِ أوصافه ، فقال: ﴿ يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ﴾:

وهذه الخصـيصـة لم تثبت لغيره ، بل ثبت أنَّ كلا منهم نودي باسمه ، فقال تعالى: ﴿ يَازَكَرِيَا إِنَّا نُبَشِّـرُكَ﴾ [مريم : 7]، ﴿ يَايَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم : 12] ، ﴿ يَادَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ﴾ [ص : 26]. ﴿ يَاآدَمُ اسْـكُنْ﴾ [البقرة : 35]. ﴿ يانُوحُ اهْبِطْ بِسَـلاَمٍ﴾ [هود : 48]. ﴿ يالُوطُ إِنَّا رُسُـلُ رَبِّكَ﴾ [هود : 81].

فمن دُعِيَ بأفضل أوصافه وأخلاقه كان ذلك مبالغة في تعظيمه واحترامه[622].

ح . أنّ الله أمرَ الأمةَ بأن لا تناديه باسمه ، بل تناديه يا رسول الله ، يا نبي الله[623]:

قال تعالى: ﴿ لاَ تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ *﴾ [النور : 63].

قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير عند تفسيرها كانوا يقولون: يا محمد ، يا أبا القاسم ، فنهاهم الله عزّ وجلّ عن ذلك إعظاماً لنبيه (ﷺ) ، وأمرهم أن يقولوا: يا نبي الله ، يا رسول الله[624].

ط ـــ أن الله نهى الأمة أن يرفعوا أصواتهم فوق صوته (ﷺ) ولا يجهروا له بالقول ، كما هو الحال بين الناس ، حتى لا تحبطَ أعمالهم:

---

[620] حقوق النبي على أمته (401/2).
[621] المصدر نفسه (401/2).
[622] حقوق النبي على أمته (402/2).
[623] تفسير ابن كثير (306/3).
[624]



قال الله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ولاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ *﴾ [الحجرات : 2].

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي (ﷺ) افتقد ثابتَ بن قيس[625] ، فقال رجلٌ: يا رسول الله أنا أعلمُ لك عِلْمَه ، فأتاه ، فوجده جالساً في بيته منكِّساً رأسَه ، فقال له ما شأنك؟.

فقال: شر. كان يرفعُ صوته فوقَ صوت النبي (ﷺ) ، فقد حبط عمله ، وهو من أهل النار ، فأتى الرجلُ النبيَّ (ﷺ) فأخبره أنّه قال كذا وكذا ، فقال موسى[626] ، فرجع إليه المرة الاخرة ببشارةٍ عظيمة ، فقال: «اذهب إليه فقل له: إنكَ لستَ من أهل النار ، ولكنّك من أهلِ الجنَّة»[627].

قال عبد الله بن الزبير بن العوام: ما كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسمعُ رسول الله (ﷺ) بعد هذه الآية حتى يستفهمه[628].

ي ـــ أن الله أمرَ الأمةَ بأنهم إذا أرادوا أن يناجوه (ﷺ) بأن يقدّموا بين يدي نجواهم صدقةً ، ثم نسخ ذلك ، وأمرهم بالطاعة:

قال تعالى: ﴿ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ *﴾ [المجادلة : 12 ـ 13].

ك ـ ما وهبه الله له من المعجزات التي تميزت عن معجزات من قبله من الأنبياء:

فمعجزة سيد الأولين والاخرين هي القرآن العظيم ، الباقي إلى يوم الدين ، الذي لا تنضبُ معانيه ، ولا تفنى عجائبه، ولا تنقطع فوائده ، وهو المحفوظ ـ بحفظ الله له ـ من التغيير والتبديل والتحريف ، فيه دواء وشفاء ، ومواعظ وأحكام ، فيه خبرُ مَنْ سبقنا ، وأحوالُ منْ بعدنا ، وهو حبلُ الله المتين ، مَنْ امن به واتبعه رشد ، ومن تركه وضلّ عنه غوى وهلك ، وخاب وخسر ، فهو المعجزة الخالدة الباقية ما بقي الإنسان في هذه الدنيا ، بينما تصرّمت وانقرضت معجزاتُ مَنْ قبله من الأنبياء[629].

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): «ما مِنْ نبيّ إلا أُعْطِيَ من الآيات ما مِثْلُهُ امنَ عليه البشرُ، وإنّما كان الذي أوتيته وحياً أوحى الله لي ، فأرجو أن أكونَ أكثرَهم تابعاً يوم القيامة»[630].

---

[625] ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري الخزرجي.
[626] موسى بن أنس بن ثابت ، قاضي البصرة.
[627] البخاري رقم (4846).
[628]
[629] حقوق النبي على أمته (590/2).
[630] البخاري رقم (7274).



وكذلك فقد وجد من معجزاته ما هو أظهرُ في الإعجاز من معجزات غيره ، كتفجير الماء بين أصـــبعيه (ﷺ) ، فهو أبلغ في خرق العادة من تفجيره من الحجر ، لأن جنس الأحجار ممّا يتفجر منه الماء ، وكانت معجزته بانفجار الماء من بين أصابعه (ﷺ) أبلغُ من انفجار الماء من الحجر لموسى عليه الصلاة والسلام[631].

وعيسى عليه السـلام أبرأ الأكمه مع بقاء عينه في مقرها ، ورسـول الله (ﷺ) ردَّ العين بعد أن سـالت على الخدِّ ، ففيه معجزة من وجهين: إحداهما: التئامها بعد سيلانها. والأخرى: ردُّ البصر إليها بعد فقده منها[632].

فعن عاصم بن عمر بن قتادة عن أبيه عن جده قتادة أنه أُصيبتْ عينُه يومَ أُحدٍ فسالت حدقتُه على وجنته ، فأرادوا أن يقطعوها ، فسألوا النبيّ (ﷺ) فقال: «لا». فدعا به ، فغمز عينه براحته ، فكان لا يَدرِي أيّ عينيه أصيبتْ.[633]

والأمثلة في هذا الباب كثيرة وقد تطرّق إليها مَنْ كتب في (الدلائل) و(الخصائص)[634].

قال الشافعي: ما أعطى الله نبياً ما أَعطى محمّداً (ﷺ)[635].
وقال السيوطي: قال العلماء: ما أوتي نبيٌّ معجزة ولا فضيلة إلا لنبينا (ﷺ) نظيرها أو أعظم منها[636].

ل . أنه سيد ولد ادم يوم القيامة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): «أنا سيدُ ولدِ ادم يوم القيامة ، وأوّلُ من يَنْشَقُّ عنه القبر ، وأوّلُ شافعٍ وأوّلُ مشفّع»[637].
وسيادة النبي (ﷺ) للناس يوم القيامة تظهر واضحة جلية بما سيناله من الشرف العظيم يوم القيامة ، وعلى رأس ذلك الشرفِ شفاعتُه في أهل الموقف ، واختصاصه بذلك من بين الأنبياء والرسل[638].

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنّا مع النبي (ﷺ) في دعوةٍ ، فرُفعت إليه الذراعُ ـــ وكانت تُعْجِبُه ـــ فنهسَ منها نهسةً ، قال: «أنا سيد الناسِ يومَ القيامة ، هل تدرون بمن يجمع الله الأولين والاخرين في صعيد واحد فيبصرهم الناظر،

---

631 بداية السول في تفضيل الرسول ، للعز بن عبد السلام ص (41).
632 المصدر السابق ص (41 ـ 42).
633 أبو نُعيم في دلائل النبوة ص (418).
634 كدلائل النبوة للبيهقي والخصائص الكبرى للسيوطي.
635 اداب الشافعي ومناقبه لأبي حاتم ص (83).
636 الخصائص الكبرى (2/304).
637 مسلم رقم (7/59).
638 حقوق النبي على أمته (2/407).



ويســمعهم الداعي ، وتدنو منهم الشــمس ، فيقول بعض الناس: ألا ترون ما أنتم فيه إلى ما أبلغكم؟! ألا تنظرون إلى من شفع لكم إلى ربكم؟!.

فيقول بعض الناس: أبوكم ادم ، فيأتونه فيقولون: يا ادم أنت أبو البشــر ، خلقك الله بيده ، ونفخ فيك مِنْ روحه ، وأمر الملائكةَ فسجدوا لك ، وأسكنك الجنة ، ألا تشفع لنا إلى ربك؟! ألا ترى ما نحن فيه ما بلغنا؟!.

فيقول: ربي غَضِبَ غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولا يغضب بعده مثله ، ونهاني عن الشجرة فعصيت ، نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى نوح.
فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح أنت أول الرســل إلى أهل الأرض ، وسمّاك الله عبداً شــكوراً ، أما ترى ما نحن فيه؟! ألا ترى إلى ما بلغنا؟! ألا تشفع لنا إلى ربك؟.
فيقول: ربي غضبَ اليومَ غضباً لم يغضبْ قبله مثله ، ولا يغضبُ بعده مثله ، نفسي نفسي ، حتى ينتهوا إلى عيسى عليه السلام فيقول لهم: ائتوا النبيَّ (ﷺ) فيأتوني ، فأسجدُ تحت العرش ، فيقال: يا محمدُ ارفع رأسك ، واشفع تشفَّع، وسل تعطى»[639].

واشـتمل الحديث كذلك على خصـيصـة أخرى تدلُّ على تخصيصـه وتفضـيله (ﷺ)، وهي كونه أول شـافع ، وأول مشـفّع ، فهذا أمرٌ خص الله تعالى به رسـوله (ﷺ) ، إذ جعله الشـفيع يوم المحشـر في إتيان الرب جل جلاله لفصـل القضـاء بين عباده ، وهو المقام المحمود الذي لا يليقُ إلا له ، والذي يحيدُ عنه أولو العزم من الأنبياء والمرسـلين ، حتى تنتهي النوبة إليه ، فيكون هو المخصوص به صلوات الله وسلامه عليه[640].

وقد اتفق المســـلمون على أنه (ﷺ) أعظمُ الخلق جاهاً عند الله ، ولا جاه لمخلوق عند الله أعظمُ من جاهه ، ولا شفاعة أعظمُ من شفاعته[641].

م ـ أن الله جعل لواء الحمد بيد النبي (ﷺ) يوم القيامة:

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): «أنا سيّدُ الناس يوم القيامة ولا فخرَ ، ما مِنْ أحدٍ إلا هو تحت لوائي يوم القيامة ينتظِرُ الفرجَ ، وإن معي لواءَ الحمد ، أنا أمشـــي ويمشـــي الناس معي ، حتى اتي باب الجنة، فأســـتفتح ، فيقال: من هذا؟ فأقول محمد ، فيقال: مرحباً بمحمد ، فإذا رأيتُ ربي خررت له ســـاجداً أنظر إليه»[642].

---

639 البخاري رقم (3340).
640 حقوق النبي على أمته (2/408 . 409).
641 مجموع الفتاوي (1/145).
642 الحاكم في مستدركه (1/30).



وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): «أنا سيد ولد ادم يوم القيامة ، وبيدي لواء الحمد ولا فخر ، وما من نبي يومئذٍ ادمَ فمن سواه ، إلا تحت لوائي ، وأنا أول من تنشقُّ عنه الأرض ولا فخر»[643].

فهذه الخصيصةُ وغيرُها من الخصائص تدلُّ على علوِّ مرتبته (ﷺ) ، وعلوّ منزلته ، إذ لا معنى للتفضيل إلا التخصيص بالمناقب والمراتب[644].

ن ـ أنه أول من يجوز على الصراط ، وأول من يقرع باب الجنة ، وأول من يدخلها:

وهذه الأمور مما خُصَّ به النبي (ﷺ) عن باقي الأنبياء السابقين ، ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه الطويل قال: إن ناساً قالوا: يا رسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة؟... وفيه «يضرب الصراط بين ظهراني جهنم ، فأكونُ أول من يجوزُ من الرسلِ بأمته»[645].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): «أنا أكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة ، وأنا أول من يقرعُ بابَ الجنة»[646].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): «اتي باب الجنة يومَ القيامة فأستفتحُ ، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد ، فيقول: بك أُمرتُ لا أفتح لأحدٍ قبلك»[647].

643 مسند أحمد (2/3) ، سنن الترمذي رقم (3615) حسن صحيح.
644 غاية السول ص (35) حقوق النبي على أمته (410/2).
645 البخاري رقم (806).
646 مسلم (130/1).
647 مسلم (130/1).



5 ـ توقير النبي (ﷺ) في اله وأزواجه أمهات المؤمنين:

إنّ من توقير النبي (ﷺ) ورعاية جنابه وتبجيله وتعظيمه توقيرُ اله وذريته وأزواجه ، كما حضَّ عليه (ﷺ) ، وسلكه السلف الصالح رضوان الله عليهم.

أ ـ فآل بيت النبي (ﷺ) لهم من الحقوقِ ما يجبُ رعايتُها ، فإنَّ الله جعل لهم حقاً في الخمس والفيء:

قال تعالى: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *﴾ [الانفال : 41].

وقال تعالى: ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الحشر : 7].

وأمر بالصلاة عليهم مع الصلاة على رسول الله (ﷺ) ، ففي الحديث عن كعب بن عُجْرة رضي الله عنه قال: خرجَ علينا رسول الله (ﷺ) فقلنا: قد عرفنا كيف نسلّم عليك ، فكيف نصلّي عليك؟ قال: «قولوا: اللهم صل على محمد، وعلى ال محمد ، كما صليت على إبراهيم ، إنك حميد مجيد ، اللهم بارك على محمد ، وعلى ال محمد ، كما باركت على إبراهيم ، إنك حميد مجيد[648]».

فالصلاة على ال محمّدٍ حقٌّ لهم عند المسلمين ، وذلك سببٌ لرحمة الله تعالى لهم بهذا النسب ، كما تجبُ محبتهم لحبِّ رسول الله (ﷺ) ، ولأن محبتهم من محبة رسول الله (ﷺ) ، وأنّ نتولاهم ، ونحفظ فيه وصية رسول الله (ﷺ) حيث قال في يوم غدير خم: «وأهل بيتي أذكّركم الله في أهل بيتي ، أذكّركم الله في أهل بيتي».

فقيل لزيد بن أرقم: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟.

قال: نساؤه من أهل بيته ، ولكن أهل بيته مَنْ حُرِمَ الصدقةَ بعده.

قيل: ومن هم؟.

قال: الُ عليٍّ ، وال عقيل ، وال جعفر ، وال عباس.

قيل: كلُّ هؤلاء حُرِمَ الصدقة؟.

قال: نعم[649].

ولا تنكر الوصاة بأهل البيت والأمر بالإحسان إليهم واحترامهم وإكرامهم ، فإنهم من ذرية طاهرة من أشرف بيت وُجِدَ على ظهر الأرض فخراً وحسباً ، إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الجلية ، كما كان عليه سلفهم

---

[648] فتح الباري (532/8).

[649] مسلم (122/7 ـ 123).



العباس وبنوه وعلي وأهل بيته وذريته رضـــي الله عنهم أجمعين[650]. وكذلك ال عقيل وال جعفر كما في حديث مســـلم السابق.

قال رسول الله (ﷺ): «إن الله اصطفى كنانةَ من ولدِ إسماعيلَ ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريشٍ بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم»[651].
وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: ارقبوا محمّداً (ﷺ) في أهل بيته[652].

ب . أما زوجات النبي (ﷺ) رضوان الله عليهن أجمعين فيجب علينا أن نحفظ لهنّ حقهنّ في الحرمة والاحترام ،
والتوقير والإكرام والإعظام ، والمكـانة التي جعـل الله لهنّ ، فلقـد رفع الله مقـامهن ، وبوّأهن أعلى منزلـة عنـد جميع المؤمنين ، وهي منزلة الأمومة ، فجعلهنّ أمهات في التحريم والاحترام ، فقد قال تعالى: ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الاحزاب : 6].

شـــرّف الله تعالى أزواجَ نبيّه (ﷺ) بأن جعلهن أمهات المؤمنين ، أي في وجوب التعظيم والإجلال ، وحرمة النكاح على الرجال ، وحجبهنّ رضي الله تعالى عنهن بخلاف الأمهات[653].

وكيف لا تكون لهنّ هذه المنزلة والمكانة وهنّ اللائي اخترن الله ورسوله (ﷺ) والدار الاخرة، عندما نزلت ايتا التخيير، قال تعالى: ﴿ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا *﴾ [الاحزاب : 28 . 29].
وبعد اختيارهن رضي الله عنهن اللهَ ورسولَه والدّارَ الاخرة كرّمهن الله تبارك وتعالى ، وكافأهنّ ، فكان لهنّ ما أعد الله لهنّ من الأجر العظيم.

ثم ميّزهن عن نساءِ العالمين في العذاب والأجر فقال: ﴿ يَانِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [الاحزاب : 32]. يعني في الفضـــل والشـــرف ، وذلك لما منحهنَّ الله من صـــحبة نبيه (ﷺ) ، وعظيم المحل منه ، ونزول القرآن في حقهن[654].

ولقد تضـمنت سـورة الأحزاب كثيراً من الأمور التي أكرم الله بها أزواج النبي (ﷺ) ، مجازاة لهن على حسـن صـنيعهن في اختبارهنّ لله ورســوله والدار الاخرة ، فمن حقهنّ علينا أن نحفظَ لهنَّ هذه المكانة ، وذلك بأن نتولاهن ، وأن نثني

---

650 تفسير ابن كثير (113/4).
651 مسلم (58/7).
652 البخاري رقم (3713).
653 تفسير القرطبي (123/14).
654 تفسير القرطبي (177/14) بتصرف.

عليهن بما ورد في فضائلهن ، ومع ما كان لهن من دور في مؤازرة النبي (ﷺ) ونصرته ، وما كان لهنّ من دور بعد وفاته (ﷺ) في حفظ مسائل الدين ، ونشرها بين الأمة[655].

والمسلمون يتولّون أزواج رسول الله (ﷺ) أمهات المؤمنين ، ويؤمنون بأنهنّ أزواجه في الاخرة ، خصوصاً خديجة رضي الله عنها أم أولاده ، وأوّل من امن به ، وعاضده على أمره ، وكان له منها المنزلة العالية ، والصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما ، التي قال فيها النبي (ﷺ): «فضلُ عائشةَ على النساءِ ، كفضلِ الثريدِ على سائرِ الطعام»[656].

6 . توقيره (ﷺ) في أصحابه رضوان الله عليهم:

ومن توقيره وبرّه (ﷺ) توقيرُ أصحابه وبرُّهم ، ومعرفة حقهم ، والاقتداء بهم ، وحسنُ الثناء عليهم ، والاستغفارُ لهم، والإمساكُ عما شجر بينهم ، ومعاداةُ مَنْ عاداهم.. ولا يُذْكَرُ أحدٌ منهم بسوء ، ولا يُغْمَصُ[657] عليه أمرٌ ، بل تُذْكَرُ حسناتُهم وفضائلُهم وحميدُ سيرتهم ، ويُسْكَتُ عمّا وراء ذلك[658].

فهم أناس قد اختارهم الله وشرفهم بصحبة نبيه (ﷺ) ، وخَصَّهم في الحياة الدنيا بالنظر إلى النبيّ (ﷺ) ، وسماع حديثه من فمه الشريف ، وتلقي الشريعة وأمور الدين عنه ، وتبليغ ما بعث الله به رسوله (ﷺ) من النور والهدى على أكمل الوجوه وأتمّها ، فكان لهم الأجرُ العظيمُ لصحبتهم رسول الله (ﷺ) والجهادِ معه في سبيل الله ، وأعمالهم الجليلة في نشر الإسلام والدعوة إليه ، ولهم من الأجر مثل أجور مَنْ بعدهم ، لأنّهم الواسطة بينهم وبين رسول الله (ﷺ) ، ومن دعا إلى هدًى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقصُ ذلك من أجورهم شيئاً ، ولقد أوجبت الحالُ التي كانوا عليها من الهجرةَ والجهادَ والنُّصرةَ ، وبذلَ المهَج والأموال ، وقتل الاباء والأولاد ، والمناصحة في الدين ، وقوة الإيمان واليقين: القطع على عدالتهم ، وأنهم أفضل من جمع المعدِّلين والمزكّين ، الذين يجيئون من بعدهم أبدَ الابدين[659].

ولقد أثنى ربّهم عليهم أحسنَ الثناء ، ورفع ذكرهم في التوراة والإنجيل والقرآن ، ووعدهم المغفرة والأجر العظيم ، فقال تعالى: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا *﴾ [الفتح : 29].

---

[655] حقوق النبي على أمته (2/483 . 484).
[656] مجموع الفتاوى (3/154) البخاري رقم (3770).
[657] لا يغمص: لا يعاب ولا ينقص في أمر من أموره.
[658] الشفا (2/611 . 612).
[659] حقوق النبي على أمته (2/486).



وأخبر في ايةٍ أُخرى برضاه عنهم ، ورضاهم عنه ، فقال تعالى: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *﴾ [التوبة : 100]. وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح : 18].

وأمر النبيُّ بالعفو عنهم ، والاستغفار لهم ، فقال: ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [آل عمران: 159].

وأمره بمشاورتهم تطييباً لقلوبهم ، وتنبيهاً لِمَنْ بعدهم من الحكّام على المشاورة في الأحكام فقال: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: 159].
وندب مَنْ جاء بعدهم إلى الاستغفار لهم ، وألا يجعلوا في قلوبهم غِلاًّ للذين امنوا فقال: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ *﴾ [الحشر : 10].

وأثنى رسول الله (ﷺ) عليهم ، ونهى عن النيل منهم ، فقال (ﷺ): «لا تسبّوا أصحابي ، فلو أنّ أحدكم أنفق مثل أُحُدٍ ذهباً ما بلغَ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه»[660].
كما شهد (ﷺ) بكونهم خيرَ أمته التي هي خيرُ الأمم ، فقال (ﷺ): «خير الناس قرني» فالصحابة كلّهم عدولٌ بتعديلِ الله لهم ، وثنائه عليهم ، وثناء رسوله (ﷺ) ، قال النووي: الصحابةُ كلُّهم عدولٌ مَنْ لابسَ الفتن وغيرهم بإجماع مَنْ يعتدّ به[661].

وقال ابن حجر: اتفق أهل السنة على أنّ الجميعَ عدولٌ ، ولم يخالِفْ في ذلك إلا شذوذ من المبتدعة[662].

وعن الإمام أبي زرعة الرازي قال: إذا رأيتَ الرجلَ ينتقصُ أحداً من أصحاب رسول الله (ﷺ) فأعلم أنّه زنديق، وذلك أنَّ رسول الله (ﷺ) عندنا حق ، والقرآن حق ، وإنّما أدى إلينا هذا القرآن والسنن أصحابُ رسول الله (ﷺ) ، وإنّما يريدون أن يجرّحوا شهودنا ، ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرحُ بهم أولى، وهم زنادقة[663].

---

660 البخاري رقم (3673).

661 تدريب الراوي ، للسيوطي (214/2).

662 الإصابة (17/1).

663 الكفاية ، للخطيب البغدادي ص (97).



7 . الصلاة والسلام على النبي:

ومن حقوق الرسول (ﷺ) الثابتة التي تعدُّ جانباً مهماً من جوانب تعظيمه وتوقيره عليه الصلاة والسلام ، فقد أمرنا الله عز وجل بذلك فقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا*﴾ [الاحزاب : 56] ، فهذه الآية هي الأصل في بيان هذا الحقّ ، وأجمع أهل العلم على أنّ فيها من تعظيم الرسول (ﷺ) وبيانِ منزلته ، والتنويهِ بمقداره ما ليس في غيرها[664].

والمقصود من هذه الآية أنّ الله سبحانه وتعالى أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه (ﷺ) عنده في الملأ الأعلى ، بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين ، وأنّ الملائكة تصلي عليه ، ثم أمر تعالى أهلَ العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه ، ليجتمعَ الثناءُ عليه من أهل العالمين: العلوي والسفلي جميعاً[665]، وبهذه الآية شرّف الله نبيّه (ﷺ) في حياته ، وبعد موته ، وأظهر للعالمين منزلته عنده[666].

وقد تضافرت الأدلة النقلية الصحيحة على مشروعية الإكثار من الصلاة على النبي (ﷺ) في سائر الأوقات وكثير من الأماكن ، وتتأكد تلك المشروعية في مواطن إما وجوباً وإما استحباباً مؤكداً[667].

ومن هذه المواطن في الصلاة في التشهد الأول ، وفي التشهد الأخير منها ، وفي اخر القنوت ، وبعد التكبيرة الثانية من صلاة الجنازة ، وفي الخطب ، كخطبة الجمعة والعيدين ، والاستسقاء ، وغيرها ، وبعد إجابة المؤذن ، وعند الدعاء، وعند دخول المسجد ، وعند الخروج منه ، وعلى الصفا والمروة ، وعند اجتماع القوم قبل تفرقهم ، وعند ذكره (ﷺ)[668].

ولصلاة العبد على النبي (ﷺ) أجرٌ عظيم ، وفضلٌ عميم ، طالما حصّله الذاكرون المصلون ، وضيعه الغافلون[669].

إنّ طلب الصلاة من الله على رسوله (ﷺ) هو من أجلّ أدعية العبد ، وأنفعها له في دنياه واخرته[670].

---

664 حقوق النبي على أمته (514/2).

665 تفسير ابن كثير (514/3).

666 الواسطة بين الله وخلقه ص (213).

667 المصدر نفسه ص (214).

668 هناك مواطن أخرى بيّنها ابن القيم في كتابه (جلاء الافهام في الصلاة والسلام على خير الأنام) والسخاوي في كتابه (القول البديع في الصلاة والسلام على الحبيب الشفيع).

669 الواسطة بين الله وخلقه ص (214).

670 الواسطة بين الله وخلقه ص (214) ، نقلاً عن بدائع الفوائد.

والأحاديث التي جاءت في فضل الصلاة على النبي (ﷺ) كثيرةٌ منها:

حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضـــي الله عنهما أنه سمع النبي (ﷺ) يقول: «إذا سمعتم المؤذّنَ فقولوا مثل ما يقول ، ثم صـلّوا علي ، فإنّه مَنْ صـلّى عليَّ صـلاةً ، صـلّى الله عليه بها عشـراً ، ثم سـلوا ليَ الوسـيلة ، فإنَّها منزلةٌ في الجنة، لا تنبغي إلاّ لعبدٍ من عبادِ اللهِ ، وأرجو أن أكونَ أنا هو ، فمن سأل ليَ الوسيلةَ حلّتْ له الشفاعة»[671].

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قلتُ: يا رسول الله إنِّي أكثرُ الصلاة عليك ، فكم أجعلُ لك من صلاتي؟.

قال: «ما شئتَ».

قلت: الربع؟

قال: «ما شئت، وإن زدتَ فهو خيرٌ».

قلت: النصف؟

قال: «ما شئتَ، وإنْ زدتَ فهو خير».

قلت: الثلثين؟.

قال: «ما شئتَ، وإنْ زدتَ فهو خيرٌ».

قلت: أجعلُ لك صلاتي كلها ؟.

قال: «إذن تكفى همّك، ويُغْفَرُ لكَ ذنبُك»[672].

وبوقفة يسيرة مع هذه الأحاديث وغيرها يعرِفُ المرءُ عظيمَ فضل الصلاة على النبي (ﷺ) وأنّه يجني بامتثال هذا الأمر ثمراتٍ نافعةٍ ، ويحصـل على فوائدَ جمةٍ في الدنيا والاخرة ، وذلك لأنّ صـلاتنا على النبي (ﷺ) امتثالٌ لأمر الله أولاً ، وموافقة له سـبحانه وتعالى في الصـلاة على النبي (ﷺ) ثانياً ، وكذلك موافقة ملائكته الكرام عليهم السـلام ، وإن اختلفت تلك الصلوات ، فصلاتُنا عليه دعاءٌ وسؤالٌ ، وصلاةُ الله عليه ثناءٌ وتعظيمٌ وتشريفُ ، وصلاة الملائكة عليه رقةٌ تبعث على استدعاء الرحمة[673].

---

671 مسلم (85/4).

672 سنن الترمذي (646/4) حسن صحيح.

673 الشفا (50/2) ، فتح الباري (532/8).



وقد ذكر العلامة ابن القيم في الباب الرابع من كتابه الرائع «جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام» عدداً من تلك الفوائد الجمة ، والثمرات النافعة من أهمها:

* امتثال أمر الله.

* حصول عشر صلوات من الله على المصلي مرة.

* أنه يُرفع عشر درجات.

* أنه يُكتب له عشر حسنات.

* أنه يُمحى عنه عشر سيئات.

* أنه يُرْجَى إجابة دعائه إذا قدّمها أمامه، فهي تصاعِدُ الدعاءَ إلى عند رب العالمين.

* أنها سببٌ لشفاعته (ﷺ) إذا قرنها بسؤالِ الوسيلةِ له.

* أنها سببٌ لغفران الذنوب.

* أنها سببٌ لكفايةِ الله العبدَ ما أهمّه.

* أنها سببٌ لقرب العبد منه (ﷺ) يومَ القيامةِ.

* أنها سببٌ لدوام محبّته للرسول (ﷺ)، وزيادتها، وتضاعفها.

* أنّ الصلاة عليه (ﷺ) سببٌ لمحبته للعبد.

* أنها سببٌ لهدايةِ العبدِ وحياةِ قلبه.

* أنها سببٌ لعرض المصلي عليه (ﷺ) وذكره عنده.

* أنّ الصلاة عليه (ﷺ) أداءٌ لأقل القليل من حقه، وشكرٌ له على نعمته التي أنعم الله بها علينا.





* أنّها متضمّنةٌ لذكر الله وشكره، ومعرفة إنعامه على عبده بإرساله[674].

هذه بعض الفوائد والثمار للصلاة على النبي (ﷺ).

والأحاديث التي بينت الفوائد كثيرة منها:

قال رسول الله (ﷺ): «من صلّى علي واحدةً صلى الله عليه عشراً»[675].

وقال رسول الله (ﷺ): «من صلّى علي صلاةً واحدةً صلّى الله عليه عشرَ صلوات، وحطَّ عنه عشرَ خطيئات»[676].

وقال رسول الله (ﷺ): «إنّ أولى الناسِ بي يومَ القيامةِ أكثرُهم عليَّ صلاةً»[677].

وكما وردت أحاديثُ ترغّب في الصلاة على النبي (ﷺ) ، وتبيّن فضلها ، فقد وردت أحاديثُ تذمُّ تاركَ الصلاة عليه (ﷺ) ، منها:

ما رواه أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): «رَغِمَ أنفُ رجلٍ ذُكِرْتُ عندَه فلم يصلِّ عليَّ، ورَغِمَ أنفُ رجلٍ دَخَلَ عليه رمضانُ، ثم انسلخ قبلَ أن يُغْفَرَ له ، ورَغِمَ أنفُ رَجُلٍ أدركَ عنده أبواه الكِبَرُ ، فلم يُدْخلاهُ الجنة»[678].

وروى الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما قال: قال رسول الله (ﷺ): «البخيلُ مَنْ ذكرتُ عنده فلم يصلِّ عليَّ»[679].

وروى ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله (ﷺ): «مَنْ نسيَ الصلاةَ عليَّ أَخْطَأَ طريقَ الجنّة»[680].

وفي الختام نرجو من الله تعالى أن يرزقنا حُسْنَ الاقتداء، والحِرْصَ على اتباع النبي (ﷺ)، والقيامَ بحقوقه، وأن يحشرنا مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً. واخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

674 جلاء الإفهام (344/335) بتصرف.

675 مسلم (17/2).

676 صحيح ابن حبان: موارد (2390) ، النسائي في عمل اليوم والليلة رقم (63).

677 لا بأس بسنده فتح الباري (167/11).

678 سنن الترمذي رقم (3545) صحيح ابن حبان موارد رقم (2387).

679 سنن الترمذي رقم (3546) صحيح ابن حبان موارد رقم (2388).

680 سنن ابن ماجه رقم (895) وقال الألباني حسن صحيح صحيح ابن ماجه (150/1).



الخاتمة

وبعدُ: فهذا ما يسّره الله لي من الحديث عن الإيمان بالرسل والرسالات في هذا الكتاب، وقد سمّيته «الإيمان بالرسل والرسالات»، فما كان فيه من صواب فهو محضُ فضلِ الله عليَّ، فله الحمد والمنة، ما كان فيه من خطأ، فأستغفرُ الله تعالى، وأتوب إليه، والله ورسوله بريءٌ منه، وحسبي أني كنتُ حريصاً ألاّ أقع في الخطأ، وعسى ألا أحرم من الأجر.

أدعو الله أن ينفع بهذا الكتاب بني البشر أينما وجدوا، وأن يكونَ سبباً في الهداية والتعليم والتذكير، وردِّ الشبهات عَنْ مَنْ اصطفاهم الله لدعوته الخالدة.

كما أرجو من الله تعالى أن يطرح البركة والقبولَ في كلِّ ما أكتب، وأن يجعل كلَّ حرف وكلمة وجملة وصفحة وكتاب خالصاً لوجهه الكريم وعلى خطى ومنهج سيد المرسلين.

وأرجو من القارىء الكريم ألا ينسى العبدَ الضعيف من الدعاء بالسداد والتوفيق، فإنَّ دعوة الأخ لأخيه بظهر الغيب مستجابةٌ إن شاء الله تعالى.

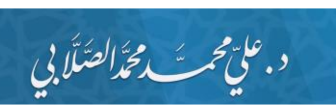
وأختم هذا الكتاب بقول الله تعالى: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ *﴾ [الحشر : 10].

وممّا زادني شَرَفاً وتِيْهاً — فَكِدْتُ بِأَخْمَصِي أَطَأُ الثُّرَيا
دُخْولِي تَحْتَ قولِكَ يا عِبَادِي — وَأَنْ صَيَّرْتَ أَحْمَدَ لِي نَبِيّا

سبحانك اللهم وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك[681].

* * *

[681] تشرف بالعناية بهذا الكتاب وما سبقه من هذه السلسلة المباركة (أركان الإيمان) الفقير إليه تعالى حسن السماحي سويدان غفر الله له ولوالديه بمنّه وكرمه. دمشق غرة ربيع الأول 1432هـ = 4 شباط . فبراير 2011م.





فهرس الموضوعات


سلسلة أركان الإيمان ٤
الإيمان بالرسل والرسالات


د. علي محمد محمد الصلابي

كتب صدرت للمؤلف:

1. السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث.
2. سيرة الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
3. سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
4. سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
5. سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
6. سيرة أمير المؤمنين الحسن بن علي بن أبي طالب. شخصيته وعصره.
7. الدولة العثمانية: عوامل النهوض والسقوط.
8. فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم.
9. تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا.
10. تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي.
11. عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين.
12. الوسطية في القرآن الكريم.
13. الدولة الأموية ، عوامل الإزدهار وتداعيات الإنهيار.
14. معاوية بن أبي سفيان ، شخصيته وعصره.
15. عمر بن عبد العزيز ، شخصيته وعصره.
16. خلافة عبد الله بن الزبير.
17. عصر الدولة الزنكية.
18. عماد الدين الزنكي.
19. نور الدين محمود.
20. دولة السلاجقة.
21. الإمام الغزالي وجهوده في الإصلاح والتجديد.
22. الشيخ عبد القادر الجيلاني.
23. الشيخ عمر المختار.
24. عبد الملك بن مروان بنوه.
25. فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة.
26. حقيقة الخلاف بين الصحابة.
27. وسطية القرآن في العقائد.
28. فتنة مقتل عثمان.

29 . السلطان عبد الحميد الثاني.

30 . دولة المرابطين.

31 . دولة الموحدين.

32 . عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج.

33 . الدولة الفاطمية.

34 . حركة الفتح الإسلامي في الشمال الإفريقي.

35 . صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس.

36 . استراتيجية شاملة لمناصرة الرسول (ﷺ): دروس مستفادة من الحروب الصليبية.

37 . الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء.

38 . الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة) والأيوبيون بعد صلاح الدين.

39 . المشروع المغولي عوامل الانتشار وتداعيان الانكسار.

40 . سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك.

41 . السلطان محمد الفاتح.

42 . الشورى فريضة إسلامية.

سلسلة أركان الإيمان:

43 . الإيمان بالله جل جلاله.

44 . الإيمان بالملائكة.

45 . الإيمان بالقرآن والكتب السماوية.

46 . الإيمان بالرسل والرسالات.

47 . الإيمان باليوم الاخر. 48 . الإيمان بالقدر.



سلسلة أركان الإيمان ٦

الإيمان بالقدر

د. علي محمد محمد الصلابي





الإيمان بالقدر

" وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا"

(الفرقان: 2)

سلسلة أركان الإيمان

3

الإيمان بالقدر

تأليف

د.على محمد محمد الصَّلاَّبي



بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى كل إنسان في الوجود يبحث عن حقيقة الإيمان بالقدر

أهدي هذا الكتاب سائلاً المولى عز وجل بأسمائه الحسنى وصفاته العُلا أن يكون خالصاً لوجهه الكريم.

قال تعالى:" فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا" (الكهف: 110)



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ" (آل عمران: 102) .

" يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا" (النساء: 1) "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا*يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا" (الأحزاب: 70 . 71) .

يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت ولك الحمد بعد الرضى.

أما بعد: هذا الكتاب يتحدث عن القدر وقد سرت على هدي القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة في بيان هذا الركن من الإيمان وابتعدت كل البعد عن مناهج الفرق الكلامية المذاهب الفلسفية وحرصت على أن أبين ما كان عليه رسول الله وأصحابه من صفاء ووضوح في أصول الإيمان.

وهذا الكتاب يستهدف مخاطبة العقول، وأحياء القلوب وتحريك الفطر، وربط الناس بالخالق العظيم وبيان ما يجب معرفته على المكلف النبيل فضلاً عن الفاضل الجليل وما ورد في القضاء والقدر والحكمة والتعليل فهو أسمى المقاصد، والإيمان به قطب رحى التوحيد ونظامه، ومبدأ الدين المبين وختامه فهو أحد أركان الإيمان وقاعدة أساس الإحسان التي يرجع إليها ويدور في جميع تصاريفه عليها فالعدل قوام الملك،





والحكمة مظهر الحمد، والتوحيد متضمن لنهاية الحكمة وكمال النعمة، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، فبالقدر والحكمة ظهر خلقه وشرعه المبين " أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ" (الأعراف: 54) .

ولقد وقفت على تجارب علماء كبار ممن خاضوا في بحر علم الكلام وكادوا أن يهلكوا لولا رحمة الله بهم وقدموا لنا خلاصة تجاربهم المريرة لكي نستفيد منها الدروس والعبر، وحثوا الناس على التمسك بالكتاب والسنة وهدي الصحابة الكرام ومن هؤلاء:

1ـ أبو الحسن الأشعري: قال: ..... قولنا الذي نقول به وديانتنا التي ندين بها التمسك بكتاب ربنا عز وجل وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم وما روى عن الصحابة التابعين، وأئمة الحديث ونحن بذلك معتصمون[1] .

2ــ أبو حامد الغزالي: قال: إن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا محتاجين إلى محاجة اليهود والنصارى في إثباة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فما زادوا على أدلة القرآن شيئاً وما ركبوا ظهر اللّجاج في وضع المقاييس العقلية وترتيب المقدمات كل ذلك لعلمهم بأن ذلك مثار الفتن ومنبع التشويش ومن لا يقنعه أدلة القرآن لا يقمعه إلا السيف والسنان، فما بعد بيان الله بيان[2] .

3ـ إمام الحرمين الجويني: قال: لقد خضت البحر الخضم، وتركت أهل الإسلام وعلومهم وخضت في الذي نهوني عنه، والآن إن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لفلان، وها أنا أموت على عقيدة أمي[3] .

4ـ الفخر الرازي (606هـ): قال:

نهاية إقدام العقول عقال   وأكثر سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وحشة من جسومنا   وحاصل دنيانا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا   سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

وكم من جبال قد علت شرفاتها   رجال فماتوا والجبال جبال

---

(1) الإبانة لأبي الحسن الأشعري ص17.

(2) عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين للصَّلاَّبي ص159.

(3) إلجام العوام عن علم الكلام للغزالي ص89 . 90.

لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، اقرأ في الإثبات " الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى" (طه: 5) " إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ" (فاطر: 10) وأقرأ في النفي " وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا" (طه: 110) ومن جرّب مثل تجربيتي عرف مثل معرفتي[1] .

فهذا الكتاب يتحدث عن القدر بعيداً عن صخب الأهواء وأغشية الشبهات وضجيج المجادلات، فقد طالعت ركاماً هائلاً من الميراث التاريخي في هذا الباب فرأيت من الفائدة تركها والعودة إلى عصر النبوة والصحابة للوصول إلى يقين ذلك الجيل المبارك وطمأنينته والذي نهل من المعين الصافي الذي تكفل الله بحفظه والمتمثل في كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال تعالى:" وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" (الأنعام: 153) . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة رسوله[2] . وقال صلى الله عليه وسلم: من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد[3] .

ففي هذا الكتاب

كان الحديث في المبحث الأول: عن القضاء والقدر في اللغة والشرع والفرق بين القضاء والقدر، وأدلة القرآن على وجوب الإيمان به، وحديث القصص القرآني عنه، كقصة نوح وإبراهيم، ويوسف، وموسى وزكريا ومريم، وصاحب الجنتين، والأدلة من السنة النبوية على وجوب الإيمان به والوصايا النبوية لتدريب النفس على الرضا بالقضاء والقدر ونهى الرسول صلى الله عليه سلم عن الخوض فيه، حديث

(1) عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين ص159.

(2) رواه مالك في الموطأ بلاغا في ك القدر (2/ 898) .

(3) مسلم، ك الأقضية (2/ 1343 . 1344) .



الصحابة عنه، ومعنى تقسيم القدر إلى خير وشر.

وفي الفصل الثاني: كان التفصيل عن مراتب القدر، كالعلم، والكتابة، والإرادة والمشيئة، والخلق.

وتضمن الفصل الثالث: التقادير الخمس كالتقدير الأزلي، وتقدير يوم الميثاق، والعمري والحولي، واليومي، وتضمن أيضاً: أنواع الإرادة، الكونية والشرعية والفرق بينهما.

في الفصل الرابع: كان الحديث عن لا حول ولا قوة إلا بالله، وعن فضلها ومعناها وما تضمنته من معان عقدية عظيمة، كالإقرار بالتوحيد، والتوكل على الله وتفويض الأمور إليه، كما كان الحديث في هذا المبحث عن الاحتجاج بالقدر على المعاصي.

وفي الفصل الخامس، تكلمت عن الهداية والإضلال ومراتب الهداية، كالهداية العامة، وهداية الإرشاد والدعوة والبيان، وهداية التوفيق والإلهام والهداية إلى طريق الجنة كما أشرت لأسباب الهداية التي ذكرت في القرآن كالمحافظة على الفطرة الإنسانية نقية صافية، واستعمال السمع والبصر والعقل، والعلم، والإيمان، والاهتداء، والدعاء، والاعتصام بالله، والاتباع والطاعة، والخشية والإنابة، والبراءة من الكافرين، والجهاد.

كما أشرت إلى الضلال ومراتبه، وحرية العبد في اختياره للهدى والضلال، كما لخصت أهم أسباب الضلال، كعدم استخدام الإنسان مواهبه في التفكر في آيات الله، والذنوب والمعاصي، واتباع الشيطان، والجهل واتباع الظن، والجدال في الله وآياته بغير علم، والغفلة ، والتعصب بالباطل، والتقليد المذموم، والشك والريب، والجحود، والتأبي والعناد والتعنت، والكبر، وحب الدنيا والاغترار بها واتخاذها لهواً، واتباع الهوى، والإستهزاء بآيات الله ورسله والمؤمنين، والكفر، والغلو في الأنبياء والصالحين، وصحبة السوء والبيئة الفاسدة، والتشبه بالضالين، والابتداع في الدين.

وفي الفصل السادس: تكلمت عن سنة الله في الأخذ بالأسباب وأشرت إلى الأخذ بالأسباب في القرآن الكريم، كالأسباب التي اتخذها ذو القرنين للتمكين لدين الله عز وجل، كالدستور العادل والمنهج





التربوي للشعوب، والاهتمام بالعلوم المادية والمعنوية وتوظيفها في الخير وفقهه في احياء الشعوب وأخلاقه القيادية، وكالأسباب التي اتخذها سليمان، كفقه في إدارة الدولة من دوام المباشرة لأحوال الرعية، وعمل قوانين تضبط الأمور، والاهتمام بالأجهزة الأمنية، وبنصر دعوة التوحيد والترفع عن حطام الدنيا والمقدرة على اتخاذ القرار الصحيح، والاستفادة من المهارات والمواهب.

كما كان الحديث عن الأسباب والتوكل وبيان أن القول بالتنافي بين التوكل والأخذ بالأسباب جهل بالدين، وأهمية التوازن بين مقامي التوكل والأخذ بالأسباب وعن العلاقة بين الأسباب والمسببات، وتأثير السبب في المسبب، وشرح حديث رسول الله صلى عليه وسلم: لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر، وعلاقة الجزاء الأخروى بالأسباب، والحث على طلب الأسباب في الأمور المكفولة، ومراعاة صورة الأسباب في الخوارق، وتهيئة الأسباب لوقوع مراد الله عز وجل، وكون الأسباب تعمل مع تحقق الشروط وانتقاء الموانع، وبيان أن إنكار قانون السببية يؤدي إلى إبطال حقائق العلوم، وشرح مقولة منازعة الأقدار بالأقدار، والعلاقة بين الدعاء والقدر.

وفي الفصل السابع: كان الحديث عن العدل الإلهي وسنة الله في الجزاء بجنس العمل، وأن الأصل في العقاب المماثلة، وصور من الجزاء بجنس العمل في الدنيا، كالاستهزاء بالمنافقين والسخرية منهم في الحياة الدنيا، وتسليط الظالم على مثله، واستئصال الله لمن أراد أيذاء رسله وأوليائه، ونصر الله منوط بنصرته للدين والحق، وسلب النعمة عمن منعها مستحقيها، وتيسير الله لمن يسَّر على عباده.

وكان الحديث عن الجزاء بجنس العمل في الآخرة، كمعاملة أهل الفضل بالفضل، وترك الإنسان وإهماله في العذاب، كما أهمل الحق ولم يتبعه، والتهكم بالكفار والمنافقين كما كانوا يتهكمون بالمؤمنين في الدنيا، كما كان الحديث عن الجزاء بجنس العمل بين العباد.



وفي المبحث الثامن: تحدثت عن الحكمة والتحسين والتقبيح وتكليف ما لا يطاق، فكان الحديث عن الحكمة في أفعال الله وشرعه، وفعل الأصلح، ومعنى الاستطاعة وتكليف بما لا يطاق.

وفي المبحث التاسع تكلمت عن سنة الله في الآجال، وقدرة الله وثمار الإيمان بالقدر والتي كان من أهمها؛ الإقدام على عظائم الأمور، والقضاء على الكسل والتواكل والثبات في مواجهة الطغيان، والصبر عند نزول المصائب والعز في طلب الحوائج والسكينة وراحة النفس وسكون القلب، والخوف والحذر من الله، والخلاص من الشرك والقضاء على الأمراض التي تعصف بالمجتمعات، والاستعانة بالله، والاعتماد على الله وحده، والاعتراف بفضله، والاستغناء بالخالق عن الخلق، والاعتراف بالذنب والمسارعة للمغفرة والتوبة.

ثم كانت الخاتمة.

هذا وقد انتهيت من هذا الكتاب 2010/3/1م الموافق 15/ربيع الأول/1431هـ والفضل لله من قبل ومن بعد، وأسأله سبحانه بأسمائه الحسنى، وصفاته العلا أن يجعل عملي لوجهه خالصاً ولعباده نافعاً، ويشرح صدور العباد للانتفاع به ويبارك فيه بمنّه وكرمه وجوده، وأن يثيب إخواني الذين أعانوني من أجل إتمام هذا الجهد المتواضع ونرجو من كل مسلم يصله هذا الكتاب أن لا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه بالدعاء في ظهر الغيب.

قال تعالى:" رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ" (النمل: 19) . قال تعالى:" مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" (فاطر: 2) .قال تعالى:" سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ*وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ*وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" (الصافات: 180 ـ 182) .

"سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك أتوب إليك وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين"[1] .

Mail: info@alsallaby.com

Website: www.alsallaby.com

وكتبه

الدكتور علي محمد محمد الصلابي

(1) الإخوة الكرام: يسرني أن تصل ملاحظاتكم وانطباعاتكم حول هذا الكتاب وغيره من كتبي وأطلب من إخواني الدعاء في ظهر الغيب بالإخلاص لله والصواب لخدمة دينه العظيم.

الفصل الأول

القضاء والقدر

ومعناهما في اللغة والشرع

والفرق بين القضاء والقدر

أولاً: القضاء والقدر لغة وشرعاً .

ثانياً: أدلة القرآن على وجوب الإيمان بالقدر.

ثالثاً: القصص القرآني والإيمان بالقدر .

رابعاً: الأدلة من السنة على وجوب الإيمان بالقدر

خامساً: وصايا نبوية لتدريب النفس على الرضا بالقضاء والقدر.

سادساً: نهي الرسول صلى الله عليه وسلم عن الخوض في القدر .

سابعاً: الإيمان بالقدر في عهد الخلفاء الراشدين .

ثامناً: تقسيم القدر إلى خير وشر.



الفصل الأول

القضاء والقدر

ومعناهما في اللغة والشرع والفرق بين القضاء والقدر

أولاً: القضاء والقدر لغة وشرعاً:

1ـ معنى القضاء لغة: إحكام أمر واتقانه وإنفاذه لجهته[(1)] ، وقال ابن الأثير في النهاية: القضاء في اللغة على وجوه مرجعها إلى انقطاع الشيء وتمامه فمعنى القضاء في اللغة هو إحكام الشيء، وإتمام الأمر، وهذا هو معنى القضاء، وإليه ترجع جميع معاني القضاء الواردة في اللغة، وقد يأتي بمعنى القدر[(2)] .

وقد ورد لفظ القضاء ومشتقاته كثيراً في القرآن الكريم، وكل معانيه التي قد تأتي متداخلة أحياناً . ترجع إلى الأصل السابق فمن المعاني التي ورد بها:

ـ معنى الأمر: قال تعالى:"وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّتَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ" (الإسراء: 23) أي: أمر سبحانه وتعالى . بعبادته وحده لا شريك له[(3)] .

ـ معنى الإنهاء: ومنه قوله تعالى:"وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ" (الحجر: 66) أي: تقدمنا إليه وأنهينا[(4)].

(1) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (5 / 99) .

(2) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ص 422.

(3) تفسير الطبري (15 / 62) ، القضاء والقدر د. المحمود ص 34.

(4) زاد المسير لابن الجوزي (4 / 407) ، القضاء والقدر ص 43.



معنى الحكم: قال تعالى:"فَاقْضِ مَاأَنتَ قَاضٍ" (طه: 72) أي: اصنع واحكم وافعل ما شئت وما وصلت إليه يدك[1] .

معنى الفراغ: ومنه قوله تعالى: " فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ" (فصلت : 12) أي : فرغ من تسويتهن سبع سماوات في يومين[2] ، ومنه قوله تعالى:"فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ" (القصص: 29) أي: فرغ من الأجل الأوفى والأتم[3] .

ومعنى الأداء: ومنه قوله تعالى:"فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ" (البقرة: 200) أي: أديتموها وفرغتم منها[4] .

ومعنى الإعلام: ومنه قوله تعالى:"وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ" (الإسراء: 4) أي: تقدمنا وأخبرنا بني إسرائيل في الكتاب الذي أنزل إليهم أنهم يفسدون في الأرض مرتين[5] .

ومعنى الموت: يقال: ضربه فقضى عليه، أي: قتله[6] ، قال تعالى:"فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ" (القصص: 15) أي: مات[7] .

وهناك اشتقاقات أخرى ذكرتها كتب اللغة[8] ، ومن خلال عرض هذه المعاني يتبين ما بين المعنى اللغوي والمعنى الشرعي من رابط قوي، فتقدير الله للأمور وكتابته لذلك، وكونها تجري بحكمة ودقة على حسب ما أرادها سبحانه وقضاها كل هذه المعاني يوحي بها المعنى اللغوي بمختلف معانيه الورادة[9] .

2. معنى القدر لغة : فالقاف والدال والراء أصل صحيح يدل على مبلغ الشيء

(1) تفسير ابن كثير (5 / 298) ، القضاء والقدر د. عبد الرحمن المحمود ص 43 فيه تفصيل.

(2) تفسير الطبري (24 / 99) ، ابن كثير (7 / 156) .

(3) معالم التنزيل للبغوي (5 / 172) .

(4) تفسير الطبري (2 / 295) ، القضاء والقدر للمحمود ص 35.

(5) تفسير الطبري (15 / 20. 21) .

(6) لسان العرب (5 / 187) ، القضاء والقدر للمحمود ص 35.

(7) القضاء والقدر للمحمود ص 35.

(8) الصحاح للجوهري (6 / 2463) ، تاج العروس (10 / 396) .

(9) القضاء والقدر ص 36.

وكنهه ونهايته[1] . ويطلق القدر على الحكم والقضاء أيضاً ومن ذلك حديث الإستخارة "فاقْدُرْه ويسرّه لي "[2] .

والقدَر بتحريك الدال أو تسكينها معناه الطاقة قال تعالى:" وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ"(البقرة: 236) : طاقته.

ويأتي أيضاً القدر بمعنى التضييق، قال تعالى:" وَأَمَّا إِذَا مَاابْتَلَاهُ فَقَدَرَعَلَيْهِ" (الفجر: 16) . يعني فضيق عليه، ومنه قوله تعالى في حق نبيه يونس ـ عليه السلام ـ "فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَعَلَيْهِ" (الأنبياء: 87) أي: لن نضيق عليه، وليس كما ظن بعض الناس أن يونس ـ عليه السلام ـ شك في قدرة الله كلا. " فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَعَلَيْهِ" أي: لن نضيق عليه[3] .

وقدرت الشيء أقدره من التقدير، ومنه الحديث: "فإن غم عليكم فأقدروا له[4] ". أي قدروا له عدد الشهر حتى تكملوه ثلاثين يوماً، وقيل: قدروا له منازل القمر، فإنه يدلكم على أن الشهر تسع وعشرون أم ثلاثون[5] .

وقدر كل شيء ومقداره: مقياسه، يقال: قدره به قدراً إذا قاسه، والقدر من الرحال والسروج: الوسط[6] .

ويتبين لنا من التعريف اللغوي للقضاء والقدر: أن رابطاً قوياً جداً بينهما وبين التأصيل اللغوي والشرعي كذلك[7] .

3ـ المعنى الشرعي للقضاء والقدر:

هو تقدير الله تعالى الأشياء في القدم، وعلمه سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده، وعلى صفات مخصوصة ، وكتابته سبحانه لذلك ومشيئته لها ووقوعها على حسب ما قدرها جلّ وعلا و خلقه

(1) الصحاح للجوهري (2 / 286) ، معجم مقاييس اللغة (5 / 62) .

(2) البخاري، ك التهجد رقم 1166.

(3) الإيمان بالقضاء والقدر محمد حسان ص 40.

(4) البخاري، ك الصوم رقم 1906.

(5) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (4/ 23) .

(6) ترتيب القاموس المحيط (3 / 570) .

(7) الإيمان بالقضاء والقدر محمد حسان ص 40.



لها[1] .

ومراتب القدر أربع،: كما هو ظاهر في التعريف: العلم، الكتابة، المشيئة، الخلق والتكوين[2] .

4 . الفرق بين القضاء والقدر:

من أهل العلم من قال: لا فرق بين القضاء والقدر، فكل منهما يدخل في معنى الآخر، فإذا أطلق التعريف على أحدهما فيشمل الآخر بمعنى: إذا أطلق التعريف على القضاء، فإنه يشمل القدر، وإذا أطلق التعريف على القدر فإنه يشمل القضاء.

قال آخرون: لا، هناك فرق بين القضاء والقدر، فالقضاء: هو الحكم بالكليات على سبيل الإجمال في الأزل. أما القدر: فهو الحكم في وقوع الجزئيات لهذه الكليات التي قُدّرت في الأزل، فالقضاء أشمل وأعم من القدر.

ومنهم من قال: بأن القدر: هو التقدير، والقضاء، هو التفصيل بمعنى: أن القدر: هو التقدير القديم الأزلي، والقضاء: هو التفصيل لهذا القدر الكلي في أوقات معلومة بمشيئة الله تبارك وتعالى على الكيفية التي أرادها أو خلقها عز وجل[3] .

فالقضاء والقدر لفظان متباينان إن اجتمعا، ومترادفان إن افترقا، يعني: إذا افترقا اجتمعا، وإذا اجتمعا افترقا بمعنى: إذا ذكر القضاء والقدر معاً، فالمعنى لكل مفردة منهما واحد، وإذا افرد اللفظان صار لكل مفردة منهما معنى يختلف عن معنى الآخر. فالتقدير: هو ما قدره الله سبحانه وتعالى في الأزل أن يكون في خلقه التقدير، وعلى هذا يكون التقدير سابقاً على القضاء، وأما القضاء إذا ذكر مع القدر فكلاهما معنى واحد مشترك.

ويرى الخطابي: أن القضاء والقدر أمران لا ينفك أحدهما عن الآخر، لأن أحدهما بمنزلة الأساس

(1) شفاء العليل لابن القيم ص 29 ، القضاء والقدر للمحمود ص 40.

(2) القضاء والقدر ص 41 للمحمود.

(3) الإيمان بالقضاء والقدر، محمد حسان ص 41.





والآخر بمنزلة البناء، فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه[1] .

والحق أنه لا فرق بين القضاء والقدر، والذين قالوا بالتفريق بين القضاء والقدر لغة واصطلاحاً لا دليل لديهم من السنة الصحيحة، لا سيما وقد اتفقوا جميعاً على أنه إذا أطلق لفظ من هذين اللفظين فإنه يشمل الآخر[2] .والله أعلم.

ثانياً: أدلة القرآن على وجوب الإيمان بالقدر:

وردت في كتاب الله تعالى ـ آيات تدل على أن الأمور تجري بقدر الله تعالى، وعلى أن الله تعالى علم الأشياء وقدرها في الأزل، وأنها ستقع على وفق ما قدرها ـ سبحانه وتعالى[3] .

1 ـ قال تعالى:" إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ" (القمر: 49) قدر الله كل شيء في الأزل وكتبه سبحانه.

2 ـ وقوله تعالى:" سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا" (الأحزاب، آية 38) ـ أي قضاء مقضيا، وحكماً مبتوتاً وهو كظل ظليل، وليل أليل، وروض أريض في قصد التأكيد[4] .

3 ـ وقوله تعالى:" فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى"(طه: 40) ، أي أنه جاء موافقاً لقدر الله تعالى وإرادته على غير ميعاد[5] .

4 ـ وقوله تعالى:"فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ" (المرسلات: 21 ـ23) ـ أي جعلنا الماء في مقر يتمكن فيه وهو الرحم، مؤجلاً إلى قدر معلوم قد علمه الله ـ سبحانه وتعالى ـ وحكم به، فقدرنا على ذلك تقديراً فنعم القادرون نحن، أو: فقدرنا ذلك تقديراً فنعم المقدرون له

(1) المسائل العقدية التي حكى فيها الإجماع ابن تيمية الاجماع ص 810، معالم السنن (5 / 77) .

(2) الإيمان بالقضاء والقدر، محمد حسان ص 42.

(3) القضاء والقدر د. المحمود ص 50.

(4) فتح البيان في مقاصد القرآن، تفسير صديق حسن خان (7 / 375) .

(5) تفسير ابن كثير (5 / 287) .



نحن . على قراءتين[1] ، والقراءة الثانية "قدَّرنا" بالتشديد توافق قوله تعالى:" مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ" (عبس: 19) .

5 . **وقال تعالى**:" وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا" (الفرقان: 2) : أي كل شيءٍ مما سواه مخلوق مربوب، وهو خالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه، وكل شيءٍ تحت قهره وتدبيره وتسخيره وتقديره[2] .

6 . **وقال تعالى**:" وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ" (الرعد: 8) أي: بأجل، كحفظ أرزاق خلقه وآجالهم، وجعل لذلك أجلاً معلوماً[3] .

7 . **وقال تعالى**:" وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّبِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ" (الحجر: 21) . يخبر تعالى أنه مالك كل شيء، وأن كل شيءٍ سهل عليه يسير لديه، وأن عنده خزائن الأشياء من جميع الصنوف، " وَمَانُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ"كما يشاء وكما يريد ولما له في ذلك من الحكمة البالغة والرحمة بعباده لا على جهة الوجوب بل هو كتب على نفسه الرحمة[4] .

ـ **وقال تعالى**:" نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَانَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ" (الواقعة: 60) أي: صرفناه بينكم "وَمَانَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ" أي: وما نحن بعاجزين[5] .

ـ **وقال تعالى**:" وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ" (فصلت: 10) .

ـ **وقال تعالى**: "مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ" (عبس : 19) ، أي: قدر أجله ورزقه وعمله، شقي أو سعيد [6] .

وغير ذلك من الآيات التي تدل على أن الله قدر كل شيء.

---

(1) القضاء والقدر د. عبد الرحمن المحمود ص 51.

(2) صحيح تفسير ابن كثير (3 / 314) .

(3) المصدر نفسه (2 / 492) .

(4) المصدر نفسه (2 / 547) .

(5) صحيح تفسير ابن كثير (4 / 362) .

(6) المصدر نفسه (4 / 595) .



ثالثاً: القصص القرآني والإيمان بالقدر:

كان جميعُ الأنبياء والرسل ومن تبعهم معتقدين بعقيدة التوحيد الخالصة الصحيحة، كما أوحى إليهم ربهم تبارك وتعالى، والإيمان بصفات الله تعالى، ومنها، العلم والقدرة والإرادة والخلق كلها داخلة في التوحيد الذي هو أساس دين الإسلام، وتحدث القرآن الكريم عن الأنبياء وغيرهم، وبين قولهم بالقدر، وبأن ما شاء الله كان، وما لم يشأن لا يكون[1] .

1 . في قصة نوح عليه الصلاة والسلام: قال تعالى: "قَالُواْ يَانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتَنِا بِمَاتَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللّهُ إِنشَاء وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ * وَلاَيَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ" (هود : 32 . 34) . فهم قالوا لنوح عليه السلام مستعجلين: يا نوح قد جادلتنا أي: حاججتنا فأكثرت من ذلك، ونحن لا نتبعك، فآتنا بما تعدنا من العذاب، فأجابهم نوح مبيناً أن الأمر كله بيد الله سبحانه وتعالى، فهو الذي يأتيكم بالعذاب إن شاء، ثم بين نوح أيضاً أن نصحه لا ينفع إذا كان الله يريد أغواءهم، فإرادة الله غالبة، ومشيئته نافذة[2] .

2 . وفي قصة إبراهيم . عليه السلام . مع ابنه إسماعيل . عليه الصلاة والسلام . لما أراد ذبحه بأمر الله، يقول: "فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَابُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَاتُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنشَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ" (الصافات : 102) . وقال تعالى: "فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ" أي: بلغ أن ينصرف معه ويعينه[3] ، وفي هذا يكون في الغالب أحب ما يكون لوالديه، فرأى أبوه في المنام أن الله يأمره بذبحه، ورؤيا الأنبياء وحي، فقال الابن مستسلماً: "يَاأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنشَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ"، فأخبر أنه موطّن نفسه على الصبر، وقرن ذلك بمشيئة الله تعالى لأنه لا يكون شيء بدون مشيئة الله[4] . وهذا هو الشاهد[5] .

(1) القضاء والقدر، عبد الرحمن المحمود ص 126.

(2) تفسير ابن كثير (4 / 251 . 252) ، تفسير السعدي (3 / 422) .

(3) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص 273.

(4) تفسير السعدي (6 / 389) .

(5) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص 273.





3 . وفي قصة يوسف . عليه الصلاة والسلام . يقول الله تعالى: "وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ" (يوسف : 100) . إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء أي: إذا أراد أمراً قيض له أسباباً ويسره وقدره، إنه هو العليم بمصالح عباده،الْحَكِيمُ: في أفعاله وأقواله، وقضائه وقدره، وما يختاره ويريده[1] ، فيوسف . عليه السلام . كان مؤمناً أن ما جرى ويجري له ولغيره إنما هو بقضاء الله وقدره[2] .

4 . وموسى . عليه الصلاة والسلام . ذكر الله عنه إيمانه بأن الهداية والإضلال بيد الله، وهما تحت مشيئته، فقال تعالى في معرض قصته: "وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاء وَتَهْدِي مَن تَشَاء أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ" (الأعراف : 155) ، فقوله: "لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ": أي لو شئت إهلاكنا لأهلكتنا بذنوبنا منقبل هذا الوقت، قال موسى اعترافاً بالذنب وتلهفاً على ما فرط من قومه، أو المعنى: لو شئت أهلكتهم وإياي من قبل خروجنا حتى يعاين بنو إسرائيل ذلك ولا يتهموني، وهذا على أن "لَوْ" للتمني. ثم قال: "إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاء وَتَهْدِي مَن تَشَاء": أي ما هو إلا اختبارك وإمتحانك تضل بهما من تشاء وتهدي من تشاء، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، فأنت وحدك لك الملك ولك الخلق والأمر[3] ، فقول موسى هذا يدل على تصديقه وإيمانه بالقدر[4] .

5 . وفي قصة موسى مع الشيخ الكبير حينما ورد ماء مدين يقول تعالى عن الشيخ: " قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ

---

(1) تفسير ابن كثير (4 / 336) ، القضاء والقدر، عبد الرحمن المحمود ص 127.

(2) القضاء والقدر، عبد الرحمن المحمود ص127.

(3) زاد المسير لابن الجوزي (3 / 268 . 269) .

(4) القضاء والقدر للمحمود ص 128.



أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنشَاء اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ" (القصص : 27) ، والشاهد قوله: "سَتَجِدُنِي إِنشَاء اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ" أي: حسن الصحبة والوفاء، أو الصلاح العام ويدخل فيه صلاح المعاملة من باب أولى، وقيد ذلك بمشئة الله تفويضاً للأمر إلى توفيق الله ومعونته[1] .

6 . ويقول تعالى عن موسى . عليه الصلاة والسلام . والخضر بعد أن بين له أنه لا يستطيع الصبر معه، فأجابه موسى كما قال الله: "قَالَ سَتَجِدُنِي إِنشَاء اللَّهُ صَابِرًا وَلَاأَعْصِي لَكَ أَمْرًا" (الكهف : 69) .

سأصبر بمشيئة الله ولكن هل الاستثناء شامل قوله: "وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا" أولاً؟ قولان للمفسرين والأرجح شموله لهما[2] ، قال في تفسير الجلالين "قَالَ سَتَجِدُنِي إِنشَاء اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا" أي: وغير عاصٍ "لَكَ أَمْرًا" تأمرني به، وقيد بالمشيئة لأنه لم يكن على ثقة من نفسه فيما التزم، وهذه عادة الأنبياء والأولياء ألا يثقوا إلى أنفسهم طرفة عين[3] . فتعليق الأمر بمشيئة الله تعالى دليل على إيمان موسى بأن أي شئ لا يكون إلا إذا أراده الله وشاءه، وقصة موسى والخضر كلها في باب القدر، وقد وردت بتمامها في صحيح البخاري، وقال صلى الله عليه وسلم: "يرحم الله موسى وددنا لو صبر حتى يقص علينا من أمرهما"[4] .

7 . وبعد أن خسف الله بقارون وداره يقول تعالى عن قومه: "وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَايُفْلِحُ الْكَافِرُونَ" (القصص : 82) . فقوله "يَبْسُطُ الرِّزْقَ" لبعض عباده ويُضيّقه على بعضهم فله الأمر، يفعل ما يشاء سبحانه وتعالى[5] .

8 . ويقول تعالى عن زكريا ومريم: " فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَـذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ إنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ" (آل عمران، آية: 37) .

---

(1) فتح القدير للشوكاني (4 / 169) .

(2) تفسير القرطبي (11 / 17) ، القضاء والقدر للمحمود ص 129.

(3) تفسير الجلالين: حاشية الجمل الفتوحات الإلهية (3 / 37) .

(4) البخاري، ك العلم، فتح الباري(1 / 317) .

(5) تفسير السعدي (6 / 61) ، القضاء والقدر ص 130.

فقوله:" إِنَّ اللّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ" : الراجح أنه من كلام مريم، وهو يفيد التقرير بأن الله قد يرزق عباده بغير حساب، وأن ذلك مرتبط بمشيئته سبحانه[1] .

9 . وفي قصة الرجل صاحب الجنتين، يقول تعالى عن صاحبه أنه قال له وهو يحاوره" وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَاشَاء اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تُرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا" (الكهف: 39) أي: هلا قلت عندما دخلتها:" مَاشَاءا للَّهُ"، أي الأمر بمشيئة الله، وما شاء الله كان فترد أمر جنتك من الحسن والنضارة لخالقه سبحانه، ولا تفتخر به لأنه ليس من عملك وصنعك " لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ" أي: وهلا قلت: "لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ"، معترفاً بأنها وما فيها بمشيئة الله . تعالى . إن شاء أبقاها، وإن شاء أفناها، وأنك عاجز عنها، وعن غيرها لولا معونة الله[2] .

10 . والجن يذكر تعالى أنهم قالوا:"وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا" (الجن، آية: 10) ، فهم بعد أن منعوا من استراق السمع جزموا أن الله أراد أن يحدث في الأرض حادثاً كبيراً من خير أو شر، فقالوا: " وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ...." الآية، فهم مؤمنون بأن الله له الإرادة المطلقة، وقد كانوا مؤدبين فقد أضافوا الخير إلى الله تعالى والشر حذفوا فاعله تأدباً.[3]

إن الإيمان بالقدر داخل ضمناً في الإيمان بالله، بل هو جزء حقيقي منه لأن معناه، الإيمان بإحاطة علم الله تعالى بكل شيء وشمول إرادته لكل ما يقع في الكون، ونفوذ قدرته في كل شيء.

والإيمان بالقدر، الذي جاء به الإسلام هو إيمان بمقتضى الكمال الإلهي الذي تميزت به عقيدة الإسلام، وصححت به أوهام الفلسفات، وانحراف الديانات في شأن الألوهية.

فليس الإله في الإسلام إلهاً معزولاً عما يجري في الكون لا يعلمه ولا يتدخل فيه بتدبير ولا تصريف ك"إله أرسطو" الذي لا يعرف إلا ذاته، ولا يعلم عن هذا الكون شيئاً، ولا يدبر فيه أمراً، أو "إله أفلوطين" الذي لا يعلم ذاته نفسها.

(1) القضاء والقدر، د. عبد الرحمن المحمود ص 131.

(2) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان (5/ 454) .

(3) تفسير ابن كثير (8/ 267) ، القضاء والقدر د. عبد الرحمن المحمود ص 131.



وليس كإله المجوس، الذي له نصف الكون يدبره ويتصرف فيه، وهو ما يتعلق بالخير والنور، أما النصف الآخر وهو ما يتصل بالشر والظلمة، فذلك من شأن إله آخر، فهما إلهان إذن: أحدهما إله الخير والنور، والآخر إله الشر والظلمة والحرب بينهما سجال حتى ينتصر إله الخير في النهاية .

وليس هو كآلهة اليونان، التي تخبط في تصرفاتها خبط عشواء والتي تعيش في حرب مع البشر، حتى إن رواياتهم عن القدر وضرباته للناس تمثله هازئاً بهم، متحدياً لهم، يطاردهم ويتجنى عليهم، ولهذا كثر الحديث في أدبهم عن قسوة القدر، وعن القدر الأعمى، والقدر الغاشم ونحو ذلك.

وليس كإله بني إسرائيل، الذي تصوره توراتهم المحرفة، وكتبهم واساطيرهم، غيوراً منتقماً مدمراً، متعصباً لشعب إسرائيل دون العالمين، خائفاً من الإنسان أن يأكل من شجرة الحياة، فيصبح كواحد من الآلهة، نادماً على ما يفعله في بعض الأحيان عاجزاً عن مقاومة الإنسان، حتى إن إسرائيل ليصارعه فيصرعه[1] .

ليس هذا الذي تتصوره أو تصوره الديانات والفلسفات هو إله الإسلام، إنما الإله في الإسلام هو مالك الملك، وصاحب الخلق والأمر، رب العالمين، هو خالق كل شيء عن قبضة قهره، ولا حي أو جماد عن دائرة سلطانه، يحكم ما يريد، ويفعل ما يشاء، ولا يخفي عليه شيء في الأرض ولا في السماء وهو مع هذا بر كريم، عدل رحيم، عليم حكيم، لا يظلم أحداً، ولا يأخذ مخلوقاً بذنب غيره، ولا يبخسه أجر سعيه، فلا يخاف أحد عنده ظلماً ولا هضماً، والظلم: أن يعاقبه بما لم يفعل والهضم: أن يضيع أجر ما قد عمل، والله سبحانه لا يعاقب بغير سيئة ولا يضيع أجر حسنة، بل يضاعفها كما قال سبحانه:" إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرً عَظِيمًا" (النساء: 40) .

(1) الإيمان بالقدر للقرضاوي ص 10.





هـذا هـو الإلـه الـذي يجري كـل شـيء في الكون بتقـديره وتـدبيره بعلمـه ومشـيئته ومقتضـى حكمتـه، وعلى هـذا الأسـاس كـان إيمان السـلف بالقـدر مـن الصحابة، ومـن تبعهم بإحسـان، فليس الإيمان بالقـدر إيمـاناً بالبخـت والمصـادفات والعشـوائية في الكـون، كهـؤلاء الـذين ينقلـون إلى العربيـة التغيـيرات اليونانيـة والغربيـة عـن القـدر فـتراهم يقولـون: القـدر الأعمـى، والقـدر الأحمـق، والقـدر الغاشـم، وعبـث الأقـدار، وسخرية القدر[1] ونحوها، وهي ألفاظ وتعبيرات يبرأ منها الإسلام والمسلمون، إنما هـو إيمان بإحاطة علم الله وعموم مشيئته وشمول قدرته، وربوبيته لكل ما في الكون وإن كل ما يحدث في الوجود إنما يتم بناء على ترتيب أو تصميم سابق، وتدبير قدير، وتقدير عزيز عليم[2] .

رابعاً: الأدلة من السنة النبوية على وجوب الإيمان بالقدر:

دلّت نصوص السنة على وجوب الإيمان بالقضاء والقدر، والأحاديث الواردة في ذلك كثيرة جداً، ولكن نعرض لبعضها وسنبين البعض الآخر في الأدلة التفصيلية عند الحديث على مراتب القدر ومن هذه الأحاديث:

1 . حديث جبريل: المشهور برواياته المختلفة، فقد قال صلى الله عليه وسلم: الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره[3] .

2 . حديث جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره من الله، وحتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه[4] .

3 . حديث علي . رضي الله عنه . قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا الله وأني محمد رسول الله بعثني بالحق، ويؤمن بالموت، وبالبعث**

(1) كان الإمام الكبير مصطفى صادق الرافعي يستعمل بدلًا من سخرية القدر سخرية الحياة (ن) .

(2) الإيمان بالقدر للقرضاوي ص 11.

(3) مسلم، ك الإيمان رقم 8.

(4) سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني رقم 2439.



بعد الموت، ويؤمن بالقدر[1] . فالمراد بالحديث نفي أصل الإيمان عمن لم يؤمن بهذه الاربع:شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمداً رسول الله، ويؤمن بالموت: أي فناء الدنيا، أو المراد: اعتقاد أن الموت يحصل بأمر الله لا بفساد المزاج كما يقول الطبائعيون، ويؤمن بالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر وأن كل ما يجري بقدر الله ـ تعالى ـ وقضائه[2] ، ونفي أصل الإيمان عمن لم يؤمن بهذه الأمور يدل على وجوب الإيمان بها.

4 ـ حديث طاوس، قال: أدركت أناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: كل شيء بقدر، قال وسمعت عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كل شيء بقدر حتى العجز والكيس أو الكيس والعجز[3] .

5 ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله صلى الله عليه وسلم في القدر فنزلت:"يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ * إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ" (القمر: 48 ـ 49) [4] .

6 ـ وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم التحذير من التكذيب بالقدر، وذلك في الحديث الذي رواه أبو الدرداء ـ رضي الله عنه ـ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا يدخل الجنة عاق ولا مدمن خمر، ولا مكذب بقدر"[5] .

خامساً: وصايا نبوية لتدريب النفس على الرضا بالقضاء والقدر:

كان الرسول صلى الله عليه وسلم مربياً ومزكياً لنفوس أصحابه، وهي المهمة التي شرفه الله سبحانه بها، وتتجلى هذه التزكية، بأوضح صورها من خلال هذه الوصايا الثلاثة التي تُعد بحق نماذج العلاج النبوي لأمراض النفوس وتدريبها عملياً على التسليم لقضاء الله وقدره والرضا به.

---

(1) المصدر نفسه رقم 2439.

(2) تحفة الأحوذي للمبارك فوري (3/ 201) .

(3) مسلم، ك القدر رقم 2655.

(4) سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم 675.

(5) منهج الإسلام في تزكية النفس (1 / 158) .

الوصية الأولى: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍ خير، أحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز وإن أصابك شئ فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدّر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان[1] .

وفي هذا الحديث النبوي يبين الرسول صلى الله عليه وسلم أن من أراد نيل محبة الله ورضوانه فعليه أن يبادر إلى تقوية إيمانه ومجاهدة نفسه، وطلب القوة في العلم والجسم، وغير ذلك من عناصر القوة النافعة التي تتضافر جميعها لتكوين شخصية المسلم الذي يحبه الله سبحانه، ولكي يحظى المسلم بذلك فلا بد له من الأخذ بالوصايا النبوية الواردة في هذا الحديث: وهي أن يحرص على ما ينفعه ويطلب العون من الله سبحانه ولا يعجز، وأن يسلم أمره لله فيما قدّر له فلا يسخط ولا يشتكي من المصائب ولا يدع للشيطان مدخلاً يقوله: "لو أني فعلت كذا وكذا" فكلمة "لو" تجلب الحسرة والأسى، وتزيد اللوعة وتورث القلق والاضطراب، ولن يستطيع إعادة ما فات ولا إحياء من مات مهما تحسر، وإنما سيجلب لنفسه الكآبة ولجسمه الأمراض والآلام ويتعرض لغضب الله، باعتراضه على قدره، فالعلاج العملي أن يقول: "قدّر الله وما شاء فعل"، مُعلِناً استسلامه لأمر الله ورضاه بقضائه وأن يعود لسانه على هذا القول كلما ناله شئ يكرهه[2] .

. الوصية الثانية: دعاء الاستخارة:

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم: يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كالسورة من القرآن، يقول: إذا همَّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني استخيرك بعلمك واستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب. اللهم إن كنت تعلم إن هذا الأمر خيرٌ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، أو قال: عاجل أمري وآجله، فأقدره لي، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شرٌ لي في ديني

(1) مسلم، ك القدر رقم 2664.

(2) منهج الإسلام في تزكية النفس (1 / 160) .

ومعاشي وعاقبة أمري، أو قال: عاجل أمري وآجله، فأصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم أرضني به، ويسمي حاجته[1] .

وهذه الوصية النبوية تعد تدريباً عملياً على توطين النفس ورضاها بالقضاء والقدر، وتسليمها لما يقدر الله، اعتقاداً بأن ذلك هو الأصلح، والأنفع للعبد، فإذا همَّ المسلم بأمر من الأمور المباحة، من سفر أو زواج، أو تجارة أو غير ذلك فعليه أن يبادر إلى العمل بهذه الوصية النبوية، فيدعو بدعاء الاستخارة متذللاً أمام ربه، متواضعاً بين يديه، مستسلماً لأمره، راضياً بحكمه، داعياً أن يختار الله له ما فيه الخير في دينه ومعاشه وعاقبة أمره، وأن يصرف عنه هذا الأمر إن كان فيه شر، ثم يعزم على هذا الأمر، فإن انشرح صدره له، ويسر الله طريقه، وهو الخير الذي اختاره الله، وإن جاء الأمر على عكس ذلك، فعليه أن يفرح، لأن الله صرف عنه شراً واختار له ما يصلحه، ولو لم يدرك الحكمة فلتطمئن نفسه ولا يبقى متعلقاً بهذا الأمر، أو قلقاً من أجله، وبهذه الوصية النبوية، يدرب المسلم نفسه عملياً على الرضا بقضاء الله، والتسليم لأمره، ويجاهد نفسه على مخالفة هواها ويربيها على الالتزام بأمر الله، لأن في ذلك صلاح دنياه وآخرته[2] .

روى الأعمش عن مسعود رضي الله عنه قال: إن العبد ليهم بالأمر من التجارة والإمارة حتى يتيسر له، نظر إليه الله من فوق سبع سماوات، فيقول للملائكة: أصرفوه عنه فإني أن يسرته له أدخلته النار، قال: فيصرفه الله عنه، قال: فيقول: من أين دُهيت؟ وما هو إلا فضل الله سبحانه.

ولذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم يهتم كثيراً بدعاء الاستخارة ليعلمه لأصحابه، كما يعلمه السورة من القرآن، وهذا دليل على غاية الإهتمام به، والحرص عليه وهو ومن هو [3] .

(1) البخاري، (7 / 162) .

(2) منهج الإسلام في تزكية النفس (1 / 161) .

(3) المصدر نفسه (1 / 161) .



. الوصية الثالثة:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر أن تزدروا نعمة الله عليكم[1] . وفي رواية البخاري: إذا نظر أحدكم إلى من فُضل عليه في المال والخلق، فلينظر إلى من هو أسفل منه ممن فُضل عليه[2] .

وفي هذا الحديث دواء لداء الحسد والتشكي من الأقدار، فالنفس التي تتطلع إلى الآخرين لن ترضى بحالٍ من ألأحوال كلما بلغت درجة من الغنى والجاه تعودتها فملتها وتطلعت إلى المزيد فهي دائماً في تلهف إلى كثرة المال وتعلق به وسخط وحسرة وإزدراء للنعم، وجحود للمنعم، وهذا مصداق قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "لو أن لابن آدم وادياً من ذهب أحب أن يكون له واديان، ولن يملأ فاه إلا التراب، ويتوب الله على من تاب[3] .

فإذا اتبع المسلم هذه الوصية النبوية فإنه سيعرف قدر النعمة ويرضى بما قسم الله له، وينال القناعة، ويحظى بالسعادة ولو كان مبتلى بالفقر أو المرض أو المصائب المختلفة، لأنه إن كان فقيراً لا يملك وفرة من المال فلينظر إلى من ابتلى بالفقر المدقع والجوع الشديد، وإن كان مريضاً يشكو من بعض الآلام فلينظر إلى من ابتلي بعاهة أو مرض مزمن خطير، وهكذا يبقى دائماً مقدراً للنعمة راضياً بما قسم الله له شاكراً صابراً، ولو أخذ المسلمون اليوم بهذه الوصية النبوية لسعدت أحوالهم، واستقامت أوضاعهم، وعرفوا الثمرة الحقيقية للإيمان بالقضاء والقدر، وسارعوا إلى التنافس في التقوى والعمل الصالح والتقرب إلى الله عوضاً عن التنافس على حطام الدنيا الزائل[4] .

---

(1) مسلم، ك الزهد رقم 2963.

(2) البخاري، ك الرقاق (6382) .

(3) رواه البخاري، (7 / 175) .

(4) منهج الإسلام في تزكية النفس (1 / 163) .





سادسًا– نهي الرسول صلى الله عليه عن الخوض في القدر:

- عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: خرج رسول الله صلى الله عليه ولم ذات يوم والناس يتكلمون في القدر، قال: "وكأنما تفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب، قال: فقال لهم: ما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض؟ بهذا هلك من كان قبلكم[1] .

وعن ثوبان ـ رضي الله عنه ـ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا ذكر أصحابي فامسكوا، وإذا ذكرت النجوم فامسكوا، وإذا ذكر القدر فامسكوا[2] .

- وری أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للصحابة لما تنازعوا في القدر: "عزمت عليكم أن تنازعوا فيه[3] ، وقد اختلف العلماء في توجيه هذه الأحاديث:

أ ـ فبعضهم رأى ثبوتها، واستدل بها على وجوب الوقف على الخوض والكلام في القدر، وقال: إن هذا أحسن المذاهب لمن آثر الخلاص والسلامة[4] .

ب ـ وبعضهم رد هذه الأحاديث، وقال: إن أسانيدها كلها لا تخلو من مقال، فهي إذن ضعيفة لا يحتج بها[5] .

جـ ـ والذي نرجحه أنها ثابتة، وأقل ما فيها أنها حسنة، لأن لها طرقاً يقوي بعضها بعضاً، وحينئذ فالجواب عنها كما يلي:

1ـ إن المنهي عنه إنما هو الخوض فيها بالباطل، وذلك بالخوض في كل ما يتعلق بالقدر، ومحاولة معرفة وجه الحق فيه عن طريق العقل القاصر، ولا شك أن هذا لا يجوز.

---

(1) رواه ابن ماجة في المقدمة رقم 85، وحسنه محقق جامع الأصول.

(2) مجمع الزوائد (7 / 202) ، صححه الألباني في الصحيح الجامع.

(3) سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم 34.

(4) القضاء والقدر د. عبد الرحمن المحمود ص 25.

(5) المصدر نفسه ص 25.



2ـ والقدر ركن من أركان الإسلام، وقد وردت فيه الآيات والأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم، فكيف يأتي النهي عن الكلام فيه؟ إ، هذا دليل على أن النهي إنما هو منصب على الخوض فيه على وجه التنازع والاعتراض على الله ـ تعالى ـ لا وجه المعرفة الصادقة من الأدلة الصحيحة.

3ـ وفي الأحاديث نفسها ما يدل على ذلك، ألا وهو قوله: "إذا ذكر أصحابي فامسكوا" فهل معناه الإمساك عن ذكر الصحابة وفضائلهم وجهادهم؟ أم أن النهي منصب على شئ معين؟: وهو الإمساك عن ذكرهم بالباطل، وعما شجر بينهم ـ رضوان الله عليهم جميعاً ـ وكذلك يقال في القدر.

4ـ نهى الرسول صلى الله عليه وسلم نهى الصحابة عن التنازع في القدر، وهذا حق؟ لأن التنازع مظنة الاختلاف، وهذا داعٍ إلى القول فيه بغير الحق، وهو منهي عنه، وإلا فالقدر من أركان الإيمان، ولا بد من معرفة هذا الركن بالتفصيل كما جاء في الكتاب والسنة وأقوال السلف، حتى يتحقق الإيمان، وحتى يثمر ثماره المرجوة.

5 ـ علماء السلف ذكروا القدر، وبحثوا فيه، بل ألفوا رسائل وكتباً مستقلة، هل معناه أنهم خالفوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ وإذا كانت ترد حوله بعض الإشكالات، ألا يجب بيان الحق للناس حتى لا يضلوا؟ وحتى لا يكونوا على بصيرة من أمر دينهم؟

6ـ أما ما يؤثر عن بعض العلماء من أن القدر سر لله في خلقه، فهذا صحيح يجب إدراكه لكل من يبحث في القدر، لكن هذا محصور في الجانب الخفي من القدر، ألا وهو كونه ـ سبحانه وتعالى ـ أضل وهدى، وأمات وأحيا، ومنع وأعطى، وقسم ذلك بين عباده بقدرته ومشيئته النافذة، فمحاولة معرفة سر الله في ذلك لا تجوز، لأن الله حجب علمها حتى عن أقرب المقربين، أما جوانب القدر الأخرى وحكمه العظيمة، ومراتبه ودرجاته وآثاره، فهذا مما يجوز الخوض فيه، وبيان الحق للناس فيه، بل بيانه مما يندب إليه وينبغي شرحه وإيضاحه للناس، إذ الإيمان بالقدر أحد أركان الإيمان التي ينبغي تعلمها ومعرفتها[1] .

(1) القضاء والقدر د. عبد الرحمن المحمود ص 27.



سابعاً: في عهد الخلفاء الراشدين:

كان أمر العقائد في عهد الخلفاء الراشدين ـ رضوان الله عليهم ـ على ما كان عليه في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من سلامة العقيدة، والتسليم لله ورسوله في كل أمر وعدم الجدال والخوض فيما خاض فيه من بعدهم، وبالنسبة لعقيدة القضاء والقدر، كان موقف الصحابة والتابعين التسليم والإيمان به على الوجه الحق، كما بينه لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن يبدر منهم شيء إلا كما بدر من بعضهم في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وسرعان ما يزول الالتباس بالإيمان القوي بعد البيان والإيضاح[1] .

ومن أقوال الصحابة في القضاء والقدر:

1 ـ أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ

قال أبو بكر ـ رضي الله عنه: خلق الله الخلق، فكانوا في قبضته، فقال لمن في يمينه: ادخلوا الجنة بسلام، وقال لمن في يده الأخرى: ادخلوا النار، ولا أبالي فذهبت إلى يوم القيامة[2] .

2 ـ خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه

خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه من المدينة إلى الشام، ومعه جمهور المهاجرين والأنصار حتى قدم دمشق فوقع بالشام طاعون فخاف عمر أن يقدم بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم واستشار الصحابة في ذلك ممن معه من المهاجرين والأنصار ومن كان بالشام فقيهاً، فاختلفوا عليه حتى جاء عبد الرحمن بن عوف فروى له عن النبي صلى الله عليه وسلم:" إذا سمعتم بأرض قوم فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً. فحمد الله عمر ثم انصرف فخطبهم على باب الجابية[3] ، ليقص عليهم ويعرفهم سبب انصرافهم فقال في خطبته كما انزل الله في كتابه وأمر رسوله استفتاح الخطيب بها:

---

(1) شرح أصول واعتقاد أهل السنة للالكائي (4 / 734) .

(2) القضاء والقدر للمحمود ص 154.

(3) الجابية قرية من أعمال حوران غربي نوى، وهي الآن خراب .



من يضلل الله فلا هادي له، ومن يهدي فلا مضل له.

فقال جاثليق[1] النصارى: إن الله لا يضل أحداً مرتين أو ثلاثاً فأنكر الصحابة ذلك عليه مرتين:

فقال عمر لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يقول؟

قالوا: يا أمير المؤمنين يزعم أن الله لا يضل أحداً.

فقال عمر: كذبت، بل الله خلقك والله أضلك ثم يميتك فيدخلك النار إن شاء الله أما والله لولا عهد لك لضربت عنقك.

وتفرق الناس وما يختلف في القدر اثنان[2] .

وعن عبد الله بن عباس أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى الشام حتى إذا كان بَسْرغ[3] لقيه أمراء الأجناد أبو عبيدة وأصحابه، فأخبروه أن الوباء وقع بالشام. قال ابن عباس: فقال عمر: ادع المهاجرين الأولين فدعاهم فاستشارهم فأخبرهم أن الوباء قد وقع في الشام فاختلفوا في الأمر، فقال بعضهم: خرجت لأمر ولا نرى أن ترجع عنه.

وقال آخرون: إن معك بقية الناس وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء.

فقال عمر: ارفعوا عني:

ثم قال: ادع الأنصار فدعوا ، فدعوهم له، فاستشارهم، فسلكوا سبيل المهاجرين، فاختلفوا كاختلافهم.

فقال: ارتفعوا عني

ثم قال: ادع لي من هاهنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح، فدعوا له، فاستشارهم فلم يختلف

(1) جاثليق: لعلها رتبة دينية عند النصارى.

(2) شرح أصول اعتقاد أهل السنة (4 / 726) .

(3) سرغ: قرية بوادي تبوك في أرض الجزيرة.



عليه منهم رجلان قالوا: نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء.

فأذن عمر بالناس: إني مصبح على ظهر فأصبحوا عليه.

قال أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين أفراراً من قدر الله؟

قال: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة: نعم نفر من قدر الله عز وجل إلى قدر الله أرأيت لو كان لك إبل فهبطت بها وادياً له عدوتان[1] "احداهما" خصبة والأخرى جدبة أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله؟ وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟

قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف وكان متغيباً في بعض حاجته فقال: إن عندي من هذا علماً، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:" إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه، قال فحمد الله ثم انصرف[2] .

وقال أبو عثمان النهدي سمعت عمر بن الخطاب ـ وهو يطوف بالبيت ـ يقول: اللهم إن كنت كتبتني في السعادة فاثبتني فيها وإن كنت كتبتني على الشقوة فامحني منها واثبتني في السعادة فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب[3] .

3ـ علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

خطب علي بن أبي طالب فقال: ما يمنعه أن يقوم ـ فيخضب هذه من هذا.

قالوا: يا أمير المؤمنين أما إذ عرفته فأرنا نبير عترته

فقال: أنشد الله رجلاً قتل لي غير قاتلي.

قالوا: فأوصنا .

قال: أكلكم إلى ما وكلكم الله ورسوله إليه.

(1) ثنية عدوى: وهو جانب من الوادي وحافته.

(2) البخاري رقم 5729 ، 5730.

(3) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (4/ 735) .





قالوا: فما تقول لربك إذا قدمت عليه؟

قال: أقول كنت عليهم شهيداً مادمت فيهم حتى توفيتني وهم عبادك إن شئت أصلحتهم وإن شئت أفسدتهم[1] .

وقال: إن أحدكم لن يخلص الإيمان إلى قلبه حتى يستيقن يقيناً غير ظن أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه ويقر بالقدر كله[2] .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إن القدر لا يرد القضاء، ولكن الدعاء يرد القضاء[3] ، قال الله لقوم يونس:" لَمَّآ آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ" (يونس: 98)[4] .

4 . عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: لا والله لا يطعم رجل طعم الإيمان حتى يؤمن بالقدر ويقر ويعلم أنه ميت وأنه مبعوث من بعد الموت[5] .

وقال رضي الله عنه: أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدي هدي محمد، وشرّ الأمور محدثاتها، فاتبعوا ولا تبتدعوا، فإن الشقي في بطن أمه والسعيد من وعظ بغيره[6]

5 . عبد الله بن عباس رضي الله عنهما:

عن ابن طاووس عن أبيه قال: أشهد لسمعت ابن عباس يقول: العجز والكيس بقدر[7]

قال ابن عباس: إن الله عز وجل كان على عرشه قبل أن يخلق شيئاً فخلق القلم فكتب ما هو كائن

---

(1) المصدر نفسه (4/ 736) .

(2) المصدر نفسه (4 / 738) .

(3) المصدر نفسه (4/ 737) .

(4) المصدر نفسه (4/ 738) .

(5) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (4/ 739) .

(6) المصدر نفسه (4 / 738)

(7) المصدر نفسه (4/ 741) .





إلى يوم القيامة فإنما يجري الناس على أمر قد فرغ منه[1] .

وقال ابن عباس: القدر نظام التوحيد فمن وحد الله ولم يؤمن بالقدر كان كفره بالقضاء نقضاً للتوحيد، ومن وحد الله وآمن بالقدر كان العروة الوثقى لا انفصام لها[2] .

وعن عطاء بن أبي رباح قال: كنت عند ابن عباس فجاءه رجل فقال: يا أبا العباس أرأيت من صدني عن الهدى وأوردني الضلالة والردى ألا تراه قد ظلمني؟

قال: إن الهدى إن كان شيئاً لك عنده فمنعكاه فقد ظلمك وإن كان هو له يؤتيه من يشاء فلم يظلمك. قم لا تجالسني[3] .

عن ابن عباس قال: كان الهدهد يدل سليمان على الماء، وقلت له: كيف ذاك والهدهد ينصب له الفخ عليه التراب؟

فقال: أعضك الله بهن أبيك، ألم يكن إذا جاء القضاء ذهب البصر[4] .

6 . عبد الله بن عمر رضي الله عنهما:

عن يحي بن يعمر قال: قلت لابن عمر: إنا نسافر فنلقي قوماً يقولون: لا قدر، قال: إذا لقيت أولئك فأخبرهم أن ابن عمر منهم بريء، وهم براء . ثلاث مرات[5] .

7 . أبي بن كعب رضي الله عنه:

عن ابن الديلمي قال: أتيت أبي بن كعب فقلت: أبا المنذر فإنه وقع في قلبي شئ من هذا القدر فحدثني بشئ لعل الله أن يذهبه عني.

---

(1) المصدر نفسه (4 / 742) .

(2) المصدر نفسه (4 / 742) .

(3) المصدر نفسه (4 / 743) .

(4) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (4 / 743) .

(5) المصدر نفسه (4 / 744) .





فقال: إن الله عز وجل لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته لهم خيراً لهم من أعمالهم، ولو أنفقت مثل أحد ذهباً في سبيل الله ما قبل منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وإن مت على غير ذلك دخلت النار. قال: ثم أتيت ابن مسعود فحدثني بمثل ذلك ثم أتيت ابن ثابت فحدثني بمثل ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم[1] .

8. عبادة بن الصامت رضي الله عنه:

عن عبادة قال له ابنه عبد الرحمن: يا عبادة أوصني، قال: أجلسوني، فأجلسوه، ثم قال: يا بني اتق الله ولن تتق الله حتى تؤمن بالقدر ولن تؤمن بالقدر حتى تؤمن بالقدر خيره وشره، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك[2] .

9. الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما:

قال الحسن بن علي: قضي القضاء وجف القلم وأمور بقضاء في كتاب قد خلا[3] .

10. عمرو بن العاص رضي الله عنه:

قال عمرو بن العاص: انتهى عجبي إلى ثلاث: المرء يفر من القدر وهو لاقيه ويرى في عين أخيه القذا فيعيبها ويكون في عينه مثل الجذع فلا يعيبها ويكون في دابته "الصعر" ويقومها جهده ويكون في نفسه الصعر، فلا يقومها[4] .

11. أبو الدرداء رضي الله عنه:

قال أبو الدرداء: ذروة الإيمان أربع: الصبر للحكم والرضا بالقدر والإخلاص للتوكل والإستسلام للرب[5] .

---

(1) المصدر نفسه (4 / 745) .

(2) المصدر نفسه (4 / 746) .

(3) المصدر نفسه (4 / 746) .

(4) شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة (4/ 747) .

(5) المصدر نفسه (4/ 749) .



ثامناً: تقسيم القدر إلى خير وشر:

ولابدَّ هنا من البيان أن تقسيم القدر إلى خير وشر، إنما هو بإضافته إلى الناس والمخلوقات، أما بالنسبة لله عز وجل، فالقدر كله خير وحكمة وعدل ورحمة من الله سبحانه الذي قضى بتقدير المصائب والبلايا وكل ما يكرهه الإنسان لحكم كثيرة من أبرزها:

1ـ الابتلاء لعباده: واختبارهم وتمحيص الإيمان في قلوبهم وزيادة درجاتهم وثوابهم إذا صبروا، قال تعالى: "وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ" (الأنبياء : 35) ، والمقصود بالفتنة هنا الاختبار وقال سبحانه: "أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ" (العنكبوت : 2 ـ 3) .

2ـ التربية والتأديب: والجزاء المعجل لكي يثوب الإنسان إلى رشده، ويرجع عن خطئه[1] ، قال تعالى: "فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّاكَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ" (النحل : 34) .

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا أراد الله بعبده خيراً عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافى به يوم القيامة[2] .

ما يصيب الإنسان إن كان يسره فهو نعمة بينه، وإن يسوؤه فهو نعمة، لأنه يكفر خطاياه، ويثاب عليه بالصبر .

ومن جهة إن فيه حكمة ورحمة لا يعلمها العبد، قال تعالى:"وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لكم" (البقرة: 216) . وكلتا النعمتين تحتاج مع الشكر إلى صبر[3] .

(1) منهج الإسلام في تزكية النفس (1 / 152) .

(2) سنن الترمذي رقم 2396 حديث حسن غريب.

(3) مجموع الفتاوى (8/ 209 ـ 210) .

والمقصود أن الله تعالى منعم بهذا كله، وإن كان لا يظهر في الابتداء لأكثر الناس، فإن الله يعلم وأنتم لا تعلمون[1] .

وفي بيان قوله تعالى:" مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ" (النساء: 79) . نلاحظ: فرّق سبحانه وتعالى بين الحسنات التي هي النعم، وبين السيئات التي هي المصائب، فجعل هذه من الله وهذه من نفس الإنسان، لأن الحسنة مضافة إلى الله، إذ هو أحسن بها من كل وجه.. أما السيئة فهو إنما يخلقها لحكمة، وهي باعتبار تلك الحكمة من إحسانه فإن الرب لا يفعل سيئة قط بل فعله كله حسن وخير [2] .

(1) منهج الإسلام في تزكية النفس (1/ 153) .

(2) المصدر نفسه (1/ 154) .



الفصل الثاني:

مراتب القدر

أولاً: مرتبة العلم .

ثانياً: مرتبة الكتابة

ثالثاً: مرتبة الإرادة والمشيئة

رابعاً: مرتبة الخلق





الفصل الثاني:

مراتب القدر

القدر:على أربع مراتب:

أولاً: مرتبة العلم:

الإيمان بعلم الله عز وجل المحيط بكل شيء من الموجودات والمعدومات والممكنات والمستحيلات، فعلم ما كان وما يكون ومالم يكن لو كان كيف يكون، وأنه علم ما الخلق عالمون قبل أن يخلقهم، وعلم أرزاقهم وآجالهم وأحوالهم وأعمالهم في جميع حركاتهم وسكناتهم وشقاوتهم وسعادتهم ومن هو منهم من أهل الجنة ومن هو منهم من أهل النار من قبل أن يخلقهم ومن قبل أن يخلق الجنة والنار، علم دق ذلك وجليله وكثيره وقليله وظاهره وباطنه وسره وعلانيته ومبدأه ومنتاه، كل ذلك بعلمه الذي هو صفته ومقتضى اسمه العليم الخبير عالم الغيب والشهادة علّام الغيوب(1) .

والأدلة من القرآن الكريم كثيرة منها:

1 . قوله تعالى:" وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ" (الأنعام: 59) . ومفاتح الغيب فسرها رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنها خمس لا يعلمها إلا الله وهي المذكورة في قوله تعالى:" إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ" (لقمان: 34) .

والآية دلت على أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ محيط علمه بجميع الموجودات بريها وبحريها وما تسقط من

(1) معارج القبول للحافظ الحكمي (1 / 920) .





ورقة إلا يعلمها فهو يعلم حركة الجمادات، ومن باب أولى غيرها من الحيوانات وبني الإنسان المكلفين[1] .

وقد أحاط علمه ـ سبحانه وتعالى ـ بكل حبة كائنة في ظلمات الأرض من الأمكنة المظلمة أو النبات الذي في بطن الأرض قبل أن يظهر [2] .

2 ـ وقوله تعالى:" هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ" (الحشر: 22) أي: السر والعلانية، أو الدنيا والآخرة، أو المعدوم والموجود[3] .

3 ـ وقال تعالى:" لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا" (الطلاق: 12) ، فلا يخرج عن علمه شيء منها كائناً ما كان[4] ، فإحاطته سبحانه بكل شيء علماً يدل على ثبوت صفة العلم لله المتصف به أزلاً والشامل لكل شيء[5] .

4 ـ وقال تعالى:" إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا" (طه: 98) .

فبعد أن أحرق موسى ـ عليه السلام ـ العجل، ونسفه في البحر، فبطل أن يكون إلهاً كما زعموا، فلما فعل ذلك وتبين لهم بطلانه، أخبرهم بمن يستحق العبادة وهو الله سبحانه وتعالى، المتوحد بالألوهية، والذي قد أحاط علمه بجميع الأشياء[6] .

5 ـ وقال تعالى:" كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ" (البقرة: 216) . فعواقب الأمور لا يعلمها إلا الله[7] .

6 ـ وقال تعالى: مجيباً الملائكة ـ بعد اخبارهم أنه جاعل في الأرض خليفة واستفهامهم ـ قال تعالى:

---

(1) تفسير ابن كثير (3/ 260) .

(2) فتح البيان صديق خان (3/ 172) ، القضاء والقدر للمحمود ص 56.

(3) تفسير النسقي (5/ 181) .

(4) فتح البيان (9/ 474) ، القضاء والقدر المحمود ص 56.

(5) القضاء والقدر المحمود ص 56.

(6) تفسير السعدي (5/ 185) .

(7) تفسير ابن كثير (1/ 368) .



" إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ" (البقرة: 30) أي: أنه سيكون في تلك الخليقة أنبياء، ورسل، وقوم صالحون، وساكنو الجنة[1] ، فعلمه محيط بكل شيء.

7 . وقال تعالى:" عَالِمِ الْغَيْبِ لَايَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ" (سبأ: 3) . الجميع مندرج تحت علمه فلا يخفى عليه شيء، فالعظام وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت فهو عالم أين ذهبت؟ وأين تفرقت؟ ثم يُعيدُهَا كما بدأها أوّل مرّة فإنه بكل شيء عليم[2] .

8 . وقال تعالى:" هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى" (النجم: 32) . أي: هو بصير بكم عليم بأحوالكم وأفعالكم وأقوالكم التي ستصدر عنكم وتقع منكم، حين أنشأ أباكم آدم من الأرض، واستخرج ذريته من صُلبه أمثال الذّرّ، ثم قسمهم فريقين فريقاً للجنة وفريقاً للسعير، وكذا قوله" وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أمهاتكم" قد كتب الملك الذي يُوَكُّلُ به: رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أم سعيد[3] .

9 . وقال تعالى:" أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ" (العنكبوت: 10) . أي: أوليس الله بأعلم بما في قلوبهم وما تكنه ضمائرهم وإن أظهروا لكم الموافقة[4] ؟

10 . وقال تعالى:" وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا" (الجن: 28) .

. أدلة هذه المرتبة من السنة:

1 . عن ابن عباس رضي الله عنهما: قال: سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن أولاد المشركين فقال: الله أعلم بما كانوا عاملين[5] .

2 . وعن أبي هريرة رضي الله عنه . قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه، كما تنتجون البهيمة هل تجدون فيها من جدعاء، حتى تكونوا أنتم تجدعونها؟

---

(1) تفسير ابن كثير (1/ 368) ، القضاء والقدر المحمود ص 57.

(2) صحيح تفسير ابن كثير (3/ 605) .

(3) صحيح تفسير ابن كثير (4/ 318) .

(4) المصدر نفسه (3/ 457) .

(5) البخاري رقم 2660.



قالوا: يا رسول: أفرأيت من يموت وهو صغير؟

قال: الله أعلم بما كانوا عاملين. والشاهد قوله: " الله اعلم بما كانوا عاملين[1] " بالنسبة لأولاد المشركين والمسلمين، ومعنى ذلك أنهم لو عاشوا فإن الله عالم بأعمالهم خيرها وشرها، فالله يعلم ما كان، ومالم يكن لو كان كيف يكون[2] .

3 . **وعن علي . رضي الله عنه .** قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم جالساً، وفي يده عود ينكت به، فرفع رأسه فقال: ما منكم من نفس إلا وقد عُلم منزلها من الجنة والنار. قالوا: يا رسول الله، فلم نعمل؟ أفلا نتكل؟ قال: لا، اعملوا فكل ميسر لما خلق له ثم قرأ " فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى[3] "، إلى قوله " فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى" (الليل: 5 . 10) ، والشاهد قوله:" ما منكم من نفس إلا وقد علم منزلها من الجنة والنار" فالله علم أهل الجنة وأهل النار بعلمه القديم، فالحديث يدل على ثبوت العلم الكامل لله تعالى[4] .

4 . **وعن عائشة أم المؤمنين** أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال: اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، أهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاءإلى صراط مستقيم[5] .

5 . **وقال صلى الله عليه وسلم:** بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم[6] ، فاسم الله "العليم" يقتضي أنه سبحانه عالم بأرزاق العباد وآجالهم وأعمالهم وجميع

(1) البخاري رقم 2658.

(2) القضاء والقدر د. عبد الرحمن المحمود ص 58.

(3) مسلم رقم 2647.

(4) القضاء والقدر د. عبد الرحمن المحمود ص 59.

(5) مسلم، ك الصلاة رقم 770.

(6) صحيح ابن ماجة للألباني (2 / 332) .





حركاتهم وسكناتهم والشقي منهم والسعيد قبل أن يخلقهم[1] .

ثانياً: مرتبة الكتابة:

وهي أن الله تعالى ـ كتب مقادير المخلوقات، والمقصود بهذه الكتابة الكتابة في اللوح المحفوظ، وهو الكتاب الذي لم يفرط فيه الله من شيء، فكل ما جرى ويجري فهو مكتوب عند الله وأدلة هذه المرتبة كثيرة نذكر منها:

1 . قوله تعالى:" مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ" (الأنعام: 38) ، على أحد الوجهين، وهو أن المقصود بالكتاب هنا اللوح المحفوظ، فالله أثبت فيه جميع الحوادث، فكل ما يجري مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ[2] .

2 . وقال تعالى:" وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ" (الأنبياء: 105) . فأخبر ـ تعالى ـ أن هذا مكتوب مسطور في الكتب الشرعية والقدرية فهو كائن لا محالة[3] . والآية دالة على مرتبة الكتابة عند من فسر الزبور بالكتب بعد الذكر، والذكر أمُّ الكتاب عند الله، وهو اللوح المحفوظ[4] .

3 . وقال تعالى في قصة أسرى بدر:" لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ" (الأنفال: 68) ، أي: لولا كتاب سبق به القضاء عند الله أنه قد أحل لكم الغنائم وأن الله رفع عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم لمسكم العذاب[5] ، فالآية دليل على الكتاب السابق[6] .

4 . وقال تعالى:" أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ" (الحج: 70) . وهذه الآية من أوضح الأدلة الدالة، على علمه المحيط بكل شيء، وأنه علم

(1) المباحث العقدية، علي الكيلاني (2 / 880) .

(2) القضاء والقدر د. عبد الرحمن المحمود ص 60.

(3) صحيح تفسير ابن كثير (3 / 177) .

(4) القضاء والقدر، عبد الرحمن المحمود ص 60.

(5) تفسير السعدي (3/ 191) .

(6) تفسير ابن كثير (5/ 448) ، تفسير النسفي (3/ 389) .





الكائنات كلها قبل وجودها، وكتب الله ذلك في كتابه اللوح المحفوظ[1] ، فالآية جمعت بين المرتبتين[2] .

5 . وقال تعالى:" وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ" (النمل: 75) ، أي: خفية أو سر من أسرار العالم العلوي والسفلي، إلا في كتاب مبين، قد أحاط ذلك الكتاب بجميع ما كان ويكون إلى أن تقوم الساعة، فما من حادث جلي أو خفي، إلا هو مطابق لما كتب في اللوح المحفوظ[3] ، فالآية دليل على الكتابة السابقة لكل ما سيقع.

6 . وقال تعالى في آية جمعت بين مرتبتي العلم والكتابة:" وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْه مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ" (يونس: 61) ، وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ" أي: ما يغيب عن علمه وبصره وسمعه ومشاهدته أي شيء، حتى مثاقيل الذر، بل هو ما أصغر منها، وهذه مرتبة العلم، وقوله:"إِلاَّ فِي كِتَابٍ" : مرتبة الكتابة، وكثيراً ما يقرن الله . سبحانه وتعالى . بين هاتين المرتبتين[4] .

7 . قال تعالى:" وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ" (يس: 12) ، أي: جميع الكائنات مكتوب في كتاب مسطور مضبوط في لوح محفوظ، والإمام المبين هَهُنا: هو أم الكتاب[5] .

8 . وقال تعالى:" وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ *وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ" (القمر: 52 . 53) ، أي: مكتوب عليهم في الكتب التي بأيدي الملائكة عليهم السلام " وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ" أي : من أعمالهم

(1) تفسير ابن كثير (5/ 448) ، تفسير النسفي (3/ 389) .

(2) القضاء والقدر ص 60.

(3) تفسير السعدي (5/ 598) .

(4) تفسير السعدي (3 / 366) .

(5) صحيح تفسير ابن كثير (3 / 654) .





"مُسْتَطَرٌ " أي: مجموع عليهم، ومسطر في صحائفهم، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها[1] .

9 . وقال تعالى عن موسى حين قال له فرعون:" فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى * قالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّايَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى" (طه: 51. 52) .

إن فرعون لما أخبره موسى بأن ربه الذي أرسله هو الذي خلق ورزق وقدّر وهدى، شرع يحتج بالقرون الأولى، أي: الذين لم يعبدوا الله، أي: فما بالهم إذا كان الأمر كما تقول لم يعبدوه بل عبدوا غيره؟ فقال له موسى في جواب ذلك: هم وإن لم يعبدوه فإن عَملَهمُ عند الله مضبوط عليهم، وسيجزيهم بعملهم في كتاب الله وهو اللوح المحفوظ وكتاب الأعمال " لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى" أي: لا يشذ عنه شيء ولا يفوته صغير ولا كبير ولا ينسى شيئاً، يصف علمه تعالى بأنه بكل شيء محيط، وأنه لا ينسى شيئاً تبارك وتعالى وتقدّس وتنزه، فإن علم المخلوقات يعتريه نقصانان، أحدهما: عدم الإحاطة بالشيء، والآخر: نسيانه بعد علمه، فنزه نفسه عن ذلك[2] .

10 . وقال تعالى:" وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ" (فاطر: 11) .

. الأدلة من السنة:

1 . قال عبد الله بن عمرو بن العاص، . رضي الله عنهما . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وكان عرشه على الماء[3] ، فالدليل من الحديث قوله: كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض، فالمراد تحديد وقت الكتابة في اللوح المحفوظ أو غيره، لا أصل التقدير فإن ذلك أزلي لا أول له وقوله:" وعرشه

(1) المصدر نفسه (4 / 335) .

(2) صحيح تفسير ابن كثير (3 / 115) .

(3) مسلم، ك القدر رقم 2653.





على الماء" أي: قبل خلق السموات والأرض[1] .

2 . وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه: ركب خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا غلام إنّي معلمك كلمات ينفعك الله بهنّ: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، وأعلم أنّ الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضرّوك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف[2] .

3 . ومن الأحاديث المشهورة حديث: أول ما خلق الله القلم وفيه: أن الله أمره بكتابة ما هو كائن إلى يوم القيامة، فعن أبي حفصة قال: قال عبادة بن الصامت لأبنه: يا بني إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، قال: رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة، يا بني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من مات على غير هذا فليس مني[3] ، فالرواية فيها دليل على مرتبة الكتابة حيث أمر الله القلم بكتابة ما هو كائن إلى يوم القيامة[4] .

ثالثاً: مرتبة الإرادة والمشيئة:

إن كل ما يجري في هذا الكون فهو بمشيئة الله، سبحانه وتعالى، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فلا يخرج عن إرادته الكونية شيء

ومن الأدلة في القرآن الكريم:

1 . قال تعالى:" إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ" (يس: 82) . أي: إنما يأمر بالشيء، أمراً واحداً لا يحتاج إلى تكرار.

(1) شرح النووي على صحيح مسلم (16/ 203) .

(2) سنن الترمزي (4/ 667) رقم 2516 حسن صحيح.

(3) سنن أبي داود، ك السنة، باب في القدر رقم 4700.

(4) القضاء والقدر، المحمود ص 65.



إذا ما أراد الله أمراً فإنما يقول له "كن" قولة فيكون[1]

2 . وقد ورد في القرآن الكريم . في الحديث عن بعض الأنبياء وغيرهم . تعليقهم كل أمر بمشيئة الله . سبحانه وتعالى . **فنوح عليه الصلاة والسلام**، لما قال له قومه:" فَأْتِنا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللهُ إِنشَاء وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ" (هود: 32، 33) **. وشعيب عليه السلام** . بعد . ما طلب منه قومه أن يعود إلى ملتهم بين أنه لا يمكن أن يعود إلى ملتهم بعد أن نجاه الله منها هو والمؤمنون معه ولا ينبغي لهم ذلك إلا إذا شاء الله ذلك فقال:" قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاء اللهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا" (الأعراف: 89) ، فعلق أعظم شيء وهو الإيمان والكفر على مشيئة الله. **. ويوسف عليه السلام**، قال لأهله بعد أن ألتقى بهم:" ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللهُ آمِنِينَ" (يوسف: 99) . **. وقال موسى عليه السلام** . للعبد الصالح "قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا" (الكهف: 69) . **. والله سبحانه وتعالى وجه نبيه** قائلاً:" وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ" (الكهف: 23، 24) . فهذه الآيات تدل على استقرار عقيدة المسلمين ويقينهم بهذه المرتبة من مراتب القدر[2] .

3 . قال تعالى:" قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (آل عمران: 26) ، أي: أنت المعطي وأنت المانع، وأنت الذي ما شئت كان وما لم يشأ لم يكن[3] .

4 . قال تعالى:" هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاء لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" (آل عمران: 6) ، أي وهو الذي يصور الخلق في الأرحام كيف يشاء ذكوراً وإناثاً، أشقياء وسعداء مختلفين في صفاتهم وأشكالهم، حسناً وقبحاً[4] .

---

(1) صحيح تفسير ابن كثير (3/ 675) .

(2) القضاء والقدر، المحمود ص 70.

(3) صحيح تفسير ابن كثير (1 / 338) .

(4) القضاء والقدر ص 71.

5 . قال تعالى:" فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء" (الأنعام : 125) ، أي: ييسره له وينشطه ويسهله لذلك، ويوسع قلبه للتوحيد والإيمان به " وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ" أي يجعل صدره ضيقاً، لا يتسع لشيء من الهدى ولا يخلص إليه شيء ما ينفعه من الإيمان ولا ينفذ فيه[1] .

6 . وقال تعالى:" وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ" (السجدة: 13) .

7 . وقال تعالى:" وَلَوْ شَاء اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى" (الأنعام: 35) .

8 . وقال تعالى:" وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً" (هود: 118) .

9 . قوله تعالى . في معرض الحديث عن أهل الكتاب، ونهي النبي صلى الله عليه وسلم على أن يتبع أهواءهم، وأمره أن يلتزم الحكم بما أنزل الله، مبيناً أن لكل من الأمم الثلاثة: اليهود والنصارى، وأمة محمد، شريعة ومنهاجاً في كل من التوراة والإنجيل والقرآن،" وقد نسخ القرآن ما قبله" قال بعد ذلك:" وَلَوْ شَاء اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِيمَآ آتَاكُم " (المائدة: 48) ، أي: لجعلكم على شريعة واحدة، وكتاب واحد، ورسول واحد، لكن لما لم يشأ الله ذلك، بل شاء الأبتلاء والاختبار، فكنتم على الحالة التي أنتم عليها[2] ، فمشيئة الله مطلقة، والنافذ هو ما يشاؤه . سبحانه وتعالى . فهذا دليل على مرتبة المشيئة[3]
.

. أدلة هذه المرتبة من السنة:

1 . عن أبي موسى الأشعري . رضي الله عنه . قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جاءه السائل أو طلبت إليه حاجة قال: اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ما شاء[4] .

---

(1) صحيح تفسير ابن كثير (2/ 69) .

(2) القضاء والقدر، عبد الرحمن المحمود ص 69.

(3) المصدر نفسه ص 69.

(4) البخاري، ك الزكاة، فتح الباري (3/ 299) .

فأوصى بالشفاعة وذلك فيما ليس بمجرم وضابطها: ما أذن في الشرع دون ما لم يأذن فيه[1] ، ثم بين أن الله يقضي على لسان رسوله ما شاء، أي: يظهر على لسان رسوله بالوحي أو الإلهام ما قدره في علمه بأنه سيقع[2] ، فهذا يدل على مرتبة المشيئة.

2 . **قال رسول الله صلى الله عليه وسلم**: من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم والله يعطي، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله[3] ، فقوله: من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، فيه إثبات مرتبة الإرادة، وأن الأمور كلها تجري بمشيئة الله تعالى . ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: وإنما أنا قاسم والله يعطي، أي: إنما اقسم ما أمرني الله بقسمته، والمعطي حقيقة هو الله . تعالى . فالأمور كلها بتقدير الله تعالى، والإنسان مصرف مربوب،

3 . **ومن الأحاديث الدالة على الإرادة** حديث حذيفة بن أسيد الغفاري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، رفع الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن ملكاً موكلاً بالرحم، إذا اراد الله أن يخلق شيئاً بإذن الله لبضع وأربعين ليلة... الحديث[4] . فالله هو المريد الخلق الآدمي، والأحاديث الدالة على مرتبة المشيئة والإرادة كثيرة جداً[5] .

4 . **وعن ابن عباس . رضي الله عنهما .** أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم: ما شاء الله وشئت، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: أجعلتني والله عدلاً، بل ما شاء الله وحده[6] ، والحديث واضح الدلالة على إثبات مرتبة المشيئة، وأن الله تعالى له المشيئة المطلقة، وأن للعباد مشيئة خاضعة لمشيئة الله . تعالى .، والنهي في الحديث إنما هو عن قرن مشيئة الله بمشيئة الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث عطفها بالواو والتي هي لمطلق الجميع من غير ترتيب ولا تعقيب، والرسول مثل غيره من العباد، فالكل خاضعون لمشيئة الله، ومشيئتهم تابعة لمشيئة الله[7] .

---

(1) فتح الباري (10/ 451) .

(2) المصدر نفسه (13/ 452) .

(3) البخاري، ك فتح الباري (1 / 164) .

(4) مسلم رقم 2645.

(5) القضاء والقدر ص 76 المحمود.

(6) مصنف ابن أبي شيبة رقم 6742.

(7) القضاء والقدر المحمود ص 75.



5 . وعن أبي هريرة . رضي الله عنه . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا يقل أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت أرحمني إن شئت، أرزقني إن شئت، وليعزم مسئلته أنه يفعل ما يشاء لا مكره له[1] .

ففيه إثبات المشيئة لله . تعالى . فهو الغفور الرحيم، والرازق إذا شاء، وهو سبحانه يفعل ما يشاء، لا مكره له، والحديث فيه الحث على العزم في المسألة والجزم فيها، دون ضعف أو تعليق على المشيئة، وإنما نهى عن التعليق على المشيئة لأنه لا يتحقق استعمال المشيئة إلا في حق من يتوجه إلى الإكراه، والله . سبحانه وتعالى . لا مكره له، كما نص عليه الرسول صلى الله عليه وسلم هنا[2] .

6 . وعن عبد الله بن عمرو بن العاص . رضي الله عنهما . أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد يصرفه حيث يشاء، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك[3] . والشاهد قوله: "كقلب واحد يصرفه حيث يشاء"، ومعناه أنه سبحانه وتعالى متصرف في قلوب عباده كلهم، فيهدي ويضل كما يشاء، ففيه دلالة على مرتبة المشيئة[4] .

7 . وقد أقر النبي صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب . رضي الله عنه . حين أجابه بعد سؤاله له هو وفاطمة بقوله: "ألا تصليان؟" فأجابه بقوله: أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا.

قال علي: فانصرف حين قلت له ذلك، ولم يرجع إلي شيئاً، ثم سمعته وهو مُوَلِّ يضرب فخذه وهو يقول: " وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا"[5] . ففي هذا الحديث إثبات لمشيئة الله . تعالى . وأن العبد لا يفعل شيئاً إلا بإرادة الله وأما انصراف النبي صلى الله عليه وسلم وضربه فخذه، واستشهاده بالآية، فمعناه

---

(1) البخاري (7477) مسلم رقم 2678.

(2) شرح النووي على مسلم (17 / 6 . 7) ، فتح الباري (11 / 140) .

(3) مسلم، ك القدر رقمه 2654 (4 / 2045) .

(4) شرح النووي على مسلم (16 / 204) .

(5) فتح الباري (3 / 10) مسلم رقم 775..



أنه تعجب من سرعة من جوابه وعدم موافقته له على الاعتذار بهذا، ولهذا ضرب فخذه[1] .

8 . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رفع رأسه من الركوع يقول: ربنا لك الحمد ملء السماوات والأرض وملء ما شئت من شئ بعد، أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد[2] .

وهذا تحقيق لوحدانيته لتوحيد الربوبية خلقاً وقدراً وبداية وهداية هو المعطي المانع لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع ولتوحيد الإلهية شرعاً وأمراً ونهياً[3] . وفي هذا الحديث: فيه من التفويض إلى الله تعالى والإذعان له والاعتراف بوحدانيته والتصريح بأنه لا حول ولا قوة إلا به وأن الخير والشر منه والحث على الزهادة في الدنيا والإقبال على الأعمال الصالحة[4] .

9 . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كلٍ خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شئ فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان[5] .ففي الحديث حث رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإيمان بمقادير الله وبمشيئة الله وإرجاع ما يقع للعبد إلى مشيئة الله: "وما شاء فعل" فيه إثبات المشيئة لله تعالى[6] .

10 . وعن ابن عباس رضي الله نهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على أعرابي يعوده فقال: لا بأس عليك طهور إن شاء الله، قال الأعرابي: طهور، بل هي هي حمى تفور على شيخ كبير، تُزيره القبور، قال النبي صلى الله علي وسلم: فنعم إذاً[7] .

---

(1) شرح النووي (4 / 2045) .

(2) مسلم رقم 771.

(3) مجموع الفتاوي (14 / 376) .

(4) شرح صحيح مسلم للنووي (4 / 195 . 196) .

(5) مسلم رقم 2664.

(6) المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار (2 / 883) .

(7) البخاري، ك التوحيد رقم 7032.



وهذا الحديث استدل به البخاري في صحيحه في كتاب التوحيد علي إثبات مشيئة الله عز وجل، كما هو واضح في تخريج الحديث، حيث بوّب له باب: في المشيئة والإرادة. والشاهد منه قوله صلى الله عليه وسلم: إن شاء الله. فجعل كون هذا المرض الذي أصيب به المريض طهوراً من ذنوبه ومكفراً لها مقيداً بمشيئة الله تعالى وفوض ذلك فإن شاء الله تعالى جعله كفارة وطهوراً فهو يفعل ما يشاء وهو على كل شئ قدير.[1]

11 . وفيما يقال عند دخول القبور ما ورد عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما كان ليلتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج من آخر الليل إلى البقيع فيقول: السلام عليكم دار قومٍ مؤمنين وأتاكم ما توعدون غداً مؤجلون وإنا إن شاء الله بكم لاحقون اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد[2] .

والأحاديث الدالة على مرتبة المشيئة والإرادة كثيرة جداً.

رابعاً: مرتبة الخلق:

وهو الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى خالق كل شئ، فهو خالق كل عامل وعمله، وكل متحرك وحركته، وكل ساكن وسكونه، وما من ذرّة في السماوات وفي الأرض إلا والله سبحانه وتعالى خالقها وخالق حركتها وسكونها، سبحانه لا خالق غيره ولا ربّ سواه[3] .

ومن الأدلة من القرآن.

1 . قال تعالى: " قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ" (الصافات : 95 . 96) . أي خلقكم وعملكم، فتكون ما مصدرية، وقيل: إنها بمعنى الذي، فيكون المعنى: والله خلقكم وخلق الذي تعملونه بأيديكم وهو الأصنام[4] .

(1) المباحث العقدية (2 / 884) .

(2) مسلم، رقم 974.

(3) معارج القبول (3 / 940) .

(4) زاد المسير في علم التفسير (7 / 70) .





وقد ذكر ابن كثير القولين ثم قال: وكلا القولين متلازم والأول أظهر[1] ، وقد علل ذلك بما يؤيده من رواية البخاري في أفعال العباد عن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله يصنع كل صانع وصنعته وتلا بعضهم عند ذلك "وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَاتَعْمَلُونَ" فأخبر الصناعات وأهلها مخلوقة[2] ، فالله ـ تعالى ـ خالق الخلق وأفعالهم كما دلت على ذلك، الآية والحديث[3] .

2 ـ قال تعالى: "اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ" (الرعد : 16) ، وفي آية أخرى: "ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ" (غافر : 62) .

وهذه نصوص واضحة في الدلالة على مرتبة الخلق، وقد جاءت الآية الأولى في معرض إنكار أن يكون للشركاء خلق كخلقه ـ سبحانه وتعالى ـ ففي ذلك سبحانه آمراً رسوله أن يقرر هذه الحقيقة التي تفصل في الأمر، وتدل على وحدانية الله ـ تعالى ـ وانفراده بالخلق والرزق "قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ" (الرعد : 16) ، وفي موضع آخر جاءت هذه الآية لبيان قدرة الله ـ تعالى ـ وكماله ودلائل وحدانيته " اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ" (الزمر : 62) ، أما الآية الثانية فقد جاءت أيضاً لبيان قدرة الله التامة، حيث جعل لعباده الليل والنهار ثم بين سبحانه أنه خالق كل شئ[4] .

3 ـ وقال تعالى: ممتناً على الصحابة ـ رضوان الله تعليهم ـ بعد أن أمرهم بالتثبت في خبر الفاسق قال تعالى: "وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ" (الحجرات : 7) . والشاهد قوله: " وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ....." فهو سبحانه هو الذي حسنه بتوفيقه وقربه منكم، وهو الذي جعل ما يضاد الإيمان من الكفر والفسوق والعصيان مكروهاً عندكم وذلك بما أودع في قلوبكم من كراهة الشر وعدم إرادة فعله، فالفاعل في كل ذلك هو الله تعالى[5] .

---

(1) تفسير ابن كثير (7 / 22) القضاء والقدر، ص 77.

(2) تفسير ابن كثير (7 / 22) القضاء والقدر، ص 77.

(3) القضاء والقدر، عبد الرحمن المحمود ص 77.

(4) القضاء والقدر، المحمود ص 78.

(5) فتح البيان في مقاصد القرآن صديق خان (9 / 74) .





وهناك آيات كثيرة تدل على أن الله ـ تعالى ـ هو المضل والهادي، والمؤيد لعباده المؤمنين، والهازم لأعدائهم وأنه المضحك والمبكي، والمميت والمحيي، وكل ذلك دليل مرتبة[1] الخلق.

وقد أورد الحافظ ابن كثير هذا الدعاء في تفسيره آية الحجرات السابقة " وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ" قال لما كان يوم أحد وإنكفأ المشركون قال صلى الله عليه وسلم: "استووا حتى أثني على ربِّ" فصاروا خلفه صُفُوفاً: فقال النبي صلى الله عليه وسلم: اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لما أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما بعدت، ولا مباعد لما قربت، اللهم أبسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، اللهم إني أسألك النعيم يوم العيلة، والأمن يوم الخوف، اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعت، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين، اللهم توفنا مسلمين، وأحيينا مسلمين وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك، ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب إله الحق[2] . فترى في هذا الحديث الإقرار بأن الله ـ تعالى ـ هو الفاعل لهذه الأمور، وهذا دليل على مرتبة الخلق[3] .

ـ أدلة هذه المرتبة من السنة:

1 ـ عن زيد بن أرقم ـ رضي الله عنه ـ قال: لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: كان يقول: اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل، والهرم وعذاب القبر، اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها[4] .

---

(1) القضاء والقدر، المحمود ص 79.

(2) مسند أحمد (3 / 4224) السنة لابن أبي عاصم رقم 381.

(3) القضاء والقدر، عبد الرحمن المحمود ص 80.

(4) مسلم، ك الذكر والدعاء رقم 2722 .





والشاهد قوله:" اللهم آت نفسي تقواها وزكاها..، فالفاعل هو الله . تعالى . فهو الذي يطلب منه ذلك، ولفظ "خير" ليس للتفضيل، بل لا مزكي للنفس إلا الله، ولهذا قال بعد ذلك أنت وليها ومولاها[1] ، فهو سبحانه الملهم للنفس الخير والشر. قال تعالى:" فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا" (الشمس: 8) . قال سعيد بن حبير في تفسير هذه الآية " فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا" أي: فالخلق لله والإنسان قادر على سلوك أيهما شاء ومخير فيه، وقال ابن زيد في معنى الآية: جعل ذلك فيها بتوفيقه إياها للتقوى، وخذلانه إياها بالفجور[2] .

2 . وعن البراء بن عازم . رضي الله عنه . قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يوم الخندق ينقل معنا التراب وهو يقول:

والله لولا الله ما اهتدينا	ولا صمنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا	وثبت الأقدام إن لاقينا
والمشركون قد بَغَوْا علينا	إذا أرادوا فتنة أبينا[3]

وفي رواية أخرى للبخاري: ولا تصدقنا ولا صلينا[4] ، بدل: ولا صمنا ولا صلينا، وبهذه الرواية يستقيم الوزن، قال ابن حجر: وهو المحفوظ[5] . ودليل هذه المرتبة قوله: لولا الله ما اهتدينا، ولا تصدقنا ولا صلينا، فإنها دليل على أن الله هو خالق العباد وأفعالهم ومنها: الهداية، والصدقة، والصلاة[6] .

3 . وعن ورّاد مولى المغيرة بن شعبة قال: كتب معاوية إلى المغيرة: أكتب إليّ ما سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول خلف الصلاة، فأملى عليّ المغيرة قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول

---

(1) شرح النووي على مسلم (17 / 41) .

(2) زاد المسير، ابن الجوزي (9 / 140) .

(3) فتح الباري (11/ 516) .

(4) المصدر نفسه (7/ 399) .

(5) المصدر نفسه (11/ 516) .

(6) القضاء والقدر، عبد الرحمن المحمود ص 83.



خلف الصلاة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد[1] . والشاهد قوله : اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت فالمعطي والمانع هو الله ـ تعالى ـ، فهو الفاعل لهما، وهذا يدل على أن الخالق هو الله ـ سبحانه وتعالى ـ .وقوله :"ولا ينفع ذا الجد منك الجد" أي: لا ينفع ذا الغنى منك غناه، أو لا ينجيه حظه منك، بل ينفعه عمله الصالح[2] .

4 ـ وقد قال صلى الله عليه وسلم لأبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ :يا عبد الله ابن قيس، ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة، فقلت: بلى يا رسول الله، قال: قل: لا حول ولا قوة إلا بالله[3] . والشاهد قوله: لا حول ولا قوة إلا بالله، ففيها الاعتراف بأنه لا صانع غير الله، ولا راد لأمره وأن العبد لا يملك من أمره شيئاً، فمعناها: لا حركة ولا أستطاعة ولا حيلة إلا بمشيئة الله تعالى، وقيل معناه لا حول في دفع شر ولا قوة في تحصيل خير إلا بالله، وقيل: لا حول عن معصية الله إلا بعصمته، ولا قوة على طاعة الله إلا بمعونته، وحُكِيَ هذا عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ وكله متقارب[4] ، والكنز هنا: معناه ثواب مُدَّخر في الجنة عند الله وهو ثواب نفيس[5] .

5 ـ وعن علي بن أبي طالب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال: وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين وإذا سجد قال: اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين[6] . ففي الحديث: دلالة على أن الله فطر السموات والأرض أي خلقهن وأبدعهن وأتقن صنعهن وأوجدهن من العدم على غير مثال سابق، فخلقه سبحانه لهذا الكون من أرض وسموات وما

---

(1) فتح الباري (2 / 325) .

(2) القضاء والقدر، المحمود ص 81.

(3) فتح الباري (11/ 500) .

(4) شرح النووي على صحيح مسلم (17/ 26 ـ 27) .

(5) المصدر نفسه (17/ 27) .

(6) مسلم، ك صلاة المسافرين رقم 771.



فيهن من رطب ويابس ومخلوقات عجيبة أكبر دليل على هذه المرتبة وأن الله يخلق الخلق بقدرته على ما اقتضاه علمه السابق ومشيئته النافذة[1] .

6 . قال صلى الله عليه وسلم: سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما أستطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علي وأبوء لك بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، قال: ومن قالها من النهار موقناً بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة[2] .

والحديث يدل على شيء مما خلق الله تعالى وهو خلق الإنسان وما احتواه هذا المخلوق من أعضاء وأجهزة يعجز الإتيان بمثلها إلا من هو خالق كل شيء سبحانه فالناظر في نفسه ودقة تكوينها وعجيب خلقتها يؤمن بأن الله خالق كل شيء[3] ، فتضمن هذا الاستغفار الاعتراف من العبد بربوبية الله وإلهيته وتوحيده والاعتراف بأنه خالقه، العالم به إذ انشأه نشأة تستلزم عجزه عن أداء حقه وتقصيره فيه[4] .

---

(1) المباحث العقدية (2/ 886) .

(2) البخاري، ك الدعوات رقم 5947.وللعلامة السفاريني كتاب في شرح هذا الحديث.

(3) المباحث العقدية (2/ 886) .

(4) مدارج السالكين (1/ 221) .





الفصل الثالث:

التقادير الخمس وأنواع الإرادة

أولاً: التقادير الخمس

1. التقدير الأزلي .
2. تقدير يوم الميثاق .
3. التقدير العمري .
4. التقدير الحولي .
5. التقدير اليومي .

ثانياً: أنواع الإرادة

1. الإرادة الكونية .
2. الإرادة الشرعية .
3. الفرق بين الإرادتين
4. تعلق الإرادتين بالمخلوقات .
5. كلام حسن لابن القيم في الخلق الكوني والأمر الشرعي .



الفصل الثالث:

التقادير الخمس وأنواع الإرادة

أولاً: التقادير الخمس:

إن الإيمان بكتابة المقادير يدخل فيه خمسة تقادير

1. التقدير الأزلي:

قبل خلق السماوات والأرض عندما خلق الله تعالى القلم،

. **قال تعالى** :" قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا" (التوبة: 51) .

. **وقال تعالى**:" مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ" (الحديد: 22، 23) .

. **وقال تعالى**:" وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ" (النمل: 75) .

. **وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم**: كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشُهُ على الماء[1] .

2 . تقدير يوم الميثاق:

قال تعالى:" وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ" (الأعراف: 172، 173) .

وهو ميثاق الفطرة الأول، وفيه أخذ الله تعالى من ظهر آدم ذريته، وهم كأمثال الذر، وأشهدهم على أنفسهم وقال لهم" أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا" (الأعراف: 172) فجبلهم على حبه وتوحيده

(1) مسلم، رقم 2653.

وتعظيمه وأقرهم على ذلك بالقوة فصارت النفوس تقر بخالقها، وتميل إلى توحيده وبقيت تلك الفطرة في قلوبهم حجة عليهم[1] .

إن المراد بهذا الاشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد ويؤيد ذلك قوله تعالى:"فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَاتَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ" (الروم: 30) .

ثم جعلهم بعلمه وحكمته فريقين فريق في الجنة وفريق في السعير[2] . قال صلى الله عليه وسلم: إن الله عز وجل خلق آدم ثم أخذ الخلق من ظهره وقال هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي. قال: فقال قائل: يا رسول الله، فعلى ماذا نعمل؟ قال: على موقع القدر[3] .

3 . التقدير العمري:

عند تخليق النطفة في الرحم، فيكتب إذ ذاك ذكوريتها وانوثتها والأجل والعمل، والشقاوة والسعادة وجميع ما هو لاق فلا يزاد فيه ولا ينقص منه[4] .

ـ قال الله تبارك وتعالى:" يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا" (الحج: 5) .

. وقال تعالى:"وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَاتَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ" (فاطر: 11) .
وقال تعالى:"هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ" (غافر: 67) .

---

(1) القضاء والقدر عند السلف، علي السيد الوصيفي ص 56.

(2) المصدر نفسه ص 57.

(3) السلسلة الصحيحة للألباني رقم 48.

(4) معارج القبول (3 / 934) .



وقال تعالى:"إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ" (النجم: 32) وغيرها من الآيات[1] .

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق قال: إن أحدكم يُجْمَعُ خَلْقُهُ في بطن أمه أربعين يوما، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك ثم يُرْسَلُ الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقيٌ أو سعيدٌ، فوالذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها[2] ، وفي رواية أخرى: إذا أمر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم قال: يا رب أذكر أم أنثى، فيقضي ربك ما يشاء ويكتب الملك، ثم يقول: يا رب أجله فيقول ربك ما شاء ويكتب الملك ثم يقول: يا رب رزقه، فيقضي ربك ما شاء ويكتب الملك، ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده فلا يزيد على ما أمر ولا ينقص[3] ,

4 . التقدير الحولي:

ويكون في ليلة القدر: قال تعالى:"إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ" (الدخان: 3 . 5) ومعنى يفرق أنه يكتب ويفصل كل أمر حكيم من أرزاق العباد وآجالهم، وجميع أمورهم من هذه الليلة إلى الأخرى من السنة القابلة[4] ، فيقضي أمر السنة كلها من معايش الناس ومصائبهم وموتهم وحياتهم إلى مثلها من السنة الأخرى[5] .

قال ابن عباس . رضي الله عنه . : يكتب في أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من موت وحياة ورزق ومطر حتى الحجاج يقال: يحج فلان وفلان[6] .

(1) المصدر نفسه (3 / 935) .

(2) البخاري في كتاب بدء الخلق رقم 3208.

(3) مسلم، ك القدر رقم 2645.

(4) تفسير أبو السعود (8 / 58) .

(5) القضاء والقدر المحمود ص68.

(6) تفسير ابن كثير (4 / 140) .





5. التقدير اليومي:

هو سوق المقادير إلى المواقيت التي قدرت لها فيما سبق. قال تعالى:" يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ" (الرحمن: 29) .

روى ابن جرير بسند حسن عن منيب بن عبد الله بن منيب الأزدي عن أبيه قال: قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية:"كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ" فقلنا: يا رسول الله، وما ذاك الشأن؟ قال صلى الله عليه وسلم: أن يغفر ذنباً، ويفرّج كربا، ويرفع قوماً، ويضع آخرين[1] .

وقال البغوي في تفسيره"كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ: من شأنه أن يحي ويميت، ويخلق ويرزق، ويُعز قوما ويذل قوماً، ويشفي مريضاً، ويفك عانيا، ويفرج مكروباً، ويجيب داعياً، ويعطي سائلاً، ويغفر ذنبا إلى ما لا يحصى من أفعاله وإحداثه في خلقه ما يشاء[2] .

قال سبحانه:"قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"(آل عمران: 26) .

وجملة القول في ذلك أن التقدير اليومي هو تأويل المقدورعلى العبد وإنفاذه فيه، في الوقت الذي سبق أن يناله فيه، لا يتقدمه ولا يتأخره.

ثم هذا التقدير اليومي تفصيل من تقدير الحولي، والحولي تفصيل من التقدير العمري عند تخليق النطفة، والعمري تفصيل من التخليق العمري الأول يوم الميثاق، وهو تفصيل من التقدير الأزلي الذي خطه القلم في الإمام المبين والإمام المبين هو من علم الله عز وجل، وكذلك منتهى المقادير في آخريتها إلى علم الله[3] ، فانتهت الأوائل إلى أوليته وإنتهت الأواخر إلى آخريته "وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى" (النجم: 42)[4] .

(1) تفسير ابن كثير (4 / 273) ، صححه الألباني في ظلال الجنة.

(2) تفسير الخازن والبغوي (6 / 80 . 81) .

(3) معارج القبول (3 / 939) .

(4) معارج القبول (3 / 940) .





ثانياً: أنواع الإرادة:

تنقسم الإرادة في كتاب الله إلى إرادة كونية قدرية، وإرادة دينية شرعية.

1. الإرادة الكونية:

هي المشيئة العامة التي يدخل فيها جميع المخلوقات من بر وفاجر وصالح وطالح، وهي إرادة الله تعالى لفعله، سواء إن كان المفعول منه محبوباً أو غير محبوب، يرضيه أم لا يرضيه، فالله تعالى يفعل ما يشاء، ولا يشاء شيئاً إلا بعد إرادته له، وكل ما كان منه فليس فيه إلا الجمال والجلال والحسن .

أما أفعال العباد فهي منقسمة، ففيها الحسن وفيها القبيح، وليس للعباد أن يفعلوا ما يشاؤون، وإنما يفعلون ما يؤمرون به إمتثالاً وإنتهاءً، وهذا هو الحسن منهم.

وتلك الإرادة متعلقة بالخلق، وهي من لوازم الربوبية، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ويدخل في هذه المشيئة خلق الأقوياء والضعفاء والفقراء والمؤمنين الكفار، والملائكة والشياطين، وخلق الخيرات والفضائل، وخلق السيئات والحسنات، وخلق التوفيق والخذلان، وخلق القوة والعجز، والبلادة والذكاء[1] .

- **وهذه بعض الآيات تدل على الإرادة الكونية:**

قال تعالى: "وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ" (الأنعام : 112) ، قال تعالى: "وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَـكِنَّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ"(البقرة : 353) ، وقال: "وَلَوْشَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِيا لأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا"(يونس : 39) ، وقال تعالى: "وَلَوْشَاء اللّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ"(النساء : 90) ، وقال تعالى: "فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء"(الأنعام : 125) .، **وقال تعالى**: "وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ" **(هود : 44)** ، **وقال تعالى**: "وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَـكِنَّ اللّهَ يَفْعَلُ مَايُرِيدُ" (البقرة: 253) ،**وقال تعالى**: "وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَاشَاء اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ" (الكهف : 39) ،

(1) القضاء والقدر عند السلف للوصيفي ص 62.





وقال تعالى: "وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا" (السجدة : 13) ، **وقال تعالى**: "وَمَاتَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا"(الإنسان : 30) ،**وقال تعالى**: " مَن يَشَإِ اللّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ" (الأنعام : 39) ،**وقال تعالى**: " إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ" (يس : 82) .

وهذه الإرادة وتلك المشيئة هي التي تستلزم وقوع المراد، والمراد إما أن يكون مراد لذاته محبوباً لله تعالى، وذلك لما فيه من الخير، كخلق الأنبياء والصالحين وكذلك كافة الفضائل والخيرات، أو مراداً لغيره وهذا يطلق على الكفر وجميع الشرور والآثام، فإنها ليست مرادة لذاتها وإنما هي مرادة لشيء آخر محبوب إلى الله تعالى.

قال تعالى "ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ"(الروم : 41) .وهذا دليل على إثبات الحكمة في جميع أفعال الله تعالى وأحكامه(1) .

والحق أن جميع أفعاله وشرعه لها حكم وغايات، لأجلها شرع وفعل، وإن لم يعملها الخلق على التفعيل، فلا يلزم من عدم علمهم بها إنتفاؤها في نفسها(2)

وحاصل الإرادة الكونية إثبات مشيئة الله تعالى المطلقة في إيجاد المخلوقات كلها واختلاف أنواعها وأشكالها، وتفاوت فضائلها وشرورها وجمالها ودمامتها وكيسها وعجزها، وكفرها وإيمانها، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فالله على كل شئ قدير، ولا يقع في ملكه إلا ما يريد، ولا يقع فيه شئ كرهاً عنه، قال تعالى: "وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ" (الزمر : 36 ـ 37) .

فهو الذي أراد إيمان المؤمنين، وهو الذي أراد كفر الكافرين، وكل ذلك في علمه السابق، ولا يمكن لأحد أن يخرج عن علمه، وعلمه يستلزم ثبوت قدرته، وإذا كان قد علم أن أبا لهب سيكفر، فهذا معناه أنه لن يستطيع أن يخرج عن علمه ويؤمن، وهذا دليل أن الله تعالى سيحول بقدرته بينه وبين الإيمان، فلن

(1) القضاء والقدر عند السلف ص 63.

(2) المصدر نفسه ص 64.



يقدر عليه، ولن يقدر أبو لهب على خلاف ذلك، قال تعالى: " وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ" (الأنفال : 24) .

وهذا ليس من باب تكليف ما لا يطاق، وإنما هذا من باب العقوبة: وهي نوع من الخذلان لمن زاغ عن صراط الله المستقيم، وأما طاقة الأسباب فهي مقدورة له، ولكن الله تعالى لم يوفقه ولم يقدره على بلوغ غاياتها، فما آمن من آمن إلا بفضل الله تعالى ورحمته، وما كفر من كفر كرهاً عنه إنما كان ذلك بخذلان الله تعالى له: "وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا" (يونس : 99) .

وهو سبحانه وتعالى خالق الخير ، كما هو خالق الشر، لا إله غيره ولا ربٍ سواه ، قال تعالى: "اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ" (الزمر : 22) ، وقال تعالى: "هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّافِي الأَرْضِ جَمِيعاً"(البقرة : 29)[1] .

وفي الإرادة الكونية قد يبغض الله تعالى طاعة العاصي ولا يعينه عليها بعد الإرشاد والنصح والبيان، وذلك لحكمه عظيمة جليلة، كما قال تعالى في المنافقين الذين تخلفوا مع الخوالف في بيوتهم، وتركوا الخروج للجهاد مع النبي صلى الله عليه وسلم كما في غزوة تبوك: " وَلَوْ أَرَادُواْ الْخُرُوجَ لأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ" (التوبة : 46) ، وقد بين الله تعالى الحكمة في بغضه لطاعته فقال: "لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ولأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ" (التوبة : 47) .

وهو سبحانه: "لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ" (الأنبياء : 23) ، وذلك لأنه يتصرف في ملكه، وهذا ليس فيه ظلم، إنما الظلم في الحقيقة يكون من تصرف المتصرف فيما لا يملك، ومنع المستحق ما يستحقه، والله تعالى لا يجب عليه شئ لأحد حتى يحاسب على ما ضيق ومنع، وعلى ما أهان وخذل، وإنما هو حكمة بالغة ورحمة واسعة وعدل قويم[2] .

---

(1) المصدر نفسه ص 64.

(2) القضاء القدر عند السلف ص 65.

أ. كيف يريد الله أمراً ولا يرضاه ولا يحبه؟ وكيف تجتمع إرادته له وبغضه وكراهته؟

الجواب أن المراد نوعان:

مراد لنفسه مطلوب محبوب لذاته، وما فيه من الخير، فهو مراد إرادة الغايات والمقاصد.

ومراد لغيره، قد لا يكون مقصود للمريد، ولا فيه مصلحة له بالنظر إلى ذاته، مراد له من حيث إفضاؤه وإيصاله إلى مراده، فاجتمع فيه الأمران: بغضه وإرادته ولا يتنافيان، لاختلاف متعلقهما، وهذا كالدواء الكريه إذا علم المتناول له أن فيه شفاؤه، وقطع العضو المتآكل إذا علم أن في قطعه بقاء جسده، كقطع المسافة الشاقة، إذا علم أنها توصل إلى مراده ومحبوبه[1] .

فهو سبحانه يكره الشيء، ولا ينافي ذلك إرادته لأجل غيره، وكونه سبباً إلى أمر هو أحبُّ إليه من فوته.

ومن ذلك أنه خلق إبليس الذي هو مادة لفساد الأديان والأعمال والاعتقادات والإرادات، وهو سبب لشقاء الكثير من العباد، وعملهم بما يغضب الرب تبارك وتعالى، ومع هذا فهو وسيلة إلى محاب كثيرة للرب تعالى ترتبت على خلقه وجودها إليه من عدمها:

منها: أنه تظهر للعباد قدرة الرب على خلق المتضادات المتقابلات.

ومنها: ظهور آثار أسمائه القهرية، مثل القهار، المنتقم، والعدل، والضار، والشديد العقاب، والسريع الحساب، والخافض، والمذل، فإن هذه الأسماء والأفعال كمال، لا بد من وجود متعلقها، ولو كان الجن والإنس على طبيعة الملائكة لم يظهر أثر هذه الأسماء.

ومنها: ظهور آثار أسمائه المتضمنة لحلمه وعفوه ومغفرته وستره وتجاوزه عن حقه وعتقه لمن شاء من

(1) منهج الإمام ابن أبي العز الحنفي، عبد الله الحافي ص 329.



عبيده، فلولا خلق ما يكرهه من الأسباب المفضية إلى ظهور آثار هذه الأسماء، لتعطلت هذه الحكم والفوائد، وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا بقوله: "لو لم تذنبوا، لذهب الله بكم، وجاء بقوم يذنبون، ويستغفرون، فيغفر لهم"[1] .

ومنها: ظهور أسماء الحكمة والخبرة، فإنه الحكيم الخبير الذي يضع الأشياء في مواضعها، فلا يضع الشئ في غير موضعه، فهو أعلم حيث يجعل رسالاته، وأعلم بمن يصلح لقبولها ويشكره على إنتهائها إليه، وأعلم بمن لا يصلح لذلك.

ومنها: حصول العبودية المتنوعة التى لولا خلق إبليس لما حصلت كعبودية الجهاد، والصبر، ومخالفة الهوى، وعبودية الاستعاذة، إلى غير ذلك من الحكم التي تعجز العقول عن إدراكها[2] .

ب . هل يمكن وجود تلك الحكم بدون هذه الأسباب؟

الجواب: هذا سؤال فاسد وهو فرض وجود الملزوم بدون لازمه، كفرض وجود الابن بدون الأب، والحركة بدون المتحرك، والتوبة بدون التائب[3] .

2 . الإرادة الشرعية:

هي إرادة الله تعالى لأمره الديني الشرعي، وهي التي أرسل من أجلها الرسل، وأنزل من أجلها الكتب وهي لا تستلزم وقوع المراد مع كونه محبوباً لله تعالى إلا إذا كان متعلقاً بالإرادة الكونية[4] ، والإرادة الشرعية الدينية تدل دلالة واضحة على أنه سبحانه لا يحب الذنوب والمعاصي والضلال والكفر، ولا يأمر بها ولا يرضاها، وإن كان شاءها خلقاً وتقديراً وإيجاداً، وأنه سبحانه وتعالى يرضى ويحب كل ما يتعلق بهذه الإرادة الدينية الشرعية ويثيب أصحابها، ويدخلهم الجنة وينصرهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة وينصر

(1) مسلم، باب التوبة رقم 2748.

(2) منهج الإمام ابن أبي العز الحنفي ص 330.

(3) المصدر نفسه ص 330.

(4) القضاء والقدر عند السلف ص 65.





بها، أي: الإرادة الدينية الشرعية للعباد من أوليائه المتقين وحزبه المفلحين وعباده الصالحين[1] .

ومن الآيات الدالة على الإرادة الشرعية:

قوله تعالى:" يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ" (البقرة : 185) ، وقوله تعالى:"مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ" (المائدة: 6) ، وقوله تعالى:" وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيمًا" (النساء: 27) ، وقال تعالى:"يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا" (النساء: 28) ، وقال تعالى:"إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا" (الأحزاب: 33) ، قال تعالى:"إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَايَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ" (الزمر: 7) .

3ـ الفرق بين الإرادتين:

أ ـ الإرادة الكونية يلزم فيها وقوع المراد، والإرادة الشرعية لا يلزم.

ب ـ الإرادة الشرعية تختص فيما يحبه الله، والكونية عامة فيما يحبه وما لا يحبه[2] .

ج ـ فما كان بمعنى المشيئة فهو إرادة كونية وما كان بمعنى المحبة فهو إرادة شرعية.

مثال الإرادة الشرعية قوله تعالى:" وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ" (النساء: 27) لأن يريد هنا بمعنى يحب ولا تكون بمعنى المشيئة لأنه لو كان المعنى: والله يشاء أن يتوب عليكم، لتاب على جميع العباد وهذا أمر لم يكن فإن أكثر بني آدم من الكفار، إذن يريد أن يتوب عليكم يعني يجب أن يتوب عليكم ولا يلزم من محبة الله للشيء أن يقع لأن الحكمة الإلهية البالغة قد تقتضي عدم وقوعه .

(1) مجموع الفتاوى (8/ 188) .

(2) شرح العقيدة الواسطية، محمد الصالح بن عثيمين (1 /223) .





ومثال الإرادة الكونية قوله تعالى:"إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ" (هود: 34) لأن الله لا يحب أن يغوي العباد إذن لا يصح أن يكون المعنى إن كان الله يحب أن يغويكم بل المعنى إن كان الله يشاء أن يغويكم.

د ـ الله يريد المعاصي كوناً لا شرعاً، لأن الإرادة الشرعية بمعنى المحبة والله لا يحب المعاصي ولكن يريدها كونا أي مشيئة فكل ما في السموات والأرض فهو بمشيئة الله[1] .

4 . تعلق الإرادتين بالمخلوقات:

تنقسم المخلوقات من حيث تعلقها بالإدارتين إلى أربعة أقسام:

الأول ـ ما تعلقت به الإرادتان، وهو ما وقع في الوجود من الأعمال الصالحة، فإن الله أراده إرادة دين وشرع، فإمر وأحبه ورضيه، وأراده إرادة كون فوقع، ولولا ذلك ما كان.

الثاني ـ ما تعلقت به الإرادة الدينية فقط، وهو ما أمر الله به من الأعمال الصالحة، فعصى ذلك الكفار والفجار فتلك كلها إرادة دين وهو يحبها ويرضاها وقعت أو لم تقع.

الثالث ـ ما تعلقت به الإرادة الكونية فقط، وهو ما قدره الله وشاءه من الحوادث التي لم يأمر بها كالمباحات والمعاصي فإنه لم يأمر بها، ولم يرضها، ولم يحبها، إذ هو لا يأمر بالفحشاء ولا يرضى لعباده الكفر، ولولا مشيئته وقدرته وخلقه لها لما كانت ولما وجدت، فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

الرابع . ما لم تتعلق به هذه الإرادة ولا هذه، فهذا ما لم يقع ولم يوجد من أنواع المباحات والمعاصي[2] .

والسعيد من عباد الله من أراد الله منه تقديراً ما أراد به تشريعاً، والعبد الشقي من أراد به تقديراً ما لم يرد به تشريعاً.

(1) المجموع الثمين، لمحمد بن عثيمين (1 / 157) .

(2) مجموع الفتاوى ابن تيمية (8/ 189) ، القضاء والقدر عمر الأشقر ص 108.



وأهل السنة والجماعة الذين فقهوا دين الله حق الفقه، ولم يضربوا كتاب الله بعضه ببعض، علموا أن أحكام الله في خلقه تجري على وفق هاتين الإرادتين، فمن نظر إلى الأعمال الصادرة عن العباد بهاتين العينين كان بصيراً، ومن نظر إلى الشرع دون القدر، أو نظر إلى القدر دون الشرع كان أعور، مثل قريش الذين قالوا:" لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ" (الأنعام: 148) .فقال تعالى:" كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ" (الأنعام: 148) [1] .

5. كلام حسن لابن القيم في الخلق الكوني والأمر الشرعي:

قال ابن القيم في شفاء العليل: الباب التاسع والعشرون: في انقسام القضاء، والحكم، والإرادة، والكتابة، والإذن، والجعل، والكلمات، والبعث، والإرسال، والتحريم، والإنشاء: إلى كوني متعلق بخلقه، وإلى ديني متعلق بأمره وما يحقق ذلك من إزالة اللبس والإشكال.

هذا الباب متصل بالباب الذي قبله[2] ، فما كان من كوني فهو متعلق بربوبيته وخلقه، وما كان من الديني فهو متعلق بإلاهيته وشرعه، وهو كما أخبر عن نفسه سبحانه له الخلق والأمر، فالخلق قضاؤه وقدره وفعله، والأمر شرعه ودينه، فهو الذي خلق وشرع وأمر، وأحكامه جارية على خلقه قدراً وشرعاً، ولا خروج لأحد عن حكمه الكوني والقدري.

أما حكمه الديني الشرعي فيعصيه الفجار والفساق، والأمران غير متلازمين، فقد يُقضى ويُقدِّر ما لا يأمر به ولا شرعه، وقد يشرَّع ويأمر بما لا يقضيه ولا يقدره، ويجتمع الأمران فيما وقع من طاعات عباده وإيمانهم، وينتفي الأمران عما لم يقع من المعاصي والفسق والكفر، وينفرد القضاء الديني والحكم الشرعي في ما أمر به وشرعه ولم يفعله المأمور، وينفرد الحكم الكوني فيما وقع من المعاصي إذا عرف ذلك.

(1) مجموع فتاوى ابن تيمية (8/ 198) ، القضاء والقدر للأشقر ص 108.

(2) من كتاب شفاء العليل، أنظر: الجامع الصحيح في القدر ص 129.



- **فالقضاء في كتاب الله نوعان:**

ـ كوني قدري: كقوله:" فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ" (سبأ: 14) . وكقوله تعالى:" وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ" (الزمر: 75) .

ـ وشرعي ديني: كقوله تعالى:" وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُو ٱْإِلاَّ إِيَّاهُ" (الإسراء: 23) . أي: أمر وشرع ولو كان قضاء كونياً لما عبد غير الله.

- **والحكم أيضاً نوعان:**

فالكوني: كقوله:" قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ" (الأنبياء: 112) . أي: افعل ما تنصر به عبادك، وتخذل به أعداءك.

والديني: كقوله:" ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ" (الممتحنة: 10) . وقال تعالى:" إِنَّ اللّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ" (المائدة: 1) .

وقد يرد بالمعنيين معاً كقوله:" وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا" (الكهف: 26) ، فهذا يتناول **حكمه الكوني وحكمه الشرعي**.

- **والإرادة نوعان:**

كونية: كقوله تعالى:" فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ" (البروج: 16) .وقوله:" وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً" (الإسراء: 16) . وقوله:" إِن كَانَ اللّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ" (هود: 34) .

ودينية: كقوله تعالى:" يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ" (البقرة: 185) . وقوله:" وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ" (النساء: 27) . فلو كانت هذه الإرادة كونية لما حصل العسر لأحد منا، ولو وقعت التوبة من جميع المكلفين[1] ، وبهذا التفصيل يزول الاشتباه في مسألة الأمر والإرادة، هل متلازمتان أم لا؟

والصواب أن الأمر يستلزم الإرادة الدينية، ولا يستلزم الإرادة الكونية، فإنه لا يأمر إلا بما يريده شرعاً وديناً، وقد يأمر بما لا يريده كوناً وقدراً، كإيمان من أمره ولم يوفقه للإيمان مراد له ديناً لا كوناً، وكذلك أمر خليله بذبح ابنه ولم يرده كوناً وقدراً، وأمر رسوله بخمسين صلاة ولم يرد ذلك كوناً وقدراً، وبين هذين

(1) الجامع الصحيح في القدر ص 131.





الأمرين وأمر من لم يؤمن بالإيمان فرق، فإنه سبحانه لم يحب من إبراهيم ذبح ولده، وإنما أحب منه عزمه على الامتثال، وأن يوطن نفسه عليه، وكذلك أمره محمداً صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء بخمسين صلاة، وأما أمره من علم أنه لا يؤمن بالإيمان سبحانه يحب من عباده أن يؤمنوا به وبرسله، ولكن اقتضت حكمته أن أعان بعضهم على فعل ما أمره ووفقه له، وخذل بعضهم فلم يعنه ولم يوفقه، فلم تحصل مصلحة الأمر منهم، وحصلت من الأمر بالذبح[1] .

وأما الكتابة فنوعان:

كونية: كقوله تعالى:"كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي" (المجادلة: 21) . وقال تعالى:" وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ" (الأنبياء: 105) .وقال تعالى:"كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ" (الحج: 4) .

وشرعية أمرية: كقوله تعالى:"كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ" (البقرة: 183) . وقوله:" حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إَلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللّهِ عَلَيْكُمْ" (النساء: 23 ،24) . وقوله:" وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ" (المائدة: 45) ، فالأولى كتابة بمعنى القدر، والثانية كتابة بمعنى الأمر[2] .

- **والأمر نوعان:**

كوني: كقوله تعالى:" إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ" (يس: 82) . وقوله:" وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ" (القمر: 50) . وقوله:" وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً" (النساء: 47) .

(1) الجامع الصحيح في القدر، مقبل الوادعي ص 131.

(2) المصدر نفسه ص 132.





وقال تعالى:" وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا" (مريم: 21) . وقال تعالى:" وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا" (الإسراء: 16) ، فهذا أمر تقدير كوني، لا أمر ديني شرعي، فإن الله لا يأمر بالفحشاء، والمعنى: قضينا ذلك وقدرناه.

وقالت طائفة: بل هو أمر ديني، والمعنى: أمرناهم بالطاعة فخالفونا وفسقوا، والقول الأول أرجح[1] .

وديني: كقوله تعالى:" إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ" (النحل: 90) .وقوله:" إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا" (النساء: 58) . وهو كثير[2] .

- **وأما الإذن فنوعان** :

كوني: كقوله تعالى:" وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ" (البقرة: 102) ، أي: بمشيئته وقدره.

وديني: كقوله تعالى:" مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْتَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ" (الحشر: 5) أي: بأمره ورضاه.

وقوله تعالى:" قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلاَلاً قُلْ آللّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللّهِ تَفْتَرُونَ" (يونس: 59) . وقوله:" أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ" (الشورى: 21) .

وأما الجعل فنوعان :

كوني: كقوله:" إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا" (يس: 8 . 9) .وقوله:" وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ" (يونس: 100) . وقوله:" وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا" (النحل: 72) وهو كثير.

وديني: كقوله تعالى:" مَا جَعَلَ اللّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ" (المائدة: 103) أي: ما شرع ذلك ولا أمر به، وإلا فهو مخلوق له، واقع بقدره ومشيئته.

وأما قوله تعالى:" جَعَلَ اللّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ" (المائدة: 97) .

---

(1) الجامع الصحيح في القدر ص 132.

(2) المصدر نفسه ص 133 نقلاً عن شفاء العليل لابن القيم.



فهذا يتناول الجعلين، فإنها جعلها كذلك بقدره وشرعه وليس هذا استعمالاً للمشترك في معنييه، بل إطلاق اللفظ وإرادة القدر المشترك بين معنييه فتأمله.[1]

- **وأما الكلمات فنوعان :**

كونية: كقوله:" كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُواْ أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ" (يونس: 33) . وقوله تعالى:" وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ بِمَا صَبَرُواْ" (الأعراف: 137) .

وقوله صلى الله عليه وسلم: أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق[2] . فهذه كلماته الكونية التي يخلق بها ويكون، ولو كانت الكلمات الدينية التي يأمر بها وينهى لكانت مما يجاوزهن الفجار والكفار.

ودينية: كقوله:" وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ" (التوبة: 6) والمراد به القرآن وقوله صلى الله عليه وسلم في النساء: واستحللتم فروجهن بكلمة الله[3] ، أي: إباحته ودينه، وقوله:" فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء" (النساء: 3) .

وقد اجتمع النوعان في قوله:" وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ" (التحريم: 12) . فكتبه كلماته التي يأمر بها، وينهي ويحل ويحرم، وكلماته التي يخلق بها ويكون.

- **وأما البعث فنوعان:**

كوني: كقوله تعالى:" فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ" (الإسراء: 5).

وقوله تعالى :" فَبَعَثَ اللّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ" (المائدة: 31) .

ديني: كقوله تعالى:" هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ" (الجمعة: 2) .

وقوله تعالى:" كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ" (البقرة: 213) .

---

(1) الجامع الصحيح في القدر ص 134.

(2) المصدر نفسه ص 134.

(3) المصدر نفسه ص 134.



وأما الإرسال فنوعان:

كوني: كقوله تعالى:" أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا" (مريم: 83) . وقوله تعالى:" هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ" (الفرقان: 48) .

وأما الإرسال الديني: كقوله تعالى:" هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ" (التوبة: 33) .

وقوله تعالى:" أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا" (المزمل : 15) .

- **أما التحريم فنوعان:**

كوني، كقوله تعالى " وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ" (القصص : 12) .وقوله تعالى: " قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً" (المائدة : 26) . وقوله تعالى: " وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَايَرْجِعُونَ" (الأنبياء : 95) .

وأما التحريم الديني: كقوله تعالى: " حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ" (النساء : 23) و"حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ" (المائدة : 3) ، و" وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَادُمْتُمْ حُرُمًا" (المائدة : 96) ، و" وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا" (البقرة : 275) .

- **وأما الإيتاء فنوعان:**

كوني: كقوله تعالى: " وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاء" (البقرة : 247) ، وقوله تعالى: " قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء"(آل عمران : 26) .

وأما قوله تعالى: " يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا" (البقرة : 269). فهذا يتناول النوعين، فإنه يؤتيها من يشاء أمراً وديناً وتوفيقاً وإلهاماً[1] .

وأنبياؤه ورسله وأتباعهم حظهم من هذه الأمور الديني منها وأعداؤه واقفون مع القدر الكوني، فحيث ما مال القدر مالوا معه، فدينهم دين القدر .

(1) الجامع الصحيح في القدر ص 137.



ودين الرسل، واتباعهم دين الأمر فهم يدينون بأمره، ويؤمنون بقدره، وخصماء الله يعصون أمره، ويحتجون بقدره، ويقولون: نحن واقفون مع مراد الله، نعم مع مراده الكوني لا الديني، ولا ينفعكم وقوفكم مع المراد الكوني، ولا يكون ذلكم عذراً لكم عنده إذ لو عذر بذلك لم يذم أحداً من خلقه ولم يعاقبه، ولم يكن في خلقه عاصٍ ولا كافر .

الفصل الرابع

لا حول ولا قوة إلا بالله

أولاً: معنى لا حول ولا قوة إلا بالله .

ثانياً: لا حول ولا قوة إلا بالله دليل على إثبات القدر .

ثالثاً: تضمنت لا حول ولا قوة إلا بالله معان عقدية عظيمة .

رابعاً: فضل لا حول ولا قوة إلا بالله .

خامساً: الاحتجاج بالقدر على المعاصي .

سادساً: الحكمة من وجود المعاصي والكفر .



الفصل الرابع

لا حول ولا قوة إلا بالله

إن كلمة " لا حول ولا قوة إلا بالله "[1] هي من الأذكار العظيمة القدر، الرفيعة المنزلة، العالية الرتبة، ولها من الفضائل والفوائد والمنافع ما لا يعلمه إلا الله سبحانه، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلمها أصحابه ويحثهم عليها، وتأتي هذه الكلمة في الأذكار المطلقة والمقيدة في مواضع كثيرة[2] .

أولاً : معنى لا حول ولا قوة إلا بالله:

معنى الحول: الحركة والحيلة أي لا حركة ولا استطاعة ولا حيلة إلا بمشيئة الله تعالى.

وقيل: معناه لا حول في دفع شر ولا قوة في تحصيل خير إلا بالله.

وقيل: لا حول عن معصية الله إلا بعصمته ولا قوة على طاعته إلا بمعونته وحُكي هذا عن ابن مسعود رضي الله عنه وكله متقارب[3] .

وقال الإمام الطحاوي في تفسيره لمعنى "لا حول ولا قوة إلا بالله": لا حيل ولا قوة لأحد على إقامة طاعة الله والثبات عليها إلا بتوفيق الله، وكل شئ يجري بمشيئة الله تعالى وعلمه وقضائه وقدره، غلبت مشيئته المشيئات كلها، وعكست إرادته الإرادات كلها، وغلب قضاؤه الحيل كلها يفعل ما يشاء وهو غير ظالم أبداً " لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ" (الأنبياء : 23)[4] .

---

(1) وتسمى الحوقلة.

(2) المباحث العقدية (2 / 887) .

(3) تهذيب الأسماء واللغات للنووي (4/ 87) .

(4) العقيدة الطحاوية ص 444 . 445 مع شرحها لابن أبي العز الحنفي.



ولا شك أن معنى (لا حول ولا قوة إلا بالله) أوسع وأعم مما ذُكر، فلفظ الحول يتناول كل تحول من حال إلى حال، والقوة هي القدرة على ذلك التحول، فدلت هذه الكلمة العظيمة على أنه ليس للعالم العلوي والسفلي حركة وتحول من حال إلى حال ولا قدرة على ذلك إلا بالله.

ومن الناس من يفسر ذلك بمعنى خاص فيقول لا حول من معصيته إلا بعصمته ولا قوة على طاعته إلا بمعونته.

والذي يدل عليه اللفظ، أن الحول لا يختص بالحول عن المعصية وكذلك القوة لا تختص بالقوة على الطاعة، بل لفظ الحول يعم كل تحول.. وكذلك لفظ القوة، قال تعالى: " اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً" (الروم : 54) .

ولفظ القوة لا يراد به ما كان في القدرة أكمل من غيره فهو قدرة أرجع من غيرها أو القدرة التامة ولفظ القوة قد يعم القوة التي في الجمادات بخلاف لفظ القدرة فلهذا كان المنفي بلفظ القوة أشمال وأكمل فإذا لم تكن قوة إلا به لم تكن قدرة إلا به بطريق الأولى وهذا باب واسع[1] .

ولكلمة "لا حول ولا قوة إلا بالله" تأثير في دفع داء الهم والغم والحزن، بسبب ما فيها ـ من كمال التفويض والتبرئ من الحول والقوة إلا به وتسليم الأمر كله له وعدم منازعته في شئ منه وعموم ذلك لكل تحول من حال إلى حال في العالم العلوي والسفلي والقوة على ذلك التحول، وأن ذلك كله بالله وحده فلا يقوم لهذه الكلمة شيء.

وفي الآثار أنه ما ينزل ملك من السماء ولا يصعد إليها إلا بلا حول ولا قوة إلا بالله، ولها تأثير عجيب في طرد الشيطان والله المستعان[2] .

ثانياً : لا حول ولا قوة إلا بالله، دليل على إثبات القدر[3] .

وقد ذكر الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ في صحيحه هذه الكلمة العظيمة في أبواب عدة من صحيحه،

(1) مجموع الفتاوى (5/ 575) .

(2) زاد المعاد لابن القيم (4/ 204) .

(3) شرح العقيدة الطحاوية ص 447.



ومن ذلك: كتاب القدر ومعروف أن فقه الإمام البخاري كما يقال في تراجمه مما يدل على أنه ـ رحمه الله ـ ما وضعها في كتاب القدر إلا لدلالتها عليه(1) .

إن كلمة لا حول ولا قوة إلا بالله دخلت من باب القدر لكونها تدل على مرتبة من مراتبه وهي المشيئة، فقد ذكرنا أن مراتب القدر أربع مراتب ومنها: الإيمان بمشيئة الله النافذة في خلقه وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فعندما يقول العبد "لا حول ولا قوة إلا بالله" يعتقد في قرارة نفسه أنه لا يستطيع التحول من أمر لآخر إلا إذا شاء الله له ذلك وقدره له، فلا ينصرف عن المعصية إلى الطاعة إلا بمشيئة الله تعالى، ولا ينصرف من المرض إلى الصحة إلا إذا كتب الله له الشفاء وشاء له، ولا يتحول من ضعف إلى قوة، ولا من ذلٍّ إلى عزٍ، ومن قلة إلى كثرة، ولا من جوع إلى شبع ولا من فقر إلى غنى، ولا من خوف إلى أمن، ولا من شرٍّ إلى خير إلا بمشيئة الله وإرادته، فلا يتحول ويتقلب من أي حال مهما كان إلى حال غيره إلا إذا شاء له الله ذلك، كما أنه ليس لعبد في نيل مطلوب والحصول على مرغوب أو دفع مرهوب إلا إن أعانه الله سبحانه وأمده بقوة منه، فالعبد، بقوله لهذه الكلمة يتبرأ من حوله وقوته، ويعتقد أن الحول والقوة بالله وحده فهو سبحانه مالك الملك وخالق، بيده أمور الخلق يتصرف بهم كيف يشاء ويصرّفهم حيث يشاء ويقلّب أحوالهم من حال إلى حال على حسب مشيئته وحكمته وإرادته لا مانع لما قضى ولا لما أعطى، ولا معطي لما منع بيده الملك وهو على كل شئ قدير(2) .

ثالثاً: "لا حول ولا قوة إلا بالله " تضمنت معان عقدية عظيمة القدر، لمن فقهها غير دلالتها على القدر، منها:

1 ـ **أنها كلمة استعانة بالله العظيم** : ومن استعان بالله جل جلاله، فالله سبحانه يعينه على قضاء حوائجه، وجميع ما يصلحه.

---

(1) المباحث العقدية (2/ 900) .

(2) المباحث العقدية (2/ 901) .



والاستعانة بالله من أفضل العبادات وأجلّها وتعرف منزلتها وعظم شأنها من خلال سورة الفاتحة التي أمر الله سبحانه عباده أن يتعبدوه بتلاوتها يومياً مراراً، وذلك في قوله تعالى: " إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ" فهذه الآية فيها إخلاص الاستعانة لله لأنه قدم ما حقه التأخير فأفاد حصر الاستعانة بالله وكذلك لا حول ولا قوة إلا بالله كلمة تحتوي على الإخلاص لله بالإستعانة فهي تدل على ما دلت عليه[1] .

2ـ **الإقرار بأنواع التوحيد الثلاثة**: توحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، وتوحيد الألوهية، فقائلها يقر ويعتقد بأن الله وحده المدبر بهذا الكون المتصرف بحكمته ومشيئته فلا يقع فيه شئ إلا بإذنه ومشيئته، كما أنه معترف بأن من كان هذا وصفه فهو بالطبع غنيٌّ عن خلقه قائم بذاته متصف بصفات الكمال من القدرة والعظمة والقوة والعزة، ومن يعتقد هذا في خالقه كان عليه لزاماً أن يؤلهه ويعبده ويقصده ويلتجئ إليه ولا يرجو أحداً سواه، ولا يدعو أحداً إلا هو، لأنه بيده التصرف التام وله الملك وهو على كل شئ قدير[2] .

3 . **التوكل على الله وتفويض الأمور إليه**، والاستسلام والإذعان له مع إظهار الذل والافتقار له سبحانه فهو الغني والعبد فقير إليه لا يملك من أمره شيئاً.

ويجدر التنبيه هنا على أمر يُخطئ به بعض الناس ألا وهو: استعمالهم هذه الكلمة في غير موضعها اللائث بها، ونجم ذلك عن عدم معرفة معناها ومحتواها فيجعلونها كلمة استرجاع لا كلمة استعانة بالله[3] .

رابعاً: فضل "لا حول ولا قوة إلا بالله ":

فمما يدل على فضلها وعلو منزلتها، ومما يرغب في الإكثار من قولها باللسان وإمرارها على الجنان أمور:

---

(1) المباحث العقدية (2/ 902) .

(2) المصدر نفسه (2 / 903) .

(3) الحوقلة مفهومها وفضائلها ودلالاتها العقدية، عبد الرزاق العباد ص 83.



1 . إخبار النبي صلى الله عليه وسلم عنها بأنها كنز من كنوز الجنة:

فعن أبي موسى الأشعري . رضي الله عنه . قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر فجعل الناس يجهرون بالتكبير، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أيها الناس أربعوا على أنفسكم إنكم ليس تدعون أصم ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم، قال: وأنا خلفه وأنا أقول: قل، لا حول ولا قوة إلا بالله[1] .

قال النووي رحمه الله: قوله صلى الله عليه وسلم: لا حول ولا قوة إلا بالله كنز من كنوز الجنة: قال العلماء: سبب ذلك أنها كلمة استسلام وتفويض إلى الله تعالى واعتراف بالإذعان له وأنه صانع غيره ولا راد لأمره وأن العبد لا يملك شيئاً عن الأمر ومعنى الكفر هنا أنه ثواب مدخر في الجنة وهو ثواب نفيس كما أن الكنز أنفس أموالكم[2] . والكنز مال مجتمع لا يحتاج إلى جمع وذلك أنها تتضمن التوكل والافتقار إلى الله تعالى ومعلوم أنه لا يكون شئ إلا بمشيئة الله وقدرته، وأن الخلق ليس منهم شئ إلا ما أحدثه الله فيهم[3] .

وقول "لا حول ولا قوة إلابالله" يوجب الإعانة ولهذا سنها النبي صلى الله عليه وسلم إذا قال المؤذن: حي على الصلاة، فيقول المجيب: لا حول ولا قوة إلا بالله، فإذا قال: حي على الفلاح، قال المجيب "لا حول ولا قوة إلا بالله"،

وقال المؤمن لصاحبه: "ولولا إذا دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة ألا بالله"، ولهذا يؤمر بهذا من يخاف العين على شئ فقوله: ما شاء الله، تقديره: ما شاء الله كان فلا يأمن، بل يؤمن بالقدر ويقول لا قوة إلا بالله[4] .

---

(1) البخاري، ك المغازي (4 / 1541) رقم 39668.

(2) شرح صحيح مسلم (17 / 26) .

(3) مجموع الفتاوي (13 / 321) .

(4) المصدر نفسه (13/ 321) .





2ـ ومن فضلها أن الله سبحانه يصدق قائلها ومن صدقه الله تعالى على ما يقول فليبشر بالخير بإذن الله[1] ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إذا قال العبد: لا إله إلا الله والله أكبر صدقه ربه، قال: صدق عبدي لا إله إلا أنا وأنا وحدي، وإذا فال: لا إله إلآ الله وحده لا شريك له، صدقه ربه قال: قال صدق عبدي لا إله إلا أنا ولا شريك لي، وإذا قال: لا إله إلا الله له الملك وله الحمد قال: صدق عبدي، لا إله إلا أنا لي الملك ولي الحمد، وإذا قال: لا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، قال: صدق عبدي لا حول ولا قوة إلا بي[2] .

3 . من فضلها أن من قالها حين يخرج من بيته مع البسملة والتوكل على الله أنه يوفي ويُكفي ويُهدى، فعن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا خرج من بيته فقال بسم الله وتوكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله فيقال له حسبك قد كفيت وهديت ووفيت فيلقى الشيطان شيطاناً آخر فيقول له كيف لك برجل قد كفي وهدي ووفي[3] .

4 . ومن فضائلها أنها من الباقيات الصالحات ومن أحب الكلام إلى المولى جل جلاله قال الله تبارك وتعالى في محكم التنزيل " وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا" (الكهف : 46) . فقد ورد في تفسير هذه الآية عن جمع من الصحابة والتابعين أن الباقيات الصالحات هي سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله[4] .

وسئل ابن عمر رضي الله عنهما عن الباقيات الصالحات؟ فقال: لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله ولا حول ولا قوة إلا بالله[5] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: هي ذكر الله، قول لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، واستغفر الله، وصلى الله على رسول الله

(1) المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار (2/ 891) .

(2) سنن الترمذي، ك الدعوات (5/ 492) رقم 3430.

(3) سنن أبي داود رقم 5095 قال الترمذي حسن صحيح.

(4) تفسير ابن جرير الطبري (15/ 255) .

(5) المصدر نفسه (15/ 255) .





والقيام والصلاة والحج والصدقة والعتق والجهاد وأعمال الحسنات وهي الباقيات الصالحات التي تبقى لأهلها في الجنة[1] ، وقد ورد في فضلهن أي الكلمات الباقيات الصالحات أنهن يكفرنَّ الذنوب، فقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ما على الأرض رجل يقول: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، إلا كُفِّرت عنه ذنوبه ولو كانت أكثر من زبد البحر[2] .

5 . ومن فضائلها أنها غراس الجنة فقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به مر على إبراهيم عليه السلام فقال: من معك يا جبريل؟ فقال: هذا محمد، فقال له إبراهيم أأمُر أمتك فليكثروا من غراس الجنة فإن تربتها طيبة وأرضها واسعة، قال: وما غراس الجنة؟ قال: لا حول ولا قوة إلا بالله[3] .

خامساً: الاحتجاج بالقدر على المعاصي:

الاحتجاج بالقدر على فعل المعصية قديم، قدم بدء الخليقة، وأول من قال به إبليس أعاذنا الله منه، فإنه بعد أن رفض أمر الله بالسجود لآدم ـ عليه السلام ـ واستحق غضب الله عليه بلعنه وطرده من رحمته وإخراجه من الجنة، لم يندم، ولم يتب، ولم يرجع على نفسه باللائمة، بل زاد عصياناً وتمرداً، بإضافة غوايته إلى الله، فقال " رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ" (الحجر : 39) . وهكذا تلقى كثير من البشر هذه الحجة الباطلة عن إبليس فغرقوا في الضلال ووقعوا في المعاصي والآثام ثم احتجوا على ذلك بالحجة الإبليسية، وقالوا: هذه شئ قدَّره الله علينا فحملوا مسئولية خطاياهم على ربهم، وهو الذي نهاهم عن تلك المعاصي.

وقد أخبر الله عن أمثال هؤلاء[4] : **فقال تعالى:** "سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ" (الأنعام : 148) .

---

(1) المباحث العقدية (2/ 892) .

(2) سنن الترمذي رقم 3460 وحسنه.

(3) ابن حبان في صحيحه (3/ 103) رقم 821.

(4) عقيدة أهل السنة والجماعة، د. سعيد مسفر القحطاني ص 253.



. وقال تعالى: "وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ" (النحل : 35) .

ـ وقال تعالى: "وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ * وَقَالُوا لَوْ شَاء الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ" (الزخرف : 19 . 20) .

وقد رد الله في القرآن الكريم هذه المزاعم، ووصف أصحابها بالكذب والتخرص، صحيح ما يجري في الكون يجري بمشيئة الله الكونية، ويقع وفقاً لإرادته، ولكن دعوى المشركين أنهم وقعوا فيما وقعوا فيه بسبب تلك المشيئة الإلهية والإرادة الإلهية، باطل ومردود لما يأتي.

1. إن مشيئة الله غيب لا يعلمه أحد قبل أن يقع، فمن أين لهؤلاء المشركين أن يعلموها ويحيلون عليها شركهم وضلالهم، كما أن علم الإنسان محدود، ومن ثم لا أحد يستطيع أن يعلم ما قدره الله في المستقبل من خير أو شر إلا بعد وقوع أحدها له أو عليه، أما قبل ذلك فلا علم لأحد بما سيحصل " وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَاتَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ" (لقمان : 34) . فلو كان عند المشركين من حجة مقنعة بأن الله راضٍ بذلك فليظهروها، وإلا فإن دعواهم معرفة الغيب وكشف أسراره كذب على الله، ودعوى باطلة لا برهان لهم عليها.

2ـ إن الله أذاق الكافرين السابقين ألوان العذاب وأصناف العقاب جزاء على كفرهم، فلو لم يكونوا مختارين لما ارتكبوه من جرائم وآثام وكفر وشرك لما عذبهم الله لأن الله عدل لا يظلم أحد " وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ"(1) (فصلت : 46) . وقال تعالى: "فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ" (العنكبوت : 40) .

(1) العقيدة الإسلامية د. أحمد محمد جلي ص 385.



3. إن الله خلق البشر وفطرهم على الاستعداد للخير والشر والهدى والضلال، ومنحهم العقل لترجيح واحد من هذه على الأخرى، وبيّن لهم الآيات الكونية الهادية إلى الحق والخير، وأرسل الرسل وأنزل الكتب والشرائع كموازين ثابتة تعين الإنسان في اختياره، ومن ثم فلا حجة للإنسان بأن وقوعه في الضلال وإنحرافه عن الحق لم يكن باختياره وإرادته، أو أنَّ قدر الله هو الذي أضله[1] ، قال تعالى: "وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا" (الشمس : 7 ـ 8) . وقال تعالى: " إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا" (الإنسان : 3) ، ويقول سبحانه " وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ" (البلد : 10) ، فكل إنسان إذن مسؤول محاسب على عمله من خير وشر[2] .

4. إنّ سلف هذه الأمة قد فهموا القدر على حقيقته، ومن ثم ردوا ما تعلل به أصحاب الأهواء والشهوات : ويروى أن أحد اللصوص سرق في عهد عمر رضي الله عنه فأحضر بين يديه فسأله عمر قائلاً: لم سرقت؟ فقال: قدر الله ذلك. فقال عمر رضي الله عنه: اضربوه ثلاثين سوطاً ثم اقطعوا يده. فقيل له: ولم؟ فقال: يقطع لسرقته ويضرب لكذبه على الله، ويقول الخطابي: قد يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر إجبار الله سبحانه وتعالى العبد على ما قدره وقضاه، وليس الأمر كما يتوهمونه، وإنما معناه الإخبار عن تقدم علم الله تعالى، بما يكون من اكتسابات العبد، وصدورها عن تقدير منه، وخلقه لها خيرها وشرها[3] .

5. إن هذا القول "الاحتجاج بالقدر" يلزم منه أن يستوي أولياء الله وأعداء الله، ولا يتميز الأبرار من الفجار، ولا أهل الجنة من أهل النار، فإن هؤلاء جميعاً قد كتب مقاديرهم، قبل أن يخلقهم، وهم مع هذا قد انقسموا إلى سعيد بالإيمان والعمل الصالح، وإلى شقي بالكفر والفسوق والعصيان[4] .

(1) العقيدة الإسلامية د. أحمد جلي ص 210.

(2) عقيدة التوحيد من الكتاب والسنة سعاد ميبر ص 210.

(3) صحيح مسلم، شرح النووي (1/ 154 ـ 155) .

(4) الإيمان بالقدر للقرضاوي ص 63.



قال تعالى:" أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ" (القلم: 35، 36) . وقال تعالى:" أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ" (ص: 28) . وقال تعالى:" لَايَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ" (الحشر: 20) .

وملخص القول في الاحتجاج بالقدر على المعاصي:

لو كان الاحتجاج بالقدر، مقبولاً لقبل إبليس وغيره من العصاة ولو كان القدر حجة للعباد لم يعذب أحد من الخلق لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولو كان القدر حجة لم تقطع يد سارق، ولا قتل قاتل، ولا أقيم حد على ذي جريمة، ولا جوهد في سبيل الله، ولا أمر بالمعروف ولا نُهي عن المنكر[1] ، وهذا من الفساد في الدين والدنيا المعلوم ضرورة فساده بصريح المعقول المطابق لما جاء به الرسول[2] . وأخيراً فإن المحتج بالقدر يكذب واقع دعواه، إذا أنه لا يعلل بالقدر كل أحواله، وإلا لو كان صادقاً في زعمه لرضي بكل ما يقدره الله عليه من فقر وذل وجوع وذهاب مال، والواقع يشهد بعكس ذلك ويؤكد سعيه بكل الوسائل لجمع المال ودفع المرض وإذهاب الجوع.. الخ ولو كان المحتج بالقدر صادقاً في احتجاجه للزم أن لا ينكر على من يظلمه ويشتمه ويأخذ ماله ويفسد حريمه ويضرب عنقه ويهلك الحرث والنسل، وهؤلاء جميعهم كذابون متناقضون[3] ، فإن أحدهم لا يزال يذم هذا، ويبغض هذا، ويخالف هذا، حتى إن الذي ينكر عليهم يبغضونه ويعادونه، وينكرون عليه، فإن كان القدر حجة لمن فعل المحرمات وترك الواجبات لزمهم أن لا يذموا أحداً ولا يبغضوا أحداً، ولا يقولوا في أحد: إنه ظالم ولو فعل ما فعل، ومعلوم أن هذا لا يمكن أحد فعله، وفعل الناس هذا لهلك العالم، فتبين أن قولهم فاسد في العقل... وأنهم كذابون مفترون في قولهم: إنَّ القدر حجة للعبد[4] .

---

(1) مجموع الفتاوى لا بن تيمية (8/ 264. 265) .

(2) مجموع الرسائل والمسائل (5/ 139) .

(3) العقيدة الإسلامية د. أحمد جلي ص 387.

(4) مجمع الفتاوى، ابن تيمية (8/ 263) .



. هل أحتج آدم عليه السلام على الذنب بالقدر؟

ومن أشهر الأدلة التي يستدل بها المحتجون بالقدر على توسيع تفريطهم وعصيانهم حديث احتجاج آدم وموسى ـ عليهما الصلاة والسلام ـ وهو ما رواه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: "احتج آدم وموسى فقال له موسى: يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة. فقال له آدم: يا موسى اصطفاك الله بكلامه، وخط لك بيده، أتلومني على أمر قدره الله عليّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة، فحج آدم موسى ثلاثاً"[1] ؟

لقد تسرع بعض الناس فأنكروا هذا الحديث حين ظنوه سنداً للاحتجاج على الذنوب بالقدر، وتمحل آخرون تأويلات غير مقبولة، واتخذه آخرون تكأة يتوكؤون عليها، ويستندون إليها إذا وقعوا في الذنوب والآثام والديث لا مطعن في صحته، فقد رواه الشيخان عن حديث أبي هريرة وروي في السنن بإسناد جيد من حديث عمر رضي الله عنه[2] والحديث يشير إلى أمور في غاية الوضوح منها:

1. أن الحديث ليس فيه أن موسى لام آدم على المعصية، وإنما فيه أنه قاله: "يا آدم أنت أبونا، خيبتنا وأخرجتنا من الجنة"، وظاهر هذا القول أنه لامه على الإخراج من الجنة لا على الأكل من الشجرة، فيكون اللوم على المصيبة التي حصلت بسبب المعصية، لا المعصية نفسها[3] ، والمؤمن مأمور على نزول المصائب أن يرجع إلى القدر ويحتمي به، فإن سعادة العبد أن يفعل المأمور ويترك المحظور، ويسلم للمقدور، ولهذا علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نقول عند حلول ما نكره: قدر الله وما شاء فعل[4] .

2. أن موسى عليه السلام أعرف بالله سبحانه وبأمره ودينه من أن يلوم على ذنب قد أخبره الله أنه تاب على صاحبه، واجتباه بعده وهداه " ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى" (طه : 122) ،

---

(1) مسلم ك القدر رقم 13 (4 / 4042 . 4043) ، البخاري، ك القدر (7/ 214) .

(2) الإيمان بالقدر للقرضاوي ص 66

(3) منهج الحافظ ابن حجر العسقلاني في العقيدة (1 / 425) .

(4) مسلم رقم 2664.





وموسى عليه السلام ومن هو دون موسى منزلة يعلم أنه بعد التوبة والمغفرة، لا يبقى وجه الملامة على الذنب، فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له[1] ، وآدم أعلم بالله جل شأنه من أن يحتج بالقدر على الذنب، كيف وقد اعترف به واستغفر منه بقوله: " رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ" (الأعراف : 23) [2] .

3ـ إن الاحتجاج بالقدر على المصائب جائز، وكذلك الاحتجاج بالقدر على المعصية بعد التوبة منها جائز، وأما الاحتجاج بالقدر على المعصية تبريراً لموقف الإنسان واستمراراً فيها فغير جائز[3] .

4ـ من مسائل القدر في هذا الحديث، سبق الكتاب، أي كتابة كل شئ قبل وجوده، وفيه مقارنة بين حجة آدم وحجة موسى عليهما السلام، ثم تعقيب الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: "فحجّ آدم موسى، ويكررها ثلاثاً"، ولا يقول الرسول الكريم أن كلام موسى خطأ، بل يلفت النظر إلى شمول و حجة آدم عليه السلام[4] .

سادساً . الحكمة من وجود المعاصي والكفر:

لوقوع المعاصي والكفر حكم كثيرة منها:

1. إتمام كلمة الله تعالى حيث وعد النار أن يملأها قال الله تعالى: " وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ"(هود : 118 . 119) .

2. ظهور حكمة الله تعالى وقدرته حيث قسم العباد إلى قسمين طائع وعاصي، فإن هذا التقسيم يتبين به حكمة الله عز وجل فإن الطاعة لها أهل هم أهلها، والمعصية لها أهل هم أهلها قال تعالى: " اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ" (الأنعام : 124) . وقال تعالى: " وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ" (محمد : 17) فهؤلاء أهل الطاعة. وقال تعالى: " وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ" (التوبة : 125) .

(1) الإيمان بالقدر للقرضاوي ص 67.

(2) المصدر نفسه ص 67.

(3) المجموع الثمين لابن عثيمين (2/ 159) .

(4) القدر في ضوء الكتاب والسنة، محمد فتح الله كولن ص 48.



ـ وقال تعالى: " فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ" (الصف : 5) ، وهؤلاء أهل المعصية، ويتبين بذلك قدرته بهذا التقسيم الذي لا يقدر عليه إلا الله كما قال تعالى: " لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء" (البقرة : 2729) .وقال تعالى " إِنَّكَ لَاتَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ"(القصص : 26) .

3ـ لجوء العبد إلى ربه بالدعاء أن يباعد بينه وبين المعصية والدعاء عبادة لله تعالى.

4ـ ومنها أن العبد إذا **وقع في المعصية** ومنَّ الله عليه بالتوبة إزداد إنابة إلى الله وانكسر قلبه وربما يكون بعد التوبة أكمل حالاً منه قبل المعصية حيث يزول عنه الغرور والعجب ويعرف شدة افتقاره إلى ربه[1] .

5ـ ومنها أن يتبين للمطيع قدر نعمة الله عليه بالطاعة إذا رأى حال أهل المعصية قال تعالى: "لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ" (آل عمران : 164) .

6ـ ومنها إقامة الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنه لولا المعاصي والكفر لم يكن جهاد ولا أمر بمعروف ولا نهي عن منكر إلى غير ذلك من الحكم والمصالح الكثيرة ولله في خلقه[2] شؤون.

(1) المجموع الثمين (1 / 170) .

(2) المصدر نفسه (1 / 171) .

الفصل الخامس

الهداية والضلال

أولاً: مراتب الهداية

ثانياً: أسباب الهداية

ثالثاً: مراتب الضلال

رابعاً: أسباب الضلال



الفصل الخامس

الهداية والضلال

إن مسألة هداية الله تعالى للعبد وإضلاله له هي قلب أبواب القدر ومسائله، لأن أعظم نعمة الهداية، وأعظم مصيبة هي مصيبة الضلال[1] .

أولاً: مراتب الهداية:

1. الهداية العامة :

وهي هداية كل مخلوق لما يصلح أمور معاشه، وهي أعم المراتب، وهي شاملة لجميع المخلوقات ودليلها قوله تعالى: " قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى" (طه : 50) .وهذه الهداية تعم جميع المخلوقات، وتعم سائر أمور المعاش من نكاح، وطعام وشراب، وجميع السلوك التي يهدي الله تعالى مخلوقاته لعملها من غير تعليم سابق كهداية النمل إلى تنظيم طرق المعاش وخزن الطعام وغير ذلك مما يحار العقل البشري فيه فسبحان من خلق فسوى ثم قدر فهدى[2] .

2. هداية الإرشاد والدعوة والبيان :

وهي أخص من التي قبلها حيث إنها مختصة بالمكلفين من الخلق، والمراد بها دعوة الخلق وبيان الحق لهم، وهي حجة الله على خلقه، فلا يعذب أحداً إلا بعد إرسال الرسل وإنزال الكتب. قال تعالى: " رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا" (النساء : 165) . وقال تعالى: " وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ" (يونس : 147) .وقال تعالى: " وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ" (البلد : 10) . وقال تعالى: " وَمَاكُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً" (الإسراء : 15) .

---

(1) شفاء العليل لابن القيم ص 117.

(2) المصدر نفسه ص 117 – 129.





وقال تعالى: "كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ" (الملك : 8 . 9) .وهذه الهداية هي التي أثبتها الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: "وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ" (الشورى : 52) . وهي ثابتة من بعده للعلماء، والدعاة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة[1] ، وهي مرتبة عامة يشترك فيها الناس جميعاً، ولكنها لا يلزم عنها هداية التوفيق واتباع الحق، فكثير من الذين أرسل إليهم الرسل وأنزلت عليهم الكتب، لم يؤمنوا وآثروا طرق الغواية " وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ" (النمل : 14) أي جحدوا بالآيات بعد تيقنهم من صحتها وهذا النوع من الهداية عام للمؤمن والكافر[2] .

وحجة الله قائمة بهذه الهداية بعدة أمور وهي:

أ – إرسال الرسل.

ب – إنزال الكتب، بما فيها من الحق والبيان.

ج ـ البيان بالآيات الكونية والنظر في الآفاق ، قال تعالى: " قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُعَن قَوْمٍ لاَّيُؤْمِنُونَ" (يونس : 101) .

د ـ بيان الصراط المستقيم، وإقامة أسباب الهداية، باطناً وظاهراً، ومن لم تكتمل عنده هذه الأسباب لصغر أو لزوال عقل أو نحو ذلك فهؤلاء رفع عنهم التكليف، ولم يكلفهم الله تعالى إلا ما في وسعهم ودليل هذه المرتبة من سورة يونس ـ عليه السلام ـ في قوله تعالى: "وَاللّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ" (يونس : 25) ، فاشتملت هذه الآية الكريمة على هداية البيان والإرشاد في قوله تعالى: " وَاللّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِالسَّلاَمِ"، وعلى الهداية الخاصة وهي هداية التوفيق والإلهام في قوله تعالى: " وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ" (يونس : 13) .

(1) أصول الاعتقاد في سورة يونس، قذلة بنت محمد القحطاني ص 508.

(2) العقيدة الإسلامية د. أحمد جلي ص 382.



وقال تعالى: " ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَآؤُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلوبِ الْمُعْتَدِينَ"(يونس : 74) نفي لهداية التوفيق عنهم لظلمهم، وهذا كما في قوله تعالى: " وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ" (فصلت : 17) .فهداهم في الهداية الأولى هداية البيان والإرشاد فأعرضوا عنها لم يقبلوها فعاقبهم الله تعالى بالضلال جزاء إعراضهم وردهم الحق[1] .

3. هداية التوفيق والإلهام وخلق المشيئة المستلزمة للفعل[2] :

وهذه لا يقدر عليها إلا الله سبحانه وتعالى، فمن شاء هدايته اهتدى، ومن شاء ضلاله ضل، وهي أخص مما قبلها إذ هي خاصة للمهتدين من المكلفين، وهي حتمية الوقوع وهي التي نفاها الله تعالى عن رسوله في قوله تعالى: " إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ" (القصص : 56) . وقال تعالى: " مَن يَشَإِ اللّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ" (الأنعام : 39) . وقال تعالى: " وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" (إبراهيم : 4) . وقال تعالى: " أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ" (الجاثية : 23) . وقال تعالى: " وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ" (يونس : 19) .وقال تعالى: " وَاللّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِالسَّلاَمِ وَيَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ" (يونس : 25) . وقال تعالى: "كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُواْ أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ" (يونس : 33) . وقال تعالى: "قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ" (يونس : 35) .

(1) أصول الاعتقاد في سورة يونس، ص 510.

(2) العقيدة الإسلامية أحمد جلي ص 382.



وقال تعالى: "وَمِنهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ" (يونس : 40) . وقال تعالى: " ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَآؤُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلوبِ الْمُعْتَدِينَ" (يونس : 74) . وقال تعالى: "رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ" (يونس : 88) . وقال تعالى: "وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ" (يونس ، 99 . 100) .

والواقع أن استقراء النصوص القرآنية يكشف أن هذه الهداية وما يقابلها من الإضلال ليستا في الإنسان ابتداء وخلقه، بل هما نتائج لمقدمات، ومسببات لأسباب، فكما جعل الله تعالى الطعام سبباً في الغذاء والماء سبباً للري، والسكين ينتج عنه القطع والنار تسبب الحريق، فكذلك جعل أسباباً توصل إلى الهداية وأسباباً تقود إلى الضلال.

فالهداية إنما هي ثمار العمل الصالح، والضلال إنما هو نتاج عمل قبيح وإسناد الهداية لله من حيث أنه وضع نظام الأسباب والمسببات لا أنه أجبر الإنسان على الضلال والهداية وهذا المعنى واضح جداً في الآيات القرآنية مثل: قوله تعالى:" وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ" (الرعد: 27) . وقوله تعالى:" وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ" (العنكبوت: 69) . وقوله تعالى:" وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ" (محمد: 17) . فهداية الله للناس بمعنى لطفه بهم وتوفيقهم للعمل الصالح إنّما هي ثمرة جهاد للنفس، وإنابة إلى الله واستمساك بإرشاده ووحيه[1] .

وفي الإضلال يقول تعالى:" يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَايُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ * الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ" (البقرة: 26 . 27) . وقال تعالى:" يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللّهُ مَايَشَاء" (إبراهيم: 27) . وقال تعالى:"كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ" (غافر: 35) . وقال تعالى:" فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَايَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ" (الصف: 5) . وقال تعالى:"كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ" (المطففين: 14) . وقال تعالى:" بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً" (النساء: 155) .

(1) العقيدة الإسلامية د. أحمد جلي ص 383.



فسبب الضلال هو الزيغ، والخروج عن تعاليم الله والكبر والجبروت والتعالي على الناس بغير حجة، ونقض عهد الله، وقطع ما أمر الله به أن يوصل ووصل ما أمر الله به أن يقطع، والإفساد في الأرض، والكفر واقتراف الآثام، فهذه من الأسباب التي أضلت الناس وأخرجتهم عن منهج الحق لأنهم آثروا العمى على الهدى، واستحبوا الظلام على النور، فكان أن كافأهم الله فأصمَّهم وأعمى أبصارهم، بمقتضى نظامه سبحانه في ارتباط الأسباب بمسبباتها وهذا ونحوه كثير في كتاب الله ومن ذلك: قوله تعالى:" وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ" (الأعراف: 179) [1] .

4. الهداية إلى طريق الجنة:

وهذه الهداية تكون في الآخرة بعد الحساب والجزاء ودليلها: قوله تعالى:" إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ" (يونس: 9) . وقال تعالى:" وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ" (محمد: 4، 5) ، وهذه الهداية حاصلة لهم بعد قتلهم، فدل على أن المراد بها هداية إلى طريق الجنة على القول الراجح[2] .

ثانياً: أسباب الهداية:

أسباب الهداية: كثيرة منها:

1 . المحافظة على الفطرة الإنسانية نقية صافية:

الفطرة الإنسانية مفطورة على الإقرار بالله وإفراده بالربوبية والألوهية، فالنفس بفطرتها إذا تركت كانت مقرة لله بالألوهية محبة له، متعبدة، لا تشرك به شيئاً[3] .

(1) العقيدة الإسلامية د. أحمد جلي ص 384.

(2) أصول الاعتقاد في سورة يونس ص 512.

(3) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (8/ 205) .



وأصل هذا العلم فطري ضروري وأشد رسوخاً في النفس من مبدأ العلم الرياضي، كقولنا: إن الواحد نصف الاثنين، ومبدأ العلم الطبيعي أن الجميع لا يكون في مكانين، لأن هذه المعارف قد تعرض عنها أكثر الفطر، أما العلم الإلهي فما يتصور أن تعرض عنه فطرة[1] ، فالإقرار بالله هو أرسخ المعارف، وأثبت العلوم، وأصلح الأصول[2] ، قال تعالى: "فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَاتَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَاتَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ" (الروم : 30 ـ 31) وقال تعالى: "وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ * وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ" (الأعراف : 172 ـ 174) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء حتى تكون أنتم تجدعونها"، "ثم يقول أبو هريرة: " فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَاتَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ"(الروم : 30) . [3] .

وفي صحيح مسلم عن عياض بن عمار عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: "إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً"[4] .وهذا صريح في أنه سبحانه خلقهم على الحنيفية وأن الشياطين اجتالتهم بعد ذلك[5] .

(1) المصدر نفسه (2/ 16) .

(2) السنن الإلهية د. شريف الشيخ صالح (1/ 209) .

(3) البخاري، فتح الباري (8/ 512) ، مسلم (4/ 2047) .

(4) مسلم، ك الجنة وصفة نعيمها (4 / 2197) .

(5) شفاء العليل ص 595.



وقد فطر الله عز وجل الإنسان أيضاً على معرفة الحق ومحبته له، وقد هداه ربه إلى أنواع من العلم، يمكنه أن يتوصل إلى سعادة الدنيا والآخرة، وجعل في فطرته محبة ذلك، فإذا نظر الإنسان فيما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم أو في حاله في آياته أو نحو ذلك من شؤونه يحصل له العلم والإقرار بالنبوة، ثم إذا قوي النظر في أحواله حصل له من اليقين الضروري الذي لا يمكن دفعه[1] .

فلا شك أن الإيمان والاهتداء هو الأصل، وأن الكفر والضلال هو الطارئ الذي يطرأ على النفس لسبب من أسباب الضلال[2] .

وقد أشارت الآيات والأحاديث التي أوردتها إلى بعض هذه الأسباب، فأشارت الآية الأولى أن الذي يصرف الفطرة عن الإيمان هو عدم العلم، فأشارت الآية الثانية إلى الغفلة والتقليد، وأنهما يصرفان الفطرة عن الإيمان بالله ورسوله بعدما أقام عليه الحجة بالفطرة والرسالة " أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ" (الأعراف : 172 . 173) .

وأشار الحديث الأول إلى أثر التربية والعادة، وأن من لا يستخدم عقله ويهتدي بالدين الحق الذي يرشده إليه العقل والعلم، بل يطيع والديه، وإن أمراه بالضلال[3] . وأشار الحديث الثاني إلى أثر الشياطين في تزيين الباطل في نفوس الناس وإضلالهم بذلك[4] .

إن أول أسباب الهداية، هو إبقاء هذه الفطرة نقية صافية تتلقى وحي الله وتستجيب له[5] .

2. استعمال السمع والبصر والعقل:

إن الله عز وجل وهب الإنسان هذه النعم وأمتن عليه بها، وذلك لما لها من غايات سامية، منها النظر والتفكر في آيات الله المرئية، والاستماع والتدبر في آيات الله المسموعة[6] .وقال تعالى: "وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" (النحل : 78) .

(1) مجموع الفتاوى لابن تيمية (2/ 72) .

(2) شرح العقيدة الطحاوية ص 272.

(3) المصدر السابق ص 273.

(4) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية (1/ 211) .

(5) المصدر نفسه (1/ 211) .

(6) منهج التربية الإسلامية محمد قطب (1/ 77) .



وقد جعل الله الإنسان مسؤولاً عن استعمال هذه الملكات والمواهب وعن حسن توجيهه لها إلى ما خلقت له، قال تعالى: "وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً" (الإسراء : 36) .

وقد مضت سنة الله أن الإنسان إذا أحسن استخدام مواهبه من حواس ومشاعر ومدارك، ووجهها إلى إدراك دلائل الهدى في الكون والنفس، وما يجيء به الرسل من آيات وبينات، فإنه يؤمن ويهتدي بهذا الإيمان إلى طريق الخلاص[1] .

وبين سبحانه وتعالى في آيات كثيرة أن الذين ينتفعون بالنظر في هذا الكون ومظاهره هم الذين يمعنون النظر والتفكير والتدبر بعقولهم، قال تعالى: "إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" (البقرة : 164) . وقال تعالى: "إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ"(آل عمران : 190 ـ 191) .

إن الله عز وجل وهب الإنسان من القوة والملكات ما جعله طريقاً إلى هدايته إذا أحسن استخدامه، فاستعمال السمع والبصر والفؤاد في النظر في آيات الله، والتفكر في دلالاتها من أول سبل الهداية إلى معرفة الله وصفاته، وإلى الإيمان بصدق رسله، وإلى مزيد من ذلك الهدى بعد الإيمان[2] .

3ـ العلم:

ومن أسباب الهداية حسب سنته سبحانه وتعالى في الهداية والضلال: العلم، وقد كانت أول آية نزلت في القرآن الكريم في الدعوة إليه " اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ" (العلق : 1) . وتوالت آيات القرآن الكريم بما يضيق المجال عن حصره في الدعوة إليه بيان فضل العلماء. قال تعالى: " وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا" (طه : 114) .وقال تعالى: " يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ" (المجادلة : 11).

---

(1) في ظلال القرآن، سيد قطب (2/ 1821) .

(2) السنن الإلهية (1 / 226) .





وقال تعالى: " قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَايَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ" (الزمر : 9) . وقال تعالى: " فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ" (محمد : 19) ، فأمر بالعمل بعد العلم[1] .

وقد جاء القرآن الكريم يكشف لنا بوضوح عن تلك العلاقة الوثيقة بين العلم والهداية في آيات كثيرة، وذلك بحديثه عن العلماء واستعدادهم بما لهم من علم لخشية الله وحسن النظر في آياته والاعتبار بها وإدراك ما فصله الله منزلاً على رسوله وشهود وحدانيته سبحانه وتعالى[2] .

قال الله عز وجل مبيناً أن العلماء هم الذين ينتفعون بالآيات المبثوثة في الكون، وهم الذين يستشعرون عظمة الله وقدرته، فيخشونه فيهديهم الله، قال تعالى: "أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ" (فاطر : 27 . 28) ، فالذين يستفيدون من اختلاف ألوان الثمار والجبال والناس هم العلماء، وهم الذين يخشونه حق خشيته، لأنهم العارفون به وبصفاته جل جلاله، وكلما كانت المعرفة للعظيم القدير الموصوف بصفات الكمال، المنعوت بالأسماء الحسنى، كلما كانت المعرفة به أتم، والعلم به أكمل، كانت هدايتهم كذلك أتم وأكمل[3] .

وقال تعالى: " هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ" (يونس : 5) .

والعلماء هم أكثر استفادة وإدراكاً واتعاظاً واعتباراً، بالأمثال التي يضربها الله عز وجل في كتابه العزيز، ولأن امتلاكهم الأداء التي يعرفون بها عظمة وصدق هذه الأمثال، قال تعالى: " وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ" (العنكبوت : 43)

(1) المصدر نفسه (1 / 227) .

(2) المصدر نفسه (1/ 228) .

(3) السنن الإلهية (1 / 328) .



الذين يعقلون عن الله عز وجل وأما مغلقي القلوب فيتخذونها مادة للسخرية والتهكم[1] .

كما أنهم الأكثر استفادة من تبيين الآيات القرآنية وتوضيحها وتفصيلها وغير العالم يستوي عنده الإجمال والتفصيل، لأنه يملك لا الأداة التي يميز بها بين ذينك الأمرين قال تعالى: "قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ" (الأعراف : 32) .وقال تعالى: " فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ" (التوبة : 11) .وقال تعالى:" وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ" (الأنعام، الآية: 97) .

كما أن العلماء هم أكثر تأثراً بكلام الله سبحانه وتعالى وأسرع استجابة له وأعظم خشوعاً وإخباتاً لعظمته، وجلاله، وأعظم إدراكاً لمحكمه ومتشابهه مما يجعلهم أكثر تسليماً وإذعاناً لما يتضمنه من عقائد وأحكام[2] . قال تعالى:" قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَتُؤْمِنُواْ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً * وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا" (الإسراء: 107. 109) . وقال تعالى:" هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَاتَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَايَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ" (آل عمران: 7) .

وإن العلماء هم الذين يعرفون قدر كلام الله وعظمته وإعجازه، وإن هذا الكلام لا يمكن أن يصدر عن بشر فيدفعهم ذلك إلى الإيمان والتسليم والإذعان والاستفادة مما حوى من هدى وبيان[3] . قال تعالى:"وَمَاكُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ" (العنكبوت: 48، 49) .

(1) المصدر نفسه (1/ 329) ، زاد المسير، لابن الجوزي (6/ 273) .

(2) السنن الإلهية (1/ 230) .

(3) المصدر نفسه (1/ 231) .



والعلماء هم الأبعد عن إلقاءات الشيطان ونزغاته، ووسوسته وذلك لعلمهم بمداخله وأحابيله، فلا تزيدهم وسوسته إلا إيماناً ويقيناً وتسليماً بخلاف الجهلة الذين ينقادون لوسوسته وهم يحسبون أنهم يحسنون. قال تعالى:" لِيَجْعَلَ مَايُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ" (الحج: 53 . 54) . وقال تعالى:" شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" (آل عمران: 18) .

ولا تدل هذه الآية الكريمة على مجرد تشريف الله سبحانه لأهل العلم حيث جمع شهادته بالتوحيد إلى شهادة ملائكته وشهادتهم بذلك، ولكنها تدل كذلك على أن علمهم هو الذي يؤهلهم إلى شهود وحدانية الله عز وجل وإنفراده بالملك والتدبير، فالعلم من أول أسباب الهداية إلى معرفة طريق الله، والاستزادة منه سبيل إلى المزيد من هداه[1] .

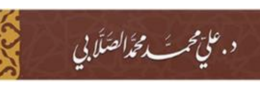
4 . الإيمان:

إن في كل ذرة من ذرات هذا الوجود، وفي كل كائن من الكائنات لآية باعثة على الهدى وإن في ذلك التنسيق البديع والتوافق بين سائر الكائنات لتوائم حياة الإنسان وسعادته فوق الأرض لآيات وآيات كثيرة تبعث على الاهتداء إلى الحق وإن في القرآن الكريم وما حوى من دلائل وبينات وما جاء فيه من موعظة وآيات تحيي القلب وتشفي الصدور وتهدي إلى الحق والصراط المستقيم ولكن هذه الآيات وتلك لا تتضح ولا ينتفع بها إلا القلب المؤمن فالكفر حجاب وحاجز كثيف يمنع من دخول نور القرآن في القلب ويمنع كذلك من الانتفاع بالآية الهادية في هذا الكون فإذا زال هذا الحجاب وانكشف ذلك الحاجز انتفع الإنسان بتلك الآيات الكونية، وانفتحت أمامه أيضاً كنوز القرآن من الهدى والمعرفة .

وقد جاءت آيات كثيرة تبين أن المؤمن هو الذي ينتفع ويستفيد من الذكرى ومن هدى القرآن، ومن الآيات الباعثة على الهدى في هذا الكون:

---

(1) السنن الإلهية (1/ 232) .



قوله تعالى:"طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ * هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ" (النمل: 1 ـ 2) . وقوله تعالى:" يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ" (يونس: 57) . وقوله عز من قائل:" قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يِوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَـذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" (الأعراف: 203) . وقال تعالى:" قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ"(النحل: 102) .

وقد أشارت هذه الآيات ـ وغيرها من الآيات في هذا المعنى ـ إلى معنيين رئيسيين هما:

الأول: وهو أن القرآن الكريم فيه بيان وإرشاد لطرق الهداية، وإنه زاجر بما فيه من الترغيب والترهيب، وارتكاب المعاصي، وإنه شافي لما في الصدور من الامراض المفضية إلى الهلاك والشك والشرك والنفاق والضلال وأنه هدى من الضلالة إلى الرشد والحق، وأنه يزيد المهتدي هدى، وأنه تثبيت أيضاً للمهتدين على الهدى، وهو أنه رحمة للناس بكل ما حوى من أوامر ونواه واعتقادات وعبادات وأنه نجاة لمن آمن به من عذاب الله وسبب في فوزه ودخوله الجنة(1) .

الثاني: أن المؤمنين هم الذين ينتفعون بهدي القرآن، ويستفيدون مما حوى فيهتدون بهديه ويسيرون وفق هداه، فيهتدون إلى صراط مستقيم دون غيرهم من الجاحدين والكافرين به الذي هو عليهم عمى وضلالة وغم وخزي، وفي الآخرة جزاءهم على الكفر به الخلود في لظى(2) ، وقد صرح القرآن الكريم بهذا المعنى في آيات منها: قال تعالى:" هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى"(فصلت: 44) . وقال تعالى:" وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَيَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا" (الإسراء: 82) . وقال تعالى: "وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ* وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ"(التوبة : 124 ـ 125) .

---

(1) تفسير الطبري (9/ 162) ، تفسير الألوسي (11/ 139) ، زاد المسير (3/ 312) ، تفسير القرطبي(5/ 3793) .

(2) تفسير الطبري (11/ 124) ، أضواء البيان (1/ 107) .

هذا بخصوص هداية القرآن وأن المؤمنين هم المنتفعون بهديه، وما حوى من آيات، وأما عن الآيات الكونية وأن المؤمنين هم الذين ينتفعون بها ويهتدون بما ترشد إليه من التوحيد، ومن إضافة صفات الكمال لله سبحانه وتعالى، فقد جاء في مثل قوله سبحانه: قال تعالى: " أَلَمْ يَرَوْ اْإِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاء مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ"(النحل : 79) . إن مشهد الطير وهي تحلق في جو السماء "مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّاللّهُ" مشهد عجيب بديع ذهب ما به من عجب: الإلفة والتكرار، ولكن قلب المؤمن هو الذي يشعر بإبداع الخلق والتكوين، ويدرك ما فيه من روعة باهرة تهز المشاعر وتستجيش الضمائر، ويدرك قدرة الله وإبداعه وحكمته فيما أودع فطرة الطير من سنن تمكنها من الطيران، وما أودع الكون من حولها من سنن مناسبة لهذا الطيران[1] .

ومثل قوله سبحانه وتعالى: " أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" (النمل : 86) . ومشهد الليل الساكن، ومشهد النهار المبصر، خليقان أن يوقظا في الإنسان وجداناً دينياً يجنح إلى الاتصال بالله الذي يقلب الليل والنهار، وهما آيتان كونيتان لمن استعدت نفسه للإيمان[2] .

وقال سبحانه وتعالى مبيناً إنتفاع المؤمنين بما في السماوات والأرض من آيات، قال تعالى: " إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ" (الجاثية : 3) .

وإذا كان الإيمان سبباً في إهتداء العبد إلى الحق، وانكشاف الحجب أمام بصيرته، فإنه كذلك سبب في هداية الله في العبد وإعانته وتوفيقه وزيادته هدى إلى الصراط المستقيم، وتثبيته عليه، وقد جاءت آيات كثيرة تقرر هذه الحقيقة وتؤكدها، منها: قوله تعالى: " وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ"(التغابن : 11) . وقال عز من قائل: " إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ" (يونس : 9) . وقال تعالى: " يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللّهُ مَا يَشَاء" (إبراهيم : 27) .

(1) في ظلال القران (4 / 2186) .

(2) المصدر نفسه (5 / 2668) .



وبين سبحانه وتعالى صفات المؤمنين الذين يهديهم فقال: "ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ"(البقرة : 2 ـ 5) .

5 ـ الاهتداء:

من أسباب الهداية المؤدية بالعبد إلى مزيد الهدى والتثبيت على الصراط المستقيم: اهتداؤه إلى الإيمان، والإتيان بأسبابه، فإذا فعل العبد ذلك، هداه الله بأن خلق فيه المشيئة المستلزمة للفعل، وألهمه ووفقه لطاعات وزاده هدى وتوفيقاً، وأعانه وهو ما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى، كما يزيد الذين ظلموا زيادة ضلال[1] . قال تعالى: قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا" (مريم : 175) ، وهو من باب الجزاء من جنس العمل[2] . كما في قوله تعالى: " فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ"(البقرة : 152) . وقوله تعالى: " إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ"(محمد : 7) .

وقد جاءت بعض آيات القرآن الكريم مقررة لهذه الحقيقة زيادة الهدى لمن اهتدى وفق سنته سبحانه وتعالى في هداية من سلك سبيل الهدى وقصده[3] . قال تعالى: " وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ"(محمد : 17) . وقال تعالى: " وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى" (مريم : 76) .

وإن إيراد هداية الله مرة بصيغة الماضي، ومرة بصيغة المضارع، يفيد أن هداية الله لعباده بسبب اهتدائهم أمر محقق، وسنة جارية ماضية في الذين من قبل، وهي مستمرة ودائمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

---

(1) شفاء العليل ابن القيم ص 74.

(2) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (8 / 206) .

(3) السنن الإلهية في الحياة الإجتماعية (1 / 239) .





وقد ورد في تفسير قوله تعالى: "اهْتَدَوْا" معاني متعددة دلت عليها أقوال المفسرين فذهب بعضهم إلى أن المقصود من الإهتداء هو الإيمان[1] ، وجمع بعضهم بينه وبين التصديق بآيات الله، وربط بعضهم بينه بين الإتباع، وذهب فريق آخر إلى معنى "اهْتَدَوْا" أي: قصدوا الهداية وأرادوها[2] .

وقال الطبري مبيناً إهتداء العبد وهداية الله له: ويزيد من سلك قصد المحبة واهتدى لسبيل الرشد فآمن بربه وصدق بآياته، فعمل بما أمره به، وانتهى عمن نهاه عنه هدى على هداه وذلك نظير قوله: وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا"[3] (التوبة : 124) .

إن ترتيب الوقائع في الآية يستوقف النظر، والذين اهتدوا بدأوا هم بالإهتداء، فكافأهم الله بزيادة الهدى، وكافأهم بما هو أعمق وأكمل " وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ"، والتقوى حالة في القلب تجعله أبداً واجفاً من هيبة الله، شاعراً براقبته، خائفاً من غضبه، متطلعاً إلى رضاه، متحرجاً من أن يراه على هيئة أو في حالة لا يرضاها، هذه الحساسية المرهفة هي التقوى، وهي مكافأة يؤتيها من يشاء من عباده حين يهتدون هم، ويرغبون في الوصول إلى رضاه[4] .

6 . الدعاء:

إن من أسباب الهداية حسب سنته سبحانه وتعالى أن يسأل العبد ربه ذلك لأن ما يستطيعه العبد هو فعل الأسباب، وأما ما تحقق النتيجة وهي الهداية إلى الصراط المستقيم، والإعانة والإلهام والتوفيق والتثبيت على الحق، فهي من شأن الله وفعله، لا يقدر على ذلك إلا هو سبحانه وتعالى، فالعبد إذا فعل الأسباب التي يقدر عليها سأل الله ما لا يقدر عليه وهو الهداية،كمن يتعاطى العلاج للشفاء من المرض، ثم يسأل الله عز وجل الشفاء لأنه هو الشافي والدواء إنما هو مجرد سبب . والأسباب لا تؤدي إلى نتائجها إلا بمشئة الله . ووفق قدر خاص لكل شئ منه سبحانه[5] .

---

(1) تفسير الرازي (21 / 249) .

(2) تفسير ابن كثير (4 / 177) .

(3) تفسير الطبري (16 / 119) السنن الإلهية (1 / 240) .

(4) في ظلال القرآن (6 / 3294) .

(5) السنن الإلهية (1 / 241) .





إن سؤال العبد لله سبحانه وتعالى بالهداية هو من الدعاء الذي وعد عليه بالاستجابة، كما في قوله تعالى: " وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ" (البقرة : 186) . وقال تعالى: " ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ" (غافر : 60) .

ولما كان سؤال الله تعالى الهداية إلى الصراط المستقيم من أجلّ المطالب، ونيله أشرف المواهب، فقد علم سبحانه وتعالى عباده . في سورة الفاتحة .كيفية سؤاله وأمرهم أن يقدموا بين يديه حمده والثناء عليه وتمجيده، ثم ذكر عبوديتهم، وتوحيدهم، هاتان وسيلتان إلى مطلوبهم، توسل إليه بأسمائه وصفاته وتوسل إليه بعبوديتهم، وهاتان الوسيلتان لا يرد معهما الدعاء[1] .

وهذا الدعاء يتضمن طلب الهداية ممن هو قادر عليها، وهي بيده إن شاء أعطاها عبده، وإن شاء منعه إياها، والهداية هي معرفة الحق والعمل به، فمن لم يجعله الله عالماً بالحق عاملاً به لم يكن له سبيل إلى الاهتداء، فهو سبحانه وتعالى المتفرد بالهداية الموجبة للإهتداء التي لا يتخلف عنها وهو جعل العبد مريداً للهدى، محباً له، مؤثراً له، عاملاً به، فهذه الهداية ليست إلى ملك مقرب ولا إلى نبي مرسل[2] .

7 . الاعتصام بالله:

من بين الأسباب التي رتب الله سبحانه وتعالى عليها الهداية لعباده، حسب سنته تعالى في الهداية والإضلال: الاعتصام بالله وهو الامتناع بالله والالتجاء والفزع إليه والتوكل عليه في دفع شرور الكفار التي تؤدي بالمؤمنين إلى الضلال الذي يريده الكفار من المؤمنين[3] عامّة في قوله:" وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ" (النساء: 89) . واليهود خاصة كما ورد في قوله:" قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاء وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ"(آل عمران : 99) .

(1) مدارج السالكين لابن القيم (1 / 23) .

(2) شفاء العليل ص 116.

(3) مدارج السالكين (1/ 461) ، تفسير الرازي (8/ 174) .





فقد بين سبحانه وتعالى أن الاعتصام بالله من التمسك بدينه والتوكل هو العمدة في الهداية إلى الصراط المستقيم والعمدة في مباعدة الغواية، والوسيلة إلى الرشاد وطريق السداد[1] . قال تعالى: " وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ" (آل عمران : 101) . فقوله: " فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ" جواب الشرط ولكونه ماضياً مع "قد" أفاد الكلام تحقق الهدى حتى كأنه حصل وأن الهداية حاصلة حسب سنته سبحانه لا محالة[2] .

ونظراً لأهمية الاعتصام فقد جاءت عدة آيات في كتاب الله تدعو المؤمنين وتذكرهم بالاعتصام بالله وبعهده من ذلك قوله سبحانه وتعالى: " فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ" (الحج : 78) . وقوله تعالى: " وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ" (آل عمران : 103) .

8. الاتّباع والطاعة:

ومن أسباب الهدى حسب سنته سبحانه وتعالى في الهداية والضلال الاتباع، وهو السير وفق الشرع ومقتضاه، واطراح كل شئ يخالف هدى الله سبحانه وتعالى، وطاعة الله في طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو المبلغ عن الله سبحانه وتعالى، وبهذا فإن الاتباع يشمل الالتزام بما ورد في كتاب الله تعالى، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، من عقائد وأحكام وأوامر ونواه وآداب وأخلاق، وكل ما يرشد إليه كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فالاتباع ليس مجرد شعار يرفع، وإنما هو تحقيق معناه في قلب المسلم وجوارحه وأفكاره[3] .

ونجد القرآن، والسنة المطهرة، يركزان على الاتباع ويعتبرانه مناط بالهداية، والطريق الموصلة إلى السعادة والنجاح والفلاح في الدنيا والآخرة.

(1) تفسير ابن كثير (1 / 378) السنن الإلهية (1 / 246) .

(2) السنن الإلهية (1 / 246) .

(3) المصدر نفسه (1 / 348) .





ومن أعظم الدلائل على ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد بين أهمية الاتباع، وأثره في الوصول إلى الهدى وتجنب الضلال عندما خلق آدم وأنزله إلى الأرض، قبل أن يرسل أنبياءه ورسله،، فكان ذلك دليلاً حاسماً على ما للأتباع من أهمية ومكانة في الوصول إلى الهداية والنجاة[1] . قال تعالى: " قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ" (البقرة: 38) . قال تعالى:" قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُ مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى" (طه: 123) .

وقد ربط الله عز وجل بين طاعته واتباع نبيه صلى الله عليه وسلم وبين الهداية فجعل الطاعة والاتباع سبباً للهداية والرشاد. قال تعالى:" قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّاحُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ" (النور: 54) . فأخبر جل ثناءه أن الهداية إلى المنهج القويم المؤدي إلى الفوز والفلاح في طاعة الرسول لا في غيرها، فإنه متعلق بالشرط فينتفي بانتفائه، وليس عليه إلا البلاغ والبيان[2] .

وقال تعالى:" قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ" (المائدة: 15 ـ 16) . بين سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة أن من أتبع كتاب الله وهو ما رضيه لعباده، فإن الله عز وجل يكافئه على ذلك بثلاثة أمور:

أولها: أنه يهدي من اتبعه سبل السلام التي يسلم بها في الدنيا والآخرة من كل ما يرديه ويشقيه[3]، فاتباع هذا القرآن يسكب السلام في الحياة كلها، سلام الفرد سلام الجماعة، سلام العالم، سلام الضمير، سلام العقل، سلام الجوارح، سلام البيت، سلام الأسرة، سلام المجتمع، سلام البشر والإنسانية السلام مع الحياة ومع الكون، والسلام مع الله رب الكون والحياة والسلام الذي تجده البشرية

(1) السنن الإلهية في الحياة الإجتماعية (1 / 248) .

(2) في ظلال القرآن (4/ 2528) .

(3) تفسير المنار، محمد رشيد رضا (6/ 350) .





ولم تجده إلا في هذا الدين وإلا في منهجه ونظامه وشريعته ومجتمعه الذي يقوم على عقيدته وشريعته حقاً إن الله يهدي بهذا الدين الذي رضيه طرق السلام كلها[1] .

الثاني: **أنه يخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه**، أي يخرجهم من الكفر إلى نور الإيمان بتوفيقه وهدايته لهم[2] ، لأن الجاهلية كلها ظلمات، ظلمة شبهات وخرافات، وحيرة وقلق وانقطاع عن الهدى، ووحشة واضطراب قيم.

الثالث: الهداية إلى الصراط المستقيم وهو **الطريق الموصل إلى المقصد** والغاية من الدين في أقرب وقت، لأنه طريق لا عوج فيه ولا انحراف، فيبطئ سالكه أو يضل في سيره، وقد جعل الله عز وجل اتباع رسوله فيما جاء به سواء كان مبيناً لمجمل القرآن، أو مقيداً لمطلقه، أو مخصصاً لعامه أو منشئاً لأحكام جديدة لم ترد في القرآن جعل ذلك سبباً من أسباب الهداية[3] . قال تعالى: "قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ" (الأعراف : 158) .

وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن التمسك بسنته عصمة من الزيغ والضلال والفتن، فقال: فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة[4] .

وقال تعالى على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم مبيناً أنه عليه الصلاة والسلام لا يتبع أهواء الكافرين، لأن في ذلك انحراف عن الصراط المستقيم وسبيل إلى الضلال: قال تعالى:" قُل لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ" (الأنعام: 56) ، أي: لا اتبعكم على ما تدعونني إليه لا في العبادة ولا في غيرها من الاعمال لأنها مؤسسة على الهوى ، وليست على شيء من الحق والهدى ، فإذا فعلت

(1) في ظلال القرآن (2 / 863) .

(2) السنن الإلهية في الحياة الإجتماعية (1 / 250) .

(3) المصدر نفسه (1 / 250) .

(4) الترمزي (5/ 44) حديث حسن صحيح.



ذلك فقد تركت محجة الحق وسرت على غير هدى فصرت ضالاً مثلكم وخرجت من عداد المهتدين[1] .

. وقال تعالى:" وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا" (النساء: 115) ، أي: ومن سلك غير طريق الشريعة التي جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم فصار في شق والشرع في شق، وذلك عن عمد منه بعد ما ظهر له الحق وتبين له واتضح له ويتبع غير سبيل المؤمنين، هذا ملازم للصفة الأولى:" نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا" (النساء: 115) أي: إذا سلك هذا الطريق جازيناه على ذلك بأن نحسها في صدره ونزينها له استدراجاً له وجعل النار مصيره في الآخرة، لأن من خرج عن الهدى لم يكن له طريق إلا إلى النار يوم القيامة[2] .

ومن هذه النصوص وغيرها يتبين أن الاتباع مجبلة للهداية والرشاد، وعدم الاتباع موقع في الزيغ والضلال والهلاك[3] .

9. الخشية:

ومن أسباب الهداية حسب سنته سبحانه وتعالى، خشية الله عز وجل والخوف منه، فإن خشيته عز وجل تجعل صاحبها أكثر من غيره استعداداً للتذكر إذا وعظ وذكر، وللاعتبار بما يرى من آيات الله في الكون والحياة وما تجري به سنته في أحداث التاريخ، وللانتفاع بالإنذار بعذاب الله في الدنيا والآخرة، والاهتداء إلى الحق إذا هدى إليه وآيات القرآن الكريم توضح هذه الحقائق أكمل توضيح، حتى أنها لتصور لنا ما يعتري الخائفين من الله إذا سمع آيات الهدى تتلى عليهم: قال تعالى: "اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاء وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ" (الزمر : 23) .

---

(1) تفسير المراغي (7/ 141) .

(2) تفسير ابن كثير (1/ 554. 55) .

(3) السنن الإلهية (1/ 253) .

وقال تعالى بعد أن ساق قصة فرعون وما آل إليه أمره من النكال والهلاك قال: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى" (النازعات : 26) فالذي يعرف ربه ويخشاه هو الذي يدرك ما في حادث فرعون من العبرة لسواه أما الذي لا يخشى ربه فبينه وبين العبرة حاجز، وبينه وبين العظة حجاب[1] .

ـ ويقول الله عز وجل عن تأثير خشيته في قبول التذكرة "طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّاتَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى" (طه : 1 ـ 2) وقال تعالى:" فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ" (ق: 45) . وقال تعالى:" وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ" (الأنعام: 51) . فالذي يخشى يتذكر حين يذكر، ويتقي ربه بأداء فرائضه واجتناب محارمه، خشية عقاب الله ووعيده[2] ، وهذه ألوان من الهداية يؤتيه اله سبحانه من يخشاه.

وقد جاء التصريح بترتيب الهداية على خشية الله دون من سواه. قال تعالى:" فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ" (البقرة: 150) . فالهدى إنما يكون نتيجة لخشية الله وحده دون من سواه، لأن ذلك يدفع من يخشى الله إلى اتباع أوامره واجتناب نواهيه، دون النظر إلى انكار غيره ممن لا يخشاهم من البشر فطريق الهدى هو خشية الله وعدم الخشية ممن سواه[3] .

10 . الإنابة إلى الله :

ومن أسباب الهداية التي جعلها الله سبباً في زيادة الهدى لأصحابها، إنابة العبد إلى الله، إنابة عبودية ومحبة وهي تتضمن أربعة أمور: محبته والخضوع له، والاقبال عليه والإعراض عما سواه[4] . قال تعالى:"هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاء رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ" (غافر: 13) . وقال تعالى:" أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَالَهَا مِن فُرُوجٍ *وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ" (ق: 6 ـ 8) .

---

(1) في ظلال القرآن (6 / 3816) .

(2) في ظلال القرآن (5/ 2327) ، تفسير الطبري (16/ 137) .

(3) تفسير المراغي (2 / 18) .

(4) السنن الإلهية (1 / 258) .

وفي قوله تعالى:" تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ" (ق: 8) دلالة على الإنابة سبب في الاعتبار لكل من تحققت فيه هذه الصفة، وأن هذه الصفة لتؤهلهم لثواب الله في الدنيا والآخرة فكما يثيب الله عز وجل عباده المنيبين إليه بالجنة في الآخرة فإنه سبحانه يثيبهم أيضاً بالهداية في الدنيا حسب سنته في الهداية والإضلال فيهديهم ويوفقهم إلى الرشاد وإصابة الحق، ويخلصهم لعبادته، والعمل بطاعته واجتناب ما حرمه ويوفقهم إلى تصديق ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام وإتباعه فيما جاء به[1] .

وفي تقرير ذلك . قال تعالى : " وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ" (الرعد : 27) . وقال تعالى: " وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ" (الزمر : 17 . 18) . وقال تعالى: " شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ" (الشورى : 13) .

وأما جزاء المنيبين في الآخرة فقد قال تعالى: "وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ" (ق : 31 . 33) . ولذلك فقد أمر الله سبحانه عباده بالإنابة كما في قوله تعالى: " قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ" (الزمر : 53 . 54) . وكما في قوله تعالى أيضاً: "فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَاتَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ" (الروم : 30 . 31) [2] .

11 . البراء من الكافرين:

ومن الطاعات التي خصص الله سبحانه وتعالى ذكرها وجعلها سبباً في زيادة هدى أصحابها، البراءة

---

(1) السنن الإلهية في الحياة الإجتماعية (1 / 261) .

(2) المصدر نفسه (1 / 261) .

من الكافرين بالبعد عنهم والخلاص منهم والعداوة لهم وعدم موالاتهم بالتقرب إليهم أو إظهار الود لهم بالأقوال أو الأفعال أو النوايا[1] ، قال تعالى: "لاَتَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" (المجادلة : 22) .

وليس البراء من الكافرين هم مجرد البراء من أشخاصهم، بل هو أيضاً البراء من أفعالهم وبغضها، وما ذلك إلا لأن ولاءهم هو سبيل الضلال أو الضلال بعينه كما جاء في قوله تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" (المائدة : 51) . وقال تعالى: "قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ" (التوبة : 24) .

والبراء من الكافرين يجنب صاحبه الوقوع في أعمال المعصية والضلال التي يقترفونها، ويجنبه التشبه بأعمالهم التي تؤدي به إلى الضلال، ثم إن البراء منهم تجنبه محاولتهم ثنيه عن إيمانه وهداه، قال تعالى: "وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ" (النساء : 89) [2] .

12 . الجهاد في سبيل الله :

ومن أسباب الهداية الجهاد في سبيل الله، فقد رتب سبحانه وتعالى الهداية على الجهاد، وجعله سبباً من أسباب زيادة الهدى، قال تعالى: " وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ" (العنكبوت : 69) . علق سبحانه الهداية بالجهاد، فأكمل الناس هداية أعظمهم جهاداً.

---

(1) المصدر نفسه (1 / 264) .

(2) السنن الإلهية (1 / 264) .

ومراتب الجهاد أربع:

أ . جهاد النفس:

وله أربع مراتب:

إحداها: أن يجاهد على تعلم الهدى، ودين الحق الذي لا فلاح لها، ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا بها، ومتى فاتها علمه، شقيت في الدارين.

الثانية: أن يجاهدها على العمل به بعد علمه، وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها.

الثالثة: أن يجاهدها على الدعوة إليه، وتعليمه من لا يعلمه، وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبينات ولا ينفعه علمه ولا ينجيه من عذاب الله.

الرابعة: أن يجاهدها على الصبر على مشاقِّ الدعوة إلى الله، وأذى الخلق ويتحمل كل ذلك لله.

فإذا استكمل هذه المراتب الأربع، صار من الربانيين، فإن السلف مجمعون على أن العالم لا يستحق أن يُسمى "ربانياً" حتى يعرف الحق، ويعمل به، ويعلمه، فمن علم وعمل وعلَّم فذاك الذي يدعى عظيماً في ملكوت السماوات[1] .

ب . جهاد الشيطان :

وله مرتبتان:

إحداهما: جهاده على دفع ما يأتي إلى العبد من الشبهات والشكوك الفادحة في الإيمان.

الثانية: جهاده على دفع ما يُلقى إليه من الإرادات الفاسدة والشهوات.

(1) فقه الجهاد للشيخ القرضاوي (1 / 140) .



فالجهاد الأول: يكون بعدة اليقين،، والثاني: يكون بعدة الصبر. قال تعالى: " وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ" (السجدة : 24) ، فأخبر أن أمامه الدين، إنما تُنال بالصبر واليقين، فالصبر يدفع الشهوات والإرادات الفاسدة، واليقين يدفع الشكوك والشبهات.

ج. جهاد الكفار والمنافقين:

وأما جهاد الكفار والمنافقين، فله أربع مراتب: بالقلب، واللسان، والمال، والنفس، وجهاد الكفار أخصُّ باليد، وجهاد المنافقين أخصُّ باللسان.

د. جهاد الظلمة والفسّاق :

وأما جهاد أرباب الظلم، والبدع، والمنكرات، فله ثلاث مراتب:

الأولى: باليد إذا قدر، فإن عجز، انتقل إلى اللسان، فإن عجز، جاهد بقلبه.

فهذه ثلاثة عشر مرتبة من الجهاد "ومن مات ولم يغز، ولم يحدّث نفسه بالغزو، مات على شعبة من النفاق[1] .

ولا يتمُّ الجهاد إلا بالهجرة، ولا الهجرة والجهاد إلا بالإيمان، والرّاجون رحمة الله هم الذين قاموا بهذه الثلاثة قال تعالى:" إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللّهِ وَاللّهُ غَفُورٌرَّحِيمٌ" (البقرة: 218) .

وكما أن الإيمان فرض على كلّ أحد، ففرض عليه هجرتان في كل وقت: هجرة إلى الله عز وجل بالتوحيد، والإخلاص والإنابة والتوكل، والخوف، والرجاء، والمحبة، والتوبة. وهجرة إلي رسوله بالمتابعة، والانقياد لأمره، والتصديق بخبره، وتقديم أمره وخبره على أمر غيره وخبره "فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو إمرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه[2] .

وفرض عليه جهاد نفسه في ذات الله، وجهاد شيطانه، فهذا كله فرض عين، لا يتوب فيه أحد عن أحد.

---

(1) مسلم في الإمارة رقم 1910.

(2) البخاري (1) مسلم (1907) .



وأما جهاد الكفار المنافقين، فقد يُكتفى فيه ببعض الأمة إذا حصل منهم مقصود الجهاد[1] .

ثالثاً: مراتب الضلال:

الضلال: ضد الهدى، وضللت بعيري: إذا كان معقولاً فلم تهتد لمكانه، وضل عني: ضاع، وضللته: أنسيته.

ويقال لكل عدول عن المنهج عمداً، أو سهواً، يسيراً كان أو كثيراً: ضلال، فإن الطريق المستقيم الذي هو المرتضى صعب جداً[2] ، وإضلال الله للإنسان على وجهين:

إحداهما: أن يكون سببه وهو أن يضل الإنسان فيحكم الله عليه بذلك في الدنيا، ويعدل به عن طريق الجنة إلى النار في الآخرة.

الثاني: من إضلال الله: وهو أن الله تعالى وضع جبلة الإنسان على هيئة إذا راعى طريقاً محموداً كان أو مذموماً ألفه واستطابه وتعسر عليه صرفه وانصرافه[3] .

والمقصود بإضلال الله للعبد هو خذلانه وعدم توفيقه وإعانته وعدم خلق المشيئة المستلزمة للهداية[4]

.

والله سبحانه وتعالى يجعل ذلك في عباده ويخلقه فيهم بأسباب تكون من قبلهم، فهم إذا سدوا على أنفسهم باب الهدى إرادة منهم واختياراً، سده عليهم اضطراراً، فخلاهم وما اختاروا لأنفسهم وولاهم ما تولوا، فيكون ذلك عقوبة لهم، كما يعاقبهم في الآخرة بدخولهم النار[5] .

(1) زاد المعاد لابن القيم (3 / 1205) .

(2) السنن الإلهية في الحياة الإجتماعية (1 / 100) .

(3) شفاء العليل ص 173 ، 196 ، السنن الإلهية (1 / 101) .

(4) شفاء العليل ص 173، السنن الإلهية (1 / 101) .

(5) السنن الإلهية (1 / 101) ، شفاء العليل ص 186 ، 209.



ومن رحمة الله بعباده، أن ما يفعله الله عز وجل من إضلال بعض عباده بالطبع والغشاوة والختم وغير ذلك، لا يفعله بالعبد لأول وهلة حين يأمره بالإيمان ويبينه له، وإنما يفعله به بعد تكرار الدعوة به سبحانه، والتأكيد في البيان والإرشاد وتكرار الإعراض منه، والمبالغة في الكفر والعناد، فحينئذ يطبع الله على قلوب هؤلاء العباد، ويختم عليهم، فلا يقبل الهدى بعد ذلك، والإعراض والكفر الأول لم يكن معه ختم وطبع، بل كان اختياراً، فلما تكرر منهم صار طبيعة وسجية[1] . فتأمل هذا المعنى في قوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ" (البقرة : 6 ـ 7) .

1 ـ حرية العبد في اختياره الهدى والضلال:

الأعمال التي يقوم بها الإنسان وفقاً لإرادته الحرة وإختياره ورضاه، فالإنسان كائن عاقل مدرك مفكر، ويتميز عن غيره من المخلوقات بحرية الإختيار. **قال تعالى:** "أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاء" (الحج : 18) .

فهذه الكائنات جميعها لا حرية لها ولا إختيار، بينما الإنسان الذي يعمل بمحض إرادته الحرة ومشيئته المختارة، قد يطيع وقد يعصي، وأكد القرآن أن الإنسان الذي تحمل الأمانة والتكليف زوده الله بقوى وملكات وإستعدادات لتحقيق تلك الخلافة ولأداء الأمانة، فخلق لديه الاستعداد للخير والشر، للتقوى والفجور، والهدى والضلال، ومنحه العقل الذي يميز به بين الحق والباطل، والخير والشر، ووهبه القدرة التي لا يمكن عن طريقها أن يحق الحق ويبطل الباطل، أن يأتي الخير ويدع الشر، وأنزل الله الكتب، وأرسل الرسل لهداية الإنسان وإرشاده لمنهج الحق والخير، وجعل في الإنسان قوة ذاتية واعية مدركة يمكن أن يستخدمها في تزكية النفس وتطهيرها، وتنمية إستعداد الخير فيها وتغليبه على إستعداد الشر، فيفلح الإنسان بهذا.

وقد يظلم هذه القوة ويغطيها ويضعفها فيخيب، قال تعالى: " قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا" (الشمس : 9 ـ 10) .

---

(1) السنن الإلهية (1 / 102) .





وقد نطق القرآن الكريم، بإسناد الفعل إلى العبد في الكثير من آياته، مثل قوله تعالى: " جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" (الأحقاف : 14) . قال تعالى: " مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ" (فصلت : 46) . وقال تعالى: "كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ" (المدثر : 38) .

وأثبت القرآن للعبد في غير ما آية منه في المشيئة الاختيار، فقال تعالى: " إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا" (الإنسان : 3) . إن الإنسان حر، لقد زوده الله بالعقل والإرادة، يختار ما يراه من حق أو باطل، ويفعل ما يروق له من خير أو شر، فهو مزود بوسائل الإدراك، يدرك ما في الأشياء من قيم ويحكم عليها ويختار، وهو بالخيار أن يسلك طريق الحق والخير فيكون شاكراً، أو يعوج في طريقه فيجنح نحو الشر والباطل، فيكون كفوراً[1] .

فالإنسان حر في دائرة أعماله الإختيارية والمرتبطة بالتكليف والمسئولية، وهذه الحرية يؤكدها ما يلي:

أ. واقع حياة الإنسان، الذي يشعر بالفرق الواضح بين الأعمال الإختيارية وبين الأعمال التي تقع عليه اضطراراً.

ب. كما يؤكدها العقل الذي يقضي بأن المسئولية والتكليف، لا بد أن تكون منوطة باستطاعة الإنسان على الفعل أو الترك لأن من لا يملك هذه الإستطاعة فلا يصح عقلاً أن تتوجه إليه المسئولية أصلاً.

ج. وإضافة إلى ذلك لو لم يكن الإنسان مختاراً، **لما كان ثمة فرق بين المحسن والمسئ**، إذ أن كلاً منهما مجبر على ما قاله، ولبطل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا فائدة لهما، حيث أن الإنسان مسلوب الإرادة، ولما كان ثمة معنى لتكليف الله للعباد، لأن تكليفه إياهم مع سلب إختيارهم يتنافى مع العدل الإلهي الذي أثبته لنفسه، بل لو كان الإنسان مجبراً على أفعاله، لضاعت فائدة القوانين، ولبطل معنى الجزاء من الثواب والعقاب.

(1) العقيدة الإسلامية د.أحمد محمد جيلي ص 363.





د ـ وقبل هذا كله، جاءت النصوص الشرعية تنسب العمل والإختيار إلى الإنسان، وما يكتسبه نتيجة لجهده، وثبت الجزاء بالجنة لمن أطاع، والنار لمن عصى[1] . قال تعالى: " وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوعَن كَثِيرٍ" (الشورى : 30) . وقال تعالى: " ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ" (الروم : 41) . وقال تعالى: " وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ" (الكهف : 29) . وقال تعالى: " لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ" (التكوير : 28) .

ولكن هذه المشيئة الإنسانية محدودة مرتبطة بمشيئة الله المطلقة وتابعة لها، إذ أن الإنسان يعمل أعماله الإختيارية ويمارس حريته في العمل داخل دائرة صغرى تقع ضمن دائرة كبرى، هي نطاق النظام الكوني العام، إذ أن أعماله مهما كانت، وإختياره مهما كان خيراً أم شراً حقاً أم باطلاً، لن يخرج في أدائه الأخير عن السنن الكونية التي وضعها الله في الكون، وتقوم عليها قوانين الحياة البشرية " لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ" (التكوير : 28 ـ 29) .

فمشيئة الله ليست منفصلة عن مشيئة الله تعالى، ولا مستقلة عنها، بل أن الله قد شاء للإنسان أن يختار أحد الطريقتين: طريق الهداية وطريق الضلال، فإن إختار الطريق الأول، وفي نطاق المشيئة الإلهية، وإذا إختار الثاني ففي نطاقها أيضاً[2] .

2 ـ التوفيق بين مشيئة الله تعالى ومشيئة العبد للهدى والضلال:

أسند الله عز وجل الهداية والإضلال إلى مشيئته سبحانه في كثير من الآيات، منها قوله تعالى: " وَلَوْ شَاء اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلكِن يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ" (النحل : 93) . وقال تعالى: " وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" (إبراهيم : 4) . وقال تعالى:" وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ *وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ" (الزمر: 36 ـ 37) .

(1) العقيدة الإسلامية د. أحمد جيلي ص 365.

(2) المصدر نفسه.





والواقع أن هذه وأمثالها نصوص عامة، ولابدَّ أن تحمل على النصوص المقيدة، فليست مشيئة الله للهداية والإضلال تسير جزافاً بدون حكمة، أو بدون سنة ماضية في هذا الشأن وذلك لأنه توجد هناك إلى جانب هذه الآيات العامة آيات أخرى تقيد مشيئة الله في الهداية والإضلال بأحوال خاصة وأسباب معينة وهذه الآيات المقيدة تبين لنا من يشاء الله تعالى هدايته ومن يشاء إضلاله وهذا إجمال يحتاج إلى تفصيل.

لقد ربط الله عز وجل كثير من الآيات بين مشيئة العبد للهدى، والضلال ومشيئته سبحانه وتعالى لهما، والله سبحانه لا يشاء إلا العدل والرحمة وهذا الذي عرفه رسل الله عليهم الصلاة والسلام ولهذا قال هود لقومه:" إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ" (هود: 56) .

فأخبر عن عموم قدرة الله ونفوذ مشيئته وتصرفه في خلقه كيف يشاء، ثم أخبر أن هذا التصرف والحكم على صراط مستقيم أي سبحانه وإن كانت قدرته تنالهم بما يشاء فإنه لا يشاء إلا العدل[1] .

فهداية الله سبحانه لعباده أو إضلالهم إنما تقوم على أساس ترتيب المسببات على أسبابها والنتائج على مقدماتها، كما دل على ذلك كثير من الآيات ومنها: قوله تعالى:" وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ" (إبراهيم: 27) . وقوله تعالى:" وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ" (الشورى: 13) . بين سبحانه وتعالى في الآية الأولى إن سبب إضلاله لبعض عباده هو الظلم، وبين في الآية الثانية أن سبب هدايته لبعض عباده هو إنابتهم إليه[2] .

ومن تدبر القرآن تبين له أن عامة ما يذكره الله من خلق الكفر والمعاصي يجعله جزاء لذلك العمل كقوله تعالى:" فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ" (الأنعام: 125) . وقال تعالى:" فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ" (الصف: 5) . وقال تعالى:" وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى *وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى* فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى" (الليل: 8 ـ 10) .

(1) السنن الإلهية (1/ 105) .

(2) المصدر نفسه (1/ 106) .





وهذا وأمثاله بذلوا فيه أعمالاً عاقبهم الله بها على فعل محظور وترك مأمور، وتلك الأمور إنما خلقت لكونهم لم يفعلوا ما خلقوا له، ولابد لهم من حركة وإرادة فلما لم يتحركوا بالحسنات حركوا بالسيئات عدلاً من الله، حيث وضع ذلك في محله القابل له، وهو القلب الذي لا يكون إلا عاملاً فإذا لم يعمل الحسنة استعمل في السيئة: نفسك إن لم تشغلها شغلتك[1] .

يقول الشيخ محمد رشيد رضا عند قوله تعالى:" وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ" (يونس: 100) أي: وما كان لنفس ولا من شأنها فيما أشير إليه من استقلالها في أفعالها ولا مما أعطاها الله من الاختيار فيما هداه من النجدين وما ألهمها من فجورها وتقواها الفطريين أن تؤمن إلا بإرادة الله ومقتضى سننه في استطاعة الترجيح بين المتعارضين، فهي مختارة في دائرة الاسباب والمسببات ولكنها غير مستقله في اختيارها أتم الاستقلال بل مقيدة بنظام السنن و الأقدار، **فالمنفي هو استطاعة الخروج عن هذا النظام العام لا الاستطاعة الخاصة الموافقة له**[2] .

3. التوفيق بين القدر الأزلي واختيار الهدى والضلال:

ومن مراجعة مجموعة النصوص التي تذكر الهدى والضلال، والتنسيق بين مدلولاتها جميعاً، يخلص لنا طريق واحد بعيد عن ذلك الجدل الذي أثاره المتكلمون من الفرق الإسلامية والذي أثاره اللاهوت المسيحي والفلسفات المتعددة حول قضية القضاء والقدر عموماً: إن مشيئة الله سبحانه التي يجري بها قدره في الكائن الإنساني هي أن يخلق هذا الكائن باستعداد مزدوج للهدى والضلال، وذلك مع إيداع فطرته إدراك حقيقة الربوبية الواحدة والاتجاه إليها،ومع إعطائه العقل المميز للضلال والهدى، ومع إرسال الرسل بالبينات لآيقاظ الفطرة إذا تعطلت وهداية العقل إذا ضل.

ولكن يبقى بعد ذلك كله ذلك الاستعداد المزدوج للهدى والضلال الذي خلق الإنسان به، وفق مشيئة الله التي جرى بها قدره، كذلك اقتضت هذه المشيئة أن يجري قدر الله بهداية من يجاهد للهدى،

(1) الحسنة والسيئة لابن تيمية ص 94. 95.

(2) تفسير المنار (11/ 484) .





وأن يجري قدر الله كذلك لإضلال من لا يستخدم ما أودعه الله من عقل، وما أعطاه من أجهزة الرؤيا والسمع في إدراك الآيات المبثوثة في صفحات الكون، وفي رسالات الرسل، الموحية للهدى، وفي كل الحالات تتحقق مشيئة الله ولا يتحقق سواها، ويقع ما يقع بقدر الله لا بقول سواه، وما كان الأمر ليكون هكذا إلا أن الله شاء هكذا، وما كان شئ ليقع إلا أن يوقعه قدر الله، فليس في هذا الوجود مشيئة أخرى تجري وفقها الأمور، كما أنه ليس هناك قوة إلا بقدر الله ينشئ الأحداث.. وفي إطار هذه الحقيقة الكبرى يتحرك الإنسان بنفسه، ويقع له ما يقع من الهدى والضلال أيضاً، وهذا هو التصور الإسلامي الي تنشئه مجموعة النصوص القرآنية مقارنة متناسقة، حين لا تؤخذ فرادى وفق أهواء الفرق والنحل، وحين لا يوضع بعضها في مواجهة البعض الآخر، على سبيل الإحتجاج أو الجدل[1] .

رابعاً: أسباب الضلال:

للضلال أسباب كثيرة وعوامل، حسبما تجري به سنة الله في عباده من ترتيب النتائج على مقدماتها واتباع المسببات لأسبابها، وقد تكون هذه الأسباب والعوامل فكرية، أو نفسية، أو أخلاقية، وقد ترجع إلى التأثر بالوراثة أو البيئة، أو النشأة أو طبيعة الحياة التي يحياها صاحبها أو غير ذلك من الأسباب والعوامل والتي من أهمها:

1. عدم استخدام الإنسان مواهبه في التفكر في آيات الله:

ـ قال تعالى:" وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ" (البقرة: 171) . فهم صم لا يسمعون الحق وعمي لا ينظرون إلى آيات الله في أنفسهم وفي الآفاق حتى يتبين لهم الحق[2] .

ـ وقال تعالى:"أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا" (الفرقان: 44) .

(1) في ظلال القرآن (3 / 1400) .

(2) شفاء العليل ص 199 ، 206 السنن الإلهية (1/ 114) .





فشبه أكثر الناس بالأنعام والجامع بين النوعين التساوي في عدم قبول الهدى والانقياد له وجعل الأكثرين أضل سبيلاً من الأنعام، لأن البهيمة يهديها سائقها فتهتدي وتتبع الطريق فلا تحيد عنها يميناً ولا شمالاً والأكثرون يدعوهم الرسل ويهدونهم السبيل فلا يستجيبون، ولا يهتدون ولا يفرقون بين ما يضرهم وبين ما ينفعهم والأنعام تفرق بين ما يضرها من النبات والطريق فتجتنبه وما ينفعها فتؤثره.

والله تعالى لم يخلق للأنعام قلوباً تعقل بها ولا ألسنة تنطق بها، وأعطى ذلك لهؤلاء ثم لم ينتفعوا بما جعل لهم من العقول والقلوب والألسنة، والاسماع والأبصار، فهم أضل من البهائم فإن من لا يهتدي إلى الرشد وإلى الطريق ـ مع الدليل إليه ـ أضل وأسوأ حالاً ممن لا يهتدي حيث لا دليل معه(1) . قال تعالى: "وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَسْمَعُواْ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ" (الأعراف: 198) . فبين سبحانه عدم انتفاعهم بآيات الهدى.

فبين سبحانه عدم انتفاعهم بآيات الهدى، وقال تعالى:" فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ *كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ *فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ" (المدثر: 49 ـ 51) . فهم قد نفروا عن الهدى الذي فيه سعادتهم وحياتهم كنفور الحمر عما يهلكها، ويعقرها وهم في جهلهم هذا كالحمر التي لا تعقل شيئاً(2) . وقال تعالى:" وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ" (يوسف: 105) . بين سبحانه وتعالى إعراض الصالحين عن النظر في الآيات الكونية ولذلك فإن الكفار يشهدون على أنفسهم إذا عاينوا نتيجة ضلالهم بعدم العقل والسمع " وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ" (الملك: 10) (3) .

2 ـ الذنوب والمعاصي:

إن من أسباب الضلال حسب سنته سبحانه وتعالى ارتكاب الذنوب والمعاصي وذلك أن الذنوب سبب في صدأ القلب وتكون الران عليه الذي يمنع من دخول الإيمان إلى قلب صاحبه، قال تعالى:" إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ *كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ" (المطففين: 12 ـ 14) .

(1) أعلام الموقعين، لابن القيم (1/ 159) .

(2) المصدر نفسه (1/ 164) بتصرف، السنن الإلهية (1) .

(3) المصدر نفسه.



أي ليس الأمر كما زعموا، ولا كما قالوا: إن هذا القرآن أساطير الأولين، بل هو كلام الله ووحيه وتنزيله على رسوله صلى الله عليه وسلم، وإنما حجب قلوبهم عن الإيمان به ما عليها من الران الذي قد لبس قلوبهم من كثرة الذنوب والخطايا[1] .

ثم إن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها، وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله عز وجل والطبع فلا يكون للإيمان إليه مسلك ولا للكفر منها مخلص، فذلك هو الطبع والختم الذي ذكره الله تعالى في قوله:" خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ" (البقرة: 7) . وجاء قوله تعالى مهدداً للذين يقترفون الذنوب والمعاصي بأن يطبع على قلوبهم فلا يدخلها الإيمان[2] . قال تعالى: "أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاء أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ" (الأعراف: 100) .

ثم إن الذنوب والمعاصي سبب في مرض القلوب، لأن صحتها تكون بمعرفة الله وطاعته والإنابة إليه والتزام أمره واجتناب نعيمه وإيثاره على غيره ومحبته والتوكل عليه وإفراده بالعبودية دون سواه[3] ، فإذا تتابعت هذه الذنوب وتكاثرت اشتد مرض القلب، ثم لا تزال الذنوب بالقلب حتى تغلب عليه فيموت بالكلية، ومن مات قلبه فإنه لا ينتفع بالهدى ولا الإيمان ولا يسمع ولا يعقل ولا يبصر.

فالقرآن الكريم لا ينتفع به إلا من كان حياً أما من صار في عداد الأموات فإنه لا ينتفع به[4] . قال تعالى:" إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ * لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ" (يس: 69 . 70) . وقال تعالى:" إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ" (الأنعام: 36) .

(1) تفسير ابن كثير (4/ 485) ، فتح القدير (4/ 400) .

(2) السنن الإلهية في الحياة الإجتماعية (1/ 119) .

(3) إغاثة اللهفان لابن القيم (1/ 7) ، السنن الإلهية (1/ 119) .

(4) السنن الإلهية (1/ 119) .

3. اتباع الشيطان:

ومن أسباب الضلال الخطيرة والتي ضل بها كثير من الخلق، **واتباع الشيطان** الذي نذر نفسه وبذل عمره لإغواء بني آدم. قال تعالى:" قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ المنظَرِينَ * قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ" (الأعراف: 14 ـ 17) . وقال تعالى:" قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَى يَومِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ" (الحجر: 36 ـ 40) .

وقد أمر الله عز وجل بالحذر منه، واستفراغ الجهد في معاداته وبين أنه عدو لدود وظاهر لبني الإنسان(1) . قال سبحانه وتعالى:" إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ" (فاطر: 6) . وقال تعالى:" إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا"

وقد جاء القرآن الكريم كاشفاً مداخل الشيطان وخططه في إضلال بني آدم في غير ما آية ومجمل هذه الخطط والمداخل ما يلي:

أ ـ الأمر بالسوء والفحشاء والقول على الله بغير علم:

قال تعالى:"يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ"(البقرة : 168 ـ 169) .

والسوء: الأثم، وقيل معاصي الله، فإنما سماها الله سوءاً لأنها تسوء صاحبها بسوء عاقبتها له عند الله، وأما الفحشاء فهي كل مستفحشة ذكره وقبح مسموعه، وقيل الزنا(2) .

ب ـ تزيين الأعمال الباطلة والمحرمة:

ـ قال تعالى: " فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَـكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ"(الأنعام : 43) من الشرك والمعاندة والمعاصي.

(1) روح المعاني للألوسي (15/ 94) .

(2) تفسير الطبري (2 / 772) ، السنن الإلهية (1 / 122) .

وبين الشيطان أنه يزين لبني آدم أعمالهم ليغويهم، قال تعالى حاكياً قوله: " قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ" (الحجر : 39) . وقال تعالى مبيناً نتيجة تزيين الشيطان للناس أعمالهم وهو الضلال: " وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ" (النمل : 24) . وقال سبحانه وتعالى: " وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ" (غافر : 37) ، أي: صد عن طريق الهداية فأصبح ضالاً لا يقبل الهدى[1] .

وبين سبحانه وتعالى أنه قد أضل هؤلاء الذين قبلوا تزيين الشياطين لهم فخلت بهم سنته في الضلال، وحق عليهم القول، فالشيطان حسنوا لهم أعمالهم في الماضي وفي المستقبل، فلم يروا أنفسهم إلا محسنين، فعاقبهم بما ارتضوا لأنفسهم[2] . قال تعالى: "وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ" (فصلت : 25) .

وتزيين الشيطان للناس أعمالهم على قسمين: فردي وجماعي، فالفردي كما في الآية السابقة من تزيين الشيطان لفرعون عمله، وأما التزيين الجماعي كما في قوله تعالى: " وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ" (العنكبوت : 38) [3] .

ج . الوعود والأماني الكاذبة:

قال تعالى: "وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا * يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا" (النساء : 119 . 120) أي ولأضلنهم عن الحق "وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ" أي: أزين لهم ترك التوبة وأعدهم الأماني وآمرهم بالتسويف والتأخير، وأغرهم من أنفسهم "وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ" قال عدد من

(1) السنن الإلهية (1 / 122) .

(2) تفسير ابن كثير (4 / 97) ، السنن الإلهية (1 / 124) .

(3) السنن الإلهية (1 / 125) .



العلماء: يعني تشقيقها وجعلها سمة وعلامة للبحيرة والسائبة والوصيلة[1] ، وأما تغيير خلق الله: فهو دين الله، ومعنى تغيير الدين تحليل الحرام وتحريم الحلال[2] .

ومن الوعود الباطلة التي يعدها الشيطان لأتباعه: أنهم إذا أنفقوا في سبيل الله فسيحل بهم الفقر[3] . قال تعالى : " الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً"(البقرة : 268) وقد فسر ابن كثير: الفحشاء بالأمر بالمعاصي والمآثم والمحارم ومخالفة الخالق[4] .

د . الإستهواء:

ومن الناس من يضله الشيطان بعد أن كان قد عرف الإيمان وذاقه، وقد صور الله حالة هذا الذي إستهواه الشيطان بعد أن كان مؤمناً فيقول، قال تعالى: "قُلْ أَنَدْعُومِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَىَ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ" (الأنعام : 71) . فالذي استهوته الشياطين هو الذي استغوته وزينت له هواه ودعته إليه، يقال: هوى يهوي إلى الشئ أسرع فيه، بعد أن كان مؤمناً[5] ، ولفظ الإستهواء لفظ مصور ويا ليته يتبع هذا الإستهواء في إتجاهه فيكون في إتجاه واحد، وهو الضلال، ولكن هناك من الجانب الآخر أصحاب يدعونه إلى الهدى يقولون: إئتنا فلا يجيبهم ولا يهتدي بهديهم، وهو بين هذا الدعاء وهذا الإستهواء في حيرة واضطراب وضلال وتيه[6] .

هـ . الموالاة:

ومن الناس من يتخذ الشيطان ولياً ونصيراً ومعيناً من دون الله، يلتجئ إليه ويدعوه، قال تعالى: " فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ اللّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ" (الأعراف : 30) .

(1) صحيح تفسير ابن كثير (3 / 535) .

(2) السنن الإلهية (1 / 122) .

(3) تفسير بن كثير (1 / 312) ، السنن الإلهية (1 / 126) .

(4) تفسير ابن كثير (1 / 312) .

(5) تفسير القرطبي (3 / 2454) .

(6) فتح القدير للشوكاني (2 / 130) في ظلال القرآن (2 / 1132) .





وقد قضى الله عز وجل فيمن تولى الشيطان أن يضله عن الصراط المستقيم ويهديه إلى عذاب الجحيم[1] . قال تعالى: " وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ *كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ" (الحج : 3 ـ 4) .

و ـ الاستحواذ:

ويبين الله سبحانه وتعالى فريقاً من الذين يضلهم الشيطان وهؤلاء الذين يستولي عليهم إستيلاء تاماً، ويغلب على عقولهم وقلوبهم بوسوسته، وتزيينه حتى يتبعوه في كل ما يأمرهم به، ويصبحون أداة طيعة للشيطان، فينسيهم ذكر الله بقلوبهم وألسنتهم[2] . قال تعالى: "يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ * اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ" (المجادلة : 18 ـ 19) . قال تعالى: "أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ") يس : 60 ـ 62) .

4 ـ الجهل وإتباع الظن:

قال تعالى: مبيناً ضلال قوم ثمود: "قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ" (الأحقاف : 22 ـ 23) .

وقال تعالى مبيناً ضلال من إتبع جهله، ونسب إليه سبحانه الولد، قال تعالى: "وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا * مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا" (الكهف : 4 ـ 5) .

وقال تعالى مبيناً جهل كفار قريش بدعوتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عبادة ما يعبدون من الأصنام والأحجار والآلهة المزيفة المدعاة، قال تعالى: "اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ" (الزمر : 62 ـ 64) .

---

(1) السنن الإلهية (1 / 128) .

(2) السنن الإلهية (1 / 128) .



بين سبحانه وتعالى عقابه للذين لا يعلمون وسنته فيهم فقال: "وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ *كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ" (الروم : 58 . 59) .

وأما إتباع الظن والذي هو مجرد حدس وخرص وأوهام والذي لا ينبني على علم، فإنه ولا شك سبب من أسباب الضلال حسب سنته سبحانه وتعالى، فقد سجل القرآن الكريم في كثير من الآيات على كفار قريش ضلالهم بسبب إتباعهم الظن .كسابقيهم من الكافرين . وذلك بجعل الأصنام شركاء لله، وبعبادتهم لها وزعمهم أنهم مجبورون في ضلالهم هذا وغيهم[1] . قال سبحانه وتعالى: " أَلا إِنَّ لِلّهِ مَن فِي السَّمَاوَات وَمَن فِي الأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ شُرَكَاء إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ" (يونس : 66) . وقال تعالى: " وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إَنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللّهَ عَلَيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ" (يونس : 36) . وقال تعالى: " وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ" (الجاثية ،آية : 32) [2] .

5 . الجدال في الله وآياته بغير علم:

ومن أعظم أسباب الضلال: الجدال في توحيد الله وصفاته، وشرعه، وقدره، وكتابه، واليوم الآخر بغير علم، يدفعهم لذلك الكبر، والجهل، والحسد والتعصب، ويزعمون للناس ولأنفسهم أنهم إنما يناقشون ويجادلون، لأنهم لم يقتنعوا بالحق، وأنهم غير مستيقنين فيه[3] . قال تعالى:" إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَالسَّمِيعُ الْبَصِيرُ" (غافر: 56) . وقال تعالى:"كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ *الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَمَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ" (غافر: 34 . 35)
.

(1) روح المعاني (8 / 51) ، في ظلال القرآن (3 / 1227) .

(2) السنن الإلهية (1 / 132) .

(3) في ظلال القرآن (5 / 3089) . السنن الإلهية (1 /132) .

وقال تعالى:" وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِعِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ *ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ" (الحج: 8 ـ 9) .

6. الغفلة:

من أسباب الضلال غفلة الناس عن الأدلة الموصلة إلى الحق والهدى وعدم النظر فيها: قال تعالى:" إِنَّ فِي اخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ * إَنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَياةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النُّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ" (يونس: 6 ـ 8) . وقال سبحانه وتعالى:" اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مَّعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مَّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ *لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ" (الأنبياء: 1 ـ 3) . وقال تعالى:" سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ" (الأعراف: 146) .

7. التعصب:

إن التعصب للباطل من أسباب الضلال، قال تعالى مبيناً أثر التعصب في ضلال اليهود، وعدم إيمانهم، واتباعهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم :" وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاء اللّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ" (البقرة: 91) .

وقال تعالى مبيناً تعصب كل من طائفتي اليهود والنصارى لنفسها وزعم كل طائفة منهما أنها على الحق دون غيرها، فكفر اليهود بعيسى عليه السلام رغم أنه منهم، وقد كانوا ينتظرونه لإعادة مجدهم وعزهم تعصباً وقالت النصارى: أن اليهود ليسوا على شيء حقيقي من الدين لإنكارهم المسيح المتمم لشريعتهم[1] .

(1) تفسير المنار (1 / 429) .



قال تعالى:" وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ *بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَىَ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ" (البقرة: 111 . 113) .

8 . التقليد دون نظر أو فكر:

إن من أسباب الضلال عند الكافرين من الأولين والآخرين التقليد للآباء دون نظر أو فكر، قال تعالى:" وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ" (الزخرف: 23) . وقال تعالى:" أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللّهُ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُواْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُواْ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ" (إبراهيم: 9 . 10) .

لقد كانت حجة الكافرين بالله المعرضين عن الانتفاع بالآيات التي جاءهم بها الأنبياء، قولهم:" إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ" (الزخرف: 22) ، وهي مقولة تدعو إلى السخرية، فوق أنها متهافتة لا تستند إلى قوة إنها مجرد المحاكاة ومحض التقليد، بلا تدبر ولا تفكر ولا حجة ولا دليل، وهي صورة مزرية تشبه صورة القطيع حيث هو منساق ولا يسأل أين يمضي ولا يعرف معالم الطريق[1] .

إنها: طبيعة الجمود العقلي الذي تطبعه الوثنيات في العقول، لا يفكر أصحابها فيما يعبد آباؤهم ما قيمته؟ وما حقيقته؟ وماذا يساوي في معرض النقد والتفكير[2] ؟ ومن الأقوام التي حدثنا القرآن الكريم عنها، وكان من أسباب ضلالها تقليد الآباء: قوم نوح عليه السلام الذين قابلوا دعوة نبيهم بالرفض والجحود بدون دليل أو سند سوى أنهم لم يسمعوا بمثل دعوته في آبائهم الأولين وكأن الحجة والدليل هو ما سمعوه من آبائهم.

(1) في ظلال القرآن (5/ 3182) .

(2) المصدر نفسه (4/ 2091) ، السنن الإلهية (1/ 141) .



. قال تعالى:" وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ" (المؤمنون: 23 ـ 24) .

وقوم عاد يعجبون مما ليس منه عجب، وينكرون على نبيهم أن يأتيهم بعبادة الله الواحد، ونبذ عبادة الآلهة المتفرقة التي كان يعبدها آباؤهم الأولون فيسألون منكرين :" أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا" (الأعراف: 70) .

وبنفس العلة والحجة رفضت ثمود دعوة أخيهم ونبيهم صالح عليه السلام وجعلوا ما عليه آباءهم . سواء أكانوا سابقين أو حاضرين . حجة تمنعهم من الإيمان[1] . قال تعالى:" إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ * قَالُواْ يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ" (هود: 61 ـ 62) .

وكذلك نجد قوم إبراهيم يصرون على عبادة التماثيل التي لا تضر ولا تنفع ولا يجدون جواباً لسؤال نبيهم :" مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ" (الأنبياء: 52) ، إلا أن قالوا:" قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ" (الأنبياء: 53) ، هذا هو الجواب، وهو جواب يدل على التحجر العقلي والنفسي داخل قوالب التقليد، في مقابلة حرية الإيمان وانطلاقه للنظر والتدبر، وتقويم الأشياء والأوضاع بقيمتها الحقيقية لا التقليدية، فالإيمان بالله يحرر الإنسان من القدسات الوهمية التقليدية والوراثات المتحجرة التي لا تقوم على دليل[2] .

وقوم شعيب يقولون لنبيهم :" قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ" (هود: 87) . وقابل فرعون وملؤه دعوة موسى عليه السلام بالتقليد الأعمى المزري الذي يسيطر على العقول فيجعلها لا تفكر، وعلى البصائر فيقفلها فلا يجعلها تنظر أو تعتبر:" قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاء فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ" (يونس: 78) .

---

(1) السنن الإلهية (1/ 143) .

(2) في ظلال القرآن (4/ 2385) .

وأما كفار قريش فقد قال تعالى حاكياً أقوالهم:" وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ" (المائدة: 104) . وقال تعالى:" أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ * بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ" (الزخرف: 21 ـ 22) . وقال تعالى:" وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ" (سبأ: 43) .

والقرآن الكريم وهو يدعو إلى هذا التحرر والتفكير يسوق الأدلة والآيات والحجج والبراهين التي تبرهن وتثبت أنه دين الله الذي فيه نجاة البشر جميعاً من الظلمات إلى النور[1] . قال تعالى:" هَذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" (الأعراف: 203) . وقال تعالى:"كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ" (البقرة: 151) . فمن تدبرها وعقلها وصل إلى الحق واهتدى .

ومن هنا فقد كان سبيل المؤمنين المهتدين هو الاتباع عن بصيرة وبتدبر وتعقل[2] ، كما قال موسى عليه السلام عندما سأله فرعون: قال تعالى:" قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى * قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى * قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى *كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى" (طه: 49 ـ 54) .

وكما قال يوسف عليه السلام متبعاً ملة آبائه ولكن عن بصيرة ويقين[3] ، قال تعالى:" إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ * يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ" (يوسف: 37 ـ 39) .

---

(1) تفسير المنار (2/ 27) ، السنن الإلهية (1/ 147) .

(2) السنن الإلهية (1/ 147) .

(3) تفسير المراغي (12/ 174) .

وهكذا أمر الرسول صلى الله عليه وسلم باتباع ملة إبراهيم عليه السلام، قال تعالى:" قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ * قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ" (الأنعام: 161 . 164) . وقال تعالى:" ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَاكَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ" (النحل: 123) .

فاتباع الآباء واقتفاء آثار السابقين من الذين هداهم الله عن بينة ودليل هو سبيل الهداية، كما قال تعالى بعد أن ذكر أنبياء الله الذين هداهم من إبراهيم وإسحاق ويعقوب ونوح وداود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس وإسماعيل واليسع ويونس، ولوطاً ومن آبائهم وذرياتهم.

قال تعالى:" أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ" (الأنعام: 90) .

وأما اتباع الأبناء للآباء والأجداد وتقليدهم والتمسك بآرائهم، ومحاكاتهم في كل أقوالهم وأعمالهم من غير بينة ولا حجة ظناً منهم على الحق، دون النظر في أدلة من يدعوهم إلى الهدى، ويقيم الدلائل والبينات على صحة ما يدعوا إليه وهو الضلال، وهو سبيل الكافرين، وعلة الإعراض عن الإيمان بالله والسير على طريق الهدى الذي ارتضاه للناس[1] .

9 . الشك والريبة:

ومن الأسباب التي يستحق بها بعض العباد الضلال: مرض القلوب وهو خروج القلب عن صحته، فإن صحته أن يكون عارفاً بالله، محباً له مؤثراً له على غيره، ومرض القلب هو شكه فمرض المنافقين هو مرض شك[2] .

(1) السنن الإلهية (1 / 149) .

(2) شفاء العليل ص 211.



وقد جعل الله عز وجل ذلك سبباً في زيادة المرض في قلوبهم، وعدم إيمانهم، فالمرض ينشئ المرض، والإنحراف يبدأ يسيراً ثم ينفرج الزاوية في كل خطوة، سنة لا تتخلف[1] . قال تعالى: "فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ"(البقرة : 10) . وقال تعالى: "وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ" (التوبة : 124 . 125) . وقال تعالى: "كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ" (غافر : 34) .

وبين سبحانه وتعالى في آية أخرى أنه يعاقب المنافقين الذين لا يوفون بعهودهم مع الله عز وجل بنفاق مستمر في قلوبهم إلى يوم لقائهم، وهذا حسب سنته سبحانه وتعالى في تأثير الأعمال على النفوس، وأن العمل بما يقتضيه النفاق يمكن النفاق ويقويه القلب[2] . قال تعالى: "وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ" (التوبة : 75 . 77) .

ثم قال سبحانه وتعالى مبيناً أنه لا يهدي هؤلاء المنافقين، لأن سنته سبحانه وتعالى جرت في المعنين في فسوقهم، وتمردهم المصرين على نفاقهم الذين أحاطت بهم خطاياهم أن يفقدوا الاستعداد للتوبة والإيمان والهداية[3] ، قال تعالى: "اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ" (التوبة : 80) .

10 . الجحود:

ومن الأسباب التي رتب الله عز وجل عليها الضلال حسب سنته سبحانه وتعالى في الهداية

(1) في ظلال القرآن (1 / 43) السنن الإلهية (1 / 43) .

(2) روح المعاني (10 / 144) ، تفسير المنار (10 / 648) .

(3) تفسير المنار (10 / 657) ، السنن الإلهية (1 / 150) .





والضلال: **الجحود** والذي يعني الإنكار مع العلم[1] . قال تعالى: "وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِي مَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون" (الأحقاف : 26) . " إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ": بمنزلة التعليل لسلبه إياهم ما أنعم عليهم به من السمع والبصر والعقل، حتى وقعوا في الضلال[2] . قال تعالى: "وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاء مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ" (العنكبوت : 47) . وقال تعالى: "وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ" (العنكبوت : 48 . 49) . وقال تعالى: "وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ" (لقمان : 32) . والختار: الذي هو في غاية الغدر، والكفور: الذي لا يشكر نعمة الله، بل يجحدها[3] .

ـ وقال تعالى: "وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ وَاتَّبَعُواْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ" (هود : 59) . وقال تعالى: "وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ* فَلَمَّا جَاءتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ" (النمل : 12 . 14) . قال تعالى: "قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ" (الأنعام : 33) .

وإذا كان مصير الجاحدين بآيات الله في الدنيا الضلال والغواية فإن مصيرهم في الآخرة الحسرة والندم، إذ يكونون من أصحاب النار[4] . قال تعالى: "وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ * الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ" (الأعراف : 50 . 51) .

---

(1) الصحاح للجوهري (2 / 451) .

(2) السنن الإلهية (1 / 151) .

(3) تفسير القرطبي (6 / 5162 . 5163) .

(4) السنن الإلهية (1 / 157) .





11 . التأبي والعناد والتعنت:

فالتأبي عن الإيمان، وعصيان أوامر الله يؤديان لصاحبهما إلى الضلال، قال تعالى: "وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى" (طه : 56) .

وأما العناد فحالة نفسية تدفع بصاحبها إلى التأبي عن الانصياع للحق على سبيل المكابرة دون أن تكون لديه مبررات بذلك، حتى ولو كانت مبررات زائفة أو باطلة[1] . قال سبحانه وتعالى مبيناً أن العناد مانع عن الهدى وسبب في الضلال: "كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا" (المدثر : 16) .

وقال مبيناً على الضلال ومصوراً شدة عناد الضالين : "وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاء فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ" (الحجر : 14 . 15) . وقال سبحانه وتعالى عنه: "وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ" (الأنعام : 7) ، وقد بلغ العناد من كفر قريش غايته، حين قالوا: "اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاء أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ" (الأنفال : 32) .

وأما مثال التعنت ما كان من كفار قريش عندما طلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بآية من ست آيات اقترحوها، ولو عقلوا لأدركوا أن في القرآن وفي الكون أضعافاً مضاعفة عن هذا العدد أو هذه الآيات التي طلبوها[2] ، قال تعالى حاكياً قول كفار قريش: "وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً" (الإسراء : 90 . 93) .

---

(1) السنن الإلهية (1 / 157) .

(2) تفسير الطبري (15 / 159 . 166) .





12 . الكِبر:

من أسباب الضلال طبقاً لسنته سبحانه وتعالى في الهداية والإضلال، وقد قال صلى الله عليه وسلم: "الكبر بطر الحق وغمط الناس"[1] . وقال النووي الكبر هو الارتفاع عن الناس واحتقارهم ودفع الحق[2] .

وقد وردت الآيات في ذم الكبر والمتكبرين وهو سبب الضلال والإضلال[3] . قال سبحانه وتعالى عن الكفار: "إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ" (الصافات : 35) ، أي : يتعظمون أن يقولوها كما يقولها المؤمنون. وقال تعالى: "إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ" (النحل : 22) .

وقال عن ضلال اليهود بسبب كبرهم: "أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ"(البقرة : 87) .

وقال عن كبر كفار قريش وامتناعهم لذلك عن الإيمان، كسابقيهم: "وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا" (الفرقان : 21) .

وأما قوم نوح فقد وصفهم نبيهم عليه السلام كما حكى القرآن ذلك: "وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا" (نوح : 7) ، فقوله: " جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ" لئلا يسمعوا صوتي " وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ" أي: غطوا بها وجوههم لئلا يروني، وقيل جعلوا ثيابهم على رؤوسهم لئلا يسمعوا كلامي فيكون استغشاء الثياب على هذا النحو زيادة في سد الأذان[4] . وقال تعالى: " وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ" (لقمان : 7) . وقال تعالى: " يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا" (الجاثية : 8) . وقال تعالى: " وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ" (المنافقون : 5) .

---

(1) مسلم (1 / 93) .

(2) صحيح مسلم شرح النووي (2 / 91) .

(3) السنن الإلهية (1 / 160) .

(4) فتح الغدير (5 /297) ، السنن الإلهية (1 / 164) .





وإذا كان المتكبر يدفعه كبره ألا يسمع آيات الله، وإذا سمعها فلا ينظر فيها ولا يتدبرها، ولا ينقاد إلى ما تدعو إليه من الهدى، فإن ذلك يستتبع نتائجه في عقله وغيبه، وذلك بصرف الله إياه عن الإنتفاع بآياته سواء الكونية أو السمعية[1] . قال تعالى: " سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ" (الأعراف : 146) .

ويعاقبه كذلك بالطبع على قلبه حتى يصير ذلك سجية وطبيعة، فهو تأثير لازم لا يفارقه ويغطي على قلبه ويستوثق منه فلا يدخله شئ من الهدى[2] ، قال تعالى: "كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ" (غافر : 35) .

13 . حب الدنيا والاغترار بها واتخاذها لهواً:

إن من أسباب الضلال شعور الإنسان إن هذه الحياة الدنيا مصادفة عمياء وأن الوجود بها ليس له هدف، قال سبحانه وتعالى رداً على من كان ذلك معتقدهم: " أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ" (المؤمنون : 115) . وقال تعالى: "كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ"(القيامة : 20 . 21) . وقال الله عز وجل: " اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ * الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَئِكَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ" (إبراهيم : 2 . 3) . وقال تعالى: " فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا" (النجم : 29) .

وقال تعالى: " وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ" (يونس : 88) . **وقال سبحانه وتعالى مسجلاً على الكافرين** بسبب غرورهم بالدنيا: " ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا" (الجاثية : 35) .

---

(1) روح المعاني (9 / 60) .

(2) شفاء العليل ص 198 ، 199، السنن الإلهية (1 / 165) .





ثم إن حبهم لهذه الدنيا يدفعهم إلى الإنغماس في شهواتها ومنها إلى حد الترف الذي من طبيعته، أنه يفسد الفطرة، ويغلظ المشاعر، ويسد المنافذ، ويفقد القلوب تلك الحساسية المرهفة التي تتلقى وتستجيب وتستجيب[1] . فقال تعالى مبيناً أن المترفين اتبعوا ترفهم وكفروا بما أرسل به المرسلون: "فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ" (هود : 116) . وقال تعالى ذكره: " وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ" (سبأ : 34) .

14 . اتباع الهوى:

والمقصود بالهوى ميل النفس للشهوة[2] .

لقد جرت سنة الله تعالى في الهداية والإضلال أن يكون أتباع الهوى سبباً من أسباب الضلال. قال تعالى: " وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" (القصص : 50) . وقال سبحانه:" وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ" (الأنعام: 119) . وقال سبحانه:" وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ" (ص: 26) . وقال عز وجل:" أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ" (الجاثية: 23) .

والتعبير القرآني المبدع يرسم نموذجاً عجيباً للنفس البشرية حيث تترك الأصل الثابت وتتبع الهوى المتقلب، حين تتعبد هواها وتخضع له، وتجعله مصدراً لتصوراتها، وأحكامها ومشاعرها وتحركاتها، وتقيمه إلهاً قاهراً لها مسؤولاً عليها، تتلقى إشارته المتقلبة بالطاعة والتسليم والقبول، يرسم هذه الصورة ويعجب منها في استنكار شديد " أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ" ؟ أفرأيت إنه كائن عجيب يستحق الفرجة والتعجيب، وهو يستحق من الله أن يضله، فلا يتداركه برحمة الهدى فما أبقى في قلبه مكاناً للهدى وهو

(1) في ظلال القرآن (4 / 6467) .

(2) ذم الهوى، لابن الجوزي ص 12.



يتعبد هواه المريض" وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ" على علم من الله باستحقاقه للضلالة، أو على علم منه بالحق لا يقوم لهواه ولا يصده عن اتخاذه إلهاً يطاع، وهذا يقتضي إضلال الله له، والإملاء له عمياه " وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً" فانطمست فيه تلك المنافذ التي يدخل منها النور، وتلك المدارك التي يتسرب منها الهدى، وتعطلت فيه أدوات الإدراك بطاعته للهوى، طاعة العباد والتسليم " فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ" والهدى هدى، وما من أحد يملك لأحد هدى أو ضلالة، فذلك من شأن الله الذي لا يشاركه فيه أحد، حتى رسله المختارون، " أَفَلَا تَذَكَّرُونَ" ومن تذكر صحا وتنبه وتخلص من ربقة الهوى، وعاد إلى النهج الثابت الواضح، الذي لا يضل سالكوه[1] .

وهذه السنة سنة الله في إضلال من اتبع هواه تحققت في أقوام سابقة وستمضي دائماً في كل قوم يتبعون أهوائهم ويحيدون عن الحق[2] . قال تعالى:" فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ" (القصص: 44) . وقال تعالى:" وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى" (النازعات: 40 . 41) .

وقد حذر الله عز وجل نبيه داود عليه السلام من أن يؤثر هواه في قضائه بين الناس على الحق والعدل فيه فيكون نتيجة ذلك ميله عن طريق الله الذي جعله الله عز وجل لأهل الإيمان به، فيكون من الهالكين بضلاله عن سبيل الله، قال تعالى:" يَادَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ" (ص: 26) .

وقال تعالى محذراً خاتم الأنبياء والمرسلين من طاعة من أغفل الله قلبه عن ذكره، واتبع هواه المتقلب وآثره على الحق. قال تعالى:" وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا" (الكهف: 28) .

ومن المواطن التي حذر الله عز وجل عباده من اتباع الهوى فيها ما جاء في قوله تعالى:" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقَيرًا فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا" (النساء: 135) .

(1) في ظلال القرآن (5/ 3230 . 3231) .

(2) السنن الإلهية (1/ 171) .

ـ وقال تعالى:" قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ" (المائدة: 77) .

وقال تعالى مبيناً عدم اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم للهوى تجنباً لما يستتبعه الهوى من الضلال:" قُل لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ" (الأنعام: 56) .

ـ وقال تعالى:" وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَـكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ" (الأعراف: 175 . 176) .

وهكذا يتبين لنا بجلاء أهمية الهوى، وإن الوقوع في ذلك وقوع في الضلال وبالتالي الوقوع في الفساد الشامل للسماء والأرض ومن فيهم كما قال تعالى:" وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ" (المؤمنون: 71) .

فالحق واحد ثابت، والأهواء كثيرة متقلبة، وبالحق الواحد يدبر الكون كله فلا ينحرف ناموسه لهوى عارض ولا تتخلف سنته لرغبة طارئة، ولو خضع الكون للأهواء العارضة والرغبات الطارئة لفسد كله، ولفسد الناس معه، ولفسدت القيم والأوضاع، واختلت الموازين والمقاييس، وتأرجحت كلها بين الغضب والرضى والحب والبغض والرغبة والرهبة والنشاط والخمول وسائر ما يعرض من الأهواء والمواجد والانفعالات والتأثرات، وبناء الكون وبما فيه الإنسان يحتاج إلى الثبات والاستقرار والاطراد على قاعدة ثابتة، ونهج مرسوم لا يتخلف ولا يتأرجح ولا يحيد[1] .

15 . الاستهزاء بآيات الله ورسله والمؤمنين:

قال تعالى:" ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا" (الكهف: 106) .

(1) في ظلال القرآن (4/ 2475) .



وقال تعالى:" وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا" (الفرقان: 41) . وقال تعالى:" إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ" (المؤمنون : 109 . 110) .

وهكذا فإن الاستهزاء بآيات الله ورسله والمؤمنون، يشغل صاحبه عن التدبر والتفكر في دلائل الإيمان التي في الوجود، وفي دلائل صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويشغله أيضاً عن الاعتبار بما أثر الإيمان في نفوس أصحابه وحالهم وسلوكهم وإن ذلك الاستهزاء أيضاً يباعد بينه وبين صاحبه عن كل الدلائل والبينات ولا شك أن ذلك كله يسلمه إلى الضلال والغي[1] .

16 . الكفر:

بين سبحانه وتعالى في غير ما آية وإن سنته في الكافرين هي أن يعاقبهم بالإضلال وعدم الهداية، وقد جاء التعبير عن كفرهم هذا بالظلم تارة، وبالفسق تارة أخرى، وبالتكذيب ثالثة، وبالإجرام رابعة، ليضيف كل لفظ من هذه الألفاظ معنى آخر، بالإضافة إلى معنى الكفر، وقد جاء بيان جزائهم في أكثر من سياق سواء في الكفر أو الفسق أو الظلم، ليكشف أيضاً علل ذلك الكفر، وصفات الذين حكم عليهم بالكفر أو الفسق أو الظلم وعدم الهداية لهم، ومن خلال تتبع الآيات التي جعلت الظلم والفسق والكفر والإجرام سبباً في الضلال وعدم الهداية، وتبين أن المقصود بمعظمها الشرك وعدم الإيمان بالله وما يترتب عليه، وجحد نبوة محمد صلى الله عليه وسلم والتكذيب بها، وإن كان لكل لفظ من هذه الألفاظ له معناه الذي يختص في الأصل والوضع[2] .

أ . الفسق:

الفسق يقع على كثير الذنب وقليله، ولكنه تعورف بالكثير أكثر، ومن وجوه ورود الفسق في القرآن

(1) السنن الإلهية (1 / 178) ، في ظلال القرآن (4 / 2482) .

(2) السنن الإلهية (1 / 180) .





في الكفر وترك التوحيد، فالكافر فاسق لاخلاله بما ألزمه العقل واقتضته الفطرة السليمة[1] ، قال تعالى: " وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ" (النور : 55) .

ومن الآيات التي بينت سنة الله في إضلال هذا الصنف من الناس والذي يجمع بينهم الكفر قوله سبحانه: "إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ" (البقرة : 26) . وقال سبحانه وتعالى: "قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ" (التوبة : 24) المعنى: قد مضت سنة الله تعالى في القوم الفاسقين المارقين من الدين بعد معرفتهم، كالمنافقين أن يكونوا محرومين من الهداية الفطرية التي يعرفها الإنسان بالعقل السليم والوجدان الصحيح، فلا يعرفون ما فيه مصلحتهم وسعادتهم من أتباعه فيؤثرون حب القرابة والمنفعة العارضة كالمال والتجارة على حب الله ورسوله والجهاد المفروض في سبيله[2] .

ب ـ النفاق:

قال سبحانه وتعالى في حق المنافقين وهم كافرون عن الحقيقة: "اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ" (التوبة : 80) . أي جرت سنة الله في الراسخين في فسوقهم وتمردهم، المصرين على نفاقهم الذي أحاطت بهم خطاياهم أن يفقدوا الاستعداد للهداية، والله عز وجل لذلك لا يهديهم، عقوبة منه لأنهم لا يستحقونها[3] .

ج ـ الظلم :

وأما ترتيب عدم الهداية بسبب الظلم: فقد ورد في آيات كثيرة، منها:

(1) المصدر نفسه (1 / 180) .

(2) تفسير المنار (10 / 236) .

(3) تفسير المنار (10 / 567) ، السنن الإلهية (1 / 182) .



قوله تعالى: " قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" (الأحقاف : 10) . فحرمهم الله سبحانه الهداية لظلمهم لأنفسهم بالكفر بعد قيام الحجة الظاهرة على وجوب الإيمان، ومن فقد هداية الله ضل[1] . وقال تعالى: "مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" (الجمعة : 5) . وقال تعالى: "أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللّهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" (التوبة : 19) . وقال سبحانه وتعالى: "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" (البقرة : 258) فالله عز وجل من سنته أن لا يهدي الذي ظلم نفسه بالامتناع عن قبول الهداية، ولم ينظر في الدلائل التي توصل إلى معرفة الحق، ويستسلم للطاغوت، ويترك ما أعطاه الله من الفهم، إتباعاً لهواه وشهوته، وهو حينئذ قد ظلم نفسه وضل ضلالاً بعيداً[2] .

ومن الآيات التي جاءت تبين أن الكفر سبب في تحقق الله في الإضلال قوله سبحانه: "إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلِّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِؤُواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ اللّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ" (التوبة ، آية 37) . وقال سبحانه وتعالى: " يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ" (المائدة : 67) . وقال تعالى: "أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ" (الزمر : 3) .

. وقال **سبحانه وتعالى** مبيناً أن التكذيب بآيات الله سبب في الضلال: " وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ اللّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ * إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ" (يونس : 95 . 96) .

---

(1) فتح القدير (5 / 16) ، السنن الإلهية (1 / 182) .

(2) تفسير البيضاوي (1 / 73) ، تفسير المراغي (3 / 27) .



وقال **سبحانه وتعالى** مبيناً أن الإجرام سبب في الضلال، وسبب في حلول سنة الله فيمن هذه صفته[1] " وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ *كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ *لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ" (الحجر : 11 ـ 13) .

17 ـ الغلو في الأنبياء والصالحين:

إن الإفراط والغلو في تعظيم الأنبياء والصالحين بالقول والاعتقاد والفعل وتجاوز الحد والحق في منزلتهم التي أنزلهم الله إياها من إدعاء الألوهية لهم أو صرف شئ من العبادة ـ لا تنبغي إلا لله ـ لهم مثل التشريع والذبح والتضرع والدعاء إلى غير ذلك من أنواع العبادات سبب في الضلال[2] .

فأما عن ضلال اليهود والنصارى بسبب غلوهم، فقد قال تعالى: "وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ * اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ" (التوبة : 30 ـ 31) .

ـ وقال سبحانه وتعالى عن غلو النصارى في عيسى بن مريم عليه السلام: "يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً (النساء : 171) .

18 ـ صحبة السواء والبيئة الفاسدة:

بين سبحانه وتعالى أن الصاحب السوء قد يكون سبباً في ضلال صاحبه، قال تعالى: "وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا" (الفرقان : 27 ـ 29) .

(1) السنن الإلهية (1 / 187) .

(2) المصدر نفسه (1/ 195) .



ويصور القرآن الكريم جانباً من وسوسة صاحب السوء لصاحبه بقوله: " يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنْ الْمُصَدِّقِينَ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ" على سبيل الاستهجان والاستبعاد للبعث والحساب، ثم يبين أنه لولا فضل الله على ذلك الصاحب وعدم استجابته له لكان هو وإياه في سواء الجحيم[1] . قال تعالى: "فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ * قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنْ الْمُصَدِّقِينَ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ * قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ * فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاء الْجَحِيمِ * قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدتَّ لَتُرْدِينِ * وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ" (الصافات : 50 . 57) ، فمخالطة أهل السوء ومصاحبتهم ضلال، أو سبيل إليه، ومقاربة منه[2] .

19 . التشبه بالضالين:

حذر القرآن الكريم بالتشبه باليهود والنصارى وسائر الكفرة لأن هذا التشبه يؤدي إلى الضلال، ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا" (الأحزاب : 69) . وقال تعالى: " وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ"(آل عمران : 105) . وقال تعالى: " وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاء النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَاللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ"(الأنفال : 47) .

وكل ما ورد في القرآن من قصص اليهود أو النصارى، أو سائر الكفرة من الملل الأخرى في بيان معاصيهم وأخلاقهم ومعتقداتهم الباطلة، فيه عبرة لنا حتى لا نتشبه بهم فنضل كما ضلوا[3] .

---

(1) في ظلال القرآن (5/ 2987 . 2988) .

(2) السنن الإلهية (1 / 200) .

(3) اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية ص 17.



20. الابتداع في الدين:

البدعة طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية يقتصد بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشرعية[1].

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدى هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة**"[2] ، فقوله: كل بدعة ضلالة: هو من جوامع الكلم لا يخرج عنه شئ، وهو أصل عظيم من أصول الدين وهو شبيه بقوله صلى الله عليه وسلم: "من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد"[3] فكل من أحدث شيئاً ونسبه إلى الدين ولم يكن له أصل من الدين يرجع إليه فهو ضلالة، والدين بريء منه، وسواء في ذلك الاعتقادات أو الأعمال أو الأقوال الظاهرة والباطنة[4] .

وعن العرباض بن سارية قال: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم، ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله، كأن هذه موعظة مودع، فماذا تعهد إلينا؟ فقال: أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإن أمر عليكم عبد حبشي، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين تمسكوا وعضوا عليه بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة[5]

ودوافع البدعة كما ذكر الشاطبي رحمه الله هي: الجهل، حسن الظن بالعقل، واتباع الهدى، وكل ذلك من خطط الضلال وأسبابه والعياذ بالله، فالإحداث في الشريعة، إنما يقع إما من جهة الجهل، وإما من جهة تحسين الظن بالعقل، وإما من جهة اتباع الهوى في طلب الحق، وهذا الحق بحسب الاستقراء في الكتاب والسنة.. إلا أن الجهات الثلاثة قد تنفرد وقد تجتمع، فإذا اجتمعت فتارة تتعلق بالأدوات التي تفهم بها المقاصد وهي اللغة العربية، فإن الله أنزل القرآن بلفظ عربي ولا يستخرج أحكامه ويعرف مقاصده إلا من كان على علم باللغة وأصولها، وتارة تتعلق بالمقاصد، وذلك بالجهل أن الله أنزل الشريعة على رسوله صلى الله عليه وسلم فيها وتبيان كل شيء يحتاج إليه الخلق في تكاليفهم التي أمروا بها

(1) الاعتصام، للشاطبي (1/ 37) .

(2) مسلم، ك الجمعة (2 / 591) .

(3) فتح الباري بشرح صحيح البخاري (5/ 301) .

(4) جامع العلوم والحكم ص 233.

(5) أبو داود (5/ 13 . 15) الترمذي (2676) وقال: حديث حسن صحيح.





وتعبداتهم التي طوقوها في أعناقهم، ولم يمت رسول الله حتى كمل الدين بشهادة الله بذلك حيث قال تعالى:" الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا" (المائدة: 3) .

فكل من زعم أنه بقي في الدين شيء فقد كذب بقوله:" الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ".

وأما **جهة الظن** فتارة يشرك في التشريع مع الشرك، وتارة يقدم عليه، وهذان النوعان يرجعان إلى نوع واحد،

وأما **جهة اتباع الهوى** فمن شأنه أن يغلب الفهم حتى يغلب صاحبه الأدلة أو يستند إلى غير دليل[1] . من هنا يتبين أن الابتداع في الدين وعدم اتباع هدى الله سبحانه وتعالى سبب من أسباب الضلال[2] .

---

(1) الاعتصام (2/ 293) بتصرف.

(2) السنن الإلهية (1/ 207) .



الفصل السادس

سنة الله في الأخذ بالأسباب

تمهيد.

أولاً: الأخذ بالأسباب في القرآن الكريم .

ثانياً: الأسباب والتوكل .

ثالثاً: الأسباب والمسببات .

رابعاً: الدعاء والقدر .



الفصل السادس:

سنة الله في الأخذ بالأسباب:

تمهيد :

إن الإيمان بالقدر لا يعارض الأخذ بالأسباب المشروعة، بل الأسباب مقدَّرة أيضاً كالمسببات، فمن زعم أن الله تعالى قدّر النتائج و المسببات من غير مقدماتها وأسبابها، فقد ذهل عن حقيقة القدر، وأعظم على الله الغرية، فالأسباب مقدّرة كالمسببات[1] ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن سأله عن الرّقي، هل ترد من قدر الله شيئاً؟ قال: هي من قدر الله[2] ، وحياة الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانت قائمة على الأخذ بالأسباب وسيرته تشهد بأنه كان يتخذ كل الوسائل والتدابير وأسباب العمل[3] .

إن سنن الله في كونه وشرعه تحتم علينا الأخذ بالأسباب كما فعل ذلك أقوى الناس إيماناً بالله وقضائه وقدره وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم، لقد قاوم الفقر بالعمل، وقاوم الجهل بالعلم، وقاوم المرضى بالعلاج، وقاوم الكفر والمعاصي بالجهاد وكان يستعيد بالله من الهم والحزن، والعجز والكسل، وتعاطى أسباب الأكل والشرب، وادخر لأهله قوت سنة، ولم ينتظر أن ينزل عليه الرزق من السماء، وقال للذي سأله: أيعقل ناقته أم يتركها ويتوكل؟ قال: اعقلها وتوكل[4] . وقال: وفر من المجذوم فرارك من الأسد[5] .

---

(1) منهج الحافظ ابن حجر العسقلاني في العقيدة (1/ 428) .

(2) سنن ابن ماجة (2/ 1137) ، رقم 3437 حسن صحيح.

(3) العقيدة الإسلامية، د. أحمد جلي ص 391.

(4) رواه ابن حبان بإسناد صحيح .

(5) البخاري 19 (5/ 5380) .





وما غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم المظفرة إلا مظهر من مظاهر إرادته العليا التي تجري حسب مشيئة الله وقدره، فقد أخذ الحذر وأعد الجيوش، وبعث الطلائع والعيون وظاهر بين درعين، ولبس المغفر على رأسه، وأقعد الرماة على فم الشعب، وخندق حول المدينة، وأذن في الهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة وهاجر بنفسه واتخذ أسباب الحيطة في هجرته، أعد الرواحل التي يمتطيها والدليل الذي يصحبه وغير ذلك الطريق، واختبأ في الغار[1] .

وكان إذا سافر في جهاد أو عمرة حمل الزاد والمزاد وهو سيد المتوكلين.

أدرك الصحابة رضوان الله عليهم هذا المعنى وفهموا أن الإيمان بالقدر لا يعني ترك الأخذ بالأسباب ولهذا أدرك الصحابة رضوان الله عليهم هذا المعنى، وفهموا أن الإيمان بالقدر لا يعني ترك الأخذ بالأسباب، ولهذا أنكر عمر عن أبي عبيدة رضي الله عنهما ربطه القدر بعدم الإخذ بالأسباب، كما ورد في قصة طاعون عمواس الشهير، فحين همّ عمر بالرجوع إلى المدينة في حدود الشام، قال له أبو عبيدة بن الجراح: أفراراً من قدر الله؟ فدهش عمر لهذا الاعتراض وقال لأبي عبيدة: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة: نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله، ثم أردف قائلاً: أرأيت لو كان إبل هبطت وادياً له عدوتان إحداهما خصيبة والأخرى جديبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله وإن رعيت الجديبة رعيتها بقدر الله[2].

فعمر وأبو عبيدة يعلمان أنّ القدر علم الله السابق بما يحدث غير أن عمر كان يرى أنّ قدر الله لا دخل له في موضوع ربط الأسباب بالمسببات، فالذهاب إلى الشام مع وجود الطاعون يتسبب عنه الموت والرجوع أخذ بالأسباب للنجاة من الطاعون، ولهذا أنكر عمر على أبي عبيدة أن يعترض عليه قائلاً له: لو غيرك يا أباعبيدة، ولم يكتف بذلك، بل شرح رأيه بأن الذهاب إلى الشام ذهاب بقدر الله، والرجوع إلى المدينة رجوع بقدر الله، أي بعلم الله، مما يدل على أن القدر لا يصح أن يربط بالإقدام على الأعمال أو الإحجام عنها، ولا يصح أن يترك الأخذ بالأسباب بحجة القدر[3] .

(1) عقيدة التوحيد، سعاد ميبر ص 212.

(2) البخاري، رقم 5729.

(3) العقيدة الإسلامية، د. أحمد جلي ص 391.



ولهذا يذهب ابن القيم إلى: أن الدين هو إثبات الأسباب والوقوف معها والنظر إليها، وأنه لا دين إلا بذلك كما لا حقيقة إلا به، فالحقيقة والشريعة مبناهما على إثباتها "أي الأسباب" لا على محوها، ولا ننكر الوقوف معها، فإن الوقوف معها فرض على كل مسلم، لا يتم إسلامه وإيمانه إلآ بذلك "الإيمان"، وبالأسباب عرف الله وبها عبد الله، وبها أطيع الله وبها تقرب إليه المتقربون، وبه نال أولياؤه رضاه، وجواره في جنته، وبها نصر حزبه ودينه، وأقاموا دعوته، وبها أرسل رسله وشرع شرائعه، وبها إنقسم الناس إلى سعيد وشقي، ومهتد وغوي، فالوقوف معها، والالتفاف إليها، والنظر إليها، هو الواجب شرعاً، كما هو الواقع قدراً[1] .

إن قدر الله حق وقدر الله نافذ، ولكنه ينفذ من خلال السنن التي أقام الله عليها نظام الكون، من خلال الأسباب التي خلقها سبحانه وشرعها، وليستقيم عليها أمر الوجود ونظام التكليف، فهذه السنن والأسباب جزء لا يتجزأ من قدر الله الشامل المحيط[2] .

أولاً: الأخذ بالأسباب في القرآن الكريم:

القرآن الكريم حافل بالآيات التي توجب على المسلمين الأخذ بالأسباب في شتى مناحي الحياة والعمل على استقصاء تلك الاسباب للوصول إلى المراد، خاصة في تلك المواقف الصعبة التي تواجه الأمم والأفراد، ومن النماذج القرآنية في هذا الصدد[3] .

1ـ **قوله تعالى**:" وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ" (الأنفال: 60) .

إن أمر التمكين لهذا الدين يحتاج إلى جميع أنواع القوى، على اختلافها وتنوعها، ولذلك اهتم القرآن الكريم اهتماماً كبيراً بإرشاد الأمة للأخذ بأسباب القوة وأوجب الله تعالى على الأمة الأخذ بأسبابها، لأن

(1) مدارج السالكين لابن القيم (3/ 407 . 408) .

(2) الإيمان بالقدر للقرضاوي ص 51.

(3) السنن الإلهية في الأمم والأفراد د. مجدي عاشور ص 61.

التمكين لهذا الدين طريقه الوصول إلى القوى بمفهومها الشامل وقد قال الأصوليون: وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب[1] .

وفي قوله:" مَّا اسْتَطَعْتُم" قال ابن كثير: أي مهما أمكنكم وهذا التعبير القرآني يشير إلى أقصى حدود الطاقة، بحيث لا يقعد المسلمون عن سبب من أسباب القوة يدخل في طاقاتها[2] ، والمراد بالقوة هنا: ما يكون سبباً لحصول القوة ولهذا: قال أصحاب المعاني: الأولى أن يقال: هذا عام في كل ما تتقوى به على حرب العدو وكل ما هو آلة للغزو والجهاد فهو من جملة القوة [3] .وورد أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ الآية الكريمة على المنبر وقال: "ألا إن القوة الرمي" قالها ثلاثاً [4] .وهذا لا ينفي كون غير الرمي معتبراً كما قوله: الحج عرفة [5] .

وقوله: الدين النصيحة لا ينفي اعتبار غيره، بل يدل على أن هذا المذكور جزء شريف من المقصود وكذا هنا[6] . كما يساعد على هذا الفهم مجيء كلمة "قوة" هنا نكرة لا معرفة فهي تشمل كل سلاح معروف أو سيعرف مع الزمن المتجدد فهي تتسع لإعداد الطائرات والصواريخ والدبابات.. وكل الأسلحة التي لها التأثير الحاسم في المعركة[7] ، وتدخل القوة الاقتصادية، والسياسية، والأمنية والإعلامية، ..الخ ومعنى"رِّبَاطِ الْخَيْلِ": هي اسم للخيل التي ترابط في سبيل الله تعالى[8] . ومعنى " وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ" قال الطبري: هم كل عدو للمسلمين، وذكر الله تعالى في هذه الآية الكريمة ما لأجله أمر بإعداد هذه الأشياء فقال جل شأنه " تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ" ذلك أن الكفار إذا علموا كون المسلمين متأهبين للجهاد ومستعدين له ومستكملون لجميع الأسلحة والآلات خافوهم وذلك يفيد أمور كثيرة: وأنهم لا يتجرأون

(1) في ظلال القرآن (2/ 919) .

(2) فقه النصر والتمكين للصلّابي ص 221.

(3) مسلم مع شرح النووي (13/ 64) .

(4) مسلم، ك الإيمان (1/ 74) .

(5) المصدر نفسه.

(6) تفسير المنار (5/ 53) .

(7) التمكين للأمة الإسلامية ص 89 محمد السيد يوسف.

(8) تفسير النسفي نقلاً عن فقه النصر والتمكين ص 221.



على دخول دار الإسلام. وأنهم إذا اشتد خوفهم فربما التزموا من عند أنفسهم باحترام المسلمين والاستجابة لطلباتهم. وأنه ربما صار ذلك داعياً إلى الإيمان لما يرون من قوة أهله وعزتهم. وأنهم لا يعينون سائر الكفار.

وما أحوج المسلمين اليوم إلى أن يحصّلوا كل أسباب القوة، فهم يواجهون نظاماً عالمياً وقوى دولية لا تعرف إلا لغة القوة فعليهم أن يقرعوا الحديد بالحديد، ويقابلوا الريح بالإعصار ويقابلوا الكفر وأهله بكل ما يقدرون عليه وبكل ما امتدت إليه يدهم، وبكل ما اكتشف الإنسان ووصل إليه العلم في هذا العصر من سلاح وعتاد واستعداد حربي، لا يقصرون في ذلك ولا يعجزون[1] .

إن الواجب على الأمة الإسلامية اليوم لتنهض وتتقدم وتترقى في مصاعد المجد، أن تجاهد بمالها ونفسها الجهاد الذي أمرها الله به في القرآن الكريم مراراً عديدة، فالجهاد بالمال والنفس هو العلم الأعلى الذي يهتف بالعلوم كلها، فإذا تعلمت هذا العلم وعملت به دانت لها سائر العلوم والمعارف[2] .

إن إعداد القوة يستدعي إنفاقاً، وقد تكفل الله للمنفقين في سبيله بإخلاف ما أنفقوه والإثابة عليه، قال تعالى: "وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ" (الأنفال : 60) ، وقد جاء التحذير من عدم الإنفاق في سبيل الله، مع بيان أن ذلك سبب للأهلاك والمذلة، وذلك في قوله تعالى: "وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ" (البقرة : 195) ، أي : إذ لم تبذلوا في سبيل الله وتأييد دينه كل ما تستطيعون من مال واستعداد فقد أهلكتم أنفسكم، ففي الآية: النهي عن ترك الإنفاق في سبيل الله لأنه سبب الهلاك[3] ، وقد بين أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه سبب نزول هذه الآية، فعن أسلم بن عمران قال: كنا بمدينة الروم "القسطنطينية" فأخرجوا إلينا صفاً عظيماً من الروم، فخرج إليهم من المسلمين مثلهم، فحمل رجل من المسلمين على صف للروم حتى دخل فيه فصاح الناس وقالوا: سبحان،

(1) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للندوي ص 225.

(2) لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم، شكيب أرسلان ص 164.

(3) الكشاف للزمخشري (1/ 343) .



يلقي بيديه إلى التهلكة، فقام أبو أيوب الأنصاري فقال: يا أيها الناس إنكم تتأولون هذه الآية هذا التأويل: وإنما أنزلت فينا معاشر الأنصار، لما أعزَّ الله الإسلام وكثر ناصروه قال بعضنا لبعض سرًّا دون رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن أموالنا قد ضاعت، وإن الله قد أعز الإسلام وكثر ناصروه، فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم يرد علينا ما قلنا: " وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ"(البقرة : 195) ، فكانت التهلكة الإقامة على الأموال وإصلاحها وتركنا الغزو[1] . وعموم الآية يقتضي الإنفاق في سبيل الله في سائر وجوه القربات ووجوه الطاعات، وخاصة صرف الأموال في قتال الأعداء وبذلها فيما يقوي به المسلمون على عدوهم والإخبار عن ترك فعل ذلك بأنه هلاك ودمار لمن لزمه واعتاده[2]

إن من أهم السنن الربانية التي ترتبط بعلاقة مباشرة مع سنن التمكين ، سنة الأخذ بالأسباب ، ولذلك يجب على أفراد الأمة وقادتها العاملين للتمكين لدين الله من فهمها واستيعابها ، وإنزالها على أرض الواقع .

إن الله عز وجل أمرنا بالإعداد الشامل في قوله:"وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ"، وإعداد القوة في حقيقته الأخذ بالأسباب الشاملة،كقوة العقيدة والإيمان، وقوة الصف والتلاحم، وقوة السلاح والساعد، إن الآية الكريمة تضع إذهان المسلمين على الإعداد الشامل المعنوي والمادي، والعلمي والفقهي على مستوى الأفراد والجماعات وتدخل في طياتها الإعداد التربوي، والسلوكي، والإعداد المالي، والإعداد الإعلامي والسياسي والأمني والعسكري[3] .

2ـ قال تعالى:"وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا * إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا * فَأَتْبَعَ سَبَبًا *حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا * قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاء الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا * ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا *

---

(1) سنن الترمذي (5/ 212) حسن صحيح غريب.

(2) السنن الإلهية د. مجدي عاشور ص 164.

(3) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم للمؤلف ص 214.



كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا * ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا * قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا * قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا * آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا * فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا * قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاء وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا" (الكهف: 83 ـ 98) .

فقد وازن ذو القرنين بين الأسباب التي أتاحها الله له واتبعها واستقصاها، حتى إن القرآن يلح على ذلك ويبينه ويكرر التزامه في العمل بالأسباب، وذلك في مواضع ثلاثة من الآيات التي أشرنا إليها حيث يقول "فَأَتْبَعَ سَبَبًا" (الكهف: 85) وبعدها يكرر :"ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا" (الكهف: 89 ـ 92) ، وقرن ذو القرنين بما انطوى عليه من أسباب معنوية، وما كان عليه من إيمان وتقوى وعمل صالح في قوله:"هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاء وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا" (الكهف: 98) ، فاجتمعت له الأسباب الظاهرة والباطنة فكان له التمكين والغلبة ونفع الناس وإعانتهم[1] .

وذو القرنين علم قرآني بارز، خلّد الله ذكره في كتابه الخالد، إنه الرجل الطواف في الأرض، الصالح العادل الخاشع لربه والمنفذ لأمره، والقائم بين الناس بالإصلاح، والذي ملك أقاصي الدنيا وأطرافها، فلم يغره مال ولا منصب، ولا جاه ولا قوة ولا سلطان، بل إنه بقي ذاكراً لفضل ربه ورحمته، متأهباً لليوم الآخر ليلقى جزاءه العادل عند ربه ويكفي أن يبقى ذو القرنين تلك الشخصية العظيمة في التاريخ، وذلك العلم البارز في العدل والإصلاح والقيادة، ومثال الحاكم الصالح على مر التاريخ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، بشهادة الكتاب الخالد[2] .

(1) السنن الإلهية د. مجدي عاشور ص 167.

(2) ذو القرنين القائد الفاتح والحاكم الصالح لمحمد خير رمضان ص 247 ـ 249.



إن القرآن الكريم اهتم بإخراج القيم الصحيحة في سيرة ذي القرنين وأعماله وأقواله مثل:

الحكم والسلطان والتمكين في الأرض ينبغي أن يسخرلتنفيذ شرع الله في الأرض، وإقامة العدل بين العباد، وتيسير الأمر على المؤمنين المحسنين وتضييق الخناق على الظالمين المعتدين ومنع الفساد والظلم وحماية الضعفاء من بطش المفسدين.

الرجال الأشداء ذوو الخبرات الفنية العالية في النواحي العسكرية والعمرانية والاقتصادية الذين كانوا طوع بنان ذي القرنين، وكذلك خضوع الأقاليم له فتح الخزائن أمامه وتقديم خراج الشعوب له طواعية، كل ذلك لم يدخل في نفسه الغرور والبطر والطيش والغواية، بل بقي مثال الرجل المؤمن العفيف المترفع عن زينة الحياة الدنيا.

الاهتمام باتخاذ الأسباب لبلوغ الأهداف والغايات التي سعى إليها، حيث آتاه الله من كل شيء سبباً فأتبع سبباً.

1. الأسباب التي اتخذها ذو القرنين للتمكين لدين الله عز وجل:

أ . الدستور العادل:

إن المنهجية التي سار عليها ذو القرنين كحاكم مؤمن جعلته يلتزم بمعاني العدل المطلق في كل أحواله وسكناته ولذلك ساق الناس والأمم والشعوب التي حكمها بسيرة العدل، فلم يعامل الأقوام التي تغلب عليها في حروبه بالظلم والجور والتعسف والتجبر والطغيان والبطش، وإنما عملهم بهذا المنهج الرباني، قال تعالى: "قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاء الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا" (الكهف : 87 : 88) .

وهذا المنهج الرباني الذي سار عليه يدل على إيمانه وتقواه، وعلى فطنته وذكائه، وعلى عدله ورحمته، لأن الناس الذين قهرهم وفتح بلادهم، ليسوا على مستوى واحد، ولا على صفات واحدة، ولذلك لا يجوز أن يعاملوا جميعاً معاملة واحدة، فمنهم المؤمن ومنهم الكافر، ومنهم الصالح، ومنهم الطالح، فهل يستوون في المعاملة؟ ذو القرنين: أما الظالم الكافر وسوف نعذبه لظلمه وكفره، وهذا التعذيب عقوبة له، فنحن عادلون في تعذيبه في الدنيا، ثم مرده إلى خالقه لينال عذابه الأخروي.



إن الظالم والباغي الكافر في دستور ذي القرنين معذّب مرتين، مرة في الدنيا على يديه، والأخرى يوم القيامة، حيث يعذبه الله عذاباً نكراً، أما المؤمن الصالح فإنه مقرب من ذي القرنين يجزيه الجزاء الحسن، ويكافئه المكافأة الطيبة ويخاطبه بيسر وسهولة وإشراق وبر ومودَّة[1] .

لقد كان ميزان العدالة في حكمه بين الناس هو التقوى والإيمان والعمل الصالح ودائماً يتطلع إلى مقامات الإحسان.

ب . المنهج التربوي للشعوب:

إن الله تعالى أوجب العقوبة الدنيوية على من ارتكب الفساد في المجتمع وكلف أهل الإيمان ممن مكن لهم في الأرض أن يحرصوا على تنفيذ العقوبات للمفسد والظالم لكي تستقيم الحياة في الدنيا.

إن ذا القرنين يقدم لكل مسئول أو حاكم أو قائد منهجاً أساسياً، وطريقة عملية لتربية الشعوب على الاستقامة والسعي بها نحو العمل لتحقيق العبودية الكاملة لله تعالى[2] .

وهذا دستور الحاكم الصالح، فالمؤمن الصالح ينبغي أن يجد الكرامة والتيسير، والجزاء الحسن عند الحاكم والمعتدي الظالم يجب أن يلقى العذاب والإيذاء وحين يجد المحسن في الجماعة جزاء إحسانه جزاءً حسناً أو مكاناً كريماً وعوناً وتيسيراً، ويجد المعتدي جزاء إفساده عقوبة وإهانة وجفوة، عندئذ يجدون ما يحفزهم إلى الصلاح والإنتاج، أما حين يضطرب ميزان الحكم، فإذا المعتدون المفسدون ومقربون إلى الحاكم، مقدمون في الدولة، وإذا العاملون الصالحون منبوذون أو محاربون، فعندئذ، تتحول السلطة في يد الحاكم سوط عذاب وأداة فساد، ويصير نظام الجماعة إلى الفوضى والفساد[3] .

(1) مع قصص السابقين في القرآن، للخالدي (2/ 330 . 331) .

(2) فقه النصر والتمكين للمؤلف ص 142.

(3) في ظلال القرآن (4/ 922) .





إن التربية العملية للقيادة الراشدة هي التي تجعل الحوافز المشجعات هدية للمحسن ليزداد في إحسانه وتفجر طاقة الخير العاملة على زيادة الإحسان وتشعره بالاحترام والتقدير وتأخذ على يد المسيء لتضرب على يده، حتى يترك الإساءة وتعمل على توسيع دوائر الخير والإحسان في أوساط المجتمع وتضييق حلقات الشر إلى أبعد حد وفق قانون الثواب والعقاب المستمد من الواحد الديان[1] .

ج. الإهتمام بالعلوم المادية والمعنوية وتوظيفها في الخير:

قال تعالى:"إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا" إنه شخص مكن له رب السماوات والأرض الخالق المدبر المتصرف في شؤون الكون، رب العزة والجبروت مكن له في الأرض وآتاه من كل شيء سبباً، وينصرف ذهن السامع أو القارئ إلى وجوه التمكين له في الأرض. مكن له في العلوم والمعرفة واستقراء سنن الأمم والشعوب صعوداً وهبوطاً. ومكن له في سياسة النفوس أفراداً وجماعات تهذيباً وتربية وانتظاماً. ومكن له في أسباب القوة من الاسلحة والجيوش وأسباب القوة والمنعة والظفر.ومكن له في أسباب العمران وتخطيط المدن وشق القنوات وإنماء الزراعة.

ومهما قيل ومهما تصور من أسباب التمكين الحسنة التي تليق برجل رباني قد مكن له في هذه الأرض يمكن أن يدخل تحت قوله تعالى:"إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا"، ويبقى للتصور مجال وللخيال سعة لاستشفاف صورة هذا التمكن وأشكاله، وذلك من خلال المؤكدات العدة التي وردت في الآية الكريمة[2] .

ونلاحظ من خلال الآيات أن ذا القرنين وظف علوماً عدة في دولته القوية ومن أهم هذه العلوم: علم الجغرافيا حيث نجد أن ذا القرنين كان على علم بتقسيمات الأرض، وفجاجها وسبلها، ووديانها وجبالها، وسهولها، لذلك استطاع أن يوظف هذا العلم في حركته مع جيوشه شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً،

(1) الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (2/ 624) .

(2) مباحث في التفسير الموضوعي د. مصطفى مسلم ص 304.





ولا يخلو الأمر أن يكون في جيشه متخصص في هذا المجال[1] .

كان صاحب خبرة ودراية بمختلف العلوم المتاحة في عصره، يدل على ذلك حسن اختياره للخامات، ومعرفته بخواصها، وإجادته لاستعمالها والاستفادة منها، فقد استعمل المعادن على أحسن ما خلقت له، ووظف الإمكانات على خير ما اتيح له :"آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا" (الكهف: 96) .

أمرهم بأن يأتوه بقطع الحديد الضخمة، فأتوه إياها، فأخذ يبني شيئاً فشيئاً حتى جعل ما بين جانبي الجبلين من البنيان مساوياً لهما في العلو ثم قال للعمال: انفخوا بالكير في القطع الحديدية الموضوعة بين الصدفين[2] . فلما تم ذلك وصارت النار عظيمة، قال للذين يتولون أمر النحاس من الإذابة وغيرها: أتوني نحاساً مذاباً أفرغه عليه فيصير مضاعف القوة والصلابة، وهي طريقة استخدمت حديثاً في تقوية الحديد، فوجد أن إضافة نسبة من النحاس إليه تضاعف مقاومته وصلابته[3] .

كان واقعياً في قياسه للأمور وتدبيره لها فقد قدّر حجم الخطر، وقدّر ما يحتاج إليه من علاج، فلم يجعل السور من الحجارة، فضلاً عن الطين واللبن، حتى لا يعود منهاراً لأدنى عارض، أو في أول هجوم، ولهذا باءت محاولات القوم المفسدين بالفشل عندما حاولوا التغلب على ما قهرهم به ذو القرنين :"فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا" (الكهف: 97) ، أي لم يتمكنوا من اعتلائه لارتفاعه وملامسته، وما استطاعوا أن يثقبوه لصلابته وثخانته[4] .

لقد كان ذو القرنين على علم باخبار الغيب التي جاءت بها الشرائع، ومع ذلك لم يتخذ من الأقدار تكئة لتبرير القعود والهوان، فقد بنى السد وبذل فيه الجهد، مع علمه بأن له أجلاً سوف ينهدم فيه لا

(1) الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (2/ 624) .

(2) روح المعاني للألوسي (16/ 40) .

(3) فتح القدير (3/ 313) .

(4) فتح القدير، للشوكاني (3/ 313) .





يعلمه إلا الله[1] .

د . فقهه في إحياء الشعوب:

إن حركة ذي القرنين الدعوية والجهادية جعلته يحتك بالشعوب والأمم وتكلم القرآن الكريم عن رحلاته:

. **الرحلة الأولى:** لم يحدد القرآن الكريم نقطة الانطلاق فيها وحدد النهاية إلى مغرب الشمس ووجد عندها قوماً، فدعاهم إلى الله تعالى، وسار فيهم بسيرة العدل والإصلاح. قال تعالى:"أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاء الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا" (الكهف: 87 . 88) .

إنها سياسة العدل التي تورث التمكين في الحكم والسلطة وفي قلوب الناس الحب والتكريم للمستقيمين، وإدخال الرعب في قلوب أهل الفساد والظلم، فالمؤمن المستقيم يجد الكرامة والود والقرب من الحاكم، ويكون بطانته وموضع عطفه وثقته ورعاية مصالحه وتيسير أموره، أما المعتدي المتجاوز للحد، المنحرف الذي يريد الفساد في الأرض فسيجد العذاب الرادع من الحاكم في الحياة ثم يرد إلى ربه يوم القيامة ليلقى العقوبة الأنكى بما اقترفت يداه في حياته الأولى.

ـ **الرحلة الثانية:** وهي رحلة المشرق حيث يصل إلى مكان يبرز لعين الرائي أن الشمس تطلع من خلف الأفق، ولم يحدد السياق أهو بحر أم يابسة، إلا أن القوم الذين كانوا عند مطلع الشمس كانوا في أرض مكشوفة بحيث لا يحجبهم عند شروقها مرتفعات جبلية أو أشجار سامقة، وذهب الشيخ محمد متولي الشعرواي إلى أن المقصود بقوله تعالى:"لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا" (الكهف: 90) ، هي بلاد القطب الذي تكون فيه الشمس ستة شهور لا تغيب طوال هذه الشهور ولا يوجد ظلام يستر الشمس في هذه الأماكن[2] .

---

(1) فقه النصر والتمكين للمؤلف ص 144.

(2) القصص القرآني من سورة الكهف ص 87.



ونظراً لوضوح سياسة ذي القرنين في الشعوب التي تمكن منها وهو الدستور المعلن في رحلة الغرب لم يكرر هنا إعلان مبادئه لأنها منهج حياة ودستور دولة مترامية الأطراف وسياسة أمم فهو ملتزم بها أينما حل أو ارتحل[1] .

ـ **الرحلة الثالثة:** تختلف عن الرحلتين السابقتين من حيث طبيعة الأرض والتعامل مع البشر وكان المنطقة، ومن حيث الأعمال التي قام بها، فلم يقتصر فيها على الأعمال الجهادية لكبح جماح الأشرار والمفسدين، بل قام بعمل عمراني هائل، أما الأرض فوعرة المسالك، وأما السكان ـ وكأن وعورة الأرض قد أثرت في طبائعهم، وطريقة تخاطبهم مع غيرهم ـ ففي التفاهم والمخاطبة لا يكاد الإنسان منهم يقدر على التعبير عما في نفسه، ولا أن يفقه ما يحدثه به غيره من غير بني قومه :"وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا" (الكهف: 93) .

ونلاحظ من خلال السياق القرآني أن هؤلاء القوم اتصفوا بصفات منها:

ـ هم قوم متخلفون "لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا" ,هذا إما معناه أنهم لا يفقهون لغة غيرهم من الأقوام الأخرى، لأنهم لم يطلعوا عليها ولم يتعلموها، فهم منغلقون على لغتهم فقط. وإمّا معناه: إن الكلام لا ينفع معهم، لأنهم لا يفقهون، ولا يتفاعلون معه، ولا يتفاهمون مع قائله، لا يفعلون هذا لجفاء وغلظة عندهم، أو لغفلة وسذاجة في طبيعتهم.

ـ هم قوم ضعفاء: ولذلك عجزوا عن صدّ هجمات يأجوج ومأجوج والوقوف في وجههم، ومنع أفسادهم. هم قوم عاجزون عن الدفاع عن أرضهم، ومقاومة المعتدين ولذلك لجأوا إلى قوة أخرى خارجية، قوة ذي القرنين، حيث طلبوا منه حل مشكلاتهم والدفاع عن أراضيهم.

ـ هم قوم اتكاليون كسالى: لا يريدون أن يبذلوا جهداً ولا أن يقوموا بعمل، ولذلك أحالوا المشكلة على ذي القرنين، وأوكلوا إليها حقها، أما هم فمستعدون لدفع المال له[2] .لقد كان فقه ذي القرنين في التعامل مع الشعوب المستضعفة هو السعي الجاد لنقلها من الجهل والتخلف والكسل والضعف إلى العلم

(1) مباحث في التفسير الموضوعي مصطفى مسلم ص 306.

(2) مع قصص السابقين للخالدي (2/ 338) .

والتقدم والنشاط والقوة، فكان يدير العمل بروح الجماعة ويشترك بنفسه مع إشراك غيره، ويدل على ذلك ضمير المتكلم الذي يتقابل في تسلسل متتابع رفيع مع ضمير المخاطب في النظم القرآني الكريم مما يشير إلى روح الحماسة والحيوية والتعاون المشترك[1] ، قال تعالى:"مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا * آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا" (الكهف: 95 . 96) .

لقد كان ذو القرنين حريصاً على مصلحة الناس، ناصحاً لهم فيما يعود عليهم بالنفع، ولهذا طلب منهم المعونة الجسدية، لما في ذلك من تنشيط لهم ورفع لمعنوياتهم[2] ، ومن نصحه وإخلاصه لهم، أنه بذل ما في الوسع والخدمة أكثر مما كانوا يطلبون، فهم طلبوا منه أن يجعل بينهم وبين القوم المفسدين سداً، أما هو فقد وعد بأن يجعل بينهم ردماً، والردم هو الحاجز الحصين، والحجاب المتين وهو أكبر من السد وأوثق، فوعدهم بفوق ما يرجون[3] .

لقد عفّ ذو القرنين عن أموال المستضعفين وشرع في تعليمهم النشاط والعمل، والكسب، والسعي، فقال لهم :"فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا" (الكهف: 95) . إن في هذه العبارة القرآنية معلماً بارزاً في تضافر الجهود، وتوحيد الطاقات، والقدرات والقوى.

إن القيادة الحكيمة هي التي تستطيع أن تفجر طاقات المجتمع وتوجيهه نحو التكامل لتحقيق الخير والغايات المنشودة.

إن المجتمعات البشرية غنية بالطاقات المتعددة في المجالات المتنوعة في ساحات الفكر والمال والتخطيط والتنظيم والقوى المادية، ويأتي دور القيادة الربانية في الأمة لتربط بين كل الخيوط والخطوط والتنسيق بين المواهب والطاقات، وتتجه بها نحو خير الأمة ورفعتها.

(1) الحاكم والتحاكم في خطاب الوحي (2/ 627) .

(2) أحكام القرآن لأبي بكر بن العربي (3/ 243) .

(3) روح المعاني (16/ 40) .

إن أمتنا الإسلامية ملأى بالمواهب الضائعة والطاقات المعطلة والأموال المهدرة والأوقات المبّددة، والشباب الحيارى وهي تنتظر من قيادتها في كافة الأقطار والدول والبلاد لكي تأخذ بقاعدة ذي القرنين في الجمع والتنسيق والتعاون ومحاربة الجهل والكسل والتخلف[1] ، "فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ".

إن ذا القرنين لم يكن موقفه مع المستضعفين حمايتهم وإنما توريثهم أسباب القوة حتى يستطيعوا أن يقفوا أمام المفسدين، لقد كان ذو القرنين يستطيع أن يبقى حتى يبدأ يأجوج ومأجوج في الهجوم، ثم يهاجم ويهزمهم، ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أنه ليس من وظيفة الحاكم أو الملك أن يظل في انتظار هجوم الظالم، ولكن وظيفته منع وقوع الظلم.

ولم يأتِ ذو القرنين بجيوش لحماية المستضعفين مع قدرته على ذلك وإنما طلب منهم أن يعينوه ليساعدهم على حماية أنفسهم ويتعلموا فنون الحماية ويكسبوا خبرات، ويتدربوا على العمل الجاد المثمر الذي يبنون السد بأيديهم، وهذا أدعى للحفاظ عليه وإصلاحه إن أصابه شيء.

إن ذا القرنين رفض أن يكون هؤلاء المستضعفون عاطلين، وهذا يلفتنا إلى أن عطاء الله سبحانه وتعالى، عطاء إمكانات، وعطاء ذاتي في النفس.. عطاء الإمكانات هو ما تستطيع أن توفره من وسائل تعينك على أداء العمل، والعطاء الذاتي في النفس: هو القوة الذاتية داخلك التي تعطيك طاقة العمل، وكثير منا لا يلتفت إلى عطاء النفس.. لا يلتفت إلى أنه فيه قوة يستطيع أن يعمل بها أعمالاً كثيرة، وأنه لا يستخدمها وأن لديه قوة تحمّل بإمكانه أن ينتقل من مكان إلى آخر.. وأن يعمل أعمالاً كثيرة[2] .

إن ذا القرنين لم يستعن بجيشه، ولا بأناس آخرين، إنما استعان بهؤلاء الضعفاء وطلب منهم أن يأتوا بالحديد، ثم بناء السد بحيث وصل به إلى قمة الجبلين، ثم قام بصهر الحديد، وأفرغ عليه النحاس ليكون السد في غاية المتانة والقوة.

---

(1) مع قصص السابقين (2/ 342) .

(2) القصص القرآني في سورة الكهف ، لمحمد متولي الشعراوي ص 93.



إذن فهو قوّى هؤلاء الضعفاء الذين كان يهاجمهم يأجوج ومأجوج، بأن علمهم كيف يعينون أنفسهم وكيف يبنون السد وجعلهم هم الذين يشتركون في البناء وهم الذين يقيمونه، وأعانهم هو بخبرته وعلمه فقط، ليأخذوا الثقة في أنفسهم بأنهم يستطيعون حماية أنفسهم وليتعلموا ما يعينهم ويحميهم، والإسلام ينهانا أن نعوّد الناس على الكسل أو نعطيهم أجراً بلا عمل، لأن ذلك هو الذي يفسد المجتمع، فالإنسان متى تقاضى أجراً بلا عمل لا يمكن أن يعمل بعد ذلك أبداً[1] .

إن ذا القرنين قام بمهمة الحاكم الممكن له في الأرض، فقوى المستضعفين وجعله قادراً على حماية أنفسهم من العدوان ولا يعتمد على حماية أحد، ولم يترك الناس في مقاعد المتفرجين بل نقلهم إلى ساحة العاملين. فعندما تحرك القوم المستضعفون نحو العمل بقيادة ذي القرنين، وصلوا إلى هدفهم المنشود، وغايتهم المطلوبة[2] .

ونقف مع ذي القرنين بعد أن تمّ بناء السد:

ـ نظر ذو القرنين إلى العمل الضخم الذي قام به فلم يأخذه البطر والغرور، ولم تسكره نشوة القوة والعلم، ولكنه ذكر الله فشكره، ورد إليه العمل الصالح الذي وفقه إليه[3] .

ـ ذكر ذي القرنين لربه عند انجاز عمله، يعلمنا كيف يكون ذكر الله سبحانه، فإن من أعظم صور الذكر، هي أن يذكر العبد ربه عند توفيقه في عمل، فيستشعر أن هذا بأمر ربه، فيتواضع ويعدل ويذكر ويشكر.

ـ كان بناء السد رحمة من الله تعالى، وقد استخدم ذو القرنين علمه الذي علمه الله إياه، وتمكينه الذي مكنه الله له، استخدمه في مساعدة الناس وتقديم الخير لهم، منع العدوان عنهم، فكان علمه رحمة من ربه، وكان استخدامه له رحمة من ربه.

(1) القصص القرآني في سورة الكهف ص 94.

(2) فقه النصر والتمكين ص 150.

(3) في ظلال القرآن (4/ 2293) .





.كان القوم مهدّدين بيأجوج ومأجوج، معرضين لإفسادهم ولم يحمهم منهم إلا الله ببناء السد، فكان السد رحمة من الله لهم، وكان خلاصاً لهم وإنقاذاً بإذن الله، فلو لم يتم عمل ولا جهد ولا حركة، لما انقذوا أنفسهم من الخطر، لأن الإنقاذ لا يتم إلا بالعمل والجهد المتواصل وتكاتف الجهود والانقياد الطوعي للشعوب لشرع الله خلف القيادة الربانية[1] . "فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاء وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا" (الكهف: 98) .

هـ . إحاطة الله علماً بذي القرنين وجيشه :

قال تعالى:"كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا" وقبل أن يكمل القرآن الحديث عن حروب ذي القرنين، وفتوحاته وقبل أن يتحدث عن مهمته في المنطقة الشمالية، توقف سياق القرآن ليقرر حقيقة أساسية وهي قوله :"كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا". أي أن الله سبحانه كان عالماً بأحوال ذي القرنين مطلعاً على حركاته، محيطاً بأخباره وأخبار جيشه، فما يسيرون خطوة إلا بإذن الله، ولا يتحركون حركة إلا بمشيئة الله، ولا يكسبون معركة أو يحتلون بلداً إلا والله عالم بهم مطلع عليهم، خبير بهم ونقف لنتساءل عن الحكمة عن ذكر حقيقة إحاطة الله بأخبار ذي القرنين وجيشه وعلمه بها أثناء حديثه عن فتوحاته؟ إن الحكمة التي قد تبدو لنا هي: حرص القرآن على ربط كل ما يحدث في الكون بإرادة الله ومشيئته وعلمه سبحانه حتى لا ينسى الناس هذه الحقيقة وهم يتابعون الأحداث وحتى لا يظنوا أن الناس يتحركون بها بقدراتهم الذاتية، بمعزل عن علم الله وإذنه، فها هو ذو القرنين قام بفتوحات عظيمة، في الجبهة الغربية ثم في الجبهة الشرقية وقام بإنجازات عظيمة في الجبهة الشمالية، لكن الله مطلع على أعماله، محيط بأخباره، عالم بإنجازاته وهو مقدّر لها ومريد لها سبحانه[2] .

إن قصة ذي القرنين تدل على وجوب الأخذ بالأسباب وبيان أن ذلك ضروري للنهوض الحضاري للأمم، وقد قدم القرآن الكريم "ذا القرنين" أنموذجاً متجسداً لربط الأسباب بالمسببات والمقدمات بالنتائج واعتبر ذلك مقدمة لابد منها للنهوض والإنجاز الحضاري وبذلك لم يكتف القرآن بتأكيد موضوع السنن

---

(1) مع قصص السابقين (2/ 350) .

(2) المصدر نفسه (2/ 325) .



والأسباب نظرياً، لقد مكن الله له في الأرض فأعطاه سلطاناً وطيد الدعائم ويسّر له أسباب الحكم والفتح وأسباب البناء والعمران، وأسباب السلطان والمتاع، وسائر ما هو من شأن البشر أن يمكنوا فيه في هذه الحياة "فَأَتْبَعَ سَبَبًا" (الكهف: 85) .

إن قصة ذي القرنين من قصص القرآن التي يتمثل بها من الدلالة على القدرة الفائقة لأصحابها ومدى ما كانوا عليه من قوة وتمكين، ولكن بواسطة ما سنّة الله من أسباب في هذا الكون، ووسائل تؤدي إلى غاياتها المراد منها، لتمثل بذلك أنموذجاً لكل مسلم يريد أن يسلك في هذه الحياة على هدي من الفهم لسنن الله في الخلق، وليتقين كل أحد أن التمكين في الأرض والسعادة في الآخرة، إنما يتحصل بأسباب ووسائط سواء المادي منها والمعنوي، من ما تحقق به ذو القرنين[1] .

و . أخلاقه القيادية:

إن شخصية ذي القرنين تميزت بأخلاق رفيعة ساعدته على تحقيق رسالته الدعوية والجهادية في الحياة ومن أهم هذه الأخلاق:

- **الصبر**: كان جلداً صابراً على مشاق الرحلات، فمثلاً تلك الحملات التي كان يقوم بها تحتاج إلى جهود جبارة في التنظيم والنقل والتحرك والتأمين، فالأعمال التي كان يعملها تحتاج إلى جيوش ضخمة، وإلى عقلية يقظة، وذكاء وقاد، وصبر عظيم وآلات ضخمة وأسباب معينة على الفتح والنصر والتملك[2] .

- **مهابته**: كانت له مهابة ونجابة يستشعرها من يراه لأول مرة، ولكنها ليست مهابة الملوك الظلمة الجبارين فعندما بلغ بين السدين ووجد القوم المستضعفين، استأنسوا به، ووجدوا فيه مخلصاً من الظلم والقهر الواقع عليهم فبادروه بسؤال المعونة فمن الذي أدراهم بأنه لن يكون مفسداً مثل

---

(1) السنن الإلهية في الأمم والأفراد د.مجدي محمد عاشور ص166.

(2) الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (2/ 624) .



المفسدين أو الظالمين، ومعه من القوة والعدة ما ليس لمثلهم[1] .

- **الشجاعة:** كان قوي القلب جسوراً غير هياب من التبعات الضخمة والمسؤوليات العظيمة إذا كان في ذلك مرضاة الله سبحانه، فإن ما طلب من إقامة السد كان عملاً عظيماً في ذاته، حيث أن القوم المفسدين كان من الممكن أن يوجهوا إفسادهم إليه وإلى جنوده ولكنه أقدم وأقبل غير متأخر ولا مدبر[2] .

- **التوازن في شخصيته:** فلم تؤثر شجاعته على حكمته، ولم ينقص حزمه من رحمته، ولا حسمه من رفقه وعدالته، ولم تكن الدنيا كلها . وقد سخرت له .كافية لإثنائه عن تواضعه وطهارته وعفته.

- **كثير الشكر:** لأنه كان صاحب قلب حي موصول بالله تعالى، فلم تسكره نشوة النصر، وحلاوة الغلبة بعدما أذل كبرياء المفسدين، بل نسب الفضل إلى ربه[3] سبحانه وقال:"هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي" (الكهف: 98) .

- **العفـة:** كان مرتفعاً عن مال لا يحتاجه ومتاع لا ينفعه، فإن القوم المستضعفين لما شكوا إليه فساد المفسدين، عرضوا عليه الخراج، فأجابهم بعفة وديانة وصلاح: إن الذي أعطاني الله من الملك والتمكين خير لي من الذي تجمعونه، وما أنا فيه خير من الذي تبذلونه[4] .

إن التوازن المدهش والخلاب في شخصية ذي القرنين سببه إيمانه بالله تعالى واليوم الآخر، ولذلك لم تطغ قوته على عدالته ولا سلطانه على رحمته، ولا غناه على تواضعه، وأصبح مستحقاً لتأييد الله وعونه، ولذلك أكرمه الله تعالى بالأخذ بأسباب التمكين والغلبة ، وهو تفضل من الله تعالى على عبده الصالح،

---

(1) المصدر السابق (2/ 624) .

(2) المصدر نفسه (2/ 624) .

(3) المصدر نفسه (2/ 627) .

(4) الحكم والتحاكم (2/ 625) .





فجعل له مكنة وقدرة على التصرف في الأرض من حيث التدبير والرأي وكثرة الجنود والهيبة والوقار[1] .

وكذلك أكرمه الله بكثرة الاعوان والجنود وقذف الرعب في قلوب الأعداء وتسهيل السير عليه، وتعريفه فجاج الأرض واستيلائه على برها وبحرها[2] ، وتمكنه بذلك من تملك المشارق والمغارب من الأرض، فكل هذه الأمور لا تعطي لشخص عادي، ولا يمكن أن يحققها حاكم بحوله وقوته وذكائه مهما بلغ، إلا أن يكون مؤيداً من الله، ذلك التأييد الذي ينصر الله به عباده المؤمنين، ويدل على هذه العناية أيضاً ضمير العظمة في قوله :"وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا" (الكهف: 84) ، أي: أمده بكل ما أراده من مهمات ملكه ومقاصده المتعلقة بسلطانه، فزوده بعلم منازل الأرض وأعلامها وعرفه ألسنة الأقوام الذين كان يغزوهم فكان لا يغزو قوماً إلا كلمهم بلسانهم[3] .

لقد أعطاه الله تعالى من كل شيء سبباً، وينصرف ذهن السامع أو القارئ إلى وجوه التمكين له في الأرض، وأسبابه من العلوم والمعرفة واستقراء سنن الأمم والشعوب صعوداً وهبوطاً، وفي سياسة النفوس أفراداً وجماعات تهذيباً وتربية وانتظاماً، وأعطاه من أسباب القوة من الأسلحة والجيوش وأسباب القوة والمنعة والظفر، وأسباب العمران وتخطيط المدن وشق القنوات وإنماء الزراعة، وقيل: مهما تصور من أسباب التمكين التي تليق برجل رباني قد مكن له في هذه الأرض[4] . يمكن أن يدخل تحت قوله تعالى:"إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا" (الكهف: 84) .

لقد كانت رعاية الله تعالى لذي القرنين عظيمة بسبب إيمانه بالله تعالى واستعداده لليوم الآخر، ولذلك فتح له باب التوفيق وفق ما سعى إليه من أهداف وغاية سامية.

---

(1) روح المعاني (16/ 30) .

(2) البر المحيط (6/ 159) .

(3) روح المعاني (16/ 31) .

(4) مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم ص 304.



لقد بذل ذو القرنين ما في وسعه من أجل دعوة الناس إلى عبادة الله فقد جمع بين الفتوحات العظيمة بحد السيف، وفتوحات القلوب بالإيمان والإحسان، فكان إذا ظفر بأمة أو شعب دعاهم إلى الحق والإيمان بالله تعالى قبل العقاب أو الثواب، وكان حريصاً على الأعمال الإصلاحية في كافة الاقاليم والبلدان التي فتحها، فسعى في بسط سلطان الحق والعدالة في الارض شرقاً وغرباً، وكان صاحب ولاء ومحبة لأهل الإيمان، مثلما كان معادياً لأهل الكفران[1] .

3. الأسباب التي اتخذها داود عليه السلام للتمكين لدين الله:

قال تعالى:"فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاء وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ" (البقرة: 251) . بين القرآن الكريم أن داود عليه السلام كان مجاهداً في جيش طالوت، وممن نجحوا في الامتحان العسير الذي قرّر رئيس الجيش أن يخوضه جميع جنوده فسقط من سقط ونجح من نجح فقد رفع داود عليه السلام راية النصر، وشرع في إعادة التمكين لبني إسرائيل بعد قتله لجالوت، وكان إذ ذاك فتى، وتم له الظفر، فالتقت على محبته القلوب، وتأكدت له أوامر الإخلاص، وأصبح بين عشية وضحاها حديث بني إسرائيل، يكنون له في نفوسهم الإحترام والمحبة، والتوقير.

ومنذ ذلك الحين بدا نجمه يصعد في السماء ويتنقل من ظفر إلى ظفر، ويجيئه النصر يتبعه النصر، حتى ولي الملك أخيراً وأصبح ذا سلطان وظهرت ملامح الحكم في زمنة في عدله وحكمه، وكان أوّابا رجاعاً إلى ربه بالطاعة والعبادة، والذكر والاستغفار.

لقد كان منهج التغيير في زمن داود عليه السلام هو الصراع المسلح بين قوى الخير والشر والإيمان والكفر، والهدى والضلال، وبالفعل تم دمغ الباطل وإضعافه ووصل بنو إسرائيل إلى قمة مجدهم وعزهم. **قال تعالى**:"اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ * وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ" (ص : 17 . 20) .

(1) الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (2/ 623) .

أ. أخلاقه القيادية :

إن المتأمل في القرآن الكريم في قصة داود عليه السلام يتعرف على صفات الحاكم المؤمن الذي مكن الله له وهي تحقق للقائد المسلم كمال السعادة في الدنيا والآخرة، ومن أهم هذه الصفات.

- **الصبر:** فقد أمر الله تعالى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على جلالة قدره بأن يقتدي به في الصبر على طاعة الله.

- **العبودية:** وقد وصفه ربه بقوله: "عَبْدَنَا"، وعبر عن نفسه بصيغة الجمع للتعظيم والوصف بالعبودية لله غاية التشريف كوصف محمد صلى الله عليه وسلم بها ليلة المعراج "سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ" (الإسراء : 1) .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا ذكر داود عليه السلام تحدث عنه بيَّن فضله وإجتهاده في العبادة: "إن أحب الصيام إلى الله صيام داود، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود عليه السلام: كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً(1) .

- **القوة على أداء الطاعة:** والاحتراز عن المعاصي في قوله: "ذَا الْأَيْدِ....".

- **الرجوع إلى الله بالطاعة في أموره كلها**، في قوله تعالى: "إِنَّهُ أَوَّابٌ". وصف بالقوة على طاعة الله وبأنه أواب دليل على كمال معرفته بالله التي جعلته يجتهد في العبادة على نهج رباني صحيح.

- **تسبيح الجبال والطيور معه:** "إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ" (ص : 18، 19) أي أنه تعالى سخر الجبال تسبح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار، كما قال عز وجل: "يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ" (سبأ : 10) .

---

(1) مسلم ، رقم 189.



قال ابن كثير: وكذلك الطير تسبح بتسبيحه، وترجع بترجيعه إذا مر به الطير، وهو سابح في الهواء، فسمعه، وهو يترنم بقراءة الزبور، لا يستطيع الذهاب، بل يقف في الهواء ويسبح معه وتجيبه الجبال الشامخات، وترجع معه، وتسبح تبعاً له[1]

- **قوة الملك** :"وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ" (ص: 20) اي: قوينا ملكه بالجند أو الحرس، وجعلنا له ملكاً كاملاً في جميع ما يحتاج إليه الملوك.

- **الحكمة**: "وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ" (ص: 20) أي: أعطيناه الفهم والعقل والفطنة، والعلم، والعدل، وإتقان العمل، والحكم بالصواب.

- **حسن الفصل في الخصومات**: "وَفَصْلَ الْخِطَابِ" (ص: 20) أي: وألهمنا حسن الفصل في القضاء بإحقاق الحق وإبطال الباطل، وإيجاز البيان، بجعل المعنى الكثير في اللفظ القليل[2] .

إن داود عليه السلام شدّ ملكه بالتسبيح والذكر والطاعة، فكان عليه السلام يسبح بالعشي والإشراق وتجاوبت الجبال مع ذكره العذب الجميل وكذلك تجاوبت الطيور، قال تعالى:"إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ" (ص: 18) . فوهبه الله هبة عظمى ذكرها في كتابه عز وجل :"وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ" (ص: 20) ، الذي جعلنا له ملكاً كاملاً من جميع الملوك العظماء، بحيث لا يتمكن منه أعداؤه لكثرة جيوشه، وكثافة حراسه الذين قيل: إنهم كانوا ألوفاً كثيرة يتناوبون في حراسته ولم ينكسر له جيش في معركة أبداً بعون الله ونصره[3] .

ب . استخلاف الله تعالى لداود عليه السلام:

قال تعالى:"يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ" (ص: 26) . خاطب الله تعالى داود عليه السلام بأن جعله حاكماً بين الناس في الأرض، فله الحكم والسلطة، وعليهم السمع والطاعة ثم بين الله تعالى له قواعد الحكم تعليماً لغيره من الناس:

---

(1) تفسير ابن كثير (4/ 29) .

(2) تفسير المنير لوهبة الزحيلي (23/ 183. 185) .

(3) تفسير القرطبي (15/ 162) .



"فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ" أي: فاقضي بين الناس بالعدل، الذي قامت به السموات والأرض وهذه أولى وأهم قواعد الحكم. "وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى" أي: لا تمل في الحكم مع أهواء نفسك أو بسبب مطامع الدنيا فإن اتباع الهوى مزلقة ومدعاة إلى النار، لذا قال :"فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ" أي: إن اتباع الهوى سبب في الوقوع في الضلال، والانحراف عن جادة الحق، وعاقبته الخذلان، قال تعالى:"إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ" أي: إن الذين يتنكبون طريق الحق والعدل لهم عقاب شديد يوم القيامة، والحساب الآخروي بسبب نسيانهم أهوال ذلك اليوم، وما فيه من حساب شديد دقيق لكل إنسان، وبسبب تركهم العمل لذلك اليوم، ومنه القضاء بالعدل(1) .

ج ـ هبة من الله مباركة وفتح وإلهام:

إن داود عليه السلام كان له كثير من الابناء والأولاد إلا أن الله خصه بالابن الصالح النبي الملك سليمان عليه السلام، وأثنى الله عليه في كتابه بكونه أواب إلى الله ـ عز وجل ـ كثير الطاعة والعبادة والإنابة إلى الله ـ عز وجل ـ في أكثر الأوقات، ومن مزيد فضل الله على عبده داود أن وهبه سليمان الذي ورث عن أبيه الملك والنبوة، قال تعالى:"وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ" (ص: 30) .

لقد أكرم الله تعالى سليمان عليه السلام بالملك والنبوة وأعطاه الفهم الثاقب، والرأي السديد، ورجاحة العقل ومما يدل على ذلك قوله تعالى:"وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا" (الأنبياء: 78 ـ 79) .

د ـ ابتكارٌ في صناعة الأسلحة:

قال تعالى:"وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ" (الأنبياء: 80) ، كان داود عليه السلام أول من اتخذ الدروع وصنعها، وتعلمها الناس منه، وإنما كانت صفائح فهو أول من سردها وحلقها فأصبحت النعمة عليه نعمة على جميع المحاربين على الدوام ابد الدهر، فلزمهم شكر الله تعالى على النعمة.

(1) فقه النصر والتمكين ص 126.



وذلك يقتضي الشكر، لذا قال تعالى:"فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ" (الأنبياء: 80) أي: على تيسير نعمة الدروع لكم، وأن تطيعوا رسول الله فيما أمر الله به والمراد: اشكروا الله على ما يسر عليكم من هذه النعمة، وهذا دليل على جواز اتخاذ الصنائع والأسباب، فالسبب سنة الله في خلقه، وهي شهادة للعمال وأهل الحرف والضائع بأن العمل شرف، واتخاذ الحرفة كرامة وهذه الآية فيها إشارة لحث أهل الإيمان على العمل والإبداع والأخذ بأسباب النصر على الأعداء ومحاربة الفساد بإعداد الجيوش مقودة بقيم الإيمان وتعاليم الرحمن، وشريعة الديان، قال تعالى:"وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ" (سبأ: 10 . 11) .

وكانت هذه هبة الله فوق الملك والسلطان، مع النبوة والاستخلاص إن الله تعالى أنعم على عبده داود بتسييل الحديد له أو تعليمه كيف يسيل الحديد الذي هو مادة الإعمار والبناء والتصنيع، ولا شك في خطورة مادة الحديد في صناعة الحضارات وبناء الدول وفي حسم انتصارات الجيوش[1] .

وفي سورة الحديد نقرأ هذه الآية :"لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ" (الحديد: 25) .

هل ثمة أكثر دلالة على ارتباط المسلم بالأرض من التحضير والإبداع والبناء التي جاء الإسلام لكي يجعلها جزءاً أساسياً من أخلاقيات الإيمان وسلوكياته في قلب العالم، من هذه الآية التي تعرض خام الحديد كنعمة كبيرة أنزلها الله لعباده، وتعرض معها المسألة في طرفيها اللذين يتمخضان دوماً عن الحديد "البأس الشديد" متمثلاً باستخدام الحديد كأساس للتسلح والإعداد العسكري و"المنافع" التي يمكن أن يحظى بها الإنسان من هذه المادة الخام في كافة مجالات نشاطه وبنائه "السلمي"؟ وهل ثمة حاجة للتأكيد على الأهمية المتزايدة للحديد بمرور الزمن في مسائل السلم والحرب، وأنه غدا في عصرنا الراهن هذا وسيلة من أهم الوسائل في ميادين القوى الدولية سلماً وحرباً؟

(1) فقه النصر والتمكين ص 129.



إن الدولة المعاصرة التي تمتلك خام الحديد تستطيع أن ترهب اعداءها بما يتيحه لها هذا الخام من مقدرة على التسلح الثقيل... وتستطيع أيضاً ـ أن تخطو خطوات واسعة لكي تقف في مصاف الدول الصناعية العظمى التي يشكل الحديد العمود الفقري لصناعاتها وغناها[1] .

إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ منح الحديد لداود عليه السلام وعلمه كيف يلينه، لأن الفائدة تتحقق بوجود الخام والقدرة على تشكيله، ولاشك أن ذلك ساعد على بناء حضارة عظيمة جمعت بين المنهج الرباني والتطور العمراني والصناعي ...الخ

وإذا تأملنا في آية الحديد نجد تداخلاً عميقاً وارتباطاً صميماً بين آية الحديد، وإرسال الرسل وإنزال الكتب معهم، وإقامة الموازين الدقيقة لنشر العدل بين الناس وبين إنزال الحديد الذي يحمل في طياته "البأس"، ثم التأكيد على أن هذا كله إنما يجيء لكي يعلم الله مَن "يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ" (الحديد: 25) .

إن المسلم الرباني لن تحميه بعد قدرة الله إلا يده المؤمنة التي تعرف كيف تبحث عن الحديد وتشكله وتستخدمه من أجل حماية الإسلام والتقدم به وتحقيق النصر للمؤمنين وإقامة شرع الله في مناحي الحياة.

إن قول الله تعالى :"وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ" (سبأ: 10) فيه إشارة إلى أهمية هذا الخام وتوظيفه لخدمة الإنسانية في طاعة الله.

4 ـ الأسباب التي إتخذها سليمان ـ عليه السلام ـ للتمكين لدين الله:

تسلّم سليمان ـ عليه السلام ـ قيادة الدولة القوية التي أسست على الإيمان والتوحيد وتقوى الله تعالى، لقد أوتي سليمان ـ عليه السلام ـ الملك الواسع والسلطان العظيم بحيث لم يؤت أحد مثلما أوتي،

(1) التفسير الإسلامي للتاريخ، عماد الدين خليل ص 221 ـ 222.

ولكنه أعطى قبل ذلك عطاء أعظم وأكرم، هيأه لأن يكون شخصية فريدة متميزة في التاريخ، لقد أعطي النبوة، ومنح العلم وأوتي الحكمة، وذلك مثلما أعطي أبوه من قبل[1] .

أ . بداية التمكين:

قال تعالى: "وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ * وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ" (النمل : 15 . 16) .

بدأ التمكين بتلك الإشارة "وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا..."، وقبل أن تنتهي الآية يجيء شكر داود وسليمان على هذه النعمة، وإعلان قيمتها وقدرها العظيم، فتبرز قيمة العلم، وعظمة المنة به من الله على العباد، وتفضيل من يؤتاه على كثير من عباد الله المؤمنين، ولا يذكر هنا نوع العلم وموضوعه، لأن جنس العلم هو المقصود بالإبراز والإظهار، وللإيحاء بأن العلم كله هبة من الله، وبأن اللائق بكل ذي علم أن يعرف مصدره، وأن يتوجه إلى الله بالحمد عليه، وأن ينفقه فيما يرضى الله الذي أنعم به وأعطاه، فلا يكون العلم مُبعداً لصاحبه عن الله، ولا منسياً له إياه، وهو بعض مننه وعطاياه وبعد الإشارة إلى الإنعام بمنة العلم على داود وسليمان، وحمدهما لله ربهما على منته وعرفانهما بقدرها وقيمتها، يفرد سليمان بالحديث: "وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ" (النمل : 16) .

ب . فقه سليمان . عليه السلام . في إدارة الدولة:

إن القصص القرآني في سيرة سليمان أشار إلى أساليبه في إدارة الدولة والمحافظة على التمكين، وأهم هذا الفقه يظهر في النقاط الآتية:

دوام المباشرة لأحوال الرعية ، وتفقد أمورها، والتماس الإحاطة بجوانب الخلل في أفرادها وجماعاتها، فهذا كان حال سليمان . عليه السلام . "وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ" (النمل : 20) وذلك بحسب ما تقتضيه العناية بأمور الملك، والاهتمام بكل جزء فيه، والرعاية بكل واحدة فيها وخاصة الضعفاء[2] .

ولا شك أن القيادة تحتاج إلى لجان ومؤسسات وأجهزة حتى تستطيع أن تقوم بهذه المهمة العظيمة. إن سليمان كان مهتماً بمتابعة الجند وأصحاب الأعمال وخاصة إذا راب شيء في أحوالهم، فسليمان عليه

(1) فقه النصر والتمكين ص 130.

(2) تفسير القرطبي (13 / 177) .

السلام لما لم ير الهدهد بادر بالسؤال "مَالِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ" يعني "أهو غائب"؟ كأنه يسأل عن صحة ما لاح له[1] ، ثم قال:"أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ" (النمل: 20) ، سؤال آخر ينم عن حزم في السؤال بعد الترفق، فسليمان عليه السلام أراد أن يفهم منه أنه يسأل عن الغائب لا عن شفقة فقط ولكن عن جد وشدة، إذا لم يكن الغياب بعذر[2] .

لا بد للدولة من قوانين حتى تضبط الأمور بحيث يعاقب المسيئ، ويحسن للمحسن ولابد من مراعاة التدرج في تقرير العقوبة، وأن تكون على قدر الخطأ وحجم الجرم وهذا عين العدالة، ولهذا لم يقطع سليمان عليه السلام بقرار واحد في العقاب عند ثبوت الخطأ، بل جعله متوقفاً على حجم الخطأ "لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ.." (النمل: 21) .

وقد استدل أهل العلم بهذه الآية على أن العقاب على قدر الذنب، وعلى الترقي من الشدة إلى الأشد بقدر ما يحتاجه إلى إصلاح الخلل[3] .

الاهتمام بالأجهزة الأمنية، لابد للدولة المسلمة أن تهتم بالأجهزة الأمنية وتحرص أشد الحرص على الإهتمام بالأخبار والمعلومات حتى توظف لخدمة الدين، وعقيدة التوحيد، ونشر المبادئ السامية، والأهداف النبيلة، والمثل العليا، وأن تحرص على تحبيب الجهاد لأبنائها بواسطة الأجهزة الإعلامية والوسائل التربوية، وأن تهيئ النفوس للظروف المناسبة لإقامتها للدين وإعلاء لكلمة الله، وهكذا كان شأن سليمان عليه السلام .كما قال القرطبي . رحمه الله: فإنما صار صدق الهدهد عذراً له، لأنه أخبر بما يقتضي الجهاد، وكان سليمان عليه السلام حبب إليه الجهاد[4] .

---

(1) تفسير الرازي (24/ 189) .

(2) الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (2/ 593) .

(3) المصدر نفسه (2/ 593) .

(4) تفسير القرطبي (13/ 189) .

الاهتمام بنصر دعوة التوحيد، ولابد للقيادة في الدولة المسلمة أن تهتم بنصر دعوة التوحيد، وبذل الوسع في تبليغها لكل مكلف فإن سليمان عليه السلام لما استمع إلى خبر القوم المشركين، شمّر عن ساعد الجد في إيصال البلاغ إليهم، وبدأ معهم بالحجة والبيان. قال تعالى:"اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ" (النمل: 28) .

قال القرطبي . رحمه الله . : في هذه الآية دليل على إرسال الكتب إلى المشركين وتبليغهم الدعوة ودعائهم إلى الإسلام، وقد كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى كسرى وقيصر وإلى كل جبار[1] .

ولقد كان كتاب سليمان عليه السلام لملكة سبأ يبدأ بالرحمة وتتخلله الكرامة، وآخره الدعوة إلى الاستجابة لله والاستسلام له سبحانه "إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ" (النمل: 30 . 31) .

الترفع على حطام الدنيا: فملكة سبأ عندما عملت الحيلة لاختبار سليمان عليه السلام، تفتق ذهنها عن بعث هدية له تمتحن بها حبه للدين، فأظهر عدم الاكتراث بهذا المال، وأعلم من جاءوا به أن الله تعالى آتاه الدين الذي هو السعادة القصوى وآتاه من الدنيا مالاً مزيد عليه، فكيف يستمال مثله بمثل هذه الهدية، وصارحهم بأنهم هم الذين من شأنهم الفرح بتلك الهدية التي ظنوا أنه سيفرح بها أما هو فلن يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف[2] ، قال تعالى:"أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ" (النمل: 36) .

المقدرة على اتخاذ القرار الصحيح في الوقت المناسب للمكان المناسب، وعدم التردد في القرار الصعب للتغلب على الحال الأصعب، فعندما وجد سليمان عليه السلام أن القوم مازالوا على الشرك، بل يريدون استمالته وتنحيته عن صلابته في الحق قال للوفد الذي جاء بالهدية :"ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ" (النمل: 37) . ولامانع من ركوب الشدة مع المعاند، واستعمال القوة في إرهاب من يصد عن الدعوة فإن ذلك قد لا ينفع غيره في إنقاذ الناس من الشرك ، بل من المعادن البشرية ما لا يلين إلا تحت وهج السيف وسنابك الخيل ، وكان هذا

(1) المصدر نفسه (13/ 190) .

(2) الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (2/ 598) .



الأسلوب سبباً في إسلام ملكة سبأ وانقيادها وجنودها لسليمان ولا مانع من استعمال الذكاء والعقل النير، ودقة التدبير، في استجلاب قلوب المدعوين إلى الدين واستخدام نعم الله في دلالة الخلق على الله ومخاطبة الناس بالكيفية التي تستهوي قلوب عوامهم وتجلب احترام خواصهم، فسليمان لما بلغه خبر مجئ ملكة سبأ في جمع من حاشيتها وجنودها، أراد أن يعلمها مدى ما أعطاه الله من قوة حتى أن عرشها الذي تركته في حماية عظيمة وحرس كثيف يسبقها إليه[1] .

الاستفادة من المهارات والمواهب: وعلى الدولة المسلمة أن تستفيد من المهارات والمواهب وإمكانات الخاصة في أفراد الرعية ووضع الفرد المناسب في مكانه الصحيح، إن مملكة سليمان عليه السلام كان فيها من الإنس والجن وغيرهم ما كان يمكن أن يؤدي مهمة الهدهد، ولكن سليمان عليه السلام اختاره مع ضعفه وصغره لتأدية هذه المهمة فـ "تخصيصه عليه السلام إياه بالرسالة دون سائر ما تحت ملكه من أمناء الجن الأقوياء على التصرف والتعرف، لما عاين فيه من مخايل العلم والحكمة[2] .

ج . صفاته القيادية :

إن الآيات الكريمة عرضت صفات سليمان ـ عليه السلام ـ كملك وحاكم ممكن له في الأرض وفي هذا إشارة من الله تعالى إلى الصفات القيادية المطلوبة للإشراف على تمكين شرع الله تعالى.

- **الحزم**: ويظهر ذلك عند القيادة إن غلب الظن أن هناك تقصيراً، أو تكاسلاً عن الحضور وقت الطلب أو التأخر وقت العمل "لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ" (النمل: 21) فإنه قد تبين لسليمان عليه السلام أن الهدهد غائب، فتهدد بذلك أمام الجمع الذي يعلم أن الهدهد غائب، حتى لا يكون غيابه ـ إن لم يؤخذ بالحزم ـ سابقة سيئة لبقية الجند[3] .

(1) المصدر نفسه (9/ 193) .

(2) تفسير روح المعاني (9/ 193) .

(3) في ظلال القرآن (5/ 2638) .



- **التريث والتأني** قبل الحكم، فلعل للغائب عذراً أو للمقصر حجة تدفع الإثم، وترفع العقوبة، ولهذا قال سليمان بعدها :"أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ" (النمل: 21) أي: بحجة تبين عذره في غيبته[1] . وهذا هو اللائق بالحاكم والقاضي إذا كان عادلاً، وسليمان عليه السلام الذي اشتهر بالعدالة هو وجنوده حتى عند النمل، لا ينتظر منه مع الهدهد، أو ما دونه أو ما فوقه، إلا أن يكون عادلاً لا يعاجل بالعقوبة قبل ثبوت الجريمة ولا يبادر إلى المؤاخذة قبل سماع الحجة.

- **سعة الصدر في الاستماع** إلى اعتذار المعتذر، وحجة المتخلف، وسليمان عليه السلام انصت لاسترسال الهدهد حتى انتهى من قوله، على الرغم من أن فيه نوع معاتبة لسليمان، وفيه نسبة عدم الاحاطة إليه :"أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ" (النمل: 22ـ 26) ، كل هذا وسليمان لا يقاطعه، ولا يكذبه، ولا يعنفه، حتى ينتهي من سرد الحجة، التي كانت مفاجأة ضخمة لسليمان عليه السلام.

- **قبول الإعتذار** ممن يعتذر في الظاهر، وإيكال سريرته إلى الله، فسليمان عليه السلام سكت عن المؤاخذة وانتقل إلى تحري الخير. قال القرطبي ـ رحمه الله ـ : هذا دليل على أن الإمام يجب عليه أن يقبل عذر رعيته، ويدرأ العقوبة عنهم في ظاهر أحوالهم بباطن أعذارهم، لأن سليمان لم يعاقب الهدهد حين اعتذر إليه[2] .

- **التروي في تصديق الخبر**، فهذا الذي حكاه الهدهد، أمر ليس بالسهل ولا باليسير، ثم إن الهدهد لا يجرؤ على اختلاق هذه القصة، الطويلة، وهو يعلم تمكن سليمان من الرعية، ومقدرته على التأكد من صحة الأخبار ، ومع ذلك لم يبادر عليه السلام إلى التصديق ،

---

(1) تفسير القرطبي (13/ 180) .

(2) تفسير القرطبي (13/ 193) .



كما أنه لم يتعجل التكذيب، بل قال"سَنَنظُرُ" وهو من النظر، أو التأمل والتحري[1] ، وقوله تعالى:"أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ" (النمل: 27) ، يعني أصدقت في خبرك أم كذبت لتتخلص من الوعيد[2] .

- **عدم الاغترار بقوة النفس** وكثرة الجند وسعة السلطان، وإسناد الفضل إلى الله في كل نعمة، وتجديد الشكر على هذه النعم، وسليمان عليه السلام لما طلب الإتيان بعرش بلقيس أجابته جنوده التي سخرها الله له مسارعين إلى الطاعة، فلما وجد سليمان طلبه مجاباً، وأمره مطاع سارع إلى ضبط النفس في سلك الخشية ومنهاج التواضع والطاعة لله رب العالمين :"فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ" (النمل: 40) أي: رأى العرش ثابتاً عنده قال:"هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي" أي: هذا النصر والتمكين من فضل ربي ليختبرني أأشكر نعمته أم أكفرها، فإن من شكر لا يرجع نفع شكره إلا إلى نفسه حيث استوجب بشكره تمام النعمة ودوامها والمزيد، ومن كفر النعم فإن الله غني عن شكره، كريم في عدم منع تفضله عنه[3] .

- **التواضع:** كان سليمان عليه السلام دائم التواضع حتى قيل: إنه كان يمشي منكسر الرأس خشوعاً لله وأثناء استعراضه لجنوده من الجن والإنس والطير مر على واد النمل، وفي نظرة التواضع إلى الأرض أبصر نملة، فأشخص النظر صوابها، وأصاخ السمع إليها، وبما علم من منطق الطير والحيوان حاول تفهم أمرها. لقد علم أنها تتخوف من بطش أقدام الجنود في ركب سليمان، لقد سمعها وفهم قولها :"قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَايَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ" (النمل: 18) . نعم إنها كائن صغير في مملكة ضخمة عظيمة، تسعى كأخواتها للرزق وتنصح لهم أن يفسحوا الطريق أمام ركب الملك العادل، حتى لا تقع مظلمة غير مقصودة من أحد منهم، قال القرطبي ـ رحمه الله ـ :

---

(1) تفسير الرازي (24/ 193) .

(2) تفسير ابن كثير (3/ 349) .

(3) الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (2/ 600) .



التفاتة مؤمن : أي من عدل سليمان وفضله وفضل جنده لا يحطمون نملة، فما فوقها إلا بألا يشعروا[1] .

إن هذه النملة لم تكن إلا واحدة من رعايا سليمان في مملكته التي ضمت إلى جانب الإنس والجن أنواعاً وألواناً من الحيوان والطير والهوام. لقد سمع كلامها، وتفهم شكواها، فتبسم من قولها، فرقّ قلبه الكبير، رفقاً لجرمها الصغير، فرحمها وأخواتها، وشكر ربه إذ علمه منطق هذه المخلوقات حتى يتمكن من انصافها وإيصال العدل إليها، وسُرَّ بأن عدالته وجنوده قد عرفها كل مخلوق، حتى مثل هذه النملة التي اعتذرت عنهم مقدماً، بأنهم إن أصابوا نملة بأقدامهم، فإن ذلك من غير قصد منهم ولا شعور[2] . "فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ" (النمل: 19) . لقد أدرك سليمان عليه السلام أنه ـ في جنب الله ـ في حاجة إلى الرحمة والعطف واللطف أشد من حاجة هذه النملة إلى ذلك منه ولهذا قال:"وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ" (النمل: 19) .

ثانياً: الأسباب والتوكل:

التوكل على الله سبحانه ـ وتعالى ـ لا يمنع من الأخذ بالأسباب فالمؤمن يتخذ الأسباب من باب الإيمان بالله وطاعته فيما يأمر به من اتخاذها، ولكنه لا يجعل الأسباب هي التي تنشيء النتائج فيتوكل عليها[3] ، فالتوكل: هو قطع النظر في الأسباب بعد تهيئة الأسباب، كما قال صلى الله عليه وسلم: أعقلها وتوكل[4] .

ففي جانب الأسباب يقول الله تعالى :"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ" (النساء: 71) . وقال تعالى:"وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ" (الأنفال: 60) وقال تعالى:"فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ" (الجمعة: 10) .

---

(1) تفسير القرطبي (13/ 170) .

(2) الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (2/ 589) .

(3) التمكين للأمة الإسلامية ص 252.

(4) صحيح ابن حبان (2/ 510) .





وفي جانب التوكل، قال تعالى:"وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ" (آل عمران: 122) . وقال تعالى:"فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ" (آل عمران: 159) . وقال تعالى:"وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ" (المائدة: 23) .

ولقد أرشدنا النبي صلى اله عليه وسلم في أجاديث كثيرة إلى ضرورة الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله تعالى، كما نبه صلى الله عليه وسلم على عدم تعارضها، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماساً، وتعود بطانا[1] . في هذا الحديث الشريف حث على التوكل مع الإشارة إلى أهمية الأخذ بالأسباب، حيث أثبت الغدو والرواح للطير مع ضمان الله تعالى الرزق لها[2] .

إن العمل بسنة الأخذ بالأسباب من صميم تحقيق العبودية لله تعالى، وهو الأمر الذي خلق له العبيد، وأرسلت به الرسل، وأنزلت لأجله الكتب، وبه قامت السماوات والأرض، وله وجدت الجنة والنار، فالقيام بالأسباب المأمور بها محض العبودية[3] .

إن القرآن الكريم أرشدنا إلى الأخذ بالأسباب وأرشدنا ألا نعتمد عليها وحدها وإنما نتوكل على الله مع الأخذ بها، وعلى المسلم أن يتقي في باب الأسباب أمرين:

الأمر الأول: **الاعتماد عليها، والتوكل عليها**، والثقة بها ورجاؤها وخوفها، فهذا شرك يرقُّ ويغلظ وبين ذلك.

ـ **الأمر الثاني**: ترك ما أمر الله به من الأسباب، وهذا أيضاً قد يكون كفراً وظلما وبين ذلك، بل على العبد أن يفعل ما أمره الله به من الأمر، ويتوكل على الله توكل من يعتقد أن الأمر كله بمشيئة الله، سبق بها علمه، وحكمه، وأن السبب لا يضر ولا ينفع ولا يعطي ولا يمنع ولا يقضي ولا يحكم، ولا يحصل للعبد ما لا تسبق له به المشيئة الإلهية ولا يصرف عنه ما سبق به الحكم والعلم، فيأتي بالأسباب إتيان ما لا يرى النجاة والفرج والوصول إلا بها، ويتوكل على الله توكل من يرى أنها لا تنجيه ولا تحصل له

(1) سنن الترمذي (4 / 573) رقم 2344 حسن صحيح.

(2) التمكين للأمة الإسلامية ص 252.

(3) مدارك السالكين لابن القيم (2 / 130) .



فلاحاً ولا توصله إلى المقصود، فيجرد عزمه للقيام بها حرصاً وإجتهاداً، ويفرغ قلبه من الاعتماد عليها والركون إليها تجريداً للتوكل وإعتماداً على الله وحده[1] . وقد جمع النبي صلى الله عليه وسلم بين هذين الأصلين في الحديث الصحيح، حيث يقول: "أحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز"[2] . فأمره بالحرص على الأسباب والاستعانة بالمسبب ونهاه عن العجز وهو نوعان:

- **النوع الأول** : تقصير في الأسباب وعدم الحرص عليها.

- **النوع الثاني** : وتقصير في الاستعانة بالله وترك تجريدها.

فالدين كله ظاهره وباطنه وشرائعه وحقائقه تحت هذه الكلمات النبوية[3] .

1 . القول بالتنافي بين التوكل والأخذ بالأسباب جهل بالدين:

إن القول بالتنافي بين التوكل والأخذ بالأسباب جهل بالدين، وهذا من قلة العلم بسنة الله في خلقه وأمره، فإن الله تعالى خلق المخلوقات بأسباب، وشرع للعباد أسباباً ينالون بها مغفرته ورحمته وثوابه في الدنيا والآخرة، فمن ظن أنه بمجرد توكله مع تركه ما أمره الله به من الأسباب يحصل مطلوبه، وأن المطالب لا تتوقف على الأسباب التي جعلها الله أسباباً لها فهو غالط[4] .

2 . التوازن بين مقامي التوكل والأخذ بالأسباب:

الأصل أن يستعمل العبد الأسباب التي بينها الله تعالى لعباده وأذن فيها وهو يعتقد أن المسبب هو الله سبحانه وتعالى، وما يصل إليه من المنفعة عند استعمالها بتقدير الله عز وجل، وأنه إن شاء حرمه تلك

---

(1) المصدر نفسه (3 / 501) .

(2) مسلم، ك القدر، باب الأمر بالقوة (4 / 2052) رقم 2664.

(3) في ظلال القرآن (2 / 919) .

(4) فتاوى ابن تيمية (8 / 529 ، 530) .

المنفعة مع استعماله السبب فتكون ثقته بالله واعتماده عليه في إيصال تلك المنفعة إليه مع وجود السبب[1] .

وبالتتبع لما قاله العلماء في التوازن بين المقامين نجد أن جمهورهم يقررون أن التوكل يحصل بأن يثق المؤمن بوعد الله، ويوقن بأن قضاءه واقع ولا يترك اتباع السنة في ابتغاء الرزق مما لا بد له منه من مطعم ومشرب وتحرز من عدو بإعداد السلاح وإغلاق الباب ونحو ذلك، ومع ذلك فلا يطمئن إلى الأسباب بقلبه، بل يعتقد أنها لا تجلب بذاتها نفعاً ولا تدفع ضراً، بل السبب والمسبب فعل الله تعالى والكل بمشيئته، فإذا وقع من المرء ركون إلى سبب قدح في توكله[2] .

أ . وفي القصص القرآني ما يجلّي هذا التوازن أيما تجلية، ويبين كيف مفهوم هذين المقامين وتطبيقهما على أرض الواقع وعلى الوجه الذي تقتضيه العقيدة الصحيحة مثل:

قصة يعقوب . عليه السلام . مع أبنائه عند وصيته لهم قبل دخولهم مصر لجلب ما يحتاجونه من طعام ومواد غذائية حين أصاب بلدهم الجدب والقحط، فقد وصّاهم: قال تعالى : "وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ" (يوسف : 67) .

فيعقوب . عليه السلام . ضرب لنا المثل في كيفية الأخذ بالأسباب في نطاق التوكل على الله، إذ في قوله: "لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ" تدبير وتشبث بالأسباب العادية التي لا تؤثر إلا بإذن الله تعالى، ولكنه استدرك ذلك مبيناً لهم أن الأخذ بالأسباب هنا ليس هو بمدافعة للقدر، بل هو استعانة بالله تعالى وهرب منه إليه[3] . فقال: " وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللهِ مِن شَيْءٍ " (يوسف : 67)

(1) شعب الإيمان للبيهقي (2 / 79) .

(2) السنن الإلهية د. مجدي محمد عاشور ص 215.

(3) روح المعاني للألوسي (13 / 19) .



أي: لا يكون ما أمرتكم به مغنياً غناءً مبتدئاً من عند الله، بل هو الأدب والوقوف عندما أمر الله، فإن صادق ما قدّره فقد حصل فائدتان، وإن خالف ما قدّره حصلت فائدة امتثال أوامره واقتناع النفس بعدم التفريط[1] .

وقد أراد يعقوب عليه السلام بهذا أن يعلّم أبناءه الاعتماد على توفيق الله ولطفه مع الأخذ بالأسباب المعتادة الظاهرة، تأدباً مع واضح الأسباب ومقدّر الألطاف في رعاية الحالين لأنا لا نستطيع أن نطلع على مراد الله في الأعمال، فعلينا أن نتعرفها بعلاماتها، ولا يكون ذلك إلا بالسعي لها، وهذا سر مسألة القدر كما أشار إليها قول النبي صلى الله عليه وسلم: **أعملوا فكل ميسر لما خلق له**[2] .

وبهذا يثبت أن الأسباب لابد لها من سياج قوي من التوكل، تدور في فلكه ولا تخرج عن حقيقته، ليكون ذلك أدعى لتحقيق المراد، وأجدر لامتثال أمر الله، وذلك لأن الأسباب العادية لما لم تكن غير مستقلة في تأثيرها ولا غنية في ذاتها مفتقرة إلى ما وراءها . كان من الواجب على من يتوسل إليها في مقاصده الحيوية أن يتوكل مع التوسل إليها على سبب وراءها، ليتم لها التأثير، ويكون ذلك منه جريًا في سبيل الرشد والصواب ويكون ذلك بالتوكل على الله سبحانه في الأمور كلها، فإن الله لا إله إلا هو، رب كل شيء، وهذا هو الله سبحانه وحده لا شريك له، فإن الله لا إله إلا هو رب كل شيء، وهذا هو المستفاد من الحصر الذي يدل عليه قوله تعالى:"وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ" (إبراهيم: 12) .

لقد مدح الله تعالى هنا يعقوب عليه السلام فقال تعالى:"وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ" (يوسف: 68) ، لأنه عمل الأسباب واجتهد في توفيتها وهو مقتضى الحكمة، ثم رد الأمر كله لله تعالى واستسلم إليه وهو حقيقة التوحيد فقال:"وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ" (يوسف: 67) ، فالآية: فأثنى الله تعالى عليه من أجل جمعه بين هاتين الحالتين العظيمتين[3] .

قصة مريم عليها السلام: وهي . كما وردت في القرآن الكريم . تبين لنا بوضوح بالغ أنه لا إختلاف ولا تباين بين مقامي الأخذ بالأسباب والتوكل، إذ كلٌّ له ملابساته وظروفه التي ترجع مقاماً على آخر في بعض الأوقات والأحوال.

(1) تفسير التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور (13/ 12) .

(2) فتح الباري (8/ 709) ، مسلم (4/ 2040) .

(3) تفسير الثعالبي (2/ 247) ، السنن الإلهية ص 217.



كانت مريم في بداية حياتها يأتيها رزقها من غير تكسب كما قال تعالى: "كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَـذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ إنَّ اللّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ" (آل عمران: 37) ، فلما ولدت أُمرت بهزّ الجذع، قال علماؤنا: لما كان قلبها فارغاً فرغ الله جارحتها عن النّصَب، فلما ولدت عيسى عليه السلام وتعلق قلبها بحبه، واشتغل سرها بحديثه وأمره، وكلها إلى كسبها وردّها إلى العادة بالتعلق بالأسباب في عباده[1] .

ب . السنة النبوية:

فعلى مستوى السنة الفعلية ثبت أنه صلى الله عليه وسلم ظاهر في الحرب بين درعين، ولبس على رأسه المغفر، وأقعد الرماة في الشعب، وخندق حول المدينة، وأذن في الهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة، وهاجر هو وتعاطى أسباب الأكل والشرب وأدّخر لأهله قوتهم، ولم ينتظر أن ينزل عليه من السماء وهو كان أحق الخلق أن يحصل له ذلك، ومع كل ذلك لا يظن برسول الله صلى الله عليه وسلم أنه مال إلى شيء من الاسباب غفلة مقدار طرفة عين[2] .

والمثال النبوي الفعلي لهذا التوازن . على وجه التفصيل حادث الهجرة الذي أصُطحب فيه أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقد استوفيا هما الاثنان في هذه الهجرة الاسباب المتاحة جميعها، لم يغفلا واحداً منها[3] .

إن من تأمل حادثة الهجرة، ورأى دقة التخطيط فيها، ودقة الأخذ بالأسباب من ابتدائها إلى انتهائها، ومن مقدّماتها إلى ما جرى بعدها، يدرك أن التخطيط المسدّد بالوحي في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قائماً، وأن التخطيط جزء من السنة النبوية، وهو جزء من التكليف الإلهي في كل ما طولب به المسلم، وأن الذي يميلون إلى العفوية، بحجة أن التخطيط وإحكام الأمور ليسا من السنة، أمثال هؤلاء مخطئون، ويجنون على أنفسهم، وعلى المسلمين[4] .

---

(1) تفسير القرطبي (11/ 95 . 96) ، السنن الإلهية ص 217.

(2) فتح الباري ، لابن حجر (10/ 212) .

(3) السنن الإلهية د. مجدي عاشور ص 217.

(4) الأساس في السنة، سعيد حوى (1/ 357) .



فعندما حان وقت الهجرة للنبي صلى الله عليه وسلم، شرع النبي صلى الله عليه وسلم في التنفيذ، نلاحظ الآتي:

- **وجود التنظيم الدقيق للهجرة حتى نجحت**، برغم ما كان يكتنفها من صعاب، وعقبات، وذلك أن كل أمر من أمور الهجرة كان مدروساً دراسة وافية، فمثلاً:
جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيت أبي بكر، في وقت شدة الحرّ ـ الوقت الذي لا يخرج فيه أحد ـ بل من عادته لم يكن يأتي له في ذلك الوقت، لماذا؟ حتى لا يراه أحد.
- **إخفاء شخصيته صلى الله عليه وسلم في أثناء مجيئه للصّدّيق** وجاء إلى بيت الصّدّيق متلثماً، لأن التلثم يقلل من إمكانية التعرف على معالم الوجه المتلثم[1] .
- **أمر صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن يُخرج من عنده**، ولما تكلّم لم يبين إلا الأمر بالهجرة دون تحديد الاتجاه.
- **كان الخروج ليلاً**، ومن باب خلفيّ في بيت أبي بكر[2] .
- بلغ الاحتياط مداه، **باتخاذ طرق غير مألوفة للقوم، والاستعانة في ذلك بخبير** يعرف مسالك البادية، ومسارب الصحراء، ولو كان ذلك الخبير مشركاً، مادام على خُلُق ورزانة، وفيه دليل على أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان لا يحجم عن الاستعانة بالخبرات مهما يكن مصدرها[3] .
- **انتقاء شخصيات لتقوم بالمعاونة في شؤون الهجرة**، ويلاحظ أن هذه الشخصيات كلها تترابط برباط القرابة، أو برباط العمل الواحد، مما يجعل هؤلاء الأفراد، وحدة متعاونة على تحقيق الهدف الكبير.
- **وضع كل فرد من أفراد هذه الأسرة في عمله المناسب**، الذي يجيد القيام به على أحسن وجه، ليكون أقدر على أدائه والنهوض بتبعاته.
- **فكرة نوم علي بن أبي طالب رضي الله عنه مكان الرسول صلى الله عليه وسلم فكرة ناجحة**، قد ضلّلت القوم، وخدعتهم وصرفتهم عن الرسول صلى الله عليه وسلم، حتى خرج في جنح الليل تحرسه عناية الله، وهم نائمون، ولقد ظلت أبصارهم معلقة بعد اليقظة، بمضجع الرسول صلى الله عليه وسلم، فما كانوا يشكّون في أنه ما يزال نائماً مُسجّى في بردته، في حين النائم هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(1) في السيرة النبوية ـ قراءة لجوانب الحذر والحماية ص 141 د. إبراهيم علي أحمد.

(2) من معين السيرة للشامي ص 147.

(3) الهجرة في القرآن الكريم، أحزمي سامعون ص 361.



- وقد كان عمل أبطال هذه الرحلة على النحو التالي:

ـ **عليّ رضي الله عنه**: ينام في فراش الرسول صلى الله عليه وسلم، يخدع القوم، ويُسلّم الودائع، ويلحق بالرسول صلى الله عليه وسلم بعد ذلك.

ـ **عبد الله بن أبي بكر**: رجل المخابرات الصادق، وكاشف تحركات العدو.

ـ **أسماء ذات النطاقين**: حاملة التموين من مكة إلى الغار، وسط جنود المشركين، بحثاً عن محمد صلى الله عليه وسلم ليقتلوه.

ـ **عامر بن فهيرة** : الرّاعي البسيط الذي قدّم اللحم واللبن إلى صاحبي الغار، وبدد آثار أقدام المسيرة التاريخية بأغنامه كي لا يتفرسها القوم، لقد كان هذا الرّاعي يقوم بدور الإمداد، والتموين، والتّعمية.

ـ **عبد الله بن أريقط**: دليل الهجرة الأمين، وخبير الصحراء البصير ينتظر في يقظة إشارة البدء من الرسول صلى الله عليه وسلم، ليأخذ الركب طريقه من الغار إلى يثرب، فهذا تدبير للأمور على نحو رائع دقيق، واحتياط للظروف بأسلوب حكيم، ووضع لكل شخص من أشخاص الهجرة في مكانه المناسب، وسد لجميع الثغرات، وتغطية بديعة لكل مطالب الرحلة، وإقتصار على العدد اللازم من الأشخاص من غير زيادة ولا إسراف، لقد أخذ الرسول صلى الله عليه ويلم بالأسباب المعقولة، أخذاً قوياً حسب استطاعته وقدرته، ومن ثم باتت عناية الله متوقعة[1] .

إن اتخاذ الأسباب أمر ضروري وواجب، ولكن لا يعني ذلك دائماً حصول النتيجة، ذلك لأن هذا أمر يتعلق بأمر الله ومشيئته، ومن هنا كان التوكل أمراً ضرورياً وهو من باب استكمال إتخاذ الأسباب.

---

(1) أضواء على الهجرة، توفيق محمد ص 393 ـ 397.



إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعد كل الأسباب، وإتخذ كل الوسائل، ولكنه في الوقت نفسه مع الله، يدعوه ويستنصره أن يكلل سعيه بالنجاح، وهنا يُستجاب الدعاء، وينصرف القوم بعد أن وقفوا على باب الغار وتسيخ فرس سراقة في الأرض ويكلل العمل بالنجاح[1] .

وأما على مستوى السنة القولية في هذا الصدد . نجد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "فر من المجذوم فرارك من الأسد"[2] ، في الوقت الذي ثبت فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم أكل مع المجذوم[3] . وظاهر الحديثين يدل على التنافي بين التوكل والأخذ بالأسباب، إلا أنه عند التحقيق نجد أنه صلى الله عليه وسلم أكل مع المجذوم ليبين أن الله هو الذي يمرض ويشفي، وأنه لا شيء يعدي بطبعه، نفياً لما كانت الجاهلية تعتقده من أن الأمراض تعدي بطبعها من إضافة إلى الله، فأبطل النبي صلى الله عليه وسلم إعتقادهم ذلك، في حين نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الاقتراب من المجذوم، ليبين أن هذا من الأسباب التي أجرى الله تعالى العادة بأنها تقتضي إلى مسبباتها، ففي نهيه إثبات الأسباب، وفي فعله إشارة إلى أنها لا تستقل، بل الله هو الذي إن شاء سلبها قواها، فلا تؤثر شيئاً، وإن شاء أبقاها فأثرت، وفي ذلك فسحة لمقام التوكل[4] على الله، وهذا يبين أن لكل حالة مقامها التي شرعها الله عز وجل لها. ومن ذلك ما ورد أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرَّ بقوم فقال: من أنتم؟ قالوا: المتوكلون. قال: أنتم المتواكلون، إنما التوكل رجل ألقى حبه في بطن الأرض وتوكل على ربه عز وجل[5] .

ثالثاً: الأسباب والمسببات:

إن الله تعالى قدر الأشياء بأسبابها، فالقدر يتعلق تعلقاً واحداً بالسبب وبالمسبب معاً، أي أن هذا المسبب سيقع بهذا السبب، ومن الأدلة على ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: إن الله خلق للجنة

---

(1) السيرة النبوية للصلابي (1 / 480) .

(2) فتح البري على صحيح البخاري (10 / 158) .

(3) سنن الترمذي (4 / 266) ، صحيح الإسناد.

(4) فتح الباري (10 / 160 . 161) .

(5) شعب الإيمان (2 / 81) ، السنن د. مجدي ص 219.





أهلاً خلقها لهم وهم في أصلاب آبائهم، وبعمل أهل الجنة يعملون، وخلق للنار أهلاً خلقها لهم وهم في أصلاب آبائهم، وهم بعمل أهل النار يعملون[1] .

وفي المضمار نفسه أخبر النبي صلى الله عليه وسلم صحابته بأن الله كتب المقادير، فقالوا: أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل؟ فقال صلى الله عليه وسلم: "من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فسيسير إلى عمل أهل الشقاوة، اعملوا فكل ميسر، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ: "فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى* فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى" (الليل : 5 ـ 10) .

وفي هذا الحديث النهي عن ترك العمل والاتكال على ما سبق به القدر، بل تجب الأعمال والتكاليف التي ورد الشرع بها، وكل ميسر لما خلق له لا يقدر على غيره[2] .

فالنبي صلى الله عليه وسلم أرشد الأمة في هذا الحديث في شأن القدر إلى أمرين هما سبب السعادة: الإيمان بالأقدار، إذ هو نظام التوحيد، والإتيان بالأسباب التي توصل إلى غيره وتحجز عن شره، وذلك نظام الشرع، فأرشدهم إلى نظام التوحيد والأمر[3] .

فلا منافاة بين الأخذ بالأسباب والإيمان بالقضاء والقدر، فمن القضاء رد البلاء بالدعاء، فالدعاء سبب لرد البلاء، وإستجلاب الرحمة، كما أن الترس سبب لرد السهم، والماء سبب لخروج النبات من الأرض، فكما أن الترس يدفع السهم فيتدافعان، فكذلك الدعاء والبلاء يتعالجان، وليس من شرط الاعتراف بقضاء الله تعالى أن لا يحمل السلاح، وقد قال تعالى: "خُذُواْ حِذْرَكُمْ" (النساء : 71) ، وأن لا يسقي الأرض بعد بث البذور، فيقال : إن سبق القضاء بالنبات نبت البذر ، وإن لم يسبق لم ينبت ،

---

(1) مسلم (4 / 2050) ، السنن د. مجدي ص 218.

(2) صحيح مسلم بشرح النووي (16 / 196) .

(3) شفاء العليل لابن القيم ص 53.





بل ربط الأسباب بالمسببات هو القضاء الأول الذي هو كلمح البصر أو هو أقرب، وترتيب تفصيل المسببات على تفاصيل الأسباب على التدريج والتقدير هو القدر، والذي قدر الخير قدره بسببه، والذي قدر الشر قدر لدفعه سبباً، فلا تناقض بين هذه الأمور عند من انفتحت بصيرته[1] .

ولبيان ارتباط الأخذ بالأسباب وتناسقه مع الإيمان والقدر وفق الحكمة الإلهية يقول الرازي عن تفسير قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ" (النساء : 71) أنه لما كان الكل لقدر كان الأمر بالحذر أيضاً داخلاً في القدر، فكان قول القائل: أي فائدة من الحذر كلاماً متناقضاً، لأنه لما كان هذا الحذر مقدراً، فأي فائدة في هذا السؤال الطاعن في الحذر؟[2] .

وحاصل تحقيق كلام الرازي: أن القدر عبارة عن جريان الأمور بنظام تأتي فيه الأسباب على قدر المسببات، والحذر من جملة الأسباب، فهو عمل بمقتضى القدر لا بما يضاده[3] .

ويؤيد ذلك من السنة النبوية ما ورد أنه قيل للنبي صلى الله عليه وسلم: أرأيت أدوية نتداوى بها ورقى نسترقي بها وتقاة نتقيها، هل ترد من قدر الله شيئاً؟ فقال صلى الله عليه وسلم: هي من قدر الله[4]، وذلك لأن الله تعالى يعلم الأشياء على ما هي عليه، وكذلك يكتبها، فإذا كان قد علم أنها تكون بأسباب من عمل وغيره، وقضى أنها تكون كذلك وقدر ذلك لم يجز أن يظن أن تلك الأمور تكون بدون الأسباب التي جعلها الله أسباباً، وهذا عام في جميع الحوادث[5] .

إن قدر الله تعالى وقضاؤه غير معلومين لنا، إلا بعد الوقوع فنحن مأمورون بالسعي فيما عساه أن يكون كاشفاً عن موافقة قدر الله لمأمولنا، فإن استفرغنا جهودنا وحُرمنا المأمول علمنا أن قدر الله جرى من قبل على خلاف مرادنا ، فأما ترك الأسباب فليس من شأننا ، وهو مخالف لما أراد الله منا ، وإعراض

(1) إحياء علوم الدين (3 / 202) ، الفتاوى لابن تيمية (8 / 69 . 70) .

(2) التفسير الكبير للرازي (5 / 308) .

(3) السنن الإلهية د. مجدي عاشور ص 210.

(4) سنن الترمذي (4 / 399) ، حسن صحيح.

(5) مجموع الحوادث (8 / 275) .





عما أقامنا الله فيه في هذا العالم، وهو تحريف لمعنى القدر[1] .

إن القضاء والقدر اللذان ورد في القرآن ذكرهما ـ وجعلهما الناس مرتبطين بفعل الإنسان ومسلكه في الحياة ـ سوى النظام العام الذي خلق الله عليه الكون وربط فيه بين الأسباب والمسببات، وبين النتائج والمقدمات سنة كونية دائمة، لا تتخلف والحاصل أن الإسلام لا يسمح أن يضل الإنسان أو ينحرف عن أوامر الله في عقائده ودينه، ثم يعتذر بالقضاء والقدر، ولو صح ذلك لبطلت التكاليف وكان بعث الرسل وإنزال الكتب، ودعوة الإنسان إلى دين الله وما يجب، ووعده بالثواب لأهل الخير وبالعقاب لأهل الشر ـ باطلاً ـ لا يتفق وحكمة الخالق الحكيم في تصرفه وتكليفه الرحيم بعباده[2] .

1 ـ تأثير السبب في المسبب:

إن الذي عليه السلف وأتباعهم وأئمة أهل السنة وجمهور أهل الإسلام المثبتون للقدر إثبات الأسباب، وأن قدرة العبد مع فعله لها تأثير كتأثير سائر الأسباب في مسبباتها، والله تعالى خلق الأسباب والمسببات، والأسباب ليست مستقلة بالمسببات، بل لا بد لها من أسباب أخر تعاونها، ولها ـ مع ذلك ـ أضداد تمانعها، والمسبب لا يكون حتى يخلق الله جميع أسبابه، ويدفع عنه أضداده المعارضة له، وهو سبحانه يخلق جميع ذلك بمشئته وقدرته، كما يخلق سائر المخلوقات، فقدرة العبد سبب من الأسباب، وفعل العبد لا يكون بها وحدها، بل لا بد من الإرادة الجازمة مع القدرة[3] .

ولا قال أحد من أئمة المسلمين ـ لا الأئمة الأربعة ولا غيرهم ولا مالك، ولا أبو حنيفة ولا الشافعي ولا أحمد بن حنبل، ولا الأوزاعي، ولا الثوري، ولا الليث، ولا أمثال هؤلاء ـ إن، الله يكلف العباد ما لا يطيقونه. ولا قال أحد منهم: إن قدرة العبد لا تأثير لها في فعله، أو لا تأثير لها في كسبه، ولا قال أحد منهم : إن العبد لا يكون قادراً إلا حين الفعل، وإن الاستطاعة على الفعل لا تكون إلا معه ، وإن العبد

(1) تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور (4 / 138) .

(2) الإسلام عقيدة وشريعة، محمود شلتوت ص 212.

(3) مجموع فتاوى ابن تيمية (8 / 487) .



لا استطاعة له على الفعل قبل أن يفعله، بل نصوصهم مستفيضة بما دل عليه الكتاب والسنة من إثبات استطاعة لغير الفاعل، كقوله تعالى: "وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً" (آل عمران : 97) . وقوله تعالى: "فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا" (المجادلة : 4) . وقول النبي صلى الله عليه وسلم لعمران بن حصين: صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب[1] .

والمقصود بتأثير السبب في المسبب، أن خروج الفعل من العدم إلى الوجود كان بتوسط القدرة المحدثة بمعنى أن القدرة المخلوقة هي سبب وواسطة في خلق الله سبحانه وتعالى الفعل بهذه القدرة، كما خلق النبات بالماء، وكما خلق الغيث بالسحاب، وكما خلق جميع المسببات والمخلوقات بوسائط وأسباب، فهذا حق، وهذا شأن جميع الأسباب والمسببات. وليس إضافة التأثير بهذا التفسير إلى قدرة العبد شركاً، وإلا يكون إثبات جميع الأسباب شركاً، وقد قال الحكيم الخبير :"فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ" (الأعراف: 57) . وقال تعالى:"فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ" (النمل: 60) . وقال تعالى:"قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ" (التوبة: 14) .

كما أن تأثير العبد في فعله يتوقف على تحقيق الشرط وانتفاء المانع، فإذا فُسّر التأثير بوجود شرط الحادث أو سبب يتوقف حدوث الحادث به على سبب آخر وانتفاء موانع . وكل ذلك بخلق الله تعالى . فهذا حق، وتأثير قدرة العبد في مقدورها ثابت بهذا الاعتبار، وإن فُسر التأثير بأن المؤثر مستقل بالأثر من غير مشارك معاون ولا معاوق مانع فليس شيء من المخلوقات مؤثراً، بل الله وحده خالق كل شيء لا شريك له ولا ندله، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. يقول تعالى:"مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ" (فاطر: 2) . وقال تعالى:"قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ * وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ" (سبأ: 22 . 23) .

---

(1) فتح الباري على صحيح بخاري (2/ 587) .

وقال تعالى:"قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ" (الزمر: 38) ، ونظائر هذا في القرآن كثيرة[1] .

إن من الأسباب ما يعرفه كل إنسان بفطرته مثل الوطء سبب الولد، والقاء البذور سبب للزرع، والأكل سبب للشبع، وشرب الماء سبب للري .

ومن الأسباب ما يجادل فيه بعض الناس مثل اتباع شرع الله سبب للسعادة في الدنيا والآخرة والخروج على هذا الشرع سبب للشقاوة في الدنيا والآخرة، والدعاء سبب لدفع المكروه ونوال المطلوب ومن الأسباب ما يخفى على كثير من الناس مثل أسباب الأحداث الإجتماعية وما يصيب الأمم من عز وذل وتقدم وتأخر ورخاء وشدة وهزيمة وانتصار ونحو ذلك فهذه الأحداث لها أسبابها التي تستدعي هذه النتائج ولا يمكن تخلف هذه النتائج إذا انعقدت أسبابها، فهي كالأحداث الطبيعية من تجمد الماء وغليانه ونزول المطر فهذه أحداث لها أسبابها التي قدّرها الله فمتى تحققت هذه الاسباب تحققت هذه الأحداث وكل الفرق بينها وبين الأحداث الإجتماعية أن الأولى أسبابها منضبطة ويمكن معرفة حصول أكثرها إذا عرفت أسبابها، أما الثانية أي الأحداث الإجتماعية فإن أسبابها كثيرة جداً، ومتشابكة ويصعب الجزم بوقت حصول نتائجها وإن أمكن الجزم بحصول هذه النتائج .

والشرع دلنا على هذا القانون العام قانون السبب والمسبب في نصوص كثيرة والمقصود أن ما قدّره الله وقضاه إنما قدّره بأسباب، فمن أراد الحصول على نتيجة معينة فلابد من مباشرة السبب المفضي إليها[2] .

وما ذهب إليه العلماء المحققون في فاعلية السبب في مسببه بإذن الله تعالى هو ما يتفق مع ظاهر النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة وهو المنهج الوسط والطريق الاسدّ في إعمال النصوص كلها على وجه الجمع دون الاقتصار على بعضها وهذا ما ذكرناه، هو ما ذهب إليه السلف الصالح وتلقاه أهل العلم بالقبول.

---

(1) مجموع فتاوى ابن تيمية (8/ 134 . 135) .

(2) الإيمان بالقضاء والقدر د. عبد الكريم زيدان ص 20.

ولا يخفى أن اعتناق هذا الرأي يفسح الطريق أمام القيام بأعباء خلافة الإنسان في الأرض والتفكر في سنن الله في الخلق وتوطئة للوقوف على أسبابها ونتائجها، ومن ثمّ التفاعل مع معطياتها بما يحقق إناطة تحمل المسئولية بالمكلفين في الدنيا والآخرة، وهو الأمر الذي يوسع ويثري من دائرة الدراسات الإجتماعية والنفسية والأخلاقية وفق المنهج الإسلامي، مما يعيد لهذه الأمة شهودها الحضاري ووسطيتها الشاملة التي ضمنها لها الشرع الشريف في قوله تعالى:"وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا" (البقرة: 143) ، وبذلك تعود الأمة إلى اصولها وخيريتها :"كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ" (آل عمران: 110) ، وبالأحرى تتخلص من تبعيتها للثقافات الوافدة التي ترزخ تحت وطأتها إلى يومنا هذا رغم عدم انسجامها مع معطيات الشرع وحقائق الفطرة[1] .

2. قال صلى الله عليه وسلم: لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة ولا صفر[2] :

وشرح هذا الحديث: أن "**العدوى**":انتقال المرض من المريض إلى الصحيح وكما يكون في الأمراض الحسية يكون في الأمراض المعنوية الخلقية، ولهذا أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن جليس السوء كنافخ الكير، إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه رائحة كريهة، فقوله صلى الله عليه وسلم "عدوى" يشمل العدوى الحسية والمعنوية. و"**الطيرة**": هي التشاؤم بمرئى أو مسموع أو معلوم.

و"**الهامة**": فسرت بتفسيرين:

الأول: داء يصيب المرضى وينتقل إلى غيره، وعلى هذا التفسير يكون عطفها على العدوى من باب عطف الخاص على العام.

الثاني: طير معروف تزعم العرب أنه إذا قتل القتيل فإن هذه الهامة تأتي إلى أهله وتنعق على رؤوسهم حتى يأخذوا بثأره، وربما اعتقد بعضهم أنها روحه تكون في صورة الهامة وهي نوع من الطيور تشبه البومة أو هي البومة، تؤذي أهل القتيل بالصراخ حتى يأخذوا بثأره، وهم يتشاءمون بها فإذا وقعت على بيت أحدهم ونعقت قالوا إنها تنعق به ليموت ويعتقدون قرب أجله وهذا باطل.

---

(1) السنن الإلهية د. مجدي عاشور ص 203.

(2) البخاري رقم 5757، مسلم رقم 2220.

و**"صفر"**: فسر بتفاسير:

الأول: أنه شهر صفر المعروف والعرب يتشاءمون به.

الثاني: أنه داء في البطن يصيب البعير وينتقل من بعير إلى آخر، فيكون عطفه على العدوى من باب عطف الخاص على العام.

الثالث: صفر شهر صفر، والمراد به النسيء الذي يضل به الذين كفروا، فيؤخرون تحريم شهر المحرم إلى صفر يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً.

وأرجحها أن المراد صفر حيث كانوا يتشاءمون به في الجاهلية، والأزمنة لا دخل لها في التأثير، وفي تقدير الله عز وجل فهو كغيره من الأزمنة يقدر فيه الخير والشر فهذه الأربعة التي نفاها الرسول صلى الله عليه وسلم تدل على وجوب التوكل على الله، وصدق العزيمة ولا يضعف المسلم أمام هذه الأمور.

والنفي في هذه الأربعة ليس نفياً للوجود، لأنها موجودة ولكنه نفي للتأثير، فالمؤثر هو الله فما كان منها سبباً معلوماً فهو سبب صحيح، وما كان منها سبباً موهوماً فهو سبب باطل، ويكون نفياً لتأثيره بنفسه ولسببيته، فالعدوى موجودة، ويدل لوجودها قوله صلى الله عليه وسلم: لا يورد ممرض على مصح[1] . أي لا يورد صاحب الإبل المريضة على صاحب الإبل الصحيحة، لئلا تنتقل العدوى وقوله صلى الله عليه وسلم: فر من المجذوم فرارك من الأسد[2] ، الجذام: مرض خبيث معد بسرعة ويتلف صاحبه، فالأمر بالفرار حتى لا تقع العدوى، وفيه اثبات العدوى لتأثيرها، لكن تأثيرها ليس أمر حتمي بحيث تكون علة فاعلة، ولكن أمر النبي صلى الله عليه وسلم الفرار من المجذوم وأن لا يورد ممرض على مصح، من باب تجنب الأسباب، لا من باب تأثير الأسباب بنفسها، قال تعالى:"وَلَاتُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ" (البقرة: 195) ، ويقال أن الرسول صلى الله عليه وسلم ينكر تأثير العدوى، لأن هذا أمر يبطله الواقع والأحاديث الأخرى.

(1) البخاري رقم 5771.

(2) البخاري رقم 5707.



فإن قيل إن الرسول صلى الله عليه وسلم لما قال: لا عدوى، قال رجل: يا رسول الله أرأيت الإبل تكون في الرمال مثل الضبا فيدخلها الجمل الأجرب فتجرب؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: فمن أعدى الأول[1] ، فالنبي صلى الله عليه وسلم أشار بقوله:" فمن أعدى الأول: إلى أن المرض انتقل من المريضة إلى هذه الصحيحات بتدبير الله عز وجل، فالمرض نزل على الأول بدون عدوى بل نزل من عند الله عز وجل، والشيء قد يكون له سبب معلوم، وقد لا يكون له سبب معلوم، وجرب الأول ليس معلوماً إلا أنه بتقدير الله تعالى وجرب الذي بعده له سبب معلوم ولو شاء الله تعالى ما جرب، ولهذا أحياناً تصاب الإبل بالجرب، ثم يرتفع ولا تموت وكذلك الطاعون والكوليرا أمراض معدية قد تدخل البيت فتصيب البعض فيموتون ويسلم آخرون ولا يصابون، فالإنسان يعتمد على الله ويتوكل عليه وقد جاء أن النبي صلى الله عليه وسلم قدم عليه رجل مجذوم فأخذ بيده وقال له "كل" أي من الطعام الذي كان يأكل منه الرسول صلى الله عليه وسلم لقوة توكله صلى الله عليه وسلم، فهذا التوكل مقاوم لهذا السبب المعدي، وهذا الجمع الذي ذكرنا أحسن ما قيل في الجمع بين الأحاديث وإذا أمكن الجمع وجب لأن فيه إعمال الدليلين[2] .

3. الجزاء الأخروي والأسباب:

لم يقتصر قانون السببية على إقامة الكون وتسييره فحسب ولا على الثواب والعقاب الدنيوي وحده، وإنما تجاوز ذلك ليكون الاصل أيضاً في الثواب والعقاب الأخروي، وذلك من كمال العدل الرباني والحكمة البالغة، والاصل في ذلك قوله تعالى:"مَّا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا" (النساء: 147) ، فهذه الآية دالة على اعتبار سنة الاسباب حتى في الجزاء الأخروي، إذ لا عذاب إلا بكفران، فإذا انتفى السبب . وهو الكفر سواء الاعتقادي أو العملي . فلا عذاب بل هو نعيم ودخول في معية المؤمنين كما دلت على ذلك الآيات السابقة لهذه الآية، وهي التي بيّنت طريق الخلاص للمنافقين من نفاقهم وسبيل قبول الله أعمالهم، فقالت بعد توعد المنافقين بالدرك الاسفل من النار:"إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا" (النساء: 146) .

(1) المجموع الثمين لابن عثيمين (2/ 212) .

(2) المصدر نفسه (2/ 212) قلت : الجذام نوعان حميد غير معدٍ ، وخبيث معدٍ كما نص على ذلك الأطباء (ن) .





والآيات في اعتبار الأسباب في الجزاء الأخروي كثيرة، ومنها على سبيل المثال: قوله تعالى:"كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ" (الحاقة: 24) . وقوله تعالى:"كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ" (الطور: 19) . وقوله تعالى:"ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ" (آل عمران: 181 . 182) . وقوله تعالى:"لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا *جَزَاء وِفَاقًا" (النبأ: 24 . 26) . وقوله تعالى:"فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ" (التوبة: 95)[1] .

4 . الحث على طلب الاسباب في الأمور المكفولة:

ترشدنا الآيات القرآنية إلى الأمر الشرعي قائم على حث الخلق على الأخذ بالأسباب حتى في الأمور التي كفلها الله له بموجب فضله وكرمه، ومن شواهد ذلك قوله تعالى: "هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ" (الملك : 15) . فقد تكفل الله برزق مخلوقاته بدليل قوله تعالى: "وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا" (هود : 6) . وقال تعالى: "وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ وَمَاتُوعَدُونَ" (الذاريات : 22) . وقال تعالى: "وَكَأَيِّن مِن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ" (العنكبوت : 60) .

ولكنه سبحانه جعل طريق وصول هذا الرزق وتحصيله في الأخذ بالأسباب والسعي والكسب في الحياة[2] ، ومع تقدير الله للعبد في الرزق، فيجب عليه طرق الأسباب في طلب الرزق، وهذا لا ينافي التوكل ، وزيادة الرزق جعل الله لها أسباباً منها:

(1) السنن الإلهية د. مجدي عاشور ص 145.

(2) المصدر نفسه ص 146.





أ . صلة الرحم: قال صلى الله عليه وسلم : "من سره أن يبسط له في رزقه وأن ينسأ له في أثره فليصل رحمه[1] .

ب . تقوى الله: قال تعالى: "وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ" (الطلاق: 2 . 3) . وكذلك اجتناب البغي، وظلم العباد، والرياء، وأكل مال اليتيم.

وكذلك الأسباب الطبيعية والمادية، كالسعي للرزق وبذل الجهد، واختيار الأزمان المناسبة وحسن اختار المكاسب النافعة ونحو ذلك، وهذه الأسباب والمسببات كلها بقدر الله تعالى ومشيئته[2] .

وما أجمل ما قاله عمر بن الخطاب لبعض الناس في زمنه عندما قال: لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق، ويقول: اللهم أرزقني وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة وإنما يرزق الله تعالى بعضهم من بعض، أما قرأتم قول الله تعالى: "فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ" (الجمعة : 10) [3] .

5 . مراعاة صورة الأسباب في الخوارق:

إذا كان الأصل في السنن الجارية هو تعلق المسببات بأسبابها، وارتباط النتائج بمقدامتها، فإن الأصل لا يتغير في السنن الخارقة المبنية على خرق العادة والأسباب، وعدم التغيير فيها يتمثل في مراعاة صورة الأسباب في تلك الخوارق ليظل قانون السببية عالقاً بذهن المكلف، ومرتبطاً بإقامة الكون وحركة الحياة، والقرآن الكريم زاخراً بالآيات التي يمكن الاستدلال بها في هذا الصدر[4] ، ومنها: قوله تعالى: "فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً" (البقرة : 60) . وفي الكلام حذف تقديره: فضرب فانفجرت[5] .

(1) البخاري رقم 1961.

(2) أصول الاعتقاد في سورة يوسف ص 501.

(3) الإيمان بالقدر، للقرضاوي ص 56.

(4) السنن الإلهية د. مجدي عاشور ص 147.

(5) المصدر نفسه ص 148.





قال القرطبي: وقد كان الله تعالى قادراً على تفجير الماء وفلق الحجر من غير ضرب، ولكن أراد أن يربط المسببات بالأسباب حكمة منه للعباد في وصولهم إلى المراد، وليرتب على ذلك ثوابهم وعقابهم في الميعاد[1] .

6 . تهيئة الأسباب لوقوع مراد الله:

إذا أراد وقوع شئ في هذا الوجود هيأ له أسبابه التي يقع بها، وذلك لأنه جعل نظام هذا الكون مبنياً على سنن لا تنخرم وقوانين لا تنخرم إلا بمشيئة الله عز وجل، كما هو الشأن في المعجزات وخوارق العادات، وهو استثناء من القاعدة التي قام عليها الكون من اعتبار الأسباب ـ حقيقة ـ في الوصول إلى مسبباتها، وقد قيل إذا أراد الله أمراً يسّر أسبابه.

ومن التطبيقات الواضحة لهذا العنوان في القرآن الكريم ما جاء في حيثيات غزوة بدر وملابساتها، حيث هيأ الله تعالى أسباب النصر للمسلمين في هذا اليوم،، ولم يجعل نصرهم ـ في ظاهر الأمر ـ من قبيل الخوارق المحضة التي ليس للسبب فيها نصيب، خاصة في مثل هذا الموقف الشديد الذي عانى فيه المسلمون من قلة العدد والعتاد، كل ذلك ليتبين للمسلمين قبل غيرهم أن السنن الإلهية والقوانين الربانية التي قام عليها نظام الكون لا تتخلف عادة، وقد تجلت هذه الأسباب، وظهرت فيما جاء في قوله تعالى عن غزوة بدر: "إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ" (الأنفال : 11) .

فإن اغشاءهم النعاس كان من أسباب النصر، لأنهم لما ناموا زال أثر الخوف من نفوسهم في مدة النوم ولما استيقظوا وجدوا نشاطاً، ونشاط الأعصاب يكسب صاحبه شجاعة، ويزيل شعور الخوف الذي هو فتور الأعصاب[2] .

7. الأسباب تعمل مع تحقق الشروط وانتفاء الموانع:

فكل سبب فهو موقوف على وجود الشروط وانتفاء الموانع[3] ، ولابد من تمام الشروط وزوال الموانع .

---

(1) الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي (1 / 419) .

(2) تفسير التحرير والتنوير (9/ 278) .

(3) مجموع الفتاوى (8/ 133) .





أي في انتاج الأسباب . وكل ذلك بقضاء الله وقدره وليس شيء من الأسباب مستقلاً بمطلوبه، بل لابد من انضمام أسباب أخرى إليه، ولابد أيضاً من صرف المواقع والمعارضات عنه حتى يحصل المقصود، فالمطر وحده لا ينبت النبات إلا بما ينضم إليه من الهواء والتراب وغير ذلك، ثم الزرع لا يتم حتى تصرف عنه الآفات المفسدة له، والطعام والشراب لا يغذي إلا بما جعل الله في البدن من الأعضاء والقوى[1] .
قال تعالى:"أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ" (الواقعة: 63 . 64) أي: إذا كانت منكم الحراثة والبذر . مع اعانتنا لكم على ذلك . فإن إتمام الزرع والإثمار وتوفير الشروط وإزالة الموانع من شأننا نحن، ويؤكد ذلك قوله تعالى:"أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاء مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ" (النمل: 60) . فقد ذكر إنزال الماء لأنه من جملة ما خلق الله، ولقطع شبهة أن يقولوا: إن المنبت للشجر الذي فيه رزقنا هو الماء، اغتراراً بالسبب فبودر بالتأكيد بأن الله خلق الاسباب وهو خالق المسببات بإزالة الموانع والعوارض العارضة لتأثير الأسباب، وبتوفير القوى الحاصلة في الأسباب، وتقدير المقادير المناسبة للانتفاع بالأسباب، فقد ينزل الماء بإفراط فيجرف الزرع والشجر، أو يقتلهما، ولذلك جمع بين "وَأَنزَلَ" وقوله:"فَأَنبَتْنَا" تنبيهاً على إزالة الشبهة[2] .

8 . إنكار قانون السببية يؤدي إلى ابطال حقائق العلوم:

لقد ثبت بنص القرآن أن الأسباب الشرعية هي محل حكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وهي في اقتضائها لمسببّاتها قدراً، فهذا شرع الرب وذلك قدره، وهما خلقه وأمره، والله له الخلق والأمر، ولا تبديل لخلق الله، ولا تغيير لحكمه، فكما لا يخالف سبحانه بالأسباب القدرية أحكامها، بل يجريها على أسبابها وما خُلقتُ له، فهكذا الأسباب الشرعية لا يخرجها عن سببها وما شُرعت له، بل هذه سنته شرعاً وأمراً، وتلك سنته قضاء وقدراً، وسنته القدرية قال تعالى: "فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا" (فاطر : 43) .

(1) المصدر نفسه (8/ 167) .

(2) تفسير التحرير والتنوير (20/ 11) .



فالمسببات مرتبطة بأسبابها شرعاً وقدراً، ولذلك فطلبها من غير أسبابها مذموم، كما أن إنكار الأسباب لأن تكون موصلة لها بأنها أمر مردود، بل أن النتائج المترتبة على إنكار قانون النسبية كافية لهدم حقائق العلوم كلها، فإن العلوم جميعها تستند إلى هذا، القانون[1] .

ونفي الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل، وهو طعن في الشرع أيضاً فالله تعالى يقول: "وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاء مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا" (البقرة : 164) . وقال تعالى: "يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ" (المائدة : 16) [2] .

والحاصل أنه قد ثبت بالقطع أنه لا مكان في هذا الوجود للمصادفة العمياء ولا للفلتة العارضة: "إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ" (القمر : 49) . وقال تعالى: "وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا" (الفرقان : 2). وقال تعالى: "فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا" (انساء : 19) . وقال تعالى: "وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ" (البقرة : 216) .

والأسباب التي تعارف عليها الناس قد تتبعها آثارها وقد لا تتبعها، والمقدمات التي يراها الناس حتمية قد تعقبها نتائجها وقد لا تعقبها، ذلك أنه ليست الأسباب والمقدمات هي التي تنشيء الآثار والنتائج، وإنما هي الإرادة التي تنشيء الآثار والنتائج وتهيء الظروف لتحققها، كما تنشيء الأسباب والمقدمات "لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا" (الطلاق: 1) ، "وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ" (الإنسان: 30) .

والمؤمن يأخذ بالأسباب لأنه مأمور بالأخذ بها والله هو الذي يُقدّر آثارها ونتائجها، والاطمئنان إلى رحمة الله وعدله وإلى حكمته وعلمه هو وحده الملاذ الأمين، والنجاة من الوسواس والهواجس :"الشَّيْطَانُ

(1) السنن الإلهية د. مجدي عاشور ص 158.

(2) السنن الإلهية د. مجدي عاشور ص 158.



يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ" (البقرة: 268)[1].

9. منازعة الأقدار بالأقدار:

من الأصول القطعية مباشرة الأسباب وعلى هذا فإن تركها قدح في الشرع مما يدحض ادعاءات الجهال والمغرضين، ونزيد هنا فنقول أن صاحب الإيمان بالقدر ينازع القدر بالقدر، بمعنى أن لا يستسلم للقدر مادام له دافع أو رافع أو مانع، فيأخذ من الأسباب ما يحقق ذلك، قال الشيخ عبد القادر الجيلاني: كثير من الرجال إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا، وأنا انفتحت لي روزنة فنازعت أقدار الحق بالحق للحق، وما قاله هذا الشيخ الجليل العارف بالله حق، ويريد بقوله رحمه الله تعالى أنه يدافع المقدور مادام في مدافعته مجال مستعيناً بالله تعالى مبتغياً وجهه.

وتفصيل ذلك أن المسلم مطالب بأخذ الوقاية من المحذور لئلا يقع ويرفعه ودفعه إذا وقع.

فمن الأول أخذ الحمية لئلا يقع المرض والابتعاد عن محل الوباء لئلا يصاب به الإنسان، والتحصن وراء الجدر والحصون في الحروب وقاية من العدو ، وليس في هذه الوقاية ومباشرة أسبابها مناقضة للإيمان بالقدر، وإنما أخذ بقدر لمنع قدر، والقدر مادام مجهولاً عندنا وهو محتمل الوقوع فنحن نباشر أسباب عدم وقوعه فإن كان مكتوباً عند الله وقوعه لم يتيسر لنا مباشرة أسباب دفعه، أو تتيسر لنا هذه الأسباب ولكن لا تؤدي إلى نتيجتها لوجود مانع يمنع من افضائها إلى مسببها، والمقصود هنا أن مباشرة الاسباب لمنع وقوع ما يحتمل وقوعه من الأقدار ليس فيه مناقضة للمعنى الصحيح للقدر وإنما هو أخذ بقدر لمنع قدر لأن السبب والمسبب بقدر الله تعالى جاء في الحديث الشريف : قيل يا رسول الله أرأيت أدوية نتدوى بها ورقى نسترقي بها وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئاً؟ فقال **هي من قدر الله**[2] .

---

(1) السنن الإلهية د. مجدي عاشور ص 161.

(2) الترمذي (4/ 399) حسن صحيح .





فإذا كان من قدر الله أن لا يصاب الإنسان بالمرض قدّر الله له مباشرة ما يدفع به وقوع المرض.

وعندما وصل الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى مشارف الشام وعلم بنزول الطاعون فيهم وهمّ بالرجوع قال له أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه: أفرار من قدر الله يا أمير المؤمنين؟.

فقال رضي الله عنه: لو كان غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله ونقع في قدر الله، ثم قال عمر رضي الله عنه ما معناه: لو كان عندك غنم أو إبل وأمامك أرض مجدبة وأخرى مخصبة فإذا نزلت بالمجدبة أو المخصبة أو تحولت من المجدبة إلى المخصبة، فكل ذلك بقدر الله[1] .

ومن **النوع الثاني** من منازعة الأقدار بالأقدار مباشرة الاسباب الرافعة للقدر بعد وقوعه كتناول الدواء لرفع المرض، وطرد الأعداء والكفرة من ديار المسلمين بعد تسلطهم باعداد العدة لذلك ثم قتالهم، ومثاله أيضاً انحباس المطر يرفع بالالتجاء إلى الله والإنابة إليه واستغفاره، كما هو معروف في الفقه في باب صلاة الاستسقاء، وكما دل عليه قوله تعالى حكاية عن نبيه نوح عليه السلام وما قاله لقومه، قال تعالى: "فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا" (نوح : 10 . 11) . فالالتجاء إلى الله والإنابة إليه واستغفارة من أهم الأسباب لدفع المكروه ورفعه بعد وقوعه، ومنعه من الوقوع قبل أن يقع، وهذه معاني يفقهها أهل الإيمان، لا أهل الكفر والجهالة والعصيان[2] .

رابعاً: الدعاء والقدر:

الدعاء مثل سائر الأسباب، كالتوكل والصدقة... سبب لجلب المنافع ودفع المضار[3] ، ثم الدعاء ـ مع ثبوت كونه سبباً ـ داخل في القضاء، ولا خرج عن القضاء، فإن الدعاء من جملة ما سبق به القضاء، لأن الله سبحانه أحاط بكل شئ علماً، وقدر كل شئ تقديراً، ولا يمكن أن يخرج شئ عن قضائه، فلهذا

(1) الإيمان بالقضاء والقدر، عبد الكريم زيدان ص 29.

(2) المصدر نفسه ص 30.

(3) الفتاوى (10 / 550) .





الدعاء نفسه داخل القضاء، إذا قدر الدعاء وأنه سبب لكذا فلا بد أن يدعو الرجل وأن يتسبب ذلك فيما جعله الله سبباً.

فالدعاء سبب لجلب النفع، كما أنه سبب لدفع البلاء، فإذا أقوى منه دفعه، وإن كان سبب البلاء أقوى لم يدفعه، لكن يخففه ويضعفه، وليس شئ من الأسباب أنفع من الدعاء ولا أبلغ في حصول المطلوب.

ولهذا أمر صلى الله عليه وسلم عند انعقاد أسباب الشر بما يدفع موجبها بمشيئة الله تعالى وقدرته من الصلاة والدعاء والذكر، والاستغفار والتوبة، والاحسان بالصدقة والعتاقة، فإن هذه الأعمال الصالحة تعارض الشر الذي انعقد سببه، كما في الحديث: "إن الدعاء والبلاء ليلتقيان بين السماء والأرض فيعتلجان[1] "، وهذا كما لو جاء عدو فإنه يدفع بالدعاء وفعل الخير وبالجهاد له، وإذا هجم البرد يدفع بإتخاذ الدفء، فكذلك الأعمال الصالحة والدعاء[2] .

ويدل على دفاع العدو بالدعاء مع الجهاد قوله صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبي وقاص: "هل تنصرون إلا بضعفائكم"، ولفظ النسائي: "إنما نصر الله هذه الأمة بضعفتهم بدعواتهم وصلاتهم وإخلاصهم[3] ".

والحاصل إن من جملة القضاء ردّ البلاء بالدعاء، فالدعاء داخل تحت القضاء وليس خارجاً عنه[4] .

1. دلالة القرآن الكريم على ذلك:

. قال تعالى: "وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ" (غافر : 60) . وقال تعالى: "وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ" (البقرة: 186) . وقال تعالى: "وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُواْ اللّهَ مِن فَضْلِهِ" (النساء : 32) .

---

(1) صحيح الجامع، للألباني رقم 7616.

(2) الدعاء ومنزلته من العقيدة، جيلان العروسي (1 / 356) .

(3) البخاري رقم 2896، النسائي (6 / 37) .

(4) الدعاء ومنزلته من العقيدة (1 / 357) .





إن الله سبحانه وتعالى نهى في هذه الآية عن الحسد، وتمني زوال نعمة الغير، وأمر بسؤاله من فضله فدل على أنه بسبب السؤال يعطي مثلما أعطى لذلك الذي فضله، وربما يعطي أكثر، فلو كان الدعاء والسؤال لا أثر له في إعطاء السائل ما تمناه وسأله، لزم أنه لا فائدة في الأمر به في هذا المقام، وهذا يخالف ما يقتضيه سياق الآية[1] .

وقد وردت آيات كثيرة جداً، ذكر الله فيها ما وقع لأنبيائه وأوليائه وعباده الصالحين من المحن والبلايا والشدائد العظام، فاستغاثوا بربهم وتضرعوا له، وابتهلوا إليه، فاستجاب الله لهم، وكشف عنهم تلك المحن، بعد دعائهم، وقد حكى الله لنا ألفاظ دعواتهم وصيغ إبتهالاتهم لنقتدي بها، ونأخذ العبر والدروس، ومن تلك الدروس التي نأخذها تأثير الدعاء وفائدته العظيمة في جلب المنافع ودفع المضار، وأنه سمة العبودية، وأنه الغذاء الروحي لاسيما عند نزول الشدائد المدلهمة[2] .

ومن ذلك

أ . ما حكى الله لنا عن نوح . عليه السلام . مما يدل على تأثير الدعاء:

قال تعالى: "وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ" (الصافات : 75) ، ما أصرحها في تأثير الدعاء وأوضحها وأبينها من حجة قاطعة، وما أبلغها من برهان ساطع، ومثلها قوله تعالى في قصة نوح أيضاً: "وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ" (الأنبياء : 76 . 77) .

ب . دعاء أيوب . عليه السلام .:

. قال تعالى: "وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ" (الأنبياء : 83 . 84) .

---

(1) المصدر نفسه (1 / 359) .

(2) الدعاء ومنزلته من العقيدة (1 / 360) .



تدل الآيتان على المقصود من عدة أوجه، منها العطف بالفاء السببية في الموضعين: فاستجبنا، فكشفنا، ودلالة فاستجبنا وكشفنا اللغوية ودلالة السياق هذه الدلالات الواضحة على تأثير الدعاء[1] .

ج . دعاء يونس . عليه السلام .:

قال تعالى: "وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ" (الأنبياء: 87 . 88) .

فدلتّ الآيتان على أن الدعاء هو السبب في نجاته من عدة أوجه، منها إلغاء السببية، ومنها كلمتا: استجبنا ونجينا كما دلت على أن هذا ليس خاصاً به بل المؤمنون عامة إذا وقعوا في شدة واستغاثوا بربهم فهو ينجيهم، كما دلت أيضاً على أنه لولا الدعاء لما نجا من هذا الكرب العظيم ولبقي في بطن الحوت، وقد صرحت بذلك آية أخرى قال تعالى: "فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ" (الصافات : 143 . 144) . فكلمة لولا في مثل هذا الموضع تدل على امتناع الجملة الثانية لوجود الأولى[2] ، وهذا صريح قاطع في أن الدعاء هو السبب في نجاته ولو لم يحصل الدعاء لما نجا ولبقي في بطن الحوت إلى يوم القيامة[3] .

د . دعاء زكريا عليه السلام:

قال تعالى:"وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ" (الأنبياء: 89 . 90) .

ففي هذا ترتيب للاستجابة على النداء، كما أن فيه تعليلاً للاستجابة بكونهم مسارعين في الخيرات، وداعين الله رغبة ورهبة[4] .

---

(1) المصدر نفسه (1 / 362) .

(2) الدعاء ومنزلته من العقيدة (1/ 362) .

(3) المصدر نفسه (1/ 362) .

(4) المصدر نفسه (1/ 363) .

هـ . في قصة موسى وهارون في استغاثتهما بالله:

قال تعالى:"وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ * قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا" (يونس: 88 . 89) .

فصرحت الآيتان بإجابة دعوتهما واستغاثتهما بالله تعالى وأن ذلك عقب ابتهالهما إلى الله تعالى فدل هذا على ترتيب الإجابة على الدعاء ترتب المسبب على السبب[1] وفي قوله تعالى في قصة تضرع موسى وابتهاله إلى الله قال تعالى:"قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي *وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي" إلى أن أجابه الله بقوله:"قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَامُوسَى" (طه: 25 . 36) ، ما أوضحها في الدلالة على تأثير الدعاء في الإجابة[2] !.

و . دعاء المؤمنين من الأمم السابقة:

. قال تعالى: "وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ" (البقرة، آية: 249 . 250) . وقال أيضاً:"وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ربَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ" (آل عمران: 147 . 148) .

2 . دلالة السنة النبوية على تأثير الدعاء:

وأما السنة الدالة على تأثير الدعاء، فأكثر من أن تحصر فقد تواتر عنه صلى الله عليه وسلم أمران: فعله للدعاء والثاني: حثه صلى الله عليه وسلم وترغيبه في الدعاء[3] ، ومن الأدلة ما يلي:

أ . حديث أنس بن مالك: قال: بينما النبي صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة إذ قام رجل فقال: يا رسول الله هلك الكراع وهلك الشاء، وفي رواية وجاع العيال، وفي رواية أخرى: هلكت الأموال وانقطعت السبل فأدع الله أن يسقينا فمد يديه ودعا، وفي رواية وما نرى في السماء قزعة، فوالذي نفسي بيده ما وضعها حتى ثار السحاب أمثال الجبال ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته صلى الله عليه وسلم، فمطرنا من الجمعة إلى الجمعة.

---

(1) المصدر نفسه (1/ 364) .

(2) المصدر نفسه (1/ 364) .

(3) الدعاء ومنزلته من العقيدة (1/ 366) .



ثم جاء ذلك الرجل أو غيره في الجمعة المقبلة فقال: تهدمت البيوت وانقطعت السبل فأدع الله يمسكها، فرفع يديه فقال: اللهم حوالينا ولا علينا، فما يشير بيده إلى ناحية من السحاب إلا انفرجت[1].

ب . حديث النزول، وهو حديث مشهور متواتر، ومن طرقه، ما رواه أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حتى يبقى ثلث الليل الأخير فيقول: من يدعوني فأستجب له؟ ومن يسألني فأعطيه؟ ومن يستغفرني فأغفر له؟[2]

إن المشاهدة لتأثير الدعاء لمن أكبر الأدلة وأصدقها برهاناً وأقواها حجة، فنحن رأينا وشاهدنا في أنفسنا ومن حولنا تأثير الدعاء، فمن منا لا يقع في شدة وكرب وضيق ثم يستغيث بربه فلا يرى أثر ذلك؟ فنحن نشاهد في حياتنا وأيامنا القصيرة وقائع لنا ولغيرنا يحصل فيها إجابة الدعاء بعد يأس وقنوط من المخلوقات، وبعد انقطاع السبل والحيل فهذا يكفي وحده للدلالة.

والحق الذي لا مرية فيه أن الدعاء سبب من الأسباب وأن له تأثيراً في جلب المنافع ودفع المضار، كسائر الأسباب المقدرة والمشروعة، وأنه لا منافاة بين القدر والدعاء، فالدعاء من جملة ما سبق به القدر وتضمنه القدر السابق[3] .

ولا شك أن الله سبحانه وتعالى هو الذي حرك العبد إلى الدعاء ويسره له وهو الذي قذف في قلب العبد الحركة إلى الدعاء وألهمه التضرع والابتهال والانطراح بين يديه ووفقه لذلك وصرف عنه الموانع من استكبار، وكسل وغير ذلك، فهذا الخير منه ولولا الله لما دعا العبد.

(1) البخاري رقم 932، مسلم رقم 897.

(2) البخاري رقم 1145، مسلم رقم 758.

(3) الدعاء ومنزلته من العقيدة (1/ 374) .



وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إني لا أحمل هم الإجابة وإنما أحمل هم الدعاء، ولكن إذا ألهمت الدعاء فإن الإجابة معه[1] .

فإذا أراد الله بعبد خيراً ألهمه دعاءه والاستعانة به وجعل استعانته ودعاءه سبباً للخير الذي قضاه له[2] .

2. دلالة الفطرة على تأثير الدعاء بإذن الله:

قال تعالى:"أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ" (النمل: 62) . فالآية صريحة الدلالة على أن دعاء المضطر هو السبب في إجابة سؤاله وكشف السوء عنه وهذا من آيات الله العظيمة الدالة على وحدانيته وتفرده بالربوبية والألوهية ولهذا أعقبه بقوله:"أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ"[3] .

والإنسان من طبيعته إذا وقع في شدة وضيق عليه تحركت فطرته ومشاعره، واتجه إلى الله ونسى ما كان يدعو من قبل وهنا يوقن أنه لا منقذ إلا الله، وتنكشف عنه الحجب، ويزول الرين، وتذهب الغشاوة وينطرح بين يدي الله منكسراً متواضعاً مبتهلاً متضرعاً باكياً ويجأر إلى الله كاشف السوء مجيب المضطرين غياث المغيثين منقذ الهالكين، وجابر المنكسرين ومنقذ الغرقى، وسامع النجوى، فكم من ملحد نزلت به ضائقة آب إلى الله[4] ، وكم من شارد فاسق وقع في مأزق تاب إلى الله ورجع إلى طاعته، فالفطرة خير شاهد وأقوى دليل وأنصع برهان، وأوضح حجة لأنها لا تحتاج إلى تركيب مقدمة وإقامة أدلة جدلية واستنتاج ودليلها لا يمكن مقاومته، ولا دفعه بالشبهات والوساوس، ألا ترى الإنسان إذا ما وقع في معصية يتجه مباشرة إلى السماء ويرفع يديه قائلاً: يا رب يا رب وهذه الحالة تهجم عليه وتسيطر على تفكيره وشعوره وتجعله يشعر أنه لا منقذ ولا منجي ولا مغيث إلا الله سبحانه وتعالى، فلو لم تدل الفطرة

---

(1) المصدر نفسه (1/ 375) .

(2) المصدر نفسه (1/ 375) .

(3) المصدر نفسه (1/ 359) .

(4) العقيدة في الله لعمر الأشقر ص 67، الدعاء ومنزلته من العقيدة (1/ 368) .



على تأثير الدعاء لما اتجهت إلى الدعاء ولكانت تلجأ إلى وسائل أخرى للاستغاثة والاستعانة(1) .

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى طبيعة الإنسان هذه في عدة آيات منها: **قوله تعالى:**"وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ" (يونس: 12) **وقال سبحانه:**"وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ" (الزمر: 8) . **وقوله تعالى:**"وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاء عَرِيضٍ" (فصلت: 51) . **وقوله تعالى:**"وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ" (النحل: 53) . **وقوله تعالى:**"هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنِّ مِنَ الشَّاكِرِينَ" (يونس: 22) . **وقوله تعالى:**"وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا" (الإسراء: 67) . **وقوله تعالى:**"وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ" (لقمان: 32) .

فالإنسان في مثل هذه الشدائد ينسى تلك الأشياء التي كان يتعلق بها ويرجع إلى ربه، فتحصل له معرفة قوية من أقوى مايكون المعارف، فإن المعارف التي تحصل في النفس بالأسباب الاضطرارية أثبت وأرسخ من المعارف التي ينتجها مجرد النظر القياسي الذي ينزاح عن النفوس في مثل هذه الحال(2) .

(1) المصدر نفسه (1/ 368) .

(2) الدعاء ومنزلته من العقيدة (1/ 369) .

الفصل السابع

العدل الإلهي

وسنة الله في الجزاء بجنس العمل

تمهيد.

أولاً: الأصل في العقاب المماثلة .

ثانياً: الجزاء بجنس العمل في الدنيا .

ثالثاً: الجزاء بجنس العمل في الآخرة .

رابعاً: الجزاء بجنس العمل بين العباد .



الفصل السابع:

العدل الإلهي وسنة الله في الجزاء بجنس العمل:

تمهيد:

من أسماء الله الحسنى "العدل" ولم يأت هذا الاسم في القرآن الكريم وقد جاء في حديث الأسماء الحسنى وأجمعت عليه الأمة.

ومعناه: العادل: وهو الذي يصدر منه فعل العدل وهو المضاد للجور والظلم وهو الذي لا يميل به الهوى فيجور في الحكم وإذا آمن العبد بأن الله هو العدل لم يعترض عليه في أحكامه وتدبيره وسائر أفعاله، وافق مراد العبد أو لم يوافق، لأن كل ذلك عدل وهو كما ينبغي وعلى ما ينبغي[1] .

فالعدل كل أفعاله وأحكامه سداد وصواب وحق وهو سبحانه قد أوضح السبل وأرسل الرسل، وأنزل الكتب وأزاح العلل ومكّن من أسباب الهداية والطاعة بالاسماع والأبصار والعقول وهذا عدله.

ووفق من شاء بمزيد عناية وأراد من نفسه أن يُعينه ويُفقّه، فهذا فضله، وخذل من ليس بأهل لتوفيقه وفضله، وخلىّ بينه وبين نفسه، ولم يُرد سبحانه من نفسه أن يوفقه، فقطع عنه فضله، ولم يحرمه عدله[2] .

وقد اتفق أهل الأرض والسموات على أن الله تعالى "عدل" لا يظلم أحداً، حتى أعداءه المشركين الجاحدين لصفات كماله، فإنهم مقرّون له بالعدل، ومُنزّهون له عن الظلم، حتى إنهم ليدخلون النار وهم مُعترفون بعدله، كما قال تعالى:"فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ" (الملك: 11) .

(1) أسماء الله الحسنى د. فاروق حمادة ص 128.

(2) جهود الإمام ابن القيم في توحيد أسماء الأسماء والصفات د. وليد محمد عبد الله العلي (2/ 1291) .





وقال تعالى:"يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ" (الأنعام: 130) . فهو سبحانه ـ قد حرّم الظلم على نفسه وأخبر أنه لا يُهلك:"الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ" (الأنعام: 131) .

فأفعال الله كلها جارية على سنن العدل والاستقامة، ليس فيها شائبة جور أصلاً، فهي كلها بين الفضل والرحمة وبين العدل والحكمة، وما ينزل الله ـ سبحانه ـ بالعصاة والمكذبين من أنواع الهلاك والخزي في الدنيا وما أعده لهم من العذاب المهين في الآخرة، فإنما فعل بهم ما يستحقونه، فإنه لا يأخذ إلا بذنب ولا يعذب إلا بعد قيام الحجة، وأقواله كلها عدل، فهو لا يأمرهم إلا بما فيه مصلحة خالصة أو راجحة ولا ينهاهم إلا عمّا مضرته خالصة أو راجحة وكذلك حكمه بين عباده يوم فصل القضاء ووزنه لأعمالهم لا جور فيه، كما قال تعالى:"وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ" (الأنبياء: 47) ، فهو على صراط مستقيم في قوله، وفعله وحكمه[(1)] .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **عدل فيّ قضاؤك**[(2)] . فالله عدل في جميع أقضيته في عبده، قضائه السابق فيه قبل إيجاده، وقضائه فيه المقارن لحياته، وقضائه فيه بعد مماته، وقضائه فيه يوم معاده[(3)] .

وقال الله تعالى ـ على لسان نبيه هود عليه السلام :"إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ" (هود: 56) . فأخبر عن عموم قدرته ونفوذ مشيئته وتصرفه في خلقه كيف شاء، ثم أخبر أنه في هذا التصرف والحكم على صراط مستقيم[(4)] .

---

(1) الجزاء من جنس العمل د. سيد حسين العفاني (1/ 33) .

(2) صحيح ابن حبان رقم 972.

(3) الجزاء من جنس العمل (1/ 33) .

(4) جهود الإمام ابن القيم الجوزية في تقرير الأسماء والصفات (2/ 1292) .





فالله يأمر بالعدل ويفعله وهو أعدل العادلين، فما قضى في عبده قضاء إلا هو واقع في محله الذي لا يليق به غيره، إذ هو الحكم العدل الغني الحميد[1] .

فالله وحده المجازي المثيب المعاقب بالعدل فالشرع والقدر والخلق والأمر والثواب والعقاب قائم بالعدل "وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً" (الأنعام: 115) .

والعدل يتضمن وضعه الأشياء موضعها وتنزيلها منازلها، وإنه لم يخص شيئاً منها إلا بمخصص اقتضى ذلك وإنه لا يعاقب من لا يستحق العقوبة ولا يمنع من يستحق العطاء وإن كان هو الذي جعله مستحقاً[2] .

والله يفعل ما يريد، وحكمه ماض في العبيد، على النهج السديد[3] . "وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا" (الكهف: 49) . وهذا الكمال عدل فإن النفي هنا لإثبات كمال الضد[4] . قال تعالى:"إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ" (النساء: 40) . وقال تعالى:"إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا" (يونس: 44) . وقال تعالى:"ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ مِن شَيْءٍ لِّمَّا جَاء أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ * وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ" (هود: 100 . 102) .

وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ النبي صلى الله عليه وسلم:"وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ" (هود: 102) [5].

وقال تعالى:"وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا" (الكهف: 59) .

(1) الجزاء من جنس العمل (1/ 34) .

(2) مدارج السالكين (3/ 457 . 460) .

(3) الجزاء من جنس العمل (1/ 34) .

(4) المصدر نفسه (1/ 34) .

(5) البخاري (4688) ومسلم (2583) .





وقال تعالى في شأن أصحاب السبت:"فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ" (الأعراف: 165) .

فالله لا يظلم الناس شيئاً في دنياهم وإنما يؤاخذهم بظلمهم، ولا يظلمهم في الآخرة[1] . قال تعالى:"فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ" (يس: 54) . وقال تعالى في آخر آية نزلت قبل موت النبي صلى الله عليه وسلم بتسع ليال:"ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ" (البقرة: 281) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيما يرويه عن الله ـ تبارك وتعالى ـ أنه قال: يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا[2] .

وعلى مستوى المعاملات بين الناس جاء الأمر الإلهي بتحري العدل، قال تعالى:"إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ" (النحل: 90) . فالنصوص التي ذكرت في القرآن والسنة للدلالة على تحريم الظلم وتنزيه الله عنه، تقتضي كمال عدله وحكمته وغناه، ووضعه العقوبة والثواب مواضعها[3] .

قال الشاعر:

والعدل من أوصافه في فعله ومقاله والحكم في الميزان
فعلى الصراط المستقيم إلهنا قولا وفعلاً ذاك في القرآن[4]

ومن أكبر مظاهر عدل الله في خلقه في الدنيا والآخرة سنة الجزاء بجنس العمل وقد تكاثرت النصوص لهذا المعنى، وهذا شرع الله وقدره ووحيه وثوابه وعقابه، كله قائم بهذا الأصل[5] .

أولاً: الأصل في العقاب المماثلة:

(1) الجزاء من جنس العمل (1/ 35) .

(2) مسلم، رقم 2577.

(3) القضاء والقدر د. عبد الرحمن المحمود ص 287.

(4) الجزاء من جنس العمل (1/ 33) .

(5) السنن الإلهية د. مجدي عاشور ص 269.





إن الوعيد والعقاب الإلهي مبني على العدل الإلهي، بحيث تكون العقوبة مكافئة للذنب الواقع ولذلك يصرّح القرآن بقوله:"وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا" (الشورى: 40) . وقال تعالى:"الشهرُ الحرام بِالشهرِ الحرامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ" (البقرة: 194) . وقال تعالى:"وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ" (النحل: 126).

بل قد يتجاوز الله بمشيئته عمن أساء يقول سبحانه:"وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ" (الشورى: 30) .

ويحرّض الله الناس على الصفح عمن ظلمهم أو أساء إليهم، فهو يسرّع لهم القصاص والمعاملة بالمثل ولكنه في الوقت يدعو إلى العفو والصفح ويوكل أجر فاعلهما عليه سبحانه، زيادة في الإغراء وحثاً على التسامح، فيقول تعالى:"وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ" (الشورى: 40) . وقال تعالى:"وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ" (النحل: 126) .

والحاصل أن عقاب الله العبد يكون على قدر ذنبه وما أرتكبه، ولذلك ألمحت بعض الآيات بأن جزاء العقوبة هو ما كان يقترفه العبد، قال تعالى:"هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ" (الأعراف: 147) .

وبلفظ الخطاب ورد قوله تعالى:"إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ" (النمل: 90) . وقوله:"وَمَاتُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ" (الصافات: 39) .

وأما في جانب الوعد والثواب فيعامل الله عباده بالفضل والزيادة وإن كانت من جنس العمل الذي فعله العبد، يقول تعالى:"وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ" (محمد: 17) . وقال تعالى:"لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ" (إبراهيم: 7) . وقال تعالى:"فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ" (النساء ، آي : 173) .

والقرآن الكريم حافل بالتطبيقات المتنوعة على سنة الجزاء بجنس العمل، ولكن قبل الشروع في هذه النماذج نعرض للآيات القرآنية التي تعد حقائق أصيلة لهذه السنة، ومن الأمثلة على ذلك:





1 . قوله تعالى: " يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم"(يونس : 23) . فالمراد بالبغي هنا ما كان على النفس خاصة بإيرادها موارد التهلكة والزج بها في ركب الندامة الخاسر بالمعصية، وقد يراد به . أيضاً . البغي على الناس، فالناس نفس واحدة، على أن البغاة ومن يرضون منهم البغي يلقون في أنفسهم العاقبة والخطاب بـ" يَا أَيُّهَا النَّاسُ" يفيد العموم فيدخل فيه المخاطبون وغيرهم، وفي الآية ذم للبغي في أوجز لفظ، ومعنى "عَلَى أَنفُسِكُم" أي وبال البغي عليكم ولا يجنى ثمرته إلا أنتم[1] .

وقد دلت الآية على أن البغي يجازى صاحبه عليه في الدنيا والآخرة[2] .

فأما في الآخرة فهو ما دل عليه إنزال أهله الرجوع إلى الله، وإنباؤه إياهم بما كانوا يعملونه وذلك في قوله تعالى في عجز الآية نفسها: "ثُمَّ إِلَينَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ"، والمراد بالإنذار هنا لازمه وهو الجزاء.

وأما الدنيا فالشاهد الذي ذكرناه "إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم" ويؤيده قول النبي صلى الله عليه وسلم: ما من ذنب يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة مثل البغي وقطيعة الرحم[3] .

يقول محمد رشيد رضا: فوجود الأعداء والمبغضين ضرب من ضروب العقوبة، وإن لم يستطيعوا إيذاء الباغي لعجز، فكيف إذا قدروا وفعلوا الغالب؟ وأما بغي الملوك والحكام على الأقوام والشعوب فأهون عقوبته عداوتهم والطعن عليهم، وقد تفضي إلى إغتيال أشخاصهم، أو إلى شل عروشهم والقضاء على حكمهم، إما بثورة من الشعب تستبدل بها عرشاً بعرض، أو نوعاً من الكم بنوع آخر، وإما بإغارة دولة قوية على الدولة التي يضعفها البغي، تسلبها إستقلالها وتستولي على بلادها[4] . وتلك هي عدالة الله في تحقيق قانونه في الخلق وجزائهم بجنس ما يعملون[5] .

(1) تفسير البحر المحيط (5 / 140) ، السنن الإلهية مجدي عاشور ص 227.

(2) السنن الإلهية مجدي عاشور ص 227.

(3) أخرجه أحمد (5 / 38) ، صحيح.

(4) تفسير المنار (11 / 344) .

(5) السنن الإلهية د. مجدي عاشور ص 228.



2 . قال تعالى: "اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا" (فاطر : 43) . "اسْتِكْبَارً افِي الْأَرْضِ" إي استكبروا عن اتباع آيات الله "وَمَكْرَ السَّيِّئِ"، أي: ومكروا بالناس في صدِّهم إياهم عن سبيل الله. "وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ"، أي: وما يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم[1] . فمن سنن الله ونواميسه في خلقه "لَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ"

ولهذا قيل: وما ظالم إلا سيُبلى بظالم.

وقال الشاعر:

لكل شئ آفة من جنسه　　　حتى الحديد سطا عليه المُبردُ[2]

فما يصيب مكرهم السيء أحداً إلا أنفسهم وهو يحيط بهم ويحيق ويحبط أعمالهم، وإذاكان الأمر كذلك فلماذا ينتظرون إذن؟

إنهم لا ينتظرون إلا أن يحل بهم ما حل بالمكذبين من قبلهم وهو معروف لهم وتمضي سنة الله الثابتة في طريقها الذي لا يحيد[3] "فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا" (فاطر : 43) .

3 . قال تعالى: "فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ" (الفتح : 10) .

ما من بيعة بين الله وعبد من عباده إلا والعبد فيها هو الرابح من فضل الله والله هو الغني عن العالمين، وبالمقابل فإن العبد هو الخاسر حتى ينكث وينقض عهده مع الله، فيتعرض لغضبه وعقابه على النكث الذي يكرهه ويمقته، فالله يحب الوفاء والأوفياء[4] .

وقال محمد بن كعب القرظي: ثلاث من فعلهن لم ينجح حتى ينزل به: من مكر أو بغي، أو نكث، وتصديقها في كتاب الله تعالى: "لَايَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ"(فاطر : 43).

---

(1) الجزاء من جنس العمل (1 / 84) .

(2) التحرير والتنوير (22 / 235) .

(3) في ظلال القرآن (5 / 2949) .

(4) السنن الإلهية د. مجدي عاشور ص 228.

"إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم"(يونس: 23) "فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ" (الفتح : 10) [1] .

ثانياً: الجزاء بجنس العمل في الدنيا:

1 . الاستهزاء بالمنافقين والسخرية منهم في الحياة الدنيا:

ـ قال تعالى: "وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ {14 اللّهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ" (البقرة : 14 . 15) . قال تعالى: "الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ" (التوبة : 67) . وقال تعالى: "الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ" (التوبة : 79) .

هذا من باب المقابلة على سوء ضيعهم واستهزائهم بالمؤمنين، لأن الجزاء من جنس العمل، فعاملهم معاملة من يسخر منهم إنتصاراً للمؤمنين في الدنيا، وأعد للمنافقين في الآخرة عذاباً أليماً، لأن الجزاء من جنس العمل[2] .

2 . تسليط الظالم على مثله:

قال تعالى: "وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ" (الأنعام : 129) . وقال تعالى: "وَلاَتَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ" (هود : 13) . وقال تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" (المائدة : 51) . وفي قوله: "وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا": تدل الآية على أن الرعية متى كانوا ظالمين فالله تعالى يسلط عليهم ظالماً مثلهم، فإن أرادوا أن يتخلصوا من ذلك الأمير الظالم فليتركوا الظلم[3] .

(1) المصدر نفسه ص 229.

(2) السنن الإلهية د.مجدي عاشور ص 229.

(3) المصدر نفسه ص 234.



3 . استئصال الله لمن أراد إيذاء رسله وأوليائه:

قال تعالى: "كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ" (غافر : 5) .

وقال تعالى عن ظلم فرعون لبني إسرائيل ومحاولته إخراجهم من أرضهم: "فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا * وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُواْ الأَرْضَ فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا" (الإسراء : 103 . 104) .

ويقرر القرآن الكريم هذه السنة في آيات أخر قال تعالى: "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ" (إبراهيم : 13 . 14) . وقال تعالى: "لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا * مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا * سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا" (الأحزاب : 60 . 62) .

4 . نصر الله منوط بنصرته للدين والحق:

قال تعالى: "كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي" (المجادلة : 21) . وقال تعالى: "إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ" (غافر : 51) . وقال تعالى: "وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ" (الروم : 47) .

وهذا النصر الإلهي مشروط بالإيمان ونصرة دين الله، وفي ذلك يقول الله تعالى: "يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ" (محمد : 7) ، وقال تعالى: "وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ" (الحج : 40) .

5 . سلب النعمة عمن منعها مستحقها:

يبين القرآن الكريم أن عقاب الله بالمرصاد لمن منع أحداً شيئاً يستحقه وأن سنة الله في هذا أن ينقلب مقصود المانع عليه ويعامله الله بنقيض مقصوده، فيأخذ الله ما بين يديه من نعمة ويسلبه ما كان سبباً في التجني على خلقه ويتركه في رماد، والشاهد على ذلك جلياً في قصة أصحاب الجنة التي قصّها علينا القرآن للاعتبار والعظة، قال تعالى: "إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَثْنُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ * فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ * أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ * فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ * أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ





عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ * وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ * فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ" (القلم ، 17 . 27) .

فأصحاب الجنة لما عزموا على منع الفقير حقه الذي كفله الله له عوقبوا بنقيض قصدهم، فأذهب الله ما بأيديهم بالكلية، رأس المال والربح والصدقة، فلم يبق لهم شئ ثم بين الله أن حكمه هذا سنة جارية، في خلقه وقضاء عام لمن وقع في مثله "كَذَلِكَ الْعَذَابُ" (القلم : 33) أي: هكذا عذاب من خالف أمر الله وبخل بما آتاه الله وأنعم به عليه ومنع حق المسكين والفقير وذوي الحاجات[1] .

وبالمقابل فإن الله قد ضمن لمن تعدى بخيره على غيره أن يرزقه من جنس ما أنفقه ويزيده فيه سواء في الدنيا أو في الآخرة، فقال: "وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ" (سبأ : 39) . وقال تعالى: "وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ" (البقرة : 272) . وفي الحديث القدسي: أنفق أنفق عليك[2] .

6 . تيسير الله لمن يسَّر على عباده:

قال تعالى: "يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ" (المجادلة : 11) .

وفي قوله "يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ" مطلق في كل ما يطلب الناس الفسحة فيه من المكان والرزق والصدر والقبر والجنة .

وأعلم أن هذه الآية دلت على أن كل من وسع على عباد الله أبواب الخير والراحة. وسع الله عليه

(1) السنن الإلهية د. مجدي عاشور ص 241.

(2) مسلم (2 / 690) .





خيرات الدنيا والآخرة ولا ينبغي للعاقل أن يقيد الآية بالتفسح في المجلس، بل المراد منه أيصال الخير إلى المسلم وإدخال السرور في قلبه[1] .

ويؤكد هذا الموضع من الشاهد قول النبي صلى الله عليه وسلم: من فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرّج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسّر على معسر يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه[2] .

وفي قوله تعالى:"وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ" أي: إذا قيل: ارتفعوا وإنما يراد بذلك وإذا قيل قوموا إلى قتال عدو أو صلاة أو عمل خير أو تفرقوا عن رسول الله فقوموا[3] ، فقد جعل جزاء امتثال أمره في تلك الآية أن رفع درجة أصحابها بالنصر وحسن الذكر في الدنيا وإيوائهم غرف الجنان في الآخرة خاصة العلماء منهم الذين جمعوا بين العلم والعمل فإن العلم مع علو درجته يقتضي العمل المقرون به مزيد رفعة[4] .

7. الجزء بجنس العمل على مستوى الوسائل:

إن أي تدبير أو فعل من العبد مهما بلغ في اتقانه ونسجه فإن الله هو القاهر فوق عباده لا يعجزه شئ في الأرض ولا في السماء، وفي هذه الغاية القصوى في استشعار العبد بالمراقبة، ومن ثم الامتثال بالعبودية.

ومن الآيات الدالة على هذه المسألة: قوله تعالى: "أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ" (الطور : 42) . وقال تعالى: "إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا" (الطارق : 15 . 16) . وقال تعالى عن صالح . عليه السلام . وقومه ثمود: "وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ * قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِمْ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَايَشْعُرُونَ * فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ" (النمل : 48 . 51) .

---

(1) السنن الإلهية مجدي عاشور ص 243.

(2) صحيح مسلم (4/ 2074) ، السنن الإلهية ص 244.

(3) جامع البيان للطبري (28/ 259) .

(4) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (2/ 221) .





وقال تعالى: "وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ * إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ" (آل عمران : 54 ـ 55) .وقال تعالى: "وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْيَقْتُلُوكَ أَوْيُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ" (الأنفال : 30) . وسمي جزاء المكر مكراً، وجزاء الكيد كيداً، تنبيهاً على أن الجزاء من جنس العمل[1] .

ثالثاً: الجزاء بجنس العمل في الآخرة:

كما أن سنة الجزاء بجنس العمل حاكمة في معاملة الله خلقه في الحياة الدنيا، فهي كذلك في الآخرة، ومن ثم كانت سنة أساسية بين السنن، والتطبيقات القرآنية تترى في هذا المعنى، وتصل إلى حد التواتر، من حيث العدد، وإلى القطع من حيث المعنى والمراد من ذلك[2] .

1 ـ معاملة أهل الفضل بالفضل:

ـ قال تعالى: "هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ" (الرحمن : 60) ، أي: هل ثواب خوف مقام الله عز وجل لمن خافه فأحسن في الدنيا عمله، وأطاع ربه إلا أن يحسن إليه في الآخرة ربه بأن يجازيه على إحسانه ذلك في الدنيا ما وصف في الآيات من قوله تعالى: " وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (46) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (47) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (48) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (49) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (50) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (51) فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (52) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (53) مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (54) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (55) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (56) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (57) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (الرحمن : 46– 58) [3] .

وقال تعالى: "تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" (السجدة : 16 ـ 17) .

---

(1) مفتاح دار السعادة لابن القيم (2 / 233) .

(2) السنن الإلهية د. مجدي عاشور ص 250.

(3) جامع البيان للطبري (27 / 198) .



قال الحسن البصري: أخفى قوم عملهم وأخفى الله لهم ما لم ترعين ولم يخطر على قلب بشر[1] .

وفي الحديث القدسي: قال تعالى: " أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر قال أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم: "فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ" (السجدة : 17) [2] .

ـ وقال تعالى: "وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ") النور : 22) . وقال تعالى: "يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ" (التغابن : 14) .

2 ـ ترك الإنسان وإهماله في العذاب، كما أهمل الحق ولم يتبعه:

قال تعالى: "وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى" (طه : 124 ـ 126) . أخبر تعالى أن الضالين في الدنيا يحشرون يوم القيامة عمياً، فإن الجزاء أبداً من جنس العمل[3] .

وقال تعالى: "الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَذَا" (الأعراف : 51) . وقال تعالى: "وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ * وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون * وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ" (الجاثية : 32 ـ 34) .

3 ـ التهكم بالكفار والمنافقين كما كانوا يتهكمون بالمؤمنين في الدنيا:

قال تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُواْ فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاء لَضَالُّونَ * وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ * فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ" (المطففين : 29 ـ 36) .

---

(1) تفسير القرآن الكريم (3 / 260) روح المعاني (21 / 132) .

(2) مسلم في صحيحه (4 / 2174) .

(3) السنن الإلهية، د. مجدي عاشور ص 256.



وقال تعالى: "يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ" (الحديد : 13) . والشاهد في الآية قوله: "قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا"، فالظاهر من إسناد "قِيلَ" بصيغة المجهول أن قائله غير المؤمنين المخاطبين وإنما هو من كلام الملائكة السائقين للمنافقين[1] ، وتكون مقالة الملائكة للمنافقين تهكماً، إذ لا نور وراءهم، وإنما أرادوا إطماعهم ثم تخييبهم بضرب السور بينهم وبين المؤمنين، لأن الخيبة بعد الطمع أشد حسرة وهذا استهزاء كان جزاء على استهزائهم بالمؤمنين واستسخارهم بهم[2] .

ومما يؤيد أن هذا التخبط والحيرة الشديدة التي أصابت المنافقين في الآخرة هو جزاء لهم من جنس ما كانوا عليه في الدنيا أنهم كانوا كذلك في الدنيا في قلق دائم وحيرة مستمرة، وتخبط متواصل لأنهم كانوا"مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاء وَلاَ إِلَى هَؤُلاء" (النساء: 143) [3] .

رابعاً: الجزاء بجنس العمل بين العباد:

إن سنة الله في خلقه أن يكون جزاؤهم بجنس ما عملوه، وهذا أمر تكويني أقام الله عليه الدنيا والآخرة ليكون قانوناً حاكماً في المجازاة والمحاسبة وليس هذا فحسب، وإنما أراد الله عز وجل أن يكون هذا القانون وتلك السنة أمراً شرعياً تكليفياً، وقد أمر الله الناس بالتعامل به فيما بينهم، ليتحقق العدل والأمان في المجتمع بين الأفراد والجماعات والأمم، فأنزل الآيات التي توجب العمل بهذه القاعدة، وجعلها مستمرة في أبواب الشرع عامة في مسائله، وبين النبي صلى الله عليه وسلم تلك السنة بأحسن بيان وأدق

(1) السنن الإلهية د. مجدي عاشور ص 262.

(2) المصدر نفسه ص 263.

(3) المصدر نفسه ص 263.



تطبيق، وبهذا يتبين أن الشرع والقدر قد تظاهرا على تقرير هذه السنة، وتلك القاعدة والتي هي من حكمة الله البالغة في خلقه[1] . قال تعالى: "وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا" (الشورى : 40) ، وقال تعالى: "وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ" (النحل : 126) . وقال تعالى: "فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ" (البقرة : 194) .

ومن الأمثلة في القرآن الكريم في هذا الباب ما يلي:

1 . الآيات التي وردت في القصاص:

قال تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" (البقرة : 178 . 179) .

وفي هذا المعنى أيضاً يأتي قوله تعالى عن حكم القصاص في الكتب السماوية السابقة: "وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ" (المائدة : 45) .

وقد بينت السنة المطهرة تطبيق حد القصاص على الوجه الأكمل، وبما يحقق القاعدة التي تتحدث عنها، وبهذا يتبين لنا المصالح الجمة التي بنيت على مشروعية القصاص، وإقامته في المجتمع، ومن تلك المصالح زجر المعتدي ومن يحاول الاعتداء ليرتدع قبل اقترافه عمله، ومنها جبر خاطر المعتدي عليه، ومنها التفادي من ترصد المعتدى عليهم للانتقام من المعتدين أو من أقوامهم، فإبطال الحكم بالقصاص يعطل هذه المصالح ويقوض بنيان المجتمع، ويشيع الفوضى في الدولة، وينخر في قواها المتمثلة في أفرادها وطوئفها[2] .

2 . حد الحرابة والإفساد:

وبهذا المعنى أيضاً جاء حد الحرابة والإفساد في قوله تعالى: "إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا" (المائدة : 33"، وهي شاهد لما نحن فيه على تفسير ابن عباس في رواية عطاء،

(1) السنن الإلهية د. مجدي عاشور.

(2) المصدر نفسه ص 266.



وهو مذهب جمهور العلماء لأن كلمة "أَوْ" هنا ليست للتخيير، بل هي للتقسيم أو بمعنى آخر: لبيان أن الأحكام تختلف باختلاف الجنايات، فمن اقتصر على القتل قُتل، ومن قتل وأخذ المال، قُتل وصُلب، ومن اقتصر على أخذ المال قطع يديه ورجله من خلاف، ومن أخاف السبل ولم يأخذ المال نُفي من الأرض[1] .

3 . من تطبيقات ذلك العصر النبوي:

ما علمنا إياه رسول الله صلى الله عليه وسلم في كيفية مجازاة الناس بجنس أعمالهم والشاهد الصريح في ذلك ما قاله صلى الله عليه وسلم عن أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ: ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافأناه ما خلا أبا بكر، فإن له عندنا يداً يكافيه الله بها يوم القيامة[2] ، فأبو بكر ـ رضي الله عنه ـ بذل كل ما يملك ـ من مال ونفس وأهل وولد ـ لنصرة النبي صلى الله عليه وسلم، وكان عطاؤه بلا حدود، يستحق الجزاء من صاحب النعمة المطلقة، وولي كل منحة وجود، فرد النبي صلى الله عليه وسلم مكافأته لله عز وجل، ليتفضل على أبي بكر بالإنعام والإكرام، وليكون الأصل في الجزاء أن يكون من جنس العمل[3] .

والمثال الثاني في عصر النبوة: أنه لما أُسرت ابنة حاتم الطائي في أيدي المسلمين ورآها رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت له: كان أبي يفك العاني، يحمي الذمار، ويقري الضيف، ويشبع الجائع، ويفرج عن المكروب، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ولم يرد طالب حاجة. فقال صلى الله عليه وسلم: "خلوا عنها، فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق"[4] . وفي رواية: فخلى سبيلها رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: فكساني رسول الله صلى الله عليه وسلم وحملني، وأعطاني نفقة حتى خرجت إلى أخي عدي بالشام[5] .

---

(1) التفسير الكبير للرازي (5 / 666) ، السنن الإلهية ص 266.

(2) سنن الترمذي (5 / 609) حسن غريب من هذا الوجه.

(3) السنن الإلهية، مجدي عاشور ص 271.

(4) نوارد الأصول للحكيم الترمذي (2 / 314) ، شعب الإيمان للبيهقي (6 / 24) .

(5) السيرة النبوية (5 / 277) الطبقات الكبرى (1 / 322) .



لقد عاملها الرسول صلى الله عليه بجنس ما كان أبوها يعامل الناس رغم كفر أبيها، ليدلنا ذلك، على أن هذه القاعدة عامة ما لم تحرم أصلاً شرعياً، أو تعارض دليلاً قطعياً[1] .

(1) السنن الإلهية ص 271.

الفصل الثامن:

مسائل في القدر

أولاً: الحكمة في أفعال الله وشرعه .

ثانياً: التحسين والتقبيح .

ثالثاً: وجوب فعل الأصلح .

رابعاً: معنى الاستطاعة .

خامساً: لا تكليف إلا بما يطاق .

سادساً: سنة الله في الآجال .

سابعاً: قدرة الله عزوجل .



الفصل الثامن:

مسائل في القدر

أولا: الحكمة في أفعال الله وشرعه:

1 . الله الحكيم الحكم الحاكم:

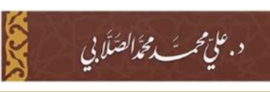
من أسماء ربنا جل وتعالى التي عرَّف بها نفسه إلى عباده، وذكرها في كتابه، وعلى ألسنة رسله وأنبيائه "الحكيم"، وقد ورد هذا الاسم "الحكيم" أربعاً وتسعين مرة في القرآن الكريم، كما في قوله عز وجل: "الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ" (البقرة : 32) ، "العَزِيزُ الحَكِيمُ" (البقرة : 129) ، "الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ" (الأنعام : 18) ، "وَاسِعًا حَكِيمًا" (النساء : 130) .

وقال تعالى: "أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً" (الأنعام : 114) . فهذا دليل على أن اسمه أيضاً "الحكم"، وقد جاء في خمسة مواضع بصيغة الجميع منها: "وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ" (الأعراف : 87) ، و"أَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ" (هود : 45) ، و"أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ" (التين : 8) .

و"الحكيم": هو الذي يُحكم الأشياء ويتقنها ويضعها في موضعها، كما قال سبحانه "صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ" (النمل : 88) .

و"الحكيم" هو الذي يضع الشئ في موضعه بقدره، فلا يتقدم ولا يتأخر ولا يزيد ولا ينقص، مع ما له في ذلك من الحكم البالغة العظيمة التي لا يأتي عليها الوصف، ولا يدركها الوهم[1] .

(1) مع الله د. سلمان العودة ص 183.





فالحكيم الذي لا يدخل تدبيره ولا شرعه خلل ولا زلل، وأفعاله وأقواله تقع في مواضعها بحكمة وعدل وسداد، فلا يفعل إلا الصواب ولا يقول إلا الحق(1) .

وأما "الحكم" فهو من له الحكم والسلطان والقدر، فلا يقع شئ إلا بإذنه وهو المدبر والمتصرِّف "كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ" (الرحمن : 29) .

و"الحكم" أيضاً من له التشريع والتحليل والتحريم، فالحكم ما شرع الله، والدين ما أمر ونهى، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه، فاجتمع في الاسم "القدر" و"الشرع" "أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ" (الأعراف : 54) .

وحين يقول: "أَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ" و"خَيْرُ الْحَاكِمِينَ"، فإن ذلك تأكيد على عدله ورحمته ووضعه الأشياء في موضعها، فليس في قدره ظلم ولا تعسُّف، وليس في شرعه محاباة ولا تحيز، بل هو حفظ للحقوق، حقوق الحاكم والمحكوم، والرجل والمرأة، والبرِّ والفاجر، والمسلم والكافر، والقوي والضعيف، وفي كل الأحوال حرباً وسِلماً، وعلى كل أحد دون استثناء، ولذا وجب على كل مسلم تحكيم كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم في دقيق أموره وجلّها على الصعيد الفردي والجماعي، والأسري، الخاص والعام، والسياسة والاقتصاد والاجتماع والإعلام، وكل شئ من حكمه وحكمته: أنه عدل لا يظلم أحداً، ولا يحمل هذا وزر ذاك، ولا يجازي العبد بأكثر من ذنبه، ولا يدع محسناً إلا أثابه على إحسانه "إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا" (الكهف : 30) (2) .

2. المراد بالحكمة:

الغايات المحمودة المقصودة بفعل الله وشرعه، وهي مقدمة في العلم والإدارة، متأخرة في الوجود والحصول، أي أنها تترتب على الأحوال والأفعال وتحصل بعدها(3) .

(1) المصدر نفسه ص 185 . 186.

(2) مع الله د. سلمان العودة ص 187 . 188.

(3) منهاج السنة (1 / 141) أعلام الموقعين (1 / 197 . 201) .





والحكمة تتضمن شيئين:

أحدهما: حكمة تعود إلى الله يحبها ويرضاها، فهي صفة له تقوم به، لأن الله لا يوصف إلا بما قام به، وهي ليست مطلق الإرادة، وإلا لكان كل مريد حكيماً ولا قائل به.

ثانيهما: حكمة تعود إلى عباده، هي نعمة يفرحون ويلتذون بها في المأمورات والمخلوقات والحكمة لا يحيط بها علماً إلا الله تعالى، وبعضها معلوم للخلق وبعضها مما يخفى عليهم.

والحكمة في أفعال الله تعالى نوعان[1] :

ـ **الأول**: **حكمة مطلوبة لذاتها**، كما في قوله تعالى: "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ" (الذاريات : 56) . وقال: "اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا" (الطلاق : 12) .

فبين الله أن الحكمة من خلقه الجن والإنس ليعبدوه وحده ولا يشركوا به شيئاً، وهذا أمر محبوب لله تعالى ومطلوب له، وكذلك بين أن من حكمة خلقه السماوات والأرض وتدبيره لهما علم العباد بقدرة الله وعلمه سبحانه.

ـ **الثاني**: **حكمة مطلوبة لغيرها**، وتكون وسيلة إلى مطلوب لنفسه ويوضحها قول الله تعالى: "وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولواْ أَهَؤُلاء مَنَّ اللّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ" (الأنعام : 53) ، فاللام في قوله: "لِّيَقُولواْ" دالة على الحكمة من قوله المذكور وهو امتحان بعض خلقه ببعض فكبراؤا القوم يأنفوم ويستكبرون عن قبول الحق عند الله رؤيتهم ضعفاء قد أسلموا فيقولون عند ذلك: "أَهَـؤُلاء مَنَّ اللّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا"، فهذا القول بعض الحكمة المطلوبة بهذا الامتحان، وهي وسيلة إلى مطلوب لنفسه، فامتحان الله لهؤلاء يترتب عليه شكر هؤلاء وكفر هؤلاء، وذلك يوجب آثار مطلوبة للفاعل من إظهار عدله ، وحكمته وعزته ، وقهره وسلطانه ، وعطائه من يستحق عطاءه ويحسن وضعه

(1) شفاء العليل لابن القيم ص 322، مسائل أصول الدين المبحوثة في علم أصول الفقه د. خالد محمد نور عبد الله (1 / 453) .





عنده ومنعه من يستحق المنع، ولا يليق به غيره، ولهذا قال الله تعالى: "أَلَيْسَ اللّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ" (الأنعام : 53) [1].

3. الحكمة الحاصلة من الشرائع:

وأما الحكمة الحاصلة من الشرائع فثلاثة أنواع:

ـ **النوع الأول: حكمة حاصلة من الأمر بفعل مشتمل على مصلحة معلومة بأصل الفطرة والعقل**، كالعدل والإحسان، والصدق، أو حاصلة من النهي عن فعل مشتمل على مفسدة معلومة بأصل الفطرة والعقل، كالظلم والكذب، فالعدل مشتمل على مصلحة العالم، والظلم يشتمل عل فسادهم، والشرع في أمره بالعدل ونهيه عن الظلم ولم يثبت للفعل صفة لم تكن ولكن لا يلزم من حصول القبح في الفعل بالعقل أن يكون فاعله معاقباً في الآخرة إذا لم يرد الشرع بذلك.

. **النوع الثاني:حكمة حاصلة من الأمر بفعل، أو النهي عن فعل بحسب اشتماله على المصلحة والمفسدة التي لا تعرف بخطاب الشرع**، فيكون الفعل قد اكتسب صفة الحسن والقبح بخطاب الشرع، كالتجرد في الإحرام والتطهر بالتراب، والسعي بين الصفاء والمروة، ورمي الجمار، ونحو ذلك.

ـ **النوع الثالث: حكمة يكون منشؤها من الأمر لا من المأمور به**، فيكون المراد من الأمر الإبتلاء والامتحان ولا يكون المراد فعل المأمور به ومثاله: أمر الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ بذبح ابنه إسماعيل ـ عليه السلام ـ فأراد الله إبتلاء خليله إبراهيم بعد أن رزقه الولد حتى يكون قلبه كله لله، ولم يكن تحقق ذبح ولده مراداً لله، وفي ذلك يقول الله تعالى: "فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاء الْمُبِينُ" (الصافات : 102 ـ 106) فلما تحقق ما أراده الله نسخ الأمر وهو لم يكن مريداً وقوع ذبح ابنه[2].

---

(1) المصدر نفسه (1 / 452) .

(2) مسائل أصول الدين المبحوثة في علم أصول الفقه (1 / 455) .





وزاد ابن القيم **نوعاً رابعاً، وهو ما نشأت المصلحة فيه من الفعل المأمور به والأمر معاً**، ومثاله: الصوم، والصلاة، والحج، وإقامة الحدود، وأكثر الأحكام الشرعية ، فإن مصلحتها ناشئة من الفعل والأمر معاً، فالفعل يتضمن مصلحة والأمر به يتضمن مصلحة أخرى، فالمصلحة فيها من وجهين[1] .

4 . الأدلة الدالة على الحكمة:

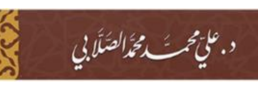
والأدلة الدالة على الحكمة كثيرة جداً ذكرها العلماء والفقهاء في كتبهم، وقد حاول ابن القيم حصرها بأنواعها . بعد أن ذكر أن آحاد الأدلة كثيرة يصعب سردها كلها. وقد أوصلها إلى إلى اثنين وعشرين نوعاً ومن هذه الأدلة:

النوع الأول: وهو أعلاها، ما ورد فيه التصريح بلفظ الحكمة ، قال تعالى: "حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ" (القمر : 5) ، أي أن الله أرى الكافرين في آياته . وهي هنا إنشقاق القمر . وأتاهم بأنباء زاجرة لهم عن غيهم وضلالهم، كل ذلك حكمة منه سبحانه لتقوم حجته على العاملين، ولا يبقى لأحد على الله حجة بعد الرسل.

النوع الثاني: ذكر ما هو من صرائح التعليل، وهو من أجل أو لأجل، قال الله تعالى: "مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ" (المائدة : 32) ، فقول "مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ" متعلق بـ"كَتَبْنَا" بمعنى: السبب في الحكم بشرعية القصاص على ابن آدم لأجل قتل ابن آدم أخاه، وكان ذلك حراسة الدنيا.

النوع الثالث: الإتيان بكي الصريحة في التعليل، كما قال تعالى: "مَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ" (الحشر : 7) . فعلل سبحانه قسمته الفئ بين الأصناف التي ذكرها كي لا يتناوله الأغنياء دون الفقراء.

(1) المصدر نفسه (1 / 455) .





وقال تعالى: "مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ" (الحديد : 22 ـ 23) .

أنا قدر المصائب والبلاء قبل أن يبرأ الأنفس والمصائب والأرض، ومصدر ذلك قدرته وحكمته البالغة التي منها أن لا يحزن عباده ولا يفرحهم بما آتاهم إذا علموا أن المصيبة مقدرة كائنة ولا بد، وقد كتبت قبل خلقهم وذلك يهون عليهم ما أصابهم[1] .

النوع الرابع: **ذكر المفعول له، وهو علة للفعل المعلل به**، قال الله تعالى: "وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ" (النحل : 89) ، فقوله: "تِبْيَانًا" ـ وما بعدها ـ الأحسن أن ينصب على أنه مفعول لأجله لدلالة قول الله تعالى: "وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" (النحل : 64) ، وقال تعالى: "وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ" (النحل : 44) ، وفي الآيتين بيان لتلك، وقال تعالى: "وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا" (الإسراء : 59) أي لأجل التخويف[2] .

النوع الخامس: **التعليل بـ"لعل"** فهي في كلام الله تأتي للتعليل المجرد لا للترجي لاستحالته عليه، فإنه إنما يكون فيما تجهل عاقبته "لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" (البقرة : 21) ، وقوله: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" (البقرة : 183) ، وقوله "لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى" (طه : 44) .

فلعلّ في المواضع المتقدمة قد أخلصت للتعليل للسبب الذي تقدم أولاً، والرجاء الذي فيها متعلق المخاطبين.

النوع السادس: **تعليله سبحانه وتعالى عدم الحكم القدري والشرعي بوجود المانع منه** .

فمن الأول قول الله تعالى: "وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاء إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ" (الشورى : 27) . بيَّن سبحانه أنه لا يوسع الدنيا ـ لبعض ـ الناس سعة تضرهم في دينهم، وهو سبحانه ينزل من رزقه بحسب ما اقتضاه لطفه وحكمته، فالمانع من بسط الرزق حصول البغي من الناس .

---

(1) مسائل أصول الدين المبحوثة في علم أصول الفقه (1 / 457) .

(2) مسائل أصول الدين المبحوثة في علم أصول الفقه (1 / 457) شفاء العليل ص 326.





ومن الثاني قول الله تعالى: "قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ" (الأعراف : 32) ، فوصف بعض الرزق بكونه طيباً مانع من الحكم بتحريمه.

النوع السابع: إنكار الله سبحانه على من زعم أنه لم يخلق الخلق لغاية ولا لحكمة بقوله تعالى: "أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ" (المؤمنون : 115) ، وقوله: "أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى" (القيامة : 36) .

والأنواع كثيرة والأصل أن يأتي التعليل بالحروف، وقد تدل عليه الأسماء والأفعال، والحق يقال أن السياق له أثر في الدلالة على العلية إن لم تكن الأدلة نصاً في العلية، فينظر فيما يحتمل التعليل وعدمه بحسب السياق[1] .

5 . الحكمة من خلق إبليس ووجود هذه الآثام والشرور في الكون:

في ذلك من الحكم ما لا يحيط بتفصيله إلا الله، نذكر منها:

- **أن يكمل الله عز وجل لأنبيائه وأوليائه مراتب العبودية** بمجاهدة الشيطان وحزبه ومخالفته ومراغمته وإغاظته وإغاظة أوليائه، والاستعاذة به سبحانه من الشيطان، والإلجاء إليه سبحانه أن يعيذهم من شره وكيده فيترتب لهم على ذلك من المصالح الدنيوية والأخروية ما لا يمكن أن يحصل لهم بدون خلق الله.

- **خوف المقربين من المؤمنين من ذنوبهم**، بعد ما شاهدوا من حال إبليس، وكيف طرد من رحمة الله تعالى لذنبه؟ فكيف يأمن المقربون بعد ذلك؟ وكيف يأمن المؤمنون الصادقون بعد ذلك؟ إن كان قد طرد إبليس بذنب كيف يعجب بعد ذلك عالم بعلمه؟

فستظل هذه العبودية ملازمة للملائكة المقربين والأنبياء والمرسلين والمؤمنين الصادقين لخوفهم من رب العالمين، لأنه طرد إبليس من رحمته بذنب وقع فيه، فالملائكة المقربون إذا ما أمر الله إسرافيل بالنفخ في الصور قالوا: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك مع أنهم لم يخالفوا الله في أمر، كما قال الله عز وجل في شأنهم: "لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ" (التحريم : 6) .

(1) مسائل أصول الدين المبحوثة في علم أصول الفقه .





وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أطَّت السماء وحق لها أن تَئط ما فيها من موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله[1] ، فهذا جبريل راه النبيُّ صلى الله عليه وسلم كالحلس البالي من شدة خوفه من الكبير المتعال، وهو أمين وحي السماء، وهكذا.

فالملائكة المقربون لما رأوا وشاهدوا ما كان من إبليس ازدادوا خوفاً ووجلاً، فكيف تستخرج العبودية إلا بمثل هذا الإبتلاء والتمحيص؟

والأنبياء والمرسلون وهم أعرف الناس بالله إزدادوا خوفاً ووجلاً من رب العالمين.

والمؤمنون الصادقون لا يغتر واحد منه بعلمه ولا بعمله، بل يظل دائماً على خوف ووجل، لأنه لا يأمن من مكر الله[2] . قال تعالى: "فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ" (الأعراف : 99) .

- **أن الله تبارك وتعالى جعله عبرة لمن خالف أمره وتكبر على طاعته وأصر على معصيته،** كما جعل ذنب أبي البشر آدم ـ عليه السلام ـ عبرة لمن ارتكب نهيه أو عصي أمره ثم تاب وندم ورجع إلى ربه، فابتلى أبوي الجن والإنس بالذنب، وجعل إبليس عبرة لمن أصر، وأقام على الذنب، وجعل آدم عبرة لمن تاب ورجع إلى ربه فلله في هذا من الحكم الباهرة والآيات الظاهر؟!.

- **أن الله تبارك وتعالى قد جعل إبليس محكّاً يمتحن به خلقه ، ليتبين به خبيثهم وطيبهم،** والله سبحانه وتعالى لا يبتلي خلقه وعباده ليعلم الخبيث من الطيب، فالله علم الخبيث والطيب أزلاً قبل أن يخلق الخبثاء والطيبين، ولكنه أراد أن يميز الخبيث من الطيب من الناس في الدنيا ويمحص الصف، ويجازي العباد وفق أعمالهم لا بمقتضى علمه فيهم[3]. قال تعالى: "مَّا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىَ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ" (آل عمران : 179) .

(1) السلسلة الصحيحة، للألباني رقم 1722.

(2) الإيمان بالقضاء والقدر، محمد حسان ص 154 شفاء العليل، لابن القيم ص 511 إلى 520.

(3) الإيمان بالقضاء والقدر، محمد حسان ص 158.



وقال تعالى: "أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ" (آل عمران : 142) .وقال تبارك وتعالى: "أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ" (البقرة : 214) .وقال تعالى: "أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ" (العنكبوت :2 ـ 3) .

- **أن يُظهر الله عز وجل كمال قدرته لخلقه**، فالله عز وجل خلق جبريل وجعله رسولاً للأنبياء، فهو أمين وحي السماء الذي به حياة الأرواح، وخلق ميكائيل، وجعله على الأرزاق والأمطار التي بها حياة الأبدان، وخلق إسرافيل ووكله بالصور الذي ينفخ فيه بأمر الله، لتحيا الأبدان مرة أخرى، ففيه حياة الأبدان بعد أماتة الله لها يوم القيامة، وخلق سائر الملائكة، وخلق إبليس والشياطين، وذلك من أعظم آيات قدرته ومشيئته وسلطانه، فإنه خالق الأضداد كالسماء والأرض، والضياء والظلام، والجنة والنار، والماء والنار، والحر والبرد، والطيب والخبيث، والضد إنما يظهر جنسه بضده، فلولا القبيح لم نعرف فضيلة الجميل، ولولا الفقر لم نعرف قدرالغنى، وخلق الله آدم من غير أب ومن غير أم، وخلق حواء من أب دون أم، وخلق عيسى من أم دون أب، وخلق سائر البشر من أب وأم، لنعلم أن الله على كل شئ قدير، إن شاء أن يخلق بغير أب وبغير أم خلق، وإن شاء أن يخلق من أب وأم خلق، فالله سبحانه وتعالى يخلق الأضداد ليظهر كمال قدرته ومشيئته تبارك وتعالى.

- أن الله سبحانه وتعالى يحب أن يشكر بحقيقة الشكر وأنواعه، ولا ريب أن أولياءه نالوا بوجود عدو الله إبليس وجنوده وامتحانهم به من أنواع شكره ما لم يكن يحصل لهم بدونه، فكم بين شكر آدم وهو في الجنة قبل أن يخرج منها، وبين شكره بعد أن ابتلي بعدوه ثم اجتباه ربه وتاب عليه وقبله.

سبحانه من خلق الخلق بحكمته وعدله، فما من شئ في الكون صغر أو كبر علمناه أو جهلناه، رأيناه أم غاب عنا إلا وهو مخلوق لله بعدله وحكمه[1] .

(1) الإيمان بالقضاء والقدر، محمد حسان ص 159.

- **أن المحبة، والإنابة، والتوكل، والصبر، والرضا إلى غير ذلك من هذه المعاني هي أحب العبودية إلى الله سبحانه وتعالى**، وهذه العبودية لا تتحقق إلا بالجهاد بكل ما تحمله الكلمة من معنى هو ذروة سنام العبودية، وأحبها إلى الرب سبحانه، فكان في خلق إبليس وحزبه قيام سوق هذه العبودية وتوابعها التي لا يحصى حكمها وفوائدها وما فيها من المصالح إلا الله، لو لم يخلق الله عز وجل إبليس، فكيف تحقق مرتبة العبودية بجهادك لنفسك ولهواك وللشيطان؟.

- **أن من أسماء الله: الحكيم**، والحكمة من صفاته سبحانه وحكمته تستلزم وضع كل شيء موضعه الذي يليق به، فاقتضت حكمته خلق المتضادات، وتخصيص كل واحد منها بما لا يليق به غيره من الأحكام والصفات والخصائص[1] .

- **أن حمده سبحانه تام كامل من جميع الوجوه**، فهو محمود على عدله ومنعه وخفضه وانتقامه وإهانته، كما هو محمود على فضله وعطائه ورفعه وإكرامه، فلله الحمد التام الكامل على هذا وهذا، وهو يحمد نفسه على ذلك كله، ويحمده عليه وملائكته ورسله وأولياؤه، ويحمده عليه أهل الموقف جميعهم، وما كان من لوازم كمال حمده وتمامه فله في خلقه وإيجاده الحكمة التامة كماله عليه الحمد التام[2] ، فتبارك الله رب العالمين وأحكم الحاكمين، ذو الحكمة البالغة والنعمة السابغة، الذي وصلت حكمته إلى حيث وصلت قدرته وما ذكرنا من هذه الحكم قطرة من بحر، وإلا فعقول البشر أعجز وأضعف وأقصر من تحيط بكمال الله وحكمته في خلقه لكل شيء[3] ، فإن كان الله تبارك وتعالى قد خلق إبليس لهذه الحكم التي وقفنا على بعضها، فلا شك أن خلق الله لغير إبليس - وهو رأس الشر - لحكم كثيرة من باب أولى، فالله تبارك وتعالى لم يُطلع خلقه إلا على بعض الحكم[4] .

(1) المصدر نفسه ص 161.

(2) شفاء العليل ص 514، الإيمان بالقضاء والقدر ، ص 161.

(3) شفاء العليل ص 239، الإيمان بالقضاء والقدر، ص 162.

(4) الإيمان بالقضاء والقدر، ص 162.



ويكفي العاقل: أن يعلم أن الله عز وجل عليم وحكيم، بهرت الألباب حكمته، ووسعت كل شيء رحمته، وأحاط بكل شيء علمه، وأحصاه لوحه وقلمه، وأن الله في قدره سراً مصوناً وعلماً، مخزوناً احترز به دون جميع خلقه، واستأثر به على جميع بريته وإنما يصل أهل العلم به وأرباب ولايته إلى جمل من ذلك، وقد لا يؤذن لهم في ذكرها، وربما كلموا الناس في ذلك على قدر عقولهم وقد سأل موسى وعيسى وعزير ربنا تبارك وتعالى عن شيء من سر القدر، وأنه لو شاء أن يطاع لأطيع، وأنه مع ذلك يعصى فأخبرهم سبحانه أن هذا سره، وفي هذا المقام تاهت عقول كثير من الخلائق[1] .

وعن عمران بن ميمون عن ابن عباس قال: لما بعث الله موسى وكلمه قال: اللهم أنت رب عظيم ولو شئت أن تطاع لأطعت، ولو شئت ألا تعصى لما عصيت وأنت تحب أن تطاع، وأنت في ذلك تعصى، فكيف هذا يا رب؟ فأوحى الله إليه: إني لا أُسأل عما أفعل وهم يسألون، فانتهى موسى[2] .

6. ما الحكمة من إيجاد الكرام الكاتبين مع أن الله يعلم كل شيء:

نقول في مثل هذه الإمور إننا قد ندرك حكمتها وقد لا ندرك فإن كثيراً من الأشياء لا نعلم حكمتها كما قال تعالى:"وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً" (الإسراء: 85) ، فإن هذه المخلوقات لو سألنا سائل ما الحكمة أن الله جعل الإبل على هذا الوجه، وجعل الخيل على هذا الوجه، وجعل الحمير على هذا الوجه، وجعل الآدمي على هذا الوجه، وما أشبه ذلك، ولو سألنا عن الحكمة في هذه الأمور ما علمناها ولو سئلنا ما الحكمة في أن الله عز وجل جعل الظهر أربعاً وصلاة العصر أربعاً والمغرب ثلاثاً وصلاة العشاء أربعاً وما أشبه ذلك ما استطعنا أن نعلم الحكمة في ذلك وبهذا علمنا أن كثيراً من الأمور الكونية وكثيراً من الأمور الشرعية تخفي علينا حكمتها وإذا كان كذلك فإنا نقول إن التماسنا للحكمة في بعض الأشياء المخلوقة أو المشروعة إن منّ الله علينا بالوصول إليها فذاك زيادة فضل وخير وعلم، وإن لم تصل إليها فإن ذلك لا ينقصنا شيئاً.

---

(1) كلام لابن تيمية، نقله القرضاوي في الإيمان بالقدر ص 82.

(2) الإيمان بالقدر، للقرضاوي ص 82.





ثم نعود إلى جواب السؤال وهو ما الحكمة في أن الله عز وجل وكل بنا كراماً كاتبين يعلمون ما نفعل؟

فالحكمة من ذلك بيان أن الله سبحانه وتعالى نظم الاشياء وقدّرها وأحكمها إحكاماً متقناً حتى إنه سبحانه وتعالى جعل على أفعال بني آدم وأقوالهم كراماً كاتبين موكلين بهم يكتبون ما يفعلون مع أن سبحانه وتعالى عالم بما يفعلون قبل أن يفعلوه ولكن كل هذا من أجل بيان كمال عناية الله عز وجل بالإنسان، وكمال حفظه تبارك وتعالى وأن هذا الكون منظم أحسن نظام ومحكم أحسن إحكام والله عليم حكيم[1] .

7. الشر لا ينسب إلى الله تعالى:

الشر لا ينسب إلى الله، قال صلى الله عليه وسلم: والشر ليس إليك[2] ، فلا ينسب الشر لا فعلاً ولا تقديراً ولا حكماً، بل الشر في مفعولات الله لا في فعله، ففعله كله خير وحكمة، ويظهر الفرق بين الفعل والمفعول في المثال التالي:

حينما يشتكي ولدك ويحتاج إلى جراحة، فالمفعول شر، ولكن الفعل خير، لأنك تريد مصلحته، ثم إن ما يقدره الله لا يكون شراً محصناً، بل في محله وزمانه فقط، فإذا أخذ الله الظالم أخذ عزيز مقتدر صار ذلك شراً بالنسبة له، أما لغيره ممن يتعظ بما صنع الله، فيكون خيراً، قال تعالى في القرية التي اعتدت في السبت"فجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ" (البقرة: 66) .

وكذا إذا استمرت النعم على الإنسان حمله ذلك على الأشر والبطر، بل إذا استمرت الحسنات ولم تحصل منه سيئة تكسر من حدة نفسه، فقد يغفل عن التوبة وينساها ويغتر بنفسه ويعجب بعمله وكم من إنسان أذنب ذنباً ثم تذكر واستغفر وصار بعد التوبة خيراً منه قبلها، لأنه كلما تذكر معصيته هانت عليه نفسه وحد من عليائها، فهذا آدم عليه ـ الصلاة والسلام ـ لم يحصل له الإجتباء والتوبة والهداية إلا

---

(1) المجموع الثمين، لابن عثيمين (1/ 168) .

(2) مسلم رقم 771.



بعد أن أكل من الشجرة وحصل منه الندم قال تعالى:"رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ" (الأعراف: 23) فقال تعالى:"ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى" (الشورى: 122).

والثلاثة الذين خلفوا بعد المعصية وبعد المصيبة التي أصابتهم حتى ضاقت عليه أنفسهم وضاقت عليهم الارض بما رحبت وصار ينكرهم الناس حتى أقاربهم، صار قريبه يشاهده وكأنه أجنبي منه . ومن شدة ما في نفسه تنكرت نفسه عليه، فبعد هذا الضيق العظيم صار لهم بعد التوبة فرح ليس له نظير أبداً، وصارت حالهم أيضاً، بعد أن تاب الله عليهم أكمل من قبل وصار ذكرهم بعد التوبة أكبر من قبل، فقد ذُكروا بأعينهم قال:"وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ" (التوبة: 118)[1] . فهذه آيات عظيمة تتلى في محاريب المسلمين ومنابرهم إلى يوم القيامة وهذا شيء عظيم، وسواء كان ذلك في الإمور الشرعية أو في الأمور الكونية.

ولكن هاهنا أمر يجب معرفته وهو أن الخيرية والشرية ليست باعتبار قضاء الله سبحانه وتعالى، فقضاء الله تعالى كله خير، حتى ما يقضيه الله من شر هو في الواقع خير، وإنما الشر في المقضي، أما قضاء الله نفسه فهو خير والدليل قول النبي صلى الله عليه وسلم : الخير بيديك والشر ليس إليك[2] . ولم يقل والشر بيدك، فلا ينسب الشر إلى الله أبداً، فضلاً عن أن يكون بيديه فلا ينسب الشر إلى الله لا إرادة ولا قضاء فالله لا يريد بقضاء الشر شراً، لكن الشر يكون في المقضي، وقد يلائم الإنسان وقد لا يلائمه، وقد يكون طاعة وقد يكون معصية، فهذا في المقضي، ومع ذلك فهو وإن كان شراً في محله فهو خير في محل آخر، ولا يمكن أن يكون شراً محضاً، حتى المقضي على كونه شراً ليس شراً محضاً، بل هو شر من وجه خير من وجه، أو شر في محل خير في محل آخر .

(1) القول المفيد على كتاب التوحيد، محمد صالح العثيمين (3/ 178) .

(2) صحيح مسلم رقم 771.



ولنضرب لذلك مثلاً: الجدب والفقر هذا شر، لكنه خير باعتبار ما ينتج عنه، قال تعالى:"ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ" (الروم: 41) والرجوع إلى الله ـ عز وجل ـ من معصيته إلى طاعته لا شك أنه خير وينتج خيراً كثيراً، فألم الفقر وألم الجدب وألم المرض وألم فقد الأنفس كله ينقلب إلى لذة إذا كان يعقبه الصلاح ولهذا قال:"لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ" .

وكم من أناس طغوا بكثرة المال وزادوا ونسوا الله ـ عز وجل ـ واشتغلوا بالمال فإذا أُصيبوا بفقر رجعوا إلى الله وعرفوا أنهم ضالون، فهذا الشر صار خيراً باعتبار آخر، كذلك قطع يد السارق لا شك أنه شر عليه لكنه خير بالنسبة لغيره، أما بالنسبة له فلأن قطعها يسقط عنه العقوبة في الآخرة وعذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وهو أيضاً خير في غير السارق فإن فيه ردعاً لمن أراد أن يسرق وفيه أيضاً حفظ للأموال، لأن السارق إذا عرف أنه إذا سرق ستقطع يده امتنع من السرقة فصار في ذلك حفظ لأموال الناس[1] .

فالله سبحانه وتعالى لا يخلق الشر المحض الذي لا خير فيه، ولا منفعة فيه لأحد، وليس له فيه حكمة ولا رحمة، ولا يعذب الناس بلا ذنب، وقد بين العلماء ما في خلقه لإبليس والحشرات والكواسر من الحكمة والرحمة، فالشيء الواحد يكون خلقه باعتبار خيراً وباعتبار آخر شراً، فالله خلق إبليس يبتلي به عباده فمنهم من يمقته ويحارب منهجه، ويعاديه ويعادي أولياءه، ويوالي الرحمن ويخضع له، ومنهم من يواليه ويتبع خطواته[2] .

ثانياً: التحسين والتقبيح:

هذا الموضوع له علاقة بالموضوع السابق، فالبحث فيه ناتج عن البحث في تعليل أفعال الله هل يحكم عليها بحكم العقل أولاً[3] ؟ إن إطلاق التحسين والتقبيح على كل فعل من جهة العقل وحده دون الشرع، أو نفي أي دور للعقل في تحسين الأفعال أو تقبيحها غير صحيح، والمذهب الصحيح في هذه المسألة أنه: ثبت بالخطاب والحكمة الحاصلة من الشرائع ثلاثة أنواع:

---

(1) القول المفيد على كتاب التوحيد (3/ 179) .

(2) القدر للأشقر ص 71.

(3) القضاء والقدر، عبد الرحمن المحمود ص 248.



1ـ أن يكون الفعل مشتملاً على مصلحة أو مفسدة ولو لم يرد الشرع بذلك، كما يعلم أن العدل مشتمل على مصلحة العالم والظلم يشتمل على فساده، فهذا النوع هو حسن قبيح، وقد يعلم بالعقل والشرع قبح ذلك، لا أنه أثبت للفعل صفة لم تكن لكن لا يلزم من حصول هذا القبح أن يكون فاعله معاقباً في الآخرة إذا لم يرد الشرع بذلك، وهذا مما غلط فيه غلاة القائلين بالتحسين والتقبيح[1] ، فإنهم قالوا: إن العباد يعاقبون على أفعالهم القبيحة ولو لم يبعث الله إليهم رسولا وهذا خلاف النص، قال تعالى: "وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً" (الإسراء: 15) .

2. أن الشارع إذا أمر بشيء صار حسناً، وإذا نهى عن شيء صار قبيحاً، واكتسب صفة الحسن والقبح بخطاب الشارع.

3. أن يأمر الشارع بشيء ليمتحن به العبد، هل يطيعه أم يعصيه، ولا يكون المراد فعل المأمور به، كما أمر إبراهيم بذبح ابنه "فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ" (الصافات: 103) حصل المقصود ففداه بالذبح .

وكذلك حديث الابرص والأقرع والأعمى لما بعث الله إليهم من سألهم الصدقة، فلما أجاب الأعمى قال الملك: أمسك عليك مالك فإنما ابتليتم، فرضي الله عنك وسخط على صاحبيك[2] ، فالحكمة منشؤها من نفس الأمر لا من نفس المأمور به، فهذه الاقسام الثلاثة هي الصواب[3] .

وهناك نقطة مهمة وهي: إن ادراك العقل لحسن الفعل أو قبحه أكثره مجمل، فالعقل لا يحيط بالوجوه والاعتبارات للأفعال كلها ولذلك كان الشرع وإرسال الرسل لابد منه خاصة مع غلبة الهوى،

(1) المصدر نفسه ص 255.

(2) البخاري رقم 3464، فتح الباري (6/ 500) .

(3) مجموع فتاوى ابن تيمية (8/ 434 . 436) .

ولكن هذا لا يمنع وجود قدر مشترك بين العقلاء في إدراك حسن بعض الأفعال أو قبحها[1] ، وإذا تتبعنا نصوص الشرع لوجدنا الدلالة على أن هذا مركوز في الفطرة ومن الأدلة على ذلك:

1 . ما قال تعالى:"وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ" (الأعراف: 28 . 29) . فالفاحشة هنا هي طواف المشركين عراة بالبيت رجالاً ونساء، فبين الله أنه لا يأمر به لقبحه، ثم بين الله أنه لا يأمر إلا بما هو حسن[2] .

2 . وقال الله تعالى:"قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ" (الأعراف: 33) ، ففي الآية علق الله التحريم ببعض الأفعال لفحشها.

3 . وقال الله تعالى:"وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً" (الإسراء: 32) ، فالله عز وجل علل النهي عن قرب الزنا بكونه فاحشة[3] .

4 . وقال الله تعالى:"قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ" (الأعراف: 32)، فوصف الله بعض رزقه بأنه طيب، وأن هذا الوصف يقتضي عدم تحريمه، فدل على ثبوت وصف للفعل هو منشأ للمصلحة مانع من التحريم، وهذا هو التحسين العقلي عينه[4] .

5 . لقد ضرب الله أمثلة عقلية كثيرة دالة على حسن التوحيد ومدح فاعله، وعلى قبح الشرك وذمه وذم فاعله، والأدلة فيه كثيرة، فمن ذلك قول الله تعالى:"ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاء فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاء تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" (الروم: 28) .

---

(1) مفتاح دار السعادة، نقلاً عن مسائل أصول الدين (1/ 382) .

(2) مدارج السالكين، لابن القيم (1/ 249) .

(3) مسائل أصول الدين المبحوثة في علم أصول الفقه (1/ 483.

(4) مدارج السالكين، لابن القيم (1/ 249) .



ففي هذا المثل بيان من الله للمشركين أنهم إذا كانوا لا يرضون أن يكون مماليكهم شركاء لهم، فكيف ساغ لهم أن يجعلوا المخلوقين شركاء للخالق فالخالق أولى بالتنزيه ونفي الشريك في العبادة[1] ، فلو كان الشرك قبيحاً لمجرد النهي عنه، لاكتفى بالنهي عنه فقط، ولم يذكر مثلاً يدل على قبحه في العقول والفطر[2] .

ومنه **قول الله تعالى**:"أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلاَ يُنقِذُونِ * إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ" (يس: 23 ـ 24) . فلم يحتج الله عليهم بمجرد الأمر، بل احتج عليهم بالعقل ومقتضى الفطرة، لأن من لا يملك دفع ضر عن نفسه فأولى أن لا يقدر على دفعه عن غيره، فكانت عبادته من كان نافعاً ضلالاً مبيناً[3] .

إن مجرد معرفة حسن الأفعال وقبحها بالعقل قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم لا يترتب عليه الثواب والعقاب، كما أننا نثبت حسن الأفعال وقبحها لذاتها ومعرفة العقل لذلك، كما أنه له مدخل في معرفة حسن بعض الأفعال وقبحها، وأما الثواب على فعل الأفعال الحسنة فإنما هو من قبل الشارع والعقاب على فعل الأفعال القبيحة، إنما هو من قبل الشارع، فلا يجب شئ على المكلف قبل ورد الشرع، والثواب والعقاب متوقف على بعثة الرسل، كما قال تعالى: "وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً" (الإسراء : 15) .

وتحقيق الحق في هذا الأصل العظيم أن القبح ثابت في نفسه، وأنه لا يعذب الله عليه إلا بعد إقامة الحجة بالرسالة[4] .

والحق الذي لا يجد التناقض إليه السبيل إن الأفعال في نفسها حسنة وقبيحة، كما أنها نافعة وضارة، ولكن لا يترتب عليها ثواب ولا عقاب، إلا بالأمر والنهي، وقبل ورود الأمر والنهي لا يكون العمل القبيح موجباً للعقاب مع قبحه في نفسه، والأوثان، والكذب، والزنا، والظلم، والفواحش كلها في ذاتها، والعقاب عليها مشروط بالشرع[5] .

(1) مسائل أصول الدين المبحوثة في علم أصول الفقه (1/ 484) .

(2) مسائل أصول الدين المبحوثة في علم أصول الفقه (1/ 484) .

(3) المصدر نفسه (1/ 484) ، مفتاح دار السعادة (2/ 333) .

(4) مفتاح دار السعادة، لابن القيم (2 / 7) .

(5) مدارج السالكين (1 / 247) .



فالله سبحانه وتعالى لا يعذب عباده إلا بعد إقامة الحجة عليهم ببعثة الرسل عليهم فضلاً منه تعالى ورحمة، قال تعالى: "وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ" (القصص : 59) .

وهذا من فضل الله ورحمته أن لا يعذب الناس إلا بعد إقامة الحجة عليهم ببعثة الرسل، قال الله تعالى: "رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ" (النساء : 165) ، فهذه الآية تدل دلالة صريحة على أن الحجة إنما قامت بالرسل وأنه بعد مجيئهم لا يكون للناس على الله حجة، وهذا يدل على أنه تعالى لا يعذب الناس قبل مجيء الرسل إليهم، لأن الحجة حينئذ لم تقم عليهم، فالصواب إثبات الحسن والقبح عقلاً ونفي التعذيب على ذلك إلا بعد بعثة الرسل، فالحسن والقبح العقلي لا يستلزم التعذيب، وإنما يستلزمه مخالفة المرسلين[1] .

ومن الآيات الدالة دلالة صريحة على معرفة العقل حسن الأفعال وقبحها وأنها في ذاتها حسنة وقبيحة قول الله تعالى: "يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ" (الأعراف : 127) وذلك لأن المعروف الذي يأمرهم به تعالى هو ما تعرفه وتقر بحسنه العقول والفطر السليمة وأن المنكر الذي ينهاهم عنه تعالى هو ما تنكره العقول والفطر السليمة وتقر بقبحه[2] ، ويدل على ذلك أيضاً قوله تعالى في نفس الآية: "وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ"، فهذه الآية تدل دلالة صريحة في أن الحلال كان طيباً قبل حله، وأن الخبيث كان خبيثاً قبل تحريمه[3] .

إن الطيب إذا أحل من الشارع فقد اكتسب طيباً آخر إلى طيبه، فصار طيباً من الوجهين معاً،

(1) مجموع الفتاوي (8 / 435) دار السعادة (2 / 39) .

(2) منهج السلف والمتكلمين، جابر إدريس علي (1 / 142) .

(3) المصدر نفسه (1 / 142) .

وكذلك القبيح إذا نهى الشارع عنه اكتسب قبحاً إلى قبحه، فصار قبيحاً من الوجهين معاً[1] ، وذلك لأن حسن الأفعال وقبحها ثابتان لذاتها، ويكتشف ذلك بالعقل والشرع معاً[2] .

ثالثاً: وجوب فعل الأصلح :

هذه المسألة متفرعة عن مسألة التحسين والتقبيح العقليين، معتقدنا في هذه المسألة: إنه لا يجب فعل الأصلح على الله تعالى، بل له أن يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد، فالله أمر العباد بما فيه صلاحهم، ونهاهم عما فيه فسادهم، وأن فعل المأمور به مصلحة عامة لمن فعله، وأن إرسال الرسل مصلحة، وإن كان فيه ضرر على بعض الناس لمعصيته، ففعل المأمور به وترك المنهي عنه مصلحة لكل فاعل وتارك .

وأما نفس الأمر وإرسال الرسل فمصلحة عامة للعباد، وإن تضمن شراً لبعضهم وهكذا سائر ما يقدره الله ـ تعالى ـ تغلب فيه المصلحة والرحمة والمنفعة، وإن كان في ضمن ذلك ضرر لبعض الناس، فلله في ذلك حكمة أخرى.. وإن كان في بعض ما يخلقه ما فيه ضرر لبعض الناس، أو هو سبب ضرر ـ كالذنوب ـ فلابد في كل ذلك من حكمة ومصلحة لأجلها خلقها، وقد غلبت رحمته غضبه[3] .

رابعاً : معنى الإستطاعة:

هذه المسألة من أهم المسائل في باب القدر، لأنها تتعلق بقدرة العبد واستطاعته التي جعلها الله مناط التكليف، ويتعلق بها أمران مهمان:

أحدهما: هل للعبد قدرة يفعل أولاً ؟.

والثاني: هل استطاعته قبل الفعل فقط أو معه فقط، أو هي قبل الفعل وبعده؟

وتحدث العلماء في هذه المسألة بالتفصيل فقالوا:

(1) مدارج السالكين (1 / 249 ـ 250) ، منهج السلف والمتكلمين (1 / 143) .

(2) منهج السلف والمتكلمين (1 / 143) .

(3) القضاء والقدر، عبد الرحمن المحمود ص 259.

أ . فهناك استطاعة للعبد بمعنى الصحة والوسع، والتمكن وسلامة الألآت، وهي التي تكون مناط الأمر والنهي، وهي المصححة للفعل، فهذه لا يجب أن تقارن الفعل، بل قد تكون قبله متقدمة عليه، وهذه الاستطاعة المتقدمة صالحة للضدين، ومثال هذه الاستطاعة قوله تعالى:"وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً" (آل عمران: 97) ، فهذه الاستطاعة قبل الفعل، ولو لم تكن إلا مع الفعل لما وجب الحج إلا على من حج، ولا عصى أحد بترك الحج، ولا كان الحج واجباً على أحد قبل الإحرام، بل قبل فراغه، ومن أمثلتها قوله تعالى:"فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ" (التغابن: 16) . فأمر بالتقوى بمقدار الاستطاعة، ولو أراد الاستطاعة المقارنة لما وجب على أحد من التقوى إلا ما فعل فقط، إذ هو الذي قارنته تلك الاستطاعة[1] ، وهذه الاستطاعة هي مناط الأمر والنهي، والثواب والعقاب، وعليها يتكلم الفقهاء، وهي الغالبة في عرف الناس[2] .

ب . وهناك الاستطاعة التي يجب معها وجود الفعل، وهذه هي الاستطاعة المقارنة للفعل الموجبة له، ومن أمثلتها قوله تعالى:"مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ" (هود: 20) . وقوله:"وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا * الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاء عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا" (الكهف: 100 . 101) .

فالمراد بعدم الاستطاعة مشقة ذلك عليهم، وصعوبته على نفوسهم فنفوسهم لا تستطيع إرادته، وإن كانوا قادرين على فعله لو أرادوا، وهذه حال من صده هواه أو رأيه الفاسد عن استماع كتب الله المنزلة، واتباعها، وقد أخبر أنه لا يستطيع ذلك، وهذه الاستطاعة هي المقارنة الموجبة له[3] . وهذه الاستطاعة هي الاستطاعة الكونية التي هي مناط القضاء والقدر، وبها يتحقق وجود الفعل[4] .

(1) القدر، ابن تيمية ص 372.

(2) القضاء والقدر، المحمود ص 269.

(3) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية (1/ 61) .

(4) القضاء والقدر ص 270.



وبذلك نثبت نوعي الاستطاعة، سواء التي هي مناط التكليف، وهذه تكون قبل الفعل، وبها يتعلق الشرع حيث لا يكلف غير المستطيع، والأخرى التي تكون مع الفعل، فهذه يتحقق الفعل بها وتكون بقدرة العبد وفعله، لكنها لا تقع إلا موافقه للقضاء والقدر(1) .

خامساً : لا تكليف إلا بما يطاق:

لم يكلف الله تعالى الخلق إلا بما يطيقونه، ولا يطيقون إلا ما كلفهم، وهو تفسير "لا حول ولا قوة إلا بالله" نقول: لا حيلة لأحد وتحوّل لأحد ولا حركة لأحد عن معصية الله، إلا بمعونة الله ولا قوة لأحد على إقامة طاعة الله والثبات عليها إلا بتوفيق الله تعالى، قال تعالى:"لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا" (البقرة: 286) ، وقال تعالى:"لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا" (الانعام: 152) .

سادساً : سنة الله في الآجال:

إن الله سبحانه وتعالى قدّر آجال الخلائق، بحيث إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، قال تعالى:"إِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ" (يونس: 49) . وقال تعالى:"وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله كِتَابًا مُّؤَجَّلاً" (آل عمران: 145) .

وعن عبد الله بن مسعود قال: قالت أم حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم: اللهم أمتعني بزوجي رسول الله، وبأبي أبي سفيان وبأخي معاوية، قال: فقال النبي صلى الله عليه وسلم، قد سألت الله لآجال مضروبة، وأيام معدودة، وأرزاق مقسومة، لن يعجل شيئاً قبل حله، ولن يؤخر شيئاً عن حله، ولو كنت سألت الله أن يعيذك من عذاب النار، وعذاب القبر: كان خيراً وأفضل(2) .

فالمقتول ميت بأجله، فعلم الله تعالى وقدّر وقضى أن هذا يموت بسبب المرض وهذا بسبب القتل،

---

(1) المصدر نفسه ص 272.

(2) المنحة الإلهية في تهذيب شرح الطحاوية، عبد الآخر حماد الغنيمي ص 320.



وهـذا بسـبب الهـدم، وهـذا بالحـرق، وهـذا بالغـرق، إلى غـير ذلـك مـن الأسـباب، والله خلـق المـوت والحياة، وخلق سبب الموت والحياة[1] .

ولما قتل في غزوة أحد من المسلمين من قتل، وأخذ المنافقون من ذلك قضية يلوكها بألسنتهم، ويلوون المسلمين على خروجهم لقتال المشركين وإن إخوانهم الذين قتلوا، لو كانوا عندهم، ولم يخرجوا للقتال، ما ماتوا وما قتلوا فرد عليهم القرآن أبلغ الرد، مندداً بهم وبموقفهم، فقال:"وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ" (آل عمران: 154) . وقال عز وجل:"وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ" (فاطر: 11) . والمعمر: من يعيش عمراً طويلاً في العادة، ومن ينقص من عمره: من يعيش عمراً قصيراً، قدره بعضهم بما قبل الستين، والضمير في "عُمُرِهِ" عائد على الجنس لا على العين، لأن الطويل العمر في الكتاب وفي علم الله لا ينقص من عمره.

وجاء عن ابن عباس في تفسير الآية: ليس أحد قضيت له بطول العمر والحياة إلا وهو بالغ ما قدرت له من العمر، وقد قضيت ذلك له، فإنما ينتهي إلى الكتاب الذي قدرت لا يزاد عليه، وليس أحد قدرت له أنه قصير العمر والحياة، ببالغ العمر "أي الطويل" ولكن ينتهي إلى الكتاب الذي كتبت له فذلك قوله:"وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ" يقول: كل ذلك في كتاب عنده.

وبعضهم فسّر " وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ" بمعنى ذهب العمر قليلاً قليلاً ؛ سنة بعد سنة، وشهراً بعد شهر، وجمعة بعد جمعة، ويوماً بعد يوم، وساعة بعد ساعة، الجميع مكتوب عند الله في كتابه[2] .

(1) المصدر نفسه ص 320.

(2) تفسير ابن كثير (2 / 550) .



ومنهم من فسر نقص العمر بقلة البركة فيه، والزيادة في العمر بإلقاء البركة فيه[1]، فقد جاء في الحديث الشريف: من سره أن يبسط له في رزقه، أو ينسأ له في أثره[2]، فليصل رحمه[3].

فالآجال سواء كانت قصيرة أو طويلة مقدرة من أسبابها، وليست منفصلة عنها، كما يتوهم عوام الناس.

فمن قدر له طول الأجل، قدر له أنه سيتهيأ له من الأسباب، من توافر الغذاء الصحي، وطيب الهواء النقي، وممارسة العمل البدني أو الرياضي والابتعاد عما يضر بالبدن تناوله، من المسكرات أو المخدرات، أو اللأشياء الضارة كالتدخين، أو طول السهر، أو ارتكاب المحرمات، فهو بهذه الأسباب يطول عمره، وهذه الأسباب مقدرة كمسبباتها.

ومن قدر له قصر العمر، قدر له أن يبتلي بسوء التغذية، أو سوء التهوية أو الإصابة بعدوى أو تناول ما يضره ويؤذيه، أو يصيبه حادث في طريق، بأن يموت في كارثة عامة كالزلزال، أو يقتله قاتل عمداً أو خطأ، فيموت وينتهي أجله بواحد من هذه الأسباب أو غيرها، ولكنه مات في وقته المقدر له، وفي "أجله المسمى" عند الله، فلا انفصال في الأقدار بين المسببات وأسبابها بحال[4].

وقد يشكل على بعض الناس مواضع في كتاب الله وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول بعضهم: إذا كان الله علم كل ما هو كائن، وكتب ذلك كله عنده في كتاب الله فما معنى قوله: "يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ" (الرعد: 39). وإذا كانت الأرزاق والأعمال والآجال مكتوبة لا تزيد ولا تنقص فما توجيهكم لقوله صلى الله عليه وسلم: من سرّه أن يُبسط له في رزقه ويُنسأ له في أثره فليصل رحمه[5]. وكيف تفسرون قول نوح لقومه: "أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى" (نوح: 3 ـ 4).

(1) الإيمان بالقدر، للقرضاوي ص 60.

(2) أي في أجله.

(3) متفق عليه كما في اللؤلؤ والمرجان رقم 1657.

(4) الإيمان بالقدر، للقرضاوي ص 60.

(5) متفق عليه ،كما في اللؤلؤ والمرجان رقم 1657، والقضاء والقدر، عمر سليمان الأشقر ص 66.





والجواب أن الأرزاق والأعمار نوعان:

نوع جرى به القدر ، وكتب في أم الكتاب، فهذا لا يتغير ولا يتبدل.

ونوع أعلم الله به ملائكته ، فهذا هو الذي يزيد وينقص، ولذلك قال تعالى:"يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ" (الرعد: 39) ، وأم الكتاب هو اللوح المحفوظ الذي قدر الله فيه الإمور على ما هي عليه، ففي كتب الملائكة يزيد العمر وينقص وكذلك الرزق بحسب الأسباب، فإن الملائكة يكتبون له رزقاً وأجلاً، فإذا وصل رحمه زيد له في الرزق والأجل، وإلا فإنه ينقص له منهما[1] .

والأجل أجلان: أجل مطلق يعلمه الله، وأجل مقيد فإن الله يأمر الملك أن يكتب لعبده أجلاً، فإن وصل رحمه، فيأمره بأن يزيده في أجله ورزقه والملك لا يعلم أيزاد له في ذلك أم لا، لكن الله يعلم ما يستقر عليه الأمر، فإذا جاء الأجل لم يتقدم ولم يتأخر[2] .

سابعاً: قدرة الله عز وجل:

القدر والقدرة والمقدار على الشيء: القدرة عليه، وقدرت الشيء: أقدره قدراً، من التقدير، وفي الحديث: فإن غمّ عليكم فأقدروا له[3] . وقال تعالى:"وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ" (الزمر: 67) أي: ما عظمّوا الله حق تعظيمه[4] .

والقدير: أبلغ في الوصف بالقدرة من "القادر" و"المقتدر": من أقتدر وهو أبلغ.

وقد ورد اسم الله "القادر" سبحانه اثنتي عشرة مرة خمس منها بصيغة الجمع، كقوله تعالى:"قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ" (الأنعام: 65) . وقال تعالى:"وَإِنَّا عَلَى أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ" (المؤمنون: 95) . وقال تعالى:"أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ" (يس: 81) . وقال تعالى:"فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ" (المرسلات: 23).

(1) مجموع فتاوى ابن تيمية (8/ 540) ، القضاء والقدر، عمر الأشقر ص 67.

(2) المصدر السابق (8/ 517) ، القضاء والقدر، عمر الأشقر ص 67.

(3) مع الله، سلمان العودة ص 233، البخاري رقم 1900.

(4) مع الله ص 233.





وورد اسم الله "القدير" سبحانه خمساً وأربعين مرة منها قوله تعالى:"أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِبِكُمُ اللهُ جَمِيعًا إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (البقرة: 148) ، وقال تعالى:"إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوَءٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا" (النساء: 149) . وقال تعالى:"يُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (المائدة: 40) . وقال تعالى:"وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ" (الحج: 39) .

وورد اسم "المقتدر" في قوله سبحانه :"وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا" (الكهف: 45) . وقال تعالى:"فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ" (القمر: 42) . وقال تعالى:"فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ" (القمر: 55) .

والله هو القادر على كل شيء، لا يعجزه شيء ولا يفوته مطلوب، بخلاف خلقه، فهو سبحانه لا يتطرّق إلى العجز ولا يعترضه فتور.

"والقادر" سبحانه هو من يتيسر له ما يريد على ما يريد لظهور أفعاله، ولا يظهر الفعل اختياراً إلا من قادر غير عاجز، كما قال سبحانه:"وَلَوْ شَاء اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (البقرة: 20) . فوصف نفسه بالقدرة على كل شيء في هذا الموضع، لأنه حذر المنافقين بأسه وسطوته، وأخبرهم أنه محيط بهم، "والقدير" هو "القادر"، كما أن "العليم" هو "العالم" "والقدير" سبحانه كامل القدرة، فبقدرته أوجد الموجودات وبقدرته دبّرها وبقدرته سوّاها وأحكمها، وبقدرته يحيي ويميت ويبعث العباد للجزاء وبقدرته يقلب القلوب على ما يشاء ويريد[1] .

قال الشاعر:

وهو القدير وليس يُعجزُه إذا ما رام شيئاً قط ذو سلطـان[2]

---

(1) مع الله ص 235.

(2) المصدر نفسه ص 234.



الفصل التاسع

ثمار الإيمان بالقدر

1 . الإقدام على عظائم الأمور.

2 . القضاء على الكسل التواكل .

3 . الثبات في مواجهة الطغيان.

4 . الصبر عند نزول المصائب

5 . الرضا والقناعة بما قسم .

6 . العز في طلب الحوائج

7 . السكينة وراحة النفس وسكون القلب .

8 . المؤمن لا يعيش بين "لو" و"ليت" .

9 . الخوف والحذر من الله .

10 . الخلاص من الشرك .

11 . الاستقامة .

12 . القضاء على الأمراض التي تعصف بالمجتمعات

13 . الاستعانة بالله .

14 . الاعتماد على الله وحده .

15 . الاعتراف بفضل الله .

16 . الاستغناء بالخالق عن الخلق .

17 . الاعتراف بالذنب والمسارعة للمغفرة والتوبة .

الفصل التاسع

ثمار الإيمان بالقدر

للإيمان بالقدر ـ كما جاء في القرآن والسنة ـ وكما فهمه سلف الأمة ثمار مباركة وآثار طيبة، في عقلية المسلم ونفسيته، في وجدانه وأرادته، وعلاقته بنفسه وبربه، وبمن حوله، وما حوله، وفي الحياة الإسلامية بصفة عامة، يشهد بها كل ذي لب، ويلمسها كل ذي بصر، لما لها من تأثير إيجابي في السلوك الخاص والعام وفي السلم والحرب، وفي اليسر والعسر والرخاء والشدة، والنعماء والبأساء[1] .

ومن أهم هذه الثمار والآثار:

1. الإقدام على عظائم الأمور:

الإيمان بالقدر في حياة المؤمن أقوى حافز للعمل الصالح والإقدام على عظائم الإمور بثبات وعزم وثقة ولقد كانت الصورة الصحيحة للإيمان بالقدر في حياة الأجيال الأولى من المسلمين هي التي صنعت تلك العجائب التي سجلها تاريخهم والتي ثبتت الدعوة في الأرض ونشرتها على نطاق واسع في فترة وجيزة من الزمن لا مثيل لها ـ في قصرها ـ في التاريخ، وهي التي أقامت هذا البناء الشاهق في كل ميدان من ميادين الحياة.

نعم ، لقد كان من أول ثماره الباهرة ذلك الاستبسال في الجهاد في سبيل الله وفي سبيل نشر الدعوة[2] ، فقد كانوا لا يخافون الموت، لأنهم يوقنون بأن الآجال محددة لا تتأخر ولا تتقدم لحظة واحدة ولما كانت هذه العقيدة راسخة في قلوب المؤمنين ثبتوا في القتال وعزموا على مواصلة الجهاد، فجاءت

(1) الإيمان بالقدر، للقرضاوي ص 88.

(2) ركائز الإيمان، محمد قطب ص 426.



ملاحم تحمل أروع الأمثلة على الثبات والصمود أمام الأعداء مهما كانت قوتهم[1] ، ومهما كان عددهم، لقد أيقنوا بقول الله تعالى:"قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ" (التوبة: 51) .

فإذا كان لا يصيب الإنسان إلا ما كتبه الله له، سواء كان قاعداً في بيته أو في ميدان القتال، ففيم الجبن وفيم الفرار من القتال خوفاً من الموت؟ فهل القتال هو الذي يقتل؟ أم قدر الله لإنسان ما أن يموت في لحظة معينة في حالة معينة هو الذي يميته؟ وإذا كان كتب عليه الموت فهل يعفيه منه ألا يذهب إلى القتال؟ وإن كان لم يكتب عليه فهل يقتله الذهاب إلى الميدان؟

هكذا كان الأمر في حسّهم فأقبلوا على الجهاد في ثقة وثبات وعزم، وكان منهم ما سجله التاريخ من مواقف رائعة من الشجاعة والصبر على الشدة مع الإطمئنان إلى قدرة الله سبحانه.

ولقد وعى المسلمون كذلك الدرس الذي نزل عليهم في سورة آل عمران بشأن غزوة أحد، حين قال المنافقون :"هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ" فرد عليهم :"قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ" وحين قالوا :"لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا" فرد عليهم :"قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ" وحين قال الله للمؤمنين :"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ اللّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ * وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى الله تُحْشَرُونَ" (آل عمران: 156 ـ 158) . وعوه فأيقنوا أنه لا يموت إلا من كتب عليه الموت ولو كان في مضجعه في بيته وأنه إن لم يكن كُتب عليه الموت في تلك اللحظة فكل هول الحرب وكل سهام الأعداء وسيوفهم لن تصيبه بالموت.

(1) الإيمان بالقضاء والقدر، عبد الرحمن المحمود ص 454.



وأيقنوا كذلك أنه حين يكون الإنسان في القتال ويموت . بقدر من الله . فأمامه المثوبة والأجر وهو الكاسب بهذا القدر الذي قدره له الله، لذلك كان القتال في سبيل الله أمراً محبباً إلى نفوسهم، فنصروا الله فنصرهم وثبت أقدامهم[1] ، كما وعد سبحانه :"إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ" (محمد: 7) .

كذلك كان الإيمان بالقدر على هذه الصورة هو حافزهم للانسياح في الارض، سواء لنشر الدعوة، أو طلب الرزق، أو اكتشاف المجهول من الأرض، فكان لهم في كل ميدان نشاط ملحوظ وآثار مشهودة، ففي نشر الدعوة نجد أن الإسلام قد امتد من المحيط غرباً إلى الهند شرقاً في فترة من الزمن لا تتجاوز قرن وهي سرعة لا مثيل لها في التاريخ، وأنتشر مع الإسلام سلطان الدولة الإسلامية بما أرهب أعداء الله ، وانتشر معه كذلك اللسان العربي بسرعة تفوق الوصف في انتشار اللغات في الأرض .

وفي ميدان طلب الرزق تدفقت الثروات على العالم الإسلامي حتى صار المسلمون أغنى أمة في الأرض، لأنهم يجوبون البحار والقفار تجاراً وصناعاً فيأتي إليهم المال من كل سبيل وتتاح معه فرصة العمران والحضارة، وفي ميدان الكشف الجغرافي كان المسلمون هم الذين ارتادوا البقاع المجهولة . أول من ارتادها . ورسموا لها الخرائط الجغرافية الدقيقة التي مكنت "فاسكوا داجاما" و"ماجلان" فيما بعد من القيام برحلاتهما حول أفريقيا وآسيا، كما كشفوا منابع النيل ورسموا خرائطه التي جاء المكتشفون الأوربيون على هداها من بعد ليزعموا أنهم هم المكتشفون، وهكذا امتدت الحياة بجميع صورها شرقاً وغرباً بهذا الدافع الإيماني العميق[2] .

2. القضاء على الكسل والتواكل:

إن جموع المسلمين قد انحرفت في العصور الأخيرة في عقيدة القدر بشأن ما يجري في الحياة الدنيا، لقد أصابهم التواكل فيما أصابهم من انحرافات، وأدى بهم التواكل إلى العجز والكسل والقعود، لقد فهم . بعض الناس . من معنى أنه لا يحدث في الكون إلا ما يريده الله، أنه لا حاجة للإنسان أن يعمل، فإن قدر الله ماض سواء عمل الإنسان أو لم يعمل، فلا ضرورة للكد في طلب الرزق لأن: مالك سوف يأتيك ، ولا ضرورة للنشاط والحركة لأنها في زعمهم ضد التوكل الصحيح ، كما فهموا كذلك من معنى

(1) ركائز الإيمان، محمد قطب ص 427.

(2) ركائز الإيمان، محمد قطب ص 248.

التسليم لقدر الله القعود عن تغيير ما أصاب الإنسان من فقر أو مرض أو جهل أو حتى معصية، لأن كل ذلك مقدر من عند الله فلا ينبغي مقاومته إنما ينبغي الاستسلام له! وهذا التواكل وهذه السلبية ليست من الإسلام في شيء على الإطلاق، وإلا فلو كانت من الإسلام فكيف غابت عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعن صحبه الكرام الذين تلقوا عنه المفاهيم الصحيحة لهذا الدين[1] ؟

والفهم الصالح لم يفهم قط من عقيدة القدر هذا الفهم الخاطئ الذي يلغي مسئولية الإنسان عن عمله؟

لقد فهم المسلمون من درس أحد أن ما وقع لهم كان مقدراً لهم عند الله، ولكنه كان في ذات الوقت من عند أنفسهم بسبب معصيتهم للرسول صلى الله عليه وسلم :"أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَـذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ" (آل عمران: 165 . 166) .

فقد وعى المسلمون من الدرس أن كون الهزيمة تمت بقدر الله لا ينافي أنها في ذات الوقت "مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ" أي: أن وقوع شيء بقدر الله لا ينفي مسئولية الإنسان عن خطئه، فليس لمخطئ أن يهز كتفيه ويقول: إنما وقع الخطأ مني بقدر من الله، ولقد قدّر الله ألا أخطئ لما أخطأت فلست مسئولاً عن الخطأ، كلا: إن الإيمان بالقدر لا يتنافى فيه أن يكون الحدث مقدراً من عند الله، وأن يكون الإنسان مسئولاً عن عمله في ذات الوقت.

كذلك وعى المسلمون من وقعة أحد وأحداثها درساً آخر، إن عليهم أن يسلموا لقدر الله، ولكن ما معنى التسليم؟ هل معناه القعود عن تغيير ما أصابهم، ولو أنه قد أصابهم بقدر من الله؟ إنما قال لهم:"فَأَثَابَكُمْ غُمَّاً بِغَمٍّ لِّكَيْ لاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ" (آل عمران: 153) .

(1) ركائز الإيمان، محمد قطب ص 430.

فالحزن يفتت العزيمة ويوهنها، وهو الأمر الذي لا يريده الله لهم، فوجّههم إلى التسليم بقدر الله لكيلا يحزنوا وتتفتت عزيمتهم، ولكن هل طلب منهم الاستسلام لما أصابهم بمعنى عدم العمل على تغييره[1] .

إن أحداث المعركة سارت في خط مختلف تماماً، فقد جمع الله الرسول صلى الله عليه وسلم مشاعر المسلمين وعزائمهم كما جمع صفوفهم ليدخل بهم المعركة مرة أخرى على أثر الهزيمة. وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى:"الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ * الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللّهِ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ" (آل عمران: 172 . 174) .

لقد صرفَ الله أعداءهم فلم تقع المعركة، ولكنهم كانوا قد استعدوا للقتال تماما، استعدوا له بأرواحهم، ومشاعرهم، فجمعوا عزائمهم رغم تخويف الناس لهم وعزموا على لقاء العدو متكلين على الله، وهذا هو التوكل الحق الذي يطلبه الله من المسلمين.

إن القعود عن تغيير الأمر الواقع بحجة أنه واقع بقدر من الله جهالة عظيمة لا تنبغي للمسلم، نعم إن ما وقع بالفعل قد وقع بقدر من الله . وإن كان لا ينفي مسئولية الإنسان . ولكن من يعلم ما يكون عليه قدر الله غداً، بل في اللحظة القادمة، هل علم ذلك القاعد المتواكل أن قدر الله القادم لن يكون مغايراً لقدر الله الواقع؟ أليس في الاحتمال أن الله قد قدر للحظة القادمة قدراً غير القدر الذي كان في اللحظة الماضية؟ فكيف يقعد عن العمل بزعم أنه متوكل على الله مستسلم لقدره[2] ؟

إن الفهم الصحيح للإيمان بالقدر، لا ينفي مسئولية الإنسان عن عمله، ولا يدعو إلى القعود عن تغيير الواقع، يدعوا إلى التواكل وعدم الأخذ بالاسباب انتظاراً لقدر الله وذلك هو الفهم الذي ينبغي أن

(1) المصدر نفسه ص 431.

(2) ركائز الإيمان، محمد قطب ص 432.



يعود المسلمون إليه، ليزول عنهم ما أصابهم من فقر وجهل ومرض وتواكل وعجز، وما ترتب على ذلك كله من غلبة عدوهم عليهم، وهوائهم على أنفسهم وعلى الناس[1] .

3. الثبات في مواجهة الطغيان:

ومن ثمار الإيمان بالقدر، أنه يهب صاحبه ثباتاً ورسوخاً في مقاومة الباطل ومواجهة الظلم والطغيان، وإنكار المنكر، لا يهاب فرعوناً متألهاً ولا طاغوتاً متجبراً، وذلك أن الناس عادة يخافون على أمرين نفيسين عندهم وهما:

العمر والرزق والعمر محتوم، والرزق مقسوم ولهذا وقف المؤمنون في وجه الطغاة والجبارين، ولم يعبأوا بجبروتهم ولم يهنوا أمام قوتهم وطغيانهم وفي عصرنا رأينا العلماء والدعاة الشامخين يواجهون المستعمرين، وأذناب المستعمرين من الملوك والرؤساء، لا يبالون بما يصيبهم في سبيل الله[2] .

فالإيمان بالقدر من أعظم ما دفع المجاهدين إلى الإقدام في ميدان النزال غير هيابين ولا وجلين، وكان الواحد منهم يطلب الموت في مظانه، ويرمي بنفسه في مضائق يظن فيها هلكته، ثمّ تراه يموت على فراشه، فيبكي أن لم يسقط في ميدان النزال شهيداً وهو الذي كان يقتحم الأخطار والأهوال[3] ، فهذا خالد بن الوليد لما حضرته الوفاة وأدرك ذلك بكى وقال: ما من عمل أرجى عندي بعد لا إله إلا الله، من ليلة شديدة الجليد في سرية من المهاجرين، بتها وأنا متترس والسماء تنهل عليّ، وأنا انتظر الصبح حتى أغير على الكفار، فعليكم بالجهاد، لقد شهدت كذا وكذا زحفاً، وما في جسدي موضع شبر إلا وفيه ضربة سيف أو رمية بسهم أو طعنة برمح، وها أنذا أموت على فراشي حتف أنفي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء، لقد طلبت القتل في مظانه، فلم يقدّر لي إلا أن أموت على فراشي[4] ، وقد تصدى خالد لطغيان الفرس والروم معاً.

(1) المصدر نفسه ص 433.

(2) الإيمان بالقدر، للقرضاوي.

(3) القضاء والقدر، عمر الاشقر ص 112.

(4) سير أعلام النبلاء للذهبي (1/ 382) ، عمر بن الخطاب للمؤلف ص 351.



4. الصبر عند نزول المصائب:

ومن ثمرات الإيمان بالقدر الصبر عند نزول المصائب، فالمؤمن بالقدر لا يسيطر عليه الجزع، والفزع، ولا يستبد به السخط والهلع، بل يستقبل مصائب الدهر بثبات،كثبات الجبال فقد استقر في اعماقه، قول الله تعالى:"مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ" (الحديد: 22 . 23) [1] .

فالإيمان بالقدر من أعظم الأدوية التي تعين المؤمن على الشدائد والمصائب والبلايا، فهذه ثمرة من أعظم ثمرات الإيمان بالقدر[2] ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغرس في نفوس أفراد الأمة الإسلامية هذا الإيمان ويرشدهم ويعلمهم كيف يتعاملوا مع المصائب والشدائد، فعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما، قال: كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فأرسلت إليه إحدى بناته تدعوه وتخبره أن صبياً لها أو ابناً لها في الموت، فقال للرسول: أرجع إليها فأخبرها أن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مسمى[3] .

ففي قوله صلى الله عليه وسلم: إن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مسمى: معناه الحث على الصبر والتسليم لقضاء الله تعالى وتقديره أن هذا الذي أخذ منكم كان له لا لكم فلم يأخذ إلا ما هو له، فينبغي أن لا تجزعوا كما لا يجزع من استردت منه وديعة، وقوله صلى الله عليه وسلم :"وله ما أعطى" معناه أن ما وهبه لكم ليس خارجاً عن ملكه بل هو سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء، وقوله صلى الله عليه وسلم: "وكل شيء عنده بأجل مسمى" معناه: أصبروا ولا تجزعوا فإن كل من يأت قد انقضى أجله المسمى فمحال تقدمه أو تأخره عنه، فإذا علمتم هذا كله فأصبروا واحتسبوا ما نزل بكم

(1) الإيمان بالقدر، للقرضاوي ص 91.

(2) الإيمان بالقدر، محمد حسان ص 250.

(3) البخاري رقم 6228، مسلم 923.





والله أعلم، وهذا الحديث من قواعد الإسلام المشتملة على جمل من أصول الدين وفروعه والآداب(1)، والمراد بأصول الدين هنا الإيمان بالقضاء والقدر(2) .

ومن الأذكار التي علمها رسول الله صلى الله عليه وسلم للأمة قوله صلى الله عليه وسلم: **لا إله إلا الله وحده لا شريك له اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد**(3) . وفي الحديث استحباب هذا الذكر عقب الصلوات، لما اشتمل عليه من ألفاظ التوحيد ونسبة الأفعال إلى الله والمنع والإعطاء وتمام القدرة(4) .

والمسلم يرضى ويسلم ويسلي نفسه بالصبر الجميل عند نزول المصائب، **قال عز وجل**:"وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ * أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ" (البقرة: 155 . 157) .

وتعلم الصحابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الدعاء العظيم، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو علمته أحداً من خلقك أو أنزلته في كتابك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرجاً**" .

قال: فقيل يا رسول الله ألا نتعلمها؟

فقال: "**بلى ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها**" (5) .

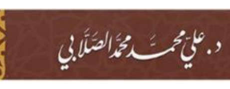
(1) شرح صحيح مسلم، للنووي (6/ 224 . 225) .

(2) المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار (2/ 816) .

(3) البخاري رقم 844، مسلم رقم 593.

(4) فتح الباري (2/ 332 . 333) .

(5) سلسلة الأحاديث الصحيحة (1/ 383) ، رقم 199.





5. الرضا والقناعة بما قسم الله:

ومن ثمار الإيمان بالقدر: **رضا المؤمن بما قسم الله، وقناعته بما رزق الله**، وهذا بثمر ثمرات طيبة في نفسية المؤمن وحياته.

أولها: غنى النفس ، فمن الناس من لو أوتي وادياً من ذهب لابتغى ثانياً، ولو أوتي ثانياً ، ولو أُوتي ثانياً لتمنى ثالثاً، ومثله كجهنم يقال لها: هل امتلأت؟ وتقول: هل من مزيد؟

والغنى الحقيقي ليس إلا غنى النفس الذي قال عنه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: "**ليس الغنى عن كثرة الغرض، إنما الغني عن النفس**" [1] . وقال صلى الله عليه وسلم: "**أرض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس**" [2] .

وقال الشاعر:

إن الغنى هو الغنى بنفسه ... ولو أنه عار المناكب حاف

ما كل ما فوق البسيطة كافياً ... وإذا قنعت فبعض شئ كاف

ولا يعرف هذا الغنى النفسي إلا من رضى بما قسمه الله، وقنع به.

والثاني: الإجمال في الطلب: فهو يسعى في رزقه، ويكدح في حياته، ولكن بإجمال واعتدال، وليس كأولئك الذين يلهثون أثناء النهار والليل مكدودي الأجسام، مشتتي القلوب، مهمومي النفوس، لا يشعرون بهدوء بال، ولا براحة نفس، ولا بإطمئنان فكر، فإن حصلوا على المزيد إزدادوا لهثاً وهما إن أخفقوا امتلئوا نكداً وغماً[3] ، وفي الحديث إن روح القدس نفث في روعي: أن نفساً لن تموت حتى تستكمل أجلها، وتستوعب رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب[4] .

وثالثها: ألا يتطلّع إلى ما ليس في وسعه وليس من شأنه، ويرضى بما وهب الله له مما لا يستطيع تغييره وفي حدود ما قدر له يجب أن يكون نشاطه وطموحه، فلا يعيش متمنياً ما لا يتيسر له، متطلعاً إلى ما وهب لغيره ولم يوهب له، وذلك كتمني الشيخ أن يكون له قوة الشباب، وتطلع المرأة الدميمة إلى

---

(1) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان رقم 624.

(2) صحيح الجامع الصغير رقم 100.

(3) الإيمان بالقدر، للقرضاوي ص 93.

(4) صحيح الجامع الصغير رقم 2085.





الحسناء في غيرة وحسد، ونظرة الشاب القصير إلى الرجل الطويل في حسرة وتلهف، وطموح البدوي الذي يعيش في أرض فقراء بطبيعتها إلى رفاهية الحياة وأسباب النعيم، وكما حدث في عهد الرسول حين تمنى النساء أن يكن لهن ما للرجال، فأنزل الله: "وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُواْ اللّهَ مِن فَضْلِهِ" (النساء : 23) (1) .

إن الإيمان بالقدر يبعث إلى القناعة وعزة النفس والإجمال في الطلب وترك التكالب على الدنيا والتحرر من رق المخلوقين وقطع الطمع مما في أيديهم، والتوجه بالقلب إلى رب العالمين، وهذا أسمى فلاحه ورأس نجاحه، قال الشاعر:

أفادتني القنـــاعة كل عز وهل عز أعز من القناعة

فصيرها لنفسك رأس مال وصير بعدها التقوى بضاعة

تجز ربحاً وتغنى عن بخيل وتنعم في الجنان بصبر ساعة (2)

6 . العز في طلب الحوائج:

ومن ثمار الإيمان بالقدر، أن يطلب المؤمن حاجته عند من هي عنده بعزة نفس لا يطأطئ رأسه ولا يذل نفسه ولا يدني ظهره لمخلوق، إن الله تعالى كتب العزة للمؤمن فلا ينبغي له أن يفرط فيها، قال عز وجل: "وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ" (المنافقون : 8) .

فلا يحل لمؤمن أن يذل نفسه لمخلوق مثله من أجل حاجة عنده، فقد علم النبي صلى الله عليه وسلم ابن عمه ـ عبد الله بن عباس ـ هذه الكلمات العظيمة: "احفظ الله يحفظك/ احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، وأعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك

(1) الإيمان بالقدر، للقرضاوي ص 94.

(2) الوسطية في القرآن الكريم، للمؤلف ص 343.





بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعت على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف[1] .

7. السكينة وراحة النفس وسكون القلب:

فهذه الأمور من ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر، وهي هدف منشود، فكل من على وجه البسيطة يبتغيها ويبحث عنها، وإنك لتجد عند خواص المسلمين من العلماء العاملين، والعباد القانتين المتبعين، من سكون القلب وطمأنينة النفس ما لا يخطر على بال ولا يدور حول ما يشبهه خيال، فلهم في ذلك الشأن القدح المعلى والنصيب الأوفى، فهذا أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز يقول: أصبحت ومالي سرور إلا في مواضع القضاء والقدر[2] .

وهذا ابن تيمية يقول: إن في الدنيا جنة ، من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة[3] ، ويقول مقولته المشهورة التي قالها عندما اقتيد إلى السجن: ما يصنع أعدائي بي أنا جنتي وبستاني في صدري، أينما رحلت فهي معي لا تفارقني، أنا حبسي خلوة وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة[4] .

بل إنك تجد عند عوام المسلمين من سكون القلب وراحة البال، وبرد اليقين ما لا تجده عند كبار الكتاب والمفكرين والأطباء من غير المسلمين، فكم من الأطباء غير المسلمين على سبيل المثال من يعجب، ويذهب به العجب كل مذهب، وذلك إذا كان لديه مريض مسلم واكتشف أنه مصاب بداء خطير .كالسرطان . مثلاً فترى هذا الطبيب يحتار في كيفية إخبار هذا المريض ومصارحته بعلته، فتجده يقدم رجلاً ويؤخر الأخرى، وتجده يمهد الطريق، ويضع المقدمات، كل ذلك خشية من ردة فعل المريض إزاء هذا الخبر، وما أن يعلمه بمرضه ويخبره بعلته، إلا ويفاجأ بأن هذا المريض يستقبل هذا الخبر بنفس راضية وصدر رحب، وسكينة وهدوء، لقد أدهش كثيراً من هؤلاء إيمان المسلمين بالقضاء والقدر فكتبوا

(1) سنن الترمذي رقم (2516) حسن صحيح.

(2) سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن الحكم ص 97.

(3) الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية، لمرعي الحنبلي ص 34.

(4) شيخ الإسلام ابن تيمية، جهاده ودعوته أحمد القطان ص 101.





في هذا الشأن معبرين عن دهشتهم، مسجلين شهادتهم بقوة عزائم المسلمين، وارتفاع معنوياتهم، وحسن استقبالهم لصعوبات الحياة[1] ، فهذه شهادة حق من قوم حرموا الإيمان بالله وبقضائه وقدره.

ومليحة شهدت لها ضراتها والفضل ما شهدت به الأعداء

ومن هؤلاء الكتاب الذين كتبوا في ذلك . الكاتب المشهور "ر. ن. سي. بودلي" مؤلف كتابي "رياح على الصحراء" و"الرسول" وأربعة عشر كتاباً أخرى، والذي أورد رأيه "دبل كارينجي" في كتابه "دع القلق وأبدأ الحياة" في مقالة بعنوان "عشت في جنة الله" يقول بودلي: في عام 1918م وليت ظهري العالم الذي عرفته طيلة حياتي، ويممت شطر أفريقيا الشمالية، الغربية، حيث عشت بين الأعراب في الصحراء وقضيت هنالك سبعة أعوام، وأتقنت خلالها لغة البدو، وكنت أرتدي زيهم وآكل من طعامهم، واتخذ مظاهرهم في الحياة، وغدوت مثلهم أمتلك أغناماً وأنام كما ينامون في الخيام، وقد تعمقت في دراسة الإسلام حتى إنني ألفت كتاباً عن محمد صلى الله عليه وسلم وعنوانه "الرسول"، وكانت تلك الأعوام السبعة التي قضيتها مع هؤلاء البدو الرحل من أمتع سني حياتي، وأحفلها بالسلام، والإطمئنان والرضا بالحياة، وقد تعلمت من عرب الصحراء كيف أتغلب على القلق، فهم . بوصفهم مسلمين . يؤمنون بالقضاء والقدر، ساعدهم هذا الإيمان على العيش في أمان، وأخذ الحياة مأخذاً سهلاً هيناً، فهم لا يتعجلون أمراً، ولا يلقون بأنفسهم بين براثن الهم قلقاً عل أمر، إنهم يؤمنون بأن " ما قدر يكون" وأن الفرد منهم "لَّن يُصِيبَه إِلاَّ مَا كَتَبَ اللّهُ لَه"، وليس معنى هذا أنهم يتواكلون أو يقفون في وجه الكارثة مكتوفي الأيادي كلا " [2] .

ثم أردف قائلاً: ودعني أضرب لك مثلاً لما أعنيه، هبت ذات يوم عاصفة عاتية حملت رمال وادي "الرون" في فرنسا وكانت العاصفة حارة شديدة الحرارة، ولكن العرب لم يشكو إطلاقاً، فقد هزوا أكتافهم، وقالوا كلمتهم المأثورة "قضاء مكتوب"، لكنهم ما أن مرت العاصفة حتى اندفعوا إلى العمل

(1) الإيمان بالقضاء والقدر، محمد إبراهيم الحمد ص 32.

(2) الوسطية في القرآن الكريم، للمؤلف ص 344.



بنشاط كبير فذبحوا صغار الخراف قبل أن يودي القيظ بحياتهم، ثم ساقوا الماشية إلى الجنوب نحو الماء، فعلوا هذا كله في صمت وهدوء، دون أن تبدو من أحدهم شكوى، قال رئيس القبيلة الشيخ: لم نفقد الشئ الكثير، فقد كنا خليقين بأن نفقد كل شئ، ولكن حمداً لله وشكراً، فإن لدينا نحو أربعين في المائة من ماشيتنا، وفي استطاعتنا أن نبدأ بها عملنا من جديد[1] .

وثمة حادثة أخرى، فقد كنا نقطع الصحراء بالسيارة يوماً فانفجرت إحدى الإطارات، وكان السائق قد نسي استحضار إطار إحتياطي، وتولاني الغضب وانتابني القلق والهم، وسألت صاحبي من الأعراب: ماذا وعسى أن نفعل؟ فذكرني بأن الاندفاع إلى الغضب لن يجدي فتيلاً، بل هو خليق أن يدفع الإنسان إلى الطيش والحمق، ومن ثم درجت بنا السيارة وهي تجري على ثلاث إطارات ليس إلا، لكنها ما لبثت أن كفت عن السير، وعلمت أن البنزين قد نفذ، وهنالك أيضاً لم تثر ثائرة أحد من رفاقي الأعراب، ولا فارقهم هدوؤهم، بل مضوا يقطعون الطريق سيراً على الأقدام[2] .

وبعد أن استعرض بودلي تجربته مع عرب الصحراء علق بقوله: قد اقنعتني الأعوام السبعة التي قضيتها في الصحراء بين الأعراب الرحل ـ أن مرض النفوس، والسكيرين الذي يحفل بهم أمريكا، وأوربا ـ ما هم إلا ضحايا المدنية التي تتخذ السرعة أساساً لها، إنني لما أعان شيئاً من القلق قط وأنا أعيش في الصحراء، بل هنالك في جنة الله وجدت السكينة والقناعة والرضا[3] .

وأخيراً ختم كلامه بقوله: وخلاصة القول أنني بعد انقضاء سبعة عشر عاماً على مغادرتي الصحراء ـ ما زلت أتخذ موقف العرب حيال قضاء الله، فأقبل الحوادث التي لا حيلة لي فيها بالهدوء والامتثال والسكينة، ولقد أفلحت هذه الطباع التي اكتسبتها من العرب في تهدئة أعصابي أكثر مما تفلح آلاف المسكنات والعقاقير[4] .

---

(1) دع القلق وأبدأ الحياة، ديل كارنيجي ص 290، 291.

(2) المصدر نفسه ص 290 ـ 291.

(3) المصدر نفسه ص 291 ـ 295.

(4) الوسطية في القرآن الكريم ص 346.



8. المؤمن لا يعيش بين "لو" و"ليت":

إن من أهم عوامل القلق الذي يفقد الإنسان سكينة النفس وأمنها ورضاها هو تحسره على الماضي وسخطه على الحاضر وخوفه من المستقبل.

إن بعض الناس تنزل به النازلة من مصائب الدهر، فيظل شهوراً وأعواماً آلامها، ويستعيد ذكرياتها القائمة، متحسراً تارة، متمنياً أخرى، شعاره: ليتني فعلت،، وليتني تركت، وأني فعلت كذا لكان كذا ، وقديماً قال الشاعر:

ليت شعري وأين من "ليتُ"؟ إن "ايتا" وإن "لوّا" . غناء

ولذا ينصح الأطباء النفسانيون والمرشدون الاجتماعيون، ورجال التربية، ورجال العمل، أن ينسى الإنسان آلام أمسه، ويعيش في واقع يومه، فإن الماضي بعد أن ولَّى لا يعود.

ما مضى فات، والمؤمل غيب ولك الساعة التي أتت فيها

وقد صور هذا المعنى أحد المحاضرين بإحدى الجامعات بأمريكا تصويراً بديعاً لطلبته حين سألهم: كم منكم مارس نشر الخشب؟ فرفع كثير من الطلبة .. أصابعهم، فعاد يسألهم: وكم منكم مارس نشر نشارة الخشب؟ فلم يرفع أحد منهم إصبعه، وعندئذ قال المحاضر: بالطبع لا يمكن لأحد أن ينشر نشارة الخشب، فهي منشورة فعلاً. وكذلك الحال مع الماضي: فعندما ينتابكم القلق لأمور حدثت في الماضي، فاعلموا أنكم تمارسون نشر النشارة!!

وقد نقل هذا التصوير "ديل كارينجي" في كتابه "دع القلق وأبدأ الحياة"، كما نقل قول بعضهم: لقد وجدت أن القلق على الماضي لا يجدي شيئاً تماماً، كما لا يجديك أن تطحن الطحين، ولا أن تنشر النشارة، وكل ما يجديك إياه القلق هو: أن يرسم التجاعيد على وجهك، أو يصيبك بقرحة في المعدة[1] .

ولكن الضعف الإنساني يغلب على الكثيرين، فيجعلهم يطحنون المطحون، وينشرون المنشور، ويبكون على أمس الذاهب، ويعضون على أيديهم أسفاً على ما فات، ويقلبون حسرة ما مضى، وأبعد الناس عن الاستسلام لمثل هذه المشاعر الأليمة، والأفكار السقيمة هو المؤمن الذي قوي يقينه بربه، وآمن بقضائه، وقدره فلا يسلم نفسه فريسة للماضي وأحداثه، بل يعتقد أنه أمر قضاه الله كان لا بد أن ينفذ، وما أصابه من قضاء الله لا يقابل بغير الرضا والتسليم[2] .

---

(1) الإيمان بالقدر، للقرضاوي ص 97، دع القلق ص 173.

(2) الإيمان بالقدر، للقرضاوي ص 97.





إن شعار المؤمن دائماً: "قدر الله، وما شاء فعل، الحمد لله على كل حال"، وبهذا لا يأس على ما فات ولا يحيا في خضم أليم من الذكريات، وحسبه أن يتلو قوله تعالى: "مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" (التغابن : 11) . وقال صلى الله عليه وسلم: "المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير"، أحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شئ فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان"[1] .

فقد أمر المؤمن في هذا الحديث بالحرص على ما ينفعه سواء في دينه أم دنياه، والاستعانة بالله على ذلك فهو الذي يهيء له الأسباب، ويزيل من طريقه العوائق، كما قال تعالى: "إِيَّاكَ نَعْبُدُو إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ" (الفاتحة : 5) .

وقال الشاعر:

إذا لم يكن عون من الله للفتى　　　فأول ما يجنى عليه اجتهاده

ومن العجز المذموم هنا: إلقاء الأحمال على القدر والاحتجاج به في الإعفاء من المسئولية، وقديماً قيل: من دلائل العجز كثرة الإحالة على المقادير .

وحديثاً قال الشاعر الفيلسوف الدكتور محمد إقبال: المسلم الضعيف يحتج بقضاء الله وقدره، أما المسلم القوي يعتقد أنه قدر الله الذي لا يغلب وقضاؤه الذي لا يرد.

(1) مسلم رقم (2664) .



وقد روي أن بعض الصحابة ـ في زمن الفتوح الإسلامية ـ سأله أحد قادة الفرس: من أنتم؟ وما حقيقتكم؟

فقال له: نحن قدر الله، ابتلاكم الله بنا، وابتلانا بكم، فلو كنتم في سحابة في السماء لصعدنا إليكم، أو لهبطتم إلينا[1] .

إن من وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم للمسلم إذا أصابه شئ من شدائد الدنيا وابتلاؤاتها ـ وما أكثرها ـ ألا يسلم نفسه للتحسر والأسى على ما فاته، فيصبح ويمسي، وهو يمضغ كلمات الأسى والأسف، ويقول: لو أني فعلت كذا لكان كذا على سبيل التحسر والتمني، ويجتر الذكريات الحزينة، بل أمره أن يرد الأمر هذا إلى قدر الله، ويسلم أمره وقضائه قائلاً: قدر الله وما شاء الله فعل، معتبراً أن الخير فيما اختاره له، ثم هو لا يقدر على غير ذلك، وليتجه ـ بعد ذلك ـ للمستقبل ويعمل ويبني وينتج، لا إلى "اللَّولَوَة" التي يقول فيها "لو أني فعلت، ولو أني تركت" فإن "لو" هذه "لو" المتمنية والمتحسرة تفتح عمل الشيطان، وعمله ليس وراءه إلا الضياع والخسران[2] .

9 ـ الخوف والحذر من الله:

فالمؤمن بالقدر على حذر من الله، قال تعالى: "فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ" (الأعراف : 99) .

فقلوب العباد دائمة التقلب والتغير، والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، والفتن التي توجه سهامها إلى القلوب كثيرة، والمؤمن يحذر دائماً أن يأتيه ما يضله كما يخشى أن يختم له بخاتمة سيئة، وهذا لا يدفعه إلى التكاسل والخمول، بل يدفعه إلى المجاهدة الدائبة للاستقامة والإكثار من الصالحات ومجانبة المعاصي والموبقات، كما يبقى قلب العبد معلقاً بخالقه، يدعوه ويرجوه ويستعينه ويسأله الثبات على الحق، كما يسأله الرشد والسداد[3] .

(1) الإيمان بالقدر للقرضاوي ص 100.

(2) الإيمان بالقدر للقرضاوي ص 101.

(3) القضاء والقدر د. عمر الأشقر ص 111.

10 . الخلاص من الشرك:

لا يتم توحيد الله إلا لمن أقرَّ أن الله وحده الخالق لكل شئ في الكون، وأن إرادته ماضية في خلقه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فكل المعذبين بالقدر لم يوحدوا ربهم، ولم يعرفوه حق معرفته.

والإيمان بالقدر مفرق طريق بين التوحيد والشرك، فالمؤمن بالقدر يُقرُّ بأن هذا الكون وما فيه صادر عن إله واحد ومعبود واحد، ومن لم يؤمن هذا الإيمان فإنه يجعل من دون الله آلهة وأرباباً(1) .

11 . الاستقامة:

والإيمان بالقدر من أكبر العوامل التي تكون سبباً في استقامة المسلم وخاصة في معاملته للآخرين، فحين يقصر في حقه أحد أو يسيء إليه، أو يرد إحسانه بالإساءة أو ينال من عرضه بغير حق، تجده يعفو ويصفح، لأنه يعلم أن ذلك مقدر، وهذا إنما يحسن إذا كان في حق نفسه، أما في حق الله فلا يجوز العفو ولا التعلل بالقدر، لأن القدر إنما يحتج به في المصائب لا في المعايب(2) .

والإيمان بالقدر يجعل الإنسان يمضي في حياته على منهج سواء لا تبطره النعمة، ولا تيئسه المصيبة، فهو يعلم أن كل ما أصابه من نعم وحسنات من الله، لا بذكائه وحسن تدبيره "وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ" (النحل: 53) ، ولا يكون حاله حال قارون الذي بغى على قومه واستطال عليهم بما أعطاه الله من كنوز وأموال.

قال تعالى:"إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي" (القصص: 76 . 78) .

(1) المصدر نفسه ص 110.

(2) القضاء والقدر للمحمود ص 457.

ويكون المؤمن بالقدر على الأستقامة في حالة السراء والضراء[1] .

12. القضاء على الأمراض التي تعصف بالمجتمعات:

الإيمان بالقدر يقضي على كثير من الأمراض التي تعصف، بالمجتمعات وتزرع الأحقاد بين المؤمنين، وذلك مثل رذيلة الحسد، فالمؤمن لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله، لأنه هو الذي رزقهم وقدر لهم ذلك، وهو يعلم حين يحسد غيره إنما يعترض على المقدور، وهكذا فالمؤمن يسعى لعمل الخير، ويحب للناس ما يحب لنفسه، فإن وصل إلى ما يصبو إليه حمد الله وشكره على نعمه، وإن لم يصل إلى شيء من ذلك صبر ولم يجزع، ولم يحقد على غيره ممن نال من الفضل ما لم ينله، لأن الله هو الذي يقسم الارزاق فيعطي ويمنع وكل ذلك ابتلاء وامتحان منه سبحانه وتعالى ـ لخلقه[2] .

قال ابن سيرين: ما حسدت أحداً على شيء من أمور الدنيا، لأنه إن كان ـ أي هذا الرجل ـ من أهل الجنة، فكيف أحسده على شيء من أمر الدنيا وهو مصيره إلى الجنة وإن كان ـ هذا الرجل ـ من أهل النار فكيف أحسده على شيء من أمور الدنيا، وهو يصير إلى النار[3] .

فالحسد يحرق صاحبه، والمحسود قد يُصابُ بالعين إن كانت العين خبيثة لأن النبي صلى الله عليه وسلم يقول: إن العين[4] . وقال صلى الله عليه وسلم: "**العين حق، ولو كان شيء سابق القدر، سبقته العين**" [5] .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تقاطعوا، وكونوا عباد الله إخوانا**" [6] .

---

(1) القضاء والقدر ، للأشقر ص 110.

(2) القضاء والقدر ، للمحمود ص 453.

(3) مختصر منهاج القاصدين ص 169.

(4) القضاء والقدر، محمد حسان ص 268.

(5) مسلم، رقم 2188.

(6) البخاري رقم 6065، مسلم رقم 2559.



وعلاج الحسد بالرضى بالقضاء والقدر، وتارة بالزهد في الدنيا، وتارة بما يتعلق بتلك النعم من هموم الدنيا وحساب الآخرة، فيتسلى المؤمن بذلك ولا يعمل بمقتضى ما في النفس أصلاً ولا ينطق، فإذا فعل ذلك لم يضره ما وضع في جبلته[1] . يعني: إذا لم يحول الذي في نفسه إلى كلمات حاقدة حاسدة أو إلى أفعال حاقدة حاسدة لا يضره ما تحدث به النفس أحياناً، فالنفس قد جبلت على مثل هذا[2] .

فالذي يؤمن بالقدر يحمل قلباً نظيفاً طاهراً من الغل والحقد والحسد والغش والضغينة لإخوانه، لأنه إن نظر إلى أخ من إخوانه ووجده في نعمة فهو يعلم يقيناً أن الذي أنعم عليه بهذا هو الله، فهو يحب لأخيه النعمة ويتضرع إلى الله سبحانه وتعالى الذي رزق أخاه أن يرزقه بما رزق أخاه .

فهذه كلها أمراض القلب لا تداوى إلا بالإيمان بالله سبحانه وتعالى[3] ، والمؤمن بالقدر يعلم بأن الله يعطي ويمنع لحكمه، فإن من العباد من لا ينفعه إلا الغنى، ولو أفقره الله لأفسده ذلك، ومن العباد من لا يصلحه إلا الفقر، ولو أغناه الله لأفسده ذلك، ومن العباد من لا يصلحه إلا الصحة، ولو أسقمه الله لأفسده ذلك ومن العباد من لا يصلحه إلا المرض ولو صح لأفسده ذلك فلا يوجد شيء في الكون بدون حكمة وبغير حكمة، فالله هو الحكيم الخبير، سواء علمنا الحكمة أم جهلناها، فالله جل وعلا يقدر بحكمة وعلم[4] .

13. الإستعانة بالله:

ومن ثمار الإيمان بالقدر يعلم العبد يقيناً أن الأمر كله بيد الله خلقاً ومشيئة وتقديراً وإيجاداً، فالمستعان على حصول المراد هو الله وحده دون غيره، ولهذا فهو يستعين بالله على حصول مراده، ولأمر ما كانت سورة الفاتحة تقرأ في كل صلاة، بل لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب، كما جاء في الحديث الشريف

(1) القضاء والقدر، محمد حسان ص 273.

(2) القضاء والقدر، محمد حسان ص 273، مختصر منهاج القاصدين ص 169 . 170.

(3) الإيمان بالقضاء والقدر، محمد حسان ص 268.

(4) الإيمان بالقضاء والقدر ، المصدر نفسه ص 276.





وفي هذه السورة الكريمة، قوله تعالى:"إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ" (الفاتحة: 5) ، فإذا استعان بالله وباشر السبب وحصل المقصود فهذا من فضل الله وإن لم يحصل المقصود لم ييأس المسلم فقد يكون في تأخير حصول المطلوب خير لا تعرف وجهه، فالله يعلم ونحن لا نعلم، وما نعلمه من حكمته تعالى شيء قليل للغاية بالنسبة لما لا نعرفه من هذه الحكمة وعليه ـ أي على المسلم ـ أن يجدد السعي مستعيناً بالله ولا يعجز عن ذلك ولا يقبل لو إني فعلت كذا كان كذا، فإن هذا الكلام لا يفيد شيئاً وإنما يفتح باباً لعبث الشيطان[1] .

14. الاعتماد على الله وحده:

وصاحب الإيمان الصحيح بالقدر يباشر الاسباب بيده ولكن اعتماده على الله وحده لا على السبب، وهكذا كان حال سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

فقد اختفى صلى الله عليه وسلم في الغار وهذا منه صلى الله عليه وسلم مباشرة لسبب الخلاص من المشركين ولكن ما كان اعتماده في الخلاص من المشركين على هذا السبب ـ ولا على غيره من الأسباب ـ ولكن كان اعتماده على الله وحده، قال تعالى:"ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا" (التوبة: 40) . فثقته صلى الله عليه وسلم واطمئنانه وسكينته وأمله في الخلاص، إنما كان ذلك بسبب تلك المعية الخاصة المتأنية من اعتماده على الله لا بسبب الاختفاء بالغار.

وفي معركة بدر بعد أن نظم صلى الله عليه وسلم الجيش وباشر الاسباب المادية للمعركة رجع إلى العريش المنصوب له يدعو ربه ويكثر من الدعاء لأنه يعلم صلى الله عليه وسلم أن النصر بيد الله والاعتماد في تحصيله يجب أن يكون على الله لا على الأسباب التي باشرها وإن كان لابد من مباشرتها، وهذا هو التوكل الصحيح الذي هو من ثمرات الإيمان الصحيح بالقدر، ومن ثمرات التوكل كفاية الله "وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ" (الطلاق: 3)[2] .

---

(1) القضاء والقدر للبيهقي مقدمة عبد الكريم زيدان ص 30.

(2) القضاء والقدر للبيهقي مقدمة عبد الكريم زيدان ص 32.





15. الاعتراف بفضل الله:

والإيمان بالقدر يجعل موقف صاحبه عند فعل الحسنات موقفاً صحيحاً سليماً تترتب عليه طهارة قلبه من أرجاس كثيرة وبالتالي يستقيم سلوكه وتزكوا أخلاقه.

وتفصيل ذلك أن صاحب الإيمان بالقدر يشاهد القدر ويستحضره في ذهنه عند فعل الحسنات وعمل الصالحات وهذه المشاهدة تثمر في نفسه الاعتراف بأن ما صدر منه وهو بمحض فضل الله عليه ليس له فيه شيء، وهذا يؤدي بدوره إلى قمع نوازع الكبر والغرور والعجب بنفسه والمن على الناس ونحو ذلك من الأقذار القلبية، لأن هذه الأقذار إنما تكون في الإنسان لاعتقاده أن فيه من معاني الامتياز على غيره ما يدعوه إلى التكبر عليهم والعجب بنفسه والغرور ونحو ذلك، سواء كانت هذه المعاني أعمالاً صالحة أو عبادة أو فعل حسنات أو قوة أو علماً أو سلطاناً أو مالاً أو كثرة اتباع ونحو ذلك، فإذا شاهد القدر عند فعله الحسنات، أو عند حصول شيء مما ذكرنا في يده، وعلم أن ذلك كله من عند الله وحده وما حصل على يديه هو محض فضل الله عليه، زال منه العجب والكبر والغرور والمنة على الله وعلى الناس، وبالتالي تجره هذه المشاهدة وما يترتب عليها إلى حمد الله وشكره وهكذا يفعل المؤمنون. قال تعالى:"وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللهُ" (الأعراف: 43) ، وهداية الله للعبد تتضمن الأعمال الصالحة التي يعلمها، والعلم بالحقائق الدينية والعمل بها ونحو ذلك .

كما أن مشاهدة القدر عند فعل الحسنات تفيد المسلم من ناحية أخرى هي استدامة افتقاره إلى الله وتصرفه بهذه الكيفية وتثبته الدائم برحمة الله وطلب عفوه وعدم الالتفاف إلى عمله، واعتقاده الجازم بأن فوزه في الآخرة إنما يكون بمحض فضل الله ورحمته لا بعمله، لأن عمله الطيب إنما هو محض فضل الله فلا يستحق به الجنة وإنما يستحقها بفضل آخر من الله تعالى وبهذا جاء في الحديث الشريف: لن يدخل أحدكم الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل[1] .

(1) القضاء والقدر للبيهقي ص 33، البخاري (8/ 141) ، مسلم (8/ 139) .



لكن قد يقول بعض الناس قولكم منقوض بقوله تعالى:"تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ" (الأعراف: 43) ، فدخول الجنة إنما يكون بالعمل فكيف تنفونه؟ أو تقللون من شأنه؟

والجواب أن الآية الكريمة دلت على أن العمل سبب لدخول الجنة، فالباء في قوله تعالى "بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ" هي باء السببية ونحن لا ننكر الأسباب، ولا كون العمل الصالح سبباً للجنة، الذي تتكلم فيه وننفيه أن يكون العمل عوضاً وثمناً مكافئاً لدخول الجنة، وهذا ما نفاه الحديث الشريف، فالباء في قوله صلى الله عليه وسلم: لن يدخل أحدكم الجنة بعمله: هي باء المعاوضة والثمنية، كما في قول القائل اشتريت هذا القلم بدرهم، فالعمل ليس عوضاً ولا ثمناً لدخل الجنة، ولا يصلح أبداً أن يكون عوضاً لها.

ولتقريب هذا المعنى إلى الأذهان نقول أن الإنسان لو عبد ربه عمره كله وأتى بالصالحات فأية نسبة بين ما قدم من عمل في عمره المحدود وبين نعيم الجنة الدائم الممدود؟ أية نسبة بين عمل في زمن يتناهى، هو عمر الإنسان، وبين نعيم في زمن لا يتناهى هو نعيم الجنة؟ فلابد إذن من فضل الله ورحمته ليظفر المؤمن بالجنة، وهذا المعنى لا يمكن تحصيله وانصباغ النفس به إلا بالمشاهدة الدائمة للقدر عند فعل الخير والحسنات .

وفائدة أخرى لمشاهدة القدر عند فعل الحسنات هي أن المسلم إذا فعل خيراً لغيره وهذا من الحسنات، قد تتحرك فيه نوازع المنة على الغير وحب الاستعلاء عليه والاستشراف إلى طلب العوض منه، فهذه النوازع تموت إذا شاهد القدر وهو يفعل الخير لغيره لأنه بهذه المشاهدة يعلم أنه واسطة فقط لإيصال ما قدره الله من خير لذلك الغير، فلا داعي إذن لأنه يَمُنّ هو على هذا الغير أن يستعلي عليه أو يتطلع إلى العوض منه.

أرأيت لو أن سيداً أرسل خادمه بهدية إلى شخص أيكون من حق الخادم أن يمن على المهدي إليه أو يستعلي عليه بهذه الهدية وهو محض واسطة لإيصالها إليه؟

وإذا كـان صـاحب الإيمـان بالقـدر لا يمـن ولا يستعلي علـى مـن فعـل لـه خـيراً،فمن باب أولى أن لا يكـون كـذلك إذا لم يفعـل لـه شـيئاً، وبهـذا المسـلك الحميـد مـن صـاحب الإيمـان بالقـدر، أي يفعلـه الخـير للناس دون منة أو استعلاء عليهم أو طلب العوض منهم يكون من الـذين قـال الله فـيهم "إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُورًا" (الإنسان: 9) .

16. الاستغناء بالخالق عن الخلق:

ومـن ثمـرات الإيمـان بالقـدر الاسـتغناء بالخـالق عـن المخلـوق والحـرص علـى رضـى الله وحـده ورجـاؤه والخـوف منـه، والتوكـل عليـه والاسـتعانة بـه وتفـويض الأمـر إليـه والانكسـار بـين يديـه وتبليـغ رسـالات الله بـدون وجـل ولا تـردد ولا خشـية مـن أحـد علـى وجـه الأرض "الَّـذِينَ يُبَلِّغُـونَ رِسَـالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَـوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا" (الأحزاب: 39) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **من أرضى الناس بسخط الله، وكله الله إلى الناس، ومن أسخط الناس برضا الله كفاه الله مؤنة الناس**" [1] .

فالسعيد الذي لا يعنيه إلا رضا الله، ولا يعنيه الشر إطلاقاً، لا يلتفت إلى الخلق، لأنه على يقين أن رزقه بيد الخالق، لا بيد الخلق وأن قلوب الخلق لا تقبل إليه بالحب والبغض إلا بتقدير الخالق، فهذا لا يعلق قلبه بالمخلوقين لا بثنائهم، لا ببغضهم، ولا بذمتهم، ولا بحمدهم، بل يعلق قلبه بربهم جل جلاله، فلا يعنيه إلا أن يقول: قال الله: قال رسوله بما يرضي الله سبحانه لا بما يُحصّلُ به رضا الناس[2] ، فمن قال لله لا يخشى في الله لومة لائم، بالحكمة البالغة، والموعظة الحسنة، أسعده الله في الدنيا والآخرة[3] .

17. الاعتراف بالذنب والمسارعة للمغفرة والتوبة:

وصـاحب الإيمـان الصـحيح بالقـدر يشـاهد نفسـه عنـد فعـل السـيئات وارتكـاب المنهيـات ولا يحـتج بالقدر على عصيانه لأنه لا حجة لأحد فيه، كما بيّنا، وإنما يرجع إلى نفسه ليوبخها من كبوتها حالاً كما ينهض من الوحل ، إذا وقع فيه ويعقد العزم على عدم العودة إلى الذنب ، ويتوجه إلى الله بالاعتراف

(1) السلسلة الصحيحة، للألباني رقم 2311.

(2) القضاء والقدر، محمد حسان ص 225.

(3) المصدر نفسه ص 225.

بالذنب بانكسار قلب، وبهذا كله علّمنا القرآن وضرب لنا الأمثال وقص علينا موقف انبيائه الكرام في مثل هذه الأحوال، قال تعالى عن نبيه آدم عليه السلام :"رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ" (الأعراف: 23) ، وقال تعالى عن موسى عليه السلام :"رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي" (القصص: 16) .

وفي الحديث الشريف: **سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فأغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**[1] ، أو كما قال صلى الله عليه وسلم.

أما من يشاهد القدر عند فعله السيئات محتجاً به دافعاً المسئولية عن نفسه فمثله مثل إبليس حيث قال كما أخبرنا الله عنه :"قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ" (الحجر: 39) . وكان عاقبته –كما هو معروف – الطرد من رحمة الله[2] .

هذه بعض ثمار الإيمان بالقدر وغيرها كثير، منها :

- **أنه أداة عبادة لله عز وجل**، فالقدر مما تعبدنا الله سبحانه بالإيمان به، وقوة الإيمان، فالذي يؤمن بالقدر يقوى إيمانه، فلا يتخلى عنه لا يتزعزع أو يتضعضع مهما ناله في ذلك السبيل.
- **الهداية** ، كما قال تعالى:" وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ" (التغابن: 11)
- **الكرم** ، فالذي يؤمن بالقدر، وأن الفقر والغنى بيد الله وأنه لا يفتقر إلا إذا قدر الله له ذلك، فإنه ينفق ولا يبالي.

---

(1) صحيح البخاري رقم 6306.

(2) القضاء والقدر للبيهقي ص 35.



- **إحسان الظن بالله قوة الرجاء**، فالمؤمن بالقدر حسن الظن بالله، قوي الرجاء به في كل أحواله.

- **عدم الاعتماد على الكهان والمنجمين المشعوذين والتمسح بأتربة القبور**، ودعاء غير الله، وصرف شيء من أنواع العبادة لغير الله، لأنها لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضرّاً.

- **السلامة من الاعتراض على أحكام الله الشرعية، وأقداره الكونية والتسليم لله في ذلك كله.**

- **عدم اليأس من انتصار الحق** : فالمؤمن بالقدر يعلم علم اليقين أن العاقبة للمتقين وإن قدرة الله في ذلك نافذ لا محالة، فلا يدب اليأس إلى قلبه، لا يعرف إليه طريقاً مهما احلولكت ظلمة الباطل.

- **علو الهمة** ، وعدم الرضا بالدون، وعدم الرضا بالواقع الأليم[1] .

"وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين"

(1) الوسطية في القرآن الكريم ص 339. 343.



الخاتمة

وبعد: فهذا ما يسره الله لي من الحديث عن الإيمان بالقدر في هذا الكتاب، وقد سميته "الإيمان بالقدر"، فما كان فيه من صواب فهو محض فضل الله عليَّ، فله الحمد، والمنة، ما كان فيه من خطأ، فاستغفر الله تعالى، وأتوب إليه، والله ورسوله بريء منه، وحسبي أني كنت حريصاً ألا أقع في الخطأ، وعسى ألا أحرم من الأجر.

أدعو الله أن ينفع بهذا الكتاب بني الإنسان أينما وجد، ويكون سبباً في زيادة إيمانه، وهدايته أو تعليمه أو تذكيره، وأن يذكرني من يقرؤه من إخواني المسلمين في دعائه، فإن دعوة الأخ لأخيه بظهر الغيب مستجابة إن شاء الله تعالى.

وأختم هذا الكتاب بقول الله تعالى: " رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ" (الحشر : 10) .

وبقول الشاعر أبي العتاهية، وهو آخر شعر قاله :

إلهـــــي لا تعـــــذبني فــــإني ... مقـــر بالـــذي قـــد كـــان منـــي

ومـــا لـــي حيلـــة إلا رجـــائي ... وعفـــوك إن عفـــوت وحســـن ظنـــي

فكـــم مـــن زلـــة لـــي فـــي البرايـــا ... وأنـــت علـــيَّ ذو فضـــل ومـــنّ

إذا فكـــرت فـــي نـــدمي عليهـــا ... عضضـــت أنـــاملي وقرعـــت ســـني

يظـــن النـــاس بـــي خيـــراً وأنـــي ... لشـــر النـــاس إن لـــم تعـــف عنـــي

((سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت استغفرك وأتوب إليك))



فهرس الموضوعات



الفصل الثاني

مراتب القدر

الفصل الثالث

التقادير الخمس أنواع الإرادة




سلسلة أركان الإيمان ٦
الإيمان بالقدر

الفصل الخامس

الهداية والإضلال


سلسلة أركان الإيمان ٦
الإيمان بالقدر


د. علي محمد محمد الصلابي


سلسلة أركان الإيمان ٦
الإيمان بالقدر


د. علي محمد محمد الصلابي

الفصل السادس

سنة الله في الأخذ بالأسباب


سلسلة أركان الإيمان ٦
الإيمان بالقدر


د. علي محمد محمد الصَّلاَّبي

الفصل السابع

العدل الإلهي وسنة الله في الجزاء بجنس العمل

الفصل الثامن

مسائل في القدر


سلسلة أركان الإيمان ٦
الإيمان بالقدر


د. علي محمد محمد الصلابي



كتب صدرت للمؤلف

1 . السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث.

2 . سيرة الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه: شخصيته وعصره.

3 . سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.

4 . سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: شخصيته و عصره.

5 . سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: شخصيته و عصره.

6 . سيرة أمير المؤمنين الحسن بن علي بن أبي طالب. شخصيته و عصره.

7 . الدولة العثمانية: عوامل النهوض والسقوط.

8 . فقه النصر و التمكين في القرآن الكريم.

9 . تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا.

10 . تاريخ دولتي المرابطين و الموحدين في الشمال الإفريقي.

11 . عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين.

12. الوسطية في القرآن الكريم.

13. الدولة الأموية، عوامل الإزدهار و تداعيات الإنهيار.

14. معاوية بن أبي سفيان، شخصيته و عصره.

15. عمر بن عبد العزيز، شخصيته وعصره.

16. خلافة عبد الله بن الزبير.

17. عصر الدولة الزنكية.

18. عماد الدين زنكي.



19. نور الدين زنكي.

20. دولة السلاجقة.

21. الإمام الغزالي وجهوده في الإصلاح والتجديد.

22. الشيخ عبد القادر الجيلاني.

23. الشيخ عمر المختار.

24. عبد الملك بن مروان بنوه.

25. فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة.

26. حقيقة الخلاف بين الصحابة.

27. وسطية القرآن في العقائد.

28. فتنة مقتل عثمان.

29. السلطان عبد الحميد الثاني.

30. دولة المرابطين.

31. دولة الموحدين.

32. عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج.

33. الدولة الفاطمية.

34. حركة الفتح الإسلامي في الشمال الافريقي.

35. صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير البيت المقدس.

36ـ إستراتيجية شاملة لمناصرة الرسول صلى الله عليه وسلم دروس مستفادة من الحروب الصليبية.

37. الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء.



38. الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة) والأيوبيون بعد صلاح الدين.

39. المشروع المغولي عوامل الإنتشار وتداعيات الإنكسار.

40. سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك.

41. الإيمان بالله جل جلاله.

42. الإيمان باليوم الآخر.

43. الشورى في الإسلام.

44. السلطان محمد الفاتح.

45. الإيمان بالقدر.